التّوضيحات الجليّة لمتن العقيدة الطّحاويّة

تأليف

د. مُحَمَّد هِشَام طَاهِرِي

مُقَدِّمَةٌ

الحمد لله ربّ العالمين، والصّلاة والسّلام على المبعوث رحمةً للعالمين، نبيِّنا محمّدٍ وعلى آله وصحبه أجمعين.

أما بعد:

فهذا شرح لـ: **"متن العقيدة الطّحاويّة"** لمؤلّفه الإمام أبي جعفر أحمد بن محمّد بن سلامة بن سلمة بن عبد الملك، الأزديّ الحجريّ المصريّ الطّحاويّ الحنفيّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ، المتوفَّى سنة (٣٢١) من الهجرة النبويّة، وهو مِن أهمّ المتون العلميّة لطالب العلم؛ فأحببت أن أسَهِّلَ على كلّ طالبٍ مهتمٍّ بعلم العقيدة، وذلك بشرح هذا المتن المبارَك شرحًا سَهْلًا سَلِسًا غير مُخِلٍّ، ولا طويلٍ مُمِلٍّ.

وصِرْتُ فيه على ما يأتي:

١- بيان معاني كلمات المتن، وما تدلّ عليه، وركّزت فيه على المعنى اللّغويّ، والاشتقاقيّ، والتّصريفيّ.

٢- ذكرتُ ما يتعلّق بمدلولات العبارات، والمسائل الّتي تطرّق لها الإمام بمباني الكلمات؛ وسواء كان ذلك بالمطابقة، أو التّضمن، أو الالتزام.

٣- ذِكْرُ الأدلّة الدّالّة على ما ذكره المصنّف من المسائل، وما سأذكره من المسائل، بحيث لا يزيد في كلّ مسألةٍ عن ثلاثةِ أدلّة، إلا بعض المسائل التي قد تكون الحاجة ماسة إلى توافر الأدلة فيها؛ فإني سردت أكثر من ذلك، وهي قليلة.

٤- ذكر التّنويعات والتّفريعات والأقسام الّتي لا بدَّ مِن ذِكْرِها.

٥- قد أُورِدَ سُؤَالًا يكونُ تَوضيحًا لِبَعضِ ما قد يتوهَّمه القرَّاء، أو طلّاب العلم، وأجيب عنه بما تيسّر من الأجوبة.

٦- أذكر مقالاتِ أهل البدع مِن حيث الإجمال، ولا أطيل في القيل والقال، ولا في سرد المقال، والردّ على شبهاتهم الّتي قد تلتبس على بعض العوام والجهّال.

٧- جعلتُ الكِتَاب على فقراتٍ، حتّى يكونُ أسهل في متناول اليد، وأيسر في طريقة القراءة والتّدريس والمدارسة.

٨- ذكرتُ مراد المصنف رَحِمَهُ ٱللَّهُ بعد فقرة من كلامه، وخلاصةً لكلامه بعد كلّ شرحٍ.

٩- جعلتُ نصّ الإمام الطّحاويّ بخطٍّ ثخينٍ بين قوسين **"هكذا"** وباللّون الأحمر.

١٠- ذكرتُ بعدَ الآية موضعها مِن السّورة ورقمها.

١١- ما أورده مِن حديثٍ جعلتُ تخريجه تبعًا مختصرًا بخطٍّ صغيرٍ مع الحكم على الحديث إنْ كان في غير الصَّحيحَين، وأمّا الآثار فلا أتعرّض للحكم عليها؛ لأنَّها تأتي تبعًا لا أصالةً، واعتضادًا لا اعتمادًا.

١٢- ما أنقله من النّصوص أضعه بين القوسين (هكذا)، ثمّ أحيلُ إلى الكتاب والمصدر دون الصّفحات والأجزاء.

١٣- اعتمدتُ على النّسخة الّتي حقّقتها، وجعلتها الأصل في المتن.

١٤- ما شرحته من الكلمات والعبارات في أوَّلِ موضعٍ لا أعيدُ شرحها، أو التعليق عليها لو وردت مرة أخرى، سواءُ كان حرفًا، أو فِعلًا، أو اسمًا، أو جملةً.

والله تعالى أسأل أن ينفع به المبتدئين، وأن يجعله مُذَكِّرًا للمنتهين، وآن أوان الشروع في المقصود، وعلى الله تعالى وحده الاعتماد ومنه التّوفيق والتّسديد.

[المقدّمة]

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

وَبِهِ أَثِقُ، وَبِهِ نَسْتَعِينُ، وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ.

الْـحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ، وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ، وَلَا عُدْوَانَ إِلَّا عَلَى الظَّالِمِينَ، وَصَلَّى اللهُ تَعَالَى عَلَى نَبِيِّهِ سَيِّدِنَا مُـحَمَّدٍ، سَيِّدِ الْمُرْسَلِينَ، خَاتَمِ النَّبِيِّينَ، وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ الطَّيِّبِينَ الطَّاهِرِينَ أَجْمَعِينَ، وَسَلَّمَ تَسْلِيمًا كَثِيرًا إِلَى يَوْمِ الدِّينِ:

هَذَا ذِكْرُ بَيَانِ اعْتِقَادِ أَهْلِ السُّنَّةِ وَالْـجَمَاعَةِ، عَلَى مَذْهَبِ فُقَهَاءِ الْمِلَّةِ؛ الْإِمَامِ أَبِي حَنِيفَةَ النُّعْمَانِ بْنِ ثَابِتٍ الْكُوفِيِّ، وَأَبِي يُوسُفَ يَعْقُوبَ بْنِ إِبْرَاهِيمَ الْـحُبُلِّيِّ الْأَنْصَارِيِّ، وَأَبِي عَبْدِ اللهِ مُـحَمَّدِ بْنِ الْـحَسَنِ الشَّيْبَانِيِّ؛ رَحِمَهُمُ اللهُ تَعَالَى، وَرَضِيَ عَنْهُمْ أَجْمَعِينَ، وَمَا يَعْتَقِدُونَ فِي أُصُولِ الدِّينِ، وَمَا يَدِينُونَ بِهِ لِـرَبِّ الْعَالَمِينَ.

﴿ الشرح ﴾

هذا افتتاح من المصنف رَحِمَهُ ٱللَّهُ عقيدته بأنها عقيدة سلفية، فيها يتبع من سبقه من العلماء، والأئمة الفقهاء.

فابتدأ المصنّف رَحِمَهُ ٱللَّهُ بالبسملة؛ لأن كتابه العقديّ هذا في صورة رسالةٍ لعموم المسلمين، ولطلبة العلم على وجه الخصوصِ، ويسنّ في الرسائل والكتب البداءة بالبسملة، اقتداءً بما جاء في كتابِ ربنا تعالى، وبما جاء في سنة

الأنبياء عَلَيْهِمُ السَّلَامُ؛ فهذا سليمانُ عَلَيْهِ السَّلَامُ كتب إلى ملِكَةِ سبأ، كما أخبر الله تعالى عنه: ﴿إِنَّهُۥ مِن سُلَيْمَٰنَ وَإِنَّهُۥ بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٣٠﴾ أَلَّا تَعْلُوا۟ عَلَىَّ وَأْتُونِى مُسْلِمِينَ﴾ [سورة النمل، من الآية: ٣٠-٣١].

وكذلك نبيُّنا محمّدٌ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كان يبدأ رسائله بالبسملة؛ كما في رسالته إلى قيصر عظيم الروم، وفيه: "فَإِذَا فِيهِ: "بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ، مِنْ مُحَمَّدٍ عَبْدِ اللهِ وَرَسُولِهِ، إِلَى هِرَقْلَ عَظِيمِ الرُّومِ، سَلاَمٌ عَلَى مَنِ اتَّبَعَ الهُدَى، أَمَّا بَعْدُ" [رواه البخاري في صحيحه من حديث ابن عباس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا].

وإذا تقرّر أنّ الرّسائل العلميّة والودِّية ينبغي أن تُكتب بداءة بالبسملة؛ فها هنا ينبغي التنبه إلى أنّ للبسملة حسب ما وقفتُ عليه موضعين:

الأول: عند قراءة القرآن، سواءٌ من أول السورة، أو عند البداءة من أي موضعٍ، وذلك بعد الاستعاذة.

الثاني: عند كتابة الرسائل.

وما عدا هذين الموضعين فليس فيها إلّا التّسمية، وهي قولنا: ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ﴾، سواءٌ عند الخروجِ، أو الدخولِ، أو النومِ، أو الأكل والشرب، أو اللبس، أو الذّكر؛ وغير ذلك من المواضع الّتي بلغت أكثر من (٣٠) ثلاثين موضعًا.

وإنّما تكون البداءة بالبسملة في أوّل الرّسائل لطلب البركة، بذكرِ اسم الله تعالى؛ فإن متعلّق البسملة محذوفٌ، وقد قيل: إنّه مقدَّرٌ في أوّل الكلام، وقيل؛ بل هو مقدَّرٌ في آخر البسملة، وقيل: إنّ المقدّرَ فعلٌ، وقيل: إن المقدّر اسمٌ.

ومَن تتبّع القرآنَ والسُّنَّة وجد أنّ الأوْلى أن يقال: إن المقدّر إن كان في الأوّل فهو فعلٌ؛ كما في قوله تعالى: ﴿فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ﴾ [سورة الواقعة، من الآية:٧٤]، وقوله تعالى: ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ﴾ [سورة العلق، من الآية:١]، وإن كان اسمًا فهو في الآخرِ؛ كما في قوله تعالى: ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ مَجْرٜىٰهَا وَمُرْسَىٰهَآ﴾ [سورة هود، من الآية:٤١].

والعلماءُ رحمهم الله تعالى يحذفون المقدَّر عند كتابة البسملة اقتداءً بما في كتاب الله تعالى في البسملة، وذلك لأنه يعمّ؛ فإنّ من القواعد المتقرّرة في علم التفسير أن المتعلّق إذا حذف عمَّ؛ وإذا عمّ صح أي تقديرٍ يقدّر؛ فربما قدّر المملي: أملي باسم الله...، وربما قدّر الكاتب: أكتب باسم الله...، وربما قدر القارئ: أقرأ باسم الله...، ولأجل هذا حسُن حذف المقدّر في البسملة بلاغيًّا.

وأجمعُ ما قيل في المقدَّر أنه: أستعين، أو استعانتي؛ فإنه يصح لكل فعلٍ، ولكل قولٍ، ولكل حالٍ، وهو المقصود الأساس من البسملة.

ونحنُ نستعين ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ في شرحنا لهذا الكتاب، وقراءتكم له، ونفعِ الله تعالى به.

والباء الجارة تأتي لمعانٍ؛ للإلصاقِ؛ كقوله تعالى: ﴿وَٱمْسَحُوا۟ بِرُءُوسِكُمْ﴾ [سورة المائدة، من الآية:٦]، والاستعانة، نحوُ: كتبت بالقلم، والقسَم مثلُ: ﴿فَيُقْسِمَانِ بِٱللَّهِ لَشَهَٰدَتُنَآ أَحَقُّ مِن شَهَٰدَتِهِمَا﴾ [سورة المائدة، من الآية:١٠٧]، والسَّبب؛ كقوله تعالى: ﴿فَبِظُلْمٍ مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَٰتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ﴾ [سورة النساء، من الآية:١٦٠]،

والحال أو المصاحبة، نحوُ: جاءَ القرآن بآياته الواضحات، والظَّرفية، مثلُ قوله تعالى: ﴿تَبَوَّءَا لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بُيُوتًا﴾[سورة يونس، من الآية:٨٧]، ولها معانٍ أُخَر نحو: النّقل، وزائدة للتوكيد، والبدل، والمقابلة، والمجاوزة، والاستعلاء، أو التعليل.

فالباء في البسملة للاستعانة، أي أكتب أو أقرأ مستعينًا وطالبًا العون بذكر اسم الله تعالى متيمِّنًا ومتبرِّكًا، وعلى هذا فموضعه مع مجروره في محل نصب مفعولًا للفعل المقدّر؛ كما هو قول الكوفيّين، وأمّا على قول البصريّين فموضعه الرّفعُ على الخبرية.

وحذفت الألف مع الباء في "**بِسْم**" في خطّ البسملة تخفيفًا لكثرة الاستعمالِ، وأثبتت الألف في غيرها من المواضع بلا خلافٍ؛ كما في قوله تعالى: ﴿فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ﴾[سورة الحاقة، من الآية:٥٢]، ونحو قوله تعالى: ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ﴾[سورة العلق، من الآية:١].

و "**اسْم**" بكسر همزة الوصلِ وضمِّها إن لم تسبق بحرفٍ، أصله مِن (سُمُوْ) عند البصريين، وهو الارتفاع والعلوُّ؛ لأن المسمَّى به يرتفع، ويعلو، ويتمايز، أو أصله مِن (وَسْم) عند الكوفيين، وهو العلامة؛ لأنه دلالة على المسمَّى.

و "**اسم**" في حقِّ الله تعالى دالٌّ على الأمرين؛ فالله تعالى عليٌّ بأسمائه، وهذه الأسماء دالّة عليه، وبها نناديه ونناجيه، وبها نتوسل إليه، ونستعين بذكرها لديه.

وهو في **الاصطلاح**: لفظٌ دال على شيءٍ معيّنٍ غيرَ مقترنٍ بزمانٍ، ومدلوله هو المسمَّى.

وقد اختلف المتكلمون في الاسم هل هو المسمّى أو غيرُه، والذي دلّ عليه الكتاب والسنة أن هذا لم يأتِ فيه شيءٌ؛ بل هو من المسائل المحدَثة، والواجب إثبات ما جاء في الكتاب والسنة، لا سيّما ما يتعلق بألفاظ الاعتقاد، وما هو خاصٌّ برب الأرباب سُبۡحَانَهُۥوَتَعَالَىٰ؛ فنقول كما قال ربنا تَبَارَكَوَتَعَالَىٰ، وكما قال نبينا محمّدٌ صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ، وهو المنصوصُ عليه في النّصوص من أن الاسم للمسمَّى، سواءٌ على وجه التخصيص والتّمايز كما في حقّ الله تعالى، أو على وجه الدلالة اللفظية كما في الأعلام الجامدة.

ومما يدلّ على أنّ الاسم للمسمّى قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلۡأَسۡمَآءُ ٱلۡحُسۡنَىٰ﴾ [سورة الأعراف، من الآية:١٨٠]، وقوله تعالى: ﴿لَهُ ٱلۡأَسۡمَآءُ ٱلۡحُسۡنَىٰ﴾ [سورة طه، من الآية:٨]، وقول النّبيّ صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ: "إِنَّ لِلَّهِ تِسْعَةً وَتِسْعِينَ اسْمًا مِائَةً إِلَّا وَاحِدًا، مَنْ أَحْصَاهَا دَخَلَ الجنّة" [رواه البخاري من حديث أبي هريرة رَضِيَٱللَّهُعَنۡهُ].

و**"الله"** عَلَمٌ لا يطلق إلا على المعبود بحق، وهو أعرفُ المعارف الدّالة على الله تعالى، وأعظمُ اسمٍ مِن أسمائه، تبارك اسمه، وتعالى جَدُّه؛ بل هو الاسم الأعظم على الصحيح من أقوال أهل العلم.

وهو على الصحيح مشتقٌّ من أَلِه، يَأْلَهُ، إِلَاهَةً، فهو إلٰهٌ بمعنى معبودٌ، ويجمع أصلُ مادته على آلِـهَةٍ.

و **"الْ"** في **"اسم الله"** للغلبةِ؛ لأن إِلٰه يطلق على المعبود بحقٍّ وباطلٍ، وبإضافة اللام صارَ علَمًا على المعبود بالحق فحسب.

ووزنه الصّرفيّ على الرَّاجح أنّه من "**إِلَـٰه**" على وزنِ فِعَالٌ؛ وبحذف همزته عَالٌ، ثم أدخلت عليه "الْ"، فصار "**الْإِلٰه**"؛ وحُذِفت همزته، ثم أدخلت اللّامُ في اللّام فصار النّطق على العربية الفصيحة "**الله**"، وهو بالسريانية "**لَاهَا**".

وحذفتِ الألفُ الأخيرةُ في الكتابة من اسمِ "**اللهِ**" تعالى، وتنطقُ؛ لئلّا يُشكل بخطّ اسم الفاعل من لها يلهو فهو اللّاهِ؛ ولأن الأعلام تنطق وتكتب كما تُسمعُ؛ لأنها ليست قياسية سواء كانت مرتجلة أو مشتقة.

و "**الرّحمٰن**" اسمٌ من الأسماء الحسنى، على صيغة وزن المبالغة (فَعْلَان) مِن الرحمة، فهو اسمٌ دالٌّ على صفة الرَّحْمَة، ومعناه: العظيم والواسعُ الرّحمة، من حيث الامتلاءِ والغلبة، ويدل على الرّحمة الذّاتية، فهو موصوفٌ بالرحمة ذاتًا، ومن هنا فإنه لا يتعدّى بنفسه؛ فتقول: رحمنٌ بعباده؛ فتعديه بالباء.

وهذا الاسم لم يستعمل في غيرِ الله تعالى؛ فهو خاصٌّ به سبحانه، وهو رحمٰن الدّنيا والآخرة، ووصفُ غيرِ الله تعالى به فهو من عادات الكذابين والملحدين.

و "**الرَّحيم**" اسمٌ من الأسماء الحسنى، على صيغة وزن المبالغة (فعيل)، فهو اسم يدلّ على صفة الرّحمة، ومعناه: الواصلُ الرّحمةِ إلى عباده، من حيث التكرار والوقوع في محالّها؛ فرحمته تصل إلى عباده ليلًا ونهارًا، سرًّا وجهارًا، فهي صفة فعلية، و "**رحيمٌ**" بمعنى اسمِ الفاعلِ، أيْ راحمٌ، وهو يتعدى بنفسه؛ فتقولُ: رحيمُ العبادِ، والله راحمُ العباد.

وذِكرُ أحدِ الاسمين متعلّقًا بشيءٍ فهو من باب الغلبة لا من باب التخصيص؛

فتقول: الله رحمنُ الدّنيا، ورحيم الآخرة، أو العكسِ. وكذا: رحمنٌ بالعباد، رحيمٌ بالمؤمنين. ومثله: رحمنٌ بالنعم العامة؛ كالأمطار، والأرزاق، والحواسّ، ورحيمٌ بالنّعم الخاصة؛ كالهداية، والعناية. ونحوه: الرّحمنُ أمدح، والرّحيم ألطفُ. وكذلك: الرحمن المنعم بما لا يتصور جنسه من العباد، والرحيم المنعم بما يتصور جنسه من العبادِ.

وبالجمع بين "**الرّحمن والرحيم**" يستفاد أنّ الله تعالى موصوف بالرّحمة في ذاته، وفي أفعاله؛ فكلّ أموره وأفعاله، وشرعه وأقواله، مبنيٌّ على رحمته تَبَارَكَوَتَعَالَىٰ، ولما كان موصوفًا بالرحمة ذاتًا ووصفًا ناسب أن يستعان به، وأن يطلب منه العون.

وهل هما على البدلية، أو على عطف البيان؛ فهذان قولانِ من أقوال النحاة المشهورة.

والصواب أنّ مجيئهما ليس على البدليّة؛ لأنّ كلّا دالٌّ على معنى لا يدلُّ عليه الاسم الآخر بالمطابقة، ألا ترى أن اسم "**الله**" دالٌّ على كونه المعبود المألوه المحبوب، و"**الرحمن**" دال على كونه الموصوف بالرحمة ذاتًا، و"**الرحيم**" على كونه الموصوف بالرحمة فعلًا؛ فحينها لا داعي للقول بالبدلية، لا سيما وأن التغاير مقصود من حيث الوصف، وهذا ما لمح إليه بعضُ العلماء مِن أن أسماء الله تعالى أعلامٌ من حيث دلالتها على الذّات العلية، وأوصافٌ من حيث دلالتها على المعاني الحسنى الجليّة؛ فهذا كله يؤكد أن جهة المبالغة في المعاني

مختلفة، كما أن ألفاظها في المباني متنوّعة؛ فلذلك ناسب الجمعُ بينها.

وإذا تقرّر أن مجيء هذه الأسماء الثلاثة العلية ليس للبدليّة؛ فإنّه كذلك ليس لعطف البيان؛ لأنّ عطف البيان إنما يكون عند افتقار الاسم الأوّل، وإذا كان كلّ اسمٍ مستقلًّا بمعنى فأي افتقار يتصورّ ليُبيّن!؟ ولهذا تجد أنّ الأسماءُ تضافُ إلى اسم الله تعالى؛ فتقول: الرحمن اسمٌ من أسماء الله تعالى، والرحيم اسمٌ من أسماء الله تعالى، ولا تقول: الله اسمٌ من أسماء الرحمن أو الرحيم، وهذا يدل على أنّ من قال بعطف البيان فقوله غيرُ صحيحٍ.

فإن قيل: الأصلُ في الكلام التّرقّي فلِمَ بدأ بالاسم الأعظم الأخصّ **"الله"** ثم بالاسم العظيم الخاص **"الرحمن"**!؟

فالجواب: **حتّى** لا يتصور تبعية اسم **"الله"** لغيره من الأسماء بدأ به، وأيضًا حتّى يحصل للقلب التألُّه والتعبّد والحبّ، ثم يبدأ إلى ما يرغِّبه فناسب ذكرُ اسم "الرّحمن"؛ فإليه الإقبال، وعليه الحساب، وحتّى يكون الفعلُ من العبدِ أقوى ناسب ذكرَ اسم **"الرحيم"** الدال على رحمته على عباده؛ فكان الترتيب المراعى هنا ليس مجرد الترقي؛ بل مخاطبة القلوبِ لتتعبّد، وترغب وتقبل، ومن هنا ناسب ذكرُ الحمدِ بعد البسملة.

و **"به"** أي بالله تعالى، والهاءُ ضميرٌ يطلق على كلّ أحدٍ باشتراكٍ، والسّياق يحدد معناه، ويبين المراد به، ولما كان الكلام عن التوحيدِ؛ فإن المقصود قطعا هو الله تعالى على التّسديد، ولهذا قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **"وبه أَثِقُ"**.

والواو في "وَبِهِ" للعطفِ، وتأتي لمعانٍ منها: الحالُ، والاستئنافُ، والمعنى: إني استعنتُ به، وتبركت بذكرِ اسمه، وذلك لأني بالله أثقُ.

و "أَثِقُ" فِعْلٌ مضارعٌ مِن (وَثِقَ) بالشّيء جعله محلّ ثقةٍ، وموضع أمانةٍ، وتيقّن بكفايته، وإحكامه، وصار معتمِدًا عليه، متقويًّا به، فهو واثِقٌ بالله تعالى، وبمعونته، والاعتماد عليه، فهو وحده الموثوق به على كلّ حال، وزمانٍ، ومكانٍ.

وهذه الجملة "وبه أثق" بيان متعلّقِ البسملة، وأنه إنما بسمل طلبًا للعون من الله تعالى الّذي بذكر اسمه تحل البركات، وبالتوكل عليه تنحلّ المعضلات.

وزاد في تفسير المتعلِّق؛ فقال: "وبه نستعين"، أي وبالله تعالى "نستعين"، وهو فعلٌ مضارعٌ من (العَوْنِ)، والنون للمضارعة، والسين والتاء للاستقبال والطلب، أي ونطلب فيما نستقبل العونَ من الله تعالى، وهو المددُ والقوة والحولُ، وهذا أحدُ شقَّي العبودية، إذ مبناها على العبادة القولية والفعلية، واعتماد القلب عمليًّا بالاستعانة؛ كما قال تعالى: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾[سورة الفاتحة، من الآية:٥].

فهذه جملة تفسيرية، ثم أكد معنى الوثوق والاستعانة وهما متعلّقا البسملة بصورة الحصر؛ فقال: ﴿وَمَا تَوْفِيقِىٓ إِلَّا بِٱللَّهِۚ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾[سورة هود، من الآية:٨٨]، وهو مِنْ قولِ شعيبٍ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، وقد استخدمه المصنّف رَحِمَهُ ٱللَّهُ على سبيل الاقتباس، تأكيدًا لمعنى الاستعانة في البسملة، والوثوق، وأنه لم يصرف

ذلك إلا إلى الله تعالى؛ فهو يريد أن يبين بأن ما رزَقه من تأليفٍ وصحة معتقدٍ فذلك بمعونة الله تعالى؛ فتكون أقواله مسدَّدة، موافقة لرضا الله تعالى؛ فهذه جملة دعائية بمعنى الطلب.

و **"ما"** نافية بمعنى ليسَ، أي لا يكون **"توفيقي إلّا بالله"**، وهذا نفي بعده إلّا فأفاد الحصرَ بأسلوبٍ من أساليبه، والمعنى لا يكون توفيقٌ إلا من عند الله تعالى.

و **"توفيقي"** مصدرٌ مِن **(وَفَّقَ يُوَفِّق توفيقًا)**، وهو السَّداد، بتَسْهِيل الخير وطرُقِه، وإبعاد الشّرّ وغَلْقِ طرقه، مما ينتج عنه الفلاح والنّجاح؛ فمَن وفّقه الله تعالى فإنه يكون على الصلاح.

و **"إلّا"** حرفُ استثناءٍ، وهو متَّصلٌ، وهو المفيد الحصرَ، ومنقطع لا يفيد الحصرَ، ولكن يكون بمعنى (لكن).

وأكد مدلول هذا الحصر بقوله: **"عليه توكلت"**، وهي جملة خبرية مؤكدة لمعنى الحصرِ، أي فوَّضتُ أمري إليه لا إلى غيره، وهذا مِن أعظم ما يعصم الإنسان من الزّلل، أن يتبرأ من حوله وقوته، ويجعل أمره كله إلى الله تعالى.

و **"على"** حرفُ جرٍّ عند الأكثرين، وتأتي بمعنى الاستعلاءِ، وبمعنى (عَن)، وبمعنى الباء، وبمعنى (في)، وللمصاحبة، وللتعليل، وبمعنى (مِنْ).

و **"توكّلتُ"** كلمتين؛ **الأولى**: "توكَّلَ" فعلٌ ماضٍ، بمعنى استسلم له، وانقاد، واعتمدَ على الله تعالى. **الثانية**: تاءُ المتكلم ضميرٌ مبنيّ في محل رفعِ فاعلٌ، وهو

يعني نفسه.

ثم بعد البسملة، ومتعلّقاتها التّفسيريّة والبيانيّة، ثنّى بالحمدِ؛ فقال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "**الحمدُ لله رب العالمين**"، وهذا أيضًا منه رَحِمَهُ ٱللَّهُ اتباعٌ لما جاء في كتاب الله تعالى من البداءة بالحمدِ كما في أوّل الفاتحة، وفي أول القراءة في الصلاة، وفي كلّ أمرٍ ذي بالٍ ينبغي البداءة فيه بالحمدِ؛ اتباعًا للقرآن الكريم، وهدي النّبيّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في خطبه؛ كما في خطبة الحاجة، وخطبِ الجمعة، وغيرها.

وأمّا حديث "**كُلُّ أَمْرٍ ذِي بَالٍ، لَا يُبْدَأُ فِيهِ بِالْحَمْدِ، أَقْطَعُ**" [رواه ابن ماجه في سننه، والنسائي في عمل اليوم والليلة، وابن حبان في صحيحه، وغيرهم،]؛ فهو حديثٌ ضعيفٌ بجميع طرقه، ويغني عنه ما ذكرتُ من دلالة صريح الكتاب، وصريح السنة العملية في الخطب المنبرية.

و "**الحمد**" معناهُ الثناءُ والعظمةُ على الحميدِ، والكمالُ والمجدُ للمجيد، بذكرِ أوصافه الجميلة، أو الشعور بأفعاله الحميدة، وهو أعمّ من جهة كونه متضمّنًا للشّكر والثناءِ، بخلافِ الثناءِ فإنها أقلّ منه، والشّكر بينهما.

و "**ال**" في الحمدِ بمعنى الاستغراقِ، وبمعنى الاستحقاق، وذلك لأنّ "**الْ**" تأتي لعدّة معانٍ؛ "الْ" للعهد في شخصٍ؛ كجاء الغلام، أو للعهد الجنسيّ، نحوُ: فسقاه الماءَ، ولِلْحضورِ، مثل: دخلتُ فإذا الصلاةُ قد أقيمتْ، ولِلَمْحِ الصّفة، نحوُ: الحارثُ، ولِلْغَلَبَة؛ كالقمرينِ، وموصولة بمعنى (الذي، أو التي)، وزائدة لازمة كالآنَ، وغير لازمة.

وأمّا اللام في "لله" فللمُلْكِ، وللتمليك، وللاستحقاقِ، وللتَّعليل، وبيانه أنّ الحمْدَ بمعنى الكمال في الأفعال، وفي الآثار، وفي المفعولات، كلها مُلْكٌ لله تعالى يحكم فيها بما يشاء، ويفعل الله ما يشاء، وكلّ كائنٍ وموجودٍ فهو للحميد مُلْكًا وتمليكًا بلا نزاعٍ ولا ادّعاء، وكلّ حمدٍ في نفسه فالله تعالى مستحقه على الكمال، وعلّةُ ذلك لأنه المألوه المعبودُ بحقٍّ؛ فله الكمالات المطلقة، والجمالات العظيمة، والجلالات الّتي لا مثيل لها، وهذا في نسفه علّة لكونه محمودًا معبودًا حميدًا مجيدًا.

ولهذا جاءَت الجملة الّتي بعدها مبينة لعلة كون الحمد لله؛ فقال: "**ربّ العالمين**"، وما دام هو ربهم فهو مستحقٌّ للحمد؛ لظهور آثار الحمدِ في المخلوقات، والموجودات والكائنات، ولو لم يكن ذلك إلا إيجاده لها، وتدبيره إياها، لكان كافيًا في الدلالة على كون الحمدِ لله؛ لهذا التعليل الجليل.

و "**ربّ**" بمعنى الْمُرَبّي، والقيّم، والْمُنعِم، والْمُدَبِّر، والسَّيِّدُ، والمالكُ، ويطلق على غير الله تعالى مضافًا؛ كربّ البيت، وربّ المال، أي بمعنى الصّاحب.

و **"الرّبّ"** اسمٌ من أسماء الله تعالى، وهو يتضمن ما سبق ذكره من المعاني، وأيضًا يتضمن معنى: الخالق، والرَّزَّاق، والْمُتَصَرِّف.

وأضيف الاسم الشريف إلى العالَمِين؛ فقيل: "**رب العالمين**" من باب إضافة الشَّيء إلى دليله.

و **"العالمين"** جمعُ عالَم، وإنَّما سُمِّيَ عالَمًا لأنّه عَلَمٌ وعلامَةٌ ودليل على

الرب تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ، وعلى وجوده، ودليل على عظمته، وعظيم صُنْعِه وفعله، وإنما جمع باعتبار تعدد العوالم؛ وإلّا فإن عالَم جمعٌ في نفسه، وجاز الجمع باعتبار التنوع، وليس له مفردٌ؛ كالأنامِ لا مفرد له.

وقيل اشتقاقه من العِلْمِ؛ لكونه دليلًا على عالِمِه الّذي تجلّى علمه في كلّ شيءٍ مِن صنعته، ويدخلُ في العالَمين: الإنسُ والجنّ والملائكة، وكلّ ذي روحٍ؛ بل كلّ موجودٍ.

ولما بيّن أنه بذكر اسم الله قد بدأ، وبحمدِ الله ثنّى، ذكر جملة ﴿وَٱلْعَـٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾[سورة الأعراف، من الآية:١٢٨]، للتنبيه أنّ مِن اتّقى الله تعالى مع ما تقدم منه من البسملة والحمدلة فإنه يرجى له العاقبةُ الحميدة، سواء في أفعاله، أو في أقواله، وذلك لأنّ الله تعالى جعل العاقبة للمتقين.

وهي مقتبسة من قول موسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ في وصيته لقومه حين زاد عليهم فرعونُ الظلمَ.

"والعاقبة" آخِرُ كلّ شيءٍ، وخاتمته، ونتيجته، والجزاء بالخير، وهو مصدر (عَقِبَ)، أي صار له عقِبٌ، وهذا عاقبة أمره، ومن المتيقن أن الآخرة للمتقين؛ فتخصيصه بها ظاهرٌ، وتعميمه في غيرها له وجهٌ، وذلك أن المتقين في الدّنيا قد لا تكون لهم الظفر في كلّ حالٍ، وفي كلّ مكان، وزمان، وإن كان لهم الظهور برهانًا بكل حال، وأما الظهور بالقوة فمن حيث قيامهم بتقوى الله تعالى، ولهذا قال المصنّف رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **"والعاقبة للمتقين"**.

و "**المتقون**" جمعُ مُتَّقٍ، اسمُ فاعلٍ من (اتَّقي) فهو مُتَّقِيٌ، وهو الخائفُ الخاشعُ، وأصل التَّقوى من الخشية والخوفِ، وتقوى الله تعالى: امتثال أوامره، واجتناب نواهيه.

والْمُتَّقِي في الاصطلاح: هو مَن يجتنب ما فيه وعيدٌ، ويحرص على ما فيه وعدٌ، مع ورَعٍ وتنسُّكٍ وزهادَةٍ.

وهؤلاء المتقون هم الذين لهم العاقبة الحميدة، لا سيما في الآخرة؛ كما قال تعالى: ﴿وَٱلۡعَٰقِبَةُ لِلتَّقۡوَىٰ﴾ [سورة طه، من الآية:١٣٢]، وقال تعالى: ﴿تِلۡكَ ٱلدَّارُ ٱلۡأٓخِرَةُ نَجۡعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوّٗا فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا فَسَادٗاۚ وَٱلۡعَٰقِبَةُ لِلۡمُتَّقِينَ﴾ [سورة القصص، من الآية:٦٦٦].

ومن العواقب العظيمة للتقوى نيل ولاية الله تعالى؛ كما قال سبحانه: ﴿إِنۡ أَوۡلِيَآؤُهُۥٓ إِلَّا ٱلۡمُتَّقُونَ﴾[سورة الأنفال، من الآية:٣٤].

وعواقب الأمور بيد الله تعالى، وهو سبحانه وعد بالعاقبة الحميدة للمتقين، قال تعالى: ﴿فَٱصۡبِرۡۖ إِنَّ ٱلۡعَٰقِبَةَ لِلۡمُتَّقِينَ﴾ [سورة هود، من الآية:٤٩]، وقال الله جَلَّوَعَلَا: ﴿ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ أَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُواْ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَنَهَوۡاْ عَنِ ٱلۡمُنكَرِۗ وَلِلَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلۡأُمُورِ﴾[سورة الحج، من الآية:٤١].

وأما العواقب الوخيمة فهي لمن خالف شرعه، وبغى وطغى، وتكبر وتجبر؛ ولهذا قال المصنّف رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "**ولا عدوان إلا على الظالمين**"، وهو مقتبس من

قوله تعالى: ﴿فَلَا عُدْوَانَ إِلَّا عَلَى ٱلظَّالِمِينَ﴾[سورة البقرة، من الآية:١٩٣].

وفي ذكر هذه الجملة بيانٌ من المصنّف رَحِمَهُ ٱللَّهُ أنّ المتّقي له السلامة، والسلم والمسالمة منّا، وأن الظالم عليه عدوانه، ويستحق بيان عواره، وفضح خبث عقيدته، وإعلان شناره.

و **"لا عدوان"**: (لا) حرفٌ يكون بمعنى النفي، ويأتي بمعنى النهي، وهنا يحتمل الأمرين.

و **"لا عدوان"** جملة منفية عامّة، مدلولها: أنه لا يجوز الاعتداءُ، ولا مؤاخذة فردٍ بجرمِ فردٍ إلا من ظلم؛ فإن الجزاء محصور عليه، مقصور به.

والعدوان مصدرُ (عَدَا) بمعنى اعتدى، والمراد هنا: الجزاءُ والعقوبة، والمؤاخذة، أي لا يؤاخذُ أحدٌ بجريرة أحدٍ، ولا يعاقب أحدٌ إلا بظلمه، وسمِّيَت المعاقبة عُدْوانًا من حيث المشاكلة في الفعل حيثُ إنه يُعْتَدَى عليه بالعقوبة، وإن كان السبب مختلفًا فهو يعتدي ظلمًا، وهو يُعتدَى عليه جزاءً وِفاقًا.

ويحتمل أن تكون الجملة خبرية بمعنى النهي: أي لا تعتدوا فتذهب صفة التقوى عنكم، وتكونون بذلك ظالمين، غير مستحقين للعاقبة الحميدة؛ بل مستحقين للعواقب الوخيمة، الّتي تكون للظالمين.

والقاعدة أن النفي بمعنى النهي ألزم؛ لأن العرب إذا أرادوا المبالغة في ترك الشيء عدلوا فيه عن النهي إلى النفي المحضِ العام، وصار ألزم في المنع، إذ صار بمعنى الأشياء الّتي لا ينبغي أن تقع أصلًا.

و **"إلّا"** حرفُ استثناء، ويأتي متصلًا، ومنفصلًا، ويأتي بمعنى (حتّى)، وإتيانه بعد النّفي مفيدٌ الحصرَ، والمعنى: أنّ العدوان لا يصح أن يكون إلّا على من ظلم، ولا ينبغي أن توقع العقوبة إلّا على من ظلم وحده دون غيره.

و **"الظالمين"** جمعُ ظالمٍ، اسمُ فاعلٍ من (ظَلَم)، وهو الجائرُ المتعدّي المستبدُّ، وفي الاصطلاح: كلّ من منع حقًّا، أو أخذ حقًّا، ولم يؤدِّه.

ويدخل في الظالم على سبيل العموم، مَن ظَلَمَ في حقّ الله تعالى؛ فأشرك، أو ظَلَمَ في حقّ نفسه فعصى، أو في حق المخلوقين؛ فتعدّى عليهم، ولم يعطهم حقوقهم، ويدخل في هذا النوع تعديه وظلمه في حقّ النّبيّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بالابتداع في دينه، وله جانب متعلق بحق الله تعالى؛ لتعلقه بدينه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

وبهذا ندرك أنّ الظّلم ثلاثة أنواع:

النوع الأول: الظلم في حق الله تعالى، وذلك بالكفرِ، أو النفاق، أو الشرك، قال الله تعالى: ﴿وَإِذۡ قَالَ لُقۡمَٰنُ لِٱبۡنِهِۦ وَهُوَ يَعِظُهُۥ يَٰبُنَيَّ لَا تُشۡرِكۡ بِٱللَّهِۖ إِنَّ ٱلشِّرۡكَ لَظُلۡمٌ عَظِيمٞ﴾[سورة لقمان، من الآية:١٣].

النوع الثاني: الظلم في حقّ النّفس؛ كما قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُواْ فَٰحِشَةً أَوۡ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ ذَكَرُواْ ٱللَّهَ فَٱسۡتَغۡفَرُواْ لِذُنُوبِهِمۡ وَمَن يَغۡفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ وَلَمۡ يُصِرُّواْ عَلَىٰ مَا فَعَلُواْ وَهُمۡ يَعۡلَمُونَ﴾[سورة آل عمران، من الآية:١٣٥].

النوع الثالث: الظلم في حق المخلوقين؛ كما قال تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلسَّبِيلُ عَلَى

﴿ٱلَّذِينَ يَظۡلِمُونَ ٱلنَّاسَ وَيَبۡغُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّۚ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ﴾ [سورة الشورى، من الآية:٤٢].

وساق المصنّف رَحِمَهُ ٱللَّهُ هذه الجملة التحذيرية ليحذر السامع من الظلم كله فإنه سببٌ للخذلان، والبعد عن الرحمن.

ثم بعد البسملة والحمدلة ثلث بالصلاة على النّبيّ محمّدٍ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَسَلَّمَ؛ فقال المصنّف رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **"وصلّى الله تعالى على نبيه"**، أي أنّ الله تعالى قد صلَّى على النّبيّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَسَلَّمَ.

وهذا ماضٍ مفاده الخبر، وقيل: هو خبرٌ بمعنى الطلب، وعندي أنه يجمعُ الأمرين؛ فهو خبرٌ واقعٌ، دل عليه الكتاب والسنة، وهو طلب من العبدِ حين تلفظه بهذا الخبر، مُتضمِّنٌ لرجائه ودعائه.

وصلاة الله على نبيِّه: ثناؤه تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ عليه في الملأِ الأعلى، كما جاء ذلك عن أبي العالية الرياحي [صحيح البخاري].

ومعنى **"تعالى"** أي أنّ الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ له العلوّ؛ فهو العلي ذاتًا، ووصفًا، ومقامًا، وقهرًا، وقدرةً، وهي مناسبة للإتيان بها كلّما جاء ذكرُ الله تعالى، وهناك صيَغٌ ثَنَائِيَّةٌ أخرى يمكن أن يتبع بها اسم العظمة.

ما هي الصيغ الثَّنائية والتّنزيهيّة في حق الله تعالى التي ينبغي ذكرها مع أسمائه تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ؟

الجواب: الصّيغ الثّنائية والتنزيهية في حق الله تعالى متعددة، ومتنوعة؛ فيقال: الله تعالى، أو الله سبحانه، أو الله جَلَّوَعَلَا، أو الله جل وعزّ، أو الله تَبَارَكَوَتَعَالَىٰ، أو الله سُبۡحَانَهُۥوَتَعَالَىٰ، ونحو ذلك من الصِّيَغ الثَّنائية المعروفة، والتي يستحقها الربّ تَبَارَكَوَتَعَالَىٰ دون غيره، وهي من خصائصه سُبۡحَانَهُۥوَتَعَالَىٰ، وكلّها دالّة على التّنزيه والثّناء والتّمجيد.

وذكر هذه الثناءات والتنزيهات بعد ذكرِ اسم الله تعالى هو من باب الأدب مع الله تعالى، ومن باب حسن الخطاب.

والصلاة منّا علي النّبيّ صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ، فهو دعاؤنا الله تَبَارَكَوَتَعَالَىٰ أنْ يُثْنِيَ على نبيه صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ، فنطلب ونرجو من الله تعالى أن يصلِّيَ عليه؛ فهي صيغة دعائية.

وأمّا سلامُ الله على نبيِّه: كونُه أعطاه الكمالات البشرية، والجمالات الخُلُقية، والمقامات العليّة في العبوديّة، حتّى نال أزكى وأعلى وأشرف الدرجات عنده تَبَارَكَوَتَعَالَىٰ.

أمّا سلامنا على النّبيّ صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ فهو دعاؤنا اللهَ تَبَارَكَوَتَعَالَىٰ أن يبلِّغه سلامَنا، وأن يبلِّغَه تحيّاتنا، هذا مِن وجهٍ.

ومِن وجهٍ آخرَ: هو متضمِّنٌ لطلب السّلامة له، وهذا بالنّسبة لنا باعتبار ما سيكون يوم القيامة، وما يناله من السّلامات، والقيام بمقام الشّهادات.

والمصنّف رَحِمَهُٱللَّهُ ذكرَ الصلاة بصيغة الماضي، **وهل لها صيغٌ أخرى؟**

فالجواب: إن للصلاة والسلام على النّبيّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عدّة صيغٍ، كلها سائغة، وهي:

الصيغة الأولى: ماضٍ متضمّن معنى الطلب؛ (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ).

الصيغة الثانية: أمرٌ بمعنى الطَّلب؛ (صلِّ اللَّهُ عليه وسلِّمْ)، (اللهم صلِّ عليه وسلِّمْ).

الصيغة الثالثة: خبرٌ بمعنى الطَّلب؛ (الصَّلاةُ والسَّلام من الله تعالى عليه) أوْ (صلاةُ الله وسلامه عليه).

الصيغة الرابعة: ما سبق مع إضافة ذِكرِ الآلِ، نحوُ: صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، والآل: هم الأتباعُ سواءٌ كانوا من أقاربه أو مِن أباعده، فكل هذه العباراتِ جائزة خارج الصّلاة.

وأما داخل الصلاة فلا يجوز إلا ما ورد من الصّيغ، وهي كثيرة متعدِّدة، متقاربة، متفاوتة، وأكملها الصّيغة الواردة من حديث كعب بن عجرةُ- قَالَ: سَأَلْنَا رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقُلْنَا: يَا رَسُولَ اللهِ، كَيْفَ الصَّلَاةُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ؟ فَإِنَّ اللهَ قَدْ عَلَّمَنَا كَيْفَ نُسَلِّمُ عَلَيْكُمْ؟ قَالَ: "**قُولُوا: اللَّهُمَّ صَلِّ عَلَى مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِ مُحَمَّدٍ، كَمَا صَلَّيْتَ عَلَى إِبْرَاهِيمَ، وَعَلَى آلِ إِبْرَاهِيمَ، إِنَّكَ حَمِيدٌ مَجِيدٌ، اللَّهُمَّ بَارِكْ عَلَى مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِ مُحَمَّدٍ، كَمَا بَارَكْتَ عَلَى إِبْرَاهِيمَ، وَعَلَى آلِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّكَ حَمِيدٌ مَجِيدٌ**" [رواه البخاري ومسلم].

وصلاتنا وسلامنا على النّبيّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فيه قيامٌ بأمرين:

الأمر الأول: القيام بالعبودية لله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ، حيث فيه إظهار الدعاء، والطلب، والحاجة.

الأمر الثاني: القيام بحقّ صاحب الرسالة، حيث فيه طلبٌ له من الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ الّذي أرسله، أنْ يُثنيَ عليه، وأنْ يُكرِمه.

وينتج عن هذين الأمرين مقامان:

المقام الأول: الارتقاء في مقامات العبودية لله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ، والعلم بأنه المعبود وحده لا شريك له، فلا يُعبدُ معه أحدٌ، ولو كان نبيًّا رسولًا، أو أيّ أحدٍ له المقامات العالية عند الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ.

المقام الثاني: تحصيل حبِّ النّبيّ صَلَّىٰ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ واتباعه، والعلم بأنّه رسولٌ لا يُعصى، وعبدٌ لا يُعبد.

وقد ذكرَ المصنّف رَحِمَهُ ٱللَّهُ السّلام على النّبيّ صَلَّىٰ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، بعد ذلك -كما سيأتي- والمنبغى الجمع بين الصلاة والسلام، لا سيّما مِن أهل العلم؛ لأن الله تعالى أمرنا بذلك؛ فقال سبحانه: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ صَلُّوا۟ عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا﴾ [سورة الأحزاب، من الآية:٥٦]، وللجمع بين الصّلاة، الّتي هي طلب الثناء عليه من الله تعالى في الملأِ الأعلى، والسّلام الّذي هو طلب السّلامة والكمال له صَلَّىٰ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، اعترافٌ بكمال حقِّه من حيث صفاته الكامنة، وحقوقه المستحقّة؛ فنقرُّ بكماله الوصفي، وكماله الفعلي صَلَّىٰ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

ويمكن أن نعتذر للمصنف رَحِمَهُ ٱللَّهُ بأن السقط من النساخ، أو من باب تركه لكونه معلوم المصاحبة للصّلاة.

"**على نبيِّه**" أي أن الصلاة الّتي أخبرنا عنها أنها على النّبيّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كائنةٌ، نريدها أن تعْلَوَه وتغشاه، وتشمله وتعمّه، وهذه فائدة حرف (على)؛ فإنها للاستعلاء، والشمول، وتأتي للمجاوزة.

و "**نبيّه**" كلمتان؛ (نبيّ) مضافٌ إلى الضمير المتصل (الهاء)، والمعنى: (نبيُّ الله) وحَسُنَ الإضمار للاختصار، وتَقَرُّرِ الأمرِ بأنّه رسولٌ.

و "**النّبيّ**" لغة الشيءُ الْمُرتَفِعُ، والظاهرُ، وهو إما من (النَّبَأ) وهو الإنباءِ، والوحيُ والخبرُ، أو من (النَّبْأ) وهو المكان المرتفع عن مثيلاته، وذلك لأن النّبيّ ارتفع قدره على النّاس بالإيحاء.

والنّبيّ في الاصطلاح: مَن بعثه الله إلى قومٍ مسلمين؛ كما قال النّبيّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "**كَانَتْ بَنُو إِسْرَائِيلَ تَسُوسُهُمُ الْأَنْبِيَاءُ، كُلَّمَا هَلَكَ نَبِيٌّ خَلَفَهُ نَبِيٌّ**" [رواه البخاري ومسلم من حديث أبي هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ].

والصحيح أنّ كلّ رسولٍ نبيٌّ، وليس كلّ نبيٍّ يكونُ رسولًا؛ لأنّ الرسول قد أوحي إليه، وارتفع مكانه بالرسالة، والنّبيّ قد أوحي إليه وارتفع مكانه بالإنباء؛ لكنه لم يُرسَل إلى الكافرين، ولأنّ الرسول يؤمِنُ به مَن يؤمن مِن الكافرين؛ فيكون رسولًا إليهم، ويتبعه المؤمنون فهو نبيٌّ إليهم؛ فجمع الرسول الخصلتين والصفتين: رسولٌ ونبيٌّ، ولا عكس.

وما قيل: إنّ الرّسول مَن أوحي إليه وبعث، والنّبيّ مَن أوحي إليه ولم يبعث؛ فهذا مجملٌ إنْ كان المقصود أنّ الرّسول أوحي إليه وبعث إلى قوم كافرين، والنّبيّ مَن أوحي إليه ولم يبعث إلى قومٍ كافرين؛ فهذا كما ذكرنا في الأوّل صواب؛ لكنه بحاجة إلى تكميل.

وإن قيل: إنّ المراد أنّ النّبيّ يوحي إليه ولا يُبعث، ولا يؤمر بالتّبليغ البتّة؛ فهذا غير مقبول البتّة، وذلك لأنّ آحاد الأمّة فضلًا عن علماء الأمّة التّوحيديّة مأمورون ببلاغ التّوحيد؛ فكيف بمن أَوْحَى إليه ربُّ العالمين لا يؤمر بالتبليغ!؟

وكذلك ما قيل: إنّ الرّسول مَن أوحي إليه بشرعٍ جديد، والنّبيّ مَن لم يوح إليه بشرعٍ جديد؛ فهذا أيضا منقوضٌ؛ فإنّ آدم عَلَيۡهِٱلسَّلَامُ كان نبيًّا، ولم يكن رسولًا، وكان له شرعٌ عليه أبناؤه حتّى ظهر الشّرك في قوم نوحٍ عَلَيۡهِٱلسَّلَامُ، وكذلك إسماعيل عَلَيۡهِٱلسَّلَامُ رسولٌ مع أنّا لا نعلم إلا أنّه كان مُتّبِعًا لشريعة أبيه إبراهيم عَلَيۡهِٱلسَّلَامُ، وسليمان عَلَيۡهِٱلسَّلَامُ كان مُتّبعًا لشريعة أبيه داود عَلَيۡهِٱلسَّلَامُ، وهو كان مُتّبِعًا لشريعة موسى عَلَيۡهِٱلسَّلَامُ وهم جميعًا رسُلٌ؛ فهذا النّقضُ جليٌّ يدلّ على عدم صحة هذا التعريف.

وهكذا لو عُرِّف بأنّ الرّسول مّن أوحي إليه بكتاب، والنّبيّ مَن لم يوح إليه بكتابٍ؛ فهذا أيضًا كالذي قبله؛ فلا نعلم لإسماعيل عَلَيۡهِٱلسَّلَامُ كتابًا، ولا لسليمان عَلَيۡهِٱلسَّلَامُ كتابًا، ولا ليوسف عَلَيۡهِٱلسَّلَامُ كتابًا وهم جميعًا رسلٌ بنص القرآن؛ فدلّنا هذا أنّ التّعريف الصّحيح ما ذكرناه أوّلًا؛ لأنّه جامعٌ مانعٌ، والله

تعالى أعلم.

ولما كان محمَّدٌ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ نبيًّا مِنَ الله تعالى فهو بذلك بحقٍّ سيِّدٌ، ولهذا قال المصنّف رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "**سيِّدُنا**"، والمقصود به على سبيل القطع وصفُ محمَّدٍ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

و "**السيّد**" لغة الّذي كمَّل صفات السّيادة والكمالات؛ والسّيِّدُ في الاصطلاح: المطاع في قومه.

و "**نا**" ضميرُ الجمعِ، يحتمل أن يكون المراد العموم؛ فيشمل كلّ عاقلٍ؛ فهو سيد كلّ العقلاء، سواءٌ منهم من أطاعه أو من عصاه؛ فمن أطاعه فلعقله وإدراكِه فضلَه وسيادتَه، ومَن عصاه فلنقصِه وغفلتِه عن سيادتِه ومكانتِه، ونبوّته ورسالته.

ويحتمل أن يكون المرادُ الخصوصُ، وهم المسلمون؛ فهو سيدهم باعتبار كونهم يطيعونه، ويعرفون قدره، ومنزلته.

ونبينا محمّدٌ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ هو سيّدنا وله الطاعة المطلقة علينا، وطاعته من طاعة الله تعالى؛ فهو يطاع في كلّ أمرٍ؛ كما قال تعالى: ﴿وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾[سورة النور، من الآية:٥٦]، وقال تعالى: ﴿وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَإِنَّمَا عَلَىٰ رَسُولِنَا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ﴾[سورة التغابن، من الآية:١٢].

و **"محمَّدٌ"** اسمٌ وَعَلَمٌ على نبينا صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وهو: محمّدُ بْنُ عبدِ الله بنِ عبدِ المطّلب بنِ هاشمٍ، وهاشمٌ مِن قريشٍ، وقريشٌ مِن العربِ، والعربُ مِن ذرِّيَّةِ إسماعيل بن إبراهيم الخليل أبي الأنبياء عَلَيْهِمُ ٱلسَّلَامُ.

وهذا القدر من النَّسب إجماعيّ، وقد اتّفق المؤرّخون في كون النّبيّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من ذرّيّة إسماعيل عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، واختلفوا في كَمْ بينه وبين النّبيّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من الآباء؛ كما اختلف المؤرِّخون في كَمْ بين إسماعيل وبين نوحٍ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ من الآباء.

والقدر الّذي وقع عليه الإجماع هو الّذي يجب اعتقاده، وما عدا ذلك ففضلة، وليس الشَّرف في مجرد النسب مع كونه نسيبًا بلا مريةٍ؛ لكن الشّرف فيما حصَّله من السَّببِ؛ فهو صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ سيدنا؛ بل و **"سيِّد المرسلين"**؛ فهو سيّدنا لما له من الكمالات علينا، ولما فضّله الله تعالى به علينا، ويكفيه في ذلك كونه نبيًّا ورسولًا، علاوةً على كونه أفضل خلق الله تعالى، ولهذا قال المصنّف رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **"وسيِّد المرسلين"** أي أكملهم وأفضلهم، ودلّ على فضله على جميع الأنبياء والمرسلين، ما سبق تقريره، ولهذا نصَّ المصنّف رَحِمَهُ ٱللَّهُ أنَّهُ **"سيِّدُ المرسلين"**، وذلك لقوله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **"أَنَا سَيِّدُ وَلَدِ آدَمَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ"** [رواه مسلم]؛ فإنّه إذا كان سيّد ولد آدم؛ فهذا عموم يدخل فيه جميع الأنبياء والمرسلين، وهذا مِن أبلغ ما يدلّ على سيادته وريادته في النّبوّة والرّسالة صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

ومما يدل على كونه صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ سيِّدًا على الإطلاق بالنسبة لجميع

المخلوقات، بما فيهم الأنبياء والمرسلين فضلًا عن الأولياء السادات، ما خصَّه الله تَبَارَكَوَتَعَالَىٰ به من الخصائص على البريات -كما سيأتي-.

و "**المرسلين**" جمعُ مُرْسَل، مِن الرّباعيّ (أَرْسَل)، و(رسولٌ) وصفٌ (فَعُولٌ) بمعنى المصدرية، (أرسل، يُرسل، رسولًا) أي جاء ومعه رسالة، ولهذا فهو يطلق على المذكّر والمؤنّث والواحد والجمع، وفي القرآن: ﴿إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ﴾ [سورة هود، من الآية:٨١].

و "**رسول**" فعُولٌ بمعنى المفعولية، أي: المُرسَل، والمبعوث، ويجمع أيضًا على رُسُلٌ، وأَرْسُلٌ.

و "**المُرْسَل**" اسم فاعلٍ، وهو مَن بعثه الله تعالى بالرسالةِ إلى قومٍ مشركين.

وكون نبينا محمدٍ صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ هو سيد المرسلين؛ فلما سبق ذكره من الأدلة، والصّفات الكمالية، ومن ذلك ما ذكره المصنّف رَحِمَهُٱللَّهُ في وصفه: "**وخاتم النّبيّين**"، و(خاتِم) بالكسرِ بمعنى: آخِر النّبيّين، مِن خاتمة الشيء أي آخره، و(خاتَم) بالفتحِ بمعنى زينتهم وخاتَمُهُم، ولا تضادّ بين المعنيين في حقّ نبيّنا محمّد صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ؛ فهو آخرهم وزينتهم، وهو بالإجماع آخرُ النّبيّين صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ، ومما يدل على كونه آخر النّبيّين قوله تعالى: ﴿وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾[سورة الأحزاب، من الآية:٤٠]، وقرئت الآية على الوجهين.

وقال صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ: "**أَنَا خَاتِمُ النّبيّينَ**" [رواه البخاري ومسلم]، وقال

صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ: "**لَا نَبِيَّ بَعْدِي**" [رواه البخاري ومسلم]، وقال صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ: ""، وهذا كله على تفسير الختم بالآخرية، ومما يدل على جواز تفسير الختم بالزينة والكمال والآخرية حديث أبي هريرةٌ- وفيه: "**مَثَلِي وَمَثَلُ الْأَنْبِيَاءِ مِنْ قَبْلِي كَمَثَلِ رَجُلٍ ابْتَنَى بُيُوتًا فَأَحْسَنَهَا وَأَجْمَلَهَا وَأَكْمَلَهَا، إِلَّا مَوْضِعَ لَبِنَةٍ مِنْ زَاوِيَةٍ مِنْ زَوَايَاهَا، فَجَعَلَ النّاس يَطُوفُونَ وَيُعْجِبُهُمُ الْبُنْيَانُ فَيَقُولُونَ: أَلَّا وَضَعْتَ هَاهُنَا لَبِنَةً فَيَتِمَّ بُنْيَانُكَ**" فَقَالَ مُحَمَّدٌ صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ: "**فَكُنْتُ أَنَا اللَّبِنَةَ**" "**وَأَنَا خَاتِمُ النّبيّينَ**" [رواه البخاري ومسلم].

"**وعلى آله وصحبه الطّيّبين الطّاهرين أجمعين**"، هذه الجملة معطوفة على جملة "وصلى الله تعالى"، أي ونطلب الصلاة من الله تعالى على **آله**.

و "**آله**" كلمة الآلُ مضافة إلى هاء الضمير المتّصل، والمعني به: آلُ النّبيّ صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ، و (الآل): له إطلاقان:

الإطلاق الأول: أهل الرجل وعياله، وأقاربه وعشيرته، وعلى هذا يدخل فيه من لم يكن من مُحبِّيه، ومَن ليس مِن تابعيه؛ فيكون ابنُ نوحٍ الكافر مِن آلِه بهذا الاعتبار، ويكون أبو لهبٍ من آل النّبيّ صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ بهذا الاعتبار.

ومِن هنا ندرك أنّا عندما نقول (آل النّبيّ) لا نقصد به (أهلَ النّبيّ)، حتّى لا يدخل فيه مَن ليس مِن أتباعه مِمَّن لم يؤمن به، أو آمن به، لكنْ غيَّر دينه بالبدعة، ولهذا ردّ النّبيّ صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ مَن زعم أنّ آلَه هم الّذين مِن نسبه دون أن يتّخذوا سببًا بحبّه واتباعه، والقرب منه؛ فقال صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ: "**إِنَّ آلَ أَبِي** -يعني

فلانًا- **لَيْسُوا بِأَوْلِيَائِي، إِنَّمَا وَلِيِّيَ اللهُ وَصَالِحُ الْمُؤْمِنِينَ"، "وَلَكِنْ لَهُمْ رَحِمٌ أَبُلُّهَا بِبَلَالِهَا"** [رواه البخاري ومسلم]؛ فكان هذا الإطلاق إنما لدفع توهم أن (آله) هم كلّ أقربائه.

الإطلاق الثاني: الأتباع والأنصار، سواءٌ كانوا من الأقارب أو من الأباعدِ، فآل النّبيّ صَلَّىٰاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ هم أتباعه وأنصاره من ذويه أو من غيرهم، وذووه المتبعون له يدخلون فيه من باب أولوي، وغيرهم من باب العموم الإطلاقي، ولهذا قال صَلَّىٰاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ في حقّ عليٍّ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ: **"هو وليّ كلّ مؤمنٍ"** [رواه الترمذي، وقال: حسن غريب، وابن حبان في صحيحه]، والآل والوال بينهما اشتقاق جليّ.

فالآل يطلق ويراد به الأتباع، بخلاف الأهل؛ فإنّه لا يطلق إلّا على ذوي الشّخص، ولهذا قال تعالى: ﴿فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ ٱلَّيْلِ﴾ [سورة الحجر، من الآية:٦٥]، فهنا دخلت زوجته؛ ولـمّا كانت النجاة حاصلة للآل دون الأهل قال تعالى: ﴿إِلَّآ ءَالَ لُوطٍ إِنَّا لَمُنَجُّوهُمْ أَجْمَعِينَ ۝٥٩ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ قَدَّرْنَآ إِنَّهَا لَمِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ﴾ [سورة الحجر، من الآية:٥٩-٦٠]، والاستثناء على هذا المعنى منقطع، وعلى المعنى الأول متصل.

وعلى الإطلاق الثّاني فإنّ الصحابة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمْ جميعًا يدخلون في كلمة (الآل)؛ بل كلّ مؤمن ومؤمنة إلى يوم القيامة، ولهذا لم يكن حاجة في ذكر الأصحاب في الصلاة والسلام؛ لأنهم داخلون في عموم (الآل)، وقد ذكرهم المصنّف رَحِمَهُٱللَّهُ

تبعًا لبعض العلماء من التابعين ومن بعدهم من النبلاء؛ فذلك من باب ذكر الخاص بعد العام، وهو أسلوب معروفٌ في الكتاب والسنة.

"**وَصَحْبِهِ**" كلمة معطوفة على (وآله)، وهو كما ذكرتُ من باب عطف الخاص على العام؛ ومفيدٌ التكرار في طلب الصّلاة، ويدخل في (صحبه) كلّ من لقي النّبيّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وآمن به، ومات على ذلك، سواءٌ كانوا من أقاربه من بني هاشمٍ، أو من عموم قبيلته من قريشٍ، أو من عموم جنسه من العرب، أو من عموم بني آدم من الفرس والروم والحبشة، ونحوهم، وهم الذين أخبر الله تعالى عنهم أنهم مرضيون عنده، وبشرهم بالجنّة، والفوز العظيم؛ فقال: ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ مِنَ ٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحْسَٰنٍ رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِي تَحْتَهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾[سورة التوبة، من الآية:١٠٠].

ثم وصف المصنّف رَحِمَهُ ٱللَّهُ الصحبَ بقوله: "**الطَّيِّبين الطّاهرين**"، فإن قيل هما وصفان للأصحاب فلا إشكال، إذ كلُّهم طيِّبون طاهرون من الشّرك والبدعة، وإن لم يكونوا معصومين من المعاصي؛ لكنّ توحيدهم واتباعهم للسُّنَّة موجبٌ للغفران، الموصل إلى رضا الرحمن، المحصّل للفوز بالجنان.

وإن قيل: في الكلام لفٌّ ونشرٌ؛ فإنّ "**الطّيبين**" وصفٌ للصحابة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ، و"**الطّاهرين**" وصفٌ لأهله المتبعين له صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ فهذا أيضًا لا إشكال فيه؛

فإنّ أهله المتّبعين له كلُّهم مطهَّرون بدلالة قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾ [سورة الأحزاب، من الآية:٣٣]، والآية وإن كانت في سياق الخطاب عن زوجات النّبيّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إلّا أنّ حديث عائشة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهَا دليلٌ على أنّ من لم يدخل في الآية بدلالة السياق؛ فإن النّبيّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أدخلهم بوجهٍ خاصٍّ؛ قَالَتْ عَائِشَةُ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهَا: خَرَجَ النّبيّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ غَدَاةً وَعَلَيْهِ مِرْطٌ مُرَحَّلٌ، مِنْ شَعْرٍ أَسْوَدَ، فَجَاءَ الْحَسَنُ بْنُ عَلِيٍّ فَأَدْخَلَهُ، ثُمَّ جَاءَ الْحُسَيْنُ فَدَخَلَ مَعَهُ، ثُمَّ جَاءَتْ فَاطِمَةُ فَأَدْخَلَهَا، ثُمَّ جَاءَ عَلِيٌّ فَأَدْخَلَهُ، ثُمَّ قَالَ: "﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾ [سورة الأحزاب، من الآية:٣٣]".

ويصحّ أن لا يكون في الكلام لفّ ونشرٌ، وأن "**الطّيّبين والطّاهرين**" وصفٌ للآل على سبيل العموم، وكذلك للصّحابة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ على سبيل العموم؛ فتكون الجملة الدّعائية مخصوصًا بمن اتصف بهذين الوصفين؛ فكأن المعنى حينئذٍ: أنّه طلب الصلاة على آله وأصحابه الموصوفين منهم بالطّيب والطّهر، وهم الذين لم يؤثر عنهم شركٌ ولا بدعةٌ، ومن طهر من الشرك، وطاب من البدعة؛ فحيّ هلًا به، وهو مستحق الدّعاء الخاصّ، وقد جاء نظير هذا في القرآن في دعاء الملائكة؛ فإنهم بعد التعميم خصصوا بالوصف؛ كما في قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَحْمِلُونَ ٱلْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُۥ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِۦ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ

ءَامَنُواْ رَبَّنَا وَسِعۡتَ كُلَّ شَيۡءٖ رَّحۡمَةٗ وَعِلۡمٗا فَٱغۡفِرۡ لِلَّذِينَ تَابُواْ وَٱتَّبَعُواْ سَبِيلَكَ وَقِهِمۡ عَذَابَ ٱلۡجَحِيمِ﴾ [سورة غافر، من الآية:٧]؛ فالملائكة في الأوّل استغفروا لعموم المؤمنين، ثم خصّصوا المغفرة في دعائهم بالتّائبين الْمُتّبعين، والتائبُ هو الطاهر، والْمُتّبع هو الطيب.

و **"الطَّيِّبين"** وَصفٌ جمعيٌّ، ومفرده (الطَّيِّبُ)، وهو: كلّ ما خلا من الأذى والخبَث، وكلّ مَن تخلّى عَنِ الرّذائل، وتحلّى بالفضائل، وأصله نقاوة القلب، وصفاء السريرة، وحسنُ العمل، وسلامة اللسان.

و **"الطَّاهِرِين"** وصفٌ جمعيٌّ، ومفرده (الطَّاهر)، وهو: النَّقِيُّ الثَّوبِ والعِرْضِ، والبريءُ من العيوبِ، والنّزيهُ الشّريف، والمحصنُ العفيف.

وقد يطلق هذان الوصفان ويرادُ بهما اسم المفعول (الْمُطَيَّبُ، الْمُطَهَّرُ)، ومدلول قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذۡهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجۡسَ أَهۡلَ ٱلۡبَيۡتِ وَيُطَهِّرَكُمۡ تَطۡهِيرٗا﴾[سورة الأحزاب، من الآية:٣٣]، أنّهم مُطَيَّبون مُطهَّرون من الله تعالى.

وهذا الوصفُ لعموم (الآل)، ولهذا قال المصنّف رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **"أجمعين"**، وهو مِن ألفاظ التّوكيد، بمعنى كلِّهم، بلا استثناءٍ، وهذا على القول بأنّ المراد بالآل هم الأتباع المؤمنون، فكلهم موصوفون بالطيب والطهر، وكلهم مطيبون مطهرون من الشرك والبدع.

و **"أجمعين"** جمعُ (أَجْمَع) ومؤنثه (جمعاء)، ومفرده ممنوع من الصرف، ويجمع جمع مذكرٍ سالم؛ فيرفع بالواو، وينصب ويجر بالياء.

"وسلَّمَ تسليمًا كثيرًا" جملة معطوفة على **"وصَلَّى الله تعالى"**، وهي جملة خبرية مُتضمِّنة الدّعاء والطّلب، **"وسلَّم"** فعلٌ ماضٍ، و**"تسليمًا"** مَصْدَرُه، مفعولٌ مطلقٌ، مؤكِّدٌ للفعل منصوبٌ، وهو يفيد الإطلاق إذا ذكر مع فعله، أيْ وسلَّم تسليمًا مطلقًا بلا قيدٍ زمانيٍّ ولا مكانيٍّ ولا عدديٍّ.

وقد يراد بالتَّسليم قولُ (السلام عليكم ورحمة الله)، وعلى هذا فالمعنى أنّه تعالى قد بلَّغ سلامنا النّبيّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وأوصله إيّاه.

وحتى لا يُتَصَوَّر أنّ التّسليم للمرّة قال المصنّف رَحِمَهُ ٱللَّهُ **"كثيرًا"**، وهو صفةٌ أو نعتٌ لتسليمًا، والكثيرُ: الشيءُ الوفيرُ، وهو نقيضُ القليل، والمرادُ أنّه يطلب في خبره أن يكون السّلام كثيرًا ليس مرّةً، ولا مرّتين، ولا ثلاثًا، وأطلق الكثيرَ ولم يحدِّدْه بعددٍ، ثم قال: **"إلى يوم الدين"** ليصبح مطلقًا زمانًا إلى حيثُ لا زمانَ، وهو اليوم الآخر؛ فأفاد الكثرة العددية، والكثرة الزمانية.

و**"إلى"** حرفُ جرٍّ، ومعناه انتهاء الغاية، كقوله تعالى: ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا﴾[سورة الإسراء، من الآية:١]، ويأتي بمعنى المصاحبة؛ نحوُ قوله تعالى: ﴿وَلَا تَأْكُلُوٓاْ أَمْوَٰلَهُمْ إِلَىٰٓ أَمْوَٰلِكُمْ﴾[سورة النساء، من الآية:٢]، وللتّبيين مثلُ قوله تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ ٱلسِّجْنُ أَحَبُّ إِلَىَّ﴾[سورة يوسف، من الآية:٣٣]، وبمعنى (في) ، وبمعنى (مِن)، وغير ذلك.

و **"يوم"** ظرفُ زمانٍ، يطلق على قليل الوقت وكثيره، و(اليوم) المعروف هو من طلوع الشمس إلى غروبها لغة، ويسمّى النهار، و(اليومُ) شرعًا من طلوع

الفجر الصادق إلى غروب الشمس، وجمعه (أيّام)، وهو هنا مضافٌ إلى "**الدِّين**"، وهو يوم الجزاء والحساب، قال تعالى: ﴿مَٰلِكِ يَوۡمِ ٱلدِّينِ﴾ [سورة الفاتحة، من الآية:٤]،ويسمّى أيضًا اليوم الآخر؛ لأنّه ليس بعده ليلٌ ونهار؛ بل يكونون فيه أبد الآباد من غير شَيْبٍ ولا تقادُمِ زمانٍ على الْمُنعَّمين.

"**هذا**" اسم إشارة إلى ما سيأتي في هذه الرّسالة، والأصلُ في أسماء الإشارات أنّها تكون لشيءٍ سبق في سبك العبارات، ويجوز لشيءٍ معلوم ملحوق في جمل الكلمات، وهذه الإشارة لبيان أنّ ما سيذكره مختصٌّ، بـ "**ذِكْر بيان عقيدة أهل السنة والجماعة**".

و "**ذِكْرُ**" أي أَذْكُرُ، وأُورِدُ وأُنَوِّهُ، وأصل الذِّكرُ: الصِّيتُ، والكلامُ المتين، وما به يُتَّعَظ، ويُتذكَّر ويُحفظ، ويُستحضر بهذا المختصر عقيدة أهل السنة والجماعة؛ ليكون نافعًا للمبتدي، ومُذكِّرًا للمنتهي، وهذا المقصود من هذه التّذكرة المسطورة.

و "**بيانِ**" مصدرُ (بانَ) الشّيءُ يَبِينُ بيانـًا، أي وضح وجلّى، وبيّن حججه، والمراد هنا أنّه سيبيّن مسائل العقيدة.

و "**اعتقاد**" مصدرٌ مِن (اعتقد)، بمعنى عقد عليه قلبه وضميره، سواءٌ كان حقًّا أو باطلًا، وتديَّنَ به، وثبت على ذلك، وصدَّقه، وعمل وَفقه، وبمقتضاه.

وفي بعض النسخ "**عَقِيدَة**" فعيلةٌ بمعنى المبالغة في الاعتقاد، وهو ما عقد عليه القلبُ والضميرُ، سواءٌ كان حقًّا أو باطلًا، وما يربط عليه الإنسان قلبه عليه،

وأصله من (العَقْد) وهو الرّبط، والعُقْدَةُ، ووجه المشابهة كونُ الْمُعتَقِد ربطَ قلبه على ما عقد عليه من الاعتقاد، ولا يقبل فيه الشك.

والعقيدةُ اصطلاحـًا عامًا: حُكمٌ قطعيٌّ لا يقبل الشكّ فيه، لدى معتقده.

وأما العقيدة في اصطلاح المسلمين؛ فهو بمعنى الإسلام، والإيمان، والتوحيد، وهو: الإقرار بألوهية الله تعالى، وهو اعتقادٌ بالجنان، وقولٌ باللسان، وعملٌ بالأركان.

وهنا يذكر المصنّف رَحِمَهُ ٱللَّهُ ما يتعلق بما يربط عليه المسلم بقوة قلبه عليه من عَقْدِ الإيمان، لا سيّما **"عقيدة أهلِ السُّنَّة"** فهذا الاعتقاد مضافٌ إلى **"أهل السُّنّة"**؛ فليس مراد المصنّف بيان كلّ اعتقادٍ؛ بل هو مختص ببيان عقيدة مَن أضاف إليهم؛ فهذا كتابٌ مختصٌّ ببيان **"عقيدة أهل السنة والجماعة"**، ويُعْرِضُ عن ذكر العقائد الغويّة؛ فهذه العقيدة مختصة بذكرِ مسائلَ متعلقة باعتقاد أهل السنة والجماعة، وما يعتقدونه، وما به يدينون لله تعالى في باب الإيمان والتّوحيد.

و **"أهلُ"** بمعنى صِنفٌ، وبمعنى الأقرباءِ، وبمعنى صالحٌ، وبمعنى الجماعة، هذا من حيث اللّغة، فهم صِنفٌ مختصّون بالسّنّة، وقريبون لصيقون بها، وصالحون يظهرون العمل بها، وقوم مجتمعون عليها.

والمراد بالأهل هنا اصطلاحًا: القابلون لها، والمختصون المضافون إليها، والمدافعون عنها، والنّاشرون لها، ولا يَعْنِي أنهم مُتَحَزِّبُون لكونهم جماعة؛ بل

هم قومٌ مِن بُلدانٍ شتّى، وأزمانٍ متفاوتةٍ على عقيدة واحدةٍ، وهم أهلٌ لأن يكونوا حَمَلة للسّنّة، وأهلٌ لأن يكونوا جماعة الإسلام والمسلمين.

وهم مضافون إلى **"السُّنّة"** أي أنّ مِن علامات الجماعة الحقَّةِ أنّهم مضافون إلى سنّة النّبيّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ علمًا وعملًا، ودعوةً، وتأصيلًا، ومنهجًا، واستدلالًا، ومصدرًا وأخذًا، روايةً ودرايةً.

و **"أهل السنة"** في الاصطلاح: هم من كانوا ولا زالوا على عقيدة النّبيّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وأصحابه؛ فلم يَزيدُوا في الاعتقاد شيئًا لم يكن في زمانه صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ولم يُنْقِصُوا.

و **"السُّنَّة"** لغة الطَّرِيقة سواء كان حقّا أو باطلًا، صحيحًا أو خطأً، هدًى أو ضلالةً.

وللسنة عدةُ اصطلاحاتٍ؛ فلها اصطلاحٌ فقهي، وأصوليٌّ، وحديثيٌّ، وعقديٌّ، وهو المراد هنا.

فالمراد بالسُّنَّة هنا: الطّريقة الّتي كان عليها النّبيّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وأصحابه اعتقادًا وعِلْمًا وعملًا، وإنّما أضيفوا إلى السّنّة؛ لأنّ مبنى اعتقادهم على سُنَّةِ النّبيّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وعلى فهمه صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ للقرآن، وعلى ما ينقلون عن الصّحابة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ من الإجماعات، والآثار في فهم نصوص التّوحيد والإيمان والدّين.

و **"الجماعة"** القوم المجتمعون، والعدد الكثيرُ من الشّيء، هذا في اللغة،

وأضاف المصنّف "**أهل**" إلى "**الجماعة**" أيضًا؛ فقال: "أهل... الجماعة"، وهم القوم المجتمعون، وأضيف إلى الجماعة لمعانٍ عدة صحيحة، وكلها واقعة مليحة.

وفي معنى أهل الجماعة أقوال كلّها صحيحة:

القول الأوّل: لأنّهم الأصل؛ فهم على ما كان عليه النّبيّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وأصحابه، قبل نشوءِ الفرق، وقبل وجود الاختلاف؛ فهم الجماعة الأمّ، وهم الجماعة الأصل، وإنّما نشأ التّفرق بعدهم.

القول الثّاني: هم "أهل...الجماعة" لأنّهم يرون وجوب الاجتماع على الكتاب والسُّنّة.

القول الثّالث: هم "أهل...الجماعة" لأنّهم يرون وجوب السّمع والطّاعة لولاة أمر المسلمين دِيَانَةً، ولا يرون الخروج عليهم، وإن جاروا وظلموا.

القول الرّابع: وصف أهل الجماعة ببعض مسائلهم؛ كما قيل للإمام أبي حنيفة رَحِمَهُ ٱللَّهُ: من هم أهل الجماعة؟ قال: (الذى لا ينظر فِي اللهِ عَزَّوَجَلَّ وَلا يُكَفِّرُ أَحَدًا بُذَنْبٍ وَيُقَدِّمُ أَبَا بَكْرٍ وَعُمَرَ وَيَتَوَلَّى عَلِيًّا وَعُثْمَانَ وَلا يُحَرِّمُ نَبِيذَ الْجَرِّ وَيَمْسَحُ عَلَى الْخُفَّيْنِ) [**الانتقاء في فضائل الثلاثة الأئمة الفقهاء**] لابن عبد البر.

فإن قال قائلٌ: هل للاعتقاد أسماءٌ وألقاب أُخر؟

فالجواب: أنّ هذه العقيدة الّتي سيذكرها المصنّف رَحِمَهُ ٱللَّهُ كما أضيفت إلى "**أهل السّنّة والجماعة**" فهي تضاف إلى أوصافٍ أخرى من باب إضافة الشيء

إلى صِفته، وإلى مصدره، وإلى أصله؛ وإلى أهلِه؛ فهذه إضافات معتبرة؛ فيقال: عقيدة التّوحيد، عقيدة الكتاب والسّنّة، عقيدة الإسلام والإيمان، عقيدة النّبيّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وأصحابه، وعقيدة المسلمين، أي قبل وجود التفرق، عقيدة السَّلَفِ، عقيدة أهل الحديثِ.

فإن قيل: من هم أهل السنة والجماعة؟

فالجواب: أهل السنة والجماعة قائدُهم، وإمامُهم، ومُقدِّمُهم، ومُقَدَّمهم: النّبيّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ثم أصحابه الكرام رضوان الله تعالى عليهم، الّذين رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ في كتابه من المهاجرين والأنصار، ومّن سار على نهجهم بإحسان من التابعين الأبرار؛ ومِن "أهل السنة والجماعة" في الجملة الأئمّةُ الثّلاثة الّذين ذكرهم المصنّف، وعناهم، بقوله: "**على مذهب فقهاء الملة...**".

و "**مذهبُ فقهاء الملة...**" (الْمَذْهَب) مصدر (ذهب) وهو بمعنى المضي والسير، والطريق والطريقة، وقد يطلق على المعتقدِ، وجمعه (مذاهب) وهي: آراءٌ ونظريات ومعتقدات في أمرٍ دينيٍّ، أو اجتماعي، أو فلسفي، وقد تكون اعتقادية، أو فقهية، وحقّة أو باطلة، والمراد هنا الأوّل في الجميع.

و"مذهب" مضافٌ إلى "فقهاء الملة" وهذه الإضافة للتّخصيص؛ فإنّه يريد أن يبين أن المعتقد الّذي سيذكره مخصوص بأصل وطريقة هؤلاء الأئمة، الموصوفون بفقهاءِ الملّة.

و "**فقهاء**" جمعُ (فقيه)، وهو لغةً: من كان فهيمًا مستنبطًا، ويطلق على العالم

بالفقه، سواءٌ كان الفقه الأكبر، وهو فقه مسائل الاعتقاد، أو الفقه الأصغر، وهو فقه مسائل العبادات والمعاملات.

فكل مُتضلِّعٍ في العلوم الشّرعية يقال له فقيه، وكلّ عالمٍ في الشريعة يكون فقيهًا، ولكن ليس كلّ عالمٍ في فنٍّ يكون فقيهًا.

والفقه أخصُّ من العلم من حيث إنّه بحاجة إلى نظرٍ واستدلالٍ، واستنباطٍ، وتأمُّلٍ، ولهذا لا يطلق على اللهِ تعالى؛ لأنه عليمٌ وعالمٌ وعلّامٌ سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ، وليس بحاجة في علمه إلى نظرٍ واستدلالٍ، ولا تأمُّلٍ.

ولا يمكن لإنسانٍ أن يصبح فقيهًا حتّى يطلب الفقه، ولهذا جاء في حديث أبي هريرة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ عن رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ قال: **"النّاس مَعَادِنُ، خِيَارُهُمْ فِي الجَاهِلِيَّةِ خِيَارُهُمْ فِي الإِسْلَامِ، إِذَا فَقُهُوا"** [رواه البخاري ومسلم]، و **"فقُـهوا"** رُوي على الضبطين؛ بضم القاف، ومعناه: الّذي يطلب الفقه، ويتفقه، وبكسرِ القاف، ومعناه: الّذي صار فقيهًا، والمعنى الأول أشمل وأعمّ.

ولـمّا كان الفقهاءُ كُثُرًا؛ فأضافهم إلى **"الْمِلَّة"**، أيّ أنه ما سيذكره هو المخصوص بمذهب هؤلاء، وهم **"فقهاء الملّة"**، و**"الْمِلّة"** لغةً: الطريقة، وكثر استعمالها بمعنى الشّريعة، وأصل "الملّة" من (أَمْلَلتُ)؛ لأنّ الشريعة تُبنَى على متلوٍّ ومسموعٍ.

وفقهاءُ الملّة كُثُرٌ؛ فمنهم أجلّاءُ الصحابة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمْ، وأجلّاءُ التابعين، ومنهم سادات تبع التّابعين، وقد اشتهر في البلدان بالفقه أئمّةٌ، منهم الفقهاء التسعة،

وفقهاءُ المدينة، وفقهاء مكة، وفقهاء الكوفة، وفقهاء البصرة، وفقهاء الشام، وفقهاء مصرَ، واشتهر في كلّ مذهبٍ فقهاء؛ فثمّ فقهاء الحديث، وفقهاءُ الحنفيّة، وفقهاء المالكيّة، وفقهاء الشافعية، وفقهاء الحنابلة، وفقهاء الظاهرية، وغيرهم.

ولم يرد المصنّف رَحِمَهُ ٱللَّهُ هذا العمومَ؛ ولهذا خصّ الجمعَ المضاف "فقهاء الملّة" بالاسمِ، والبدلية؛ فذكر منهم معرِّفًا باختصارٍ ثلاثة؛ فقال: **"الإمام أبي حنيفة النُّعمان بن ثابت الكوفيّ...**"؛ فدلنا أنه إنما يذكرُ ما يذكرُ منقولًا عن أصل ومذهب وعقيدة هؤلاءِ الفقهاءِ الذين هم من فقهاء الملّة، وهم المخصوصون بالذّكرِ دون مَن سواهم.

و **"الإمام"** هو من يأتم ويقتدي به النّاس على وجه العمومِ، وقد يكون بمعنى أخصُّ وهو من يقتدي به النّاس في الصّلاة، وقد يتوسطُ ذلك كإمام المسلمين إذا أطلق على حاكمهم.

والإمامة في الدينِ مرتبةٌ من مراتب العلم العليّة، الّتي ينالها من يستحق الاقتداء به مطلقًا، وقد تكون عامّة؛ كقولنا: الإمامُ أبو حنيفة، والإمامُ مالكٌ، والإمام الشافعي، ونحوهم رحمهم الله تعالى؛ فهؤلاء يُقتدى بهم في الاعتقاد والسّلوك والفقه، وفي جميع طرق العلم، بخلافِ مَن لم ينل المرتبة المطلقة؛ فإنّه إنّـما يتبع فيما صار فيه إمامًا.

وقد تكون الإمامة خاصّة؛ كقولنا: إمام النحوِ سيبويه، وإمام العروض الخليلُ، وإمام الحديث، وإمام الأصول، وإمام الفقه، وإمام التفسيرِ، ونحو ذلك، ومن

باب الإمامة الخاصة إطلاقه على الحاكم؛ فإنه إنما ينقاد له فيما هو معروفٌ من أحكام الدّنيا.

و "**الإمامِ أبي حنيفة النعمان بن ثابت الكوفي...**" الجملة مجرورة على البدلية من "فقهاء الملّة"، "**والإمام أبي حنيفة...**" هو إمام المذهب الحنفيّ، ويعتبر المؤسس له، والمؤصل لقواعده، وهذه نبذة مختصرة عن هذا الإمام الجليل رَحِمَهُ ٱللَّهُ أذكرها على النحو الآتي:

أولاً: كنيته: أبو حنيفة الإمامُ، فقيه الملّة، عالمُ العراق.

ثانيًا: اسمه: النعمان بن ثابت ابن زوطى الكوفيّ مَوْلَى بني تيْمِ الله بن ثعلبة، وقد يقال مختصرًا: التيميّ مولاهم، وربّما يقال له: الخزّاز لبيعه ثياب الخزّ، وقد يقال له: الخراساني، نسبة إلى كون والده وجده من كابل، عاصمة أفغانستان الحالية، وهي من بلدان خراسان قديمًا؛ فهو فارسي الأصلِ، كوفي الولادة والمنشأ، بغدادي الوفاة، قال ابنه حمّاد رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (أما زوطى: فإنه من أهل كابل، وولد ثابتٌ على الإسلام).

ثالثًا: ولادته: أرجح الأقوال أنّه ولد سنة (٨٠) من الهجرة، في حياة صغار الصحابة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ، وعلى هذا يكون قد أدرك بعض الصحابة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ الذين تأخر وفاتهم في الكوفة إلى ما بعد التسعين من الهجرة، ولهذا قيل: إنه رأى أنس بن مالكٍ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ البصريَّ لما قدمَ الكوفة في آخر حياته رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

ووِلِدَ الإمامُ أبو حنيفة في الكوفة اتفاقًا.

رابعًا: نشأته: نشأ الإمام في كنف تابعي الكوفةِ، وكانت مركزًا من مراكز العلمِ، لا سيما وقد كان فيها أجلّة تلامذة ابن مسعودٍ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ، وارتحل في طلب الحديث والفقه إلى البصرة والحجاز، ولهذا تجد في شيوخه من وهو بصري، وحجازي.

خامسًا: شيوخه: للإمام أبي حنيفة رَحِمَهُٱللَّهُ شيوخٌ كثُر، ومن أشهرهم: فقيه الكوفة حماد بن سليمان وقد لازمه قرابة عشرين سنة، وعطاء بن أبي رباح، وأبو جعفر الباقر، وعاصم بن أبي النجود، وتخصص في طلب الفقه، وعُني بطلب الآثار، وارتحل في ذلك، وأما الفقه والتدقيق في الرأي وغوامضه؛ فإليه المنتهى، والنّاس عيال عليه في ذلك.

سادسًا: تلامذته: له تلامذة كثر، وحدث عنه خلقٌ، وأخذ عنه الفقه خلقٌ، ومِن أشهرهم: أبو يوسف القاضي، ومحمد بن الحسن الشيباني، وحمزة الزيات، وزفر بن الهذيل، وأسد بن عمرو، والحسن بن زياد اللؤلؤي، والحسن بن فرات القزاز، وابنه حمّاد، وأبو مطيع الحكم بن عبد الله، وأبو عصام النبيل، وعبد الله بن المبارك، وعبد الرزاق بن همام الصنعاني، وعبيد الله بن الزبير القرشي، وهشيم بن بشير الواسطي، ووكيع بن الجراح الرؤاسي،

سابعًا مؤلفاته: ذُكر للإمام أبي حنيفة رَحِمَهُٱللَّهُ عدةُ مؤلفاتٍ، وأنه ألف في الأصول، ولكن لم يصل إلينا منه شيءٌ، ومن المؤلفات المنسوبة إليه، والمشهورة عنه عند الحنفية: ١) الفقه الأكبر. ٢) الفقه الأبسط. ٣) الوصية.

٤)العالم والمتعلم. ٥) الرسالة إلى مقاتل بن سليمان. ٦) الرسالة إلى عثمان البتي. ٧) المسند في الحديث، وهو من جمع الحصكفي رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

ثامنًا: أخلاقه: كان عظيم المروءة، حسنَ الطليعة، سريّ الثوبِ، عطرَ الريح، كثير الصلاةِ والعبادة، سخيّ النفسِ والمالِ، يهدي الهدايا لقرائنه؛ فضلًا عن شيوخه، ويخص تلامذته بعطاياه.

وكان حليمًا، ورِعًا، سخيًّا، بارًّا، نبيهًا، حذِقًا، ذكيًّا، فطنًا، متواضعًا حتّى إنه روى عن بعضِ مَن هو أصغرُ منه سنًّا؛ كشيبان النحوي الكوفي، والإمام مالك بن أنس الأصبحي.

وكان كما قال شريك النخعي: (طويل الصمتِ، دائم الفكرِ، قليل المجادلة للناس).

وكان كما قال الإمام عبد الله بن المبارك: (لو رأيتَ أبا حنيفة لرأيتَ عقلًا، ونُبْلًا)، وقال شعرًا:

رَأَيْتُ أَبَا حَنِيفَةَ كلّ يَوْم ... يزِيد نباهة وَيزِيد خيرا
وينطق بِالصَّوَابِ وَيَصْطَفِيهِ ... إِذَا مَا قَالَ أَهْلُ الْجَوْرِ جَوْرَا
يُقَايِسُ مَنْ يُقَايِسُهُ بِلُبٍّ ... وَمَنْ ذَا تَجْعَلُونَ لَهُ نَظِيرَا
كَفَانَا فَقْدُ حَمَّادٍ وَكَانَتْ ... مُصِيبَتُنَا بِهِ أَمْرًا كَبِيرَا
رَأَيْتُ أَبَا حَنِيفَةَ حِينَ يُؤْتَى ... وَيُطْلَبُ عِلْمُهُ بَحْرًا غَزِيرَا
إِذَا مَا الْمُشْكِلاتُ تَدَافَعَتْهَا ... رِجَالُ الْعِلْمِ كَانَ بِهَا بَصِيرَا.

وقد امتُحِن الإمام رَحِمَهُ ٱللَّهُ حيث أُرِيد أن يتولى بيت المالِ لابن هبيرةَ فأبى فضربه أسواطًا، وهو على الامتناع؛ وصبر؛ فلما رأى ذلك الصبر منه خلى سبيله، فاختار العذاب الدنيوي على العذاب الأخروي، حتّى فرّج الله عنه.

وكان الإمامُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ يقول: (هَذَا الّذي نَحْنُ فِيهِ رَأْيٌ لَا نُجْبِرُ أَحَدًا عَلَيْهِ، وَلا نَقُولُ يَجِبُ على أَحَدٍ قبُوله بكراهية؛ فَمن كَانَ عِنْده شيء أحسن مِنْهُ فليأت بِهِ).

وقال الإمام رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (إِذَا جَاءَ الْحَدِيثُ الصَّحِيحُ الإِسْنَادِ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَخَذْنَا بِهِ، وَلَمْ نَعْدُهُ، وَإِذَا جَاءَ عَنِ الصَّحَابَةِ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ تَخَيَّرْنَا، وَإِنْ جَاءَ عَنِ التَّابِعِينَ زَاحَمْنَاهُمْ، وَلَمْ نَخْرُجْ عَنْ أَقْوَالِهِمْ).

تاسعًا: ثناءُ العلماء عليه: سأذكر هنا بعضًا مِن ثناء العلماء عليه، ومن أراد الزيادة فليراجع الكتب المختصة، وذلك لكثرة ثناء العلماء عليه، قال الإمام أبو جعفرٍ محمد بن علي الملقب بالباقر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (ما أحسن هديه وسمته، وما أكثر فقهه).

وقال الحسن بن صالح بن حيّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (كان النعمان بن ثابت فهمًا عالـمًا متثبّتًا في علمه، إذا صح عنده الخبر عن رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لم يعْدُه إلى غيره).

وقال الإمام سفيان الثوري رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (كَانَ أَبُو حَنِيفَةَ شَدِيدَ الأَخْذِ لِلْعِلْم ذَابًّا عَنْ حَرَمِ اللهِ أَنْ تُسْتَحَلَّ يَأْخُذُ بِمَا صَحَّ عِنْدَهُ مِنَ الأَحَادِيثِ الّتي كَانَ يَحْمِلُهَا الثِّقَاتُ وَبِالآخِرِ مِنْ فِعْلِ رَسُولِ اللهِ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَبِمَا أَدْرَكَ عَلَيْهِ عُلَمَاءَ الْكُوفَةِ ثُمَّ شَنَّعَ

عَلَيْهِ قَوْمٌ يَغْفِرُ الله لنا وَلَهُم).

وقال الإمام الشافعيّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (النّاس عيال على أبي حنيفة في الفقه).

واتُّهِم الإمامُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ بالقول بخلقِ القرآن والاستتابة منه، ومعلومٌ أن هذه المسألة أحدثت في زمن الإمام أحمد رَحِمَهُ ٱللَّهُ، ولم يكن معروفًا؛ فكيف يقال إنه استتيب منه، ولهذا ردّ الأئمة المحققون هذا القول عنه، وما في هذه العقيدة المباركة من إثبات أن القرآن الكريم كلام الله تعالى خير دليل على صحة مذهب الإمام أبي حنيفة رَحِمَهُ ٱللَّهُ في القرآن، وأنه كلام الرحمن تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ.

وكذلك نُقِل عنه أنّه رَحِمَهُ ٱللَّهُ يرى الخروج على ولاة الأمر إذا جاروا، وبذلك شنّع عليه بعضُ معاصريه، ولكنّ منصوص هذه العقيدة جلية في أنّه رَحِمَهُ ٱللَّهُ لا يرى الخروج على ولاة الأمرِ، وأن هذا هو عقيدته في آخر الأمر، أو أنّ هذا هو عقيدته ابتداء وانتهاءً، وأنّ ما نقل عنه في ذلك إنما كان بغرض تسييس الأمور باسمه، والمتاجرة في القضية تحت غطائه، والله تعالى أعلم.

وذكر بعضُ من ترجم له أنه كان بدأ علمَ الكلام في أوّل حياته، وهذا كما قال الحافظ الذهبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (قَاتَلَ اللهُ مَنْ وَضَعَ هَذِهِ الخُرَافَةَ، وَهَلْ كَانَ فِي ذَلِكَ الوَقْتِ وُجِدَ عِلْمُ الكَلَامِ)، وقال أيضًا: (وَمَا عَلِمْنَا أَنَّ الكَلَامَ فِي ذَلِكَ الوَقْتِ كَانَ لَهُ وَجُوْدٌ -وَاللهُ أَعْلَمُ-).

عاشرًا: وفاته: توفي الإمامُ أبو حنيفة رَحِمَهُ ٱللَّهُ ليلة النصف من شعبان سنة (١٥٠) خمسون ومائة من الهجرة باتفاق المؤرّخين، وهي نفسُ سنة ولادة

الإمامِ الشافعيّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ، وكان وفاته ببغداد، وقد عُمِّر سبعين سنة، رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالى رحمة واسعة [ينظر في ترجمة الإمام: الانتقاء لابن عبد البر، وسير أعلام النبلاء، وتهذيب التهذيب لابن حجر].

قوله: **"وأبي يوسف يعقوب بن إبراهيم الأنصاري"** وهذه جملة مجرورة، معطوفة على الجملة السابقة، وعلى البدلية مِن **"مذهبِ فقهاءِ الملّة"**؛ فالإمام أبو يوسف رَحِمَهُ ٱللَّهُ منهم بلا ريب، وهذه نبذة مختصرة عنه:

أولاً: كنيته: أبو يوسف، ويلقب بالقاضي، وبصاحب الإمام أبي حنيفة، الإمامُ المجتهد، العلامة، المحدث، وقاضي القضاة.

ثانيًا: اسمه: يعقوب بن إبراهيم بن حبيب بن خنيس بن سعد بن حَبْتَة البجلي الأنصاري، والكوفيّ، وسعدٌ هذا له صحبة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

ثالثًا: ولادته: ولد سنة (١١٣هـ) ثلاث عشرة ومائة.

رابعًا: نشأته: لزم عدّة من المحدثين كابن أبي ليلى، والفقهاء، واختص بلزوم الإمام أبي حنيفة رَحِمَهُ ٱللَّهُ، وتفقه به، حتّى التزمه سبعة عشرة سنة، إلى وفاة الإمام، وهو من أنبل تلامذته، وأعلمهم، وكان الإمام أبو حنيفة رَحِمَهُ ٱللَّهُ ينفق عليه لقلة ذات يده في أيام الطّلب.

خامسًا: شيوخه: له شيوخٌ كثر، ومن أشهرهم الإمام أبو حنيفة رَحِمَهُ ٱللَّهُ، وقد التزمه ما يقرب من عشرين سنة، وأخذ عن ابن أبي ليلى، وعن المحدثين، وسمع الحديث، ومنهم: هشام بن عروة بن الزبير، ويحيى بن سعيد الأنصاري،

والأعمش.

سادسًا: تلامذته: أخذ عنه الحديث والفقه خلق، ومِن أنبل تلامذته؛ الإمام محمد بن الحسن الشيباني، ومعلَّى بن منصور؛ بل وحدَّث عنه الإمامُ أحمد، ويحيى بن معين، وأسد بن الفرات، وعمرو الناقد.

سابعًا مؤلفاته: من مؤلفات القاضي أبي يوسف: ١)اختلاف أبي حنيفة وابن أبي ليلى. ٢)الآثار. ٣)الخراج، وهو من أنفس كتبه، ولم يؤلف مثله أحدٌ قبله، ولا بعده. ٤)الرد على سير الأوزاعي.

ثامنًا: أخلاقه: كان سمحًا، عظيم حفظِ الودّ، وكان يدعو في أيّ دعاءٍ لشيخه الإمام أبي حنيفة رحمهم الله، وكان رجلًا محفوظَ العرضِ، ورعًا نقيًّا تقيًّا، قضى لثلاثة من الخلفاء؛ المهدي، والهادي، والرشيد، ولم يشنّع ولم ينغّص عليه في شيء.

وكان الرّشيد يكرمه ويُجلّه، وكان عنده حظيًّا مكينًا.

وكان معروفًا بالإنصاف، معروفًا بالاتباع، قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ عند وفاته: (كل ما أفتيت به فقد رجعت عنه إلا ما وافق الكتاب والسنة)، وفي رواية: (إلا ما في القرآن، واجتمع عليه المسلمون).

ومن جميل كلامه رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (مَن طَلَبَ الْمَالَ بِالكِيْمِيَاءِ أَفلَسَ، وَمَنْ طَلَبَ الدِّيْنَ بِالكَلَامِ تَزَندَقَ، وَمَنْ تَتَبَّعَ غَرِيبَ الحَدِيْثِ كُذِّبَ).

وقال: (لَا نُصَلِّي خَلْفَ مَنْ قَالَ: القُرْآنُ مَخْلُوْقٌ، وَلَا يُفْلِحُ مَنِ اسْتَحلَى شَيْئًا

مِنَ الكَلَامِ).

وقال: (بِخُرَاسَانَ صِنْفَانِ مَا عَلَى ظَهْرِ الْأَرْضِ أَشَرُّ مِنْهُمَا: الْجَهْمِيَّةُ، وَالْمُقَاتِلِيَّةُ)، يعني المشبهة. [السنة لعبد الله بن الإمام أحمد].

ومِن أنبل أقواله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (العِلْمُ بِالخُصُومَةِ وَالكَلَامِ جهلٌ، وَالجَهْلُ بِالخُصُومَةِ وَالكَلَامِ عِلْمٌ).

تاسعًا: ثناءُ العلماء عليه: أثنى عليه عدّة من العلماء، ومنهم الإمامُ ابنُ معينٍ رَحِمَهُ ٱللَّهُ قال: (أبو يوسف صاحب حديثٍ، صاحب سُنّة).

قال الإمام محمد بن جرير الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (كَانَ ابو يُوسُف يَعْقُوب ابْن إِبْرَاهِيمَ الْقَاضِي فَقِيهًا عَالِمًا حَافِظًا ذَكَرَ أَنَّهُ كَانَ يُعْرَفُ بِحِفْظِ الْحَدِيثِ وَأَنَّهُ كَانَ يَحْضُرُ الْمُحَدِّثِ فَيَحْفَظُ خَمْسِينَ وَسِتِّينَ حَدِيثًا ثُمَّ يَقُومُ فَيُمْلِيهَا عَلَى النّاس وَكَانَ كَثِيرَ الْحَدِيثِ وَكَانَ قد جَالس مُحَمَّد بن عبد الرحمن بن أبى لَيْلَي ثُمَّ جَالَسَ أَبَا حَنِيفَةَ وَكَانَ الْغَالِبُ عَلَيْهِ مَذْهَبَ أَبِي حَنِيفَةَ وَكَانَ رُبَّمَا خَالفه أحيانا في المسألة بعد المسألة).

عاشرًا: وفاته: توفي الإمام أبو يوسف يوم الخميس في شهر ربيعٍ، سنة (٢٨٢هـ) اثنتين وثمانين ومائةٍ، وقد عاشَ تسعًا وستين سنةً، وكان وفاته ببغداد.

[ينظر في ترجمة الإمام: الانتقاء لابن عبد البر، وسير أعلام النبلاء].

قوله: **"وأبي عبد الله محمد بن الحسن الشيباني"** وهذه جملة مجرورة، معطوفة على الجملة السابقة، وعلى البدلية مِن **"مذهبِ فقهاءِ الملّة"**؛ فالإمام

الشيباني رَحِمَهُ ٱللَّهُ منهم بلا ريب، وهذه نبذة مختصرة عنه:

أولاً: كنيته: أبو عبد الله، الإمامُ العلامة، فقيه العراق، وقاضيها، وراوية فقه الإمامين أبي حنيفة وأبي يوسف.

ثانيًا: اسمه: محمد بن الحسن بن فرقدٍ الشيبانيّ.

ثالثًا: ولادته: وُلِد بواسط سنة (١٣٥هـ) خمسٍ وثلاثين ومائة، وقيل سنة إحدى وثلاثين، وهو مولًى لبني شيبان.

رابعًا: نشأته: نشأ في طلب العلم من صغره، وأخذ الحديث عن مالك، وعن الثوري، وغيرهما، ولازم الإمامَ أبا حنيفة ثم من بعده القاضي أبا يوسف، حتّى أصبح راوية حديث وفقه الإمامين، والقائم بمذهبهما.

خامسًا: شيوخه: أخذ العلم عن عدةٍ من العلماء، ومنهم: الإمام أبو حنيفة، والإمام مالك، والإمام سفيان بن سعيد الثوري، والإمام أبو يوسف القاضي.

سادسًا: تلامذته: روى عنه العلم عدّةٌ من العلماء، ومن أجلّتهم الإمام الشّافعيّ

سابعًا مؤلفاته: من مؤلفاته: ١) الآثار. ٢) الحجة على أهل المدينة. ٣) الكسب. ٤) الأصل المعروف بالمبسوط. ٥) السير الصغير.

ثامنًا: أخلاقه: كان رجلًا ضخمًا سمينا، عظيم الحلم، كثير العلم، تولَّى القضاء للخليفة هارون الرشيد بالرَّقَّة، ومع هذا كله كان يضرب بذكائه المثل.

تاسعًا: ثناءُ العلماء عليه: أثنى عليه عدة من أهل العلم، ومنهم الإمام الشافعي

رَحِمَهُ ٱللَّهُ حيث قال: (مَا رَأَيْتُ قَطُّ رَجُلا سَمِينًا أَعْقَلَ مِنْهُ)، وقَالَ: (وَكَانَ أَفْصَحَ النّاس، كَانَ إِذَا تَكَلَّمَ خُيِّلَ إِلَى سَامِعِهِ أَنَّ الْقُرْآنَ نَزَلَ بِلُغَتِهِ).

قال إبراهيم الحربي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (قُلْتُ لِلإِمَامِ أَحْمَدَ: مَنْ أَيْنَ لَكَ هَذِهِ المَسَائِلُ الدِّقَاقُ؟ قَالَ: مَنْ كُتُبِ مُحَمَّدِ بنِ الحَسَنِ).

قال الإمام يحي بن معين رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (كتبت عنه الجامع الصغير).

عاشرًا: وفاته: تُوُفِّيَ بالرّي حيث خرجا مع الرشيد إليها، وهناك وافته المنية، سنة (١٨٩هـ) تسعٍ وثمانين ومائة، وهو ابن أربعٍ وخمسين سنة، وقيل: توفي وهو ابن ثمانٍ وخمسين. [ينظر في ترجمة الإمام: الانتقاء لابن عبد البر، وسير أعلام النبلاء].

وهنا يأتي سؤال: **لماذا خص هؤلاء الأئمة الثلاثة بالذكر؟**

فالجواب: خصّهم بالذكر لأسباب عدة في نظري:

السّبب الأوّل: أنّ بعض أهل البدع قد انتسب إليهم؛ فأراد بيان عقيدتهم المبنيّة على الكتاب والسّنّة، وأنّها على طريقة أهل السّنّة والجماعة، وأنّ من ينتسب إليهم، ولا يقول بهذا الاعتقاد فليس انتسابه صحيحـًا.

السّبب الثّاني: أنّه يريد إبراء هؤلاء الأئمّة ممن ينتسب إليهم، وينسب إليهم ما هم منه براء؛ فكلّ ما خالف هذه السّطور في الاعتقاد؛ فليس هو من عقيدة هؤلاء الأئمّة الثّلاثة.

السّبب الثّالث: لأنَّه حنفيُّ في الفقه؛ فأراد أن يُبيِّن أنّ من يزعم اتباع أئمّة

الحنفيّة في الفقه؛ فإنّه يلزمه أن يعتقد هذا الاعتقاد الّذي كانوا يعتقدونه.

السّبب الرابع: أنّـهم إنّما يعتقدون الاعتقاد السّائد الّذي كان عليه خير القرون من الصّحابة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمْ، والتابعين، وتبع التابعين.

ومن خلال ترجمة هؤلاء الأئمة الثلاثة يتبين لنا زمانهم؛ فهؤلاء الأئمّة الثّلاثة قد أدرك منهم الإمام أبو حنيفة آخر قَرْنِ الصّحابة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمْ، وقد أدرك منهم أبو يوسف آخر قرن التّابعين، وقد أدرك الإمام محمد بن الحسن الشّيباني آخر قرن تبع التّابعين؛ ولهذا القرب الزمانيّ، والاتّصال العلميّ؛ فإنّ عقيدتهم تكون أسدَّ من عقائد من جاء بعدهم، أو لم تكن عقيدتهم موصولة بخير القرون؛ كالمعتزلة، والمشبّهة، والأشاعرة، والماتريديّة.

قوله: "**رحمهم الله تعالى**" هذه جملة دعائية خبرية بمعنى الطّلب، وهذا هو حقّ العلماء علينا، أن نترحم عليهم، وأن نحسن الظّنّ بهم، وأن نجلّهم ونوقّرهم بما يليق بقدرهم.

قوله: "**ورضي عنهم**" جملة دعائية خبرية ثانية بمعنى الطلب أيضًا، ومدلوله طلب الرضا من الله تعالى عنهم.

وهل يجوز الترضي على غير الصحابة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمْ؟

فالجواب: أنّ التّرضّي في الأصل مخصوصٌ بالصحابة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمْ؛ لأنّ الله تعالى خصهم بذلك؛ كما في الآيات الّتي فيها الثناء عليهم، ومنها قوله تعالى:

﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ مِنَ ٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحْسَٰنٍ

رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمۡ وَرَضُواْ عَنۡهُ وَأَعَدَّ لَهُمۡ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي تَحۡتَهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدٗاۚ ذَٰلِكَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ﴾ [سورة التوبة، من الآية:١٠٠]، وقال: ﴿لَّقَدۡ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ إِذۡ يُبَايِعُونَكَ تَحۡتَ ٱلشَّجَرَةِ﴾ [سورة الفتح، من الآية:١٨].

وتجوز لغيرهم وعلى غيرهم على وجه الدّعاءِ؛ لكن لا على وجه التّخصيص فلا يلحقون بدرجة الصّحابة رَضِيَٱللَّهُعَنۡهُمۡ، ولهذا نجد المصنّف رَحِمَهُٱللَّهُ ترحّم عليهم وترضّى عنهم، والجمعُ بين الاثنين ينفي توهّم التّخصيص؛ لأنّ التّخصيص وروده على وجه الخصوص، وعلى وجه الدوام.

والمعمول به في كتب العلماء جواز التّرضّي على الصحابة وغيرهم من أئمة الهدى، وهو محمول على الوجه الّذي ذكرته، أو على الجواز المطلق؛ كما ذهب إليه النّووي رَحِمَهُٱللَّهُ وغيره [ينظر: المجموع للنووي].

قوله: **"وما يعتقدون"** (ما) موصولة بمعنى (الّذي)، وجملة (يعتقدون) صلته، ويصح أن يكون (ما) وما بعده من الفعل المضارع مؤوّلًا بالمصدر، بمعنى (واعتقادهم)، "في أصول الدين"، و(في) هنا بمعنى (من)، ولهذا جاء في أكثر النسخ **"مِن أصول الدّين)**، و(مِن) هنا بيانيّة لنوع العلم الّذي سيكتُب فيه، وهو الاعتقاد، ويحتمل أن تكون تبعيضيّة، بناءً على أنَّ الرّسالة فيها بعضُ المسائل الّتي لم يذكرها المصنّف رَحِمَهُٱللَّهُ.

و **"أصول"** جَمْعُ (أَصْلٍ)، وهو ما يُبْنَى عليه غيره في اللّغة، وأمّا في الاصطلاح فالمراد به: الإيمانُ، والتّوحيد، والسّنّة، والشّريعة، والعقيدة، وإنّما سُمِّيَ

"أصول" لأنّ هذه الأصول يُبْنَى عليها العمل وصحّته، ويُبْنَى عليها الفقه، والأخلاق، والتّعامل، والجزاء والثواب والعقاب.

و **"أصول الدّين"** أضافَ الأصولَ إلى الدِّين، حتّى يُخرجَ أصول الفقه، وأصول الحديث، وأصول التّفسير، وحتّى يُفْهَمَ أنّ المراد هو الإيمان، والتوحيد؛ وفيه دلالة على جواز تسمية اعتقاد المسلمين بأصول الدّين.

"وما يَدِينُون": الدِّيانة ما به يَتَقَرَّبُ العبدُ إلى ربّه، سواءٌ كان حقًّا أو باطلًا، والمقصود هنا: الدِّيانة الحقّة؛ لأنها سَبَقَ وأضيفت إلى "أهل السنّة والجماعة" مِن وجهٍ، وأضيفت إلى الأئمّة الثّلاثة المشهورين من وجهٍ آخر، وهذا يدلّنا على كونه الاعتقاد الحقّ؛ فهم به يدينون ويتديَّنون، ويتعبّدون به اللهَ تَبَارَكَوَتَعَالَىٰ "ربَّ العالمين".

وسبب ذِكر اسم الرَّبّ: وإنّما ذكر اسم الرّبّ الدّال على صفة الرّبوبيّة لأنّه دليل التوحيد، والموصل إلى بيان حقّ ربّ العالمين، وهو الألوهية لله تعالى، وعبادته وحده لا شريك له.

[الاعتقاد في الله تعالى]

نَقُولُ فِي تَوْحِيدِ اللهِ تَعَالَى، مُعْتَقِدِينَ بِتَوْفِيقِ اللهِ تَعَالَى: إِنَّ اللهَ -تَبَارَكَ اسْمُهُ، وَتَعَالَى جَدُّهُ، وَجَلَّ ثَنَاؤُهُ، وَتَقَدَّسَتْ أَسْمَاؤُهُ- وَاحِدٌ، لَا شَرِيكَ لَهُ، وَلَا شَيْءَ مِثْلُهُ، وَلَا شَيْءَ يُشْبِهُهُ، وَلَا شَيْءَ يُعْجِزُهُ، وَلَا إِلَـٰهَ غَيْرُهُ، قَدِيمٌ بِلَا ابْتِدَاءٍ، دَائِمٌ بِلَا انْتِهَاءٍ، لَا يَفْنَى وَلَا يَبِيدُ، وَلَا يَكُونُ إِلَّا مَا يُرِيدُ، لَا تَبْلُغُهُ الْأَوْهَامُ، وَلَا تُدْرِكُهُ

الْأَفْهَامُ ، وَلَا يُشْبِهُـهُ الْأَنَامُ، وَهُوَ حَيٌّ لَا يَـمُوتُ، قَيُّومٌ لَا يَنَامُ، خَالِقٌ بِلَا حَاجَةٍ، رَازِقٌ بِلَا مَؤُونَةٍ، مُـمِيتٌ بِلَا مَـخَافَةٍ، بَاعِثٌ بِلَا مَشَقَّةٍ، وَمَا زَالَ بِصِفَاتِهِ قَدِيـمًا قَبْلَ خَلْقِهِ، لَـمْ يَزْدَدْ بِكَوْنِـهِمْ شَيْئًا لَـمْ يَكُنْ قَبْلَ ذَلِكَ مِنْ صِفَاتِهِ؛ وَكَمَا كَانَ بِصِفَاتِهِ أَزَلِيًّا؛ فَـكَذَلِكَ لَا يَزَالُ عَلَيْهَا أَبَدِيًّا.

الشرح

هذا تقرير من المصنف رَحِمَهُ ٱللَّهُ لأولى مسائل الاعتقاد، وهي المتعلقة بالله تعالى، وأنه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ يثبت له الوجود، ونثبت له الأسماء والصفات، ونثبت له الربوبية والألوهية.

قوله: **"نقول"** أيْ نحنُ أهل السّنّة والجماعة، ونتكلّم بهذه العقيدة، ونراه حقًّا، وهو منطوق قول الأئمة الثلاثة المروي عنهم هذه العقيدة؛ ولهذا جاء في بعض النسخ: (نقول: قال الإمام أبو حنيفة، وبه قال صاحباه الإمامان المذكوران رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ)، وهذا وإن كنت أجزم أنّه ليس من كلام الإمام الطّحاويّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ إلّا أنّه تفسير لمعنى القول.

و **"نقول"** أي نتكلّم بكلّ لفظٍ، وبأيْ لغةٍ، وهو فعلٌ مضارع، وماضيه (قال)، ومصدره (قول)، وهذا القول ناشئ عن عقيدة راسخة، وإيمان مبنيٍّ على يقين؛ فليس هو مجردُ قولٍ؛ بل قولٌ مُنْبِئٌ عمّا في القلب والضّمير؛ فهو ظاهرٌ يدلّ على ما في الباطن من الاعتقاد.

"**في توحيد اللهِ**" الجارُ والمجرور متعلق بالقول، في محل نصبٍ مفعول (نقول)، والجملة مؤكّدة أنّ الرّسالة إنّما هي في باب الإيمان والاعتقاد.

و "**التوحيد**" تفعيلٌ مِن وحّد إذا جعل الشَّيء واحدًا، وهذا التوحيد عند الإطلاق المرادُ به توحيد الألوهية، أي جعل عباداتِه لواحدٍ، وهو الله تعالى، وهو بهذا الاعتبار جَعلٌ من العبدِ لفعلِه؛ فلا يُشرِك في عبادة ربه تَبَارَكَ وَتَعَالَى.

ويطلق التوحيد على سبيل العموم على توحيد الرّبوبيّة، أي اعتقد الشَّيء واحدًا؛ فعلم أنّه لا ربّ سوى ربّ العالمين، وهذا الجعلُ راجعٌ أيضًا إلى عقيدته.

وليس الجعلُ راجعًا إلى الله تعالى، وذلك لأنه سبحانه واحدٌ لا بجعلِ جاعلٍ، ومما يؤكد أنّ المراد به المعنى الإطلاقيُّ الإضافةُ فقال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "**في توحيد الله**"، وإضافة التّوحيد إلى الله، باسم الألوهية لأنّه المقصود الأساس والأوّل، وهو المراد بالتوحيد عند الإطلاق، وإنّما توحيد الرّبوبيّة والأسماء والصّفات لأجل توحيد العبادة، ودليله، وسببه.

"**مُعْتَقِدِين**" اسمُ فاعلٍ مِن (اعتقد) فهو (مُعْتَقِدٌ)، أي رابطٌ قلبه وضميره على هذه العقيدة، وأنّها بـ"**توفيق الله**"، لا بالذكاء والفطنة؛ و(التَّوفيق) مصدرٌ من (وفَّق) بمعنى الهداية والإلهام، والتيسير والإكرام، ومن التّوفيق أن أوجد له آلات العلم، والاعتقاد، وأبعد عنه الْمُعَوِّقات، وأرسل له الرسل، وأنزل عليه

الكتاب، وأعانه؛ فاعتقد الاعتقاد الصّحيح في ربّ البريّات؛ فصار قلبه متوجّهًا ومستيقنًا بـ "**إِنّ الله واحدٌ**".

و "**إن الله –تبارك اسمه..**" هذه جملة اعتراضية دعائية ثَنائيّة، ويندبُ ألّا نذكر اسم الله تعالى إلا مقرونًا بالثَّناء والدّعاء، والتّمجيد، والتّعظيم، والتّقديس، والتّنزيه.

و "**تبارك**" بمعنى تعاظَم ووَزْنِه، وهو فِعْلٌ لازمٌ مُقارَبٌ لفعل (بَارَكَ) ولا يَتَصرّف؛ ولم يستعمل في غيره تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ؛ فلا يجيء منه مضارعٌ، ولا اسم فاعلٍ، ولا مصدرٌ، ومِن معانيه العلوّ والعظمة، وثبوت الكمال؛ فهو لم يزل ولا يزال، وقد تمجّد، وتعظّم، وترفّع، فهي صفةُ ذاتٍ فهو المبارَك الجليل، وعلى هذا يحمل قوله تعالى: ﴿تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَالَمِينَ﴾[سورة الأعراف، من الآية:٥٤].

وكون البركاتِ منه سبحانه فهو المبارِك، والخيرُ يتزايدُ مِن قبله، وقد زاد خيره وعطاياه، فمِن هذه الحيثية هي صفة فعلٍ، وعلى هذا قول عيسى عَلَيۡهِ‌ٱلسَّلَامُ: ﴿وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ﴾[سورة مريم، من الآية:٣١]، وقوله تعالى: ﴿فَكَسَوْنَا ٱلْعِظَٰمَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَٰهُ خَلْقًا ءَاخَرَ ۚ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ﴾[سورة المؤمنون، من الآية:١٤].

وأسماءُ الله تعالى كلها مباركة، ولهذا قال المصنّف رَحِمَهُ‌ٱللَّهُ: "**تبارك اسمه**"، و(اسم) مفردٌ مضافٌ إلى (هاء) الضّمير، فيعمّ كلّ أسماء الله تعالى؛ لأنّ القاعدة أنّ المفرد المضاف كجمعه المضاف يَعُمّ.

وبركةُ أسماء الله تعالى مِن جهة كونها كلّها حسنى، ومِن جهة كونها أسماءُ الله تعالى؛ فلا بدّ وأن تكون عظيمة، ومِن جهة كونها آثارُها جليلة؛ فهي بالغة في الحسن.

"**وتعالى جدُّه**" أيْ مكانته وقَدْرُه عالٍ؛ كما قال تعالى: ﴿وَأَنَّهُۥ تَعَٰلَىٰ جَدُّ رَبِّنَا مَا ٱتَّخَذَ صَٰحِبَةً وَلَا وَلَدًا﴾ [سورة الجن، من الآية:٣]، وفي حديث عمر رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ: "سُبْحَانَكَ اللهُمَّ وَبِحَمْدِكَ، تَبَارَكَ اسْمُكَ، وَتَعَالَى جَدُّكَ، وَلَا إِلَهَ غَيْرُكَ" [رواه مسلم].

وتُطْلَقُ كلمة (الجدّ) على جانب الشيء، فيكون المعنى: جنابُك عالٍ، وجنابك رفيع، ومن الاشتقاق الكبير لكلمة (الجد) كلمة (المجد)؛ فمعناه العظمة وعلو القدرِ؛ كما في حديث الفاتحة: "**وَإِذَا قَالَ: {مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ}، قَالَ: مَجَّدَنِي عَبْدِي**" [رواه مسلم].

ولكلمة (الجَدّ) معانٍ أُخَر؛ لكنّها لا تليق بالله تعالى، ولا تطلق.

"**وجلّ ثناؤك**" أي عَظُمَ ثناؤك، واستحقاقك للثّناء، وَوَضُحَ حقّك في الثناء، وعلا، و(**جلّ**) فعلٌ ماضٍ معطوف على (تعالى) ومصدره على صورته، والوصفُ منه (جليلٌ)، بمعنى الكبير، والعظيم القدر.

و "**ثناؤك**": (ثناءُ) اسمٌ مضافٌ إلى (كاف) الخطابِ، والمخاطَبُ هو الله تعالى، و(الثناء): المدحُ، والتبجيل، والتقدير، ومنه حديث الفاتحة: "**وَإِذَا قَالَ: {الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ}، قَالَ اللهُ تَعَالَى: أَثْنَى عَلَيَّ عَبْدِي**" [رواه مسلم]، وأصل كلمة

(ثَناء) معدولٌ مِن اثنين، اثنين، ويُجمعُ على (أثنية)؛ فإن أريد التثنية قيل: (ثُناء)، وإن أريد التكرار مع التعظيم قيل: (ثَناء).

"وتقدّست أسماؤه" جملة فعلية معطوفة على **"تبارك اسمه"**، و(تقدَّسَ) فعلٌ ماضٍ و(التاءُ) فيه للتأنيث؛ لأنّ (أسماء) مؤنثٌ لفظًا، ومعنى (تقدَّس) تطهَّر، وتنزَّه فهو مُتقدِّسٌ مُتنزِّهٌ عن كلّ عيبٍ ونقصٍ في أسمائه جلّ وعزّ.

ومن قوله "تبارك" إلى قوله "وتقدست أسماؤه" كلها جملة اعتراضية، ثَنائية لاسم (الله) تعالى الواقع موقع الابتداءِ، اسم إنّ، والخبر **"واحدٌ"**.

قوله: **"إنّ الله...واحدٌ"** جملةٌ في محل نصب مفعول **"نقول"**؛ فهي جملةُ مقول القولِ، وأكّد الجملة بـ(**إنّ**) المؤكِّدة، الّتي تدخل على الجملة الاسميّة فتُضفِي عليها التّأكيد والتّوكيد، وتعمل فيها إعرابًا فتنصب المبتدأ اسمًا لها، وترفع الخبر خبرًا لها.

و **"واحدٌ"** خبرٌ مثبتٌ على سبيل الإخبار متضمنٌ معنى الوصفية والاسمية، فهو وصفٌ بمعنى الفردانيّة الذّاتيّة، والوصفيّة، والفعليّة، فالله تعالى واحدٌ بهذا المعنى ذاتـًا فلا ثاني له، ولا ثالث له، ولا شركاء له، مِن جهة أنّه الواحد الأحد، والله تعالى واحدٌ وصفًا فليس لصفاته مثيلٌ، والله تعالى في أفعاله أحدٌ فلا مثيل له فيها، و(أحدٌ) بمعنى الكمال الوصفيّ.

ولا بد أن يكون اعتقاد وحدانية الله تعالى على وجه اليقين الّذي لا يعتريه الشك، ولا يدخل في القلب منه الرّيبُ، وهذه أوّلُ ما يجب على المسلمُ

اعتقاده، وحدانية الله تعالى، وتشتمل هذه الوحدانيّةُ وحدانيّةَ الذّات؛ كما قال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّٰرُ﴾ [سورة الرعد، من الآية:١٦]، وقال: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ [سورة الإخلاص، من الآية:١]، وتشتمل على وحدانيّة الرّبوبيّة؛ كما قال تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ﴾ [سورة يونس، من الآية:٣]، وتشتمل على وحدانيّة الألوهية؛ كما قال تعالى: ﴿إِنَّنِيٓ أَنَا ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدْنِي وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكْرِيٓ﴾ [سورة طه، من الآية:١٤]، وقال: ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ﴾ [سورة فاطر، من الآية:٣]، ووحدانية الأسماء والصّفات؛ كما قال تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَيْءٌ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [سورة الشورى، من الآية:١١].

وهذا كلُّه خلاف ما عليه الثّنويّة، والْمُشْرِكيّة، والْمَجوسيّة، ومَن يعتقدون بتعدد الآلهة، وتعدد الآلهة باطل لبطلان تعدّد الرّب؛ فإنّه يستحيل عقلاً ونقلاً أن يتعدّد الرّب لهذا الكون، كما قال تعالى: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا فَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ [سورة الأنبياء، من الآية:٢٢].

قوله **"لا شريك له"** جملة منفية في محلِّ رفع خبرٌ ثانٍ لقوله: **"إن الله..."**، والمعنى إن الله واحدٌ، وإن الله لا شريك له، أو في محلِّ رفعٍ صفة لـ**(واحد)**، وهذا لتأكيد الوحدانيّة في الألوهيّة، و **"لا"** نافيةٌ للجنس، ومعناه: نَفْيٌ للشِّرْكَةِ من كلّ الوجوه.

و **"شريك"** وصفٌ مصدريٌّ بمعنى المشاركة، فعيلٌ مِن (شرك، يشرك)، ويجمع على شركاء، و (الشَّريك): هو مَن يشارك الآخر في جنسٍ، أو في وصفٍ،

أو في فعلٍ، أو في حقٍّ، سواءٌ كانت هذه المشاركة في قليلٍ أو كثيرٍ، وكلّ هذه المعاني منتفية في حق الله تعالى؛ فإنّه الواحد الخالق وكلّ مَن سواه مخلوق، وصفاته ليست كصفات المخلوقين، وأفعاله لا تتوقف على الأسباب كالمحدَثين، والعبادةُ حقٌّ محضٌ له تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ، وبهذا كلّه ثبت له الوحدانية والأحدية من كلّ وجهٍ.

و **"لا شريك له"** الضمير في **"لهُ"** راجعٌ إلى الله الواحدِ؛ فهو الّذي ليس له شريكٌ، وكلّ مَن سواه تُتصوّر في حقّه الشِّرْكَة؛ إما واقعـًا، وإما تقديراً.

وهذه العبارة مؤكّدة لمعنى الأحديّة لله تعالى، والمعنى ليس له شريك بأيّ وجهٍ مِن الوجوه؛ وذلك لأنّ الشِّرْكَة إنّما تُتَصَوَّرُ فيمن يكون له نظيرٌ مِن جنسه، أو مقاربٌ له في وصفه، أو مشاركٌ له في فعله، والله تعالى ليس له نظيرٌ ولا ندٌّ ولا ضدٌّ؛ فدلّ ذلك على كمال تفرده، وهذا يدل على أنّ الله تعالى لا شريك له في العبادة، ولا شريك له في الخالقية؛ فهو خالق كلّ شيء، ولا شريك له في التّفرّد بصفات الكمال والجمال؛ فهو سبحانه واحدٌ من كلّ وجه؛ واحدٌ لا ثاني له، وواحدٌ لا مثيل له، وواحدٌ لا شريك له في العبادة، قال تعالى: ﴿قُلِ ٱدْعُواْ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِن شِرْكٍ وَمَا لَهُۥ مِنْهُم مِّن ظَهِيرٍ﴾ [سورة سبأ، من الآية:٢٢].

قوله: **"ولا شيء مثله"** هذه جملة منفيّة خبرٌ ثالثٌ لقوله: **"إن الله..."**، والمعنى إن الله واحدٌ، وإن الله لا شيء مثله، أو في محلِّ رفع صفة لـ**(واحد)**، وهذا أيضًا لتأكيد الوحدانيّة في الذَّاتِ، والأسماء، والصّفات.

و **"شيءٌ"** جمعُ أشياء، وتُطلق هذه الكلمة على الذّوات، وعلى الأوصاف؛ فيقال: هذا شيءٌ يتحرك، وهذا العلم شيءٌ نافعٌ، وقد يطلق على المعدوم، والأصل أنّه يطلق على كلّ موجودٍ بالاشتراك، قال الله تعالى: ﴿قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَادَةً قُلِ ٱللَّهُ شَهِيدٌۢ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ﴾[سورة الأنعام، من الآية:١٩]، وإطلاق (الشيء) على الله تعالى جائزٌ مِن باب الخبر؛ فنقول: الله تعالى شيءٌ عظيمٌ، ويقال في حق الله تعالى: إنّه شيءٌ ثابتٌ وجوده؛ لأنّ الشيء يطلق على الموجود، وعلى ما يشار إليه، والله تعالى (موجودٌ) بمعنى ثابتٌ وجوده، وهو جل في علاه يشار إليه بالعلوِّ فهو العليّ الأعلى.

و **"مثله"**: المِثْلُ الشِّبْهُ والنَّظيرُ، مضافٌ إلى (هاء) الضمير، وهو عائدٌ على الله تعالى؛ وهو سبحانه **"لا مثل له"** أي لا شبيه له، ولا نظير له، ونفي المثلية عن الله تعالى مُطلقٌ، سواءٌ في ذاته، أو أسمائه، أو صفاته، ويدل له قوله تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَيْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾[سورة الشورى، من الآية:١١]، وقوله: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾[سورة الإخلاص، من الآية:١]، وقوله: ﴿هَلْ تَعْلَمُ لَهُۥ سَمِيًّا﴾[سورة مريم، من الآية:٦٥]، وقوله:

﴿فَلَا تَجْعَلُوا۟ لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾[سورة البقرة، من الآية:٢٢]؛ فهذه الآيات ترد المثلية مِن كلّ وجه، خلافا للمُمثِّلة، من الهشاميّة والسّالميّة والكرّاميّة، ونحوهم.

وهنا لا بدّ من التّنبّه مِن أنَّ النَّفْيَ الوارد في كتاب الله تعالى ليس المقصود منه ذات النّفي، وإنما المقصود النّفي مع إثبات كمال الضّد، وذلك لأنّ النّفي المحض ليس كمالًا؛ فإذا قلنا عن الله تعالى: إنه واحدٌ لا شريك له؛ فذلك لكمال غناه، وإذا قلنا: لا شيء مثله؛ فذلك لكمال تفرده ووحدانيته وجماله وجلاله.

قوله: "**ولا شيء يشبهه**" جملة منفية خبرٌ رابعٌ لقوله: "**إن الله...**"، والمعنى إن الله واحدٌ، وإن الله لا شيء يشبهه، أو في محلِّ رفع صفة لـ(**واحد**)، وذلك لتأكيد الجملة الّتي قبلها، وهي: "**ولا شيءَ مثله**"، إن كانت مِن المصنّف رَحِمَهُ ٱللَّهُ، وإنْ كان من النّسّاخِ فهي جملة تفسيريّة، وهي للدّلالة على كمال صمديّته، وأحديّته.

و(الْمِثْلُ) و(الشِّبْهُ) معناهما متقاربٌ من حيث اللغة، إلا أن (المثل) أعمّ، ونفي الأعمّ نفيٌ للأخصّ؛ فإنه إذا تقرر عقلًا ونقلًا أنّ الله تعالى لا شيءَ مثلُه؛ فإنه يتضمّن معنى أنه لا شيء يشبهه بوجهٍ من الوجوه، وإنما أتينا بكلمة (الشبه) مع عدم وروده نصًّا؛ لأنّ نفي الأعم دليل على نفي الأخص، وإثباتُ الأخصّ دليلٌ على إثبات الأعمّ، فلفظُ القرآن نفيٌ للأعم وهو (المثل) وإطلاق العلماءِ نفيٌ للأخصّ، ولا ريب أن طريقة القرآن أولى، وإنما العلماءُ رَحِمَهُمُ ٱللَّهُ أرادوا بذكر المعنى الأخص الإتيان بكلمة قريبة لمعنى (المثل) فأتوا بالشِّبْهِ.

وكلمة (الشِّبه) اسمٌ للنحاس الأصفرِ وذلك لشبهه بالذهب وليس هو، ويجمعُ على (أشباه)، ومن قريب اشتقاقه (اللبس) والخلط، وذلك لتقارب الأمرين واختلاط الشيئين لتداخلهما، أو تقاربهما، أو تجانسهما، أو تشاكلهما، وهذه هي الصّور الّتي تتصوّر فيها التّشبيه.

قوله: "**ولا شيء يعجزه**" جملة منفية في محلّ خبر رابعٍ لقوله: "**إن الله...**"، والمعنى إن الله واحدٌ، وإن الله لا شيء يعجزه، أو في محلٍّ رفع صفة لـ(**واحد**)، وهذا لبيان أنّه مع كونه تَبَارَكَوَتَعَالَىٰ واحدَ الذاتِ؛ لكنه عظيمٌ لا يُعجزه شيءٌ لكمال قدرته، ولكمال قوته.

ومعنى "**ولا شيء يُعجِزُه**" أي لا شيء يقدر أن يجعله عاجزاً، فلا يَقْوى عليه، ويسبقه ويفوته فلا يُدْرِكُه؛ ولا يوجدُ شيءٌ لا يقدر عليه؛ فهو سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ ﴿عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾[سورة البقرة، من الآية:٢٠]، ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ ٱلْقَوِىُّ ٱلْعَزِيزُ﴾[سورة هود، من الآية:٦٦]، ﴿وَهُوَ شَدِيدُ ٱلْمِحَالِ﴾[سورة الرعد، من الآية:١٣]؛ فالله تَبَارَكَوَتَعَالَىٰ لا يوجدُ شيء يَسْبِقُه، ويَفُوتُه، قال سبحانه: ﴿أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن يَسْبِقُونَا سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾[سورة العنكبوت، من الآية:٤]، قال تعالى: ﴿وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِى ٱللَّهِ وَأَنَّ ٱللَّهَ مُخْزِى ٱلْكَـٰفِرِينَ﴾[سورة التوبة، من الآية:٢].

فالله تعالى لا يُعْجِزُهُ شَيْءٌ لكمال قدرته، وعزَّته، وجبروته، فهو سبحانه القادر على كلّ شيء، فأوجد المخلوقات، ورزق البريّات، ودبّر أمر الكائنات، وآثار

هذه القدرة العظيمة دالّة على الذّات العليّة، الموصوفة بصفات العزّة والقهر والقدرة.

وفي هذا القول إشارة إلى إثبات الصّفات، لا سيما صفات الأفعال؛ فإنّه سبحانه لم يزل قادرًا؛ كما لا يزال قادرًا، ولم يزل فاعلًا؛ كما لا يزال فاعلًا؛ فهو سبحانه فعّالٌ لما يريد، ومما يدلّ على كونه سبحانه أزليّ الفعل، وأبديّ الفعلِ، وأنّه سبحانه لا يأتِ عليه يومٌ فيكون مُعطّلًا؛ كذلك لم يأت عليه يومٌ وكان فيه مُعَطّلًا؛ قال الله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ﴾ [سورة هود، من الآية:١٠٧]، ﴿إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ ﴿١٢﴾ إِنَّهُۥ هُوَ يُبْدِئُ وَيُعِيدُ ﴿١٣﴾ وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلْوَدُودُ ﴿١٤﴾ ذُو ٱلْعَرْشِ ٱلْمَجِيدُ ﴿١٥﴾ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ﴾ [سورة البروج، من الآية:١٢-١٦]، وقال سبحانه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ﴾ [سورة الحج، من الآية:١٤]، وقال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَآءُ﴾ [سورة الحج، من الآية:١٨]، وكونه تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ فعّالًا لما يريد دليل على ديمومة أفعاله سبحانه، وهذه الديمومة ليس لها بداية؛ كما ليس لها نهاية، وهي مرتبطة بإرادته سبحانه، ولم يكن جلّ في علاه معطّلًا عن إرادته؛ فكذلك لم يكن معطّلا عن الفعل سُبْحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ.

ولا يلزم من القول بديمومة فعل الرّبّ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ ماضيًا ومستقبلًا ديمومة المخلوقات؛ فإنّ المخلوقاتِ أجناسًا؛ كلّما هلك جنسٌ جاء جنسٌ، وكلّما ذهب نوعٌ أتى نوعٌ؛ وكذلك في الماضي كلّما كان جنسٌ أو نوعٌ كان قبله جنسٌ أو نوعٌ؛ فليس شيءٌ من المخلوقات أزليّ.

فإن قيل: إنّ مِن جنس المخلوقات ما هو معلومٌ أبديّته؛ كأهل الجنّة والنّار؛ فهل يقال كذلك: إنّ هناك مخلوقٌ أزليٌّ في الماضي؟

فالجواب: أنّ ذلك كان يصحّ ويلزم لو كان أبديّة بعض المخلوقات بذاتها؛ أمّا وأبديّتها بإرادة الله تعالى؛ فهذا لا يقاس عليه؛ لأنّا علمنا بالنّص أبديّة بعض أجناس المخلوقات مستقبلًا، ولم نعلم ذلك بالقياس، وذلك لأنّ القياس يقتضي فناءَ المخلوق، وعدم بقائه أبد الدّهر؛ لأنّ المحدَث ليس له وصفُ الديمومة؛ فهو سبحانه يحكم على أهل الجنّة بالخلود، وعلى أهل النّار بالخلود؛ فيحصل لهم الديمومة، وإلّا فإنّ جنس المخلوق لا يتصور منه الأبديّة بذاته.

قوله: "**ولا إله غيره**" جملة منفية في محلِّ رفعٍ خبرٌ خامسٌ لقوله: "**إن الله...**"، والمعنى إن الله واحدٌ، وإن الله لا إله غيره، أو في محلِّ رفع صفة لـ(**واحد**)، وذلك لتأكيد استحقاقه العبادة وحده؛ لكونه الواحد، ويصح أن تكون صفة لجملة "**لا شريك له**"؛ فإنّه إذا كان لا شريك له؛ فلا إله إلّا هو.

و "**إلٰه**" بمعنى مألوهٌ أي معبود، وتطلق هذه الكلمة على الإله بحق، وعلى الآلهة الباطلة بزعم عابديها -كما سبق بيانه- وإلّا فلا معبودَ مع الله تعالى حقيقة، إنّما هي توهُّمَاتٌ مِن العابدين، وأسماءٌ منهم سَمّوا بعض المخلوقات آلهةً، ﴿وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّا ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ﴾ [سورة ص، من الآية:٦٥].

و"**إلـٰه**" نكرة في سياق النفي تفيد العموم، وتفيد بأنّه لا يوجد أيُّ جنسٍ ولا أيّ فردٍ، ولا أي شيءٍ، يستحقُّ العبادة إلا واحدٌ وهو الله تعالى.

وهذا نصٌ على توحيد الألوهية، وهو معنى شهادة التوحيد: "**لا إلـٰه إلا الله**"، ومعناها: لا معبودَ حقٌّ إلا الله، وهذا التّوحيد نتيجة لما سبق من الفردانيّة الذّاتيّة، والرّبوبيّة، والأسماء والصّفات؛ فتوحيدُ الرّبوبيّة والأسماء والصّفات دليل توحيد الألوهية، قال تعالى: ﴿شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُو۟لُوا۟ ٱلْعِلْمِ قَآئِمًۢا بِٱلْقِسْطِ ۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [سورة آل عمران، من الآية:١٨]، وقال جلّ في علاه: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۖ يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ ۖ مَا مِن شَفِيعٍ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ إِذْنِهِۦ ۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ [سورة يونس، من الآية:٣].

فإن قال قائل: ما أقسام التوحيد؟

فالجواب: يستفاد من كلام المصنّف أقسام التوحيد الثلاثة؛ وهي:

القسم الأوّل: توحيد الألوهيّة؛ وهو عبادة الله وحده لا شريك له.

القسم الثّاني: توحيد الرّبوبيّة؛ وهو اعتقاد أنّ الله تعالى هو الخالق المالك الرَّزَّاق المتصرِّفُ وحده.

القسم الثّالث: توحيد الأسماء والصّفات؛ وهو اعتقاد أنّ الله تعالى له الأسماء الحسنى، والصّفات العليا.

وهذه الأقسام الثلاثة هي المشار إليها في سورة الفاتحة، وفي سورة النّاس، وبين السورتين الأقسام مبثوثة، وجمعت في آيات عدّة في موضع واحد، نحوُ آية مريم، وهي قوله تعالى: ﴿رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا بَيۡنَهُمَا فَٱعۡبُدۡهُ وَٱصۡطَبِرۡ لِعِبَٰدَتِهِۦۚ هَلۡ تَعۡلَمُ لَهُۥ سَمِيّٗا﴾ [سورة مريم، من الآية:٦٥]، وفي هذه الآية بدأ بذكر الرّبوبيّة، ورتّب عليها العبوديّة، وختم بكمال القدر والرّفعة، وعدم وجود السّميّ والمسامي، وهذا توسيطٌ للمطلوب بين الدّليلين.

وفي قوله تعالى: ﴿لَوۡ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَاۚ فَسُبۡحَٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلۡعَرۡشِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ [سورة الأنبياء، من الآية:٢٢]، وفيها بدأ بذكر المطلوب وهو توحيد العبادة، ونزهه عن الشّريك لكمال ربوبيته وصفاته تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ، ونحوُ هذه الآية قوله تعالى: ﴿قُلۡ إِنَّمَآ أَنَا۠ مُنذِرٞۖ وَمَا مِنۡ إِلَٰهٍ إِلَّا ٱللَّهُ ٱلۡوَٰحِدُ ٱلۡقَهَّارُ ٦٥ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا بَيۡنَهُمَا ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡغَفَّٰرُ﴾ [سورة ص، من الآية:٦٥-٦٦].

فلا يتمّ توحيدُ عبدٍ حتّى يعتقد أنّ الله تعالى واحدٌ في ذاته وربوبيّته، وواحدٌ في أسمائه وصفاته وأفعاله، وواحدٌ في ألوهيّته، واستحقاقه للعبادة، وهذا كلّه خلاف ما عليه المشركون ومن وافقهم في صرف العبادة لغير الله تعالى، وخلاف من اعتقد الشّريك مع الله تعالى في الرّبوبيّة، أو في الأسماء والصّفات.

لماذا أخر المصنّف رَحِمَهُ ٱللَّهُ ذكر الألوهية على الرّبوبيّةِ والأسماءِ والصّفاتِ؟

فالجواب: إنّما أخّر ذكر توحيد الألوهيّة لأنّه نتيجة الرّبوبيّة والأسماء والصّفات، وإلّا فإنّه في الدّعوة مقدَّمة على توحيد الرّبوبيّة والأسماء والصّفات، وذلك لأنّ أكثر شرك العالم، وأكثر ضلال النّاس إنّما هو في توحيد العبادة، ولذلك كان كلّ رسولٍ أوّل ما يقول لقومه، وعُظْمَ ما يقوله لقومه؛ فقال نوح عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ: ﴿يَٰقَوۡمِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥٓ﴾ [سورة الأعراف، من الآية:٨٥]، وقاله كلّ نبيّ قطعًا؛ كما قال الله تعالى: ﴿وَلَقَدۡ بَعَثۡنَا فِي كُلِّ أُمَّةٖ رَّسُولًا أَنِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱجۡتَنِبُواْ ٱلطَّٰغُوتَ﴾ [سورة النحل، من الآية:٣٦].

قوله: **"قديم بلا ابتداء"** خبرٌ آخرُ لجملة "إنّ اللهَ..."، فيفيد عموم الوصفيّة لله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ، أو عطفُ بيانٍ لـ(**واحد**)؛ فيفيد أنّه في واحديته قديمٌ، والمعنيان متلازمان.

و(**القديم**) ما مضى على وجودِه زمنٌ طويلٌ، وهو هنا مُقَيَّدٌ بقوله: **"بلا ابتداءٍ"**؛ فيكون المراد ما اصطلح عليه علماءُ الكلام، وهو أنّ القديم: الّذي ليس لوجوده ابتداءٌ، وهو صِفَةٌ مِن صفات الله تعالى بهذا المعنى.

وقد عبر الإمام الطّحاويّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ بـ**"القديم"** على المعنى المراد عند المتكلمين، وهو بمعنى الأزليّ عندهم، ولو عبّر بالأوَّل لكان موافقًا للنّص، دالًا على معناه، وأكمل، قال تعالى: ﴿وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٌ ۝٢ هُوَ ٱلۡأَوَّلُ وَٱلۡأٓخِرُ﴾ [سورة الحديد، من الآية:٢-٣].

والقديم قد جاء في القرآن إطلاقه على ما تقدّم زمانًا، وهو المعنى اللّغويّ، وإن كان مخلوقًا؛ كقوله تعالى عن القمر: ﴿وَٱلۡقَمَرَ قَدَّرۡنَٰهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَٱلۡعُرۡجُونِ ٱلۡقَدِيمِ﴾[سورة يس، من الآية:٣٩].

لكنّ قول المصنّف رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **"بلا ابتداء"** ينفي المعنى اللّغوي، وهو القديم النّسبيّ؛ فقيده يدلّ على أنّ المراد القديم مُطلقًا، والله جَلَّوَعَلَا الأوّل والآخر، وذلك لأنّه سبحانه الخالق، وإنما يكون الابتداء والانتهاء مِن أوصاف المخلوقين.

و **(الابتداء)** مصدر (ابْتَدَأَ) الشَّيء، بمعنى أوجده بعد أن لم يكن، و(ابْتَدَأَ) به، بمعنى بَدَأَ به، وشرع فيه، وهذا كلّه منتفٍ في حقّ الله تعالى.

ومراد المصنّف الدّلالة على أَوَّلية الله تعالى، وأزليّته، وسرمديَّته، وأنه لا ابتداء له؛ لأنّ الابتداء والبداءة مِن خصائص المخلوقين، ولا انتهاء له لأن الانتهاء والفناء من خصائص المحدَثين.

قوله: **"دائمٌ بلا انتهاءٍ"** خبرٌ آخرُ لجملة **"إنّ اللهَ..."**، فيفيد عموم الوصفيّة لله تَبَارَكَوَتَعَالَىٰ، أو عطفُ بيانٍ لـ**(واحد)**؛ فيفيد أنّه في واحديته دائمٌ، والمعنيان متلازمان.

و**(الدّائم)** الباقي، والثّابت، وقد يطلق لغة على الشّيء السّاكن المتقرِّر، ومنه قول الفقهاء: الماء الدّائم، أي السّاكن فلا يجري.

و**(الدّائم)** في حق الله تعالى: الّذي لا يزولُ، وهو وصفٌ على الله تعالى، ودل

على معناه اسمه (**الآخِرُ**) أي الّذي لا شيءَ بعدَه؛ فإذا كان لا شيءَ بعده؛ فهذا يدل على ديموميته في المستقبل؛ كما أنّ (**الأوّل**) الّذي لا شيء قبله، وإذا كان لا شيء قبله؛ فهذا دليل على ديموميته في الماضي.

وقد يُطْلِقُ العلماءُ لفظَ الدَّائم على: الأبديّ الّذي لا يزول؛ على معنى قوله تعالى حين تفنى الخلائق: ﴿لِّمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ﴾ [سورة غافر، من الآية:١٦]، ومما يؤكّد أنّ هذا مراد المصنّف قَيْدُه بقوله: "**دائمٌ بلا انتهاء**".

و(**الانتهاء**) ما له نهاية، و(انتهى) الشّيءُ (انتهاءً) وصل إلى حدِّه، وبلغ المنتهى، وانصرم زمانه وأوانه، ووقته وحدُّه.

ومراد المصنّف رَحِمَهُ ٱللَّهُ: أنّ دوام الله تعالى ليس كدوام ما له تقرّرٌ وقتًا مُعَيّنًا فينتهي، لأنّه لا زمن لوجوده؛ وذلك لأنّه سبحانه خالق الزّمن، ولا حدّ لوجوده لا ابتداءً ولا انتهاءً.

و(**الأوّل، والآخر**) مِن أسماء الله تعالى المتقابلة، دالّان على صفتين لذات الله تعالى، وهي كونُ هذه الذّات العليّة لا ابتداءَ لها ولا انتهاء لها زمانًا؛ لأنّه خالق الزّمان، فلا يجري عليه سُبْحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ أحكام الزّمان المحدَث المخلوق؛ لأنّ أحكام المخلوقين لا تجري على الخالق سُبْحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ.

و(**الأوّل، والآخر**) من أسماء الله الحسنى بخلاف (**القديم، والدّائم**) فهما إنّما يُطْلَقان على الله تعالى خبرًا، وهو الّذي أراده المصنّف رَحِمَهُ ٱللَّهُ، ويدل لهذا الخبر قول النّبيّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "**كَانَ اللهُ وَلَمْ يَكُنْ شَيْءٌ قَبْلَه**" [رواه البخاري]؛

فهذا يدلّ على أزليّة الله تعالى، وابتداء ما سواه؛ كما أنّ الآخر يدل على انتهاء ما سواه.

فإن قيل: نقرأ في بعض الكتب وصف (السّرمديّ)؛ فما معناه؟

فالجواب: (السَّرْمَدِيّ) وصفٌ بمعنى الدَّوَام الزّمانيّ، وهو خاصٌّ بالله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ ماضيًا ومستقبلًا، وبالجنّة والنّار وأهلهما مستقبلًا؛ لكن الفرق أنّ ديمومة الله تعالى ذاتيّة، وديمومة الجنّة والنّار بإبقاء الله ديمومتها.

قوله: **"لا يفنى ولا يبيد"** جملةٌ منفيّة في محلّ رفع خبرٌ آخرُ لجملةِ **"إنّ اللهَ..."**، فيفيد عموم الوصفيّة المنفيّة لله تَبَارَكَوَتَعَالَىٰ، أو جملة منفيّة في محلّ نصب حالٌ مِن **(واحد)**؛ فهو سبحانه واحدٌ حال كون لا يفنى ولا يبيد، وهذا الحال لتأكيد واحديّته، وأنها لا تشبه واحديّة أيّ شيء، ويجوز أن يكون عطف بيان لـ**(واحد)**؛ فيفيد أنّه في واحديته **"لا يفنى ولا يبيد"**.

و**"لا يَفْنَى"** فعلٌ مضارعٌ بمعنى لا يَعْدَم، ولا يَهلَك، ولا يذهب ما كان مخصّصًا له، هذا من حيث اللّغة.

والفناء في الاصطلاح: الهلكة والانتهاء الذّاتيّ للشّيء، أو الانتهاء الوصفيّ له.

"ولا يَبِيد" فعلٌ مضارعٌ بمعنى لا ينقرضُ، ولا يَنْقَطِع، ولا يختفي، والمراد هنا: أنّ الله تعالى لا يجري عليه ما يجري على الموجودات والمحدَثات من الانقراض والاختفاء بسبب مرور الزّمان.

وهذه العبارة كسابقاتها من الجمل المنفية لإثبات كمال الضّد، وهو دوامه

وبقاؤه جلّ في علاه، خلافًا للمخلوقات؛ فإنها تَفنى وتَبيد، وذلك لأنّ ما ليس له بداية لا فناءَ له، وما ليس له نهاية لا يَبيد، وما كان له بداية ونهاية فيَفنى ويَبيد، وحتّى الجنّة والنّار إنّما بقاؤُهما بإبقاء الله لهما لا بذاتيهما؛ فليس شيءٌ مخلوق إلّا وهو فانٍ، وليس شيءٌ مخلوقٌ إلّا وهو منقرضٌ وهالِكٌ، وليس للمخلوق صفة الديمومة إلّا ما جعل الله له الدّيمومة والبقاء، وحكم عليه بالبقاء وعدم الفناء.

قوله **"ولا يكون إلّا ما يريد"** جملةٌ منفيّة في محلّ رفعٍ صفة لـ**(واحد)**؛ فهو سبحانه واحدٌ ولا يكونُ شيءٌ إلّا ما أراده، ويجوز أن تكون الواو في الجملة حالية، والمعنى: إن الله تعالى واحد، والحالُ أنه **"لا يكون إلا ما يريد"**.

"ولا يكون" فعلٌ مضارِعٌ من (كان) ومصدره (كونًا)، منفيّ بمعنى لا يَصير، ولا يَحْدُث، ولا يَقع، وأصل (الكون) حدوث الشيء ووجوده، وهو في حقِّ الله إذا جاءت مثبتة فتفيد: الدَّوام والاستقرار؛ كقوله تعالى: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ [سورة النساء، من الآية:٦٩]، أي ثبت أنه تعالى غفور رحيم، ودائم المغفرة والرّحمة، وأنّ هذه الصفة ثابتة له تعالى، وقد وردت في القرآن في مواضع كثيرة ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ﴾، والمعنى بيان كينونيته تَبَارَكَ وَتَعَالَى، وثبات هذا الوصف في حقه جل في علاه.

"ولا يكون إلّا" هذا استثناء من النّفي، وهو يفيد الثّبوت والتّقرّر، بخلاف الاستثناء من المثبت فإنّه يفيد النّفي، والمعنى: ثبت وتقرّر أنّه يقع ما يريده الله

تعالى فقط، لا ما يريده غيره.

وهذه المسألة متعلقة بعظيم نفاذ أمر الله، وأنّه سبحانه الذي يريده يكون، وذلك لعظمته، وتفرده بالملك، والخلق، والتّدبير، وقد أعاد المصنّف الكلام عن الإرادة مطوّلًا، وسيأتي هناك بيان معنى الإرادة، ونوعيها.

قوله **"لا تَبْلُغُه الأوهام"** جملةٌ منفيّة في محل رفع خبرٌ آخر لجملة "إن الله..."، ويجوز أن تكون في محلّ رفعٍ صفة لـ(**واحد**)؛ فهو سبحانه واحدٌ و"**لا تبلغه الأوهام**"، ويصح أيضًا أن تكون الواو حالية.

"تَبْلُغ" فِعْلٌ مضارعٌ مِن (بَلَغ)، ومصدره (بلاغًا)، منفيّ بمعنى لا تصل، ولا تُدْرِك الأوهامُ المنتهى من كمالات صفات الله تعالى.

و**"الأوهام"** جمع (وَهْمٍ) وهو: ما يقع في الذِّهن من الخاطر بلا تفكُّرٍ ولا مُقايسةٍ.

ومهما وقع في أوهام النّاس فالله تعالى بخلاف ذلك؛ لأنّ ذاته تَبَارَكَوَتَعَالَىٰ لا يحاطُ به، ولا مثيل له، ولِمَا له من الكمالات الّتي لا تصل ولا تبلغها الأوهام، ولا تدركها الأفهام.

"ولا تُدْرِكُهُ الأفهام" جملةٌ منفيّة في محلّ رفعٍ خبرٌ آخر لجملة "إن الله"، ويجوز أن تكون في محل رفعٍ صفة لـ(**واحد**)؛ فهو سبحانه واحدٌ لا تدرك الأفهامُ ذاتَه، ويصح أيضًا أن تكون الواو حالية.

و **"تُدرك"** فعلٌ مضارع من (أدرك) الشيءَ إذا بلغ منه مراده؛ فصار في درَكِه،

ولا تبلغ الأفهامُ الدّركَ، ولا تنال المرادَ، ولا تلحق فيما يتعلق بذات الله تعالى، وكيفيات صفاته تَبَارَكَوَتَعَالَى، ولا تقدر أن تصل إلى هدفها الأفهامُ بأيّ وجه؛ لتعرف حقائق كيفيات ذاته تعالى وصفاته.

و **"الأفهام"** جمع (فَهْمٍ)، وهو: حُسْنُ تصوُّرِ المعاني، وجودةُ استعداد الذِّهن للاستنباط، لغة.

وفي الاصطلاح: الفهمُ إدراك الشيء بإعمال العقل.

والمرادُ هنا: أنّ الأفهام مهما اجتهدت، ومهما تصوَّرت، ومهما استنبطت، ومهما قاست؛ فإنّها لا تصل إلى كيفيّات صفات الله تعالى.

ويفهم من كلام المصنّف رَحِمَهُٱللَّهُ أنّ الله سبحانه فوق وهم الواهمين، وتصوّر المتصورِّين؛ فلا يمكن لأحدٍ أن يتخيّل ذات الله تعالى، أو أن يتخرّص من عند نفسه بأسماء الله، أو في كيفيّات صفاته؛ كما قال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [سورة النحل، من الآية:٦٠]، وقوله: ﴿فَلَا تَضْرِبُواْ لِلَّهِ ٱلْأَمْثَالَۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [سورة النحل من الآية:٧٤]، وقوله: ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌۚ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا﴾ [سورة الإسراء، من الآية:٣٦]، فهذه أدلّة صريحة تدلّ على أن العقول لا يمكن أن تدرك لله تعالى مَثَلًا، ولا كَيْفًا، وأنّ كيفه غيبٌ، كذلك لا يمكن للعقول الاستقلال بإدراكه سُبْحَانَهُوَتَعَالَى، وذلك لأنّ العقول والأوهام تعرف الأشياء بالمثيلات والشَّبَه.

قوله: "**لا يُشْبِهُه الأنامَ**"، جملة منفية في محل رفع خبرٌ آخر لجملة "إن الله"، ويجوز أن تكون في محل رفع صفة لـ"**واحدٌ**"، ويصح أن تكون من عطف البيان لـ"**واحد**"، والمعنى لا شيء يشبه اللهَ تعالى، ولا شيءَ مثل الواحد تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ لا في ذاته، ولا في صفاته.

وفي بعض النّسخ بالتاءِ: "**لا تشبهه الأنام**"؛ فيكون الكلام عن ذاته العلية، وبالياء عن الله تعالى من حيث الإطلاق، وهذا أعمّ، وأحسن.

و "**الأنام**" اسمٌ جمعيٌّ لا مفرد له، وهو: كلّ شيء نامٍ فهو من الأنام، ويطلق على كلّ ما على وجه الأرضِ الأنام، وهي المخلوقات، وقد يختص بالبشر، وقد يعمّ فيشمل كلّ ذي حياةٍ علويٍّ أو سفليٍّ، سماويٍّ أو أرضيٍّ.

ومهما تخيّل المتخيّلون، ومهما قاس العقلاء؛ فإنهم لا يدركون كيفيّة الله تعالى، ولا كيفيّات صفاته، وذلك لأنّه لا يشبه الموجودات، والمتخيّلات، وذلك لأنّ العقول والخيالات قاصرة على المشاهدات والمقايسات، ومما يدلّ على أنّه تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ فوق التوهُّمات والمقايسات قوله تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [سورة الشورى، من الآية:١١]؛ فهذا نصّ أنّ الله تعالى ليس كذاته شَيْءٌ؛ فكيف يمكن أن يُتَخَيَّل، أو يدرك بقياسٍ، مع كونه متّصفًا بصفات الكمالات الّتي لا تحيط بها المقايسات؛ فهو السّميع للمسموعات، والبصير للمُبْصَرَات.

وهذا خلاف ما عليه الجهميّة ومن وافقهم؛ حيث يوجبون على الله بعقولهم، وينفون بعقولهم، وخلافُ ما عليه أهل الذُّوق؛ فإنّهم يثبتون بأذواقهم، وينفون بأذواقهم، وخلافُ ما عليه أهل التّشبيه؛ فإنهم يثبتون بالمقايسات، وينفون بالمقياسات.

وفي الآية السّابقة في أوّلها ردٌ على المشبّهة والممثّلة، الذين يزعمون أنّ صفات الله تعالى كصفاتهم، أو يكيّفونها، وفي آخرها ردٌّ على نفاة الصّفات المعطّلة، الّذين لا يثبتون الصّفات زعما منهم بأنّ ذلك يستلزم المثليّة؛ فالله تعالى نفى المثلية وأثبت الصّفات؛ فدل أنّه تعالى لا مثل له في ذاته؛ وتثبت له الصّفات على ما يليق بجلاله.

وهذا يدلّ أنّ الله تعالى يُنْفَى عنه بعضُ الصّفات، الّتي لا تليق به، ومِن ذلك المماثلة، والسَّمِيُّ، والكفؤ، والنّدّ، والضّدّ، والحاجة، والعجز، ونحو ذلك مما جاء نفيها في القرآن.

ويدلّ أنّ الله تعالى تُثبت له صفات الكمال، والجمال، والجلال؛ كما جاء في القرآن والسّنّة، كالسّمع والبصر، وكونه سبحانه له ذاتٌ تليق به، وله وجه تليق به، وله قدرة تليق به، وله حياة تليق به، ونحو ذلك من الصّفات الواردة في الكتاب والسنة.

قوله **"وهو حيّ"** جملة مستأنفةٌ، أو جملة معطوفة خبرٌ آخر لجملة **"إن الله"**، ويجوز أن تكون جملة في محل رفع صفة لـ**"واحد"**، وعلى العطف فالضَّمير

(هو) ضميرُ شأنٍ، والمعنى: إنّ الله واحدٌ، والشّأن أنّه حيّ لا يموت.

و "**الحيّ**": ما فيه صفة الحياة، وهو هنا وصفٌ لله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ، ومِن أسمائه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ (الحيُّ)، وقد جاء مع القيوم في كتاب الله تعالى، وفي سنّة رسوله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

ومراد المصنّف رَحِمَهُ ٱللَّهُ: إثبات صفه الحياة لله عَزَّوَجَلَّ، وتثبت هذه الصّفة على صورة الكمال المطلق؛ فله حياة ليست كحياة الموجودات؛ فإنّ حياة الموجودات مسبوقة بالعدم، وملحوقة بالفناء، ومصاحبة للحاجة، أما حياة الله تعالى فإنّـها أزليّة أبديّة، كاملة مطلقة، غير متوقّفة على شيءٍ من المحدَثات، ولا على شيءٍ من الأسباب والمسبَّبات.

قوله: "**لا يموت**" عطفُ بيان لجملة "**وهو حيٌّ**"، ويجوز أن تكون في محل رفعٌ خبرٌ آخر لجملة "**إن الله**"، أو صفة لـ"**واحد**"، والمعنى: لا يلحقه الْمَوَتَانُ، وهو ضدّ الحياةِ والحيَوانِ، ولا الفناء، وهذا النّفي لكمال حياته تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ، وعلى هذا فجملة "**لا يموت**" أن تكون عطفُ بيانٍ للخبر في جملة "**وهو حيٌّ**" أحسنُ، فتكون الجملة مؤكِّدة لمعنى الحياة؛ فكما أنّه أزليّ الذّات، فهو أبديّ الذّات، ولذا وجب نَفْيُ صفةِ الموتِ، وهو صفة نقص؛ فهو سبحانه لكمال حياته لا يموت، ومن تمام حياته إثبات قيُّوميّته.

قوله: "**قيوم لا ينام**"، هذه الجملة يصح أن تكون خبرًا ثانيًا للمبتدأ "**هو**"، ويصح أن تكون عطفَ بيانٍ لجملة "**وهو حيٌّ**"، ويجوز أن تكون في محل رفع صفة لـ"**واحد**".

و "**قَيُّوم**" صيغةُ (فَعُولٍ)، من أبنية المبالغة، بمعنى (فاعل)، أي قائم بنفسه، غير مفتقرٍ إلى شيء في وجوده، وقيامه، ويصح في هذه الصيغة الوزنية أن تكون (فَعُول) بمعنى (فعَّال)، فهو (قيّامٌ) أي حافظٌ لكلّ شيء، وعلى كلّ شيء، وبه قيام كلّ شيءٍ.

وهذا دليل على الغنى عن كلّ شيء، وعن كلّ نقص؛ ومن ذلك: النّومُ، ومقدماته كالنّعاس، والتّعب، والإعياء، والعجز، قال تعالى: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُۚ لَا تَأۡخُذُهُۥ سِنَةٞ وَلَا نَوۡمٞ﴾[سورة البقرة، من الآية:٢٥٥].

ونفي السِّنَة والنّوم والموت؛ لكمال حياته وقيّوميّته، وهو دليل على فردانيّته ووحدانيّته، والله تعالى هو الّذي خلق السّنَة والنّوم والموتَ؛ فلا تجري عليه أحكام مخلوقاته، وهذا خلاف بعض اليهود الذين انتقصوا قيّوميّة الله تعالى بقولهم: استراح يوم السّبت!؟ تعالى الله عن ذلك، قال تعالى: ﴿وَلَقَدۡ خَلَقۡنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ وَمَا بَيۡنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٖ وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٖ﴾ [سورة ق، من الآية:٣٨].

قوله: "**خالق بلا حاجة**"، هذه الجملة يصح أن تكون خبرًا ثالثًا للمبتدأ "**هو**"، ويصح أن تكون عطفَ بيانٍ لجملة "**إنّ الله...واحد**"، وفيها أوجه أُخَر.

و "**خالق**" اسم فاعلٍ مِن (خلق، يخلق، خلقًا؛ فهو خالقٌ) أي أنّه وحده الموجِد للأشياء ابتداءً واستدامة، مُلكًا، ومِلكًا، وهو سبحانه خلق كلّ شيء بلا حاجة.

و"**الحاجة**" الاحتياج والفقرُ، وهذا وصفٌ منفيٌّ عن الله تعالى لكمال قيّوميّته، وكمال حياته، وكمال ذاته، وكمال صفاته.

قوله: "**رازِقٌ بلا مؤنة**": هذه الجملة أيضًا يصح أن تكون خبرًا رابعًا للمبتدأ "هو"، ويصح أن تكون عطفَ بيانٍ لجملة "**إنّ الله...واحدٌ**"، وفيها أوجه أُخَر.

و "**رازق**" اسمٌ فاعلٍ مِن (رزق، يرزق، رَزْقًا؛ فهو رازِق) أي الّذي يرزق، ويوصِلُ الرِّزْق إلى المخلوقين، ولا رازِق إلّا الله تعالى؛ كما أنّه لا خالقَ إلّا الله تعالى، وهذا لا ينفي السّببيّة، وإنّما يحصر إيجاد الرِّزقِ وخلقَه.

و "**رازِقٌ**" وصفٌ لله تَبَارَكَ وَتَعَالَى، وجاء اسم "الرّزّاق" لله تعالى، وهو صيغة مبالغة بمعنى عظيم الرِّزْقِ للعباد، ابتداءً، وإنعامًا، وتفضّلًا، وإكرامًا، وكلّ ذلك منه سبحانه "**بلا مُؤْنةٍ**".

قوله: "**بلا مُؤْنَة**" الجار والمجرور متعلق بـ"**رازق**"، والمعنى: أنه يرزق من دون حاجة، و "**الْمُؤْنَة**" القُوتُ، والجمع (مُؤَن)؛ وفي بعض النّسخ "**مُونَة**" غير مهموزٍ، وهو بمعنى: ما يُدّخَرُ من القوتِ، وتطلق على مكانِ ادْخارِ القوتِ، ويكون المعنى على هذا المبنى: أنّه سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ يرزقهم بلا قُوتٍ سابقٍ؛ بل هو

الخالق لأقواتهم، وأنّ خلقه لأقواتهم، وتحمّله مُؤْنَةَ ذلك، لا مشقّة فيه، ولا كُلْفَة عليه.

قوله: **"مُمِيتٌ بلا مخافة"** هذه الجملة أيضًا يصح أن تكون خبرًا آخر للمبتدأ **"هو"**، ويصح أن تكون عطفَ بيانٍ لجملة **"إنّ الله...واحدٌ"**، ولها وجوه أُخَر.

و **"مُميت"** اسم (فاعِل) مِن (أمات يُميت إماتة؛ فهو مُمِيتٌ)، بمعنى أنّه سبحانه يُميت مَن شاء، وإماتته سبحانه؛ إمّا بأخذ الرّوح منه، وإمّا بإفنائه، وكلا الأمرين مُتصوَّرٌ في قدرةِ الله تعالى؛ فهو يُميت كيف شاء، لا يُعجِزُه شيءٌ ولا نوعٌ.

و **"بلا مخافة"** الجار والمجرور متعلق بـ **"مُمِيت"**، والمعنى: أنّ إماتته سبحانه لا لكونه يترتّب على بقاء مَن أماته مخافة؛ بل لحكمةِ انقضاءِ أجله، وذهاب عمره الّذي حدّده الله تعالى، والله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ لا يُتصوّر عليه وصف الخوفِ، ونفيه لبيان كمال فعله، وقوّته، وعزّته، وقدرته في الإماتة؛ ومما يؤكّد هذا أنّه بعد الإماتة يَبعثُ ويُحيِي للمحاسَبة الأمواتَ؛ فهو **"باعث بلا مشقة"**.

قوله: **"باعث بلا مشقة"** هذه الجملة أيضًا يصح أن تكون خبرًا آخر للمبتدأ **"هو"**، ويصح أن تكون عطفَ بيانٍ لجملة **"إنّ الله...واحدٌ"**، ولها وجوه أُخَر.

"باعثٌ" اسمٌ (فاعِل) مِن (بَعَث يَبْعث بَعْثًا؛ فهو باعثٌ)، وهو وصفٌ مِن أوصاف الله تعالى، بمعنى: الّذي يبعث مَن ماتَ، ويحشر الأمواتَ، ويبعثهم من قبورهم، ويهيؤهم لنشورهم، وذلك على الله تعالى يسير، ولا يكلِّفُه شيء، ولا

يترتب على فعله هذا أي مشقّة له سُبۡحَانَهُۥوَتَعَالَىٰ؛ لأنه تَبَارَكَوَتَعَالَىٰ القوي العزيز العليم القدير، ﴿بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ وَإِذَا قَضَىٰٓ أَمۡرٗا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [سورة البقرة، من الآية:١١٧]، وقال تعالى: ﴿وَيَوۡمَ يَقُولُ كُن فَيَكُونُ﴾ [سورة الأنعام من الآية:٧٣]، فأمره وخلقه وإيجاده بقوله؛ فمتى ﴿قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [سورة آل عمران، من الآية:٥٩]. وفي حديث أبي ذر رَضِيَٱللَّهُعَنۡهُ عن النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ قال: **"يَقُولُ اللهُ تَعَالَى:... أَفْعَلُ مَا أُرِيدُ، عَطَائِي كَلَامٌ، وَعَذَابِي كَلَامٌ، إِنَّمَا أَمْرِي لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْتُهُ أَنْ أَقُولَ لَهُ: كُنْ، فَيَكُونُ"** [رواه الإمام أحمدُ، والترمذي، وقال: حسن].

وهذا الحديث هو الذي بين مدلوله المصنّف رَحِمَهُٱللَّهُ بقول: **"بلا مشقة"**، أيْ بلا كُلْفَةٍ، ولا عَناءٍ، ولا تعَبٍ، و(المشقّة) مصدر (شققتُ، أشقُّ، شقًّا، ومشقَّة) بمعنى العناء، والجمعُ (مشاقٌّ).

واللهُ القوي العزيز إذا أراد شيئًا يقول كن فيكون المراد، ولا يتأخرُ مراده عن قولِه، ولا مأموره الكوني عن أمره؛ كما في حديث المغيرة بن شعبة رَضِيَٱللَّهُعَنۡهُ عن النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ قال: **"اللَّهُمَّ لا مَانِعَ لِمَا أَعْطَيْتَ، وَلَا مُعْطِيَ لِمَا مَنَعْتَ، وَلَا يَنْفَعُ ذَا الجَدِّ مِنْكَ الجَدُّ"** [رواه البخاري].

وهذه العبارات كلّها مِن المصنّف رَحِمَهُٱللَّهُ: بيانٌ لكمال الله تعالى وعظمته، وأنّ له أفعالًا مَبْنِيَّة على الحِكْمَة؛ ليست لنقصٍ أو عَيْبٍ؛ فهو سبحانه مُنَزَّهٌ عن كلّ نقصٍ وعَيْبٍ، قال تعالى: ﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ ٱلۡغَنِيُّ ٱلۡحَمِيدُ﴾ [سورة الحج، من

الآية:٦٤]، وقال سبحانه: ﴿وَٱللَّهُ هُوَ ٱلۡغَنِيُّ ٱلۡحَمِيدُ﴾[سورة فاطر، من الآية:١٥]، وقال: ﴿وَمَن يَتَوَلَّ فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡغَنِيُّ ٱلۡحَمِيدُ﴾[سورة الحديد، من الآية:٢٤]؛ فقوله **(الغنيّ)** دليل الكمال؛ فليس بحاجة إلى شيءٍ، ولا يتوقف وجوده، ولا كماله، ولا فعله على شيءٍ، وقوله **(الحميدُ)** دليل على الكمال الذّاتي، والوصف الأعلى، والحمد المطلق، وفي الجمع بينهما دلالة بيّنة إلى أنّه سبحانه في نفسه كامل لا يتوقّف كماله على شيء خارج عنه، ولا على سببٍ، ولا على شيءٍ، كما قال تعالى: ﴿قُلۡ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ① ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ﴾[سورة الإخلاص من الآية:١-٢]، ومعنى **(الصَّمد)** السَّيِّد الّذي بلغ السؤدد في الكمال، والذي لا جوف له؛ فلا يحتاج إلى هواءٍ ولا إلى ماءٍ، ولا إلى طعامٍ وشرابٍ وغذاءٍ، ولا إلى شيء من الموجودات المحدَثات.

ومما يدلّ على كونه **(الغنيّ الحميد)** أنّ من أخصّ صفاتِ المخلوقاتِ الحاجة، والفقرُ؛ فما من مخلوقٍ إلّا ووجوده متوقّفٌ على شيءٍ، وأيّ كمالٍ فيه؛ فهو مبنيّ على شيءٍ، وبهذا الاستدلال العقليّ ندرك أنّ الخالق سبحانه مباينٌ للمخلوقات بغناه المطلق، وحمده الممُجَّد، قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلۡفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِۖ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلۡغَنِيُّ ٱلۡحَمِيدُ﴾[سورة فاطر، من الآية:١٥]، وقال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ ٱلۡغَنِيُّ وَأَنتُمُ ٱلۡفُقَرَآءُ﴾[سورة محمد، من الآية:٣٨].

فكَوْنُه خَلَقَ فليس ليُكمِّل به نقصًا، أو يَنْتَظِر منه عَوْنًا، أو يَتّخذ منه ظَهِيرًا؛ فإنّه سبحانه لا ظهير له، ولا مُعين، ولا مُشير؛ فهو خَلَقَ لحِكَمٍ بالغة عظيمة، ومنها:

لِيَعْبُدوه، ويُطيعُوه، ويَعْرِفُوه، ويُعَظِّمُوه.

والرّبُّ جلّ في علاهُ مِن كماله يرزق بلا مشقّةٍ، كما خلقهم بلا كُلْفَةٍ، يرزقهم بلا كلافةٍ، ورِزْقُه العِبادَ لا يُكلّفه شيئًا، قال سبحانه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلْقُوَّةِ ٱلْمَتِينُ﴾[سورة الذاريات، من الآية:٥٨].

والله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ يُميت لا خوفًا؛ بل لحكمةٍ، كما أنّه يبعث العباد لا طمعًا؛ بل لحكمةٍ، ويعيد خلقهم من الأجداثِ بلا مشقّةٍ؛ كما قال تعالى: ﴿أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُۗ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَالَمِينَ﴾[سورة الأعراف، من الآية:٥٤]، وقال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِۚ وَلَهُ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾[سورة الروم، من الآية:٢٧].

وهذا يدل أنّ جميع أفعال الله تعالى مبناه ليس على حاجةٍ، ولا على مخافةٍ؛ ولا يترتّب على أفعاله أيّ كلافةٍ؛ بل هو سبحانه أفعاله مبناها على الكمال المطلق؛ فإنْ خَلَقَ فلِحِكْمَةٍ، وإنْ رَزَقَ فلِحِكمةٍ، وإنْ قتَرَ فلِحِكْمةٍ، وإنْ أَمَاتَ فلِحِكْمةٍ، وإنَّ بَعْثَهُ العبادَ لِحِكْمَةٍ؛ فأفعاله كلّها مبنيّة على الحِكَمِ، كما شرعه كله مبنيٌّ على الحِكَم، وهذا معنى كونِه سبحانه غنيًّا حميدًا، عزيزًا قويًّا.

قوله **"وما زال بصفاته قديمًا قبل خلقه"**، هذه الجملة في محل رفع خبرٌ آخرَ لجملة **"إنّ الله..."**، ويجوز أن تكون في محل رفع صفة لـ(**واحدٌ**)، ويجوز أن تكون حالية؛ فالله تعالى واحدٌ حال كونه ما زال بصفاته قبل خلقه.

"**وما زال**": (ما) نافية، (زالَ) فعلٌ ماضٍ، وفاعله مستتر تقديره (هو) راجعٌ إلى الله تعالى الواحد.

و"**ما زال**" تفيد الاستمرارية، والبقاء والديمومة المستقبلية، ومنه أخذت كلمة (الأزليّ)، والمعنى: أنّ الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ أزليٌّ، وصفاته أزليّة.

و(**الأزل**) في الاصطلاح: ما لا أوّل له؛ فهو سبحانه بلا بداية، فلا بداية لوجوده وكماله وعظمته، وهذا أيضًا من أخصّ خصائصه فما من شيءٍ محدَثٍ إلا ويوجد كماله شيئًا بعد شيءٍ، حتّى يصل إلى كماله المناسب له، أما الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ فهو له الكمال والحمدُ والغنى أزلًا؛ كما له الكمالُ أبدًا، وهذا المراد من قوله "**ما زال**" أي كما له الكمال أزلًا؛ فإنّه لا يزال كاملًا.

"**ما زال بصفاته**" أي ما زالَ اللهُ تعالى بصفاته عظيمًا كاملًا قديمًا، لم يحدث له كمال لم يكن مُتَّصِفًا به من قبلُ.

و(**الصّفات**): جمع صفةٍ، وهي: النُّعوتُ، والأوصافُ، والمراد هنا: نعوتُ الله تعالى، وأوصافُه، الّتي بها تميَّز عن خلقه، وتمايز عن موجوداته، ويكفي في هذا التّمايز كونه تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ بصفاته أزليٌّ أبديٌّ –وقد سبق بيان معنى القديم–، قبل وجود خلقه.

فإن فُسِّر معنى "**بصفاته قديمًا**" على معنى الكمال والعظمةِ، وأن صفاته ليست مخلوقة؛ فهذا معنى جليّ واضحٌ، وقد دل على ذلك النّصّ والإجماع.

وإن فُسِّر بأنّه "**ما زال بصفاته قديمًا**" الردّ على المعتزلة الذين أنكروا الصِّفات

بحجة أنه يلزم من إثباتها الحدوث؛ فهذا أيضًا جليٌّ، وذلك لأن القول في الصفات كالقول في الذّات.

وإن فسّر بأنّه بصفاته الذّاتية أزليّة؛ فهذا أيضًا لا إشكالَ فيه، للنَّصّ والإجماع؛ بل وكذلك لا إشكال في الصِّفات الفعليّة من حيث النوع؛ فهي قديمةٌ أيضًا، فنعتقد أنّ الله سبحانه موصوفٌ أزلًا بأنّه مُتكلِّمٌ راحمٌ خالقٌ قادرٌ، هذا من حيث نوع الصِّفات الفعليّة؛ فهذه جليّة أنّها أزليّة؛ فلم يأت وقت لم يكن فيه قادرًا على الكلام، أو لم يكن قادرًا على الرّحمة وهو الرّحمن، أو غير مقتدرٍ على الإيجاد وهو الخلاق، أو كان عاجزًا وهو القادر، تعالى الله ذلك عن ذلك وهو الرحمن الخالق القادر.

وأمّا آحاد الصّفات الفِعْلِيَّةِ؛ ككلامه مع آدم عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ، ورحمته قومَ موسى عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ، وخلقه للجنة قبل آدمَ، وقدرته على إيجادِ الشيء المعيّن، فهذا متعلِّق بالفرد، وهذا قد وقع في وقتٍ معيَّنٍ، وقد التزم المتكلِّمون أنّ ما وقع في وقتٍ معيَّنٍ فإنّه يكون محدَثًا مخلوقًا، وذلك لاطراد قاعدتهم التي أدخلوا فيها الخالق مع المخلوق، وهي المعروفة بقاعدة القياس الكلي الشمولي؛ فقالوا: كل محدَثٍ مخلوقٌ، وتفرعوا على هذا أنّ المحدَث من الله كالمحدَثِ من المخلوق!؟

وأمّا السّلف رَحِمَهُمُ ٱللَّهُ، والمتّبعون لهم؛ فهم أوّلًا يمنعون القياس الكلّي الشّموليّ في حقّ الله تعالى -كما سيأتي-، وثانيًا يقولون: لا يلزم من فعلِ الله في

وقتٍ معيّنٍ، أو كلامه في وقتٍ معيّنٍ، أو رحمته في وقتٍ معيّنٍ، أن يكون فعله مخلوقًا.

وهل يسمَّى مُحْدَثًا أوْ لا؟ الأظهرُ التفصيل، وهو: إنْ أريدَ بالمحدَث المخلوق؛ كما هو اصطلاح المتكلِّمين؛ فقطعًا لا يجوز وصفُ أفعالِ الله تعالى محدثًا بهذا الاعتبارِ؛ لأنّ صفاتِ الله تعالى وأفعاله ليست محدثَة مخلوقة.

وإنْ أريد بالمحدَث كونه جديدًا، أو كونه تكلّم الله تعالى به في وقتٍ معيّنٍ؛ فهذا حقٌّ، وهو المرادُ من قولنا: القرآن أحدثُ الكتب الإلهية، وهذه الآية حديثة بالنّسبة إلى تلك، فيقال في أفعال الله تعالى إنّها في وقتٍ معيّنٍ، ولا يلزم مِن ذلك أنّه مخلوق؛ لأنّ هذا اللازم متصوّر في المخلوقات وأفعالهم، دون الرّبّ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ الذي لا يقاس بخلقه، ولا يقاس خلقه عليه.

ولهذا فإنّه لا يزداد شيئًا لم يكن متّصفًا به بوجودهم، ولا ينقص شيءٌ من صفاته بإفنائهم، وهذا هو مراد المصنّف رَحِمَهُ ٱللَّهُ، ولهذا قال: **"ما زال بصفاته قديمًا قبل خلقه"**.

و **"قبلَ"** ظرفٌ زماني معربٌ يدلّ على التّقدم في الوقتِ؛ فمعنى الكلام: أن الله تعالى موصوفٌ بالكمالات، والحمدِ والغنى، قبل خَلْقِه الخلق، وخَلقُه إيّاهم لا يعني أنه ازداد وصفًا بهم.

والزّيادة بالفعل أو الوصفِ مُتصوَّرٌ في المخلوق غيرُ ممكنٍ في الخالق؛ فأنت تقول: (فلانٌ حَفَر -وهذا فِعْلٌ- فوجد كنزًا مِن ذهبٍ فاغتنى، وأصبح موصوفًا

محسوبًا من الأغنياء)، هذا المعنى هو الّذي أراد نفيه المصنّف رَحِمَهُ ٱللَّهُ، وهذا قطعًا غيرُ ممكن في حقّ الله تعالى الغنيّ الحميد، وهذا النّفي أيضًا للردّ على المعتزلة وأشباههم ممّن يزعمون أنّ إثبات الصّفات يلزم منه الافتقار، وللردّ على المشبِّهة وأمثالهم ممن زعموا أن الله تعالى لم يكن مُتكلِّمًا ثمّ صار مُتكلِّمًا، أو لم يكن خالقًا ثمّ صار خالقًا، تعالى الله عن ذلك علوًّا كبيرًا.

و "**خلقه**" الموجوداتِ المخلوقاتِ، وهي مضافة إلى هاء الضمير، العائد على الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ، و(الخَلْق) هنا بمعنى المصدر؛ فهو بمعنى فِعْلِه، وهو مضافٌ إلى فاعله.

وقد يُطلق المصدَرُ مرادًا به المفعول كقولنا: الموجوداتُ المرئية خلقُ الله تعالى، أي مخلوقاته سبحانه.

ولهذا لا بدّ مِن التّنبّه عند إضافة المصدر على الله تعالى بالمراد بهذه الإضافة؛ فإن كانت الأولى فهي إضافة وَصْفيّة، وإن كانت الثّانية فهي إضافة تشريفيّة.

وأكّد المصنّف رَحِمَهُ ٱللَّهُ القولَ بأنّ الله تعالى موصوف بالكمالات قبل وجود البريّات بقوله: "**لم يزدد بكونهم شيئًا لم يكن قبل ذلك من صفاته**".

و "**لم يَزْدَد**": (لَمْ) حرف نفي وجزمٍ، ويأتي لنفي الماضي؛ فهذه جملة منفية على نسق عطف البيان لجملة "**وما زال بصفاته قديمًا**".

و"**يزدد**" فعلٌ مضارع من (ازداد) وزنِ (افْعَالَ) مِن (زَادَ)، بمعنى كثُر ونما، وإنما يطلق على ما يُكْتَسب، و(ازداد) بمعنى تضاعف وكثُر؛ فهذا المعنى منفيٌّ

عن الله تَبَارَكَوَتَعَالَىٰ؛ فإنّه جلّ في علاه لم يكثُر فيه شيءٌ بخلقه المخلوقات، أو إيجاده البريات؛ فهو هو الغني الحميد.

و(**الزيادة**): ما زاد على أصل الشَّيء.

و "**بكونهم**" جارٌ ومجرورٌ متعلِّقٌ بالفعلِ (يزدد)، و(الكَوْنُ) مصدرٌ مِن (كان) بمعنى صارَ ووُجدَ؛ فهو مصدرٌ بمعنى فعله، أي: لم يزد بإيجاد الله المخلوقاتِ شيئًا، و(كون) مضافٌ إلى ضمير (هم) العائد على المخلوقاتِ.

و "**شيئًا**" مصدر مِن (شاءَ، يشاءُ، مشيئةً، وشيئًا)، وجاءت نكرةً في سياق النّفي فهي تعمّ، والمعنى أنّ الله تعالى لم يزدد بإيجاده للمخلوقاتِ أي صفةٍ "**لم يكن قبل ذلك من صفاته**".

"**ذلك**" اسم إشارة للبعيد، مثناه (ذانك)، في حال الرفع، و(ذينك) في النصب والجرّ، وجمعه (أولئك)، وهو في الأصل كلمة مركبة مِن (ذا) الدالة على الإشارة، وحُذفت ألفها لدخول لام البعد عليها، والكاف للخطاب.

وأما الإشارة للقريب فبلفظ (ذا، ذاك)، وللأبعد فبلفظ (ذلك)، والمعنى أنّ الله تَبَارَكَوَتَعَالَىٰ لا يتَّصِفُ بوصفٍ لم يكن متّصفًا به قبل وجود الخلائق، وقبل إنشائهم، وإذا تقرَّر أزلية صفاته فيما سبق زمانًا، أو فيما قبل زمن حدوث الزمن؛ فإنّ ذلك يقتضي تقرّر هذه الصّفات أبدًا فيما يأتي من الزّمان، أو فيما بعد انتهاء الزّمن،

وخلاصة المراد: أنّ الله سبحانه لم يزدد بإيجاده المخلوقات صفةً لم يكن

متّصفًا بها، أي: أنّه بخلقه الخلق لم يكتسب صفةً جديدةً لم يكن يتّصف بها قبلُ؛ فهو سبحانه الحيّ قبل وجود الأحياء، والخالق قبل وجود المخلوقات، والغفور قبل وجود المغفور لهم، وكذلك هو الحكيم قبل ظهور آثارِ حِكمته، وهو القويّ قبل ظهور آثار قوّته، وهو سبحانه الرّحيم قبل وجود المرحومين، وهكذا.

والله تعالى له الأوّليّة ذاتًا وَاسْمًا ووَصْفًا؛ فهو سبحانه الخالق قبل وجود الخلق، فهو بذاته وأسمائه وصفاته الأوّلُ، وهو سبحانه بصفاته أزليٌّ أبديٌّ، ولا يعني أنّه يكتسب الصّفات إذا ما وجد منه المفعولات؛ فهو خالقٌ قبل أن يكون المخلوقُ، وذلك لكونه سبحانه لم يزل فعالًا، لم يزل قادرًا، فلا يتوقّف صفاته على مفعولاته؛ فإنّه متكلم قبل أن يتكلم مع آدم وموسى ومحمد عليهم السلام، وكذلك هو سبحانه الخالق قبل أن يخلق السّماوات والأرض؛ فأوصافه غير متوقّفة على مفعولاته سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ، وأكّد هذا المعنى بقوله: **"وكما كان بصفاته أزليًّا؛ فكذلك لا يزال عليها أبديًّا"**.

وهذا تأكيد على عدم جريان أحكام الزمان على الله تعالى، وأنه سبحانه مهما تصوّر القدم الزّمانيّ، والأزلّ؛ فإنّه متّصف بالكمال، ومهما تصوّر التّجدد الزّمانيّ، والأبد؛ فإنّه متّصف بالكمال، وهذا هو معنى الخبر **"كَانَ اللهُ وَلَمْ يَكُنْ شَيْءٌ غَيْرُهُ"**، وفي رواية: **"كَانَ اللهُ وَلَمْ يَكُنْ شَيْءٌ قَبْلَهُ"** [رواهما البخاري من حديث عمران رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ].

"كما" الكاف للتّشبيه، والمعنى: مثل ما كان بصفاته أزليًّا كذلك لا يزال عليها أبديًّا، وهو قياس ما مضى من الزّمان الأزليّ على ما يأتي من الزّمان الأبديّ.

"كذلك" أي: مثلُ ذلك؛ فالأمرُ باقٍ على كماله؛ فهو قبل الزمان كاملٌ، وبعد الأزمنة كامل، فهو سبحانه له أزليّته بصفاته.

ويفهم من كلام المصنّف رَحِمَهُ ٱللَّهُ: الاستدلال بهذا الكلام على دوام صفات الله تعالى كذاته سبحانه؛ لأنّها متعلّقة به سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ؛ فكماله الأزليّ ذاتًا واسمًا ووصفًا؛ كذلك له الأبديّة ذاتًا واسمًا ووصفًا؛ فهو سبحانه لا يزداد شيئًا من الصّفات بوجود المخلوقات، ولا ينقص منه شيء بفناء المحدَثات؛ وذلك لأنه سبحانه الأوّل والأخر ذاتًا واسمًا ووصفًا.

ما هي أنواع الأقيسة في هذا الكلام؟

فالجواب: **في هذا الكلام أنواع من الأقيسة، وهي:**

النّوع الأوّل: قياس الأبد على الأزل، وهو في حقّ الباري مُطّردٌ طردًا وعكسًا؛ فهو قياسٌ صحيحٌ للباري سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، ويوصف بذلك؛ فكما كان في الأزلّ فكذلك هو في الأبد، وكما هو في الأبد فكذلك هو في الأزل، وهذا قياس سائغٌ.

النّوع الثّاني: قياس صفات الباري على ذاته تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ، وهذا قياس مُطَّرِدٌ، وهو من القياس الصّحيح، ولا عكسَ؛ فليس كلّ صفة تكون كالذاتِ؛ فإنّ من الصّفات ما هو فِعْلٌ لله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ، وآحادُ أفعاله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ ليست أزليّة كذاته جلّ في علاه، هذا هو الّذي حكاه الإمام الدارمي رَحِمَهُ ٱللَّهُ في نقضه على بِشْرٍ،

وهو منطوق تبويبات الإمام البخاريّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ في خلق أفعال العباد، وهو مفهومُ كلام إمام الأئمّة ابن خزيمة رَحِمَهُ ٱللَّهُ في كتاب التّوحيد، ونصره شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ، واستدل له كما في التدمرية.

النّوع الثّالث: قياس الأولى، وهو أنّ الغنيّ ابتداءً وانتهاءً لا يحتاج إلى الفقير، والفقيرُ أبدًا مفتقرٌ إلى الغنيّ المطلق؛ فالرّبّ الكامل الغنيّ ابتداءً وانتهاءً أولى بأنّه لا يحتاج إلى شيء من الموجودات، لا في ذاته، ولا في أسمائه، ولا في صفاته، ولا في أفعاله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، وكلّ الموجودات مفتقرة إليه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

وهنا أيضًا لا بد أن ندرك ما هو القياس؟ وما أنواعه في حق الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ؟

فنقول في الجواب: القياس لغة: ردُّ الشيء إلى نظيره.

وفي اصطلاح الْمُتكلِّمين: عملٌ عقليٌّ يترتب عليه انتقال الذّهن من الكلّيّ إلى الجزئيّ المندرج تحته.

وعلى هذا التّعريف لا يمكن استعمال هذا القياس في حقِّ الله تعالى، سواءٌ اعتبرناه قياس تمثيل، أو قياسًا كليًّا؛ لأنّه سبحانه لا يندرج تحت جزئيٍّ؛ لأنّه لا مثل له، ولا يدخل في كلّيّة مع المخلوق لأنّه سبحانه العليّ الأعلى، فكيف يجعل في كلّيّة مع النّاقص الفقير الأدنى، وهذا التّعريف يتضمّن قياس التَّمثيل.

وقيل في القياس هو: قولٌ مركّبٌ مِن قضيّتين أو أكثر متى سُلِّم لزم عنه لذاته قولٌ آخرٌ؛ كقولهم: كلّ ذي أُذُنٍ من الحيوان يَلِدُ، والأرنب ذات أذنٍ؛ فإن هنا يستلزم القول بأنّ الأرنب تلد.

وعلى هذا التّعريف لا يمكن استعمال هذا القياس في حقّ الخالق تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ؛ لأنّه سبحانه لا يندرج في كلّيّة متساوية مع المخلوق، وهذا هو القياس الكلّي.

والقياس في اصطلاح علماء الأصول والفقه: حَمْلُ فرعٍ على أصلٍ لعلّة مشتركة بينهما؛ كالحكم بتحريم الشّراب المسكر حملًا على الخمر؛ لاشتراكهما في علّة التّحريم، وهو الإسكار.

وعلى هذه التّعاريف الاصطلاحية ندرك الحقّ من الباطل فيما يستعمل في حق الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ من الأقيسة وما لا يستعمل، وهذا يتم بالنظر إلى أنواع الأقيسة الواردة في حقّ الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ في القرآن.

ما هي الأقيسة الواردة فيما يتعلّق بالله تعالى في القرآن الكريم؟

فالجواب: جاء القياس فيما يتعلّق بالله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ في القرآن والسّنّة على نوعين؛

النوع الأول: ضربٌ من القياس ممنوع، وعليه يحمل قوله تعالى: ﴿فَلَا تَضۡرِبُواْ لِلَّهِ ٱلۡأَمۡثَالَۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُ وَأَنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ﴾ [سورة النحل، من الآية:٧٤]، وهو قسمان؛

القسم الأول: قياس التّمثيل؛ وهو الّذي سبقت الإشارة إليه في تعاريف المتكلّمين، وهو أن يقاس الخالق بالمخلوق، أو المخلوق بالخالق؛ فهذا ممنوع طردًا وعكسًا.

القسم الثاني: قياس الشّمول، وهو القياس الكلّيّ، وهو أن يدخل الخالق مع المخلوق تحت كلّيّة وقضية ليُفهم منه نتيجة، أو حُكْمٌ، سواء كان تصديقًا أو

تصوُّرًا.

والأمثال: الأشباه، والله تعالى لا شِبْهَ له، ولا نظير له، ولا مثل له؛ فهو الفرد في ذاته، الفرد في صفاته؛ فكيف يُضْرَبُ له الأمثال الّتي فيها تشبيهه بخلقه، أو إدخاله مع خلقه في كلّيّة، أو في قضيّة تمثيليّة!؟

النوع الثاني: ضربٌ من القياس مسموعٌ، وهو في العقل مقبولٌ، وفي النّصّ مستعملٌ مسموحٌ، وهو قياس الأولى، أو المثل الأعلى، أو القياس الأعلى، أسماءٌ لمسمّى واحدٍ، وهو المراد بقوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [سورة النحل، من الآية:٦٠]، وقوله سبحانه: ﴿وَلَهُ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [سورة الروم، من الآية:٢٧]، وقوله تعالى: ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى﴾ [سورة الأعلى، من الآية:١]، وهذا يصحّ تعلّقه بالمثل الأعلى في الأسماء، وقوله جلّ في علاه: ﴿إِلَّا ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ رَبِّهِ ٱلْأَعْلَىٰ﴾ [سورة الليل، من الآية:٢٠]، يصحّ تعلّقه بالمثل الأعلى في الصّفات.

وهذا النّوع من القياس ينتج عنه السُّموُّ، وإعطاء الباري سبحانه حقه من التفرد والفردانية والعلوّ، مِن وجه، وينتج عنه الوصفُ الكامل، وهو الأطيب والأفضل، والأحسن والأجمل، فهذا واجبٌ؛ فيثبت لله تعالى الصّفات على وجه الكمال من جهة، وعلى وجه الفردانية من جهة أخرى.

وتقرير هذا النّوع يكون بأن ينظر إلى الصّفة أو الوصف من حيث هو بقطع

النّظر عن المضافات، هل هو كمال أو نقصٌ؛ فإن كان كمالاً؛ فهل هو كمالٌ مطلقًا أو مِن وجهٍ دون وجهٍ؛ فالكمال المطلق يثبت لله تعالى على وجه لا يشاركه فيه أحدٌ، والكمال الّذي هو مِن وجه دون وجه لا يثبت لله تعالى مطلقًا، ولا يُنفى عنه مطلقًا، وإنما يثبت له على الوجه الّذي ورد.

ومثال ذلك: القدرة والعجز؛ فالأوّل كمالٌ مطلقٌ؛ فتُثْبَتُ هذه الصفة لله تعالى على وجهٍ لا يشاركه فيه أحدٌ؛ فيكون موصوفا بقياس الأولى بالقدرة؛ لأن العجز يتنزّه عنه المخلوق إن قدر فالخالق أولى بالتّنزيه، والقدرة لكمالها يريد المخلوق أن يتّصف بها إن قدر على ذلك؛ فالخالق أولى بها.

ثُمّ في كون المخلوق قادراً وكون الخالق قادراً ثَمّ فرق بين القدرتين مِن جهة أنّ قدرة الخالق على وجه الأكمل والفردانية الّتي لا يتوقف فيها على شيء، بخلاف المخلوق فإنّ قدرته متوقّفة على شيءٍ خارجٍ عنه.

ومثالٌ آخرُ: المكرُ والعجزُ عن المكرِ؛ فإنّ الأول كمالٌ مِن وجهٍ دون وجهٍ، والثّاني نقصٌ بكلّ وجهٍ؛ فالله تعالى يوصف بأنّه يمكر بمن مكر، ولا يوصف بالمكر مطلقًا لأنّ المكر في نفسه ليست صفة كمالٍ مطلقٍ؛ بل كماله مقيّد؛ فتثبت على وجه التّقييد الّذي ورد.

[أسماء الله تعالى وصفاته ليست مخلوقة]

"لَيْسَ مُنْذُ خَلَقَ الْـخَلْقَ اسْتَفَادَ اسْمَ الْـخَالِقِ، وَلَا بِإِحْدَاثِهِ الْبَرِيَّةَ اسْتَفَادَ اسْمَ الْبَارِي، لَهُ مَعْنَى الرُّبُوبِيَّةِ وَلَا مَرْبُوب، وَمَعْنَى الْـخَالِقِ وَلَا مَـخْلُوقَ، وَكَمَا أَنَّهُ مُـحْيِي الْـمَوْتَى بَعْدَ مَا أَحْيَى، اسْتَحَقَّ هَذَا الِاسْمَ قَبْلَ إِحْيَائِهِمْ؛ كَذَلِكَ اسْتَحَقَّ اسْمَ الْـخَالِقِ قَبْلَ إِنْشَائِهِمْ، ذَٰلِكَ بِأَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ، وَكُلُّ شَيْءٍ إِلَيْهِ فَقِيرٌ، وَكُلُّ أَمْرٍ عَلَيْهِ يَسِيرٌ، وَلَا يَـحْتَاجُ إِلَى شَيْءٍ: ﴿لَيۡسَ كَمِثۡلِهِۦ شَيۡءٞۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡبَصِيرُ﴾ [سورة الشورى، من الآية:١١].

﴿ الشرح ﴾

هذا بيان من المصنف رَحِمَهُ ٱللَّهُ أنّ أسماء الله تعالى أزلية، وأن صفاته تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ ليست مخلوقة، وأنه جلّ في علاه غني عن الخلق، وأن الخلق مفتقرٌ إليه.

قوله: "ليس" للنّفي، وتنفي الحال، أي والحال أنّه تعالى لم يكتسب اسم الخالق بعد أنْ خَلَقَ.

"**مُنْذُ**" و(مُذْ) حرفا جرٍّ بمعنى واحدٍ، ويدخلان على اسم الزمان، وإن دخل على الفعل كما هنا؛ فيكون ظرفًا مضافًا، والمعنى: أنّ الله تعالى ليس وقتَ وجودِ الخلقِ منه استفاد اسمَ الخالق، وذلك لأنه الخالق قبل خلقه الخلقَ.

وفي بعض النّسخ المطبوعة "**ليس بعدَ**" وليس له ذكرٌ في شيء من النسخ الخطية، و "**بعد**" ظرفُ زمانٍ ههنا، ويفيد التأخّر في الزّمان، والمعنى: أنّه ليس متأخراً استفاد اسم الخالق، وذلك بعد مضيّ وقتٍ؛ بل هو الخالق قبل الوقت،

وقبل الخلق، وقبل وجود الموجودات، وإنشاء المخلوقات.

"بعدَ خَلْقِ الخَلْق" أي ليس بعد أن خلَق وأوجَدَ المخلوقات والمحدَثات، وهو مِن باب إضافة المصدر إلى المصدر، والأوّل بمعنى الفعل، والثّاني بمعنى المفعول؛ فـ(الخَلْق) مصدرُ (خَلَقَ، يخلُقُ، خَلْقًا)، وهو يأتي بمعنى فعله، وبمعنى مفعوله.

وههنا إثبات ثلاثة أمور؛ الفعل، والفاعل، والمفعول:

الأمر الأوَّل: الفِعْلُ (خَلَقَ)، وهو فِعْل الرَّبّ تَبَارَكَوَتَعَالَىٰ، ويضافُ إليه إضافة الفعل إلى فاعله؛ فهو خلق كلّ شيء.

الأمر الثّاني: الخالِق؛ وهو الله تَبَارَكَوَتَعَالَىٰ، ولا خالِقَ إلا الله؛ فهو الّذي قام بفِعْلِ (خَلَقَ).

الأمر الثّالث: المخلوقُ = الخَلْقُ؛ وهم المحدَثات، والمصنوعاتُ؛ فالله تعالى أوجد كلّ هذه المخلوقات والمحدَثاتِ.

والأوّل: فعلُ الرّبّ تَبَارَكَوَتَعَالَىٰ، ووصفه.

والثّاني: ذاته العليّة، وبهما يتعلق الأحكام والأوصاف الخاصّة بواجب الوجود، الرّبّ تَبَارَكَوَتَعَالَىٰ، مِن الغِنى والاستغناء، والحمد والعظمة والبقاء، والأوّليّة والآخريّة.

وأما الثّالث: فمفعولات الله تعالى، ومخلوقاته، وهذه المخلوقات لها خصائصُ ومنها؛ الافتقارُ والحاجة، والنقصُ والفناء، ونحو ذلك.

ومراد المصنّف رَحِمَهُ ٱللَّهُ: أنّ الله تعالى موصوفٌ بأنّه خالقٌ أزلًا، وبارئٌ أزلًا، وليست أسماءُ الله وصفاتُه محدَثة مخلوقَة؛ فيكونُ تَسَمَّى بها بعدَ وجودِ متعلَّقَاتِها؛ فهو سبحانه الكاملُ الأوَّلُ الصَّمدُ قبل وجود آثار أفعاله وصفاته.

و **"اسْتَفَاد"** فِعلٌ مضارعٌ ومصدره (استفادة) بمعنى حصَّل، واقتنى الشَّيء، واكتسبه، وصار له؛ فالله تعالى لم يستفِد مِن خلقه الخلقَ شيئًا، وذلك لأنّه الخالق قبل خلقهم.

و **"الخالقُ"** اسمُ فاعلٍ وهو: الموجِدُ للشيء من العدم، و(**الخالقُ**) اسمٌ من أسماء الله تعالى الحسنى، وله معنيان:

المعنى الأوّل: الموجِد للأشياء؛ فإنّه يوجِدُ الشَّيْءَ مِن لا شيء، مِن لا مادّة، فهو موجِد الموادّ، وموجد التّركيبات فيها، وعلى هذا التفسير لمعنى (**الخالق**) نفهم معنى قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمۡۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ خَٰلِقُ كُلِّ شَيۡءٖ فَٱعۡبُدُوهُۚ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ وَكِيلٞ﴾ [سورة الأنعام، من الآية:١٠٢]، ومعنى قوله تعالى: ﴿قُلِ ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَيۡءٖ وَهُوَ ٱلۡوَٰحِدُ ٱلۡقَهَّٰرُ﴾ [سورة الرعد، من الآية:١٦]، ومعنى قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمۡ خَٰلِقُ كُلِّ شَيۡءٖ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ فَأَنَّىٰ تُؤۡفَكُونَ﴾ [سورة غافر، من الآية:٦٢].

المعنى الثّاني: الْمُشَكِّلُ للموادّ، والمغيّرُ للهيئات على السّداد؛ فإذا فُسِّرُ (**الخالق**) بمعنى الْمُشَكِّلِ للشَّيْءِ والمُغيِّرِ للشّيء مِن حال إلى حال، ومن صورة

إلى صورة؛ بمعنى التّصوير، والْمُصَوِّر؛ فالله تعالى هو الخالق حقيقة، وغيره سببٌ، وعليه يُحمَل قوله تعالى: ﴿ثُمَّ خَلَقْنَا ٱلنُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا ٱلْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا ٱلْمُضْغَةَ عِظَٰمًا فَكَسَوْنَا ٱلْعِظَٰمَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَٰهُ خَلْقًا ءَاخَرَ ۚ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ﴾ [سورة المؤمنون، من الآية:١٤]، وقوله تعالى: ﴿أَتَدْعُونَ بَعْلًا وَتَذَرُونَ أَحْسَنَ ٱلْخَٰلِقِينَ ۝١٢٥ ٱللَّهَ رَبَّكُمْ وَرَبَّ ءَابَآئِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ [سورة الصافات، من الآية:١٢٥-١٢٦].

"ولا بإحداثه" مصدرٌ مِن (أحدث، يحدث، إحداثًا)، أي: وليس بعد إيجاد الله تعالى اكتسب اسم الباري، و**(الإحداث)** معناه: إيجاد الشيء مِن حيّز العدم إلى حيّز الوجود، وهو بهذا المعنى فعلٌ خاصٌّ بالرّبّ تَبَارَكَوَتَعَالَىٰ.

وقد يطلق لفظ **(الإحداث)** على معنى (الفِعْل)، ويطلق الفِعْلُ على الله تعالى، وعلى معنى (المخلوق)، بالاشتراك اللّفظيّ، والبون واسع بين فعل الرّبّ تَبَارَكَوَتَعَالَىٰ الغنيّ الحميد، وبين فعل العبد الفقير.

و**"البريّة"** بفتح الباء الموحدة التحتانية وكسر الراء، وتشديد الياء: الخلقُ، والجمعُ (برايا) مِن (برأ) إذا أنشأ واخترعَ.

و **"البارئ"** اسمُ فاعلٍ من (البَرْءِ) وهو الإيجاد، وهو اسمٌ من أسماءِ الله تعالى الحسنى، ومعناه: الذي أوجد الشّيء على غير مثال سابق، وبرأه على صورة غير مسبوقة إليها، وهو مِن خصائص الله تَبَارَكَوَتَعَالَىٰ، فكما أنّه الخالق وحده؛ فهو

الباري وحده، قال الله تعالى: ﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلْخَٰلِقُ ٱلْبَارِئُ ٱلْمُصَوِّرُ ۖ لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ ۚ يُسَبِّحُ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [سورة الحشر، من الآية:٢٤].

فهو الموجد للمواد، والمخترع لها، والمشكِّل المصوِّر إياها، وأما تشكيل النّاس للموادّ فإنّما هي سببيّة، وليست حقيقيّة، وكذلك إبداعهم إنّما هي نسبيّة وليست حقيقيّة، ألا ترى أنهم لا يقدرون على تغيير المواد فلا يقدرون على جعل الحديد ذهبًا، أو العكس، ولا يقدرون على جعل الأوكسجين مادة أخرى، إلّا بسببٍ وتركيب آخر، أما الله تعالى؛ فهو الذي برأ الحديد والذهب والأوكسجين، وهو قادرٌ على تغيير ذواتها، وعلى تغيير خصائصها، وعلى إفنائها.

قوله **"له معنى الرّبوبيّة ولا مربوب"**

"له" أي لله تعالى.

و **"مَعْنَى"** ما يقصد به الشّيء، ويجمعُ على (معانٍ)، وفي اللّغة: ما يدلّ عليه اللَفْظُ، وما يقصد به من القول، وفحوى ومضمون اللفظِ، ومدلول الكلمة، ويطلق ويرادُ به الصّفات المحمودة، فيقال فلانٌ حسنُ المعاني؛ والله تعالى **"له معنى الرّبوبيّة"**.

و **"الرّبوبيّة"** مَصْدَرٌ صناعِيٌّ بمعنى الّذي له التَّربية، ويتضمّن: الإيجاد، والمِلك، والرَّزق، والتّدبير، وهذا تأكيد لما سبق مِن أنّه سبحانه موصوفٌ

بمدلول اسمه: الخالق، البارئ؛ فله معنى هذا الاسم، وما تضمنه من الصّفة، وهي الرّبّ، قبل أن يوجد مربوب.

و "**المربوب**" اسم مفعولٍ من (ربّى) الشّيءَ (يربّيه، تربيةً، وربوبيّة)؛ فهو (ربٌّ) اسمُ فاعلٍ؛ الذي يربّي، وذاك (مَرْبُوبٌ)، وهو الّذي يجري عليه أحكام التربية، وهو المصنوع المحدَث.

والمعنى: أنّ الله تعالى موصوفٌ بكونه الخالق البارئ قبل وجود فعله الآحادية في الخلقِ وهو الإيجاد والبرء.

قوله: "**ومعنى الخالق ولا مخلوق**" أي أنّه سبحانه موصوف بمدلول اسمه الخالق حيث لا مخلوق في الزمن الماضي.

و "**المخلوق**": اسم مفعول من (خَلَقَ، يخلق، خلقًا)؛ فهو (خالقٌ) اسمُ فاعلٍ، وذاك (مخلوقٌ) اسمُ مفعولٍ بمعنى الّذي وُجِدَ بعد أن لم يكن، وجنس الموجودات كلّها مخلوقة والله تعالى هو واجدها، فهو سبحانه موجودٌ بمعنى الواجد، وهو الخالق وكلّ من سواه مخلوقٌ.

و (**الخالقيّة**) مصدرٌ صناعيٌّ بمعنى الّذي يخلقُ؛ فهو سبحانه له معنى (الخالقيّة) قبل وجود الخلق، وقبل وجود آثار أفعاله الدّالّة على خالقيّته؛ فهو خالقٌ أزلًا، والمخلوقون محدَثُون، وهو الرَّبُّ أزلًا والمربوبون موجودين بعدُ؛ فهو سبحانه له معنى الرّبوبيّة والخالقيّة قبل وجود المربوبين والمخلوقين.

وهذا خلاف ما زعمته المعتزلة والجهمية مِن أن الله اكتسب هذه الأسماء بعد

إيجاده الخلق، وأنّه صار له اسم الخالق بعد وجود الخلق، وصار له اسم المالِك بعد وجود المِلك، واسم الْمَلِك بعد وجود المملكة، ونحو ذلك.

قوله: **"وكما أنّه محيي الموتى بعدما أحيا"** أي وقياسُ هذه المسألة على مسألة أخرى متعلقة بالله تعالى، وهي: أنّا بلا إشكالٍ نسميه محيي الموتى، ولـمّا يحصلُ هذا الفعلُ منه بعدُ، وإنما يكون يوم النشرِ والحشرِ؛ فإذا تقرر هذا المعنى؛ فكذلك ينبغي أن يتقرر القول بأنه الخالق قبل وجود الخلق، وهذا قياس لبعض المعاني المتعلقة بالله تعالى على البعض الآخر، وقياس بعض الصفات على بعضٍ، وهو الذي عبر عنه شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ بقوله: القول في بعض الصفات كالقول في البعض الآخر، وهو المفهوم مِن كلامي الإمام الدارمي، وإمام الأئمة ابن خزيمة رحمهما الله.

و **"المحيي"** مِن (أحيى، يحيي، إحياءً؛ فهو مُحْيِي) اسم فاعلٍ بمعنى الّذي يحيي، وهذا وصفٌ من أوصاف البارئ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ، ولا محييَ غيرَه، فهو وصفٌ خاصّ من أوصافه سبحانه المختصة به، وما جاء مِن أن عيسى عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ كان يحيي الموتى فذلك بإذن الله تعالى، وأمره سبحانه، ويظهر الإحياء علي يد عيسى عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ ليس إلّا، ولهذا قال تعالى: ﴿أَنِّي قَدۡ جِئۡتُكُم بِـَٔايَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ أَنِّيٓ أَخۡلُقُ لَكُم مِّنَ ٱلطِّينِ كَهَيۡـَٔةِ ٱلطَّيۡرِ فَأَنفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيۡرَۢا بِإِذۡنِ ٱللَّهِۖ وَأُبۡرِئُ ٱلۡأَكۡمَهَ وَٱلۡأَبۡرَصَ وَأُحۡيِ ٱلۡمَوۡتَىٰ بِإِذۡنِ ٱللَّهِۖ﴾ [سورة آل عمران، من الآية:٤٩]، وقال سبحانه: ﴿وَإِذۡ تَخۡلُقُ مِنَ ٱلطِّينِ كَهَيۡـَٔةِ ٱلطَّيۡرِ بِإِذۡنِي فَتَنفُخُ فِيهَا

﴿فَتَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِي وَتُبْرِئُ الْأَكْمَهَ وَالْأَبْرَصَ بِإِذْنِي وَإِذْ تُخْرِجُ الْمَوْتَىٰ بِإِذْنِي﴾[سورة المائدة، من الآية:١١٠].

فالله تعالى وحده محيي **"الموتى"**، و **"الموْتَى"** وصفٌ جمعيٌّ مِن (مات، يموت)، فهو (ميّتٌ، ومَيْتٌ)، وأصله: مفارقة الحياة، وخروج الرّوح عن البدن بالكلّيّة بالنّسبة للإنسان، وتغيّر حال الشّيء بالنّسبة للنّباتات، وعدم النّضرة والخضرة، وعدم آثار النّبت بالنّسبة للجمادات؛ فيقال أرضٌ مواتٌ.

"بعدَ مَا" أي بتأخُّرٍ زمانيٍّ عنه سبحانه؛ فقد **"كَانَ اللهُ قَبْلَ كُلِّ شَيْءٍ"**، وفي رواية: **"وَلَا شَيْءَ مَعَهُ"**، وفي رواية: **"كَانَ اللهُ وَلَمْ يَكُنْ شَيْءٌ غَيْرُهُ"**؛ فكل المحدَثات كائنة بإحداث الله تعالى لها، ومِن جملة ذلك إماتته الموتى.

"أحيى" فعلٌ ماضٍ من (الإحياء)، بمعنى جَعَلَ فيها الحياة، وحياة كلّ شيء بحسبه؛ فللملائكة حياة جعلهم الله تعالى بها أحياءً، وللجنّ والإنس حياة، وللنّبات حياة.

"استَحَقّ" فِعلٌ ماضٍ من (الاستحقاق)، وهو بمعنى: استوجب هذا الاسم، وحُقّ له أن يتّصف بمعنى الحَيّ، قبل أن يوجد الإحياء منه للأشياء الحيّة.

و **"الاسم"** يطلق بمعنى العلميَّة، مِن السموِّ؛ وهو الرِّفعةُ، أوْ من السِّمَةِ، وهي العلامة.

و **"قبل إحيائهم"** أي قبل وجود فعل الرّبّ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ فيهم، و **"إحيائهم"** مصدرٌ من (أحيى)، وهو البعثُ بعد الموتِ، أو الحياة بعد الموت.

وفي هذا الكلام من المصنف رَحِمَهُ ٱللَّهُ دلالة على أنّ أسماء الله تعالى كلّها حسنى، وذلك لأنّها دالّة على معاني غاية في الحسن، ولا يتوقف دلالة هذه الأسماء على وجود أفعال الرّبّ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ، ولا على وجود مفعولاته؛ فهو مستحقّ لكل الأسماء الحسنى، ومنها: الخالق قبل وجود المخلوقين، ومستحقّ لوصف محيي الموتى قبل نشر المخلوقين.

وهذا وجهٌ آخر دالٌّ على أخصّ صفات الرب تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ وهو مباينته لمخلوقاته في صفاته، إذ المخلوقات لا توصف بشيءٍ من الصفات إلا بعد وجود ذلك منهم فعلًا؛ فلا يقال: فلانٌ كريم إلا بعد وجود الكرم منه، ولا فلان شجاع إلا بعد وجود الشجاعة منه، ولا فلان عالم إلا بعد وجود العلم منه، وذلك لأنه محدَثٌ فأفعاله وصفاته تحدُث له، والله تعالى الموجِدُ المحدِث وهو الأول الأزلي سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ؛ فهو لا يكتسب شيئًا من الصفات لم يكن متصفًا بها قبل، ثم صار متصفا بها بعدُ؛ بل هذا من صفات المحدَثات المخلوقات.

و "**إنشائهم**" مصدرٌ مضاف إلى ضمير (هم)، وهو مِن (أنشأَ، يُنْشِئ، إنشاءً)، بمعنى: الإيجاد والتربية، والإحداث والإحياء.

ومراد المصنّف رَحِمَهُ ٱللَّهُ: أن الله تعالى اسمه (الحيّ)، وهو موصوف بصفة (الحياة)، وموصوفٌ بصفة (الْمُحْيِي)؛ أزلًا قبل أن يوجد الأحياء والأموات، ومُتَّصف بأنّه (المحيي) قبل أن يُحْيِيَهُم، وبأنّه "المميت" قبل أن يُمِيتَهم، وقبل

أن يَبْعَثهم، اِتَّصَفَ بالصفات قبل وجود الفعل منه؛ فذلك دليلٌ على أنّه مستحقٌّ للأسماء الحسنى والصّفات العليا أزلًا وأبدًا، فهو عليم خبيرٌ سميع بصيرٌ خالقٌ حكيمٌ رحيمٌ أزلًا وأبدًا، وهكذا بقية صفاته تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ.

والمخلوق تطرأ على صفاته الطوارئ من النّسيان والغفلة والعجز والضّعف، ونحو ذلك ممّا هو مِن خصائصهم، أمّا الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ فلا يطرأ على صفاته النّقص، ومِن أعظم صفات النّقص كونه لم يكن متّصفًا بهذه الصّفة من الكمالات ثمّ اتّصف بها؛ فهذا حال البشر، وهو مستحيلٌ على خالق البشر سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

وهنا سؤال: هل أسماء الله تعالى متوقفة في الاستحقاق على شيء، وماذا يتضمن أسماء الله تعالى؟

فالجواب: أسماء الله تعالى وصفاته غير متوقّفة في استحقاقه له سبحانه على وجود مدلولاتها، وعلى وجود الأفعال الّتي تدلّ عليها، وذلك لأن **أسماء الله تعالى متضمنة لأمور:**

الأمر الأوّل: الاسمية؛ فهذا لا علاقة له بالزّمن؛ فهو الخالق المالك البارئ السّميع والبصير أزلًا وأبدًا.

الأمر الثّاني: الصِّفَة والوَصْفُ الّذي دلّ عليه الاسم؛ ككونه موصوفًا بالخَلْقِ، والرَّزْقِ، والمِلك، والبَرْءِ، والسَّمعِ، والبصرِ؛ فهذا من حيث الوصف لا علاقة له بالزّمن أزلًا ولا أبدًا؛ فهو سميعٌ بصيرٌ خالقٌ بارئٌ أزلًا وأبدًا.

الأمر الثّالث: إذا كان الاسم دالا على وصفٍ متعدٍّ فيكون له أثرٌ في الفعلِ، مثل كونه خَلَقَ السماوات، وخلق آدم، وسَمِعَ كلامَ الملائكة حين أراد خَلْقَ آدم، وعَلَّمَ آدمَ وكلَّمَه؛ فهذه الأفعال الّتي دلّت عليها تلك الأسماء كانت في أوقات مُعَيَّنَة؛ لأنها أفعالٌ لِلرَّبِّ تَبَارَكَوَتَعَالَىٰ، وهي واقعةٌ في أزمنةٍ متعدّدة، بخلاف نفس الاسمية والوصفية فلا علاقة لهما بالزّمن في حق الباري تَبَارَكَوَتَعَالَىٰ، وهذا من أخص خصائصه سبحانه جلّ وعزّ، وهذا بخلاف المخلوق؛ فإنّه يكون اسمه ووصفه وفعله مرتبطًا بالزّمان؛ فيولد فيسمّى فيحصل (الاسم)، وينشأ ويكتسب الصّفات فيوصف وتكون له (الصفة)، ويفعل فيقال (فَعَل).

قوله: "ذلك بأنه على كلّ شيء قدير" أتى بهذه الجملة للتأكيد على خصائص الرب تَبَارَكَوَتَعَالَىٰ، وعلى تمايزه وتميزه عن مخلوقاته، بذكرِ شيءٍ من خصائصه، وإذا تقرر له هذا؛ فإنه يكون موصوفًا بالصفات أزلًا وأبدًا.

"ذلك" أي نقول: إنه متصفٌ بالصفات أزلًا وأبدًا، وأنه موصوف بها قبل وجود الخلق، **"ذلك بأنه"** أي الرب ذو الجلال والإكرام **"على كلّ شيءٍ قدير"**.

و **"كلّ"** لفظٌ مشتركٌ للشّيءِ الذي تتشابه أجزاؤه، نحوُ: كلُّ مخلوقٍ فهو مقدورٌ عليه. وقد يطلق على الشّيء الواحد باعتبار مجموعه، نحوُ: كل الشجرة، وهي مختلفة الأجزاء.

فهو لفظٌ يطلق ويراد به العموم، والتعميم، وهنا المقصود كذلك العموم؛ فلا يخرج عن قدرة الله تعالى شيء؛ فما من مخلوقٍ إلّا وهو تحت قدرةِ الله تعالى، وما مِن محدَثٍ موجودٍ أو متصوَّرٍ إلّا وهو تحت قدرةِ الله تعالى، وجاء التأكيد على هذا العموم في آيات كثيرة متكاثرة، قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾[سورة البقرة، من الآية:٢٠]، وقال سبحانه: ﴿وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾[سورة البقرة، من الآية:٢٨٤]، وقال جل في علاه: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا﴾[سورة الفتح، من الآية:٢١].

و "**قدير**" على وزن (فعيل) مفيد الكثرة، مِن (قَدر، يقدر؛ قدرة)؛ فهو (قديرٌ) بمعنى قادِر، وبمعنى ذو قدرَةٍ، و(**القديرُ**) اسمٌ مِن أسماء الله تعالى، ودالّ على صفة القدرة.

و "**فقير**" على وزن (فعيل) بمعنى مُفْتَقِر، وبمعنى ذو فَقْرٍ؛ وما مِن شيءٍ إلّا وهو مفتقِرٌ ومحتاجٌ إلى الله تعالى، ولا يقدرُ مخلوق على الاستغناء عن خالقه؛ كما لا يقدر مصنوع الاستغناء عن صانعه، ألا ترى إلى شدّة احتياج المصنوعات البشرية إلى صانعيها في التشغيل والاستدامة والإبقاءِ؛ فحاجةُ المخلوقات إلى خالقها أعظم وأشدّ.

و" كل أمْرٍ" أي كلّ حالٍ وشأنٍ، "عليه" أي على الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ.

و(الأمر) مصدرٌ مِن (أَمَرَ، يَأْمُرُ، أمرًا)، ويطلق على معنى فِعلِه بمعنى الحال والشّأن؛ كما في قوله تعالى: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ ٱلْأَمْرِ شَيْءٌ﴾[سورة آل عمران، من الآية:١٢٨]،

وعلى معنى مفعوله، بمعنى الطلب والمأمور به؛ كما في قوله تعالى: ﴿وَقُضِيَ ٱلْأَمْرُ﴾[سورة البقرة، من الآية:٢١٠].

و "**يسير**" على وزن (فعيل) من (اليُسْرِ)، وهو السَّهْلُ الّذي لا عُسْرَ فيه، فكلّ شأنٍ على الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ هيِّنٌ ويسيرٌ، وليس عليه شيءٌ شاقّ ولا عسير.

"**ولا يحتاج إلى شيءٍ**" جملةٌ منفيّة للتّأكيد على خاصية من خصائصه تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ، وهو كونه الخالق البارئ القدير بلا احتياجٍ إلى شيءٍ، وذلك لأنّ المخلوقات مهما صنعوا وقدروا فيهم في ذلك محتاجون إلى موادٍّ، ومحتاجون إلى شيء يتقوون به في قدرهم، ويحتاجون إلى زمانٍ لينجزوا، وإلى مكانٍ ليعملوا، بخلاف ربّ العالمين تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ؛ فهو "**لا يحتاج إلى شيءٍ**".

و "**يحتاج**" فعلٌ مضارعٌ من (احتاج) الخماسيّ، ومصدره (الاحتياج)، وهو: الافتقار، والعوز إلى المساعدة، والتطلّب إلى أسبابٍ، ونفي (الاحتياج) عن الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ لكماله جلّ في علاه، ولحمده وغناه.

و ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾[سورة الشورى، من الآية:١١]؛ **فالله تعالى ليس** كذاته ذاتٌ، ولا كصفاته صفاتٌ، ولا يشبهه شيءٌ من الموجوداتِ، ولا يقاس بشيءٍ من المحدَثات، وهو موصوف بالسمع والبصر على ما يليق به تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ.

و"**ليس**" للنفي، و (**الكاف**) للتّشبيه، و(**المثل**) الذات، والعين، والشيءُ، والماهية، و(الهاء) ضميرٌ عائدٌ على الله تعالى، والمعنى: ليس كذاتِ الله

سبحانه (شيءٌ)، و(الشيء) نكرة في سياق النفي فعمّت؛ فلا يوجد كذاته ذاتٌ لا في المخلوقات العلوية ولا في المخلوقات السفلية، وذلك لأنّ نفي المثلية عنه تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ على العموم المطلق، وإذا تقرّر هذا فإنّ صفات هذه الذات العلية لا تكون كصفات الذوات المحدثة للبرية، فهو السميع البصيرُ على الكمال والجمال والجلال.

وفي أول الآية نفي المثلية، وهو يتضمن نفيِ المقايسة بين الله تعالى وبين خلقه لكماله، ونفي التّشبيه عن الله جَلَّوَعَلَا، وفي آخر الآية إثبات الوصفية، وهو يتضمن كمال الصفات؛ لأنها من المضافات الخبرية عن الذات العلية التي لا مثيل لها في شيءٍ من الموجودات البرية.

و "**السّميع**" اسمٌ على وزان (فعيل) مفيد المبالغة، من (السّمع)، بمعنى اسم الفاعل، والمعنى: أنه تعالى سامعٌ للأصواتِ؛ فلا يخفى عليه شيءٌ من أقوال وكلمات البريات.

و "**البصير**" اسمٌ على وزان (فعيل) مفيد المبالغة، من (البصر)، بمعنى اسم الفاعل، والمعنى: أنه تعالى باصِرٌ للمبصرَات؛ فلا يخفى عليه شيءٌ من أحوال وتقلبات الموجودات، وبالجمع بينهما ينتج عنه العلم العظيم المحيط بكل شيء، وإذا أراد العاقل أن يدرك عظمة سمعه وبصره، وما عليه علمه تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ، وما يدل على تباين صفاته عن صفات خلقه؛ فليتأمل في هاتين الآيتين:

الآية الأولى: قوله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُواْ مِنْهُ مِن قُرْءَانٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِۚ وَمَا يَعْزُبُ عَن رَّبِّكَ مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِ وَلَآ أَصْغَرَ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَٰبٍ مُّبِينٍ﴾ [سورة يونس، من الآية:٦١].

الآية الثانية: قوله جل في علاه: ﴿وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَۚ وَيَعْلَمُ مَا فِي ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِۚ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَٰتِ ٱلْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَٰبٍ مُّبِينٍ﴾ [سورة الأنعام، من الآية:٥٩].

ومراد المصنّف رَحِمَهُ ٱللَّهُ: أنّ الله تعالى موصوفٌ بالصّفات أزلًا وأبدًا، وذلك لأنّه لا يقاس بخلقه؛ فهو لا يحتاج إلى شيءٍ، وهو على كلّ شيء قدير، لا يعجزه شيء، وهو مستغنٍ عن كلّ شيء، وكلّ شيء مفتقر إليه، وليس شيءٌ عسير عليه.

ومما يدل على عظيم قدرته قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعْجِزَهُۥ مِن شَيْءٍ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي ٱلْأَرْضِۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَلِيمًا قَدِيرًا﴾ [سورة فاطر، من الآية:٤٤].

ويدل على غناه التّام قوله تعالى: ﴿سُبْحَٰنَهُۥۖ هُوَ ٱلْغَنِيُّۖ لَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ﴾ [سورة يونس، من الآية:٦٨].

ويدل على يُسْرِ كلّ شيءٍ عليه قوله تعالى: ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ فِي كِتَٰبٍۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى

ﱡﭐﲻ ﲼﱠ [سورة الحج، من الآية:٧٠]، وقوله تعالى: ﴿زَعَمَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَن لَّن يُبۡعَثُواْۚ قُلۡ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتُبۡعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلۡتُمۡۚ وَذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٞ﴾ [سورة التغابن، من الآية:٧].

ومما يدل على أنّ الله تعالى لا يحتاج إلى شيءٍ قوله تعالى: ﴿وَمَا لَهُمۡ فِيهِمَا مِن شِرۡكٖ وَمَا لَهُۥ مِنۡهُم مِّن ظَهِيرٖ﴾ [سورة سبأ، من الآية:٢٢].

فأسماء الرّبّ تَبَارَكَوَتَعَالَىٰ، وأوصاف الرّبّ تَبَارَكَوَتَعَالَىٰ، وأفعال الرّبّ تَبَارَكَوَتَعَالَىٰ، لا يقاس على أسماء المخلوقين، ولا على أوصافهم، ولا على أفعالهم، وذلك لأنّ المخلوق إنما وُجد بعد أن لم يكن، وهو قابل للفناء، وأوصافه وأفعاله مفتقرة؛ فهو غير مستغنٍ؛ فقوّة المخلوق محدودة، ومتوقّفة على غذائه، وحاله، وضعف المقابل له، ونحو ذلك، وهذا كلّه يدلّ على المغايرة العظيمة بين الرّبّ تَبَارَكَوَتَعَالَىٰ وبين العباد؛ فلا يجوز بحال أن تقاس أسماؤه وصفاته وأفعاله على أسماء وأوصاف وأفعال المخلوقات.

فكل مخلوقٍ إنّما يتّصف بالصّفات شيئًا بعد شيءٍ، وذلك لأنّه في الأصل كان عدمًا فأوجده الله تعالى، وهو يكتسب هذه الصّفات بعد ذلك شيئا بعد شيءٍ؛ فيقال: إنّه صار مُتكلّمًا، وصار قويًّا، وصار غنيًّا، وصار ملِكًا، ونحو ذلك؛ لأنّه مقيس على أصل خلقته الّتي لم تكن، وحاجته، والله تعالى أزلي الذّات فكذلك أوصافه تَبَارَكَوَتَعَالَىٰ أزلية.

[عظيم علم الله وقدرته وتقديره]

خَلَقَ الْـخَلْقَ بِعِلْمِهِ وَقُدْرَتِهِ، وَقَدّرَ لَـهُمْ أَقْدَارًا، وَضَرَبَ لَـهُمْ آَجَالًا، لَـمْ يَخْفَ عَلَيْهِ شَيْءٌ مِنْ أَفْعَالِـهِمْ قَبْلَ أَنْ يَـخْلَقَهُمْ، وَعَلِمَ مَا هُمْ عَامِلُونَ قَبْلَ أَنْ يَـخْلُقَهُمْ، وَأَمَرَهُمْ بِطَاعَتِهِ، وَنَـهَاهُمْ عَنْ مَعْصِيَتِهِ.

وَكُلُّ شَيْءٍ يَـجْرِي بِقُدْرَتِهِ وَمَشِيئَتِهِ، وَمَشِيئَتُهُ تَنْفُذُ، لَا مَشِيئَةَ لِلْعِبَادِ إِلَّا مَا شَاءَ لَـهُمْ؛ فَمَا شَاءَ لَـهُمْ كَانَ، وَمَا لَـمْ يَشَأْ لَـمْ يَكُنْ.

﴿ الشرح ﴾

هذا تقرير من المصنف رَحِمَهُ ٱللَّهُ في بيان عظمة علم الله تعالى، وعظمة قدرته، وأنّ كل شيءٍ جارٍ بمشيئته تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ.

قوله: **"خَلَقَ الخلق بعلمه وقدرته"** جملة منصوبة على الحالية متعلقة بالجملة التي قبلها: **"ذلك بأنّه على كل شيءٍ قدير"**، أو عطف بيانٍ؛ فهو **"على كل شيءٍ قديرٌ"**، وهو **"خَلَقَ الخلق بعلمه"** أي بعلم الله تعالى، و**"علمه"** مضاف إلى الله تعالى من باب إضافة الصفة إلى موصوفه، وهو متعلق بالفعل **(خَلَقَ)**، أي أوجد الخلقَ وَفق عِلْمِه.

وعلمُ الله تعالى: صفة ذاتية لله تعالى، ومعناه: إحاطته بالأشياء، ومعرفته بها قبل وجودها، على حقائقها وهيئاتها، وكيف تكون، وإلى ما تصير، فهو سبحانه من أسمائه **(العليم)**، وهو يدل على صفة **(العِلْم)**، وهو عظيم العلم؛ فلا يغيب عن علمه شيءٌ ممّا كان، أو هو كائنٌ، أو يكون، أو لم يكن لو كان كيف يكون.

ومن تأمّل في عظمة المخلوقات تبين له عظمة علم الله تعالى، وعِظَم الصَّنعة

دليل على عظمة الصّانع، ودقّة الصّنعة دليل على دقّة علم الصانع، وهذه قاعدة عقلية مطّردة، وقد أيدتها النصوص الشّرعية، قال الله تعالى: ﴿أَلَا يَعۡلَمُ مَنۡ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلۡخَبِيرُ﴾[سورة الملك، من الآية:١٤]، وقال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِي خَلَقَ لَكُم مَّا فِي ٱلۡأَرۡضِ جَمِيعًا ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَسَوَّىٰهُنَّ سَبۡعَ سَمَٰوَٰتٖۚ وَهُوَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٞ﴾[سورة البقرة، من الآية:٢٩]، وقال تعالى: ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَيۡءٖۖ وَهُوَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٞ﴾[سورة الأنعام، من الآية:١١٠].

فالله تعالى علمه محيطٌ بخلقه قبل إيجادهم، وحين إيجادهم، وبعد إيجادهم، وإذا كان دقّة الصّنعة دليلًا على العلم؛ فكذلك عِظَمُ الصّنعة دليل على عظيم قدرة الصّانع، فالله سُبۡحَانَهُۥوَتَعَالَىٰ "**خلق الخلق بعلمه وقدرته**"، والعلم متعلق بالجانب العلمي، و"قدرته" متعلق بالجانب العملي؛ فاجتمع في حقّ الله تعالى العلم التام، والقدرة التامة؛ فكانت الصّنعة العظيمة، قال تعالى: ﴿قَالَ بَل لَّبِثۡتَ مِاْئَةَ عَامٖ فَٱنظُرۡ إِلَىٰ طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمۡ يَتَسَنَّهۡۖ وَٱنظُرۡ إِلَىٰ حِمَارِكَ وَلِنَجۡعَلَكَ ءَايَةٗ لِّلنَّاسِۖ وَٱنظُرۡ إِلَى ٱلۡعِظَامِ كَيۡفَ نُنشِزُهَا ثُمَّ نَكۡسُوهَا لَحۡمٗاۚ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥ قَالَ أَعۡلَمُ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ﴾[سورة البقرة، من الآية:٢٥٩]، وقال تعالى: ﴿قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلۡمُلۡكِ تُؤۡتِي ٱلۡمُلۡكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلۡمُلۡكَ مِمَّن تَشَآءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُۖ بِيَدِكَ ٱلۡخَيۡرُۖ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ٢٦

﴿تُولِجُ ٱلَّيۡلَ فِي ٱلنَّهَارِ وَتُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِي ٱلَّيۡلِۖ وَتُخۡرِجُ ٱلۡحَيَّ مِنَ ٱلۡمَيِّتِ وَتُخۡرِجُ ٱلۡمَيِّتَ مِنَ ٱلۡحَيِّۖ وَتَرۡزُقُ مَن تَشَآءُ بِغَيۡرِ حِسَابٖ﴾[سورة آل عمران، من الآية:٢٦-٢٧].

"وقدرته" القدرة مضافة إلى الله تعالى مِن باب إضافة الصّفة إلى موصوفه، وهو متعلّق بالفعل (**خَلَقَ**)، أي أوجد الخلقَ بقدرتِه.

وقدرةُ الله تعالى: صفة ذاتية لله تعالى، **ومعناها**: القوّة على الشّيء، والتّمكُّن منه، وإقداره على الإيجادِ والإفناءِ، والفعل والتّرك؛ فهو سبحانه مِن أسمائه (**القدير**)، وهو يدل على صفة (**القدْرة**)، وهو عظيم القدرة؛ فلا يعجزه شيءٌ لا إيجادًا، ولا إعدامًا، ولا فعلًا، ولا تركًا.

ومراد المصنّف رَحِمَهُٱللَّهُ: أنّ الله سبحانه خلق وهو عالمٌ ما خلق، وخلق وهو يعلم ما يخلق، وعَلِمَ مَا الخلقُ عاملون، ولهذا فإنّ خَلْقَهُ مَبْنِيٌّ على علمه، وقد جمع الله تعالى بين علمه وقدرته في آية واحدة فقال تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِي خَلَقَ سَبۡعَ سَمَٰوَٰتٖ وَمِنَ ٱلۡأَرۡضِ مِثۡلَهُنَّۖ يَتَنَزَّلُ ٱلۡأَمۡرُ بَيۡنَهُنَّ لِتَعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ وَأَنَّ ٱللَّهَ قَدۡ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عِلۡمَۢا﴾[سورة الطلاق، من الآية:١٢].

وقال العليم القدير سبحانه: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعۡجِزَهُۥ مِن شَيۡءٖ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي ٱلۡأَرۡضِۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَلِيمٗا قَدِيرٗا﴾[سورة فاطر، من الآية:٤٤].

"وقدّر لهم أقدارًا" جملة معطوفة على (خَلَقَ)، ويقال فيها ما قيل فيها، "والقَدَّرَ" فِعْلٌ ماضٍ مِن (القَدْر) بمعنى جَعَلَ **"لهم"** لِخَلْقِه قِسْمَةً، وتقدِيرًا

معيَّنًا، لكلّ واحدٍ قَدَرٌ مُعَيَّنٌ، وإنما اختلفت المقادير امتحانًا، ولأنّ كلّ عبدٍ يريد شيئًا؛ فغاير الله تعالى بين هذه المقادير بناءً على مرادات أصحابها.

ما هو أقسام المقادير؟

الأقدار منقسمة إلى قسمين:

القسم الأوّل: ما الخلقُ مجبورون فيه، وليس لهم فيه إرادة ولا مشيئة، وهذا لا مؤاخذة عليه، ولا ثواب ولا عقاب؛ كألوانهم، وأشكالهم، ومواليدهم، ووفيّاتهم، ونحو ذلك، قال الله تعالى: ﴿لَّا يُؤَاخِذُكُمُ ٱللَّهُ بِٱللَّغْوِ فِىٓ أَيْمَـٰنِكُمْ وَلَـٰكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ﴾[سورة البقرة، من الآية:٢٢٥]، وجاء في حديث أبي هريرة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: **"إِنَّ اللهَ لَا يَنْظُرُ إِلَى أَجْسَادِكُمْ، وَلَا إِلَى صُوَرِكُمْ، وَلَكِنْ يَنْظُرُ إِلَى قُلُوبِكُمْ"** وَأَشَارَ بِأَصَابِعِهِ إِلَى صَدْرِهِ. [رواه مسلم].

القسم الثّاني: ما هم مخيَّرون فيه، ولهم فيه فِعلٌ وإرادةٌ ومشيئة، وعليه المؤاخذة، والثّواب والعقاب؛ وهو أنواع.

أنواع الأعمال التي فيها للعبد اختيار وإرادة:

النّوع الأوّل: أعمال العباد القلبيّة التّعبديّة؛ كالحبّ والبغض، والخوف والرَّجاء، ونحوها.

النّوع الثّاني: أعمال العباد القوليّة؛ كالصّدق، وقول الحقّ، والذِّكر، ونحو ذلك.

النّوع الثّالث: أعمال العباد البدنيّة؛ كالرّكوع، والسّجود، والذّبح، ونحو ذلك.

النّوع الرّابع: أعمال العباد الماليّة؛ كالصّدقة، والزّكاة، ودفع الحقوق الماليّة، ونحو ذلك.

فالله تعالى قد قدّر للمخلوقات مقادير وَفق علمه السابق، وتمّ خَلْقُهُ على ذلك؛ فكلُّ شيءٍ عنده له أجلٌ مُسمًّى، قال تعالى: ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُۥ تَقْدِيرًا﴾[سورة الفرقان، من الآية:٢]، وقال تعالى: ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَآئِنُهُۥ وَمَا نُنَزِّلُهُۥٓ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ﴾[سورة الحجر، من الآية:٢١]، وقال سبحانه: ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَٰهُ بِقَدَرٍ﴾[سورة القمر، من الآية:٤٩].

ولعظيم عِلْمِه، وسَبْقِ عِلْمِه، لم يَخْفَ عليه شيءٌ، قبل أن يوجِدَهم، وبعد أن أوجدَهم، وعَلِمَ ما هم سائرون إليه، قبل أن يخلقهم، وبعد ما خَلَقَهُم؛ كما قال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ﴾[سورة الصافات، من الآية:٩٦].

وسواء قلنا: إنّ (ما) مصدريّة أو موصولة ففيه دليلٌ على أنّ الله عَلِمَ ما الخلق عاملون، وأنّ أعمالهم مخلوقة لله تعالى.

من هم المخالفون في القدر؟

فالجواب: المخالفون في القدر صنفان:

الصنف الأوّل: القدريّة النّفاة، وهم على درَكتين:

الدّركة الأولى: مَن أنكروا سبق عِلْمِ الله تعالى بالأشياء قبل وجودها، وخلقه

لأفعال العباد بعد وجودها، وهؤلاء هم القدرية الأولى، الذين كفرهم السَّلف، وضللوهم، وبينوا أنهم ناقضوا ركنًا من أركان الإيمان، وهو الإيمان بالقدر.

الدّركة الثّانية: مَن أنكروا خلق اللهِ تعالى لأفعال العباد، وهذا ما عليه عامّة المعتزلة ومَن وافقهم، وهؤلاء وإن كانوا أخفّ من أولئك، إلّا أنّهم في ضلالٍ حيث إنهم نقصوا من أركان الإيمان بالقدر ركنين، وبذلك لم يكملوا إيمانهم بالقدر.

الصنف الثاني: القدرية الجبرية؛ فإنّهم زعموا أنّ العبد ليس له فِعْلٌ، ولا مشيئة، وأنّ العباد وأعمالهم مخلوقه لله تعالى، وأنّ العباد مجبورون، وليس لهم اختيارٌ ولا مشيئة، وليس لهم قدرة في أنْ يختاروا؛ بل هم كالورقة في مهبّ الريح، وعليه غلاة الجبرية.

وأمّا أهل السنة؛ فأثبتوا أنّ للعبد فعلًا ومشيئة، وأنّ أعمالهم مخلوقةٌ لله تعالى، وأنّ العباد لهم مشيئةٌ واختيار، وأنّ مشيئتهم لا تخرج عن مشيئة الله تعالى، وأنّ للعباد عملاً وفعلاً، وعليه يعاقبون ويثابون، وأنّ أعمالهم تلك لا تخرج عن خَلْقِ الله تعالى.

قوله: **"وضَرَب لهم آجالًا"** جملة معطوفة على جملة **"خَلَق..."**، والمعنى أنه مع خلقه لهم جعل لهم أجلًا لا يتعدّونه، ويحتمل أنه معطوف على جملة **"وقدَّر..."** فيكون من باب عطف الخاص على العام؛ فإن ضَرْب الآجال من الأقدارِ.

"**وضَرَب**" فعلٌ ماضٍ من (الضَّرْب)، وله معانٍ كثيرة، والمراد به هنا: ختَم آجالهم، وحدّدها، وجعل لها سّكَّةً محدودةً لا تتغير، وطبع ذلك في كتابٍ، وحدّده وعيّنه؛ فما مِن شيءٍ إلّا وله أجلٌ.

و"**آجالًا**" جمعُ (أجَل) وهو الوقت المؤخَّرُ المحدَّد المعيَّنُ؛ كما قال الله تعالى: ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾ [سورة الأعراف، من الآية:٣٤]، وقال سبحانه: ﴿وَمَآ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ إِلَّا وَلَهَا كِتَابٌ مَّعْلُومٌ ۝٤ مَّا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسْتَـْٔخِرُونَ﴾ [سورة الحجر، من الآية:٤-٥]، وجمعَ بين خلقه وتحديد آجالهم في آية واحدة في قوله جَلَّوَعَلَا: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ قَادِرٌ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ وَجَعَلَ لَهُمْ أَجَلًا لَّا رَيْبَ فِيهِ﴾ [سورة الإسراء، من الآية:٩٩].

قوله: "**لم يخفَ عليه شيءٌ من أفعالهم قبل أن يخلقهم**" هذه الجملة مؤكدة للجملة السابقة، متعلق بكلمة "**بعلمه**"، وهذا دليلٌ على أنّ إثباتنا لصفة العلم يقتضي نفي ما يخالفه.

و"**يخفَ**" فعلٌ رباعيٌّ مضارعٌ مجزوم بـ (لَـمْ) مِن (**الإخفاء**)، وخفِي بمعنى (سَتَر)، وتوارى عن النّظر، وغابَ عن العلم والبصر.

والله تعالى لا يخفى عليه شيءٌ؛ كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَخْفَىٰ عَلَيْهِ شَىْءٌ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِى ٱلسَّمَآءِ ۝٥ هُوَ ٱلَّذِى يُصَوِّرُكُمْ فِى ٱلْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَآءُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ

ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ﴾[سورة آل عمران، من الآية:٥-٦]، وقال جلّ وعزّ: ﴿مَا نُخۡفِي وَمَا نُعۡلِنُۗ وَمَا يَخۡفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ مِن شَيۡءٖ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِ﴾[سورة إبراهيم، من الآية:٣٨].

و "**أفعالهم**" أي أفعالِّ العباد، وهو جمع (فِعْلٍ)، ويطلق على: كلّ ما يصدر من العبد من خيرٍ أو شرّ، وسَكَنَة أو حَرَكَةٍ، ومن قولٍ أو عملٍ، وظاهرٍ أو باطنٍ؛ فهذا كلّه علمه الله تعالى قبل أن يوجدهم، وبعد ما أوجدهم، كما علمه سابقًا، لا يطرأ على علمه تَبَارَكَوَتَعَالَىٰ طارئٌ؛ لأنّ علمه صفة من صفاته، وهي ليست كعلوم المخلوقين؛ المسبوقة بالجهل، والمصحوبة بالنقص، والملحوقة بالطوارئ والفناء، قال الله تعالى: ﴿وَمَا تَكُونُ فِي شَأۡنٖ وَمَا تَتۡلُواْ مِنۡهُ مِن قُرۡءَانٖ وَلَا تَعۡمَلُونَ مِنۡ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيۡكُمۡ شُهُودًا إِذۡ تُفِيضُونَ فِيهِۚ وَمَا يَعۡزُبُ عَن رَّبِّكَ مِن مِّثۡقَالِ ذَرَّةٖ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِ وَلَآ أَصۡغَرَ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكۡبَرَ إِلَّا فِي كِتَٰبٖ مُّبِينٍ﴾[سورة يونس، من الآية:٦١]، وفي الآية بيان علم الله تعالى بالأحوال، وبيان علم الله تعالى قبل الأحوال، وأنه تعالى كتب ذلك في كتاب جليّ عنده.

"**وعلم ما هم عاملون قبل أن يخلقهم**" هذه الجملة لتأكيد النّفي في الجملة التي قبلها؛ فإنّ الجمع بين النفي والإثبات أكمل في إثبات معاني الصّفات، وفيها دليل على سبق عِلْم الله تعالى، قال تعالى: ﴿وَأَعۡلَمُ مَا تُبۡدُونَ وَمَا كُنتُمۡ تَكۡتُمُونَ﴾[سورة البقرة، من الآية:٣٣]؛ فعلمه بما يبديه الإنسان قبل أن يبديه دليل على سبق علمِ الله تعالى.

وقال سبحانه: ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۗ إِنَّ ذَٰلِكَ فِى كِتَٰبٍ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ﴾[سورة الحج، من الآية:٧٠].

وقال جلّ وعزّ: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴿٧٤﴾ وَمَا مِنْ غَآئِبَةٍ فِى ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ﴾[سورة النمل، من الآية:٧٤-٧٥].

و **"عاملون"** جمعُ (عامل) اسمُ فاعل من (العمل) وهو: مَن يعملُ في مهنة، أو صنعةٍ، والمرادُ هنا: المعنى الأعمّ، وهو كلّ عاملٍ مِن خيرٍ أو شرٍّ، أو حركةٍ أو سَكَنَةٍ، وقد أخبر الله تعالى عن بعض أعمال العباد قبل أن يعملوه؛ فقال تعالى: ﴿وَلَهُمْ أَعْمَٰلٌ مِّن دُونِ ذَٰلِكَ هُمْ لَهَا عَٰمِلُونَ ﴿٦٣﴾ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذْنَا مُتْرَفِيهِم بِٱلْعَذَابِ إِذَا هُمْ يَجْـَٔرُونَ ﴿٦٤﴾ لَا تَجْـَٔرُوا۟ ٱلْيَوْمَ ۖ إِنَّكُم مِّنَّا لَا تُنصَرُونَ﴾[سورة المؤمنون، من الآية:٦٣-٦٥].

قوله: **"وأمرهم بطاعته"** جملة معطوفة على جملة **"وقدّر لهم..."**، و(الأمرُ) متعلّق بالحكم الشّرعي، و(القَدَر) متعلق بالأمر الكوني.

"وأمرهم" أي أمَرَ اللهُ تعالى العبادَ، و **(الأَمْرُ)** مخاطبةُ المأمور على وجه الاستعلاء ليفعلوا، والله تعالى أمر عباده بطاعته؛ كما قال تعالى: ﴿قُلْ أَمَرَ رَبِّى بِٱلْقِسْطِ ۖ وَأَقِيمُوا۟ وُجُوهَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَٱدْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾[سورة الأعراف، من الآية:٢٩]، وقال جل في علاه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا۟ ٱلْأَمَٰنَٰتِ إِلَىٰٓ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ أَن تَحْكُمُوا۟ بِٱلْعَدْلِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِۦٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ سَمِيعًۢا بَصِيرًا﴾[سورة النساء، من الآية:٥٨]؛ فالله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ أمرَ أمرًا شرعيًّا بطاعته.

و(**الطّاعة**): الانقياد، والخضوع، والموافقة، **والمراد هنا**: امتثالُ أوامر الله تعالى، سواءٌ كان الأمرُ واجبًا أو مندوبًا، وسُمِّيت طاعة لأنّ الْمُمتَثِل يكون طَوْعَ الأمر؛ فهو في طاعة، وطواعية.

"ونهاهم عن معصيته" أي نهى اللهُ تعالى العبادَ، و(**النّهي**) مخاطبةُ المأمورِ على وجه الاستعلاء للامتناع عن الشّيء، حتّى لا يفعلوا، واللهُ سبحانه نهى عبادَه حتّى يقع منهم الطّاعة بترك المنهيّ، وليحذروا حتّى لا يقع منهم معصية لله تعالى، وكلّ معصيةٍ فقد نهى اللهُ جَلَّوَعَلَا عنها، وذلك لأنّ المعاصي فحشٌ، قال سبحانه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَأۡمُرُ بِٱلۡفَحۡشَآءِۖ أَتَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعۡلَمُونَ﴾ [سورة الأعراف، من الآية:٢٨].

و(**المعصية**): الخطيئة، وارتكاب المنهيّ عنه، وهو يُنْبِئُ عن عدم الانقياد. **والمراد هنا**: عدم امتثال ما نهى الله تعالى عنه، وسُمِّيت معصية؛ لأنّ مرتكبه قد أظهر العِصيان والفجور، وارتكاب المحظور.

ومراد المصنّف رَحِمَهُ ٱللَّهُ: إثبات الأمر والنّهي الشّرعيّ، بعد ذكر الأمر والشّأن القدريّ، وأنّه لا تعارض بين الشّرع والقَدَرِ، كما هو معتقد أهل السّنّة والجماعة؛ فالّذي قَدَّرَ هو الله تعالى، والّذي شرع هو الله جَلَّوَعَلَا، وما دم الأمرُ من عند الواحد فإنه لا يكون ولا يوجد تعارضٌ بين شرعه وقَدَرِه، ولا بدّ من معالجة القدر بالشّرع قال تعالى: ﴿وَأۡمُرۡ أَهۡلَكَ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱصۡطَبِرۡ عَلَيۡهَاۖ لَا نَسۡـَٔلُكَ رِزۡقٗاۖ

﴿نَّحۡنُ نَرۡزُقُكَۗ وَٱلۡعَٰقِبَةُ لِلتَّقۡوَىٰ﴾ [سورة طه، من الآية:١٣٢]؛ ففي الآية أمرٌ شرعيٌّ وهو أداءُ الصّلاة؛ فيُمْتَثَلْ، وأمرٌ قَدَرِيٌّ وهو الاصطبار على المقدور، فيُصْبَرُ عليه.

وقال الله تعالى: ﴿ٱلَّذِي خَلَقَ فَسَوَّىٰ ۝٢ وَٱلَّذِي قَدَّرَ فَهَدَىٰ﴾ [سورة الأعلى، من الآية:٢-٣]؛ فالله جل في علاه خلق المخلوقات تسوية وإيجادًا، وهو سبحانه قدَّر الأمور تقديرًا، وهدى إلى الشّرع تيسيرًا؛ فكان أَمْرُه القدريّ وأَمْرُه الشّرعيّ ابتلاءً؛ فالأوّل يعالج بالثّاني، والعبدُ يتقلب بينهما؛ فإنِ امتثل الأمر كان مبرورًا، وإنْ خالف كان مَغرورًا، وإن صبر على مُرّ القضاء كان مُثابًا، وإنْ لم يصبر كان جزوعًا هلوعًا، وبالوزر محمولًا، وإنْ وقع منه الطّاعة كان محمودًا، وعليه أن يكون بذلك القدرِ شاكرًا حامدًا، أو راضيًا، أو صابرًا، وإن وقع منه المعصيةُ فعليه أن يستغفر حتّى لا يكون ملومًا، وإنْ أصرَّ ولم يتب كان محسورًا.

فإن قيل: ما طوائفُ النّاس في القدر مع الشّرع؟

فالجواب: النّاس في مسألة القدر مع الشّرع على ثلاث طوائف:

الطّائفة الأولى: القدريّة الإبليسيّة؛ زعموا أنّ هناك تعارضًا بين الشّرع والقدر؛ فلم يمتثلوا الأمر الشّرعيّ، واعترضوا على الحكمة في الأمر الشّرعيّ والقدريّ، وزعموا أنّ ثَمّ تعارضًا بينهما؛ فقال إبليس لما أُمِرَ بالسجود لآدم: أَنَا خيرٌ منه، على وجه الاعتراض، ونفي الحكمة، وهذا حال أتباعه المعترضين على الله تعالى؛ فهم أقرّوا بوجود الأمرين؛ القدريّ، والشّرعيّ، وزعموا التّعارض، وعدم الحكمة.

الطّائفة الثّانية: القدريّة الْمُشرِكِيّة؛ قالوا: ما يقع شيءٌ إلا بِقَدَرٍ؛ والّذي يقعُ فهو برضا الله تعالى، وزعموا التّلازم بين القدر والرّضا، قال الله تعالى عنهم: ﴿سَيَقُولُ ٱلَّذِينَ أَشۡرَكُواْ لَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشۡرَكۡنَا وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمۡنَا مِن شَيۡءٖۚ كَذَٰلِكَ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ حَتَّىٰ ذَاقُواْ بَأۡسَنَاۗ قُلۡ هَلۡ عِندَكُم مِّنۡ عِلۡمٖ فَتُخۡرِجُوهُ لَنَآۖ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنۡ أَنتُمۡ إِلَّا تَخۡرُصُونَ ١٤٨ قُلۡ فَلِلَّهِ ٱلۡحُجَّةُ ٱلۡبَٰلِغَةُۖ فَلَوۡ شَآءَ لَهَدَىٰكُمۡ أَجۡمَعِينَ﴾ [سورة الأنعام، من الآية:١٤٨-١٤٩]، وهؤلاء يزعمون أنّ كلّ مقدرٍ فهو محبوب مرضيٌّ لله، تعالى الله عن ذلك؛ فهؤلاء غفلوا، أو تغافلوا عن الأمر الشّرعيّ، وإنْ أثبتوا الأمر القدريّ.

الطّائفة الثّالثة: القدريّةُ الْمجوسيّة؛ زعموا أنّ خالق الخيرِ هو الله، وعَنَوْا به النُّور، وخالقَ الشّرّ الظُّلمة، فأثبتوا إلٰهين!؟ وقد صار عامّة القدرية والمعتزلة على هذا المنوال؛ فزعموا أنّ الله خالقُ كلّ شيء، وأنّهم هم خالقون لأفعالِهم، ويلزم مِن قولهم تعدّد الخالقين، ولهذا قال صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **"الْقَدَرِيَّةُ مَجُوسُ هَذِهِ الأُمَّةِ"** [رواه أبو داود وغيره من حديث ابن عمر رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا، وصححه الحاكم، ووافقه الذهبي].

وهؤلاء زعموا التّعارض بين إثبات الأمر القدريّ والشّرعيّ؛ وراموا الجمع بينهما فلم يقدروا إلّا على إلغاء أن يكون للهِ تعالى خلقٌ في أفعال العباد الّتي تخالف شَرْعَه!؟

وأمّا أهل السُّنَّةِ والجماعة؛ فإنّهم أثبتوا الأمر القدريّ، والشّرعيّ، وأثبتوا الحكمة فيهما، وأنّه لا تعارض بينهما، وأنّ كل ما يقع فهو بتقدير الله تعالى؛ بعلمه، وخلقه، وإيجاده، ومشيئته، وأنّ ذلك لا يخالف كون العبد يفعل الخير، أو الشّر، وكونه يختار الخير أو الشّرّ، وقالوا بأنّه لا تعارض بين القدر والشّرع، وأنّه لا يلزم أن كلّ محبوب فلا بدّ وأن يكون مُقَدّرًا، كما أنّهم يقولون: إنّه ليس كلّ مُقدَّرٍ فهو محبوبٌ لله تعالى، ولكنّ محبة الله تعالى لازمة لشرعه، والوقوع لازمٌ للأمر الكونيّ.

فإن قيل: ما الفرق بين الأمر الشّرعيّ والأمر الكونيّ؟

فالجواب: يظهر الفرق بين الأمر الشّرعيّ والكونيّ من عدّة حيثيّاتٍ، ومنها:

الحيثيّة الأولى: وجه الاجتماعِ أنّ كلا الأمرين من الله تعالى.

الحيثيّة الثّانية: أنّ الأمر القدريّ سابقٌ على الأمر الشّرعيّ.

الحيثيّة الثّالثة: أنّ الأمر القدريّ أعمّ وأشمل من الأمر الشّرعيّ؛ فكلّ أمرٍ شرعيٍّ داخلٌ في التّقدير العام، ولا عكسَ، وهذا يدلّنا على أنّ الأمر الشّرعيّ أخصّ.

الحيثيّة الرّابعة: أنّ الأمر الشّرعيّ لازمه المحبة، والأمرُ الكونيّ ليس كذلك.

الحيثيّة الخامسة: أنّ الأمر الكونيّ لازمه الوقوع، والأمر الشّرعيّ ليس كذلك، ومثال للأمر الكوني: خَلْقُ الله تعالى السماوات بأمره الكوني (كن) فكان، وهكذا خلقه المخلوقات شيئًا فشيئًا، ومثال الأمرِ الشّرعي: أمره بالصلاة،

وبالإيمان، وبالوضوءِ، ونحو ذلك.

قوله: **"وكلّ شيء يجري بتقديره ومشيئته"** هذه جملة معطوفة على قوله: **"خلق الخلق بعلمه وقدرته"**؛ فتكون جملة تفسيريّة، ويصحّ أن تكون الواوُ استئنافية؛ كما يجوز أن تكون حاليّة، وابتدأ الجملة بلفظ (كلّ) للدلالة على العموم والاستغراق، وأنّه ليس شيءٌ خارج عن الجريان في تقدير الله تعالى.

"ويجري" فعلٌ مضارعٌ من (جرى)، ومصدره (جريًا) و(جريَانًا)، بمعنى يسيرُ ويسيل ويسترسل، والمراد: جريانُ المخلوقات وسيرهم وَفقَ ما قَدّر اللهُ تعالى لهم، وذلك **"بتقديره"**، الّذي قدّره قبل وجود المحدَثات، و**"تقديره"** مصدرٌ مِن (قدَّر، يقدِّرُ، تقديرًا) وهو مضافٌ إلى هاء الضمير، يعود هنا على الله تعالى.

و(**التّقدير**) ما هو مقدَّرٌ، وما يقع، وكيف يقع، وهو متعلّق بعلم الله تعالى، وبكتابته للأشياء قبل وجودها، كما شاءَ الله تعالى، فكلّ شيءٍ يسيرُ وَفْق "مشيئته" تَبَارَكَ وَتَعَالَى.

و**"مشيئته"** مصدرٌ مِن (أشاءُ، شيئًا، ومشيئة)، وهو مضافٌ إلى هاء الضمير، يعود هنا على الله تعالى.

و(**المشيئة**) اسمٌ لكلمة: (ما شاء الله)، وهو المرادُ هنا، وهي بمعنى الإرادة الكونيّة؛ وهي: كلّ أمرٍ لازمٍ للوقوع؛ فهو بمشيئة الله تعالى واقعة.

وهذا لا يعني نفي مشيئة العباد فيما لهم فيه اختيار من أفعالهم، وإنما المقصود أنّ مشيئة الله تعالى هي الّتي تكون نافذة وعامّة وشاملة.

وإثبات مشيئة عامّة لله تعالى لا يعني نفي مشيئة خاصّة للعبد؛ كما أنّ علم الرّبّ تَبَارَكَوَتَعَالَىٰ العظيم المحيط بكل شيءٍ، لا يلزم منه نفي علم العبد، وقد جمع الله تعالى بينهما كثيرًا، قال تعالى: ﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ۝٣٠ يُدۡخِلُ مَن يَشَآءُ فِي رَحۡمَتِهِۦۚ وَٱلظَّٰلِمِينَ أَعَدَّ لَهُمۡ عَذَابًا أَلِيمَۢا﴾ [سورة الإنسان، من الآية:٣٠-٣١]؛ فذكر للعبد مشيئة، ولنفسه العلية مشيئة، وأخبر أن مشيئة العبد خاصّة، ومشيئته عامة، وأن مشيئة العبد لا تخرج عن مشيئته؛ فمشيئةُ الله تعالى "**تنفذ**" عند التعارض لا مشيئة العبد.

و"**تنفذ**" فعلٌ مضارع من (نفذ، نفاذًا) بمعنى أنّها نافذة كائنة، صائرة، ولا بدّ، لا محيصَ عن تقدير الله تعالى ومشيئته، والعباد ومشيئاتهم مخلوقة لله تعالى؛ فهي تابعة لمشيئة الله تعالى لهم؛ فما شاء كان، وما لم يشأ لم يكن، كما قال سبحانه: ﴿وَإِن يَمۡسَسۡكَ ٱللَّهُ بِضُرّٖ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَۖ وَإِن يُرِدۡكَ بِخَيۡرٖ فَلَا رَآدَّ لِفَضۡلِهِۦۚ يُصِيبُ بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦۚ وَهُوَ ٱلۡغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [سورة يونس، من الآية:١٠٧]، وقال جلّ في علاه: ﴿قُلۡ مَن ذَا ٱلَّذِي يَعۡصِمُكُم مِّنَ ٱللَّهِ إِنۡ أَرَادَ بِكُمۡ سُوٓءًا أَوۡ أَرَادَ بِكُمۡ رَحۡمَةٗۚ وَلَا يَجِدُونَ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيّٗا وَلَا نَصِيرٗا﴾ [سورة الأحزاب، من الآية:١٧].

"**لا مشيئة للعباد إلّا ما شاء لهم**"، هذه الجملة المنفية تفسيرية لجملة "**وكل شيءٍ يجري بقدرته ومشيئته**"، وهي في نفس الوقت تثبت للعبد مشيئة مِن نوعٍ خاصٍّ متعلقٍ به، ولا تخرج عن مشيئة الرّب تَبَارَكَوَتَعَالَىٰ العامة الشاملة النافذة؛

كما قال تعالى: وقال جَلَّ وَعَلَا: ﴿لِمَن شَآءَ مِنكُمۡ أَن يَسۡتَقِيمَ ٢٨ وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾[سورة التكوير، من الآية٢٨-٢٩].

و(العباد) جمعُ عبدٍ، ويطلق على الرّقيق، وعلى الإنسانِ فإنه عبدٌ لله تعالى، وهو مربوبٌ لله عَزَّوَجَلَّ.

والعبادُ له إطلاقان:

الإطلاق الأول: (العِبَاد) جمعُ (عبدٍ)، ويجمع على (عبيد)، بمعنى كونهم تحت ربوبية الله تعالى، وهذا المعنى يدخل فيه المسلم والكافر؛ كما قال تعالى: ﴿إِن كُلُّ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ إِلَّآ ءَاتِي ٱلرَّحۡمَٰنِ عَبۡدٗا﴾[سورة مريم، من الآية:٩٣]، وقال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ بَصِيرُۢ بِٱلۡعِبَادِ﴾[سورة آل عمران، من الآية:٢٠]، وقال جلّ في علاه: ﴿وَهُوَ ٱلۡقَاهِرُ فَوۡقَ عِبَادِهِۦۚ وَهُوَ ٱلۡحَكِيمُ ٱلۡخَبِيرُ﴾[سورة الأنعام، من الآية:١٨].

الإطلاق الثاني: (العِبَاد) جمع (عبدٍ) و(عُبّاد) بمعنى كونهم ألّهُوا الله وعبدوه؛ فاستحقّوا اسم العِباد لكونهم عُبّاد، وهذا المعنى خاصّ بأهل الإيمان؛ كما قال تعالى عن نوحٍ عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ عَبۡدٗا شَكُورٗا﴾[سورة الإسراء، من الآية:٣]، وقال سبحانه: ﴿وَعِبَادُ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمۡشُونَ عَلَى ٱلۡأَرۡضِ هَوۡنٗا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلۡجَٰهِلُونَ قَالُواْ سَلَٰمٗا﴾[سورة الفرقان، من الآية:٦٣].

فما شاءَه السّيّدُ الصّمد لعبيده ينفذ؛ "**فما شاء لهم كان**"، وهذه الجملة تفريع على الجملة السابقة، و"**كانَ**" فِعلٌ ماضٍ من (الكون) بمعنى الوجود والتقرر

والثبوت، و(**الكائِنُ**): هو الْمَوْجُود، الّذي صَارَ ووُجِدَ بعد أن لم يكن؛ فكلّ ما هو كان، أو يكون، فإنما بتقدير الله تعالى ومشيئته، وهذا في جانب الإثبات والإيجاب، وفي جانب السلب والنفي قال المصنّف رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "**وما لم يشأ لمن يكن**"، فما لم يرده اللهُ تعالى لا يمكن أن يقع.

ومثالٌ على ما شاءه الله كان: أنّه سبحانه خلق السماوات والأرضِ وما فيهما فكل هذه الكينونة بمشيئته تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ.

ومثالٌ على ما لم يشأه الله تعالى فلم يكن: ما أراده إبليس من الرِّفعة على آدم، وادعائه الخيرية؛ فلم ينل ذلك كونًا؛ فلم يقع؛ فدلّ أن ذلك لم يُرده الله تعالى، ونحو ذلك كلّ شيء يتمناه عبدٌ فلم يقع.

ومراد المصنّف رَحِمَهُ ٱللَّهُ: التَّنْصِيصُ على عموم قَدَرِ الله، وأنّه ليس شيء إلّا بتقديره سبحانه؛ كما قال تعالى: ﴿وَإِن مِّن شَيۡءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَآئِنُهُۥ وَمَا نُنَزِّلُهُۥٓ إِلَّا بِقَدَرٖ مَّعۡلُومٖ﴾ [سورة الحجر، من الآية:٢١]، وقال جَلَّ وَعَلَا: ﴿إِنَّا كُلَّ شَيۡءٍ خَلَقۡنَٰهُ بِقَدَرٖ﴾ [سورة القمر، من الآية:٤٩]، وهذا كلّه تقريٌ أنّه لا يكون شيء إلا بمشيئته تعالى، وهذه المشيئة هي بمعنى الإرادة الكونية، وقد نصّ أهل السّنّة على أنّ الإرادة تنقسم إلى قسمين.

فإن قيل: ما أَقسام الإرادة المضافة إلى الله تعالى؟

فالجواب: الإرادة الإلهية بحسب النصوص الشرعية نوعان:

النوع الأوّل: الإرادة الشّرعية: كلّ ما أراده الله تعالى من عباده أن يتعبدوه به، وأن يمتثلوه، وهي ملازمة للمحبّة، وقد تقع وقد لا تقع، قال تعالى: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلۡيُسۡرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلۡعُسۡرَ﴾[سورة البقرة، من الآية:١٨٥]، وقال سبحانه: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمۡ وَيَهۡدِيَكُمۡ سُنَنَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ وَيَتُوبَ عَلَيۡكُمۡۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٞ﴾[سورة النساء، من الآية:٢٦]، وقال جلّ في علاه: ﴿مَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيَجۡعَلَ عَلَيۡكُم مِّنۡ حَرَجٖ وَلَٰكِن يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمۡ وَلِيُتِمَّ نِعۡمَتَهُۥ عَلَيۡكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ﴾[سورة المائدة، من الآية:٦].

النوع الثّاني: الإرادة الكونيّة: كلّ ما أراده الله تعالى أن يكون وأن يقع، وهي غير ملازمة للمحبّة، وملازمة للوقوع، قال تعالى: ﴿وَإِذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِقَوۡمٖ سُوٓءٗا فَلَا مَرَدَّ لَهُۥۚ وَمَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَالٍ﴾[سورة الرعد، من الآية:١١]، وقال سبحانه: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُم بِهَا فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَتَزۡهَقَ أَنفُسُهُمۡ وَهُمۡ كَٰفِرُونَ﴾[سورة التوبة، من الآية:٥٥]، وقال جلّ في علاه: ﴿قُلۡ مَن ذَا ٱلَّذِي يَعۡصِمُكُم مِّنَ ٱللَّهِ إِنۡ أَرَادَ بِكُمۡ سُوٓءًا أَوۡ أَرَادَ بِكُمۡ رَحۡمَةٗۚ وَلَا يَجِدُونَ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيّٗا وَلَا نَصِيرٗا﴾[سورة الأحزاب، من الآية:١٧].

وأهل السّنة عندما يثبتون المشيئة النّافذة لله تعالى فإنّـهم لا ينفون مشيئة العبد واختياره، وفعله في الأمور الشّرعية، ولكنّهم يقولون بأنّها لا تخرج عن مشيئة الله تعالى الشّاملة، وأنّ ذلك بفضل الله تعالى وعونه وتسديده وكرمه.

وأنّ ما يكون من الإرادة الشرعية فهي بعدل الله وحكمته، وكمال الله وقدرته، وكلٌّ من الإرادتين هو في تقدير الله تعالى وقضائه.

فإن قيل: فما هي مراتب القدر عند أهل السنة والجماعة؟

فالجواب: مراتب القدر عند أهل السّنّة والجماعة أربعٌ، وهي:

المرتبة الأولى: العلم، وهو أنّ الله تعالى علم كلّ شيء قبل أن يكون، فهو يعلم ما كان، وما هو كائن، وما سيكون، وما لم يكن لو كان كيف يكون: قال تعالى: ﴿وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [سورة البقرة، من الآية:٢٩]، وقال سبحانه: ﴿وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾ [سورة البقرة، من الآية:٢٣١]، وقال تعالى مُبيِّنًا علمَه بما لم يكن لو كان كيف يكون: ﴿وَلَوْ رُدُّوا۟ لَعَادُوا۟ لِمَا نُهُوا۟ عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ﴾ [سورة الأنعام، من الآية:٢٨].

المرتبة الثّانية: الكتابة، وهي أن الله تعالى كتب كلّ شيء في كتابٍ عنده؛ فلا يجري شيء، ولا يكون شيء، إلّا وهو مكتوب في هذا الكتاب، قال الله تعالى: ﴿وَمَا يَعْزُبُ عَن رَّبِّكَ مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِى ٱلسَّمَآءِ وَلَآ أَصْغَرَ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْبَرَ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ﴾ [سورة يونس، من الآية:٦١]، وقال تعالى: ﴿وَمَا مِنْ غَآئِبَةٍ فِى ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ﴾ [سورة النمل، من الآية:٧٥]، وقال جلّ في علاه: ﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَآ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ﴾ [سورة الحديد، من الآية: ٢٢].

المرتبة الثالثة: المشيئة، وهي أن كلّ شيء إنما يقع ويكون بمشيئة الله تعالى؛ فلا يجري في ملكه ما لا يشاؤه؛ كما قال سبحانه: ﴿وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَا إِلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ الْمَوْتَىٰ وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ قُبُلًا مَّا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ يَجْهَلُونَ﴾[سورة الأنعام، من الآية:١١١]، وقال جلّ في علاه: ﴿وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾[سورة التكوير، من الآية:٢٩].

المرتبة الرّابعة: الخَلْقُ والإيجاد، ومعناه: أنّه لا يكون شيءٌ إيجاداً ولا إعداماً، لا بقاءً ولا فناءً، لا إحياءً ولا إماتةً، لا سَكَنَة ولا حرَكة إلّا بخلقِ الله تعالى، وإيجاده سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ لها، وذلك لأنّه سبحانه خَالِقُ الخَلْقِ وخَالِقُ أعمالِهم، موجِد المصنوعات وصناعتهم، مُنْشِئ البرايا ومُنْشَآتِهم، قال تعالى: ﴿اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ ۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ﴾[سورة الزمر، من الآية:٦٢]، وقال سبحانه: ﴿ذَٰلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ لَّا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ﴾[سورة غافر، من الآية:٦٢]، وقال جلّ في علاه: ﴿وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ﴾[سورة الصافات، من الآية:٩٦].

وقد ذكرَ اللهُ تعالى جميع هذه المراتب مجتمعة في قوله سبحانه: ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ ۗ إِنَّ ذَٰلِكَ فِي كِتَابٍ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾[سورة الحج، من الآية:٧٠].

ومن أنكر الأولى والثّانية كفر إجماعًا، وأما من أنكر الأخيرتين فهذه حال عامّة القدريّة والمعتزلة، وهم ضلّال خارجون بذلك عن السّنّة، وعن العقيدة الصّحيحة.

فكل شيءٍ في الكون فهو جارٍ إما بإرادة الله تعالى ومشيئته، سواءٌ ما كان محبوبًا له، وهو فضله، أو ما كان مبغوضًا عنده، وهو عدله، والخلق كلّهم يتقلبون بين ذلك.

قوله: "**يهدي مَن يشاء**" هذه الجملة يجوز أن تكون حالية من جملة "**وكل شيءٍ يجري بقدرته ومشيئته**"، ويصح أن تكون استئنافية، وهو الأقرب لأنّ الحديث عن مسألة جديدة، وهي مسألة تقلّب العباد بين فضل الله تعالى وعدله.

"**يهدي**" فعلٌ مضارعٌ من (هَدى، هدايةً) بمعنى: بيّن وأرشدَ، ووفّق وأعان، هذا من حيث اللغة، و(**الهداية**): التّوفيق للخير، وهي أنواعٌ، والمراد هنا: الّتي بمعنى هداية القلب إلى الخير، والإيمان، والطاعة، وعونِ العبد على ذلك، وهي الهداية الشّرعيّة، وهي منقسمة إلى قسمين كما سيأتي.

و"**يعصم**" فعلٌ مضارع من (عَصَم، عصمةً) بمعنى: حفظ وصان، و(**العصمة**): الحفظُ والصون، سواء كان مِن الذنوب والمعاصي، أو من المعايب، أو من المصائب.

و"**يعافي**" فعلٌ مضارع مِن (عفا، يعفو، عفوًا) بمعنى تجاوز، وصفح، و(**المعافاة**): هنا بمعنى الإبعاد عن المؤاخذة، وعن أسباب المؤاخذة، وإصابة العبد وشموله بعفو الله تعالى ورحمته.

و"**فضلًا**" مصدرٌ منصوب على المفعولية لفعل (**يهدي**)، وهو مِن (فضَل، يفضَل) بمعنى زاد عن الحاجة أو المطلوب، وغلبه بعطائه، وشمله بكرمه، و(**الفضل**): الإحسان ابتداءً بلا علّة، و(**فضلُ الله**): كرمه وجوده وإحسانه، وهو محضُ إكرامٍ منه سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ، وتمنُّنٌ منه جل في علاه، وسيأتي تفصيله.

و"**يُضلّ**" فعلٌ مضارع معطوف على فِعل "**يهدي**"، وهو مِن (أَضَلّ، إضلالًا)، بمعنى: يجعله يَضِلّ، ويغيب عن رُشده، ويخفى عليه الحقُّ فلا يتبعه، وله معانٍ كثيرة في اللغة، و(**الإضلالُ**) اصطلاحًا: سلوك طريق الغواية، وهو أنواع، والمراد: الإضلال عن الحقِّ، والسير على الباطل.

و"**يخذل**" فعلٌ مضارعٌ معطوف على "**يُضل**" وهو مِن (خذل، خذلانًا)، بمعنى: يتخلّي عن مساعدته ونصرته، و(**الخذلان**): تركُ العبدِ وما أراد مِن الرّدى، وعدم إعانته وعدم إبعاده عن الذنوب والمعاصي، وكلّ مُذنِبٍ فهو مَـخْذُولٌ، وكلّ معافًى فهو مَفْضُولٌ.

و"**يبتلي**" فعلٌ مضارع معطوف على "**يُضل**" وهو مِن (ابتلى، ابتلاء)، بمعنى: يختبر ويمتحن، و(**الابتلاء**): الاختبار والامتحان، سواءٌ كان بالأمر الشّرعي، أو بالأمر القدري، وما من عبدٍ إلّا وهو مبتلى، سواء كان بالخير، أو بالشّرّ.

و"**عدلًا**" مصدرٌ منصوب على المفعولية لفعل (**يُضلّ**)، وهو مِن (عدَلَ، يعدل)، بمعنى: الإنصاف، والحياد عن الظلمِ والباطل، و(**العدلُ**): الإنصافُ، وهو: إعطاء كلّ ما يستحقه، وأَخْذُه بما عليه.

ومراد المصنّف رَحِمَهُ ٱللَّهُ: إثبات خَلْقِ الله عَزَّوَجَلَّ، ومشيئته في الهداية والعصمة، وفي الإضلال والخذلان؛ كما هو معتقد أهل السّنّة خلافًا للقدريّة والجبريّة.

فإن قيل فما أقسام النّاس في القول بالإضلال والهداية؟

فالجواب: النّاس في القول بالإضلال والهداية ثلاثة أقسام:

القسم الأول: القدريّة حيث زعموا: أنّ الله لا يهدي هداية التّوفيق!؟ وأوّلوا الآيات الّتي فيها ذكر هداية التّوفيق والإلهام، والإعانة والإكرام.

القسم الثاني: الجبريّة حيث زعموا: أنّ العبد مجبورٌ ليس له شيء مِن الهداية والإضلال، فالعبدُ لا يقدر أنْ يهدي، ونفوا أن يكون للعبد أي إرادة في الخير أو الشّرّ!؟ وأوّلوا الآيات التي تدلّ على أنّ للعبد هداية واختيارًا!؟

القسم الثالث: أهل السّنّة حيث يعتقدون: أنّ العبد قادرٌ على السّعي في طلب الهداية، كما أنّه قادر على السّعي في الضّلالة، وأنّ الله تعالى يَهدي من يستحقّ الهداية بمشيئته، ويعصم ويعافي، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء، وهو سبحانه يُضِلّ مَن يَسْتَحِقّ، ومَنْ يَسْعَى لِلضَّلَالَةِ، ويَخْذِلُه عَدْلًا منه سبحانه، وأنّه لا تعارض بين النّصوص الّتي أثبتت للرّبّ تبارك وتعالى الهداية، والنّصوص الّتي أثبتت للعباد هداية.

فإن قيل: ما أقسام الهداية؟

فالجواب: الهداية نوعان، وهما:

النّوع الأوّل: هداية الدّلالة والإرشاد: وهي عامّة؛ فالله يُعَلِّمُ ويُرشد، والأنبياء يُعَلّمون ويُرشدون، والعلماء يُعَلِّمون ويُرشدون، والقرآن يدلّ ويُرْشِدُ ويَهْدِي، والسُّنَّةُ تدلّ وتَهْدي، قال تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ﴾ [سورة الإسراء، من الآية:٩]، وقال سبحانه: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [سورة الشورى، من الآية:٥٢]، وقال جَلَّ وَعَلَا: ﴿وَمِمَّنْ خَلَقْنَآ أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِٱلْحَقِّ وَبِهِۦ يَعْدِلُونَ﴾ [سورة الأعراف، من الآية:١٨١].

القسم الثاني: هداية التّوفيق والإلهام: وهذه خاصّة لله تعالى، يَهَبُهَا لِمَن يشاء فضلًا منه تعالى ورحمةً، ويمنعها عمّن يشاءُ عدلًا منه تعالى وحِكْمَةً، قال تعالى: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ ۚ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ﴾ [سورة القصص، من الآية:٥٦]، وقال سبحانه: ﴿وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [سورة البقرة، من الآية:٢٥٨]، وقال جَلَّ وَعَلَا: ﴿كَيْفَ يَهْدِى ٱللَّهُ قَوْمًا كَفَرُوا۟ بَعْدَ إِيمَٰنِهِمْ وَشَهِدُوٓا۟ أَنَّ ٱلرَّسُولَ حَقٌّ وَجَآءَهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ ۚ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [سورة آل عمران، من الآية:٨٦].

فالهداية الخاصّة هذه، وهي الّتي بمعنى هداية التّوفيق والإلهام، وإبصار الحقّ بالقلبِ، وقبوله له، وثباته عليه، هذه خاصَّة مِن خصائص الرّبّ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ؛ فهو مالك القلوب، ومُصَرِّفُها، كما جاء في حديث عبد الله بن عمرو رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا أنّه

سمع النّبيّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقول: "**إِنَّ قُلُوبَ بَنِي آدَمَ كُلَّهَا بَيْنَ إِصْبَعَيْنِ مِنْ أَصَابِعِ الرَّحْمَنِ، كَقَلْبٍ وَاحِدٍ، يُصَرِّفُهُ حَيْثُ يَشَاءُ**" ثم قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "**اللهُمَّ مُصَرِّفَ الْقُلُوبِ صَرِّفْ قُلُوبَنَا عَلَى طَاعَتِكَ**" [رواه مسلم في صحيحه].

"**وكلّهم يتقلبون في مشيئته بين فضله وعدله**" أي ما مِن عبدٍ إلّا وهو مُتقلِّبٌ بين فضل الله تعالى ورحمته، وبين عدل الله تعالى وحكمته.

و"**يتقبلّون**" فعلٌ مضارع من الأفعال الخمسة مرفوعٌ بثبوت النّون، والجملة الفعليّة في محلّ رفع خبرٌ للمبتدأ "**كلُّهم**".

و(**التقلّب**) التحوّل من وجهٍ إلى وجهٍ، ومن جانبٍ إلى آخر، والتَّصرف في الأمر كيف شاء، وهو المراد هنا، كما جاء في حديث أَنَسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: كَانَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يُكْثِرُ أَنْ يَقُولَ: "**يَا مُقَلِّبَ الْقُلُوبِ ثَبِّتْ قَلْبِي عَلَى دِينِكَ**"، فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ، آمَنَّا بِكَ، وَبِمَا جِئْتَ بِهِ؛ فَهَلْ تَخَافُ عَلَيْنَا؟ قَالَ: "**نَعَمْ، إِنَّ الْقُلُوبَ بَيْنَ أُصْبُعَيْنِ مِنْ أَصَابِعِ اللهِ يُقَلِّبُهَا كَيْفَ يَشَاءُ**" [رواه الترمذي، وغيره، وقال: حديثٌ حسن].

"**والله تعالى يفعل ما يشاء**" هذه الجملة معطوفة على الجملة السابقة، وهو تفريعٌ على الكلّيّة السّابقة للدّلالة على أنّ ممّا يبيّن تقلّبهم كون الرّبّ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ "**يفعل ما يشاء**".

و"**يَفْعَلُ**" فِعْلٌ مضارع مِن (فَعَل، فِعلًا) بمعنى عَمِل، وأحدَث، واللهُ تعالى يوصف بالفعل إيجادًا وإعدامًا؛ فهو سبحانه يفعل ما يشاء؛ كما قال تعالى:

﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَفۡعَلُ مَا يُرِيدُ﴾ [سورة البقرة، من الآية:٢٥٣]، وقال سبحانه: ﴿كَذَٰلِكَ ٱللَّهُ يَفۡعَلُ مَا يَشَآءُ﴾ [سورة آل عمران، من الآية:٤٠]، وقال جلّ في علاه: ﴿يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱلۡقَوۡلِ ٱلثَّابِتِ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَفِي ٱلۡأٓخِرَةِۖ وَيُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلظَّٰلِمِينَۚ وَيَفۡعَلُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ﴾ [سورة إبراهيم، من الآية:٢٧].

"**ويَـحْكُمُ ما يريد**" جملة معطوفة على الّتي قبلها للتّأكيد على عموم فعل الرّبّ تعالى، وأنّه لا يمنعه مِن إبرام شيءٍ، وأنّه سبحانه فعالٌ لما يريد.

"ويحكم" فعلٌ مضارع مِن (حَكم، حُكْمًا) بمعنى: قضى، وفَصَل، وتولّى الأمرَ، و(**الحكمُ**) القضاءُ والإبرام، والفصل بين الخصوم، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَحۡكُمُ مَا يُرِيدُ﴾ [سورة المائدة، من الآية:١]، وقال سبحانه: ﴿وَٱصۡبِرۡ حَتَّىٰ يَحۡكُمَ ٱللَّهُۚ وَهُوَ خَيۡرُ ٱلۡحَٰكِمِينَ﴾ [سورة يونس، من الآية:١٠٩]، وقال جلّ وَعَلَا: ﴿أَوَلَمۡ يَرَوۡاْ أَنَّا نَأۡتِي ٱلۡأَرۡضَ نَنقُصُهَا مِنۡ أَطۡرَافِهَاۚ وَٱللَّهُ يَحۡكُمُ لَا مُعَقِّبَ لِحُكۡمِهِۦۚ وَهُوَ سَرِيعُ ٱلۡحِسَابِ﴾ [سورة الرعد، من الآية:٤١].

قوله: "**ما يريد**" (ما) موصولة بمعنى الّذي، و"**يُريد**" فعلٌ مضارع مِن (أراد، إرادة) بمعنى: شاءَ، ورَغِب، وتوجّه إليه، و(**الإرادة**) بمعنى المشيئة، وهي الرغبة في الفعل إيجادًا أو تركًا، والقدرة على ذلك، والقوّة عليه، قال الله تعالى: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُخَفِّفَ عَنكُمۡۚ وَخُلِقَ ٱلۡإِنسَٰنُ ضَعِيفٗا﴾ [سورة النساء، من الآية:٢٨]، وقال سبحانه:

﴿فَإِن تَوَلَّوْاْ فَٱعْلَمْ أَنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُصِيبَهُم بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ﴾[سورة المائدة، من الآية:٤٩]، وقال جَلَّ وَعَلَا: ﴿إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ﴾[سورة هود، من الآية:١٠٧].

وقد سبق بيان نوعي الإرادة؛ الشرعية والكونية.

قوله: "**وهو مُتعَالٍ عن الأضداد والأنداد**" جملةٌ حالية من جملة "**والله تعالى يفعل ما يشاء...**"، ويصحّ أن تكون معطوفة على الجملة الأولى: "**إنّ الله...واحدٌ**"، وفيها أوجه أُخَرَى.

و"**متعالٍ**" اسمُ فاعلٍ من (تعالى)، بمعنى: تنزّه وتقدّس وتعاظم، و(المتعال): هو الّذي له العلوّ بما اتّصف به من الكمالات، وله العلوّ مِن كلّ نقص يَتَوَهَّمُهُ مُتَوَهِّمٌ، أو يقوله مُتَقَوِّلٌ، وقد يأتي بالياء (الْمُتَعالي)؛ وهو بمعناه، لأنّه المترفِّع عن كلّ نقصٍ وعيبٍ، وقد سمّى الله تعالى نفسه بالكبير المتعال؛ فقال تعالى: ﴿عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ٱلْكَبِيرُ ٱلْمُتَعَالِ﴾[سورة الرعد، من الآية:٩]، وقال سبحانه: ﴿سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يَصِفُونَ﴾[سورة الأنعام، من الآية:١٠٠]، وقال جَلَّ وَعَلَا: ﴿سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوًّا كَبِيرًا﴾[سورة الإسراء، من الآية:٤٣].

ومن دلالة كونه المتعالِ أنه ليس له ضدٌّ، "**متعالٍ عن الأضداد**"، أي مترفِّعٌ عن أن يكون له مثيلٌ ونظيرٌ يضادّه، ويسابقه.

و(**الأضداد**): جمع ضِدٍّ، وهو ما يكون مكافئًا من الجنس، ونظيرًا ومساويًا له يضادُّه ويخالفه، كالأَسْوَدِ من الألوان يُضَادُّه الأبيض أو العكس، والعلوُّ من

الجهات يُضَادُّه السفُول أو العكس.

و(**الضِّدُّ**) يطلق بمعنى المثل، والنظير، والكُفْءِ، والله تعالى الخالق ومَن سواه مخلوق؛ فلا يُتَصوّر وجود ضدٍّ معه عقلًا ولا نقلًا؛ لأنّه الأوّل والآخر وما سواه فله ابتداء وانتهاء؛ فهو متعالٍ عن الأضداد، والأنداد.

و(**الأنداد**): جمع ندٍّ، وهو المعاكِسُ المضادّ؛ فيقال: الماء ندّه النّار، أو الإنس ندّه الجنُّ، ونحو ذلك.

و(**النِّدُّ**) يأتي بمعنى: النّظير، والمثل، والله تعالى الخالق، ومَن سواه مخلوق؛ فلا يُتَصَوَّرُ وجودُ ندٍّ له، لا مِن جنسه لأنّه الواحد القهار، ولا مِن غير جنسه؛ لأنه الغنيّ، ومَن سواه مفتقر محتاج، قال تعالى: ﴿فَلَا تَجْعَلُواْ لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [سورة البقرة، من الآية:٢٢]، وقال سبحانه: ﴿وَتَجْعَلُونَ لَهُۥٓ أَندَادًاۚ ذَٰلِكَ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [سورة فصلت، من الآية:٩]، وقال جَلَّوَعَلَا: ﴿وَجَعَلُواْ لِلَّهِ أَندَادًا لِّيُضِلُّواْ عَن سَبِيلِهِۦۗ قُلْ تَمَتَّعُواْ فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى ٱلنَّارِ﴾ [سورة إبراهيم، من الآية:٣٠].

ومراد المصنّف رَحِمَهُ ٱللَّهُ: أنّه سبحانه مُنَزَّهٌ عن كلّ نقص وعيب؛ فهو المتعالي له العلوّ المطلق، ومِن ذلك علوّه عن كلّ نقص وعيب، ولذا لا ضدَّ له ولا نِدَّ، فالله عَزَّوَجَلَّ ليس له ضدٌّ مِن أيِّ جنسٍ؛ فيكون مثله ويُكَافِؤُه أو يضادّه، والله عَزَّوَجَلَّ لا ندَّ له مِن أي جنس كان؛ لأنّه سبحانه تفرّد بالصَّمَدِيَّة والكمال.

قوله: "**وَلَا رَادّ لقضائه**" جملة منفية معطوفة على الجملة التي قبلها، ويصحّ

أن تكون الواو حالية من "**وهو متعالٍ**"، فلا يمكنُ لأحدٍ أن يردّ قضاءَه.

و"رادَّ" اسمُ فاعلٍ وأصله (رادِدٌ) مِن (ردّ، يردّ، ردًّا؛ فهو رادٌّ، وذاك مردودٌ) بمعنى: طالب الرفضِ، أو الرّافض نفسه، أو المراجع إيّاه، و(**الرَّدُّ**): يكون بنقض الأمر الْمُبْرَم، ويكون بمنعه ابتداءً، وهذان الأمران لا وجود لهما في قضاء الله تعالى؛ فلا أحد يقدر أن يبرم أمراً أراده الله تعالى، ولا أحد يقدر أن يمنع أمراً أرداه الله تعالى، قال سبحانه: ﴿وَٱللَّهُ يَحۡكُمُ لَا مُعَقِّبَ لِحُكۡمِهِۦۚ وَهُوَ سَرِيعُ ٱلۡحِسَابِ﴾[سورة الرعد، من الآية:٤١]، وقال جَلَّوَعَلَا: ﴿وَإِذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِقَوۡمٖ سُوٓءٗا فَلَا مَرَدَّ لَهُۥۚ وَمَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَالٍ﴾[سورة الرعد، من الآية:١١]، وقال جلّ وعزّ: ﴿وَأَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ أَنۡ أَرۡضِعِيهِۖ فَإِذَا خِفۡتِ عَلَيۡهِ فَأَلۡقِيهِ فِي ٱلۡيَمِّ وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحۡزَنِيٓۖ إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيۡكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ ٱلۡمُرۡسَلِينَ﴾[سورة القصص، من الآية:٧].

و"**لقضائه**" أي لا أحد يقدر على ردّ قضاءِ الله تَبَارَكَوَتَعَالَىٰ، و(**القضاء**): الأمر المحتوم، الّذي يكون، وقد قضاه الله تعالى أنّه يقع، أو وقع، أو سيقع، وقضاءُ الله تعالى يشمل الأمر الكونيّ، وهذا لا يمكن ردّه كَوْنًا، ويشمل الأمر الشّرعيّ، وهذا لا يمكن نقضه شرعًا، وإن لم يمتثل به بعض الأفراد واقعًا؛ فهذا ليس نقضًا؛ بل هو نقصٌ من العبدِ تجاه الأمر الشّرعيّ.

ومما يدل على أنّ قضاءَ الله تعالى محكمٌ لا راد له قوله تعالى: ﴿ثُمَّ قَضَىٰٓ أَجَلٗاۖ وَأَجَلٞ مُّسَمًّى عِندَهُۥۖ ثُمَّ أَنتُمۡ تَمۡتَرُونَ﴾[سورة الأنعام، من الآية:٢]، وقال سبحانه: ﴿وَلَٰكِن

﴿لِّيَقْضِيَ ٱللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا﴾[سورة الأنفال، من الآية:٤٢]، وقال جل في علاه: ﴿وَلِنَجْعَلَهُۥٓ ءَايَةً لِّلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِّنَّا ۚ وَكَانَ أَمْرًا مَّقْضِيًّا﴾[سورة مريم، من الآية:٢١].

"ولا معقب لحكمه" الجملة معطوفة على الجملة المنفية السابقة، وهي من باب التأكيد على عظمة الله تعالى، وجلالة قدره وأمره، وقدره وقضائه.

و(**الْمُعَقِّبُ**): اسم فاعل مِن (عَقَّبَ) الشّيءَ (يُعَقِّبُه)، إذا جاء بعده، لينقضه، أو لِيُكَمِّلَهُ، أو لِيُتِمَّهُ، فجاء على أثره وعَقِبَهُ لذلك، وكأنّه يريد نَقْضَ حُكْمِه، قال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يَحْكُمُ لَا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِۦ ۚ وَهُوَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ﴾[سورة الرعد، من الآية:٤١].

و**"لِحُكْمِهِ"** أي حكم الله تعالى، والحُكْمُ: القضاء المُبْرَم، والأمرُ المحكَم، وحكم الله منقسمٌ إلى قسمين:

القسم الأوّل: حكم قضائي كونيٌّ، فهذا لا يمكن أحداً أن يُكمّله، ولا أن ينقضه، قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَحْكُمُ مَا يُرِيدُ﴾[سورة المائدة، من الآية:١].

القسم الثّاني: حكمٌ شرعيٌّ، قال الله تعالى: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا﴾[سورة المائدة، من الآية:٣]؛ فهذا كامل لا يحتاج إلى إكمالٍ، لا من جهة العقول، ولا من جهة الحسّ، ولا من جهة الذّوق، ومن ادّعى فيه أنّه يُكمّله فهو مُبتدِعٌ ضالٌّ، أو مُشْرِكٌ يقول الخبال، ويعتقد سوء الحال، وله شرّ المآل.

"**ولا غالب لأمره**" جملة منفية معطوفة على الجملة التي قبلها، و "**غالِب**": اسم فاعل مِن (غلبَ، يغلِبُ، فهو غالِبٌ)، و(**الغالِبُ**): هو مَن يحاول أن يغلِب الآخر. وهو هنا: مَن يحاول أن يغلِب أمرَ الله تعالى الكوني، أو الشّرعيّ؛ وهذا لا وجودَ له حقيقة، وإن وُجِد ادّعاءً وكذبًا، قال الله تعالى: ﴿إِن يَنصُرۡكُمُ ٱللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمۡۖ وَإِن يَخۡذُلۡكُمۡ فَمَن ذَا ٱلَّذِي يَنصُرُكُم مِّنۢ بَعۡدِهِۦۗ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلۡيَتَوَكَّلِ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ﴾ [سورة آل عمران، من الآية:١٦٠]، وقال سبحانه: ﴿وَٱللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰٓ أَمۡرِهِۦ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ﴾ [سورة يوسف، من الآية:٢١]، وقال جلَّ وَعَلَا: ﴿أَفَلَا يَرَوۡنَ أَنَّا نَأۡتِي ٱلۡأَرۡضَ نَنقُصُهَا مِنۡ أَطۡرَافِهَآۚ أَفَهُمُ ٱلۡغَٰلِبُونَ﴾ [سورة الأنبياء، من الآية:٤٤].

وهذا كلّه تقرير مِن المصنّف رَحِمَهُ ٱللَّهُ لزيادة إثبات ما يتعلّق بالقدر، وأنّه يجب الإيمان بمسائل القدر كلّها، وأنّ ذلك ثابت من عند الله تعالى.

قوله: "**آمنّا بذلك كله**" جملة في محل نصبِ حالٌ من المتكلم وهو المصنف رَحِمَهُ ٱللَّهُ، والقارئ، ونحن كذلك "**آمنّا بذلك كله**"، ويصح أن تكون جملة استئنافية، ولها أوجه أخرى.

و"**آمنَّا**" فِعْلٌ ماضٍ مِن (آمن يؤمن، إيمانًا)، اتصل به (نون) الجمعِ، والمعنى: أقررنا، واعترفنا، وصدَّقْنا، وهذا معنى الإيمانِ لغة، وأما معناه شرعـًا فسيأتي.

"**بذلك**" أي بما مضى ذِكْرُه، وسبق سَطْرُه، لا سيّما ما يتعلق بالقضاء والقدر.

"**كلّه**" أي كلّ ما مضى، وكلّ ما يتعلق بالقضاء والقدر.

"وأيقنّا" فعلٌ ماضٍ مِن (يوقِنُ إيقانًا، ويقينًا) اتصل به (نون) الجمع، والمعنى: استقر ذلك الأمرُ في قلوبنا، وصدقنا به على وجه لا يقبل الشّك، و(**اليقينُ**): العلم الّذي لا شكّ فيه، ولا ريب يعتريه، وهو اطمئنان النّفس إلى حكمٍ مع الاعتقاد بصحّته، وهو أنواعٌ.

فإن قيل: فما أنواع اليقين؟

فالجواب: اليقينُ ثلاثة أنواعٍ، وهي:

النّوع الأوّل: علمُ اليقين؛ وهو ما يتعلّق باليقين بناءً على الأمور العلميّة، والأدلّة العلميّة، والبراهين النّقليّة والعقليّة؛ كاعتقادنا بوجود الجنّة والنّار، بناء على الأدلّة، ومن هذا النوع قوله تعالى: ﴿وَإِنَّا لَنَعۡلَمُ أَنَّ مِنكُم مُّكَذِّبِينَ ٤٩ وَإِنَّهُۥ لَحَسۡرَةٌ عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ ٥٠ وَإِنَّهُۥ لَحَقُّ ٱلۡيَقِينِ﴾ [سورة الحاقة، من الآية:٤٩-٥١].

النّوع الثّاني: عينُ اليقين؛ وهو: ما يتعلق بالمشاهدة العينية، كرؤية النّاس النّار يوم القيامة، ومنه قوله تعالى: ﴿وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوۡمِ ٱلدِّينِ ٤٦ حَتَّىٰٓ أَتَىٰنَا ٱلۡيَقِينُ﴾ [سورة المدثر، من الآية:٤٦-٤٧].

النّوع الثّالث: حقُّ اليقين؛ وهو: ما يتعلق بالإحساس بذلك المتيقن؛ كمرور النّاس على الصراط المضروب على النّار يوم القيامة، ومن هذا النوع قوله تعالى: ﴿وَتَصۡلِيَةُ جَحِيمٍ ٩٤ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ حَقُّ ٱلۡيَقِينِ﴾ [سورة الواقعة، من الآية:٩٤-٩٥].

وهذه الأنواع الثّلاثة ذكرت مجموعة بدلالة المطابقة والتّضمن في قوله تعالى:

﴿كَلَّا لَوۡ تَعۡلَمُونَ عِلۡمَ ٱلۡيَقِينِ ۝٥ لَتَرَوُنَّ ٱلۡجَحِيمَ ۝٦ ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيۡنَ ٱلۡيَقِينِ ۝٧ ثُمَّ لَتُسۡـَٔلُنَّ يَوۡمَئِذٍ عَنِ ٱلنَّعِيمِ﴾ [سورة التكاثر، من الآية:٥-٨].

"وأيقنّا أَنَّ" بمعنى تقرّر في نفوسنا "أنّ" حرف مفيد التوكيد بمعنى يقينًا، وحقًّا.

"كلًّا" التنوينُ فيه للعوض، فهو بمعنى كلّ ما مضى، أو كلّ ما يتعلّق بالقدر، أو كلّ ما جاء في هذا الباب حقٌّ ويقين وثابت.

"مِن عنده" من عند الله تعالى؛ إنزالًا، وأمرًا، وإبرامًا.

ومراد المصنّف رَحِمَهُ ٱللَّهُ: بيان أنّ عقيدة أهل السّنّة والجماعة هو الإيمان بما سبق ذكره كلّه، واليقين بأنّ كلّ ما يتعلق بالقدر هو حقٌّ ثابتٌ مِن عندِ الله عَزَّوَجَلَّ، وأنّه لا يكون شيء إلا بأمرٍ من عنده تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ.

[الاعتقاد الواجب علينا في محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ]

وَإِنَّ مُحَمّدًا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَبْدُهُ الْمُصْطَفَى، وَنَبِيُّهُ الْمُجْتَبَى، وَرَسُولُهُ الْمُرْتَضَى، وَأَنَّهُ خَاتَمُ الْأَنْبِيَاءِ، وَإِمَامُ الْأَتْقِيَاءِ، وَسَيِّدُ الْمُرْسَلِينَ، وَحَبِيبُ رَبِّ الْعَالَمِينَ، وَكُلُّ دَعْوَةِ نُبُوَّةٍ بَعْدَ نُبُوَّتِهِ فَغَيٌّ وَهَوًى، وَهُوَ الْمَبْعُوثُ إِلَى عَامَّةِ الْجِنِّ، وَكَافَّةِ الْوَرَى، الْمَبْعُوثُ بِالْحَقِّ وَالْهُدَى، وَبِالنُّورِ وَالضِّيَاءِ.

﴿ الشرح ﴾

هذا تقرير من المصنف رَحِمَهُ اللَّهُ فيما يتعلق بشهادة الرسالة والنبوة، وهي ضميمة كلمة التوحيد، ومن لوازم هذه الكلمة العظيمة شهادة أن محمدًا رسولُ الله، اعتقاد ما ذكره المصنف رَحِمَهُ اللَّهُ.

قوله: **"وِإنّ"** بكسر الهمز على العطف على جملة مقول القول في الأول **"ونقول..."**، وفي بعض النسخ بفتح الهمز عطفًا على جملة "وأنّ كلًّا من عنده"، والأوّل أولى؛ لأنّ الباب باب إقرارٍ وقبول وانقيادٍ واعتقادٍ؛ فنعتقد ونقرّ ونشهد ونقول: **"إنّ محمدًا** صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ **عبدُه المصطفى"**.

و **"مُحَمّدا"** اسمُ (إنّ) وهو مرفوعٌ معنًى منصوبٌ إعرابًا، و (مُحَمّد) اسمُ مفعول من (حَمَّدَ، يُحَمِّد، حَمْدًا)، واسم الفاعل منه (مُحَمِّدٌ)، واسمُ المفعولُ منه (مُحَمَّدٌ) بمعنى كثيرُ الخصال الحميدة الطيبة الخيّرة النّافعة، وهو اسمُ علَمٍ للنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ العربيّ؛ وذلك لأنّه محمودٌ عند الله تعالى، محمود عند المسلمين، محمودٌ عند الخلائق يوم يشفع لهم في الحشرِ.

وقد جاء ذكرُ هذا الاسم في القرآن الكريم؛ كما في قوله تعالى: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ﴾ [سورة آل عمران، من الآية:١٤٤]، وقوله سبحانه: ﴿مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾ [سورة الأحزاب، من الآية:٤٠]، وقوله جَلَّ وَعَلَا: ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ﴾ [سورة الفتح، من الآية:٢٩].

وله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أسماء أخرى، كما في حديث جُبَيْرِ بْنِ مُطْعِمٍ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **"لِي خَمْسَةُ أَسْمَاءٍ: أَنَا مُحَمَّدٌ، وَأَحْمَدُ، وَأَنَا المَاحِي؛ الَّذِي يَمْحُو اللهُ بِي الكُفْرَ، وَأَنَا الحَاشِرُ؛ الَّذِي يُحْشَرُ النَّاسُ عَلَى قَدَمِي، وَأَنَا العَاقِبُ"** [رواه البخاري ومسلم]، قال الزّهري رَحِمَهُ ٱللَّهُ في تفسير **"العاقِب"**: (الَّذِي لَيْسَ بَعْدَهُ نَبِيٌّ) [صحيح مسلم].

وأمّا أوصافه صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فكثيرة، ومنها ما جاء في القرآن الكريم؛ كوصفه بـ "عزيز"، "رحيم" رؤوف"؛ كما في قوله تعالى: ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [سورة التوبة، من الآية:١٢٨]، ومن أوصافه صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ما سبق وأن ذكرها المصنّف رَحِمَهُ ٱللَّهُ، ومنها أيضًا وصفه بالعبودية.

و **"عبدُهُ المصطفى"** أي هو عبدُ الله، والعبوديّة التّذلّل، وكلّ إنسان فهو عبدٌ لله تعالى، والعبوديّة منقسمة على قسمين.

قسما العبودية:

الأوّل: العبوديّة العامّة، الّتي بمعنى القهر والغلبة، وما مِن مخلوق إلّا وهو داخل تحت هذه العبوديّة، وليست هي المرادة هنا بقول المصنّف؛ بل المراد المعنى الخاص، وهذا هو المعنى المراد في قوله تعالى: ﴿إِن كُلُّ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّآ ءَاتِي ٱلرَّحْمَٰنِ عَبْدًا﴾ [سورة مريم، من الآية:٩٣]، وفي الحديث القدسي الذي رواه أبو ذرٍّ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فِيمَا رَوَى عَنِ اللهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ أَنَّهُ قَالَ: **"يَا عِبَادِي، إِنِّي حَرَّمْتُ الظُّلْمَ عَلَى نَفْسِي، وَجَعَلْتُهُ بَيْنَكُمْ مُحَرَّمًا، فَلَا تَظَالَمُوا، يَا عِبَادِي، كُلُّكُمْ ضَالٌّ إِلَّا مَنْ هَدَيْتُهُ، فَاسْتَهْدُونِي أَهْدِكُمْ، يَا عِبَادِي كُلُّكُمْ جَائِعٌ، إِلَّا مَنْ أَطْعَمْتُهُ، فَاسْتَطْعِمُونِي أُطْعِمْكُمْ، يَا عِبَادِي كُلُّكُمْ عَارٍ، إِلَّا مَنْ كَسَوْتُهُ، فَاسْتَكْسُونِي أَكْسُكُمْ، يَا عِبَادِي إِنَّكُمْ تُخْطِئُونَ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ، وَأَنَا أَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا، فَاسْتَغْفِرُونِي أَغْفِرْ لَكُمْ، يَا عِبَادِي إِنَّكُمْ لَنْ تَبْلُغُوا ضَرِّي فَتَضُرُّونِي وَلَنْ تَبْلُغُوا نَفْعِي، فَتَنْفَعُونِي، يَا عِبَادِي لَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ وَإِنْسَكُمْ وَجِنَّكُمْ كَانُوا عَلَى أَتْقَى قَلْبِ رَجُلٍ وَاحِدٍ مِنْكُمْ، مَا زَادَ ذَلِكَ فِي مُلْكِي شَيْئًا، يَا عِبَادِي لَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ وَإِنْسَكُمْ وَجِنَّكُمْ كَانُوا عَلَى أَفْجَرِ قَلْبِ رَجُلٍ وَاحِدٍ، مَا نَقَصَ ذَلِكَ مِنْ مُلْكِي شَيْئًا، يَا عِبَادِي لَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ وَإِنْسَكُمْ وَجِنَّكُمْ قَامُوا فِي صَعِيدٍ وَاحِدٍ فَسَأَلُونِي فَأَعْطَيْتُ كُلَّ إِنْسَانٍ مَسْأَلَتَهُ، مَا نَقَصَ ذَلِكَ مِمَّا عِنْدِي إِلَّا كَمَا يَنْقُصُ الْمِخْيَطُ إِذَا أُدْخِلَ الْبَحْرَ، يَا عِبَادِي إِنَّمَا هِيَ أَعْمَالُكُمْ أُحْصِيهَا لَكُمْ، ثُمَّ أُوَفِّيكُمْ إِيَّاهَا، فَمَنْ وَجَدَ خَيْرًا، فَلْيَحْمَدِ اللهَ وَمَنْ وَجَدَ غَيْرَ ذَلِكَ، فَلَا يَلُومَنَّ إِلَّا نَفْسَهُ"** [رواه مسلم].

الثّاني: العبوديّة الخاصّة، وهي: عبوديةُ لِلَّهِ تعالى طَوْعًا وَاخْتيَارًا، وهي درجة عالية مِن درجات الخير لا يَبْلُغُهَا إلّا مَن كمَّل خِصال الإيمان، وأتـمّها، ولهذا مدحَ الله نبيّه بهذا الوصف في مقاماتٍ عدّة، مما يدلّ على إكماله لخصال الإيمان والتقى والبر مع ما له من درجات في النبوة والرسالة، ولهذا ذكرهُ الله تعالى بهذا الوصف في المقامات العليّة؛ كمقام الإسراء، ومقام المعراج، ومقام الإيحاء، ومقام إنزال القرآن، ومقام الدعوة، ومقام النصرة والاكتفاء، ونحوها.

"المصطفى" اسمُ مفعولٍ من (اصطفى، يصطفي، اصطفاءً)، بمعنى الاختيار والاجتباء، وهو من أوصاف الأنبياءِ، ومن أوصاف النّبيّ صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، كما قال الله تعالى: ﴿ٱللَّهُ يَصۡطَفِي مِنَ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلٗا وَمِنَ ٱلنَّاسِۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعُۢ بَصِيرٞ﴾ [سورة الحج، من الآية:٧٥]؛ فنبيّنا محمّدٌ صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ هو مصطفًى مع خصوص الاصطفاء الذي كان للأنبياء من عموم المسلمين؛ كما قال تعالى: ﴿قُلِ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ وَسَلَٰمٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ ٱلَّذِينَ ٱصۡطَفَىٰٓ﴾ [سورة النمل، من الآية:٥٩]، وداخل تحت عموم الاصطفاء الذي كان لعموم المسلمين على الكافرين، قال الله تعالى: ﴿ثُمَّ أَوۡرَثۡنَا ٱلۡكِتَٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصۡطَفَيۡنَا مِنۡ عِبَادِنَا﴾ [سورة فاطر، من الآية:٣٢]، وله صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الاصطفاء الخاص؛ كما في حديث وَاثِلَةَ بْنَ الْأَسْقَعِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يَقُولُ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ: **"إِنَّ اللهَ اصْطَفَى كِنَانَةَ مِنْ وَلَدِ**

إِسْمَاعِيلَ، وَاصْطَفَى قُرَيْشًا مِنْ كِنَانَةَ، وَاصْطفَى مِنْ قُرَيْشٍ بَنِي هَاشِمٍ، وَاصْطَفَانِي مِنْ بَنِي هَاشِمٍ" [رواه مسلم].

"ونبيّه المجتبى" جملة معطوفة على خبر (إنّ) في الجملة السّابقة، والمعنى: نقرّ ونعتقد ونعترف بأنّه **"نبيه"** أي وهو نبيُّ الله تعالى، وقد سبق بيان معن النبوة.

والنّبيّ في الاصطلاح: كلّ مَن أوحى الله تعالى إليه ليبلغ المسلمين، سواءٌ كان بشريعة من سبق، وهو الأكثر، أو بشريعة جديدة؛ كآدم عَلَيْهِ السَّلَامُ، وهي درجة دون الرسالة، وكلّ رسول يكون أوّلًا نبيًّا بالإنباء، ثم يُجْتَبَى إلى درجة الرّسالة فيكون رسولا؛ فمحمدٌ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ هو نبيٌّ مُجْتَبَى.

"مُجْتَبَى" اسم مفعولٍ مِن (اجتبى، يجتبي، اجتباءً)، بمعنى الاختيار؛ فمعناه: مُخْتَارٌ، فبِالنّبوّة اختير وَاجْتُبِيَ على النّاس، وقد قال الله تعالى: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَجْتَبِي مِن رُّسُلِهِۦ مَن يَشَآءُ﴾ [سورة آل عمران، من الآية:١٧٩]، ثم اصطفى الله تعالى محمدًا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فجعله رسولًا.

"ورسوله" أي ونقرّ ونؤمن ونعتقد بأنّه رسولُ اللهِ تعالى، وهو فَعُولٌ (رَسُولٌ) من الرِّسْلِ، وهو التتابع في الشيء وعليه، وذلك لأن الرسول يأتيه الوحي تباعًا، ويأمر بالشيء بعد الشيء، وله رِسالةٌ يبلغها.

والرسول في الاصطلاح: كلّ مَن أوحى الله تعالى إليه ليبلغ الكافرين، سواء بشريعة من سبق كيعقوب وإسحاق وإسماعيل فقد كانوا على شريعة أبيهم

إبراهيم عليهم السلام، أو بشريعة جديدة؛ كنوح، وهود، وصالح، وموسى، وعيسى، ومحمدٍ، صلى الله تعالى عليهم وسلم.

وكلّ رسولٍ نبيٌّ، لغةً وشرعًا، ولا عكس، وكلّ نبيٍّ ورسولٍ فهو مُرْتَضًى عند الله تعالى، ولا يبلغ أحدٌ من الأولياء والصلحاء مهما كانَ مرتبةَ النبوة فضلاً عن مرتبة المرسلين.

و"**الْمُرْتَضَى**" اسمُ مفعول مِنِ (ارْتَضَى، يرتضي، ارتضاءً)، بمعنى: مَرْضِيٍّ، فَرَضِيَهُ الله تعالى ليكون خاتَمَ النّبيّين، ورضيه ليكون رسولًا للثّقلين، ورضيه ليكون أفضلهم، وخاتمهم.

"**وأنّه خاتَـمُ النّبيّين**" وهذه جملة معطوفة على الجمل السّابقة، وكلّها بمعنى الوصفيّة للنّبيّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ فنقرّ بذلك، ونؤمن، ونعتقد.

ويجوز في همزة "**إنّه**" الكسر، و"**أنّه**" بالفتح، بناءً على ما سبق بيانه، و"**خاتِـم**" بكسرِ التّاءِ وفتحها كما سبق.

وختم النبوة يقتضي ختم الرسالة؛ فإذا كانت النّبوّات قد ختمت بالنّبيّ محمّدٍ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فالرّسالات مِن باب أولى؛ لأنّه لا رسول إلّا أن يكون نبيًّا يُنَبَّأ ويُوحَى إليه؛ وقد تقرّر بالإجماع أنه صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ آخر النّبيّين والمرسلين؛ كما تقرّر عقلًا أن نفي الأعم يلزم منه نفي الأخصّ.

وكون عيسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ ينزل في آخر الزّمان؛ فليس إلّا تابعًا لشريعته صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وعاملًا بكتابه، وسنّته صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

"وَإمام الأتقياء" أي هو قائدهم، ورائدهم، ويَؤُمُّهُم، ويَقْتَدِي به الأنبياءُ مِن بعده؛ وهذا إنّما يكون يوم القيامة بلا إشكالٍ، وقد كان إمامهم السابق عليهم كما تجلى ذلك في ليلة الإسراء والمعراج في منازلهم وعلوِّه عليهم، وكذلك في اقتداء الأنبياء به صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حيث صلّى بهم، وأمّهم، فاقتدوا به في صلاته في ليلة الإسراء والمعراج عند من يرى صحة حديث إمامته صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بهم.

"الأتقياء" جمع تَقِيٍّ، وهو مَن يجعل بينه وبين ما يخاف وقاية، والتّقوى درجة مِن درجات أهل الإيمان.

والتقوى في الاصطلاح: خشية الله تعالى بالغيب، وامتثال أوامره، واجتناب نواهيه، حبًّا وخوفًا ورجاءً.

"وسيد المرسلين"، وقد سبق بيان معنى (السيد) و(المرسلين)؛ فهو سيّدهم لكمال صفاته السياديّة، وهو أكملهم وأفضلهم، ودلّ على فضله على جميع الأنبياء والمرسلين، ما سبق تقريره، ولهذا نصَّ المصنّف رَحِمَهُ ٱللَّهُ أَنَّهُ سيِّدُ المرسلين، وذلك لقوله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **"أَنَا سَيِّدُ وَلَدِ آدَمَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ" [رواه مسلم]**؛ فإنه إذا كان سيد ولد آدم؛ فهذا عموم يدخل فيه جميع الأنبياء والمرسلين، وهذا مِن أبلغ ما يدل على سيادته وريادته في النبوة والرسالة صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

ومراد المصنّف رَحِمَهُ ٱللَّهُ من هذا النص: تقرير وبيان شهادة أنّ محمّدًا رسولُ اللهِ، وذَكَرَ ما دلَّ عليه شهادةُ الرِّسَالَة، وما تضمَّنَتْها مِن اللوازم، ومِن ذلك أنّه رسولُ الله، وهو صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ نبيُّ الله، وعبدُ الله، ومصطفاه، وهو إمام الأتقياء.

"وحبيب ربّ العالمين" الحبيبُ وصفٌ على وزن (فعِيل) بمعنى (مفعول) الْمَحْبُوبُ، وهذا وصفٌ ليس خاصًّا بالنّبيّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ بل لجميع الأنبياء والمرسلين؛ بل وجميع عباد الله الصّالحين، هم أحباب الله تعالى.

وقد أُخِذَ على المصنّف قولُه **"حبيب ربّ العالمين"** من وجهين:

الوجه الأوّل: أنّه ضعيف؛ فلم يثبت بطريق صحيحٍ وصفُ النّبيّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بأنّه حبيب ربّ العالمين، وإن كان يدلّ له العمومات، الّتي لا تدلّ على التّخصيص.

الوجه الثّاني: قد ثبت عن النّبيّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أنّه قال: **"إِنَّ اللهَ تَعَالَى قَدِ اتَّخَذَنِي خَلِيلًا، كَمَا اتَّخَذَ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا"** [رواه مسلم].

و(الْـخُلَّةُ) مرتبه فوق المحبّة، ولا تُنَالُ إلّا بعطيّةٍ وهبةٍ وفضلٍ من الله تعالى، بخلاف المحبّة؛ فإنّها تُدْرَكُ ببعض الأعمال الّتي شرعها الله تعالى؛ كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلْمُتَطَهِّرِينَ﴾ [سورة البقرة، من الآية:٢٢٢]؛ فكان الأولى بالمصنّف أن يُعبِّر بالخلّة بدلًا عن المحبّة، لأنّ ذكر الأخصّ مقدمٌ ودالّ على الفضل على وجه أخصّ مِن ذكر الأعمّ الدالّ على الفضل العام.

قوله **"وكل دعوى النبوة بعده فغيٌ وهوى"**، هذه الجملة تفريع على جملة "خاتم النبيين"، أي ونعتقد ونقر ونؤمن بأنّ أي دعوى للنبوة بعد النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فهي من الدعاوى الكاذبة.

و(**الدَّعْوَى**) اسمٌ لِمَا يُدَّعَى، وهو قولُه الّذي يقوله الْمُدَّعِي، ودَعْوَاهُ الّذي يدّعيه، وادِّعاؤه، وجمعه (دَعَاوَى، ودَعَاوٍ)، والمقصود هنا: بيان كلّيّة وهي أنّ أيّ زعمٍ للنّبوّة بعد نبيّنا محمّدٍ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَدَعْوَى لا أساس لها؛ بل هو غَيٌّ وهَوَى.

و(**الغَيّ**): الضَّلال، وفلانٌ في غِوايةٍ أي في ضلالة؛ فمن زعم أنّه يوحى إليه، أو أنّه نبيٌّ؛ فإنّه ضالٌّ لغيره، وهو ضالٌّ في نفسه، مُلَبَّسٌ عليه، أو مُتَّبِعٌ لهواه.

و(**الهَوَى**): هو ميل النّفسِ إلى رغباتها، وشهواتها، وجمعه (أهواء)، وكلّ مَن اتبع ضلالةً فهو مُتَّبِعٌ هواه؛ وذلك لأنّ الضّلالة لا يمكن أن تكون لها براهين؛ فإذا اتُّبِعَت فإنّما ذلك لأنّها موافقة لبعض رغبات النّفسِ، وشهواتها، مِن اتباع الآباء، أو رغبة المال، أو حفظ الجاه، ونحو ذلك، وهذا مع كونه غيًّا وهوًى فإنّه ظلمٌ أيضًا، قال الله تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ قَالَ أُوحِىَ إِلَىَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَىْءٌ وَمَن قَالَ سَأُنزِلُ مِثْلَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ﴾ [سورة الأنعام، من الآية:٩٣]، وقوله سبحانه: ﴿فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَكَ فَٱعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَآءَهُمْ ۚ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ ٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [سورة القصص،

من الآية:٥٠]، وقوله جَلَّوَعَلَا: ﴿مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ ۝٢ وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ﴾ [سورة النجم، من الآية:٢-٣]، وفيها دلالة بيّنة أنّ من افترى على الله تعالى فإنّه ضالٌّ وغويٌّ.

ومراد المصنّف رَحِمَهُ ٱللَّهُ: أنّ مَنِ ادّعى النبوة بعد النّبيّ صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ فهو كاذبٌ غوِيٌّ، صاحبُ هَوَى؛ لأنّه صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ خاتم النّبيّين، كما هو منصوص القرآن المبين، ولا نَبِيَّ بعده، كما سبق، قال صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ: **"سَيَكُونُ فِي أُمَّتِي ثَلاثُونَ كَذَّابُونَ كُلُّهُمْ يَزْعُمُ أَنَّهُ نَبِيٌّ، وَأَنَا خَاتَمُ النّبيّينَ، لاَ نَبِيَّ بَعْدِي"** [رواه الترمذي وصححه].

"وهو المبعُوث" هذه الجملة معطوفة على جملة **"خاتم الأنبياء"**، و**"الْمَبْعُوث"** اسم مفعول بمعنى الْمُرْسَل، والْمُوفَدُ، ومحمّدٌ صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ مبعوثٌ مِن الله تعالى إلى عامّة الجنّ والورى.

و **(العامَّة)**: أي الجميع، وذلك لأنّ العرف جارٍ في تقسيم النّاس إلى عامّةٍ وخاصّة؛ والأوّل يشمل الثّاني ولا عكس؛ فإذا كان مبعوثًا للعامّة فمعناه أنّه مبعوثٌ إليهم جميعًا، كما لو قيل: إنّه مبعوث للناس فيدخلهم فيهم خصوص العرب والعجم؛ بل وخاصَّة الجنّ.

و**(الجِنّ)**: خَلْقٌ مِن خَلْقِ الله تعالى، خَلَقَهم مِن نار السّموم، وجعلهم لا يُرَون مِن قبل الإنسِ على أصل خِلقتهم، وسُمُّوا بهذا الاسم مِن الاستتار، وذلك لأنّهم مَسْتُورون؛ كالهواء يُحَسُّ به، ويُتنفسُّ، ولا يُرَى، إلّا إذا تكثَّفت، أو بطرق مُعَيَّنة، وأمّا الجنُّ؛ فإنّ الله تعالى جعلهم في جُنَّةٍ عن الإنسِ، لا تقدر الأعين

البشريّة العاديّة رؤيتها، إلّا أن يتمثلوا، وهم خَلْقٌ يُوازَون الإنس، وهم بخلافهم.

فإن قيل: لماذا قدم المصنف رَحِمَهُ ٱللَّهُ الجن على كافة الورى؟

فالجواب: يرجع سبب تقديم المصنّف رَحِمَهُ ٱللَّهُ الجنَّ لعدّة أسباب، ومنها:

السّبب الأوّل: أنّـهم أسبق خِلقةً ووجودًا في الأرض.

السّبب الثّاني: أنّ النّبيّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إذا كان مبعوثًا إليهم مع كونه لا يراهم إلّا أنْ يُرِيَهُ الله تعالى فلأَنْ يكون مبعوثًا إلى مَنْ يَرَاهم أولى.

السّبب الثّالث: أنّه صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ليس مِن جنسهم ومبعوُث إليهم؛ فلأَنْ يكون مبعوثًا إلى مَن هو مِن جنسه مِن الإنس أولى؛ فتقرير بعثته إلى الجنّ مُتضَمِّنٌ تقرير بعثته صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إلى الإنس، ولا عكس.

السّبب الرّابع: أنّ "عامّة الجنّ" خاصٌّ؛ فحَسُنَ عَطْفُ "كافّة الورى" عليه، وعطف العامّ على الخاصّ أبلغ في الدّلالة على العموم.

"وكافّة الورى" هذه الجملة معطوفة على الجملة السّابقة، عطف العامّ على الخاص.

و **"كافّة"** مؤنثّ (كافٌّ)، و(الكافّةُ): الجماعةُ، والمراد هنا: كلّ الخلق، وجميع الْوَرَى.

وَ(**الْوَرَى**): اسمٌ جامدٌ يُطلَق على الخلقِ عمومًا، وأحيانًا على الإنس خصوصًا، والمراد هنا الثّاني بدلالة المقابلة مع الجنّ، فالنّبيّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مبعوثٌ إلى الجنّ والإنس، لا إلى الهوامّ والدّوابّ، ولا إلى الملائكة، قال الله

تعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةٗ لِّلنَّاسِ بَشِيرٗا وَنَذِيرٗا وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ﴾[سورة سبأ، من الآية:٢٨]، وقال سبحانه: ﴿قُلۡ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيۡكُمۡ جَمِيعًا﴾[سورة الأعراف، من الآية:١٥٨]، وقال جلّ في علاه: ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِي نَزَّلَ ٱلۡفُرۡقَانَ عَلَىٰ عَبۡدِهِۦ لِيَكُونَ لِلۡعَٰلَمِينَ نَذِيرًا﴾[سورة الفرقان، من الآية:١]؛ فهذه الآيات ونحوها تدلّ دلالة واضحة على أنّه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مبعوثٌ لكافّة وجميع وكلّ الإنس والجنِّ، زمّن مبعثه، ومن بعد مبعثه، وأكّد هذا العموم أحاديثُ، ومنها حديث جابر بن عبد الله بأنه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: **"وَكَانَ النّبيّ يُبْعَثُ إِلَى قَوْمِهِ خَاصَّةً وَبُعِثْتُ إِلَى النّاس عَامَّةً"** [رواه البخاري ومسلم]، وأكد العموم فعلُ النّبيّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إذ أرسل رسائل مشهورة إلى البلدان المعمورة في زمانه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ فقد أرسل إلى كسرى، وقيصر، والنجاشي، ونحوهم ممن كانوا في زمانه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ فدل أن دعوته عامة، وليست بخاصة إلى العرب، ولا إلى أهل الجزيرة؛ كما زعم ذلك من زعمه مِن اليهود ونحوهم؛ فهو مبعوث إلى عامة الجن وكافة الورى بالحق.

وما جاء في كونه رسولُ العرب، ونذيرٌ لأمِّ القرى؛ فهذا ونحوه على سبيل الابتداء، لا على سبيل الانتهاء.

"بالحقّ": الجار والمجرور متعلّق بالرّسالة، أي أنّ رسالة النّبيّ محمّدٍ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مُشتَمِلٌ على الحقّ، ويحتمل أن يكون متعلّقًا بكونه

صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ **"مبعوثًا"** بالحقِّ، وهو الأقرب، ويلزم منه الأوّل؛ فهو مبعوثٌ بالأدلّة والبراهين الثّابتة الدّالّة على كونه مبعوثًا ونبيًّا ومرسلًا.

وأصل (**الْحَقِّ**) الشّيء الثّابتُ الْمُتقرِّر بلا شكٍّ، ورسالة النّبيّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حقٌّ، وهو مبعوثٌ حقًّا، وهو جديرٌ بهذا الحقّ، قال الله تعالى: ﴿إِنَّآ أَرۡسَلۡنَٰكَ بِٱلۡحَقِّ بَشِيرٗا وَنَذِيرٗا﴾ [سورة البقرة، من الآية:١١٩]، وقال سبحانه: ﴿تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ نَتۡلُوهَا عَلَيۡكَ بِٱلۡحَقِّۚ وَإِنَّكَ لَمِنَ ٱلۡمُرۡسَلِينَ﴾ [سورة البقرة، من الآية:٢٥٢]، وقال جلّ في علاه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدۡ جَآءَكُمُ ٱلرَّسُولُ بِٱلۡحَقِّ مِن رَّبِّكُمۡ فَـَٔامِنُواْ خَيۡرٗا لَّكُمۡ﴾ [سورة النساء، من الآية:١٧٠].

ومما يدلّ على كونه مبعوثًا بالحقِّ اشتمال رسالته صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ على النور التّامّ والهدى، و **"الْهُدَى"** مصدرٌ مِن (هَدَى، يهدي، هدًى، وهديًا)، وهو الرَّشادُ، ومنه الطّريق الواضحُ، وهو وصفٌ على النّهار أيضًا لجلائه ووضوحه.

والمراد بـ(**الهدى**) هنا: الدّلالة بلطفٍ إلى ما يوصل إلى المطلوب الدّينيّ، وإلى ما يوصل إلى الطّاعة، ورضاء الرّبّ تَبَارَكَ وَتَعَالَى.

والنّبيّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مرسلٌ بالْهُدَى في رسالته، وفي نفسه، وفي آثار رسالته، قال الله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِيٓ أَرۡسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلۡهُدَىٰ وَدِينِ ٱلۡحَقِّ لِيُظۡهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوۡ كَرِهَ ٱلۡمُشۡرِكُونَ﴾ [سورة التوبة، من الآية:٣٣]، وقال سبحانه: ﴿هُوَ ٱلَّذِيٓ أَرۡسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلۡهُدَىٰ وَدِينِ ٱلۡحَقِّ لِيُظۡهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦۚ وَكَفَىٰ

بِٱللَّهِ شَهِيدًا﴾ [سورة الفتح، من الآية:٢٨]، وقال جلّ في علاه: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهۡدِيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ﴾ [سورة الشورى، من الآية:٥٢].

ومن تمام (الهدى) حصول النّور لمن اتبع هداه، وصار على منواله، و**"النُّور"**: عكس الظلمة، وهو نوعان:

النّوع الأوّل: نورٌ حِسّيٌّ كالضّوء وسطوعه، وله أثر في الأبصار ورؤيتها.

النّوع الثّاني: معنويٌّ موصل إلى الحقِّ ومرشدٌ، وأثره في الإبصار والبصيرة.

والنّبيّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَسَلَّمَ يوصفُ بأنه نورٌ في نفسه، كما قال تعالى في وصف نبيه صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَسَلَّمَ: ﴿وَدَاعِيًا إِلَى ٱللَّهِ بِإِذۡنِهِۦ وَسِرَاجٗا مُّنِيرٗا﴾ [سورة الأحزاب، من الآية:٤٦]، مع كونه صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَسَلَّمَ مخلوقًا آدميًّا، وهو صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَسَلَّمَ مبعوثٌ بالنّور؛ فقد اشتملت رسالته على النّور التّام، الهادي مِن ضلالات الشّرك والبدع، قال سبحانه: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ رُوحٗا مِّنۡ أَمۡرِنَاۚ مَا كُنتَ تَدۡرِي مَا ٱلۡكِتَٰبُ وَلَا ٱلۡإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلۡنَٰهُ نُورٗا نَّهۡدِي بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنۡ عِبَادِنَاۚ﴾ [سورة الشورى، من الآية:٥٢]، وقال جلّ في علاه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدۡ جَآءَكُم بُرۡهَٰنٞ مِّن رَّبِّكُمۡ وَأَنزَلۡنَآ إِلَيۡكُمۡ نُورٗا مُّبِينٗا﴾ [سورة النساء، من الآية:١٧٤].

وهذا النّور ليس نورًا محرِقة؛ أو نورًا مغطّيًا عن الإبصار؛ بل هو نورٌ مضيءٌ، ولهذا عطف المصنّف رَحِمَهُ ٱللَّهُ عليه هذا الوصف؛ فقال: **"بالنّور والضّياء"**.

و **"الضِّياء"**: وَصْفٌ للضَّوْءِ، وهو ما يضيءُ في الظُّلْمَة، وما جاء به النّبيّ

صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ضياءٌ يَسْتَضِيءُ به مَن يريد الاهتداء به حتّى يَتجنَّب ظلمات الجهل والشّرك والبدع، وحتّى يصل باتباعه لهذا الضوء إلى النور التام؛ فيدرك رضا الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ.

والرّبّ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ هو الّذي جعل الشّمس ضياءً، والقمر منيرًا، وهذا أمرٌ كونيٌّ، وهو الذي جعل الرُّسل ورسالتهم ضياءً ومنيرًا، قال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ٱلْفُرْقَانَ وَضِيَآءً وَذِكْرًا لِّلْمُتَّقِينَ﴾ [سورة الأنبياء، من الآية:٤٨]، وقال سبحانه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَءَامِنُوا۟ بِرَسُولِهِۦ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِن رَّحْمَتِهِۦ وَيَجْعَل لَّكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِۦ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [سورة الحديد، من الآية:٢٨]، وقال جلّ في علاه: ﴿وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ ٱللَّهُ لَهُۥ نُورًا فَمَا لَهُۥ مِن نُّورٍ﴾ [سورة النور، من الآية:٤٠].

[الاعتقاد الواجب علينا في القرآن الكريم]

وَإِنَّ الْقُرْآنَ كَلَامُ اللهِ تَعَالَى، مِنْهُ بَدَا بِلَا كيفيّة قَوْلًا، وَأَنْزَلَهُ عَلَى نَبِيِّهِ وَحْيًا، وَصَدَّقَهُ الْمُؤْمِنُونَ عَلَى ذَلِكَ حَقًّا، وَأَيْقَنُوا أَنَّهُ كَلَامُ اللهِ تَبَارَكَوَتَعَالَىٰ بِالْحَقِيقَةِ، وَلَيْسَ بِمَخْلُوقٍ كَكَلَامِ الْبَرِيَّةِ؛ فَمَنْ سَمِعَهُ وَزَعَمَ أَنَّهُ كَلَامُ الْبَشَرِ فَقَدْ كَفَرَ، وَقَدْ ذَمَّهُ اللهُ تَبَارَكَوَتَعَالَىٰ وَعَابَهُ، وَأَوْعَدَهُ بِسَقَرَ عَذَابَهُ حَيْثُ قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿سَأُصْلِيهِ سَقَرَ﴾ [سورة المدثر، من الآية:٢٦]؛ فَلَمَّا أَوْعَدَ اللهُ تَعَالَى بِسَقَرَ لِمَنْ قَالَ: ﴿إِنْ هَٰذَآ إِلَّا قَوْلُ ٱلْبَشَرِ﴾ [سورة المدثر، من الآية:٢٥]، عَلِمْنَا وَأَيْقَنَّا أَنَّهُ قَوْلُ خَالِقِ الْبَشَرِ، وَلَا يُشْبِهُ قَوْلَ الْبَشَرِ.

﴿ الشرح ﴾

هذا تقريرٌ من المصنف رَحِمَهُٱللَّهُ فيما يتعلق بوجوب الاعتقاد في القرآن لأنه متعلّقٌ بصفات الله تعالى من جهة، ومتعلّق برسالةِ محمّدٍ صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ من جهة أخرى، وهو ركنٌ من أركان الإيمان لتعلّقه بركن الإيمان بالكتب.

قوله: **"وإنّ القرآن"**: أي ونعتقد يقينًا، ونقرّ تديُّنًا، بأنّ القرآن كلام الله تعالى، و(**القرآن**) لغةً مَصْدرٌ مِن (قرأ، يقرأ، قراءةً، وقُرْآنًا، وقُرَانًا)، وسُمِّيَ (**القرآن**) بهذا الاسم لأنّه مَقْرُوءٌ، ومَتْلُوٌّ؛ فتقرأه الملائكةُ في السّماء، ويقرأه المؤمنون في الأرض.

والقرآن في الاصطلاح الشّرعي: كلام الله تعالى الْمُنَزَّلِ على محمّدٍ صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ الموجود بين دفّتي الْمُصْحف؛ فمِن سورة الفاتحة إلى سورة النّاس كلّه كلام الله تعالى.

و(**الكلام**): هو اللّفظ والصّوت، وعند العرب لا يطلق إلا على الكلام المفيد، سواءٌ كان كِلْمَةً تامة، أو كلامًا تامًّا.

و "**كلام الله**": صفةٌ مِن صفاته تَبَارَكَوَتَعَالَىٰ، وهو ما تكلّم الله تعالى به، وهو قرآنٌ وغيرُ قرآنٍ، فما كان بين الدّفتين يقال له قرآن، وما ليس بين الدّفتين فلا يقال له قرآنٌ؛ بل له اسمٌ آخرَ، مثل الأحاديث القدسيّة، والإنجيل، والتّوراة، والزّبور، وصحف إبراهيم، ونحو ذلك، فكلامُ الله هذه إضافة صفة إلى الموصوف؛ فالكلام وصفٌ قائمٌ بالله تعالى، هو الّذي تكلّم به، وهو الّذي قاله، وهو الّذي سُمِعَ منه الكلام، وسُمِّي كلامُ اللهِ لأنه سبحانه منه بدأ كلامه.

"**منه بدأ**": أي أنّ اسمَ كلامِ الله تعالى إنّما يُطلق على ما تكلّم الله به؛ فهو المبتدئ بالكلام؛ فلا يُسَمَّى كلام غيرِهِ كلامَ الله؛ لأنّ الغير هو الّذي ابتدأ الكلام به؛ ولا يُضَاف كلام الغير إليه سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ، إلّا إن كان الله تعالى تكلّم به؛ فيقال عن الكلام الّذي تكلم به أعداء الله في القرآن إنّه كلامُ الله باعتبار مِن الله بَدَأَ الكلام، وإنْ كان الغير قاله، وأمّا ما قاله غيره، ولم يقله الله تعالى قولًا فليس كلام الله، وإنما كلام الله مَن كان منه بدأ، قال الله تعالى: ﴿الٓمٓ ۝١ تَنزِيلُ ٱلۡكِتَٰبِ لَا رَيۡبَ فِيهِ مِن رَّبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ [سورة السجدة، من الآية:١-٢]، وقال سبحانه: ﴿تَنزِيلُ ٱلۡكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡحَكِيمِ﴾ [سورة الزمر، من الآية:١]، وقال جلّ في علاه: ﴿حمٓ ۝١ تَنزِيلٞ مِّنَ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝٢ كِتَٰبٞ فُصِّلَتۡ ءَايَٰتُهُۥ قُرۡءَانًا عَرَبِيّٗا لِّقَوۡمٖ يَعۡلَمُونَ﴾ [سورة فصلت، من الآية:١-٣]؛ فـ(مِن) يفيد بأنّ القرآن تكلم الله تعالى به وابتدأه؛

فهو منه لا من غيره.

وكذلك (إليه يعودُ) وهي كلمة مأثورة عن السلف، قال الإمام سفيان بن عيينة رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (سَمِعْتُ عَمْرَو بْنَ دِينَارٍ، يَقُولُ: أَدْرَكْتُ مَشَايِخَنَا مُنْذُ سَبْعِينَ سَنَةً يَقُولُونَ: الْقُرْآنُ كَلَامُ اللهِ مِنْهُ بَدَأَ وَإِلَيْهِ يَعُودُ) [صريح السّنّة للإمام الطبري]، وهو مأثور مسندًا عن عليٍّ، وابن مسعود، وابن عباس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ [شرح أصول اعتقاد أهل السنة لأبي القاسم الطبري اللالكائي].

ومعنى (إليه يعود): أي يعودُ مَصْدَرًا، وإضافةً، وحُكمًا، وهذا القرآن على وجه الخصوص له وجه آخر مِن العَوْد، وهو رفعه من الأرض؛ فيصبح النّاس وليس في مصاحفهم منه شيءٌ، ولا في صدروهم منه شيء.

وإثبات أنّ القرآن تكلم الله تعالى به ابتداءً، ومنه بدأ؛ فذلك يجب اعتقاده مع نفي التكييف، ولهذا قال المصنف رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **"بلا كيفيّة"**.

و**(الكيفيّة)**: مصدرٌ صَناعيٌّ مِن لفظ (كَيْفَ)، زيد عليها ياء النّسب، وتاءٌ للنّقل مِن الاسميّة إلى المصدريّة، والمقصود بالكيفيّة لغة: كيفيّة الحال، وكيفيّة الوصفِ، وهذه الكيفيّات منقسمة إلى أقسام:

القسم الأوّل: كيفيّات للذّوات؛ فكلّ ذاتٍ فلها كيفيّة مُعيَّنة، والكيفيّات الذّاتيّة منقسمة إلى ثلاثة أنواع:

النّوع الأوّل: كيفيّاتٌ ذاتيّةٌ تُعلم؛ كذات الإنسان، ومادّة تركيبها.

النّوع الثّاني: كيفياتٌ ذاتيّة لا تُعْلَمُ إلّا مُجْمَلَةً؛ كذوات الملائكة وأنّها مِن نورٍ،

هذا القدر فقط هو الّذي نَعْلَم مِن كيفيات ذواتها لا أكثر؛ وكلّ كيفيّة لمغيَّبٍ لا يُعلم إلّا بقدر ما جاء فيه الخبر.

النّوع الثّالث: ذاتٌ لا نَعْلَمُ كيفيّتها، وهي ذاتُ الله تعالى الأحدُ الصّمد، الّذي لا كفء له، ولا ندّ له ولا ضدّ.

القسم الثّاني: كيفيّات المعاني، وكيفيّات الصّفات، وهذه منقسمة إلى نوعين:

النّوع الأوّل: كيفيّات معاني وصفاتٍ نعلمها؛ ككيفيّة علم الإنسان؛ وكيفيّة إبصاره، وكيف مَشْيِه، وإتيانه، ومجيئه.

النّوع الثّاني: كيفيّات معاني وصفاتٍ لا نعلمها؛ ككيفيّة علم الملائكة، وكيفيّة إبصارهم، وكيفيّة مجيئهم، وإتيانهم، وكيفيّة حقائق وصفات ما في الجنّة والنّار، ومِن هذا الباب؛ بل هو أعظمُ كيفيّات صفات الله تعالى؛ فإنّا لا نعلمها؛ لأنّا لا نعلم كيف ذاته؛ فلا يمكن أن نعلم كيف صفاته؛ لأنّ كيفيّات الصّفات متوقّفة على كيفيّات الذّوات، ولأنّ الخبر لم يأتِ بالكيف؛ فقد جاءت الأخبار بالصّفات دون كيفيّاتها، ولهذا قال المصنّف رَحِمَهُ ٱللَّهُ عن كلام الله تعالى: "منه بدأ بلا كيفٍ قولًا".

و(**القول**): هو الكلام لغةً، سواء كان خبرًا أو إنشاءً؛ أمرًا، أو نهيًا، ويطلق على الرَّأْيِ، والمعتقدِ، وهنا المرادُ به الكلام، وسُمِّيَ **"قولًا"** لأنّ الله قاله، وتكلّم به، وكما أنّه سبحانه العظيم المجيد؛ فكلامه عظيمٌ ومجيدٌ، ولهذا كان كلامه أحسنَ الكلام، وقوله الفصلُ، والحقّ، والمبينُ؛ كما جاء هذا أيضًا في أوصاف

القرآن الكريم، الّذي **"أنزله على نبيّه وحيًا"**.

"أنزل" فِعلٌ ماضٍ، والْمُنَزِّلُ هو الله تعالى، والْمُنَزَّل عليه هو نبيُّه محمّدٌ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وفي بعض النّسخ **"أنزله على رسوله وحيًا"**.

وَالقرآن الكريم يوصف بأنّه مُنزَّلٌ مِن عندِ الله تعالى، من العلوِّ إلى الأرضِ، وليس هو مِن بيت العزّة، ولا مِن اللّوحِ؛ بل هو كما قال الله تعالى: ﴿تَنزِيلًا مِّمَّنْ خَلَقَ ٱلْأَرْضَ وَٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلْعُلَى﴾ [سورة طه، من الآية:٤]، وقال سبحانه: ﴿الٓمٓ ۝١ تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾[سورة السجدة، من الآية:١-٢]، وقال جلّ في علاه: ﴿حمٓ ۝١ تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ﴾ [سورة غافر، من الآية:١-٢]؛ فهذا وصفٌ للقرآن المنزّل على محمّدٍ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أنّه منزّلٌ مِن الله تعالى.

وهذا لا ينافي إنزال القرآن جملةً واحدةً مكتوبًا مِن اللّوح المحفوظ إلى السّماء الدّنيا إلى بيت العزّة؛ كما قال الله تعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةِ ٱلْقَدْرِ﴾ [سورة القدر، من الآية:١]، وقال سبحانه: ﴿حمٓ ۝١ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ۝٢ إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ ۚ إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ﴾ [سورة الدخان، من الآية:١-٣]، وقال جلّ في علاه: ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلْقُرْءَانُ﴾ [سورة البقرة، من الآية:١٨٥]، وهذا -على أحد التفسيرين- وصف للإنزال الكلِّيّ الّذي كان في السّماء، وهو المحكيّ عن ابن عباسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا، أو هو وصفٌ للإنزال الابتدائي على محمّدٍ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كما قاله سعيد بن جبير رَحِمَهُ اللهُ.

وهذا الإنزال الّذي كان إلى السّماء لأجل إكرام أهل السّماء الدّنيا فيمكنّوا من قراءة القرآن؛ كما قال تعالى: ﴿فِي صُحُفٖ مُّكَرَّمَةٖ ١٣ مَّرۡفُوعَةٖ مُّطَهَّرَةِۢ ١٤ بِأَيۡدِي سَفَرَةٖ ١٥ كِرَامِۭ بَرَرَةٖ﴾[سورة عبس، من الآية:١٣-١٦].

ومثال هذا في القياس الأولوي: ما يتحدث به الملِك قد يأمرُ بكتابته، ويمليه، ثم يجعل المكتوب عند بعض خاصته، ويتمعنون فيه، ويقرؤونه، وهم مخصوصون بذلك، ثم إذا جاء الوقتُ تكلّم به؛ فسُمِعَ منه الكلام، وكان قبلُ قد كُتِب، وتلِي من بعضهم، ولله تعالى المثل الأعلى؛ فهو قد كتب كلّ شيءٍ سواء ما تعلق بشرعه أو قدره في اللوح المحفوظ، وتكلم به في وقتٍ وسمع جبريل عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ ذلك في وقتٍ، وأنزله به في وقتٍ.

وهذا الإنزال كان إيذانًا لأهل السّماء بقرب بعثة محمّدٍ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَسَلَّمَ، وإنزال القرآن عليه شيئًا فشيئًا؛ وقد بيّن الله تعالى الحِكمة في إنزال القرآن شيئـًا فشيئـًا فقال: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوۡلَا نُزِّلَ عَلَيۡهِ ٱلۡقُرۡءَانُ جُمۡلَةٗ وَٰحِدَةٗۚ كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِۦ فُؤَادَكَۖ وَرَتَّلۡنَٰهُ تَرۡتِيلٗا﴾[سورة الفرقان، من الآية:٣٢]، أي كذلك أنزلناه مُفرّقًا لتثبيت فؤادك، ولكي يمكن ترتيله شيئـًا؛ فشيئًا؛ فكان جبريل يسمع القرآن من الله تعالى ويُنزِله إلى الرّسول محمّدٍ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَسَلَّمَ وحيًا.

و(**الوحي**): لغة كلّ ما يُلْقى إلى الغير لِيَعْلَمَهَ، وغالبًا ما تستخدم بما يلقى بأسلوبٍ خفيٍّ، ويشمل الإلهامَ، والإسماعَ الخفيّ.

وأما في الاصطلاح الشّرعي فالوحي: كلّ ما أوحى اللهُ تعالى إلى أنبيائه، بأي طريقة كانت، وهي طرقٌ مُتنوِّعة؛ كما قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحۡيًا أَوۡ مِن وَرَآيِٕ حِجَابٍ أَوۡ يُرۡسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بِإِذۡنِهِۦ مَا يَشَآءُۚ إِنَّهُۥ عَلِيٌّ حَكِيمٞ﴾ [سورة الشورى، من الآية: ٥١].

ودلّت الآية أنّ الوحي الشّرعي ثلاثة أقسام:

القسم الأوّل: الإلهام، سواءٌ كان منامًا؛ كرؤيا إبراهيم عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ في ذبح ابنه إسماعيل عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ، أو رؤيا النّبيّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَسَلَّمَ، أو يقظةً؛ كقوله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَسَلَّمَ: **"إنَّ الله أوحى إليَّ أن تَواضَعُوا، حتّى لا يَبغِي أحدٌ على أحدٍ، ولا يفخَرَ أحدٌ على أحد"** [رواه أبو داود والترمذي، وقال الألباني: إسناده صحيح].

القسم الثّاني: مخاطبة الله تعالى الرسولَ من وراء حجابٍ؛ كمخاطبةِ الله تعالى لموسى عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ، ومخاطبته تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ لمحمّدٍ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَسَلَّمَ في ليلة الإسراء والمعراج.

القسم الثّالث: إرسال مَلَكٍ من الملائكة؛ فيوصل الخبر إلى النّبيّ، أو الرّسول؛ وعلى رأس هؤلاء الملائكةِ جبريل عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ الموكَّل بالوحي.

والقرآن كلّه نزل على النّبيّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَسَلَّمَ بواسطة جبريل عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ؛ فقال اللهُ تعالى، وسمع الرسولُ الملَكيُّ القولَ، وأنزل ما سمعه إلى النّبيّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَسَلَّمَ الرّسولِ الإنسيِّ؛ فالقرآن كلام الله تعالى لأنّه تكلم به، وإذا نسب إلى الرّسولين

كما في قول الله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ لَقَوۡلُ رَسُولٖ كَرِيمٖ﴾ [سورة الحاقة، من الآية:٤٠]، وقوله سبحانه: ﴿إِنَّهُۥ لَقَوۡلُ رَسُولٖ كَرِيمٖ﴾ [سورة التكوير، من الآية:١٩]؛ فهذه النّسبة نسبة بلاغٍ؛ كما نقول: قال أبو هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ قال رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ...؛ فقولنا قال أبو هريرة نسبة القول إليه نسبة بلاغيّة، وقولنا: قال رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ نسبة القول إليه نسبةٌ إنشائيّة، والنّبيّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال إنّ ما يقوله من القرآن هو كلام الله تعالى حقيقة؛ **"وصدَّقه المؤمنون على ذلك حقًّا"**.

"وصدَّقه": أي صدَّق جميعُ الصحابة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ، وجميع المؤمنين بعدَهم النّبيّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ فيما قال: إنّ ما يقوله ويُبَلِّغُه من القرآن هو كلام الله تعالى حقًّا.

و(**التَّصديق**): هو الإقرارُ والإذعان، واليقين والعرفانُ، والموافقة بلا شكٍّ أو ريبٍ أو نُكران، وهو عند المتكلّمين: إدراك الحكم أو النّسبة بين طرفي القضيّة.

و**"المؤمنون"**: جمع مُؤمِن، وهو اسم فاعلٍ مِن (آمَن، يؤمِن) فهو (مُؤْمِن)؛ فالمؤمنون حقًّا هم الذين أيقنوا أنّ القرآن المنزّل على محمّدٍ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ هو كلام الله تعالى، **"وأيقنوا أنّه كلام الله** تَبَارَكَ وَتَعَالَى **بالحقيقة"**، أي اعتقدوا على سبيل الجزم واليقين أنّ القرآن كلام الله تعالى بلا شكٍّ ولا ريبٍ ولا تأويلٍ.

و(**الحقيقة**): الشّيءُ الثابتُ يقينًا، وهو الأمر الّذي لا مرية في شأنه، وهو عند المتأخرين: ما استعمل في معناه الأصليّ، وهو قسيم المجاز عندهم.

ومراد المصنّف رَحِمَهُ ٱللَّهُ: تقرير أنّ القرآن كلام الله بلا مرية، ولا مجاز، وهو إذا

أضيف إلى الله تعالى فإنّه يكتسب خصائص المضافَ إليه؛ فلا يرد عليه ما يرد على كلام المخلوقين، ولهذا قال المصنّف رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **"ليس بمخلوق ككلام البريّة"**؛ فالنّاس مخلوقون، فيكون كلامهم مخلوقًا، والله تعالى ليس بمخلوقٍ فلا يكون كلامه مخلوقًا؛ لأنّ الصّفة تتبع الموصوف؛ فإذا كان الشّيء مصنوعًا فوصفه مصنوع، وإذا كان الشيءُ غير مصنوعٍ فلا يكون وصفُه مصنوعًا، والله تعالى الخالِقُ ومَن سواه مخلوقٌ؛ فكل وصفٍ ثبت له لا يكون مخلوقًا، وإلا لزم أن يكون مثل المخلوقاتِ تعالى الله عن ذلك علوًّا كبيرًا، ومِن هنا قال المصنّف رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **"فمَن سمعه فزعم أنه كلام البشر فقد كفر"**.

"مَن" مِن ألفاظ العموم يشمل كلّ سامعٍ، وكلّ إنسانٍ.

"سَمِعَه" أي سمع القرآن، وسمع كلام النّبيّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الّذي يقولُ إنه يبلغ كلام ربه تَبَارَكَ وَتَعَالَى.

و(**السَّمْع**): مَصْدرٌ يأتي بمعنى الفِعْلِ، ولهذا عبّر به المصنّف رَحِمَهُ ٱللَّهُ، ويأتي بمعنى صفة السَّمْعِ، ويأتي بمعنى المسموعِ.

"فزعم" أي ادّعى، وقالَ، وظنّ، وهو يُستعمل فيما كان باطلًا، وفيما يكون فيه ارتيابٌ وماحلًا.

"وكلام البشر": أي أقوالهم الّتي يقولونها، وهي مخلوقة كحال ذواتهم، وهي مصنوعة كأعيانهم.

و(**الْبَشَر**): اسمُ جنسٍ يطلق على الإنسانِ سواء كان واحدًا أو جمعًا أو مُذَكَّرًا

أو مُؤَنَّثًا، وقد يُثنَّى، وقد يُجمعُ على أبشارٍ، وإنما سُمُّو بَشَرًا لظهور جلودهم، ونتوءِ ما يظهر على أبدانهم من الألوان المميِّزة لهم.

"فَقَدْ كَفَرَ" أي حقيقٌ بأنْ يدخل في الكفرِ، وأتى بصيغة الماضي لإفادة التّحقيق، وأنّ ذلك قد وقع منه بهذا الزّعم الباطل حيث ادّعى أنّ القرآن كلامٌ مخلوقٌ ومصنوعٌ؛ ككلام البشرِ المخلوقِ المصنوع.

وهنا لا بد من التّنبّه إلى الفرق بين إطلاق حكم التّكفير على المقالات والأعمال، وبين الأعيان؛ فإنّ أهل السّنّة يُفرّقون بين القول والقائل، وبين الإطلاق والتّعيين.

وذلك أن كلّ قولٍ كُفْرِيٍّ، وعملٍ كفريّ، يقال من حيث العموم إنّه كفرٌ، وأنّ مَن (هكذا من حيث العموم) قال كذا كَفَرَ، ومَن (هكذا من حيث العموم) عمل كذا كَفَر، وهذا بشرط أن يكون القول والكفر مضادًّا للإيمان، ومناقضًا للإسلام، وقد جاء في الشّرع تسميته كُفْرًا.

وأمّا من حيث الخصوص (فلانٌ مِن النّاس بعينه) قال كذا، وفعل كذا؛ فهنا لا بدّ مِن توفر الشّروط وانتفاء الموانع حتّى يُكفَّر، ومِن أهمّ هذه الشّروط كون القائل مُكلّفًا؛ فلا يؤاخذ الصغير، وكونه مُدرِكًا لِمَا قال أو فعل؛ فإنّ السّاهي والجاهل لهما أحكام خاصّة بهما، ونحو ذلك مما هو مذكور في المطوّلات، وكلام المصنّف رَحِمَهُ ٱللَّهُ هنا عن التّكفير إنما هو على القول والاعتقاد؛ فلا يُشكل أنّ بعض الأمراء والمنتسبين إلى العلم مِن أهل البدع الّذين كانوا يَدْعُون

إلى القول بخلق القرآن لم يُكَفِّرْهُم أهلُ السّنّة بهذه المقالة بأعيانهم، مع إطلاقهم القول في أنّ مَن قال القرآنُ مخلوقٌ فإنّه كافر، وذلك للفرق بين الإطلاق والتعيين، وبهذا يزول عنك كثيرٌ من الإشكالات، ويرتفع كثير من المقالات، وهذا لا يعني أنّ المعيَّن القائل هذا القولَ الباطلَ، وهذه العقيدة الفاسدة أنّه لا يكفر لمانع وُجد، أو لِشرطٍ تخلَّف، أنّه ليس مذمومًا؛ بل هو مذموم شرعًا وعقلًا، ولهذا قال المصنّف رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **"وقد ذمّه الله وعابه..."**.

"وقد ذَمَّهُ" أي ذمَّ قائلَ هذه المقالة الكفريّة، لتسويته بين كلام ربّ البريّة وكلام البشريّة في استوائهما في المخلوقيّة، عياذًا بالله تعالى من ذلك.

و(**الذَّم**): معناه إلحاق العيب واللّوم، ورجلٌ مذمومٌ أي لحقه الذمُّ واللّوم، والوعيد والتّهديد.

"وعابه" أي عابَ قائل هذه المقالة الكفريّة في زعمه أنّ كلام الله ككلام البشريّة، وأنّه مخلوقٌ مثل كلامهم.

و(**العيب**): الوصمةُ والعارُ، والنَّقص والشّنار، ويجمع على عيُوبٍ.

ومِن الذّمّ الّذي يُدركه، والعيب الّذي يلحقه، الوعيد الأخروي، ولهذا قال المصنّف رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **"وأوعده بسَقَر"**.

"وأَوْعَده" أي هدَّد قائل هذه المقالة الكفريّة، في أنّ القرآن ككلام البريّة، وأنّه مخلوق ككلام آحاد البشريّة.

وأصل (**الوعيد**): التهديدُ، وما يُذكَر من العقوبات الّتي يهدد بها العصاة، مشتقٌّ

مِن (أوعدَ، يُوعد، وعيدًا) وهذا في العقوبات، وفي الخيرات: (وعدَ، يَعد، وعدًا).

ولهذا قال تعالى: ﴿سَأُصۡلِيهِ سَقَرَ﴾ [سورة المدثر، من الآية:٢٦]، وهذا من أنواع الوعيد الشّديد، المترتِّب على هذه المقالة الّتي تفيد التّنديد، ومعنى الآية كما قال المفسرون: أي سأورِدُه سَقَرَ، وأدخله النّار مصغَّرًا، وهو بابٌ مِن أبواب جهنّم، ومكان في النّار، نعوذ بالله منها.

و**"أصليه"** أي أوصِلُه وأورِدُه، حتّى يُشوَى في سَقر.

و**"سَقَرَ"**: اسمٌ من أسماء النّار، ووصفٌ من أوصاف جهنّم، ويطلق على حَرّ الشّمسِ، وحرّ النّار، وأذاه، ولفحته حتّى يغير لون الجلد، ويصل إلى الدّماغ، وهذا الوعيد لمن قال مِن المشركين: ﴿إِنۡ هَٰذَآ إِلَّا قَوۡلُ ٱلۡبَشَرِ﴾ [سورة المدثر، من الآية:٢٥].

فالله تعالى: **"أوعده بسقر عذابَه"**، و(سقر) نوعٌ من عذابِ الله تعالى، وهو خاصّ، وأنواعُ العذاب في الآخرة متعدّد.

وهذا المشرك الّذي قال هذا الكلام هو فيلسوف قريشٍ، ومُتكَلِّمُها، ومُقَدِّمُها في الخطابة والشّعر: الوليد بن المغيرة المخزومي؛ فإنّه لَمّا سمع النّبيّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَسَلَّمَ يتلو القرآن قال على سبيل الاستكبار: ما هذا الّذي يتلوه إلّا قول بني آدم، وما هو بكلام الله؛ فهذا أوَّلُ مَن قال: القرآن مخلوقٌ، فتوعَّدَهُ الله بسَقَرَ، قال بعض المفسرين: فكذلك الله تعالى يَفْعَلُ بكلّ مَن قال: القرآن مخلوقٌ، وهو معنى قول المصنّف رَحِمَهُ ٱللَّهُ؛ فإذا كان الله قد توعَّد بسقر مَن زعم أنّ ما

يسمعه مِن القرآن هو كلام البشر؛ فحينئذٍ "**علمنا وأيقنا أنّه قول خالق البشر، ولا يشبه قول البشر**".

"**ولا يُشْبِه**" أي ليس ثَمّ تشابه بين كلام الله تعالى وكلام البَشَر، لا مِن جهة القائل، ولا مِن جهة الأسلوب، ولا مِن جهة كيفيّة الخطاب، ولا من جهة الصّوت، فكلام الله تعالى صفة من صفاته، والقرآنُ مِن كلام الله تعالى؛ فكما أنّه سبحانه لا مِثْلَ له، ولا شبيه له؛ فلا يكون لصفاته مِثْلٌ، ولا لصفاته شِبْهٌ، ومِن هنا قال المصنّف رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "**ولا يشبه كلام البشر**"، و(**شِبْهُ**) الشيء نظيره ومِثْلُه، وكما لا مقارنة بين ذات الله تعالى والذّوات المخلوقة؛ فكذلك لا مقارنة بين صفات الله تعالى وبين الصّفات المخلوقة، ومن ذلك الكلام؛ فإنّه لا مقارنة بين كلام الخالق وكلام المخلوق، ولهذا كلام الله لا يُشْبِهُ كلام البشر، فلا مقارنة، لا من حيث البلاغة والفصاحة، ولا مِن حيث الأداء، ولا مِن حيث المتكلِّم.

ويفهم مِن كلام المصنّف رَحِمَهُ ٱللَّهُ تقرير أنّ القرآن كلام الله عَزَّوَجَلَّ، وأنّه صفة مِن صفاته؛ فالله موصوف بأنّه متكلّم، وكلامه منه سبحانه، والقرآن مِن كلام الله، تكلّم به قولًا، وبدأ منه بلا كيفيّة حديثًا، ثُمّ أنزله على رسوله وحيًا، أي: بواسطة جبريل عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ؛ ففيه إثبات أنّ جبريل سمع القرآن مِن الله قولًا، وحمله إلى الرّسول وحيًا، والمؤمنون من الصّحابة والتّابعين ومن تبعهم بإحسان صدّقوه في قوله: إنّ هذا كلام الله، وعلموا يقينًا أنّه كلام الله تعالى، وحصل لهم هذا اليقين من جهات عدة:

١. خبر الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ أنّ هذا كلامه.

٢. خبر الرسول صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ أنّ الّذي يتلوه على النّاس هو كلام الله تعالى.

٣. ضَعْفُ الْبَشَرِ عَنِ الإتيان بمثله.

ولَمّا أضيف القرآن إلى الله تعالى علمنا أنّه مِن كلامه، وكلام الله كصفات الله لا يكون مخلوقًا، ولا يُشْبِهُ كلامُه كلامَ البشر؛ فمن زعم أنّه مخلوق فقد كفر.

وقد اختلف أهل البدع في هذه المسألة على أقوال كثيرة، أشهرها ثلاثة أقوال:

القول الأوّل: قول المعتزلة: ومَن وافقهم حيث زعموا أنّه مخلوق، وهذا يعني: أنّه مثل المخلوقات، ويلزم منه أنّ صفات الله مخلوقة -تعالى الله عن ذلك-، والعجب منهم أنّهم نفوا أن يكون كلام البشر مِن مخلوقات الله، وزعموا أنّ القرآن مخلوق، واستدلّوا بعمومات في غير محلّها؛ كاستدلالهم بقوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَيۡءٖ﴾ [سورة الزمر، من الآية:٦٢]، مع أنّ الآية عن المخلوقاتِ لا عن الله وصفاته، وبقولهم: إنّه وجد بعد أن لم يكن، فيلزمه أن يكون مخلوقًا؛ ككلام البشر يوجد بعد أن لم يكن فهو مخلوق، ونسوا أو تغابوا أنّ الله تعالى لا يقاس بخلقه، وصفاته لا تقاس بصفات المخلوقين.

القول الثّاني: قول الأشاعرة ومن وافقهم من الماتريدية: إنّ القرآن حكاية، أو عبارة عن كلام الله تعالى، ويقولون: إنّ لله كلامًا نفسيًّا ليس صوتًا ولا حرفًا، وهو ليس بمخلوق، وأمّا القرآن والكتب المنزّلة فهي عبارة عن الكلام النّفسيّ،

والعبارة مخلوقة؛ فنتيجة قولهم في القرآن كقول المعتزلة، واستدلوا بعموماتٍ على غير وجهها؛ مثل استدلالهم بقوله تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ فِيٓ أَنفُسِهِمۡ لَوۡلَا يُعَذِّبُنَا ٱللَّهُ بِمَا نَقُولُ﴾ [سورة المجادلة، من الآية:٨]؛ قالوا: دلّت الآية على أنّ هناك كلامًا نفسيًّا، وبقوله: ﴿تَعۡلَمُ مَا فِي نَفۡسِي وَلَآ أَعۡلَمُ مَا فِي نَفۡسِكَ﴾[سورة المائدة، من الآية:١١٦].

والرّدّ عليهم أنّ هذه الآيات ليست في محلّ النّزاع، ثم يلزمهم أن يثبتوا النّفس لله عَزَّوَجَلَّ، وهم لا يثبتون صفة النّفس لله تعالى كأهل السنة، فوقعوا في التّناقض، وأهل السّنّة يقولون: إنّه لا يلزم مِن وجود الكلام النّفسيّ نفي الكلام الحقيقيّ؛ بل وجود الكلام الحقيقيّ لازم للكلام النّفسيّ، ولا عكس.

القول الثّالث: قول الكرّاميّة ومَن وافقهم؛ فهم يقولون: إنّ الله تكلّم بعد أن لم يكن متكلّمًا، وكلامه حادث، طردا لقاعدتهم بالتّشبيه؛ فإنّ المخلوق يتكلّم بعد أن لم يكن متكلِّمًا.

وأما أهل السّنّة فيثبتون لله عَزَّوَجَلَّ الكلام، وأنّه مُتكلِّمٌ أزلًا وأبدًا، وليس كالمخلوقات، ولا يلزم مِن ذلك أن يكون كلامه كله أزليًّا؛ بل إنّه تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ تكلّم مع آدم عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ في وقت، ومع موسى عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ في وقت، وتكلّم بالقرآن في وقت، والدليل: ﴿وَلَمَّا جَآءَ مُوسَىٰ لِمِيقَٰتِنَا وَكَلَّمَهُۥ رَبُّهُۥ﴾[سورة الأعراف، من الآية:١٤٣].

[صفات الله تعالى ليست كصفات المخلوقين]

وَمَنْ وَصَفَ اللهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى بِمَعْنًى مِنْ مَعَانِي الْبَشَرِ فَقَدْ كَفَرَ؛ فَمَنْ أَبْصَرَ هَذَا اعْتَبَرَ، وَعَنْ مِثْلِ قَوْلِ الْكُفَّارِ انْزَجَرَ، وَعَلِمَ أَنَّ اللهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى -جَلَّ ذِكْرُهُ- بِصِفَاتِهِ لَيْسَ كَالْبَشَرِ.

﴿ الشرح ﴾

هذا تقرير من المصنّف رَحِمَهُ ٱللَّهُ بنفي التّشبيه عن الله عَزَّوَجَلَّ وعن أسمائه وصفاته، وأنّه ينبغي الإبصار والتّنبيه للفرق بين الخالق والمخلوق، وأنّه ليس بصفاته كالبشر، كما قال تعالى: ﴿رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا بَيۡنَهُمَا فَٱعۡبُدۡهُ وَٱصۡطَبِرۡ لِعِبَٰدَتِهِۦۚ هَلۡ تَعۡلَمُ لَهُۥ سَمِيّٗا﴾[سورة مريم، من الآية:٦٥]، وقد خالف المشبهة في هذا فقاسوا الخالق بالمخلوق -تعالى الله عن ذلك-.

والمعطّلة غلوا في التّنزيه فرارًا من التّشبيه بزعمهم؛ فوقعوا في ضلالة التّعطيل، والواجب إثباتٌ بلا تشبيه، وتنزيهٌ بلا تعطيل؛ فإنّ مَن شبَّه فإنه يعبد صنمًا، ومَن عطَّل فإنه يعبد عدمًا، وسبيل المؤمنين بين الإثبات على ما يليق بالله، والتنزيه كما يليق بالله، وهو طريقة القرآن، قال تعالى: ﴿لَيۡسَ كَمِثۡلِهِۦ شَيۡءٞۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡبَصِيرُ﴾[سورة الشورى، من الآية:١١]؛ فنَفَى أوّلًا على وجه الإجمال الدّال على الكمال المطلق، وأثبت ثانيًا على ضوء ما سبق من نَفْيِ المِثْلِيَّة؛ فحصل التّمجيد والتَّنزيه، والتّسبيح والتّحميد، وبهذا نعلم أنّ **"مَن وصف الله بمعنًى من معاني**

البشر فقد كفر".

"**وَصَفَ**" فِعْلٌ ماضٍ مِن (يصف، وصفًا، وصفةً)، بمعنى ذَكَرَ له صفة، و(**الوصف**): النعتُ بما فيه، وبيان الصفة التي اتصف بها.

فكلّ مَن أضافَ معنًى من المعاني إلى الله تعالى كما يُضافُ إلى البشر فإنّه قد دخل في التشبيه الذي هو كفرٌ بالإجماع؛ كمن زعم أنّ علم الله كعلمه، أو حياته كحياة المخلوق، أو وجوده كوجوده، أو فعله كفعله، ونحو ذلك.

"**معنًى مِن معاني البشر**": أي بوصفٍ مِن أوصافهم، أو بشيء يدل على التشبيه بهم، أو بفعل يدل على تمثيلٍ بهم، أو بكلام أو إشارة تدل على تشبيه الخالق بالمخلوق؛ كقول: النصارى، في ناسوتية عيسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ إنه الله، أو جزء منه، تعالى الله عن ذلك، وكقول الباطنية: إن مشايخهم تمثل الله فيهم، عياذًا بالله من أقوالهم ومعتقداتهم، وهذا كقول الهشامية: إن له يداً كيد المخلوق، سبحان الله عما يصفون.

و"**المعنى**" ما يدلّ عليه اللفظ، والجمعُ معانٍ، وأكثر ما يطلق على الصفاتِ، وقد يطلق على ما يراد من الكلام.

والله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ ليس كذاته شيءٌ فلا يكون كصفاته شيءٌ، "**فمَن أبصر هذا اعتبر**".

و "**أبْصَر**": أي بنور قلبه، وبمشاهدة عقله، والمقصود من الإبصار هنا (**البصيرة**)، و(**البصر**): الّذي هو مشاهدة العين سببٌ للبصيرة، ووسيلة إليها،

وليس هو هي، وكثيرٌ ممَّن له بصرُ العين هو في عمًى عن بصيرة القلبِ، وبعضُ من هو فاقدُ العين يعيش في بصيرة القلب والعقل.

ومَن نظر ببصيرته أدرك أنّ الله تعالى الخالق لا يقاس بخلقه؛ فهو يعتبر بذلك، ولا يتفوّه بما يدلّ على نقصٍ في العقلِ، وقدحٍ في النقل.

و **"اعْتبَرَ"**: أي أخذَ العبرَة، وعرفَ وجه الشّيء، واتّعظ، واعتدَّ به، ووضعه في مكانه اللائق به، وهذا هو المراد هنا، ويطلق ويراد به الامتحان، والاختبار.

و**(الاعتبار)**: اسمٌ لنوعٍ من القياسات العقليّة، الّتي يعتد بها العقلاء؛ فمثلًا نجد أنّ في أخذ الظالمين اعتبارًا لغيرهم.

ولهذا يَعْتبرُ العاقلُ فلا يطلق ما يكون في حقِّ الله تعالى على المخلوق، وما يكون للمخلوق على الله تعالى، بل يَعرفُ حقَّ الله تعالى من التعظيم والتبجيل والتحميد، وحقّ المخلوق وما له من نقصٍ، ومن خَلْقٍ، ومن فناءٍ، ونحو ذلك، وبهذا فإن المسلم العاقل اعتبر ويعتبر، **"وعن مثل قول الكفار انزجر"** وينزجر.

و **"الكفار"**: اسمٌ وصفي جمعيّ، ومفرده كافِر، وهو: مَن جحد شيئًا مِن أركان الإيمان، أو أركان الإسلام، أو فعل ما يناقض الإيمان قولًا أو فعلًا.

وأصل الكُفْرِ: الجَحْدُ، والسّتر، وذلك أن الكافر إنما يجحد ما هو معلومٌ، ويستر ما هو ظاهر، سواء كان كفره بالله عَزَّوَجَلَّ، أو بالملائكة، أو بالرسل...إلخ.

وكل كافرٍ فهو مشرِكٌ على الصحيح من أقوال أهل العلم، ولا خلاف أن كلّ مشركٍ فهو كافرٌ، ولما كان الكافر جاحداً لما هو معلومٌ فالواجب على المسلم

المعتبِر أن ينزجر عن أقوالهم وأفعالهم.

و"**انْزَجَرَ**": أي عن قولِ الكفار، و"**انزجر**" فلانٌ عن كذا، أي امتنع، وأبى عنه، ومِنه، ويأتي بمعنى: انزجر له، أي انقادَ له، واتّبعه، والمراد الأوّل هنا؛ فكلّ مسلمٍ مُعتبِر فإنّه عن قول الكفار يَنزجرُ، ويعلم أن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ "**بصفاته ليس كالبشر**"، وهذا سبق تقريره.

فإن قال قائل: كيف يمكن تقرير نفي المثلية؟

فالجواب: يمكن تقرير نفي الْمِثْلِيّة بعدة أمورٍ، ومنها:

الأمر الأوّل: أن الله تعالى أزلي الوجود، والمخلوق حادث؛ فكيف يكونُ مثلَهم؟

الأمر الثّاني: أن الله تعالى الغني في وجوده، والمخلوق فقير محتاج في وجوده؛ فكيف يكون شبيهًا لهم؟

الأمر الثّالث: أن الله تعالى الكامل الحميدُ المجيدُ الصمد العظيم الحي القيوم، وهذه المعاني منتفية عن البشر إلا على وجه محدود، وبقدرٍ ضعيفٍ؛ فكيف يكون مّن له الكمال المطلق كمن هو موصوف بكمال محدود، أو بنقصٍ معهود.

الأمر الرّابع: أنّ النصوص الشّرعية جاءت منافية للمثلية؛ فقال تعالى: ﴿هَلۡ تَعۡلَمُ لَهُۥ سَمِيّٗا﴾ [سورة مريم، من الآية:٦٥]، وقال: ﴿لَيۡسَ كَمِثۡلِهِۦ شَيۡءٞ﴾ [سورة الشورى، من الآية:١١]، {ليس كمثله شيء}، وقال: ﴿وَلَمۡ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدُۢ﴾ [سورة الإخلاص، من الآية:٤]،

فهذه الأمور كلها تدل على نفي المثلية عن الله تعالى، ونفي المشابهة؛ فإذا لا بد من إثبات الصّفات له على ما يليق به تَبَارَكَوَتَعَالَى، لا على ما نشاهده ونعهده في المخلوقين، ولا يجوز أن ننفي شيئًا عن الله تعالى جاء إثباته في الكتاب والسنة لمجرد المشابهة اللفظية؛ فإن ذلك إلحادٌ وتعطيل، وكفرٌ وتدجيل.

[رؤية الله تعالى في الآخرة]

وَالرُّؤْيَةُ حَقٌّ لِأَهْلِ الجنّة فِي الجنّة، مِنْ غَيْرِ إِحَاطَةٍ، وَلَا كيفيّة؛ كَمَا نَطَقَ بِهِ كِتابُ رَبِّنَا جَلَّوَعَلَا، قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ۝٢٢ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾ [سورة القيامة، من الآية:٢٢-٢٣]، **وَتَفْسِيرُهُ عَلَى مَا أَرَادَ اللهُ تَبَارَكَوَتَعَالَى وَعَلِمَهُ.**

﴿ الشرح ﴾

هذا تقرير من المصنف رَحِمَهُٱللَّهُ متعلق بإثبات لرؤية لله عَزَّوَجَلَّ، وأنّه يكون في الجنّة مِن دون إحاطة، ولا كيفيّة نعلمها، لكنّا نوقن بأن الله يُرى بالأبصار؛ كما هو منطوق القرآن، كما في قوله تعالى: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ۝٢٢ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾ [سورة القيامة، من الآية:٢٢-٢٣]، وفي قوله تعالى: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ ۖ وَلَا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ وَلَا ذِلَّةٌ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ أَصْحَـٰبُ ٱلْجَنَّةِ ۖ هُمْ فِيهَا خَـٰلِدُونَ﴾ [سورة يونس، من الآية:٢٦]، وقد جاء في الحديث: **"إِذَا دَخَلَ أَهْلُ الجنّة الجنّة، قَالَ: يَقُولُ اللهُ تَبَارَكَوَتَعَالَى: تُرِيدُونَ شَيْئًا أَزِيدُكُمْ؟ فَيَقُولُونَ: أَلَمْ تُبَيِّضْ وُجُوهَنَا؟ أَلَمْ تُدْخِلْنَا الجنة، وَتُنَجِّنَا مِنَ النَّارِ؟ قَالَ: فَيَكْشِفُ الْحِجَابَ، فَمَا أُعْطُوا شَيْئًا أَحَبَّ إِلَيْهِمْ مِنَ النَّظَرِ إِلَى**

رَبِّهِمْ عَزَّوَجَلَّ ثُمَّ تَلَا هَذِهِ الْآيَةَ: ﴿لِّلَّذِينَ أَحۡسَنُواْ ٱلۡحُسۡنَىٰ وَزِيَادَةٞۖ﴾" [رواه مسلم]، ومن المتواتر حديث: "**إِنَّكُمْ سَتَرَوْنَ رَبَّكُمْ، كَمَا تَرَوْنَ هَذَا الْقَمَرَ**" [**رواه مسلم**]، وفيه تشبيه الرؤية بالرؤية لا المرئي بالمرئي.

وقد أنكر أهل البدع هذه الرؤية الّتي هي من أعظم ما يُكْرَمُ به المؤمنون، وقالوا: إنّ اللهَ تعالى لا يُرَى، كما هو قول المعتزلة، واستدلوا بقوله تعالى: ﴿قَالَ لَن تَرَىٰنِي﴾[سورة الأعراف، من الآية:١٤٣].

والجواب: أنّ هذه الرؤية المنفية هي في الدّنيا.

وأيضًا: اللهُ تعالى علَّق الرؤية باستقرار الجبل، وذلك ممكن؛ فلما علَّقه بأمر ممكن علمنا أنه ممكن.

وأيضًا: أن الله لم يقل لموسى النّبيّ: لا أُرى، ففي الآية إثبات الرؤية في الآخرة ونفيها في الدّنيا.

وأيضًا: في الآية دلالة على أنّ الله تعالى ممكن الرؤية لأنه يستحيل في حق موسى النبي عَلَيْهِ السَّلَامُ أن يسأل ربه ما هو ممتنع عليه، ولما كان المحل غير مناسبٍ لرؤية الرب تَبَارَكَ وَتَعَالَى؛ فإن الله جَلَّ وَعَلَا نفاه.

وأيضًا: أنّ الله تعالى الدائم لا يناسب أن يرى في الزائل، ولأن الدنيا دار ملعونة فكيف يُرى اللهُ تعالى فيها وهي أقذرُ مِن مزبلة؛ فهل رأيتم مليكًا مِن الناس يقابلهم في أماكن ملعونة أو مزبلة!؟ وفي حديث أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَهُوَ يَقُولُ: "**الدُّنْيَا مَلْعُونَةٌ، مَلْعُونٌ مَا فِيهَا، إِلَّا**

ذِكْرَ اللهِ، وَمَا وَالَاهُ، أَوْ عَالِمًا، أَوْ مُتَعَلِّمًا" [رواه ابن ماجه، والترمذي، وقال: حسن غريب].

وأما الأشاعرة ومن وافقهم فزعموا أنّ الرؤية بالقلب لا بالبصر، وقد يعبرون عنه بأنها رؤية إبصارٍ لا رؤية أبصار، رؤية بصيرة لا رؤية عينٍ، وهذا منافٍ للأدلة الواردة في هذا الباب.

وقد استدل الإمام الشافعي رَحِمَهُ ٱللَّهُ بحجب الكفار عن الله على أن المؤمنين يرونه؛ لقوله تعالى عن الكفار: ﴿كَلَّآ إِنَّهُمۡ عَن رَّبِّهِمۡ يَوۡمَئِذٖ لَّمَحۡجُوبُونَ﴾ [سورة المطففين، من الآية:١٥]؛ فنسأل الله الكريم أن يرزقنا النظر إلى وجهه الكريم، في غير ضراء مضرة، ولا فتنة مضلة، فـ**"الرؤية حقٌّ لأهل الجنّة"**.

"الرؤية": مصدرٌ مِن (رأى، يَرى، رؤية)، وهي متعلّقة بالرؤية البصرية، وهذا دليلٌ على أنّ الله تعالى يُرَى، وإنما هي خاصّة لأهل الجنّة، وهي نعمة مِن أعظم نِعَم الجنّة.

"حَقٌّ": أي ثابتٌ لا مِرية فيه، ولا شكّ، لثبوت ذلك نقلًا وعقلًا، وقد تكاثرت الأدلة على ذلك.

وهذه الرؤية خصوصية لأهل الجنّة إنما هو من جهة النّقلِ، كما سبق في ذكر النّصوص الدالة على الرؤية.

و**"الجنّة"**: اسمٌ وعلَمٌ على دار الكرامة الّتي أعدها الله تعالى للمؤمنين في الآخرة، وهي جنانٌ عدّة، وأبوابها ثمانية، كما جاء في الحديث، ولها أسماءٌ

كثيرة، وأوصافٌ عديدة، ومنها: جنات عدنٍ، جنة نعيم، جنة الخلد...إلخ.

وفي حديث أبي موسى رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ عن النّبيّ صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ قال: **"جنانُ الفردوس أربعٌ: جنتان من ذهبٍ؛ حِلْيَتُهما، وآنيتهما، وما فيهما، وجنتان من فضة؛ حليتهما، وآنيتهما، وما فيهما..."** [رواه أحمد، والطبراني].

وأصل كلمة (**الجنّة**): اسم للحديقة ذات النخل والشجر، والبستان الكثيف الزَّرع، وسمي البستان الكثيف الزرع بالجنّة لكثرة ما فيها من الأغصان الّتي تستر وتجن صاحبها.

وإنما المشابهة لفظيّةٌ بين الجنّة الّتي هي دار الكرامة وبين الجنّة الّتي هي البساتين في الدّنيا، وإلا فلا مقارنة بين تلك وهذه، قال تعالى: ﴿فَلَا تَعۡلَمُ نَفۡسٞ مَّآ أُخۡفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعۡيُنٖ جَزَآءَۢ بِمَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾[سورة السجدة، من الآية:١٧]، والله نسأل أن نكون من أهلها.

فإذا دخل أهل الجنّة الجنّة رأوا ربهم بأبصارهم، وبأعينهم من دون مزاحمة، ولا مضايقة، **"وبغير إحاطة"**.

و(**الإحاطة**): مصدرٌ من (أحاط، يحيط،حوطًا وإحاطة) بمعنى: إدراك الشيء مِن جميع جوانبه، والإحداق به، وهذه الإحاطة قد تكون معنويّة علميّة، وقد تكون حسّيّة.

والله سُبۡحَانَهُۥوَتَعَالَىٰ محيط بكل شيء، ولا يحيط به شيءٌ؛ فهو سبحانه وإن رآه المؤمنون يوم القيامة فهي لا تعني الإحاطة؛ بل هو سبحانه العلي الأعلى، وهم

مهما نظروا إليه فلا يحيطون به، ولا يحيطون به علماً، قال تعالى: ﴿لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ وَهُوَ يُدْرِكُ ٱلْأَبْصَٰرَ ۖ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ﴾ [سورة الأنعام، من الآية:١٠٣]؛ فالله تعالى يُعلم من حيث الإجمال {ولا يحيطون به علما}، وهو سبحانه يُرى، ولا تحيط به الأبصار، وهو معنى قوله تعالى: ﴿لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ﴾، وجميع صفات الله تعالى تدرك من حيث المعنى، ولا تدرك من حيث الكيف، ولهذا يقول علماء أهل السنة: إن الله سبحانه بذاته وبصفاته لا يُحاط به علماً، ولا يحاط بالله عَزَّوَجَلَّ إدراكاً ورؤية.

ومن المخلوقات ما نراها ولا يلزم من رؤيتنا لها الإحاطة، ألا ترى أنا نرى السّماء ولا نحيط بها علماً؛ بل إنا نرى الأرض من تحتنا ونحن عاجزون عن الإحاطة بها؛ بل إن أحدنا ليحيط بشخصٍ أمامه ويخفى عليه ما في ضميره، وما فيه من عجائب مكنونات خلق الله تعالى؛ فإذا كانت الرؤية غير لازمة للإحاطة في المخلوقات ففي حق الخالق سبحانه أولى، لا سيما وأن الله تعالى يُرَى بلا إحاطة، ولا كيفيّة.

وقوله: "**ولا كيفيّة**" راجعة إلى صفة الخالق تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ، فإنا نرى اللهَ تعالى، ونرى وجهَهَ الكريم –نسأل الله أن يرزقنا رؤيته في دار كرامته–، ولا يلزم من إثبات الرؤية يوم القيامة كيفيّة ذات الله تعالى، وكيفيّة صفة وجه الله تعالى؛ فإنه سبحانه لا يُكَيَّفُ بالمشاهدات، ولا بالمتخيلات؛ بل هو فوق كلّ التَّصوُّرَات،

وهو العلي العظيم ربُّ البريات.

وأيضًا قوله: (**"ولا كيفيّة"**) راجعة إلى فعل المكلفين من المؤمنين في الجنّة، ويعني لا تُكيَّفُ رؤية النّاس لربهم عَزَّوَجَلَّ؛ وإنّما تثبت هذه الرؤية بلا خوضٍ في كيفيتها؛ فالمؤمنون يرون ربهم بأبصارِ عُيُونِهم هذا القدر هو الثابت، وما سوى ذلك فلا يُكيَّف؛ لأنَّ رؤية المؤمنين لله عَزَّوَجَلَّ في الجنّة تبع لصفاته، وصفات الرب عَزَّوَجَلَّ لا تُعْرَفُ كيفيتها؛ فرؤية الرائي للرَّب تعالى في الآخرة ليست رؤية إحاطة ولا تُكَيَّفْ بكيفيّة؛ بل يقال ما جاء في النصوص، ولا يخاض فيما وراء ذلك؛ فاللهُ تعالى في علوه لا يُعْلَمُ كيف ذلك، والمؤمنون يرونه ولَا تُعْلَمُ كيفيّة ذلك، والله سبحانه يكشف الحجاب عن رؤية الخلق إليه ولا تُعْلَمُ كيفيّة ذلك؛ فربنا أعلى وأعظم وأجل من أن يكيف أو يحاط به، في ذاته وفي صفاته.

وهذا كما نقول إن جبريل سمع القرآن من الله تعالى بصوت الرب تَبَارَكَوَتَعَالَىٰ، ولا نعلم كيف صوته جل في علاه، ومثل هذا نقول: إن الله تعالى له حياة، ونعلم يقينا أنه حيٌّ حياة أزلية سرمدية أبدية ولا أحد يعلم كيفيّة هذه الحياة.

فكذلك نُثْبِتُ الرؤية دون نظرٍ في (كيف) تكون هذه الرؤية، لكنها رؤية بالعيانِ، رؤية بالعينين ليست رؤية قلب، وإنما هي رؤية عينية بصرية، وليست رؤية بأبصار القلوب، "كما نطق به كتاب ربنا"؛ فإثبات الرؤية ثابت بمنطوق كتاب ربنا تَبَارَكَوَتَعَالَىٰ، وهو القرآن الكريم.

و**"نَطَقَ"**: فِعلٌ ماضٍ من (ينطق، نُطقًا) وهو: اللفظ الدّالّ على معنىً،

والمنطوقُ النصُّ الّذي يدلّ بنفسه على المعنى المراد؛ وهو الكلام الّذي له صوتٌ وحرفٌ ومعنًى.

و"**نطق به كتاب ربنا**": أي بيّنه وأوضحه، ودلَّ عليه لفظاً ومعنى، ثم ذكر آية واحدةً اكتفاءً بظهورِ دلالته، ووضوح حجيته؛ فقال: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ﴿٢٢﴾ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾[سورة القيامة، من الآية:٢٢-٢٣].

ومنطوق هذه الآية لمن أوتي الفهم السلفي جليٌّ وواضحٌ، ولهذا استدل بها المصنّف رَحِمَهُ اللَّهُ تعالى.

"**وُجوهٌ**": جمعُ (وجهٍ)، وهو مِن الإنسان مَعْرُوف عكسُ قفاه، ولكل شيء وجه بحسبه؛ فللأرض وجهٌ بخلاف باطنه، وللسماء وجهٌ بخلاف أعلاه، وللدار وجه بخلاف داخله، وللكتاب وجه بخلاف محتواه؛ والمقصود هنا وجوهُ بني آدم، بل على وجه الخصوص المؤمنون منهم.

"**يومَئِذٍ**": أي يوم القيامة، والتنوين في ﴿يَوْمَئِذٍ﴾ تنوين عوضٍ عن كلمة القيامة.

"ناضرة": **اسم فاعلٍ بمعنى الصِّفَة، والمصدر، فهذه الوجوه نعَّمها الله تعالى، وأنعم عليها بالحُسْنِ والجمالِ، وبالنَّضْرَة، والغِبْطَةِ، والسُّرور؛ فهي مسرورةٌ يومَئِذٍ؛ فرِحَةٌ، وخُصّ الوجوه بالنّضارة يوم القيامة؛ لأنّ الله تعالى لا يُرَى في الدّنيا، كما هو منصوص القرآن والسنة، قال الله تعالى لموسى** عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿لَن

تَرَىٰنِي﴾؛ أي في الدّنيا، ولم يقل: لا أُرَى؛ لأنّ لا أُرى تفيد التأبيد، ولَنْ هنا تفيد التوقيت، وقال صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ: "وَلَا تَرَوْنَ رَبَّكُمْ حتّى تَمُوتُوا" [رواه ابن ماجه، وابن خزيمة في كتاب التوحيد واحتج به].

وسبب هذه النضارة لهذه الوجوه ذكرها الله تعالى في الآية الّتي بعدها: ﴿إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾[سورة يونس، من الآية: ؟؟؟؟]، أي تنظر إلى ربها نظرًا، وكيف لا تَنْضُرُ وهي إلى الخالق تنظُرُ؛ فسبحان الله الحميد العظيم المجيد.

و"**ناظرة**": اسمُ فاعلٍ مِن (نظر، ينظر، نظرًا) بمعنى الرؤية والإبصار، هذا إذا عدِّيتَ بإلى؛ فتقول: نظرت إلى الكتاب، ونظرت إلى السماء، وتأتي بمعنى الانتظار كقولهم: إني ناظرٌ حتى ترجع، أي منتظرٌ، والمرادُ هنا الأوّل بدلالة اللغة، وتفاسير السلف رحمهم الله، وها هو الإمام الطحاوي رَحِمَهُٱللَّهُ من كبار السلف في أول القرن الرابع الهجري، ينقل هذا الفهم من الآية عن الأئمة الثلاثة رحمهم الله تعالى.

وكيفيّة هذه الرؤية غير معلومة، ولهذا قال المصنّف رَحِمَهُٱللَّهُ: "**وَتَفْسِيرُهُ على ما أراده اللهُ تَعَالَى وَعَلِمَه**": أي تفسير الرؤية على ما أراده الله تعالى، لا على ما يتخيله أهلُ الكلام من أهل التعطيل، ولا على ما يتوهمه الْمُتَخَيِّلُون من أهل التّمثيل؛ فهو سبحانه فوق القياسات العقلية، وأجلّ من الخيالات النّفسية، ولهذا وجب أن نؤمن بهذه الرية على وَفق النّص، وأنْ لا نزيد على ذلك.

"**وتفسيره**" مصدرٌ على وزن تفعيل، مِن (فسّر، يفسِّر، تفسيرًا)، وهو: التوضيح

والتبيان، والشّرح والبيان، وكشف ما يحتاج إلى كشفٍ من معاني الكلمات المتضمنة في مباني العبارات.

"على ما أراده الله تَبَارَكَوَتَعَالَىٰ**"** في هذه الجملة دلالة على أن كل ما تكلم الله تعالى به؛ فله معنًى مرادٌ، سواءٌ علمناه أو لم نعلم، ومن هنا فإنّ أهل السنة يقولون: إن لهذه الصفات كيفيات يعلمها الله تعالى؛ لأنه سبحانه أخبر عنها بمعاني معروفة لدينا وغيّب عنّا كيفياتها؛ لكونِ عقولنا قاصرة عن إدراكها؛ كقصور علمنا عن إدراك كيفية الروح التي بين جنبينا وأعظم، هذا من وجهٍ.

ومن وجهٍ آخر: فإنّ الله تعالى لا يُحاطُ به عِلمًا؛ ولو قيل بأن إدراك الكيفية ممكنة للمخلوق لكان يلزم من ذلك الإحاطة به سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ.

ومن هنا فإنا نقول: إنه سبحانه وإن عُلِم أن لذاته وجودًا؛ فإنا نجهل كيف ذاته تَبَارَكَوَتَعَالَىٰ؛ فكذلك إن علمنا بعضَ معاني صفاته؛ فإنا نجهل كيفياتها؛ والقول في الصفات كالقول في الذات إثباتًا أو نفيًا، سلبًا أو إيجابًا، إمكانًا أو امتناعًا أو جوازًا.

وممّا يبيّن أن هذه الرؤية ثابتة ظواهر نصوص القرآن -كما مرّ-، وظواهر صريح نصوص الأحاديث المتواترة، وهذا ما عناه المصنف رَحِمَهُٱللَّهُ بتقريره الآتي.

❊❊❊

[طريقة السلف في التعامل مع النصوص]

وَكُلُّ مَا جَاءَ فِي ذَلِكَ مِنَ الْحَدِيثِ الصَّحِيحِ عَنْ رَسُولِ اللهِ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَعَنْ أَصْحَابِهِ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ أَجْمَعِينَ؛ فَهُوَ كَمَا قَالَ، وَمَعْنَاهُ وَتَفْسِيرُهُ عَلَى مَا أَرَادَ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَلَا نَدْخُلُ فِي ذَلِكَ مُتَأَوِّلِينَ بِآرَائِنَا، وَلَا مُتَوَهِّمِينَ بِأَهْوَائِنَا؛ فَإِنَّهُ مَا سَلِمَ فِي دِينِهِ إِلَّا مَنْ سَلَّمَ لِلَّهِ عَزَّوَجَلَّ، وَلِرَسُولِهِ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ، وَرَدَّ عِلْمَ مَا اشْتَبَهَ عَلَيْهِ إِلَى عَالِمِهِ .

﴿ الشرح ﴾

هذا تقرير من المصنف رَحِمَهُ ٱللَّهُ في الطريقة الصحيحة في الاعتقاد وأنه مبني على المنصوصِ، وعلى المرويات، لا على القيل والقال، وأن الاعتقاد الصحيح سواء ما تعلق برؤية الله تعالى، أو بغيرها من المسائل الأصل فيه النص والإجماع.

قوله: "**وكل ما جاء في ذلك**": هذا تقريرٌ من المصنّف رَحِمَهُ ٱللَّهُ بأنّ ما ورد، سواء كان في الكتاب، أو في السّنّة، فإنّه مما يجب قبوله، وأنّ هذه هي طريقة السلف الصالح رحمهم الله تعالى، وأنهم لا يفرقون بين ما جاء في القرآن، وبين ما جاء في السنة؛ بل يستدلون بكل ما جاء، ولكن لهم شرطٌ واحدٌ في السنة، وهو ثبوت ذلك، وصحته، ولهذا قال المصنّف رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "**من الحديث الصحيح عن الرسول** صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ"، فالحديث إذا صحّ فإنّه حجّة سواء في الاعتقادات أو الفقهيّات، ولا فرق في كون الحديث متواترًا أو مشهورًا أو آحادًا، وإنما العبرة

بكونه صحيحا عن رسول الله صَلَّ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

وما عُلِم القول بأن الأحاديث الصحيحة غير المتواترة لا تقبل في باب الاعتقادات إلّا عند المعتزلة ومن وافقهم.

و"**الحديث**": لغة كلّ ما يُتَحدَّثُ به من كلامٍ، وخبرٍ، وجمعه (أحاديث)، والمقصود به هنا: كلامُ رسول الله صَلَّ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وهو في اصطلاح المحدثين: كلّ ما ثبت عن رسولِ الله صَلَّ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من قولٍ، أو فعلٍ، أو تقريرٍ، أو وصفٍ خَلْقِيٍّ، أو خُلُقيٍّ.

وإنما يقال هو حديث رسولِ الله صَلَّ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إذا صحَّ، **والحديث "الصحيح" عند علماء الحديث هو**: كلّ ما صح عن رسول الله صَلَّ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ متّصلًا بنقل العدل الضّابط، الخالي من الشذوذ أو العلّة.

و"**الصحيح**" في اللغة عكس العليل، وإنّما وُصفت الأحاديث بالصّحة لأنها خالية عن علل الردِّ؛ فإذا ثبت الحديث عن رسول الله صَلَّ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فليس لأحدٍ أن يعارضه، كما قال الشافعي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (أجمع النّاس على أنَّ من استبانت له سنةُ رسولِ الله صَلَّ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لم يكن له أن يدعها لقول أحد) [إعلام الموقعين لابن القيم].

وقد صح عنه أنه قال: (ولا يجوز لعالمٍ أن يدع قول النّبيّ صَلَّ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لقولِ أحدٍ سواه) [الأم للشافعي].

"**عن رسول الله** صَلَّ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ"، وهذا ما يسمّ عند أهل الاصطلاح من

المحدّثين بالحديث المرفوع، وهو كلّ ما رفعه الصحابيّ إلى رسولِ الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

"وعن أصحابه رضي الله عنهم أجمعين" وهو ما يسمَّى عند أهل الاصطلاح من المحدّثين بالحديث الموقوفِ، وهو كل ما قاله الصحابيّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، سواءٌ كان له حكمُ الرفع؛ فيكون مرفوعًا حُكمًا، أو لم يكن له حكم الرفعِ؛ فيكون تفسيرًا ورأيًا ليس لأحدٍ أن يخالفه، لا سيّما إذا لم يعلم له مخالف.

فإذا ثبت الحديث عن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، أو عن الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ، ووُصف بأنه صحيح عند علماء الفنّ؛ وأهل الاختصاص؛ فقد وجب القول بمدلولها، ومقتضاها، ووجب أن يعتقد أنّ الأمر كما قال، ويكون الحق **"كما قال"**، ولا يمكن أن يكون الحق بخلافه، مما يزعمه المتوهِّمون، أو يتخيله المتخيِّلون، أو يضعه المحتملون؛ بل معنى الحديث الصحيح المرفوع أو الموقوف وهو ما دلّ عليه بوضع اللغة العربية الفصحى، مع اعتبار عرف زمن النّزول، فينبغي القول به **"كما قال"**، ويكون مدلوله، **"ومعناه على ما أراد"**، وبهذا يتم الجمع بين النّصوص الشّرعية، ولا يجوز أن نرد الأحاديث الصّحيحة لأنّا فهمنا منها معنى باطلًا في أذهاننا؛ لقصور علمنا، أو لضيق قياساتنا، أو لاعوجاج قواعد منطقنا.

"ولا ندخل في ذلك متأوّلين بآرائنا"؛ لأنّ الدّخول في النّصوص بالتّأويلات يُحيلُها عن معانيها المرادة لله تعالى، ولرسوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، والمرادة

لأصحاب النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ورضي الله عنهم؛ فيجعل المشبِّه برأيه النّصَّ دالًّا على التّشبيه، ويجعل الْمُعَطِّلُ النّصَّ دالًّا على التَّعطيل؛ ولهذا وجب إمرارها، وترك الآراء دونها، وإلّا لعب كلّ صاحب هوى بالنصوص، وهذا ما يسمّى بفهم النّصوص وَفق مراد المتكلّم به، وهو فهم السّلف رَحِمَهُمُ ٱللَّهُ تعالى، وطريقتهم في التعامل مع النصوص، بخلاف المتأولة، أو المعطّلة، أو المحرِّفة.

"متأوّلين" جمعُ (متأوِّل) وهو من يجعل للكلام معنى يفهمه، وسيأتي بيان معنى التأويل وأنواعه.

و**"الآراء"**: جمع رأيٍ، والمقصود به هنا القياسات، واستنتاجات العقول، وتدابير الفكرِ، ونتاج التأمّلات، الّتي تكون مخالفة للمحكمات، ومصادمة لما عليه السلف الصالح في الفهومات؛ ولهذا نجد أنّه ثبت عن الأئمة ذم (أرأيت)، وذم القياسات المصادمة للنّصوص، الّتي يلزم من التزامها ردّ النّصوص، وهو من اتباع طرق إبليس حيث قدّم قياس رأيه، على نصّ وكلام ربِّه؛ فكل ما كان من الآراء المخالفة لما عليه السّلف فإنّها مِن الأهواء، ومِن التّخيّلات والتّوهّمات؛ ولهذا قال المصنّف رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **"ولا مُتوهِّمين بأهوائنا"**، **"متوهِّمين"** جمعُ (متوهِّمٍ) مِن (توهَّم، يتوهّم، توهّمًا)، و**(التّوهُّم)**: التّخيُّل لغة، وهو في اصطلاح الفلاسفة: قوّة نفسانيّة تُدْرِكُ الصُّوَرَ الحسّيّة، أو تحضرها بعد غياب محسوساتها.

وهذا التّوهّم في النّصوص محرمٌ إذا كان فيما يتعلّق بالغيبيّات، لا سيما ما

يتعلق بكيفيّات صفات الله تعالى، وبكيفيّة ذاته تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ؛ فمهما عمل الوهم، أو تخيل النّفس؛ فإنّ الله تعالى على خلافه؛ فهو سبحانه العليّ العظيم، الحميد المجيد.

وإذا صار العبد يعمل في نصوص العقيدة وَهْمَه فإنّه سيأتي بالعجائب، وهي الأهواء والشّوائب، وكلّ توهُّم بخلاف منطوق أو مفهوم النّصوص -لا سيما فيما يتعلق بالعقائد- فهو صادر عن الأهواء، شاء المتوهِّم أم أبى، ولهذا لا يتمّ الإيمان في باب الاعتقاد إلّا بالتّسليم الّذي قال عنه المصنّف رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **"فإنَّه مَا سَلِمَ في دينه إلا من سَلَّمَ** لله عَزَّوَجَلَّ ولرسوله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ"، أي فيقينًا الشّأنُ هو أنّ السّلامة تكون بالتّسليم لله **عَزَّوَجَلَّ**، ولرسوله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ.

و **"ما سَلِمَ"** أي ما حصل له السّلامة من الآفات، والضّلالات، والانحرافات العقديّة، إلّا بالتّسليم التّام لله تعالى، والانقياد التّام لرسول الله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ.

ومعنى **"سَلَّمَ"** أي استسلم، وانقاد، وسلّم أمره لفلان إذا انقاد له، فلا يقدّم على خبر الله تعالى ورسوله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ شيئًا ممّا يتوهّمه، أو يتخيّله، أو يجده بذوقه، أو يراه بقياسه؛ فإنْ وجد شيئًا لم يستطع فهمه، ولم يعرف مرامه، ولم يدرك المقصد من وروده؛ فعليه بالتّسليم، وعليه أن يعمل بما ذكره المصنّف رَحِمَهُ ٱللَّهُ، وهو: **"رَدُّ عِلْمِ ما اشتبه عليه إلى عالمه"** أي يَرَدُّ الأمر الّذي قد اشتبه، وصار لا يفهمه، أو لا يفهم المراد منه إلى عالِمه، وهو الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ، والله تعالى هو الّذي أنزل الكتاب، وأنزل الدين؛ فهو أعلم بما اشتبه، ويكون الردّ إلى

الله تعالى بأحد أمرين:

الأمر الأوّل: الانقياد لأمره حيث أمرنا بالعمل بالمحكم، وترك المتشابه؛ فيرد المتشابه إلى المحكم.

الأمر الثّاني: أن نقف، ولا نخوض في المتشابهات، وإن لم نعرف وجه رده إلى المحكم، أو صفة رده إلى المحكم، وبهذا يرسخ الإيمان.

و"**اشتبه**" فِعلٌ ماضٍ من (الاشتباه)، وهو: الاختلاط، وعدم تمييز مرامه في اللفظ عن خياله، أو الشك في مراده، بحيث أصبح لا يدري ما يقدّم وما يؤخّر، وهو مرادف (الالتباس).

وإنّما يحصل ذلك إما بسبب قلّة العلم، أو وجود الموانع من معرفة الحقّ، الدّال عليه النّصّ، مِن مثل الأهواء، والضلالات، أو القواعد الباطلة، أو الموروثات المخالفة للشريعة، أو البيئات المناوئة لبيئة السلف رَحِمَهُمُاللَّهُ تعالى.

ولا يمكن إدراك الإيمان الثابت إلا باتباع السنة، واتباع طريقة السلف، وهو المبني على ما ذكره المصنف رَحِمَهُاللَّهُ من قبول ما صح عنهم، والانقياد التام، وقد قرره في قوله الآتي.

[وجوب التسليم والانقياد للنصوص والحذر من الغلو]

وَلَا يَثْبُتُ قَدَمُ الْإِسْلَامِ إِلَّا عَلَى ظَهْرِ الْانْقِيَادِ، وَالتَّسْلِيمِ، وَالْاِسْتِسْلَامِ، وَمَنْ رَامَ عِلْمَ مَا حُظِرَ عَنْهُ عِلْمُهُ، وَلَمْ يَقْنَعْ بِالتَّسْلِيمِ فَهْمُهُ، حَجَبَهُ مَرَامُهُ عَنْ خَالِصِ التَّوْحِيدِ، وَصَافِي الْمَعْرِفَةِ، وَصَحِيحِ الْإِيمَانِ؛ فَيَتَذَبْذَبُ بَيْنَ الْكُفْرِ وَالْإِيمَانِ، وَالتَّصْدِيقِ وَالتَّكْذِيبِ، وَالْإِقْرَارِ وَالْإِنْكَارِ، مُوَسْوِسًا، تَائِهًا، شَاكًّا، زَائِغًا، لَا مُؤْمِنًا مُصَدِّقًا، وَلَا جَاحِدًا مُكَذِّبًا .

الشرح

هذا الكلام من المصنف رَحِمَهُ ٱللَّهُ تقرير لمنهج السلف المبني على الانقياد والتسليم والاستسلام، وعدم الخوض في الغيبيات، والاكتفاء بالنصوص الثابتات.

قوله: "ولا يَثْبُت" أي لا يرسخ، ويشتد، ويتقوى، مِن (ثبَت، ثبْتًا)، والثبات: الالتزام بالشيءِ مع التمسك والتشبث به، وقد أمرنا الله تعالى بالثبات على دينه، والثّبات على أمره، ومجاهدة أعدائه؛ فقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَٱثْبُتُواْ وَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [سورة الأنفال، من الآية:٤٥]، والثّبات على الحقّ إنما تكون بالاستقامة، قال الله سبحانه: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُواْ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١٣﴾ أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ خَٰلِدِينَ فِيهَا جَزَآءَۢ بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾ [سورة الأحقاف، من الآية:١٣-١٤]، وقال

جلّ في علاه: ﴿فَٱسۡتَقِمۡ كَمَآ أُمِرۡتَ وَمَن تَابَ مَعَكَ وَلَا تَطۡغَوۡاْۚ إِنَّهُۥ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرٞ﴾ [سورة هود، من الآية:١١٢].

فثمرات الثبات على الدين، والاستقامة عليه، كثيرة جدًّا في الدنيا والآخرة، ومن جملة ثمرات الاستقامة الثبات على الدّين، ولا يمكن ذلك إلا بالانقياد، ولهذا قال المصنف رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **"ولا يَثْبُت قَدَمُ الإسلام إلّا على ظهر الانقياد"**.

"قَدَمُ" بفتح القاف مِن (قَدَم، يَقْدُم) وهو التَّقدُّم والسبق في الخير؛ وفلانٌ له قدمٌ في الإسلام أي له التقدم والفضيلة، ونيل الدرجات العالية فيه، فهذه الإضافة ظرفية، والمعنى: قدمٌ في الإسلام، وهي الرسوخ فيه، والسّابقة فيه، قال الله تعالى: ﴿وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَنَّ لَهُمۡ قَدَمَ صِدۡقٍ عِندَ رَبِّهِمۡ﴾ [سورة يونس، من الآية:٢].

والثّبات والتّقدم في الإسلام أمران لا يحصلان إلا بالتّسليم التّام، والاستسلام الكامل.

وفي بعض النسخ **"قِدَمُ"** بكسر القاف مصدرٌ مِن (قَدُم، يقدُم) بمعنى مضى على العهد به زمان طويل، والسابقة أيضًا، ومنه: قدُم العهد به قِدْمًا، أي صار قديمًا حتى لا يكاد يذكر، والمعنى على هذا الوجه: أنّ الثبات لا يمكن على ما مضى عليه العهود السابقة من السلف إلا بالانقياد والتسليم.

"الإسلام" مصدرٌ مِن (أسلم، يُسلِم، سِلْمًا، وإسلامًا)، وهو: الخضوع، والطّواعية لغة، **وفي الاصطلاح**: هو الدين الذي بعث الله تعالى به الأنبياءَ

عَلَيْهِمُ السَّلَامُ على وجه العموم، والدين الذي بعث الله تعالى به محمدًا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ على وجه الخصوص، قال الله تعالى: ﴿يَحْكُمُ بِهَا ٱلنَّبِيُّونَ ٱلَّذِينَ أَسْلَمُوا۟﴾ [سورة المائدة، من الآية:٤٤]، وقال سبحانه: ﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ﴾ [سورة آل عمران، من الآية:١٩]، وقال جلّ في علاه: ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ [سورة آل عمران، من الآية:٨٥].

وعلامة الإسلام: الاستسلام لله بالتوحيد، والانقياد له بالطاعة، والبراءة من الشرك وأهله، قال الله تعالى: ﴿فَإِنْ حَآجُّوكَ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِىَ لِلَّهِ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِ ۗ وَقُل لِّلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْأُمِّيِّۦنَ ءَأَسْلَمْتُمْ ۚ فَإِنْ أَسْلَمُوا۟ فَقَدِ ٱهْتَدَوا۟ ۖ وَّإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَٰغُ ۗ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِٱلْعِبَادِ﴾ [سورة آل عمران، من الآية:٢٠]، وقال سبحانه: ﴿فَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ فَلَهُۥٓ أَسْلِمُوا۟ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُخْبِتِينَ﴾ [سورة الحج، من الآية:٣٤]، وقال جلّ في علاه: ﴿وَأَنِيبُوٓا۟ إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا۟ لَهُۥ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلْعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ﴾ [سورة الزمر، من الآية:٥٤].

ومبنى الإسلام على خمسة أركانٍ؛ كما جاء في حديث ابْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **"بُنِيَ الإِسْلَامُ عَلَى خَمْسٍ: شَهَادَةِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللهِ، وَإِقَامِ الصَّلَاةِ، وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ، وَالحَجِّ، وَصَوْمِ رَمَضَانَ"** [رواه البخاري ومسلم].

قوله: **"إلّا على ظَهْرٍ"**: هذه استعارة، والمقصودُ أنّ عُظمَ السّبق في الإسلام،

ونيل السّابقة فيه متوقِّفة على اتخاذ مطيّة التّسليم والاستسلام.

و "**ظَهْرُ**" بمعنى ما يحمل عليه الشّيءُ، وبمعنى الطّريق، وما ارتفع من الشّيءِ، وعونٌ ومساعدٌ، وما علا من الشيء؛ والمعنى: أنّ جلّ أمور الإسلام مبني على الانقياد والتسليم، وأنّ ذلك هو الطّريق، وبه الرفعة، ومنه يستمد المؤمن العون في السّير إلى الله تعالى، ويجد العون من الله جَلَّوَعَلَا بذلك.

و "**الانقياد**" مصدرٌ مِن (انقاد، ينقاد، انقيادًا) وهو السّير خلف القائِد، والخضوع له، والذّلّ، والاستقامة وراءه، والمعنى: أنّ الثّبات في الاسم مبناه على السير وراء النّصوص، وترك الخوض فيها بالجدال.

و "**التّسليم**": مصدر مِن (سَلَّم، يسلِّم، تسليمًا) بمعنى انقادَ؛ كانقياد الأسير لآسِرِه.

والتسليم مِن مقتضياته: ترك المعاندة، وترك المخالفة، والسّير التّام بلا توانٍ في الأمر؛ فعقيدة المؤمن إنما يترسّخ بالتّسليم لدين الله تعالى، علمًا وعملًا.

و"**الاستسلام**": مصدرٌ مِن (استسلم، يستسلم، استسلامًا) إذا أظهر الانقياد والطّاعة، وترك القتال والمخالفة، والمراد: أنّه يستسلم لأوامر الله تعالى، وأخباره سبحانه؛ فيؤمن بكلّ ما جاء في النّصوص، دون مؤاربة، ولا مناقشة، ولا مؤاخذة، وهذا يلزم منه عدم الخوض فيما حُجب، ولهذا قال المصنّف رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالى: "**فمن رام علم ما حظر عنه علمه**" أي صار يبحث عن العلم الّذي لم يُكشف له، وهو علم الغيب، وعلم كيفيات الغيبيات، وعلم كيفيات صفاته

تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ.

و **"رام"** فِعْلٌ ماضٍ من (يروم، رومًا) بمعنى مَالَ، وفارَقَ، وابتعد؛ فصار يطلب الممنوعَ، وهو عِلْم ما **"حُظِرَ"**، وهو فعلٌ ماضٍ مبنيّ لما لم يسمّ فاعله مِن (حظر، يحظر، حظرًا) بمعنى المنع، وهو المحظور، الممنوعُ المحرَّمُ، المحميُّ من الاطِّلاعِ عليه.

فإن قيل: ما هو العلم المحظور؟

فالجواب: العلم المحظور بحسب النّصوص الشّرعية عِلْمَان:

العلم الأوّل: علمُ الغيب، قال الله تعالى: ﴿قُل لَّا يَعْلَمُ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلْغَيْبَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ [سورة النمل، من الآية:٦٥].

العلم الثّاني: علمُ كيفيّات صفات الله تعالى، وكيفيّات المغيَّبات، قال الله تعالى: ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۚ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُو۟لَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا﴾ [سورة الإسراء، من الآية:٣٦]؛ فالواجب الوقوف عن البحث في هذه الأمور، والقناعة بالعلم الميسور.

ومَن **"لم يقنع بالتسليم فهمه"**؛ أي لم يرضَ بالموجود عن المحجوب؛ فيميل إلى البحث عن الغيوبِ؛ فإنّ فهمه يؤدّي به إلى الْمُهْلِكات، ويوصله إلى الْمُردِيات، ومِن جملة ذلك: **"حَجَبُه مَرَامُه عن خالص التوحيد"**، وهذا أوّل أشواك الخوض في الغيبيّات بالعقول القاصرات، وبالظّنون والتّوهّمات؛ فإنّه يَحْرُم عن الخيرات.

و "**لم يقنع**" فِعْلٌ مضارع مِن (قَنَع، قَنْعًا، وقناعة) بمعنى لم يرض بما قيل له، وبما قسم له، وبما أدركه علمه.

و "**فهمه**" مصدرٌ مضافٌ إلى هاء الضمير، وهو مِن (فهِم، يفهَم، فهمًا) بمعنى: حَسُن منه تصوّر المعنى، وهو في الأصل: جودة استعداد الذهن للاستنباط، والجمعُ أفهامٌ، وفهوم.

و "**حَجَبَه**" بمعنى: مَنَعَه؛ وهو فعْلٌ ماضٍ مِن (يحجَب، حجْبًا)، أي حَرَمه وستره، وجمعه حواجبٌ؛ فيكون مقصده السّيِّءُ وهو إدخاله عقله ورأيه في العلم المحظور سببًا لمنعه من خالص التوحيد.

و "**مرامُه**" أي مَقْصِدُه، ومَطْلَبُه، سببًا ومانعًا مِن إدراك كمال التّوحيد، وإدراك القول السّديد، والرّأي الرّشيد.

وأوّلُ الخيرات الّتي يَحْرُمُها بسبب خوضه وقصده في الباطل أنّه يُمْنَعُ عن "**خالص التوحيد**"، وخالص الشّيء تمامه، ونقاوته، وكماله، وعلامة خلوص التّوحيد ترك الشّوائب في الشّرك العمليّ، وترك الشّوائب في الشّرك العقائديّ، وترك الشّوائب في مسائل القدر، بحيث لا يرى إلا فعل العزيز المقتدر؛ فإنْ وصل إلى الإخلاص، حصَّل "**صافي المعرفة**".

و "**التّوحيد**" تفعيل مِن (وحّد، يوحّد، توحيدًا) إذا صيّر الشيء واحدًا، أو اعتقده واحدًا، والمرادُ هنا: التوحيد بكلّ أنواعه؛ فإنّه لا يمكن إدراك الإخلاص فيه إلّا بالاتباع لا بالابتداع، لا يمكن نيل المراتب العلية فيه إلا بالانقياد

والتسليم.

وإن لم يصل إلى الإخلاص فإنّه يحرم عن **"صافي المعرفة"**، وهو نقاوته وخلاصته مِن كلّ كدرٍ، وهذا يعني أنّه صار يشرب من منبعه الكتاب والسنة بلا شائبة، ولا كدورة.

و **"صافي"** وصفٌ مِن (صافٍ) وهو الوضوح واللمعان، والصّافي من كل شيءٍ نقاوته وخلاصته.

و **"المعرفة"** جمعُ معارِف، والمراد هنا علامات المعلومات، ومميزاتها، وهو إدراك الشيء على حقيقته؛ وعلى هذا فهو بمعنى العلم.

فإن قيل: فما أقسام العلم الديني بحسب أوصافه؟

فالجواب: العلم الدّيني بحسب أوصافه ينقسم إلى ثلاثة أقسام:

القسم الأوّل: العلم الشّرعي الصّافي، وهو ما خلا من البدع، والشّوائب، وهو علم السّلف، ومن سار على نهجهم من الخلف، ومنبعه المعين؛ الكتاب والسّنّة على فهم سلف هذه الأمّة.

القسم الثّاني: العلم المشوب بالشّرع، الملتصق به، وهو ما عليه أهل البدع، حيث خلطوا العلوم الشّرعية ببدعهم الكلاميّة، أو بأذواقهم الوجديّة، أو بعاداتهم الأبويّة أو القبليّة أو القرويّة، وسياساتهم الدنيويّة، ومصالحهم الحزبيّة، ومآربهم الشّخصيّة.

القسم الثّالث: العلوم الّتي تسمَّى دينية، ولا أصل لها مُنَزَّل؛ كالعلوم المخترعة

مع نسبتها إلى الدين؛ كالمنطق، والفلسفة، وعلم التّصوّف، والعلوم الكفريّة، والشّركيّة، والمبدَّلة؛ كعلوم البوذيّة، والنّصرانيّة، واليهوديّة، ونحوها.

ومتى وصل المسلم إلى خالص التّوحيد، وصافي المعرفة، نال المراتب العالية في الدّين، وصار **"صحيح الإيمان"**، وإلا فإنّه لا يكون **"صحيح الإيمان"**.

و **"صحيحُ الإيمان"** هو الخالي من العيوب والأمراض، و **(الصّحّة)** تطلق على صحة الأبدان، فيقال: فلان صحيح البدن، وتطلق على صحّة المعاني؛ فيقال: فلانٌ صحيح القلب، صحيح الإيمان، أي سليم الإيمان، من عيوب الشّرك، والبدع، والمخالفات المنهجيّة؛ فيكون مقبول الإيمان من حيث الأثر، مثابًا عليه من حيث الجزاء، ثابتًا من حيث الدوام والطاعة.

وإن لم يكن **"صحيح الإيمان"**؛ فإنّه يكون منغوصًا في إيمانه، كحال أهل البدع، معلولًا بالغلوّ أو الجفاء، ولهذا لا يجد صاحبه الثبات؛ بل يكون حاله التذبذب؛ **"فيتذبذب بين الكفر والإيمان"**.

و**(التّذبذب)**: الاضطراب، وعدم الثّبات، والتّردد بين أمرين، ومن كان مُذَبْذَبَ الإيمان؛ فإنّه يميل تارة إلى الكفرِ وأصوله وشعبه، وتارة إلى الإيمان وأصوله وشعبه، ولهذا لا تكاد تجده مستقرًّا على رأي؛ فتراه تارة خارجيًّا، وأخرى معتزليًّا، وأخرى منافقًا، وهكذا يكون مُتذبذِبًا حتّى يتوب ويرجع إلى خالص التوحيد، وصافي المعرفة، أو يبقى على هذا المنوال، مترددًا بين **"التّصديق والتّكذيب"**؛ فهو في أحواله دائرٌ بين العلم بالإيمان وقبوله، وبين

جحد الإيمان وردِّه.

و **"التّكذيب"**: مصدرٌ مِن (كَذَّبَ، تكذيبًا) أي أصبح يُظهر التّكذيب للإيمان، أو بعض أصوله ومعانيه وشعبه.

وهذا بخلاف أهل خالص التوحيد؛ فإنّ إيمانه راسخٌ لا يعرف التّكذيب، وأمّا مَن صار إيمانه دائرًا بين الكفر والإيمان، والتّصديق والتّكذيب؛ فإنّه يكون متذبذبًا بين **"الإقرار والإنكار"**؛ فهو تارة يُقِرُّ، وتارة يُنْكِر، تارة يَقْبل ويَذْعن، وتارة يَجحد.

و**"الإقرار"**: الاعتراف بالشّيء، والثّبات عليه، والاستكانة بالحقّ وإليه، ومطمئنًّا قارًّا ثابتًا، وهذا حال المؤمنين، وأما من لم ينتهج نهج السلف في الاعتقاد فإنّه يدور إيمانه بين **"الإقرار والإنكار"**؛ فتارة يَعترف ويُقرّ، وتارة يَجحَد ويَفِرّ.

و **"الإنكار"** مصدرٌ مِن (أنكر، ينكر، إنكارًا) بمعنى الجحد، والجهل، وعدم الاعتراف بالثّابت، فإذا صار كذلك تجده حينها **"مُوَسْوِسًا"**؛ فهو في نفسه مُوَسْوِسٌ يتكلّم بكلام خفيٍّ مختلطٍ غير مبين، ويتكلّم بشرٍّ، وبما لا نفع فيه ولا خير، وذلك لأنّه مُوسوِسٌ بما يمليه عليه عقله، وما يلقيه عليه شيطانه وقرينه، وصار مستسلما لوساوس العقول، ووساوس النفوس؛ لأنّه لم يجعل الكتاب والسّنّة حاكمًا؛ فصار محكومًا بالوساوس الّتي تظهر من علقه، أو من نفسه، أو من كبرائه، من شياطين الإنس والجنّ.

وأمّا أهلُ خالص التّوحيد فإنه ليس عليه حاكمٌ إلا النصوص الشّرعية؛ فلا يجد أهلُ الوساوس العقلية، أو أهل الوساوس الذوقية عليه سبيلًا، ولذلك تجده عالمًا بما يعتقد، عارفًا بإيمانه، راسخًا، بخلاف أهل البدع؛ الذين وقعوا في الوساوس، الّتي قال الله عنها: ﴿ٱلَّذِى يُوَسْوِسُ فِى صُدُورِ ٱلنَّاسِ﴾ [سورة الناس، من الآية:٥]؛ فإنه يكون موسوِسًا **"تائِهًا"**.

و(**التّائه**): الضّائعُ الّذي لا يعرف طريقه، ويُطلَق على الضّالِّ الّذي لا يعرف الحقّ والثّبات عليه، وعلى المتكبِّر عن الحقّ الّذي لا يريد الإذعان للحقّ وقبوله، وهذا حال المخالفين لمنهج أهل السّنّة والجماعة؛ فإنهم يعيشون في ضلالة في دينهم، وردٍّ للحقّ، وتكبُّرٍ على النّصوص، وفي قلوبهم لا تجد القرار والطّمأنينة؛ بل تجده **"شاكًّا"**، أيْ مُتَرَدِّدًا بين القبول والرّدّ، وبين التّصديق والتّكذيب، وبين الإيمان والكفر؛ فلا تعرف من تقعيداته، ومن أقواله، وأعماله هل هو مؤمن مُصدِّقٌ، أو منافقٌ كاذِبٌ، وهذا يظهر على لسانه، وقد يظهر على حاله؛ فتجده: **"لا مؤمنًا مُصدِّقًا، ولا جاحدًا مُكَذِّبًا"**.

و(**المؤمن المصدِّق**): هو الّذي جمع بين الإقرار والتّصديق، بين القبول والانقياد، بين العلم والعمل.

و(**الجاحد الكاذب**)، هو الّذي جمع بين الإنكار والتّكذيب، وبين الرّدّ وترك العمل، وبين الكفر والنّفاق.

وأصل الـ **"جاحد"** اسمُ فاعلٍ مِن (جحدَ، يجحد، جحدًا)، وهو النّاكرِ

للجميل، الكافر بالحقّ، العاقّ للحقوق، الرّادّ للمعروف، وهذا حال المكذِّبين، وهم: الذين يعتبرون نصوص الأنبياء أساطير، وأقوالهم غير مفيدة لليقين، ودلائلهم غير كافية للإيمان، وهم المنكرون للحقّ، المحجمون عن الإيمان.

وخلاصة مراد المصنّف رَحِمَهُ ٱللَّهُ: يتجلى في تقرير منهج أهل السنة والجماعة في الأسماء والصّفات وذلك بالوقوف على النص وَفق مراد الله عَزَّوَجَلَّ، ومراد رسوله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وأنْ لا نخوض فيما لا نعلم معناه من عند أنفسنا، وأنَّ كلّ ما صح في الأحاديث فإنا نقبله على مراد رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ولا نُؤَوِّلُ بعقولنا مرادَ الله عَزَّوَجَلَّ ومراد رسوله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ولا نَصْرِفُهَا عن ظاهرها اللائق بها، ولا نُكَيِّفُ هذه الصّفات بأهوائنا ولا نمَثِّل؛ بل يجب التسليم للنص حتّى يسلم إيماننا، ونردّ المتشابه إلى المحكم، ونرد ما قصر فهمنا عنه إلى الله عَزَّوَجَلَّ فيما لم ندركه، ومِن تمام التسليم وكمال الإسلام الانقياد لله عَزَّوَجَلَّ، والمتابعة لرسوله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فيما ورد في هذا الباب، واتباع منهج سلف هذه الأمّة.

ومن الخصائص في هذا الباب أنَّ مَن خاضَ فيما مُنِعَ مِنْهُ، وقاس بعقله، حُجِبَ عن التَّوحيد، أو عن كماله، وأنَّ أكثر تذبذب المتكلمين بسبب الخوض فيما نهو عنه، قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يَأْمُرُكُم بِٱلسُّوٓءِ وَٱلْفَحْشَآءِ وَأَن تَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [سورة البقرة، من الآية:١٦٩]، وقوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱدْخُلُوا۟ فِى ٱلسِّلْمِ كَآفَّةً وَلَا تَتَّبِعُوا۟ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ ۚ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾ [سورة

البقرة، من الآية:٢٠٨]، ولهذا نرى الشك في قلوب المخالفين لمنهج السلف مما يؤدي بهم إلى التكذيب أو الجحود، ما لم يتداركهم رحمة الله، وقد رجع بعضهم إلى الاستسلام للنص مثل الجوينيّ، والغزاليّ، والرّازيّ، ونحوهم، ولم نر رجلًا مُتَّبعًا لِلسُّنَّة عالمًا بها قد سار إلى طريقهم، والحمد لله ربّ العالمين.

[الإيمان بصفات الله تعالى إيمان وجود لا إيمان تكييف]

وَلَا يَصِحُّ الْإِيمَانُ بِالرُّؤْيَةِ لِأَهْلِ دَارِ السَّلَامِ؛ لِـمَنِ اعْتَبَرَهَا مِنْهُمْ بِوَهْمٍ، أَوْ تَأَوَّلَهَا بِفَهْمٍ، إِذْ كَانَ تَأْوِيلُ الرُّؤْيَةِ -وَتَأْوِيلُ كُلِّ مَعْنًى يُضَافُ إِلَى الرُّبُوبِيَّةِ- إِلَّا بِتَرْكِ التَّأْوِيلِ، وَلُزُومِ التَّسْلِيمِ، وَعَلَيْهِ دِينُ الْمُرْسَلِينَ .

الشرح

هذا رجوعٌ من المصنّف رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالى إلى الحديث عن مسألة رؤية الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ، وذلك بدفع الشُّبَه عن هذه المسألة، وبيان طريقة أهل السنة في إثباتها، وأنّ رؤية الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ لا تصحّ إلا بإثبات النّصوص كما وردت.

قوله: **"ولا يصح الإيمان بالرؤية لأهل دار السلام لمن اعتبرها منهم بوهم"**؛ فيجب الإيمان بدون كيفٍ، ولا تكييفٍ؛ فنقولُ كما جاء في النّصوص: إن الله تعالى يرى يوم القيامة، ولا نخوض في أكثر من ذلك، ونثبت الرؤية لأهل **"دار السّلام"** بلا تخييل، أو توهُّمٍ؛ فكما نعلم أنّ الله تعالى له ذاتٌ ولا نعلم كيف؛ فكذلك نستيقن بأنّ الله تعالى يُرَى بأبصار العيون، وأنّه تعالى يُرى وهو في عُلُوّه، ولا يقدرُ العبيد أن يُكَيِّفُوه؛ لما له من الجمال والجلال، والوحدانيّة والأحديّة والصمديّة.

و**"أهل دار السلام"**: هم أهل الجنّة، وأصحابها الذين دخلوها فلا يخرجون منها أبدًا.

و**"دار السلامِ"** اسمٌ من أسماء الجنّة، كما قال تعالى: ﴿لَهُمْ دَارُ ٱلسَّلَٰمِ عِندَ

رَبِّهِمۡ﴾ [سورة الأنعام، من الآية:١٢٧]، وسميت الجنّة بـ(**الدار**)؛ لأنّـها تحيط بأهلها؛ فهي كالدّار تحيط بأهلها، وتدور عليهم مِن جوانبها، وهذا يُثْبِتُ فلكيّتها، وأنّـها مدوّرة الجوانب والأطراف.

وأضيفت إلى "**السلام**"؛ لأنها سالمة من كلّ عيبٍ، ومن كلّ كدرٍ، ومن كلّ نقصٍ، ومن كلّ حَزَنٍ وغمٍّ، ولهذا قال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يَدۡعُوٓاْ إِلَىٰ دَارِ ٱلسَّلَٰمِ وَيَهۡدِي مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ﴾ [سورة يونس، من الآية:٢٥].

أو أضيفت إلى "**السّلام**" الذي هو اسمُ الله تعالى؛ لأنّه داره؛ فلا ينازعه في ذلك أحدٌ كما يفعل الملوك الفجرة في الدار الدنيا، وتكون إضافة الدار إلى اسمه السلام من باب إضافة التخصيص والملكية.

وإجماع المسلمين قبل وجود أهل البدع، وإجماع أهل السنة والجماعة منعقِدٌ على أنّ لله تعالى يُرى في الجنّة بالأبصار، للأدلّة السابقة، وذلك دون مزاحمة فلا يضمُّ بعضهم إلى بعضٍ، ولا مضرَّةٍ فلا يلحق أحدٌ منهم ضرٌّ، لا في أبصارهم، ولا في أنفسهم، ولا يضاهون فلا يشتبه عليهم الأمر، كما جاء في حديث جَرِيرٍ رَضِيَٱللَّهُعَنۡهُ قَالَ: كُنَّا جُلُوسًا عِنْدَ النَّبيّ صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ إِذْ نَظَرَ إِلَى القَمَرِ لَيْلَةَ البَدْرِ قَالَ: "**إِنَّكُمْ سَتَرَوْنَ رَبَّكُمْ كَمَا تَرَوْنَ هَذَا القَمَرَ، لاَ تُضَامُونَ فِي رُؤْيَتِهِ، فَإِنِ اسْتَطَعْتُمْ أَنْ لاَ تُغْلَبُوا عَلَى صَلاَةٍ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ، وَصَلاَةٍ قَبْلَ غُرُوبِ الشَّمْسِ، فَافْعَلُوا**" [متفق عليه].

فهذه الرؤية فيها تشبيه فعل المكلفين بفعلهم في الآخرة، من حيث كونهم يرون

كما يرون، وليس المقصود بالإجماع تشبيه المرئي بالمرئي، والله تعالى ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَيْءٌۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [سورة الشورى، من الآية:١١]، ولهذا لا يجوز إنكار هذه الرؤية الثابتة، وردها؛ كما فعل ذلك المؤوِّلةُ، وصاروا يَرُدُّون هذه الأحاديث؛ لأنهم فهموا من الرؤية بفهومهم ما قد يُتَؤَوَّلُ بالأفهام من المرئيات، ولهذا قال المصنّف رَحِمَهُ ٱللَّهُ منكرًا عليهم: **"أو تأوّلها بفهم"** أي فهمٍ كان من فهوم المعطّلة، أو المشبِّهة، وإنما الرُّؤية تثبت كما جاء في النّصوص؛ على مرادها يوم نزولها، وفي عرف النّزول، ولهذا قال المصنّف رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **"إذ كان تأويل الرؤية -وتأويل كلّ معنىً يضاف إلى الرّبوبيّة- بترك التّأويل ولزوم التّسليم، وعليه دين المسلمين"**؛ فهذا نصٌّ بوجوب إمرار نصوص الصّفات على ظاهرها اللّائق بها، وترك التّأويلات، والانقياد والتّسليم للنّصوص، وهذا هو الّذي عليه كان دين المسلمين، وعليه ثبات دينهم.

ويستفاد من كلام المصنّف رَحِمَهُ ٱللَّهُ قاعدة، وهي: أن كلّ معنىً يضاف إلى الرّبوبيّة فإنّ الواجب إثباتها بدون تأويل، وهذا يستفاد منه أمران:

الأمر الأوّل: أنّ المعاني المضافة تكتسب معاني المضاف إليه، وهو الله تعالى؛ فحينئذٍ لا تكون مُطْلَقة، ومثال ذلك **(الرّؤية)**؛ فإنّها عند الإطلاق يؤدّي معنى الإبصار، والنّظر، وعند الإضافة تختصّ بما أضيف إليه؛ فإنْ قلنا: (رؤيةُ المنامِ) تغيّر المعنى، وإن قلنا: (رؤية الخيال) تغيّر المعنى، وإن قلنا: (رؤية الهواء) تغيّر المعنى، وإن قلنا: (رؤية الملَك) تغيّر المعنى، وذلك بسبب تغيّر المضاف إليه،

وهكذا عندما نقول: (رؤيةُ اللهِ تعالى)؛ فهي مضافة مخصوصة لله تعالى؛ فتكون مختصّة به عند الإضافة، وفيها إثبات المعنى والخصوصيّة؛ فلا يتصور الاشتراك بعد الإضافة.

ومثال آخر (**اليد**)؛ فإن قيل: (يد النّملة) اختصت بها، وإن قيل: (يدُ زيدٍ) اختص به، وإن قيل: (يدُ الجنِّ) اختصّ به، وإن قيل: (يدُ الملَك) اختص به، وإن قيل: (يدُ الله تعالى) فهي أخصّ مِن أي اشتراك؛ لأنّ المعاني المضافة إلى الرّبوبيّة خاصّة بالرّبّ تَبَارَكَوَتَعَالَىٰ.

الأمر الثّاني: أن المعاني المضافة إلى الله تعالى يجب إثباتها بدون تكييف، أو تـمثيل، ولا تعطيل، أو تأويل.

ومَن لم يفهم الفرق بين المعنى الكلّي، والمعنى المطلق، والمعنى المضاف، المعنى المختص بالإضافة؛ فإنّه لا يفهم معاني الكلمات، ولا معاني العبارات؛ فهو بحاجة إلى العلم منه إلى التّصدر والكلام.

وقوله: **"إذ كان تأويل...بترك التأويل"**، (**التأويل**) في اللغة مصدرٌ مِن (أوَّل) الشَّيءَ (يُؤَوِّلُ، تأويلًا)، أي رجَّع الشيء يُرَجِّعُ ترجيعًا، وتأويل الكلام ما رجع إلى معناه، مما لم يكن ظاهرًا في بادئ الأمر، وقد يكون لكلام المتكلم معنىً ظاهرًا، ومعنى آخرَ غير ظاهرٍ، ويقصده المتكلم، أو يفهمه السامع، أو يكون راجعًا إلى كيفيّات المعاني، أو مآلات الأخبار، هذا في اللغة.

فإن قيل: فما اصطلاحات التأويل المستخدمة؟

فالجواب: أنّ التأويل بحسب العرف المستخدم له ثلاثة اصطلاحات، وهي:

الاصطلاح الأوّل: اصطلاح السلف؛ فهم يعنون بالتأويل: التفسير، ومنه قولهم: ابنُ عباسٍ أعلم بالتّأويل، وقول ابن جرير: والتّأويل في الآية، أي التفسير فيها، وهذا المعنى يَعْلَمُه كلّ مفسِّرٍ بحسب عِلْمِه ودرجته في التّفسير، وعليه قراءة الوصل: ﴿وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُۗ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ﴾ [سورة آل عمران، من الآية:٧].

ويعنون به أيضًا: حقيقة الشيء، وما يؤول إليه، وماهيته، وهذا المعنى متصور عندهم في جانبين:

الجانب الأول: جانب امتثال الأمر والنهي؛ فيكون بمعنى إيجاد الأمر، وترك المنهي عنه، ومن ذلك لما نزل قوله تعالى: ﴿فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَٱسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابًۢا﴾ [سورة النصر، من الآية:٣]، قالت عَائِشَةُ رَضِيَ اللَّهُ عَنهَا: كَانَ النَّبيّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ يُكْثِرُ أَنْ يَقُولَ فِي رُكُوعِهِ وَسُجُودِهِ: **"سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ رَبَّنَا وَبِحَمْدِكَ اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِي، يَتَأَوَّلُ القُرْآنَ"** [متفق عليه]، أي يوجد الأمر امتثالًا.

الجانب الثاني: وقوع حقائق الأخبار بعدَ زمنٍ؛ فيكون ذلك الوقوع تأويلًا لذلك الكلام؛ كما قال تعالى: ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُۥ ۚ يَوْمَ يَأْتِى تَأْوِيلُهُۥ﴾ [سورة الأعراف، من الآية:٥٣]؛ فالمراد حقيقة ما تؤول إليه وقوعًا مِن أخبار القيامة، وهكذا كلّ مغيَّبٍ.

الاصطلاح الثّاني: اصطلاح المتأخرين؛ فهم يعنون بالتّأويل: صرف اللفظ عن الاحتمال الراجح إلى الاحتمال المرجوح لدليل، وهذا التأويل من حيث الحكم على نوعين:

النوع الأول: صحيح، وهو ما كان محتمِلًا، ووُجِد الدّليل الصّحيح له، مثال ذلك قوله تعالى: ﴿وَصَلِّ عَلَيۡهِمۡۖ إِنَّ صَلَوٰتَكَ سَكَنٞ لَّهُمۡ﴾ [سورة التوبة، من الآية:١٠٣]، يحتمل أن يكون المراد صلاة الجنازة، ولكنّ سبب النّزول يبين أنّ المراد دعاؤه صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَسَلَّمَ لِمَن جاءه بالزكاة؛ فالثّاني محتمِلٌ مرجوح لكنّ الدليل جعله راجحًا؛ فقيل به.

النوع الثّاني: باطلٌ؛ وهو ما كان في نصٍّ غير محتملٍ، أو بلا دليلٍ؛ فيكون من جنس التحريف، ومن جنس أقوال الباطنيّة في كتاب الله تعالى.

مثال الأول: قول أهل البدع في أنّ العلو في قوله تعالى: ﴿يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوۡقِهِمۡ﴾ [سورة النحل، من الآية:٥٠]، أنّ المقصود فوقية القدرِ، وينكرون فوقيّة الذّات؛ فهنا اللفظ لا يحتمل هذا المعنى؛ لأنّ القَدْرَ لا يختلف كونه يخاف مِن فوق أو مِن مساوٍ أو مِن تحت؛ فعلم أنّه نصّ في أنّ المراد به علوّ الذّات، وهذا لا ينفي تضمنه علو القهر والغلبة والقَدْرِ. ثم ليس هناك دليل صحيح من القرآن ولا من صريح العقل ما يمنع من إثبات العلوّ لله تعالى؛ بل الأدلة تؤيد المعنى الراجح الّذي تركوه؛ كقوله تعالى: ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ ٱسۡتَوَىٰ﴾ [سورة طه، من الآية:٥]،

وقوله: ﴿ءَأَمِنتُم مَّن فِي ٱلسَّمَآءِ﴾ [سورة الملك، من الآية:١٦]، ونحو ذلك من الأدلة الكثيرة المتوافرة، وعلى هذا المعنى تفاسير السلف، ولم يعرف التفسير التأويلي إلّا بعد مضي خير القرون.

مثال الثّاني: قول أهل البدع في أنّ عموم قوله تعالى: ﴿قُلِ ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَيۡءٖ وَهُوَ ٱلۡوَٰحِدُ ٱلۡقَهَّٰرُ﴾ [سورة الرعد، من الآية:١٦]، يدخل فيه صفاتُ الله تعالى؛ فهذا تأويلٌ بلا دليلٍ، وذلك لأنّ قول من قال إنه يدخل فيه صفاتُ الله مساوٍ لقول من قال إنّ الله يدخل في هذا العموم!؟ وهذا القول بطلانه ظاهرٌ من جهة أنّ عموم هذه الآية إنما هي في المخلوقات، والمعنى كما هو في تفاسير السلف: بيّن لهؤلاء المشركين أن كلّ شيءٍ مخلوقٍ في الوجود فالخالق له هو الله تعالى.

الاصطلاح الثّالث: اصطلاح الباطنيّة، وأهل البدع؛ فإنهم يؤولون المعاني النّصّيّة إلى ألغازٍ وأحاجي؛ بل ويُحِيلون كلام الله تعالى إلى ما لا يكون مقبولًا عند أدنى مَن له عناية باللّغة العربيّة؛ كقولهم: إن الصلاة صلةُ مشايخهم، وإن الحجّ قصد قبور أوليائهم، ونحو ذلك مما يعلم بطلانه بضرورة النّصّ والنّقل، وضرورة الفهم والعقل.

ثمّ إنّ ضلال الْمُؤَوِّلَة لا نهاية له؛ فكل واحدٍ منهم سيؤول بما يراه عقله هو؛ فيكون الحاكم على النصوص عقول النّاس، وهذا تلاعب بالدّين؛ كتلاعب اليهود والنصارى، إن لم يكن أشد؛ فالواجب الحذر من مسلك التّأويل والْمُؤَوِّلة، وإثبات ما جاء في النّصوص بفهم السلف، بدون تشبيهٍ أو تمثيلٍ؛

فنَسْلَم مِن ضلالتي؛ التّعطيل، والتّمثيل.

قوله: "**وعليه دين المرسلين**" وفي بعض النسخ "دين المسلمين"، والمعنى متلازمٌ فإنّ ما كان عليه المرسلون هو الذي ينبغي أن يكون عليه المسلمون، وما كان عليه المسلمون من النص الثابت هو الذي كان عليه المرسلون، لا سيّما في باب العقائد؛ فإنه لا اختلاف بين المرسلين في هذا الباب، وإذا تقرر أنّ دين المرسلين مبنيّ على التسليم، وعلى الانقياد، دون التعطيل ودون التشبيه، وجب السير على طريقتهم، والاتباع على منوالهم.

[صفات الله تعالى دائرة بين الإثبات ونفي المماثلة]

وَمَنْ لَمْ يَتَوَقَّ النَّفْيَ وَالتَّشْبِيهَ، ضَلَّ وَزَلَّ وَلَمْ يُصِبْ التَّنْزِيهَ، فَإِنَّ رَبَّنَا جَلَّ وَعَلَا مُوْصُوفٌ بِصِفَاتِ الْوَحْدَانِيَّةِ، مَنْعُوتٌ بِنُعُوتِ الْفَرْدَانِيَّةِ، لَيْسَ فِي مَعْنَاهُ أَحَدٌ مِنَ الْبَرِيَّةِ، تَعَالَى اللهُ عَزَّوَجَلَّ عَنِ الْحُدُودِ وَالْغَايَاتِ، وَالْأَرْكَانِ وَالْأَعْضَاءِ وَالْأَدَوَاتِ، وَلَا تَحْوِيهِ الْجِهَاتُ السِّتُّ كَسَائِرِ الْمُبْتَدَعَاتِ.

الشرح

هذا تقرير من المصنف رَحِمَهُ ٱللَّهُ في بيان أنّ صفات الله تعالى دائرة بين الإثبات بلا تمثيل، وبين نفي المماثلة بلا تعطيل، وهذا هو طريقة القرآن والسنة، وطريقة سلف هذه الأمة، أنهم يثبتون الصفات مع بُعدهم عن التمثيل، ولا ينفونها مع بعدهم عن التعطيل؛ فإثباتهم للصفات إثبات وجود ومعنى، وليس إثبات توصيف وكيف ومغزى.

قوله: **"ومن لم يتوقّ النّفي والتّشبيه"** أي لم يَسِر بينهما، مجانبًا لهما، محذِّرًا من الضّلالتين كلاهما؛ ضلالة النفي، وضلالة التشبيه؛ فإنّه سيقع في ظلماتٍ وضلالات.

و **"لم يَتَوَقَّ"**: أي لم يتجنب، ولم يحذر، ولم يجعل بينه وبين الأمر حاجزًا، ولم يحافظ على البعد من الشيء.

و **"النَّفْي"** المراد به هنا: تعطيل معاني الصّفات، أو إنكار معاني الصّفات، وإنكار مدلولات ألفاظ آيات الصّفات.

و "**التّشبيه**" المرد به هنا: التّمثيل، وهو إلحاقُ أمرٍ بأمرٍ لصفة مشتركة بينهما، ولَمّا لَـمْ يكن بين الخالق والمخلوق صفة مشتركة مُطْلَقًا لم يصح تشبيه صفات الله تعالى بشيءٍ من المخلوقات، ولا بشيء من الخيالات؛ لأنّه سبحانه الأحد الصّمد العليّ الأعلى الأعظم.

ومن لم يترك التّعطيل، والتّمثيل؛ فإنّه لا ريب يقع في أحد الضلالتين، و "**زَلَّ ولم يُصِب التَّنزيه**"؛ لأنّ مَن لم يتوقّ ضلالة إنكار آيات الصّفات، وضلالة تمثيل معانِي الصّفات؛ فإنّه تزل قدمه فيقع في عمايةٍ، ويقع في حفرةِ الضلالات، ومن ذلك أنّه يَحْرُم الصواب، ولا "**يُصِب التّنزيه**": **وإصابة التنزيه**: الصّواب في القول في الصّفات، والصّواب فيما يتعقل باعتقاد معاني الصّفات، والصّواب في العمل بمقتضى هذه الصّفات، ومَن حُرِم هذه الإصابة؛ فإنّه لا "**يُصِبِ التّنزيه**"، و(**التنزيه**): إبعاد الشيء عن النقائص والعيوب، وعما يشانُ من الخطوب، والله تعالى منزَّهٌ عن كلّ عيب ونقصٍ؛ فإنّه حميدٌ مجيدٌ، فالواجب علينا مِن حقوقه أن نؤمن بالنصوص الواردة في حقه تعالى، مع اعتقاد أنها مختصة به؛ لكونها مضافة إليه، وأنها ثابتة على ما يليق بالله تعالى؛ "**فإن ربنا جَلَّوَعَلَا موصوف بصفات الوحدانية**"، وهذا نصٌّ من الإمام الطّحاويّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ أن الله تعالى يوصف بصفاتٍ قد وردت في الكتاب والسنة، وهذه الصّفات هي دالة على الوحدانية، وعلى كمال الألوهية، كما أنها دالة على الرّبوبيّة، وكمال العظمة والجمال والجلال.

و"**موصوف بصفات**" أي مَنْعُوتٌ بنعوتٍ، فله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ نعوت الكمال، وصفات الجلال، وأوصاف الجمال؛ وقد وصف الله نفسه بذلك في كتابه بقوله: {ذو الجلال والإكرام}؛ وقوله: ﴿ذُو ٱلْعَرْشِ ٱلْمَجِيدُ﴾ [سورة البروج، من الآية:١٥]، وقوله: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ﴾ [سورة الإخلاص، من الآية:١-٢]، وإقرار النّبيّ صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ لمن قال عن سورة الإخلاص: "**لِأَنَّهَا صِفَةُ الرَّحْمَنِ، وَأَنَا أُحِبُّ أَنْ أَقْرَأَ بِهَا**" [متفق عليه، من حديث عائشة رَضِيَٱللَّهُعَنۡهَا].

ومَن تأمل ما وصف الله تعالى به نفسه يجده راجعًا إلى أمرين:

الأمر الأوّل: صفات راجعة إلى الألوهية، وهي الّتي تدل على الجمال والجلال والعظمة؛ كالله، والحمد، والمجد، والعلو، والعظمة، ونحو ذلك.

الأمر الثّاني: صفات راجعة إلى الرّبوبيّة، وهي الّتي تدل على عظيم أفعاله، المختصة به، ككونه له: الخلقُ، والرَّزق، والْمُلْكُ، والتّدبير، ونحو ذلك.

وكل هذه الصّفات، وكلّ هذه النعوت دالة على وحدانيته، ولذلك قال المصنّف رَحِمَهُٱللَّهُ: "**منعوت بنعوت الفردانية**"، وذلك لأن صفات الألوهية كلها دالة على الفردانية من حيث الاستحقاق والوصف، وصفات الرّبوبيّة كلها دالة على الفردانية مِن حيث الذّات والوصف والفعل.

و "**الفردانية**": مصدرٌ صناعي من (**الفرد**)، وهو وصفٌ مِن أو أوصاف الله تعالى دال على وحدانية الذاتِ؛ فهو الواحد الّذي لا ثاني ولا شريك له في ذاته، ودال على وحدانية الكمال الوصفي؛ فهو الأحدُ الّذي لا مثيل له في ذاته وفي

صفاته، وفي أفعاله، ولهذا كان من أسمائه تعالى: الواحدُ الأحدُ.

وأمّا (**الفرد**) من حيث الاسم فلم يصح فيه حديثٌ، وإنّما يطلقه أهلُ العلم مِن باب الخبر عن معنى الأحدِ والواحدِ.

وإذا قلنا: إنّه سبحانه له الفردانية؛ فبهذا ينقطع كلّ معنى من معاني التّشبيه لأنّ الصّفات قد أضيفت إليه سبحانه؛ فلا يكون مِثْلُ شيءٍ مِن الخليقة؛ ولهذا قال المصنّف رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **"ليس في معناه أحد من البريّة"**؛ فليس في معنى الله تعالى أحدٌ من البرية، لا في ذاته، ولا في أسمائه، ولا في صفاته، ولا في أفعاله؛ فهو سبحانه الأوّل والآخر، وكلّ ما سواه مخلوقٌ محدَثٌ.

وخلاصة كلام المصنّف رَحِمَهُ ٱللَّهُ: أن صفاتِ الله تعالى يجب إثباتها بلا تمثيل، ويجب تنزيهها بلا تعطيل، وقد ذكر من الصفات ما يتعلق برؤية الله تعالى وأنها ثابتة، لكنّا لا نتصوره بعقولنا ولا بأهوائنا، بل نثبت الرؤية حقيقية بلا تأويل؛ فترك التأويل واجب، والإيمان بالنص واجب، ونثبت هذه الرؤية بلا تعطيل ولا تشبيه، وهذا هو طريق التنزيه؛ لأن الله تعالى موصوف بصفات منعوت بنعوت، ليس في ذلك كأحد من البرية؛ فلا يقاس بخلقه، ولا يقاس خلقُه عليه، قال الله تعالى: ﴿وَلَهُ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [سورة الروم، من الآية:٢٧]، أي: الّذي لا يشركه أحد في أوصافه ونعوته.

وقد ضل في هذا الباب طائفتان:

الطّائفة الأولى: المعطّلة: فإنّهم غلوا في التّنزيه، ونفوا الصّفات؛ وأخذوا بأوّل

قوله تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾، وتركوا آخره ﴿وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾.

الطائفة الثّانية: المشبِّهة: فإنّهم غلوا في الإثبات، ونفوا التّنزيه؛ فأخذوا بقوله تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [سورة الشورى، من الآية:١١]، ﴿وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾، وتركوا أوّله ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾.

والحقّ الإثبات بلا تعطيل، والتّنزيه بلا تمثيل، والأخذ بالآية بتمامها، قال الله تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [سورة الشورى، من الآية:١١].

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "**تعالى الله عَزَّوَجَلَّ عن الحدود والغايات**"؛ أي أنّ الله تعالى فوق أنْ يُحَدّ بحدٍّ، أو تُدرِكه غاية، ومعنى "**تعالى**": أي ارتفع وترفَّع، وسَلِم من كلّ نقصٍ وعيبٍ، وله الكبرياءُ والرِّفعةُ، فله العلوُّ الذّاتيُّ والقَهْرِيُّ والقَدْرِيُّ؛ فهو مُنزَّه عن كلّ عيب مما قد يكون في الذّات، أو في الصّفات، أو في الأفعال، أو في الحكمة والقَدَرِ.

ولَمّا كان الله تعالى مُترفِّعًا عظيمًا عن كلّ نقصٍ وعيب؛ فإنّه سبحانه فوق "**الحدود**"، أي فوق ما ينتهي إليه المنتهون، وفوق ما قد يحدُّه به الحادُّون؛ فلا حدّ لكرمه، ولا حدّ لبدئه، ولا حدّ لأي كمال مِن كمالاته، وكذلك هو سبحانه لا يُحْجِزه شيءٌ عن شيءٍ؛ فلا حدود تمنعه عن شيءٍ، ولا غاية لقوته، وسمعه وبصره وعزّته.

وإذا قيل: إنه سبحانه "تعالى عن الحدود" فمعناه أنّه لا يمكن إدراكه تعالى

إدراك إحاطته؛ كما قال تعالى: ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِهِۦ عِلْمًا﴾ [سورة طه، من الآية:١١٠]؛ فلا يمكن لأحدٍ أن يبلغ في علمه بالله تعالى المنتهى؛ بحيث يكون الله تعالى وَفْقَ ما علمه فقط؛ وذلك لأنّ الله تعالى هو الّذي خلق هذه الحدود؛ فهو سبحانه فوق ذلك، لأنّ الله جلّ في علاه هو فوق المخلوقات، وهذه الفوقية الذّاتيّة والقهريّة والقَدريّة.

وهل يقال: إنّه فوق المخلوقات بحدٍّ، أي أنّه مُنفصلٌ عن المخلوقات؛ وبينه وبين المخلوقات فاصِلٌ؛ هذه اللفظة لم ترد في كتاب الله تعالى، ولا في سنّة رسوله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ؛ ولذلك اختلف فيه علماء السلف؛ فمنهم من أثبته ومراده أنّ الله تعالى له حدٌّ هو يعلمه، وهو محيطٌ بنفسه، وأنّه فوق المخلوقات، وهذا بخلاف المعتزلة.

ومِن علماء السلف مَن نفى الحدّ، ومرادهم: أنّه لا يمكن لأحدٍ أن يحيط بالله تعالى، وأن يعلمه علم إحاطةٍ، وهذا بخلاف مّن زعم الحقائق مِن أهل التّصوف وأنهم يحيطون بالله علمًا، تعالى الله عن ذلك علوًّا كبيرًا.

فمهما أوتي الإنسان من علمٍ فإنه لا يقدر أن يَحُدّ اللهَ تعالى، أو أن يجعل له حدّا تعريفيًّا من الجنس والنوع -عياذًا بالله تعالى-، أو حدًّا عقليًّا، أو حدًّا ذوقيًّا، أو حدّا خياليًّا، أو حدًّا لغويًّا، ولهذا قال إمام النحوِ سيبويه: (اسْم الله تَعَالَى أعرف المعارف)، وذلك لأنّ الله تَبَارَكَوَتَعَالَىٰ فوق الحدود التّعريفيّة للبشر، وفوق الحدود التّصوريّة لهم.

فكذلك هو سبحانه فوق الحدود البشرية، وفوق **"الغايات"** النّهائيّة، و**(الغايات)** جمع غاية، و**(الغاية)** أو الغايات لها عدة معانٍ، **منها**: الأعلام الدالة على الشيء. ونهايات الأشياء. والمقاصد الّتي لا مقصد بعدها. ونهاية الطاقة والوسع. والنّظر إلى الأمور البعيدة؛ فهذه المعاني بعضها في حق الله تعالى منفية؛ فإنّه سبحانه لا أحد يصل إلى نهاية مِن حيث العلم به، أو الإحاطة، ولا يمكن لأي إنسان مهما كان قصده أن يصل إلى مرتبة الإحاطة بالله تعالى؛ لأنّ المخلوق لا يمكنه أن يَحُدّ أو أن يُغَيَّا الخالقَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى، ومهما أوتي العبد مِن بعدٍ في النظر فإنّه لا يقدر على أن يحيط بالله تعالى.

وأما الأعلام الدّالّة على الله تعالى؛ فهي كثيرة، ولكنّها لا تحيط به سبحانه، وإنّما تدلّ عليه، وترشد إليه، ومن هذه العلامات: الخلقُ؛ فإن المفعول يدل على الفاعل، كما أن الفعل يدل على الفاعل.

والآثار المتنوعة في المخلوقات دليل على ربوبية الله تعالى.

وكذلك التنوع؛ فكل حركة وسكنة فهي تدل على الله تعالى، وتشير إليه سبحانه.

والله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى كما أنه فوق الحدود والغايات البشرية؛ فإنه سبحانه فوق **"الأركان، والأعضاء، والأدوات"**، والأركان جمع رُكنٍ، ومقصود المصنّف رَحِمَهُ ٱللَّهُ أنّه سبحانه فوق أركان العناصر الأربعةِ؛ الماء، والهواء، والنّار، والتّراب، وهي الّتي يُسمّيها الطبائعيون والمناطقةُ: الأجسام البسيطة، الّتي منها

تركّب المواد، والأركان، وربما يطلق الرّكن ويراد به قوائم الشيء، وما عليه قيامه وقوامه.

وإذا تأملنا في هذه المعاني الطبعية؛ فإنّا يجب أن نعتقد ما ذكره المصنّف مِن أن الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ فوق هذه الأركان الّتي هي العناصر الأربعة؛ لأنها مخلوقة مصنوعة، والله تعالى لا يشبه المخلوقات، والمصنوعات.

والله تعالى ليس قوامه على شيءٍ، ولا قيامه بشيء خارجٍ عن ذاته؛ فإنّه سبحانه الغنيّ الحميد، وكلّ ما سواه فمفتقرٌ لا يكون لله نديد، فالله تعالى هو القيوم، القائم بذاته، القيوم لغيره.

وبهذا يُعلم صحّة مراد المصنّف رَحِمَهُ ٱللَّهُ مِن كلمة الأركان، وأما **"الأعضاء"** فجمع عُضْوٍ، وهو الجزءُ من الجسدِ؛ كاليد والوجه، والقَدم، ونحو ذلك.

ويدل كلام المصنّف رَحِمَهُ ٱللَّهُ بدلالة الاقتران أنّه يريد أن الله تعالى كما أنه ليس مِن هذه الأركان الأربعة المائيّة والهوائيّة والنّاريّة والتّرابيّة؛ فإنّه ليس مِثْلُهُم فيما ثبت له من الصّفات؛ فهو فوق الأعضاء المتصورة والموجودة في المخلوقات؛ فله يدٌ فوق أيادي المخلوقات، ووجه لا كوجههم، وتثبت له ما جاء من الصّفات الخبريّة بدون أن يحدّ بحدِّ المخلوقات، أو يُغَيَّا بغاية المشاهدات.

وهذه العبارة أيضًا من الملحوظات على كلام المصنّف رَحِمَهُ ٱللَّهُ فإنه كان الأولى به أن يُعبِّر في النّفي والإثبات بعبارات القرآن، وأن يترك المجمل من العبارات، حتّى لا يدخل منها أهل البدع، مِن جهة هذا الكلام المجمل؛

فيتسلطّون على نفي الصّفات.

فإن قال قائل: فما هي القاعدة المستخدمة في ألفاظ الصفات؟

فالجواب: أنّ القاعدة فيما نستخدم من الألفاظ في باب الصّفات هي:

أوّلًا: إثبات ما ثبت من الألفاظ، ومعانيها، مع نفي التشبيه والتمثيل، كالوجه واليد، والرحمة، والمجيء، ونحو ذلك.

ثانيًا: نفي ما نُفِيَ من الألفاظ، ومعانيها، مع إثبات كمال الضدِّ، كالفقر، والحاجة، والكفء، والمثل، ونحو ذلك مما جاء منفيا في الكتاب والسنة.

ثالثًا: ألفاظٌ لم ترد منفية ولا مثبتة؛ فهذه لا بد من التفصيل فيها، وعدم نفيها مجملة، ولا إثباتها مجملة، وهذه مثل: الحدِّ، والأعضاء، والمكان، ونحو ذلك؛ فيقال مثلًا: إن أردت بالمكان الشيء المخلوق المحدود فالله تعالى فوق ذلك، وإن أردت بالمكان أنّه تعالى فوق المخلوقات على العرش استوى فهذا حقّ لا مرية فيه، وقد ديل الكتاب والسنة والإجماع على ذلك، قبل وجود الجهمية والمعطلة.

وقوله عن الله تعالى أنه متعالٍ عنِ **"الأدوات"**؛ فمعنى الأدوات جمع أداةٍ، وهي ما يُعمل به الشّيء، من الآلات ونحوها؛ كأدوات البناء، والحراثة، وأدوات الرفع، ونحو ذلك؛ فالله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ متعالٍ عن هذه الأمور؛ فإنه سبحانه يفعل بلا أداةٍ؛ فقد بنى السّماء بلا أدوات بناء، وأخرج من الأرض الزرع بلا آلات حراثة، ورفع السّماء بغير عمدٍ نراها بلا أدوات رفعٍ، وهذا يدل أنه سبحانه

فوق مقاييس الخلقِ، وأنه جل في علاه أمره إذا أراد شيئًا أن يقول له: ﴿كُن فَيَكُونُ﴾ [سورة البقرة، من الآية:١١٧].

وقوله عن الله تعالى: **"لا تحويه الجهات الست كسائر المبتدعات"**؛ يدل على أنه سبحانه فوق المخلوقات، ليس داخل الجهات الست المخلوقة، وهذه الجهات الست المخلوقة هي: فوق وأسفل، وقدام وخلف، ويمين وشمال؛ فلما كان الحديث عمّا تعالى ربنا عنه، ناسب أن يذكر أنه تعالى متعالٍ عن الأشياء المخلوقة، ومنها هذه الجهات السِّتِّ، وذلك أن الله تعالى هو الّذي خلق المكان المكوّن من هذه الجهات السّت، وهو الّذي خلق الزمان المكون من الليل والنهار؛ فلا تجري عليه أحكام هذه الجهات المخلوقة، والزمن المكوّن، وهو سبحانه أخبر أنه: ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾ [سورة الأعراف، من الآية:٥٤]، وحتّى لا يظن ظان أنه خلق ذلك لِتُكنّه، أو لِتَحْوِيه، قال بعدها: ﴿ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ﴾ [سورة الأنعام، من الآية:٥٤]؛ فهو فوق المخلوقات، وهذه الفوقية، هو مطلقٌ لا يتعلق بالجهات المخلوقة النّسبيّة؛ فالله فوق المخلوقات مطلقًا، وهو سبحانه العليّ الأعلى ذاتًا ووصفًا، قَدَرًا وقُدْرَةً، وهو في السّماء أي في العلوِّ، وهو استوى على العرشِ، أي ارتفع وعلا واستقرّ؛ فهذا إثبات أنّه سبحانه فوق الجهات المخلوقة، وهو فوق المخلوقات كلها، والسّماء الدّنيا مخلوقة فالله فوقها، وليس أسفل السّماء الثانية... وإذا كانت السّماء السابعة

مخلوقة فالله تعالى فوقها، والعرش فوق السّماء السابعة، والله تعالى فوق العرش، وعليه استوى وارتفع؛ فهو فوق المخلوقات.

وعبارة المصنّف: **"لا تحويه الجهات الست"** الاحتواء معناه أن يكون الشيء ضمن الشيء، وأن تكون هذه المخلوقات محيطة به، متضمنة له، مشتملة عليه، وهذا مستحيل في حق الله تعالى، وهذا الّذي أراده المصنّف رَحِمَهُ ٱللَّهُ، وإن عبر عنه بلفظ مجملٍ؛ لكن إثباته للعلو صريح، وهذا قد يفهم منه نفي العلوّ المطلق، ولكن يجب دفع التناقض عن كلام المصنّف؛ ولهذا قلنا إنه أراد بالنفي هنا أن يكون الله تعالى مُحْتَوى في الأشياء المخلوقة، وأراد بإثبات علوه على عرشه إثبات فوقيته المطلقة على المخلوقات.

ومما يؤكّد أنه رَحِمَهُ ٱللَّهُ لم يرد نفي العلو بهذه العبارة بقدر ما أراد نفي المثلية للمخلوقات أنه قرن نفي الاحتواء باحتواءٍ كاحتواءِ سائر المبتدعات؛ فإنّه ما من شيء مخلوقٍ، إلا وهو في أحد الجهات السّتّ المخلوقة؛ فالسّماء الدّنيا فوق الأرض، وتحت السّماء الثانية، وأمامه شيء، وخلفه شيء، ويمينه شيء، ويساره شيء، والشمسُ فوقها أفلاك، وتحتها أفلاك، وأمامها أفلاك، وخلفها أفلاك، ويمينها أفلاك، وشمالها أفلاكٌ، وهذا شأن المخلوقات أنها محاطة بالجهات الست المخلوقة.

ويعلم عقلًا أنّ الذي ليس في الجهات السّتّ المخلوقة هو العدم، وأنّ الّذي في الجهات السِّتّ مُحتوى هو المخلوق، والّذي هو فوق الجهات الستّ المخلوقة

هو الخالق تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ، والله تعالى له العلو قبل خلق السماوات والأرض، واستوى على العرش بعد إيجاد السماوات والأرض، وهذا كله لبيان مباينته عن المخلوقات، وعلوِّه المطلق فوق الكائنات، ولهذا علوُّه من خصائصه، واستواؤه على العرش من أفعاله المختصة به، وفي هذا وفي كلّ وصفٍ وفعلٍ لا يُشْبِهُ شيئًا من **"سائر المبتدعات"**، وهي جمع **(مُبْتَدَع)**، وهي الأمور المخلوقة الّتي أوجدها الله تعالى، وأَبْدَعَها، وهو سبحانه بديع السماوات والأرض، وهو موجد المكان والزمان، وكان ولا زمان ولا مكان، وله الفوقية والعلوّ المطلق أزلًا وأبدًا، واستوى على العرش، ولما كان العرش أعلى المخلوقات كان الله فوقها لأنه سبحانه ليس فوقه شيءٌ، ولا هو في شيءٍ، ولا يحويه شيءٌ، ولا في ذاته شيءٌ؛ بل هو في العلوِّ بذاته العليّة، وهو مع ذلك يعلم كلّ شيء من المخلوقات الظاهرة والخفيّة، محيطٌ بكل شيء، ولا يحيط به شيء.

و**"الجهات"**: جمع جهة، وهي النّاحية، والطّرف من الشيء؛ فهذه الجهات لأنها من الشيء فهي نسبية، وأما الجهات المطلقة فهما العلو والسفل؛ فالأرض في أسفل شيء في الأفلاك المخلوقة، والعرش في أعلى شيء في الأفلاك المخلوقة، والله تعالى فوق العرش؛ فهو في العلو المطلق.

ونحن وإن فهمنا مراد المصنّف بهذا المعنى، وجمعنا كلامه ومنعنا التناقض في كلامه، إلّا أنّه رَحِمَهُ ٱللَّهُ قد تكلّم بلفظٍ محتملٍ، ولهذا كان من الملحوظات على هذه العقيدة هذه العبارة الموهمة نسبيًّا، وكان الأولى التّعبير بشيء غير موهمٍ؛

فلو قال: ليس في شيء من المخلوقات، وهو فوق المخلوقات؛ لكان أوضح وأجلى وأبين.

وخلاصة معنى كلام المصنّف رَحِمَهُ ٱللَّهُ: تنزيه الله تعالى عن مشابهة المخلوقات، وأنه ليس محدودًا مُغَيًّا؛ كالمخلوقات، وأنه لا يكون في الجهات المخلوقة الّتي أوجدها الله تعالى كحال المخلوقات الّتي لا بد وأن تكون في الجهات وهي: يمين، شمال، أمام، خلف، تحت، فوق، ومقصوده الجهات الست النسبية الّتي تختلف باختلاف المتكلمين، وباختلاف النسبيات.

وليس مقصوده نفي علو الله؛ فإنه قد أثبته في كلامه نصا، ومع هذا فقد ذكر ابن أبي العز أن الشيخ لو ترك هذه الألفاظ الّتي ليست في الكتاب والسنة لكان أولى، وذلك لأن من طريقة أهل السنة في النفي والإثبات: **اتباع النص، وترك الخوض في الألفاظ المجملة التي تحتمل حقًّا وباطلًا**، بل لا بد من التفصيل فيها؛ فنقبل ما وافق النص ونرد ما خالف النص.

❊❊❊

[الاعتقاد الواجب في الإسراء والمعراج]

وَالْمِعْرَاجُ حَقٌّ، وَقَدْ أُسْرِيَ بِالنَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَعُرِجَ بِشَخْصِهِ فِي الْيَقَظَةِ إِلَى السَّمَاءِ، ثُمَّ إِلَى حَيْثُ شَاءَ اللهُ تَعَالَى مِنَ الْعُلَا، وَأَكْرَمَهُ اللهُ تَعَالَى بِمَا شَاءَ، وَأَوْحَى إِلَى عَبْدِهِ مَا أَوْحَى.

﴿ الشرح ﴾

هذا تقريرٌ من المصنف رَحِمَهُ اللَّهُ متعلق بإثبات الإسراء والمعراج، وقد أتى به بعد نفي الحدود والغايات عن الله تعالى، ونفي الإحاطة به سبحانه، لكي يثبت أنه سبحانه مع كونه لا يُحدّ إلّا أنا نثبت له العلوّ، ومن أعظم ما يثبت ذلك عروج النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ومسألة العروج من مسائل التوحيد من جهة كونها متعلقة بقدرة الله تعالى، ومن مسائل النبوات من جهة كونها من مسائل دلائل النبوة.

قوله: **"والمعراج حقٌّ"**، أي أن المعراج ثابتٌ مُتقَرِّرٌ، لا يجوز إنكاره، ولا يجوز رده، وذلك لأنه ثابت بأدلة متوافرة، ومتواترة، وقطعية، سواء بدلالة القرآن الكريم، أو السنة النبوية، أو الإجماع قبل وجود الآراء البدعية.

ومعنى **"المعراج"** مِن (**العروج**)، وهو الصُّعود، والرُّقِيُّ، و(**المعراج**) مصدرٌ يطلق ويراد به (الفعل) وهو الصّعود، ويطلق ويراد به (ما يُصعَدُ عليه)، وهو السُّلَّم ونحوه؛ فهو اسم آلةٍ بهذا المعنى، ويطلق ويراد به (المكان) وهو العلو الّذي صعد إليه النّبيّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

و "**المعراج**" في الشّرع يراد به: عروج النّبيّ صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ من بيت المقدس إلى السماوات العلى، ويشمل فعل النّبيّ صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ وما صعد عليه، وهو البراق، والمكان الّذي صُعِدَ به، وهو السّدرة المنتهى، حيث خاطبه الله تَبَارَكَوَتَعَالَىٰ عنده.

وهذا المعراج كان حقيقيًّا، وقد تم ليلة الإسراء، حيث سار الملائكة بالنّبيّ صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ ليلًا من مكة إلى بيت المقدس، ثم عُرِج به إلى السماوات العلى.

وكان الإسراء والمعراج حقيقيًّا، ولم يكن مناميًّا، ولهذا قال المصنّف رَحِمَهُٱللَّهُ: "**وقد أُسْرِي بالنّبيّ** صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ"، و(**الإسراءُ**) معناه في اللغة: مِن (أَسْرَى، يُسري، إسراءً) إذا سارَ ليلًا، وجعله يسير في الليل، ومعناه في الشّرع: السّيرُ بالنّبيّ صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ من مكة إلى بيت المقدس ليلًا.

وقد كان الإسراء بعد السنة العاشرة على الصحيح من أقوال أهل السير، وفي عام الحزنِ، رِفعةً للنبي صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ، وتسلية له، وليريه الله من آياته الكبرى، ودليل الإسراء قوله تعالى: ﴿سُبۡحَٰنَ ٱلَّذِيٓ أَسۡرَىٰ بِعَبۡدِهِۦ لَيۡلٗا مِّنَ ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِ إِلَى ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡأَقۡصَا ٱلَّذِي بَٰرَكۡنَا حَوۡلَهُۥ لِنُرِيَهُۥ مِنۡ ءَايَٰتِنَآۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡبَصِيرُ﴾ [سورة الإسراء، من الآية:١].

وكان هذا الإسراء بروحه وبدنه يقظة لا منامًا، ولو كان منامًا لما أنكره قريشٌ، وكذلك المعراج كان يقظة لا منامًا، ببدنه وروحه لا بروحه فحسب، ولهذا قال المصنّف رَحِمَهُٱللَّهُ: "**وعُرِجَ بشخصه في اليقظة إلى السّماء**"، وشخصه أي بذاته

وبدنه، وشخص الشيءِ عينه وذاته، وهذا التنصيص أكده بقوله: **"في اليقظة"** وهو خلاف النوم، مع تنبه الذهن، وتيقن الأمرِ، وكان هذا المعراج إلى **"السّماء"**، وهو العلوُّ، وقد تطلق كلمة **(السّماء)** ويراد بها اسم الجنس؛ فيشمل كلّ سماءٍ؛ فمعناه أنه عرج به إلى سماءٍ ثم سماءٍ حتّى جاوز السماوات كلها، **"ثم إلى حيث شاء الله من العلا"**؛ فقوله من العُلا، دليل على أن المصنّف رَحِمَهُ ٱللَّهُ يثبت العلوّ لله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ، وإنما ينفي عنه أن يكون محتويًا في شيء مخلوقٍ، أو محاطًا مِن شيء مخلوقٍ، وهو الخالق تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ.

و "حيث" ظرفُ مكانٍ، يدلّ على أن اللهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ قد أمر بعروج النّبيّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إلى مكان عالٍ شاءه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

و **"العلا"** الرِّفْعَةُ والشَّرَفُ، والمكان العالي، ومنه قوله تعالى: ﴿تَنزِيلًا مِّمَّنْ خَلَقَ ٱلْأَرْضَ وَٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلْعُلَى ۝٤ ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ﴾ [سورة طه، من الآية: ٤-٥]، وقوله: ﴿ٱلدَّرَجَٰتُ ٱلْعُلَىٰ ۝٧٥ جَنَّٰتُ عَدْنٍ﴾ [سورة طه، من الآية: ٧٥-٧٦].

فالنّبيّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عُرِج به إلى السماوات العلا، حتّى ارتفع فوق السّماء السابعة، وإلى سدرة المنتهى، وإلى مكان لم يرتفع إليه جبريل عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، وهناك خاطبه الرحمن جل في علاه، وكلَّمه مِن عليائه، وهو فوق عرشه ومخلوقاته، كما جاء في الحديث بعد ذكر عروجه فوق السّماء السابعة: **"ثُمَّ عَلاَ بِهِ فَوْقَ ذَلِكَ بِمَا لاَ يَعْلَمُهُ إِلَّا اللهُ، حتّى جَاءَ سِدْرَةَ الْمُنْتَهَى، وَدَنَا لِلْجَبَّارِ رَبِّ العِزَّةِ، فَتَدَلَّى**

حتّى كَانَ مِنْهُ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَى، فَأَوْحَى اللهُ فِيمَا أَوْحَى إِلَيْه" [رواه البخاري من حديث أنسٍ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ].

وهذه رِفعةٌ عظيمة للنبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ حتّى إن موسى عَلَيْهِٱلسَّلَامُ غَبَطَهُ على ذلك، كما جاء في الحديث: **"قَالَ مُوسَى: رَبِّ لَمْ أَظُنَّ أَنْ يُرْفَعَ عَلَيَّ أَحَد"** [رواه البخاري من حديث أنس رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ].

وما حصل في ليلة المعراج يدل دلالة بينة على علوّ الله تَبَارَكَوَتَعَالَىٰ فوق المخلوقات، ويدل على علوِّ مكانة النّبيّ صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ، وأنه عرج به إلى مكانٍ لم يُرفَع إليه أحدٌ من الأنبياء والرُّسل.

وقوله: **"وأكرمه الله بما شاء"**، أي أكرمَ اللهُ تعالى رسولَه محمدًا صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ في ليلة الإسراء والمعراج على وجه الخصوص بكرامات خاصّة.

"وأَكْرَمَ": أي أكثر اللهُ عليه الإكرام، وزاد في تكريمه؛ ورفعَ مِن شأنه، وأجلَّه فوق أقرانه وإخوانه من الأنبياء والمرسلين من حيث الخصوص، وعلى العالَمين من حيث العموم.

ومن صور هذا الإكرام: صلاته وإمامته صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ بإخوانه الأنبياء والمرسلين في بيت المقدس في تلك الليلة، ورَفْعُه فوق المرفوعين منهم في السماوات، والعروج به إلى مكان لم يعرج إليه أحدٌ قبله، ويجمع ذلك كله قوله تعالى: ﴿لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِ ٱلْكُبْرَىٰٓ﴾ [سورة النجم، من الآية:١٨]، فهذه الآية عامة وتدل على رؤية الْآيَاتِ الْعِظَامِ، ومَا رَأَى تِلْكَ اللَّيْلَةَ فِي مَسِيرِهِ وَعَوْدِهِ، ويدل

عليه قوله تعالى في سورة الإسراء: ﴿سُبۡحَٰنَ ٱلَّذِيٓ أَسۡرَىٰ بِعَبۡدِهِۦ لَيۡلٗا مِّنَ ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِ إِلَى ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡأَقۡصَا ٱلَّذِي بَٰرَكۡنَا حَوۡلَهُۥ لِنُرِيَهُۥ مِنۡ ءَايَٰتِنَآۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡبَصِيرُ﴾ [سورة الإسراء، من الآية:١]، وكونه رأى تلك الآيات العظيمة إكرامٌ، وما مُنِح من العطايا إكرامٌ، وما رُفِع في المقامات إكرامٌ.

وجاء عن عبد الله بن مسعود رَضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُ فيما أُكْرِم به النّبيّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَسَلَّمَ في ليلة المعراج أنه قال: **"وَأُعْطِي رَسُولُ اللهِ** صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَسَلَّمَ **ثَلَاثًا: أُعْطِيَ الصَّلَوَاتِ الْخَمْسَ، وَأُعْطِيَ خَوَاتِيمَ سُورَةِ الْبَقَرَةِ، وغُفر لِمَنْ لَا يُشْرِكُ بِاللهِ شَيْئًا مِنْ أُمَّتِهِ الْمُقْحِمَاتِ"** [رواه مسلم].

ومن صور الإكرام؛ سماعُ الرسول صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَسَلَّمَ لكلام ربه تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ في ليلة المعراج، وخطابُ الله تعالى له بلا واسطة، ولهذا قال المصنّف رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **"وأوحى إلى عبده ما أوحى"**، وكان هذا الوحي في هذه المرة بلا واسطة، وإنما كلمه الله تعالى فسمع كلام ربه تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ، وهذا يعني أنه كليم الله تعالى، ولكن في السّماء، وموسى كليم الله تعالى في الأرض، وفرقٌ بين مَن كلمه الله وهو في الأرض وبين مَن كلمه الله تعالى وهو في السّماء والسُّمُوِّ والعلياء.

والمصنّف رَحِمَهُ ٱللَّهُ قال: "ما أوحى" لأمرين:

الأمر الأوّل: موافقة لنص الآية كما قال تعالى: ﴿فَأَوۡحَىٰٓ إِلَىٰ عَبۡدِهِۦ مَآ أَوۡحَىٰ﴾ [سورة النجم، من الآية:١٠].

الأمر الثّاني: قصد الإبهام لأن ما أوحى الله تعالى إلى نبيه أمورٌ عدة قد لا تكون جميعها معلومة لنا، ومن ضِمْن ما أوحى الله تعالى إلى نبيه في تلك الليلة الصلوات الخمس، وغيرها مما خصه الله تعالى به.

وقد كان العروج حقًّا وثابتًا، وكان يقظة ببدن النّبيّ المكرَم صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وروحه الشريفة صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ولهذا قال المصنّف رَحِمَهُ ٱللَّهُ: ﴿مَا كَذَبَ ٱلْفُؤَادُ مَا رَأَىٰٓ﴾ [سورة النجم، من الآية:١١]، و(**ما**) هنا نافية، و(**كَذَب**) بالتخفيف –قراءة الجمهور– أيْ ما أخطأ قلبُ النّبيّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَـمَّا رأى ما رأى؛ فلم يقل: قلبه لم أعرف، ولم ينكر القلبُ ما رآه البصرُ. وقُرِئَت بالتشديد (كَذَّب) أي ما أنكر قلبه ما رآه بصره؛ بل صدقه وتحققه نظرًا؛ فأصبح ما كان علمًا يقينيًّا علمًا عيانيًّا، ووافقَ العلمُ المعلومَ، والمعلومُ المعايَنَ.

وهذه الآية ورد عن المفسرين في مدلولها الآتي:

الأوّل: أجمعوا أن النّبيّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ رأى جبريل عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ في هذه الليلة على صورته الحقيقية، الّتي خلقه الله عليها.

الثّاني: هل هذه الآية من مدلولها أن النّبيّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ رأى ربه أو لا؟ وإن كان رأى الله تعالى؛ فهل كانت الرؤية لنوره، أو كانت الرؤية لوجهه الكريم وذاته العلية، قولان لأهل العلم:

القول الأول: جمهور الصحابة والتابعين والأئمة على أن النّبيّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لم ير في تلك الليلة ربه تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ، وإنما رأى جبريل عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ.

القول الثاني: أنه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ رأى الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ، وهؤلاء منهم من قال: إنه رأى الله تعالى تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ بعينيه، ومنهم من قال إنه رأى الله تعالى بقلبه، وتفصيل ذلك في المطولات ككتاب التوحيد لإمام الأئمة ابن خزيمة، وشرح اعتقاد أهل السنة للإمام اللالكائي، وشرح ابن أبي العز للطحاوية، ونحوها.

وإن قلنا إنه رأى الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ فإن ذلك لا ينافي أنه تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ لا يُرى في الدّنيا، وذلك لأن النّبيّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لم يقل إني رأيته في الأرض، والنص قاطع أنه تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ لا يُرَى في الأرض الفانية، قال الله تعالى لكليمه موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿وَلَمَّا جَآءَ مُوسَىٰ لِمِيقَٰتِنَا وَكَلَّمَهُۥ رَبُّهُۥ قَالَ رَبِّ أَرِنِىٓ أَنظُرْ إِلَيْكَ ۚ قَالَ لَن تَرَىٰنِى وَلَٰكِنِ ٱنظُرْ إِلَى ٱلْجَبَلِ فَإِنِ ٱسْتَقَرَّ مَكَانَهُۥ فَسَوْفَ تَرَىٰنِى ۚ فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُۥ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا ۚ فَلَمَّآ أَفَاقَ قَالَ سُبْحَٰنَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [سورة الأعراف، من الآية:١٤٣]، فالله تعالى العظيم لا يُرى في الدّنيا الدنيئة، وليس لأحدٍ أن يزعم أنه رأى الله تعالى فيها؛ بل من قال: رأيت ملِكًا في مكان دنيء لم يقبل منه العقلاء ذلك؛ فكيف يقال: إن الله تعالى يُرى في الدّنيا الفانية، وإنما يُرى سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ في الآخرة الباقية، وفي الجنان العالية، ورؤية النّبيّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لمن أثبتها إنما كانت هناك حيث الدوام لا هنا حيث الزوال.

والخوض في هذه المسألة ليس من مسائل الاعتقاد؛ وذلك لأن مسائل الاعتقاد لا خلاف فيها، وهي الأصول المطردة؛ فمن هذه الأصول المطردة عقيدة:

١-أنّه تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ لا يُرى في الدّنيا.

٢-أنّه تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ يُرى في الآخرة.

٣-وأنّ المؤمن قد يرى ربه بقلبه بحسب إيمانه، ويحصل له ذلك منامًا بقدر تقواه.

وهذا مما لا نزاع فيها بين أهل السنة، وإنما وقع النزاع في مسألة آحادية خارجة عن هذه الأصول الثلاثة.

وجاء في بعض النسخ المطبوعة ولم أجدها هنا في المخطوطات: **"فصلى الله عليه في الآخرة والأولى"** والمعنى: أطلبُ من الله تعالى أن يُصَلِّيَ على رسوله محمدٍ صَلَّىٰ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في الآخرة وفي الأولى.

ومن الملاحظة على المصنّف رَحِمَهُ ٱللَّهُ -إن ثبتت هذه اللفظة- أنه لم يذكر السلام عليه صَلَّىٰ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، والمنبغى أن يجمع للنبي صَلَّىٰ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بين الصلاة والسلام، لا سيما من أهل الإسلام؛ لأن الله تعالى أمرنا بذلك؛ فقال سبحانه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ صَلُّواْ عَلَيۡهِ وَسَلِّمُواْ تَسۡلِيمًا﴾ [سورة الأحزاب، من الآية:٥٦].

وقوله: **"في الآخرة"** أي العالَم الأخرَوِيِّ، وهذا تعميم لطلب الصلاة عليه على الدوام، وذلك لأن عالَم الآخرة عالمٌ دائمٌ، وكأن المعنى: صلِ أي ربنا على نبيك محمدٍ على الدوام والأبد.

وسُمِّي العالَم الأخرَوي بعالم الآخرَةِ؛ لأنه مقابلُ الأُولَى؛ فتقولُ الأول والآخرُ، ولأنه يومٌ آخِرٌ وليس بعدهُ يومٌ آخَرُ؛ بل هو يومٌ على الدوام والسرمد؛ فبالنسبة لأهل الجنّة ﴿لَا يَرَوْنَ فِيهَا شَمْسًا وَلَا زَمْهَرِيرًا﴾ [سورة الإنسان، من الآية:١٣]، وبالنسبة لأهل النّار الكفارِ منهم؛ فإنهم فيها لا يَسْمَعُون، ولا يُبْصِرُون، ولا يَتكَلَّمون في آخر أمرِهم، ويصبح حالهم كما قال تعالى: ﴿ٱلْأَشْقَى ۝١١ ٱلَّذِى يَصْلَى ٱلنَّارَ ٱلْكُبْرَىٰ ۝١٢ ثُمَّ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ﴾ [سورة الأعلى، من الآية:١١-١٣]؛ فهم أيضًا في يومٍ آخِرٍ مخلدين أبدًا، وهذا وجه في تسمية عالَم الآخرة بهذا الوصف.

و"**الأولى**" هي الدّنيا، وسميت بالأولى كما قال تعالى: ﴿فَلِلَّهِ ٱلْءَاخِرَةُ وَٱلْأُولَىٰ﴾ [سورة النجم، من الآية:٢٥]، وقال: ﴿وَلَلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ ٱلْأُولَىٰ﴾ [سورة الضحى، من الآية:٤]؛ لأن المكلَّفين يكونون فيها أولًا، ثم يكون في عالَم الآخرة ثانيًا، وأراد المصنّف رَحِمَهُ ٱللَّهُ أنا نصلي على النّبيّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ونطلب الصلاة عليه من الله تعالى في هذه الدّنيا وفي الآخرة.

وإنما قدم المصنّف رَحِمَهُ ٱللَّهُ الآخرة على الأولى لشرف الآخرة، ولتقدم زمان وجودهما؛ فإن الله تعالى خلق الجنّة والنّار قبل خلق المكلّفين، كما سيأتي نص كلام المصنّف رَحِمَهُ ٱللَّهُ، وسميت الأولى بالنسبة للمكلَّفين عمومًا، حيث وجودهم فيها أولًا، ودخولهم إليها أولًا؛ فهم كانوا عدمًا ثم صاروا في عالم بين

العدم والوجود، وهم في أرحام أمهاتهم، ثم في عالم الدّنيا (الأولى)، ثم يموتون ويكونون بين الدّنيا والآخرة، وهو البرزخ، ثم يحيون ويبعثون إلى عالم الآخرة.

وخلاصة دلالة كلام المصنّف رَحِمَهُ ٱللَّهُ: إثبات معجزة وآية من آيات الله لنبيه صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ حيث إن الله عرج بنبيه صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وأسرى به في ليلة من مكة إلى سدرة المنتهى؛ حيث كلمه الرب تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ، والمراد بالإسراء ذهابه من مكة إلى بيت المقدس وهذا منصوص القرآن: ﴿سُبۡحَٰنَ ٱلَّذِيٓ أَسۡرَىٰ بِعَبۡدِهِۦ لَيۡلٗا مِّنَ ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِ إِلَى ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡأَقۡصَا ٱلَّذِي بَٰرَكۡنَا حَوۡلَهُۥ لِنُرِيَهُۥ مِنۡ ءَايَٰتِنَآۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡبَصِيرُ﴾ [سورة الإسراء، من الآية:١].

وأما المعراج فصعوده من بيت المقدس إلى السماوات العلا، وكان هذا يقظة بشخصه وليس مناما، وكان معه جبريل عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، وقد أتى بالبراق وركب عليه، وأكرمه الله بأن خاطبه بدون واسطة، وفرض عليه الصلوات الخمس، ورأى في هذه الليلة الآيات الكبرى العظيمة؛ كما قال تعالى: ﴿وَهُوَ بِٱلۡأُفُقِ ٱلۡأَعۡلَىٰ﴾ [سورة النجم، من الآية:٧]، إلى قوله: ﴿لَقَدۡ رَأَىٰ مِنۡ ءَايَٰتِ رَبِّهِ ٱلۡكُبۡرَىٰٓ﴾ [سورة النجم، من الآية:١٨].

❁❁❁

[الاعتقاد الواجب في الحوض]

وَالْحَوْضُ الَّذِي أَكْرَمَهُ اللهُ تَعَالَى بِهِ -غِيَاثًا لِأُمَّتِهِ- حَقٌّ.

الشرح

هذا تقريرٌ من المصنف رَحِمَهُ ٱللَّهُ متعلق بإثبات الحوض المورود، وقد أتى به بعد الإسراء والمعراج؛ لأنها مِن المسائل المتعلقة بقدرة الله تعالى، ومن مسائل دلائل النبوة، ومن مسائل الإيمان باليوم الآخر.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **"والحوضُ...حقٌّ"** أي أنّ مما أكرمَ الله تعالى به نبيه صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ الحوض، وهو ثابت بمتواتر الأحاديث، وثبوته دليل على فضل النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ.

وهذه المسألة -وكل ما يتعلق بالإيمان بالغيبيات- هي من المسائل الخبرية الإيمانية، ولا يمكن للعقول العلم بها إلا من جهة الخبر؛ كما لا يمكن للعقول إنكارها؛ فإن إنكار الغيبيات بمجرد قياسات العقول تَخَرُّصٌ، والخوض في الغيبيات بمجرد خيالات العقول تَخَبُّطٌ، فمسائل الغيب كلها خبرية نقلية، وليس فيها ما تحيله العقول، وإن كان فيها ما تحار فيه العقول.

"والحوض" لغة مُجْتَمَعُ الماءِ، وقد يطلق على البِرْكَة، ويجمع على (أحواضٍ، وحِيَاضٍ، وحِيضَان)، وهو يُشبه في لغة العصر الخزّان الكبير الّذي يُصْنَعُ في الأرضِ، مكشوف السقف الأعلى.

"والحوض" شرعًا: ما وَعدَ الله تعالى به نبيه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِن الماءِ الّذي جمعه له ولأمّته في عرصات القيامة، يصُبُّ فيه ميزابان من الجنّة، طوله وعرضه سواء، له أباريق كعدد نجوم السّماء، ماؤه أطيب ريحًا من المسك، وأحلى من العسل، وأبيض من الفضة واللَّبَنِ، وأبرد من الثّلج، ترد عليه أمته صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، مَن شرب منه لم يظمأ أبدًا.

وقد جاء في الحديث: **"إِنَّ لِكُلِّ نَبِيٍّ حَوْضًا وَإِنَّهُمْ يَتَبَاهَوْنَ أَيُّهُمْ أَكْثَرُ وَارِدَةً، وَإِنِّي أَرْجُو أَنْ أَكُونَ أَكْثَرَهُمْ وَارِدَةً"** [رواه أحمدُ والترمذي من رواية الحسن عن سمرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وقال: حديث غريب].

فإن قيل: فما أسباب الورود على الحوض؟

فالجواب: مَن أراد أن يرد على الحوض فعليه بما يأتي:

أولًا: يَثْبُتُ على الإسلام، والتّوحيد، ويَحْذَرُ من الرّدّة، ويَتَعَوَّذُ منها، فإن المرتَدِّين يُمنعون مِن الورود على الحوض؛ كما في حديث أَسْمَاءَ بِنْتِ أَبِي بَكْرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قَالَت: قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **"إِنِّي عَلَى الْحَوْضِ حتّى أَنْظُرَ مَنْ يَرِدُ عَلَيَّ مِنْكُمْ، وَسَيُؤْخَذُ أُنَاسٌ دُونِي، فَأَقُولُ: يَا رَبِّ مِنِّي وَمِنْ أُمَّتِي، فَيُقَالُ: أَمَا شَعَرْتَ مَا عَمِلُوا بَعْدَكَ؟ وَاللهِ مَا بَرِحُوا بَعْدَكَ يَرْجِعُونَ عَلَى أَعْقَابِهِمْ"** قَالَ: فَكَانَ ابْنُ أَبِي مُلَيْكَةَ يَقُولُ: اللهُمَّ إِنَّا نَعُوذُ بِكَ أَنْ نَرْجِعَ عَلَى أَعْقَابِنَا، أَوْ أَنْ نُفْتَنَ عَنْ دِينِنَا. [متفق عليه].

ثانيًا: يَتَمَسَّكُ بالسّنّة، ويَبْتَعِدُ عن البدع والمحدثات؛ فإنّ أهل البدع يمنعون من الحوض؛ كما جاء هذا في حديث أمّ سلمة رَضِيَٱللَّهُعَنۡهَا قالت: قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ: **"إِنِّي لَكُمْ فَرَطٌ عَلَى الْحَوْضِ، فَإِيَّايَ لَا يَأْتِيَنَّ أَحَدُكُمْ فَيُذَبُّ عَنِّي كَمَا يُذَبُّ الْبَعِيرُ الضَّالُّ، فَأَقُولُ: فِيمَ هَذَا؟ فَيُقَالُ: إِنَّكَ لَا تَدْرِي مَا أَحْدَثُوا بَعْدَكَ، فَأَقُولُ: سُحْقًا"** [رواه مسلم].

ثالثًا: يَحْرِصُ عَلَى الطَّاعات، ويَلْزَمُ التَّوْبَة، ويَتَجَنَّبُ الكبائر، ويَتُوبُ منها؛ فإنَّ صاحب الكبيرة قد يُمنع من الحوض، وفي حديث عبد الله بن مسعودٍ رَضِيَٱللَّهُعَنۡهُ قال: قال رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ: **"أَلَا وَإِنِّي فَرَطُكُمْ عَلَى الْحَوْضِ، وَأُكَاثِرُ بِكُمْ الْأُمَمَ، فَلَا تُسَوِّدُوا وَجْهِي، أَلَا وَإِنِّي مُسْتَنْقِذٌ أُنَاسًا، وَمُسْتَنْقَذٌ مِنِّي أُنَاسٌ، فَأَقُولُ: يَا رَبِّ، أُصَيْحَابِي؟ فَيَقُولُ: إِنَّكَ لَا تَدْرِي مَا أَحْدَثُوا بَعْدَكَ"** [رواه ابن ماجه، وصححه الألباني].

وأحاديث الحوضِ متواترة، وثابتة، وهي تدل على إكرام الله تعالى نبيَّه صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ، ولهذا قال المصنّف رَحِمَهُٱللَّهُ: **"أكرمه الله تعالى به-غياثًا لأمته..."**.

و **"غِيَاثًا"**: أيْ غَوْثًا، وجاءكم (الغوثُ، والغياثُ) بمعنىً واحدٍ، وهو: ما أغيث به طالبُ الغوثِ.

وهذا فيه إشارة إلى شدّة ظمأ النّاس، وطلبهم للماء، ويبحثون عن شربةٍ يُذْهِبُون بها ظمأهم، ولا يجدون إلا حياض الأنبياءِ؛ فكل يرد على حوضِ نبيه،

ومن شرب من حوضِ نبينّا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ويسمى (حوضُ الكوثر)؛ فإنّه لا يظمأ بعدها أبدًا.

و(**الكوثرُ**): الّذي هو نهرٌ في الجنّة غيرُ الحوضِ الّذي يكون في عرصات القيامة، ولا مانع مِن أن يكون الحوضُ من الكوثر -وهو الخير الكثير- الذي وعدَ اللهُ تعالى به نبيه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وهو فضلة وزيادة على (نهر الكوثر)؛ فإنّ نعم الله على نبيِّه، وأفضاله عليه توالت، وتعددت، وكَثُرَ خيرُ ربنا على نبينا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وعلى أمّته.

وقوله: **"غياثًا لأمته"** (الأُمَّة): الجماعة من النّاس، وتطلق لغة على كلّ مجتمعين على شيءٍ، سواءً كان موطنا، أو لغة، أو دينًا، والمراد بالأمّة هنا (**المعنى الاصطلاحي**): وهو الجماعة من النّاس الذين بعث إليهم النّبيّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وهم قسمان:

القسم الأوّل: أمّة الاستجابة، وهم الذين استجابوا للنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ظاهرًا وباطنًا، أو ظاهرًا لا باطنًا، وعلى هذا فالمنافقون في الظّاهر هم من أمّة الإسلام، وفي الباطن ليسوا كذلك.

القسم الثّاني: أمّة الدّعوة، وهم الذين لم يستجيبوا للنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لا ظاهرًا ولا باطنًا، وهم عموم الكفارِ، من أهل الكتاب وغيرهم.

والمقصود هنا أمة الاستجابة؛ لأنّ الأحاديث قد تواترت بمنع المرتدين؛ بل والمبتدعة من الحوضِ؛ فكيف بالكافرين والمشركين أصالةً.

وخلاصة معنى كلام المصنّف رَحِمَهُ ٱللَّهُ: إثبات ما أكرم الله تعالى به نبيّه من إعطائه (حوض الكوثر)، وهو من أكبر حياض الأنبياء، وهو داخل في عموم قوله تعالى: ﴿إِنَّآ أَعۡطَيۡنَٰكَ ٱلۡكَوۡثَرَ﴾ [سورة الكوثر، من الآية:١]، وهو في عرصات القيامة، يرد عليه أمة محمد صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَسَلَّمَ؛ ليشربوا منه، وقد أثبته علماء أهل الإسلام، وأنكرته المعتزلة بمجرد عقولهم وتوهمهم بأنه لا حاجة له مع أن الأحاديث الواردة في هذا الباب متواترة، ودالة على الحاجة العاجلة، ولو لم يكن له حاجة فإن مجرد الإكرام يقتضيه، فضلًا عن كونه من المسائل الغيبية الإيمانية التي امتحن الله تعالى بها عباده.

❀❀❀

[الاعتقاد الواجب في الشفاعة]

وَالشَّفَاعَةُ الَّتِي ادَّخَرَهَا اللهُ تَعَالَى لَهُمْ حَقٌّ؛ كَمَا رُوِيَ فِي الْأَخْبَارِ.

﴿ الشرح ﴾

هذا تقريرٌ من المصنف رَحِمَهُ ٱللَّهُ في إثبات الشفاعة، وقد أتى بها بعد الحوض لأنها مِن مسائل الإيمان باليوم الآخر، وهي أيضًا من المسائل المتعلقة بالنبوات من جهة إكرام الشفعاء.

قول المصنّف رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **"والشفاعة...حقٌّ"** أي أن الشفاعة ثابتةٌ، ولا بد من الإقرار بها، وبشروطها، وذلك بدلالة القرآن والسنة.

وهذا أيضًا من جملة إكرام الله تعالى للمؤمنين من جهة، ومن جملة ما خصَّ الله تعالى به نبينا محمدًا صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بأنواع منها.

و**"الشفاعة"** مصدرٌ مِن (شَفَع، يشفَع، شفاعة)، إذا ضم صوته لصوتٍ آخر، وطلبه لطلبٍ آخرَ؛ فهذه هي الشفاعة لغة، وتطلق ويراد بها كلام الشفيع عند المشفوع فيما يعود على المشفوع له بخيرٍ، وهو سعيٌ في طلب المساعدة للآخرين.

والشفاعة في الشّرع: سعيُ الشافع عند الله تعالى بما فيه مصلحة المشفوع له.

وقد دل القرآن على ثبوت الشفاعة في آيات كثيرة، ودلت السنة المتواترة على أنواعها، وثبوتها، ووجوب الإيمان بها.

فإن قيل: فما هي أنواع الشفاعات؟

فالجواب: **أن الشفاعة من حيث حكمها منقسمة إلى ثلاثة أقسام، وهي:**

القسم الأوّل: شفاعة شركية، وهي المنفية، قال تعالى: ﴿فَمَا تَنفَعُهُمۡ شَفَٰعَةُ ٱلشَّٰفِعِينَ﴾ [سورة المدثر، من الآية:٤٨].

القسم الثّاني: شفاعة بديعة: وهي التّوسل بالجاه، وهي الّتي لم ترد عن النّبيّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَسَلَّمَ، ولا عن أصحابه رَضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمۡ.

القسم الثّالث: شفاعة شرعية: وهي المثبتة بشروطها.

والشفاعة مِن حيث النفي والإثبات نوعان:

النّوع الأوّل: **الشفاعةُ المنفية**، وهي في حق الكافرين، والمشركين؛ فلا يقبل الله تعالى شفاعة أحدٍ فيهم؛ فلا يخرجون من النّار أبدًا، ويدلّ له قوله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَٱتَّقُواْ يَوۡمٗا لَّا تَجۡزِي نَفۡسٌ عَن نَّفۡسٖ شَيۡـٔٗا وَلَا يُقۡبَلُ مِنۡهَا شَفَٰعَةٞ وَلَا يُؤۡخَذُ مِنۡهَا عَدۡلٞ وَلَا هُمۡ يُنصَرُونَ﴾ [سورة البقرة، من الآية:٤٨]، وقوله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَسَلَّمَ في الكافرين: **"أَمَّا أَهْلُ النَّارِ، الَّذِينَ هُمْ أَهْلُهَا، فَلَا يَمُوتُونَ فِيهَا وَلَا يَحْيَوْنَ، وَلَكِنْ نَاسٌ أَصَابَتْهُمْ نَارٌ بِذُنُوبِهِمْ أَوْ بِخَطَايَاهُمْ فَأَمَاتَتْهُمْ إِمَاتَةً، حتّى إِذَا كَانُوا فَحمًا أُذِنَ لَهُمْ فِي الشَّفَاعَة"**

[رواه مسلم من حديث أبي سعيد الخدري رَضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُ].

النّوع الثّاني: **الشّفاعة المثبتة**؛ وهي الّتي تكون للمسلمين، ممن يكون بحاجة إلى شفاعة منهم؛ كأهل الكبائر، أو أهل الأعراف، أو لرفع درجاتِ بعضهم في الجنّة؛ وهذه قد استفاضت أحاديث في بعضها، وتواترت أحاديث في بعضها،

وتكون بشرطين:

الشّرط الأوّل: رضا الله تعالى عن المشفوع، بأن يكون مسلمًا؛ فإن الله تعالى رضي الإسلام، ﴿وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ ٱلْكُفْرَ﴾ [سورة الزمر، من الآية:٧]، ويدخل في هذا رضا الله تعالى عن الشّافع، بأن يكون من أهل الشفاعة، ودليله قوله تعالى: ﴿وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرْتَضَىٰ﴾ [سورة الأنبياء، من الآية:٢٨].

الشّرط الثّاني: إذن الله تعالى بالشفاعة؛ فلا أحد يقدر أن يشفع مطلقًا، لا من حيث الزّمان، ولا من حيث المكان، ولا من حيث الشّافعين، ولا من حيث المشفوع فيهم؛ فلا بد من الإذن في كلّ مُقامٍ، ومَقَامٍ، ولكل شافعٍ، ومشَفَّعٍ، قال الله تعالى: ﴿مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ﴾ [سورة البقرة، من الآية:٢٥٥]، وقد جاء الشّرطان في قوله تعالى: ﴿وَكَم مِّن مَّلَكٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ لَا تُغْنِى شَفَٰعَتُهُمْ شَيْـًٔا إِلَّا مِنۢ بَعْدِ أَن يَأْذَنَ ٱللَّهُ لِمَن يَشَآءُ وَيَرْضَىٰٓ﴾ [سورة النجم، من الآية:٢٦].

والشفاعة من حيث العموم والخصوص نوعان:

النّوع الأوّل: **الشّفاعة الخاصّة**، وهي الشّفاعات الخاصّة الثّلاثة الثّابتة لنبيّنا محمدٍ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وهي:

أولًا: شفاعته صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في إقامة الحساب، ومناقشة العباد، وهي المقام المحمود، والشفاعة العظمى، وهي مِنَ الوسيلة، والدرجةِ الرفيعة، ويدلُّ له أحاديث كثيرة، ومنها حديث الأذان؛ فعن عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ عَمْرِو بْنِ الْعَاصِ

رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا، أَنَّهُ سَمِعَ النّبيّ صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ يَقُولُ: **"إِذَا سَمِعْتُمُ الْمُؤَذِّنَ، فَقُولُوا مِثْلَ مَا يَقُولُ ثُمَّ صَلُّوا عَلَيَّ، فَإِنَّهُ مَنْ صَلَّى عَلَيَّ صَلَاةً صَلَّى الله عَلَيْهِ بِهَا عَشْرًا، ثُمَّ سَلُوا اللهَ لِيَ الْوَسِيلَةَ، فَإِنَّهَا مَنْزِلَةٌ فِي الجنّة، لَا تَنْبَغِي إِلَّا لِعَبْدٍ مِنْ عِبَادِ اللهِ، وَأَرْجُو أَنْ أَكُونَ أَنَا هُوَ، فَمَنْ سَأَلَ لِي الْوَسِيلَةَ حَلَّتْ لَهُ الشَّفَاعَةُ"** [رواه مسلم].

ثانيًا: شفاعة النّبيّ صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ في فتح باب الجنّة؛ فإن أهل الجنّة بعد مجاوزتهم الصراط يكونون في القنطرة -وهي أرضٌ بين الجنّة والنّار-، وينتظرون فتح باب الجنّة؛ ويدل له حديث أَنَسِ بْنِ مَالِك رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: **"آتِي بَابَ الجنّة يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَأَسْتَفْتِحُ، فَيَقُولُ الْخَازِنُ: مَنْ أَنْتَ؟ فَأَقُولُ: مُحَمَّدٌ، فَيَقُولُ: بِكَ أُمِرْتُ لَا أَفْتَحُ لِأَحَدٍ قَبْلَكَ"** [رواه مسلم].

ثالثًا: شفاعة النّبيّ صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ لعمّه أبي طالب في أن يخفف الله عنه النّار؛ كما في حديث أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيّ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ، أَنَّ رَسُولَ اللهِ صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ ذُكِرَ عِنْدَهُ عَمُّهُ أَبُو طَالِبٍ فَقَالَ: **"لَعَلَّهُ تَنْفَعُهُ شَفَاعَتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ، فَيُجْعَلُ فِي ضَحْضَاحٍ مِنْ نَارٍ يَبْلُغُ كَعْبَيْهِ، يَغْلِي مِنْهُ دِمَاغُهُ"** [رواه البخاري، ومسلم، وهذا لفظه].

النّوع الثّاني: **الشّفاعة العامّة**، وهي الّتي تكون لعموم الشافعين، من الأنبياء والمرسلين، ومن الصّديقين والصّالحين، ممن توفرت فيهم شروط الشَّافِع، وصاروا أهلًا لذلك، فليس كلَّ أحدٍ أهلٌ للشفاعة، كما جاء في حديث أَبِي الدَّرْدَاءِ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ يَقُولُ: قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: **"لَا يَكُونُ اللَّعَّانُونَ**

شُفَعَاءَ، وَلَا شُهَدَاءَ، يَوْمَ الْقِيَامَةِ" [رواه مسلم].

وهذه الشفاعة العامة أنواع، وهي:

أولًا: الشفاعة لمن استحق دخول النّار من الموحدين أنْ لا يدخلها.

ثانيًا: الشفاعة لمن دخل النّار ممن استحقها بكبائر لم يتب منها؛ فيخرج منها، وهذا الّذي جاء في حديث أنسٍ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ وغيره، مرفوعًا: **"شَفَاعَتِي لِأَهْلِ الْكَبَائِرِ مِنْ أُمَّتي"** [رواه الإمام احمد، وأبو داود، والترمذي، وقال: حسن صحيح غريب]، والمقصود أن عُظْمَ الشفاعة، وأكثرها إنما يقع من هذا النوع، ولهذا النوعِ؛ لشدة الحاجة، ومسيس الأمرِ.

ثالثًا: الشفاعة لأناس استوت حسناتهم وسيئاتهم أن يدخلوا الجنّة، وقيل: هم أهل الأعراف.

رابعًا: الشفاعة لأناس يدخلون الجنّة بغير حسابٍ ولا عذابٍ؛ كما حصل من النّبيّ صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ لعكاشة بن محصن رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ.

خامسًا: الشفاعة في رفع درجات بعض المؤمنين في الجنّة.

فإذا ضممنا هذه الخمس إلى ما سبق من الشفاعات الثلاثة الخاصة لنبينا محمدٍ صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ؛ فإن مجموع هذه الشفاعات ثمانية، وهي دالة على عظيم كرم الله تَبَارَكَوَتَعَالَىٰ مِن جهة، وبيان عظيم منزلة بعض النّاس عنده، إذ قبل شفاعتهم في أناسٍ.

والحكمة في إقامة الشفاعات: بيان فضل الله تعالى على أهل الإسلام، وأهل

التوحيد، وبيان فضل مكانة بعض النّاس، وإظهار ذلك على الملأِ، وبيان فضل الأنبياء والمرسلين، والصديقين والصالحين، إذ جعلهم شفعاء، وبيان فضلِ الله تعالى على المسلمين إذ قبل الشفاعة فيهمم لأدنى ملابسة.

وقوله **"ادّخرها"**: مصدرٌ خماسي متعدٍّ، وأصلها (اِذْدَخر)، وأدغمت الذال في الدال على القاعدة، ومعناها: حفظُ الشيء وصونه وجمعه لوقت معيِّن، فالشفاعة مُدَّخرةٌ لأهل الإسلام، لا سيّما من يحتاج منهم إليها، ولهذا وجب سؤال الله تعالى أن يرزق العبد فضله وكرمه، ومن ذلك أن يرزقه شفاعة الشافعين.

ولا يجوز أن يَسْأَلَ العبدُ غيرَ اللهِ تعالى الشّفاعةَ، فلا يجوز أن يقولَ: يا جبريل اشفع لي، ولا يا رقيب ويا عتيد اشفع لي، ولا يا نبي الله اشفع لي، أو يا وليَّ الله اشفع لي، إلّا أن يكون ذلك مواجهة؛ كما حصل ذلك من الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ مع نبينا محمدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يوم أن كان حيًّا بين ظهرانيهم، ويحصل ذلك من عامة النّاس يوم المحشر، إذ يطلبون الشفاعة مواجهة مِن بعض الشفعاءِ؛ ولهذا نجد في نصوص الشّرع ما يدل على سؤال الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ الشفاعةَ من النّبيّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حال حياته، حيث كانوا يواجهونه، ويخاطبونه، ولا نجد أن أحدًا منهم طلب ذلك منه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بعد موته، لا عند قبره؛ فضلًا عن أن يكون بعيدًا عن قبره، وهذا مِن أصرح الأدلة على بدعية سؤال الشفاعةِ من الأموات، ومن الغائبين، والعاجزين.

قوله: **"كما روي في الأخبار"** أي مثلما جاء في الأحاديث والآثار، و**"الأخبار"** جمع (خبَرٍ)، وهو لغة: ما يُنقَلُ، ويُحَدَّثُ به قولًا أو كتابةً، والمقصود هنا **"الأخبار"** عند المحدِّثين، وهي: كلّ ما كان منقولًا عن رسولِ الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

وذكره بالبناء لما لم يسمَّ فاعله لا لكونه ضعيفًا؛ فإنّ أحاديث الشفاعة متواترة، وإنما لأنها كثيرة؛ فلم يرد التطويل بذكرها، وعمّمها بقوله **"كما روي"**.

وخلاصة دلالة كلام المصنّف رَحِمَهُ ٱللَّهُ: إثبات (الشّفاعة) وحقيقتها: دعاء الشَّافع عند الله للمشفوع له، وقد أنكر قوم الشفاعة لأقوام دخلوا النّار أن يخرجوا منها، كالمعتزلة والخوارج، وزعموا أن أهل الكبائر مخلدون في النّار، ولا تنفعهم شفاعة الشافعين، وردوا ما تواتر عن النّبيّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في هذه الشفاعات!

والمرجئِةُ الغلاةُ أيضًا: أنكروا هاتين الشفاعتين بحجة أن المسلمين لا يدخلون النّار، وأنهم لا يحتاجون إلى شفاعة!

فنسأل الله تعالى الكريم أن يجعلنا من الشفعاء، وأن يرفع مقامنا في عليين، وأن يرزقنا شفاعة نبينا محمدٍ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وأن يجعلنا عنده من المقربين.

❊❊❊

[الاعتقاد الواجب في الميثاق]

وَالْمِيثَاقُ الَّذِي أَخَذَهُ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ مِنْ آدَمَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ وَذُرِّيَتِهِ حَقٌّ، كَمَا رُوِيَ فِي الْأَخْبَارِ.

﴿ الشرح ﴾

هذا تقريرٌ من المصنف رَحِمَهُ ٱللَّهُ في إثبات الميثاق، وقد أتى بها ضمن مسائل الغيبيات، ولكونها متعلقة بقدرة الله تعالى.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "**والميثاق...**" أي أنه ثابتٌ، ويجب الإيمان به، وأنه من مسائل الاعتقادِ، والمراد بهذا (**الميثاق**) ما جاء في قول الله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ ۖ قَالُوا۟ بَلَىٰ ۛ شَهِدْنَآ ۛ أَن تَقُولُوا۟ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَـٰذَا غَـٰفِلِينَ﴾ [سورة الأعراف، من الآية:١٧٢]، فلا بد من الإيمان بمنطوق الآية، وأن ذلك قد كانَ ولا ريبَ، وإن اختلف العلماء في معناه ومدلوله.

و"**الميثاق**" لغة العهدُ، وما تُعُوهِدَ عليه، ومنه (المواثيق الدولية)، والمراد بها في الآية: ما كان مِن خطاب الله تعالى لآدم وذريته في عالم الذر، ويدل عليه حديث "**لَمَّا خَلَقَ اللهُ آدَمَ مَسَحَ ظَهْرَهُ، فَسَقَطَ مِنْ ظَهْرِهِ كلّ نَسَمَةٍ هُوَ خَالِقُهَا مِنْ ذُرِّيَّتِهِ إِلَى يَوْمِ القِيَامَةِ**" [رواه الترمذي من حديث أبي هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ].

و"**آدم**" هو أبو البشرِ الّذي خلقه الله تعالى بيديه، وأسجد له ملائكته، وأكرمه بأن أدخله الجنّة؛ فلمّا أكل مِن الشّجرة أُهْبِطَ إلى الأرض مع زوجته حوّاء، وأنجب في الأرض الذُّرِّيَّة، الّتي كانت على عهده ووعده، حتّى طرأ عليهم التغير، والتبديل، والركون إلى الدّنيا، ثم بعث الله تعالى الأنبياء والمرسلين تباعًا، وتترا.

وهؤلاء الأنبياء هم يُذَكِّرُون بذلكم الميثاق، الّذي نسيه أولاد آدم وذريته، لتقادم العهود من جهة، ولكون ذلك في عالم الذرِّ من جهة أخرى، وهذا الميثاق من المواثيق الّتي تدل على عظيم قيام حجة الله على عباده.

وقال بعض أهل العلم: إن المقصود بالميثاق الفطرة، وهذا خلاف قول الجمهور، والصّواب أن الفطرة من آثار الميثاق، كما أن المرسلين إنما يُرسلون للتذكير بالميثاق؛ فهم يقولون لأقوامهم، ما قاله الله لهم: {اعبدوا الله ما لكم من إله غيره}.

وقوله: "**وذريته**" أي ذرية آدم، وهم البشرُ من حيث العموم، سواء كانوا ذكورًا أم إناثًا.

وهذا فيه بيان أن أخذ الميثاق كان خاصًا لبني آدم، ولم يكن لعامة الثّقلين.

وخلاصة دلالة كلام المصنّف رَحِمَهُ ٱللَّهُ: إثبات الميثاق، وأنه نوعٌ من أنواع الأدلة على بني آدم، وأنه كان لآدم وذريته على العموم.

❁❁❁

[شمول علم الله تعالى]

وَقَدْ عَلِمَ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى -فِيمَا لَمْ يَزَلْ عَالِمًا- عَدَدَ مَنْ يَدْخُلُ الْجَنَّةَ، وَعَدَدَ مَنْ يَدْخُلُ النَّارَ، جُمْلَةً وَاحِدَةً، فَلَا يُزَادُ فِي ذَلِكَ الْعَدَدِ، وَلَا يُنْقَصُ مِنْهُ.

وَكَذَلِكَ أَفْعَالُهُمْ، فِيمَا عَلِمَ مِنْهُمْ أَنْ يَفْعَلُوهُ، ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ﴾ [سورة الملك، من الآية:١٤].

الشرح

هذا تقريرٌ من المصنف رَحِمَهُ ٱللَّهُ في إثبات شمول علم الله تعالى، وهذا عودٌ على بدءٍ فيما يتعلق بالتوحيد، ومسائل الربوبية من جهة، ولهذا التقرير ارتباط فيما يتعلق بالإيمان بالقدر من جهة أخرى.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **"وقد علم الله فيما لم يزل عدد من يدخل الجنّة"** عودٌ على ما سبق من بيان عظيم وشمول علمِ الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى، ومن ذلك علمُه سبحانه بما سيكونُ؛ فهو يعلم أهل الجنّة أزلًا، فعِلْمُه **"لَمْ يَزَلْ"** ولا يزالُ، ولا يطرأ على علم الله تعالى أي خطأٍ، أو نسيان، أو غفلة، أو ذهول، قال الله تعالى: ﴿وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعۡمَلُونَ﴾ [سورة البقرة، من الآية:٧٤]، وقال: ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا﴾ [سورة مريم، من الآية:٦٤]، ولهذا جاء في حديث عمر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ قال: سمعتُ رسولَ الله -صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: **"إنَّ الله عَزَّوَجَلَّ خلق آدمَ، ثم مَسَح ظهرَه بيمينه، فاستخرج منه ذرِّيةَ، فقال: خلقْتُ هؤلاء للجنة، وبعَمَلِ أهلِ الجنّة يعمَلُون، ثم مَسَحَ ظَهرَه، فاستَخْرَجَ منه ذرِّيّةً، فقال: خلقتُ هؤلاء للنار، وبعملِ أهلِ النار يعملون"** [رواه

أبو داود، والترمذي، وقال: حديث حسن]، وهذا الحديث يدل لما قاله المصنّف رَحِمَهُ ٱللَّهُ بأنه سبحانه "**قد علم فيما لم يزل... عدد من يدخل النار جملة واحدة**".

و (**العدد**): مقدار ما يُعدّ، ومبلغه، أي كم عددهم بالحساب والعدِّ على التمام دون نقصٍ أو وكسٍ، وأكّده المصنّف رَحِمَهُ ٱللَّهُ بقوله: "**فلا يزداد في ذلك العدد ولا ينقص منه**".

و (**الزيادة**): ما زاد على الشيء، والمقدار الّذي يُضاف إلى العددِ الأوَّلِ، أو في الرَّقَمِ الأوَّل.

و (**النُّقصان**): ما نَقَصَ مِن الشيء، والمقدار الّذي يُطْرَح من العدد الأول، أو مِن الرقم الأول.

وهذا من حيث عددِ من يَرِدُ ويدخل الجنّة، وعدد من يرد ويدخل النّار، وقد سبق بيان المراد بالجنّة، وأما "**النار**" فجمعه (نيرانٌ)، وهي من مخلوقات الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ سواء الّتي خلقها في الدّنيا؛ كما قال تعالى: ﴿أَفَرَءَيْتُمُ ٱلنَّارَ ٱلَّتِي تُورُونَ ٧١ ءَأَنتُمْ أَنشَأْتُمْ شَجَرَتَهَآ أَمْ نَحْنُ ٱلْمُنشِـُٔونَ ٧٢ نَحْنُ جَعَلْنَٰهَا تَذْكِرَةً وَمَتَٰعًا لِّلْمُقْوِينَ﴾ [سورة الواقعة، من الآية:٧١-٧٣]، أو الّتي خلقها لأهل الكفر في الآخرة، والتي قال الله تعالى عنها: ﴿نَارُ ٱللَّهِ ٱلْمُوقَدَةُ ٦ ٱلَّتِي تَطَّلِعُ عَلَى ٱلْأَفْـِٔدَةِ﴾ [سورة الهمزة، من الآية:٦-٧].

وقد جاءت لهذه النّار أوصافٌ، وأسماء، وأن عدد أبواب النّار سبعة؛ كما في

قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ ۝٤٣ لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَابٍ لِّكُلِّ بَابٍ مِّنْهُمْ جُزْءٌ مَّقْسُومٌ﴾ [سورة الحجر، من الآية:٤٣-٤٤]، وقوله تعالى: ﴿فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا وَلَن تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ﴾ [سورة البقرة، من الآية:٢٤]، وقوله تعالى: ﴿لَهُم مِّن فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِّنَ النَّارِ وَمِن تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ ذَٰلِكَ يُخَوِّفُ اللَّهُ بِهِ عِبَادَهُ يَا عِبَادِ فَاتَّقُونِ﴾ [سورة الزمر، من الآية:١٦]، أعاذنا الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى وإياكم من النّار.

ثم ذكر المصنّف رَحِمَهُ اللَّهُ عظيم علم الله تعالى، وأن علمه يشمل كلّ شيء، ومن ضمن ذلك علمه بأحوال المكلّفين، وإحاطة علمه بما يكون في المخلوقات، وما يكتسبه البريات؛ فقال رَحِمَهُ اللَّهُ: **"وكذلك أفعالهم فيما علم منهم أن يفعلوه"**.

و **(الأفعال)**: جمع فِعْل، وهو أعمالهم، وكسبهم، وما يُحدثون سواء بقلوبهم من الأعمال، أو بجوارحهم، أو بألسنتهم؛ وأكثر ما يكون أفعال العباد بأيديهم، ولذلك تضاف إليها كثيرًا، قال الله تعالى: ﴿فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ﴾ [سورة الشورى، من الآية:٣٠]، وقال سبحانه: ﴿بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ﴾ [سورة الروم، من الآية:٤١].

واستدلّ المصنف رَحِمَهُ اللَّهُ على ما ذكره من شمول علم الله تعالى بالأحوال والمآلات بقول الله تعالى: ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾ [سورة الملك، من الآية:١٤]، وهذا الاستفهام تقريريٌّ، بمعنى: إن الصانع للشيء يعلم مصنوعه، ألا

ترى أن الإنسان إذا صنع شيئًا -مع ضعف علمه، وقدرته- يعلم حاله ومآله؛ فكيف بالخالق اللطيف الخبير؛ فلا يخفى عليه من دقة لطف علمه، وعظيم خُبْرِه، شيءٌ من الأحوال والمآلات.

والدليل على أنه سبحانه علِم ما الخلق عاملون توافر الآيات الدالة على هذا المعنى، وتكاثر الأدلة الدالة على عموم علم الله تعالى بكل شيء، بما كان، وما هو كائن، وما يكون، وما لم يكن لو كان كيف يكون، ولهذا قال تعالى للملائكة: ﴿أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّيٓ أَعْلَمُ غَيْبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ﴾ [سورة البقرة، من الآية:٣٣]، وقال: ﴿وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مُتَقَلَّبَكُمْ وَمَثْوَىٰكُمْ﴾ [سورة محمد، من الآية:١٩].

وعلمه سبحانه لا يلزم منه جَبْرُ العبادِ كما فهمه القدرية والجبرية، -ثم القدرية نفوا علمَ الله تعالى، والجبريةُ نفوا اختيار العبد-، وذلك لأن العلم خبرٌ عما سيكون، ولا يلزم منه الجبْرُ؛ فإنْ أخبر أحدٌ مِمَّن يَخْبُرُ فِعال ابنِه بأنه إذا دخل البيت سيعمل كذا وكذا؛ فلما دخل فعل ما أَخْبَرَ عنه؛ فذلك لا يعني الجبر عليه، وإنما ذلك دليل على خبرة الأب بابنه، ولله المثل الأعلى؛ فهو سبحانه خلق الخلق، وجعلهم في الأرضِ وهو أعلم بمن ضل عن سبيله، وهو أعلم بالمهتدين، ومع ذلك أعان من أراد منهم الهداية، وترك من أراد منهم الغواية، ولم يجبرهم على الهداية، وهذا من تمام عدله وفضله، أنه يعين أهل الخيرِ، ويدع أهل الشر، وهو سبحانه يَسَّر لعباده عمل الخير، ويسَّر لهم آلاتِ عَمَلِ

الشر، وكلّ هذا التيسير ابتلاء، وحكمة، وعدل وفضل، ولهذا قال المصنّف رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **"وكل ميسر لما خلق له"**.

[قدرة العباد على الفعل]

وَكُلٌّ مُيَسَّرٌ لِمَا خُلِقَ لَهُ.

﴿ الشرح ﴾

هذا تقريرٌ من المصنف رَحِمَهُ ٱللَّهُ في إثبات عظيم قدرة الله تعالى، وهذا عودٌ على بدءٍ فيما يتعلق بالتوحيد، ومسائل الربوبية من جهة، ولهذا التقرير ارتباط فيما يتعلق بالإيمان بالقدر من جهة أخرى.

قول المصنف رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **"وكلٌّ مُيسَّرٌ"** كلّ مخلوقٍ يسير وَفق ما أراده الله تعالى، وهو يسّر وسهّل له السير وَفق ما أراده.

"مُيَسَّرٌ" اسمُ فاعلٍ من (يَسَّرَ) بمعنى سهَّل، و **"مُيَسَّرٌ"** بمعنى مُسَهَّلٌ؛ فهذا يقدرُ على فعل الخيرِ إن أراده وسعى له، وهو يقدرُ على فعل الشّر إن أراده وسعى له؛ فهو مُسهَّلٌ له عملَ الأمرين، والسّير على أي النجدين شاء، قال تعالى: ﴿وَهَدَيْنَٰهُ ٱلنَّجْدَيْنِ﴾ [سورة البلد، من الآية:١٠]، وقال: ﴿إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّىٰ ۝٤ فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَٱتَّقَىٰ ۝٥ وَصَدَّقَ بِٱلْحُسْنَىٰ ۝٦ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْيُسْرَىٰ ۝٧ وَأَمَّا مَنۢ بَخِلَ وَٱسْتَغْنَىٰ ۝٨ وَكَذَّبَ بِٱلْحُسْنَىٰ ۝٩ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْعُسْرَىٰ﴾ [سورة الليل، من الآية:٤-١٠].

وقوله: **"لما خُلِقَ له"** أي للذي خُلِقَ له، والعباد كلهم مخلوقون لأمرٍ غائي واحدٍ، وهو: عبادة الله تعالى، وهذا ظاهرٌ؛ فإنهم يقدرون على عبادة الله تعالى، وقد يسر الله لهم العبادة؛ من حيث مقدرتهم عليها، قيامًا وركوعًا وسجودًا، وفعلًا وكفًّا، ومن حيث تشريعها؛ فهي ليست شاقة وعسيرة، ولا هي صعبة

مستحيلة؛ بل هي ميسرة من الجهتين، قال تعالى: ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾ [سورة الحج، من الآية:٧٨]، وقال: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ﴾ [سورة البقرة، من الآية:١٨٥].

والدليل على أن الله تعالى خلق الخلق لعبادته أمران:

الأمر الأوّل: الدليل النقلي، وهو قوله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ۝٥٦ مَآ أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَآ أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ﴾ [سورة الذاريات، من الآية:٥٦-٥٧]، وهذه العبادة المطلوبة منهم جاء على سبيل الامتحان، لا على سبيل الجبر والإذعان؛ فقال تعالى: ﴿تَبَٰرَكَ ٱلَّذِى بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ۝١ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفُورُ﴾ [سورة الملك، من الآية:١-٢]، وقال تعالى مبينًا أنه ابتلاه وامتحنه ويسر له آلات الامتحان، وهداه سبيل النجاة وسبيل الهلاك: ﴿هَلْ أَتَىٰ عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ حِينٌ مِّنَ ٱلدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْـًٔا مَّذْكُورًا ۝١ إِنَّا خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَٰهُ سَمِيعًۢا بَصِيرًا ۝٢ إِنَّا هَدَيْنَٰهُ ٱلسَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا﴾ [سورة الإنسان، من الآية:١-٣].

الأمر الثّاني: الدليل العقلي؛ فإنا نرى أن كلّ شيء في الكون ميسرٌ لخدمة الإنسانِ؛ فالشمسُ والقمر والنجوم من الأفلاك لمنفعته وهدايته، والأرض والجبال والشجر والأنهار لمنفعته وهدايته؛ بل والدواب والهوام، والبر والبحر، والإنسان ليس مُسَخَّرًا لشيء من المخلوقات؛ فهو يستخدم الدوام، ولا دابة

تستخدمه، وهو يستخدم الزرع، ولا زرع يستخدمه؛ فعُلِم عقلًا أنه مخلوق لغاية، وأن هذه الموجودات لخدمته؛ فهو لخدمةٍ أخرى، وعملٍ أخرى، ولما كان العقل قاصرًا عن العلم بهذا العمل على وجه دقيق، وتفصيل حقيق، جاء الشّرع ببيان ذلك على ألسنة الرسل، كما جاء ذلك في الكتب المنزلة.

ومما يدل على أن كلّ شيء خُلِق لأجل المكلَّفين، قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْفُلْكَ لِتَجْرِىَ فِى ٱلْبَحْرِ بِأَمْرِهِۦ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْأَنْهَٰرَ ﴿٣٢﴾ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ دَآئِبَيْنِ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ﴾ [سورة إبراهيم، من الآية:٣٢-٣٣]، وقوله تعالى: ﴿وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [سورة الجاثية، من الآية:١٣].

وخلاصة دلالة كلام المصنّف رَحِمَهُ ٱللَّهُ: إثبات عظمة علم الله؛ فإنه يعلم عدد أهل الجنّة والنّار بأعيانهم، وأوصافهم، وأسباب ذلك، ومن عظيم علمه سبحانه علمه بأفعال عباده، وأن ذلك العلم لا ينافي أن كلا ميسر لما خلق له، وأن علم الله لا ينافي الأمر الشّرعي، وذلك لأنه لا تنافي بين علمه وأمره.

❊❊❊

[العبرة بالنهايات]

وَالْأَعْمَالُ بِالْـخَوَاتِيمِ، وَالسَّعِيدُ مَنْ سَعِدَ بِقَضَاءِ اللهِ تَعَالَى، وَالشَّقِيُّ مَنْ شَقِيَ بِقَضَاءِ اللهِ تَعَالَى.

الشرح

هذا تقريرٌ من المصنف رَحِمَهُ ٱللَّهُ في إثبات ما يتعلق بعلم الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ وعظيم تقديره، من جهة، وله تعلق بالعبد من جهة بيان أن العبرة بالخواتيم، وهو متعلق بالإيمان، الذي ينبغي أن يموت عليه الإنسان؛ لأن الاعتبار به.

قول المصنّف رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **"والأعمال بالخواتيم"**، **"الأعمال"** جمعُ (عَمَلٍ)، ويطلق على القول وعلى الفعل، ويشمل عمل القلب الباطن، وعمل البدن الظاهر، ويدخل فيه القولُ والفعل؛ بل والتّرك إن كان عن قصدٍ.

والمقصود هنا مطلق العملِ، وأن العبرة عند الله تعالى بالنهايات لا بالبدايات؛ فقد يكون الإنسان مشركًا ثم يُسلِم ويصبح مؤمنًا، ويموت متّقيًا برًّا رشيدًا، كما قال تعالى: ﴿قُلْ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُواْ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًاۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ٥٣ وَأَنِيبُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُواْ لَهُۥ﴾ [سورة الزمر، من الآية: ٥٣-٥٤].

وقد يكون الإنسان مسلمًا، وعنده علمٌ من الكتابِ، ثم يرجعُ القهقرى، ويموت كافرًا، قال تعالى: ﴿وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱلَّذِيٓ ءَاتَيْنَٰهُ ءَايَٰتِنَا فَٱنسَلَخَ مِنْهَا

﴿فَأَتۡبَعَهُ ٱلشَّيۡطَٰنُ فَكَانَ مِنَ ٱلۡغَاوِينَ﴾ [سورة الأعراف، من الآية:١٧٥].

ولهذا لا ينبغي للإنسان أن يغتر بعمله؛ بل يكون دائمًا ملازمًا للخير، ومستقيمًا عليه، حتّى يأتيه الموتُ وهو على الخير؛ كما قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسۡلِمُونَ﴾ [سورة آل عمران، من الآية:١٠٢]؛ فالمؤمن قلبه معلقٌ بالخواتيم، وذلك لأن العبرة في نهاية الامتحان، لا في بدايته، ولا في أثنائه، ونحن نسمع ونشاهد أن العبرة في كلّ السّباقات بالنّهايات، ولهذا جاء في حديث سَهْلِ بْنِ سَعْدٍ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ: أَنَّ رَجُلًا مِنْ أَعْظَمِ المُسْلِمِينَ غَنَاءً عَنِ المُسْلِمِينَ، فِي غَزْوَةٍ غَزَاهَا مَعَ النّبيّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَنَظَرَ النّبيّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالَ: **"مَنْ أَحَبَّ أَنْ يَنْظُرَ إِلَى الرَّجُلِ مِنْ أَهْلِ النَّارِ فَلْيَنْظُرْ إِلَى هَذَا"** فَاتَّبَعَهُ رَجُلٌ مِنَ القَوْمِ، وَهُوَ عَلَى تِلْكَ الحَالِ مِنْ أَشَدِّ النّاس عَلَى المُشْرِكِينَ، حتّى جُرِحَ، فَاسْتَعْجَلَ المَوْتَ، فَجَعَلَ ذُبَابَةَ سَيْفِهِ بَيْنَ ثَدْيَيْهِ حتّى خَرَجَ مِنْ بَيْنِ كَتِفَيْهِ، فَأَقْبَلَ الرَّجُلُ إِلَى النّبيّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مُسْرِعًا، فَقَالَ: أَشْهَدُ أَنَّكَ رَسُولُ اللهِ، فَقَالَ: **"وَمَا ذَاكَ"** قَالَ: قُلْتَ لِفُلَانٍ: **"مَنْ أَحَبَّ أَنْ يَنْظُرَ إِلَى رَجُلٍ مِنْ أَهْلِ النَّارِ فَلْيَنْظُرْ إِلَيْهِ"** وَكَانَ مِنْ أَعْظَمِنَا غَنَاءً عَنِ المُسْلِمِينَ، فَعَرَفْتُ أَنَّهُ لَا يَمُوتُ عَلَى ذَلِكَ، فَلَمَّا جُرِحَ اسْتَعْجَلَ المَوْتَ فَقَتَلَ نَفْسَهُ، فَقَالَ النّبيّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عِنْدَ ذَلِكَ: **"إِنَّ العَبْدَ لَيَعْمَلُ عَمَلَ أَهْلِ النَّارِ وَإِنَّهُ مِنْ أَهْلِ الجنّة، وَيَعْمَلُ عَمَلَ أَهْلِ الجنّة وَإِنَّهُ مِنْ أَهْلِ النَّارِ، وَإِنَّمَا الأَعْمَالُ بِالخَوَاتِيمِ"** [رواه

البخاري].

ولعظيم علم الله تعالى فإنّه سبحانه علِم السّعداء، وختم لهم بذلك، وعَلِم الأشقياء وختم لهم بذلك، وهذا لا يعني أنه سبحانه جبرهم، وختم عليهم بأنهم في النّار ظلمًا وجبرًا؛ بل ذلك لعلمه سبحانه مُسبقًا بما يعملون؛ ولهذا قال المصنّف رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **"والسّعيد من سعد بقضاء الله، والشّقي من شقي بقضاء الله"**، ومعنى **"السعيد"** وصفٌ من (السَّعْدِ)، وفلانٌ سعيدٌ أي ذو بهجةٍ، وسرورٍ، وفرحٍ وحبور، و (**سَعِد**) أيْ يَمِن، وفرِح، ووُفِّق، وصارَ مبارَكًا، وعلامة السعداء أمران:

الأمر الأوّل: رضاهم بقدر الله تعالى.

الأمر الثّاني: عملهم بشرعِ الله تعالى.

و **"الشقي"** وصفٌ من (الشَّقْوَةِ)، وهي التّعاسة، والضّلالة، والانحراف، والخارجُ عن الشّرع.

فالسعيدُ معلومٌ في قضاء الله تعالى، والشقي معلوم، وذلك من عظيم علمه سبحانه، وهذا دليل أنه سبحانه لا يجبر العباد على الإيمان، إذ لو أراد أن يجبرهم لقدر، لأنه خالقهم وربهم، ولكنه خلقهم مختارين، وعلم ما هم فاعلين، ولهذا قال تعالى: ﴿إِن نَّشَأْ نُنَزِّلْ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ءَايَةً فَظَلَّتْ أَعْنَٰقُهُمْ لَهَا خَٰضِعِينَ﴾ [سورة الشعراء، من الآية:٤]؛ فهو سبحانه لا يقهرهم على الإيمان ليتم الابتلاء والاختبار، ويتجلى في الامتحان الاختيار، ولهذا مَن تأمَّل يجد أن الخلق الذين

خلقهم الله تعالى أصنافٌ:

الصّنف الأوّل: مقهورون، لا يخرجون عن أمر الله تعالى، وهذا يدخل فيه كلّ المخلوقات غير المكلَّفة بالعبادة والطاعة، من الأفلاك، والشمس، والقمر، والنجوم، والجامدات من الشجر والحجر، والدواب والهوام، ونحوها، ولا يتصور منهم وقوع المخالفة، ولا تقع المخالفة منهم.

الصّنف الثّاني: من هم أهل عبادة ونقاوة وتقاة، ليس فيهم مخالفٌ، ولا فيهم معاندٌ، وهم الملائكة، الّذي يفعلون ويمتثلون أوامر الله تعالى، فهم ﴿لَّا يَعْصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ [سورة التحريم، من الآية:٦]، وهؤلاء يتصوّرُ من حيث الإمكان وقوع المخالفة، ولكن لقوة ما خلقهم الله تعالى عليه؛ ولكمالهم؛ فإنه لا تقع منهم المخالفة، ولم تقع، ولا تقع؛ فهم معصومون بعصمة الله تعالى لهم.

الصّنف الثّالث: من هم أهل عبادة وإخلاصٍ، وأهل عبادة وإشراكٍ، من فيهم أهل إيمان وتقاة، وأهل كفرٍ وشراةٍ، وهم الإنس والجن.

والخطاب هنا عن هؤلاء، عن الصّنف الثالث، وقد ذكر الله تعالى تصنيفهم إلى صنفين سعداء وأشقياء؛ كما في قوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَأْتِ لَا تَكَلَّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ ۚ فَمِنْهُمْ شَقِىٌّ وَسَعِيدٌ ﴿١٠٥﴾ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ شَقُوا۟ فَفِى ٱلنَّارِ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ ﴿١٠٦﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ ۚ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ

﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ سُعِدُواْ فَفِى ٱلْجَنَّةِ خَـٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَـٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ عَطَآءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ ﴿١٠٧﴾﴾ [سورة هود، من الآية:١٠٥-١٠٨].

وخلاصة دلالة كلام المصنّف رَحِمَهُ ٱللَّهُ: إثبات قضاء الله وقدره، وإثبات إحاطة علم الله تعالى بالسعداء والأشقياء، وأن العبرة بالخواتيم، وقد يكون الإنسان كافرًا ثم يختم له بالإسلام فضلًا من الله، وقد يكون مسلمًا في الظاهر ويختم له بالكفر عدلًا منه سبحانه.

ويدل لذلك حديث ابن مسعود رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ مرفوعًا: **"إِنَّ أَحَدَكُمْ يُجْمَعُ فِي بَطْنِ أُمِّهِ أَرْبَعِينَ يَوْمًا، ثُمَّ يَكُونُ عَلَقَةً مِثْلَ ذَلِكَ، ثُمَّ يَكُونُ مُضْغَةً مِثْلَ ذَلِكَ، ثُمَّ يَبْعَثُ اللهُ إِلَيْهِ مَلَكًا بِأَرْبَعِ كَلِمَاتٍ، فَيُكْتَبُ عَمَلُهُ، وَأَجَلُهُ، وَرِزْقُهُ، وَشَقِيٌّ أَوْ سَعِيدٌ، ثُمَّ يُنْفَخُ فِيهِ الرُّوحُ، فَإِنَّ الرَّجُلَ لَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ النّار، حتّى مَا يَكُونُ بَيْنَهُ وَبَيْنَهَا إِلَّا ذِرَاعٌ، فَيَسْبِقُ عَلَيْهِ الكِتَابُ فَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ الجنّة فَيَدْخُلُ الجنّة، وَإِنَّ الرَّجُلَ لَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ الجنّة، حتّى مَا يَكُونُ بَيْنَهُ وَبَيْنَهَا إِلَّا ذِرَاعٌ، فَيَسْبِقُ عَلَيْهِ الكِتَابُ، فَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ النّار، فَيَدْخُلُ النّار"** [رواه البخاري].

❊❊❊

[الاعتقاد الواجب علينا في القضاء والقدر]

وَأَصْلُ الْقَدَرِ سِرُّ اللهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ فِي خَلْقِهِ، لَمْ يَطَّلِعْ عَلَى ذَلِكَ مَلَكٌ مُقَرَّبٌ، وَلَا نَبِيٌّ مُرْسَلٌ .

وَالتَّعَمُّقُ وَالنَّظَرُ فِي ذَلِكَ ذَرِيعَةُ الْخُذْلَانِ؟ وَسُلَّمُ الْحِرْمَانِ، وَدَرَجَةُ الطُّغْيَانِ، فَالْحَذَرُ كُلَّ الْحَذَرِ مِنْ ذَلِكَ، نَظَرًا، أَوْ فِكْرًا، أَوْ وَسْوَسَةً، فَإِنَّ اللهَ تَعَالَى طَوَى عِلْمَ الْقَدَرِ عَنْ أَنَامِهِ، وَنَهَاهُمْ عَنْ مَرَامِهِ، كَمَا قَالَ اللهُ عَزَّ مِنْ قَائِلٍ فِي كِتَابِهِ: ﴿لَا يُسْـَٔلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْـَٔلُونَ﴾ [سورة الأنبياء، من الآية:٢٣]، فَمَنْ سَأَلَ: لِمَ فَعَلَ؟ فَقَدْ رَدَّ حُكْمَ كِتَابَ اللهِ تَعَالَى، وَمَنْ رَدَّ حُكْمَ كِتَابَ اللهِ تَعَالَى كَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ .

الشرح

هذا تقريرٌ من المصنف رَحِمَهُ ٱللَّهُ في إثبات ما يتعلق بالقدر، وبيان خطورة البحث فيه بالقيل والقال، والزيادة عما جاء في نصوص الشرع، والحذر من الاعتراض على الله تعالى في شرعه أو خلقه.

قول المصنّف رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **"وأصل القدر سر الله تعالى في خلقه"**، أي القاعدة المُسْتَقِرَّة هي أن القَدَرَ سِرٌّ من الأسرار الّتي لا يمكن للخلق الاطلاع على مكنونها، ومعنى **"أصل"** المصدَرُ، وبمعنى قاعدته، ومنه أصل الشجرة جذعها، وأصلُ الأمرِ بمعنى الثابت والواضح منه.

والمراد هنا: أن القاعدة المتقررة في باب القدرِ، والتي عليها قيام القدرِ، أمرٌ ثابتٌ وواضحٌ أنه **"سرُّ اللهِ تعالى في خلقه"**، و **"السِّرُّ"** هو كلّ ما يُكمَنُ ويُخْفَى،

وقد يطلق ويراد بالسرِّ من كلّ أمرٍ أكرمُه وخالصه، ومحضه وأفضله.

والمراد هنا: أنّ أصل الاطلاع على مكنون القدر غير ممكنٍ لأنه سِرٌّ مكنون، ومُخْفَى فالخوضُ فيه ظنون، وهو أكرَمُ ما يتعلق بالقدرِ ومحضه والباحث فيه مفتون.

وكون القدر **"سر الله تعالى في خلقه"** أي من جهة أنه خلقهم، وهو عاملٌ ما يعملون، وكلّفهم، ورتب الثواب على أعمالهم الّتي أعانهم عليها، والعقابَ على أعمالهم الّتي تركهم يعملونها؛ فهذا وجه سِريَّته.

فإن قيل: ما وجه كون القدر سرّ الله تعالى؟

فالجواب: القدر سر الله تعالى في الخلق مِن عدة أوجه:

الوجه الأوّل: أن الاطلاع على القَدَرِ، وما سيكون في غدٍ، سرٌّ لا يطلع عليه أحدٌ أبدًا؛ فلا أحدَ يعلم الغيبيات المقدرة إلا الله تعالى.

الوجه الثّاني: أنه غيب عنهم مآلاتهم، وجعل ذلك سرًّا، لا يطلع عليه أحدٌ إلّا بإنباء من الله تعالى.

الوجه الثّالث: أنه غيَّب عن أكثرهم كيفيّة الجمع بين الأمر الشّرعي والجمع بينه وبين الأمر الكوني.

الوجه الرّابع: أنه غيب عنهم الثواب المترتب على فضله وإعانته، والعقاب المترتب على عدله وحكمته، وكيفيّة الجمع بين ذلك.

الوجه الخامس: أنه غيّب عن بعضهم الحكمة بين الأمر الشّرعي، والأمر

الكوني.

الوجه السّادس: أنه غيب عن بعضهم الحكمة في تكليف من علم أنه لا يؤمن.

الوجه السّابع: أنه غيب عن بعضهم الحكمة في الأمر بالأعمال الصالحة عمن علم أنه من أهل الجنّة.

وقول المصنّف رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **"لم يطلع على ذلك مَلَكٌ مُقَرَّبٌ"** المقصود به الوجه الأوّل الّذي ذكرناه؛ فإنّ ذلك من المغيبات الخمس الّتي لا يعلمها أحدٌ إلا الله تعالى، ولهذا قال سبحانه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلۡمُ ٱلسَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ ٱلۡغَيۡثَ وَيَعۡلَمُ مَا فِي ٱلۡأَرۡحَامِۖ وَمَا تَدۡرِي نَفۡسٞ مَّاذَا تَكۡسِبُ غَدٗاۖ وَمَا تَدۡرِي نَفۡسُۢ بِأَيِّ أَرۡضٖ تَمُوتُۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرُۢ﴾ [سورة لقمان، من الآية:٣٤]، وهذه الآية صريحة في أن الْمُقَدَّرات الغيبية المستقبلية سرٌّ لا يطلع عليه أحدٌ.

و **"لم يطَّلِع"**: أي لم يَظْهَرْ عليه أحدٌ، و**(الاطلاعُ)**: الإشراف على الشّيء، والنّظر إليه حينه، وهو بمعنى الاكتشاف، ويأتي بمعنى التعرُّف بإمعانٍ ودقة، وكلّ هذه المعاني منفية فيما يتعلق بقَدَرِ الله تعالى في خلقه؛ فلا أحدَ يعلم ماذا قدر له غدًا، ولا ما الّذي يحصل غدًا، ولا ما هو مآله فيما يستقبل من الأيامِ، صحةً ومرضًا، غنىً وفقرًا، عزةً وذلةً، طاعةً ومعصيةً، ثوابًا وعقابًا.

فإن قيل: كيف لم يطلع على ذلك ملَكٌ مقرّبٌ، وقد اطلع الملك على ما يُكْتَبُ للعبد وهو في رحم أمِّه: **"أَرْبَعِ كَلِمَاتٍ: بِكَتْبِ رِزْقِهِ، وَأَجَلِهِ، وَعَمَلِهِ، وَشَقِيٌّ أَوْ سَعِيد"** [متفق عليه من حديث ابن مسعود رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ]؟

فالجواب: أنّ هذه كتابة إجماليّة، لا يعني الاطّلاع على كلّ قَدَرِ العبدِ، وما سيكون حاله عليه، هذا من وجه.

ومن وجهٍ آخر: أن القدر إذا كتب علمه الكاتب، وإذا وقع علمه العامل؛ فلم يعد سرًّا، وإنما المقصود بكونه سرًّا، بالنسبة للملائكة قبل كتابته، وبالنسبة إلى فاعله قبل وقوعه.

و "**ملَكٌ**" واحدُ (**الملائكة**)، وسُمّوا ملائكة لأنهم رسلٌ بين الله وخلقه، وأصل كلمة "**ملَك**" من (**مأْلَك**)، ومِن (**الأُلُوكَة**) ثم تصرّفوا في اللفظ تخفيفا؛ فقالوا: ملَك.

وهم في اصطلاح الشّرع: خلقٌ من خلق الله تعالى خلقهم من نورٍ، ولهم أسماء، وأوصاف، وأعمال، لا يعصون الله ما أمرهم، ويفعلون ما يؤمرون.

و "**ملَكٌ مُقرَّبٌ**" مثلُ؛ جبريل، وميكائيل، وإسرافيل، وملك الموت؛ فهؤلاء مقرّبون، فيما علِمنا، ولكنْ ليس لهم شيءٌ من خصائص الربّ تَبَارَكَ وَتَعَالَى، ومن ذلك العلم بالغيوبات، فهم يعلمون بقدر ما يُعلِّمُهم الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى ويُعْلِمُهم، كما قال تعالى: ﴿قَالُوا۟ سُبْحَـٰنَكَ لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [سورة البقرة، من الآية:٣٢].

و "**مُقَرَّبٌ**": اسم مفعولٍ مِن (**القُرْب**) وهو الشّيء القريبِ أوانه، أو الشّيء القريب مكانه، والمراد هنا قرب المكان والمنزلة والمكانة من الله تعالى.

والملائكة المقربون هم الذين ذكرهم الله تعالى مع نفسه في عدة من آياته؛

كقوله تعالى: ﴿مَن كَانَ عَدُوًّا لِّلَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَجِبۡرِيلَ وَمِيكَىٰلَ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَدُوٌّ لِّلۡكَٰفِرِينَ﴾ [سورة البقرة، من الآية:٩٨]، وذكر النّبيّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَسَلَّمَ الملائكة المقربين في دعائه فقال: "**اللهمَ ربّ جبريلَ وميكائيل وإسرافيل، فاطِرَ السماواتِ والأرض، عالمَ الغيبِ والشهادةِ، أنت تحكمُ بين عِبادِك فيما كانوا فيه يختلفون، اهدِني لِمَا اختُلِفَ فيه من الحقّ بإذنِك، إنك تهدي مَن تشاءُ إلى صِراطٍ مستقيم**" [رواه مسلم من حديث عائشة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهَا].

فإذا كان هؤلاء الملائكة المقربون لا يعلمون قدَرَ الله في خلقه؛ فكيف يعلمه آحاد الخلق؛ بل لا يعلم ذلك حتّى الأنبياء والمرسلون، ولهذا قال المصنّف رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "**ولا نبيٌّ مرسل**"؛ فالأنبياء والمرسلون على جلالة قدرهم، وقرب مكانتهم من الله تعالى في الدّنيا، وقرب منزلتهم عند الله تعالى في الدّنيا والآخرة، لا يعلمون قدرَ الله في خلقه؛ فغيرهم من باب أولى، ولهذا لا ينبغي لعاقل أن يسعى في البحث عن القدر المكنون، ولهذا قال المصنّف رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "**والتّعمق والنّظر في ذلك ذريعة الخذلان**" لأنه ليس طريق الأنبياء والمرسلين؛ بل هو طريق مَن أغواهم الشياطين.

و "**التعمق**" أي المبالغة في طلب دقائق مسائل القدر، والبحثُ عن أقصى غاياته، والتّصفح في حدّه ونهايته، وهذا مذموم لا سيّما إذا كان بتنطُّعٍ؛ ولهذا جاء في حديث عَبْدِ اللهِ بْنِ عمرو بن العاص رَضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمَا قَالَ: خَرَجَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَسَلَّمَ عَلَى أَصْحَابِهِ وَهُمْ يَخْتَصِمُونَ فِي الْقَدَرِ، فَكَأَنَّمَا يُفْقَأُ فِي وَجْهِهِ

حَبُّ الرُّمَّانِ مِنْ الْغَضَبِ، فَقَالَ: "**بِهَذَا أُمِرْتُمْ؟ أَوْ لِهَذَا خُلِقْتُمْ؟ تَضْرِبُونَ الْقُرْآنَ بَعْضَهُ بِبَعْضٍ، بِهَذَا هَلَكَتْ الْأُمَمُ قَبْلَكُمْ**" [رواه ابن ماجه، وهو حديث حسن].

وجاء عن عبد الله بن مسعود رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ مرفوعًا: "**إِذا ذُكِرَ الْقَدَرُ فَأَمْسِكُوا، وَإِذَا ذُكِرَتِ النُّجُومُ فَأَمْسِكُوا، وَإِذَا ذُكِرَ أَصْحَابِي فَأَمْسِكُوا**" [رواه الطبراني، وحسنه الألباني].

ويزداد ذَمُّ التَّعَمُّقِ إن كان بالعقول، بعيدًا عن المنقول، ولهذا قال المصنّف رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "**والنَّظَرُ في ذلك**" أي (**الإبصار**) في مسائل القدرِ بالقياسات العقلية، والتفكير فيها بالعقول المحدودة البشرية، واعتبار ذلك بأمثالٍ وأقيسة، وتدبُّرٍ وفكرٍ بعيد عن النصوص الشّرعية، "**ذريعة الخِذْلان**"، أي طريق الخسارة، و"**ذريعة**" الشيءِ وسيلته، وسببه الموصل إليه، والجمع ذرائع.

و "**الخِذْلان**" تركُ الإنسان عندما يحتاج إلى المساعدة، والمراد: أن من تعمق ونظر في مسائل القدر وتنطع فإنه يُترَك إلى رأيه، وتعمقه، وينقطع، ويَضْعُفُ، ولا يجد نصرة، ولا يُعانُ من الله تعالى، وذلك لعدة أسباب، منها:

السّبب الأوّل: أنه ترك المشروع، وصار يبحث في الممنوع.

السّبب الثّاني: أنه اعتمد على عقله ورأيه، ومن اعتمد على شيء، وكل إليه.

السّبب الثّالث: أنه انشغل بما لا ينفعه عما ينفعه؛ فلما احتاج إلى العون لم يجد مما اشتغل به فائدة.

وهذه قاعدة مطردة: أنّ مَن انشغل بما لا ينفع حرم بقَدْرِه عمّا ينفع، ولهذا كان

الانشغال بالتّعمق في مسائل القدر ذريعة الخِذلان، **"وسُلَّم الحرمان"**.

و **"سُلَّمُ"** الشيء ما يُصعد به إليه؛ وهو الدّرجُ حسيًّا كان كما في سلَّم البيت الّذي يصعد به إلى سطحه، أو معنويًّا كما هنا؛ فإنّ التنطُّع في القدر طريق ودرجُ **"الحرمان"**، وهو عدم الوصول إلى الرحمن، وعدم نيل رضا الله تعالى، وعدم تحصيل الجنان.

ومن معاني **"الحرمان"** الخسران، وفوات الأرزاقِ والخيراتِ، والمنع من الوصول إلى الدرجات، وعدم نيل المكرُمَات.

والخوض والتعمق في مسائل القدر كما أنه مؤثِّرٌ سلبًا على الإنسان من جهة (**الخِذلان**)، و(**الحرمان**)؛ فإنّه مؤثّرٌ سلبًا من الجهة النّفسيّة؛ فإنّه يوصل إلى **"دَرَجَة الطّغيان"**.

و **"دَرَجَة"** بمعنى الْمِرْقَاةِ، والرُّتْبَةِ، والْمَنْزِلة، سواء كان في الخير أو الشر، والمراد هنا: أنّ من تعمق في القدر؛ فإن تنطُّعَه هذا سيوصله إلى منزلةِ **"الطُّغْيَان"**، وهو مجاوزة الحدِّ في الظلم، والوصول إلى درجة الافتخار والكِبْرِ.

فإن قيل: فما مضرّة التعمق في مسائل القدر؟

فالجواب: أنّ كلّ مَن تعمق في مسائل القدر بغير نصوص الشّرع؛ فإنّه يحصل له أحدُ ثلاثة أمورٍ:

الأمر الأوّل: أنه يصل إلى مرتبة لا يرى فيها سوى أفعال الرب تَبَارَكَ وَتَعَالَى؛ فيغفل عن أفعال العبيد، وينسى ذلك؛ فيرى الجبر، وأنه ليس للعباد فعلٌ، وربما

يحسّن كلّ قبيحٍ، ويرى الكل من الله تعالى متساويًا أمره الشّرعي والكوني!؟

الأمر الثّاني: أنه قد يصل إلى مرتبة لا يرى فيها أفعال الرب تَبَارَكَوَتَعَالَى في العبيد؛ فيقول إنهم يخلقون أفعال أنفسهم، وأنهم خالقون مع الله تعالى!؟ فيرى القدر، وأنّ الأمر أنفٌ، وربما يرى وجوب فعل الأصلح على الله تعالى، ولا يرى من الله تعالى إلّا الأمر الشّرعي، وينسى أو يتغافل عن الأمر الكوني.

الأمر الثّالث: أنه يصل إلى مرتبة يرى فيها أفعال الرب تَبَارَكَوَتَعَالَى؛ وأفعال العبيد، ثم يحصل عنده تعارض بينهما، وحينئذٍ يرى سقوط الأمر والنهي، لوجود التعارض.

وقد حصل شيء من هذا لكثيرٍ من الخائضين في القدر بعقولهم، ولهذا فقد نصح المصنّف رَحِمَهُٱللَّهُ حيث قال: **"فالحذرَ كلّ الحذَر من ذلك"** أي كُنْ حازمًا، وتحرَّز، وإياكَ والخوض فيه، وكن خائفًا مِن سقطات العقول فإنه غيب لا يُدرك بالمعقول، فلا ينبغي التعمق فيه **"نَظَرًا، وفِكْرًا"**، و **(الفِكْرُ)** هو الرّوِيَّةُ، وإدراك الأمرِ، وحلُّه، وإعمال العقلِ في المعلوم للوصول إلى المجهولِ، وهذا لا بأس به في التجريبيات، وفي المخلوقات الْمُدرَكات، والمشاهدات، ولكن لا يجوز هذا الفعل في الغيبيات، ومسائل القدر خصوصًا والإلهيات عمومًا.

وكما لا يجوز التّعمقُّ في مسائل القدر قياسًا وفكرًا؛ فكذلك لا يجوز **"وَسْوَسَة"**، وهي خيالات النّفس، سواء كان من الشيطان، أو من إطلاق العنان للأذهان.

وأصل الوَسْوسة: حديث النفسِ بما لا نفع فيه، ولا خير، سواء كانت الوساوس واضحة الكلمات، أو خفية الجمل والعبارات؛ فلا مدخل للأذهان ولا خيالات النفوس في القدر، ولا مدخل للقياسات العقلية في القدر، "**فإن الله تعالى طوى علم القدر عن أنامه**".

و "**طوى**" أي أخفى سِرَّه، وأغمضَ إدراك مسائله، لأن العقول البشرية قد لا تستوعب هذه المسائل لكونها خفية، وقد لا تفهم السرِّ فيه، ولأنّ ما يتعلق بالقدرِ الْمُغيَّب من خصائص الله تعالى؛ فكيف يطلعهم على ذلك.

وإذا كانت العقول البشرية، والنفوس الإنسانية غير قادرة على إدراك مكنون كيفية أفعال الرب تَبَارَكَوَتَعَالَىٰ، ولو كانت مشاهدة لهم، مثل فلقه البحرَ بقوله "كُن"، وقلبه العصا حيّة؛ فلأن تكون عاجزة عن إدراك السر المكنون في القدر من باب أولى وأحرى.

و "**طَوَى**" مِن طَوَى صفحة الكتابِ إذا ثَنَاه وجمع بعضه إلى بعضٍ لكيلا يُقْرَأ، فهو بمعنى مَطْوِيّ، ومخْفِيٍّ، ومَكْتُومٍ؛ فلا أحدَ من العباد يعلم ما قدر لهم أو لما حولهم أو للبلادِ أو العباد.

وقول المصنّف رَحِمَهُٱللَّهُ: "**ونهاهم عن مرامه**" أي نهى الله تَبَارَكَوَتَعَالَىٰ عباده من الخوض في القدرِ، ومن البحث عما غيِّب عنهم علمه، وحظر عليهم أن يقصدوه، ومما يدل على هذا النهي ما ذكره المصنّف من الآية الّتي ستأتي، وقوله تَبَارَكَوَتَعَالَىٰ: ﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَٱلْإِثْمَ وَٱلْبَغْيَ

بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّ وَأَن تُشۡرِكُواْ بِٱللَّهِ مَا لَمۡ يُنَزِّلۡ بِهِۦ سُلۡطَٰنٗا وَأَن تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعۡلَمُونَ﴾ [سورة الأعراف، من الآية:٣٣]، فالخوض في القدر قولٌ على الله تعالى بالظنون والأوهام.

وأيضًا يدل على النهي عن الخوض في مرام القدرِ حديث أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ قَالَ: خَرَجَ عَلَيْنَا رَسُولُ اللهِ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَنَحْنُ نَتَنَازَعُ فِي القَدَرِ فَغَضِبَ حتّى احْمَرَّ وَجْهُهُ، حتّى كَأَنَّمَا فُقِئَ فِي وَجْنَتَيْهِ الرُّمَّانُ، فَقَالَ: **"أَبِهَذَا أُمِرْتُمْ أَمْ بِهَذَا أُرْسِلْتُ إِلَيْكُمْ؟ إِنَّمَا هَلَكَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ حِينَ تَنَازَعُوا فِي هَذَا الأَمْرِ، عَزَمْتُ عَلَيْكُمْ أَلاَّ تَتَنَازَعُوا فِيهِ"** [رواه الترمذي، وقال: حديث غريب، وحسنه الألباني].

وإنّ من أعظم ما يجب في هذا الباب عدم الاعتراض على الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ فيما قضى وقدَّر، وعدم القول بأن هذا الأمرَ الحكمةُ فيه غير ظاهرة، ونحو ذلك، وذلك لأن الله تعالى الحكيم العليم فيما قضى وقدر، سواءٌ علمنا حكمته، أو لم نعلم، وقد تخفى علينا الحِكَم، وقد يظهر بعضها، فالاعتراض ممنوع في باب القدر، ومحظور على العبد أن يعترض على سيده ومولاه، ولهذا قال المصنف رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "كما قال تعالى في كتابه: ﴿لَا يُسۡـَٔلُ عَمَّا يَفۡعَلُ وَهُمۡ يُسۡـَٔلُونَ﴾ [سورة الأنبياء، من الآية:٢٣]، **فهو سبحانه أخبر في محكم تنزيله القرآن المبين أنّه سبحانه ليس لأحدٍ أن يعترض عليه، فيسأل: لِـمَ فعل ذلك؟ ولِـمَ لَـمْ يفعل هذا، وذلك لأنّه ربٌّ مالكٌ علّامٌ، لا نهاية لعلمه، وكلّ مَن سواه مربوب مملوك جاهل لا يعلم شيئًا إلا بتعليمٍ؛ فليس للمملوك الجاهل أن يعترض على سيده العليم بكل شيء فيما**

يَفعل ويَقُول، وهم يُسْأَلُون لأنهم مملوكون مُسْتَعْبَدُون خطَّاؤون؛ فيقال لهم في كلّ شيء فعلوه لِـمَ فعلتم، ولِـمَ لَـمْ تفعلوه.

وَاعلم أن الاعتراض شُؤْمٌ يُسْخِطُ الرَّبَّ تعالى، ويوجب عقابه وسخطه، وبشؤم الاعتراض على الله في فعله لُعِنَ إبليسُ، وكان مِن مَرَدَةِ الكافرين؛ وهذا الاعتراض في شأن المخلوق فكيف بالاعتراض في شأن الخالق، وبالاعتراض على الله تعالى، هلك الهالكون مِن أهل الأهواء، وأرباب الآراء، تعمقوا فيما لم يتعمق فيه أصحاب رسول الله والتابعون ومن تبعهم من أهل الحق، وتكلفوا الخوض فيه؛ فوقعوا في الشبهات؛ فضلّوا وأضلّوا، ولو لَـمْ يَتَعَمَّقُوا لَسَلِمُوا.

وقد اتفقت كلمةُ أهلِ الحق على أن الاعتراض على الله الملك الحق في فعله، وما يُحْدِثُه في خلقه، كُفْرٌ وضلالة؛ فلا يجترئ عليه إلا كافرٌ، أو جاهلٌ، أو ضالٌّ.

ولهذا قال المصنّف رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **"فمن سأل: لم فعل؟ فقد رد حكم الكتاب، ومن ردّ حكم الكتاب؛ كان من الكافرين"**، وهذا حكمٌ من حيث العموم، وأما من حيث الخصوص فكل واحدٍ منهم فهو بحسبه؛ فقد يكون كافرًا، أو ضالًّا، أو جاهلًا، أو مخطئًا.

وها هنا عدة أسئلة لا يجوز من العبد في حق خالقه تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ، وهي: لِـمَ فعلَ هذا؟ ولِـمَ لَـمْ يفعل هذا؟ ومثله (لماذا؟)، و(هلا)، و(ألا)، ونحو ذلك من الأسئلة الّتي تدل أو تنبئ عن اعتراض على خلق الله تعالى، أو حكمته، أو فعله، أو قوله، أو شرعته.

وردّ حُكْمِ الكتاب كفرٌ وجحود، ولا يردّ ما في محكم التنزيل إلا كفورٌ كنود.

و (**الحُكْمُ**): الفصل بين المتنازعين، وفي الشّرع: مدلول الخطاب الشّرعي، سواءٌ كان خبرًا، أو حِلًّا أو تحريمًا.

و "**حُكْم الكتاب**" مدلوله، ومنطوقه، سواء كان خبرًا كما في الآية الّتي استدل بها المصنّف رَحِمَهُ ٱللَّهُ، أو كان مدلوله أثرًا بالحلّ والحرمة.

و "**الكتاب**" القرآنُ الكريم، وهو اسمٌ من أسمائه الكثيرة، وسُمِّيَ بـ(**الكتاب**) على المصدرية؛ لأنّه مجموعٌ في مكان واحدٍ؛ فهو مكتوبٌ في اللوح المحفوظ، ومكتوب في السّماء الدّنيا في بيت العزة، وفي مصاحف المسلمين؛ فعلى هذا يكون المصدر بمعنى اسم المفعول.

ويأتي الاسم المصدري (**الكتاب**) بمعنى اسم الفاعل، بمعنى أنّه (كتابٌ) جامعٌ فيه كلّ ما نحتاج إليه.

وإنما كان المعترض في باب القدرِ من الكافرين لأنه سار على طريق إبليس في الاعتراض، وعلى سبيل المشركين في الخصومة في القدر، كما جاء في حديث أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ قَالَ: "جَاءَ مُشْرِكُو قُرَيْشٍ يُخَاصِمُونَ رَسُولَ اللهِ صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ فِي الْقَدَرِ، فَنَزَلَتْ ﴿يَوۡمَ يُسۡحَبُونَ فِي ٱلنَّارِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمۡ ذُوقُواْ مَسَّ سَقَرَ ۝٤٨ إِنَّا كُلَّ شَيۡءٍ خَلَقۡنَٰهُ بِقَدَرٖ﴾ [سورة القمر، من الآية:٤٨-٤٩] [رواه مسلم].

وخلاصة دلالة كلام المصنّف رَحِمَهُ ٱللَّهُ: تقرير أن القدر سرٌّ مغيبٌ؛ كما روي عن عدد من السلف كعلي بن أبي طالبٍ وابن عباس رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمْ، وطاوس،

ومراده أنه لا ينبغي الخوض فيه بغير النص؛ ويجب إنكار التّعمّق والخوض فيه بمجرد الآراء؛ لأنه سبب للحرمان، وموصلٌ للطغيان؛ فالواجب الحذر من هذا الباب، والتسليم لله عَزَّوَجَلَّ، مع اليقين بأنه تعالى قدره مبني على الحكمة فضلًا وعدلًا؛ فلا ينبغي الخوض فيه بـ (لِمَ؟)، و(لماذا؟)؛ لأن هذا الاعتراض إنما يكون من العبيد بعضهم لبعض، وليس للعبد الاعتراض على الله، وإن لم يدرك الحكمة فعليه أن يجزم بها؛ لأن الله تعالى لا يسأل عما يفعل وهم يسألون وهو سبحانه الحكيم العليم الخبير.

❁❁❁

[الاعتقاد يصح بقبول العلم الموجود]

فَهَذَا جُمْلَةُ مَا يَـحْتَاجُ إِلَيْهِ مَنْ هُوَ مُنَوَّرٌ قَلْبُهُ مِنْ أَوْلِيَاءِ اللهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى، وَهِيَ دَرَجَةُ الرَّاسِخِينَ فِي الْعِلْمِ؛ لِأَنَّ الْعِلْمَ عِلْمَانِ: عِلْمٌ فِي الْـخَلْقِ مَوْجُودٌ، وَعِلْمٌ فِي الْـخَلْقِ مَفْقُودٌ، فَإِنْكَارُ الْعِلْمِ الْمَوْجُودِ كُفْرٌ، وَادِّعَاءُ الْعِلْمِ الْمَفْقُودِ كُفْرٌ.

وَلَا يَصِحُّ، وَلَا يَثْبُتُ الْإِيـمَانُ إِلَّا بِقَبُولِ الْعِلْمِ الْمَوْجُودِ، وَتَرْكِ طَلَبِ الْعِلْمِ الْمَفْقُودِ.

﴿ الشرح ﴾

هذا تقريرٌ من المصنّف رَحِمَهُ ٱللَّهُ في بيان الحرص على العلم النّافع، والبعد عن العلوم الضارة، ووجه تعلقه بمسائل الاعتقاد من جهة كون العلم النافع سبب للإيمان، والعلم الضار سبب للخذلان.

قول المصنّف رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **"فهذا جملة ما يحتاج إليه"** أي ما مضى ذكره من المسائل الاعتقادية، **"جملة ما يحتاج إليه"** أي مجموع ما يحتاج إليه، و **"جُمْلَة"** الشيءِ جماعته ومُجْتَمَعه، والمراد أن هذه العقيدة فيها مجموع ما يحتاج إليه في العقائد، وليس فيه تفصيل كلّ مسائل الاعتقاد، والذي يحتاج إليه في العقائد ما يتعلق بأركان الإيمان الستة، ولوازمها، ومقتضياتها، والمنهج المتبع في سبيل هذا الاعتقاد.

و **"يحتاج"** من الحاجة، وهي: العَوَز والحاجة والفقرُ، والمساعدة، وما يتطلب ذلك الأمر، فكل ما يغنينا جملة، ويسد حاجتنا إجمالًا، ويبعدنا عن

الإعواز والفقر في باب العقائد، موجود في هذه الرسالة؛ فهي تساعدنا وتأخذ بقلوبنا إلى ما يتطلبه الأمر في باب الاعتقاد.

وهذا إنما هو بالنسبة إلى المتبع، بالنسبة إلى **"مَن هو مُنَوَّرٌ قلبه من أولياء الله تعالى"**؛ وأما المعاندون فلا تكفيهم مثل هذه الجمل، ولا مثل هذه العقيدة، وإنما هي لمن تنوَّر بنور الكتاب والسنة، بنور الوحيين، بالنور المنزل من السّماء لحياة الأرواح؛ فـ**"هو مُنَوَّرٌ قلبه"**، و **"منوَّر"** اسم مفعول من (نَوَّرَ)، بمعنى أَضاءَ، وقلبٌ منوَّرٌ أي مضيءٌ، ولا يضيء القلب إلا أن يكون فيه نور الإيمان، ونور القرآن، ونور الوضوء والصلاة والصدقات والطاعات؛ فقلبه نورٌ على نورٌ، وحينها يصل إلى مرتبة **"أولياء الله تعالى"**.

و **"أولياء"** جمعُ وَلِيٍّ، وهو المحبوب الّذي يتولى أمر حبيبه وصاحبه، وقام بأمره، ونَصَرَه، هذا من حيث اللغة.

وأما أولياء الله تعالى شرعًا؛ فهم: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ﴾ [سورة فصلت، من الآية:١٨].

ومن ثمرات هذه الوَلاية: ﴿لَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ﴾ [سورة يونس، من الآية:٦٢]، و ﴿لَهُمُ ٱلۡبُشۡرَىٰ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَفِي ٱلۡأٓخِرَةِ﴾ [سورة يونس، من الآية:٦٦٦].

فإن قيل: بأي شيء ننال وَلاية الله تعالى؟

فالجواب: أنّ وَلاية الله تعالى تُنال بأمورٍ، ومنها:

الأمر الأوّل: اتباع العلم المنزل، القرآن والسنة وفهم سلف الأمة، والبعد عن العلوم الـمُحدثة في الدّين.

الأمر الثّاني: البحث عن أسباب زيادة الإيمان، وزيادة اليقين، ولزومها.

الأمر الثّالث: طاعة الله تعالى، وفعل الواجبات، وترك المحرمات، والإكثار من نوافل العبادات، وترك المكروهات؛ كما قال تعالى: ﴿وَهُوَ وَلِيُّهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعۡمَلُونَ﴾ [سورة الأنعام، من الآية:١٢٧].

الأمر الرّابع: الرضا التام بالقدر، والصبر على المقدور، مع فعل والتزام الشّرع المبرور، وسلّم هذه المرتبة التّوكّل، قال الله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ وَلِيُّهُمَاۗ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلۡيَتَوَكَّلِ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ﴾ [سورة آل عمران، من الآية:١٢٢].

والوَلاية مرتبةٌ من مراتب المتقين، **"وهي درجةُ الراسخين في العلم"**، و(الرّاسخ) هو الثابت على الحق، العامل به.

ومن علامات الرّاسخين: أنهم يعلمون ويعملون، ويتبعون ولا يبتدعون، ويتشبثون بالمحكم، ولا يخوضون في المتشابه، ويحيلون المتشابه إلى المحكمات.

فإن قيل: فما درجات الناس في العلم؟

فالجواب: أنّ النّاس في العلم على ثلاث درجات:

الدّرجة الأولى: درجة الراسخين في العلم، وهم المستنبطون، الذاكرون الله كثيرًا، الحافظون لكتاب الله تعالى، وسنة رسوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، الحافظون لحدود الله تعالى.

الدّرجة الثّانية: مَن دونهم، وهم عامة أهل العلم، والمنتسبين إليه.

الدّرجة الثّالثة: طلاب العلم، الحريصون على طلبه، وتحصيله.

وذكر المصنّف رَحِمَهُ اللَّهُ علامة من علامات الراسخين، وهو كونهم متوقفون عند العلم الموجود، دون العلم المفقود؛ فقال: **"لأن العلم علمان"**، أي أن العلم الإلهيّ نوعان؛ نوعٌ معلومٌ معروفٌ موجودٌ يمكن إدراكه، والاطلاع عليه، ونوعٌ غيرُ منصوصٍ، وهو من الغيب الذي لا يمكن الاطلاع عليه.

و **"العِلْم"** لغة بمعنى المعرفة، وهو كلمة جامعة نافية للجهل بمعنى: إدراك الشيء على حقيقته، وإدراك الحكم بدليله، أو إدراك المعلوم بأعلامه، وإذا وَافَقَ العلمُ العملَ؛ فهو نورٌ يقذفه الله في قلبِ مَن يُحِبُّ من عباده.

و **"العِلْمُ"** مصدرٌ يطلق على ثلاثة معانٍ:

المعنى الأوّل: بمعنى المصدرية، وهو الثابت المتقرر منه، وجودًا وحُكْمًا، وإدراكًا، ومعرفة.

المعنى الثّاني: بمعنى اسمُ مفعوله، وهو ما يتعلق بالمعلوم، والمحكوم به، أو له، أو عليه.

المعنى الثّالث: بمعنى فِعْلِه، وهو طريقة تحصيله، وطريقة معرفة أدلته، وهو فعل العالِم، وبحثه، ومقدرته على ذلك.

ومجموع هذه الثلاثة يسمى علمًا.

وهذا العلم الشّرعي "**عِلْمَان**" أي نوعان من العلم، وفسر النوعين بقوله: "**عِلْمٌ في الخلق موجودٌ، وعلم في الخلق مفقود**" أي علمٌ ثابتٌ، وليس من الغيب؛ وأدلته ظاهرة، وعلمٌ مُغَيَّبٌ، ودلائله غير ظاهرة، ولا مُبَيَّنة.

و "**موجود**" اسمُ مفعولٍ بمعنى ثابتٌ وجوده، ومتقرر حقيقته، وظاهرٌ دليله، وهو الّذي يمكن تحصيله وإدراكه، وهو ثابتٌ في الذهن وفي الحقيقة، ومن هذا النوع: علم أدلة العقائد، وآيات الصّفات، ومعرفة معاني هذه الأدلة والآيات.

و (**الوجود**): ضدّ العدم، وهو ما ثبت وجوده وتقرر، وما يمكن الإشارة إليه فهو ثابت وجوده، وقد يطلق على المكان والزمان، وعلى الذوات والأوصاف، والوجود أنواعٌ، ولكل نوعٍ حكمٌ وآثارٌ.

فإن قيل: فما أنواع الوجود؟

فالجواب: أنواع الوجود أربعة:

النّوع الأوّل: وجود ذهني، علمي، خيالي؛ كعلمنا وتخيلنا وجود آدم ونوح وإبراهيم عَلَيْهِمُ السَّلَامُ، فيما سبق من الأزمان، ويدخل في هذا النوع الوجود العدمي، أو تصور المعدوم.

النّوع الثّاني: وجود خارجي، حقيقي، مشار إليه؛ كما كان وجود آدم ونوح

وإبراهيم عَلَيۡهِمُ ٱلسَّلَامُ في زمن وجودهم.

النّوع الثّالث: وجود لفظي، وكلمي، وقولي، كنطقنا لاسم آدم ونوح وإبراهيم عَلَيۡهِمُ ٱلسَّلَامُ.

النّوع الرّابع: وجود خطي، ورسمي، وكتابي، ككتابتنا لاسم آدم ونوح وإبراهيم عَلَيۡهِمُ ٱلسَّلَامُ.

و **"مفقود"** اسمٌ مفعولٍ بمعنى غير ثابت وجوده، وغير مُدْرَكٍ حقيقته، وخفيٌّ دليله، وهو الّذي لا يمكن تحصيله وإدراكه، وذلك لعدم وجود دليله، ولعدم مقدرة العقل على إدراكه بمفرده، دون علمٍ منقول، وذلك لأنه غيب، ومن هذا النوعِ علمُ كيفيات الصّفات، وكيفيات الغيبيات، ومنها ما في الجنّة والنّار، وما في عالم الأبديات.

فالموجودُ لا يجوز رده وإنكاره، والمفقود لا يجوز البحث فيه وادِّعاؤه، ولهذا قال المصنّف رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **"فإنكار العلم الموجود كفر، وادعاء العلم المفقود كفر"**؛ فمن أنكر المعلوم وقع في الكفر، ومن ادعى المغيب فقد وقع في الكفرِ، وذلك لأنا أُمرنا بالإيمان بالعلم الموجود، وأمرنا بالكف وعدم الخوض في العلم المفقود، قال تعالى: ﴿قُلۡ هَلۡ عِندَكُم مِّنۡ عِلۡمٖ فَتُخۡرِجُوهُ لَنَآۖ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنۡ أَنتُمۡ إِلَّا تَخۡرُصُونَ ﴿١٤٨﴾ قُلۡ فَلِلَّهِ ٱلۡحُجَّةُ ٱلۡبَٰلِغَةُۖ فَلَوۡ شَآءَ لَهَدَىٰكُمۡ أَجۡمَعِينَ﴾ [سورة الأنعام، من الآية:١٤٨-١٤٩]، ففي الآية الأولى ذم من اتبع

الظن، وصار إلى التخرص، وفي الثانية العلم بالحجة البالغة، ومنها أن الله تعالى قادرٌ على جبر العباد، وهدايتهم جميعًا لو شاء ذلك.

وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ لَيُسَمُّونَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ تَسْمِيَةَ ٱلْأُنثَىٰ ﴿٢٧﴾ وَمَا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ ۖ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ ۖ وَإِنَّ ٱلظَّنَّ لَا يُغْنِى مِنَ ٱلْحَقِّ شَيْـًٔا﴾ [سورة النجم، من الآية:٢٧-٢٨]؛ ففي الآية ذم الخائضين بالغيب ولو في الأسماء والأوصاف المتعلقة بالملائكة، وأنهم جهلة، وليس عندهم إلا التخرص، الّذي لا ينفع بل يضر، ولا يغني التخرص من الحق الخالص شيئًا، ولهذا لا يمكن بقاء الإيمان إلا بالتسليم للعلم الموجود، وترك التنقيب عن العلم المفقود، ولهذا قال المصنّف رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **"ولا يثبت الإيمان إلا بقبول العلم الموجود وترك طلب العلم المفقود"**، أي لا يستقر، ولا يزيد، ولا يبتعد عن الشك والشبهات، وعن التزلزل والضعف، إلا بقبول العلم المنزَّل الموجود، والاكتفاء به، وعدم الخوض في العلم المغيب، المختص به، الّذي هو عند الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ.

ومراد المصنّف رَحِمَهُ ٱللَّهُ مِن هذا بيان أن العلم الموجود هو العلم المنصوص عليه في الكتاب والسنة، سواء ما تعلق بالقدر وقضاء الله عَزَّوَجَلَّ، أو ما تعلق بأخبار الله عَزَّوَجَلَّ عن نفسه، كما قال سبحانه: ﴿وَأَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ ۚ وَكَانَ فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا﴾ [سورة النساء، من الآية:١١٣]؛ فهذا يجب قبوله، وإنكاره كفر، ورده جحود.

وأما العلم المفقود وهو (العلم الغيبي) ومن ذلك ما يتعلق من المسائل في سرِّ الله عَزَّوَجَلَّ في القدر، وفي الرّبوبيّة؛ فادِّعاء هذا النوع كفر، والخوض به باطل، والدليل على هذا النوع قوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌۚ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُو۟لَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا﴾ [سورة الإسراء، من الآية:٣٦].

والإيمان يثبت باتباع وقبول العلم المنزل، وترك الخوض في العلم المغيَّب.

❊❊❊

[الاعتقاد في اللوح والقلم]

وَنُؤْمِنُ بِاللَّوْحِ وَالْقَلَمِ، وَبِجَمِيعِ مَا فِيهِ قَدْ رُقِمَ؛ فَلَوِ اجْتَمَعَ الْخَلْقُ كُلُّهُمْ عَلَى شَيْءٍ قَدْ كَتَبَهُ اللهُ تَعَالَى فِيهِ أَنَّهُ كَائِنٌ لِيَجْعَلُوهُ غَيْرَ كَائِنٍ لَمْ يَقْدِرُوا عَلَيْهِ، وَلَوِ اجْتَمَعُوا كُلُّهُمْ عَلَى شَيْءٍ لَمْ يَكْتُبْهُ اللهُ تَعَالَى فيه لِيَجْعَلُوهُ كَائِنًا لَمْ يَقْدِرُوا عَلَيْهِ، قَدْ جَفَّ الْقَلَمُ بِمَا هُوَ كَائِنٌ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ.

وَمَا أَخْطَأَ الْعَبْدَ لَمْ يَكُنْ لِيُصِيبَهُ، وَمَا أَصَابَهُ لَمْ يَكُنْ لِيُخْطِئَهُ، وَعَلَى الْعَبْدِ أَنْ يَعْلَمَ أَنَّ اللهَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى قَدْ سَبَقَ عِلْمُهُ فِي كُلِّ كَائِنٍ مِنْ خَلْقِهِ؛ فَقَدَّرَ ذَلِكَ بِمَشِيئَتِهِ تَقْدِيرًا مُحْكَمًا مُبْرَمًا، لَيْسَ فِيهِ نَاقِضٌ وَلَا مَنْقُوضٌ، وَلَا مُعَقِّبٌ، وَلَا مُزِيلٌ، وَلَا مُغَيِّرٌ، وَلَا مُحَوِّلٌ، وَلَا نَاقِصٌ، وَلَا زَائِدٌ مِنْ خَلْقِهِ فِي سَمَاوَاتِهِ وَأَرْضِهِ.

﴿ الشرح ﴾

هذا تقريرٌ من المصنّف رَحِمَهُ ٱللَّهُ في بيان مسائل متعلقة بالقدر، ومن ذلك كتابة كل ما هو كائن، وأنه لا تغيير فيه، وأن ما شاءه الله فهو كائن، وما لم يشأه لم يكن.

وقوله: **"ونؤمن باللوح"** أي أن مما يجب الإقرار به في باب العقائد، الإيمان باللوحِ المحفوظِ، وما كتب فيه مما هو كائن إلى يوم القيامة.

و **"اللوح"** في اللغة كلّ صحيفة عريضة أيًّا كان جنسها ومعدنها، **والمراد هنا:** اللّوح المحفوظ، الوارد ذِكْرُه في سورة البروج في قوله تعالى: ﴿بَلْ هُوَ قُرْءَانٌ

﴿مَّجِيدٞ ٢١ فِي لَوۡحٖ مَّحۡفُوظِۭ﴾ [سورة البروج، من الآية:٢١-٢٢]، وقراءة الجرِّ لكلمة ﴿مَّحۡفُوظِۭ﴾ تدل على أنّ ما في اللوحِ محفوظ لا يتغير؛ فإنّ ما فيه مصونٌ عن كلّ تغيير، أو زيادة أو نقصٍ.

و"**اللوح**" أيضًا هو الكتاب المكنون الّذي ورد ذكره في سورة الواقعة في قوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ لَقُرۡءَانٞ كَرِيمٞ ٧٧ فِي كِتَٰبٖ مَّكۡنُونٖ ٧٨ لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلۡمُطَهَّرُونَ﴾ [سورة الواقعة، من الآية:٧٧-٧٩]، ومعنى ﴿مَّكۡنُونٖ﴾ كمعنى ﴿مَّحۡفُوظِۭ﴾، وزيادة الدلالة على أنه غيبٌ، لا يمكن الاطلاع عليه إلا بإذن الله تعالى.

ولا يجوز إنكار كون كلّ شيء مكتوبًا في اللوح المحفوظِ، وهذا من القدر الّذي جحده وإنكاره كفرٌ، وهو من العلم الموجود.

ولا يجوز ادعاء ماهية اللوح المحفوظ، والخوض في جنسه، وحقيقته، وما فيه من المغيبات، وهذا القدر البحث فيه ضلال وتخرص، وهو من العلم المفقود.

وهكذا يجب الإيمان بأن الله تعالى قد خلق قلمًا، وأمر هذا القلمَ أن يكتب كلّ ما هو كائن إلى يوم القيامة، في ذلك اللوح، ولهذا قال المصنّف رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "**ونؤمن باللوح والقلم**"، والمقصود بهذا (**القلم**) ما جاء في حديث عبادةُ بن الصَّامت رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ لابنه: (يا بُنيَّ إنَّك لن تَجِدَ طعمَ حقيقةِ الإيمان حتّى تَعلمَ أن ما أصابَكَ لم يكُنْ ليُخْطئَكَ، وما أخطَاكَ لم يكُنْ ليُصيبَك، سمعتُ رسولَ الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقول: "**إنّ أوّلَ ما خلقَ اللهُ القلمُ، فقال له: اكتُبْ، قال: ربِّ، وماذا أكتُبُ؟ قال: اكتُبْ مقاديرَ كلّ شيءٍ حتّى تقومَ الساعةُ**"، يا بني، إني

سمعتُ رسولَ الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقول: **"مَنْ ماتَ على غير هذا فليسَ منّي"** [رواه أبو داود، والترمذي، وقال: حسن صحيح غريب].

ودلّ على إثبات أن كلّ شيءٍ كائن قد كتب بالقلم في اللوح المحفوظ حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مرفوعًا: **"يَا أَبَا هُرَيْرَةَ جَفَّ القَلَمُ بِمَا أَنْتَ لاَقٍ"** [رواه البخاري].

ولا يجوز ادعاء ماهية القلم، والخوض في جنسه، وحقيقته، وما كتب به، وكل ذلك مِن المغيبات، وهذا القدر هو من العلم المفقود أيضًا.

ولا يجوز إنكار العلم الموجود وهو كتابة القدر في اللوح المحفوظ بالقلم، وأنه قد تم وقضي منه، ولهذا قال المصنّف رَحِمَهُ اللَّهُ: **"وبجميع ما فيه قد رقم"** أي نقر بأن كلّ ما في اللوحِ المحفوظِ المصون قد كُتِب وفُرِغَ منه.

و **(الرَّقْمُ)** العلامة، ومنه رقْمُ الثَّوْبِ أي علامته، والخط الغليظُ، الّذي لا يقبل التغيير، **والمقصود هنا**: أنه قد تم وضع بدايات ونهايات وعلامات كلّ شيءٍ، وأنه قد كتب بخطٍّ واضح جليٍّ، قد بُيِّنَت حروفه، وجُلِّيَت حركاتُه، فهو مكتوبٌ مفروغٌ منه، لا يزيدُ فيه أحدٌ ولا يُنقصُ منه أحدٌ، ولهذا قال المصنّف رَحِمَهُ اللَّهُ: **"فلو اجتمع الخلق كلهم على شيء كتبه الله تعالى فيه أنه كائن؛ ليجعلوه غير كائن لم يقدروا عليه"**، وذلك لأن الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ هو الْمُكَوِّنُ الخالقُ ابتداء مادة وتركيبًا، وخَلْقًا وتصنيعًا وإيجادًا وسببًا، ولأنّه لا أحد يقدر على أن يفعل شيئا لم يقدره الله تعالى؛ فما قال عنه إنّه كائنٌ؛ فلا بد وأن يكون كائنًا، فلا رادّ لقضاء

الله تعالى، ولا معقب لحكمه، ولهذا قال تعالى: ﴿إِنَّمَآ أَمۡرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيۡـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ۝٨٢ فَسُبۡحَٰنَ ٱلَّذِي بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيۡءٖ وَإِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ﴾ [سورة يس، من الآية:٨٢-٨٣]؛ فهو سبحانه إذا قدر شيئًا كائنًا لم يمكن عدم كينونته، كما أنه سبحانه إذا لم يُرد شيئًا لم يمكن كينونته، ولهذا قال المصنّف رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **"ولو اجتمعوا كلهم على شيء لم يكتبه الله تعالى فيه؛ ليجعلوه كائنا لم يقدروا عليه"**، وهذا أمرٌ واضحٌ؛ فإن الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ هو وحده الخالقُ الْمُكَوِّنُ، ومَن سواه مخلوقٌ مُكَوَّنٌ؛ فكيف يقدر المخلوق المفتقر المحتاج إلى أن يفعل فعلًا لا يريده خالقه!؟ قال تعالى: ﴿قُلۡ أَرَءَيۡتُمۡ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيۡكُمُ ٱلَّيۡلَ سَرۡمَدًا إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ مَنۡ إِلَٰهٌ غَيۡرُ ٱللَّهِ يَأۡتِيكُم بِضِيَآءٍۚ أَفَلَا تَسۡمَعُونَ ۝٧١ قُلۡ أَرَءَيۡتُمۡ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيۡكُمُ ٱلنَّهَارَ سَرۡمَدًا إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ مَنۡ إِلَٰهٌ غَيۡرُ ٱللَّهِ يَأۡتِيكُم بِلَيۡلٖ تَسۡكُنُونَ فِيهِۚ أَفَلَا تُبۡصِرُونَ﴾ [سورة القصص، من الآية:٧١-٧٢].

و **"يجعلوه"**: أي يصيروه غير كائنٍ، ويضعوه على غيرِ مرادِ الله تعالى، فلا يقدرون على ذلك.

ومعنى **"كائن"** اسم فاعلٍ بمعنى الصفة، وهو الشيءُ الموجود، والمحدَث، والْمُكَوَّن، والجمع (**كوائنٌ**، وكائناتٌ)، وقد يُطلق على كلّ موجود، وقد يطلق على الحيِّ، وقد يطلق على المكان، وعلى الزمان، وعلى الحدث.

وكل الكائنات مخلوقة لله تعالى؛ وبإرادة الله تعالى؛ فلا أحد يقدرُ على تغيير مراد الله تعالى، وما قدره الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى، ولهذا قال المصنّف رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **"جف القلم بما هو كائن إلى يوم القيامة"**.

و **"جَفَّ"** بمعنى يَبِسَ، ولا يكون إلا بعد ندًى، وهو النُّشُوف، كناية عن أن ما كتب بالقلم قدِ انْتُهِيَ منه، وأنه لا يمكن محوُه، وإزالته، فما كُتِب فإنه مفروغٌ منه، وذلك لأنّ علم الله تعالى لا يطرأ عليه خطأ؛ فهو سبحانه علِم أن فلانًا يختار الكفر فلم يمنعه من ذلك، وكتبه كذلك، وعلم أن فلانًا يختار التقي فلم يمنعه من ذلك، وكتبه كذلك؛ وأعانه على ذلك.

و **"يوم القيامة"** اسمٌ من أسماء اليوم الآخر، وسُمِّي بيوم القيامة لأن النّاس يقومون ويُبعثون من قبورهم للحساب، والوقوف بين يدي العزيز الوهاب، وهو يوم انبعاثٍ من الموتِ، وبه سمَّى الله تعالى سورة من سور القرآن وهي سورة القيامة، ولها أسماء كثيرة، ومنها: البعث، والنشور، والطامة، والصاخة، والقارعة، والواقعة...إلخ.

وكون المقادير مكتوبة، وأن القدر مكتوبٌ مفروغٌ منه؛ فهذا قد جاء في القرآن مزبورًا، وفي الأحاديث والسنن مسطورًا، وهذه الكتابة من حيث زمانه متنوعٌ، كلّ واحدٍ منه مُؤَكِّدٌ للآخرِ، ونَسْخٌ له، وهذه الأنواع هي:

النّوع الأوّل: الكتابة أولُ ما خلق الله القَلَمَ، كما في الأحاديث السابقة.

النّوع الثّاني: الكتابة قبل خلق آدم بأربعين سنة، وجاء هذا في حديث أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يقُولُ: قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **"احْتَجَّ آدَمُ وَمُوسَى، فَقَالَ مُوسَى: يَا آدَمُ أَنْتَ أَبُونَا خَيَّبْتَنَا وَأَخْرَجْتَنَا مِنَ الجنّة، فَقَالَ لَهُ آدَمُ: أَنْتَ مُوسَى، اصْطَفَاكَ اللهُ بِكَلَامِهِ، وَخَطَّ لَكَ بِيَدِهِ، أَتَلُومُنِي عَلَى أَمْرٍ قَدَّرَهُ اللهُ عَلَيَّ قَبْلَ أَنْ يَخْلُقَنِي بِأَرْبَعِينَ سَنَةً؟"** فَقَالَ النّبيّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **"فَحَجَّ آدَمُ مُوسَى، فَحَجَّ آدَمُ مُوسَى"** [رواه البخاري ومسلم، وهذا لفظه].

النّوع الثّالث: الكتابة العمرية في رحم المرأة لكل مخلوق كان في الرَّحِم، وجاء هذا في حديث عَبْدِ اللهِ بْنَ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قالَ: حَدَّثَنَا رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَهُوَ الصَّادِقُ المَصْدُوقُ: **"أَنَّ خَلْقَ أَحدِكُمْ يُجْمَعُ فِي بَطْنِ أُمِّهِ أَرْبَعِينَ يَوْمًا أَوْ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً، ثُمَّ يَكُونُ عَلَقَةً مِثْلَهُ، ثُمَّ يَكُونُ مُضْغَةً مِثْلَهُ، ثُمَّ يُبْعَثُ إِلَيْهِ المَلَكُ فَيُؤْذَنُ بِأَرْبَعِ كَلِمَاتٍ، فَيَكْتُبُ: رِزْقَهُ، وَأَجَلَهُ، وَعَمَلَهُ، وَشَقِيٌّ أَمْ سَعِيدٌ، ثُمَّ يَنْفُخُ فِيهِ الرُّوحِ..."** [رواه البخاري ومسلم].

النّوع الرّابع: الكتابة السنوية الحولية الّتي تكون في ليلة القدرِ، قال الله تعالى: ﴿حمٓ ۝١ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ۝٢ إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ ۚ إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ ۝٣ فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ﴾ [سورة الدخان، من الآية: ١-٤].

النّوع الخامس: الكتابة اليومية لأعمال كلّ إنسانٍ، وهذه الكتابة إنما هي للوقائع وَفْق التقدير السابق؛ فهي بعد الوقوع، قال الله تعالى: ﴿وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَٰفِظِينَ ۝١٠ كِرَامًا كَٰتِبِينَ﴾ [سورة الانفطار، من الآية: ١٠-١١].

وهذا كله باعتبار زمن الكتابة، وأما باعتبار مكان الكتابة؛ فعلى النحو الآتي:

المكان الأوّل: الكتابة في اللوح المحفوظ؛ وهو الكتاب المكنون؛ وكما سبق ذكر الأحاديث في ذلك.

المكان الثّاني: الكتابة في لوحِ كلّ إنسان.

المكان الثّالث: الكتابة الحولية، وهذه في الكتاب المبين.

فكل ما كان، وما هو كائن الآن، وما سيكون إلى يوم القيامة، هو مكتوب في اللوح بالقلم، وجف بذلك المداد، وقضى منه رب العباد؛ فلا ينقص منه ولا يُزاد، فما وقع لا يمكن دفعه ولا رفعه، وما لا يقع لا يمكن وَقْعُه، ولهذا قال المصنّف رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **"وما أخطأ العبد لم يكن ليصيبهُ، وما أصابه لم يكن ليخطئه"**، فكل شيءٍ بقدرٍ، كما قال الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَآئِنُهُۥ وَمَا نُنَزِّلُهُۥٓ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ﴾ [سورة الحجر، من الآية:٢١]، وقال تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءًۢ بِقَدَرٍ﴾ [سورة المؤمنون، من الآية:١٨]، وقال: ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَٰهُ بِقَدَرٍ﴾ [سورة القمر، من الآية:٤٩].

و **"ما"** موصولة بمعنى: والذي أخطأ العبد لم يكن ليصيبه، ويحتمل أن تكون نكرة بمعنى: وشيئًا أخطأ العبد لم يكن ليصيبه.

و **"أخطأ"** فعلٌ ماضٍ من (**الإخطاء**)، وهو عدم الإصابة، وهنا بمعنى الّذي جاوز العبدَ ولم يُصِبْهُ من الأحداث الواقعة، كما جاء في حديث ابن الدَّيْلَمِيِّ، قال: (أتيتُ أبيَّ بن كعب رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ فقلت له: وقع في نفسِي شيء من القَدَرِ،

فحدّثْني بشيءٍ لعلَّ الله عَزَّوَجَلَّ أن يُذهِبَه مِن قلبي، قال: "**لو أنَّ الله عذَّبَ أهل سماواتِه وأهلَ أرضه، عذبَهم وهو غيرُ ظالم لهم، ولو رَحِمَهم، كانت رحمتُه خيرًا لهم من أعمالهم، ولو أنفقتَ مثل أُحُدٍ ذهبًا في سبيل الله ما قبلَه الله منكَ حتّى تؤمنَ بالقَدَر، وتعلَمَ أن ما أصابَكَ لم يَكُنْ ليُخطئَكَ، وأنَّ ما أخْطاكَ لم يكُنْ ليُصيبكَ، ولو مُتَّ على غير هذا لدخلتَ النّار**".

قال: ثم أتيتُ عبدَ الله بن مسعود، فقال مثل ذلك.

قال: ثم أتيتُ حذيفةَ بن اليمان، فقال مثل ذلك.

قال: ثم أتيتُ زيدَ بن ثابت؛ فحدثني عن النّبيّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مثل ذلك) [رواه أبو داود، وابن ماجه، وصححه ابن حبان].

فما أصاب العبد لم يكن ليخطئه، وما أخطأه لم يكن ليصيبه، كما قال الله تعالى: ﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا فِيٓ أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَآۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴿٢٢﴾ لِّكَيْلَا تَأْسَوْاْ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُواْ بِمَآ ءَاتَىٰكُمْۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ﴾ [سورة الحديد، من الآية:٢٢-٢٣]، وقال سبحانه: ﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِۗ وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُۥۚ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [سورة التغابن، من الآية:١١].

و "**العبدُ**" اسمُ جنسٍ يطلق على الرَّقيق، وعلى كلّ إنسانٍ حرًّا كان أو عبدًا؛ لأنّه مربوبٌ لله عَزَّوَجَلَّ، ويجمع على عبيدٍ، وعُبُدٍ، وأعبُدٍ، وعُبدَان؛ فكل الخلقِ عبيدٌ لله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ، وهذه العبودية منقسمة إلى قسمين:

العبودية الأولى: عبودية عامَّة، بمعنى أنهم لا يخرجون عن أمره الكوني، وقضائه الأزلي، فهي عبودية قهرية، وجاء في هذا المعنى قوله تعالى: ﴿إِن كُلُّ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ إِلَّآ ءَاتِي ٱلرَّحۡمَٰنِ عَبۡدٗا﴾ [سورة مريم، من الآية:٩٣]، وهذه العبودية لا يترتب عليها ذمٌّ ومدحٌ، لأنها متعلقة بفعل الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ، ليس للعبد فيه كسبٌ أو دخلٌ، وهو دليل للعبودية الخاصة.

العبودية الثانية: عبودية خاصة، وهي بمعنى الطاعة والانقياد طواعية، وهو المراد من الثقلين؛ الإنسِ والجنِّ، وعلى هذا يُمدح العبدُ، ويثابُ، وعلى تركه يُذَمُّ ويُعاقب، قال الله: ﴿ٱعۡبُدُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُمۡ وَٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ﴾[سورة البقرة، من الآية:٢١]، وهذه العبودية بمعنى التألّه، والتعبُّد.

ومعنى "**ليصيبه**" أي بمعنى ينزل عليه، ولا يُخْطِئُه، فكل شيء عند الله تعالى مقدر بمقدار معين، لا يقع في هذا التقدير أي خطأ سواء من جهة الترك، أو من جهة الفعل والإصابة.

وإذا كان المهندس الّذي يبني بيتًا يعلم أدق التفاصيل في بنائه من ابتدائه حتّى انتهائه؛ بل ومدة بقائه، والإحاطة بمجريات أحواله وتعريه؛ فكيف بالخالق العليم الحكيم الخبير سُبۡحَانَهُۥوَتَعَالَىٰ، ومن هنا فإن العبد يجب عليه أن يستقن

عقيدة بأن كلّ شيء مكتوب مقدر، وقد جمع الله قدره علمًا وكتابة ومشيئة وإيجادًا في قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۗ إِنَّ ذَٰلِكَ فِى كِتَٰبٍ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ﴾ [سورة الحج، من الآية:٧٠].

قوله: **"وعلى العبد أن يعلم أن الله قد سبق علمه في كلّ كائن من خلقه"** أي يلزم العبدَ ويجب عليه اليقينُ بأن الله تعالى عِلْمُه سابقٌ على خلقه، وذلك لأن المخلوقات محدَثاتٍ مصنوعاتٍ، وعلمُ الله تعالى صفة من صفاته، والله تعالى بصفاته الأزلي، وكلّ من سواه مخلوقٌ محدثٌ؛ ومعلوم أنّ عِلْمَ الصانعِ مقدمٌ على مصنوعه، وإلا كيف يكون صانعًا؟ قال الله تعالى: ﴿وَأَسِرُّوا۟ قَوْلَكُمْ أَوِ ٱجْهَرُوا۟ بِهِۦٓ ۖ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿١٣﴾ أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ ﴿١٤﴾ هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ ذَلُولًا فَٱمْشُوا۟ فِى مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا۟ مِن رِّزْقِهِۦ ۖ وَإِلَيْهِ ٱلنُّشُورُ﴾ [سورة الملك، من الآية:١٣-١٥]، وقال سبحانه: ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۗ إِنَّ ذَٰلِكَ فِى كِتَٰبٍ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ﴾ [سورة الحج، من الآية:٧٠].

و "سَبَقَ" فعلٌ ماضٍ من السَّبْقِ، وهو التقدم على الشيء، وكونُه قبلَه، ومنه فلانٌ سابقٌ إذا تقدم القوم وتجاوزهم.

ودل كلام المصنف رَحِمَهُ ٱللَّهُ أنّ الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ علمه سابق على خلقه، فعلِم، وخَبرَ، ثم خلقَ، وصنَع، وبرَأ، ولهذا قال المصنّف رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **"فقدر ذلك تقديرًا مُحْكَمًا مُبْرَمًا"** أي جعل لكل كائنٍ من خلقه شيئًا مقدّرًا مقضيا كما علِمَه.

و "**مُحْكَمًا**" بمعنى: مُتقنًا، منضبطًا، ليس فيه انخرامٌ، ولا خللٌ.

و "**مُبْرَمًا**" بمعنى المقطوعُ الّذي لا رجوعَ عنه، فكل قدرِ الله تعالى مقطوعٌ به، ولا رَجْعَةَ فيه لعظيم علم الله تعالى، وعظيم قدرته، وخِلقته، وصَنعته، ولهذا قال سبحانه: ﴿أَوَلَمۡ يَرَوۡاْ أَنَّا نَأۡتِي ٱلۡأَرۡضَ نَنقُصُهَا مِنۡ أَطۡرَافِهَاۚ وَٱللَّهُ يَحۡكُمُ لَا مُعَقِّبَ لِحُكۡمِهِۦۚ وَهُوَ سَرِيعُ ٱلۡحِسَابِ﴾ [سورة الرعد، من الآية:٤١].

فجميع قدرِ الله تعالى على هذا المنوال، ولهذا "**ليس فيه ناقِضٌ**" فلا أحد يمكن من الخلق أن ينقض ما أحكمه وأبرمه.

و "**ناقِضٌ**" اسمٌ فاعلٍ بمعنى خالِف له، ومعارض له، فليس أحدٌ يقدر كونًا أن يعاكِس قدرَ الله تعالى، ولهذا لما قدر أن الشمس تطلع من مشرقها، لا أحد يقدر على أن يأتي بها من الشمال أو الغرب، قال الله تعالى: ﴿قَالَ إِبۡرَٰهِـۧمُ رَبِّيَ ٱلَّذِي يُحۡيِۦ وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا۠ أُحۡيِۦ وَأُمِيتُۖ قَالَ إِبۡرَٰهِـۧمُ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَأۡتِي بِٱلشَّمۡسِ مِنَ ٱلۡمَشۡرِقِ فَأۡتِ بِهَا مِنَ ٱلۡمَغۡرِبِ فَبُهِتَ ٱلَّذِي كَفَرَۗ وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [سورة يونس، من الآية:٢٥٨]، وذلك لأنه "**لا مُعقّبَ**" لقضاء الله تعالى، ولا مناقض، و(**المعقّب**) اسمُ فاعلٍ من (عقّب، يُعقّب، تعقيبًا) إذا جاء بعده ليكمِّله، أو يتمّه، أو ينقضه، أو يستدرك عليه، وينتقده.

"**ولا مُزيلَ**"، وهو المغيرُ الشيء عن حاله إلى حالٍ أخرى، و(**المزيل**) اسمُ فاعل مِن (أزال، يزيل، إزالة) إذا محاه، وأبعده، وأذهبه.

ومهما حاوَلَ وزاولَ فلا أحد يقدر أن يزيل شيئًا من قدرِ الله تعالى، وهذا مشاهدٌ في العيان؛ فلا أحد يقدر أن يغير تاريخ ميلاده، ولا مكان ميلاده، ولا مكان وفاته، ولا أحدَ يقدر أن يغير الشمس والقمر والنجوم...إلخ؛ فهذا أعظم دليلٍ من الواقع أن الله تعالى هو المتصرف في مخلوقاته وَفق ما قدره أزلًا بعلمه للمعلومات مشاهدة، ولا قوة قادرة على إزالة شيء عن حاله.

"ولا مُغَيِّرَ" وهو المبدِّلُ، الّذي يغير الشيء من مكانه إلى مكانٍ، أو من زمانه إلى زمانٍ، أو من حاله إلى حالٍ، أو من جنسه إلى جنسٍ؛ فكل هذا منتفٍ؛ فدل أن قضاء الله واقعٌ وَفق علمه الأزلي، من غير تعقيبٍ ولا تبديل، و(**المغيِّر**) اسمُ فاعلٍ من (غيّر، يغيّر، تغييرًا) إذا حوّله من وجه إلى آخر؛ فلا يقدرُ عبدٌ مهما أوتي أن يغير مادة الكائنات، بأن يجعل الثّرى ثريّا، أو أن يجعل التّبن تبرًا، وغاية ما هو داخل تحت قُدَر العباد هو التشكيل في الصناعات؛ لا التغيير في مواد الكائنات.

"ولا ناقِص" فلا أحد يقدر أن ينقص من خلقِ الله شيئًا، فكذلك لا أحد يقدر على أن ينقص من قدرِ الله شيئًا، وذلك لأن النقص ضعفٌ وعجزٌ وهما منتفيان عن العزيز الحميد، فلا يكون في تقديره أي نقصٍ لا فعلًا ولا واقعًا، ولا من أحدٍ ممن يدعي الفاعلية، أو التأثير، و(**النّاقص**) وصفٌ من النّقصِ بمعنى غير تامٍّ؛ وإذا انتفى السلب؛ فكذلك في الإيجاب؛ **"ولا زائدَ مِن خلقه في سماواته وأرضه"**، أي فكما لا أحدَ يقدر على أن ينقص مِن خلق الله في سماواته وأرضه

ومن قدره؛ فكذلك لا أحد يقدر على أن يزيد على خلقه وقدره، وهذا من اعظم الأدلة الواقعة الدالة على أن قدر الله تعالى هو هو، لا مزيد عليه، ولا مُنْقِصَ له، ولهذا قال الله تعالى: ﴿تَبَٰرَكَ ٱلَّذِى بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ۝١ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفُورُ ۝٢ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ طِبَاقًا ۖ مَّا تَرَىٰ فِى خَلْقِ ٱلرَّحْمَٰنِ مِن تَفَٰوُتٍ ۖ فَٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ هَلْ تَرَىٰ مِن فُطُورٍ ۝٣ ثُمَّ ٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنقَلِبْ إِلَيْكَ ٱلْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ﴾ [سورة الملك، من الآية:١-٤].

"ولا محوّل" أي من وجهٍ إلى آخرَ، سواءٌ تعلق بالذوات، أو بالصفات، أو بالزمان، أو بالمكان، و(**المحوِّل**) اسمُ فاعلٍ مِن (حوّل، يحوِّل، تحويلًا) بمعنى النّقل والتغيير واختلاف الوجهة.

وجاء في بعض النسخ **"ولا يكون مكوَّنٌ إلا بتكوينه، والتكوين لا يكون إلا حسنًا جميلًا"** وهذا المعنى وإن كان حقًّا، إلا أنّه ليس من قول المصنف رَحِمَهُ ٱللَّهُ، وذلك لأن مسألة التكوين والحديث عنه، وكذلك مسألة التحسين والتقبيح حدثت بعد زمن المصنف رَحِمَهُ ٱللَّهُ بشيءٍ يسير، وهي من المسائل التي قالها أهل السنة في مقابلة المعتزلة، المنكرين لأن يكون للرب تكوين في فعل العبد، وكذلك هي من مسائل الماتريدية التي خالفوا فيها الأشعرية، من جهة أنهم يثبتون صفة التكوين لله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ، والأشعرية لا يثبتونها، ويؤولونها بمعنى الإرادة، ولا يرون التحسين والتقبيح.

وخلاصة كلام المصنّف رَحِمَهُ ٱللَّهُ: وجوب إثبات مراتب القدرِ؛ العلم، والكتابة، والمشيئة، والخلق والإيجاد -كما سبق-، وفي حديث عبادة بن الصَّامت رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ أنه قال لابنه: (يا بُنيَّ إنَّك لن تَجِدَ طعمَ حقيقةِ الإيمان حتّى تَعلمَ أن ما أصابَكَ لم يكُنْ ليُخْطئَكَ، وما أخطَاكَ لم يكُنْ ليُصيبَك، سمعتُ رسولَ الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقول: **"إن أوَّلَ ما خلقَ الله القلمُ، فقال له: اكتُبْ، قال: ربَّ، وماذا أكتُبُ؟ قال: اكتُبْ مقاديرَ كلّ شيءٍ حتّى تقومَ الساعةُ"**، يا بني، إني سمعتُ رسولَ الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقول: **"مَنْ ماتَ على غير هذا فليسَ منيّ"** [رواه أبو داود والترمذي، وقال: حسن صحيح غريب]، وكانت الكتابة في اللوح المحفوظ عند الله عَزَّوَجَلَّ؛ فإن الخلق لو أرادوا أن يغيروا شيئا من ذلك لم يقدروا؛ لأن القلم جرى بعلم الله عَزَّوَجَلَّ الّذي لا يقع فيه خلل ولا زلل، ولأنّ المكتوب عند الله تعالى؛ فمن يقدر على أن يغيره، وهو في كتابٍ مكنون محفوظٍ مصونٍ.

وفي حديث عبد الله بن عباس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا مرفوعًا: **"وَاعْلَمْ أَنَّ الأُمَّةَ لَوْ اجْتَمَعَتْ عَلَى أَنْ يَنْفَعُوكَ بِشَيْءٍ لَمْ يَنْفَعُوكَ إِلَّا بِشَيْءٍ قَدْ كَتَبَهُ اللهُ لَكَ، وَلَوْ اجْتَمَعُوا عَلَى أَنْ يَضُرُّوكَ بِشَيْءٍ لَمْ يَضُرُّوكَ إِلَّا بِشَيْءٍ قَدْ كَتَبَهُ اللهُ عَلَيْكَ، رُفِعَتِ الأَقْلَامُ وَجَفَّتْ الصُّحُفُ"** [رواه الترمذي وغيره، وقال: حسنٌ صحيح].

[كل شيء بقدر الله تعالى]

وَذَلِكَ مِنْ عَقْدِ الْإِيمَانِ، وَأُصُولِ الْمَعْرِفَةِ، وَالْاِعْتِرَافِ بِتَوْحِيدِ اللهِ تَعَالَى وَرُبُوبِيَّتِهِ، كَمَا قَالَ اللهُ تَبَارَكَوَتَعَالَىٰ فِي كِتَابِهِ: ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُۥ تَقْدِيرًا﴾ [سورة الفرقان، من الآية:٢]، **وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ قَدَرًا مَّقْدُورًا﴾** [سورة الأحزاب، من الآية:٣٨].

﴿ الشرح ﴾

هذا تقريرٌ من المصنّف رَحِمَهُ ٱللَّهُ في بيان أنّ ما مضى أمرٌ لا بد منه في عقيدة الإيمان، وأيضًا أن ذلك من تمام مسائل التوحيد، ومن مسائل الربوبية المتعلقة بعلم الله تعالى، وقُدْرته، ومِن المسائل المتعلقة بالركن السادس من أركان الإيمان وهو الإيمان بالقدر.

"**وذلك مِن عَقْدِ الإيمان**" أي من بُنيان الإيمان، تقول: عَقْدُ البِناء أي ما عُقِدَ عليه البناء، وصار أساسًا له، و(العقد) مصدرٌ وصفي من (عقَد، يعقد)، بمعنى جعل له أساسًا، ويطلقُ (**العقْدُ**) على العهد؛ فيكون المعنى أنّ ما مضى من المسائل هي من عهودِ الإيمان، ومواثيقه.

وأصل العقْدِ ما يكون بين طرفين، وهنا: ما يكون بين المؤمِن وهو العبدُ، وبين المؤمَن به وهو الله تعالى؛ فهذا العهدُ والعقدُ والميثاق هو الإيمان، وهو من "**أصول المعرفة**" المتعلقة بباب الإيمان، وباب الإلهيات، وباب الديانات؛ فهذه المعرفة واجبة، وهي تابعة للربوبية من حيث إنها تَبين عن علمِ الله تعالى،

وفعله، وخلقه وإرادته ومشيئته، وهذا من **"الاعتراف بتوحيد الله وربوبيته"**؛ فالإيمان بالقدرِ متعلق بالتوحيد كتعلق نظام الشيء بالشيء، ولا يتم التوحيد إلا به، ولهذا قال عبد الله بن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: (الْإِيمَانُ بِالْقَدَرِ نِظَامُ التَّوْحِيدِ، فَمَنْ وَحَّدَ وَكَذَّبَ بِالْقَدَرِ فَقَدْ نَقَضَ التَّوْحِيد) [الشريعة للآجري]، وذلك لأن القدر له متعلقان:

التعلّق الأوّل: كونه متعلق بعلم الله تعالى، وخبره بأنه علِم كلّ شيءٍ، وكتب كلّ شيء، وشاءه، وخلقه وأوجده، وهذا القدر متعلق بتوحيد الرّبوبيّة؛ فلا يتم توحيد الرّبوبيّة إلا به.

ومن نقض هذا نقض توحيد الرّبوبيّة، وإن نقص منه نقص توحيد الرّبوبيّة.

التعلّق الثّاني: كونه متعلق بفعل العبدِ، وكونه صابرًا على القضاء، أو راضيًا به، أو شاكرًا فيه، وكونه عالج القدر بالشّرع؛ فهذا متعلق بتوحيد الألوهية؛ فلا يتم توحيد الألوهية إلّا به.

ومن نقض هذا نقض توحيد الألوهية، وإن نقص منه نقصَ توحيد الألوهية.

واستدل المصنّف رَحِمَهُ ٱللَّهُ؛ فقال: **"كما قال تعالى في كتابه**: ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَيۡءٖ فَقَدَّرَهُۥ تَقۡدِيرٗا﴾ [سورة الفرقان، من الآية:٢]**"**، وهذا نصٌّ قاطعٌ على كلّ منكرٍ للقدر، ودليل بيّن لكل مخاصِمٍ في الأمرِ.

"كما" أي مِثْلَ وشِبْه ونحو الّذي قال تعالى في كتابه مِن الدلالة على أن التقدير من علمه وإيجاده.

و "**كلّ**" مِن ألفاظ العموم، مضافٌ إلى "**شَيءٍ**" وهي نكرة؛ فدلّ أنّ كلّ المخلوقات مُقَدّرة، سواء صغر الشيء أم كبر، سواء من حيث الذوات أو الصفات، وسواء من حيث الأمر أو الخلق، فالكلية في الآية مطلقة خلافًا لمن زعم تخصيصها.

و "**قدَّر**" فعلٌ ماضٍ، والمقدِّرُ هو الله تعالى، فما من شيءٍ إلا وهو كائنٌ أو زائلٌ، أو باقٍ، أو محوّلٌ، بتقديرٍ من الله تعالى.

و "**تقديرًا**" مصدرٌ من (قدّر، يقدّر) بمعنى التقويم، ومعرفة قيمته، وتحديده، وتطلق الكلمة على التخمين، وعلى اليقين، وهو المراد هنا.

والآية نص في أنَّ اللهَ تعالى هو خالقُ كلّ شيءٍ، وربه، ومليكُه، وإلهه، وكلّ شيء تحت قهره، وتسخيره، وتدبيره، وتقديره، وسلطانه، وعزته.

ثم ذكر دليلًا آخر؛ فقال: "**وقال تعالى:** ﴿وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ قَدَرًا مَّقْدُورًا﴾ [سورة الأحزاب، من الآية:٣٨]" أي ومما يدل على أن كلّ شيءٍ مقدَّرٌ قدَّرَه الله تعالى هذه الآية، والتي تدل دلالة بينة على أمر الله تعالى الّذي يقدره كائنٌ لا محالة، وواقعٌ لا محيد عنه، ولا معدل، فما شاء الله تعالى كان، وما لم يشأ لم يكن.

و "**كان**" فعلٌ ماضٍ؛ فدل على أن المقدورَ مفروغٌ منه، وأن القدرَ مقضيٌّ، ولا محيد عنه، وواقع لا معقب له.

و "**أمْرُ اللهِ**" مصدرٌ مضافٌ، والمصدر المضاف قد يراد منه الفعلُ، والمعنى المصدري؛ فيكون المعنى: أن الله تعالى قد انتهى من كلّ تقديرٍ، ويكون الفعلُ

للربّ تَبَارَكَ وَتَعَالَى، وفعله صفةٌ له سبحانه، فيدخل فيه كلامه وفعاله، وذلك من ربوبيته؛ فهو رب يأمرُ وينهى، قولًا وفعلًا.

وقد يراد منه المفعول؛ فيكون المعنى: أن مخلوقاتِ الله تعالى مقدرة وجودًا وإعدامًا ودوامًا وإبقاءً، وكلّ صغيرة فيها وكلّ كبيرة، وهذا خبرٌ عن فعل الله تعالى فيهم، وعلمه بهم، وتقديره عليهم.

وخلاصة كلام المصنف رَحِمَهُ ٱللَّهُ: أن الأدلة على مسائل القدر نصية، وهو من تمام الإيمان بألوهية الله تعالى وربوبيته.

[الحذر من الخوض في القدر]

فَوَيْلٌ لِمَنْ صَارَ لِلَّهِ فِي الْقَدَرِ خَصِيمًا، وَأَحْضَرَ لِلنَّظَرِ فِيهِ قَلْبًا سَقِيمًا، لَقَدِ الْتَمَسَ بِوَهْمِهِ فِي فَحْصِ الْغَيْبِ سِرًّا كَتِيمًا، وَعَادَ بِمَا قَالَ فِيهِ أَفَّاكًا أَثِيمًا.

﴿ الشرح ﴾

هذا تقريرٌ متعلق بما سبق كالترتيب على التبويب، والتفريع على التأصيل، فالواجب الحذر من الخوض في مسائل القدر، والخوض فيه.

وقد ثبت -فيما سبق- أنه لا يجوز بحالٍ إنكار قدرِ الله تعالى؛ فمن أنكر ذلك فإنه يكون مجادلًا في القدرِ، ولهذا قال المصنف رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **"فويل لمن صار لله تعالى في القدر خصيمًا"**.

و (**الويلُ**) ورد له عدّة معانٍ في الشّرع، ومنها:

المعنى الأوّل: الهلاك والثبور مطلقًا، سواء كان في الدّنيا أو في الآخرة.

المعنى الثّاني: خبرٌ بمعنى الخسارة.

المعنى الثّالث: خبرٌ بمعنى الدّعاءِ والطلبِ.

المعنى الرّابع: مكانٌ في جنهم.

المعنى الخامس: نوعٌ من أنواع العذاب في النّار.

و **"صار"** فعلٌ ماضٍ بمعنى (التّحوّل) مِن حالٍ إلى أخرى، وهنا معناه أنّ الّذي ينكرُ قدرَ الله تعالى فإنه قد تحوّل مِن حال التوحيد إلى أن صار مناقضًا له، وانتهى به الأمر إلى أن صار لله تعالى في القدر **"خَصِيمًا"** أي مخاصمًا؛

كـ(جليسٍ) بمعنى (مُجالِس)، أي يزعمُ أنّه هو الّذي يُقَدِّرُ لنفسه، وأنّه هو الّذي يخلقُ فعل نفسه، وكأنه منافسٌ ومزاحمٌ لربه في قدَرِه، تعالى الله عن الخصماء؛ لكن هذا حال القدري، الّذي ينكر تقدير الله تعالى في المخلوقات، ومِن هنا فإنّ القدريّ قد شابه المجوسَ ذلك لأنّـهم يزعمون أنّ خالقَ الخير هو الله تعالى، وخالق الشّرّ هو إلهٌ آخرُ؛ لأن الله بزعمهم لا يخلق الشرّ؛ فقالوا بوجود إلهين، وهم المجوسيّة الثّنويّة، وكذلك القدريّة زعموا أنّ الله خالق الخيرِ، وأنّ أفعال الشّر يخلقها العباد؛ فصار من لازم قولهم أن هناك خالِقين غير الله تعالى يخلقون الشّرّ، وهم العبيد أنفسهم!؟ وجهلوا أو تجاهلوا أنّ الله خالق كلّ شيء، وأنّ كونه خالقًا لا ينافي كون العباد هم الفاعلون مِن جهة، وكونه خالقًا لا يعني أنّه خلق شرًّا محضًا؛ فإنّ (خلَقَ) فِعْلٌ لله تعالى خاصٌّ به، ولا يمكن في فعله أن يكون شرًّا محضًا أبدًا، وإنما الشر قد يكون نسبيا، أو يكون في مخلوقاته، ومفعولاته، ومنها أفعال العباد، وأعمالهم.

ومن لم يفهم هذا المعنى، وجادل في القدر فإنه صار خصيمًا لله تعالى، ويجادل بدون نصٍّ مدلول؛ بل برأيٍ معدولٍ، أو قياسٍ معلولٍ، **"وأحضر للنظر فيه قلبا سقيمًا"**؛ فليس عنده قلبٌ سليمٌ يُعينه، ولا نية صحيحة تُوصله؛ بل غاية ما عنده رأيٌ مبنيّ على الهوى، وعقلٌ قدّمه على النصوص المنزلة من العلي الأعلى، وقلبٌ سقيم خالٍ من التّقوى.

و **"أَحْضَرَ"** بمعنى أتى، وجاء، وتوجه إلى القدرِ بنية سقيمة، للنظر فيه بقلب

سقيم.

و "**النَّظر**" البصَرُ، والمرادُ به إبصارُ العقل، تقول: (**نظرتُ**) في المسألة، أي أبصرت فيه بعقلي، ولاحظته، واعتبرت فيه، وجعلتُ له أمثلة وقياسًا، و(**نظر**) فيه بمعنى تدبّره، وتفكر فيه، ولو كان هذا (**النّظر**) ببصيرة قلبٍ منوَّرٍ بنصوص الوحيين لتنوَّر، ولكنّه "**قلب سقيم**"، والقلبُ بمفرده لا يقدر على الاستقلال بالعلوم الشّرعية، فضلًا عن الأمور الغيبية؛ فكيف بالخوض في الأمور القدرية، الّتي هي في نصوص الشّرع له جهات غيبية، وهو سرٌّ من أسرار الربوبيّة.

و "**القلب**" المراد به هنا قلبُ التّعقل، وقلب الإدراك، وهو فعلُ العبد ببصيرته، لا مجرد الأحاسيس، وإذا أطلق التّعقل والتّقلب فهذا هو المراد، وليس المراد مجرد الدّماغ؛ فإنّه مخزنٌ للمعلومات، وليس مديرًا ولا آمرًا ولا ناهيًا؛ بل إنّ الدّماغ يتلقّى الأوامر مِن خارجٍ عنه وهو التّعقل، وقد يسمى التعقل بالعقل، أو القلب، ولهذا جاء في حديث النّعمان بن بشير رَضِيَٱللَّهُعَنۡهُمَا مرفوعًا: "**أَلاَ وَإِنَّ فِي الجَسَدِ مُضْغَةً: إِذَا صَلَحَتْ صَلَحَ الجَسَدُ كُلُّهُ، وَإِذَا فَسَدَتْ فَسَدَ الجَسَدُ كُلُّهُ، أَلاَ وَهِيَ القَلْبُ**" [رواه البخاري ومسلم].

والقلب الفاسد هو القلب السقيم، وهو القلب المريض.

و "**سقيم**" فعيلٌ بمعنى فاعل أي حاقِدٌ وفاسد، ويحتمل أنه فعيلٌ على باب المصدرية؛ فيكون المعنى: قلبٌ أصابه المرضُ، فهو ضعيفٌ، وسخيفٌ.

فإن قيل: فما أقسام القلوب باعتبار موقفها من النصوص الشرعية؟

فالجواب: أنّ القلوب باعتبار موقفها من النّصوص الشّرعية منقسمة إلى ثلاثة أقسام:

القسم الأوّل: القلوب الّتي لا تسمع ولا تفقه؛ فهي معرضة عن السماع، معرضة عن التفقه، والتعقل، وهم الذين قال الله عنهم: ﴿لَّوۡ نَشَآءُ أَصَبۡنَٰهُم بِذُنُوبِهِمۡۚ وَنَطۡبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ فَهُمۡ لَا يَسۡمَعُونَ﴾ [سورة الأعراف، من الآية:١٠٠]، وهذا حال قلوب الكافرين والمشركين، والمستكبرين، قال الله تعالى: ﴿بَشِيرٗا وَنَذِيرٗا فَأَعۡرَضَ أَكۡثَرُهُمۡ فَهُمۡ لَا يَسۡمَعُونَ ۝٤ وَقَالُواْ قُلُوبُنَا فِيٓ أَكِنَّةٖ مِّمَّا تَدۡعُونَآ إِلَيۡهِ وَفِيٓ ءَاذَانِنَا وَقۡرٞ﴾ [سورة فصلت، من الآية:٤-٥].

القسم الثّاني: القلوب الّتي تسمع ولا تفقه، وهي قلوب المنافقين، والمعرضين، الذين قال الله عنهم: ﴿وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ قَالُواْ سَمِعۡنَا وَهُمۡ لَا يَسۡمَعُونَ ۝٢١ ۞إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلصُّمُّ ٱلۡبُكۡمُ ٱلَّذِينَ لَا يَعۡقِلُونَ ۝٢٢ وَلَوۡ عَلِمَ ٱللَّهُ فِيهِمۡ خَيۡرٗا لَّأَسۡمَعَهُمۡۖ وَلَوۡ أَسۡمَعَهُمۡ لَتَوَلَّواْ وَّهُم مُّعۡرِضُونَ﴾ [سورة الأنفال، من الآية:٢١-٢٣]، وقال تعالى: ﴿وَمِنۡهُم مَّن يَسۡتَمِعُ إِلَيۡكَ حَتَّىٰٓ إِذَا خَرَجُواْ مِنۡ عِندِكَ قَالُواْ لِلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ مَاذَا قَالَ ءَانِفًاۚ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ وَٱتَّبَعُوٓاْ أَهۡوَآءَهُمۡ﴾ [سورة محمد، من الآية:١٦].

القسم الثّالث: القلوب الّتي تقبل على السماع، وتقبل على التفقه، وتحب سماع كلام الله تعالى، وكلام رسوله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَسَلَّمَ، وتحب التفقه فيهما، وهذا

حال أهل الإسلام، المتبعين لسيد الأنام صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قال الله تعالى: ﴿وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَى أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ﴾ [سورة المائدة، من الآية:٨٣].

وقد جاء ذكر هذه الأنواع الثلاثة في حديث أَبِي مُوسَى الأشعري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَنِ النّبيّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: **"مَثَلُ مَا بَعَثَنِي اللهُ بِهِ مِنَ الهُدَى وَالعِلْمِ؛ كَمَثَلِ الغَيْثِ الكَثِيرِ أَصَابَ أَرْضًا؛ فَكَانَ مِنْهَا نَقِيَّةٌ، قَبِلَتِ المَاءَ، فَأَنْبَتَتِ الكَلأَ وَالعُشْبَ الكَثِيرَ.**

وَكَانَتْ مِنْهَا أَجَادِبُ، أَمْسَكَتِ المَاءَ، فَنَفَعَ اللهُ بِهَا النّاس، فَشَرِبُوا وَسَقَوْا وَزَرَعُوا.

وَأَصَابَتْ مِنْهَا طَائِفَةً أُخْرَى، إِنَّمَا هِيَ قِيعَانٌ لاَ تُمْسِكُ مَاءً، وَلاَ تُنْبِتُ كَلَأًا.

فَذَلِكَ مَثَلُ مَنْ فَقُهَ فِي دِينِ اللهِ، وَنَفَعَهُ مَا بَعَثَنِي اللهُ بِهِ؛ فَعَلِمَ وَعَلَّمَ، وَمَثَلُ مَنْ لَمْ يَرْفَعْ بِذَلِكَ رَأْسًا، وَلَمْ يَقْبَلْ هُدَى اللهِ الَّذِي أُرْسِلْتُ بِهِ"[رواه البخاري ومسلم].

فالواجب على المسلم أن يسمع، وأن يعقل، وأنْ لا يجعل عقله متقدما على ما أنزل الله تعالى من الوحي؛ فلا يليق بالمسلم أيّ نوع تقدمٍ بين يديه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وإذا كان هذا في باب القدرِ؛ فإنه أشنع وأفظع؛ لأنه في باب غيبي، ويكون تقدمه تخرصًا، وسعيه تخيّلًا، ولهذا قال المصنّف رَحِمَهُ اللَّهُ: **"لقد التمس بوهمه في فَحْصِ الغيب سرًّا كتيمًا"**، أي فمجرد الخوض في القدر بالقياسات العقلية، والتخيلات النفسية، والنظر القلبيّ هو التماس للغيب المكنون المخفيّ.

و "**الْتَمَس**" الشيءَ طلَبَه، ورجاه، والمعنى أنه قدّم نظرَ عقلِه السقيم وكان مبتغاه أن يجد بذلك شيئًا متعلقًا بالقدرِ؛ فيطلع على سرِّه المكنون، وأمره المصون.

و "**فَحْص**" على وزن (حَفْر) ومعناه، والمراد: أنّه دخل بوهمه في حُفْرَةِ الغيب العظيمة الّتي هي سرٌّ مكتوم.

و "**الغيب**" خلاف الشهادة، وهو كلّ ما غاب عن الإنسان، وما غيَّبه الله تعالى؛ فإنه لا يطلع أحدٌ عليه إلا أن يشاء الله تعالى، كما قال سبحانه: ﴿عَٰلِمُ ٱلۡغَيۡبِ فَلَا يُظۡهِرُ عَلَىٰ غَيۡبِهِۦٓ أَحَدًا ۝٢٦ إِلَّا مَنِ ٱرۡتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ﴾ [سورة الجن، من الآية:٢٦-٢٧]؛ فالرسل وهم أكرم الخلق على الله تعالى لا يعلمون الغيب إلا بالقدرِ الّذي أطلعهم الله تعالى عليه.

والغيب من خصائص الربِّ تعالى؛ فلا أحد يمكنه الاطلاع عليه، ولذلك قال الله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُطۡلِعَكُمۡ عَلَى ٱلۡغَيۡبِ﴾ [سورة آل عمران، من الآية:١٧٩]، وقال سبحانه: ﴿وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلۡغَيۡبِ لَا يَعۡلَمُهَآ إِلَّا هُوَ﴾ [سورة الأنعام، من الآية:٥٩]، وقال جلّ في علاه: ﴿عَٰلِمُ ٱلۡغَيۡبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ٱلۡكَبِيرُ ٱلۡمُتَعَالِ﴾ [سورة الرعد، من الآية:٩]، وقال عَزَّوَجَلَّ: ﴿قُل لَّا يَعۡلَمُ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ ٱلۡغَيۡبَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ [سورة النمل، من الآية:٦٥].

فإن قيل: فما أقسام الغيب بالنسبة لنا؟

فالجواب: أنّ الغيب بالنسبة إلينا ثلاثة أقسام:

القسم الأوّل: غيبٌ ماضٍ، وهو ما سبق من الأخبار الّتي لا علم لنا عنها، كقوم عادٍ، وثمود، ومن قبلهم، وأمم بعدهم.

القسم الثّاني: غيب حاضرٌ، وهو ما لا نعلم الآن في الزمن الواقع.

القسم الثالث: غيبٌ مستقبلي، سواء كان المستقبل القريب، وهو ما يكون في غدٍ، أو البعيد، وهو ما يتعلق بالساعة وأشراطها، وما بين ذلك، قال الله تعالى:

﴿إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلۡمُ ٱلسَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ ٱلۡغَيۡثَ وَيَعۡلَمُ مَا فِي ٱلۡأَرۡحَامِۖ وَمَا تَدۡرِي نَفۡسٞ مَّاذَا تَكۡسِبُ غَدٗاۖ وَمَا تَدۡرِي نَفۡسُۢ بِأَيِّ أَرۡضٖ تَمُوتُۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرُۢ﴾

[سورة لقمان، من الآية: ٣٤].

و "**سِرًّا كتيمًا**" أي سرًّا مكتومًا، و(**الكتيم**) مِن الشيء ما لا يخرج منه شيء، ولا يتّضح، ولا شقَّ فيه، ولا طريق إليه، وهذا يدل على أن القدر سرٌّ جدا مُغيَّب، ولا يمكن الاطلاع على المقدَّرات؛ لأنّها مِن أعظم الغيبيات، ولا يقدَرُ على إدراك السرّ المكنون فيما يتعلق بالأقدار، فمن دخل فيه بوهمه، أو بقياسه وفهمه، "**عادَ بما قال فيه أفّاكًا أثيمًا**".

و "**عاد**" بمعنى رجع، وصار بما قاله في القدر أفّاكًا أثيمًا.

و "**أفّاكًا**" صيغة فعَّال للمبالغة من (**الإفك**) وهو الكذب، وقيل أشدّه، وما ترتب عليه إثمٌ ظاهرٌ منه.

و "**أثيمًا**" أي مرتكِبًا آثامًا وذنوبًا، و(**الأثيم**) الفاحشُ في قوله وفعله.

وخلاصة كلام المصنّف رَحِمَهُ ٱللَّهُ: التأكيد على المرتبة الأولى من مراتب القدر؛ وهي سبق علم الله عَزَّوَجَلَّ وشموله بكل ما هو كائن إلى يوم القيامة، بلا وكسٍ، ولا شططٍ، وهذا العلم أزليّ بخلاف الكتابة الّتي كانت قبل خلق السماوات والأرض بخمسين ألف سنة، والإيمان بالعلم والكتابة في القدر مِن أصل الإيمان بالقدر، وكذلك المشيئة والخلق والإيجاد مِن أصول المعرفة الإيمانيّة الّتي لا يصح الإيمان إلا بها.

وهذا بيان من المصنّف أنّ الإيمان بالقدر من حيث شموله وتعلقه بالعلم والكتابة والمشيئة والخلق والإيجاد هو من توحيد الرّبوبيّة، واستدل بقوله تعالى: ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُۥ تَقْدِيرًا﴾ [سورة الفرقان، من الآية:٢]، ويتعلق القدر بالألوهية من جهة العبد؛ بأن يؤمن بذلك ويصبر على القضاء، أو يرضى وهذا أفضل، وأنْ لا يكون مخاصمًا في القدر؛ فإن الخصومة فيه من علامات الزيغ والضلالة، فمهما خاض فيه النّاس بعقولهم؛ فإنهم لا يطلعون على سر الله في القدر، بل يقعون في الإفك والتكذيب والإثم.

❀❀❀

[الاعتقاد في العرش والكرسي، وفوقية الله تعالى على كلّ شيء]

وَالْعَرْشُ وَالْكُرْسِيُّ حَقٌّ، كَمَا بَيَّنَ اللهُ تَعَالَى فِي كِتَابِهِ، وَهُوَ جَلَّ جَلَالُهُ مُسْتَغْنٍ عَنِ الْعَرْشِ وَمَا دُونَهُ، مُحِيطٌ بِكُلِّ شَيْءٍ وَفَوْقَهُ، وَقَدْ أَعْجَزَ عَنِ الْإِحَاطَةِ بِهِ خَلْقَهُ.

الشرح

هذا تقريرٌ مِن المصنف رَحِمَهُ ٱللَّهُ فيما يتعلق بالمخلوقات العلوية في السماوات العلية، وأنّ الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ علمه محيطٌ بكل شيء، وهو على العرش وفوقه ومستغنٍ عنه، ولا يُحيطُ به شيءٌ مخلوق، تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ.

قول المصنّف رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **"والعرش والكرسي حقٌّ"** أي ثَبَت أنّ الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ أضيف إليه على وجه الخصوص أنّ له عرشًا، وأنّ له كرسيًّا، وإثبات هذا من الإيمان.

و **"العرش"** لغة سرير الْمُلْكِ، ويطلق على سقف الشيءِ، ومظلة الأشياء.

وعرش الرحمن: سرير مُلْكه الّذي اعتلاه، وارتفع فوقه، واستقر عليه، بعد خلق السّماوات والأرض، وهو أعلى المخلوقات، وسقف المخلوقات، وأوسعها، وهو للعالم كالقبّة؛ كما جاء في ذلك الآثار.

وجاء ذكر العرش في القرآن الكريم في مواضع كثيرة، ووُصِفَ بأنّه عظيم، وأنّ هذا العرش له حملة، وأنهم الآن أربعة، ويكونون يوم القيامة ثمانية، قال تعالى: ﴿وَيَحۡمِلُ عَرۡشَ رَبِّكَ فَوۡقَهُمۡ يَوۡمَئِذٖ ثَمَٰنِيَةٞ﴾ [سورة الحاقة، من الآية:١٧]، وورد أنّ لهذا العرش

قوائم، وهذا كلّه يدلّ على أنه مخلوق حقيقيّ خلافًا لمن أنكره من الفلاسفة والمتكلمين.

و **"الكرسيّ"** لغة بمعنى العرش، والسّرير، وكرسيُّ الْمُلْك عَرْشُه، وأمّا الكرسيّ المضاف إلى الله تعالى؛ فقد جاء عن ابن عباس رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا أنّه: (مَوْضِعُ الْقَدَمَيْنِ، والعرش لا يقدر قدره إلا الله تعالى) [العرش لابن أبي شيبة].

وقد جاءت الأحاديث في أنّ الكرسي في الخِلقة دون العرش، وأعظمُ مِن السماوات والأرض، قال تعالى: ﴿وَسِعَ كُرْسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾ [سورة البقرة، من الآية:٢٥٥].

والله سُبۡحَانَهُۥوَتَعَالَىٰ فوق العرش، وقد دل على هذه الفوقية الأدلة الكثيرة منها، علوُّه على العرش في سبعة مواضع من كتابه، قال تعالى: ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾ [سورة الأعراف، من الآية:٥٤]، وقال تعالى: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ﴾ [سورة طه، من الآية:٥]، وهو مع فوقيته على المخلوقات محيط بخلقه، لا يعزب عنه شيءٌ، وقد جمع الله تعالى بين فوقيته وعلمه في قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ [سورة الحديد، من الآية:٤]، وهذا يؤكّد وهو نصّ على معية الله لخلقه؛ فإنّه سبحانه فوق العرش، وهو مع خلقه عليمٌ بهم، محيط لهم، قاهر عليهم، سميع

بصير، وليس من لوازم المعية الاختلاط والممازجة، وقد ضل في هذا الباب طائفتان:

الطّائفة الأولى: الحلولية؛ الذين استدلوا بآيات المعية فزعموا أن الله في السماوات المخلوقة، وفي الأشياء الموجودة، تعالى الله عن ذلك، وأنكروا مدلولات آيات الاستواء والفوقية، وأنه فوق المخلوقات تَبَارَكَ وَتَعَالَى عالٍ على البريّة.

الطّائفة الثّانية: المعطلة؛ الذين أنكروا علوَّ الله على خلقه، مع إنكارهم الحلول؛ فوقعوا في التعطيل المحض، وذلك لأن الموجود إما أن يكون داخل العالم أو خارجه، وهم قالوا: إن الله لا داخل العالم ولا خارجه؛ فلزمهم إنكار وجود الله تعالى، فهم عطلوا إثبات علوه على مخلوقاته وعرشه، فوقعوا في التعطيل، الموصل إلى الجحد والإنكار والتخييل.

وأما أهل السنة فإنهم جمعوا بين العلو والفوقية وبين القرب والمعية، وقالوا: إن ذلك من خصائص الرب تَبَارَكَ وَتَعَالَى؛ فهو خلق السماوات والأرض، لا لِيُكِنَّ فيهما، ولا هو محتاج إليهما؛ كحاجة المخلوق لمكانه؛ بل إنه سبحانه فوق الأماكن المخلوقة، فوق العرش، ولما كان العرش أعلى المخلوقات أخبر أنه فوقه، فهو سبحانه فوق المخلوقات، وعلا على العرش بعد خلق السماوات والأرض، كما أن ذلك منطوق الآيات، ومع ذلك فإنه سبحانه مع مخلوقات، محيط بهم، عالمٌ بكل شيء، بصير بكل المُبصَرَات، سميع لكل المسموعات.

وعلوُّ الله تعالى أزلي، وأما فوقيته على العرش فهو صفة فعلية، وبذلك ندرك أن صفات الله تعالى منقسمة إلى ثلاثة أقسام:

القسم الأوّل: صفات أزلية، وهي الّتي لا تنفك عن الله تعالى، سواء كانت صفة معنى كالعلم، والأولية، والأحدية، ونحوها، أو صفة ذاتٍ كالوجه، واليد، ونحو ذلك، كما يليق به سبحانه، ولم يزل متصفًا بها، ولا يزال، ولا يوصف اللهُ تعالى بضدّها.

القسم الثّاني: صفات فعلية، وهي الّتي يفعلها الرب تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ متى شاء؛ ومن ذلك صفة الرحمة، والغضب، والرضا، والسخط، ونحو ذلك، وعلامة الصّفات الفعلية أن الله تعالى يوصف بها وبضدها، وأنها مرتبطة بمشيئة الله تعالى وإرادته؛ فهو متى شاء رضي من فلان، ومتى شاء غضب على فلان.

القسم الثّالث: صفات أزليّة فعليّة، وهي الّتي لها متعلقان، متعلق بالقدرة والقوة، ومتعلق بالإيجاد، متعلقٌ بالجنس، وبالآحاد، ومن ذلك صفة الخلق، والرَّزق، والكلامِ، والنظر، ونحو ذلك؛ فإن الله تعالى خالقٌ أزلًا، ورزَّاقٌ أزلًا، ومتكلِّمٌ أزلًا، وناظِرٌ أزلًا، ولكن كونه خلق بني آدم ولم يكونوا مخلوقين، ورزق فلانًا ولم يرزق فلانًا، وتكلم مع موسى ولم يتكلم مثله مع غيره في الأرض، ونظر إلى فلانٍ ولا ينظر إلى فلان، فهذه الصّفات أزلية فعلية، وعلامتها: أن آحادها توصف بالنفي والإثبات، فتقول: خلق الله آدم بعد الجن، ولم يخلق الله آدم قبل الجن، رزق الله فلانًا مالًا ولم يرزق الله فلانًا مالًا، وينظرُ

الله إلى أعمالنا، ولا ينظر إلى المتاجرين بالدين، وبهذا يجمع بين قوله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "**وَإِنَّ اللهَ نَظَرَ إِلَى أَهْلِ الْأَرْضِ فَمَقَتَهُمْ**" [رواه مسلم]، وبين قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَشۡتَرُونَ بِعَهۡدِ ٱللَّهِ وَأَيۡمَٰنِهِمۡ ثَمَنٗا قَلِيلًا أُوْلَٰٓئِكَ لَا خَلَٰقَ لَهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ ٱللَّهُ وَلَا يَنظُرُ إِلَيۡهِمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمۡ وَلَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ﴾ [سورة آل عمران، من الآية:٧٧]؛ فنظر ولا ينظر صفة فعلية، وكذلك تكلم ولا يتكلم صفة فعلية، وكون الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى متكلمٌ أزلًا، وناظرٌ أزلًا، فتلك صفة أزلية.

وعلى هذا فصفة العلوِّ لله تَبَارَكَ وَتَعَالَى صفة أزلية؛ فله الفوقية سرمدًا، أزلًا وأبدًا، وأما استواءُ الله تعالى على العرش فهذه صفة فعلية، فثم بعد خلق السماوات والأرض علا على العرش، وصار فوق هذه المخلوقات الّتي لها الدون، وله العلوُّ جل في علاه.

ومن هنا ندرك أن استواء اللهِ تعالى على عرشه إنما هو لعظمته وكماله، لا لنقصٍ أو لحاجة، ولهذا قال المصنّف رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "**وهو مستغن عن العرش وما دونه**".

و "**مستغنٍ**" اسم فاعلٍ مِن (استغنى) فهو (مستغنٍ)، أي مُكْتَفٍ، وليس بحاجةٍ، وذلك لكمال ربنا تَبَارَكَ وَتَعَالَى عن الحاجة، وتنزيهه عن العوز، وتعاليه عن النقائص.

و **"ما دونه"** أي وما سوى العرش، وما تحت العرش؛ فيشمل كلّ مخلوقٍ عينًا كان، أو مكانًا، او زمانًا؛ فكلُّ هذه مخلوقاتٌ، والله تَبَارَكَ وَتَعَالَى هو القيوم لها، وهو القائم عليها، وهو قيومٌ عنها، غير محتاج إليها.

واستغناءُ الله تعالى عن كلّ مخلوقٍ متقرِّرٌ شرعًا وعقلًا، أما شرعًا؛ فلقوله تعالى: ﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ ٱلْغَنِيُّ ٱلْحَمِيدُ﴾ [سورة الحج، من الآية:٦٤]، ولقوله: ﴿وَرَبُّكَ ٱلْغَنِيُّ﴾ [سورة الأنعام، من الآية:١٣٣]، وأما عقلًا؛ فإن الرب لا يمكن أن يكون مفتقرًا في كماله، ولا في وجوده، ولا في دوامه على شيء، وإلا كان مربوبًا مفتقِرًا.

واستغناء الله تعالى عن كلّ مخلوقٍ يشمل استغناءه عن العرش وما دونه من المخلوقات، ولا يجوز بحالٍ أن يتخيل متخيل أنه مستوٍ وعالٍ على العرش لاحتياجه، أو افتقاره؛ بل الله تعالى استوى وعلا على العرش لكمال علوِّه على مخلوقاته؛ ولأنّه لا يليق به إلا العلوّ فوق المخلوقات، وأما تساويه مع المخلوقات فنقصٌ، وكذلك كونها فوقه فهذا أنقص، وكونه داخلها محتاجًا إليها فنقص، وكونها في ذاته لزم منه أن يكون الناقصات في الذّات الكاملة؛ فتعين أن المخلوقات كلها بما فيها العرش وما دونه دون الله تعالى، والله تعالى فوقها؛ فهو فوق العرش، فوق المخلوقات، تعالى الله ربنا وتمجد رب البريات.

و **"محيط بكل شيء"** أي أن الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى مع علوه على عرشه هو محيط بكل شيء من خلقه.

و "**محيط**" اسمُ فاعل مِن (أحاط) بالشيء (يُحيط) به فهو (مُحيط) به، ومعناه: أنّه مدرك لهم من جميع نواحيهم الظاهرة والباطنة؛ فهذه الإحاطة إحاطة علمٍ وقدرةٍ، وقوة ومَكنَةٍ.

وكونه سبحانه تعالى محيط بكل شيء فهذا مع علوِّه عليهم، ولهذا قال المصنّف رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "**وفوقَه**"، فالله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ هو فوق كلّ شيءٍ مخلوقٍ؛ فهو فوق العرشِ، والعرشُ أعلى المخلوقاتِ؛ فهو فوق كلّ المخلوقات تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ.

وقد جمع الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ بين فوقيته وعلوه على العرشِ، وإحاطته بكل شيء وبين معيّته؛ كما في قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ [سورة الحديد، من الآية:٤]، وجمع بين علمه وإحاطته بكل شيء، ومعيته سبحانه فقال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَٰثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَآ أَدْنَىٰ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا۟ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا۟ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾ [سورة المجادلة، من الآية:٧].

وهنا أنبه على أنّ المعية معيتان:

المعيّة الأولى: معية عامة، وهي معية علمٍ وإحاطةٍ، وقوة قدرة، وسمعٍ وبصرٍ، وهي لعامة الموجودات، وكافة البريات، وهي بمقتضى الرّبوبيّة عليهم.

المعيّة الثّانية: معية خاصة، ومقتضاها النصرةِ والتأييد، والمكنة والرفعة، وهي لخاصة عباده، من المرسلين والنّبيّين، والصديقين والشهداء والصالحين، قال الله تعالى لموسى وهارون: ﴿إِنَّنِي مَعَكُمَآ أَسۡمَعُ وَأَرَىٰ﴾ [سورة طه، من الآية:٤٦]، وقال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحۡسِنُونَ﴾ [سورة النحل، من الآية:١٢٨].

وكونه سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ محيطٌ بهم، وهو فوقهم، يدل له قوله تعالى عن الملائكة: ﴿وَهُمۡ لَا يَسۡتَكۡبِرُونَ ۩ يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوۡقِهِمۡ وَيَفۡعَلُونَ مَا يُؤۡمَرُونَ﴾ [سورة النحل، من الآية:٤٩-٥٠].

وهو سبحانه محيط بكل شيء، ولا يحيط به شيء، ولهذا قال المصنّف رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **"وقد أعجز عن الإحاطة خلقه"**، أي أن الخلقَ كلهم عاجزون عن الإحاطة بالله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ، وذلك راجعٌ إلى أن الله تعالى عظيمٌ لا يمكن أن يحاط به، ولأنه سبحانه لم يُقْدِرْهم على أن يحيطوا به، وذلك لأنّ الخالق فوق إحاطة المخلوقِ، ولا يمكن للمصنوع أن يدرك شيئًا من صانعه إلا بمشيئته وإرادته، ولهذا قال تعالى: ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيۡءٖ مِّنۡ عِلۡمِهِۦٓ إِلَّا بِمَا شَآءَ﴾ [سورة االبقرة، من الآية:٢٥٥]، وقال: ﴿يَعۡلَمُ مَا بَيۡنَ أَيۡدِيهِمۡ وَمَا خَلۡفَهُمۡ وَلَا يُحِيطُونَ بِهِۦ عِلۡمٗا﴾ [سورة طه، من الآية:١١٠]؛ فإذا كان الخلق عاجزون عن الإحاطة العلمية به؛ فهم أعجز في أن يحيطوا بذاته وصفاته وقَدَرِه.

و "**أعجز**" أي جعله عاجزًا، ووجده عاجزًا، فلا يقوَ على الأمر، فلا يدرك، ولا يقدر، ولا يمكنه، فهذا حال الإنسان؛ فهو مخلوقٌ عاجزٌ، ولولا إقدار الله تعالى له على شيءٍ من الإدراك لما أمكنه أن يدرك أي شيءٍ؛ ولكان حاله كحال الهوام والدّواب، ولكن لطف الله تعالى به فجعله سميعًا بصيرًا عاقلًا مدرِكًا، ومع هذا فهو ليس له القدرة التّامة على الإحاطة بالله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ، لا من جهة ذاته، ولا من جهة صفاته، ولا من جهة أفعاله، ولا من جهة قدرته تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ.

وكونُ اللهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ قد أعجزهم؛ فهذا يعني أنه قادرٌ على أن يقدرهم على أن يحيطوا بما يريد منهم أن يدركوه منه، ومن ذلك أنه سبحانه يقدرهم على أن يروه يوم القيامة، ويراه المؤمنون في الجنّة، وهذه الرؤية ايضًا من غير إحاطة؛ كما سبق وأن ذكرناها.

وخلاصة دلالة كلام المصنّف رَحِمَهُ ٱللَّهُ: إثبات العرش والكرسي، وأن ذلك حقٌّ وثابت، ووجوب الإيمان بالعرش، وهو سرير الملك، وهو أعظم المخلوقات، ووجوب الإيمان باستغناء الله تعالى عن كلّ شيء، ومن جملة ذلك مع فوقيته وعلوه على عرشه فهو غني عن العرش وما تحته من المخلوقات الفانيات، فالدائم الباقي غير مفتقر إلى الزائل الفاني.

وهو سبحانه مع كونه فوق المخلوقات إلا أنه محيط بكل شيء، ولا يحيط به شيء.

❁❁❁

[الإيمان بخلة إبراهيم وتكليم موسى عليهما السلام]

وَنَقُولُ: إِنَّ اللهَ تَعَالَى اتَّخَذَ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا، وَكَلَّمَ اللهُ مُوسَى تَكْلِيمًا، إِيمَانًا وَتَصْدِيقًا وَتَسْلِيمًا.

﴿ الشرح ﴾

هذا تقريرٌ من المصنف رَحِمَهُ ٱللَّهُ بذكرِ صفتين من صفات الأفعال لله تَبَارَكَ وَتَعَالَى، وهما؛ اتخاذ إبراهيم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ خليلًا، وكلامه مع موسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ تكليمًا، وفي إثبات هاتين الصفتين مكانة النبيين الكريمين عَلَيْهِمَا ٱلسَّلَامُ.

وقول المصنّف رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **"إن الله اتخذ إبراهيم خليلًا"** أي يجب الإيمان بأن الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى قد اتخذ إبراهيم أبا الأنبياء خليلًا.

و **"اتخذ"** بمعنى أخذه، وصيَّره، وجعله، ونَصَبَه، واعتمدَه؛ فالله تعالى قد رأى منه الارتفاع في المعاني وصفات الكمال فجعله ينال هذه المرتبة العالية من المعالي، وهي الخلَّة، وفيه دلالة على أن العبد يسعى، وأن الرب يتفضل ويُكرم.

و **"إبراهيم"** هو بن آزر، وهو من ذرية سام بن نوح عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، وهو ثاني أولي العزم من الرسل زمانًا، وثانيهم مكانةً على الصحيح من أقوال أهل العلم؛ فإن أولي العزم من الرسل بالإجماع أفضلهم محمدٌ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ووقع النزاع في ترتيب بقيتهم، والصّواب أنهم مرتبون بإبراهيم، وموسى، وعيسى، ونوحٍ عَلَيْهِمُ ٱلسَّلَامُ.

ولإبراهيم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ من المكارم والكمالات في العبودية ما صار به أمةً وحده، ومن ذلك أنه توكل وصبر، وهاجر وشكر، وفرَّق بين أهله طلبًا لمرضاة ربه؛ فنصفهم في الحجاز وفلسطين، وأقدم على ذبح ابنه لنيل رضا ربه، وانقاد لأمرِ الله تعالى، وبنى الكعبة، وله المقامات فيها.

وكان أوَّاهًا حليمًا؛ كريمًا سخيًّا، قانعًا منيبًا، عاملًا حنيفًا، مُبتلًى بأنواع البلاءات راضيًا، داعيًا لربِّه مُتضرِّعًا، مصطفى، موحى إليه بصحفٍ، ناصحًا لقومه، ناصحًا لأبيه، واصلًا لله، وقاطعًا في الله، مُتبرِّئًا من المشركين، ومن قومه الكافرين، وأقربائه الجاحدين، مناظرًا للملاحدة، صاحب حجة وبيِّنة، وقوةِ حِجاج ومَكَنةٍ، وكان صدِّيقًا نبيًّا، راشدًا، كاسرًا للأصنام، داعيًا إلى القدوس السلام، مِلَّتُه الحنيفية سماحةً بلا ملام، وكان محسنًا مؤمنًا مبارَكًا، وأكثر الأنبياء من بعده من ذريته، وكان راجيًا خائفًا مُحِبًّا لربه حتّى وصل إلى الخلّة من جهته؛ فنال الخلّة مِن جهة رب العالمين، وقد أخبر الله عن خلّته له في القرآن؛ ليكون مشهورًا بذلك لدى بني الإنسان؛ فقال الله تعالى في محكم البيان: ﴿وَٱتَّخَذَ ٱللَّهُ إِبْرَٰهِيمَ خَلِيلًا﴾ [سورة النساء، من الآية:١٢٥]، وقال مُبيِّنًا كمال صفات إبراهيم الخليل، حتّى يُعْرَفَ بِمَ نالَ هذا المقامَ الجليل: ﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ١٢٠ شَاكِرًا لِّأَنْعُمِهِ ٱجْتَبَىٰهُ وَهَدَىٰهُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ١٢١ وَءَاتَيْنَٰهُ فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ [سورة النحل، من الآية:١٢٠-١٢٢].

ولهذا كُلِّهِ استحقَّ أن يكون أسوة للأنام، وأمرنا باتباع مِلَّتِهِ على الدوام؛ كما قال القدوس السلام: ﴿ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنِ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [سورة النحل، من الآية:١٢٣]، وأُمرنا باتخاذه أسوة في طاعة الله تعالى وعبادته، كما قال سبحانه: ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ﴾ [سورة الممتحنة، من الآية:٤]، هذا غيضٌ من فيض من مقامات العبودية الّتي بلغها إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ حتّى نال بذلك مرتبة الخلّة الّتي هي من أخص المقامات عند الله تعالى، ولم يبلغها أحدٌ غير نبيين كريمين، وهما محمدٌ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وإبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ.

و "**خليلا**" فعيلٌ بمعنى مُفاعِل، وهو الصّديق الصّفِيّ، والنّاصح الوفيُّ، وذلك أن الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى ابتلاه بابتلاءات شديدة؛ فوفّى بكل ذلك فارتفع عند الله تعالى حتّى وصل إلى درجة استحق بها نيل مرتبة الخلّة، ولهذا قال تعالى: ﴿وَإِذِ ابْتَلَى إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ﴾ [سورة البقرة، من الآية:١٢٤]؛ فلما أتم ما به ابتلى، استحق المراتب العليا، فنال مرتبة الخلّة العليا، كما قال الله تعالى: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَاتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا﴾ [سورة النساء، من الآية:١٢٥].

وهذه الخلة مرتبة عالية لم يثبت أن وصل إليها نبي ولا رسولٌ؛ فضلًا عن خاصة النّاس أو عامتهم، ولهذا جاء في حديث عبد الله بن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال:

قال رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **"أَلَا إِنِّي أَبْرَأُ إِلَى كلّ خِلٍّ مِنْ خِلِّهِ، وَلَوْ كُنْتُ مُتَّخِذًا خَلِيلًا، لَاتَّخَذْتُ أَبَا بَكْرٍ خَلِيلًا، إِنَّ صَاحِبَكُمْ خَلِيلُ اللهِ"** [رواه البخاري ومسلم وهذا لفظه]، وهذا الحديث فيه التنصيص على أن الخلّة لا تنفع بين أكثر من جهتين؛ فهي إما خلّة من إبراهيم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ مع ابنه المحبوب إلى نفسه، أو مع الله تعالى؛ فقدم محبة الله تعالى؛ فنال الخلّة بذلك، ونبينا صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إما أن يتخذ خلّة مع أبي بكر المحبوب إلى نفسه، أو مع الله تعالى؛ فقدّم محبة الله تعالى؛ فنال الخلّة بذلك، فهي محبة صافية من أي كدورةٍ، ومن أي شائبة، ومن أي مشاركة.

وهنا أنبِّه على أن كلّ خليلٍ لله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ فهو محبوبٌ له سبحانه، ولا عكس؛ فليس كلّ محبوبٍ يكون خليلًا لله تعالى، وهذه قضية مطردة، وكذلك كلّ من اتخذَ الله خليلًا فهو يحبُّ الله تعالى، ولا عكس.

وأهل السنة يثبتون الصّفات الفعلية لله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ، ومنها؛ المحبةُ لله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ، وأنه سبحانه يُحِب ويُحَب، وقد تواترت الأدلة على ذلك كقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلْمُتَطَهِّرِينَ﴾ [سورة البقرة، من الآية:٢٢٢].

وقول المصنّف رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **"وكلم الله موسى تكليمًا"** أي ونؤمن بأن الله تعالى قد كلَّمَ عبده ونبيه موسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ على وجه اليقين والإقرار، وذلك لأنه تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ مُتكلِّمٌ، ويتلكم مع من شاء متى شاء كيف شاء بواسطة أو بغير واسطة، وكان كلام الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ لموسى بدون واسطة؛ فسمع صوت الله

تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ وكلامه، كما يسمع جبريل صوت الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ وكلامه، وقد ثبت ذلك في آيات عدة، منها قوله تعالى: ﴿وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكۡلِيمٗا﴾ [سورة النساء، من الآية:١٦٤]، وقال تعالى: ﴿وَلَمَّا جَآءَ مُوسَىٰ لِمِيقَٰتِنَا وَكَلَّمَهُۥ رَبُّهُۥ﴾ [سورة الأعراف، من الآية:١٤٣]، ﴿فَلَمَّآ أَتَىٰهَا نُودِيَ يَٰمُوسَىٰٓ ۝١١ إِنِّيٓ أَنَا۠ رَبُّكَ فَٱخۡلَعۡ نَعۡلَيۡكَ إِنَّكَ بِٱلۡوَادِ ٱلۡمُقَدَّسِ طُوٗى﴾ [سورة طه، من الآية:١١-١٢]؛ فهذه الآيات وغيرها كلها تدل دلالة واضحة نصية جلية على أن الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ كلَّم موسى عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ بلا واسطة، وهذا هو معتقد أهل السنة والجماعة؛ بخلاف أهل البدعِ فإنهم زعموا أن موسى سمع كلاما مخلوقًا في الشجرة!؟ فكيف لمخلوقٍ أن يقول: ﴿إِنِّيٓ أَنَا۠ رَبُّكَ﴾!؟ وقد يقول بعضهم إنه سمع كلام الله بصوت الشجرة، أو بصوت جبريلَ!؟ فكيف يمكن لشجرة أو لجبريل أن يقول لموسى عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ: ﴿إِنِّيٓ أَنَا۠ رَبُّكَ﴾!؟ فأقوال أهل البدع لا أصل لها، وإنما هي مبنية على شبهاتٍ واهية، وأهواء زائفة، وأقوال مزخرفة.

و "**موسى**" هو ابن عمرانَ من نسل يوسف بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم الخليل عَلَيۡهِمُ ٱلسَّلَامُ.

وقد جاء ذكره في القرآن كثيرًا، ووصف بأوصافٍ كثيرة، ومنها: أنه كليم اللهِ تعالى، وأنه صاحبُ الفرقان، والتوراة، والبرهان، والتبيان، وصاحب السلطان، والآيات والبراهين، وهو المبعوث إلى فرعون، ومخلِّص بني إسرائيل من ظلم

الفراعنة، والصابر على ابتلاء قومه، المؤيَّدُ بأخيه هارون وزيرًا نبيًا رسولًا، وكان قوي البنية، قوي الشكيمة، غضوبًا لربه، رابط الجأش أمام الفراعنة، وهو الّذي سعى لِلُقِيِّ الخضر طلبًا للعلم، وكان مُخْلَصًا مُخْلِصًا، وكان رسولًا نبيًّا، وهو أحدُ أولي العزم من الرسل، وكان عظيم الاستغفار، مبرأ من كلّ عيبٍ، وكان من المحسنين، على الصراط المستقيم، من عباد الله المؤمنين.

وموسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ مخصوصٌ بأنه كليمُ الله تعالى؛ لأنه لم يثبت أن الله تعالى كلم نبيا أو رسولا في الأرض بلا واسطة سواه، وكلّ نبيٍّ فإنما كان يوحي الله إليه إما إلهامًا، أو بواسطة الْمَلَكِ، أما موسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ فإنما كلمه الله تعالى **"تكليمًا"**، وهو مصدرٌ مؤكِّدٌ لِفِعْلِه، وفيه دلالة على وقوع الفعل حقيقة، وأن التكليم لم يتم من الله تعالى لموسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ إلا تكليمًا فلم يكن ولم يقع إلا كلامًا مسموعًا من الله تعالى.

ونبينا محمدٌ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قد كلمه الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ بلا واسطة في ليلة الإسراء والمعراج كما سبق بيانه، وذلك لا ينافي كون موسى كليم الله، وذلك لأمرين:

الأمر الأوّل: أن موسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ تكرر كلام الله تعالى معه، حتّى صار بذلك مخصوصًا.

الأمر الثّاني: أن كلام الله تعالى مع محمَّدٍ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إنما كان في السماوات العلا لا في الأرض الدّنيا، وهذا لا يناقض تخصيص موسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ بكونه كليم الله تعالى.

قول المصنّف رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **"إيمانًا وتصديقًا وتسليمًا"** أي نقرُّ بأن الله تعالى يثبت له صفات الأفعال، ومنها الخلة، وأنه اتخذ إبراهيم خليلًا، ومنها كلامه، وأنه كلم موسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، وأن ذلك من عقد الإيمان، ومن تمام تصديق مسائله، ومن واجبات الانقياد والتسليم لأخباره تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ.

وخلاصة دلالة كلام المصنّف رَحِمَهُ ٱللَّهُ: فيه إثبات صفتين من صفات الله؛ وهي الخلة الّتي هي خالص المحبة وأصفاها، والتكليم، وصفة الكلام لله عَزَّوَجَلَّ على وجه الخصوص في وقت مُعَيَّنٍ؛ كما قال تعالى: ﴿وَلَمَّا جَآءَ مُوسَىٰ لِمِيقَٰتِنَا وَكَلَّمَهُۥ رَبُّهُۥ﴾ [سورة الأعراف، من الآية:١٤٣]، وأهل السنة يثبتون ويقولون: الكلام صفة ذاتية باعتبار الأصل، وأما كلامه مع موسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ أو مع غيره فهي صفة فعلية، كان في وقت معين.

❊❊❊

[الإيمان ببقية أركان الإيمان؛ الملائكة، والنبيين، والكتب]

وَنُؤْمِنُ بِالْمَلَائِكَةِ، وَالنَّبِيِّين، وَبِجَمِيعِ الْكُتُبِ الْمُنْزَلَةِ عَلَى الْمُرْسَلِينَ، وَنَشْهَدُ أَنَّـهُمْ كَانُوا عَلَى الْـحَقِّ الْمُبِينِ.

الشرح

هذا تقرير من المصنف رَحِمَهُ ٱللَّهُ لأركان الإيمان التي لم يسبق الحديث عنها بشكل نصّيٍّ خاص.

فقوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **"ونؤمن بالملائكة"** أي ومن العقيدة الإيمان والإقرار بالملائكة، والإيمان بالملائكة هو الركن الثاني من أركان الإيمان الستة.

ومدلول هذا الإيمان: الإقرار بالملائكة، وأنهم خلقٌ من خلق الله تعالى، وأنا نعترف بمكانتهم، وطهارتهم.

والإيمان بالملائكة له ركنان:

الأول: الإيمان بوجودهم.

الثاني: الإيمان بأنهم خلقوا من نور، وأنهم لا يعصون ما أمرهم الله، ويفعلون ما يؤمرون، ولهم أعمال ووظائف.

ومقتضى الإيمان بالملائكة: توقيرهم، وإكرامهم، والاقتداء بهم، ومراعاة حضورهم.

ويتضمن هذا الإيمان عدة أمورٍ، ومنها:

الأمر الأوّل: الإقرار بوجودهم، وإن لم نرهم، وإن لم نسمع نحن كلامهم،

وإن لم نحسن نحن بوجودهم.

الأمر الثّاني: أنهم خلقٌ من خلق الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى، لا يُعْصُون الله تعالى فيما يأمرهم وينهاهم؛ كما قال تعالى: ﴿لَّا يَعْصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ [سورة التحريم، من الآية:٦].

الأمر الثّالث: أنَّ الله تعالى خلقهم من نورٍ، كما جاء ذلك في الحديث، وأنهم أرواحٌ مخلوقة، وحقيقة موجودة، وجاء هذا في حديث **عَائِشَةَ** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا **قَالَتْ**: قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **"خُلِقَتِ الْمَلَائِكَةُ مِنْ نُورٍ"** [رواه مسلم].

الأمر الرّابع: أن لهم صفات متعددة؛ سواء في الخِلقة، أو في صفات المعاني؛ فبعضهم أقوى من بعضٍ، وبعضهم أمكن من بعضٍ، وبعضهم أعلى من بعضٍ عند الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى، قال سبحانه: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ جَاعِلِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا أُولِيٓ أَجْنِحَةٍ مَّثْنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَ ۚ يَزِيدُ فِى ٱلْخَلْقِ مَا يَشَآءُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ [سورة فاطر، من الآية:١].

الأمر الخامس: أن لكل واحدٍ منهم مقامٌ، وعملٌ، ووظيفة، لا يتعداها، كما قال تعالى: ﴿وَمَا مِنَّآ إِلَّا لَهُۥ مَقَامٌ مَّعْلُومٌ ﴿١٦٤﴾ وَإِنَّا لَنَحْنُ ٱلصَّآفُّونَ ﴿١٦٥﴾ وَإِنَّا لَنَحْنُ ٱلْمُسَبِّحُونَ﴾ [سورة الصافات، من الآية:١٦٤-١٦٦].

الأمر السّادس: الإقرار باسم من ذكر اسمه، ورتبة من علمنا رتبته، ووظيفة من عرفنا وظيفته، كجبريل، وميكائيل، وملك الموت، وإسرافيل، والرقيب والعتيد،

ومنكرٍ ونكير، والحفظة، ومالكٍ، ونحوهم.

الأمر السّابع: أنهم رسل بين الله تعالى وبين خلقه، فهم ينفذون أوامر الله تعالى، ولا يتصرفون من عند أنفسهم أبدًا، وهم مكرمون عند الله تعالى، ومطهرون، ولهم أوصاف جميلة جليلة تدل على قربهم من الله تعالى، وعلوِّ مكانتهم.

الأمر الثّامن: أنهم يحبون أهل الإيمان، ويستغفرون لهم، ويوالونهم، ويبغضون أهل الكفر والنفاق والبدعة؛ فيعادونهم، قال الله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَحۡمِلُونَ ٱلۡعَرۡشَ وَمَنۡ حَوۡلَهُۥ يُسَبِّحُونَ بِحَمۡدِ رَبِّهِمۡ وَيُؤۡمِنُونَ بِهِۦ وَيَسۡتَغۡفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْۖ رَبَّنَا وَسِعۡتَ كُلَّ شَيۡءٖ رَّحۡمَةٗ وَعِلۡمٗا فَٱغۡفِرۡ لِلَّذِينَ تَابُواْ وَٱتَّبَعُواْ سَبِيلَكَ وَقِهِمۡ عَذَابَ ٱلۡجَحِيمِ﴾ [سورة غافر، من الآية:٧].

الأمر التّاسع: أن منهم ملائكة هم حملة العرشِ، وملائكة هم في السّماء الدّنيا وفي الأرضِ، كما قال تعالى: ﴿وَتَرَى ٱلۡمَلَٰٓئِكَةَ حَآفِّينَ مِنۡ حَوۡلِ ٱلۡعَرۡشِ يُسَبِّحُونَ بِحَمۡدِ رَبِّهِمۡۖ﴾ [سورة الزمر، من الآية:٧٥]، وقال: ﴿وَكَم مِّن مَّلَكٖ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ لَا تُغۡنِي شَفَٰعَتُهُمۡ شَيۡـًٔا إِلَّا مِنۢ بَعۡدِ أَن يَأۡذَنَ ٱللَّهُ لِمَن يَشَآءُ وَيَرۡضَىٰٓ﴾ [سورة النجم، من الآية:٢٦].

الأمر العاشر: أنهم مخلوقون بأعدادٍ عظيمة لا يحصيهم إلا من خلقهم، ولا يوصفون بالذكورة والأنوثة، وإن كان الخبر عنهم يكون بصيغة المذكر؛ فتقول: (جاء جبريل عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ)، وإن كان لفظ اسمهم بصيغة المؤنث؛ فتقول:

(الملائكة)، ومن وصفهم بالأنوثة كفر، وهذه عقيدة المشركين، ومن وصفهم جنسهم بالذكورية فقد ابتدع قولًا لا دليل عليه، وهذا يعني أن الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ قد خلق الأجناس ثلاثة أصنافٍ:

الصّنف الأوّل: هم الملائكة، فلا يوصفون بأوصاف الحيوانية، ولا بصفاتهم الدنية، ومن ذلك التزاوج وشهوة الفرج، ولا شهوة البطن؛ فهم مخلوقون صمدٌ بلا أجوافٍ، لا يأكلون ولا يشربون، ولهم حركة وحياة، يلهمون التسبيح والذكرَ، وبه حياتهم وبقاؤهم، ولا يوصفون لا بذكورة ولا بأنوثة.

الصّنف الثّاني: الجمادات، ولا توصف بالحيوانية، ولا بالحياة، والحركة، سواء كان هواء، أو ماء، أو ترابًا، ولا توصف هذه الجمادات لا بذكورة ولا بأنوثة حقيقة.

الصّنف الثّالث: الجن والإنس، وعموم الحيوانات؛ وهم يوصفون بأنهم يتزاوجون، ويتناسلون، وأن فيهم صفات متعلقة بفروجهم، وبطونهم، وأنهم إنما جعل الله لهم البقاء بسبب ما يطعمون ويشربون، ويوصفون بالذكورة والأنوثة حقيقة.

وللإيمان بالملائكة آثارٌ عظيمة وكثيرة، ومنها:

الأثر الأوّل: العلم بأن لله عبادًا سوانا يعبدون الله ليلًا ونهارًا لا يفترون وإن فترنا، وهذا يجعلنا ندرك غنى الله عنا، وندرك حاجتنا إلى الله تعالى، قال سبحانه: ﴿وَلَهُۥ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ وَمَنۡ عِندَهُۥ لَا يَسۡتَكۡبِرُونَ عَنۡ عِبَادَتِهِۦ وَلَا

يَسْتَحْسِرُونَ ۝١٩ يُسَبِّحُونَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ﴾ [سورة الأنبياء، من الآية:١٩-٢٠].

الأثر الثّاني: أن نفرح بهم، وبدعائهم، ونحمد الله على عونهم، وجعلهم أسبابًا لحفظنا، وإعانتنا.

الأثر الثّالث: أن نراقبهم، وأن ندرك أنا لسنا خِلْوًا أبدًا، وأن معنا الحفظةُ، والملائكة الكتبة.

وقول المصنّف رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **"والنّبيّين"** أي ومن العقيدة الإيمان والإقرار بالنّبيّين، والإيمان بالأنبياء هو الركن الرابع من أركان الإيمان الستة.

ومدلول قولنا: آمنت بالنّبيّين؛ أي نقرُّ بأن الله تعالى أرسل رُسُلًا، وأنبياءَ، وأن الله تعالى خصهم بمزيد عناية وإكرامٍ.

والإيمان بالرسل مبني على ركنين:

الرّكن الأوّل: الإيمان بأنهم مرسلون من الله.

الرّكن الثّاني: الإيمان برسالاتهم.

ومقتضى الإيمان بالأنبياء والرسل: طاعتهم، واجتناب نهيهم، وتفضيل قولهم على قول من سواهم من البشر، وألا يعبد الله إلا بشريعتهم.

والأنبياء كثيرون جدا، ولا نعلم بالعد حصرهم، لأن منهم من ذُكِرَ في القرآن والسنة، ومنهم مَن لم يُذْكَر، ولكن مِن حيث الإجمال فهم جاوزا مائة ألفٍ، كما جاء في حديث أبي ذر رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ وفيه أنه قال: (قلت يا نبي الله، فأي الأنبياء كان أول؟ قال: **"آدم"**. قال: قلت يا نبي الله: أَوَ نَبِيٌّ كان آدم؟ قال: **"نعم. نبيٌّ مكلَّمٌ**

خلقه الله بيده، ثم نفخ فيه روحه، ثم قال له: يا آدم قُبُلا". قال: قلت: يا رسول الله، كم وَفَى عِدَةُ الأنبياء؟ قال: **"مائةُ ألفٍ وأربعةٌ وعشرون ألْفًا، الرُّسُلُ مِن ذلك ثلاثُ مائةٍ وخمسة عشرَ، جَمًّا غفيرًا"** [رواه أحمد، وصححه الألباني بمجموع طرقه].

والإيمان بالأنبياء والمرسلين يتضمن عدة أمورٍ، ومنها:

الأمر الأوّل: الإقرار بنبوتهم، ورسالة الرسل منهم.

الأمر الثّاني: أنهم مصطفون من الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى، واختارهم لحمل النبوة والرسالة؛ كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴿٧٤﴾ ٱللَّهُ يَصۡطَفِي مِنَ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلٗا وَمِنَ ٱلنَّاسِۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعُۢ بَصِيرٞ﴾ [سورة الحج، من الآية:٧٤-٧٥].

الأمر الثّالث: أنهم بشرٌ، وأنهم رجالٌ، وأنهم يعتري ما يعتري البشرية من الجوع والمرض والموت، قال تعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا قَبۡلَكَ إِلَّا رِجَالٗا نُّوحِيٓ إِلَيۡهِمۡۖ فَسۡـَٔلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلذِّكۡرِ إِن كُنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ ﴿٧﴾ وَمَا جَعَلۡنَٰهُمۡ جَسَدٗا لَّا يَأۡكُلُونَ ٱلطَّعَامَ وَمَا كَانُواْ خَٰلِدِينَ﴾ [سورة الأنبياء، من الآية:٧-٨]؛ فهم مع كونهم بشرٌ إلا أنَّ الله تعالى خصهم بالنبوة والرسالة، فجاءهم الوحي، وأنهم مخصوصون بهذا الوحي، كما قال تعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِيٓ إِلَيۡهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعۡبُدُونِ﴾ [سورة الأنبياء، من الآية:٢٥]، وأن الوحي قد انقطع بعد محمدٍ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَسَلَّمَ لأنه خاتم النّبيّين، وآخر المرسلين، كما قال تعالى: ﴿مَّا

كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا﴾ [سورة الأحزاب، من الآية:٤٠]، وفي الحديث المتواتر: **"وإنه لا نبي بعدي"** [رواه عدة من الصحابة بلغ حد المتواتر، وقد جاء ذلك في الصحيحين من حديث؛ سعد بن أبي وقاص، وأبي هريرة، وجبير بن مطعم رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ].

الأمر الرّابع: أنهم ليس لهم من صفات الرّبوبيّة شيء، ولا لهم من حقوق الألوهية شيء، قال الله سبحانه: ﴿مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُؤْتِيَهُ ٱللَّهُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا۟ عِبَادًا لِّى مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَٰكِن كُونُوا۟ رَبَّٰنِيِّـۧنَ بِمَا كُنتُمْ تُعَلِّمُونَ ٱلْكِتَٰبَ وَبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ﴾ [سورة آل عمران، من الآية:٧٩].

الأمر الخامس: أن لكل واحدٍ منهم مقامٌ، وأنهم متفاوتون في مقاماتهم؛ فالرسل مقدمون على الأنبياء، ومن ذُكِرَ منهم في القرآن على من لم يذكر، وأن أفضلهم هم أولوا العزم، وأولوا العزم لهم مقامات؛ وهم؛ محمد، وإبراهيم، وموسى، وعيسى، ونوح عليهم الصلاة والسلام؛ فأفضلهم محمد صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وقد ذكرهم الله تعالى في قوله: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِيثَٰقَهُمْ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٍ وَإِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَٰقًا غَلِيظًا﴾ [سورة الأحزاب، من الآية:٧].

الأمر السّادس: الإقرار باسم مَن ذُكِرَ اسْمُهُ، وَرُتْبَةِ مَن علمنا رتبته، كإدريس،

وإسماعيل، وإسحاق، ويعقوب، ويوسف، وإلياس، ونحوهم.

الأمر السّابع: أنهم مبشرون ومنذرون، ولا يتصرفون مِن عند أنفسهم أبدًا، وهم مُكْرَمُون عند الله تعالى، ومعصومون، ولهم أوصافٌ جميلة، وصفاتٌ جليلة، وأنهم منزهون عن كلّ عيب ونقصٍ مما يحتقره النّاس، أو من الذنوب الكبائر.

الأمر الثّامن: أن منهم من أنزل الله عليه الكتاب، ومنهم من لم ينزل الله عليه الكتاب، قال الله تعالى: ﴿إِنَّآ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ كَمَآ أَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰ نُوحٖ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ مِنۢ بَعۡدِهِۦۚ وَأَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَإِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ وَٱلۡأَسۡبَاطِ وَعِيسَىٰ وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَٰرُونَ وَسُلَيۡمَٰنَۚ وَءَاتَيۡنَا دَاوُۥدَ زَبُورٗا﴾ [سورة النساء، من الآية:١٦٣].

الأمر التّاسع: أن منهم من تبعه الرجل والرجلان، ومنهم من لم يتبعه أحدٌ، ومنهم من تبعه فئام، وأقوام، وأمم، كما قال الله تعالى: ﴿وَٱضۡرِبۡ لَهُم مَّثَلًا أَصۡحَٰبَ ٱلۡقَرۡيَةِ إِذۡ جَآءَهَا ٱلۡمُرۡسَلُونَ ١٣ إِذۡ أَرۡسَلۡنَآ إِلَيۡهِمُ ٱثۡنَيۡنِ فَكَذَّبُوهُمَا فَعَزَّزۡنَا بِثَالِثٖ فَقَالُوٓاْ إِنَّآ إِلَيۡكُم مُّرۡسَلُونَ﴾ [سورة يس، من الآية:١٣-١٤]، وفي حديث ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ما عن النّبيّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ **قال: "عُرِضَت عليَّ الأمم، فرأيت النّبيّ ومعه الرهط، والنّبيّ ومعه الرجل، والرجلين، والنّبيّ وليس معه أحد، إذ رفع لي سواد عظيم، فقلت: هذه أمتي..."** [رواه البخاري ومسلم، وهذا لفظه].

الأمر العاشر: أنهم أدّوا الواجب الّذي كلفوا به، ولا يجوز تنقيص أي واحدٍ

منهم، ولا احتقارهم، ولا سبهم، كما جاء في حديث عبد الله بن مسعود رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، عن النّبيّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: **"ما ينبغي لأحد أن يقول أنا خير من يونس بن متى"** [رواه البخاري، ومسلم من حديث ابن عباسٍ، وأبي هريرة، وجاء من طريق غيرهما رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ]، وجاء في حديث أبي هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ عن النّبيّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: **"من قال: أنا خير من يونس بن متى فقد كذب"** [رواه البخاري].

ومن نظر إلى واحدٍ منهم نظرة احتقارٍ فإنه يكون قد كفر بالإيمان بالرسل، كما أن تكذيب واحدٍ منهم تكذيب للكل، ولهذا قال تعالى: ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ [سورة الشعراء، من الآية:١٠٥]، مع أن المرسَل إليهم واحدٌ وهو نوحٌ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ.

وللإيمان بالأنبياء والمرسلين آثارٌ عظيمة وكثيرة، ومنها:

الأثر الأوّل: العلم بأن الله تعالى أكرم عباده بأن اختار منهم رسلًا، وأنبياءَ، وأوحى إليهم ما فيه صلاح حالهم ومآلهم، وفي ذلك حجة بالغة على العباد، قال الله تعالى: ﴿وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَاهُمْ عَلَيْكَ مِن قَبْلُ وَرُسُلًا لَّمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ ۚ وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا ﴿١٦٤﴾ رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾ [سورة النساء، من الآية:١٦٤-١٦٥].

الأثر الثّاني: أن نقتدي بهم، وأن نعلم أنه لا طريق إلى الجنّة، وإلى رضوان الله

تعالى إلا من جهتهم، قال الله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقْتَدِهْ﴾ [سورة الأنعام، من الآية:٩٠]، وقال على سبيل الخصوص في الاقتداء بمحمدٍ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ خاتم الأنبياء والمرسلين: ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُواْ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْآخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا﴾ [سورة الأحزاب، من الآية:٢١].

الأثر الثّالث: أن نجلّهم، ونوقرهم، وننصرهم، وندافع عنهم، وأن نعلم أنهم خير البشر، وأزكى المخلوقات، وأنهم أدركوا المقامات العليا عند الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ، ولا يجوز أن نفضل عليهم أحدًا، لا وليًّا، ولا صالحًا.

وقول المصنّف رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **"والكتب المنزلة على المرسلين"**، أي ونؤمن ونقر بالكتب، وهو الركن الثالث من أركان الإيمان الستة.

ومدلول قولنا: آمنت بالكتب؛ أي نقرُّ بأن الله تعالى قد أنزل كتبًا، وأن هذه الكتب فيها كلام الله تعالى المنزل على رسله، وفيها شرعه.

والإيمان بالكتب مبني على ركنين:

الرّكن الأوّل: الإيمان بأن هذه الكتب من الله عَزَّ وَجَلَّ وفيها كلامه.

الرّكن الثّاني: الإيمان بأنها حاوية على الهداية التامة.

ومقتضى الإيمان بالكتب: العمل بما لم ينسخ منها أو يحرف، وتعظيمها، وحفظها، وصونها.

ويتضمن الإيمان بالكتب عدة أمورٍ، ومنها:

الأمر الأوّل: الإقرار بهذه الكتب، وأنها منزَّلة من عند الله تعالى، قال الله تعالى: ﴿وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدۡرِهِۦٓ إِذۡ قَالُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٖ مِّن شَيۡءٖۗ قُلۡ مَنۡ أَنزَلَ ٱلۡكِتَٰبَ ٱلَّذِي جَآءَ بِهِۦ مُوسَىٰ نُورٗا وَهُدٗى لِّلنَّاسِ﴾ [سورة الأنعام، من الآية:٩١].

الأمر الثّاني: أن نؤمن بما علمنا من هذه الكتب السابقة من حيث الإجمال، وأن فيها الهدايات الصالحة، والمرشدة الموصلة إلى رضوان الله تعالى، كما قال سبحانه: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ نَزَّلَ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّۗ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ ٱخۡتَلَفُواْ فِي ٱلۡكِتَٰبِ لَفِي شِقَاقِۭ بَعِيدٖ﴾ [سورة البقرة، من الآية:١٧٦].

الأمر الثّالث: أن هذه الكتب فيها كلام الله تعالى، ووحيه الّذي أوحى به إلى الأنبياء والمرسلين، قال تعالى: ﴿أَفَتَطۡمَعُونَ أَن يُؤۡمِنُواْ لَكُمۡ وَقَدۡ كَانَ فَرِيقٞ مِّنۡهُمۡ يَسۡمَعُونَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُۥ مِنۢ بَعۡدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمۡ يَعۡلَمُونَ﴾ [سورة البقرة، من الآية:٧٥].

الأمر الرّابع: أن نؤمن بأسماء هذه الكتب، وقد جاء ذكرها في القرآن الكريم، وعلى من أنزلت من حيث التفصيل، فأقدم الكتب المنزلة الّتي علمناها؛ صحف إبراهيم، ثم التوراة، ثم الزبور، ثم الإنجيل، ثم القرآن، قال الله تعالى: ﴿أَمۡ لَمۡ يُنَبَّأۡ بِمَا فِي صُحُفِ مُوسَىٰ ٣٦ وَإِبۡرَٰهِيمَ ٱلَّذِي وَفَّىٰٓ﴾ [سورة النجم، من الآية:٣٦-٣٧]، وقال: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَفِي ٱلصُّحُفِ ٱلۡأُولَىٰ ١٨ صُحُفِ إِبۡرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ﴾ [سورة الأعلى، من الآية:١٨-١٩]، وقيل: إن صحف موسى غير التوراة، والصواب أنها التوراة المنزلة

على موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ، قال الله تعالى: ﴿كُلُّ الطَّعَامِ كَانَ حِلًّا لِّبَنِي إِسْرَائِيلَ إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسْرَائِيلُ عَلَىٰ نَفْسِهِ مِن قَبْلِ أَن تُنَزَّلَ التَّوْرَاةُ ۗ قُلْ فَأْتُوا بِالتَّوْرَاةِ فَاتْلُوهَا إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ [سورة آل عمران، من الآية:٩٣]، وقال عن الزبور المنزل على داود عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿وَآتَيْنَا دَاوُودَ زَبُورًا﴾ [سورة النساء، من الآية:١٦٣]، وقال عن الإنجيل المنزل على عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿وَآتَيْنَاهُ الْإِنجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ [سورة المائدة، من الآية:٤٦]، وقال عن القرآن المنزل على محمدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: {}، وجمع بعض الكتب في قوله تعالى: ﴿وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنجِيلِ وَالْقُرْآنِ﴾ [سورة التوبة، من الآية:١١١].

الأمر الخامس: أن هذه الكتب متنوعة في مضامينها، مؤتلفة في مقاصدها، وكلّ واحدٍ بلغةٍ، فالتوراة والزبور بالعبرانية، والإنجيل بالسريانية، والقرآن بالعربية.

الأمر السّادس: الإقرار بأن الكتب السابقة قد حرفت، وغيرت، وبدلت، وذلك لأن الله تعالى لم يتول حفظها، ووكل صيانتها إلى علمائها فأضاعوها، قال الله تعالى: ﴿إِنَّا أَنزَلْنَا التَّوْرَاةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ ۚ يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا لِلَّذِينَ هَادُوا وَالرَّبَّانِيُّونَ وَالْأَحْبَارُ بِمَا اسْتُحْفِظُوا مِن كِتَابِ اللَّهِ وَكَانُوا عَلَيْهِ شُهَدَاءَ﴾ [سورة المائدة، من الآية:٤٤]، ومما يدل على أنهم نسوه، وغيروه، قول الله تعالى: ﴿وَمِنَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَىٰ أَخَذْنَا مِيثَاقَهُمْ

﴿فَنَسُواْ حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُواْ بِهِۦ فَأَغْرَيْنَا بَيْنَهُمُ ٱلْعَدَاوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِۚ وَسَوْفَ يُنَبِّئُهُمُ ٱللَّهُ بِمَا كَانُواْ يَصْنَعُونَ﴾ [سورة المائدة، من الآية:١٤]، وقال: ﴿مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُواْ يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ﴾ [سورة النساء، من الآية:٤٦]، وقال: ﴿وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَٰسِيَةًۖ يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ وَنَسُواْ حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُواْ بِهِۦ﴾ [سورة المائدة، من الآية:١٣]، وقال: ﴿فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ ٱلْكِتَٰبَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَٰذَا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ لِيَشْتَرُواْ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًاۖ فَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا يَكْسِبُونَ﴾ [سورة البقرة، من الآية:٧٩].

الأمر السّابع: أن هذه الكتب أنزلت على الرسل، دون الأنبياء، وهذا أحد الفروقات بين الأنبياء والمرسلين، على قول بعض أهل العلم.

الأمر الثّامن: أن نؤمن بالقرآن على وجه الخصوص وبأوصافه، وأسمائه، وأنه ناسخٌ للكتب السابقة، وأنه مهيمن على الكتب السابقة، قال الله تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِۖ فَٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُۖ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ عَمَّا جَآءَكَ مِنَ ٱلْحَقِّ﴾ [سورة المائدة، من الآية:٤٨]، وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِى هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٧﴾ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِى عِوَجٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ [سورة يونس، من الآية:٢٧-٢٨].

الأمر التّاسع: أن نؤمن بأن هذا القرآن محفوظٌ، قد ضمن الله حفظه، ولا يقدر

أحدٌ أن يزيد فيه أو ينقص إلا فضحه الله تعالى؛ فجعل القرآن محفوظًا في الصدور، وفي السطور؛ فلا يقدر أن يزيد شيئًا منه في الزبور، ولا في المحفوظ المذكور، قال الله تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾ [سورة الحجر، من الآية:٩]، وقال: ﴿وَإِنَّهُۥ لَكِتَٰبٌ عَزِيزٌ ﴿٤١﴾ لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ ۖ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾ [سورة فصلت، من الآية:٤١-٤٢].

الأمر العاشر: أن هذا القرآن فيه تبيان كلّ شيء نحتاج إليه في ديننا، ولهذا أحالنا في مواضع كثيرة إلى السنة المبينة لمعانيها علمًا وعملًا، واقعًا وتطبيقا، قال الله تعالى: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ﴾ [سورة النحل، من الآية:٨٩]، وأن الله تعالى كَمَّل فيه الدين، فقال سبحانه: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا﴾ [سورة يونس، من الآية:٦٦٦].

ولا يجوز بحالٍ احتقار هذه الكتب المنزلة، من حيث كونها منزلة، ومن حيث مضامينها، وأمّا ما حرف منها؛ فإنا نتعامل معها على أن فيها بقايا من كلام الله تعالى؛ فنجلّها بهذا القدر، ونستيقن أن فيها المحرف والمزيد، ولا نعمل بما فيه لأجل هذا الّذي طرأ عليها.

وللإيمان بالكتب آثارٌ عظيمة وكثيرة، ومنها:

الأثر الأوّل: العلم بأن الله تعالى أكرم عباده بإنزال هذه الكتب، وأنه سبحانه

أرشدهم بها، وبين لهم فيها، ما يحتاجون إليه في دينهم، وفيه موعظة للمتقين، وهذه أوصاف مشتركة للكتب، قال الله تعالى: ﴿فِيهِ هُدًى وَنُورٌ وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ [سورة المائدة، من الآية:٤٦].

الأثر الثّاني: أن نعمل بهدايات هذه الكتب؛ فإنها تهدي إلى عبادة الله وحده، لا شريك له، وإلى اتباع الرسل، وإلى صلاح الدين والدّنيا، وصلاح القلوب والأرواح، وصلاح الحال والمآل، وصلاح الآخرة، قال الله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا التَّوْرَاةَ وَالْإِنجِيلَ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْهِم مِّن رَّبِّهِمْ لَأَكَلُوا مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِم مِّنْهُمْ أُمَّةٌ مُّقْتَصِدَةٌ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ سَاءَ مَا يَعْمَلُونَ﴾ [سورة المائدة، من الآية:٦٦]، وقال عن خصوص فضل العمل بالقرآن: ﴿لَقَدْ أَنزَلْنَا إِلَيْكُمْ كِتَابًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [سورة الأنبياء، من الآية:١٠].

الأثر الثّالث: أن هذه الكتب إنما كانت مناسبة لوقتها، وأما القرآن فأنزله الله تعالى كتابًا خاتمًا، مناسبًا لكل زمان ومكان، وجعله باقيًا محفوظًا إلى يوم القيامة؛ ولذلك فهو صالحٌ لكل زمان ومكان، وفيه حكمُ ما بيننا، وفصل أحكامنا، وخبر من قبلنا، ونبأ ما بعدنا.

قول المصنّف رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **"ونشهد أنهم كانوا على الحق المبين"**، هذا تأكيد لجملة الإيمان بالأنبياء والرسل، وأنهم كانوا جميعًا على الحق الواضح، والحكم الثابت، الموافق في نفسه للواقع، وللصدق، وأنهم كانوا على الجادة

والطريق الواضح المبين.

و "**نشهد**" من الشهادة، وهو أداء ما علمناه يقينًا، مما عايناه بصرًا أو بصيرة، وحضرناه بأبداننا، أو حضرناه بعلمنا، على سبيل القطع، من الإقرار واليقين والتّصديق بأن إرسال الأنبياء كان حقًّا، وأنهم كانوا على الثابت المتقرر المبين.

و "**المبين**" اسم فاعل مِن (أبان) الشيء (يُبينه، إبانةً) فهو مُبينٌ، أي مُجَلٍّ واضحٍ، لا غبش فيه، ولا غبار، كما قال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "**قَدْ تَرَكْتُكُمْ عَلَى الْبَيْضَاءِ، لَيْلُهَا كَنَهَارِهَا، لَا يَزِيغُ عَنْهَا بَعْدِي إِلَّا هَالِكٌ**" [رواه ابن ماجه، والإمام أحمد في المسند، من حديث العرباض بن سارية، وهو حديث صحيح].

وخلاصة دلالة كلام المصنّف رَحِمَهُ اللَّهُ: فيها إثبات الإيمان بالملائكة، وقد اتفق أهل الإسلام أنهم مخلوقون قبل الإنس والجن.

وفيه إثبات الإيمان بالذين اصطفاهم الله للنبوة والرسالة، والصحيح أن كلّ رسول نبي، وليس كلّ نبي رسولًا، وقد جاء ذكرهم بالقرآن والسنة، وأنهم مع بشريتهم وعبوديتهم لله تعالى معصومون من الخطأ في البلاغ، وكانوا على الإسلام والتوحيد ودعاة إليه، وعلى الحق الواضح هداة إليه.

وفيه إثبات الإيمان بالكتب، وقد علمنا منها بعضًا، وخاتمتها القرآن الكريم، وكتبا لا نعلمها، لكنا نستيقن أن هذه الكتب المنزلة كلام الله، وفيها هداية البشرية.

❀❀❀

[وصف أهل القبلة بالإسلام]

وَنُسَمِّي أَهْلُ قِبْلَتِنَا مُسْلِمِينَ، مُؤْمِنِينَ، مَا دَامُوا بِـمَا جَاءَ بِهِ النَّبِيُّ -صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ وَعَلَى آلِهِ وَأَصْحَابِهِ أَجْمَعِينَ- مُعْتَرِفِينَ، وَلَهُ بِكُلِّ مَا قَالَ وَأَخْبَرَ مُصَدِّقِينَ.

﴿ الشرح ﴾

هذا تقريرٌ من الْمُصنّف رَحِمَهُٱللَّهُ في بيان الأسماء والْمُسمّيات، وإعطاء الاسم والوصف لمن يستحقه.

قول المصنّف رَحِمَهُٱللَّهُ: **"ونُسَمِّي أهل قبلتنا مسلمين"**، هذه الجملة وما بعدها، هي من مسائل العقيدة الّتي لها تعلّق بمسائل التّكفير والتّبديع والتّفسيق؛ وتسمّى أيضًا بمسائل الأسماء والأحكام.

ولهذا أكد المصنّف رَحِمَهُٱللَّهُ أنّ أهل القبلة الذين ثبت إسلامهم بيقين لا يجوز أن نخرجهم من الإسلام بالظن والتخمين، وأنه يجب تسميتهم مسلمين؛ وهذا جاء في حديث أنس بن مالك رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ قال: قال رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: **"أمرت أن أقاتل النّاس حتّى يقولوا لا إله إلا الله، فإذا قالوها، وصلوا صلاتنا، واستقبلوا قبلتنا، وذبحوا ذبيحتنا، فقد حرمت علينا دماؤهم وأموالهم، إلا بحقها وحسابهم على الله"** [رواه البخاري].

وقوله **"نُسَمِّي"** أي نطلق عليهم تسمية الإسلام، وأنّهم يستحقون الاسم المترتب على إظهار الإسلام؛ فيقال لهم: مسلمون، ومؤمنون؛ كما جاء في حديث الحارث الأشعري رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ مرفوعًا، وفيه: **"فَادْعُوا بِدَعْوَى اللهِ الَّذِي**

سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ، الْمُؤْمِنِينَ، عِبَادَ الله"[رواه الترمذي، وقال: حسن صحيح غريب].

وهذا فيه ردٌّ على طائفتين من طوائف أهل البدع الذين يأنفون من تسمية أهل القبلة بالمسلمين والمؤمنين، ما لم توافقهم، أو تكون معهم، وهم:

الطائفة الأولى: الخوارج؛ فإنهم يزعمون أن كلّ من ليس معهم، ولا في فسطاطهم؛ فهو كافرٌ حلال الدم، وإن شهد أن لا إله إلا الله، وإن صلَّى وصام!؟ بل ويزعمون أن صاحب الكبيرة كافرٌ حلال الدم، مخلَّدٌ في النّار إن مات على كبيرته غير تائبٍ!؟

الطائفة الثّانية: المعتزلة، ومن وافقهم من الروافض، وغيرهم؛ فإنهم يزعمون أن كلّ صاحب كبيرة لا يجوز أن يعطى اسم الإسلام، ولا أن ينادى بالمسلم، والمؤمنِ، لأنه بكبيرته خرج من الإسلام والإيمان، وينادى في الدّنيا بالفاسق، ولا ينادى بالكافر، ولا تجري عليه أحكام الكافر في الدّنيا، وأما في الآخرة فينادى بالكافر، ويحكم عليه بأحكام الكافرين؛ فهم خالفوا الخوارج في أصحاب الكبائر في الدّنيا، ووافقوهم في الآخرة.

أما أهل السنة فإنهم لا يخرجون أصحاب الكبائر من الإسلام، ولا يسلبون عنه اسم الإسلام، ولا مطلق الإيمان، ولكن يقولون: هو مسلم بإسلامه، مؤمن بإيمانه، وفاسق بكبيرته، مستحق للحدّ الّذي شرعه الله تعالى، ولا يُسلب عنه أحكام المسلمين، وأسماؤهم العامة؛ وأنه يُخاف عليه من الوعيد في الآخرة،

ولكنه تحت المشيئة، إن شاء عفا عنه، وإن شاء عذبه، وإن عذبه فلا يخلد في النّار؛ لأنه ليس من الكافرين، ولا من المشركين، قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ وَيَغۡفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾ [سورة النساء، من الآية:٤٨].

ويقولون إن أهل الإسلام على ثلاث درجات:

الدّرجة الأولى: أهل الإسلام، وهم الذين أظهروا الإسلام، وانقادوا لأحكامه في الظاهر، وفي قلوبهم القبول لهذا الدين من حيث الجملة، وقد يقع من هم نوعٌ من الظلم لأنفسهم، وغيرهم، دون الشرك.

الدّرجة الثّانية: أهل الإيمان، وهم الذين استقر الإيمان في قلوبهم؛ فارتفعوا فوق أهل الإسلام بأعمالهم القلبية والظاهرية، وتركوا المحرمات، والتزموا الواجبات، وإن حصل منهم زلة تابوا وأنابوا، وهؤلاء هم أهل الاقتصاد.

الدّرجة الثّالثة: أهل الإحسان، وهم الذين ارتفعوا فوق أهل الإيمان، بمراقبتهم لله تعالى، وتركهم المكروهات مع المحرمات، واستمروا على المندوبات مع الواجبات، ووصلوا إلى درجة نيل ولاية الله تعالى بفعلهم المحبوبات تبعًا لرضا رب البريات، وهؤلاء هم أهل الإحسان، وأهل السبق بالخيرات.

ودليل هذا من القرآن قوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَوۡرَثۡنَا ٱلۡكِتَٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصۡطَفَيۡنَا مِنۡ عِبَادِنَاۖ فَمِنۡهُمۡ ظَالِمٞ لِّنَفۡسِهِۦ وَمِنۡهُم مُّقۡتَصِدٞ وَمِنۡهُمۡ سَابِقُۢ بِٱلۡخَيۡرَٰتِ بِإِذۡنِ

ٱللَّهِۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡفَضۡلُ ٱلۡكَبِيرُ﴾ [سورة فاطر، من الآية:٣٢]، ومن السنة حديث جبريل عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ المشهور وفيه أنه: "قَالَ: يَا مُحَمَّدُ، أَخْبِرْنِي عَنِ الْإِسْلَامِ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَسَلَّمَ: "الْإِسْلَامُ أَنْ تَشْهَدَ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللهِ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَسَلَّمَ، وَتُقِيمَ الصَّلَاةَ، وَتُؤْتِيَ الزَّكَاةَ، وَتَصُومَ رَمَضَانَ، وَتَحُجَّ الْبَيْتَ إِنِ اسْتَطَعْتَ إِلَيْهِ سَبِيلًا".

قَالَ: صَدَقْتَ، قَالَ: فَعَجِبْنَا لَهُ يَسْأَلُهُ، وَيُصَدِّقُهُ، قَالَ: فَأَخْبِرْنِي عَنِ الْإِيمَانِ، قَالَ: "أَنْ تُؤْمِنَ بِاللهِ، وَمَلَائِكَتِهِ، وَكُتُبِهِ، وَرُسُلِهِ، وَالْيَوْمِ الْآخِرِ، وَتُؤْمِنَ بِالْقَدَرِ خَيْرِهِ وَشَرِّهِ".

قَالَ: صَدَقْتَ، قَالَ: فَأَخْبِرْنِي عَنِ الْإِحْسَانِ، قَالَ: "أَنْ تَعْبُدَ اللهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ، فَإِنْ لَمْ تَكُنْ تَرَاهُ فَإِنَّهُ يَرَاكَ" [رواه البخاري من حديث أبي هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُ، ومسلم من حديث عمر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُ، وهذا لفظه].

وبناءً على أن أهل الإسلام في مراتب؛ فهاهنا أمرٌ لا بد من التنبه له، وهو أن كلّ من كان من أهل المراتب العالية؛ فهو مستحق للاسم الأدنى منه، وذلك لأنه ما بلغ الّذي بلغ إلا بعد استحقاقه للاسم الّذي هو أقل منه رتبة؛ فكل محسنٍ فهو مؤمنٌ، وكلّ مؤمنٍ فهو مسلم، ولكن ليس كلّ مسلمٍ يكون محسنا، ولا كلّ مسلم يكون مؤمنا، لكن قد يطلق عليه اسم مطلق الإيمان، وهو الّذي يكون بمعنى الإسلام، وذلك لأن اسم الإسلام والإيمان يتعاقبان؛ وذلك أنهما إذا اجتمعا في نصٍّ ما فإنهما يفترقان؛ فكلٌّ يدل على مرتبته ومسماه الخاص، وإذا

افترقا في نصٍّ ما فإنهما يجتمعان في المعنى؛ وهذا مثل اسم الفقير والمسكين، واسم البر والتقوى، واسم الرجل والإنسان، ونحو ذلك من الأسماء الّتي عند الاجتماع لكل معنى خاص، وعند الافتراق يتعاقبان.

فعند الاجتماع يكون الإسلام بمعنى الأعمال الظاهرة، وإظهار علامة المسلمين، وشعارهم، مثل شهادة التوحيد، والصلاة، واستقبال القبلة، ونحو ذلك مما هو من خصائص المسلمين.

ويكون الإيمان بمعنى الأعمال الباطنة، والمبنية على أركان الإيمان القلبية.

ومثال على الاجتماعِ، الدال على خصوص المعنى، وهو أن الإسلام الأعمال الظاهرة، والإيمان تقرر الأعمال الباطنة، وزيادة الإيمان، قول الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: ﴿قَالَتِ ٱلْأَعْرَابُ ءَامَنَّا ۖ قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا۟ وَلَٰكِن قُولُوٓا۟ أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ ٱلْإِيمَٰنُ فِى قُلُوبِكُمْ ۖ وَإِن تُطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ لَا يَلِتْكُم مِّنْ أَعْمَٰلِكُمْ شَيْـًٔا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٤﴾ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ﴾ [سورة الحجرات، من الآية:١٤-١٥]، فهذا نص في أن الإسلام الأعمال الظاهرة، والإيمان درجة أعلى معها إقرار بمعاني قلبية، لها آثار بدنية، ومعها صدق اللسان.

وكذلك جاء في حديث أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **"الْمُسْلِمُ مَنْ سَلِمَ الْمُسْلِمُونَ مِنْ لِسَانِهِ وَيَدِهِ، وَالْمُؤْمِنُ مَنْ أَمِنَهُ النّاس عَلَى دِمَائِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ"** [رواه الترمذي، وقال: حسن صحيح].

وأمثلة الافتراق كثيرةٌ، ومنها قول الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسۡلِمُونَ﴾ [سورة آل عمران، من الآية:١٠٢]؛ فهنا يدخل فيه الإيمان، والمعنى موتوا وأنتم مسلمون مؤمنون.

ومن أمثلة ذلك في الحديث ما جاء عن أبي موسى الأشعري رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ: عَنِ النّبيّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: **"عَلَى كلّ مُسْلِمٍ صَدَقَةٌ"** قِيلَ: أَرَأَيْتَ إِنْ لَمْ يَجِدْ؟ قَالَ: **"يَعْتَمِلُ بِيَدَيْهِ فَيَنْفَعُ نَفْسَهُ وَيَتَصَدَّقُ"** قَالَ قِيلَ: أَرَأَيْتَ إِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ؟ قَالَ: **"يُعِينُ ذَا الْحَاجَةِ الْمَلْهُوفَ"** قَالَ قِيلَ لَهُ: أَرَأَيْتَ إِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ؟ قَالَ: **"يَأْمُرُ بِالْمَعْرُوفِ أَوِ الْخَيْرِ"** قَالَ: أَرَأَيْتَ إِنْ لَمْ يَفْعَلْ؟ قَالَ: **"يُمْسِكُ عَنِ الشَّرِّ، فَإِنَّهَا صَدَقَةٌ"** [رواه مسلم]؛ فالمؤمن مأمورٌ بمثل هذه الأمور أيضًا.

وبناءً على هذا فكل مسلم مؤمنٌ، وليس كلّ مؤمنٍ يكون مسلمًا إلا على معنى التعاقب، وهذا الذي أراده المصنّف رَحِمَهُ ٱللَّهُ، ولذلك قال: **"ونسمي أهل قبلتنا مسلمين مؤمنين"**؛ فقوله: "**مسلمين**"؛ أي لا نخرجهم بذنوبهم، وبمجرد مخالفتهم لنا عن الإسلام، وقوله: "**مؤمنين**"؛ أي لا نسلب عنهم بأعمالهم المخالفة للشرع مطلق اسم الإيمان.

وهنا لا بد أن ندرك أن الإيمان يطلق على ثلاثة معانٍ:

المعنى الأوّل: مطلق الإيمان = الإسلام = أصل الإيمان = ما به يدخل في الإسلام، ويمايز أهل الشرك والكفران.

المعنى الثّاني: الإيمان الّذي هو فوق الإسلام، وهي مرتبة من مراتب الدين =

الإيمان الواجب، ما به يتمايز عن عامة أهل الإسلام.

المعنى الثّالث: الإيمان الكامل = الإيمان المطلق = الإحسان = البرّ = التقوى، وهو من أتى بالإيمان الواجب وزاد عليه الإيمان المستحب.

وقوله: **"ما داموا بما جاء به النّبيّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ معترفين"** أي أن من دخل في الإسلام وأقرّ به ظاهرًا، وأظهر الاستمرارية عليه؛ فإنه لا يخرج منه، لا حكمًا من آخر صاحب هوًى، ولا بسبب الذنوب الكبائر؛ فإنها تنزله في القيمة الإيمانية، ومن الدرجة الإيمانية، ولكنه لا يخرج بذلك من الإسلام؛ ولذلك شرع الله تعالى الحدود والتعزير على أهل الإسلام المرتكبين الآثام، والذين يأتون الآثام؛ لكن أصحاب الكبائر لا يكفرون، وكلّ مسلم لا يكفر إلا بقولٍ أو فعلٍ كفريٍّ، أو اعتقادٍ كفريٍّ، أو إنكارٍ لما جاء به النّبيّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ فالتّكفير وأحكامه إنما يكون خاصًّا في جهتين:

الجهة الأولى: جهة الفعلِ، والقولِ، وذلك بفعل الكفر؛ كالسجود للصنم، أو الاستهزاء بالقرآن، وصرفِ أي نوعٍ من أنواع العبادات لغير الله تعالى، أو قول الكفرِ؛ كسب الدين، أو القرآن، أو نبيٍّ، ونحو ذلك.

الجهة الثّانية: جهة الاعتقاد، سواء بإثبات ما يخالف الإيمان؛ كاعتقاد إلهين، واعتقاد ابنٍ لله، تعالى الله عن ذلك، أو بإنكار ما يخالف الإيمان؛ كجحد ما جاء به النّبيّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من الإيمان، وأركان الإسلام، وما هو معلوم من الدين بالضرورة، ونحو ذلك.

وقوله: **"ما داموا"** أي ما ثبّتوا، وبقوا، وَاطْمَأنُّوا، وأقاموا على ما جاء به النّبيّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ فلم يحصل منهم فعلٌ للكفرِ، ولا إنكارٌ لمسائل التوحيد والإيمان، ولهذا قال: **"معترفين"** أي موقنين، ثابتين على معرفتهم بأنه من عند الله تعالى، وذلك لأن أي أمرٍ من أوامر الله تعالى يقتضي أمرين:

الأمر الأوّل: الاعتراف بأنه من عند الله تعالى، وأنه دين الله تعالى، فيقرُّ بأن جلد الزاني غير المحصن دينٌ من عند الله تعالى، وأن القصاص دين الله تعالى؛ فهذا هو الاعتراف والإقرار المطلوب في كلّ أمرٍ طلبي، وإنكاره كفرٌ وجحود؛ فمن زعم أنّ دين الله تعالى ليس القصاص؛ ولا الرجمُ؛ فإنه قد أنكر مقتضى أمر الله تعالى، وهو الاعتراف به، واليقين به، وأنه حكم الله تعالى.

الأمر الثّاني: العمل وَفق ذلك الأمر الّذي هو من عند الله تعالى، فيقيم حد الجلد، أو القصاص، إن كان من أهل الحكم، أو طلب منه ذلك الحاكم، فإن أنف عن هذا العمل؛ كأن لم يحكم بجلد الزاني غير المحصن، ولم يقم القصاص، ولم يرجم المحصن؛ فتركه العمل لا يكون كفرًا؛ بل يكون كبيرةً، وحاله كحال من أُمِرَ أن لا يغتاب فاغتاب، وأن لا يسرق فسرق، وأن لا يخون فخان؛ فلا يكفر؛ لأنه مقرٌّ بأن الغيبة محرمة، وأن السرقة محرمة، وأن الخيانة محرمة، وأكد المصنّف هذا المعنى بقوله: **"وله بكل ما قال وأخبر مصدقين"**، أي مع كونه قد خالف أمر الله تعالى؛ لكنه مصدقٌ بأمر الله تعالى، ومقتضاه الحكمي، وإن لم يحصل منه امتثال في جانب التركِ، أو الفعلِ، وهذا يدلنا أن

الكلام في الأحكام، وما يترتب عليها.

ويجوز إطلاق حكم التكفير من حيث العمومِ أو الإطلاق على كلّ فعلٍ أو قولٍ أو اعتقادٍ أطلق عليه الشارع أنه كفرٌ، فيقال: الذبحُ لغير الله تقرّبًا وتعبّدًا شرك، والتّوكل على غير الله شركٌ، وطلب الحاجات من الموتى شركٌ، ومظاهرة الكفار على المسلمين كفرٌ، ومَن سجد للصّنم كَفَر، ومن قال: القرآن مخلوق كفر، ومن اعتقد أن النّبيّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ما بلغ البلاغ المبين كفر، ونحو ذلك.

ولكن تنزيل ذلك على المعينين، والأشخاص الخاصين بأسمائهم؛ فهذا لا يكون إلا بشروطٍ، وهي التي تسمّى بشروط التكفير.

فإن قيل: فما شروط تكفير المعين؟

فالجواب: أن المعيّن لا يُكَفَّر إلّا بثلاثة شروط، وهي:

الشّرط الأوّل: أن يكون الفعلُ أو القولُ أو الاعتقاد في نفسه كفرًا يقينًا، قد دلت النصوص الشّرعية على أنه كفرٌ في نفسه، لا بمركبات، ولوازم؛ كصرف العبادة لغير الله تعالى، أو الاستهزاء بدين الله تعالى، أو إلقاء المصحف، ونحو ذلك.

الشّرط الثّاني: أن يكون الفاعل مكلّفًا، أي بالغًا رشيدًا مُخْتَارًا؛ فلا ينزل حكم الكافر على من فعل أمرًا كفريًا أو قال قولًا كفريًا، أو أبان عن اعتقادٍ كفري، إذا كان صغيرًا، أو مجنونًا، أو مكرهًا.

الشّرط الثّالث: أن ينطبق الحكم عليه بعينه، ويتم ذلك من جهة الاختصاص،

ولا يكون من جهة الخصم نفسه، لأنه لا يجوز في الأموال والدماء والأعراض أن يكون الخصم هو الحاكم نفسه؛ فكيف في حكم الدين الذي يترتب عليه فساد الدنيا والآخرة؛ فهذا إنما يقوم به الحاكم، أو القاضي، أو المفتي، وذلك بشروط خاصة عند الفقهاء، وهل يستتاب أو لا يستتاب، وما هي الأعمال الكفرية الّتي فيها الاستتابة، والتي لا استتابة فيها، تفصيل ذلك في المطولات.

وتضمن كلام المصنّف رَحِمَهُ ٱللَّهُ: بيان معتقد أهل السنة في الأسماء والأحكام، وأن من صلى إلى قبلتنا من أهل التوحيد؛ فإنهم يُسَمُّون مسلمين، ولا يخرجون من الإسلام بذنوب ارتكبوها، أو بدع أحدثوها، ما لم يكن كفرًا مخرجا من الإسلام، وهؤلاء وهم الذين وافقونا في التنزيل وإن خالفونا في التأويل والتفسير.

ومن هنا فإن أهل السنة لا يُكفِّرون، ولا يُخرِجون من الإسلام الفرق الضالة المنحرفة ما لم يأتوا بالكفر الصريح، وأما أهل البدع فإنهم يكفرون بعضهم بعضًا، ولا يشهدون بالإيمان إلا لمن وافقهم، ويشهدون بالكفر لمن خالفهم كالخوارج والمعتزلة والباطنية ونحوهم.

❀❀❀

[وجوب ترك الخوض والجدال]

وَلَا نَخُوضُ فِي اللهِ تَعَالَى، وَلَا نُمَارِي فِي الدِّينِ، وَلَا نُجَادِلُ فِي الْقُرْآنِ، وَنَعْلَمُ أَنَّهُ كَلَامُ رَبِّ الْعَالَمِينَ، نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ، فَعَلَّمَهُ سَيِّدَ الْمُرْسَلِينَ مُحَمَّدًا صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ أَجْمَعِينَ.

﴿ الشرح ﴾

هذا تقريرٌ من المصنف رَحِمَهُ ٱللَّهُ لبيان منهج وطريقة أهل السنة في باب من أبواب الاعتقاد، وهو ما يتعلق بالخصومات، وترك الجدال.

قول المصنّف رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "**ولا نخوض في الله**" أي لا يجوز أن يُخاض في دين الله تعالى بالأهواء والظنون، وذلك لأنه محرمٌ من جهة، ولأنه يؤدي إلى الضلال والكفران من جهة أخرى.

و "**لا نخوض**" أي لا ندخل، ولا نلِجُ، ولا نسارِع في الحديث عن الله تعالى بآرائنا، ولا نخلط ما جاء في النص بما اعتقدناه بالظن، والخوضُ في الله تعالى، وفي دين الله تعالى، بالظنون والأوهام من صفات المشركين الضَّالينَ في النّار، قال الله تعالى عنهم: ﴿وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ ٱلْخَآئِضِينَ﴾ [سورة المدثر، من الآية:٤٥]، فكانوا يتكلمون فيما لا يعلمون، وكلّما غوِيَ غاوٍ غَوَوْا معه، فأوصلهم خوضهم في الله تعالى، وفي دينه، إلى ضلالٍ، وكفرٍ، وسوء مآلٍ؛ فكل من خاض في الله تعالى فإنه حابطُ العملِ ومآله الخسران، قال الله تعالى: ﴿وَخُضْتُمْ كَٱلَّذِى خَاضُوٓاْ أُوْلَٰٓئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾

[سورة التوبة، من الآية:٦٩].

قوله: **"ولا نماري في دين الله"** هذا تأكيد لترك الخوضِ؛ فإنّ ترك المماراة من ترك الخوضِ، وإن كان هو أخص منه، والمراء مشتق من المِرْيَة، وماري في الشَّيءِ، ومارى به، بمعنى الخوضِ، ولـ(مماراة) ثلاثة معانٍ:

المعنى الأوّل: شكّ في الشيء؛ فيكون معنى كلام المصنّف رَحِمَهُ ٱللَّهُ، ولا نشك في دين الله تعالى، وأنه حقٌّ، وأنَّ ما جاء به من مسائل الاعتقاد صدق، يجب الإقرار به، قال الله تعالى: ﴿لَقَدۡ جَآءَكَ ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡمُمۡتَرِينَ﴾

[سورة يونس، من الآية:٩٤].

المعنى الثّاني: جادل في الشيء؛ فيكون معنى كلام المصنّف رَحِمَهُ ٱللَّهُ، ولا نجادل في دين الله تعالى، وذلك لأن المؤمن يقبل الدين الحقَّ؛ بلا مجادلة، ولا مناقشة، ولا مناظرة، وهذا النوع منه ما هو مذمومٌ، ومنه ما هو ممدوح، ولهذا قال تعالى: ﴿فَلَا تُمَارِ فِيهِمۡ إِلَّا مِرَآءً ظَٰهِرًا﴾ [سورة الكهف، من الآية:٢٢]؛ فالجدال بالشيء الظاهر، وإثباته مطلوبٌ، وإنما الخوض فيما خفي أمره، وغاب عن العقل مدركه وهو محجوبٌ؛ فلا ينبغي الخوضُ فيه، ومن ذلك ما يتعلق بالغيبيات الإيمانية.

المعنى الثّالث: خالفَ في الشيء، وتلوّى عليه، ولاحَ فيه؛ فيكون معنى كلام المصنّف رَحِمَهُ ٱللَّهُ: أي لا نخالف في دين الله تعالى ما كان عليه سلفنا الصالح، ولا نتلوَّى فيه بالباطل؛ فإن ذلك إنكارٌ للحقائق ومماراة في صحتها.

قوله: **"ولا نجادل في القرآن" أي** لا نجادلُ أهل الباطل، الذين يخوضون فيه بباطلهم؛ بل نقرر الحق، ونتبع السلف، وهذا تخصيصٌ بعد تعميمٍ؛ فمن منج أهل السنة ترك المراء في الدين عمومًا، وترك الجدال في القرآن خصوصًا.

ومعنى **"ولا نجادل"**: أي لا نخاصِمُ في القرآن، ولا نناقش النّاس فيه؛ فإنه حقٌّ، وهو كلام الله تعالى غير مخلوقٍ، وهو صفة من صفات الله تعالى.

فإن قيل: فما أنواع الجدال من حيث الذّم والمدح؟

فالجواب: الجدال من حيث الذم والمدح أربعة أنواعٍ:

النّوع الأوّل: الجدال بالباطل للباطل؛ فهذا مذموم من الجهتين، من جهة الاستخدام، ومن جهة سوء المقصد، ومن هذا النوع ما ذمه الله تعالى على الكفار في قوله: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوكَ يُجَٰدِلُونَكَ يَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ [سورة الأنعام، من الآية:٢٥].

النّوع الثّاني: الجدال بالباطل للحق؛ فهذا مذموم من جهة الاستخدام، وإن كان المقصد حسنًا؛ ولهذا فهو يبقى من قسم المذموم، وذلك كمن يختلق القصص لنصرة الدين، ونصرة الحق، ونحو ذلك.

النّوع الثّالث: الجدال بالحق للحق؛ فهذا هو الممدوح من الجهتين، من جهة الاستخدام بشرط أن تكون بالتي هي أحسن، ولا يحتوي على استهزاء وسخرية من الخصم، ولا شتم، ولا نقيصة، وإنما المقصد بيان تلبيس الجهمية الحق، وتعرية الباطل، بالحق للحق، وهذا الّذي قال الله تعالى عنه: ﴿ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ

رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ﴾ [سورة النحل، من الآية:١٢٥]، وقال: ﴿وَلَا تُجَٰدِلُوٓا۟ أَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ﴾ [سورة العنكبوت، من الآية:٤٦].

النّوع الرّابع: الجدال في الحق بعد ظهوره، وجلائه ووضوحه، وذلك بقصد التلبيس، أو التشويش، أو التقاعس عن الحق، قال الله تعالى: ﴿يُجَٰدِلُونَكَ فِى ٱلْحَقِّ بَعْدَ مَا تَبَيَّنَ كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى ٱلْمَوْتِ وَهُمْ يَنظُرُونَ﴾ [سورة الأنفال، من الآية:٦].

فلا يجوز للمسلم أن يجادل في القرآن؛ فإنه كلام الله تعالى بلا ريب، ولهذا قال المصنّف رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **"ونشهد أنه كلام رب العالمين"** أي نقر على وجه الشهادة واليقين والإقرار بأن القرآن كلام الله تعالى ربِّ العالمين؛ فهو لكونه ربّ العالمين خالقهم ورازقهم ومدبر أمرهم؛ فلا يدعهم كذلك؛ بل يكلمهم، ويخاطبهم بما فيه صلاحُ حالهم وحسن مآلهم، ولذلك أرسل الرسل، وأنزل الكتب، ومن هذه الكتب القرآن الكريم، وقد **"نزل به الروح الأمين"** أي أن الواسطة بين الله تعالى وبين النّبيّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في إنزال القرآن الكريم هو جبريل عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، وهذا بالإجماع.

ومِن أسماء جبريل عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ: الروحُ الأمين، وسُمِّيَ بهذا الاسم لأنه ينزل بالوحي، بكلام الله تعالى، بالقرآن، الّذي به حياة النّاس، حياة الأرواح، حياة

الدّنيا والآخرة، ولقب بالأمين لأنه أمينٌ حقٌّ أمين؛ والأمين من شأنه أن يأتي بما اؤتُمِن عليه كما هو من دون نقصٍ ولا زيادةٍ.

و **"الأمين"** فَعِيل بمعنى مفعول أي مُؤْتَمَن على وحي الله تعالى، وعلى كلام الله تعالى؛ فلا يزيد ولا ينقص، لأنّه مُمَكَّنٌ، ويأتي **"الأمين"** فعيل بمعنى فاعِلٌ أي من قوّته وشدّة بأسه فهو آمِنٌ من النقص والزيادة، وذلك لأنه مُتمَكِّنٌ.

والدليل على أن الّذي نزل بالقرآن هو جبريل الروح الأمين قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ١٩١ وَإِنَّهُۥ لَتَنزِيلُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ١٩٢ نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ١٩٣ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ١٩٤ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ﴾ [سورة الشعراء، من الآية:١٩١-١٩٥]، والمعنى: يقينًا ربُّ محمَّدٍ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ هو الله العزيز الّذي لا يُغلب، والرحيم الّذي لا يُقنط من رحمته، ويقينًا هذا القرآن تنزيل من رب العالمين، نزل بهذا القرآن، على قلب محمَّدٍ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لتكون بهذا الوحي المنزل ممن ينذر النّاس، بهذا اللفظ العربي، والمعاني الثابتة في الصدور والمصاحف، وعلى ذلك كله يعود الضمير في بِهِ، واللسان اللغة، ومبين أي واضحًا جليًّا.

وقال الله تعالى في صفة جبريل عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ: ﴿عَلَّمَهُۥ شَدِيدُ ٱلْقُوَىٰ ٥ ذُو مِرَّةٍ فَٱسْتَوَىٰ ٦ وَهُوَ بِٱلْأُفُقِ ٱلْأَعْلَىٰ﴾ [سورة النجم، من الآية:٥-٧]، وقال: ﴿إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ

كَرِيمٖ ۝١٩ ذِي قُوَّةٍ عِندَ ذِي ٱلۡعَرۡشِ مَكِينٖ ۝٢٠ مُّطَاعٖ ثَمَّ أَمِينٖ﴾ [سورة التكوير، من الآية:١٩-٢١]،

وقال: ﴿قُلۡ نَزَّلَهُۥ رُوحُ ٱلۡقُدُسِ مِن رَّبِّكَ﴾ [سورة النحل، من الآية:١٠٢].

ومما سبق من الأدلة يتبين لنا أن جبريل عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ له صفاتٌ وخصائص، ومنها:

الأولى: أنه الرُّوح، وبه وبأعماله الحميدة، ومن ذلك إنزاله الوحي، حياة النّاس.

الثانية: أنه الأمين؛ فهو مؤتمِنٌ، ومؤْتَمَنٌ، آمِنٌ مأْمونٌ.

الثالثة: شديد القُوَى، وهذا يدل على تعدد قواه، وقوته، وقدرته؛ فهو ذو قوة وقدرة.

الرابعة: عظيم الخلقة، وله ست مئة جناحٍ، ومن عظمته أنه سد الأفق بجناحيه.

الخامسة: أنه عالٍ، فهو مستوٍ في العلو فوق كلّ الملائكة.

السادسة: أنه مطاعٌ من الملائكة كلهم، وهم يعلمون قدره، وعلو مكانته.

السابعة: أنه مكينٌ، مُمَكّنٌ.

الثامنة: أنه رسولٌ، وهو أعلى الرُّسُلِ من الملائكة، ومنزلته بينهم؛ كمنزلة النّبيّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَسَلَّمَ بين الرُّسُلِ من البشرِ.

التاسعة: أنه كريمٌ؛ فهو كارمٌ لا يبخل، مكرَمٌ عند الله تعالى، لا يخفى عليه شيءٌ من أمر الوحي، ولا يبخل به.

العاشرة: أنه قُدُّوسٌ منزه عن العيوب، سواءٌ ما تعلق بالخِلقة، أو بالخُلُق، أو بالمكان أو المكانة.

هذه بعض أوصاف جبريل الّذي نزل بالقرآن من الله تعالى على النّبيّ محمدٍ ﷺ، وكان هذا النزول سماعيًّا سمعه جبريل من الله تعالى، وأنزل به على محمدٍ ﷺ؛ **"فعلَّمه سيّدَ المرسلين محمّدًا ﷺ"** أي كان جبريل يُعلِّمُ الكامل الّذي بلغ السؤدد من المرسلين، وصار فوقهم، ونال الرتبة العالية فيهم، وهو محمدٌ ﷺ.

وهذا تأكيد أن جبريل هو الّذي نزل بالقرآن، وأنه هو الّذي علمه نبينا ﷺ، وهذا فيه رد على طوائف، وهم:

الطّائفة الأولى: المشركون، الذين زعموا أن القرآن إنما عَلِمَه محمدٌ ﷺ من عند نفسه، وأنه شعره، وسِحْرُه، كما قال تعالى عنهم: ﴿بَلْ قَالُوٓا۟ أَضْغَٰثُ أَحْلَٰمٍۭ بَلِ ٱفْتَرَىٰهُ بَلْ هُوَ شَاعِرٌ فَلْيَأْتِنَا بِـَٔايَةٍ كَمَآ أُرْسِلَ ٱلْأَوَّلُونَ﴾ [سورة الأنبياء، من الآية:٥]، وقال تعالى: ﴿وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ ۚ قَلِيلًا مَّا تُؤْمِنُونَ ﴿٤١﴾ وَلَا بِقَوْلِ كَاهِنٍ ۚ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٤٢﴾ تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [سورة الحاقة، من الآية:٤١-٤٣].

الطّائفة الثّانية: المشركون، وأهل الكتاب، الذين زعموا أن القرآن إنما تعَلَّمَه محمد ﷺ من عند بشرٍ آخرَ، راهبٍ، أو كاتبٍ، أو معلِّمٍ، قال الله

تعالى عنهم: ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُۥ بَشَرٌۗ لِّسَانُ ٱلَّذِى يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِىٌّ وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِىٌّ مُّبِينٌ﴾ [سورة النحل، من الآية:١٠٣].

الطّائفة الثّالثة: الفلاسفة، الذين زعموا أن القرآن إنما كان من نفسِ محمدٍ صَلَّىٰ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وهذا قريبٌ من القول الأولِ، إلا أنه يختلف عنه بإقرارهم بأنه كلامٌ عظيمٌ، وليس شعرًا، ولا سحرًا، وعلى مثل هؤلاء يأتي الرد من الله تعالى عليهم: ﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُۖ قُلْ فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّثْلِهِۦ وَٱدْعُوا۟ مَنِ ٱسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ [سورة يونس، من الآية:٣٨]، وقال: ﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُۚ بَلْ هُوَ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أَتَىٰهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ﴾ [سورة السجدة، من الآية:٣].

الطّائفة الرّابعة: المناطقة، ومن وافقهم من أهل البدع، الذين زعموا أن محمدًا صَلَّىٰ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ هو المعبِّر بالقرآن، ولم تنزل عليه عبارات القرآن من الرحمن، وإنما نزلت معانيها، وهو الّذي عبر عنها بالعربية من عند نفسه، ويرد على هؤلاء بمثل قول الله تعالى: ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَاتُنَا بَيِّنَٰتٍ قَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا ٱئْتِ بِقُرْءَانٍ غَيْرِ هَٰذَآ أَوْ بَدِّلْهُۚ قُلْ مَا يَكُونُ لِىٓ أَنْ أُبَدِّلَهُۥ مِن تِلْقَآئِ نَفْسِىٓۖ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّۖ إِنِّىٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّى عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٥﴾ قُل لَّوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا تَلَوْتُهُۥ عَلَيْكُمْ وَلَآ أَدْرَىٰكُم بِهِۦۖ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ

عُمُرًا مِّن قَبْلِهِۦٓ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٦﴾ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْمُجْرِمُونَ﴾ [سورة يونس، من الآية:١٥-١٧].

وخلاصة دلالة كلام المصنّف رَحِمَهُ ٱللَّهُ: التأكيد على وصف من أوصاف أهل السنة والجماعة، وهي أنهم لا يرون الخوض والمجادلة والمراء في الله عَزَّوَجَلَّ ودينه، خلافًا لأهل البدع؛ فإنَّ بدعهم مبنية على الخوض في الله وفي دينه بقولهم وأهوائهم، وقد قال صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **"أَنَا زَعِيمٌ بِبَيْتٍ فِي رَبَضِ الجنّة لِمَنْ تَرَكَ الْمِرَاءَ وَإِنْ كَانَ مُحِقًّا"** [رواه أبو داود من حديث أبي أمامة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، وصححه الألباني].

وقد اتفق السلف على ذم جدال أهل الباطل، وأن الواجب هو تقرير الحق بدليله دون الخوض مع أهل الباطل، ولا المناظرة معهم ولا مجادلتهم؛ فإن الحق أبلج والباطل لجلج.

ويتبين لنا من كلام المصنف رَحِمَهُ ٱللَّهُ: أهمية ترك المجادلة في القرآن؛ ومنه ضرب بعضه ببعض، وقبول بعضه ورد بعضه، وقد ذم الله عَزَّوَجَلَّ من كان هذا وضعه فقال: ﴿أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ ٱلْكِتَٰبِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ﴾ [سورة البقرة، من الآية:٨٥].

والواجب أن نشهد أن القرآن كلام الله عَزَّوَجَلَّ؛ فلا يمكن أن يكون فيه تناقض، ولا اضطراب، قال الله تعالى: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ ۚ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ

غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا﴾ [سورة النساء، من الآية:٨٢].

وأنّ هذا القرآن نزل به جبريل عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، وهو الروح الأمين، قال تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ لَتَنزِيلُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٩٢﴾ نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ﴾ [سورة الشعراء، من الآية:١٩٢-١٩٤]، وقال: ﴿قُلْ نَزَّلَهُۥ رُوحُ ٱلْقُدُسِ مِن رَّبِّكَ بِٱلْحَقِّ﴾ [سورة النحل، من الآية:١٠٢].

[كلام الله ليس ككلام البشر]

وَكَلَامُ اللهِ تَعَالَى لَا يُسَاوِيهِ شَيْءٌ مِنْ كَلَامِ الْمَخْلُوقِينَ، وَلَا نَقُولُ بِـخَلْقِهِ.

الشرح

هذا تقريرٌ من المصنف رَحِمَهُ ٱللَّهُ لبيان فضلِ كلام الله تعالى، وأنه فوق كلّ كلامٍ، وذلك لأن صفاته تعالى ليست كصفات المخلوقين، وهذا سبق تقريره، وإنما أعاده لمناسبة ترك الخوضِ فيه، ومِن ذلك ترك الخوض فيه بالقول المحدَث بعد زمن خير القرون، من زعمهم أنه ككلام المخلوقين، أو هو محدَثٌ كلام المحدَثِين.

وقوله: **"وكلام الله تعالى"** سبق تقرير أنّ القرآن الكريم كلام الله تعالى، وإنما ذكر هذا لمناسبة أنّه لا يجوز المراء والجدال فيه، وأنّه منزَّل على محمدٍ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بواسطة جبريل، وأنه كلام الله تعالى غير مخلوقٍ، واستدل بكونه كلام الله تعالى، وبكونه غير مخلوق بقوله: **"لا يساويه شيء من كلام المخلوقين"**، وذلك لأن كلام المخلوقين مخلوق، وكلام الخالق لا يكون مخلوقًا؛ بل كلام المخلوق صفة للمخلوق، وهو وصفاته مخلوق، وكلام الخالق صفة للخالق، وهو وصفاته لا يجري عليه أحكام المخلوقين؛ ولهذا **"لا يساويه"**، أي لا يماثله، ولا يعادله، ولا يبلغ قدره شيء من كلام المخلوقين.

فإن قيل: فمِن كم وجهٍ تكون المساواة منفية بين كلام الخالق وكلام المخلوقين؟

فالجواب: أن المساواة مَنفية مِن عدّة أوجه، ومنها:

الوجه الأوّل: أن كلّ كلامٍ سوى كلام الله تعالى عرضة للنقدِ، وعرضة للأخذ والرد، وأما كلام الله تعالى؛ فليس كذلك، وما كان كلام الأنبياء والرسل كذلك إلّا لأنهم إنما يتكلمون بالوحي، لا من عند أنفسهم.

الوجه الثّاني: أن كلّ كلامٍ سوى كلام الله تعالى فإنه لا يكون مُعْجِزًا، ولا مُعْجَزًا.

الوجه الثّالث: أن كلّ كلامٍ سوى كلا الله تعالى فإنه يكون مخلوقًا، وكلام الله تعالى لا يكون مخلوقًا؛ لأن الصفة تتبع الموصوف في الأحكام، وفي الخصائص، وفيما يجب، وفيما يمتنع، وفيما يجوز.

الوجه الرابع: أن كلام الله مضافٌ إليه إضافة الصفة إلى موصوفه، وكلام المخلوق مضافٌ إليه إضافة الصفة إلى موصوفه، وشتان بين الموصوفَين، ويلزم ذلك الفرق العظيم، والبون الشاسع بين الصفتين.

وإذا تقرر هذا علمنا يقينًا أنه لا مساواة بين كلام الله تعالى القرآن، وبين كلام المخلوقين، مهما كانوا فصحاء بلغاء.

وقوله: **"ولا نقول بخلقه"**، أي لا يجوز نقلًا ولا عقلًا القول بخلق القرآن، ولذلك لا نجده مأثورًا عن الأئمة؛ بل المنقول عنهم بالإجماع والتواتر أنه كلام الله تعالى غير مخلوقٍ؛ فمن قال إن القرآن مخلوقٌ فقد أتى ببدعٍ من القولِ، وخالف الآثار، والمعقول من الأخبار؛ فإنّ الصفة تتبع الموصوف؛ فالله تعالى

أزلي أحدٌ صمدٌ واحدٌ فيجب أن تكون مضامين هذه الأسماء كذات الله تعالى؛ فله الأحدية، والصمدية، والواحدية أزلًا وأبدًا.

ثم القول بأن القرآن مخلوق إنما هو قول المعتزلة ومن وافقهم، وفي ذلك مخالفة لما كان عليه السلف الصالح من الصحابة والتابعين، وتبع التابعين.

فهذا القرآن هو كلام الله الّذي لا يشبه كلام المخلوقين، وهو آية ومعجزه للنبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، تحدى الله به الأنس والجن قال تعالى: ﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ۖ قُلْ فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّثْلِهِۦ وَٱدْعُوا۟ مَنِ ٱسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ [سورة يونس، من الآية:٣٨].

وهذا ما عليه السلف قاطبة، وهو الّذي عناه المصنّف رَحِمَهُ ٱللَّهُ بقوله: **"ولا نخالف جماعة المسلمين"** بل نسير على طريقتهم، وهم أصل الإسلام، وبأكتافهم انتشر الدين، وباجتهادهم وصل إلى الآفاق، وببيانهم علمه القاصي والداني، وبتعليمهم علم النّاس الدين، ومن ذلك أن القرآن كلام الله تعالى.

فوجب اعتقاد الفرق بين كلام الخالق وكلام المخلوق، من حيث المضاف إليه، ومن حيث الفضلِ، ومن حيث البلاغة والفصاحة، ومن حيث الحق والباطل، ومن حيث العدل والصدق.

[وجوب الموافقة للجماعة]

وَلَا نُخَالِفُ جَمَاعَةَ الْمُسْلِمِينَ.

﴿ الشرح ﴾

هذا تقريرٌ من المصنف رَحِمَهُ ٱللَّهُ لبيان أهمية اتباع الجماعة، والسير على طريقتهم، في أبواب الاعتقاد عمومًا، وفي الأبواب الأخرى، وفي باب القرآن وفهمه وتفسيره، والاعتقاد فيه خصوصًا.

قوله: و **"وَلَا نخالف جماعة المسلمين"** أي لا نحيد عن طريق جماعة المسلمين، والمراد بـ**(الجماعة)** هنا: هم الذين كانوا مع النّبيّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قبل وجود التّفرق، وقبل وجود الجماعات المتفرعة، والمنحرفة عنهم، وهم الذين أثنى الله تعالى عليهم بقوله: ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلۡأَوَّلُونَ مِنَ ٱلۡمُهَٰجِرِينَ وَٱلۡأَنصَارِ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحۡسَٰنٖ رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمۡ وَرَضُواْ عَنۡهُ وَأَعَدَّ لَهُمۡ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي تَحۡتَهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدٗاۚ ذَٰلِكَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ﴾ [سورة التوبة، من الآية:١٠٠].

وأيضًا لم يقبل الله تعالى من أهل الكتاب إيمانًا إلا أن يكون كإيمانهم؛ فقال تعالى عن أهل الكتاب لما ادعوا الإيمان: ﴿فَإِنۡ ءَامَنُواْ بِمِثۡلِ مَآ ءَامَنتُم بِهِۦ فَقَدِ ٱهۡتَدَواْۖ وَّإِن تَوَلَّوۡاْ فَإِنَّمَا هُمۡ فِي شِقَاقٖۖ فَسَيَكۡفِيكَهُمُ ٱللَّهُۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ﴾ [سورة البقرة، من الآية:١٣٧].

وأيضًا لم يقبل الله تعالى من المنافقين الإيمان عندما أظهروا الإيمان إلا ان يكون كإيمان جماعة النّاس وقتهم، وهم الصحابة من المهاجرين والأنصار؛ فقال الله تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُوا۟ كَمَآ ءَامَنَ ٱلنَّاسُ قَالُوٓا۟ أَنُؤْمِنُ كَمَآ ءَامَنَ ٱلسُّفَهَآءُ ۗ أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلسُّفَهَآءُ وَلَـٰكِن لَّا يَعْلَمُونَ﴾ [سورة البقرة، من الآية:١٣].

وإذا كان الأمر كذلك في جميع مسائل الإيمان، وفي منهج الإيمان؛ فكذلك الأمر في كلّ مسألة من مسائل الإيمان، والتوحيد؛ بل والطاعة، والتدين.

وخلاصة دلالة كلام المصنّف رَحِمَهُ ٱللَّهُ: وجوب اتباع الجماعة، من الذين سلفوا من الصحابة والتابعين قبل ظهور الجهم وأتباعه من المعتزلة، وقبل ظهور التفرق في الأمة، فإن الخير كل الخير في اتباع من سلف، والشر كل الشر في ابتداع من خلف.

❁❁❁

[الحذر من التكفير]

وَلَا نُكَفِّرُ أَحَدًا مِنْ أَهْلِ الْقِبْلَةِ بِذَنْبٍ، مَا لَمْ يَسْتَحِلَّهُ.

الشرح

هذا تقرير من المصنف رَحِمَهُ ٱللَّهُ: متعلق بمسائل التكفير، وأنّ ذلك لا يكون إلا بشروط وانتفاء موانع.

وقوله: "**ولا نُكَفِّرُ أحدًا من أهل القبلة بذنب، ما لم يستحله**" أي لا نوقع وصف الكافر، واسم الكفر، وحكم الكفَّار، على أيِّ واحد من المسلمين، الذين يستقبلون قبلتنا، ويصلّون صلاتنا؛ ما لم يُرَ منه الكفر البواح، الظاهر الّذي به يكون دمه مباح، وحقه في الإسلام غير متاح.

و "**لا نُكَفِّر**" أي لا نوقع حكم التكفير، ولا نحكم على شخصٍ بعينه أنه كافرٌ من المسلمين إلّا بهذا الشرطِ، وهو ظهور أمرِ الكفر فيه، وذلك لما جاء في حديث عبيد الله بن عدي بن الخيار، أن رجلًا من الأنصار حدثه أَتَى رسولَ الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ وهو في مجلسٍ؛ فساره، يستأذنه في قتل رجلٍ مِن المنافقين؛ فجهر رسولُ الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ فقال: "**أليس يشهد أن لا إله إلا الله؟**" قال الأنصاري؟ بلى يا رسول الله، ولا شهادة له، قال رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: "**أليس يشهد أن محمّدًا رسول الله؟**" قال: بلى يا رسول الله، ولا شهادة له، قال: "**أليس يصلي؟**" قال: بلى يا رسول الله، ولا صلاة له، فقال رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: "**أولئك الّذين نهاني الله عنهم**" [رواه الإمام أحمد، وقال محققه: إسناده

صحيح].

ويدل له حديث أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أُتِيَ بِمُخَنَّثٍ قَدْ خَضَّبَ يَدَيْهِ وَرِجْلَيْهِ بِالْحِنَّاءِ، فَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **"مَا بَالُ هَذَا؟"** فَقِيلَ: يَا رَسُولَ اللهِ، يَتَشَبَّهُ بِالنِّسَاءِ، فَأَمَرَ بِهِ؛ فَنُفِيَ إِلَى النَّقِيعِ، فَقَالُوا: يَا رَسُولَ اللهِ، أَلَا نَقْتُلُهُ؟ فَقَالَ: "إِنِّي نُهِيتُ عَنْ قَتْلِ الْمُصَلِّينَ" [رواه أبو داود، وصححه الألباني].

وحديث جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللهِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا يَقُولُ: كُنَّا مَعَ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي غَزَاةٍ، فَكَسَعَ رَجُلٌ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ، رَجُلًا مِنَ الْأَنْصَارِ، فَقَالَ الْأَنْصَارِيُّ: يَا لَلْأَنْصَارِ، وَقَالَ الْمُهَاجِرِيُّ: يَا لَلْمُهَاجِرِينَ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **"مَا بَالُ دَعْوَى الْجَاهِلِيَّةِ؟"** قَالُوا: يَا رَسُولَ اللهِ كَسَعَ رَجُلٌ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ، رَجُلًا مِنَ الْأَنْصَارِ، فَقَالَ: **"دَعُوهَا، فَإِنَّهَا مُنْتِنَةٌ"**؛ فَسَمِعَهَا عَبْدُ اللهِ بْنُ أُبَيٍّ فَقَالَ: قَدْ فَعَلُوهَا، وَاللهِ لَئِنْ رَجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الْأَعَزُّ مِنْهَا الْأَذَلَّ. قَالَ عُمَرُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: دَعْنِي أَضْرِبُ عُنُقَ هَذَا الْمُنَافِقِ، فَقَالَ: **"دَعْهُ، لَا يَتَحَدَّثُ النَّاسُ أَنَّ مُحَمَّدًا يَقْتُلُ أَصْحَابَهُ"** [رواه البخاري، ومسلم، وهذا لفظه].

و **"أهل القبلة"** أي الذين يستقبلون قبلة المسلمين، ويصلون إلى قبلتهم، ويعظِّمون الكعبة، ومن هنا ندرك أن الفرق الباطنية الّتي تعظم غير الكعبة كتعظيمهم للكعبة ليسوا من المسلمين، وكذلك الذين لا يستقبلون القبلة؛ بل يستقبلون القبور، أو المشاهد، أو بعض مواطن مشايخهم، وأصنامهم، ومعبوداتهم.

و "**أهل القبلة**" كلّ من صلى إلى الكعبة، وتوجه نحو مكة، واستقبل المسجد الحرام، قال الله تعالى مبينًا شعيرة من شعائر المسلمين: ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَالَمِينَ ۝٩٦ فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ مَّقَامُ إِبْرَاهِيمَ ۖ وَمَن دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا ۗ وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا ۚ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ﴾ [سورة يونس، من الآية:٩٦-٩٧]؛ فاتخاذ الكعبة مقامًا للعبادة، والتوجه نحوها بالصلاة، والحج إليها والعمرة، هو من علامات المسلمين الخاصة.

فكل من شهد شهادة التوحيد، ولم ينقضها، وشهد شهادة الرسالة، ولم يناقضها؛ وصلّى صلاة المسلمين نحو الكعبة ولم يتركها؛ فإنّه لا يَكفر "**بذنبٍ**"، أي الذنوب الأخرى الّتي تكون دون الشرك، وهذا كما مرّ مِن أن المسلم لا يكفر بالكبائر خلافًا للخوارج، ولا يستحق الخلود في النّار خلافا للمعتزلة والخوارج.

و "**ذَنْبٍ**" الأمر المحرَّم، وغير المشروع إذا ارتكب، ويُسمَّى إثمًا، ويجمع على (ذنوبٍ)، وسُمِّي كذلك لأنه كالذَّنَب يبقى أثره عليه لا يفارقه حتّى يتوب.

والمقصود به الذنوب الّتي تكون دون الكفر الأكبر، ودون الشرك الأكبر، ودون النفاق الأكبر؛ فأصحاب الكبائر لا يكفرون بفعلهم الكبائر، أو اقترافهم الذنبَ الكبيرَ ما لم يستحله، وإذا استحلّ الكبائر فإنه يكفر باستحلاله، لا بمجرد

فعله، واستحلال الكبائر كفرٌ سواء فعله أم لا، وهذا يؤكّد أن كلام المصنف في الاستحلال ليس لتعميم أن الكفر لا يكون إلا بالاستحلال كما فهمه بعض الشرّاح، وإنما هو قيد في الكبائر وأنه لا يكفر بها إلا إذا وقع منه استحلالها، أو شيءٍ منها.

فإن قيل: فما أقسام الذنوب؟

فالجواب: أنّ الذُّنوب منقسمة إلى ثلاثة أقسامٍ، وهي:

القسم الأوّل: الكفرُ والشركُ والنفاقُ الأكبرُ، وهذه لا يغفرها الله تعالى؛ كما قال سبحانه في الكُفْرِ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَٱسۡتَكۡبَرُواْ عَنۡهَا لَا تُفَتَّحُ لَهُمۡ أَبۡوَٰبُ ٱلسَّمَآءِ وَلَا يَدۡخُلُونَ ٱلۡجَنَّةَ حَتَّىٰ يَلِجَ ٱلۡجَمَلُ فِي سَمِّ ٱلۡخِيَاطِۚ وَكَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُجۡرِمِينَ ۝٤٠ لَهُم مِّن جَهَنَّمَ مِهَادٞ وَمِن فَوۡقِهِمۡ غَوَاشٖۚ وَكَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [سورة الأعراف، من الآية:٤٠-٤١]، وقال في الشرك: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ وَيَغۡفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُۚ وَمَن يُشۡرِكۡ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱفۡتَرَىٰٓ إِثۡمًا عَظِيمًا﴾ [سورة النساء، من الآية:٤٨]، وقال في المنافقين: ﴿إِنَّ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَهُوَ خَٰدِعُهُمۡ وَإِذَا قَامُوٓاْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ قَامُواْ كُسَالَىٰ يُرَآءُونَ ٱلنَّاسَ وَلَا يَذۡكُرُونَ ٱللَّهَ إِلَّا قَلِيلٗا ۝١٤٢ مُّذَبۡذَبِينَ بَيۡنَ ذَٰلِكَ لَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ وَلَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِۚ وَمَن يُضۡلِلِ ٱللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ سَبِيلٗا﴾ [سورة النساء، من الآية:١٤٢-١٤٣].

القسم الثّاني: الكبائر، وهي كلّ ذنبٍ دون الكفر رتّب الشارع عليه حدًّا في

الدّنيا، أو وعيدًا في الآخرة، أو رتب عليه لعنا، كمثل: شرب الخمرِ، والسرقة، والغيبة، والزنا، ونحو ذلك، وهي الداخلة تحت المشيئة كما في الآية السابقة من سورة النساء.

القسم الثّالث: الصغائِرُ، وهي كلّ ذنبٍ تُغْفَرُ بالطاعات دون توبة أو حدٍّ، وهي كلّ أمرٍ موصِلٍ إلى كبيرةٍ، مثلُ الجلوس في مكانٍ فيه خمرٌ، أو النظرةُ المحرمة، أو الكلمة الماجِنَة من غير تعيين، ونحو ذلك، قال الله تعالى: ﴿إِن تَجۡتَنِبُواْ كَبَآئِرَ مَا تُنۡهَوۡنَ عَنۡهُ نُكَفِّرۡ عَنكُمۡ سَيِّـَٔاتِكُمۡ وَنُدۡخِلۡكُم مُّدۡخَلٗا كَرِيمٗا﴾ [سورة النساء، من الآية:٣١]، وقول الله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَجۡتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلۡإِثۡمِ وَٱلۡفَوَٰحِشَ إِلَّا ٱللَّمَمَۚ إِنَّ رَبَّكَ وَٰسِعُ ٱلۡمَغۡفِرَةِ﴾ [سورة النجم، من الآية:٣٢]، وجاء في حديث أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَٱللَّهُعَنۡهُ: أَنَّ رَسُولَ اللهِ صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ قَالَ: **"الصَّلَوَاتُ الخَمْسُ، وَالجُمُعَةُ إِلَى الجُمُعَةِ، كَفَّارَاتٌ لِمَا بَيْنَهُنَّ، مَا لَمْ تُغْشَ الكَبَائِرِ"** [رواه الترمذي، وقال: حسن صحيح].

وقوله: **"ما لم يستحله"**، ما لم يرَ أن فعله المحرم حلالٌ، أو أن الواجب ليس بواجبٍ؛ كمن يستحل الخمر ويقول إنه ليس بحرامٍ، وكمن يستحل الربا ويقول إنّه حلالٌ، وكمن يستحل الزواج بأكثر من أربعٍ ويقول إنه حلال، أو كمن يترك الزكاة، ويقول: إنها ليست بواجبة، أو الحج إلى البيت ليس ركنًا من أركان الإسلام، ونحو ذلك، بلا تأويلٍ سائغٍ، ولا بينة واضحة.

ومعنى **"يستحله"** أي يعدَّه ويراه حلالًا، وأصله (حَلّ) والسين والتاء فيه

للطلب، أي يفعل الذنب ويطلبه ويراه حلالًا، ومنه قول النّبيّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **"ليكونن من أمتي أقوام يستحلون الْحِرَ، والحريرَ، والخَمْرَ، والمعازف"** [رواه البخاري معلقا مجزوما به، وأبو داود، بإسنادٍ صحيح].

وعليه فكل من استحل شيئًا محرَّمًا معلومًا من الدين بالضرورة فإنّه يكفر باستحلاله هذا، ولا فرق في ذلك بين فعل المحرمات الّتي يراها حلالًا، وبين ترك الواجبات الّتي يرى تركها حلالًا؛ كمن استحل ترك الصوم، ويرى أنه غير واجبٍ.

والتّكفير بالاستحلال إنما هو خاصٌّ بفعل المحرمات الكبائر، ولا يدخل في فعل الكفريّات والشّركيّات؛ فإنّ الكفريّات والشّركيّات في نفسها كفرٌ سواء استحلها أم لا، ولكن يفرق بين مَن فعل الكفر مُريدًا مُختارًا وبين مَن فعله جاهلًا غير قاصدٍ مُكرَهًا مقهورًا.

وخلاصة كلام المصنّف رَحِمَهُ ٱللَّهُ: أن المسلمين لا يكفرون بمجرد فعلهم الذنوب الكبائر، ولا يجوز أن يعتقد أن المذنب كافر خارج عن الإسلام؛ كما قال الخوارج، أو في منزلة بين المنزلتين، أي: لا كافر ولا مسلم، ويسمُّونه فاسقًا كما هو قول المعتزلة.

فدل الكلام أن مجرد فعل المسلم الذنبَ لا يكون كُفْرًا، وفيه تقرير أن استحلال الكبائر كفرٌ مُخرِجٌ من الإسلام، مثال: ذلك من شرب الخمر مع اعترافه بتحريمه؛ فإنّه لم يستحله، فيكون مذنبًا، لا يخرج بفعله عن الإسلام؛

فإن استحل شرب الخمر، وقال: إنه حلال؛ فإنه يكفر سواء شربه أم لم يشربه، وهذه مسألة عظيمة، ومن الفروقات الجلية بين أهل السنة من جهة وبين الخوارج والمعتزلة من جهة أخرى.

فالسلف لا يسلبون اسم الإسلام والإيمان مِن المذنب، وإن لم يعطوه الكمال في الإيمان، بل قالوا: إنه مؤمن بإيمانه، فاسق بكبيرته، وبهذا جمعوا بين نصوص الوعد والوعيد.

وهذا خلافًا للمعتزلة والخوارج؛ فإنهم أخذوا نصوص الوعيد، وتركوا نصوص الوعد.

وهذا خلافًا للمرجئة الذين زعموا أن مرتكب الكبيرة كامل الإيمان؛ فأخذوا بنصوص الوعد، وتركوا نصوص الوعيد.

ومن أعظم الأدلة لأهل السنة قول الله تعالى: ﴿وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُوا۟ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَهُمَا ۖ فَإِنۢ بَغَتْ إِحْدَىٰهُمَا عَلَى ٱلْأُخْرَىٰ فَقَٰتِلُوا۟ ٱلَّتِى تَبْغِى حَتَّىٰ تَفِىٓءَ إِلَىٰٓ أَمْرِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن فَآءَتْ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَهُمَا بِٱلْعَدْلِ وَأَقْسِطُوٓا۟ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ﴾ [سورة الحجرات، من الآية:٩]، ثم قال بعدها: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ [سورة الحجرات، من الآية:١٠]؛ فأثبت الأخوة الإيمانية حال الاقتتال، وختم بالإخوة الإيمانية حال الانتهاء من القتال.

وقال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡقِصَاصُ فِي ٱلۡقَتۡلَىۖ ٱلۡحُرُّ بِٱلۡحُرِّ وَٱلۡعَبۡدُ بِٱلۡعَبۡدِ وَٱلۡأُنثَىٰ بِٱلۡأُنثَىٰۚ فَمَنۡ عُفِيَ لَهُۥ مِنۡ أَخِيهِ شَيۡءٞ فَٱتِّبَاعُۢ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَأَدَآءٌ إِلَيۡهِ بِإِحۡسَٰنٖ﴾ [سورة البقرة، من الآية:١٧٨]؛ فأثبت الأخوة بين القاتل وأولياء المقتول؛ فدل على أن ارتكاب الكبائر لا ينتفي معه اسم الإيمان.

ومما يؤكد هذا أن الشارع وضع لأهل الكبائر حدودًا وعقوباتٍ، ولو كان فعل الذنوب كفرًا لم يكن لهم كفارة إلا التوبة والرجوع للإسلام أو إقامة حدّ الردة.

والحدود في نفسها كفارات؛ كما جاء في حديث عبادة بن الصامت رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ قَالَ: كُنَّا مَعَ رَسُولِ اللهِ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي مَجْلِسٍ، فَقَالَ: **"تُبَايِعُونِي عَلَى أَنْ لَا تُشْرِكُوا بِاللهِ شَيْئًا، وَلَا تَزْنُوا، وَلَا تَسْرِقُوا، وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللهُ إِلَّا بِالْحَقِّ، فَمَنْ وَفَى مِنْكُمْ فَأَجْرُهُ عَلَى اللهِ، وَمَنْ أَصَابَ شَيْئًا مِنْ ذَلِكَ فَعُوقِبَ بِهِ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَهُ، وَمَنْ أَصَابَ شَيْئًا مِنْ ذَلِكَ فَسَتَرَهُ اللهُ عَلَيْهِ، فَأَمْرُهُ إِلَى اللهِ، إِنْ شَاءَ عَفَا عَنْهُ، وَإِنْ شَاءَ عَذَّبَهُ"** [رواه مسلم].

❁❁❁

[الرجاءُ للمحسنين والخوف على المسيئين]

وَلَا نَقُولُ: لَا يَضُرُّ مَعَ الْإِيمَانِ ذَنْبٌ لِـمَنْ عَمِلَهُ، وَنَرْجُو لِلْمُحْسِنِينَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ، أَنْ يَعْفُوَ عَنْهُمْ، وَيُدْخِلَهُمُ الْـجَنَّةَ بِرَحْـمَتِهِ، وَلَا نَأْمَنُ عَلَيْهِمْ، وَلَا نَشْهَدُ لَـهُمْ بِالْجَنَّةِ، وَنَسْتَغْفِرُ لِمُسِيئِهِمْ، وَنَـخَافُ عَلَى مُـحْسِنِهِمْ، وَلَا نُقَنِّطُهُمْ مِنْ رَحْـمَةِ اللهِ.

وَالْأَمْنُ وَالْإِيَاسُ يَنْقُلَانِ عَنِ الْمِلَّةِ، وَسَبِيلُ الْـحَقِّ بَيْنَهُمَا لِأَهْلِ الْقِبْلَةِ.

﴿ الشرح ﴾

هذا تقرير من المصنف رَحِمَهُ ٱللَّهُ في كيفية الظن فيما يتعلق بالمحسنين، وما يتعلق بالمسيئين.

وقوله: "**ولا نقول: لا يضر مع الإيمان ذنب لمن عمله**" أي لا نقولُ نحنُ أهل السنة والجماعةِ، ومن وافقنا أن الإيمان لا يتضرر بفعل الذنوب والمعاصي، ولا يتأثَّر؛ بل إنّ السّلف مُطبِقون أنّ الذنوب مؤثِّرةٌ على الإيمان سلبًا ونقصانًا، كما أنّ الأعمال الصالحة مُؤثِّرة على الإيمان إيجابًا وإتمامًا.

وإنّما يقول ذلك المرجئة بجميع طوائفها، والمرجئُ هو الّذي لا يرى الأعمال من مُسَمَّى الإيمان، وهم طوائف:

الطائفة الأولى: الغلاةُ، وهم الجهميةُ، الذين يقولون: إن الإيمان هو المعرفةُ؛ فمن عرف الله تعالى فهو مؤمن، وهؤلاء انقسموا إلى قسمين:

القسم الأوّل: من قال إن الإيمان المعرفة القلبية، ولو ظهر على اللسان أو

الحال ما يخالف التّوحيد، وهذا حال الحلولية، الذين يرون حتّى إيمان فرعون وإبليس.

ويدل على بطلان قولهم أن الله تعالى أخبر عن إبليس أنه يعرفُ الرب تعالى؛ بل ويعرف أنه عزيز، وله عزّة، قال الله تعالى عنه: ﴿قَالَ رَبِّ فَأَنظِرۡنِيٓ إِلَىٰ يَوۡمِ يُبۡعَثُونَ ٧٩ قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ ٱلۡمُنظَرِينَ ٨٠ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡوَقۡتِ ٱلۡمَعۡلُومِ ٨١ قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغۡوِيَنَّهُمۡ أَجۡمَعِينَ﴾ [سورة ص، من الآية:٧٩-٨٢]، ومع هذا حكم عليه بالكفر، وبالخلود في النّار، وبأنه رأس الكفار، وداعي الفجار.

وقال عن فرعون، ومعرفته لله تعالى، وعلمه بالرب تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: ﴿فَقَالَ لَهُۥ فِرۡعَوۡنُ إِنِّي لَأَظُنُّكَ يَٰمُوسَىٰ مَسۡحُورٗا ١٠١ قَالَ لَقَدۡ عَلِمۡتَ مَآ أَنزَلَ هَٰٓؤُلَآءِ إِلَّا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ بَصَآئِرَ وَإِنِّي لَأَظُنُّكَ يَٰفِرۡعَوۡنُ مَثۡبُورٗا﴾ [سورة الإسراء، من الآية:١٠١-١٠٢]؛ فمع معرفته وعلمه بما أنزل الله تعالى لم يحصل الإيمان؛ بل استحق الغرق والعرض على النيران، والخلود في الجحيم وتأبيد الخسران.

القسم الثّاني: الإيمان المعرفة القلبية، وعلامة ذلك إظهارُ كلمة التوحيد فقط، ويلزم على هذا أن يكون اليهود الذين عرفوا النّبيّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَسَلَّمَ، وقالوا: له يا أبا القاسم نعلم أنك رسولُ الله، ولم يتابعوه أن يكونوا مؤمنين!؟ والله تعالى حكم على هؤلاء اليهود بأعيانهم بأنهم كفار؛ فقال: ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ يَعۡرِفُونَهُۥ كَمَا يَعۡرِفُونَ أَبۡنَآءَهُمۡۖ وَإِنَّ فَرِيقٗا مِّنۡهُمۡ لَيَكۡتُمُونَ ٱلۡحَقَّ وَهُمۡ يَعۡلَمُونَ﴾

[سورة البقرة، من الآية:١٤٦].

الطائفة الثانية: الأشعريةُ، الذين قالوا: إنّ الإيمان هو التّصديقُ المجردُ؛ فمن صدّق يكون مؤمنًا، وعلى قولهم يلزم أن يكون كلّ من كان مصدِّقا بالله تعالى وبالنّبيّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فإنه يكون مؤمنًا!؟ ويلزم من ذلك أن اليهود الذين صدّقوا بوجود الله تعالى أن يكونوا مؤمنين، وأن فرعون الذين استيقن برسالة موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ في قلبه أن يكون مؤمنًا، كما قال الله تعالى عنهم: ﴿وَجَحَدُوا۟ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا ۚ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ [سورة النمل، من الآية:١٤]؛ فقوله: ﴿وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ﴾، نص في أنهم تيقنوا بالرسالة، ومع ذلك حكم عليهم بالكفر لوجود الإباء والاستكبار منهم، مع علمه ويقينهم بالحق، والاستيقان درجة فوق التصديق.

الطائفة الثالثة: الكراميّةُ، الذين قالوا: إن الإيمان هو القولُ، وعلى قولهم هذا يلزم أن يكون المنافقون مؤمنين!؟ فإنهم نطقوا الشهادة، ومع ذلك حكم الله تعالى عليهم بالكذب، قال الله تعالى: ﴿إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُنَٰفِقُونَ قَالُوا۟ نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُۥ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَكَٰذِبُونَ﴾ [سورة المنافقون، من الآية:١]، وحكم الله تعالى عليهم لكذبهم -مع قولهم ونطقهم الشهادة- بالنّار؛ فقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِى ٱلدَّرْكِ ٱلْأَسْفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ وَلَن تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا﴾ [سورة النساء، من الآية:١٤٥].

الطائفة الرابعة: مرجئة الفقهاءُ، وهم الذين قالوا مِن أهل الكوفة ومَن وافقهم من الماتريدية بأنّ الإيمان تصديقٌ وقولٌ، ويجعلون القولَ علامة على ما في القلب، ويرون أنّ الأعمال ليس من مُسمّى الإيمان، ولكنه مؤثِّر في الإيمان، واختلفوا في معنى هذا التأثير على قولين:

القول الأوّل: أنّ المراد بالتأثير، ما يتعلق بالثواب والعقاب، لا في نفس الإيمان.

القول الثّاني: أنّ المراد بالتأثير، ما يتعلق بنفس الإيمان المستحب، وأن هذه الأعمال شرط كمال في الإيمان، ويفهم هذا من كلام المصنّف رَحِمَهُ ٱللَّهُ، وهذه من المؤاخذات عليه، كما سيأتي بيانه.

واستدل مرجئة الفقهاء والماتريدية بأنّ الأعمال الصالحة أتت في القرآن معطوفة على الإيمان، والعطف يدل على المغايرة؛ فدلّ أنها ليست من مسمّى الإيمان!؟

وعامّة أهل السنة مُجمِعون على أن الأعمال من مسمَّى الإيمان، وأن هذه الأعمال عطفت في القرآن والسنة على الإيمان من باب عطف الخاص على العام، ومن باب بيان بعض صور الإيمان، ومدارجه، وهذا للتأكيد على أهمية الأعمال ومنزلته العالية فيه لذلك خُصّ بالذكر، كما يخص الأشرف من الأعم؛ فتقول: الأنبياء كلهم معصومون والرُّسل عَلَيۡهِمُ ٱلسَّلَامُ، ومعلوم أن الرُّسُل من الأنبياء، ويقال: جاء الرجال كلهم وزيدٌ، وذلك لأهميته؛ فذكر الأعمال بعد

الإيمان من باب عطف الخاص على العام لأهميته.

وقد أجمع سلفُ الأمّة -كما نقل ذلك الإمام البخاري رَحِمَهُ ٱللَّهُ، والإمام اللالكائي الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ قبل وجود المرجئة -بجميع طوائفها- على أنّ الأعمال مِن الإيمان، ومعنى قولهم هذا ليس على طريقة الخوارج والمعتزلة أنّ الأعمال كلها بمنزلة واحدةٍ، وأنّ مَن ترك شيئا منها كفر وخرج عن الإيمان، ولا أنها كلها مستحبات تكمل الإيمان المستحب كما قد يقوله بعض فقهاء المرجئة والماتريدية، وإنما مقصودهم أنّ جنس الطاعات من الإيمان، ثمّ هم يُفصّلون بأنّ هذه الأعمال منقسمة إلى أقسام:

القسم الأوّل: أعمال هي من أصل الإيمان، وعدمها عدمٌ للإيمان، مثل بعض الأعمال القلبية؛ كالخوف والرجاء والتوكل، وأصل محبة الله تعالى، وأصل محبة رسوله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، والإنابة، والرّغبة والرّهبة، ونحو ذلك من التّصديق والإقرار، والانقياد، والقبول، والنّطق بالشهادتين مع المقدرة، والصلاة، ونحو ذلك، على خلافٍ في بعض الأعمال ودخولها في هذا القسم، أو الّذي يليه، وهذا خلافٌ مُتعلّق بمسائل الاعتقاد لا بالاعتقاد نفسه؛ فهي من المسائل الفقهيّة أقرب.

القسم الثّاني: أعمال هي من واجبات الإيمان، وعدمها عدمٌ للإيمان الواجب، وأنّ مَن تركها نقص إيمانه الواجب، ولم يلتحق بأهل الإيمان الكامل، ولا يخرج بتركه هذا من الإسلام، ومِن هذه الأعمال؛ كلّ واجبٍ وجب على

المكلّف الإتيان به إذا توفرت الشروط، وانطبقت عليه، مثل الصّدق، والأمانة، ومحبة الله تعالى ومحبة رسوله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أكثر مِن كلّ شيء، وأداء الواجبات في حق الله تعالى، وفي حق الخلق؛ كبر الوالدين، ونحو ذلك، وكلّ حرام وجب على المكلف تركه، كالعقوق، والكذب، والخيانة، ونحو ذلك.

القسم الثّالث: أعمال هي من كمالات الإيمان، وعدمها لا يعني عدم الإيمان؛ بل يعني نقصان الإيمان الكامل، ومن تركها لم يكن من أهل الإيمان الكامل، ولم يكن من أهل التقوى والإحسان؛ بل يكون من أهل الإيمان الواجب، ومن هذه الأعمال؛ كلّ مندوب ومستحبّ محمودٍ شرعًا؛ كالتّبسم، وطلاقة الوجه، والقول الأحسن، ولين الجانب، ونحو ذلك، وكلّ مكروه ومذمومٍ ولو من الصغائر؛ كالنظر إلى المحرم، والغضبِ، والبذاءة في النطق.

وبناء على هذا فإنّ أهل السنة لا يُقنطون أهل الكبائرِ؛ بل يرجون لهم المغفرة، ولا يشهدون للمحسنين؛ بل يرجون لهم الكرامة، ولهذا قال المصنّف رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **"ونرجو للمحسنين من المؤمنين أن يعفو عنهم"**، و**"نرجو"** فعلٌ مضارع يدل على أنّا لا نيأس مِن رَوْحِ الله تعالى، ولا نُيَئِّسِ النّاسَ، لا سيما المحسنين؛ فنرجو لهم، وأصل (**الرّجاء**): الأملُ، ويطلق الرجاء على معنى الخوف، وعلى هذا فيكون من الأضداد، تقول: رجا الشيء خافه، ورجا الشيء أمَّله، وهنا المقصود به الأول؛ لأنه في حق **"المحسنين"** منهم، وهم: أهل الكمال في الإيمان، وأهل التقى والصلاح، وسُمُّوا بـ(**الْمُحسِنين**) لأنهم يعملون الخيرات

والطاعات رجاء ثواب الله تعالى، ومراقبة لله تعالى، دون التفات إلى شيء آخرَ، حتّى وصلوا إلى مرحلة أنهم يعبدون الله كأنهم يرونه، مع أنهم لا يرونه، ولكن رؤية الله تعالى لهم لا تفارقهم عن أنفسهم وخاطرهم.

وأهل الإحسان قد يحصل منهم الغفوة، والزلة، والهفوة، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ إِذَا مَسَّهُمۡ طَٰٓئِفٌ مِّنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ تَذَكَّرُواْ فَإِذَا هُم مُّبۡصِرُونَ﴾ [سورة الأعراف، من الآية:٢٠١]، ومع ذلك نرجو لهم، ونأمل أن الله تعالى يقبل منهم، وأن يعفو عنهم، وأن يدخلهم في رحمته؛ كما قال الله تعالى: ﴿إِنَّ رَحۡمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾ [سورة الأعراف، من الآية:٥٦]، وقال سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ لَا يُصِيبُهُمۡ ظَمَأٞ وَلَا نَصَبٞ وَلَا مَخۡمَصَةٞ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَطَـُٔونَ مَوۡطِئٗا يَغِيظُ ٱلۡكُفَّارَ وَلَا يَنَالُونَ مِنۡ عَدُوّٖ نَّيۡلًا إِلَّا كُتِبَ لَهُم بِهِۦ عَمَلٞ صَٰلِحٌۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجۡرَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ١٢٠ وَلَا يُنفِقُونَ نَفَقَةٗ صَغِيرَةٗ وَلَا كَبِيرَةٗ وَلَا يَقۡطَعُونَ وَادِيًا إِلَّا كُتِبَ لَهُمۡ لِيَجۡزِيَهُمُ ٱللَّهُ أَحۡسَنَ مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾ [سورة التوبة، من الآية:١٢٠-١٢١].

فالمحسنون هم من يستحقون عفوَ الله تعالى، ولهذا فرجاؤنا في **"أن يعفوَ عنهم"** أقوى وأعظم، ومعنى **(العفو)**: الزيادَةُ، والجودُ، والمعروفُ، والإعراض عن العقوبة، وترك المؤاخذة، فنرجو من الله تعالى أن يزيد في عطاء المحسنين، وأن يجازيهم بجوده، وأن يمن عليهم بمعروفه، وأن يعرض عن

غفواتهم وزلّاتهم، وأن يترك مؤاخذتهم على الهفوات، ومن ذلك عدم محاسبتهم على تبعات الإثم، وأن يعفو عنهم أثر الذنب.

ولا ريب أنه سبحانه يفعل هذا، لأنه سبحانه أكرم الأكرمين، ونحن نستيقن هذا لكن هذا من حيث العموم.

أما تعيين ذلك العفو في حق كلّ مَن نظن أنه محسن فهذا لا بد فيه من الرّجاء، وهذا الفرق بين العموم والتعيين، وذلك لأن حكم العفو يعتريه أمران:

الأمر الأوّل: عَفْوُ اللهِ تعالى، وكونه من جهته وهو أرحم الراحمين، وأكرم الأكرمين؛ فهذا لا شكّ أنه واقعٌ.

الأمر الثّاني: من يستحق العفو بعينه؛ فهذا مما لا سبيل إلى القطع به على التعيين، وإنما سبيله القطع به على الوصفِ؛ فيقال: إنّه يُكْرِم الأكرمين، ويعفو عن المحسنين، ويتجاوز عن المتقين، ونحو ذلك.

"ويدخلهم الجنّة برحمته" أي أن الله تعالى إنما يُدخِلُ أهلَ الجنّة الجنّة برحمته سُبْحَانَهُوَتَعَالَى، وأن دخولهم الجنّة ليست بمعاوضة على أعمالهم، كما جاء في حديث أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ عَنْ رَسُولِ اللهِ صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ أَنَّهُ قَالَ: **"لَنْ يُنْجِيَ أَحَدًا مِنْكُمْ عَمَلُهُ"** قَالَ رَجُلٌ: وَلَا إِيَّاكَ؟ يَا رَسُولَ اللهِ. قَالَ: **"وَلَا إِيَّايَ، إِلَّا أَنْ يَتَغَمَّدَنِيَ اللهُ مِنْهُ بِرَحْمَةٍ، وَلَكِنْ سَدِّدُوا"** [رواه مسلم]؛ فدخول الجنّة إنما هو برحمةِ الله تعالى ابتداءً وانتهاءً، وما الأعمال إلا سببٌ، والأسباب لا تنتج إلا إن شاءَ الله تعالى، كما هو معلوم مِن سنة الله تعالى في الكون.

ومن قطعية الدلالات الشّرعية في الآيات المنزلة على هذه المسألة قوله تعالى مبيِّنًا سبب دخول الجنة: ﴿سَلَٰمٌ عَلَيۡكُمُ ٱدۡخُلُواْ ٱلۡجَنَّةَ بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ﴾ [سورة النحل، من الآية:٣٢]، وقال سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَتِلۡكَ ٱلۡجَنَّةُ ٱلَّتِيٓ أُورِثۡتُمُوهَا بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ﴾ [سورة الزخرف، من الآية:٧٢].

والجنّة دار رحمةِ الله تعالى، ويدخلها من يدخلها برحمة الله تعالى، كما قال جلّ في علاه: ﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱبۡيَضَّتۡ وُجُوهُهُمۡ فَفِي رَحۡمَةِ ٱللَّهِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ [سورة آل عمران، من الآية:١٠٧].

والرحمةُ قد تكون مطلقة عن الإضافة؛ فمعناها مقارب للعطف والوُدِّ في الصّفات، والخيرِ، والنِّعْمَةِ، في آثار الأفعال، وإذا أضيفت إلى الله تعالى فإنها صِفَةٌ مِن صفات الله تعالى على ما يليق به تعالى، ومعناها أنه سبحانه يَوُدُّ من شاء بعطائه، ويُكرِم من شاء، ولا زم ذلك الإنعامُ والإكرامُ.

وقد تطلق الصفة مضافة إلى الله تعالى، ويكون المراد منه مفعول الرب تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ؛ فيكون معناه مثلُ: خَلْقِ الله، أي مخلوق الله، وحينها فلما نقول: الجنّة رحمةُ الله، أي المكان الّذي به يرحمُ الله عباده، أو المكان الّذي فيه المرحومون، وبهذا الاعتبار صح تسمية الجنّة بدار الرحمة، وبكون الجنّة دار رحمةِ الله تعالى.

ومع كوننا نرجو للمحسنين من حيث العموم، إلا أنّا **"لا نأمن عليهم"**، ومعنى

ذلك أنّا نخافُ على المحسنين من أن يعاقبهم الله تعالى ويؤاخذهم بزلاتهم، وهذا الخوفُ ناشئ من نظرنا إلى عظمة الله تعالى، وأنا لم نؤدِّ حقه سبحانه كما ينبغي، وهو موجودٌ عند الملائكة المحسنين؛ كما قال تعالى: ﴿يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوۡقِهِمۡ﴾ [سورة النحل، من الآية: ٥٠].

ويحتمل أنّا نخاف على المحسنين من حيث أفرادهم؛ لأن الوعد الحسن إنما هو لجنس المحسنين، وأما أعيانهم فهذه لا بد فيها من توفر الشروط وانتفاء الموانع، وهذا لا يعلم أحدٌ مقامَه إلا الله تعالى المطلع على الخفايا والظواهر.

ومعنى "**لا نأمن عليهم**" أي لا نطمئن إلى ما نرى ونسمع من أعمال المحسنين، ولا نقطع بأنهم لا يؤاخذون، ولا يعاقبون، لأنّ ذلك عند الحَكَم العدلِ سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ، وهو الّذي يُكرِم من شاء، ولأنه لا يجوز الأمن من مكر الله تعالى، كما سيأتي، وهذا فيه البعدُ عن الحكمُ على المعين بالجنة أو النار.

وإذا كان هذا حالنا أنا لا نقطع للمحسنين بأعيانهم بالجنّة؛ بل نرجو لهم، ولا نقطعهم لجميعهم بالجنّة، بل نرجو، ونخاف على بعضهم بالمؤاخذة، أو المحاسبة على التقصير؛ فمِن باب أولى أنْ "**لا نشهد لهم بالجنّة**"؛ لأن الشهادة بالجنّة حكمٌ على الأعيانِ، وهذا إنما يكون بأحدِ أمرين؛ إمّا النّص القاطع في حق المعيّن، وإما الاطلاع على الغيبِ؛ فإذا انتفى هذان بقي الأمر ظنًا وتخمينًا، ولا يجوز الحكم بالظن والتخمين؛ بل يجب التوقف، ولهذا "**لا نشهد لمعيَّنٍ بالجنّة**" وعلى هذا يحمل عدم شهادة النّبيّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَسَلَّمَ لبعض المعينين

بالجنّة مع أن جنسهم يستحقون الجنّة، كما جاء في حديثِ عَائِشَةَ أُمِّ الْمُؤْمِنِينَ، قَالَتْ: دُعِيَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِلَى جَنَازَةِ صَبِيٍّ مِنَ الْأَنْصَارِ، فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ طُوبَى لِهَذَا، عُصْفُورٌ مِنْ عَصَافِيرِ الجنّة لَمْ يَعْمَلِ السُّوءَ وَلَمْ يُدْرِكْهُ، قَالَ: **"أَوَ غَيْرَ ذَلِكَ، يَا عَائِشَةُ إِنَّ اللهَ خَلَقَ لِلْجَنَّةِ أَهْلًا، خَلَقَهُمْ لَهَا وَهُمْ فِي أَصْلَابِ آبَائِهِمْ، وَخَلَقَ لِلنَّارِ أَهْلًا، خَلَقَهُمْ لَهَا وَهُمْ فِي أَصْلَابِ آبَائِهِمْ"** [رواه مسلم].

وهذا الكلام فيه رد صريح على المرجئة الذين يقولون: إن أصحاب الكبائر يدخلون الجنّة ابتداءً؛ ويجزمون بالجنّة لكل واحدٍ من أهل الإسلام بأعيانهم.

وكذلك فيه ردّ صريح على الخوارج والمعتزلة ومَن وافقهم حيث إنهم يشهدون لأعيانِ متبعيهم بالجنّة!؟ بلا نصٍّ من الشّرع، وهيهات الاطلاع على الغيب، ويشهدون على أعيان مخالفيهم بالنارّ!؟

قوله: **"ونستغفر لمسيئهم"**، أي ونطلب من الله تعالى، وندعوه سبحانه، أنْ يغفر لهم، وأن يتجاوز عنهم.

و **"نستغفر"** السين والتاء الزائدتين في الفعل المضارع للطّلب، وأصله **(غَفَر)** بمعنى سَتَر وغطَّى وعَفَا، وهو المراد هنا، أي نطلب من الله تعالى أن يستر، وأن يعفو عن ذنوب **"مُسيئهم"**، وهم الذين وقع منهم السيئات، و**"مُسِيئهم"** اسمُ فاعِلٍ من (أساءَ، يُسيء)؛ فهو (مُسِيءٌ) أي اتّصف بكونه قد أتى بسيِّءٍ من القول، أو الفعل، ولم يحسن عمله الموكل به، ووظيفته الّتي وُظِّف فيها؛ بل

ارتكب ما يشينه ويضرّه، وأتى ما هو مكروهٌ ومحرَّمٌ.

و"مُسِيئهم" مضافٌ إلى ميم الجَمْعِ، والمعنى: مسيء الأمة، أو مسيء المسلمين، وقد بين الله تعالى أن في المسلمين من هو مسيءٌ، ويُسمى كذلك، ولم يحكم عليهم بالكفر، بل أمرهم بالتوبة؛ وذلك لأن اسم السيء يطلق على ثلاثة معانٍ، وهي:

المعنى الأوّل: الشرك، والكفر، والنفاق الأكبر، الّذي يُحيط بصاحبه، ويُدخله النّار مخلدا فيها، كما قال الله تعالى: ﴿بَلَىٰ مَن كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَٰطَتۡ بِهِۦ خَطِيٓـَٔتُهُۥ فَأُوْلَـٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ [سورة البقرة، من الآية:٨١]، وقال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ كَسَبُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ جَزَآءُ سَيِّئَةِۭ بِمِثۡلِهَا وَتَرۡهَقُهُمۡ ذِلَّةٞۖ مَّا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِنۡ عَاصِمٖۖ كَأَنَّمَآ أُغۡشِيَتۡ وُجُوهُهُمۡ قِطَعٗا مِّنَ ٱلَّيۡلِ مُظۡلِمًاۚ أُوْلَـٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ٢٧ وَيَوۡمَ نَحۡشُرُهُمۡ جَمِيعٗا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشۡرَكُواْ مَكَانَكُمۡ أَنتُمۡ وَشُرَكَآؤُكُمۡۚ فَزَيَّلۡنَا بَيۡنَهُمۡۖ وَقَالَ شُرَكَآؤُهُم مَّا كُنتُمۡ إِيَّانَا تَعۡبُدُونَ﴾ [سورة يونس، من الآية:٢٧-٢٨].

المعنى الثّاني: الذنوب والخطايا الّتي تكون دون الشرك، من الكبائر، أو الصغائر، قال الله تعالى في الكبائر دون الشرك: ﴿أَمۡ حَسِبَ ٱلَّذِينَ ٱجۡتَرَحُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن نَّجۡعَلَهُمۡ كَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّـٰلِحَٰتِ سَوَآءٗ مَّحۡيَاهُمۡ وَمَمَاتُهُمۡۚ سَآءَ مَا يَحۡكُمُونَ﴾ [سورة الجاثية، من الآية:٢١]، وقال سبحانه في الصغائر: ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ طَرَفَيِ ٱلنَّهَارِ وَزُلَفٗا مِّنَ ٱلَّيۡلِۚ إِنَّ ٱلۡحَسَنَٰتِ يُذۡهِبۡنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِۚ ذَٰلِكَ

ذِكۡرَىٰ لِلذَّٰكِرِينَ﴾ [سورة هود، من الآية:١١٤].

المعنى الثّالث: ما يسوء الإنسان من الأقدار، وإن لم يكن ذنبًا؛ كما قال الله تعالى: ﴿إِن تَمۡسَسۡكُمۡ حَسَنَةٞ تَسُؤۡهُمۡ وَإِن تُصِبۡكُمۡ سَيِّئَةٞ يَفۡرَحُواْ بِهَا﴾ [سورة آل عمران، من الآية:١٢٠]، وقال سبحانه: ﴿وَمَآ أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٖ فَمِن نَّفۡسِكَ﴾ [سورة النساء، من الآية:٧٩].

و (**الاستغفار**) الّذي يكون للمسيئين مِن هذه الأمة إنّما هو خاصٌّ بالقسمين الأخيرين دون الأوّل؛ فإنّه لا يجوز الاستغفار للكفّار والمشركين إذا تيقّنّا مِن موتهم على الكفر أو الشرك؛ لقول الله تعالى: ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن يَسۡتَغۡفِرُواْ لِلۡمُشۡرِكِينَ وَلَوۡ كَانُوٓاْ أُوْلِي قُرۡبَىٰ مِنۢ بَعۡدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمۡ أَنَّهُمۡ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَحِيمِ ﴿١١٣﴾ وَمَا كَانَ ٱسۡتِغۡفَارُ إِبۡرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَن مَّوۡعِدَةٖ وَعَدَهَآ إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥٓ أَنَّهُۥ عَدُوّٞ لِّلَّهِ تَبَرَّأَ مِنۡهُۚ إِنَّ إِبۡرَٰهِيمَ لَأَوَّٰهٌ حَلِيمٞ﴾ [سورة يونس، من الآية:١١٣-١١٤].

و (**الاستغفار**) للمسلمين والمسلمات من سَنَن الأنبياء والمرسلين، قال الله تعالى عن نوحٍ عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ: ﴿رَّبِّ ٱغۡفِرۡ لِي وَلِوَٰلِدَيَّ وَلِمَن دَخَلَ بَيۡتِيَ مُؤۡمِنٗا وَلِلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِۖ وَلَا تَزِدِ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا تَبَارَۢا﴾ [سورة نوح، من الآية:٢٨]، وقال سبحانه عن إبراهيم عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ: ﴿رَبَّنَا ٱغۡفِرۡ لِي وَلِوَٰلِدَيَّ وَلِلۡمُؤۡمِنِينَ يَوۡمَ يَقُومُ ٱلۡحِسَابُ﴾ [سورة إبراهيم، من الآية:٤١].

وكذلك الاستغفار للجَمْعِ سُنَّةٌ، وشريعةٌ، قال الله تعالى عن استغفار المؤمنين بعضهم لبعض: ﴿قَالُواْ رَبَّنَا ٱغۡفِرۡ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسۡرَافَنَا فِيٓ أَمۡرِنَا وَثَبِّتۡ أَقۡدَامَنَا وَٱنصُرۡنَا عَلَى ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾ [سورة آل عمران، من الآية:١٤٧]، وقال تعالى عن المتبعين للصحابة بالإحسان: ﴿وَٱلَّذِينَ جَآءُو مِنۢ بَعۡدِهِمۡ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱغۡفِرۡ لَنَا وَلِإِخۡوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلۡإِيمَٰنِ وَلَا تَجۡعَلۡ فِي قُلُوبِنَا غِلّٗا لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ رَبَّنَآ إِنَّكَ رَءُوفٞ رَّحِيمٌ﴾ [سورة الحجر، من الآية:١٠].

و (**الاستغفار**) للغير سُنَّة وشريعةٌ، قال الله تعالى عن موسى عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ: ﴿قَالَ رَبِّ ٱغۡفِرۡ لِي وَلِأَخِي وَأَدۡخِلۡنَا فِي رَحۡمَتِكَۖ وَأَنتَ أَرۡحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾ [سورة الأعراف، من الآية:١٥١]، وجاء في حديث أبي هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُ مرفوعًا، وفيه: "**وَالْمَلَائِكَةُ يُصَلُّونَ عَلَى أَحَدِكُمْ مَا دَامَ فِي مَجْلِسِهِ الَّذِي صَلَّى فِيهِ، يَقُولُونَ: اللهُمَّ ارْحَمْهُ، اللهُمَّ اغْفِرْ لَهُ، اللهُمَّ تُبْ عَلَيْهِ، مَا لَمْ يُؤْذِ فِيهِ، مَا لَمْ يُحْدِثْ فِيهِ**" [رواه مسلم]، وقال نبينا صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَسَلَّمَ: "**اللهُمَّ اغْفِرْ لِأُمَّتِي، اللهُمَّ اغْفِرْ لِأُمَّتِي**" [رواه مسلم من حديث أبي بن كعب رَضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُ].

وقول المصنّف رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "**ونخاف عليهم**" أي نخاف على المسيئين من هذه الأمة أن يؤاخذهم الله تعالى على سيئاتهم، وأن لا يتجاوز عنهم، وأن يعاقبهم، وذلك لأنّ المجاوزة عن أهل السيئات مرتبط بمشيئة الله تعالى؛ فقد يؤاخذُ بعضهم ابتداءً، ويعفو عن بعضهم ابتداءً؛ لقول الله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ مَا فِي

ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِۚ يَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [سورة آل عمران، من الآية:١٢٩]، ولقول الله سبحانه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُۚ وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱفْتَرَىٰٓ إِثْمًا عَظِيمًا﴾ [سورة النساء، من الآية:٤٨].

فيجب اعتقادًا: الخوفُ على أهل الذنوب من عقاب الله تعالى، وأن ندرك أن الجزم بمغفرة الله تعالى لهم ابتداء ليس من عقيدة أهل السنة والجماعة؛ بل ذلك من عقيدة غلاة المرجئة، الذين يزعمون أنّ أهل الإسلام لا يعذبون مطلقًا.

والنّاس مع أهل الذنوب دون الكفر والشرك على ثلاثة أقسام:

القسم الأوّل: مَن خاف عليهم خوفًا وصل بهم الإياس إلى القنوت من أن يغفر الله تعالى لهم، حتّى حكموا عليهم بالخلود في النّار، وسووا بينهم وبين أهل الكفر والشرك، وهذا قول الخوارج، والمعتزلة، ومن وافقهم.

القسم الثّاني: من لا يخاف على أهل الذنوب؛ بل يجزم بأنهم لا يعذبون، حتّى حكموا على أن أهل الكبائر كالمحسنين من هذه الأمة!؟ وربما يقولون بأن الاختلاف في درجات الجنان بينهم لا في دخولها ابتداءً، وذلك لأنهم لا يرون إجراء الوعيد عليهم البتة، وهذا قول غلاة المرجئة، ومنهم من يصرح بهذا، ومنهم من لا يصرح بهذا، ولكنه لازم قوله، وإذا كان لازم القول فاسدًا؛ فذلك دليل على فساد القول، وفساد اللازم دليل على فساد الملزوم.

القسم الثّالث: من يخاف على أهل الذنوب، ولا يقنطهم من رحمةِ الله تعالى،

ويقول بأنهم تحت مشيئة الرب تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ ابتداءً، إن شاء عفا عنهم، وإن شاء عذبهم، فهو محسنٌ إليهم في العفوِ، وحكمٌ عدلٌ في المؤاخذةِ، ولكنهم لا يخلدون في النّار، وإذا دخلوا الجنان برحمة الله تعالى، وبقبوله فيهم شفاعة الشافعين؛ فهم دون من دخلها من الأبرار، وهذا قول أهل السنة والجماعة، وهو الّذي نص عليه الإمام أبو جعفر الطّحاويّ، لما قال: **"ونخاف عليهم، ولا نقنطهم"**، أي ولا نُدْخِلُهُم في القنوط، وله وجوه:

الوجه الأوّل: لا نعتقد أن الله تعالى لا يغفر لهم ابتداءً، أو لا يغفر لهم انتهاءً.

الوجه الثّاني: لا نعتقد خلودهم في النّار كالكافرين؛ بل نعتقد أنهم وإن عُذِّبَ مِن أهل الكبائر مَن عذب فإنه سيدخل الجنّة ولو حينا من الدهر؛ فلا نقنط منهم.

الوجه الثّالث: لا نعتقد منعهم من دخول الجنان؛ بل نجزم أن المسلمين سيدخلون الجنّة، ولو بعد حينٍ.

الوجه الرّابع: أنّا لا نقول لهم لا يُغفر لكم؛ بل نُرجِّيهم، ونُؤَمِّلُهم، ونرغبهم في رحمة الله تعالى.

وأصل (القنوط) اليأسُ؛ بل هو أشدُّه، وهو الإحباط من الشيءِ، وانقطاع الأمل فيه، وعنه، ومنه، ولهذا قال تعالى: ﴿قُلْ يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ۝٥٣ وَأَنِيبُوٓا۟ إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا۟ لَهُۥ﴾ [سورة الزمر، من الآية:٥٣-٥٤].

قوله: **"والأمن والإياس ينقلان عن ملة الإسلام، وسبيل الحق بينهما لأهل القبلة"**، أي مِن معتقد أهل السنة أنه لا يجوز الأمن مِن مكر الله تعالى، كما لا يجوز اليأس من رحمة الله تعالى؛ فالمؤمن يعيش بين الرجاء والخوف، فلا يعرف الأمن، ولا يعرف اليأس، وذلك أنَّ مَن أَمِن فإنه سيخرج من الإسلام -عياذًا بالله- مِن حيث يشعر أو لا يشعر، وكذلك مَن أصابه اليأس فإنه يقنط من رحمة الله تعالى؛ فالحقّ والدّين السَّيرُ بينهما في أنفسنا، وفي أهل الإسلام؛ فلا نؤمِّنهم ولا نيَئِّسُهم، قال الله تعالى: ﴿وَلَا تَا۟يْـَٔسُوا۟ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ ۖ إِنَّهُۥ لَا يَا۟يْـَٔسُ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْكَـٰفِرُونَ﴾ [سورة يوسف، من الآية:٨٧]، وقال سبحانه: ﴿أَفَأَمِنُوا۟ مَكْرَ ٱللَّهِ ۚ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْخَـٰسِرُونَ﴾ [سورة الأعراف، من الآية:٩٩]، وقال جلّ في علاه: ﴿وَمَن يَقْنَطُ مِن رَّحْمَةِ رَبِّهِۦٓ إِلَّا ٱلضَّآلُّونَ﴾ [سورة الحجر، من الآية:٥٦]، وقد خالف في هذا طوائفُ من النّاس:

الطّائفة الأولى: غلاة المرجئة؛ فإنهم زعموا الأمن والرجاء، ونسوا عظمة الله والخوف منه، حتّى صاروا يشهدون لكل من قال لا إله إلا الله بأنه من أهل الجنّة، وأنه لا يعذب، وذلك بأعيانهم!؟

الطّائفة الثّانية: الخوارج والمعتزلة؛ فإنهم زعموا الإياس بمجرد الذنوب، والقنوط من رحمة الله، لا سيما لأهل الكبائر، ولمن خالف مذهبهم، وهم مع

إياسهم من رحمةِ الله تعالى فعندهم التناقض حين يشهدون لأعيانهم بالجنّة، ولأعيانِ مخالفيهم بالنّار.

الطّائفة الثّالثة: الذين زعموا أنا نسير إلى الله تعالى بالحبِّ والمحبة، دون خوفٍ، ولا رجاء، وزعموا أنّ هذا طريق المحبين، وأنهم ليسوا تجّارًا مع الله تعالى، ولا خائفين من عذاب الله تعالى، حتّى وصل الأمر إلى غلاتهم أنهم زعموا أن عذاب الله من العذوبة!؟ وأن طلب جنة الله تعالى من تجارة القلوبِ الّتي ضعفت عن خلاصة الحب والمحبة مع الله تعالى!؟ وهذا القول مشهور عن غلاة المتصوفة، ومنقول عن بعض أساطينهم.

والحق أنا لا نُقَنِّطُ العاصين، ولا نُؤَمِّنُ الصَالحين، وإنما نرجو للمحسن، ونخاف على المسيء، وكلّ ذلك لا بد وأن يكون مع المحبة والخوف والرجاء، وهو طريق السّلف، وعليه أهل السنة والجماعة، خلافًا للخلف.

وقوله: "**والأمن**" أي الطمأنينة، والسلامة، والوثوق، وسكون النفسِ إلى مجردِ الاعتقادِ، أو القولِ، أو العمل، ونسيان فضل الله تعالى.

وقوله: "**والإياس**" أي القنوطُ، ومنعه العطاءَ، والفضلَ، وانقطاع الرجاءِ، وذلك لما قد صدر من الذنوب والمعاصي، ونحوها، ونسيان رحمة الله تعالى، ومغفرته للمسلمين.

وقوله: "**ينقلان عن ملة الإسلام**" أي يوصلان إلى الردة، وإلى الكفرِ، أو الشرك؛ فهما بابان من أبواب الردَّة، أعاذنا الله وإياكم منها، وثبتنا على دينه.

وقول المصنّف رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **"وسبيل الحق بينهما لأهل القبلة"** أي طريق الثبات والصّدق والمتقرر هو ما كان بين الأمن من مكرِ الله تعالى، وبين الإياس من رحمة الله تعالى، وهو يشير بهذا إلى طريقة أهل السنة والجماعة؛ فإنهم يعتقدون أنه لا بد مِن هذا في الإيمان، وفي العمل، وفي الثواب وفي العقاب، وهو منهج عيشهم وحياتهم، وتعاملهم مع ربهم تَبَارَكَ وَتَعَالَى.

و **"سبيل الحقّ"** أي طريقه الموصل إليه، والطريق الثابت المتقرر، و(**السبيل**) الطريق الواضح البيِّنُ؛ كما قال تعالى: ﴿يَٰلَيۡتَنِي ٱتَّخَذۡتُ مَعَ ٱلرَّسُولِ سَبِيلٗا ۝﴾ [سورة الفرقان، من الآية:٢٧]، أي طريقًا، وهو السببُ الموصِلُ بين الأمنِ والإياس، هو الحقُّ المتقرِّرُ عند أهل السنة والجماعة، وهو الّذي يجب اعتقاده مع **"أهلِ القبلة"**، الذين أقروا بالتّنزيل، وإن خالفونا في التأويل، وذلك لأنا لا نحكم على أهل البدع والمعاصي بالكفر لبدعهم ومعاصيهم، ما لم تصل هذه البدع والمعاصي إلى الكفر والشرك الصريح الواضح البين.

وقد أخبر الله تعالى عن خيرة خلقه، وخاصة أنبيائه ورسله، أنهم يعيشون بين الرجاء والخوف، ورائدهم محبة الله تعالى؛ فقال سبحانه: ﴿إِنَّهُمۡ كَانُواْ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلۡخَيۡرَٰتِ وَيَدۡعُونَنَا رَغَبٗا وَرَهَبٗاۖ وَكَانُواْ لَنَا خَٰشِعِينَ ۝﴾ [سورة الأنبياء، من الآية:٩٠]، وقال جلّ في علاه عن المؤمنين: ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤۡتُونَ مَآ ءَاتَواْ وَّقُلُوبُهُمۡ وَجِلَةٌ أَنَّهُمۡ إِلَىٰ رَبِّهِمۡ رَٰجِعُونَ ٦٠ أُوْلَٰٓئِكَ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلۡخَيۡرَٰتِ وَهُمۡ

لَهَا سَٰبِقُونَ﴾ [سورة يونس، من الآية:٦٠-٦١]، وجاء في تفسير هذه الآية حديث عَائِشَةَ، زَوْجَ النّبيّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَتْ: سَأَلْتُ رَسُولَ اللهِ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَنْ هَذِهِ الآيَةِ: ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَواْ وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ﴾. قَالَتْ عَائِشَةُ: أَهُمُ الَّذِينَ يَشْرَبُونَ الخَمْرَ وَيَسْرِقُونَ؟ قَالَ: "**لَا يَا بِنْتَ الصِّدِّيقِ، وَلَكِنَّهُمُ الَّذِينَ يَصُومُونَ وَيُصَلُّونَ وَيَتَصَدَّقُونَ، وَهُمْ يَخَافُونَ أَنْ لَا تُقْبَلَ مِنْهُمْ** ﴿أُوْلَٰٓئِكَ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلْخَيْرَٰتِ وَهُمْ لَهَا سَٰبِقُونَ﴾" [رواه الترمذي، وابن ماجه، وصحح الألباني].

وهذا فيه دلالة صريحة أن محبة الله تعالى هي الرائدة للمؤمن في سيره إلى الله تعالى، ويتخذ الخوفَ جناحًا، والرجاءَ جناحًا آخر؛ فلا يقنط من رحمة الله تعالى، ولا يأمن من عذابه، ويغلب جانب الرجاء عند وقوع الذنوب مع التوبة، وجانب الخوف عند المعاصي؛ فيكون بذلك تاركًا للمحرمات، وتائبًا عن المعاصي والسيئات.

وخلاصة دلالة كلام المصنّف رَحِمَهُ ٱللَّهُ: التَّأكيد على معتقد أهل السنة والجماعة في أنّ أصحاب الكبائر ليسوا كفارًا، بل نرجو لهم العفو، وأنهم يدخلون الجنّة برحمة الله تعالى؛ فيقبل الله فيهم الشفاعة، وإن كنا نخاف عليهم من المؤاخذة.

وفيه إثبات أنّ الذنوب تؤثر على الإيمان وتنقصه، خلافًا لما ذهب إليه المرجئة؛ فإنهم زعموا أنّ الذنوب والأعمال لا تؤثر في الإيمان بجميع طوائفهم،

إلا مرجئة الفقهاء، وزعموا أن الأعمال لا أثر لها في الإيمان.

ومرجئة الفقهاء قالوا: الإيمان قول واعتقاد، وليس الأعمال من الإيمان، لكنهم قالوا بأنها مُؤَثِّرَةٌ في الإيمان، ومِن هنا قال ابن أبي العز رَحِمَهُ ٱللَّهُ: إن الخلاف لفظي، أي بهذا الاعتبار، وأما باعتبار أنهم أخرجوا الأعمال عن مسمى الإيمان فالخلاف ليس لفظيًا، والله تعالى أعلم.

وفيه دلالة على أهمية الجمعِ بين الخوفِ والرجاءِ، وأهمية البعد عن الأمن والإياس، وأن الطريق الثابت عند أهل الحقِّ من السلف ومن تبعهم هو الجمع بينهما، والسير معهما.

❀❀❀

[أسباب التكفير]

وَلَا نُخْرِجُ الْعَبْدَ مِنَ الْإِيمَانِ إِلَّا بِـجُحُودِ مَا أَدْخَلَهُ فِيهِ.

﴿ الشرح ﴾

هذا تقرير من المصنف رَحِمَهُ ٱللَّهُ في ذِكر سبب من أسباب التكفير، وبيان بابٍ من أبوابه.

قول المصنّف رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **"ولا يَخْرُج العبدَ من الإيمانِ إلا بجحودِ ما أَدْخَلَهُ فيه"**، أي لا يَخْرُجُ العبدُ المسلمُ من دائرة الإيمان والإسلامِ إلى دائرة الشرك والكفران إلا بسبب جَحْدِ شيءٍ أو إنكارِه، أو ردِّ شيءٍ، كان سببًا في دخوله الإسلام.

أي أنّ الكفر الّذي يضاد الإيمان هو جحد ما كان سببًا في دخوله إلى الإيمان؛ فمَن آمن بأركان الإيمان والإسلام ثم جحدها؛ فإنه يخرج من الإيمان إلى دائرة الكفران، وهذا القول بالإجماع، ولم يخالف فيه إلا غلاة الجهمية؛ وهم غلاة المرجئة الذين قالوا: الإيمان المعرفة؛ فعلى قولهم يلزم أن العارف -وإن جحد- لا يكفر، وهذا قول باطل معلوم بطلانه بالنص والإجماع قال تعالى: ﴿وَجَحَدُوا۟ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا﴾ [سورة النمل، من الآية:١٤]؛ فدل أنهم عارفون، بل ومستيقنون، لكنهم كفروا بجحودهم، و(**الجحد**): هو الإنكار المخالف للإقرار، وهو يشمل العمل القلبي والقولي والعملي، فلو أقرّ الإنسان لفظا بالشهادة ثم جحد معناه فعبد مع الله غيره؛ فجحده للمعنى عمليًّا يخرجه

عن الإسلام، ولا ينفعه قوله وإقراره بالمعنى الّذي هو لفظ الشهادة؛ كحال المنافقين.

وفي كلام المصنف رَحِمَهُ ٱللَّهُ دلالة بينة على أنه لا يجوز الحكم على المسلم بالكفر بسبب إنكار شيءٍ غير ما كان سببًا في دخوله الإسلام، وهذا صريح في أن التكفير لا يمكن أن يكون في المباحات، ولا في المندوبات أو المكروهات، وإنما يكون في أصول الإيمان، وأصول الإسلام، وردّ الواجبات، أو إنكارها، أو العمل المضاد للإيمان والإسلام والتوحيد.

وفي هذه اللفظة استدراك على المصنّف رَحِمَهُ ٱللَّهُ من بعض الشّرّاح؛ فإنه يفهم منها أنها على طريقة مرجئة الفقهاء، وأنّ الكفر لا يكون إلا بالجحود، لكنّ هذا الكلام لا يستقيم للمرجئة؛ فإنّ مجرد التصديق لا يكون إيمانًا؛ فهذا أبو طالب كان مصدقًا عالمًا، ومع ذلك لما أبى الإقرار بمقتضى علمه والعمل وَفْقَهُ لم ينفعه علمه وتصديقه في قوله:

وَلَقَدْ عَلِمْتُ بِأَنَّ دِينَ مُحَمَّدٍ ❊❊ مِنْ خَيْرِ أَدْيَانِ البَرِيَّةِ دِينَا
لَوْلاَ المَلاَمَةُ أَو حَذَارِ مَسَبَّةٍ ❊❊ لَوَجَدْتَنِي سَمْحًا بِذَاكَ مُبِينَا

وقد دلت الأدلة على أن الكفر الأكبر أنواعٌ، وقد تجتمع هذه الأنواعُ وتتداخل في بعضٍ، وقد تفترقُ؛ لكنها كلها كفرٌ، وشركٌ، وهذه الأنواعُ هي:

النّوع الأوّل: كفر التكذيب، وهو أن يكذب بشيءٍ من الإيمان، أو مقتضياته،

قال الله تعالى: ﴿كَدَأْبِ ءَالِ فِرْعَوْنَ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ ۗ وَٱللَّهُ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾ [سورة آل عمران، من الآية:١١]، وقال تعالى: ﴿كُلَّمَا جَآءَهُمْ رَسُولٌۢ بِمَا لَا تَهْوَىٰٓ أَنفُسُهُمْ فَرِيقًا كَذَّبُوا۟ وَفَرِيقًا يَقْتُلُونَ﴾ [سورة المائدة، من الآية:٧٠].

النّوع الثّاني: كفر الجحود، وهو إنكار شيء من الإيمان، ومقتضياته، قال الله تعالى: ﴿فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَـٰكِنَّ ٱلظَّـٰلِمِينَ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ﴾ [سورة الأنعام، من الآية:٣٣]، وقال: ﴿كَذَٰلِكَ يُؤْفَكُ ٱلَّذِينَ كَانُوا۟ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ﴾ [سورة غافر، من الآية:٦٣].

النّوع الثّالث: كفر الإباءِ والاستكبار، وهو معرفتهم للحق وردهم له أنفة، وهو الكفر المشهور عن إبليس، وعن فرعون، قال الله تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَـٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِـَٔادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَـٰفِرِينَ﴾ [سورة البقرة، من الآية:٣٤]، وقال تعالى عن فرعون وأتباعه: ﴿وَجَحَدُوا۟ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا ۚ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ [سورة النمل، من الآية:١٤]، وقال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا وَٱسْتَكْبَرُوا۟ عَنْهَآ أُو۟لَـٰٓئِكَ أَصْحَـٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَـٰلِدُونَ﴾ [سورة الأعراف، من الآية:٣٦].

النّوع الرّابع: كفر الاستهزاء، وهو أن يكفر بشيء من الإيمان، ومقتضياته، وهو الّذي قال الله تعالى فيه: ﴿لَا تَعْتَذِرُوا۟ قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَـٰنِكُمْ﴾ [سورة التوبة، من

الآية:٦٦].

النّوع الخامس: كفر الافتراء، وهو القول على الله تعالى بلا علمٍ، أو الزعم بأن الله أوحى إليه، قال الله تعالى: ﴿وَأَن تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعۡلَمُونَ﴾ [سورة البقرة، من الآية:١٦٩]، وقال تعالى: ﴿وَمَنۡ أَظۡلَمُ مِمَّنِ ٱفۡتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوۡ كَذَّبَ بِٱلۡحَقِّ لَمَّا جَآءَهُۥٓۚ أَلَيۡسَ فِي جَهَنَّمَ مَثۡوٗى لِّلۡكَٰفِرِينَ﴾ [سورة العنكبوت، من الآية:٦٨].

النّوع السّادس: كفر الموالاة، وهو حبُّ ظهور الكافرين، ونصرتهم حتّى يظهروا، قال الله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بَعۡضُهُمۡ أَوۡلِيَآءُ بَعۡضٍ﴾ [سورة الأنفال، من الآية:٧٣]، وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلۡيَهُودَ وَٱلنَّصَٰرَىٰٓ أَوۡلِيَآءَۘ بَعۡضُهُمۡ أَوۡلِيَآءُ بَعۡضٖۚ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمۡ فَإِنَّهُۥ مِنۡهُمۡۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [سورة المائدة، من الآية:٥١].

النّوع السّابع: كفر الزندقة، وهو إظهار الإسلام وإبطان الكفر لتدمير الدين، وإفساد شعائره، ومقصوده إضعاف دين المسلمين بإظهار الإسلام ثم الردة، ثم الإسلام ثم الردة، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ثُمَّ كَفَرُواْ ثُمَّ ءَامَنُواْ ثُمَّ كَفَرُواْ ثُمَّ ٱزۡدَادُواْ كُفۡرٗا لَّمۡ يَكُنِ ٱللَّهُ لِيَغۡفِرَ لَهُمۡ وَلَا لِيَهۡدِيَهُمۡ سَبِيلَۢا﴾ [سورة النساء، من الآية:١٣٧].

النّوع الثّامن: كفر السحر والسحرة، تَعَلُّمًا أو تَعْلِيمًا، وذلك أن من تعلم السحر؛ فإنه يكفر بذلك، ولأنه يقع في الشرك ولا بد، قال الله تعالى: ﴿وَلَٰكِنَّ

﴿ٱلشَّيَٰطِينَ كَفَرُواْ يُعَلِّمُونَ ٱلنَّاسَ ٱلسِّحۡرَ﴾ [سورة البقرة، من الآية:١٠٢]، وقال تعالى: ﴿وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنۡ أَحَدٍ حَتَّىٰ يَقُولَآ إِنَّمَا نَحۡنُ فِتۡنَةٞ فَلَا تَكۡفُرۡ﴾ [سورة البقرة، من الآية:١٠٢]، وقال: ﴿وَلَقَدۡ عَلِمُواْ لَمَنِ ٱشۡتَرَىٰهُ مَا لَهُۥ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ مِنۡ خَلَٰقٖ﴾ [سورة البقرة، من الآية:١٠٢].

النّوع التّاسع: كُفْرُ التزيين، وهو أن يُزَيِّنَ الكفر والشرك، وإن لم يكن هو في نفسه مُقِرًّا أو مُصَدِّقًا بذلك؛ كما قال الله تعالى: ﴿أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُواْ نَصِيبٗا مِّنَ ٱلۡكِتَٰبِ يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡجِبۡتِ وَٱلطَّٰغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُواْ هَٰٓؤُلَآءِ أَهۡدَىٰ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ سَبِيلًا﴾ [سورة النساء، من الآية:٥١].

النّوع العاشر: كفر الصَّدِّ، وهو أن يَصُدَّ عن دين الله تعالى لا يتعلمه، أو يصد النّاس عن دين الله تعالى، ويمنعهم بشتى الطرق أن يتعلموا دين الله تعالى، وهو كفر الإعراض، قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ قَدۡ ضَلُّواْ ضَلَٰلَۢا بَعِيدًا﴾ [سورة النساء، من الآية:١٦٧]، وقال الله تعالى في المعرضين: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ عَمَّآ أُنذِرُواْ مُعۡرِضُونَ﴾ [سورة الأحقاف، من الآية:٣].

النّوع الحادي عشر: كفرُ الظَّنّ والشَّكّ، وهو أن يشك في شيءٍ من الإيمان، أو مقتضياته، قال الله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ ظَنُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْۚ فَوَيۡلٞ لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنَ ٱلنَّارِ﴾ [سورة ص، من الآية:٢٧]، وقال تعالى: ﴿إِنۡ هُمۡ إِلَّا يَظُنُّونَ﴾ [سورة الجاثية، من الآية:٢٤].

النّوع الثّاني عشر: كفر النفاق، وهو إظهار الإسلام وإبطان الكفر، بقصد

السلامة، وتحصيل المنافع الدنيوية، والمقصود به هنا النفاق الأكبر، الّذي قال الله تعالى فيه: ﴿إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِى ٱلدَّرْكِ ٱلْأَسْفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ وَلَن تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا﴾ [سورة النساء، من الآية:١٤٥].

النّوع الثّالث عشر: كفرُ الإلحادِ، وهو أن ينكر وجودَ الله تعالى، وينسب الأشياء إما إلى الطبيعة، أو إلى الزمان، أو يعتقد أبدية المادة، ونحو ذلك، كما قال سبحانه: ﴿إِنْ هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ﴾ [سورة المؤمنون، من الآية:٣٧]، وقال: ﴿وَقَالُوا۟ مَا هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَآ إِلَّا ٱلدَّهْرُ﴾ [سورة الجاثية، من الآية:٢٤].

النّوع الرّابع عشر: كفرُ الشرك، وقد دل عليه قول الله تعالى: ﴿ثُمَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ﴾ [سورة الأنعام، من الآية:١].

ثم كفر الشرك أنواع، ومنها:

النّوع الأوّل: شركُ التَّعَدُّد، وهو أن يعتقد بأنّ الآلهة متعددة، وأن الأرباب متعددون، سواء اعتقد أن ثم إلهين متساويين، أو متفاوتين، أو آلهة متعددة، قال الله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱللَّهُ لَا تَتَّخِذُوٓا۟ إِلَٰهَيْنِ ٱثْنَيْنِ ۖ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ۖ فَإِيَّٰىَ فَٱرْهَبُونِ﴾ [سورة النحل، من الآية:٥١]، وقال تعالى عن المثلثين: ﴿وَلَا تَقُولُوا۟ ثَلَٰثَةٌ ۚ ٱنتَهُوا۟ خَيْرًا لَّكُمْ ۚ إِنَّمَا ٱللَّهُ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ۖ سُبْحَٰنَهُۥٓ أَن يَكُونَ لَهُۥ وَلَدٌ ۘ لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا﴾ [سورة النساء، من الآية:١٧١].

النّوع الثّاني: شِرْكُ صرف العبادة لغير الله تعالى، وهو شركٌ في الحقوق، قال الله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لَا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ﴾ [سورة الأنعام، من الآية:١٦٢-١٦٣]، وكما قال سبحانه فيمن نذر لغير الله تعالى: ﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ الْحَرْثِ وَالْأَنْعَامِ نَصِيبًا فَقَالُوا هَذَا لِلَّهِ بِزَعْمِهِمْ وَهَذَا لِشُرَكَائِنَا﴾ [سورة الأنعام، من الآية:١٣٦].

النّوع الثّالث: شرك المحبة، وهو أن يحب غير الله تعالى كمحبته لله تعالى، وهي محبة التعبد والطاعة، قال الله تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَتَّخِذُ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَنْدَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ﴾ [سورة البقرة، من الآية:١٦٥].

النّوع الرّابع: شرك الأنداد، وهو أن يجعل لله تعالى أندادًا وأضدادًا، سواءٌ في الذات، أو في الأسماء، أو في الصّفات، أو في أفعاله تَبَارَكَ وَتَعَالَى، أو في حقه تَبَارَكَ وَتَعَالَى، قال الله تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا بَلْ مَكْرُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ إِذْ تَأْمُرُونَنَا أَنْ نَكْفُرَ بِاللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُ أَنْدَادًا﴾ [سورة سبأ، من الآية:٣٣].

النّوع الخامس: شركُ النّيّات، وهو أن يعمل العمل الّذي يراد به وجهُ الله تعالى لغير الله تعالى؛ كمن يصلي لأجل النّاس، ويعطي ليقال عنه جوادٌ، ونحو ذلك، وهذا منه ما هو أكبر، ومنه ما هو أصغر، قال الله تعالى عن المخلصين: ﴿إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنْكُمْ جَزَاءً وَلَا شُكُورًا﴾ [سورة الإنسان، من الآية:٩].

النّوع السّادس: شركُ الطَّاعة، وهو أن يطيع غيرَ الله تعالى في التحليل والتحريم كطاعته لله تعالى، ويرى أن لغير الله تعالى الحقّ في ذلك، كما قال تعالى: ﴿وَقَالُواْ رَبَّنَآ إِنَّآ أَطَعۡنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَآءَنَا فَأَضَلُّونَا ٱلسَّبِيلَا۠﴾ [سورة الأحزاب، من الآية:٦٧]، وقال تعالى: ﴿ٱتَّخَذُوٓاْ أَحۡبَارَهُمۡ وَرُهۡبَٰنَهُمۡ أَرۡبَابٗا مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَٱلۡمَسِيحَ ٱبۡنَ مَرۡيَمَ وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُوٓاْ إِلَٰهٗا وَٰحِدٗاۖ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۚ سُبۡحَٰنَهُۥ عَمَّا يُشۡرِكُونَ﴾ [سورة التوبة، من الآية:٣١]، ويوضح معناها حديث **عَدِيِّ بْنِ حَاتِمٍ** رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ **قَالَ: أَتَيْتُ النَّبِيّ** صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ **وَفِي عُنُقِي صَلِيبٌ مِنْ ذَهَبٍ؛ فَقَالَ: "يَا عَدِيُّ اطْرَحْ عَنْكَ هَذَا الوَثَنَ" وَسَمِعْتُهُ يَقْرَأُ فِي سُورَةِ بَرَاءَةٌ:** ﴿ٱتَّخَذُوٓاْ أَحۡبَارَهُمۡ وَرُهۡبَٰنَهُمۡ أَرۡبَابٗا مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾، **قَالَ: "أَمَا إِنَّهُمْ لَمْ يَكُونُوا يَعْبُدُونَهُمْ، وَلَكِنَّهُمْ كَانُوا إِذَا أَحَلُّوا لَهُمْ شَيْئًا اسْتَحَلُّوهُ، وَإِذَا حَرَّمُوا عَلَيْهِمْ شَيْئًا حَرَّمُوهُ"** [رواه الترمذي بهذا اللفظ، وحسنه الألباني].

النّوع السّابع: شركُ التَّوسُّط، وهو أكثرُ شِركِ العالمين، وهو أن يعتقد أن فلانًا يقربه إلى الله تعالى، وأن يُدنيه، فيصرف له شيئًا من أنواع العبادات، أو المرادات، كما قال تعالى: ﴿أَلَا لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلۡخَالِصُۚ وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوۡلِيَآءَ مَا نَعۡبُدُهُمۡ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلۡفَىٰٓ﴾ [سورة الزمر، من الآية:٣]، وقال تعالى: ﴿قُلِ ٱدۡعُواْ ٱلَّذِينَ زَعَمۡتُم مِّن دُونِهِۦ فَلَا يَمۡلِكُونَ كَشۡفَ ٱلضُّرِّ عَنكُمۡ وَلَا تَحۡوِيلًا ٥٦ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ يَبۡتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلۡوَسِيلَةَ أَيُّهُمۡ أَقۡرَبُ﴾ [سورة الإسراء، من

الآية:٥٦-٥٧].

النّوع الثّامن: شرك الشفاعة؛ وهو أن يطلب الشفاعة من الموتى، أو من الغائبين، أو ممن لا يملكها، قال الله تعالى: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِۚ قُلْ أَتُنَبِّـُٔونَ ٱللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [سورة يونس، من الآية:١٨].

والصحيح من أقوال أهل العلم هو أن بين الكفر والشرك ترادف مع التباعد، وتباعد مع الترادف؛ فإذا ذكرا معًا اختلفا في المعنى، وإذا انفردا تحمل كلّ كلمة معنى الكلمة الأخرى؛ فعند الإفراد كلّ شركٍ كفرٌ، وكلّ كفرٍ شركٌ، وكلّ مشركٍ فهو كافرٌ، وكلّ كافر فهو مشركٌ.

وعند الاجتماع؛ فالشرك ينصرف إلى أحد الأنواع الّتي ذكرناها، والكفر إلى أحد الأنواع الّتي ذكرناها.

وهذه الأنواع من الشرك والكفرِ هي متداخلة، والواجب الحذرُ منها كلها، والشرك والكفر في جميع هذه الأنواع سواءٌ؛ ولا فرق فيمن كان عالِمًا قاصدًا، أو مقلِّدًا تابعًا، وذلك لأن التقليد في الكفر والشرك لا يُنقِذ الإنسان من تبعية الشرك والكفر، قال الله تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ مَوْقُوفُونَ عِندَ رَبِّهِمْ يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ ٱلْقَوْلَ يَقُولُ ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟

﴿لَوۡلَآ أَنتُمۡ لَكُنَّا مُؤۡمِنِينَ﴾ [سورة سبأ، من الآية:٣١]، وقال تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا ٱدَّارَكُواْ فِيهَا جَمِيعٗا قَالَتۡ أُخۡرَىٰهُمۡ لِأُولَىٰهُمۡ رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ أَضَلُّونَا فَـَٔاتِهِمۡ عَذَابٗا ضِعۡفٗا مِّنَ ٱلنَّارِۖ قَالَ لِكُلّٖ ضِعۡفٞ وَلَٰكِن لَّا تَعۡلَمُونَ ٣٨ وَقَالَتۡ أُولَىٰهُمۡ لِأُخۡرَىٰهُمۡ فَمَا كَانَ لَكُمۡ عَلَيۡنَا مِن فَضۡلٖ فَذُوقُواْ ٱلۡعَذَابَ بِمَا كُنتُمۡ تَكۡسِبُونَ﴾ [سورة الأعراف، من الآية:٣٨-٣٩].

وسواءٌ كان الكفرُ عن قصدٍ وجِدٍّ، أو استهزاءٍ وسخرية، وسواءٌ كان الكفر عمليًّا؛ كالسجود للصنم، أو قوليًّا كسبّ نبيٍّ، أو اعتقاديًّا كمحبة الأصنام والمعبودات الباطلة، ونحو ذلك؛ فالكفر ملة واحدة.

وخلاصة دلالة كلام المصنّف رَحِمَهُ ٱللَّهُ: أن المسلم لا يخرج من الإسلام إلا بإنكار أو رد أو إبطال شيءٍ مما هو من أركان الإيمان والإسلام، وأنه يجب الحذر من أنواع الكفر كلها.

وفيه دلالة على أن المسلم لا يُخرَج من الإسلام بمجرد المخالفة، كما لا يدخل في الإسلام بمجرد الموافقة؛ بل لا بد من الإقرار بأركان الإيمان وأصول الإسلام، وكذلك الحكم عليه بالكفر لا يكون بمجرد الموافقة؛ بل لا بد وأن يكون قد أتى بما يناقض الإيمان، أو فعل ما هو من أصول الكفران.

❀❀❀

[تعريف الإيمان]

وَالْإِيـمَانُ هُوَ: الْإِقْرَارُ بِاللِّسَانِ، وَتَصْدِيقُهُ الْمَعْرِفَةُ بِالْـجَنَانِ.

وَإِنَّ جَمِيعَ مَا أَنْزَلَ اللهُ تَعَالَى فِي الْقُرْآنِ، وَجَـمِيعَ مَا صَحَّ عَنْ رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِنَ الشَّرْعِ وَالْبَيَانِ كُلُّهُ حَقٌّ.

﴿ الشرح ﴾

هذا تقرير من المصنف رَحِمَهُ اللَّهُ في بيان ماهية الإيمان، وعلاقة المنزّل من القرآن، أو ما صح في سنة رسولِ الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ به.

قوله: **"والإيمان هو الإقرار باللسان والتصديق بالجنان"** هذا تعريف منه رَحِمَهُ اللَّهُ للإيمان بالإقرار اللّساني، والتّصديق القلبي، وسار فيه على طريقة مرجئة الفقهاء رحمهم الله تعالى؛ الذين يرون: أن الإيمان هو: إقرار اللسان، وتصديق القلب.

وهذا مخالف لما عليه السلف قاطبة مِن أنَّ الإيمان قولٌ وعملٌ، قول اللسان والقلب، وعمل القلب والجوارح، وهو معنى قول السلف: الإيمان قول وعمل، وما جاء في القرآن ذِكْرُ الإيمانِ إلا وعُطِفَ عليه العملُ؛ فدل على أنه أهم أركانه، وهو من باب عطف الخاص على العام؛ كقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُوْلَٰٓئِكَ هُمۡ خَيۡرُ ٱلۡبَرِيَّةِ﴾ [سورة البينة، من الآية:٧]، وأطلق الله اسم الإيمان على الصلاة؛ فدل على أنّها منه، والصلاةُ عمل، قال الله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَٰنَكُمۡ﴾ [سورة البقرة، من الآية:١٤٣]،

وأطلق النّبيّ صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ اسم الإيمان على الأمانة، ونفاه عمن ليس له أمانة؛ فدل على أن الأمانة من الإيمان؛ كما في قوله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: **"لَا إِيمَانَ لِمَنْ لَا أَمَانَةَ لَهُ"** [رواه الإمام أحمد في مسنده، وابن حبان في صحيحه، عن أنس رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ].

وجاء في حديث أَبِي هُرَيْرَةَرَضِيَٱللَّهُعَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: **"الْإِيمَانُ بِضْعٌ وَسَبْعُونَ -أَوْ بِضْعٌ وَسِتُّونَ- شُعْبَةً، فَأَفْضَلُهَا؛ قَوْلُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، وَأَدْنَاهَا؛ إِمَاطَةُ الْأَذَى عَنِ الطَّرِيقِ، وَالْحَيَاءُ شُعْبَةٌ مِنَ الْإِيمَانِ"** [رواه البخاري ومسلم، وهذا لفظه].

فجعل الأعمال القولية، والعملية، والقلبية من الإيمان، ومن شعب الإيمان، من أجزاء الإيمان.

ودلّت الأدلة على أنّ أعمال الإيمان منقسمة بحسب المحل إلى ثلاثة أنواع:

النّوع الأوّل: أعمال محلها القلب؛ كالحياء، والحب، والخوف، والرجاء... ونحو ذلك.

النّوع الثّاني: أعمال محلها اللسان؛ كالشهادة، والذكر، وقراءة القرآن، والصدق... ونحوها.

النّوع الثّالث: أعمال محلها الجوارح؛ كإماطة الأذى، وبذل المعروف، ومد اليد للعون، والمشي إلى الطاعات... ونحو ذلك.

وهذه الأعمال من حيث مرتبتها تنقسم إلى ثلاثة أقسام:

القسم الأوّل: ما هو أصل في الإيمان؛ كالشهادتين، والسجود لله تعالى دون المعبودات الباطلة، والخوف منه سبحانه... ونحو ذلك.

القسم الثّاني: ما هو من واجبات الإيمان؛ كأداء الأمانة، ومحبة الدين فوق محبة النفسِ، وقراءة الفاتحة في الصلاة... ونحو ذلك.

القسم الثّالث: ما هو من كمالات الإيمان؛ كإماطة الأذى عن الطريق، والقول الأحسن، وقوة التوكل...ونحو ذلك.

ولما كانت الأعمال ليست في مرتبة واحدةٍ؛ فإن أهل السنة والجماعة يقولون بأنه ليس ترك كلّ عملٍ يكون كفرًا وشركًا كالخوارج والمعتزلة، ولكن يقولون إن ذلك يعني ترك شيء من الإيمان بحسب العمل.

ويقولون: إن الإيمان يزيد وينقص، وزيادة الإيمان ونقصانه عندهم من جهتين:

الجهة الأولى: أن هذه الأعمال وجودها وعدمها، وكمالها ونقصانها، تختلف، وتزيد وتنقص.

الجهة الثانية: أن العمل الواحد في نفسه يختلف باختلاف اعتقاده وفعله وأحواله؛ فاليقين نفسه ليس في مرتبة واحدة، ولا أحواله متساوية؛ بل يزيد اليقين كلما زاد الإنسان علمًا وعملًا، وينقص اليقين بقدر نقصان العلم والعمل، وهكذا بقية الأعمال، وأعمال الإيمان متداخلة؛ فبعضها تؤثر على بعضٍ وجودًا وعدمًا، كمالًا ونقصانًا.

وقول المصنّف رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "**والإيمان هو الإقرار باللسان**" **أي** أن الإيمان إنما يظهرُ بالإقرار اللساني، وهو أن يظهر الشهادة.

والمقصود "**باللسان**" العضو المعروف بآلة النطق عند الإنسان، وهي آلة الذّوقِ، والبَلْعِ، وتناول الغذاء، فلا بد من أن يظهر الشهادة بلسانه، وهذا بالإجماع عند الإمكان؛ فإن لم يمكن فبإشارته يظهر مقتضى الشهادةِ، أو معناها، إن كان له إشارة مفهومة، أو بفعلٍ منه يدلّ على إقراره، إذا لم يكن منه إشارة مفهومة، ويدل لهذا حديث أبي هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ: أن رجلًا أتى النّبيّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بجاريةٍ سوداءَ، فقال: يا رسولَ الله، إنَّ عليَّ رقبةً مؤمنةً، فقال لها: "**أينَ اللهُ؟**" فأشارت إلى السّماء بإصبعها، فقال لها: "**فَمَنْ أَنَا؟**" فأشارت إلى النّبيّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وإلى السّماء، يعني أنت رسولُ الله، فقال رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "**أعتِقْها فإنها مؤمنة**" [رواه أبو داود، وصححه الألباني، وأصله في الصحيح].

ولا يكتفى بظهور شيءٍ من علامات المسلمين في الدخول في الإسلام مع إمكان النطق بالشهادتين، بل لا بد منها أوّلًا، ثم الأعمال الأخرى تبعًا، وذلك لعموم ما تواتر عن النّبيّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من قوله: "**حتى يقولوا**"، ومن ذلك حديث أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ اللهِ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قَالَ: "**أُمِرْتُ أَنْ أُقَاتِلَ النّاس حتّى يَقُولُوا: لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، فَمَنْ قَالَ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، عَصَمَ مِنِّي مَالَهُ، وَنَفْسَهُ إِلَّا بِحَقِّهِ، وَحِسَابُهُ عَلَى اللهِ**" [رواه البخاري ومسلم].

وقول المصنّف رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **"والتصديق بالجنان"**، أي بالقلوب، و **"الجِنَان"** من كلّ شيءٍ جَوْفُه، وجنان الإنسان قلبه، أي لا بد مع الإقرار اللساني من التصديق اليقيني في القلب، وذلك لأنه إن قال كلمة التوحيد بلسانه من دون اعتقاد معناه كان منافقًا، وإن اعتقد معناها ولم يقلها بلسانه مع الإمكان كان مكابرًا، أو آبيًا؛ فلا بد منهما معًا.

وعند السلف قاطبة لا بد من العمل، وذلك لأنه مضمون الشهادتين، وعلامة ما في القلب من اليقين بالكلمتين؛ شهادة أن لا إله إلا الله، وشهادة أن محمدًا رسول الله؛ فيصلي لله تعالى وحده لا شريك له، ويسجد له وحده، ويتوكل عليه وحده، ويذكره في الضراء وحده، وهكذا.

ومقتضى صنيع المصنف رَحِمَهُ ٱللَّهُ أنه لا بدّ في الإقرار اللساني، والاعتراف القلبي أن يكون بكلّ ما جاء في القرآن والسنة.

قوله: **"وجميع ما صح عن رسول الله** صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ **من الشّرع والبيان كله حق"** أي: يجب الإقرار بالدين كلّه كتابًا وسُنَّةً، وأنّ ذلك كله من عند الله، فيجب الإيمان به؛ لأنه من الحق المبين الّذي دعا إليه النّبيّ صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ، وهذا داخل في الإيمان من حيث الإقرار اللساني والاعتقاد القلبي عند المصنّف، ولازمه العمل، والإقرار والاعتقاد والعمل كله من الإيمان عند السّلف.

وقوله: **"وجميع ما صح عن رسول الله** صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ**" أي** بكل ما صحّ، و**(جميع)** على وزن فعيل يأتي بمعنى **(المجموعِ)**، وهو مِن ألفاظ التّأكيد،

والمقصود أنه ليس له أن يردَّ شيئًا قد ثبت عن النّبيّ صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ لرأيٍ يراه، أو هوى يهواه، فإن ذلك دليل على عدم الإيمان، أو على نقصانه وضعفه في الإنسان.

و **"ما صح"** أي الّذي ثبت، و **(الصّحيح)** البريء مِن كلّ عيبٍ، أو ريبٍ، والخالي من كلّ علّةٍ، وذلك بأن استوفت شروط الصّحّة عند علماء الفنّ المعتبرين.

والحديث الصحيح عند علماء الحديث هو: ما رواه العدل الضابط عن مثله إلى منتهاه من غير علّة ولا شذوذ.

وقد وقع الاتفاق على أن جميع ما في الصحيحين؛ صحيح البخاري، وصحيح مسلم، فقد جاوزا القنطرة، كما نقل ذلك الحافظ ابن الصلاح، والحافظ النووي، وشيخ الإسلام ابن تيمية، رحمهم الله تعالى، فهما أصح كتابين في أحاديث رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ على وجه الأرضِ؛ فليس لأحد يقر بالإيمان، وشهادة التوحيد، وشهادة الرسالة، أن يرد شيئًا من أحاديث رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ، وذلك لأن الله تعالى أمر بطاعته في بضعٍ وثلاثين آية، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿وَإِن تُطِيعُوهُ تَهۡتَدُواْ﴾ [سورة النور، من الآية:٥٤]، وقوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنكُمۡ﴾ [سورة النساء، من الآية:٥٩]، وقوله: ﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدۡ أَطَاعَ ٱللَّهَ﴾ [سورة النساء، من الآية:٨٠].

ولم ينكر قبول الأحاديث إلا شِرذمةٌ من الخوارج في نهاية القرن الأول الهجري، ثم ظهر القول بإنكار السنة على يد المعتزلة في المئة الثالثة، ثم رُدَّت السنن على يدِ أهل البدع، وزاد وطغى الأمر حتّى ظهرت فرقة تدعي أنهم قرآنيون، وينكرون السنة البتة، ولو كانوا قرآنيين لقبلوا السنة وذلك من عدة أوجهٍ، ومنها:

الوجه الأوّل: أن القرآن قد أمر بطاعة النّبيّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وكيف يتبع الإنسان النّبيّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إذا لم يقبل ما ثبت عنه من السنن!؟

الوجه الثّاني: أن في القرآن مجملات لا بد من بيانها؛ فإذا رُدت السنة؛ فمن أين نفهم بيانها؛ كمواقيت الصلاة، وكيفيتها، وشروطها، وأركانها، وكيفيّة إخراج الزكاة، ومن أي الأنواع تخرج؟ ومتى تخرج؟ وكم نخرج؟ وهكذا بقية الأعمال الّتي جاءت في القرآن ذكرها مجملة، ولم تفصل، واكتفى في القرآن الإحالة إلى النّبيّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في البيان، قال الله تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ﴾ [سورة النحل، من الآية:٤٤]، وقال تعالى لأمهات المؤمنين: ﴿وَٱذْكُرْنَ مَا يُتْلَىٰ فِى بُيُوتِكُنَّ مِنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ وَٱلْحِكْمَةِ﴾ [سورة الأحزاب، من الآية:٣٤].

الوجه الثّالث: أن السنة وحيٌ من عند الله تعالى؛ فإن النّبيّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لا يتكلم من نفسه في دين الله تعالى، كما قال تعالى: ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ۝٣ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ﴾ [سورة النجم، من الآية:٣-٤]، وقال تعالى: ﴿وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ ٱلْأَقَاوِيلِ

﴿٤٤﴾ لَأَخَذۡنَا مِنۡهُ بِٱلۡيَمِينِ﴾ [سورة الحاقة، من الآية:٤٤-٤٥]، وجاء في حديث عبدِ الله بن عمرو رَضِيَٱللَّهُعَنۡهُما قال: كنتُ أكتبُ كلّ شيءٍ أسمعُه من رسولِ الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ أُريدُ حفْظَه، فنهتْني قريشٌ، وقالوا: أتكْتُبُ كلّ شيءٍ تَسمَعُه من رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ، ورسولُ الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ بَشَرٌ يتكلَّمُ في الغضَبِ والرِّضا، فأمسَكتُ عن الكتاب، فذكرتُ ذلك لرسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ، فأومأ بإصبَعِه إلى فيه، فقال: **"اكتُبْ، فوالذي نفسي بيدِه، ما يَخرُجُ منه إلا حقٌّ"** [رواه أبو داود، وصححه الألباني].

فوجب قبول كلّ ما جاء وصح عن **"رسول الله** صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ"، و **"رسول"** فَعُولٌ يأتي بمعنى المصدرية، (أرسل، يُرسل، رسولًا) أي جاء ومعه رسالة، ولهذا فهو يطلق على المذكر والمؤنث والواحد والجمع، وفي القرآن: ﴿إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ﴾ [سورة هود، من الآية:٨١].

و **"رسول"** فعُولٌ يأتي بمعنى المفعولية، أي: المُرسَل، والمبعوث، ويجمع أيضًا على رُسُلٌ، وأرسُلٌ.

ومعناه في الاصطلاح: من بعثه الله إلى قومٍ كافرين، وهي درجة فوق النبوَّة.

وأما **(النّبيّ)** فهو لغة مِن **(الإنباء)** وهو الإيحاء، أو من **(النَّبْأ)** وهو المكان المرتفع، وذلك أن النّبيّ ارتفع قدره على النّاس بالإيحاء.

والنّبيّ في الاصطلاح: مَن بعثه الله إلى قومٍ مسلمين؛ كما قال النّبيّ صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ: **"كَانَتْ بَنُو إِسْرَائِيلَ تَسُوسُهُمُ الْأَنْبِيَاءُ، كُلَّمَا هَلَكَ نَبِيٌّ خَلَفَهُ نَبِيٌّ"**

[رواه البخاري ومسلم من حديث أبي هريرة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ].

و "**رسول الله**" هنا مضافٌ، والقاعدة أنّ المضاف مُعرَّفٌ؛ فيكون معنى الإضافة هنا التخصيص برسولِ الله محمَّدٍ صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ، قال الله تعالى: ﴿قُلْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾ [سورة الأعراف، من الآية:١٥٨]، وقال: ﴿مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَـٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾ [سورة الأحزاب، من الآية:٤٠]، وقال: ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ﴾ [سورة الفتح، من الآية:٢٩]، وقد بعثه الله تعالى، وأرسله إلى النّاس كافّة، بالقرآن الكريم، والشّرع القويم، والسنة المبينة؛ فكان في فِعاله خير مُبيِّنٍ، وفي أقواله خيرَ مُشَرِّعٍ؛ فكل ما جاء وصح عنه صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ وجب علينا قبوله، واتباعه فيه.

وقول المصنّف رَحِمَهُٱللَّهُ: "**من الشّرع والبيان كله حق**" أي أنا نعتقد ونعمل بكل حديث صح عن رسولنا صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ فيما يتعلق بالشّرع، وبيانه، وما من خبرٍ من أخباره في هذا الباب إلا وهو حقٌّ، وما من أمر أو نهي في هذا الباب إلا وهو حقٌّ، سواء كان ما يتعلق بالتشريع، أو بالاعتقاد، أو ببيان بعض مسائل التشريع، أو الاعتقاد؛ فكله حقٌّ.

وفي كلام المصنّف رَحِمَهُٱللَّهُ دِقَّةٌ، وهو خروج أفعال النّبيّ صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ الجبلية؛ فإن ذلك ليس لبيان الشّرع، وإنما يفعل ذلك بحكم الجبلة، مثل الأكل، والشرب، والنوم، والزّواج، ونحو ذلك مما يتعلق بمحض أمور الدّنيا، على أن

جلُّ أعمال النّبيّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَسَلَّمَ هي في بيان الشّرع، والأمور الجبلية قليلة، والنّقل فيها نادرٌ، وإنما ينقل ذلك لتعلقه بأمرٍ شرعي، مثل كونه يحب الحلواء والعسل، وحبب إليه من الدّنيا الطيب والنساء، ونحو ذلك؛ فهذا له تعلق بالشّرع من جهة أخرى.

وخلاصة دلالة كلام المصنّف رَحِمَهُ ٱللَّهُ: أن الإيمان قولٌ وتصديق، ولازمه العمل؛ كما هو في عرفِ مرجئة الفقهاء رحمهم الله تعالى، وأنه يجب قبول المنزّل في القرآن في مسائل الإيمان، وفي صحة الإيمان، وكذلك قبول كلّ ما صح عن رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَسَلَّمَ في التشريع، وبيان الدين.

❁❁❁

[الإيمان والإسلام واحدٌ]

وَالْإِيـمَانُ وَالْإِسْلَامُ وَاحِدٌ، وَأَهْلُهُ فِي أَصْلِهِ سَوَاءٌ، وَإِنَّـمَا التَّفَاضُلُ وَالتَّفَاوُتُ بَيْنَهُمْ بِالْـحَقِيقَةِ فِي الْـخَشْيَةِ وَالتَّقْوَى، وَمُـخَالَفَةِ الْـهَوَى، وَمُلَازَمَةِ الْأَوْلَـى.

﴿ الشرح ﴾

هذا تقرير من المصنف رَحِمَهُ ٱللَّهُ في بيان ترادف الإيمان والإسلام من جهة، وأنّ أصول الإيمان والإسلام واحدٍ من جهة أخرى، وأنّ أصل المؤمن به واحدٌ من حيث المؤمنين به، وإنما التفاضل بينهم في الالتزام والتقوى.

وقوله: **"والإيمان والإسلام واحدٌ"** هذه العبارة في بعض النّسخ، وهي مفيدة بأن بين الإيمان والإسلام ترادفٌ، وهو عند جماهير العلماء، إلّا أنهم يقولون بالترادف عند التباعد، والتباين عند الترادف؛ فإذا اجتمعا في نصٍّ فمعنى الإسلام الأعمال الظاهرة، ومعنى الإيمان الأعمال القلبية الباطنة، وإذا افترقا فإن كل كلمة تتضمن مدلول معنى الكلمة الأخرى.

والقول بأن الإيمان والإسلام واحدٌ في المدلول إن كان من حيث اللازم فلا إشكال فيه، وإن كان من حيث المنطوق؛ فهذا مشكلٌ، وقد وافق الإمامُ الطحاويّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ على هذا الإمامَ البخاريّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ، وغيره، ممن قال بأن الإيمان والإسلام واحدٌ أي من حيث المدلول على المسمى.

والجمهور على أن بينهما تباينًا عند الاجتماع؛ وترادفًا عند الافتراق -وقد سبق بيان هذا المعنى-.

وأما هذه العبارة في جلّ النسخ **"والإيمان واحدٌ"** وفيها إجمال؛ فإن أراد المصنّف أن المؤمَن به واحدٌ مِن حيث إنّه الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر؛ فهذا له وجهٌ مع احتمال في لفظه.

وإن أراد أن أهل الإيمان على إيمان واحدٍ -كما هو الظاهر من لفظه- فهذا على طريقة مرجئة الفقهاء الّذين لا يرون زيادة الإيمان ونقصانه، وهو قول الماتريدية المتأخرين قاطبة.

وأمّا السلف فيقولون بأن أهل الإيمان ليسوا في إيمانهم بالمؤمَن به على حدٍّ واحد، ولا علمهم به سواء، ولا إيمانهم فيه سواء، ولا هم في أهله على درجة واحدة.

وقول المصنّف رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **"وأهله في أصله سواء"** تقرير لقول واعتقاد مرجئة الفقهاء، والمراد أن أهل الإيمان في نظرهم وإيمانهم بأصل المؤمَن به على حدٍّ واحدٍ **"سواء"**، و**(سواء)** بمعنى مماثلين، على نسقٍ واحدٍ، وبعضهم فيه نظير بعضٍ، فهم فيه على خط واحد مستوين.

وأما السلف فيقولون إن أهل الإيمان ليسوا سواء؛ بل هم يتفاضلون من جهة أصل الإيمان الّذي به دخل الإسلام، ومن جهة الإيمان الواجب، ومن جهة الإيمان المندوب؛ فليس النّاس في التصديق والأعمال القلبية الإيمانية سواء، ولا في واجبات الإيمان ومندوباته سواء، فشتان بين تصديق الصِّدِّيق وتصديق الفاسق المِلِّي، ولم يقل بأنهما سواء إلا غلاةُ المرجئة والماتريدية، حتّى صدر

مِن بعضهم المقولة الشَّنيعة فقالوا: إيمان أفسق الخلق كإيمان أتقى الخلق!؟

وهذا باطل بالنصوص وبإجماع السلف قبل وجود المرجئة؛ فإن النصوص دالة على زيادة الإيمان ونقصانه؛ كقول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَيَزْدَادَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِيمَـٰنًا﴾ [سورة المدثر، من الآية:٣١]، وقوله: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَـٰنًا﴾ [سورة الأنفال، من الآية:٢]، وقوله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: "**أَكْمَلُ الْمُؤْمِنِينَ إِيمَانًا أَحْسَنُهُمْ خُلُقًا**" [رواه أبو داود والترمذي، وقال: حسن صحيح]؛ فدلت النصوص أن في الإيمان ضعفًا، وكمالًا، وأكملًا.

وقوله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: "**مَا رَأَيْتُ مِنْ نَاقِصَاتِ عَقْلٍ وَدِينٍ**" [رواه البخاري من حديث أبي سعيد الخدري رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ، ومسلم من حديث ابن عمر رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا]؛ وفيه دليل صريح على نقصان الدين بسبب ترك بعض العبادات.

والأدلة على زيادة الإيمان ونقصانه كثيرة، وعليه إجماع السلف قبل وجود التنازع في المسألة، وكان عمرُ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ بمشهدٍ من الصحابة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمْ يقول لأصحابه: (هلُمُّوا نَزْدَادُ إيمانًا؛ فيذكرون الله عَزَّوَجَلَّ) [رواه الخلال في السنة]، وكان علقمة من كبار التابعين يقول لأصحابه: (امْشُوا بِنَا نَزْدَادُ إِيمَانًا) [رواه البيهقي في شعب الإيمان]، أي نطلب العلم والفقه فنزداد إيمانًا.

وقول المصنّف رَحِمَهُٱللَّهُ: "**والتفاضل بينهم بالخشية والتقى، ومخالفة الهوى، وملازمة الأولى**" إقرار من المصنّف بوجود التفاضل في الأعمال القلبية

كالخشية والتّقى، وهو دليل على زيادة الإيمان في أصله، وفي القلب، وإذا ثبت ذلك في الأعمال القلبية؛ فهو لا بدّ وأن يكون واقعًا بالأعمال القولية، والظاهرة العملية، وهذا كله يؤكد صحة قول السلف في الإيمان خلافًا للمرجئة.

وقوله: "**والتفاضل بينهم**..."أي إنما يحصل التفاضل -لا في أصل الإيمان لأنه عندهم شيءٌ واحدٌ من جهة نفسه، وأهله فيه سواءٌ- في بعض الأعمال المتعلقة بالإيمان مما هو من كمالاته، وهذا يؤكد أن مرجئة الفقهاء يرون أن الأعمال من كمالات الإيمان، لا سيما الأعمال القلبية، وإن كان بينهم اختلاف في الأعمال الظاهرة.

ومعنى "**التفاضل**" التفاوت الّذي يكون بين بعضهم على بعضٍ، وهو وجه التنافس فيه، فليس لهم مجال إلا الكمالات القلبية، ومنها "**الخشية**"، وهي: المهابة، والخوفُ مع التعظيم، وهو من أعمال القلوب الناشئة عن العلم واليقين وقوة ما ارتبط به القلب من الإيمان، وينتج عنه أيضا "**التُّقَى**"، وهي بمعنى التقوى، وهي: الخوفُ من الجليل، والعمل بالتنزيل، والاستعداد ليوم الرحيل، ويعرف (**التقوى**) أيضًا بأنّه: الخشية والخوف لغة، **واصطلاحًا**: امتثال أوامر الله تعالى واجتناب نواهيه.

وعلى هذا فإن الأعمال الظاهرة أيضًا سبب لتفاوت أهل الإيمان عند مرجئة الفقهاء، ولكن من جهة كمال الإيمان المستحب فقط، وذلك لأن الأعمال عندهم من كمالات الإيمان المندوب، لا من الإيمان الواجب، ولا من أصل

الإيمان.

وقوله: **"ومخالفة الهوى"** أي ويتفاوتون بترك المنكرات، والمحظورات، ومخالفة الهوى.

و(**المخالفة**) معناها: المعارضة، وعدم الموافقة؛ فكلما كان العبدُ مخالفًا لهواه كان أكمل إيمانًا، وفيه الحث على مضادة الهوى، والتخلف عن رغباته، واتباع الشّرع، والإتيان بمأموراته، وترك منهياته.

وقوله: **"وملازمة الأولى"** أي ويحصل التفاوت لأهل الإيمان بقدر ملازمتهم للأولى، و **"الملازمة"** مصدرُ (لازَمَ) بمعنى المرافقة، وعدم المفارقة، وهي المصاحبة والمنادمة، والمرابطة، والمقصود أن طول الدوام على الإيمان سبب للتفاوت الإيماني، وهذا السبب قد يرجع إلى الأعمال، وقد يرجع إلى طول الزمان، وقد يرجع إلى قوة الارتباط.

و**"الأَوْلَى"** الأحقّ، والأجدرُ، والأثبت، والأقرب للصواب، فكلما كان الإنسان ملازما للحق كلما كان متفاوتًا عن أقرانه في الإيمان، وهذا نص أن النّاس يتفاوتون في الإيمان.

ولا مفر من ثبوت ذلك؛ لأن تفاوت الإنسان في الإيمان يجده الشخص من نفسه؛ فهو حينما يلازم القرآن يجد من الأحوال الإيمانية ما لا يجده وقت مفارقته له، وعند طلب العلم يجد الحلاوة الإيمانية الّتي لا يجدها الجهال، وعند العبادة يحس بلذة الطاعة ما لا يحس بها أهل الشهوات.

ويدل له حديث عبد الله بن عمرو رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال: قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "**إِنَّ الْإِيمَانَ لَيَخْلَقُ فِي جَوْفِ أَحَدِكُمْ كَمَا يَخْلَقُ الثَّوْبُ، فَسَلُوا اللهَ تَعَالَى أَنْ يُجَدِّدَ الْإِيمَانَ فِي قُلُوبِكُمْ**" [رواه الطبراني في الكبير، قال الهيثمي: إسناده حسن].

وخلاصة دلالة كلام المصنّف رَحِمَهُ اللَّهُ: أن أصل أركان الإيمان شيءٌ واحدٌ، وهي الأركان الستة، وأن النّاس لا يتفاضلون في جهة المؤمَن به، وإنما التفاضل راجعٌ إلى أعمالهم القلبية، أو الظاهرية، وبطاعتهم، أو تركهم، ومداومتهم للخير، وملازمتهم للشرع.

❀❀❀

[أولياءُ الله تعالى]

وَالْمُؤْمِنُونَ كُلُّهُمْ أَوْلِيَاءُ الرَّحْمَنِ، وَأَكْرَمُهُمْ عِنْدَ اللهِ تَعَالَى أَطْوَعُهُمْ لَهُ، وَأَتْبَعُهُمْ لِلْقُرْآنِ.

﴿ الشرح ﴾

هذا تقرير من المصنف رَحِمَهُ ٱللَّهُ أن المؤمنون أولياء الله تعالى، وأنهم يتفاضلون عند الله تعالى، بسبب طاعتهم، واتباعهم للمنزّل.

وقوله: **"والمؤمنون كلهم أولياء الرحمن، وأكرمهم عند الله أطوعهم وأتبعهم للقران"** هذا القول من المصنّف للتأكيد على قولِه بأنَّ أهل الإيمان في أصله سواء؛ لكن هذا فيه نظر كما سبق.

وكون المؤمنين كلهم أولياء الله تعالى لا يَنْفِي تفاضُلَهم؛ فهم أولياء الله عموما بالنسبة للمشركين والكفار الذين هم أعداء الله، ثم المؤمنون في الوَلاية على قسمين:

القسم الأوّل: أهل الوَلاية التامة المطلقة، إذا بلغوا مرتبة كمال الدين، وصاروا من أهل الإحسان، وهم الذين ذكر الله أمثالهم في القرآن؛ كامرأة فرعون، ومريم، وأصحاب الكهف، ولقمان، وأمثال الذين أثنى الله عليهم في القرآن من السابقين من هذه الأمة، الذين أخبرَ عن رضاهم عنهم مطلقًا، من المهاجرين والأنصار، كما قال تعالى: ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ مِنَ ٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحْسَٰنٍ رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِي تَحْتَهَا

ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًاۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾ [سورة التوبة، من الآية:١٠٠].

وأهل هذه الوَلاية هم المعنيون بقول الله تعالى: ﴿أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ۝٦٢ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ ۝٦٣ لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِي ٱلْأٓخِرَةِۚ لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾ [سورة يونس، من الآية:٦٢-٦٤].

وعلى هؤلاء يحمل حديث أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **"إِنَّ اللهَ قَالَ: مَنْ عَادَى لِي وَلِيًّا فَقَدْ آذَنْتُهُ بِالحَرْبِ، وَمَا تَقَرَّبَ إِلَيَّ عَبْدِي بِشَيْءٍ أَحَبَّ إِلَيَّ مِمَّا افْتَرَضْتُ عَلَيْهِ، وَمَا يَزَالُ عَبْدِي يَتَقَرَّبُ إِلَيَّ بِالنَّوَافِلِ حتّى أُحِبَّهُ، فَإِذَا أَحْبَبْتُهُ، كُنْتُ سَمْعَهُ الَّذِي يَسْمَعُ بِهِ، وَبَصَرَهُ الَّذِي يُبْصِرُ بِهِ، وَيَدَهُ الَّتِي يَبْطِشُ بِهَا، وَرِجْلَهُ الَّتِي يَمْشِي بِهَا، وَإِنْ سَأَلَنِي لَأُعْطِيَنَّهُ، وَلَئِنِ اسْتَعَاذَنِي لَأُعِيذَنَّهُ، وَمَا تَرَدَّدْتُ عَنْ شَيْءٍ أَنَا فَاعِلُهُ تَرَدُّدِي عَنْ نَفْسِ المُؤْمِنِ، يَكْرَهُ المَوْتَ وَأَنَا أَكْرَهُ مَسَاءَتَهُ"** [رواه البخاري].

القسم الثّاني: مَن له نوعُ وَلاية، وهي متفاوتة بتفاوت درجات إيمانهم، زيادة ونقصانا، فلهم وَلاية الإسلام، قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ ءَاوَواْ وَّنَصَرُوٓاْ أُوْلَٰٓئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍۚ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمْ يُهَاجِرُواْ مَا لَكُم مِّن وَلَٰيَتِهِم مِّن شَيْءٍ حَتَّىٰ يُهَاجِرُواْۚ وَإِنِ ٱسْتَنصَرُوكُمْ فِي ٱلدِّينِ فَعَلَيْكُمُ ٱلنَّصْرُ إِلَّا عَلَىٰ قَوْمِۭ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَٰقٌۗ وَٱللَّهُ بِمَا

تَعۡمَلُونَ بَصِيرٞ﴾ [سورة الأنفال، من الآية:٧٢]، وهذه الآية في أولها الوَلاية المطلقة لأهل الإيمان الكمل من المهاجرين والأنصار، ثم وَلاية الإسلام للذين خالفوا أمر الله تعالى ولم يهاجروا، وأنه يجب نصرتهم، وإذا كان يجب علينا نصرتهم؛ فمعنى ذلك أن لهم نوع ولاية من الله تعالى.

وهؤلاء لهم وَلاية من وجه الإيمان، وعداوَة من جهة المعاصي؛ فهم مبغضون من وجه ما عندهم من البدع والمعاصي الّتي كانت سببًا في نقصان إيمانهم، ومحبوبون من جهة ما عندهم من السنة والطاعة الّتي كانت سببًا في إسلامهم، وبقائهم في دائرة الإسلام.

وأهل السنة يثبتون أن المؤمن يُحَبُّ من الله تعالى من وجهِ الإسلام، ويُبْغَضُ مِن وجه ما عنده من المعاصي، خلافًا للمرجئة الذين أثبتوا له المحبة الكاملة من الله تعالى، وخلافًا للمعتزلة الذين لا يثبتون للفاسق الملي أيُّ محبة ومودة من الله تعالى.

ويترتب على هذا وَلاية المؤمنين بعضهم لبعضٍ؛ فإن أهل الوَلاية المطلقة يحبون مطلقًا، ويحبون على وجه تام في الله ولله تعالى، وأهل الوَلاية الناقصة يحبون من وجه، ويبغضون من وجه.

وبهذا ندرِك أنه لا يجوز أن يكون لنا أيُّ محبة ووَلايةٍ ووِلايَةٍ للكفار بأي وجه من الوجوه، وأما أهل البدع والمعاصي؛ فمحبتهم ووَلايتهم ووِلايتهم بحسب ما عندهم من السنة والطاعة.

ويحمل كلام المصنّف رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **"والمؤمنون كلهم أولياء الرحمن"** على هذا النوع من الوَلاية، وهي الوَلاية المقيدة؛ فتكون عبارته موافقة لمنهج السلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ، وهذا هو الظّنّ فيه؛ فإنّا مأمورون بإحسان الظن بالسّالفين، واتهام أفهامنا فيما قد يفهم من الخطأ من عباراتهم، وما يحكى من أحوالهم.

فكل مؤمنٍ فهو وليٌّ، وله الوَلاية بقدر إيمانه، من **"الرّحمن"** تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ، ومن رحمته تعالى اتخاذه المؤمنين أولياءَ؛ فلكونه الرحمن لا يجعل أعداءه كأوليائه.

وقوله: **"وأكرمهم عند الله أطوعهم"** أي أن أعظم الأولياءِ درجة، وأكثرهم رِفعة عنده، ونيلًا لوَلاية الله تعالى، وإكرامًا من الله تعالى له، هو **"أطوعهم"** أي أكثرهم طاعة لله تعالى، كما سبق في الحديث القدسي الّذي رواه أبو هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ عن النّبيّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وفيه: **"وَمَا يَزَالُ عَبْدِي يَتَقَرَّبُ إِلَيَّ بِالنَّوَافِلِ حتّى أُحِبَّه"**؛ فكلما كان العبد أطوع، كلما كان للوَلاية المطلقة أقرب، وكلما كان للشرع أعظم امتثالا كلما كان أعظم إكرامًا؛ فالمراتب العالية من الوَلاية والكرامة إنما هي لأهل المراتب العالية في الشريعة، والدّيانة والعلمِ والعمل.

وفيه دلالة على صحة مذهب السلف من التفاضل؛ حيث دل لفظة **"أكرم"** أن هناك مُكْرَمًا وَأَكْرَم، ومَن ليس بِمُكْرَمٍ إِمَّا مُطْلَقًا؛ كالكفار، أو مِن وَجْهٍ؛ كحالِ أهلِ البدع والمعاصي.

وفي قوله: **"أتبعهم للقرآن"** دليلٌ على أهمية الاتباع، وأن اتباع المنزل سببٌ لنيل الكرامة والوَلاية، وأنه بقدر ذلك يعظم المؤمن ويُجَلّ عند الله تعالى،

ومعنى "**أتبعهم**" أي أكثرهم وأعظمهم اتباعًا.

وأصل (**الاتباع**) السير على خطا المتبوعِ، ومنواله، والإلحاق به، وعدم الالتفات إلى غيره.

ومعنى اتباع القرآن: العلمُ به، والعمل وَفق مدلولاته، سواءٌ في باب الأعمال القلبية، أو الظاهرية، أو القولية.

ومن اتباع القرآن اتباع السنة -كما مرَّ- ولهذا ذكر الله تعالى المتبعين بوصفٍ، وهو كونهم يتبعون القرآن، ويتبعون السنة، ويتبعون مَن سلف بإحسان.

قال الله تعالى في اتباع القرآن: ﴿الٓمٓصٓ ١ كِتَٰبٌ أُنزِلَ إِلَيۡكَ فَلَا يَكُن فِي صَدۡرِكَ حَرَجٞ مِّنۡهُ لِتُنذِرَ بِهِۦ وَذِكۡرَىٰ لِلۡمُؤۡمِنِينَ ٢ ٱتَّبِعُواْ مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكُم مِّن رَّبِّكُمۡ وَلَا تَتَّبِعُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوۡلِيَآءَۗ قَلِيلٗا مَّا تَذَكَّرُونَ﴾ [سورة الأعراف، من الآية:١-٣].

وقال سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ في اتباع السنة: ﴿وَجَآءَ مِنۡ أَقۡصَا ٱلۡمَدِينَةِ رَجُلٞ يَسۡعَىٰ قَالَ يَٰقَوۡمِ ٱتَّبِعُواْ ٱلۡمُرۡسَلِينَ ٢٠ ٱتَّبِعُواْ مَن لَّا يَسۡـَٔلُكُمۡ أَجۡرٗا وَهُم مُّهۡتَدُونَ﴾ [سورة يس، من الآية:٢٠-٢١].

وقال جلّ في علاه في اتباع السلف: ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلۡأَوَّلُونَ مِنَ ٱلۡمُهَٰجِرِينَ وَٱلۡأَنصَارِ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحۡسَٰنٖ رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمۡ وَرَضُواْ عَنۡهُ وَأَعَدَّ لَهُمۡ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي تَحۡتَهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدٗاۚ ذَٰلِكَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ﴾ [سورة التوبة، من الآية:١٠٠].

وهذه الآيات كلها فيها دلالة صريحة على أن وَلاية الله تعالى لا تنال إلا بالاتباع للكتاب والسنة، وطريقة سلف الأمة، ولهذا قال تعالى في المخالفين لهم: ﴿وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعۡدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلۡهُدَىٰ وَيَتَّبِعۡ غَيۡرَ سَبِيلِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصۡلِهِۦ جَهَنَّمَۖ وَسَآءَتۡ مَصِيرًا﴾ [سورة النساء، من الآية:١١٥].

وخلاصة دلالة كلام المصنّف رَحِمَهُ ٱللَّهُ: أن ولاية الله تعالى للمؤمنين ثابتة، وأنها كرامةٌ من الله تعالى لأهل الولاية، وهم في هذه الولاية متفاوتون بتفاوت أعمالهم واتباعهم للمنزل.

❀❀❀

[أركان الإيمان الشرعي الست]

وَإِنَّ الْإِيـمَانَ هُوَ: الْإِيـمَانُ بِاللهِ تَعَالَى، وَمَلَائِكَتِهِ، وَكُتُبِهِ ، وَرُسُلِهِ، وَالْيَوْمِ الْآخِرِ، وَالْبَعْثِ بَعْدَ الْمَوْتِ، وَبِـالْقَدَرِ كُلِّهِ خَيْرِهِ وَشَرِّهِ، وَحُلْوِهِ وَمُرِّهِ، مِنَ اللهِ تَعَالَى.

وَنَحْنُ مُؤْمِنُونَ بِذَلِكَ كُلِّهِ، وَلَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ، وَنُصَدِّقُهُمْ كُلُّهُمْ عَلَى مَا جَاءُوا بِهِ.

﴿ الشرح ﴾

هذا تقرير من المصنف رَحِمَهُ ٱللَّهُ في بيان أركان الإيمان الشرعي، وأنها ستّة أركان، ووجوب الإيمان بها كلها.

وقوله: "**والإيمان: هو بالله، وملائكته، وكتبه، ورسله، واليوم الآخر، والقدر خيره وشره، وحلوه ومره من الله تعالى**" هذا تأكيد لماهية المؤمَن به، وبيان أركان الإيمان السّتّة، وذَكَرَهُ مُرَتَّبًا كما في حديث جبريل المشهور -وقد سبق- وفيه: "**الْإِيمَان: أَنْ تُؤْمِنَ بِاللهِ، وَمَلَائِكَتِهِ، وَكُتُبِهِ، وَرُسُلِهِ، وَالْيَوْمِ الْآخِرِ، وَتُؤْمِنَ بِالْقَدَرِ كلِّه**" [رواه البخاري، ومسلم، وهذا لفظه، من حديث أبي هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ].

وهذه الأركان الستة قد جاءت في كتاب الله تعالى، في عدة مواضع مجموعة، وفي مواضع مفردة، ومنها قول الله تعالى: ﴿ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيۡنَ

أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِۦۚ وَقَالُواْ سَمِعۡنَا وَأَطَعۡنَاۖ غُفۡرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيۡكَ ٱلۡمَصِيرُ﴾ [سورة البقرة، من الآية:٢٨٥]، وقال سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ ءَامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱلۡكِتَٰبِ ٱلَّذِي نَزَّلَ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَٱلۡكِتَٰبِ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ مِن قَبۡلُۚ وَمَن يَكۡفُرۡ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ فَقَدۡ ضَلَّ ضَلَٰلَۢا بَعِيدًا﴾ [سورة النساء، من الآية:١٣٦]، وقال جلّ في علاه: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱلۡبِرَّ مَنۡ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلۡكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾ [سورة البقرة، من الآية:١٧٧]، وقال عَزَّوَجَلَّ: ﴿مَنۡ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَعَمِلَ صَٰلِحٗا فَلَهُمۡ أَجۡرُهُمۡ عِندَ رَبِّهِمۡ وَلَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ﴾ [سورة البقرة، من الآية:٦٢]، وقال تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: ﴿إِنَّ ٱلۡمُجۡرِمِينَ فِي ضَلَٰلٖ وَسُعُرٖ ٤٧ يَوۡمَ يُسۡحَبُونَ فِي ٱلنَّارِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمۡ ذُوقُواْ مَسَّ سَقَرَ ٤٨ إِنَّا كُلَّ شَيۡءٍ خَلَقۡنَٰهُ بِقَدَرٖ﴾ [سورة القمر، من الآية:٤٧-٤٩].

ومن لم يقر بأحدِ أركان الإيمان الستة فليس بمؤمن؛ لأنه لا بد من الإقرار بها كلها، حتّى ينال العبدُ أصل الإيمان، ويدخل في الإسلام، وهذه الأركان مرتبة ترتيبا معقولًا، وذلك أن أصل الإيمان بالله تعالى؛ فكان لا بد من أولية الإيمان به سبحانه، ثم الإيمان بالملائكة الذين هم الرسل بين الله وبين عباده، وهؤلاء الرسل إنما يأتون بأوامر الله تعالى، وينزلون كتبه، وهذه الكتب تُنَزَّل على الرُّسُلِ عَلَيۡهِمُ ٱلسَّلَامُ، وفي رسالاتهم الاستعداد لليوم الآخر، والعمل لمثل هذا اليوم، الّذي فيه نتائج امتحانات العباد، واليقين الجازم بأن كلّ شيء قد تم، ويتم؛ فإنما

ذلك بقدر الله تعالى.

وهذه الأركان الستة كلّ ركنٍ منها لها مدلولٌ، وأركانٌ، ومقتضيات، وقد سبق ذكرُ شيءٍ من ذلك، ونذكر هنا ما لم نذكره قبلُ؛ فأقول:

مدلول آمنت بالله: الإقرار بأنه وحده المعبود بحقٍّ، والربُّ العظيم، وهو منطوق شهادة أن لا إله إلا الله، أي لا معبود حقٌّ إلا الله الرب العظيم.

وأركان الإيمان بالله تعالى ثلاثة، وهي:

الرّكن الأوّل: الإيمان بربوبية الله تعالى، وأنه هو وحده ربُّ كلّ شيء، وأنه وحده الخالقُ، الرزّاق، المالِك، المدبر، قال الله تعالى: ﴿قُلۡ أَغَيۡرَ ٱللَّهِ أَبۡغِي رَبّٗا وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَيۡءٖۚ﴾ [سورة الأنعام، من الآية:١٦٤]، وقال سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٖ ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰ عَلَى ٱلۡعَرۡشِۖ يُغۡشِي ٱلَّيۡلَ ٱلنَّهَارَ يَطۡلُبُهُۥ حَثِيثٗا وَٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَ وَٱلنُّجُومَ مُسَخَّرَٰتِۭ بِأَمۡرِهِۦٓۗ أَلَا لَهُ ٱلۡخَلۡقُ وَٱلۡأَمۡرُۗ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ [سورة الأعراف، من الآية:٥٤]، وقال جَلَّ وَعَلَا: ﴿قُل لِّمَنِ ٱلۡأَرۡضُ وَمَن فِيهَآ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ﴿٨٤﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِۚ قُلۡ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٨٥﴾ قُلۡ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلسَّبۡعِ وَرَبُّ ٱلۡعَرۡشِ ٱلۡعَظِيمِ ﴿٨٦﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِۚ قُلۡ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٨٧﴾ قُلۡ مَنۢ بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيۡءٖ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيۡهِ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ﴿٨٨﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِۚ قُلۡ فَأَنَّىٰ تُسۡحَرُونَ﴾ [سورة المؤمنون، من الآية:٨٤-٨٩].

والدليل على ربوبية الله تعالى عدة أمورٍ، ومنها:

أولًا: عدم وجود المنازع في الدعوى والقضية؛ فإن خلو الأمر عن المنازع دليل على صحة الدعوى؛ فلو قال شخصٌ في مجمع من أهل قريته هذا البيت لي؛ فسكتوا جميعًا؛ لدلنا ذلك أنه صادقٌ.

ومن هنا ندرك أن ادعاء فرعون الخالقية إنما هو دعوى للتشغيب، وإلا فهو في نفسه يعلم كذب ذلك، ومن حوله يعلمون كذبه، من ثلاث جهاتٍ، **الأوّل**: أنه لا يملك كلّ شيءٍ؟ فكيف يكون ربًّا؟ وغاية ما عنده مُلك مصرَ. **الثّاني**: أنه لا يملك الزمن الماضي قبل وجوده، فكيف يكون ربًّا؟ مع كونه لا يقدر على التصرف في زمانه. **الثّالث**: أنه لا يملك كلّ مكانٍ من المشارق والمغارب؛ فكيف يكون ربًّا؟ ولذلك فإن موسى عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ بين له في جواب فرعون أن الرب لا بد وأن يكون رب كلّ شيءٍ، وكلّ زمانٍ، ومشرقٍ ومغربٍ؛ فقال: ﴿قَالَ فِرۡعَوۡنُ وَمَا رَبُّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ۝٢٣ قَالَ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا بَيۡنَهُمَآۖ إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ ۝٢٤ قَالَ لِمَنۡ حَوۡلَهُۥٓ أَلَا تَسۡتَمِعُونَ ۝٢٥ قَالَ رَبُّكُمۡ وَرَبُّ ءَابَآئِكُمُ ٱلۡأَوَّلِينَ ۝٢٦ قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمُ ٱلَّذِيٓ أُرۡسِلَ إِلَيۡكُمۡ لَمَجۡنُونٞ ۝٢٧ قَالَ رَبُّ ٱلۡمَشۡرِقِ وَٱلۡمَغۡرِبِ وَمَا بَيۡنَهُمَآۖ إِن كُنتُمۡ تَعۡقِلُونَ﴾

[سورة الشعراء، من الآية:٢٣-٢٨].

ثانيًا: دليل السبرِ والتقسيم العقلي فهو دليل على خالقية الله تعالى، فإن الشيء إما أن يكون مصنوعًا بلا صانع!؟ فهذا ممتنع عقلًا. أو يكون مصنوعًا وهو صنع نفسه؟ وهذا ممتنع فكيف للمعدوم أن يوجد نفسه؟ أو يكون هناك من هو غيرُ

موصوفٍ بصفة المخلوقية، له الكمالات والأزلية هو الخالقُ، وهذا هو المتعين في دلالة السبر والتقسيم، كما قال سبحانه: ﴿أَمْ خُلِقُوا۟ مِنْ غَيْرِ شَىْءٍ أَمْ هُمُ ٱلْخَٰلِقُونَ ﴿٣٥﴾ أَمْ خَلَقُوا۟ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ ۚ بَل لَّا يُوقِنُونَ﴾ [سورة الطور، من الآية:٣٥-٣٦].

ثالثًا: دليل التمانع ظاهر الدلالة على خالقية الله تعالى، وذلك أنه لو كان هناك عدة خالقين للزم تنافر الخالقين، وغلبة أحدهم، فالغالب يكون خالقًا، والمغلوب لا يكون خالقًا، أو توافقهم، وهذا التوافق إما أن يكون لخوفٍ، فالخائف لا يصلح أن يكون خالقًا، أو لإكمال نقصٍ، فالناقص لا يكون خالقًا؛ فتعين بدليل التمانع أن الخالق هو الله تعالى وحده الكامل الحميد، كما قال سبحانه: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا ۚ فَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ [سورة الأنبياء، من الآية:٢٢].

رابعًا: دلالة الآثار؛ فإن المفعولات دليل على وجود الفاعل، وكلّ من نظر بعين بصيرةٍ في الموجودات علم أن هناك واجدًا لها، وأن هذه الموجودات لا يمكن أن تكون وُجدَت مادتها صدفة، أو أن التكوين فيها يوجد صدفة، قال الله تعالى: ﴿أَمْ جَعَلُوا۟ لِلَّهِ شُرَكَآءَ خَلَقُوا۟ كَخَلْقِهِۦ فَتَشَٰبَهَ ٱلْخَلْقُ عَلَيْهِمْ ۚ قُلِ ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ وَهُوَ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّٰرُ ﴿١٦﴾ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌۢ بِقَدَرِهَا فَٱحْتَمَلَ ٱلسَّيْلُ زَبَدًا رَّابِيًا ۚ وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِى ٱلنَّارِ ٱبْتِغَآءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَٰعٍ زَبَدٌ مِّثْلُهُۥ ۚ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْحَقَّ

وَٱلۡبَٰطِلَۚ فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ فَيَذۡهَبُ جُفَآءٗۖ وَأَمَّا مَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ فَيَمۡكُثُ فِي ٱلۡأَرۡضِۚ كَذَٰلِكَ يَضۡرِبُ ٱللَّهُ ٱلۡأَمۡثَالَ﴾ [سورة الرعد، من الآية:١٦-١٧].

خامسًا: دلالة بديع الصُّنْعَة؛ فإن دقة المخلوقات، وعظيم صنعتها، والنظام البديع السائر فيها، وأن كلّ شيء مرتب على سببٍ بدقة عالية، وتقنيات خفية وظاهرة باهرة، كلّ ذلك يدل على وجود الخالق وفردانيته تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ، قال سبحانه: ﴿سَبِّحِ ٱسۡمَ رَبِّكَ ٱلۡأَعۡلَى ۝١ ٱلَّذِي خَلَقَ فَسَوَّىٰ ۝٢ وَٱلَّذِي قَدَّرَ فَهَدَىٰ ۝٣ وَٱلَّذِيٓ أَخۡرَجَ ٱلۡمَرۡعَىٰ ۝٤ فَجَعَلَهُۥ غُثَآءً أَحۡوَىٰ﴾ [سورة الأعلى، من الآية:١-٥]، وقال سبحانه: ﴿وَءَايَةٞ لَّهُمُ ٱلَّيۡلُ نَسۡلَخُ مِنۡهُ ٱلنَّهَارَ فَإِذَا هُم مُّظۡلِمُونَ ۝٣٧ وَٱلشَّمۡسُ تَجۡرِي لِمُسۡتَقَرّٖ لَّهَاۚ ذَٰلِكَ تَقۡدِيرُ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡعَلِيمِ ۝٣٨ وَٱلۡقَمَرَ قَدَّرۡنَٰهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَٱلۡعُرۡجُونِ ٱلۡقَدِيمِ ۝٣٩ لَا ٱلشَّمۡسُ يَنۢبَغِي لَهَآ أَن تُدۡرِكَ ٱلۡقَمَرَ وَلَا ٱلَّيۡلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِۚ وَكُلّٞ فِي فَلَكٖ يَسۡبَحُونَ﴾ [سورة يس، من الآية:٣٧-٤٠].

سادسًا: إجماع عقلاء العالَم على ربوبية الله تعالى، ومن ذلك اتفاق الرسل، وجميع العقلاء، قبل وجود الدهريين، وقبل وجود الملاحدة، قبل وجود نمرود، وقبل وجود فرعون، وقبل وجود الشيوعيين؛ فلا عبرة إذا بقولٍ شاذٍّ أجمع العقلاء على خلافه.

سابعًا: التواتر الوارد عن الأنبياء والرسل؛ فإنهم متفقون في العقائد، ومقرون بربوبية الله تعالى.

ثامنًا: إرسال الرسل، وإنزال الكتب، واتفاق الشرائع في العقائد، دليلٌ على وجود الرب تَبَارَكَوَتَعَالَى، ودليل على ربوبيته تَبَارَكَوَتَعَالَى.

تاسعًا: الفطرُ السوية؛ فما من فطرةٍ إلا وتجدها عند الضرورة تلجأ إلى من أوجد السّماء والأرض، وتتضرع إليه عند الملمات، وتدرك في نفسها أنه لا ملجأ له إلا بقدرة من بيده ملكوت السماوات والأرض.

عاشرًا: التخصيص؛ فإن الإنسان إذا نظر إلى ما حوله، ورأى التخصصات، والتخصيصات؛ فإنه يدرك أن هناك ربًّا هو الّذي بيده هذا التخصص؛ فيعطي فلانًا عقلًا، وآخر مالًا، وآخر جمالًا، وآخر يقيمه على قدميه، وآخر يمشيه على أربع، وآخر يمشيه على بطنه، وآخر يُنْشِئُه طورًا بعد طورٍ.

الحادي عشر: نصر الأنبياء والمرسلين، وإهلاك أعدائهم الكفرة والملحدين، والمشركين، وهذا من أعظم الأدلة المسموعة على وجود الرب تَبَارَكَوَتَعَالَى، وعلى ربوبيته تَبَارَكَوَتَعَالَى، ولهذا لما ذكر الله تعالى إهلاك الكافرين ذكر اسمين دالين على وصفين من أوصاف الرب تَبَارَكَوَتَعَالَى، وهما: العزة، والرحمة؛ فقال تعالى في سورة الشعراء بعد كلّ هلاك للكافرين، ونجاة للمؤمنين: ﴿وَأَنجَيْنَا مُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓ أَجْمَعِينَ ﴿٦٥﴾ ثُمَّ أَغْرَقْنَا ٱلْـَٔاخَرِينَ ﴿٦٦﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٦٧﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [سورة الشعراء، من الآية: ٦٥-٦٨].

الثاني عشر: التشريعات الإلهية، وعظيم ما فيها من الحِكَم، والعدل.

هذه بعض الأدلة المتوافرة على وجود الله تعالى، وعلى ربوبيته تَبَارَكَوَتَعَالَى، ويكفي من القلادة ما أحاط بالعنق.

وإثبات الرّبوبيّة لله تعالى والإقرار به يلزم منه الإقرار بألوهية الله تعالى، ولهذا نجد أن الله تعالى كثيرا ما يذكر توحيد الرّبوبيّة ويلزم المخالفين في توحيد الألوهية به، وذلك لأنه لا يمكن عقلًا أن تقر بأن الله خالقك ورازقك ومالكك ومدبر أمرك ثم تعبد غيره!؟ ومن هنا كان الشرك أَسْفَهُ السَّفَهِ، وأعظم ظلمٍ وذنبٍ، وأشنع شيء في الوجود، قال الله تعالى: ﴿وَمَن يَرۡغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبۡرَٰهِـۧمَ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفۡسَهُۥ﴾ [سورة البقرة، من الآية:١٣٠]، وقال سبحانه: ﴿وَإِذۡ قَالَ لُقۡمَٰنُ لِٱبۡنِهِۦ وَهُوَ يَعِظُهُۥ يَٰبُنَيَّ لَا تُشۡرِكۡ بِٱللَّهِۖ إِنَّ ٱلشِّرۡكَ لَظُلۡمٌ عَظِيمٞ﴾ [سورة لقمان، من الآية:١٣].

الرّكن الثّاني: الإيمان بألوهية الله تعالى، وأنه هو وحده المستحق للتألُّه، والتعبد، والطاعة، وأن يصرف له كلّ نوعٍ، وكلّ فردٍ من أفراد العبادة، قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعۡبُدُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُمۡ وَٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ﴾ [سورة البقرة، من الآية:٢١].

ودليل استحقاق الله تعالى وحده للعبادة ما سبق من أدلة الرّبوبيّة؛ فإن الرب وحده هو الّذي يستحق التأله والتعبد، ولا يليق بعاقل أن يعلم أنه مملوكٌ للرب تَبَارَكَوَتَعَالَى ثم يطيع سيدًا آخر غير ربه، كما لا يليق بعبدٍ أن يطيع غير سيده، ومما يدل على أن التعبد حقٌّ محضٌ لله تَبَارَكَوَتَعَالَى الأدلة المتوافرة، ومنها:

أوّلًا: كلّ دليل على ربوبية الله تعالى؛ فهو دليل على ألوهية الله تعالى، لما بينهما من التلازم.

ثانيًا: إذا استحال وجودُ خالقٍ غير الله تعالى؛ فيستحيل وجود إله غير الله تعالى، ولهذا الدليل ساق الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ دليل التمانع في أدلة الألوهية فقال عز من قائل: ﴿أَمِ ٱتَّخَذُوٓاْ ءَالِهَةً مِّنَ ٱلۡأَرۡضِ هُمۡ يُنشِرُونَ ﴿٢١﴾ لَوۡ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَاۚ فَسُبۡحَٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلۡعَرۡشِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٢٢﴾ لَا يُسۡـَٔلُ عَمَّا يَفۡعَلُ وَهُمۡ يُسۡـَٔلُونَ﴾ [سورة يونس، من الآية:٢١-٢٣].

ثالثًا: أن كلّ من زَعَم أنه إلهٌ، أو أنه له حق التأله؛ فإنا نجده في الواقعِ مخلوقًا؛ فكيف يكون المخلوق مألوهًا؟

رابعًا: أنه لا يوجد دليل على تأليه غير الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ، قال الله سبحانه: ﴿أَمِ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةًۖ قُلۡ هَاتُواْ بُرۡهَٰنَكُمۡۖ هَٰذَا ذِكۡرُ مَن مَّعِيَ وَذِكۡرُ مَن قَبۡلِيۚ بَلۡ أَكۡثَرُهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ ٱلۡحَقَّۖ فَهُم مُّعۡرِضُونَ﴾ [سورة الأنبياء، من الآية:٢٤].

خامسًا: عدمُ وجودِ من يقول إنه الخالق غير الله تعالى دليل على أن كلّ من يقول إنه إله فذلك زعمٌ باطل، وقول زاهق، قال الله تعالى: ﴿وَجَعَلُواْ لِلَّهِ شُرَكَآءَ قُلۡ سَمُّوهُمۡۚ أَمۡ تُنَبِّـُٔونَهُۥ بِمَا لَا يَعۡلَمُ فِي ٱلۡأَرۡضِ أَم بِظَٰهِرٖ مِّنَ ٱلۡقَوۡلِۗ بَلۡ زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُواْ مَكۡرُهُمۡ وَصُدُّواْ عَنِ ٱلسَّبِيلِۗ وَمَن يُضۡلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنۡ هَادٖ﴾ [سورة الرعد، من الآية:٣٣].

سادسًا: كما أنا لا نرضى أن يكون مملوكينا شركاء لنا في مُلْكِنَا فكذلك لا نرضى أن يكون مملوكينا شركاء لنا في أمرنا ونهينا؛ فالله تعالى لا يرضى أن يكون أي مملوكٍ شريكًا له في أمره ونهيه، قال تعالى: ﴿ضَرَبَ لَكُم مَّثَلًا مِّنْ أَنفُسِكُمْ ۖ هَل لَّكُم مِّن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُم مِّن شُرَكَاءَ فِي مَا رَزَقْنَاكُمْ فَأَنتُمْ فِيهِ سَوَاءٌ تَخَافُونَهُمْ كَخِيفَتِكُمْ أَنفُسَكُمْ ۚ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ [سورة الروم، من الآية:٢٨].

سابعًا: اتفاق الرسل على أن الله تعالى وحده هو الّذي يستحق العبادة دون من سواه، ولذلك ذكر الله تعالى عن كلّ نبي أنه قال لقومه: ﴿يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ﴾ [سورة الأعراف، من الآية:٥٩].

ثامنًا: إهلاك الله تعالى للمشركين، وإنجاؤه الموحدين دليل على ألوهيته تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ وحده، قال سبحانه عن مشركي قوم نوحٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿فَكَذَّبُوهُ فَأَنجَيْنَاهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ فِي الْفُلْكِ وَأَغْرَقْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا عَمِينَ﴾ [سورة الأعراف، من الآية:٦٤].

تاسعًا: أخبار الله تعالى بأن من ادعى إلهً غير الله تعالى فإنه مشركٌ كافر، كما قال سبحانه: ﴿لَّقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ ۘ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّا إِلَٰهٌ وَاحِدٌ ۚ وَإِن لَّمْ يَنتَهُوا عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [سورة المائدة، من الآية:٧٣].

عاشرًا: كمال صفات الرب تَبَارَكَ وَتَعَالَى، ومن ذلك صفاته الّتي تتعلق بالألوهية، مثلُ كونه: غفورًا، رحيمًا، كريمًا، عزيزًا، عظيمًا، حميدًا، ونحو ذلك، قال تعالى: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُۚ لَا تَأۡخُذُهُۥ سِنَةٞ وَلَا نَوۡمٞۚ...﴾ [سورة البقرة، من الآية:٢٥٥]، وقال تعالى: ﴿وَمَا مِنۡ إِلَٰهٍ إِلَّا ٱللَّهُۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ﴾ [سورة آل عمران، من الآية:٦٢].

الحادي عشر: إخباره بأن أحدًا غير الله تعالى لا يملك ضرًا ولا نفعًا؛ فكيف يؤلَّه، قال تعالى: ﴿قُلۡ أَرَءَيۡتُمۡ إِنۡ أَخَذَ ٱللَّهُ سَمۡعَكُمۡ وَأَبۡصَٰرَكُمۡ وَخَتَمَ عَلَىٰ قُلُوبِكُم مَّنۡ إِلَٰهٌ غَيۡرُ ٱللَّهِ يَأۡتِيكُم بِهِۗ ٱنظُرۡ كَيۡفَ نُصَرِّفُ ٱلۡأٓيَٰتِ ثُمَّ هُمۡ يَصۡدِفُونَ ۝٤٦ قُلۡ أَرَءَيۡتَكُمۡ إِنۡ أَتَىٰكُمۡ عَذَابُ ٱللَّهِ بَغۡتَةً أَوۡ جَهۡرَةً هَلۡ يُهۡلَكُ إِلَّا ٱلۡقَوۡمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ [سورة الأنعام، من الآية:٤٦-٤٧].

الثاني عشر: إخبار الله تعالى بأن خيرة خلقه ليس لهم شيء من العبادة، والتأله، وهم الملائكة، والأنبياء والمرسلون، قال تعالى: ﴿مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُؤۡتِيَهُ ٱللَّهُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحُكۡمَ وَٱلنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُواْ عِبَادٗا لِّي مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَٰكِن كُونُواْ رَبَّٰنِيِّـۧنَ بِمَا كُنتُمۡ تُعَلِّمُونَ ٱلۡكِتَٰبَ وَبِمَا كُنتُمۡ تَدۡرُسُونَ ۝٧٩ وَلَا يَأۡمُرَكُمۡ أَن تَتَّخِذُواْ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةَ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ أَرۡبَابًاۗ أَيَأۡمُرُكُم بِٱلۡكُفۡرِ بَعۡدَ إِذۡ أَنتُم مُّسۡلِمُونَ﴾ [سورة آل عمران، من الآية:٧٩-٨٠]، وقال تعالى: ﴿وَإِذۡ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبۡنَ مَرۡيَمَ

ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِۖ قَالَ سُبْحَٰنَكَ مَا يَكُونُ لِيٓ أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّۚ إِن كُنتُ قُلْتُهُۥ فَقَدْ عَلِمْتَهُۥۚ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَآ أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَۚ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ ﴿١١٦﴾ مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَآ أَمَرْتَنِي بِهِۦٓ أَنِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْۚ وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْۖ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنتَ أَنتَ ٱلرَّقِيبَ عَلَيْهِمْۚ وَأَنتَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴿١١٧﴾ إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَۖ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾

[سورة المائدة، من الآية:١١٦-١١٨].

والأدلة متوافرة في أنه لا أحد يستحق العبادة غير الله تعالى؛ فكما أنه هو رب كلّ شيء؛ فكذلك يجب أن يكون هو معبود كلّ شيء، وكما لا يجوز اعتقاد ربّ غير الله تعالى؛ فكذلك لا يجوز اعتقادُ إلهٍ معبودٍ غير الله تعالى.

ومما يدل على ألوهيته تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ أسماؤه وصفاته، وهو الركن الثالث من أركان قول: آمنت بالله.

الرّكن الثّالث: الإيمان بأسماء الله تعالى وصفاته، وأنه سبحانه له الأسماء الحسنى، والصّفات العليا، وأنه ليس كمثله شيء، وأنه أحدٌ صمدٌ، ونحو ذلك، من الأسماء والصّفات، قال الله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَاۖ وَذَرُواْ ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِيٓ أَسْمَٰٓئِهِۦۚ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾ [سورة الأعراف، من الآية:١٨٠]، وقال سبحانه: ﴿قُلِ ٱدْعُواْ ٱللَّهَ أَوِ ٱدْعُواْ ٱلرَّحْمَٰنَۖ أَيًّا مَّا تَدْعُواْ فَلَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰۚ وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتْ بِهَا وَٱبْتَغِ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا ﴿١١٠﴾ وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي لَمْ يَتَّخِذْ

وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِي ٱلْمُلْكِ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ وَلِيٌّ مِّنَ ٱلذُّلِّ وَكَبِّرْهُ تَكْبِيرًا﴾ [سورة الإسراء، من الآية:١١٠-١١١]، وقال سبحانه: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ ۝٥ لَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَمَا تَحْتَ ٱلثَّرَىٰ ۝٦ وَإِن تَجْهَرْ بِٱلْقَوْلِ فَإِنَّهُۥ يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ وَأَخْفَى ۝٧ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾ [سورة طه، من الآية:٥-٨].

وقال سبحانه: ﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِي لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ ۝٢٢ هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِي لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْمَلِكُ ٱلْقُدُّوسُ ٱلسَّلَٰمُ ٱلْمُؤْمِنُ ٱلْمُهَيْمِنُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْجَبَّارُ ٱلْمُتَكَبِّرُ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ۝٢٣ هُوَ ٱللَّهُ ٱلْخَٰلِقُ ٱلْبَارِئُ ٱلْمُصَوِّرُ لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ يُسَبِّحُ لَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [سورة الحشر، من الآية:٢٢-٢٤]، وقال جل في علاه في السورة الّتي تعدل ثلث القرآن: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ۝٢ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۝٣ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ﴾ [سورة الإخلاص، من الآية:١-٤].

وكانت سورة الإخلاص تعدل ثلث القرآن، وذلك لأن القرآن إما خبرٌ عن الله تعالى؛ فهذا ثلثٌ، وإما خبرٌ عن البشر وهذا ثلثٌ، وإما خبر عن أحكامه وثوابه وعقابه، وهذا ثلث.

فمن قال: آمنت بالله فعليه بمعرفة مدلول الكلمة، وأركانها، وأما مقتضاها؛ فهي اعتقاد أن الله هو وحده الرب، وأن العبادة لله وحده لا شريك له، وإظهار العبودية له سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، وإظهار تعظيمه بمقتضى أسمائه وصفاته.

وأما الإيمان بالملائكة قد سبق تقريره، وكذلك الإيمان بالرسل، وبالكتب.

وأما الإيمان باليوم الآخر فإن مدلول قولنا: آمنت باليوم الآخر؛ أي أقر بأن هناك يوما آخِرًا، هو يوم القيامة، وفيه البعث والحشر والحساب.

والإيمان باليوم الآخر مبناه على ركنين:

الرّكن الأوّل: الإقرار بالبعث والنشور، وما يتبعه من الأمور.

الرّكن الثّاني: الاعتقاد بفناء هذه الدّنيا، وبقاء الدار الآخرة.

ومقتضى الإيمان باليوم الآخر: العمل لهذا اليوم، والاستعداد له، والادخار لذلك اليوم، ورجاء الثواب فيه، وخوف العقاب.

ويتضمن الإيمان باليوم الآخر خمسة أمور:

الأمر الأوّل: الإيمان بما يكون عند الموت والاحتضار من حضور الملائكة، وما يترتب على النزع، وأخذ الروح.

الأمر الثّاني: ما يكون في القبر في عالم البرزخ من فتنة القبر، وهي سؤال الملكين؛ من ربك، ما دينك، من نبيك، والإقرار بالعذاب والنعيم فيه، وأن القبر روضة من رياض الجنّة، أو حفرة من حفر النيران.

الأمر الثّالث: الإقرار بما يكون من أشراط الساعة الصغرى والكبرى.

الأمر الرّابع: الإقرار بما يكون يوم القيامة من نفخ الصعق والصور والبعث والنشور والحشر والحساب والميزان والحوض والصراط.

الأمر الخامس: الإقرار بالجنّة والنّار، وأنهما موجودتان الآن، وأنّ أرواح

المؤمنين فيها، وأنّ أرواح الكافرين تعرض على النّار، وأنهما دائمتان غير فانيتان.

ومما يدل على البعث والحساب والجزاء الأدلة المتوافرة من نصوص القرآن والسنة، وغير ذلك من الأدلة، ومنها:

أولًا: خبرُ الله تعالى بالقيامة، والبعث والنشور، وقوله الحق، قال الله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ الَّذِينَ يَسْمَعُونَ وَالْمَوْتَى يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ ثُمَّ إِلَيْهِ يُرْجَعُونَ﴾ [سورة الأنعام، من الآية:٣٦]، وقال سبحانه: ﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَا يَبْعَثُ اللَّهُ مَنْ يَمُوتُ بَلَى وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٨﴾ لِيُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي يَخْتَلِفُونَ فِيهِ وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّهُمْ كَانُوا كَاذِبِينَ ﴿٣٩﴾ إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَنْ نَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ [سورة النحل، من الآية:٣٨-٤٠].

ثانيًا: أن إقامة الحساب للفصل بين المختلفين، وهذا جاء نقلًا وهو مقتضى العقل؛ فإن النّاس قد اختلفوا اختلافًا بيّنًا، وكيف يفصل بينهم إذا مات هؤلاء بدون بعثٍ ولا حشرٍ، قال الله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِئِينَ وَالنَّصَارَى وَالْمَجُوسَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا إِنَّ اللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ [سورة الحج، من الآية:١٧]، وقال سبحانه: ﴿فَاللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَنْ يَجْعَلَ اللَّهُ لِلْكَافِرِينَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا﴾ [سورة النساء، من الآية:١٤١]، وقال جلَّ وعَلَا: ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا

فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ [سورة يونس، من الآية:٩٣].

ثالثًا: نرى أن المحسن يموت ولم يرَ ثواب إحسانه، وهذا يدلنا على أنه لا بد من يوم القيامة لِيُجْزَى، قال الله تعالى: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِۗ وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِۖ فَمَن زُحْزِحَ عَنِ ٱلنَّارِ وَأُدْخِلَ ٱلْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَۗ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَـٰعُ ٱلْغُرُورِ﴾ [سورة آل عمران، من الآية:١٨٥]، وقال سبحانه: ﴿إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًاۖ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقًّاۚ إِنَّهُۥ يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ لِيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ بِٱلْقِسْطِۚ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌۢ بِمَا كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ﴾ [سورة يونس، من الآية:٤].

رابعًا: ليتجلى رحمة الله تعالى بالمؤمنين، قال الله تعالى: ﴿كَتَبَ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَۚ لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ [سورة الأنعام، من الآية:١٢].

خامسًا: إظهار خزيِ الكافرين، وضلال المشركين، قال الله تعالى: ﴿ثُمَّ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ يُخْزِيهِمْ وَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَآءِىَ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تُشَـٰٓقُّونَ فِيهِمْۚ قَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ إِنَّ ٱلْخِزْىَ ٱلْيَوْمَ وَٱلسُّوٓءَ عَلَى ٱلْكَـٰفِرِينَ﴾ [سورة النحل، من الآية:٢٧]، وقال سبحانه: ﴿لَهُۥ فِى ٱلدُّنْيَا خِزْىٌۖ وَنُذِيقُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ ۝٩ ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ يَدَاكَ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّـٰمٍ لِّلْعَبِيدِ﴾ [سورة الحج، من الآية:٩-١٠].

سادسًا: ليتم معاقبة الظالمين، والفاسقين، والكافرين، فإنا نرى هؤلاء يموت

أحدهم ولما يؤخذ منه حق المظلوم، وحق المعتدى عليه، قال الله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُۥ مَعَهُۥ لَٱفْتَدَوْا۟ بِهِۦ مِن سُوٓءِ ٱلْعَذَابِ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ وَبَدَا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُوا۟ يَحْتَسِبُونَ﴾ [سورة الزمر، من الآية:٤٧]، وقال سبحانه: ﴿يَسْـَٔلُ أَيَّانَ يَوْمُ ٱلْقِيَٰمَةِ ﴿٦﴾ فَإِذَا بَرِقَ ٱلْبَصَرُ ﴿٧﴾ وَخَسَفَ ٱلْقَمَرُ ﴿٨﴾ وَجُمِعَ ٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ ﴿٩﴾ يَقُولُ ٱلْإِنسَٰنُ يَوْمَئِذٍ أَيْنَ ٱلْمَفَرُّ ﴿١٠﴾ كَلَّا لَا وَزَرَ ﴿١١﴾ إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ ٱلْمُسْتَقَرُّ ﴿١٢﴾ يُنَبَّؤُا۟ ٱلْإِنسَٰنُ يَوْمَئِذٍۭ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ ﴿١٣﴾ بَلِ ٱلْإِنسَٰنُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ بَصِيرَةٌ ﴿١٤﴾ وَلَوْ أَلْقَىٰ مَعَاذِيرَهُۥ﴾ [سورة القيامة، من الآية:٦-١٥].

سابعًا: أن الّذي خلق الشيء ابتداءً هو قادرٌ أن يعيده بعد أن تصير مادته ذراتٍ، ولو تناثرت أو تبعثرت، أو تفككت، قال الله تعالى: ﴿وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِىَ خَلْقَهُۥ ۖ قَالَ مَن يُحْىِ ٱلْعِظَٰمَ وَهِىَ رَمِيمٌ ﴿٧٨﴾ قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِىٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ﴾ [سورة يس، من الآية:٧٨-٧٩]، وقال سبحانه: ﴿وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [سورة فصلت، من الآية:٢١].

ثامنًا: أن الله تعالى قدر على خلقٍ أعظم من إرجاع الإنسان وإعادته؛ فمن نظر إلى إيجاده تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ للمادة، وإلى خلقه السماوات، علم عظيم قدرة الله تعالى على البعث، قال سبحانه: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ ۚ وَلَهُ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [سورة الروم، من الآية:٢٧].

تاسعًا: إهلاك الله تعالى، وإماتته لأعداء الله تعالى، وإبقاؤه المؤمنين وإنجاؤهم، دليل على قدرته على البعث والنشور، ولهذا قال الله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَكَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعْجِزَهُ مِن شَيْءٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ عَلِيمًا قَدِيرًا﴾ [سورة فاطر، من الآية:٤٤]، وقال سبحانه: ﴿قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ ثُمَّ انظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ ﴿١١﴾ قُل لِّمَن مَّا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ قُل لِّلَّهِ كَتَبَ عَلَىٰ نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [سورة الأنعام، من الآية:١١-١٢].

عاشرًا: عظيم قدرةِ الله تعالى على الإحياء في الدّنيا؛ فذلك دليل على قدرته في الأخرى، ولهذا ذكر الله تعالى صورًا من إحيائه للأموات، كما ذكر الله قصة الّذي مر على قرية، وقصة إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ، وقصة الذين خرجوا من ديارهم وهم ألوف حذر الموت فأحياهم الله تعالى، وقصة الذين صعقوا مع موسى ثم أحياهم الله تعالى، وقصة أصحاب البقرة، وهذه كلها في سورة البقرة، وقصة أصحاب الكهف.

ومن هذا الدليل عظيم قدرة الله تعالى على إخراج النبات الأخضر من الأرض اليابسة؛ فمن قدر على إخراج الزرع الحي النابت من أرضٍ قفرٍ بمطرٍ فهو قادر على إخراج الإنسان من قبرٍ قفرٍ كيفما شاء سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَنَزَّلْنَا مِنَ السَّمَاءِ

مَآءً مُّبَٰرَكًا فَأَنۢبَتۡنَا بِهِۦ جَنَّٰتٖ وَحَبَّ ٱلۡحَصِيدِ ۝٩ وَٱلنَّخۡلَ بَاسِقَٰتٖ لَّهَا طَلۡعٞ نَّضِيدٞ ۝١٠
رِّزۡقٗا لِّلۡعِبَادِۖ وَأَحۡيَيۡنَا بِهِۦ بَلۡدَةٗ مَّيۡتٗاۚ كَذَٰلِكَ ٱلۡخُرُوجُ﴾ [سورة يونس، من الآية:٩-١١].

وإذا تقرر هذا فإن للإيمان باليوم الآخر آثارًا كثيرة، ومنها:

الأثر الأوّل: مَن رجا اليوم الآخر ترك الفساد، والظلم، وأقام العدل والحق.

الأثر الثّاني: حَسُنَ عملُه الصالح، وترك الشرك.

الأثر الثّالث: علم أن الدّنيا دار ابتلاءٍ؛ فجاهد نفسه، وصبر عليها، ولم يهضم الحقوق، ولم ينقصها.

الأثر الرّابع: أحسن الاتباع للرسل، وأكثر من ذكر الله تعالى.

الأثر الخامس: يغرس الأخلاق الفاضلة، ويبعد عن الأخلاق الرذيلة.

الأثر السّادس: ينمي معنى الاحتساب، والبذل والعطاء لله تعالى.

وقول المصنّف رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **"والقدر خيره وشره"** أي أن من العقيدة الإيمان بالقدر خيرِه وشره، وهو الركن السادس من أركان الإسلام.

و **"القَدَرُ"** مقدار الشيء، وحالاته المقدَّرة له، وإدراك وقوع زمانه ومكانه وسببه. **ويطلق على**: القضاء الّذي أبرمه الله تعالى، وقدّره، والجمعُ أقدارٌ، ويقال له: التقديرُ.

و **"خَيْرِهِ وشَرُّه"**، وَفسَّرَه بعده بقوله: **"وَحُلْوِهِ ومُرِّه"**، أي حَسَنِه وسَيِّئِهِ، وجميله وقبيحه، وما هو مرضيٌّ، وما ليس بمرضيّ، بالنّسبة للمكلّفين، وبالنسبة لما هو كائن في السماوات والأرضين.

و(خَيْر) اسمُ تفضيلٍ على غير قياسٍ فهو يأتي بمعنى الأَخْيَر، وعلى كلّ حُسْنٍ، وفضلٍ، وعلى ما يقابل الشَّرَّ.

و(**الخير**) **منقسم إلى قسمين**:

القسم الأوّل: الخير المحضُ، وهو الله تَبَارَكَوَتَعَالَىٰ، وفعله، وقوله، وشرع الله تَبَارَكَوَتَعَالَىٰ؛ مثل التوحيد، والذِّكْرِ، والقرآن.

القسم الثّاني: الخير النسبي، فهو من جهة خيرٌ إما في نفسه، أو في وصفه، أو في حاله، أو في مآله، ويوجد الخير في الذاوات، وفي الأوصاف، وفي الأحوال؛ وقد تكون مطلقة ونسبية؛ فالمالُ خيرٌ نسبيًّا، وفي وقتٍ دون وقتٍ، وعند إنسان دون آخر، ونحو ذلك الولدُ، والدابة، ونحو ذلك.

و (شَرّ) كلمة تطلق على كلّ سوء، وفسادٍ، وعلى ما يقابل الخير، وهو أيضًا كمقابِلِه منقسم إلى قسمين:

القسم الأوّل: الشَّرُّ المحضُ؛ كالشرك، والبدع، والمعاصي، وكلّ ما خالف شرع الله تعالى.

القسم الثّاني: الشر النسبي، وهو موجود في الذوات، وفي الأوصاف، وفي الأحوال، وهي تقع مطلقة ونسبية؛ فالنّار شرٌّ من جهة كونه يحرق الثوب والبدن والمال، وخيرٌ في كونه يستدفأ بها، ويطبخُ بها، ونحو ذلك، الحديد، والأرضُ.

وفي قدر اللهِ تعالى أفعاله وأقواله، وفي قدر تقديرُ مخلوقاته وأفعالهم وأقوالهم، وليس فيما قضى وكتب من القدر فيما يتعلق بأفعاله تعالى وأقواله أي شرٍّ أبدًا،

وهذا هو معنى قول النّبيّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **"وَالخَيْرُ كُلُّهُ فِي يَدَيْكَ، وَالشَّرُّ لَيْسَ إِلَيْكَ"** [رواه مسلم من حديث علي رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ]، وأما في قدره وتقديره المتعلق بالمخلوقات ففيه أفعالهم وأقوالهم وهي محتوية على الشَّرِّ والخير.

وأما ما يتعلق بالأقدار مما يراه النّاس خيرًا أو شرًّا؛ مثل الفقرِ، والمرضِ، والعاهةِ، والعقمِ، ونحو ذلك؛ فهذا ليس شرًّا محضًا في الخلق والإيجاد؛ بل هي أفعال بحسب متعلقها، قد يكون شرًّا لبعضٍ وخيرًا لبعضٍ؛ فمن هذا الوجه نقولُ لم يخلق الله تعالى شرًّا محضًا أبدًا؛ فخلقه لإبليس كخلقه للنَّار والحديد ليس شرّا في نفسه، وإنما الشرّ وُجِدَ من فعلِ إبليس المقدر، ومن استعمال النّار فيما.

ومدلول الإيمان بالقدر خيره وشره: الإقرار بأن كلّ شيءٍ مُقَدرٌ، وأن الخيرَ والشرَّ مُقَدّرٌ، وأنه لا يكون شيءٌ إلا بعلم الله تعالى، وكتابته له مقدرة، ومشيئته وخلقه تعالى له.

وأركان الإيمان بالقدر أربعة؛ وهي:

الرّكن الأوّل: الإقرار بعلم الله الشامل الأشياء قبل وجودها.

الرّكن الثّاني: الإقرار بكتابة الله للأشياء في اللوح المحفوظ.

الرّكن الثّالث: الإقرار بمشيئة الله تعالى النافذة؛ فما شاء كان وما لم يشأ لم يكن.

الرّكن الرّابع: الخلق والإيجاد؛ فلا خالق إلا الله.

ومقتضى الإيمان بالقدر: الصبر والرضا، والعمل وَفْق الشّرع في معالجة القَدَرِ، والخير والشر في المقدورات والمفعولات كلها بقضاء الله وقدره، مع يقيننا بأنه ليس في أفعال الله تعالى وتقديره شر محض؛ كما قال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **"وَالشَّرُّ لَيْسَ إِلَيْكَ"** [رواه مسلم].

ومن آثار الإيمان بالقدر:

الأثر الأوّل: حصول الرضا في القلب، والتعلق بمقدر الأقدار سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

الأثر الثّاني: معرفة الإنسان لقدر نفسه، وأنه لا حول ولا قوة إلا بالله تعالى.

الأثر الثالث: العمل بما تيسر من العبادات.

الأثر الرّابع: شكر الله تعالى على النعمة، واستغفاره عند الذنب والمعصية، والرضا عنه أو الصبر عند النقمة والمصيبة.

وقوله: **"ونحن مؤمنون بذلك كله، لا نفرق بين أحد من رسله، ونصدقهم كلهم على ما جاءوا به"** هذا تأكيد لوجوب الإقرار بأركان الإيمان مِن كلّ وجهٍ، ومن دون انتقاءٍ، والمقصود أنه لا بد من الأركان الستة في الإيمان، ولا بد من الإيمان بكل الملائكة، وكلّ الرسل، وكلّ الكتب.

وقوله: **"لا نُفَرِّقُ"** أي لا نَفْصِلُ بين نبي ونبي في الإيمان، ولا بين كتابٍ وكتابٍ؛ ولا نرى الاختلاف بين الأنبياءِ، ولا بين رسالاتهم المنزلة، فنؤمن بجميع الكتب المنزلة، قال الله تعالى: ﴿قُلْ فَأْتُوا۟ بِكِتَٰبٍ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ هُوَ أَهْدَىٰ مِنْهُمَآ أَتَّبِعْهُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٤٩﴾ فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَكَ فَٱعْلَمْ أَنَّمَا

﴿يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ ۚ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ اللَّهِ ۚ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ [سورة يونس، من الآية:٤٩-٥٠]، وقال سبحانه منكرًا على اليهود: ﴿أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ ۚ فَمَا جَزَاءُ مَن يَفْعَلُ ذَٰلِكَ مِنكُمْ إِلَّا خِزْيٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ۖ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يُرَدُّونَ إِلَىٰ أَشَدِّ الْعَذَابِ ۗ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ [سورة يونس، من الآية:٦٦٦].

ونؤمن بكل المنزل المحكم منه والمتشابه، كما قال تعالى عن الراسخين في العلم: ﴿آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا ۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ [سورة آل عمران، من الآية:٧].

ونؤمن بجميع الأنبياء والمرسلين، ومما يدل على ذلك، قول الله تعالى: ﴿لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِ﴾ [سورة البقرة، من الآية:٢٨٥].

وهذا لا ينافي تفاضل الكتب المنزلة، ولا الاختلاف بين الشرائع من جهة الأحكام، ولا تفاضل الرسل والأنبياء؛ والإجماع منعقد على أن الرسل أفضل من الأنبياء، وقد دل القرآن على فضل أولي العزم من الرسل وهم: محمد، وإبراهيم، وموسى، وعيسى، ونوح عَلَيْهِمُ السَّلَامُ، وهذا على ترتيبهم في الفضل عند الجمهور، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ النَّبِيِّينَ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ [سورة الإسراء، من الآية:٥٥]، وقال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **"أَنَا سَيِّدُ وَلَدِ آدَمَ ، وَلاَ فَخْرَ"** [رواه ابن ماجه، عن

أبي سعيد الخدري رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، ونحوه في صحيح مسلم من حديث أبي هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ].

وخلاصة دلالة كلام المصنّف رَحِمَهُ ٱللَّهُ: أن الإيمان مبناه على هذه الأركان الستة، وأن الإيمان لا يتم إلا بالإقرار بها، وأن عَقْدَ الإيمان دائر عليها وعلى المسائل المتعلقة بها.

وبيان وجوب الإيمان بكل ما يتعلق بأركان الإيمان؛ فنؤمن بكل الكتب، ونقر بجميع الرسل؛ فلا يجوز أن نؤمن يبعضهم دون بعض؛ فيكون الإيمان اشتهائيًا انتقائيًا؛ كحال اليهود والمنافقين الذين قالوا: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكۡفُرُونَ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيُرِيدُونَ أَن يُفَرِّقُواْ بَيۡنَ ٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيَقُولُونَ نُؤۡمِنُ بِبَعۡضٖ وَنَكۡفُرُ بِبَعۡضٖ وَيُرِيدُونَ أَن يَتَّخِذُواْ بَيۡنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا ١٥٠ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡكَٰفِرُونَ حَقّٗاۚ وَأَعۡتَدۡنَا لِلۡكَٰفِرِينَ عَذَابٗا مُّهِينٗا ١٥١ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَلَمۡ يُفَرِّقُواْ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّنۡهُمۡ أُوْلَٰٓئِكَ سَوۡفَ يُؤۡتِيهِمۡ أُجُورَهُمۡۚ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورٗا رَّحِيمٗا﴾ [سورة يونس، من الآية: ١٥٠-١٥٢].

فنحن مأمورون شرعًا -وهو المدلول عليه عقلًا- أن الرسل يجب الإيمان بهم كلهم، وذلك لأن التّفريق في الإيمان ببعضٍ والكفر ببعضٍ هو الكفر بعينه، وإذا لم يجز التفريق بين بعض أركان الإيمان؛ فإن التفريق بين أركان الإيمان من باب أولى ممنوعٌ، ومخالفٌ للإيمان؛ فلا بد من الإيمان بالله تعالى، وبملائكته وهكذا بقدره خيره وشره.

[الموقف من أهل الكبائر]

وَأَهْلُ الْكَبَائِرِ فِي النَّارِ لَا يُخَلَّدُونَ، إِذَا مَاتُوا وَهُمْ مُوَحِّدُونَ، وَإِنْ لَمْ يَكُونُوا تَائِبِينَ، بَعْدَ أَنْ لَقُوا اللهَ تَعَالَى عَارِفِينَ مُؤْمِنِينَ، وَهُمْ فِي مَشِيئَةِ اللهِ تَعَالَى وَحُكْمِهِ، إِنْ شَاءَ اللهُ غَفَرَ لَهُمْ، وَعَفَا عَنْهُمْ بِفَضْلِهِ، كَمَا ذَكَرَ اللهُ تَعَالَى فِي كِتَابِهِ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ وَيَغۡفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾ [سورة النساء، من الآية:٤٨]، مِنْ عِبَادِهِ، وَإِنْ شَاءَ عَذَّبَهُمْ فِي النَّارِ بِقَدْرِ جِنَايَتِهِمْ بِعَدْلِهِ، ثُمَّ يُخْرِجُهُمْ مِنْهَا بِرَحْمَتِهِ، أَوْ بِشَفَاعَةِ الشَّافِعِينَ مِنْ أَهْلِ طَاعَتِهِ، ثُمَّ يَبْعَثُهُمْ إِلَى جَنَّتِهِ، ذَلِكَ بِأَنَّ اللهَ تَعَالَى مَوْلَى أَهْلِ طَاعَتِهِ وَمَعْرِفَتِهِ، وَلَمْ يَجْعَلْهُمْ فِي الدَّارَيْنِ كَأَهْلِ نُكْرَتِهِ، الَّذِينَ خَابُوا مِنْ هِدَايَتِهِ، وَلَمْ يَنَالُوا مِنْ وَلَايَتِهِ.

اَللَّهُمْ يَا وَلِيَّ الْإِسْلَامِ وَأَهْلِهِ مَسِّكْنَا بِالْإِسْلَامِ حَتَّى نَلْقَاكَ بِهِ.

الشرح

هذا تقرير من المصنف رَحِمَهُ ٱللَّهُ في بيان عقيدة أهل السنة والجماعة من الموحّدين الذين وقع منهم بعضُ الكبائر، وماتوا ولم يتوبوا منها.

قوله: **"وأهل الكبائر من أمة محمد** صَلَّىٰ ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَسَلَّمَ **في النار لا يخلدون"** هذا خبرٌ حُكْمِيّ متعلق بمسألة قد سبقت الإشارة إليها، وهي أنّا لا نكفِّرُ المسلمين بالذُّنوب، والحكمُ المترتب على ذلك أنّا وإن كنّا لا نكفر بالكبائر؛ فإنّ أهل الكبائرِ مُهدّدون ومُوَعَّدون، ولكنّهم في النّار لا يخلدون، وسبق أن ذكرنا الأدلة على ذلك، ومنها حديث عتبان بن مالك رَضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُ قال: قال رسول الله

صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **"إِنَّ اللهَ قَدْ حَرَّمَ عَلَى النَّارِ مَنْ قَالَ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ"** [رواه البخاري ومسلم]، أي حرّم الدخول فيها إن كان محققًا لمعناها، وأتى بكمالها، وكمال مقتضياتها، وحرّم البقاء في النار على سبيل التأبيد من قالها، ولو ضعف إيمانه، ما دام مسلمًا.

و "أُمَّةُ محمدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ" قسمان:

القسم الأول: أمة الاستجابة، وهي المعنية هنا، وهم الذين استجابوا للمنزَّل، وآمنوا به، وهم نوعان؛

النّوع الأوّل: الذين حسن إيمانهم، وحسن اتباعهم، وهم المعنيون بقوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ﴾ [سورة البقرة، من الآية:١٤٣]، وقوله: ﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى ٱلْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ [سورة آل عمران، من الآية:١٠٤]، وقوله: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ﴾ [سورة آل عمران، من الآية:١١٠].

النّوع الثّاني: هم الذين آمنوا، وأظهروا الإسلام، وعندهم شيء من الخلل إما في الاتباع، فيكونون من أهل البدع، وإما خلل في الطاعة؛ فيكونون من أهل المعاصي والكبائر، أو جمعوا الأمرين، وهم المعنيون بالشفاعة يوم القيامة، وهم المعنيون هنا بكلام المصنّف رَحِمَهُ اللَّهُ.

القسم الثاني: أمة الدعوة، وهم كلّ الذين بعث إليهم النّبيّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من الإنسِ والجنِّ، ممن كان في زمانه إلى قيام الساعة، وهم المدلول عليهم بقول اللهِ تعالى: ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾ [سورة الأعراف، من الآية:٣٤]، وقوله سبحانه: ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولٌ﴾ [سورة يونس، من الآية:٤٧]، وقوله جل في علاه: ﴿كَذَٰلِكَ أَرْسَلْنَاكَ فِي أُمَّةٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهَا أُمَمٌ لِّتَتْلُوَا عَلَيْهِمُ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ﴾ [سورة الرعد، من الآية:٣٠].

و "**أُمّة**" بمعنى الجماعةُ من النّاس، والجيلُ منهم، و (**الأمّة**) الطّريقة، والْمُدَّة والزّمنِ، والمقصود هنا جماعة البشر، والأجيال المتتالية لبعثة محمدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ منهم، وكلّ من كان في زمانه، وفي مدة بعثته إلى يوم القيامة، ومن اتبعه على الخصوص فهم أهل طريقته.

وقوله: "**في النار لا يخلدون**" أي فإنهم إن لم يرحمهم الله تعالى ابتداءً وأخذهم بذنوبهم؛ فإنهم يعذبون على قدر ذنوبهم، ثم لا يبقون في النّار أبد الآباد.

و "**لا يُخَلَّدُون**" أي لا يبْقَون على الدوام في النّار، وأصل الخُلْدِ البقاء في المكان مدة طويلة، حتّى يَخْلُدَ إليه، أي كأنّه ملصق به، ومنه خلَد إلى الأرض.

والأدلة متوافرة على أنّ أهل الكبائر لا يخلدون في النّار، ومنها:

أولًا: أنّ الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى حكم بالخلود في النّار على الكافرين، وهذا بألة كثيرة، ومنها قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَآ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ [سورة البقرة، من الآية:٣٩]، وقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَن تُغۡنِيَ عَنۡهُمۡ أَمۡوَٰلُهُمۡ وَلَآ أَوۡلَٰدُهُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيۡـٔٗاۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۚ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ [سورة آل عمران، من الآية:١١٦]، وقوله تعالى: ﴿بَلَىٰۚ مَن كَسَبَ سَيِّئَةٗ وَأَحَٰطَتۡ بِهِۦ خَطِيٓـَٔتُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ [سورة البقرة، من الآية:٨١]، والذي أحاطت به خطيئته المشرك والكافر دون المسلم والموحد.

ثانيًا: أن الله تبارك وتعالى حكم بدخول الجنّة للمسلمين، والموحدين، كقوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ [سورة البقرة، من الآية:٨٢]، وأهل الكبائر هم مسلمون، ولم يخرجوا من الإسلام.

ثالثًا: **أن الله** تَبَارَكَ وَتَعَالَى جعل كلّ ذنبٍ غير الشرك تحت المشيئة، وذلك يدل أن الذنوب الكبائر تحت المشيئة ابتداءً، أو متى ما شاء الله تعالى؛ لكن لا بد انتهاءً أن يأتي يومٌ يشاء الله خروج الموحدين في النّار، وإلا فلا يكون لذكر الشرك مِن معنى، قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ وَيَغۡفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُۚ وَمَن يُشۡرِكۡ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱفۡتَرَىٰٓ إِثۡمًا عَظِيمًا﴾ [سورة النساء، من الآية:٤٨].

رابعًا: الأحاديث المتواترة في شفاعة النّبيّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وشفاعة الشافعين للموحدين الذين دخلوا النّار أن يخرجوا منها، ومنها حديث أَنَسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "شَفَاعَتِي لأَهْلِ الكَبَائِرِ مِنْ أُمَّتِي" [رواه أبو داود، والترمذي، وقال: حسن صحيح غريب]، ويدل له قوله تعالى: ﴿يَوْمَئِذٍ لَّا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ وَرَضِيَ لَهُۥ قَوْلًا﴾ [سورة طه، من الآية:١٠٩]، والذين رضي الله قولهم هم الذين قالوا من الموحدين: لا إله إلا الله، كما قال تعالى: ﴿وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا﴾ [سورة المائدة، من الآية:٣].

لكن القول بخروج أهل الكبائر من النّار مرتبط بما ذكره المصنّف رَحِمَهُ اللَّهُ من قوله: **"إذا ماتوا وهم موحدون"**، وذلك لأن غير الموحِّد مخلَّدٌ في النّار، بالنص والإجماع، كما قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَٱسْتَكْبَرُوا۟ عَنْهَا لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَٰبُ ٱلسَّمَآءِ وَلَا يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ حَتَّىٰ يَلِجَ ٱلْجَمَلُ فِى سَمِّ ٱلْخِيَاطِ ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُجْرِمِينَ﴾ [سورة الأعراف، من الآية:٤٠]، وقال سبحانه: ﴿إِنَّهُۥ مَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ ٱلْجَنَّةَ وَمَأْوَىٰهُ ٱلنَّارُ ۖ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ﴾ [سورة المائدة، من الآية:٧٢].

وقد أجمع السلف قبل وجود الخلف أن الموحِّد لا يخلد في النّار، ويدل له حديث عثمان بن عفان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: سمعت رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقول: **"إني لأعلم كلمة لا يقولها عبد حقًّا مِن قلبه إلا حُرِّمَ على النّار"**؛ فقال له عمر بن

الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أنا أحدثك ما هي؟ هي كلمة الإخلاص الّتي ألزمها الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى محمدًا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وأصحابَه، وهي كلمة التقوى الّتي ألاص عليها نبيُّ الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عمَّه أبا طالب عند الموت: شهادة أن لا إله إلا الله. [رواه أحمد، وقال محققه: إسناده قوي].

ودلّ عبارة المصنّف أن النّاس بالنسبة للإيمان حين الموتِ يكونون على قسمين؛

القسم الأول: من مات كافرًا، أو مُشركًا؛ فهذا يحكم عليه بالخلود في النّار.

القسم الثّاني: من مات على الإسلام؛ فهذا لا يحكم له بالخلود في النّار؛ بل يجزم بأن المسلم يأتي يومٌ ويخرج من النّار.

و **"ماتَ"** أي فارقته الحياة الدّنيا، وزال عنه وصف الحي، وذلك بخروج روحه، ونزعها مِن قِبَل ملك الموت؛ وهو أخصُّ من الوفاةِ، والوفاة أعمُّ فإنها تطلق على حال النوم، وعلى حال الموت، قال الله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَتَوَفَّىٰكُم بِٱلَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِٱلنَّهَارِ ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ﴾ [سورة الأنعام، من الآية:٦٠].

و**(الموتُ)** وصفٌ مخلوقٌ، والموت ليس وصفًا عدميًا محضًا، وإنما هو انتقال من حال إلى حال، والله تعالى يجعل هذا الوصف الوجوديَّ ذاتًا، تُرَى بالعين يوم القيامة، كما جاء في حديث أَبِي سَعِيدٍ الخُدْرِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَرَأَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ﴿وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ ٱلْحَسْرَةِ﴾ [سورة مريم، من الآية:٣٩]، قَالَ: **"يُؤْتَى**

بِالمَوْتِ كَأَنَّهُ كَبْشٌ أَمْلَحُ حتّى يُوقَفَ عَلَى السُّورِ بَيْنَ الجنّة وَالنّار، فَيُقَالُ: يَا أَهْلَ الجنّة فَيَشْرَئِبُّونَ، وَيُقَالُ: يَا أَهْلَ النّار فَيَشْرَئِبُّونَ، فَيُقَالُ: هَلْ تَعْرِفُونَ هَذَا؟ فَيَقُولُونَ: نَعَمْ، هَذَا الْمَوْتُ، فَيُضْجَعُ فَيُذْبَحُ، فَلَوْلاَ أَنَّ اللهَ قَضَى لأَهْلِ الجنّة الحَيَاةَ وَالبَقَاءَ، لَمَاتُوا فَرَحًا، وَلَوْلاَ أَنَّ اللهَ قَضَى لأَهْلِ النّار الحَيَاةَ فِيهَا وَالبَقَاءَ، لَمَاتُوا تَرَحًا" [رواه ابن ماجه، والترمذي، وقال: حسن صحيح].

و "مُوَحِّدُون" اسمُ فاعلٍ من وَحَّدَ فهو موَحِّدٌ، وهو من أخلص عباداته لله تعالى، وجعلها لله وحده لا شريك، وعَبَدَ اللهَ وحده، واعتقد أن الله تعالى واحدٌ في ذاته، واحدٌ في ربوبيته، واحدٌ في أسمائه وصفاته، وهو الّذي دعا إليه الأنبياءُ، وأتباعهم يُسمّون بالموحدين، وغيرهم يسمون بالمشركين، أو الكافرين، قال الله تعالى: ﴿وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّا ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ ﴿٦٥﴾ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفَّٰرُ﴾ [سورة ص، من الآية:٦٥-٦٦].

فإن قيل: فما أقسام الموحدين؟

فالجواب: الموحِّدون ينقسمون إلى أقسام؛

القسم الأوّل: من أتى بالتوحيد مع كماله المستحب؛ فهؤلاء هم الذين يدخلون الجنّة بغير حساب، وهو السابقون إلى الخيرات، وهم الذين قال الله تعالى فيهم: ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلسَّٰبِقُونَ ﴿١٠﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلْمُقَرَّبُونَ﴾ [سورة الواقعة، من الآية:١٠-١١]، وقال تعالى: ﴿وَمَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُوْلَٰٓئِكَ

﴿يَدۡخُلُونَ ٱلۡجَنَّةَ يُرۡزَقُونَ فِيهَا بِغَيۡرِ حِسَابٖ﴾ [سورة غافر، من الآية:٤٠]، وهم الذين جاء ذكرهم في حديث ابن عباسٍ رَضِيَٱللَّهُعَنۡهُ ما، وفيه: "... هذه أمتك، ويدخل الجنّة من هؤلاء سبعون ألفا بغير حساب " ثم دخل ولم يبين لهم، فأفاض القوم، وقالوا: نحن الذين آمنا بالله واتبعنا رسوله، فنحن هم، أو أولادنا الذين ولدوا في الإسلام، فإنا ولدنا في الجاهلية، فبلغ النّبيّ صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ فخرج، فقال: «هم الذين لا يسترقون، ولا يتطيرون، ولا يكتوون، وعلى ربهم يتوكلون..." [رواه البخاري، ومسلم].

القسم الثّاني: من أتى بالتوحيد ناقصًا عن كماله المستحب، وهم الذين اقتصدوا، وهؤلاء أيضًا يدخلون الجنّة لكن بعد العرض اليسير، كما جاء ذكرهم في قوله تعالى: ﴿فَأَمَّا مَنۡ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ ٧ فَسَوۡفَ يُحَاسَبُ حِسَابٗا يَسِيرٗا ٨ وَيَنقَلِبُ إِلَىٰٓ أَهۡلِهِۦ مَسۡرُورٗا﴾ [سورة الانشقاق، من الآية:٧-٩]، وهؤلاء الذين رجحت حسناتهم على سيئاتهم، وحق عليهم قول الله تعالى: ﴿فَأَمَّا مَن ثَقُلَتۡ مَوَٰزِينُهُۥ ٦ فَهُوَ فِي عِيشَةٖ رَّاضِيَةٖ﴾ [سورة القارعة، من الآية:٦-٧].

القسم الثّالث: من أتى بالتوحيد ناقصًا عن كماله الواجب، وهم الظالمون لأنفسهم، سواء بالسيئات والذنوب، وماتوا غير تائبين، أو بضياع حقوق النّاس، وماتوا وهم مصرون، وهم عندهم حسنات، وعندهم سيئات، ولكن مآل الجميع الجنات، قال الله تعالى: ﴿ثُمَّ أَوۡرَثۡنَا ٱلۡكِتَٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصۡطَفَيۡنَا مِنۡ عِبَادِنَاۖ

﴿فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌۢ بِٱلْخَيْرَٰتِ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْكَبِيرُ ﴿٣٢﴾ جَنَّٰتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا ۖ وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ ﴿٣٣﴾ وَقَالُوا۟ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَذْهَبَ عَنَّا ٱلْحَزَنَ ۖ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ ﴿٣٤﴾ ٱلَّذِىٓ أَحَلَّنَا دَارَ ٱلْمُقَامَةِ مِن فَضْلِهِۦ لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ﴾ [سورة فاطر، من الآية:٣٢-٣٥].

وقوله: **"وإن لم يكونوا تائبين"** أي أنهم لا يخلدون في النّار وإن كانوا قد ماتوا على الذنوب، وكانوا مصرين عليها، غير تائبين منها، وذلك لأن التائب من الذنب بالإجماع مغفورٌ له، وأنه من المسلمين، ومن أهل الجنّة، وإنما النزاع بين السلف وبين المعتزلة والخوارج الأخلاف وقع في المصر على الذنب هل هو كافرٌ مخلد في النيران، أو مسلم يرجى له دخول الجنان.

و **"تائبين"** اسم فاعلٍ مِن تابَ، وهو: مَن رجع عن خطيئته، وضلاله، وغيِّه، وندم على ما ظهر منه من عيبه، والتائبُ في الدّنيا مقبولٌ توبته بإجماع المسلمين؛ فمَن تاب من الكفر إلى الإيمان قبِل منه، ومن تاب من الشرك إلى التوحيد قُبِل منه، ومن تاب من النفاق إلى الإخلاص قُبلِ منه، ومن تاب من البدعة إلى السنة قُبِل منه، ومَن تاب من المعصية إلى الطاعة قُبِل منه.

فإن قيل: فما شروط التوبة؟

فالجواب: إن للتوبة شروطًا، وهي:

الشّرط الأوّل: الإقلاع عن الذنبِ، أيًّا كان ذنبه.

الشّرط الثّاني: العزم على أنْ لا يعود.

الشّرط الثّالث: الندم على ما فات.

الشّرط الرّابع: أن يرجع حقوق العباد، إذا كان متعلقًا الحق بهم؛ من الأموال، ونحوها.

ويدل لهذا قول الله تعالى: ﴿قُلْ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٥٣﴾ وَأَنِيبُوٓا۟ إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا۟ لَهُۥ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلْعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ ﴿٥٤﴾ وَٱتَّبِعُوٓا۟ أَحْسَنَ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلْعَذَابُ بَغْتَةً وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ﴾ [سورة الزمر، من الآية:٥٣-٥٥].

وهذه التوبة لا بد وأن تكون في وقت قبول التوبة، وكلّ الأزمنة والأمكنة وقتٌ صالح للتوبة إلا وقتان، وهما:

الوقت الأوّل: وقت الغرغرة، ووصول الروح إلى النزعِ، وهذا وقتٌ خاصٌّ متعلقٌ بكل مكلفٍ بنفسه، قال الله تعالى: ﴿وَلَيْسَتِ ٱلتَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ حَتَّىٰٓ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ إِنِّى تُبْتُ ٱلْـَٰٔنَ وَلَا ٱلَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ﴾ [سورة النساء، من الآية:١٨]، وقول الله تعالى عن فرعون: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَدْرَكَهُ ٱلْغَرَقُ قَالَ ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِىٓ ءَامَنَتْ بِهِۦ بَنُوٓا۟

إِسۡرَٰٓءِيلَ وَأَنَا۠ مِنَ ٱلۡمُسۡلِمِينَ ٩٠ ءَآلۡـَٰٔنَ وَقَدۡ عَصَيۡتَ قَبۡلُ وَكُنتَ مِنَ ٱلۡمُفۡسِدِينَ﴾

[سورة يونس، من الآية: ٩٠-٩١].

الوقت الثّاني: وقت طلوع الشمسِ من مغربها، وهذا وقتٌ عام بجميع المكلفين حينها، وهو المعني بقوله تعالى: ﴿هَلۡ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن تَأۡتِيَهُمُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ أَوۡ يَأۡتِيَ رَبُّكَ أَوۡ يَأۡتِيَ بَعۡضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَۗ يَوۡمَ يَأۡتِي بَعۡضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ لَا يَنفَعُ نَفۡسًا إِيمَٰنُهَا لَمۡ تَكُنۡ ءَامَنَتۡ مِن قَبۡلُ أَوۡ كَسَبَتۡ فِيٓ إِيمَٰنِهَا خَيۡرًا﴾ [سورة الأنعام، من الآية:١٥٨]، وجاء في حديث أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: **"لَا تَقُومُ السَّاعَةُ حتّى تَطْلُعَ الشَّمْسُ مِنْ مَغْرِبِهَا، فَإِذَا طَلَعَتْ مِنْ مَغْرِبِهَا آمَنَ النّاس كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ فَيَوْمَئِذٍ** ﴿لَا يَنفَعُ نَفۡسًا إِيمَٰنُهَا لَمۡ تَكُنۡ ءَامَنَتۡ مِن قَبۡلُ أَوۡ كَسَبَتۡ فِيٓ إِيمَٰنِهَا خَيۡرًا﴾ [سورة الأنعام، من الآية:١٥٨]" [رواه البخاري ومسلم].

وهذا يدل على أن التوبة وقت الغرغرة، أو بعد طلوع الشمس من مغربها، أو إظهار الندم وقت النزع، أو وقت القيامة أن ذلك لا ينفع الإنسان، وهذا بالإجماع؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَا ٱلَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمۡ كُفَّارٌ﴾ [سورة النساء، من الآية:١٨].

أما العاصي من أهل الكبائر فليس بكافرٍ، ولهذا فإنه إن مات غير تائبٍ؛ فإنه يعذب على قدرِ ذنبه ثم يدخل الجنّة، وعليه إجماع السلف قبل تنازع المعتزلة الأخلاف، والخوارجُ أهل الخلاف، كما جاء في حديث عبد الله بن مسعود

رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **"إِنِّي لَأَعْرِفُ آخِرَ أَهْلِ النّار خُرُوجًا مِنَ النّار، رَجُلٌ يَخْرُجُ مِنْهَا زَحْفًا، فَيُقَالُ لَهُ: انْطَلِقْ فَادْخُلِ الجنّة"**، قَالَ: **"فَيَذْهَبُ فَيَدْخُلُ الجنّة، فَيَجِدُ النّاس قَدْ أَخَذُوا الْمَنَازِلَ، فَيُقَالُ لَهُ: أَتَذْكُرُ الزَّمَانَ الّذي كُنْتَ فِيهِ، فَيَقُولُ: نَعَمْ، فَيُقَالُ لَهُ: تَمَنَّ، فَيَتَمَنَّى، فَيُقَالُ لَهُ: لَكَ الّذي تَمَنَّيْتَ وَعَشَرَةَ أَضْعَافِ الدّنيا"**، قَالَ: **"فَيَقُولُ: أَتَسْخَرُ بِي وَأَنْتَ الْمَلِكُ؟"**، قَالَ: فَلَقَدْ رَأَيْتُ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ضَحِكَ حتّى بَدَتْ نَوَاجِذُهُ. [رواه البخاري ومسلم].

فإن قال قائلٌ: كيف يدخل الجنّة، والإيمان قد نُزع منه حين المعصية، ومات وهو عاصٍ؟ كما في حديث أبي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أَنَّ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: **"لَا يَزْنِي الزَّانِي حِينَ يَزْنِي وَهُوَ مُؤْمِنٌ، وَلَا يَسْرِقُ السَّارِقُ حِينَ يَسْرِقُ وَهُوَ مُؤْمِنٌ، وَلَا يَشْرَبُ الْخَمْرَ حِينَ يَشْرَبُهَا وَهُوَ مُؤْمِن"** [رواه البخاري ومسلم].

فالجواب من وجهين؛

الوجه الأوّل: أن المراد بالنزعِ، أي وقتَ ارتكابه المعصية، وليس على الدوام، فالأحاديث لم تدل إلا على هذا المقدار، ولو تُصُوِّرَ موته في هذا الحال فإنه يكون مُصِرًّا على الذنب، ولا يكون بذلك كافرًا خلافًا للخوارج.

الوجه الثّاني: أن المراد بالنزع، نزعُ الإيمان الواجب، لا أصل الإيمان، وهذا أدل وأقرب، وأظهر، وعلى هذا يحمل الأحاديث الّتي فيها أنه لا إيمان لمن فعل كذا، أو لم يفعل كذا، وذلك أن هذه الأعمال عند التأمل فيها نجدها أنها

ليست مِن أركان الإيمان، ولا من أصول الإيمان؛ فإن كانت من أصول الإيمان؛ فإن المعنى يكون نفيًا مطلقًا، ويتأتى النفي في هذا الباب على ثلاثة أقسام:

القسم الأوّل: نفي الكمال، كقولنا: لا رجل في الدار، وفيه من لا يؤبه به، وهذا لا يأتي في نفي الإيمان في كتاب الله تعالى، وفي سنة رسوله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، كما حققه شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللهُ.

القسم الثّاني: نفي الوجوب، والوصفُ المرتبط بالمعنى المشتق؛ كقولنا: لا رجل في الدار، أي لا رجل يستحق اسم الرجولة، وإنما هو ذكرٌ فحسبُ، وهذا يأتي مع نفي الإيمان كثيرًا؛ كقوله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **"لَا إِيمَانَ لِمَنْ لَا أَمَانَةَ لَهُ"** [رواه أحمدُ، من حديث أنسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، وقال محققه: حديث حسن]، وكقوله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **"لَيْسَ الْمُؤْمِنُ بِالطَّعَّانِ وَلاَ اللَّعَّانِ وَلاَ الفَاحِشِ وَلاَ البَذِيءِ"**[رواه الترمذي، وقال: حسن غريب، من حديث عبد الله بن مسعود رَضِيَ اللهُ عَنْهُ].

فمن مات من الموحدين فإنه تحت مشيئة الله تعالى، وإن شاء رحمه ابتداءً، وأدخله الجنّة بفضله، وإن شاء رحمه بعد أن يدخل النّار، ثم يدخلهم الجنّة برحمته، ولا يكونون مثل المشركين والكافرين، ولهذا قال المصنّف رَحِمَهُ اللهُ: **"بعد أن لقوا الله عارفين مؤمنين"**؛ فلا يكون المؤمن بالله تعالى، العارف بحقه، ووحدانيته، مثل الكافر، والجاحد، والمشرك، قال الله تعالى: ﴿أَفَنَجْعَلُ ٱلْمُسْلِمِينَ كَٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٣٥﴾ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾ [سورة يونس، من الآية:٣٥-٣٦]، وجاء في حديث

الشفاعة عن أنسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وفيه: قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **"قال الله تعالى: وعزتي وجلالي، وكبريائي وعظمتي لأخرجن منها من قال: لا إله إلا الله"** [رواه البخاري].

فكل من مات على التوحيد لا يكون مثل من ماتَ على التنديد، وذلك لأن من عرف الله تعالى وعصاه، ليس كمن جحده وعصاه؛ فهذا قد جمع بين سوئتين، ولا يتساويان بغير مين.

ومعنى **"لَقوا الله عارفين"** أي مات على التوحيد، وهو معنى قول النّبيّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **"من كان آخرُ كلامهِ لا إله إلا اللهُ دخل الجنّة"** [رواه أبو داود، من حديث معاذٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال محققه: حديث صحيح]، وأحاديث لقي الله تعالى بالتوحيد كثيرة كحديث معاذٍ، وعقبة بن عامر، وحديث عبد الله بن عمرو وغيرهم رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ، ولفظ حديث جابرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: **"مَنْ لَقِيَ اللهَ لا يُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا دَخَلَ الجنّة، وَمَنْ لَقِيَهُ يُشْرِكُ بِهِ دَخَلَ النّار"** [رواه مسلم]، وحديث عبد الله بن مسعودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال النّبيّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **"من مات وهو يدعو من دون الله ندا دخل النّار"**، وقلت أنا: من مات وهو لا يدعو لله ندًّا دخل الجنّة. [رواه البخاري]، وحديث أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أَنَّ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: **"يَا أَبَا سَعِيدٍ، مَنْ رَضِيَ بِاللهِ رَبًّا، وَبِالْإِسْلَامِ دِينًا، وَبِمُحَمَّدٍ نَبِيًّا، وَجَبَتْ لَهُ الجنّة"**؛ فَعَجِبَ لَهَا أَبُو سَعِيدٍ، فَقَالَ: أَعِدْهَا عَلَيَّ يَا رَسُولَ اللهِ، فَفَعَلَ. [رواه مسلم].

و "**عارفين**" اسمُ فاعلٍ من (عَرَف) فهو عارِفٌ، وهو الخابرُ للشيء، المقرُّ به، الشّاكرُ له، والمتضلّع المتمكّن فيه، والعارفُ هنا المرادُ به، المقِرُّ، الّذي أقر بالتوحيد، وشكر لربه؛ فلم يجحده، وكان عالِمًا بحقّ الله تعالى بالألوهية.

وتطلق كلمة (**عارف**) على معانٍ بحسب الاصطلاحات، ومنها:

المعنى الأوّل: المتضلّع في المعرفة، ويكون فوق درجة العلم، وهذا في اصطلاح بعضِ أهل العلم.

المعنى الثّاني: الشاكِرُ لربّه، الناظِرُ في كلّ أمرٍ بشهود ربوبيته؛ فلا يتضجّر على القدرِ، ويشكر على النّعماء والسُّرر.

المعنى الثّالث: من نجا من آفات الدّنيا، ولم يتلطخ بها، وهذا عند بعض المتصوفة.

المعنى الرّابع: هو الّذي عرف الوجودَ واحدًا!؟ ولم يفرق بين وجود الخالق والمخلوق، وهذا قول الحلولية من غلاة المتصوفة.

المعنى الخامس: المسلم، المؤمنُ، المقر بتوحيد الله تعالى، وهو مراد المصنّف هنا، وأنّه مهما وقع منه الذنوب فإنه لا يكون كمن أنكر علام الغيوب، ولا يكون كمن لم يقر بالتوحيد فأشرك مع الرب تَبَارَكَ وَتَعَالَى.

ورحمته تَبَارَكَ وَتَعَالَى واسعة على الْمُوَحِّدين، ولو بعد حين، ولهذا قال المصنّف رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "**وهم في مشيئته وحكمه إن شاء غفر لهم، وعفا عنهم بفضله، كما ذكر** عَزَّوَجَلَّ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ وَيَغۡفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾ [سورة النساء، من

الآية:٤٨]" أي أن الموحدين من أهل الكبائر الذين ماتوا بدون توبة هم تحت مشيئة الله تعالى، وتحت حكم الله تعالى، وفَضْلِه وقضائه، وأن أحوالهم دائرة على الغَفْر والصّفح، والعَفْو وهذا بفضل الله تعالى، أو على المؤاخذة.

ومعنى "**عَفَا**" أي أزال تبعة الذنب، أو عقوبته، أو أثره، أو أعرض عن مؤاخذته، وأسقط عنه العقاب، كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ عَفَا ٱللَّهُ عَنْهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ﴾ [سورة آل عمران، من الآية:١٥٥].

فالله تعالى يغفر ويعفو ويصفح في الدّنيا بفضله ومغفرته، وهو سبحانه قادرٌ على أن يعفو كذلك بفضله في الآخرة، قال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ عَفَا عَنكُمْ وَٱللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [سورة آل عمران، من الآية:١٥٢]، وما دام ربنا تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ يعفو في الدّنيا بفضله؛ فهو سبحانه أعظم فضلًا يوم القيامة، ولهذا جاء في حديث أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ اللهِ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قَالَ: "**لَوْ يَعْلَمُ الْمُؤْمِنُ مَا عِنْدَ اللهِ مِنَ الْعُقُوبَةِ، مَا طَمِعَ بِجَنَّتِهِ أَحَدٌ، وَلَوْ يَعْلَمُ الْكَافِرُ مَا عِنْدَ اللهِ مِنَ الرَّحْمَةِ، مَا قَنَطَ مِنْ جَنَّتِهِ أَحَدٌ**" [رواه مسلم].

فالله تعالى يتجاوز ويصفح ويغفر ويعفو بفضله؛ فهو كريمٌ عفوٌّ، غفورٌ غفارٌ، رحيم رحمنٌ، وهو سبحانه: "**إنْ شاء عذَّبهم في النار بعدله**"، وذلك لأنه تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ له الأمر والحكم؛ فهو وحده يملك ذلك، سواءٌ عفا عنهم بفضله، أو عذبهم بعدله، والله تعالى لا يعذب من لا يستحق التعذيب عدلًا منه تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ؛

ولهذا فإن الظلم منفي عن الله تعالى، قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ﴾ [سورة النساء، من الآية:٤٠]، وقال سبحانه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ ٱلنَّاسَ شَيْـًٔا وَلَٰكِنَّ ٱلنَّاسَ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ [سورة يونس، من الآية:٤٤]، وقال جَلَّ وَعَلَا: ﴿وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾ [سورة الكهف، من الآية:٤٩].

وكونه سبحانه جازى الكفار، وعفا عن المؤمنين، وجعلهم مع الأبرار، هذا من تمام عدله، وهو سبحانه أخبر عن عدله إذ أمر بالقسط؛ كما قال الله تعالى: ﴿وَأَوْفُوا۟ ٱلْكَيْلَ وَٱلْمِيزَانَ بِٱلْقِسْطِ﴾ [سورة الأنعام، من الآية:١٥٢]، وقال سبحانه: ﴿قُلْ أَمَرَ رَبِّى بِٱلْقِسْطِ﴾ [سورة الأعراف، من الآية:٢٩]، وقال جَلَّ وَعَلَا: ﴿إِنَّهُۥ يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ لِيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ بِٱلْقِسْطِ ۚ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌۢ بِمَا كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ﴾ [سورة يونس، من الآية:٤]؛ فدل عدله تعالى أن ثم اختلافًا بين عذاب المسلمين إن عذبهم، وبين عذاب الكافرين الأليم الواقع عليهم.

فإن قيل: فكيف يعامل الله تعالى الناسَ يوم القيامة؟

فالجواب: أنّ معاملة الله تعالى للناس يوم القيامة على نوعين؛

النّوع الأوّل: معاملة بالفضل، وهذا مخصوص بالموحدين المسلمين.

النّوع الثّاني: معاملة بالعدل، وهذا مخصوص به الكافرين، وقد يكون مع بعض عصاة الموحدين، ثم يدركهم فضله ورحمته بعد ذلك، فيخرجهم من النّار.

فإن قيل: ما هي الأسباب التي بها يخرج الموحدون من النار؟

فالجواب: أنّ خروج المعذَّبين من الموحِّدين من النّار يكون بسببين:

السّبب الأوّل: فضل الله تعالى ورحمته؛ ولهذا قال المصنّف رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **"ثم يخرجهم منها برحمته"** أي بعد أن عاملهم بعدله، وذاقوا شيئا من العقاب، أو استغرقوا الجزاءَ، يدركهم الله برحمته؛ فيخرج الموحدين العصاة من النّار، وهذا كله برحمة الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ، حتّى إن الكفار لما يرون ذلك تشرئب أعناقهم للخروج من النّار؛ فيقول بعضهم لبعضٍ وهم في النّار نجحد شركنا؛ فيقولون: ﴿وَٱللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ ﴿٢٣﴾ ٱنظُرْ كَيْفَ كَذَبُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَفْتَرُونَ﴾ [سورة الأنعام، من الآية:٢٣-٢٤].

السّبب الثّاني: **"شفاعة الشافعين من أهل طاعته"**، أي صنفٌ من عصاة الموحدين يخرجون برحمة الله تعالى، وصنفٌ يخرجون بشفاعة الشافعين، وهذه أيضًا برحمة الله تعالى؛ لكنها مرتبة على سببٍ الشفاعة، وذلك أن قبول الشفاعة فيهم من رحمة الله تعالى.

و **"الشافعين"** اسمُ فاعلٍ من شفَع فهو شافِعٌ وهذا لا بد له مِن أمورٍ:

الأمر الأوّل: المشفوع عنده، وهو الله تعالى.

الأمر الثّاني: المشفوع فيه، وهو الأمر الّذي يريد الشافع ذكره عند المشفوع.

الأمر الثّالث: المشفوع له، وهو الّذي يراد من الشافع أن يضم طلبه إلى طلبه، ويخلصه مما هو فيه، بأن يطلب من الله تعالى له مطلبه.

الأمر الرّابع: الشافع، وهو الّذي قام بين يدي الله تعالى، وشفع في المشفوع له.

وشفاعة الشافعين ثابتة بدلالة الكتاب حيث فيه الاستثناء ﴿إِلَّا بِإِذْنِهِۦ﴾ [سورة البقرة، من الآية:٢٥٥]، وبدلالة السنة المتواترة، وقد سبق ذكرُ أحاديث دالة على الشفاعة.

وقوله: **"مِن أهل طاعته"** فيه دلالة على أن الشفاعة ثابتة لبعض أهل الطاعة، وليس كلّ أهل الطاعة أهلًا للشفاعة، وإنما الشفعاء يكونون ممن اتّصفوا بأوصاف الشهادة، ومنها:

الوصف الأوّل: أن يكونوا من أهل شهادة أن لا إله إلا الله بحقٍّ، وقاموا بها، وبمقتضاها، قال الله تعالى: ﴿شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُو۟لُوا۟ ٱلْعِلْمِ قَآئِمًۢا بِٱلْقِسْطِ﴾ [سورة آل عمران، من الآية:١٨]، ولا يمكن القيام بهذا الوصف إلا بعد الإسلام، ولهذا كان من شرط الشاهد أن يكونوا مسلمًا حنيفًا، قال الله تعالى: ﴿مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَٰهِيمَ ۚ هُوَ سَمَّىٰكُمُ ٱلْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ وَفِى هَٰذَا لِيَكُونَ ٱلرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ﴾ [سورة الحج، من الآية:٧٨].

الوصف الثّاني: أن يكونوا من أهل العلم بالشهادة؛ فالجهال لا يكونون شهداء، كما قال تعالى: ﴿وَلَا يَمْلِكُ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِ ٱلشَّفَٰعَةَ إِلَّا مَن شَهِدَ بِٱلْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [سورة الزخرف، من الآية:٨٦].

الوصف الثّالث: أن يكونوا قد تركوا الصّفات السلبية المانعة من الشهادة، ومن ذلك ترك اللعنِ، وترك المنكرات الظاهرة والباطنة، كما جاء في حديث أَبِي الدَّرْدَاءِ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ قال: سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ: **"إِنَّ اللَّعَّانِينَ لَا يَكُونُونَ شُهَدَاءَ، وَلَا شُفَعَاءَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ"** [رواه مسلم].

الوصف الرّابع: أن يكونوا من أهل الاعتدال، لا غلوَّ فيهم، ولا جفاء؛ كما قال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ﴾ [سورة البقرة، من الآية:١٤٣]، وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُونُوا۟ قَوَّٰمِينَ بِٱلْقِسْطِ شُهَدَآءَ لِلَّهِ﴾ [سورة النساء، من الآية:١٣٥]، وبهذا ندرك أن أهل البدعِ، وأهل المعاصي، لا يكونون من الشهداء، ولا من الشفعاء يوم القيامة؛ وذلك لخلوهم عن هذا الوصف؛ بل هم بحاجة إلى الشفاعة.

وهذه الشروط متى ما اجتمعت فإن صاحبه يكون موصوفًا بأهل الطاعة؛ ولهذا قال المصنّف في وصف الشفعاء، **"مِن أهل طاعته"**، أي؛ مِن أصحاب طاعة الله تعالى، وهم المنقادون لإرادة الله تعالى الشّرعية، والخاضعين لإرادة الله تعالى القدرية، ممن ابتلوا فأدركوا الثمر، وأدركوا النضج، وأمكن قطاف

الثمار من طاعاتهم، واتسعت صدروهم بطاعة الله تعالى، وأحوالهم بقدر الله تعالى، ووافقوا مرادَ الله تعالى، خضوعًا وعبودية.

وإذا شفع الشفعاء من أهل طاعة الله تعالى خرج الموحدون الذين دخلوا النّار من النّار، ثم يكون مآلهم إلى الجنّة؛ كما قال المصنّف رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **"ثم يبعثهم إلى جنته"** أي بعد خروجهم من النّار وقد صاروا حممًا من العذابِ، ينبتهم الله تعالى، ويبعث في أجسادهم الحياة من جديد؛ فتعود لهم عافيتهم، ويدخلهم الله تعالى الجنّة بتمام خلقتهم، وكمال أبدانهم.

و **"يبعث"** فعلٌ مضارعٌ مِن (بَعَثَ، بَعْثًا)، وهو: النَّشْرُ والإيقاظُ، والإحياءُ والإنباتُ، والإرسالُ، والإطلاقُ، وحَلُّ سِجْنِهِم من جهنّم، وانطلاقهم إلى الجنّة، ويوضح هذا البعث من جهنّم حديث أبي سعيد رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، وأبي هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، وفيه: **"حَتَّى إِذَا فَرَغَ اللهُ مِنَ الْقَضَاءِ بَيْنَ عِبَادِهِ، وَأَرَادَ أَنْ يُخْرِجَ مِنَ النَّارِ مَنْ أَرَادَ أَنْ يَرْحَمَ مِمَّنْ كَانَ يَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، أَمَرَ الْمَلَائِكَةَ أَنْ يُخْرِجُوهُمْ، فَيَعْرِفُونَهُمْ بِعَلَامَةِ آثَارِ السُّجُودِ"** ، قَالَ: **"وَحَرَّمَ اللهُ عَلَى النَّارِ أَنْ تَأْكُلَ مِنِ ابْنِ آدَمَ أَثَرَ السُّجُودِ"** قَالَ: **"فَيُخْرِجُونَهُمْ قَدِ امْتُحِشُوا، فَيُصَبُّ عَلَيْهِمْ مِنْ مَاءٍ يُقَالُ لَهُ: الْحَيَاةُ، فَيَنْبُتُونَ نَبَاتَ الْحِبَّةِ فِي حَمِيلِ السَّيْلِ"** [رواه معمر بن راشد في جامعه بهذا اللفظ، وأصله في البخاري، ومسلم، بنحوه].

وهذا الإخراج من الجنّة، وبعث الموحِّدين المعذَّبين دليل كبير على عظمة رحمة الله تعالى، الّتي تتجلى يوم القيامة، لا سيما مع أهل التوحيد، ولهذا قال

المصنّف رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **"وذلك بأن الله تعالى تولى أهل معرفته"**، وتولِّي الله تعالى أهل معرفته يكون بقدر معرفتهم بالله تعالى، وقيامهم بحق التوحيد، وأدائهم للطاعة، وبعدهم عن الشرك والمعصية.

و **"تولَّى"**: تطلق على الإدبار وعلى الإقبال؛ فتقول: تولَّى الشّيءُ إذا أَدْبَر، وتولَّى فلانًا إذا نصره، وهو المراد هنا؛ فـ **"تولَّى أهلَ معرفته"** أي بنصره لهم، وحبِّه إياهم، وقيامه بشأنهم، وتقلَّد أمورَهم، وتولِّي الله تعالى لأهل معرفته على درجتين؛

الدّرجة الأُولى: التّولي الكامل الخاص، وهذا إنّما يكون لأهل الوَلاية الكاملة، الذين أدركوا معاني الإيمان الكامل، وحققوا مقتضيات الشهادتين، وجاهدوا أنفسهم؛ كما قال الله تعالى: ﴿وَجَٰهِدُواْ فِي ٱللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِۦۚ هُوَ ٱجۡتَبَىٰكُمۡ وَمَا جَعَلَ عَلَيۡكُمۡ فِي ٱلدِّينِ مِنۡ حَرَجٖۚ مِّلَّةَ أَبِيكُمۡ إِبۡرَٰهِيمَۚ هُوَ سَمَّىٰكُمُ ٱلۡمُسۡلِمِينَ مِن قَبۡلُ وَفِي هَٰذَا لِيَكُونَ ٱلرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيۡكُمۡ وَتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِۚ فَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱعۡتَصِمُواْ بِٱللَّهِ هُوَ مَوۡلَىٰكُمۡۖ فَنِعۡمَ ٱلۡمَوۡلَىٰ وَنِعۡمَ ٱلنَّصِيرُ﴾ [سورة الحج، من الآية:٧٨]، وقال سبحانه: ﴿وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهۡدِيَنَّهُمۡ سُبُلَنَاۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾ [سورة العنكبوت، من الآية:٦٩].

الدّرجة الثّانية: التّولي العام، وهذا إنّما يكون لأهل الإسلام عمومًا، الذين جانبوا الشرك، وإن لم يحققوا مقتضيات الشهادتين على وجه الكمال، ولم

يجاهدوا أنفسهم كما ينبغي، وذلك لأن عدل الله تعالى يقتضي أنْ لا يجعل هؤلاءِ كالكفارِ، وكالمشركين، ولهذا قال المصنّف رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **"ولم يَجْعَلْهم في الدّارين كأهل نَكَرَتِه"**؛ أي: لم يصيرهم، وينزلهم مثل الكفارِ والمشركين، و**"الدارين"**؛ دار الدّنيا، ودار الآخرة، كما قال الله تعالى: ﴿وَمَا هَٰذِهِ ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَآ إِلَّا لَهۡوٞ وَلَعِبٞۚ وَإِنَّ ٱلدَّارَ ٱلۡأٓخِرَةَ لَهِيَ ٱلۡحَيَوَانُۚ لَوۡ كَانُواْ يَعۡلَمُونَ﴾ [سورة العنكبوت، من الآية:٦٤]، وقال تعالى: ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ رَبِّيٓ أَعۡلَمُ بِمَن جَآءَ بِٱلۡهُدَىٰ مِنۡ عِندِهِۦ وَمَن تَكُونُ لَهُۥ عَٰقِبَةُ ٱلدَّارِۚ إِنَّهُۥ لَا يُفۡلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ [سورة القصص، من الآية:٣٧].

و **"أهل نَكَرَتِه"**: بفتح النون والكافِ، أي الجاحدين بالله تعالى، وأهلُ النَّكَرة هم الكفار والمشركون، و **"نَكَرَة"** اسمٌ من الإنكارِ، ويوصَفُ به لأنّه مُشتقّ مِن الإنكار وهو الجحد، ومنه فلانٌ نَكِرَةٌ أي لا يُعْرَف؛ كما قال تعالى: ﴿إِذۡ دَخَلُواْ عَلَيۡهِ فَقَالُواْ سَلَٰمٗاۖ قَالَ سَلَٰمٞ قَوۡمٞ مُّنكَرُونَ﴾ [سورة الذاريات، من الآية:٢٥]، أي لا تُعرَفُون، وهو نَكَرَةٌ أي لا يَعْرِف المعروفَ؛ بل هو جاحدٌ، واسمُ الفاعل منه مُنْكِرٌ، قال الله تعالى: ﴿وَهَٰذَا ذِكۡرٞ مُّبَارَكٌ أَنزَلۡنَٰهُۚ أَفَأَنتُمۡ لَهُۥ مُنكِرُونَ﴾ [سورة الأنبياء، من الآية:٥٠]، وقال سبحانه: ﴿أَمۡ لَمۡ يَعۡرِفُواْ رَسُولَهُمۡ فَهُمۡ لَهُۥ مُنكِرُونَ﴾ [سورة المؤمنون، من الآية:٦٩]، أي؛ جاحدون الحقّ، رادُّون له، لا تقبلونه، وتظهرون أنكم لا تعرفونه، وتنكرونه وأنتم موقنون به.

ومما يدل أن الله تعالى لم يجعل في الدّنيا أهل معرفته كأهل نكَرَتِه الأمور الآتية:

الأمر الأوّل: أن الله تعالى أمرِ بالأخوّة الدينية بين كلّ من أظهر الإسلام؛ فقال تعالى عن المشركين: ﴿فَإِن تَابُواْ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ فَإِخْوَٰنُكُمْ فِي ٱلدِّينِۗ وَنُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ [سورة التوبة، من الآية:١١].

الأمر الثّاني: أن الله تعالى أمر بالكفِّ عن كلّ من أظهر الإسلام؛ فقال تعالى عن الكافرين: ﴿فَإِن تَابُواْ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ فَخَلُّواْ سَبِيلَهُمْۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [سورة التوبة، من الآية:٥].

الأمر الثّالث: أن الله تعالى أخبر في محكم التنزيل أنه لا يجعل الكافر به كالمؤمن به؛ فقال تعالى: ﴿وَمَا يَسْتَوِي ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ ﴿١٩﴾ وَلَا ٱلظُّلُمَٰتُ وَلَا ٱلنُّورُ ﴿٢٠﴾ وَلَا ٱلظِّلُّ وَلَا ٱلْحَرُورُ ﴿٢١﴾ وَمَا يَسْتَوِي ٱلْأَحْيَآءُ وَلَا ٱلْأَمْوَٰتُۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُسْمِعُ مَن يَشَآءُۖ وَمَآ أَنتَ بِمُسْمِعٍ مَّن فِي ٱلْقُبُورِ﴾ [سورة فاطر، من الآية:١٩-٢٢].

الأمر الرّابع: أن الله تعالى رتب على عصاة الموحِّدين الحدودَ، ولم يأمرنا بقتالهم؛ كما نقاتل الكفرة المعتدين، وهذا دليل على الفرق البين بين عصاة الموحدين، والكافرين.

الأمر الخامس: أن النّبيّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لم يعامل عصاة المسلمين كمعاملته للكفرة والمشركين؛ فدل على الفرق بينهم، قال الله تعالى: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ

لِنتَ لَهُمْۖ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّواْ مِنْ حَوْلِكَۖ فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِى ٱلْأَمْرِ﴾ [سورة آل عمران، من الآية:١٥٩].

وهناك أدلة كثيرة تدل على الفروقات بين عصاة الموحدين، وبين الكفرة والمشركين العتاةِ على حقوق رب العالمين، كما قال تعالى: ﴿وَمَا يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَلَا ٱلْمُسِىٓءُۚ قَلِيلًا مَّا تَتَذَكَّرُونَ﴾ [سورة غافر، من الآية:٥٨].

وبهذه الأدلة ثبت الفرق بين من أسلم ووقع منه المعصية، وبين من كفر وأشرك؛ فهذا يدل أيضًا على الفرق بينهما في الآخرة، ولهذا فإنّ الله تعالى لما ذكر النّاس يوم القيامة قسمهم ثلاثة أقسام؛

القسم الأوّل: السابقون، وهم الذين سابقوا إلى الخيرات، وسارعوا إلى الطاعات، وظهر منهم الالتزام التام، والانقياد الكلي.

القسم الثّاني: أصحاب اليمين، وهم الذين حصل منهم الانقياد، وظهر منهم الإسلام، ولكنهم دون الصنف الأول في الالتزام بالدين، والاستقامة عليه.

القسم الثّالث: أصحاب الشمال، وهم الذين أنكروا الإسلام، وجحدوا الإيمان، وبقوا على الكفران، وعملوا بالشرك.

قال الله تعالى في بيانهم: ﴿وَكُنتُمْ أَزْوَاجًا ثَلَاثَةً ۝٧ فَأَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ مَا أَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ ۝٨ وَأَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ مَا أَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ ۝٩ وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ ۝١٠ أُولَٰئِكَ الْمُقَرَّبُونَ﴾ [سورة الواقعة، من الآية:٧-١١].

وقال في آخر سورة الواقعة: ﴿فَأَمَّا إِن كَانَ مِنَ الْمُقَرَّبِينَ ۝٨٨ فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّتُ نَعِيمٍ ۝٨٩ وَأَمَّا إِن كَانَ مِنْ أَصْحَابِ الْيَمِينِ ۝٩٠ فَسَلَامٌ لَّكَ مِنْ أَصْحَابِ الْيَمِينِ ۝٩١ وَأَمَّا إِن كَانَ مِنَ الْمُكَذِّبِينَ الضَّالِّينَ ۝٩٢ فَنُزُلٌ مِّنْ حَمِيمٍ ۝٩٣ وَتَصْلِيَةُ جَحِيمٍ ۝٩٤ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ حَقُّ الْيَقِينِ ۝٩٥ فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ﴾ [سورة الواقعة، من الآية:٨٨-٩٦].

وأكد هذا التّقسيم الحديث المعروف بحديث الصورة، أو حديث الساق، أو حديث السجود، وقد جاء عن عدة من الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ، وفيه: "**حَتَّى إِذَا لَمْ يَبْقَ إِلَّا مَنْ كَانَ يَعْبُدُ اللهَ تَعَالَى مِنْ بَرٍّ وَفَاجِرٍ أَتَاهُمْ رَبُّ الْعَالَمِينَ** سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى" [رواه مسلم من حديث أبي سعيد الخدري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ].

فهذه نصوصٌ ظاهرة في أن الله تعالى جعل النّاس ثلاثة أقسام، ولو كان النّاس قسمان؛ مسلمٌ تقي، وكافرٌ شقيٌّ؛ لما كان لهذا التقسيم الثلاثي من معنى، ولكن النّاس في ابتداء خروج أرواحهم ثلاثة أقسامهم، وفي ابتداء الحساب ثلاثة أقسامٍ، ثم النهاية أن جميع الكافرين في النّار، وأن جميع المسلمين يكونون في دار الجنان، حتّى لا يكون المسلم كالكافر، إذ لا يمكن أن يكون المسلمون ولو كان عصاةً كالكفار ولو لم يكونوا عتاة؛ فإنهم "**الذين خابوا من هدايته، ولم ينالوا من ولايته**"، والذين خابوا من هدايته هم الكفار والمشركون، فهم ليس

لهم من هداية التوفيق نصيبٌ، ولم يعنهم الله تعالى لما علم من إصرارهم على أهوائهم، وليس لهم من وَلاية الله شيءٌ أبدًا، قال الله تعالى: ﴿ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَوْلِيَآؤُهُمُ ٱلطَّٰغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ ٱلنُّورِ إِلَى ٱلظُّلُمَٰتِۗ أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ [سورة البقرة، من الآية:٢٥٧]، وقال سبحانه: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ مَوْلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَأَنَّ ٱلْكَٰفِرِينَ لَا مَوْلَىٰ لَهُمْ﴾ [سورة محمد، من الآية:١١].

فلا يَجْعَلُ الحَكَمُ العدْلُ الرحيم البرُّ سبحانه مَن أقرّ بالتوحيد؛ كمن جحد وأتي بالتنديد، وهذا المعنى مشاهدٌ حتّى عند ملوك الدّنيا؛ فليس من أنكر حُكْمَه ورئاسته كمن خالف أمره مع إقراره بحكمه ورياسته؛ فهو يعامل الأول بأشد النّكال، وربما يحكم عليه بالإعدام، أو بالنّفي من الأوطان، وأما الثاني؛ فإنه يعاقبه شيئا ثم يخلي سبيله بعد ذلك، ولله المثل الأعلى في السماوات والأرض وهو العزيز الحكيم.

و **"خاب"**: أي لم ينل ما طلب، وخسِرَ فلم يحصل هداية الله تعالى، وانقطع رجاؤه عن الله تعالى، فافتقر من رحمته، فحصل خسارة السعي، وانقطاع الأملِ، وذهب عمله بلا نتيجة، ولم يدرك ما كان يرغب فيه.

و **"نَالَ"**: أي أخذ وتناول نصيبه من وَلاية الله تعالى، وأصاب من ذلك شيئًا، وحصل مطلوبه وأدركه، وبذل السبب الموصل إلى مرغوبه، وجاءته العطايا من

ولاية الله تعالى له، وغرف من جوده سبحانه، وإنما نالوا من وَلاية الله تعالى لأنهم نالوا البر؛ فكان الجزاء من جنس العمل، قال الله تعالى: ﴿لَن تَنَالُواْ ٱلْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُواْ مِمَّا تُحِبُّونَ﴾ [سورة آل عمران، من الآية:٩٢]؛ فنوال الوَلاية بنوال الطاعة، ومن غرف من هداية الشّرع جاءته العطايا من جودِ بديع السماوات والأرض، في الدّنيا والآخرة.

ومما ينال به وَلايةُ الله تعالى الدعاء، وهو من أعظم أبواب الطاعة، ولهذا دعا المصنّف هنا؛ فقال: **"اللهم يا ولي الإسلام وأهله ثبتنا على الإسلام حتّى نلقاك به"**، ونحن نؤمِّنُ على دعائه، ونقول: آمين.

ومعنى **"اللهم"** أي يا اللهُ الموصوف بصفات الكمال والجمال والجلال، وهذا بين يدي الدعاء كالتوسل بين يدي الطلب.

و **"ولي الإسلام وأهلِه"** هو الله تعالى، فاحتمل معنيين؛

المعنى الأوّل: أنه سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ المشرِّع الإسلامَ، وهو يتولى شأن الإسلام، ويحفظ الإسلام من كيد الكائدين، ومن زيادة المزيدين، ومن نقص الناقصين، قال الله تعالى: ﴿يُرِيدُونَ أَن يُطۡفِـُٔواْ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفۡوَٰهِهِمۡ وَيَأۡبَى ٱللَّهُ إِلَّآ أَن يُتِمَّ نُورَهُۥ وَلَوۡ كَرِهَ ٱلۡكَٰفِرُونَ ٣٢ هُوَ ٱلَّذِيٓ أَرۡسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلۡهُدَىٰ وَدِينِ ٱلۡحَقِّ لِيُظۡهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوۡ كَرِهَ ٱلۡمُشۡرِكُونَ﴾ [سورة التوبة، من

الآية:٣٢-٣٣]، وقال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا﴾ [سورة الفتح، من الآية:٢٨].

المعنى الثّاني: أنه سبحانه وليّ المسلمين، وهو الله تعالى، وذلك أن من تولى الإسلام فإن الله تعالى يتولاه، كما قال تعالى: ﴿وَجَٰهِدُوا۟ فِى ٱللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِۦ ۚ هُوَ ٱجْتَبَىٰكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِى ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ ۚ مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَٰهِيمَ ۚ هُوَ سَمَّىٰكُمُ ٱلْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ وَفِى هَٰذَا لِيَكُونَ ٱلرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ ۚ فَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱعْتَصِمُوا۟ بِٱللَّهِ هُوَ مَوْلَىٰكُمْ ۖ فَنِعْمَ ٱلْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ ٱلنَّصِيرُ﴾ [سورة الحج، من الآية:٧٨].

و**"ثبتنا على الإسلام حتّى نلقاك به"** دليل على أن مجرد قبول الإسلام في وقتٍ غيرُ كافٍ، حتّى يكون الإسلام مع المسلم إلى حين الوفاة؛ فيلقى الله تعالى وهو مسلمٌ، أي مات على التوحيد، وعلى شهادة أن لا إله إلا الله.

و **"ثبتنا"** دعاءٌ وطلبٌ للاستقامة على الدين، وللثبات أسبابٌ؛ ومنها: التزام العبادات، وقراءة القرآن، وتدبره، والتمسك بالسنة، وطاعة النّبيّ صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ، واختيار الرفقة الصالحة، ونحو ذلك.

وخلاصة كلام المصنّف رَحِمَهُٱللَّهُ: بيان عقيدة أهل السنة في عصاة المسلمين، والردّ على المعتزلة والخوارج الذين خلدوا أهل الكبائر من المسلمين في النّار، وجعلوهم كالكافرين والمشركين، ولم يجعلوا التوحيد مانعًا من الخلود في

النّار، فمن مات من أهل التوحيد عاص غير تائب؛ فهو ليس تحت المشيئة عندهم.

وأما أهل السنة فإنه يقولون: بأن عصاة الموحدين تحت المشيئة، والله تعالى بفضله قد يغفر للعاصي فلا يعذبه ابتداءً، ويعذب من يشاء منهم لحكمة ثم يعفو عنه بفضله، فلا يخلدهم في النّار بعدله، وخروج الموحدين من النّار دليل على عدل الله وحكمته، إذ لم يسو بين من وحده وبين من جحده، أو أشرك معه غيره، نسأل الله الثبات حتّى نلقى الله على الإيمان التام وهو الكريم الوهاب.

[الصلاة خلف أهل الفسق والبدع]

وَنَرَى الصَّلَاةَ خَلْفَ كُلِّ بَرٍّ وَفَاجِرٍ مِنْ أَهْلِ الْقِبْلَةِ، وَعَلَى مَنْ مَاتَ مِنْهُمْ.

﴿ الشرح ﴾

هذا بيانٌ من المصنف رَحِمَهُ ٱللَّهُ في بيان بقاء الأخوة الدينية، وترتيب الأحكام الشرعية، على المسألة السابقة من بقاء أهل المعاصي في دائرة الإسلام؛ فينتج عنه صحة صلاتنا خلف الفجار، وعليهم في الجنائز إذا ماتوا.

قوله: "**ونرى الصلاة خلف كلّ بر وفاجر**" هذا تقرير لعقيدة السلف في صحة الصلاة خلف الأئمة أبرارًا كانوا أم لا، ما داموا مسلمين مِن أهل القبلة، خلافًا للخوارج والمعتزلة ومن وافقهم؛ فإنهم يزعمون أن الصلاة لا تصح إلا خلف الأبرار، وهو في نظرهم مَن يوافقهم في اعتقادهم، وبعضهم يقول: إن الصلاة لا تصح إلا خلف المعصومين أو مَن ينوب عنهم.

وقوله "**نرى**" فيه دلالتان:

الدّلالة الأولى: دلالة عقدية وهي المرادة هنا: فنعتقد أنه تجوز الصلاة خلف كلّ برٍّ وفاجِرٍ.

الدّلالة الثانية: دلالة فقهية، وهي ليست مقصودة للمصنف؛ فنقول: الصلاة خلف الأبرار أولى من الصلاة خلف الفجار، والصلاة خلف من ظاهره الاستقامة أولى ممن ظاهره عدم الاستقامة، وتُسَنُّ الصلاة خلف الأقرأ، ثم الأعلم بالسنة، ثم الأقدم هجرة، ثم الأكبر سِنًّا.

والفرق بين المسائل الاعتقادية والفقهية من حيث الحكم: أن المسائل الاعتقادية يترتب عليها القول بأنه توحيد أو شرك، إيمان أو كفرٌ، سنة أو بدعة.

وأما المسائل الفقهية؛ فيترتب عليها القول بالأحكام الخمسة؛ واجبٌ، أو مندوب، أو جائزٌ، أو مكروه، أو محرم.

ومن هنا ندرك بأن تقسيم البدع إلى الأحكام الخمسة هكذا إجمالًا خطأ شنيعٌ، وأنّ الواجب هو التّفصيل في نوع البدعة؛ فإن كانت في الدين، وهي بدعة متعلقة بالمسائل الدينية؛ فهي من قبيل المسائل العقدية؛ فلا تكون إلا بدعة، وأما إن كانت البدعة متعلقة بالأمور الدنيوية مثلَ البناء والمراكب والمعاملات التجارية ونحوها فهذه هي الّتي تدور عليها الأحكام الخمسة.

ومن الفروقات بين المسائل الاعتقادية والفقهية في الآثار: أن المسائل الاعتقادية يترتب عليها القول بأن فلانًا موحدٌ أو مشركٌ، مؤمنٌ أو كافرٌ، سنيٌّ أو بدعيٌّ، ويترتب عليه أحكام هذه الأسماء.

وأما المسائل الفقهية فيترتب عليها القول بأنه مطيعٌ ومستقيم أو مخالِفٌ عاصٍ، ويترتب عليه آثار الطائعين أو الفاسقين.

و **"الصلاة"**: لغة الدعاءُ، والثناءُ، وشرعًا: أفعال وأقوال مخصوصة تؤدى في أوقات مخصوصة، على هيئة مخصوصة، وهي الصلوات الخمس، وتوابعها.

و **"نرى الصلاة"** أي الجماعة، والجمعة، خلف الحكام، والمسؤولين، ومن يُعينهم وليُّ الأمرِ للصلاة والجمعة.

و **"خلف"**: أي تابعين لهم، ولا نتقدم عليهم، ونكون مأمومين خلفهم، ونتابعهم، وهذه المتابعة في الصلاة دلالة على السمع والطاعة خارج الصلاة، وكما لا نخالفهم في الصلاة إذا أدوها على وجهها؛ فلا نخالفهم فيما لا يخالف الشّرع، ولا يضاده.

و **"بَرّ"** بفتح الباء وصفٌ لمن فعل (البِرّ)، وهو كلّ خيرٍ، وكلّ إحسان، وعطاءٍ وبذلٍ، وصدقٍ وعَدْلٍ، وفلانٌ بَرٌّ بمعنى: خَيِّرٌ، ومحسنٌ، ومعطٍ وباذِلٌ، وصادقٌ، وعدلٌ، ومن أسماء الله تعالى (البَرُّ) أي الكريم في العطاء، والمحسن بالخيرات، والصادق العدلُ.

و **"فاجر"** وصفٌ لمن فعل الفجورَ، وهو الفسوقُ، وكلّ كذبٍ وجورٍ، ووصفٍ سيِّءٍ، وفلانٌ فاجرٌ؛ أي فاسقٌ، غير مكترثٍ بالخير، كاذبٌ، وغير عدلٍ، ومنقاد للمعاصي، وقد يطلق على معنى أخصٍّ وهو الزنا.

ومما يدل على وجوب اعتقاد صحة الصلاة خلف الأئمة أبرارًا كانوا أم لا، أحاديث ومنها؛ حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: **"يصلون لكم، فإن أصابوا فلكم، وإن أخطئوا فلكم وعليهم"** [رواه البخاري].

وتأخير الصلاة عن وقتها من الجورِ، ومع هذا فإن النّبيّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أمر بالصلاة خلفهم؛ كما في حديث أَبِي ذرٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ لِي رَسُولُ اللهِ: **"كَيْفَ أَنْتَ إِذَا كَانَتْ عَلَيْكَ أُمَرَاءُ يُؤَخِّرُونَ الصَّلَاةَ عَنْ وَقْتِهَا؟ -أَوْ- يُمِيتُونَ الصَّلَاةَ عَنْ وَقْتِهَا؟"** قَالَ: قُلْتُ: فَمَا تَأْمُرُنِي؟ قَالَ: **"صَلِّ الصَّلَاةَ لِوَقْتِهَا، فَإِنْ أَدْرَكْتَهَا مَعَهُمْ،**

فَصَلِّ، فَإِنَّهَا لَكَ نَافِلَةٌ" [رواه مسلم].

والظلم عين الجورُ، ومن ذلك الأثرةُ، وهي أخذ الأموال والاستئثار بها دون الرعية، فيطلبون الحقوق الواجبة علينا تجاههم، ويمنعوننا حقوقنا، وهذا جورٌ، ومع ذلك أمر النّبيّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بالصلاة خلف أمثال هؤلاء الأئمة الجائرين، كما في حديث وَائِلٍ الْحَضْرَمِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: سَأَلَ سَلَمَةُ بْنُ يَزِيدَ الْجُعْفِيُّ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَقَالَ: يَا نَبِيَّ اللهِ، أَرَأَيْتَ إِنْ قَامَتْ عَلَيْنَا أُمَرَاءُ يَسْأَلُونَا حَقَّهُمْ وَيَمْنَعُونَا حَقَّنَا، فَمَا تَأْمُرُنَا؟ فَأَعْرَضَ عَنْهُ، ثُمَّ سَأَلَهُ، فَأَعْرَضَ عَنْهُ، ثُمَّ سَأَلَهُ فِي الثَّانِيَةِ أَوْ فِي الثَّالِثَةِ، فَجَذَبَهُ الْأَشْعَثُ بْنُ قَيْسٍ، وَقَالَ: **"اسْمَعُوا وَأَطِيعُوا، فَإِنَّمَا عَلَيْهِمْ مَا حُمِّلُوا، وَعَلَيْكُمْ مَا حُمِّلْتُمْ"** [رواه مسلم].

وجريان عمل الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ أنهم يرون الصلاة خلف كلّ برٍّ وفاجرٍ؛ ولهذا صلى بعضهم خلف الحجاج وأمثاله، ولم يأمروا بالإعادة، قال عبيد الله بن عدي بن خيار، أنه دخل على عثمان بن عفان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، -وهو محصور- فقال: إنك إمام عامة، ونزل بك ما نرى، ويصلي لنا إمام فتنة، ونتحرج؟ فقال: **"الصلاةُ أحسن ما يَعْمَلُ النّاس، فإذا أحسن النّاس، فأحسن معهم، وإذا أساءوا فاجتنب إساءتهم"** [رواه البخاري].

وقوله **"مِن أهل القبلة"**: أي ممن يصلي إلى القبلة، وهم عموم أهل الإسلامِ، أي تجوز الصلاة خلف الأئمة ما داموا مسلمين، وجعل من علامات إسلامهم كونهم يقيمون الصلاة، ويتجهون للقبلة، فدل على أن أظهر شيءٍ يدل على

كفرهم تركهم للصلاةِ، أو إتيانهم بالكفر الظاهر البواح؛ كما جاء في حديث جُنَادَة بْنِ أَبِي أُمَيَّةَ قَالَ: دَخَلْنَا عَلَى عُبَادَةَ بْنِ الصَّامِتِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وَهُوَ مَرِيضٌ، فَقُلْنَا: حَدِّثْنَا أَصْلَحَكَ اللهُ، بِحَدِيثٍ يَنْفَعُ اللهُ بِهِ سَمِعْتَهُ مِنْ رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ فَقَالَ: دَعَانَا رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَبَايَعْنَاهُ، فَكَانَ فِيمَا أَخَذَ عَلَيْنَا: **"أَنْ بَايَعَنَا عَلَى السَّمْعِ وَالطَّاعَةِ، فِي مَنْشَطِنَا وَمَكْرَهِنَا، وَعُسْرِنَا وَيُسْرِنَا، وَأَثَرَةٍ عَلَيْنَا، وَأَنْ لَا نُنَازِعَ الْأَمْرَ أَهْلَهُ"**، قَالَ: **"إِلَّا أَنْ تَرَوْا كُفْرًا بَوَاحًا عِنْدَكُمْ مِنَ اللهِ فِيهِ بُرْهَانٌ"** [رواه البخاري ومسلم، وهذا لفظه].

ودل قول المصنّف رَحِمَهُ اللَّهُ أنّ مَن ادّعى الإسلام، وغيّر الصلوات الخمس، أو لا يصلي إلى القبلة، أو ظهر منه الكفر البواح؛ فإنه لا يصلى خلفه، وإن ادعى الإسلام.

وهنا لا بد من ذكر مسألة عظيمة، وهي: أن من ثبت إسلامه بيقين فإنه لا يزول عنه بالظن والتخمين، ولا بالدعايات الكاذبة، والإخبارات الملفقة، والمهاترات السّياسية الّتي يقصد من ورائها الكراسي والأموال والدّنيا والجاه.

وقوله: **"وعلى من مات منهم"** أي ونرى الصلاة على مَن مَات مِن أهل القبلة؛ فنصلي الجنازة على كلّ مسلمٍ، سواء كان برًا أوْ لا.

وقد صح في حديث عمران بن حصين رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا في المرأة الّتي أقرّت بالزنا، وفيه: "ثُمَّ أَمَرَ بِهَا فَرُجِمَتْ، ثُمَّ صَلَّى عَلَيْهَا، فَقَالَ لَهُ عُمَرُ: تُصَلِّي عَلَيْهَا يَا نَبِيَّ اللهِ وَقَدْ زَنَتْ؟ فَقَالَ: **"لَقَدْ تَابَتْ تَوْبَةً لَوْ قُسِمَتْ بَيْنَ سَبْعِينَ مِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ**

لَوَسِعَتْهُمْ، وَهَلْ وَجَدْتَ تَوْبَةً أَفْضَلَ مِنْ أَنْ جَادَتْ بِنَفْسِهَا لِلَّهِ تَعَالَى؟" [رواه مسلم].

واتفق على هذا أهل السنة، خلافا للخوارج والمعتزلة ومن وافقهم؛ فإنهم لا يرون الصلاة على مخالفيهم، ويرونهم كفارًا مخلدين في النّار، ولا يصلون على أهل الكبائر من المسلمين.

خلاصة كلام المصنّف: أنّ مِن عقيدة وميزات أهل السنة رحمتهم بالأمة؛ فيرون الصلاة خلف الأئمة وإن جاروا فضلًا عن الأبرار، وذلك دفعًا لشق العصا، وغلقًا لباب الشر والخروج عليهم، ويرون صحة الصلاة على أهل الكبائر حتّى لو كانوا فجّارًا فضلًا عن الأبرار.

❀❀❀

[الشهادة لمعينين]

وَلَا نُنَزِّلُ أَحَدًا مِنْهُمْ جَنَّةً وَلَا نَارًا، وَلَا نَشْهَدُ عَلَيْهِمْ بِكُفْرٍ، وَلَا بِشِرْكٍ، وَلَا بِنِفَاقٍ، مَا لَمْ يَظْهَرْ مِنْهُمْ شَيْءٌ مِنْ ذَلِكَ، وَنَذَرُ سَرَائِرَهُمْ إِلَى اللهِ تَعَالَى.

﴿ الشرح ﴾

هذا تقرير من المصنف رَحِمَهُ ٱللَّهُ في بيان الحكم على الأعيان في إنزالهم منازل عند الرحمن تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ، وأن تنزيل الأحكام بناءً على ما في السرائر أمرٌ موكول إلى الله تعالى.

قوله: **"ولا نُنْزِلُ أحدًا منهم جنة ولا نارًا"** أي لا نحكم على الأعيان من أمة الإسلام بأنه من أهل الجنّة لبرهم وتقواهم، ولا نحكم على الأعيان من أمة الإسلام بأنه من أهل النّار لفسقهم وفجورهم، وذلك لأن القضاء عند الله عزوجل، وهو سبحانه الحكم العدل، الّذي يملك الجنّة والنّار، ويدخل فيهما من شاء.

فإن قيل: ما السبب في أنا لا نحكم على الأعيان بالجنان أو النيران؟

فالجواب: إنّا لا نحكم على الأعيان بجنة ولا نار لعدة أسبابٍ:

السّبب الأوّل: أن ذلك القضاء إلى الله تعالى، فكما ليس لكل أحدٍ أن يقضي في الدّنيا على الأعيان؛ فالآخرة مِن باب أولى، قال الله تعالى: ﴿مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ﴾ [سورة الفاتحة، من الآية:٤].

السّبب الثّاني: أن الحكم العام أو المطلق لا يلزم منه الحكم على الأعيان،

والأفراد، فلما نقول: الأبرار في الجنّة؛ فذلك لا يعني أن كلّ من نراه بارا يستحق أن نشهد له بالجنّة، ولما نقول: الفجار في النّار؛ فذلك لا يعني أن كلّ من نراه فاجرًا يستحق أن نشهد له بالنّار، ولذلك لما نقول إن شارب الخمر ملعونٌ؛ فهذا حكمٌ عامٌ، ولا يلزم أن كلّ شارب خمرٍ لا بد وأن يكون ملعونًا؛ وقد جاء لعن شارب الخمر على العموم؛ كما في حديث عبد الله بن عمر رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا يقول: قال رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: **"لَعَنَ اللهُ الخمرَ، وشاربَها، وساقيَها، وبائعَهَا، ومُبْتَاعَهَا، وعاصِرَها، ومُعْتَصِرَها، وحَامِلَها، والمحمولَةَ إليه"**[رواه أبو داود، وابن حبان في صحيحه].

وجاء النهي عن لعن المعين من شاربي الخمرِ؛ كما في حديث عُمَرَ بْنِ الخَطَّابِ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ أَنَّ رَجُلًا عَلَى عَهْدِ النّبيّ صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ كَانَ اسْمُهُ عَبْدَ اللهِ، وَكَانَ يُلَقَّبُ حِمَارًا، وَكَانَ يُضْحِكُ رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ، وَكَانَ النّبيّ صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ قَدْ جَلَدَهُ فِي الشَّرَابِ، فَأُتِيَ بِهِ يَوْمًا فَأَمَرَ بِهِ فَجُلِدَ، فَقَالَ رَجُلٌ مِنَ القَوْمِ: اللَّهُمَّ العَنْهُ، مَا أَكْثَرَ مَا يُؤْتَى بِهِ؟ فَقَالَ النّبيّ صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: **"لَا تَلْعَنُوهُ، فَوَاللهِ مَا عَلِمْتُ إِنَّهُ يُحِبُّ اللهَ وَرَسُولَهُ"** [رواه البخاري].

فهذا في الوعيد، وله نظائر، وكذلك في الوعدِ؛ لما نقول: إنّ كافل اليتيم في الجنّة مع النّبيّ صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ لا يلزم أن كلّ كافل يتيم كذلك؛ فكافل اليتيم الّذي يكون مُرائيًا ليس له من هذا الوعدِ شيءٌ، وكافل اليتيم الّذي ماله حرامٌ ليس له من هذا الوعدِ شيءٌ، وله نظائر، وذلك للسبب الآتي.

السّبب الثّالث: أن الحكم على المعين لا بد فيه من وجود الشروط وانتفاء الموانع، وهذه الأمور لا يمكن الحكم على كلّ معينٍ، وإن كان ربما يمكن في بعض المعينين دون بعضٍ، ومما يدلّ على أنه لا يمكن على كلّ معين أن الأحكام عند الله تعالى مرتبطة بالنيات والقلوب وهذا ما لا يطلعه عليه إلا علام الغيوب؛ فلهذا كان الحكم على الأعيان له تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ وحده لا شريك له.

و **"لا نُنْزِل"** أي لا نجعل لهم منازل من أنفُسِنا، ودل أن إنزال الْمُعَيَّنين هو حكمٌ راجع إلى رب العالمين تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ، ولهذا لا يجوز أن نشهد لِمُعَيَّنٍ بأنَّه في جنّة أو نار، إلا أن يكون جاء فيه النصُّ، وذلك لأن الجنّة والنّار ملكٌ لله رب العالمين، لا يدخلها إلا من حكم ربنا له بعينه بأنه يدخلها، والنصوص الواردة في هذا الباب منقسمة إلى أربعة أقسام:

القسم الأوّل: نصوص تدل على أن الجنّة لمن اتصف بكذا وكذا، وأساس ذلك الإيمان ومعه العمل الصالح، الّذي هو منه؛ كقوله تعالى: ﴿وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ [سورة البقرة، من الآية:٢٥]، وقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّٰتُ ٱلْفِرْدَوْسِ نُزُلًا﴾ [سورة الكهف، من الآية:١٠٧]، وقال: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ [سورة البقرة، من الآية:٨٢]؛ فينبغي إبقاء هذه النصوص في الوعد على عمومها؛ فيقال: الصادقون في الجنّة، وأولياء الله في

الجنّة، والأبرار في الجنّة، والمتقون في الجنّة، وأصحاب اليمين في الجنّة، ونحو ذلك.

القسم الثّاني: نصوص تدل على أن النّار لمن اتصف بكذا وكذا، وأساس ذلك الكفر والشرك والنفاق، وجنس المعاصي الكبيرة؛ قال الله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَآ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ [سورة البقرة، من الآية:٣٩]، وقوله تعالى: ﴿بَلَىٰۚ مَن كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَٰطَتۡ بِهِۦ خَطِيٓـَٔتُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ [سورة البقرة، من الآية:٨١]، وقوله تعالى في القاتل أخاه: ﴿إِنِّيٓ أُرِيدُ أَن تَبُوٓأَ بِإِثۡمِي وَإِثۡمِكَ فَتَكُونَ مِنۡ أَصۡحَٰبِ ٱلنَّارِۚ وَذَٰلِكَ جَزَٰٓؤُاْ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [سورة المائدة، من الآية:٢٩]؛ فينبغي إبقاء هذه النصوص في الوعيد على عمومها؛ فيقال: الكفار في النّار، والمشركون في النّار، والمنافقون في النّار، والفجار في النّار، والظلمة في النّار، والفسقة في النّار، ونحو ذلك.

القسم الثّالث: نصوص تدل على أعيانٍ بأنهم مِن أهل الجنّة؛ كالأنبياء والرسل بأعيانهم من آدم إلى نوح إلى إبراهيم إلى موسى إلى عيسى إلى محمد عليهم الصلاة والسلام، وأن فلانًا مِن أبتاعهم مِن أهل الجنّة بالاسم؛ أو أن فلانًا مات والله تعالى راضٍ عنه، فهؤلاء نشهد لهم بأسمائهم؛ كما جاء في القرآن ذكر (٢٥) نبيًا ورسولًا، وكلّ نبيٍّ ورسولٍ فنشهد له على سبيل القطع بأنه في الجنّة باسمه وعينه، إذا تيقنا نبوته، وثبتت رسالته.

وجاء في السنة الشهادة لمعينين بأنهم في الجنّة، مثلُ حديثِ أَبِي الأعورِ سَعِيدَ بْنَ زَيْدٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: **"عَشَرَةٌ فِي الجنّة: أَبُو بَكْرٍ فِي الجنّة، وَعُمَرُ فِي الجنّة، وَعُثْمَانُ، وَعَلِيٌّ، وَالزُّبَيْرُ، وَطَلْحَةُ، وَعَبْدُ الرَّحْمَنِ، وَأَبُو عُبَيْدَةَ، وَسَعْدُ بْنُ أَبِي وَقَّاصٍ...أَبُو الأَعْوَرِ فِي الجنّة"** [رواه الترمذي، وقال: هو أصح من حديث حميد عن عبد الرحمن بن عوف]، ويدخل في هذا شهادة النّبيّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لنسائه بالجنّة، وأنهن زوجاته في الجنّة، وشهادته لفاطمة، والحسن، والحسين، وعكاشة، وسعد بن معاذ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وغيرهم.

القسم الرّابع: نصوص تدل على الأعيان بأنهم من أهل النّار؛ كإبليس، وفرعونَ، وقومِ نوحٍ، وقومِ هودٍ، وقوم صالح، وقوم لوط، وقوم شعيبٍ، ونحوهم، وكما جاء في الحديث الشهادة لمعينين من أهل الفترة بالنّار، مثل شهادة النّبيّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ على عمرو بن لحي بأنه في النّار، وعلى الّذي سرق الشملة بأنه في النّار، وشهادته على الدجال، ونحو ذلك.

وكما أنا لا نشهد لِمُعَيَّنٍ من أهل الإسلام بالجنّة ما لم يأتِ نص باسمه؛ فكذلك لا نشهد لِمُعَيّنٍ من الكفَّار والفجّار بأنَّه في النّار، ما لم يأت نص باسمه، وذلك لأن المعين حتّى يستحق النّار فلا بد من وجود الشروط والموانع، ونحن قد رأينا السبب الموجِب، ولَمّا نتحقق من وجود الشروط والموانع، ولا يمكننا أن نطلع على ما في باطنه، وما في قلبه، وربما نظرنا إلى ظاهر عمله أنّه فاجرٌ ولم ننظر هل أقيمت عليه الحجة الرّساليّة أم لا، وهل مات على ذلك أم لا؛ فإنْ

تحققنا من ذلك فلا بأس بهذه الشهادة، ويكون على الظاهر، وعليه يحمل حديث عبد الله بن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ: جَاءَ أَعْرَابِيٌّ إِلَى النّبيّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ، إِنَّ أَبِي كَانَ يَصِلُ الرَّحِمَ، وَكَانَ، وَكَانَ، فَأَيْنَ هُوَ؟ قَالَ **"فِي النَّارِ"**، قَالَ: فَكَأَنَّهُ وَجَدَ مِنْ ذَلِكَ، فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ فَأَيْنَ أَبُوكَ؟ فَقَالَ رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **"حَيْثُمَا مَرَرْتَ بِقَبْرِ مُشْرِكٍ فَبَشِّرْهُ بِالنَّارِ"**، قَالَ: فَأَسْلَمَ الْأَعْرَابِيُّ بَعْدُ، وَقَالَ: لَقَدْ كَلَّفَنِي رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ تَعَبًا، مَا مَرَرْتُ بِقَبْرِ كَافِرٍ إِلَّا بَشَّرْتُهُ بالنّار. [رواه ابن ماجه، وقال الهيثمي: إسناد هذا الحديث صحيح].

والقاعدة مطردة في هذا الباب؛ فنشهد لعموم الكافرين بالنّار، ونشهد لعموم المسلمين بالجنّة، ونقف في الأعيان حتّى يأتي نصٌّ، ونرجو للمحسنين، ونخاف على المسرفين الْمُتْرَفِين، والفاسقين والظالمين.

وقول المصنّف: **"ولا نشهد عليهم بكفرٍ، ولا بشركٍ، ولا بنفاقٍ، ما لم يظهر منهم شيء من ذلك"** أي لا نشهد على المسلمين من أمة محمدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بكفرٍ، ولا بشركٍ، ولا بنفاقٍ، حتّى يظهر ذلك عليهم جليًّا، وذلك لأن من ثبت إسلامه بيقين فلا يزول أن نزيل عنه اسم الإيمان أو الإسلام إلا بيقين لا بمجرد الظن والتخمين، ولا بمجرد الذنوب والمعاصي الّتي هي دون الكفر وشرك المشركين.

و **"لا بِشِرْكٍ"** مصدرٌ مِن (أشرك، يشرك، شركًا، وشراكة) والشِّرْكُ لغةً مطلق التسوية، والشراكة، والنَّصِيب.

والشرك شرعًا: صرفُ حقِّ الله تعالى لغير الله، وهو أنواعٌ من حيث التعلق:

النّوع الأوّل: شركٌ في الألوهية، وهو المراد عند الإطلاق، وهو صرفُ العبادة لغير الله تعالى.

النّوع الثّاني: شركٌ في الرّبوبيّة، وهو اعتقادُ رَبَّيْنِ في الكون، أو اعتقادٍ متصرِّفٍ في الكون مع الله تعالى، سواءً في الخلقِ، أو الرزق، أو الملك، أو التدبير.

النّوع الثّالث: شركٌ في الأسماء والصّفات، وهو اعتقاد أن لله تعالى نظيرٌ، أو مثيلٌ، أو شبيهٌ، في معاني هذه الأسماء والصّفات، قال الله تعالى: ﴿قُلۡ هَلۡ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَبۡدَؤُاْ ٱلۡخَلۡقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥۚ قُلِ ٱللَّهُ يَبۡدَؤُاْ ٱلۡخَلۡقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ﴾ [سورة يونس، من الآية:٣٤].

وأما من حيث الحكم؛ فإن الشرك ينقسم إلى قسمين:

القسم الأوّل: الشرك الأكبر، وهو ما سبق بيان أنواعه، وهو المراد عند الإطلاق، وعليه يترتب الأحكام المتعلقة بالمشركين.

القسم الثّاني: الشرك الأصغر، وهو كلّ ما سمّاه الشارع شركًا مما هو وسيلة إلى الأكبر، سواءٌ كان قوليًا؛ كقول: ما شاء الله وشاء فلان، إن كان بغير اعتقاد التسوية، أو فعليًا؛ كالتطير، أو التشاؤم، أو كان اعتقاديًا؛ كقوله؛ لولا الكلب لسُرِقْنا؛ فينسب الأمور إلى أسبابها، وينسى خالق الأسباب سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ.

ولا يجوز لنا من الناحية الاعتقادية أن نَسِمَ المسلم بالكفر والشرك بمجرد الذنوبِ الكبائر، وفعل المعاصي، وإنما يوسَم بذلك إذا ارتكب شيئًا من ذلك،

بعد توفر الشروط وانتفاء الموانع، ويكون الحكم من حاكمٍ، أو مفتٍ، أو قاضٍ، لا من خصمٍ، أو مجادلٍ.

فإن قيل: ما الفرق بين الشرك الأكبر والأصغر؟

فالجواب: أنّ الفرق بين الشرك الأكبر والأصغر من حيث الآثار، وهي:

الأثر الأوّل: أن الشركَ الأكبر يُخْرِجُ صاحبَه مِن الإسلامِ، ويكون صاحبه كافرًا، بخلاف الأصغر؛ فإن صاحبه من أمة الإسلام، وإن كان عاصيا به.

الأثر الثّاني: أن صاحب الشرك الأكبر لا يُصَلَّى عليه، ولا يُغَسَّل، ولا يُدْفَنُ في مقابر المسلمين، ولا يُسْتَغْفَرُ له بعد الممات، بخلاف صاحب الأصغر فإن له أحكام المسلمين، وتجري عليه أحكام الإسلام.

الأثرُ الثّالث: أنه يوم القيامة لا يمكن الشفاعة له، بخلاف الأصغر فإن صاحبه لا يُحرَم من الشفاعة.

الأثر الرّابع: أنه يوم القيامة مخلدٌ في النّار، ولا يَخْرُج منها أبدًا، بخلاف الأصغر فإن صاحبه وإن دخل النّار فإنه يخرج من النّار.

وهل الشرك الأصغر داخلٌ تحت المشيئة أم لا؟ كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ وَيَغۡفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾ [سورة النساء، من الآية:٤٨]؛ فنقول: فيه قولان لأهل العلم:

القول الأوّل: أن الشرك الأصغر داخل تحت المشيئة، وذلك من وجهين:

الوجه الأوّل: أن الشرك الأصغر من جنس المعاصي الكبيرة، وليست من

جنس الذنوب الّتي تخرج من الإسلام.

الوجه الثّاني: أن الشرك المراد في الآية هو الجنس المعهود، الّذي يخالف التوحيد ويضاده، وهو الشرك الأكبر، وعلى هذا فإنّ (أنْ) وما بعده من الفعل مؤول بالمصدر المعهود المعرَّف، ويكون المعنى؛ لا يغفر الشِّرْكَ به، وهذا القول هو قول جماهير العلماء، وهو الراجح إن شاء الله تعالى.

القول الثّاني: أن الشرك الأصغر لا يدخل تحت المشيئة، ومن وجهين أيضًا؛

الوجه الأوّل: أن الشرك الأصغر من جنس الشرك الأكبر، ولهذا يطلق عليه اسم الشرك، وإن كان دونه في الأحكام، والآثار.

الوجه الثّاني:أن الشرك المراد في الآية هو مطلق الشرك، و(أَنْ) وما بعده من الفعل مؤول بالمصدر منكَّرًا، ويكون المعنى؛ لا يغفر شرْكًا به، وهذا القول هو اختيار أبي العباس شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

قول المصنّف: **"ولا بنفاقٍ"** أي ولا نشهد على معين من المسلمين بنفاقٍ ما لم يظهر منه ذلك.

و**(النفاقُ)** لغة: إظهارُ شَيْءٍ وإخفاءُ ضدّه، وهو الكذبُ، سواء كان قولًا، أو فعلا، او اعتقادًا.

والنفاق شرعًا: إظهار الإسلامِ، وإبطان الكفرِ.

والنفاقُ من حيث الحكم نوعان:

النّوع الأوّل: النفاق الأكبر، ويُسمى النفاق الاعتقادي، وهو المراد عند

الإطلاق، وعليه يترتب أحكام النفاق الأكبر، ومنه نفاق ابنِ نوحٍ وامرأته، وامرأة لوطٍ، ونفاق عبد الله بن أبي بن سلولٍ، ونحوِهم ممن قال الله تعالى فيهم: ﴿إِذَا جَآءَكَ ٱلۡمُنَٰفِقُونَ قَالُواْ نَشۡهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُۥ وَٱللَّهُ يَشۡهَدُ إِنَّ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ لَكَٰذِبُونَ﴾ [سورة المنافقون، من الآية:١]، وقال فيهم: ﴿إِنَّ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ فِي ٱلدَّرۡكِ ٱلۡأَسۡفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ وَلَن تَجِدَ لَهُمۡ نَصِيرًا﴾ [سورة النساء، من الآية:١٤٥].

النّوع الثّاني: النفاق الأصغر، ويُسمى بالنفاق العملي، وهو كلّ ما كان على خلاف الحقيقةِ، سواء كان قولًا؛ كالكذب، أو فعلًا؛ كالخيانة، أو عملًا؛ كالفجور في الخصومة، ومنه حديث عَبْدِ اللهِ بْنِ عَمْرٍو رَضِيَٱللَّهُعَنۡهُ ما عَنِ النّبيّ صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ قَالَ: "أَرْبَعٌ مَنْ كُنَّ فِيهِ كَانَ مُنَافِقًا، وَإِنْ كَانَتْ خَصْلَةٌ مِنْهُنَّ فِيهِ كَانَتْ فِيهِ خَصْلَةٌ مِنَ النِّفَاقِ حتّى يَدَعهَا، مَنْ إِذَا حَدَّثَ كَذَبَ، وَإِذَا وَعَدَ أَخْلَفَ، وَإِذَا خَاصَمَ فَجَرَ، وَإِذَا عَاهَدَ غَدَرَ" [رواه البخاري، والترمذي، وهذا لفظه].

وقوله: **"ما لم يظهر منهم شيءٌ من ذلك"** أي ما لم يظهر منهم جليا الكفرُ أو الشرك أو النفاقُ، فمن ظهر منه شيءٌ من ذلك فإن أهل الحكم ينبغي عليهم أن يحكموا عليه بما يستحقه من أحكام الرِّدَّة، وما يتعلق به من الاستتابة، وغيرها.

وأفاد هذا أن المسلمَ قد يظهرُ منه شيءٌ من أقوال أو أعمال الكافرين، فيصبح حكمه حكمهم، وذلك بعد انطباق الحكم عليه، وهذا فيه رد على طوائفَ من المرجئة وغلاة المتصوفة ممن يزعمون أن المسلم لا يقع منه الردة، وهذا القول

باطلٌ وذلك من أوجهٍ:

الوجه الأوّل: أن الله تعالى حذّر من الرِّدة؛ فقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تُطِيعُواْ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يَرُدُّوكُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ فَتَنقَلِبُواْ خَٰسِرِينَ﴾ [سورة آل عمران، من الآية:١٤٩]، وقال: ﴿وَمَن يَرْتَدِدْ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُوْلَٰٓئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ [سورة البقرة، من الآية:٢١٧].

الوجه الثّاني: أن النّبيّ ﷺ بين أن حكم المرتد القتلُ، وأخبر أنه يستحق القتل، ولولا أنه يستحق ذلك لما أخبر به؛ كما في حديث عَبْدِ اللهِ بْنِ مَسْعُودٍ رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: **"لاَ يَحِلُّ دَمُ امْرِئٍ مُسْلِمٍ يَشْهَدُ أَنْ لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللهُ، وَأَنِّي رَسُولُ اللهِ، إِلاَّ بِإِحْدَى ثَلاَثٍ: النَّفْسُ بِالنَّفْسِ، وَالثَّيِّبُ الزَّانِي، وَالْمَارِقُ مِنَ الدِّينِ، التَّارِكُ لِلْجَمَاعَةِ"** [رواه البخاري ومسلم].

الوجه الثّالث: أن الصحابة رضي الله عنهم بالإجماع قاتلوا المرتدين، كما حصل من خليفة رسول الله ﷺ أبي بكر رضي الله عنه كما في حديث أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه قَالَ: لَمَّا تُوُفِّيَ رَسُولُ اللهِ ﷺ، وَاسْتُخْلِفَ أَبُو بَكْرٍ بَعْدَهُ كَفَرَ مَنْ كَفَرَ مِنَ العَرَبِ فَقَالَ عُمَرُ بْنُ الخَطَّابِ، لأَبِي بَكْرٍ: كَيْفَ تُقَاتِلُ النّاس، وَقَدْ قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: **"أُمِرْتُ أَنْ أُقَاتِلَ النّاس حتّى يَقُولُوا: لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللهُ، وَمَنْ قَالَ: لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللهُ عَصَمَ مِنِّي مَالَهُ وَنَفْسَهُ إِلاَّ بِحَقِّهِ وَحِسَابُهُ عَلَى اللهِ"**؛ فَقَالَ

أَبُو بَكْرٍ: وَاللهِ لَأُقَاتِلَنَّ مَنْ فَرَّقَ بَيْنَ الزَّكَاةِ وَالصَّلاَةِ، وَإِنَّ الزَّكَاةَ حَقُّ الْمَالِ، وَاللهِ لَوْ مَنَعُونِي عِقَالًا كَانُوا يُؤَدُّونَهُ إِلَى رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَقَاتَلْتُهُمْ عَلَى مَنْعِهِ؛ فَقَالَ عُمَرُ بْنُ الخَطَّابِ: فَوَاللهِ مَا هُوَ إِلاَّ أَنْ رَأَيْتُ أَنَّ اللهَ قَدْ شَرَحَ صَدْرَ أَبِي بَكْرٍ لِلْقِتَالِ فَعَرَفْتُ أَنَّهُ الحَقُّ. [رواه البخاري ومسلم].

وحصل قتل المرتدين من الخليفة الراشد علي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ كما في حديث عِكْرِمَةَ: أَنَّ عَلِيًّا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ حَرَّقَ قَوْمًا ارْتَدُّوا عَنِ الإِسْلاَمِ، فَبَلَغَ ذَلِكَ ابْنَ عَبَّاسٍ، فَقَالَ: لَوْ كُنْتُ أَنَا لَقَتَلْتُهُمْ بِقَوْلِ رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: مَنْ بَدَّلَ دِينَهُ فَاقْتُلُوهُ. وَلَمْ أَكُنْ لأُحَرِّقَهُمْ لِقَوْلِ رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **"لاَ تُعَذِّبُوا بِعَذَابِ اللهِ"**، فَبَلَغَ ذَلِكَ عَلِيًّا، فَقَالَ: صَدَقَ ابْنُ عَبَّاسٍ. [رواه البخاري، والترمذي، وهذا لفظه].

الوجه الرّابع: أن الفقهاء جميعًا من جميع المذاهب يذكرون أبوابًا وكتبًا خاصة متعلقة بأحكام المرتدين في مطولاتهم الفقهية، ومختصراتهم، ويذكرون فيها أقوالًا وأفعالًا من الكفر والشرك والنفاق؛ فهذا كله يدل على أن المسلم قد يرتد، أعاذنا الله تعالى من الردة، وأماتنا على التوحيد والسنة.

وعلامةُ ظهور الكفر أو الشرك أو النفاق إما أن يكون قوليا؛ كسبِّ الله تعالى، أو سب دينه، أو سب نبيٍّ من أنبيائه، أو يكون فعليًّا؛ كإهانة المصحف، أو السجود لصنمٍ أو قبرٍ، أما الأعمال القلبية فلا سبيل إلى العلم بها، وذلك موكولٌ إلى الله تعالى، إلا أن بعض الأعمال والأقوال تدل وتنبئ عن سوء ما في القلب، كما قال الله تعالى: ﴿وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ أَعْمَالَكُمْ﴾ [سورة محمد، من

الآية:٣٠]، وقال تعالى: ﴿وَدُّواْ مَا عَنِتُّمْ قَدْ بَدَتِ ٱلْبَغْضَآءُ مِنْ أَفْوَٰهِهِمْ وَمَا تُخْفِي صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ﴾ [سورة آل عمران، من الآية:١١٨].

قوله: **"ونَذَرُ سَرَائِرُهم إلى الله تعالى"** أي ينبغي معاملة النّاس وَفق الظاهر، ولا ينبغي أن نعاملهم بما نظن أنهم يقصدونه، أو بما نظن أنهم يظهرونه؛ بل الحكم والتعامل إنما هو بما يظهرونه، والسرائر إلى الله تعالى، ولا يجوز لحاكمٍ أو قاضٍ أو مفتٍ إلا أن يفتي بما يظهر لا بما يكون في مخبوءات النفوس الّتي لا يعلمها على اليقين إلا الله تعالى.

و **"نَذَرُ"** بمعنى نترك وندعُ ونكِلُ، **"سرائر"** جمعُ سريرة، وهي مخبوء ما في القلب، مما يكون سرًّا في قلب الإنسان، وما يكتمه، فمعاملة النّاس بالظاهر في الدّنيا؛ كما جاء في حديث أُمِّ سَلَمَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قَالَتْ: قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **"إِنَّكُمْ تَخْتَصِمُونَ إِلَيَّ، وَلَعَلَّ بَعْضَكُمْ أَنْ يَكُونَ أَلْحَنَ بِحُجَّتِهِ مِنْ بَعْضٍ، فَأَقْضِيَ لَهُ عَلَى نَحْوٍ مِمَّا أَسْمَعُ مِنْهُ، فَمَنْ قَطَعْتُ لَهُ مِنْ حَقِّ أَخِيهِ شَيْئًا، فَلَا يَأْخُذْهُ، فَإِنَّمَا أَقْطَعُ لَهُ بِهِ قِطْعَةً مِنَ النَّارِ"** [رواه مسلم].

ولا يجوز أخذ النّاس باللازم إلا إذا التزموه، وهذه من الفوارق بين أهل السنة وأهل البدعة؛ فإنهم يأخذون النّاس بلوازم أقوالهم وأعمالهم، ويكفرونهم بالوسائط؛ فيقولون؛ لأنه فعل كذا فيلزم منه كذا، وبناء على الثاني فهو كافرٌ، ويقولون: إنه يأكل الربا، أو يُقَنِّنُ الربا؛ وهذا يدل على إباحته الربا، وإباحة الربا كفرٌ، إذا هو كافرٌ، وهذا كلّه من طريقة الخوارج ومن وافقهم؛ فالواجب الحذر

من التكفير باللوازم، وكذلك الحذر من التّفسيق باللوازم، ومن التّبديع باللوازم؛ فلا يُكَفّرُ مسلم إلا بكفرٍ ظاهرٍ، ولا يُفَسّق إلا بفسقٍ بيِّنٍ، ولا يُبَدّعُ إلا ببدعةٍ جليّة، هذا من حيث العموم، وأما من حيث الخصوص؛ فلا بد من وجود الشروط وانتفاء الموانع، ويكون ذلك عند من له الحكم؛ كالحكام، أو القضاة، أو المفتين، وهذا عندما يتعلق الحكم بمسألة نزاعية، أي أنه يقول إني مسلمٌ وخصمه يقول لا أنت كافرٌ، هو يقول إني طائع وخصمه يقول إنك فاسق، هو يقول إني سني وخصمه يقول إنه مبتدعٌ؛ فلا يجوز أن يكون الخصم هو الحاكم.

وأما في المسائل الّتي لا ينازع فيها أصحابها الاسم؛ فلا داعي لحاكمٍ، ولا قاضٍ، ولا مفتٍ؛ لأن الإقرار كافٍ في ذلك؛ فمن قال: إني كافرٌ، أو فاسق، أو مبتدعٌ، أو انتسب إلى أمرٍ ظاهر الكفر والفسق والبدعةِ؛ فهذا يُحكم عليه بما أقر به، ويوسم بما وسم به نفسه، ويوصف بما وصف به نفسه، وذلك لأن المقرّ البالغ العاقل إقراره دليل عليه، ولا يحتاج فيه إلى شيء آخر، ولا إلى دليل آخر؛ فمن قال: إني على اليهودية، أو إني شاربُ الخمر، أو إني تكفيريٌّ خارجيٌّ، أو معتزلي؛ فهذا يعطى الوصف الّذي أقر به؛ فيقالُ فلانٌ: يهودي، وشارب للخمر، وتكفيري خارجي، أو معتزلي، ولا يحتاج فيه إلى حكم حاكمٍ؛ لكن إجراء أحكام الكافرين، والفاسقين، والمبتدعة، إنما يكون للحاكم فيما يتعلق بحكمه، والحدود، ونحوه.

خلاصة كلام المصنّف رَحِمَهُ ٱللَّهُ: فيه بيان أن أهل السنة لا يشهدون لمعين

بمنزلة الجنّة والنّار، وذلك لأنها غيب، ولأن الإيمان منه ظاهر وباطن، ولأن الشهادة بالجنّة والنّار بدون نص تقوّلٌ وافتراء غيبيٌّ، ولكن أهل السنة يشهدون للمسلمين من حيث العموم بأنهم في الجنّة، وللكافرين بالعموم أنهم من أهل النّار، ويخافون على الفاسق الملي، ويرجون له رحمة الله.

وأنَّ الشهادة على معين بكفر أو شرك أو نفاق لا يكون بمجرد الموافقة والمخالفة، كما هو حال أهل البدع؛ بل أهل السنة لا يقولون بالتكفير إلا إذا وجدت الشروط وانتفت الموانع.

وأما أهل البدع فإنهم يشهدون لمواليهم بالجنّة بأعيانهم، ولمخالفيهم بالنّار بأعيانهم، ويشهدون لمن خالفهم بالكفر بأعيانهم، ولا يفرقون بين العموم والخصوص، ولا بين المطلق والمقيد.

وقد قال النّبيّ صَلَّاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: **"إِذَا قَالَ الرَّجُلُ لِأَخِيهِ يَا كَافِرُ، فَقَدْ بَاءَ بِهِ أَحَدُهُمَا"** [رواه البخاري من حديث أبي هريرة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ]، وهذا يدل على خطورة التكفير، وقد أطلق الشارع لفظ الشرك والكفر والنفاق على أعمال مرادًا به الأصغر، وأهل البدع لا يفرقون بين الكفر الأصغر والأكبر.

❊❊❊

[تحريم الخروج على المسلمين وولاتهم]

وَلَا نَرَى السَّيْفَ عَلَى أَحَدٍ مِنْ أُمَّةِ مُحَمَّدٍ صَلَّى اللهُ تَعَالَى عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِلَّا مَنْ وَجَبَ عَلَيْهِ السَّيْفُ.

﴿ الشرح ﴾

هذا بيانٌ من المصنف رَحِمَهُ ٱللَّهُ لمسألة إجراء أحكام التكفير، وأنها لا تجوز على المسلمين؛ فلا يجوز قتلهم، ولا قتالهم، ما داموا مسلمين، ويحرم الخروج على الحكام المسلمين، وولاة أمرهم، ما داموا مسلمين.

قوله: **"ولا نرى السيف على أحدٍ من أمة محمد** صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ **إلا من وجب عليه السيف"** أي ومن المسائل الاعتقادية الّتي لا بد أن ندين الله تعالى به أنه لا يجوز أن نبادر المسلمين بالقتل، وأن نَقاتلهم لمجرد كونهم خالفونا، أو أظهروا المعاصي؛ بل لا يجوز قتل أيِّ مسلمٍ إلا في ثلاثِ حالات منصوصة عليها؛ (القصاص، والثيب الزاني، والمرتد)، وتحت كلّ حالة من هذه الثلاث أنواعٌ، قد تصل إلى العشرة، ويقيم الحدّ على هؤلاء وأمثالهم الحكام أو نوابهم؛ فإن لم يقم الحاكم هذه الحدود فليس لأحدٍ غيرهم أن يقيموها، إلا من له نوعُ وِلاية منهم.

و **"السيف"** سلاحٌ ذو نصلٍ طويلٍ، ومقبضٍ، له غِمدٌ يعلق به، وهو نوعٌ من الأسلحة معروفٌ، وجمعه أسيافٌ، وهو هنا كناية عن القتل؛ أي ولا نرى القتل على أحدٍ من المسلمين.

وقوله: "**أحدٍ**" نكرة مطلق يصح انطباقه على أي فرد من المسلمين، والمعنى لا يقتل أي أحدٍ سواءٌ كان موافقًا لنا من أهل السنة، أو مخالفًا لنا من أهل البدعة، وهذا من أعظم الأدلة على رحمة أهل السنة بالمسلمين، بخلاف أهل البدع؛ فإن كلّ طائفة منهم ترى جواز قتل مخالفيهم!؟ وأما أهل السنة فلا يرون جواز القتل لمجرد المخالفة، فإنهم وإن كانوا يوالون ويعادون على السنة؛ لكنهم لا يجرون أحكام القتل إلّا على ما جاء فيه النّصّ، ولهذا قال المصنّف رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "**إلا من وجب عليه السّيف**" أي إلا من وجب عليه القتل بحكم الشّرع، والذين وجب عليهم القتل من المسلمين بحكم الشّرع هم:

الأوّل: قاتل النفس عمدًا؛ فيجب فيه القصاص؛ كما قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡقِصَاصُ فِي ٱلۡقَتۡلَى﴾ [سورة البقرة، من الآية:١٧٨].

الثاني: الثيب الزاني؛ لحديث عثمان رَضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُ قال: سمعتُ رسولَ الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَسَلَّمَ يقول: "**لا يَحِلُّ دَمُ امرئٍ مسلمٍ إلا بإحدَى ثلاثٍ: رَجُلٍ كَفَرَ بعدَ إسلامٍ، أو زنَى بعدَ إحصانٍ، أو قتَلَ نفسًا بغيرِ نفسٍ**" [رواه أبوداود، وابن ماجه، والترمذي، وقال: حديث حسن].

الثالث: المرتدُّ، ويدخل فيه المفارقُ للجماعة، والباغي عليهم، والمحارب لهم، ويدل لهذا المعنى العام قول الله تعالى: ﴿إِنَّمَا جَزَٰٓؤُاْ ٱلَّذِينَ يُحَارِبُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَسۡعَوۡنَ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَسَادًا أَن يُقَتَّلُوٓاْ أَوۡ يُصَلَّبُوٓاْ أَوۡ تُقَطَّعَ

﴿أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم مِّنْ خِلَافٍ أَوْ يُنفَوْا مِنَ الْأَرْضِ ذَٰلِكَ لَهُمْ خِزْيٌ فِي الدُّنْيَا وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٣٣﴾ إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِن قَبْلِ أَن تَقْدِرُوا عَلَيْهِمْ فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [سورة المائدة، من الآية:٣٣-٣٤].

وكل أحدٍ غير هؤلاء جاء فيه أنه يستحق القتل مثل شارب الخمرِ في الرابعة، أو السارق في الخامسة، أو غيره فهو منسوخ، أو أنه من جنس مفارقة الجماعة، أو مِن جنس الزنا، أو القصاص.

وهذا يؤكد أنه لا يجوز قتل المسلم لأي معصية، وللمخالفة، وذلك لحرمة الدماء، وعظيمة مكانتها في الإسلام، كما في حديث جابر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ في خطبة النّبيّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في حجة الوداع، وفيه أنه قال: **"إِنَّ دِمَاءَكُمْ وَأَمْوَالَكُمْ حَرَامٌ عَلَيْكُمْ، كَحُرْمَةِ يَوْمِكُمْ هَذَا فِي شَهْرِكُمْ هَذَا، فِي بَلَدِكُمْ هَذَا"** [رواه مسلم].

وإذا كان لا يجوز قتل المسلم لبدعته المفسقة، أو لمعصيته، أو لفجوره، أو لظلمه؛ فهذا ينطبق على الحكّام والمحكومين، ومن هذا الباب منعُ الخروج على الحكام المسلمين؛ لأنه يؤدي إلى السيف، وإلى القتل، وإلى القتال، كما في تقريره الآتي.

خلاصة كلام المصنف رَحِمَهُ اللَّهُ: تحريم الخروج على الحكام المسلمين، إلّا من تبين كفره، وباحَ شركه، فحينئذٍ يجوز الخروج عليه إذا أمكنهم إزاحته بغير فتنة أكبر، ولا مضرة عظمى.

[وجوب طاعة ولاة المسلمين]

وَلَا نَرَى الْـخُرُوجَ عَلَى أَئِمَّتِنَا، وَلَا وُلَاةِ أُمُورِنَا، وَإِنْ جَارُوا، وَإِنْ ظَلَمُوا، وَلَا نَدْعُو عَلَيْهِمْ، وَلَا نَنْزِعُ يَدًا مِنْ طَاعَتِهِمْ، وَنَرَى طَاعَتَهُمْ مِنْ طَاعَةِ اللهِ تَعَالَى فَرِيضَةً، مَا لَـمْ يَأْمُرُوا بِـمَعْصِيَةٍ، وَنَدْعُو لَـهُمْ بِالصَّلَاحِ وَالْمُعَافَاةِ وَالْإِصْلَاحِ.

﴿ الشرح ﴾

هذا تقرير من المصنف رَحِمَهُ ٱللَّهُ لمسألة الخروج على الحكام المسلمين، وأنه لا يجوز، وإن وقع منهم نوع ظلمٍ، فالسمع والطاعة لهم بالمعروف هو المتعين، ولهم علينا حقوقٌ ومنها الدعاء.

قوله: **"ولا نرى الخروج على أئمتنا وولاة أمورنا، وإن جاروا"** أي ونعتقد أنه لا يجوز أن ننزع يدًا من طاعة، وأن نظهر الخلاف للحكام المسلمين، ولو كان فيهم ظلمٌ أو جورٌ.

ومعنى (**الخروج**) بضَمِّ الخاء المعجمة والراء المهملة مصدرٌ مِن (خرَجَ، يخرجُ، خَرْجًا، وخُرُوجًا)، ومعناه: الظهورُ، والبدوُّ، والبروزُ، و (**الخروج**) هنا أن يطوِّل الإنسان عنقه فينظر إلى كرسي الحكم، ويبعث نفسه والنّاس على عصيان الحاكِم. **والمقصود**: نزع اليد من طاعة الحاكم المسلم، وهو من فعل الخوارج والمعتزلة ونحوهم، ممن يرون أنه لا سمع إلا لحاكمٍ على مذهبهم، وكلّ من خالفهم فهو إما كافرٌ يجب قتله وقتاله، وإما فاسقٌ يجب إزالته وإزالة حكمه.

وأما أهل السنة والجماعة فإنهم لا يجوزون عقيدة الخروج على الحكام المسلمين، وهو المراد بـ"**أئمتنا**" أي حُكّامنا، جمع (**إمامٍ**)، وهو: الحاكم الّذي يؤم النّاس ويقودهم في أمور دينهم ودنياهم، ويطلق عليهم "**ولاة أمورنا**"، أي من يتولون أمور المسلمين الدينية والدنيوية؛ فيتولون في الدين الجمعة والجماعة والزكاة والحج وإعلان شهر رضمان، ونحو ذلك الجهاد والغزو، والأمن، وإقامة الحدود، ونحو ذلك من الأمور الدينية، وكذلك يتولون الأمور الدنيوية من ضبط النّاس، ووضع النظم الّتي تضبط حالهم ومآلهم من أمنٍ وصحةٍ، ومسكنٍ، ومأوى، ونحو ذلك من أمور التجارات، والتعاملات.

ووَليُّ الأمرِ هو: الحاكمُ، أو الرئيسُ، أو الأمير، أو الملِكُ، أو الخليفة، وهي أسماء لمسمى واحد وهو الّذي يتولى الحكم، وقد يطلق على نوابه، وأمرائه.

وقوله "**أئمتنا**" الإضافة للمسلمين، أي أئمة المسلمين وولاتهم، وهذا يدل بمفهوم المخالفة أنه ليس للكافر على المسلم السمع والطاعة؛ لقو الله تعالى: ﴿وَلَن يَجۡعَلَ ٱللَّهُ لِلۡكَٰفِرِينَ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ سَبِيلًا﴾ [سورة النساء، من الآية:١٤١]، والآية وإن كانت في أخبار الآخرة لكنها تفيد أنه لا ينبغي أن يكون للكافر على المؤمنين سبيلٌ لا في حكمٍ، ولا في وِلاية، ولا في إمارة، وهذا في حال الاختيار، وأما في حال الاضطرار؛ فيجب على المسلم أن يهاجر من البلد الّذي يكون فيه الحاكم كافرًا إلى بلاد المسلمين، وإن لم يقدر فإنه لا يخالفهم في أنظمتهم العامة الّتي لا تخالف الشريعة، ولا يتعامل معهم فيما هو حرام عليه شرعًا، ولا يكون عونًا

لهم على المسلمين.

قوله: **"ولا ندعو عليهم"** أي لا نكون سلبيين إذا رأينا منهم ظلمًا فندعو عليهم، ونعلن العداء لهم؛ بل نكون إيجابيين، سواء بيننا وبين النّاس، أو بيننا وبين الله تعالى، وذلك لأن الحاكم في بلاد المسلمين كالأب، ولو كان الأب جائرًا لم يجز الدعاء عليه؛ بل يُدعى له، ويُصبر عليه؛ فكذلك الحاكم، وهذه سمة من سمات أهل السنة أنهم يدعون لحكّامهم، ولا يدعون عليهم، وجاء في حديث عَوْفِ بْنِ مَالِكٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَنْ رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: **"خِيَارُ أَئِمَّتِكُمُ الَّذِينَ تُحِبُّونَهُمْ وَيُحِبُّونَكُمْ، وَيُصَلُّونَ عَلَيْكُمْ وَتُصَلُّونَ عَلَيْهِمْ، وَشِرَارُ أَئِمَّتِكُمُ الَّذِينَ تُبْغِضُونَهُمْ وَيُبْغِضُونَكُمْ، وَتَلْعَنُونَهُمْ وَيَلْعَنُونَكُمْ"**، قِيلَ: يَا رَسُولَ اللهِ، أَفَلَا نُنَابِذُهُمْ بِالسَّيْفِ؟ فَقَالَ: **"لَا، مَا أَقَامُوا فِيكُمُ الصَّلَاةَ، وَإِذَا رَأَيْتُمْ مِنْ وُلَاتِكُمْ شَيْئًا تَكْرَهُونَهُ، فَاكْرَهُوا عَمَلَهُ، وَلَا تَنْزِعُوا يَدًا مِنْ طَاعَةٍ"** [رواه مسلم].

والمسلم يُندب له الدعاء لعموم المسلمين؛ فكيف بخصوص مَن لهم منفعة دينية أو دنيوية؛ فهؤلاء أولى، ومما جاء في الترغيب في الدعاء لعموم المسلمين حديث عبادة بن الصامت رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مرفوعًا: **"من استغفر للمؤمنين والمؤمنات كتب الله له بكل مؤمن ومؤمنة حسنة"** [رواه الطبراني في الكبير، قال الهيثمي: إسناده جيد].

وكذلك المسلم مأمورٌ بأن يدعو لمن هو أكبر منه بالخيرِ، لا سيما من يقوم مقام والده في أموره وشؤونه، ولو كان عنده تقصيرٌ، أو ظلمٌ، أو فجور؛ فإنه لا

يدعو على أبيه أبدًا؛ بل يدعو له بالصلاح والإصلاح؛ كما دعا إبراهيم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ لأبيه فلما تبين أنه مات على الكفر تبرأ منه، وقد قال نوح عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ: ﴿رَّبِّ ٱغْفِرْ لِى وَلِوَٰلِدَىَّ وَلِمَن دَخَلَ بَيْتِىَ مُؤْمِنًا وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ وَلَا تَزِدِ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا تَبَارًۢا﴾ [سورة نوح، من الآية:٢٨]، والمقصود بالظالمين في الآية المشركين، لا ظلم المعاصي باتفاق المفسرين.

ولأن في صلاح الحاكم صلاحٌ للمحكومين، وفي فساده فساد للمحكومين؛ فهم أكثر حاجة إلى الدعاء بالصلاح من غيرهم؛ لكثرة المغريات حولهم، وكثرة المفسدات بين يديهم؛ فكان لا بد لأهل الصلاح وإن لم يكونوا أعوانه معه في أعماله أن يكونوا أعوانه بالخير من ورائه بظهر الغيب يدعون له، قال الفضيل بن عياضٍ رَحِمَهُ ٱللَّهُ وغيره: (لو كانت لي دعوة صالحة لرأيت السلطان أحق بها، فبصلاحه صلاح الرعية، وبفساده فسادهم) [المقاصد الحسنة للسخاوي]، وجاء عَنْ أَبِي أُمَامَةَ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ مرفوعًا: **"لَا تَسُبُّوا الْأَئِمَّةَ، وَادْعُوا لَهُمْ بِالصَّلَاحِ، فَإِنَّ صَلَاحَهُمْ لَكُمْ صَلَاحٌ"** [رواه الطبراني في الأوسط والكبير، ووثق رجاله الهيثمي إلا شيخ المصنّف، وضعفه الألباني].

ولأنهم بحاجة إلى عونٍ من الله تعالى لكثرة مسئولياتهم، فإن لم يكن لهم توفيق من الله تعالى لهم فكيف يُوَفَّقُون؟ فهم أحوج ما يكونون للدعاء من غيرهم؛ لكثرة الأمانات الملقاة على عواتقهم.

وأحدنا في مسؤولية بيته بحاجة إلى دعاء أهله؛ أفلا يكون السلطان بحاجة إلى

دعاء رعيته، وعليه من التبعات ما عليه، ويتحمل من الهموم والغموم ما لا يتحمله الرجال الأشداء، وعليه من الضغوطات ما الله تعالى به عليم.

وإن أردنا صلاح الحكام، وصلاح السلاطين، والمسؤولين؛ فعلينا أن نصلح أنفسنا، وبيوتاتنا؛ فتصلح مجتمعاتنا، وإذا صلح المجتمع صلح الحال، وصلح البال، وصلح الأمر والنهي، وصلح الحاكم والمحكوم؛ فالأصل في الإصلاح أنفسنا وبيوتنا، قال الله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ نُوَلِّي بَعْضَ ٱلظَّٰلِمِينَ بَعْضًۢا بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ﴾ [سورة الأنعام، من الآية:١٢٩]، فإن كنا ظالمين تولانا الظالمون، وإن أصبحنا بررة تولانا البارون المتقون.

والتقوى سببٌ للميراث في الأرض، قال الله تعالى: ﴿قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ ٱسْتَعِينُوا۟ بِٱللَّهِ وَٱصْبِرُوٓا۟ ۖ إِنَّ ٱلْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۖ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿١٢٨﴾ قَالُوٓا۟ أُوذِينَا مِن قَبْلِ أَن تَأْتِيَنَا وَمِنۢ بَعْدِ مَا جِئْتَنَا ۚ قَالَ عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ﴾ [سورة الأعراف، من الآية:١٢٨-١٢٩]، وهذا دليل ظاهر أن الصلاح في الهرم المجتمعي، وفي بناء الدولة، يبدأ من الأساس، ومتى ما كان متينًا، كان الإصلاح سليمًا؛ لأن المجتمع مبني على هرم مثلث أسفله متين وأعلاه حادٌ ضعيف، ومتى ما كان هزيلًا؛ لم يقدر الأعلى أن يصلح إلا غفْرًا؛ فإن الأعلى لا يقدر على إصلاح ما فيه سوس في الأصل إلا يسيرًا، ولهذا قيل في الحكمة: أقيموا دولة الإسلام في

قلوبكم وبيوتكم تُقم لكم على أرضكم، وهذا راجع إلى عموم الآية الأولى بمفهوم المخالفة والموافقة.

قوله: **"ولا ننـزع يدًا من طاعتهم"** أي ومن عقيدتنا أننا لا ننازع الحكام، ولا نخالفهم؛ فلا ننزع يدًا من طاعة؛ بل نرى طاعتهم دينًا وعقيدة، ما داموا مسلمين؛ ولهذا كان الخوارج قديمًا وحديثًا إذا أرادوا الخروج على الحاكم المسلم أصدروا عليه حكم الكفر عليه، أو حكموا عليه بفسقٍ، أو ظلمٍ ارتكبه، أو وقع فيه، ثم رتبوا عليه نزع اليد من الطاعة، وأوقعوا المسلمين في حيص بيصٍ، وكان ذلك سببًا لزيادة الشرور، وذهاب البر والخير والسرور، وفقد الأمن والحبور.

و **"لا نَنْزِع"** كناية عن عدم جذب اليد من الطاعة، ولا نمتنع من الطاعة، وإن كان الأمر مكروهًا لنا، أو مبغوضًا؛ بل نضع أيدينا في أيدي ولاة المسلمين بالمعروف، ونعينهم، ونعاونهم، ونكون لهم خير معينٍ على الحقِّ، ولا نكف عن طاعتهم، ولا نشق وحدة المسلمين، واجتماع أمرهم.

و **"يدًا"** كناية عن البيعة، وإنما أطلق اسم البيعة على **(اليد)** لأنه غالبًا سببه؛ فإن المبايع إنما يبايع بالمصافحة، ويمد يده لمن يبايعه، وهم **(يدٌ)** أي مجتمعون، فلا ننزع **(اليد)** من هذا الاجتماع، وهم **(يدٌ)** أي متناصرون؛ فلا ننزع اليد من هذه المناصرة؛ بل نكون يدًا للحاكم بالحقِّ، مطيعين لأمره، منقادين لحكمه، مستسلمين الأمرَ له؛ فلا ننزعُ يدًا **"من طاعة"** من السمعِ والطاعة

للحاكم بالمعروف.

و **"طاعة"** كناية عن طاعة الحاكم، وسُمِّي ذلك طاعةً لأنه المقصود بالبيعة، وهو نتيجة للوِلاية، ولأن عدم نزع اليد من يد الحاكم طاعةٌ وعبادة لله تعالى، ولهذا قال المصنّف رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **"ونرى طاعتهم من طاعة الله عَزَّوَجَلَّ فريضة"** أي ونعتقد أن تنفيذ أوامر الحكام المسلمين في المعروف عبادة لله تعالى؛ فالطاعة الأولى هنا بمعنى تنفيذ الأمرِ، والثانية بمعنى العبادة.

وأصل **(الطاعة)** الانقياد والموافقة، ولا تكون إلا عن أمرٍ، وقد يكون الأمرُ مندوبًا، وقد يكون واجبًا فرضًا، وهنا طاعة الحكام واجبةٌ من جنس الفرائضِ، ولهذا قال المصنّف رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **"فريضة"** وهي ما أوجبه الله تعالى على عباده من حدوده الّتي بينها بما أمر وما نهى عنه، قال الله تعالى بعد أن بين أحكام المواريث: ﴿فَرِيضَةً مِّنَ ٱللَّهِۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ [سورة النساء، من الآية:١١].

والطاعة للحكام في المعروف مِن جنس الفرائض الّتي شرعها الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ، ومما يدل على ذلك أمورٌ، ومنها:

الأمر الأوّل: أن الله تعالى أمر شرعًا بطاعة ولاة الأمور، وذلك في قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنكُمۡ﴾ [سورة النساء، من الآية:٥٩].

الأمر الثّاني: أن الله تعالى أخبر قَدَرًا بأن الملك له يعطيها لمن يشاء؛ فلا ينازَعُ

الله تعالى في قدره، إلا إذا جاء في الشّرع ما يدل على مواجهة المقدور بالمشروع، قال الله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يُؤْتِي مُلْكَهُۥ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ﴾ [سورة البقرة، من الآية:٢٤٧]، وقال: ﴿قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلْمُلْكِ تُؤْتِي ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلْمُلْكَ مِمَّن تَشَآءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُۖ بِيَدِكَ ٱلْخَيْرُۖ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [سورة آل عمران، من الآية:٢٦]، وأخبر أن الكافر إنما مَلَك بأمره القدري؛ فقال عن نَمْرُود: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِي حَآجَّ إِبْرَٰهِـۧمَ فِي رَبِّهِۦٓ أَنْ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ﴾ [سورة البقرة، من الآية:٢٥٨].

الأمر الثّالث: أن الابتلاء لا يعالج بمنازعة القدرِ، والخروج على الحكام؛ بل بالتوبة، والرجوع إلى الله تعالى، وإيجاد التقوى، وقد كان أطغى الطغاة فرعونُ، وفعل ما فعل في بني إسرائيل، ولم ينازعه موسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ في ملكه، وإنما دعاه للإيمان ورفعِ الظلم عن بني إسرائيل، وبالتي هي أحسن؛ فلما عتى وتكبر، وازداد بنوا إسرائيل صلاحًا وتقوى أغرق الله عدوهم، وأورث ملك فرعون غيره، قال الله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَتَذَرُ مُوسَىٰ وَقَوْمَهُۥ لِيُفْسِدُوا۟ فِي ٱلْأَرْضِ وَيَذَرَكَ وَءَالِهَتَكَۚ قَالَ سَنُقَتِّلُ أَبْنَآءَهُمْ وَنَسْتَحْىِۦ نِسَآءَهُمْ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَٰهِرُونَ ﴿١٣٧﴾ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ ٱسْتَعِينُوا۟ بِٱللَّهِ وَٱصْبِرُوٓا۟ۖ إِنَّ ٱلْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦۖ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿١٣٨﴾ قَالُوٓا۟ أُوذِينَا مِن قَبْلِ أَن تَأْتِيَنَا وَمِنۢ

﴿بَعۡدِ مَا جِئۡتَنَاۚ قَالَ عَسَىٰ رَبُّكُمۡ أَن يُهۡلِكَ عَدُوَّكُمۡ وَيَسۡتَخۡلِفَكُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَيَنظُرَ كَيۡفَ تَعۡمَلُونَ﴾ [سورة آل عمران، من الآية:١٢٧-١٢٩].

الأمر الرّابع: أحاديث متواترة تأمر بالسمع والطاعة لولاة الأمر، وتنهى عن الخروج على الحكام، ومن هذه الأحاديث حديثُ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَنِ النّبيّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: **"مَنْ أَطَاعَنِي فَقَدْ أَطَاعَ اللهَ، وَمَنْ يَعْصِنِي فَقَدْ عَصَى اللهَ، وَمَنْ يُطِعِ الْأَمِيرَ فَقَدْ أَطَاعَنِي، وَمَنْ يَعْصِ الْأَمِيرَ فَقَدْ عَصَانِي"** [رواه البخاري ومسلم]، وحديث عَبْدِ اللهِ بْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا عَنِ النّبيّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ قَالَ: **"عَلَى الْمَرْءِ الْمُسْلِمِ السَّمْعُ وَالطَّاعَةُ فِيمَا أَحَبَّ وَكَرِهَ، إِلَّا أَنْ يُؤْمَرَ بِمَعْصِيَةٍ، فَإِنْ أُمِرَ بِمَعْصِيَةٍ، فَلَا سَمْعَ وَلَا طَاعَةَ"** [رواه البخاري ومسلم]، وحديث أَبِي ذَرٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ: **"إِنَّ خَلِيلِي أَوْصَانِي أَنْ أَسْمَعَ وَأُطِيعَ، وَإِنْ كَانَ عَبْدًا مُجَدَّعَ الْأَطْرَافِ"** [رواه مسلم].

الأمر الخامس: أحاديث تأمر بالسمع والطاعة للحكام وإن كانوا أصحاب أثرةٍ، يأخذون الأموال لأنفسهم من بيت المالِ، وهو الظالم في عرفنا، أو كانوا فسقة، أو مبتدعة، فيُسمع لهم ويطاعون في المعروف ما داموا مسلمين، ومن هذه الأحاديث حديث أُسَيْدِ بْنِ حُضَيْرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ رَجُلًا مِنَ الْأَنْصَارِ خَلَا بِرَسُولِ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَقَالَ: أَلَا تَسْتَعْمِلُنِي كَمَا اسْتَعْمَلْتَ فُلَانًا؟ فَقَالَ: **"إِنَّكُمْ سَتَلْقَوْنَ بَعْدِي أَثَرَةً فَاصْبِرُوا حتّى تَلْقَوْنِي عَلَى الْحَوْضِ"** [رواه البخاري ومسلم]، وحديث عُبَادَةَ بْنِ الصَّامِتِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: دَعَانَا رَسُولُ اللهِ

صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فبايَعْناه، فكَانَ فِيمَا أَخذَ علَيْنا: **"أَنْ بَايَعَنَا عَلَى السَّمْعِ وَالطَّاعَةِ فِي مَنْشَطِنَا وَمَكْرَهِنا، وَعُسْرِنا وَيُسْرِنَا، وَأَثَرَةٍ عَلَيْنَا، وَأَنْ لَا نُنَازِعَ الْأَمْرَ أَهْلَهُ"**، قَالَ: **"إِلَّا أَنْ تَرَوْا كُفْرًا بَوَاحًا عِنْدَكُمْ مِنَ اللهِ فِيهِ بُرْهَانٌ"** [رواه البخاري ومسلم]، وحديث وَائِلٍ الْحَضْرَمِيِّ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ قَالَ: سَأَلَ سَلَمَةُ بْنُ يَزِيدَ الْجُعْفِيُّ رَسُولَ اللهِ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَقَالَ: يَا نَبِيَّ اللهِ، أَرَأَيْتَ إِنْ قَامَتْ عَلَيْنَا أُمَرَاءُ يَسْأَلُونَا حَقَّهُمْ وَيَمْنَعُونَا حَقَّنَا، فَمَا تَأْمُرُنَا؟ فَأَعْرَضَ عَنْهُ، ثُمَّ سَأَلَهُ، فَأَعْرَضَ عَنْهُ، ثُمَّ سَأَلَهُ فِي الثَّانِيَةِ، أَوْ فِي الثَّالِثَةِ، فَجَذَبَهُ الْأَشْعَثُ بْنُ قَيْسٍ، وَقَالَ: **"اسْمَعُوا وَأَطِيعُوا، فَإِنَّمَا عَلَيْهِمْ مَا حُمِّلُوا، وَعَلَيْكُمْ مَا حُمِّلْتُمْ"** [رواه مسلم].

الأمر السّادس: أدلة تأمرُ بالجماعةِ، وتنهى عن التفرق، والتحزب، وتحذر من الاختلاف، قال الله تعالى: ﴿وَٱعْتَصِمُواْ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُواْۚ وَٱذْكُرُواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَآءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِۦٓ إِخْوَٰنًا﴾ [سورة آل عمران، من الآية:١٠٣]، وقول الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ فَرَّقُواْ دِينَهُمْ وَكَانُواْ شِيَعًا لَّسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ﴾ [سورة الأنعام، من الآية:١٥٩]، وقال تعالى: ﴿وَلَا تَكُونُواْ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٣١﴾ مِنَ ٱلَّذِينَ فَرَّقُواْ دِينَهُمْ وَكَانُواْ شِيَعًاۖ كُلُّ حِزْبِۭ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ﴾ [سورة الروم، من الآية:٣١-٣٢]، وجاء في حديث حُذَيْفَةَ بْنَ الْيَمَانِ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ يَقُولُ: كَانَ النّاس يَسْأَلُونَ رَسُولَ اللهِ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَنِ الْخيرِ، وَكُنْتُ أَسْأَلُهُ عَنِ الشَّرِّ مَخافَةَ أَنْ يُدْرِكَنِي، فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ، إِنَّا كُنَّا فِي جَاهِلِيَّةٍ وَشَرٍّ، فَجَاءَنَا اللهُ بِهَذَا الْخَيْرِ،

فَهَلْ بَعْدَ هَذَا الْخَيْرِ شَرٌّ؟ قَالَ: "نَعَمْ"، فَقُلْتُ: هَلْ بَعْدَ ذَلِكَ الشَّرِّ مِنْ خَيْرٍ؟ قَالَ: "نَعَمْ، وَفِيهِ دَخَنٌ"، قُلْتُ: وَمَا دَخَنُهُ؟ قَالَ: "قَوْمٌ يَسْتَنُّونَ بِغَيْرِ سُنَّتِي، وَيَهْدُونَ بِغَيْرِ هَدْيِي، تَعْرِفُ مِنْهُمْ وَتُنْكِرُ"، فَقُلْتُ: هَلْ بَعْدَ ذَلِكَ الْخَيْرِ مِنْ شَرٍّ؟ قَالَ: "نَعَمْ، دُعَاةٌ عَلَى أَبْوَابِ جَهَنَّمَ مَنْ أَجَابَهُمْ إِلَيْهَا قَذَفُوهُ فِيهَا"، فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ، صِفْهُمْ لَنَا، قَالَ: "نَعَمْ، قَوْمٌ مِنْ جِلْدَتِنَا، وَيَتَكَلَّمُونَ بِأَلْسِنَتِنَا"، قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ، فَمَا تَرَى إِنْ أَدْرَكَنِي ذَلِكَ؟ قَالَ: "تَلْزَمُ جَمَاعَةَ الْمُسْلِمِينَ وَإِمَامَهُمْ"، فَقُلْتُ: فَإِنْ لَمْ تَكُنْ لَهُمْ جَمَاعَةٌ وَلَا إِمَامٌ؟ قَالَ: "فَاعْتَزِلْ تِلْكَ الْفِرَقَ كُلَّهَا، وَلَوْ أَنْ تَعَضَّ عَلَى أَصْلِ شَجَرَةٍ حَتَّى يُدْرِكَكَ الْمَوْتُ وَأَنْتَ عَلَى ذَلِكَ" [رواه البخاري ومسلم]، وحديث أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ قَالَ: "مَنْ خَرَجَ مِنَ الطَّاعَةِ، وَفَارَقَ الْجَمَاعَةَ فَمَاتَ، مَاتَ مِيتَةً جَاهِلِيَّةً، وَمَنْ قَاتَلَ تَحْتَ رَايَةٍ عِمِّيَّةٍ يَغْضَبُ لِعَصَبَةٍ، أَوْ يَدْعُو إِلَى عَصَبَةٍ، أَوْ يَنْصُرُ عَصَبَةً، فَقُتِلَ، فَقِتْلَةٌ جَاهِلِيَّةٌ، وَمَنْ خَرَجَ عَلَى أُمَّتِي، يَضْرِبُ بَرَّهَا وَفَاجِرَهَا، وَلَا يَتَحَاشَى مِنْ مُؤْمِنِهَا، وَلَا يَفِي لِذِي عَهْدٍ عَهْدَهُ، فَلَيْسَ مِنِّي وَلَسْتُ مِنْهُ" [رواه مسلم]، وحديث عَبْدِ اللهِ بْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "مَنْ رَأَى مِنْ أَمِيرِهِ شَيْئًا يَكْرَهُهُ فَلْيَصْبِرْ، فَإِنَّهُ مَنْ فَارَقَ الْجَمَاعَةَ شِبْرًا، فَمَاتَ، فَمِيتَةٌ جَاهِلِيَّةٌ" [رواه البخاري ومسلم]، وحديث عَرْفَجَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، يَقُولُ: "مَنْ أَتَاكُمْ وَأَمْرُكُمْ جَمِيعٌ عَلَى رَجُلٍ وَاحِدٍ، يُرِيدُ أَنْ يَشُقَّ عَصَاكُمْ، أَوْ يُفَرِّقَ جَمَاعَتَكُمْ، فَاقْتُلُوهُ" [رواه مسلم]، وحديث أُمِّ سَلَمَةَ

رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا أَنَّ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: **"سَتَكُونُ أُمَرَاءُ فَتَعْرِفُونَ وَتُنْكِرُونَ، فَمَنْ عَرَفَ بَرِئَ، وَمَنْ أَنْكَرَ سَلِمَ، وَلَكِنْ مَنْ رَضِيَ وَتَابَعَ"** قَالُوا: أَفَلَا نُقَاتِلُهُمْ؟ قَالَ: **"لَا، مَا صَلَّوْا"** [رواه مسلم].

فهذه الأدلة كلها تدل على وجوب السمع والطاعة لولاة الأمر من المسلمين، وأنه لا يجوز الخروج عليهم، ولا شق عصا المسلمين، ولا تفرقتهم إلى أحزابٍ وجماعات، وإنما هذه الطاعة مقيدة بكونها بالمعروف، وفي المعروف.

فإن قيل: فما أقسام طاعة ولاة الأمور؟

فالجواب: أنّ طاعة ولاة الأمر منقسمة إلى أقسامٍ:

القسم الأوّل: أن يأمروا بالواجبات الشّرعية؛ كالصلوات والصيام والزكاة والحج، ونحو ذلك؛ فهنا الطاعة واجبة لأمرين؛ لكون الأمر واجب شرعًا، ولكون ولي الأمر أمر به؛ فيجب طاعته لله تعالى.

القسم الثّاني: أن يأمر بالمندوبات على وجه الإلزام؛ فينتقل الأمرُ من الندب إلى الوجوبِ؛ كأن يأمر بالصدقة لوجود الفقر، ونحو ذلك؛ فيصبح الإنفاق واجبًا إذا خرج أمره على وجه الحتم؛ فيجب طاعته لله تعالى.

القسم الثّالث: أن يأمر بالمباحات، سواء بفعلها، أو بتحديدها، أو بتقنينها، أو بتركها؛ فيجب طاعته لله تعالى إذا كان أمره على سبيل الإلزام لا الإرشاد؛ كما لو نهى عن الصيد في وقت معين، أو أمر بالبيع في مكان معين، أو نهى عن السير في مكانٍ معيَّنٍ، ونحو ذلك.

القسم الرّابع: أن يأمر بالمكروهات، سواء بفعلها، أو بتحديدها، أو بتقنينها، فيجب طاعته لله تعالى؛ لأنه تعارض المكروه والواجب فيقدم الواجب، ومثال ذلك لو أمر بأن يأكل النّاس الثوم لمرضٍ واقعٍ فيطاع طاعة لله تعالى.

القسم الخامس: أن يأمر بترك المكروهات؛ فيجب طاعته لله تعالى؛ كما لو أمر بتغطية الأكتاف للرجال في الأسواق، وأمر بترك أكل البصل في مجامع النّاس، ونحو ذلك.

القسم السّادس: أن يأمر بترك الواجبات ضرورة، وكانت هذه الضرورة واقعة؛ كما لو أمر بترك الحج؛ لكون الطريق مخوفًا، أو أمر بترك الصوم؛ لكون العدو قريبًا ولا بد من قتالهم، أو أمر بترك صلاة الجماعة؛ لكون المرض فاشيًا؛ فهنا تجب طاعته إذا كان الأمر واقعًا، والضرورة حتمية.

القسم السّابع: أن يأمر بالمحرمات لضرورة؛ كما لو أمر بأكل الميتات، أو الدماء المسفوحة، ونحو ذلك، لوجود ضرورة حتمية واقعية؛ فهنا تجب طاعته، ويدخل في هذا تدريب الجندِ والعساكر على مثل هذه الأمور، وإن لم تكن ضرورة، ولكن ذلك من باب منزلة الضرورة التدريبية إن لم يكن ثم طريق آخر للتدريب.

القسم الثّامن: أن يأمر بترك الواجبات، وفعل المحرمات لغير ضرورة؛ فلا يجوز طاعته، ويحرم طاعته، وهنا تأتي الأحاديث الّتي تنهى عن الطاعة في المنكرات، مثل حديث عَلِيٍّ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ أَنَّ رَسُولَ اللهِ صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ بَعَثَ جَيْشًا،

وَأَمَّرَ عَلَيْهِمْ رَجُلًا، فَأَوْقَدَ نَارًا، وَقَالَ: ادْخُلُوهَا، فَأَرَادَ نَاسٌ أَنْ يَدْخُلُوهَا، وَقَالَ الْآخَرُونَ: إِنَّا قَدْ فَرَرْنَا مِنْهَا، فَذُكِرَ ذَلِكَ لِرَسُولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَقَالَ لِلَّذِينَ أَرَادُوا أَنْ يَدْخُلُوهَا: **"لَوْ دَخَلْتُمُوهَا لَمْ تَزَالُوا فِيهَا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ"**، وَقَالَ لِلْآخَرِينَ قَوْلًا حَسَنًا، وَقَالَ: **"لَا طَاعَةَ فِي مَعْصِيَةِ اللهِ، إِنَّمَا الطَّاعَةُ فِي الْمَعْرُوفِ"** [رواه البخاري ومسلم]، وحديث عمران بن حصين، عن النّبيّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: **"لا طاعة في معصية الله"** [رواه أحمد، وقال محققه: حديث صحيح].

القسم التّاسع: أن يأمر بما يخالف الشّرع، ولا ينسب ذلك إلى الدين؛ سواءٌ في الحدود، أو الأحكام؛ فلا يُطَاع؛ بل يجب مناصحته، وهنا تأتي أحاديث السمع والطاعة وإن ضرب الظهر، وأخذ المال، في مثل هذه الحال والتي قبلها؛ فيسمع له ويطاع في المعروف، ولا يطاع في المنكر، ولا يُنزعُ يدٌ من طاعة؛ كما في حديث حذيفة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ وفيه: **"تَسْمَعُ وَتُطِيعُ لِلْأَمِيرِ، وَإِنْ ضُرِبَ ظَهْرُكَ، وَأُخِذَ مَالُكَ، فَاسْمَعْ وَأَطِعْ"** [رواه مسلم]، والمعنى: تسمع وتطيع فيما ليس بمعصية، ولا محرم، وأما إن كان محرمًا فلا تسمع له ولا تطيعه في المحرمات، وإن ترتب على ذلك حبسك، أو ضربك، أو تغريمك مالا، ولا يكون هذا الفعل منه سببا لنزع يدك من طاعته في المعروف، أو الخروج عليه؛ فتقابل المنكر بمنكر أشد منه وأعظم.

القسم العاشر: أن يأمر بما يخالف الشّرع، ويَنسب ذلك إلى الدين، وهو مما يعلم مخالفته للشرع ضرورة، سواءٌ بالفعل؛ كما لو أمر بتعليق الصلبان، أو

بالترك؛ كما لو أمر بمنع الأذان؛ فهنا لا يُسمع له ولا يطاع؛ بل يَكْفُرُ إجماعًا، وهي مسألة التبديل، الّتي عابها الله تعالى على أهل الكتاب في قوله: ﴿فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ ٱلْكِتَٰبَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَٰذَا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ لِيَشْتَرُوا۟ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا ۖ فَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا يَكْسِبُونَ﴾ [سورة البقرة، من الآية:٧٩]، وفي قوله: ﴿ٱتَّخَذُوٓا۟ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾ [سورة التوبة، من الآية:٣١]، وإنما كان اتخاذهم في قبول تبديلهم لدين الله تعالى، وتعبدهم بالدين المبدَّل، وتعاملهم به.

وقوله: **"ما لم يأمروا بمعصية"** تأكيد على أن الطاعة لولاة الأمر إنما هي مقيدة بكون الأمر طاعة لله تعالى، أو من جنس المباحات، لا في المحرمات، والمعاصي، ولهذا لا يجوز طاعة ولاة الأمر في المعاصي؛ كما لو أمر بقتل من لا يستحق القتل، أو غصب مال من لا يستحق الغصب، أو تركِ صلاةٍ، ونحو ذلك؛ فلا يطاع لأن الطاعة منضبطة بالمعروف، وهو المعروف شرعًا، أو المعروف عرفًا، بشرط ألّا يخالف العرفُ الشّرعَ.

وحق الوالدين عظيم، ومع ذلك فهو مقيدٌ بالمعروف، ولا يجوز طاعتهما فيما يخالف الشّرع، قال الله تعالى: ﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حُسْنًا ۖ وَإِن جَٰهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَآ﴾ [سورة العنكبوت، من الآية:٨]، وقال تعالى: ﴿وَإِن جَٰهَدَاكَ عَلَىٰٓ أَن تُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا ۖ وَصَاحِبْهُمَا

﴿فِي ٱلدُّنۡيَا مَعۡرُوفٗا﴾ [سورة لقمان، من الآية:١٥]؛ فحقّ الحاكم مقيد كحق الوالدِ بالمعروف، وذلك لأن الوالد له الأمر والنهي في البيتِ، والحاكم له الأمر والنهي في البلد.

قال سُوَيْدِ بْنِ غَفَلَةَ: قَالَ لِي عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ رَضِيَٱللَّهُعَنۡهُ: "لَا أَدْرِي لَعَلَّكَ أَنْ تُخَلَّفَ بَعْدِي؛ فَأَطِعِ الْإِمَامَ، وَإِنْ أُمِّرَ عَلَيْكَ عَبْدٌ حَبَشِيٌّ مُجَدَّعٌ، وَإِنْ ظَلَمَكَ؛ فَاصْبِرْ، وَإِنْ حَرَمَكَ؛ فَاصْبِرْ، وَإِنْ دَعَاكَ إِلَى أَمْرٍ يَنْقُصُكَ فِي دُنْيَاكَ؛ فَقُلْ: سَمْعًا وَطَاعَةً، دَمِي دُونَ دِينِي" [الشريعة للآجري].

فمَن أُمِّرَ عليك مِن عربيٍّ أو غيرِه، أسودَ أو أبيضَ؛ فأَطِعْهُ فيما ليس لله فيه معصية، وإن حرمك حقا لك، أو ضربك ظلمًا لك، أو انتهك عرضك فسبك وشتمك وقذفك، أو أخذ مالك؛ فلا يحملك ذلك على أن تخرج عليه بسيفك حتّى تقاتله، ولا تخرج مع خارجي يقاتله، ولا تحرض غيرك على الخروج عليه، ولكن اصبر عليه.

فإن دعاك إلى منقصة في دينك كقتل مَن لا يستحق القتل، أو قطع عضو من لا يستحق ذلك، أو ضرب مَن لا يحلّ ضربه، أو أخذ مال من لا يستحق أن تأخذ ماله؛ فإن قال لك: لئن لم تفعل ما آمرك به وإلا قتلتك أو ضربتك، فقل: دمي دون ديني؛ لما روى محمد بن سيرين قال: (اسْتُعْمِلَ الحكمُ بنُ عمرٍو الغفاري رَضِيَٱللَّهُعَنۡهُ على خراسان، قال: فتمنَّاه عمرانُ بنُ حصين رَضِيَٱللَّهُعَنۡهُمَا حتّى قيل له: يا أبا نجيد، ألا ندعوه لك، قال: لا، فقام عمران بن حصين رَضِيَٱللَّهُعَنۡهُمَا فلقيه بين

النّاس، قال: تَذْكُرُ يومَ قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **"لا طاعة لمخلوق في معصية الله"**؟ قال: نعم. قال عمران: الله أكبر) [رواه الإمام أحمد في مسنده، قال محققه: إسناده على شرط الشيخين].

وقول المصنّف رَحِمَهُ اللَّهُ: **"وندعو لهم بالصلاح والمعافاة"** أي ومن حقوقهم علينا الدعاء لهم في خاصة أنفسهم بالدعاءِ، وأن يصلح الله أحوالهم، وأن يعافيهم من التبعات، ومن المسؤوليات، وأن يعينهم على أدائها؛ لأن مسؤولياتهم جسيمة، وتبعاتهم كبيرة، ويدخل في هذا الدعاء لهم بالصحة والعافية.

و **"الصلاح"** الاستقامةُ، والأهلية، والجدارةُ، والسلامةُ من العيوب، وفعل الخير المحبوب للقلوب، وخلوه من الفساد والعيوب.

و **"المعافاة"** دفعُ الشَّرِّ والسُّوءِ والبلاءِ، والشّفاءُ من المرضِ والابتلاءِ، والصَّلاحُ من العللِ مع الإبراء.

وإنما يُدعى للحاكم بالصلاح والعافية؛ لأن فقده ومرضه، وانشغاله بحاله لمرضٍ أو لهوٍ، فسادٌ للأمة؛ فكان دعاء المؤمنين محيطة به؛ فيرجى أن يصلح حاله، ويحسن مآله، كما جاء في حديث عَبْدِ اللهِ بْنِ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَنِ النّبيّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قَالَ: **"ثَلَاثٌ لَا يُغِلُّ عَلَيْهِنَّ قَلْبُ مُسْلِمٍ: إِخْلَاصُ العَمَلِ لِلَّهِ، وَمُنَاصَحَةُ أَئِمَّةِ الْمُسْلِمِينَ، وَلُزُومُ جَمَاعَتِهِمْ، فَإِنَّ الدَّعْوَةَ تُحِيطُ مِنْ وَرَائِهِمْ"** [رواه الترمذي، وهو عند أحمد من حديث أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وقال محققه:

صحيح لغيره].

وخلاصة كلام المصنّف رَحِمَهُ ٱللَّهُ: أنا لا نعتقد قتل أحد من المسلمين لمجرد كونه خالفنا، أو وقع في كبيرة إلا من وجب عليه السيف، بخلاف الخوارج الذين يرون السيف على مَن خالفهم.

فإن قال قائلٌ: قد وقع قتال بين الخليفة الراشد علي رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ والخوارجُ، وبين بعضِ خلفاء المسلمين والمعتزلة، أو غلاة المتصوفة، أو الشيعة؛ فالجوابُ أن هذا وقع على ضربين:

الضرب الأوّل: أن هذا النوعِ من القتال إنما وقع دفاعًا؛ فإن الخليفة الراشد علي رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ إنما قاتلهم بعد أن سفكوا الدم الحرام، وتعرضوا للمسلمين، وأصبح أمرهم ظاهرٌ في كونهم خوارج وبغاةً، لا مجرد أصحاب رأيٍ، ومذهبٍ، وأكثر هذا النوعِ من القتال هو من باب الدفعِ، ومن باب إطفاء الشرّ، وليس أصلًا، ولا أصالة في الطلب، ومِن هذا النوع ما وقع مع الإمام محمد بن عبد الوهاب رَحِمَهُ ٱللَّهُ ومخالفيه.

الضرب الثّاني: أن ذلك يكون واقعًا على سبيل الدفاعِ عن السنة، ولكون المخالفين منعوا المسلمين عن الدعوة، وعن السنة الثابتة، وصاروا يبغون على عموم المسلمين؛ كما حصل من القتال بين العباسيين والفاطميين، وبين السلاجقة والبويهيين، ونحو ذلك.

وفيما ذكره المصنّف رَحِمَهُ ٱللَّهُ بيان أن أهل السنة ليسوا طلابًا للدنيا، ولا

للمناصب، ويتجلى ذلك تعاملهم مع الحكام وولاة الأمور؛ فلا يرون الخروج عليهم بالسيف، لا بالقول، ولا بالفعل، وإن وقع منهم الظلم والجور، ولا ندعو على أئمة وحكام المسلمين، وإن ظلموا، بل ندعو لهم بالهداية؛ فإن في صلاحهم صلاحًا للعباد والبلاد، ولا ننزع يَدَ الطّاعة، ولا ننكث عَقْدَ البيعة، بل نطيعهم بالمعروف؛ فطاعتهم من طاعة الله عَزَّوَجَلَّ فريضةٌ مُحْكَمَة، ومِن طاعة النّبيّ صَلَّاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ سُنَّةٌ قوليَّةٌ ثابِتَةٌ، ونتعاون مع ولاة الأمر في البِرِّ والتّقوى، ولا نؤلِّب النّاس عليهم، ولا نعينهم على منكرٍ.

❊❊❊

[من علامات أهل السنة والجماعة]

وَنَتَّبِعُ السُّنَّةَ وَالْجَمَاعَةَ، وَنَجْتَنِبُ الشُّذُوذَ وَالْخِلَافَ وَالْفُرْقَةَ، وَنُحِبُّ أَهْلَ الْعَدْلِ وَالْأَمَانَةِ، وَنُبْغِضُ أَهْلَ الْجَوْرِ وَالْخِيَانَةِ، وَنَقُولُ: اللهُ أَعْلَمُ فِيمَا اشْتَبَهَ عَلَيْنَا عِلْمُهُ.

﴿ الشرح ﴾

هذا تقرير من المصنف رَحِمَهُ ٱللَّهُ في بيان علامات أهل السنة والجماعة الفارقة، والمميزة لهم عن غيرهم، سواءٌ ما تعلق بالعمل، أو بالعلم.

وقوله: **"ونَتَّبِعُ السنة والجماعة، ونَجْتَنِبُ الشذوذ والخلاف والفرقة"** هذا تقرير من المصنّف رَحِمَهُ ٱللَّهُ لبيان عقيدة أهل السنة والجماعة في موقفها من السنة، وأنه يجب اتباع السُّنّة الثابتة عن النّبيّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، سواء كانت السنة العلمية أو العملية، والمراد هنا بالسنة: العقيدة الّتي كانت عليها النّبيّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وعليها الصحابة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ، وإبقاء الإسلام على النقاوة الّتي كان عليها قبل وجود الشوائب، وظهور المحدثات والبدع.

و **"نَتَّبِع"** أي نسير خلف السنة في اعتقادنا حيث سارت، ونؤيد اعتقادنا بما ورد من السنن، ونسير في آثار السنة، ونصير مع الجماعة، ونحذو حذوَ أهل السنة والجماعة في عقيدتنا، ونميل معهم حيث مالوا، ونسير وراءهم متبعين غير مبتدعين، ونعتقد كاعتقادهم، ونفعل كفعالهم، ونقول كأقوالهم.

و **"السنة"** سبق بيانها، والمراد هنا: اعتقاد النّبيّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وما سار عليه

متبعوه، وهم أهل السنة.

و **"الجماعة"** سبق بيانها، والمراد هنا: ما كان عليه النّبيّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وأصحابه، وما عليه سواد المسلمين في اجتماعهم حول إمامهم، وحاكمهم.

فإن قيل: فما إطلاقات كلمة (الجماعة)؟

فالجواب: تطلق الجماعة على ثلاثة معانٍ:

المعنى الأوّل: السَّلَفُ الأوائلُ قبل وجود الفرقة والاختلاف.

المعنى الثّاني: الحقُّ، وهو مدلول الكتاب والسنة.

المعنى الثّالث: الحاكم المسلم؛ فلا نختلف عليه ولا نفترق عنه؛ كما في حديث العِرْبَاضِ بْنِ سَارِيَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: وَعَظَنَا رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَوْمًا بَعْدَ صَلاَةِ الغَدَاةِ، مَوْعِظَةً بَلِيغَةً، ذَرَفَتْ مِنْهَا العُيُونُ، وَوَجِلَتْ مِنْهَا القُلُوبُ؛ فَقَالَ رَجُلٌ: إِنَّ هَذِهِ مَوْعِظَةُ مُوَدِّعٍ؛ فَمَاذَا تَعْهَدُ إِلَيْنَا يَا رَسُولَ اللهِ؟ قَالَ: **"أُوصِيكُمْ بِتَقْوَى اللهِ وَالسَّمْعِ وَالطَّاعَةِ، وَإِنْ عَبْدٌ حَبَشِيٌّ، فَإِنَّهُ مَنْ يَعِشْ مِنْكُمْ يَرَى اخْتِلاَفًا كَثِيرًا، وَإِيَّاكُمْ وَمُحْدَثَاتِ الأُمُورِ فَإِنَّهَا ضَلاَلَةٌ فَمَنْ أَدْرَكَ ذَلِكَ مِنْكُمْ فَعَلَيْهِ بِسُنَّتِي وَسُنَّةِ الخُلَفَاءِ الرَّاشِدِينَ الْمَهْدِيِّينَ، عَضُّوا عَلَيْهَا بِالنَّوَاجِذِ"** [رواه بو داود، والترمذي، وقال: حسن صحيح].

وعُلِم من الحديث التلازم بين لزوم السنة وترك البدعة، إذ لا يمكن لزوم السنة بدون ترك البدعة، ولا يمكن لبدعي أن يكون سنيًا، ولهذا قال المصنّف رَحِمَهُ اللَّهُ بعد الحث على السنة **"ونجتنب الشذوذ والخلاف والفرقة"**؛ لأن لزوم

السنة لا تتم إلا باجتناب ما يخالفها من البدع.

و "**نجتنب**": أي نبتعد، ونتحاشى، ونحترزُ، ونجانِبُ بحيث نسير في جهة بعيدة عن كلّ شذوذ وخلافٍ وفرقة.

و "**الشذوذ**": الانفراد عن الجماعة، والمخالفة، والخروج عن الأدلة الظاهرة، والقواعد المتقررة، والقياسات الجلية.

و(**الشذوذُ**) في باب الاعتقاد؛ كلّ ما خالف عقيدة السلفِ.

و(**الشذوذ**) في الفقه؛ كلّ ما خالف المشهور أو المتفق عليه، أو المجمع عليه؛ كشذوذات أبي ثورٍ، وداود الظاهري، ونحوهما.

و(**الشذوذ**) في القواعدِ؛ الخروج عنها في مسألة أو مسألتين.

و "**الخلاف**": المضادةُ، والمعارضةُ، وعدمُ الموافقةِ، وما يكون بعدَ الاتفاق في الأمور، والتخلف عن الحق المبرور، وهو كلّ قولٍ أو عملٍ، أتى به الخلف على خلاف ما كان عليه السلف.

و "**الفُرقة**": الافتراقُ، والطائفةُ من النّاس تنعزل عن الأصلِ والجماعة الأمِّ، وهي جماعة المسلمين قبل وجود التفرق في الدين.

والشّذوذُ والخلافُ والفُرقَةُ كلّ ذلك مذمومٌ شرعًا، قال الله تعالى: ﴿وَٱعۡتَصِمُواْ بِحَبۡلِ ٱللَّهِ جَمِيعٗا وَلَا تَفَرَّقُواْ﴾ [سورة آل عمران، من الآية:١٠٣]، وقال سبحانه: ﴿وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ تَفَرَّقُواْ وَٱخۡتَلَفُواْ مِنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلۡبَيِّنَٰتُۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ عَذَابٌ

عَظِيمٌ ﴿١٠٥﴾ يَوۡمَ تَبۡيَضُّ وُجُوهٞ وَتَسۡوَدُّ وُجُوهٞۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱسۡوَدَّتۡ وُجُوهُهُمۡ أَكَفَرۡتُم بَعۡدَ إِيمَٰنِكُمۡ فَذُوقُواْ ٱلۡعَذَابَ بِمَا كُنتُمۡ تَكۡفُرُونَ ﴿١٠٦﴾ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱبۡيَضَّتۡ وُجُوهُهُمۡ فَفِي رَحۡمَةِ ٱللَّهِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ [سورة آل عمران، من الآية:١٠٥-١٠٧]، قال حبرُ الأمة وترجمان القرآن عبد الله بن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: (تَبْيَضُّ وُجُوهُ أَهْلِ السُّنَّةِ وَالْجَمَاعَةِ، وتَسْوَدُّ أَهْلُ الْبِدَعِ وَالضَّلالَةِ) [رواه ابن أبي حاتم في تفسيره].

وجاء في حديث عَرْفَجَةَ بْنِ شُرَيْحٍ الْأَشْجَعِيِّ تقَالَ: سَمِعْتُ النبيّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ: **"سَيَكُونُ بَعْدِي هَنَاتٌ وَهَنَاتٌ، فَمَنْ رَأَيْتُمُوهُ فَارَقَ الجماعة، أَوْ يُرِيدُ أَنْ يُفَرِّقَ بَيْنَ أُمَّةِ مُحَمَّدٍ** صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، **وَأَمْرُهُمْ جَمِيعٌ، فَاقْتُلُوهُ كَائِنًا مَنْ كَانَ، فَإِنَّ يَدَ اللهِ مَعَ الْجَمَاعَةِ، وَإِنَّ الشَّيْطَانَ مَعَ مَنْ فَارَقَ الْجَمَاعَةَ يَرْتَكِضُ"** [رواه ابن حبان في صحيحه، وأصله في صحيح مسلم].

وفي حديث الحارث الأشعري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **"وَأَنَا آمُرُكُمْ بِخَمْسٍ أَمَرَنِي اللهُ بِهَا: بِالْجَمَاعَةِ، وَالسَّمْعِ، وَالطَّاعَةِ، وَالْهِجْرَةِ، وَالْجِهَادِ فِي سَبِيلِ اللهِ؛ فَمَنْ فَارَقَ الْجَمَاعَةَ قِيدَ شِبْرٍ فَقَدْ خَلَعَ رِبقَ الْإِسْلَامِ مِنْ عُنُقِهِ إِلَّا أَنْ يُرَاجِعَ، وَمَنْ دَعَا بِدَعْوَى الْجَاهِلِيَّةِ فَهُوَ مِنْ جُثَا جَهَنَّمَ"**، قَالَ رَجُلٌ: وَإِنْ صَامَ وَصَلَّى؟ قَالَ: **"وَإِنْ صَامَ وَصَلَّى، فَادْعُوا بِدَعْوَى اللهِ الَّذِي سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ، الْمُؤْمِنِينَ، عِبَادَ اللهِ"** [رواه ابن حبان في صحيحه]، قال ابن حبان بعد روايته للحديث السابق: (الْأَمْرُ بِالْجَمَاعَةِ بِلَفْظِ الْعُمُوم، وَالْمُرَادُ مِنْهُ الْخَاصُّ؛

لِأَنَّ الْجَمَاعَةَ هِيَ إِجْمَاعُ أَصْحَابِ رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ فَمَنْ لَزِمَ مَا كَانُوا عَلَيْهِ وَشَذَّ عَنْ مَنْ بَعْدَهُمْ لَمْ يَكُنْ بِشَاقٍّ لِلْجَمَاعَةِ، وَلَا مُفَارِقٍ لَهَا، وَمَنْ شَذَّ عَنْهُمْ وَتَبِعَ مَنْ بَعْدَهُمْ كَانَ شَاقًّا لِلْجَمَاعَةِ.

وَالْجَمَاعَةُ بَعْدَ الصَّحَابَةِ ن هُمْ أَقْوَامٌ اجْتَمَعَ فِيهِمُ الدِّينُ وَالْعَقْلُ وَالْعِلْمُ، وَلَزِمُوا تَرْكَ الْهَوَى فِيمَا هُمْ فِيهِ، وَإِنْ قَلَّتْ أَعْدَادُهُمْ، لَا أَوْبَاشُ النّاس وَرِعَاعُهُمْ، وَإِنْ كَثُرُوا).

وقال الطِّيبي: (المراد بالجماعة الصَّحابةُ ن، ومَنْ بعدهم من التابعين، وتابعي التابعين، مِن السلف الصالحين، أي: آمركم بالتمسك بهديهم وسيرتهم والانخراط في زمرتهم) [شرح المشكاة].

فإن قيل: أليس أهلُ السنة والجماعةِ يعتبرون فِرقَةً؟

فالجواب: نعم، هم فِرْقَةٌ باعتبار كونهم جماعة، وباعتبار كونهم في مقابل الفِرَق، وليسوا فُرقَة، فالفُرْقَة البعدُ عن طريقة السَّلف، والفِرْقَة جماعة في إزاء جماعات أهل البدع وأحزابهم، وقد جاء وصف أهل السنة بأنهم فرقة في حديث معاوية بن أبي سفيان بأنه قال: ألا إنّ رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قامَ فينا؛ فقال: **"ألا إنَّ مَنْ قبلَكم من أهلِ الكتابِ افترقُوا على ثِنتَين وسبعينَ ملَّةً، وإن هذه الملة ستفترقُ على ثلاثٍ وسَبعينَ: ثنتانِ وسبعونَ في النَّار، وواحدةٌ في الجنّة، وهي الجماعة، وإنّه سيخرج في أمتي أقوامٌ تَجارَى بهم تلك الأهواءُ كما يَتَجَارَى الكَلَبُ بصاحبه، لا يبقى منه عِرقٌ ولا مَفصِلٌ إلا دخلَه"** [رواه أبو داود، وحسنه

الحافظ ابن حجر].

وهذا حديث صريح في أن الفرقة واقعة لا محالة، كسَنَن الذين من قبلنا، وكما أخبر الله تعالى في كتابه: ﴿وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ۝١١٨ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ﴾ [سورة هود، من الآية:١١٨-١١٩]؛ فلأجل الطائفة المرحومة خلقهم الله تعالى، والواجب الانشغال بمعرفة أهل الرحمة، وكيفيّة سيرهم، واعتقادهم، ومعرفة أعمالهم الّتي بها كانوا من أهل الرحمة، وكانوا بها من الطائفة الناجية، والفرقة المنصورة، وهو اتباع المنزل، والاقتداء برسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ كما قال الله تعالى: ﴿وَإِن تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا﴾ [سورة النور، من الآية:٥٤].

قوله: **"ونُحِبُّ أهلَ العدلِ والأمانة، ونُبْغِضُ أهلَ الجَوْرِ وَالْخِيَانَةِ"** أي ومن سمات أهل السنة، وميزاتهم أنهم يحبون أهل العدل والإنصاف، ويبغضون أهل الظلم والغدر، ويجب من الناحية الاعتقادية الحب والبغض في الله تعالى؛ كما جاء في حديث أبي ذر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: خرج إلينا رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فقال: **"أتدرون أي الأعمال أحب إلى الله؟"** قال قائل: الصلاة والزكاة، وقال قائل: الجهاد، قال: **"إن أحب الأعمال إلى الله الحب في الله، والبغض في الله"** [رواه الإمام أحمد في مسنده، قال محققه: حسن لغيره].

ومصداق الحب في الله تعالى والبغض فيه في القرآن، قول الله تعالى: ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَآءُ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ

﴿مِن دُونِ ٱللَّهِ كَفَرۡنَا بِكُمۡ وَبَدَا بَيۡنَنَا وَبَيۡنَكُمُ ٱلۡعَدَٰوَةُ وَٱلۡبَغۡضَآءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤۡمِنُواْ بِٱللَّهِ وَحۡدَهُۥٓ﴾ [سورة الممتحنة، من الآية:٤]، وقال تعالى: ﴿لَّا تَجِدُ قَوۡمٗا يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ يُوَآدُّونَ مَنۡ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَوۡ كَانُوٓاْ ءَابَآءَهُمۡ أَوۡ أَبۡنَآءَهُمۡ أَوۡ إِخۡوَٰنَهُمۡ أَوۡ عَشِيرَتَهُمۡۚ أُوْلَٰٓئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ ٱلۡإِيمَٰنَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٖ مِّنۡهُۖ وَيُدۡخِلُهُمۡ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمۡ وَرَضُواْ عَنۡهُۚ أُوْلَٰٓئِكَ حِزۡبُ ٱللَّهِۚ أَلَآ إِنَّ حِزۡبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ﴾ [سورة المجادلة، من الآية:٢٢]، وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَوَلَّوۡاْ قَوۡمًا غَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِمۡ﴾ [سورة الممتحنة، من الآية:١٣].

والحب في الله تعالى والبغض فيه على درجتين:

الدّرجة الأولى: الحب والبغض الكامل المطلق؛ فيكون الحب التام والمطلق لأولياء الله تعالى المتقين، ويكون البغض التام والمطلق لأعدائه الكافرين الظاهرين.

الدّرجة الثّانية: الحب والبغض النسبي؛ فيكون الحب لكل أهل الإسلام بقدر ما عندهم من الدين، ويكون البغض لأصحاب البدع والمعاصي بقدر ما عندهم من البدع والمعاصي.

وقد جاء في حديث عَائِشَةَ ل قَالَتْ: سُئِلَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَنْ هَذِهِ الآيَةِ: ﴿هُوَ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ مِنۡهُ ءَايَٰتٞ مُّحۡكَمَٰتٌ﴾ [سورة آل عمران، من

الآية:٧]، إِلَى آخِرِ الآيَةِ. فَقَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **"إِذَا رَأَيْتُمُ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ فَأُولَئِكَ الَّذِينَ سَمَّاهُمُ اللهُ فَاحْذَرُوهُمْ"** [رواه مسلم في صحيحه، وهذا لفظ الترمذي].

و **"نُحِبُّ"** أي نودُّ أهل العدلِ، ونَرْغَبُ فيهم، و **"أهل العدلِ"** هم أهل الإنصافِ، والاستقامةِ، وأهل **"الأمانة"** هم أهل الوفاءِ، الذين وفوا بأماناتهم، ومنها الإيمان، وعهودهم مع الله تعالى، وأهل المواثيق الذين لم ينقضوها، وصدقوا في اتباعهم النّبيّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فلم يخالفوا، ولم يغيروا دينه، وذلك لأنهم محبوبون لله تعالى؛ فالله تعالى يحب المقسطين، قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ﴾ [سورة المائدة، من الآية:٤٢]، وقال تعالى: ﴿فَأَصْلِحُواْ بَيْنَهُمَا بِٱلْعَدْلِ وَأَقْسِطُوٓاْۖ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ﴾ [سورة الحجرات، من الآية:٩]، وكذلك الذين حفظوا أماناتهم فهم من الذين يستحقون الجنان، وبناءً عليه فهم يستحقون الحب التام، قال الله تعالى: ﴿أَفَمَن يَعْلَمُ أَنَّمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ٱلْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَىٰٓۚ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ ۝١٩ ٱلَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ ٱللَّهِ وَلَا يَنقُضُونَ ٱلْمِيثَٰقَ﴾ [سورة الرعد، من الآية:١٩-٢٠].

ومن أوصاف أهل السنة والجماعة أنهم أهل إنصافٍ وأهلُ أمانة؛ فلا يظلمون من خالفهم لا في الحكم، ولا في العمل، ولا في القول، ولا يخونون من خالفهم، ولا يغدرون بهم.

ومن عدلهم وإنصافهم أنهم لا يكفرون مخالفيهم بمجرد المخالفة، ولا يكفرون أعيان المسلمين إلا إذا توفرت فيهم الشروط وانتفت عنهم الموانع بحكم من هو أهلٌ للحكم.

ومن إنصافهم أنهم يرون مناصرة المسلمين على عموم الكفار، ولو كانوا مخالفين لهم، ولم يأتوا بالإيمان الواجب، والأصل في هذا قول الله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمۡ يُهَاجِرُواْ مَا لَكُم مِّن وَلَٰيَتِهِم مِّن شَيۡءٍ حَتَّىٰ يُهَاجِرُواْۚ وَإِنِ ٱسۡتَنصَرُوكُمۡ فِي ٱلدِّينِ فَعَلَيۡكُمُ ٱلنَّصۡرُ إِلَّا عَلَىٰ قَوۡمِۭ بَيۡنَكُمۡ وَبَيۡنَهُم مِّيثَٰقٌ﴾ [سورة الأنفال، من الآية:٧٢]؛ فالآية ظاهرة الدلالة على أن من آمن ولم يهاجر فلا يستحق الوَلاية لعدم هجرتهم، وعدم تمايزهم؛ وهم مع هذا الترك للأمر الشّرعي الواجب لو استنصروا بنا لوجب نصرتهم، إلا في حال أن يكون طلب نصرتهم على قومٍ بيننا وبينهم عهدٌ وميثاق وصلح.

و **"نُبْغِضُ"** أي نَمْقُتُ، ونكرَهُ، تدينا واعتقادًا **"أهلَ الجَوْرِ"**، وهم أهلُ الإفراطِ، وأهلُ التّجاوزِ للشَّرْعِ، المائلين عن القصد، الذين ابتدعوا في دين الله تعالى، وجاوزا السنن، وأتوا بالمحدَثات، وهذا وصفٌ مُعْظَم أهل البدعِ.

فإن قيل: فإلى كم قسم ينقسم أوصاف أهل البدع؟

فالجواب: أنّ أهل البدع عمومًا ينقسمون من حيث أوصافهم إلى قسمين:

القسم الأوّل: أهل الإفراط، وهم الذين زادوا في الدِّين البدعَ والمحدثاتِ، وراموا العمل بها، وهذا وصفُ عموم أهل البدعِ، وجلهم عندهم الزيادات في

الدين، ويعملون بالمحدثات؛ كغلاة المتصوفة، والخوارج، وغلاة الشيعة، ونحوهم.

القسم الثّاني: أهل التفريط، وهم الذين نقصوا في الدين، سواء أتوا بالإفراط، أو لم يأتوا، وإن كان هناك تلازمٌ بين التفريط والإفراط؛ فما من مُفَرِّط إلا وهو واقعٌ في الإفراط أيضًا، ولا يلزم العكس، وإن كان موجودًا، ومن هؤلاء الممثلة، والمعتزلة، الذين فرطوا في الأخذ بالسنن، والباطنية، الذين تركوا ظاهر الشّرع، سواءٌ أتوا بالإفراط أو لا.

وبغضُ أهل البدع من لوازم الإيمانِ؛ لأن المبتدعة قد وقعوا في ثلاثة محاذيرَ خطيرة، وجب لأجلها بغضهم؛ وهي:

المحذور الأوّل: تكذيبهم لرب العالمين في خبره بأن الدين كامل، وهم يأتون بالمحدثات، ويتعبدون بالمبتدَعات، قال الله تعالى: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا﴾ [سورة المائدة، من الآية:٣]، **{الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا}**.

المحذور الثّاني: تكذيبهم للنبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حيث إنهم ببدعهم ومحدثاتهم، وبلسانهم، أو بلسان حالهم يبرهنون أنه صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لم يبلغ البلاغ المبين، والله تعالى يقول له: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ۖ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُۥ﴾ [سورة المائدة، من الآية:٦٧]، ونحن نشهد لرسول الله

صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بالبلاغ التام المبين؛ كما شهد بذلك أصحابه ن؛ كما كان ذلك في محضر حضره أكثر من مائة ألف إنسان في حجة الوداع؛ كما في حديث جابر رَضِيَ اللهُ عَنْهُ وفيه أنه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: **"وَقَدْ تَرَكْتُ فِيكُمْ مَا لَنْ تَضِلُّوا بَعْدَهُ إِنِ اعْتَصَمْتُمْ بِهِ، كِتَابُ اللهِ، وَأَنْتُمْ تُسْأَلُونَ عَنِّي، فَمَا أَنْتُمْ قَائِلُونَ؟** قَالُوا: نَشْهَدُ أَنَّكَ قَدْ بَلَّغْتَ وَأَدَّيْتَ وَنَصَحْتَ، فَقَالَ: بِإِصْبَعِهِ السَّبَّابَةِ، يَرْفَعُهَا إِلَى السّماء وَيَنْكُتُهَا إِلَى النّاس **"اللهُمَّ، اشْهَدْ، اللهُمَّ، اشْهَدْ» ثَلَاثَ مَرَّاتٍ"** [رواه مسلم].

المحذور الثّالث: ادعاؤهم أن الدين الحنيف ليس بكاملٍ، وأنهم بعقولهم، وآرائهم، وعاداتهم، وأذواقهم، وأوجادهم، يكملون الدين!؟ وعلى هذا فيكون الدين ليس بالاتباع؛ بل بالرأي، أو الذوق، أو الفلسفة، أو المنطق!؟ فما فائدة الأمر باتباع المنزل في قول الله تعالى: ﴿ٱتَّبِعُواْ مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكُم مِّن رَّبِّكُمۡ وَلَا تَتَّبِعُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوۡلِيَآءَۗ قَلِيلٗا مَّا تَذَكَّرُونَ﴾ [سورة الأعراف، من الآية:٣].

وبهذا ندرك أنَّ أهلَ البدعِ قد وقعوا في جورٍ في حق الله تعالى، وفي جورٍ في حق رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وفي جورٍ في حق الدين والشّرع، وفي جورٍ في حق الإسلام والمسلمين، وأنهم قد وقعوا في عدم الإيفاء بالعهود، ووقعوا في **"الْخِيَانَةِ"**، وهي: نقضُ العهود، والغدرُ، ومن غدرِ أهلِ البدعِ أنهم قلبوا المجن للشريعة الغراء، وصاروا ينشرون ما يرونه شرعًا، وغدروا بأهل الإسلام، وصاروا ظهرًا للأعداء؛ فهم مع كلّ عدوٍّ خارجيٍّ للإسلام على مرِّ التاريخ، وقد كانوا يدًا للصليبيين في حروبهم على الإسلام، ومع التتار في حروبهم على

المسلمين، ومع المستعمر إبان الاحتلال الغربي لبلاد المسلمين؛ ويكونون لهم أعوانًا، وأعينًا.

ومن غدرِ أهل البدع أنهم ينزعون أيديهم من الطاعة متى ما أمكنهم ذلك، ولا يبالون بما يقع على المسلمين من الذل والمهانة، وذهاب أمنهم، وإضعاف قوتهم، وإضاعة هيبتهم، وشتات كلمتهم، وضياع خيراتهم، ولهذا جاء التحذير من الغدر مطلقًا، ومن هذا النوع خصوصًا؛ كما في حديث أَبِي سَعِيدٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **"لِكُلِّ غَادِرٍ لِوَاءٌ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، يُرْفَعُ لَهُ بِقَدْرِ غَدْرِهِ، أَلَا وَلَا غَادِرَ أَعْظَمُ غَدْرًا مِنْ أَمِيرِ عَامَّةٍ"** [رواه مسلم].

وجاء في حديث نافعٍ قال: (لما خلع أهل المدينة يزيدَ بن معاوية، جمع ابنُ عمر بحشَمَه وولَدَه؛ فقال: إني سمعت النّبيّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقول: **"ينصب لكل غادر لواء يوم القيامة"**، وإنا قد بايعنا هذا الرجل على بيع الله ورسوله، وإني لا أعلم غدرا أعظم من أن يبايع رجل على بيع الله ورسوله ثم يَنْصِب له القتال، وإني لا أعلم أحدا منكم خلعه، ولا بايع في هذا الأمر، إلا كانت الفيصل بيني وبينه) [رواه البخاري، ومسلم].

وبغضُ أهل الجورِ والخيانة أمرٌ حتمٌ من جهتين:

الجهة الأولى: أن ذلك دينٌ؛ فيجب بغضُ كلّ ظالمٍ بقدرِ ظلمه؛ فإن كان ظلمه كفرًا وشركا ونفاقًا كان بغضه مطلقا، وإن كان ظلمه بدعة وفسقا وفجورًا؛ فبقدره، ولهذا جاء في حديث أُمِّ سَلَمَةَ ل زَوْجِ النّبيّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، عَنِ النّبيّ

صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ قَالَ: "**إِنَّهُ يُسْتَعْمَلُ عَلَيْكُمْ أُمَرَاءُ، فَتَعْرِفُونَ وَتُنْكِرُونَ، فَمَنْ كَرِهَ فَقَدْ بَرِئَ، وَمَنْ أَنْكَرَ فَقَدْ سَلِمَ، وَلَكِنْ مَنْ رَضِيَ وَتَابَعَ**"، قَالُوا: يَا رَسُولَ اللهِ، أَلَا نُقَاتِلُهُمْ؟ قَالَ: "**لَا، مَا صَلَّوْا**"، أَيْ مَنْ كَرِهَ بِقَلْبِهِ وَأَنْكَرَ بِقَلْبِهِ) [رواه مسلم].

الجهة الثّانية: أن الجور والخيانة سببان عظيمان من أسباب فساد دنيا المسلمين، ومن أسباب فساد دينهم، وهل يفسد الدين إلا من جهة الظَّلَمَة والخَوَنة؛ فهذا يدعي الديانة ويَظلم ويُسيء إلى الدين باسم الدين، وهذا يَنتسب إلى الإسلام ويَخون، ويظن النّاس أن هذا هو الإسلام؛ فيسيء إليه وإلى أهله، هذا غيضٌ من فيضٍ من مساوئ الظلم والخيانة.

وقد أمرنا الله تعالى من الحذر من الخيانة؛ فقال سبحانه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَخُونُواْ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ وَتَخُونُوٓاْ أَمَٰنَٰتِكُمۡ وَأَنتُمۡ تَعۡلَمُونَ﴾ [سورة الأنفال، من الآية:٢٧].

وجاء في حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: كان رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقول: "**اللهمَ إني أعوذُ بكَ عن الجُوعِ؛ فإنه بِئسَ الضَّجيعُ، وأعوذُ بكَ مِن الخِيانَة؛ فإنها بئسَتِ البِطَانَةُ**" [رواه أبو داود، والنسائي، وابن ماجه، وصححه الألباني].

ومن جورِ أهلِ البدع، وخيانتهم؛ أنهم يقولون في دين الله تعالى بما لا يعلمون، ويقيسون بآرائهم فيما غاب عنهم من الغيبيات، ويقدمون فيه عاداتهم، وتقاليدهم، وأذواقهم، والواجب أن يكلوا علمَ ما لا يعلمون إلى الله تعالى؛ حتّى لا يقع في الجور والظلم والخيانة والغدر في دين الله تعالى.

ولهذا كان من سِمات أهل السنة أنهم يقولون بالآثار، ويتحدثون بصحيح

الأخبار، ويقولون بكلام سيد الأبرار، ويفتون بالقرآن، وبما هو من مدلولات الآيات وصحاح الأحاديث، ومما يقاس عليهما؛ ولا يتجاوزون ذلك؛ بل ومن صفاتهم التوقف فيما لا علم لهم به، **"ونقول: الله أعلم فيما اشتبه علينا عِلْمُهُ"**، أي ويَكِلُون ما لا يعلمونه إلى الله تعالى، وذلك أن المعلومات الشّرعية ثلاثة أنواعٍ؛

النَوع الأوّل: معلوم قطعًا، خبره؛ ثبوته أو نفيه، حلُّه، أو حرمته؛ فهذا يفتى به، ولا يتوقف فيه.

النَوع الثّاني: معلوم على سبيل الظن الغالب في المسائل الفقهية الّتي هي مدار الاجتهاد؛ فهذا يُفتى فيه بالظن الغالب؛ لكنه وظيفة أهل الاجتهاد على وجه الخصوص، وليس لأي أحدٍ أن يُفتي به.

النَوع الثّالث: مظنون، وهو الّذي تدور فيه الأقوال بين الثبوت والنفي، أو بين الحل والحرمة؛ فهذا القسم ينبغي التوقف فيه للمفتي؛ فضلًا عن غيره، وينبغي الاستبراء فيه إذا اقتضى العمل، والبعدُ عنه، حتّى يتبين أمره، ويتضح صوابه، وهذا ما جاء في حديث النُّعْمَانِ بْنِ بَشِيرٍ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ، يَقُولُ: **"إِنَّ الْحَلَالَ بَيِّنٌ، وَإِنَّ الْحَرَامَ بَيِّنٌ، وَبَيْنَهُمَا مُشْتَبِهَاتٌ لَا يَعْلَمُهُنَّ كَثِيرٌ مِنَ النّاس، فَمَنِ اتَّقَى الشُّبُهَاتِ اسْتَبْرَأَ لِدِينِهِ، وَعِرْضِهِ، وَمَنْ وَقَعَ فِي الشُّبُهَاتِ وَقَعَ فِي الْحَرَامِ، كَالرَّاعِي يَرْعَى حَوْلَ الْحِمَى، يُوشِكُ أَنْ يَرْتَعَ فِيهِ، أَلَا وَإِنَّ لِكُلِّ مَلِكٍ حِمًى، أَلَا وَإِنَّ حِمَى اللهِ مَحَارِمُهُ، أَلَا وَإِنَّ فِي الْجَسَدِ مُضْغَةً، إِذَا**

صَلَحَتْ، صَلَحَ الْجَسَدُ كُلُّهُ، وَإِذَا فَسَدَتْ، فَسَدَ الْجَسَدُ كُلُّهُ، أَلَا وَهِيَ الْقَلْبُ"

[رواه البخاري، ومسلم، وهذا لفظه].

ويتأكد القول بـ **"الله أعلم فيما اشتبه علينا عِلْمُهُ"** إذا كان فيما يتعلق بالعقائد؛ كما قال الله تعالى: ﴿وَٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا ۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ٧ رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً ۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ﴾ [سورة آل عمران، من الآية:٧-٨].

وقد كان السلف كثيرًا ما يقولون: الله أعلم، إذا لم يكونوا على يقين في الفتوى، ولا يتجرؤون على الفتيا بالظن؛ فضلًا عن الفتوى بالعقل، أو بالهوى، أو بالذوق؛ كما هو حال أهل البدع، قال عبد الله بن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: (يا أيها النّاس، مَن سُئِل منكم عن علمٍ هو عنده، فليقل به؛ فإن لم يكن عنده، فليقل: الله أعلم؛ فإنّ مِن العلم أن تقول لما لا تعلم: اللهُ أعلم، إن الله عَزَّوَجَلَّ قال لنبيه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ﴿قُلْ مَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُتَكَلِّفِينَ﴾ [سورة ص، من الآية:٨٦]) [رواه الإمام أحمد].

و **"اشْتَبَه"** بمعنى اختلط الأمرُ، ودخل الشكُّ في المسألة، وأتاه اللَّبس فيها، و**(الاشتباه)** اختلاط الأمر، والشك فيه، ويرجع إلى أحدِ ثلاثة أمورٍ مفردة، أو مجموعة، وهي:

الأمر الأوّل: الاشتباه في الدليل؛ فيظن ما ليس بدليل دليلًا؛ كظن أهل المنطق والفلسفة العقلَ دليلًا، مع أنه لا يستقل في القضايا الغيبية، ولا يمكنه، أو كظن

أهلِ السلوك الوجدَ والذّوقَ دليلًا، مع أنه قد يطرأ عليه الأحوال، والمجريات؛ فتتغير عن الفطرة السليمة، أو كظن النّاس العادة دليلًا، ونحو ذلك فعلُ بعض الفقهاء والمتكلمين في استدلالهم بالأحاديث الّتي لم تثبت لظنهم ثبوتها.

الأمر الثّاني: الاشتباه في الاستدلال، وطريقة الاستنباط؛ فيكون الدليل صحيحًا، لكن الاستدلال به يكون في غيره محله، أو على غير وجهه؛ كمن ظن أن ﴿ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾ [سورة الأعراف، من الآية:٥٤]، بمعنى استولى، قياسًا على قول الشاعر المزعوم:

قَدْ اسْتَوَى بِشْرٌ عَلَى الْعِرَاقِ ** مِنْ غَيْرِ مَا سَيْفٍ وَلَا دَمٍ مُهْرَاقٍ

مع أن المتفق عليه بين السلف أن معنى ﴿ٱسْتَوَىٰ﴾ في الآية على ظاهرها اللائق بالله تعالى، يضاف إليه هذا الفعل، على أنه سبحانه علا، وارتفع، واستقر؛ كما يضافُ إليه بأنه خلقَ، ورزَقَ، وعلَّم، كلّ ذلك على ما يليق بالله تعالى؛ فهذه أفعاله، وصفاته جل في علاه.

الأمر الثّالث: الاشتباه في المدلول دون الدليل، ودون الاستدلال؛ فيكون الدليل صحيحًا، والاستدلال صحيحًا؛ ولكن اعترى المدلول شيءٌ لم ينتبه له المتكلم؛ فوقع في الخطأ والاشتباه في المسألة، كمن قال إن قوله تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [سورة الشورى، من الآية:١١]، يدل على أنَّ الله تعالى لا مثل له، مع كونه سميعًا بصيرًا، ورتب على ذلك أنه لا يثبت له غير هاتين

الصفتين؛ فإن الدليل والاستدلال لا يدل على هذا المدلول؛ لأن ذكر بعض الصّفات لا يعني نفي ما عداها.

وخلاصة كلام المصنّف رَحِمَهُ ٱللَّهُ: وجوب اتباع السنة كاتباعنا للقرآن في القول والفعل، وفي التشريع، كما قال الله تعالى: ﴿وَإِن تُطِيعُوهُ تَهۡتَدُواْ﴾ [سورة النور، من الآية:٥٤]، وقال سبحانه: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهۡدِيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ﴾ [سورة الشورى، من الآية:٥٢].

ونحث على الجماعة، ونحذر من الفرقة والاختلاف، وأن هذا من سمات أهل السنة؛ بخلاف أهل البدع؛ فإنهم لم يقيموا للسُّنّة وزنًا، ولا للجماعة قدْرًا.

وأنّ الحب الكامل يكون للذين يعدلون ويؤتمنون ولا يخونون، وأن مَن كان خائنا أو جائرًا؛ فإنه يبغض من هذا الوجه، سواءٌ كانت خيانته في الأمور الدنيوية، أو في الأمور الدينية، وهذا أشد وأفظع.

وأنّ مِن منهج أهل السنة في التعامل في المشتبهات أنّا لا نخوض فيها، بل نكِلُ علمها إلى مَن عنده العلم؛ فإنّ لم يكن لهم علم فيه؛ فإنّا نكل علمه إلى الله عَزَّوَجَلَّ، ولا نخوض بعقولنا وظنونا، ونقول: الله أعلم.

وذلك خلافا لأهل البدع المتبعين للمتشابهات الذين يتبعون تأويلها فيَضِلُّون ويُضِلُّون، قال الله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ مِنۡهُ ءَايَٰتٞ مُّحۡكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلۡكِتَٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٞۖ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمۡ زَيۡغٞ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنۡهُ ٱبۡتِغَآءَ ٱلۡفِتۡنَةِ وَٱبۡتِغَآءَ تَأۡوِيلِهِۦۗ وَمَا يَعۡلَمُ تَأۡوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُۗ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِي ٱلۡعِلۡمِ يَقُولُونَ

ءَامَنَّا بِهِۦ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَاۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [سورة آل عمران، من الآية:٧]؛ فذم الخائضين، المتبعين للمتشابهات، ومدح العلماء الراسخين، الذين لا يخوضون في المتشابهات؛ بل إن تكلموا فيها فبعلم، وإن سكتوا عنها فبحِلم.

❀❀❀

[القول بالمسح على الخفين]

وَنَرَى الْمَسْحَ عَلَى الْـخُفَّيْنِ فِي السَّفَرِ وَالْـحَضَرِ؛ كَمَا جَاءَ فِي الْأَثَرِ.

﴿ الشرح ﴾

هذا تقريرٌ من المصنف رَحِمَهُ ٱللَّهُ أنّ المسائل القطعية -ولو كانت من الأحكام العملية الفقهية- إنكارها بدعةٌ وضلالة، بعد ثبوتها وتقررها، ومن جملة ذلك المسحُ على الخفين؛ فإنها مسألة من الأحكام العملية الفقهية، قد ثبتت بالنصوص اليقينية؛ فوجب إثباتها، وعدم ردها؛ فمن ردها فإنه على خلاف السّنّة.

وقوله: **"ونرى المسح على الخفين في السفر والحضر كما جاء في الأثر"** أي ومِن اعتقادنا أنا نرى جواز المسح على الخفين إذا توفرت شروط المسح، وَفق ما جاء في الآثار.

و **"المَسْح"** هو الأثرُ الخفيفُ الّذي يبقى على الجسم من إصابة اليد المبتلة؛ فهو الأثر الظاهر من إمرار اليد على البدن، ويكون خاصًّا بالرأسِ مطلقًا، وبالقدمين حال تغطيتهما بشيءٍ؛ كـ **"الخفين"**، و(**الخفّ**): ما يُلبس فوق الرِّجل من جلدٍ رقيقٍ، والجمعُ (خِفاف)، وإنما يُمسحُ على القدم إذا كان مغطّى بشيء يشق نزعه، سواء كان خفًّا ثقيلًا أو خفيفًا، أو جوربًا، أو لفائفَ وخِرَقًا؛ ويدل لذلك عموم قوله تعالى على قراءة الجرِّ: ﴿وَٱمۡسَحُواْ بِرُءُوسِكُمۡ وَأَرۡجُلِكُمۡ﴾ [سورة المائدة، من الآية:٦]، وأما قراءة النصبِ فدالة على وجوب غسل الرِّجلين فيما إذا

كان كالوجه مكشوفًا، ولذلك إن عطف عليه غُسِلَتَا، وإن عطف على الرَّأْسِ مُسِحَتَا، ويدل لذلك ما تواتر من أحاديث مسح الخفين؛ فقد رواه عددٌ من الصحابة جاوزوا حد التواتر، ومن آخر من رواه جرير بن عبد الله البجلي رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ، وكان قد أسلم متأخرا بعد نزول آية المائدة؛ فدل على أن حكم المسحِ باقٍ، قال إِبْرَاهِيمُ: عَنْ هَمَّامِ بْنِ الحَارِثِ قَالَ: بَالَ جَرِيرُ بْنُ عَبْدِ اللهِ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ، ثُمَّ تَوَضَّأَ، وَمَسَحَ عَلَى خُفَّيْهِ، فَقِيلَ لَهُ: أَتَفْعَلُ هَذَا؟ قَالَ: **وَمَا يَمْنَعُنِي، وَقَدْ رَأَيْتُ رَسُولَ اللهِ** صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ **يَفْعَلُهُ**. قَالَ إِبْرَاهِيمُ: وَكَانَ يُعْجِبُهُمْ حَدِيثُ جَرِيرٍ لِأَنَّ إِسْلَامَهُ كَانَ بَعْدَ نُزُولِ الْمَائِدَةِ) [رواه الترمذي، وقال: حديث جريرٍ حديثٌ حسنٌ صحيح].

قال الإمام الترمذي رَحِمَهُٱللَّهُ: (وَفِي البَابِ عَنْ عُمَرَ، وَعَلِيٍّ، وَحُذَيْفَةَ، وَالمُغِيرَةِ، وَبِلَالٍ، وَسَعْدٍ، وَأَبِي أَيُّوبَ، وَسَلْمَانَ، وَبُرَيْدَةَ، وَعَمْرِو بْنِ أُمَيَّةَ، وَأَنَسٍ، وَسَهْلِ بْنِ سَعْدٍ، وَيَعْلَى بْنِ مُرَّةَ، وَعُبَادَةَ بْنِ الصَّامِتِ، وَأُسَامَةَ بْنِ شَرِيكٍ، وَأَبِي أُمَامَةَ، وَجَابِرٍ، وَأُسَامَةَ بْنِ زَيْدٍ، وَابْنِ عُبَادَةَ، وَيُقَالُ: ابْنُ عُمَارَةَ، وَأُبَيُّ بْنُ عُمَارَةَ ﭸ) [سنن الترمذي ١/ ١٥٣، بعد حديث (٩٣)].

وقوله: "**على الخفين**" لأن الخفين لا يُمسحان إلا من جهة أعلى القدم، لا من أسفله، ولهذا قال عليٍّ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ: (لو كانَ الدينُ بالرَّأيِ لكانَ أسفَلُ الخُفِّ أولى بالمَسحِ مِن أعلاه، **وقد رأيتُ رسول الله** صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ **يَمسَحُ على ظاهِرِ خُفَّيه**)[رواه أبو داود، وصحح إسناده الحافظ ابن حجر في التلخيص الحبير].

قوله: "**في السَّفَر**": بفتح الفاء قَطْعُ المسافة، فهو وصفٌ واسمٌ للفعل، و(السَّفْرُ) بسكون الفاءِ المسافرُ نفسُه، والمعنى: أنا نرى المسحَ على الخفاف حال كوننا مسافرين، أو سواءٌ كنا مسافرين، و(**السَّفَرُ**) عذرٌ في تخفيف كثيرٍ من العبادات، ومنها تمديد وقت المسحِ، وقد ثبت عن النّبيّ صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ في أحاديث كثيرة أنه مسح على الخفين في السفر، ووضع لذلك أمدًا، كما في حديث صَفْوَانَ بْنِ عَسَّالٍ رَضِيَٱللَّهُعَنۡهُ قَالَ: (كَانَ رَسُولُ اللهِ صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ يَأْمُرُنَا إِذَا كُنَّا سَفَرًا أَنْ لاَ نَنْزِعَ خِفَافَنَا ثَلاَثَةَ أَيَّامٍ وَلَيَالِيهِنَّ، إِلاَّ مِنْ جَنَابَةٍ، وَلَكِنْ مِنْ غَائِطٍ، وَبَوْلٍ، وَنَوْمٍ) [رواه الترمذي، وقال: حسنٌ صحيح].

قوله: "**والحَضَر**": بفتح الحاء المهملة والضاد المعجمة: المدُنُ والقُرَى والرِّيفُ، والحضَرُ من النّاس مَن سكن الحاضرة، وأقام بها، وصار حاضرًا فيها، **والمعنى**: أنّا نرى المسح على الخفاف حال كوننا مقِيمين، أو سواءٌ كنا مقيمين، و(**الإقامة**) مَظِنَّةُ عدم تخفيف العبادات على الأصلِ، ومع ذلك فقد جاء مشروعية المسح على الخف حال الإقامة لأهل الحاضرة، وذلك لمشقة النزعِ، أو لحاجة البرد، ونحو ذلك من الحوائج الّتي يحتاج النّاس فيها إلى لبس الخفاف ونحوها؛ لكن ثبت في المسح على الخفين للحاضر أمدٌ أقلُّ من المسافر؛ كما في حديث خزيمة بن ثابت رَضِيَٱللَّهُعَنۡهُ عن النّبيّ صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ قال: "**المسحُ على الخُفَّينِ للمُسافِرِ ثلاثةُ أيَّامٍ، وللمُقيمِ يومٌ وليلةٌ**" [رواه أبو داود، وقال محققه: حديث صحيح]، وجاء في حديث شُرَيْحِ بْنِ هَانِئٍ، قَالَ: أَتَيْتُ

عَائِشَةَ لِأَسْأَلَهَا عَنِ الْمَسْحِ عَلَى الْخُفَّيْنِ، فَقَالَتْ: عَلَيْكَ بِابْنِ أَبِي طَالِبٍ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ فَسَلْهُ؛ فَإِنَّهُ كَانَ يُسَافِرُ مَعَ رَسُولِ اللهِ صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ؛ فَسَأَلْنَاهُ؛ فَقَالَ: **"جَعَلَ رَسُولُ اللهِ** صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ **ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ وَلَيَالِيَهُنَّ لِلْمُسَافِرِ، وَيَوْمًا وَلَيْلَةً لِلْمُقِيمِ"** [رواه مسلم].

وقوله: **"كما جاء في الأثر"** أي وَفق الشروط، والضوابط، الّتي جاءت في **"الأثر"**، وهو اسم جنسٍ يعم كلّ أثرٍ عن النّبيّ صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ، أو عن أصحابه، والمراد المرفوعات والموقوفات من الآثار، وقد دلت هذه الآثار على أنه يجوز المسح على القدمين إذا كانتا مغطاتين بالخف ونحوه إذا كان لبس الخف على طهارةٍ، وكان الخف مغطيا محل الفرض، ولم يتجاوز المدة المحددة شرعًا.

وهذا بخلافِ أهل البدعِ، من الخوارج، وعامة الشيعةِ؛ فإنهم لا يرون المسح على الخفين؛ فبعضُ الخوارج يوجبون الغسل بكل حال، والشيعة يوجبون مسح القدمين في الوضوء، ولا يجوزون المسح على الخفاف ونحوها، وهم بذلك مخصومون بهذه الآثار المتواترة عن الصحابة الأخيار رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمْ، ولا حجة لهم بظاهر القرآن؛ لأن الذين نزل عليهم القرآن هم أعلم بمراده ممن جاء بعدهم، ولم يشهد تنزيله، ولا عرف تفسيره وتأويله.

فإن قال قائلٌ: هذه مسألة فقهية؛ فكيف دخلت في كتب العقائد؟

فالجواب: أنها دخلت في كتب العقائد؛ لأن أهل البدع شنعوا فيها، وأنكروا ثبوتها مع تواتر المسح على الخفين عن النّبيّ صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ، وبذلك ندرك أن

إنكار المعلوم بالسنة من الأمور المشروعة يخرج الإنسان من دائرة السنة إلى دائرة البدعة؛ فالحذر الحذر من إنكار السنن النبوية الثابتة.

❀❀❀

[مُضِيُّ الجهاد مع حكام المسلمين]

وَالْحَجُّ وَالْجِهَادُ فَرِيضَتَانِ مَاضِيَتَانِ مَعَ أُولِي الْأَمْرِ مِنْ أَئِمَّةِ الْأُمُورِ مِنَ الْمُسْلِمِينَ؛ مَعَ بَرِّهِمْ وَفَاجِرِهِمْ إِلَى قِيَامِ السَّاعَةِ، لَا يُبْطِلُهُمَا شَيْءٌ، وَلَا يَنْقُضُهُمَا.

الشرح

هذا تقريرٌ آخر من المصنف رَحِمَهُ ٱللَّهُ لبيان بعض الأحكام العملية المرتبطة بالعقيدة المترتبة على السمع والطاعة، والداخلة في شؤون الحاكم.

وقوله: "**والحج والجهاد ماضيان...**" أي ومن اعتقادنا أنا نرى صحة الحج، ومُضِي الجهاد، مع حكام المسلمين.

و "**الحج**" لغة القصدُ، وشرعًا: قصدُ بيت الله الحرام بنية مخصوصة في زمان مخصوص بأعمالٍ مخصوصة في أماكن مخصوصة.

و(**الحج**) هو الركن الخامس من أركان الإسلام، وقد شرعه الله تعالى بشروط وأركان، ولا يكون إلّا إلى البيت العتيق في مكة، وقد دل على تشريعه كتاب الله تعالى، وأنّ من أنكره؛ فإنه يكفر، قال الله تعالى: ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَالَمِينَ ﴿٩٦﴾ فِيهِ ءَايَٰتُۢ بَيِّنَٰتٞ مَّقَامُ إِبْرَٰهِيمَۖ وَمَن دَخَلَهُۥ كَانَ ءَامِنًاۗ وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًاۚ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [سورة آل عمران، من الآية:٩٦-٩٧]، ومن هنا ندرك أن من أنواع كفرِ اليهود والنصارى إنكارهم الحج إلى البيت العتيق، بيت الله تعالى، الّذي بناه إبراهيم

عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ.

و "**الجهاد**" لغة من الجهد، وهو بذل الوسعِ، وإظهار الصلابة في الأمرِ، و (**الجهاد**) شرعًا: قتالُ المسلمين أعداءَهم. وقد شرعه الله تعالى بشروط وضوابط، ولا يمكن نسخه، ولا إبطاله، قال الله تعالى: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَٰتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُواْۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ ٣٩ ٱلَّذِينَ أُخْرِجُواْ مِن دِيَٰرِهِم بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّآ أَن يَقُولُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُۗ وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَٰمِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَٰتٌ وَمَسَٰجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا ٱسْمُ ٱللَّهِ كَثِيرًاۗ وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ [سورة يونس، من الآية:٣٩-٤٠]، وقال سبحانه: ﴿وَقَٰتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ﴾ [سورة البقرة، من الآية:١٩٠].

وهذا الجهاد هو من تمام عدلِ أهلِ الإسلامِ؛ فإنه ليس فيه قتلُ مَن لا يقاتِل، وإنما يُقاتَلُ ويُجاهَد من يقاتِل من المقاتلة، ولهذا لا يجوز قتل الرهبان، والشيوخ، والنّساء، والأطفال، ونحوهم من الذين لا يقاتلون المسلمين.

ومِن رحمةِ الله تعالى تشريعه (**الجهاد**) القتال حتّى يمكن نشرُ الدعوة، ودفعُ من يمنع المسلمين من الدين، والدفاع عن الإسلام.

فإن قيل: فما أنواع الجهاد من حيث الحال؟

فالجواب: أنّ الجهاد نوعان من حيث الحال:

النّوع الأوّل: جهاد النفسِ، وهو مقدمٌ على جهاد البدن، وإن لم يقم به المجاهد للعدو أولًا به لا يقدر على مقاومة العدو ثانيا، وهذا النوع من الجهاد فرض عين على كلّ مسلمٍ ومسلمةٍ، ويسميه بعض أهل العلم بالجهاد الأكبر؛ لأنه لا بد منه في كلّ وقت، وفي كلّ مكان، ومن وصل إليه وحققه فهو يعيش في سبيل الله تعالى، والعيش في سبيل الله تعالى أعظم من الموت في سبيل الله تعالى، فالثاني يمكن أن يدركه كلّ أحدٍ، والأول لا يدركه إلا الخواصُ من المجاهدين في سبيل الله تعالى، وفي هذا يقول الله تعالى قبل أن يفرض الجهاد البدني: ﴿وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهۡدِيَنَّهُمۡ سُبُلَنَاۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾ [سورة العنكبوت، من الآية:٦٩].

النّوع الثّاني: جهاد العدوّ المعتدي بالبدن، وهو قتال الكفار والمشركين، وينقسم إلى قسمين؛

القسم الأول: فرضُ عينٍ، وله ثلاثة أحوال:

الحال الأولى: عند التقاء الصفين؛ فيصبح الجهاد الكفائي عينيا على كلّ من حضر اللقاء، وليس لهم أن يدعوا القتال بحجة أنه فرضٌ كفائي.

الحال الثّانية: أن يعين ولي الأمر أشخاصًا بأعيانهم؛ فيكون القتال في حقهم فرضًا عينيا، سواء كان ذلك لحنكتهم، أو لحاجة الأمة إلى قتالهم، أو لخبرتهم، أو لأي سببٍ تعين الحق فيهم.

الحال الثّالثة: إذا داهم العدوُّ قطرا من أقطار الإسلام؛ فيجب على كلّ من في

تلك الناحية أن يجاهدوا حتّى يدفعوا العدو عن أنفسهم، وأن يقهروه؛ كما قال الله تعالى: ﴿وَقَٰتِلُواْ ٱلۡمُشۡرِكِينَ كَآفَّةٗ كَمَا يُقَٰتِلُونَكُمۡ كَآفَّةٗ﴾ [سورة التوبة، من الآية:٣٦].

وهذا إذا كان لهم حاكمٌ وإمامٌ، وإن لم يكن لهم حاكمٌ ولا إمامٌ؛ فيجب عليهم أن ينحازوا إلى بلد فيه حاكمٌ مسلم فيستجيرون به؛ فيعيشون تحت حكمه، ومعه، فإن أمرهم بمعاودة قتال العدو المعتدي وجب عليهم إعانته، وإن دعاهم للصلح، أو السِّلم؛ فبحسب ما يرى من المصلحة للمسلمين.

وإن لم يكن لا حاكمٌ، ولا من ينحازون إليه؛ وجب عليهم الصبر، حتى يمكنهم إيجاد جماعة مع اجتماع كلمة تحت راية، مع قدرة ودراية؛ فحينئذٍ يفعلون ما هو الأصلح لحالهم وحال المسلمين.

القسم الثاني: فرضُ كفاية، وهذا ما يُسمِّيه العلماء بجهاد الطلبِ، وفيه يقول الله تعالى حثا عليه، وحضا عليه، وترغيبا فيه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَا لَكُمۡ إِذَا قِيلَ لَكُمُ ٱنفِرُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱثَّاقَلۡتُمۡ إِلَى ٱلۡأَرۡضِۚ أَرَضِيتُم بِٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا مِنَ ٱلۡأٓخِرَةِۚ فَمَا مَتَٰعُ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا فِي ٱلۡأٓخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ ٣٨ إِلَّا تَنفِرُواْ يُعَذِّبۡكُمۡ عَذَابًا أَلِيمٗا وَيَسۡتَبۡدِلۡ قَوۡمًا غَيۡرَكُمۡ وَلَا تَضُرُّوهُ شَيۡـٔٗاۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٌ﴾ [سورة التوبة، من الآية:٣٨-٣٩]؛ فقوله في الآية الأولى حث على النفير، وهو في حال إذا لم يتعين، وقوله في الآية الثانية

تحذير من ترك النفير إذا تعين، ومثله قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ خُذُواْ حِذۡرَكُمۡ فَٱنفِرُواْ ثُبَاتٍ أَوِ ٱنفِرُواْ جَمِيعٗا﴾ [سورة النساء، من الآية:٧١]؛ فالآية فيها الأمر بقسمي القتال: الجهاد الفردي الكفائي، وهو المقصود بثُباتٍ أي أفرادا، والجهاد الجماعي العيني، وهو المقصود بـ ﴿جَمِيعٗا﴾.

وقوله: "**ماضيان**" مِن (**الْمُضِيِّ**) بمعنى القطع والصيرورة، والصارمُ المقطوع به، الّذي لا يمكن التشكيك فيه، فالحج والجهادُ يقعان على حالهما، ولا يَبْطُلان؛ فيكونان واقعان مع حكام المسلمين، أيًّا كانوا، ولا يُشترط لصحة الحجّ والجهاد وجود الإمام المعصوم كما زعمه بعضُ الباطنية، ولا يُشترط لصحة الحج والجهاد وجود الإمام التّقيّ كما زعمه بعضُ الخوارج.

و "**ماضيان**" أي أنهما يكونان أبدًا، ولا يمكن تركهما بناء على نوع الحكام، أو صلاحهم، أو فسادهم، وأنّه لا يُنسَخ، ولا يَبطُل، ولهذا قال الإمام البخاري رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (الجهادُ ماض مع البَر والفاجِرِ؛ لقولِ النّبيّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَسَلَّمَ: "**الخيلُ مَعقود في نواصيها الخيرُ إلى يومِ القيامةِ**") [صحيح البخاري].

وقال الحافظ ابن عبد البر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (وقد استدل جماعة من العلماء بأن الجهاد ماضٍ إلى يوم القيامة تحت راية كلّ بر وفاجر من الأئمة بهذا الحديث، لأنه قال فيه: "**إلى يوم القيامة**" ولا وجه لذلك إلا الجهاد في سبيل الله) [التمهيد].

ولحديث أنس بن مالكٍ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُ قال: قال رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَسَلَّمَ: "**ثلاث**

من أصلِ الإيمان: الكفُّ عمَّن قال: لا إله إلا اللهُ، ولا نكفِّره بذنبٍ، ولا نُخرجُه من الإسلام بعملٍ، والجهادُ ماضٍ منذُ بعثني اللهُ إلى أن يقاتلَ آخِرُ أُمتي الدجالَ، لا يُبطِلُه جَوْر جائرٍ، ولا عَدل عادلٍ، والإيمانُ بالأقدار" [رواه أبو داود، وإسناده حسن لغيره].

ولحديث جَابِرَ بْنَ عَبْدِ اللهِ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا قَالَ: سَمِعْتُ النَّبِيّ صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ يَقُولُ: **"لَا تَزَالُ طَائِفَةٌ مِنْ أُمَّتِي يُقَاتِلُونَ عَلَى الْحَقِّ ظَاهِرِينَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَة"** [رواه مسلم]؛ فقوله: **"لا تزال"** تفيد الاستمرارية، وأنّ الجهاد ماضٍ، وأنه سيستمر إلى قيام الساعة.

"مع أولي الأمر من المسلمين" أي مع حكام المسلمين، وأن ذلك إليهم إعلانًا وإعلامًا، وبدءًا وانتهاءً، وتنظيمًا وترتيبًا، سواء كان الحكام المسلمون قائمين بدين الله تعالى، أو مقصِّرين فيه، وإنما كان أمرُ الحج إعلانا وتنظيما وترتيبا إليهم، وكذلك الجهاد؛ لأن النّاس لا يمكنهم أن ينتظموا بدون الحاكم، ولا أن يؤدوا الغرض من قتال العدو بدون ولي الأمرِ، ولهذا نرى في الواقع كم أثرت على المسلمين؛ بل وعلى الإسلام، الحملات الّتي وقعت من بعض الأفراد في القتال، بزعمهم أنه جهاد، حيث كان سببًا في استئساد العدو، وداعيا إلى جلبهم الشر على المسلمين، وإيقاع أنواع من الاختلاف بين المسلمين، ومن هنا ندرك أنه إذا لم يكن لهم إمام ولا حاكم؛ فلا يجوز لهم أن يبدؤوا بالقتال، ولا أن يبادروا العدو بالجهاد، ولهذا جاء في حديث حذيفة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ قال

رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **"نَعَمْ، دُعَاةٌ عَلَى أَبْوَابِ جَهَنَّمَ مَنْ أَجَابَهُمْ إِلَيْهَا قَذَفُوهُ فِيهَا"**، فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ، صِفْهُمْ لَنَا، قَالَ: **"نَعَمْ، قَوْمٌ مِنْ جِلْدَتِنَا، وَيَتَكَلَّمُونَ بِأَلْسِنَتِنَا"**، قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ، فَمَا تَرَى إِنْ أَدْرَكَنِي ذَلِكَ؟ قَالَ: **"تَلْزَمُ جَمَاعَةَ الْمُسْلِمِينَ وَإِمَامَهُمْ"** فقلتُ: فَإِنْ لَمْ تَكُنْ لَهُمْ جَمَاعَةٌ وَلَا إِمَامٌ؟ قَالَ: **"فَاعْتَزِلْ تِلْكَ الْفِرَقَ كُلَّهَا، وَلَوْ أَنْ تَعَضَّ عَلَى أَصْلِ شَجَرَةٍ حتّى يُدْرِكَكَ الْمَوْتُ وَأَنْتَ عَلَى ذَلِكَ"** [رواه البخاري ومسلم].

فالحج والجهاد، وغيرُ ذلك من الأمور الّتي تكون عامة، ويحتاج إليها عامة المسلمين، من إعلان شهر رمضان، أو جلب الزكاة، وجبايتها، ونحو ذلك، كلّ هذه من وظائف حكام المسلمين، وأمرائهم؛ فإن هم أحسنوا أُجِرُوا، وإن هم أساؤوا وظلموا أَثِمُوا؛ فكل أمرٍ عامٍ فإنما هو لإمام عامٍ، وللحاكم، وسواءٌ مع **"بَرّهم وفاجرهم"**؛ فلا يُترك الحجّ لكون الحاكم فاجرًا، ولا الجهادُ؛ بل يجب معه الحج والجهاد، وذلك لأن الحج والجهاد عبادتان لا تتركان لفجور الحكام، ولأن في الحج معهم إبقاء لركن الإسلام، وفي الجهاد معهم إبقاء لبيضة الإسلام.

وفيه دلالة على أنّ هذه الأحكام لا يقوم بها المسلمون مِن أنفسهم؛ لأنها من وظائف الحاكم، فإن لم يَقُمْ به ولي الأمر؛ فهو الْمُقصِّر، وهو الّذي يحاسبه الله تعالى، وليس على المسلمين شيء، وقد سبق ذكرُ حديث أنس بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وفيه: **"والجهادُ ماضٍ منذُ بعثني اللهُ إلى أن يقاتلَ آخِرُ أُمتي الدجالَ، لا**

يبطِلُه جَوْر جائرٍ، ولا عَدل عادلٍ" [رواه أبو داود، وإسناده حسنٌ لغيره].

وأن الحج والجهاد باقٍ لا يطرأ عليه الترك والتغيير **"إلى قيام الساعة"** حتّى القيامة، ومن هنا ندرك غلط، وضلال، من اعتقد أن الجهاد قد نُسخ؛ كما زعمه بعضُ غلاة المتصوفة إبان الاحتلال الأوروبي لبلاد المسلمين، وكما تدعيه الطائفة المارقة القاديانية، وهذا يقرب ممن زعم أنه لا يجوز القتال حتّى يخرج الإمام المعصوم، أو يكون مع نائبه، ومثل هذا أو قريبٌ منه ما زعمه الخوارج من أن القتال والجهاد لا يكون إلا تحت راية إمامٍ تقي نقي يُشهد له بالخير، ويعرف بالخير؛ فيما يشهدون هم له، أو به.

فعقيدتنا أن الحج والجهاد، وجميع الأمور الّتي تقام مع الحاكم تبقى، وتدوم بدوام الإسلام وأهله، ويقوم بها من وُجد من حكام المسلمين، أيًّا كانوا، أبرارًا أم فجّارًا؛ فلا يترك الحج والجهاد لجورِ جائر.

و **"لا يُبْطِلهما شيء"**، و(**الإبطالُ**) بمعنى النسخِ، وبمعنى التركِ، والإفساد، والإزالةِ، وسواءٌ كان الإبطال لتركه، أو لأثر الحكم، فمن رام إبطالهما فقد ادّعى زورًا وكذبًا، وباطلًا ومينًا.

"ولا يَنقضهما" أي لا يَنْقُض الحجَّ والجهادَ مع حكام المسلمين، مهما كان أحوالهم، و(**النقضُ**) الانتكاث بعد الإبرام، وإبطاله بعد الإحكام، ولا يمكن لأي أحدٍ مهما كان منصبه، حاكمًا، أو محكومًا، عالمًا أو دعيًّا، عابدًا أو خليًّا، أن يدعي أن الحج، أو الجهاد، يُتركان، وأنه لا حج ولا جهاد مع الحكام من

المسلمين.

وخلاصة كلام المصنّف رَحِمَهُ ٱللَّهُ: التأكيد على عقيدة أهل السنة والجماعة فيما يتعلق بالحج والجهاد، والأحكام العامة المتعلقة بالحكام المسلم، والرد على طوائف من أهل البدع؛ كالخوارج والمعتزلة والشيعة الذين لا يرون الحج والجهاد إلا مع الأئمة المعصومين أو نوابهم، أو أئمة العدل، وقد دلت النصوص على أن الحج والجهاد إلى قيام الساعة لا يُنسخان؛ لوجود أئمة الجور، وهذه هي السنة العملية للصحابة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ، وعليه إجماع السلف رحمهم الله تعالى، وقد قال صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **"لَا تَنْقَطِعُ الْهِجْرَةُ مَا كَانَ الْجِهَادُ"** [رواه سعيد بن منصور في سننه]، وفي حديث عبد الله ابن السعدي رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ أن النّبيّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: **"لا تنقطع الهجرة ما دام العدو يقاتل"** [رواه أحمدُ، وإسناده صحيح].

❊❊❊

[الإيمان بأعيان بعض الملائكة وأوصافهم]

وَنُؤْمِنُ بِالْكِرَامِ الْكَاتِبِينَ؛ وَأَنَّ اللهَ تَعَالَى قَدْ جَعَلَهُمْ عَلَيْنَا حَافِظِينَ، وَنُؤْمِنُ بِمَلَكِ الْمَوْتِ الْمُوَكَّلِ بِقَبْضِ أَرْوَاحِ الْعَالَمِينَ؛ كقوله تعالى: ﴿قُلْ يَتَوَفَّىٰكُم مَّلَكُ ٱلْمَوْتِ ٱلَّذِى وُكِّلَ بِكُمْ﴾ [سورة السجدة، من الآية:١١].

﴿ الشرح ﴾

هذا القول فيه تفصيلٌ لمسائل من مسائل الإيمان بالملائكة؛ ومسائل الإيمان باليوم الآخر؛ فقول المصنّف رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **"ونؤمن بالكرام الكاتبين"**، أي وفي ضمن إقرارنا، وتابعٌ لركن إيماننا بالملائكة = الإيمانُ بالكرام الكاتبين، وهو الإقرارُ بأن الله تعالى جعل علينا ملَكَين كاتبين، فنعتقد ونعترف بأن الكِرَام الكاتبين من الملائكة؛ كما قال تعالى: ﴿وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَـٰفِظِينَ ۝١٠ كِرَامًا كَـٰتِبِينَ ۝١١ يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ﴾ [سورة الانفطار، من الآية:١٠-١٢]؛ وإنَّما لُقِّبوا بهذا اللَّقب **"الكرام"** لكرمهم؛ ومعناه: الموصوف بالكَرَمِ، المجاوز الحدّ فيه، وهو الحسنُ في الوصفِ، والسَّخّاء في العطاء، والعزَّة في المكانةِ، والصَّفوح المسامِح عن الأخطاء، والموصوف بجميع الفضائل.

والملائكة كذلك في صفاتهم؛ فيُنفَى عنهم كلّ وصفٍ ذميمٍ من الأخلاق السيئة، والقبيحة؛ فهم موصوفون بالأوصاف الحسنة الجميلة؛ ولكن الحفظة لقّبوا بهذا الوصف لأنهم جمعوا هذه المعاني؛ فكرمُهم عظيمٌ، وأوصافهم حسنة، وموصوفون بالسّخاء في حقوق المؤمنين، من الدعاء، والاستغفارِ،

ومكانتهم عند الله عزيزة، ولهم مَكَنة من ابن آدم؛ فهم مُمكَّنُون معه ومنه، وهم يجاوزون عن الأخطاءِ بأمر الله تعالى، فجمعوا هذه الفضائل كلها بفضل العزيز الكريم.

وإذا كانت الملائكة الذين يعلمون ما نفعلُ كرامًا؛ فلا ينبغي أن نعمل القبائح؛ فنريهم ما يسوءُهم؛ بل ينبغي معاملة كرمهم بالكرم؛ كما يعامل أحدنا كريمًا من قومه، وجاء في حديث سعيد بن يزيد بن الأزور رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مرفوعًا: **"أُوصِيك أنْ تَستَحِي مِن الله تعالى كما تَسْتَحِي مِن الرَّجُلِ الصّالح مِن قومِك"** [رواه الطبراني، والبيهقي، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة].

و **"كاتبين"** وصفٌ آخر للملائكة، وهو يدل على أن الملائكة يكتبون كلّ ما نفعلُ، وهذا من المتفق والمجمع عليه.

و **"كاتبين"** اسمُ فاعل مِن (كتَبَ) فهو (كاتبٌ) وهما (كاتبان) في الرفعِ، و(كاتبين) في النصب والجرِّ؛ و(**الكاتبُ**): هو الّذي يحسن الكتابة، ويتقن الضبط بالخطّ، وهذا فيه دلالة على سبقِ الملائكة بحسن الأخلاقِ الفعلية؛ كالكرمِ، وحسن الصّفات الكسبية؛ كالكتابةِ.

والكرامُ الكاتبين وصفٌ لكل ملَكٍ على ابن آدم يكتب عمله، وجاء وصفُ هذين الملكين بأنهما الرقيب والعتيد، كما قال تعالى: ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ ﴿١٦﴾ إِذْ يَتَلَقَّى الْمُتَلَقِّيَانِ عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ قَعِيدٌ ﴿١٧﴾ مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ

﴿رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾ [سورة ق، من الآية:١٦-١٨]، فهما ملكان؛ ملك اليمين الّذي يكتب الحسنات، وملك الشمال الّذي يكتب السيئات.

و (**قَعِيدٌ**) معناه: قاعد، ورَصَدٌ، ومُرَاقبٌ يراقب، ومُعَدٌّ لذلك، و (**عتيدٌ**) معناه: الْمُهَيَّأُ، والحاضرُ، والحارسُ، الصَّلْبُ الشديدُ.

فإن قيل: هل القعيد والعتيد وصفان لملك واحدٍ، أم وصفان متفرقان؟

فالجواب: أنّ الأقرب أنه وصفان لملكٍ واحدٍ؛ فكل من الملائكة الكتبة قعيدٌ وعتيدٌ؛ فعن اليمين قَعِيدٌ عتيدٌ وعن الشّمال قعيدٌ عتيدٌ.

فإن قيل: وهل الملائكة يكتبون كلّ الأقوال، أو بعضها؟

فالجواب: أنّ فيه ثلاثة أقوال؛

القول الأوّل: أنهما يكتبان الحسنات والسيئات فقط، وهذا معنى قول عكرمة: ما يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ خيرٍ أو شرٍّ، وأما ما خرج مِن هذا فإنه لا يكتب.

القول الثّاني: أنهما يكتبان كلّ شيءٍ، حتّى أنينه، قال أبو الجوزاء ومجاهد: يكتبان عليه كلّ شيء حتّى أنينه في مرضه.

القول الثّالث: أنهما يكتبان كلّ شيء، والله تعالى يثبت من ذلك الحسنات والسيئات، ويمحو غير ذلك، وهذا القول هو الصحيح من أقوالِ أهل العلمِ أنهم يكتبون كلّ الأقوال؛ كالأفعالِ، ولأن الآية الدالة على العمومِ؛ فإن قوله: ﴿مَّا يَلْفِظُ﴾ ظاهرُ العموم لكل لفظٍ، وقوله: ﴿مِن قَوْلٍ﴾ نكرةٌ في سياق النفي؛ فهو أيضًا يدل على العموم، والله تعالى يُثْبِتُ مِن ذلك ما يشاءُ، ويمحو ما يشاء.

قوله: "**فإن الله قد جعلهم علينا حافظين**" أي جعل من جنس الملائكة الكرام الكاتبين حفظة علينا؛ فهم يَحْفَظُون أعمالنا؛ صالحة كانت، أو سيئة، وذلك في صحائِف الأعمال؛ كما أنهم يحفظوننا مِمَّا لم يكتب علينا قال تعالى: ﴿لَهُۥ مُعَقِّبَٰتٌ مِّنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَمِنۡ خَلۡفِهِۦ يَحۡفَظُونَهُۥ مِنۡ أَمۡرِ ٱللَّهِ﴾ [سورة الرعد، من الآية:١١]، أي يحفظونه من أَمرِ الله الّذي لم يُكتب عليه، أو (مِن) بمعنى الباءِ، أي يحفظونه بأمر الله تعالى، وهو بمعنى يحفظونه بتقدير الله تعالى.

و "**حافظين**" اسم فاعل مِن (حفِظَ، يحفَظُ) فهو (حافِظٌ)، وهو بمعنى: الحارس، والمداوم، والمواظب، والراعي، والدافع، والجمع (**حافظين**)، وذكرهم بالجمع لأنهم عددٌ، قال الحسن: (الحفظة أربعة؛ اثنان بالنهار، واثنان بالليل)، ويؤيد ذلك حديث أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَٱللَّهُعَنۡهُ أَنَّ رَسُولَ اللهِ صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ، قَالَ: "**يَتَعَاقَبُونَ فِيكُمْ مَلاَئِكَةٌ بِاللَّيْلِ، وَمَلاَئِكَةٌ بِالنَّهَارِ، وَيَجْتَمِعُونَ فِي صَلاَةِ الْفَجْرِ، وَصَلاَةِ الْعَصْرِ، ثُمَّ يَعْرُجُ الَّذِينَ بَاتُوا فِيكُمْ، فَيَسْأَلُهُمْ رَبُّهُمْ وَهُوَ أَعْلَمُ بِهِمْ: كَيْفَ تَرَكْتُمْ عِبَادِي؟ فَيَقُولُونَ: تَرَكْنَاهُمْ وَهُمْ يُصَلُّونَ، وَأَتَيْنَاهُمْ وَهُمْ يُصَلُّونَ**" [رواه البخاري، ومسلم].

فإن قيل: فعن أي شيء يحفظ الملَكُ الإنسان؟

فالجواب: هؤلاء الملائكة يحفظون الإنسان من عدة أمورٍ:

الأمر الأوّل: يحفظونه مما لم يكتب عليه من المقدَّرَات الّتي تقع؛ كأن يكون في سفينة فتغرق، ولم يحن أجله؛ فينجو بأمر الله تعالى، والملائكة يحفظونه من الغرق، وعلى نحو هذا أمثلة كثيرة.

الأمر الثّاني: يحفظونه من الجنِّ والشياطين؛ فهم أعداء الإنس، وهم أعداء لا يُرَون؛ فجعل الله تعالى للإنسان ملائكة يرون الجن والشياطين؛ فيمنعونهم إلا إذا كان بسببٍ منهم من المعاصي والفسق والكفر ونحو ذلك، وهذا نوعٌ داخل تحت الأول؛ لكنه أخص منه.

الأمر الثّالث: يحفظون له وعليه كلّ ما يقوله، ويعمله، ويفعله، ويتركه، وهذا أظهر أنواع الحفظِ، وفيهم الكتبةُ الكرام، الذين يكتبون الأعمال في صحائف العُمَّال.

فإن قيل: فما عدد الملائكة الحفظة؟

فالجواب: أنه لم يرد عن عددِ الملائكة الحفظة نصٌّ، وورد في بعض الآثار أنهم عشرة:

١/ ٢-مَلَكَان أمامك بين يديك.

٣/ ٤-مَلَكَان من خلفك.

٥-مَلَكٌ قابضٌ على الناصية، ولعله القرين من الملائكة.

٦/ ٧-ملكان على الشفتين.

٨-ملكٌ على فَمِكَ؛ فلا يدخل منه شيءٌ غير مكتوبٍ.

٩/ ١٠-ملكان على عينيك.

فهؤلاء عشرة أملاك على كلّ آدمي، ينزلون ملائكة الليل على ملائكة النهار؛ لأن ملائكة الليل سوى ملائكة النهار، فهؤلاء عشرون مَلَكًا على كلّ آدميّ، وإبليس بالنهار وولده بالليل، وهذا روي مرفوعًا ولا يصح، وقيل في عددهم غير ذلك.

وفي حديث عبد الله بن مسعود رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ قال: قال رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: **"ما منكم من أحد إلا وقد وكلّ به قرينه من الجن، وقرينه من الملائكة"**. قالوا: وإياك، يا رسول الله؟ قال: **"وإياي، ولكن أعانني الله عليه فلا يأمرني إلا بخير"** [رواه مسلم].

وقول المصنّف رَحِمَهُٱللَّهُ: **"ونؤمن بملك الموت، المُوَكَّلِ بِقَبْضِ أرواحِ المؤمنين"**، أي ونقر بذلك، ونراه اعتقادًا بأن من الإيمان بالملائكة الإيمان بملك الموت الّذي أَمَرَه الله جَلَّوَعَلَا بقبض أرواح العالَمِين، وقد رُوِي أنّ اسمه (**عَـِزْرَائِيل**) ولم يصح؛ بل هو ملك الموت، قال الله تعالى: ﴿قُلْ يَتَوَفَّىٰكُم مَّلَكُ ٱلْمَوْتِ ٱلَّذِى وُكِّلَ بِكُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ﴾ [سورة السجدة، من الآية:١١]، وهو رئيس الملائكة الذين يقبضون الأرواح وله جنود؛ كما قال سبحانه: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ قَالُواْ فِيمَ كُنتُمْ قَالُواْ كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِى ٱلْأَرْضِ قَالُوٓاْ أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةً فَتُهَاجِرُواْ فِيهَا فَأُوْلَٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ وَسَآءَتْ مَصِيرًا﴾ [سورة

النساء، من الآية:٩٧]، وقال جلّ في علاه: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَكُمُ ٱلۡمَوۡتُ تَوَفَّتۡهُ رُسُلُنَا وَهُمۡ لَا يُفَرِّطُونَ﴾ [سورة الأنعام، من الآية:٦١].

و **"المُوَكَّل"** اسمُ مفعولٍ مِن (وكّل، يُوَكِّل) فهو (مُوَكِّلٌ) اسمُ فاعلٍ، و(مُوَكَّلٌ) اسم مفعولٍ، والمعنى أن الله تعالى وكلّ إلى ملَك الموت قبض الأرواح، فهو مُكلَّفٌ بذلك، وعليه هذه المهمة الجسيمة، ألا وهي **"قبض أرواح المؤمنين"**.

و **(القبضُ)** هنا بمعنى الضَّمِّ والجمعِ، فهو يجمعُ ويأخذ، ويَنْزِع ويَزوِي، أرواح المؤمنين والكافرين، فيمسك الروح الّتي يريد نزعها من البدن فلا يلبث أن يتركه حتّى يخرجها، على وجه المفارقة التامة، وقبضُ الرُّوح بإخراجها من بدنها على وجه البتِّ.

وقوله: **"أرواح المؤمنين"** ولم يذكر أرواح الكافرين، وذلك لأن التمثيل بقبض أرواح المؤمنين مُشْعِرٌ بقبض أرواحِ غيرهم من باب أولى؛ فإنه إذا كان الموتُ يلحق خيار عبادِ الله تعالى وهم المؤمنون فغيرهم أولى، وإذا كان القبضُ يتم من ملك الموت لأرواح المؤمنين فقبضُ أرواحِ غيرهم أجدرُ أن تقبضَ؛ بل هي تقبض على صورة أشدّ.

فإن قيل: ما هي أقسام قبض الأرواح عند الموت؟

فالجواب: أنّ قبض الأرواحِ عند الموت على ثلاثة أقسامٍ:

القسم الأوّل: قبضُ أرواح المؤمنين، ويكون القبضُ على صورة الطمأنينة، والخير، والإسالة؛ كما جاء في القرآن في قول الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفۡسُ ٱلۡمُطۡمَئِنَّةُ ٢٧ ٱرۡجِعِيٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةٗ مَّرۡضِيَّةٗ ٢٨ فَٱدۡخُلِي فِي عِبَٰدِي ٢٩ وَٱدۡخُلِي جَنَّتِي﴾ [سورة الفجر، من الآية:٢٧-٣٠]، وفي قوله تعالى: ﴿وَلَنِعۡمَ دَارُ ٱلۡمُتَّقِينَ ٣٠ جَنَّٰتُ عَدۡنٖ يَدۡخُلُونَهَا تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُۖ لَهُمۡ فِيهَا مَا يَشَآءُونَۚ كَذَٰلِكَ يَجۡزِي ٱللَّهُ ٱلۡمُتَّقِينَ ٣١ ٱلَّذِينَ تَتَوَفَّىٰهُمُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ طَيِّبِينَ يَقُولُونَ سَلَٰمٌ عَلَيۡكُمُ ٱدۡخُلُواْ ٱلۡجَنَّةَ بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ﴾ [سورة النحل، من الآية:٣٠-٣٢]، وجاء هذا مفسَّرًا في حديث البراء بن عازبٍ ب، وسيأتي بتمامه.

القسم الثّاني: قبضُ أرواح العُصاةِ، أهل الكبائرِ من المؤمنين، ويكون القبضُ على صورة الشِّدّة، والحَيْرَة، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَفَّىٰهُمُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِيٓ أَنفُسِهِمۡ قَالُواْ فِيمَ كُنتُمۡۖ قَالُواْ كُنَّا مُسۡتَضۡعَفِينَ فِي ٱلۡأَرۡضِۚ قَالُوٓاْ أَلَمۡ تَكُنۡ أَرۡضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةٗ فَتُهَاجِرُواْ فِيهَاۚ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَأۡوَىٰهُمۡ جَهَنَّمُۖ وَسَآءَتۡ مَصِيرًا﴾ [سورة النساء، من الآية:٩٧].

القسم الثّالث: قبضُ أرواح الكافرين، والمشركين، والمنافقين، ويكون القبضُ على صورة النزع، والشدة، كما قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ تَتَوَفَّىٰهُمُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِيٓ أَنفُسِهِمۡۖ فَأَلۡقَوُاْ ٱلسَّلَمَ مَا كُنَّا نَعۡمَلُ مِن سُوٓءِۭۚ بَلَىٰٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمُۢ بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ٢٨ فَٱدۡخُلُوٓاْ أَبۡوَٰبَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَاۖ فَلَبِئۡسَ مَثۡوَى

﴿ٱلۡمُتَكَبِّرِينَ﴾ [سورة النحل، من الآية:٢٨-٢٩]، وقال تعالى: ﴿وَلَوۡ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِي غَمَرَٰتِ ٱلۡمَوۡتِ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ بَاسِطُوٓاْ أَيۡدِيهِمۡ أَخۡرِجُوٓاْ أَنفُسَكُمُۖ ٱلۡيَوۡمَ تُجۡزَوۡنَ عَذَابَ ٱلۡهُونِ بِمَا كُنتُمۡ تَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ غَيۡرَ ٱلۡحَقِّ وَكُنتُمۡ عَنۡ ءَايَٰتِهِۦ تَسۡتَكۡبِرُونَ﴾ [سورة الأنعام، من الآية:٩٣]، وسيأتي مفسَّرًا في حديث البراء بن عازب ب.

و **"أرواح"** جمعُ (رُوحٍ)، وهي تسمَّى **(النفسُ)** إذا كان في البدن، وقد خاطبت الملائكة الرُّوح في البدن باسم النفس؛ كما في قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفۡسُ ٱلۡمُطۡمَئِنَّةُ ٢٧ ٱرۡجِعِيٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةٗ مَّرۡضِيَّةٗ﴾ [سورة يونس، من الآية:٢٧-٢٨]، وتسمَّى **(الرُّوحُ)** إذا كان خارج البدن، كما قال الله تعالى: ﴿وَيَسۡـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِۖ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنۡ أَمۡرِ رَبِّي وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلۡعِلۡمِ إِلَّا قَلِيلٗا﴾ [سورة الإسراء، من الآية:٨٥].

وسمِّيتِ **(الرّوح)** روحًا لأن بها روحُ الحياةِ، وإمكان رَوَحَانِها، وحركتها، وسكنتها، وقيلَ: مشتق من الرِّيح، وهذا الاشتقاق له وجهٌ؛ ولكن لا يلزم من الاشتقاق والتشابه في الاسم التشابه في المسمّى، ألا ترى أنا نسمِّي بهائم الأنعام حيوانًا، ونسمي الحوت حيوانًا، مع تباعد التشابه بينهما في المسمى، ونسمِّي ضوء الشمس نورًا، والنّار نورًا، والضياء نورًا، والملائكة نورًا، وليس بينها تشابه إلا في اللفظ؛ فهي من الكلمات المتواطئة، التي تختلف باختلاف المضاف إليه كمًّا وكيفًا.

وقد خاض في ماهية الروح، وحقيقتها أقوامٌ فضلوا السبيل، وذلك لأنه غيبٌ من أمر الله تعالى، وأضافها الله تعالى إلى نفسه، إضافة تشريف وتكريم وتخصيصٍ؛ فلا أحد يقدرُ على إيجاد الأرواحِ، ولا على التصرف فيها إلا الله تعالى، ولا أحد يقدر على إبقائها، وإماتتها، وثم إعادتها إلا الله تعالى، وكلّ أرواح بني آدم مخلوقةٌ لله تعالى، من روحِ آدم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ إلى روح آخر مخلوقٍ، قال الله تعالى عن روح آدم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ: ﴿فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُواْ لَهُۥ سَٰجِدِينَ﴾ [سورة الحجر، من الآية:٢٩]، وقال عن أرواح المؤمنين: ﴿ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُۥ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ ۝٨ ثُمَّ سَوَّىٰهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِهِۦ وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ﴾ [سورة السجدة، من الآية:٨-٩]، وقد جاء هذا مرفوعًا، وفي آثارٍ كثيرة مفهومًا، قال محمد بن كعب القرظي ت: (خَلَقَ اللهُ الْأَرْوَاحَ قَبْلَ أَنْ يَخْلُقَ الْأَجْسَاد فَأَخَذَ مِيثَاقَهُمْ) [رواه ابن أبي شيبة].

خلاصة كلام المصنّف رَحِمَهُ ٱللَّهُ: وجوب الإقرار بالملائكة الكتبة، الحفظة، الذين يكتبون على ابن آدم عمله وقوله، ويحفظونه مما لم يكتب عليه، والإقرار بملَك الموت الّذي هو يقبض الأرواحَ، وأن له أعوانًا في ذلك، وأن قبض الأرواح يتم لعموم النّاس، وأنهم يختلفون في كيفيّة القبضِ، وما بعده.

[الإيمان بالبرزخ]

وَنُؤْمِنُ بِعَذَابِ الْقَبْرِ وَنَعِيمِهِ لِمَنْ كَانَ لَهُ أَهْلًا، وَبِسُؤَالِ مُنْكَرٍ وَنَكِيرٍ لِلْمَيِّتِ فِي قَبْرِهِ، عَنْ رَبِّهِ، وَدِينِهِ، وَنَبِيِّهِ، عَلَى مَا جَاءَتْ بِهِ الْأَخْبَارُ عَنْ رَسُولِ اللهِ النَّبِيِّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَعَنْ أَصْحَابِهِ رِضْوَانُ اللهِ عَلَيْهِمْ أَجْمَعِينَ، وَبِأَنَّ الْقَبْرَ رَوْضَةٌ مِنْ رِيَاضِ الْجَنَّةِ، أَوْ حُفْرَةٌ مِنْ حُفَرِ النَّارِ.

الشرح

هذا تقرير لمسائل الإيمان باليوم الآخر، وهو ما يتعلق بالقبر، وبعالم البرزخ، وبيان عقيدة أهل السنة والجماعة فيها.

قوله: "**ونؤمن بعذاب القبر وّنعيمه**"، أي ونؤمن ونقرُّ بهذه المسألة الّتي هي من مسائل الركن الخامسِ من أركان الإيمان، رُكنِ الإيمان باليوم الآخر؛ فمنه الإيمان بعذاب القبر ونعيمه، وما يكون فيه.

وقد أنكرت طوائف من أهل البدع عذاب القبر ونعيمه، ومنهم المعتزلة المتأخرون، وزعموا أنه ليس في القبر على البدن عذابٌ أو نعيمٌ؛ بل ولا على الرُّوحِ، حتّى تكون القيامة!؟ وتولَّى كُبْرَ هذه المسألة في زماننا من يُسَمَّون أنفسهم بالقرآنيين، وكذلك جماعةٌ تسمِّي نفسها بحزب التحرير، والجماعة البروزية في القارة الهندية.

وهذا مخالف لمنصوص الكتاب ومتواتر السنة، قال الله تعالى عن قوم نوح:

﴿مِّمَّا خَطِيٓـَٔـٰتِهِمۡ أُغۡرِقُواْ فَأُدۡخِلُواْ نَارٗا فَلَمۡ يَجِدُواْ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ أَنصَارٗا﴾ [سورة نوح،

من الآية:٢٥]، ولم يقل: (ثم)؛ فدلَّ أن الدخول كان مرتبًا على الغرق مباشرة، وليس فيه ذكر الرّوح دون البدن، ولا البدن دون الروح، وإنَّما هو العموم.

وقال تعالى: ﴿وَحَاقَ بِـَٔالِ فِرۡعَوۡنَ سُوٓءُ ٱلۡعَذَابِ ۝٤٥ ٱلنَّارُ يُعۡرَضُونَ عَلَيۡهَا غُدُوّٗا وَعَشِيّٗاۚ وَيَوۡمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ أَدۡخِلُوٓاْ ءَالَ فِرۡعَوۡنَ أَشَدَّ ٱلۡعَذَابِ﴾ [سورة غافر، من الآية:٤٥-٤٦]، وفي الآية التنصيص على أن فرعون وأتباعه تعرض عليهم النّار، وهو نوع من العذاب قبل يوم القيامة.

وقد جاء في متواتر السنة ذكر عذاب القبر ونعيمه، وأنه على الروح والبدن، كما جاء في حديث عائشة رَضِيَٱللَّهُعَنۡهَا عن النّبيّ صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ، وفيه أنه قال: **"هَلْ شَعَرْتِ أَنَّهُ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّكُمْ تُفْتَنُونَ فِي الْقُبُورِ؟"** قَالَتْ عَائِشَةُ: فَسَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ، بَعْدُ يَسْتَعِيذُ مِنْ عَذَابِ الْقَبْرِ. [رواه البخاري بنحوه، وهذا لفظ مسلم].

وَوَرَدَ في حديث ابْنِ عَبَّاسٍ بِأَنَّ رَسُولَ اللهِ صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ كَانَ يُعَلِّمُهُمْ هَذَا الدُّعَاءَ؛ كَمَا يُعَلِّمُهُمُ السُّورَةَ مِنَ الْقُرْآنِ، يَقُولُ قُولُوا: **"اللهُمَّ إِنَّا نَعُوذُ بِكَ مِنْ عَذَابِ جَهَنَّمَ، وَأَعُوذُ بِكَ مِنْ عَذَابِ الْقَبْرِ، وَأَعُوذُ بِكَ مِنْ فِتْنَةِ الْمَسِيحِ الدَّجَّالِ، وَأَعُوذُ بِكَ مِنْ فِتْنَةِ الْمَحْيَا وَالْمَمَاتِ"** [رواه مسلم].

وجاء في حديث عَوْفِ بْنَ مَالِكٍ رَضِيَٱللَّهُعَنۡهُ يَقُولُ: صَلَّى رَسُولُ اللهِ صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ عَلَى جَنَازَةٍ، فَحَفِظْتُ مِنْ دُعَائِهِ وَهُوَ يَقُولُ: **"اللهُمَّ، اغْفِرْ لَهُ وَارْحَمْهُ، وَعَافِهِ وَاعْفُ عَنْهُ، وَأَكْرِمْ نُزُلَهُ، وَوَسِّعْ مُدْخَلَهُ، وَاغْسِلْهُ بِالْمَاءِ وَالثَّلْجِ**

وَالْبَرَدِ، وَنَقِّهِ مِنَ الْخَطَايَا كَمَا نَقَّيْتَ الثَّوْبَ الْأَبْيَضَ مِنَ الدَّنَسِ، وَأَبْدِلْهُ دَارًا خَيْرًا مِنْ دَارِهِ، وَأَهْلًا خَيْرًا مِنْ أَهْلِهِ، وَزَوْجًا خَيْرًا مِنْ زَوْجِهِ، وَأَدْخِلْهُ الجنّة، وَأَعِذْهُ مِنْ عَذَابِ الْقَبْرِ، أَوْ مِنْ عَذَابِ النَّارِ" قَالَ: حَتَّى تَمَنَّيْتُ أَنْ أَكُونَ أَنَا ذَلِكَ الْمَيِّتَ. [رواه مسلم].

وجاء في حديث أبي سعيد الخدري رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ عن زيد بن ثابت رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ قال: قال رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: "**إِنَّ هَذِهِ الْأُمَّةَ تُبْتَلَى فِي قُبُورِهَا، فَلَوْلَا أَنْ لَا تَدَافَنُوا، لَدَعَوْتُ اللهَ أَنْ يُسْمِعَكُمْ مِنْ عَذَابِ الْقَبْرِ الَّذِي أَسْمَعُ مِنْهُ**" ثُمَّ أَقْبَلَ عَلَيْنَا بِوَجْهِهِ، فَقَالَ: "**تَعَوَّذُوا بِاللهِ مِنْ عَذَابِ النَّارِ**" قَالُوا: نَعُوذُ بِاللهِ مِنْ عَذَابِ النَّارِ، فَقَالَ: "**تَعَوَّذُوا بِاللهِ مِنْ عَذَابِ الْقَبْرِ**" قَالُوا: نَعُوذُ بِاللهِ مِنْ عَذَابِ الْقَبْرِ. [رواه مسلم].

وقد روى أحاديث عذاب القبر عددٌ متواتر من الصحابة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمْ، وعنهم عددٌ من الرواة، من مختلف الأمصار، ومختلف الأعصار، تواترًا معنويًّا لا يقع الشك والريب على مثل هذه الروايات البتة.

وهنا مسألة عظيمة؛ وهي: هل مسائل الإيمان عقلية أو نقلية؟

فالجواب: أنّ في ذلك ثلاثة مناهج مشهورة:

المنهج الأوّل: منهج المعتزلة؛ فقد قالت نابتة من المعتزلة بعد مُضِيّ خير القرون أن مسائل الإيمان عقلية، وجعلوا النقل تابعًا، حتّى إنهم كلما رأوا نصًّا مخالفًا لعقولهم ردوه إن كان آحادًا بحجة الآحادية، أو أولوه إن لم يمكنهم الرد

بحجة المخالفة العقلية.

المنهج الثّاني: منهج جمعٍ من الأشاعرة -لا سيما المتأخرين منهم- حيث جعلوا مسائل الإيمان منقسمة إلى قسمين؛ **الأول**: مسائل خبرية نقلية، وهي مسائل الإيمان بالملائكة، وبالكتب، واليوم الآخر، ويقولون لا مجال للعقل فيها البتة. **الثاني**: مسائل عقلية، وهي بقية أركان الإيمان؛ الإيمان بالله، وبالرسل، وبالقدر، ويوافقون المعتزلة في هذا الباب على تأويل أو رد كلّ ما يخالف عقولهم!؟

المنهج الثّالث: منهج سلفِ هذه الأمة، ومن تبعهم من الأئمة، قبل وجود الفرقة والبدعة، وهو أن مسائل الإيمان نقلية، وأن العقل تابعٌ، وعلى هذا أدلة كثيرةٌ، وهذا في جميع أبواب الإيمان، ويقولون: العقول لا تستقل بشيءٍ من ذلك، ولا يمكنها العلم بتفصيلاتها؛ فلذلك يجعلونه تابعًا، إما مُؤَكِّدًا إذا كان من المُدرَكات، أو متحيِّرًا إذا كانت المسألة من الغيبيات، ولا يمكن بحال أن يستقل العقل في مسائل الإيمان، ولهم أدلة كثيرة، ومن هذه الأدلة:

الدّليل الأوّل: أنّ الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى أنزل الكتب، وأرسل الرّسل، ولو كان العقل مستقلًّا بالدلالة؛ لما كان هناك من حاجة إلى إرسال الرسل، ولا إلى إنزال الكتب، وهذا يدل أن العقل لا يستقل لا في إقامة الحجة، ولا في بيان المحجة، ولهذا قال تعالى: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾ [سورة الإسراء، من الآية:١٥].

الدّليل الثّاني: أنّ الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى أخبر أنّ الحجّة تقوم بالرُّسل، كما قال سبحانه:

﴿وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَاهُمْ عَلَيْكَ مِن قَبْلُ وَرُسُلًا لَّمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ ۚ وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا ﴿١٦٤﴾ رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ ۚ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾ [سورة النساء، من الآية:١٦٤-١٦٥].

الدّليل الثّالث: أن الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ لم يُهْلِك أمّة إلا بعد إرسال الرسل، مع أن عقولهم كانت موجودة قبل الرسل، قال الله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَىٰ حَتَّىٰ يَبْعَثَ فِي أُمِّهَا رَسُولًا يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا ۚ وَمَا كُنَّا مُهْلِكِي الْقُرَىٰ إِلَّا وَأَهْلُهَا ظَالِمُونَ﴾ [سورة القصص، من الآية:٥٩].

الدّليل الرّابع: أن الكفار والمشركين، وكلّ هالكٍ مستحقٍّ للعذاب يملك العقل، الّذي به يمكنه التعقُّل، ولم يكن عقله سببا للنجاة؛ فكيف يكون دليلًا، وهو غير كافٍ في النجاة؛ فعلم أن الْمُنجي هو اتباع المنزَّل، لا مجرد العقل، وأن المنجي هو اتباع السَّمع، قال الله تعالى: ﴿إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِندَ اللَّهِ الصُّمُّ الْبُكْمُ الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٢٢﴾ وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَّأَسْمَعَهُمْ ۖ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوا وَّهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٢٣﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ ۖ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ وَأَنَّهُ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾ [سورة الأنفال، من الآية:٢٢-٢٤].

الدّليل الخامس: أن الكفار وهم في النّار يخبرون عن أنفسهم أنهم ما كانوا يعقلون النصّ، وأنهم إنما استقلوا بعقولهم فأوردهم ذلك النّار، وأنهم ما كانوا

يسمعون، ولو كانوا يسمعون لما كانوا في النّار، قال الله تعالى: ﴿وَلِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ۝٦ إِذَآ أُلْقُوا۟ فِيهَا سَمِعُوا۟ لَهَا شَهِيقًا وَهِىَ تَفُورُ ۝٧ تَكَادُ تَمَيَّزُ مِنَ ٱلْغَيْظِ ۖ كُلَّمَآ أُلْقِىَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَآ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ ۝٨ قَالُوا۟ بَلَىٰ قَدْ جَآءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ ٱللَّهُ مِن شَىْءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ كَبِيرٍ ۝٩ وَقَالُوا۟ لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِىٓ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ۝١٠ فَٱعْتَرَفُوا۟ بِذَنۢبِهِمْ فَسُحْقًا لِّأَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ﴾ [سورة الملك، من الآية:٦-١١].

فإن قال قائلٌ: إن النصوص القرآنية، والنبوية، تأمر بالتَّعقل، والتفكر، والتدبر، والتذكر، وهذه كلها أمورٌ عقلية؟

فالجواب: أن المقصود هو التعقل في نصوص الكتاب والسنة، لا الاستقلال في التعقل، والتفكر في الآيات، لا في ردها، وتأويلها، والتدبر في النصوص لا خارجا عن إطارها، والتذكر بمدلولات المنزل لا فيما خرج عنها، وهذا كله عمل العقل مع النص، لا خارجًا عن إطاره، ومن هنا؛ فإنا نفرق بين من يستعمل عقله مستقلا، وبين من يستعمل عقله لفهم النص؛ فالأول مذموم، والثاني ممدوحٌ، قال الله تعالى: ﴿حمٓ ۝١ تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ ۝٢ إِنَّ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَءَايَٰتٍ لِّلْمُؤْمِنِينَ ۝٣ وَفِى خَلْقِكُمْ وَمَا يَبُثُّ مِن دَآبَّةٍ ءَايَٰتٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ۝٤ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن رِّزْقٍ فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ ءَايَٰتٌ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ۝٥ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِٱلْحَقِّ ۖ فَبِأَىِّ حَدِيثٍۭ بَعْدَ ٱللَّهِ

﴿وَءَايَٰتِهِۦ يُؤۡمِنُونَ﴾ [سورة الجاثية، من الآية:١-٦].

وإذا تقرر هذا فإنا نقول إن جميع مسائل وأبواب الاعتقاد هي نقلية، والعقل تابع، ولا يمكن للعقل الاستقلال، في أي باب من أبواب الاعتقاد، وذلك لأن العقل يمكنه إدراك بعض الكليات من جهة، وإدراك بعض المشاهدات من جهة أخرى؛ فهي قاصرة عن إدراك جميع الكليات، وعن إدراك كلّ المشاهدات، فضلًا عن الغيبيات، ومن ذلك ما يتعقل بمسألة صفات الله تعالى فهي غيبٌ، ومسألة الملائكة وهم غيبٌ، ومسألة الكتب، ومسألة الرسل وهذا غيب ماضٍ، ومسألة القدر، ومسألة اليوم الآخر، ومن ضمن ذلك عذاب القبر ونعيمه.

و"**عذاب القبر**" أضيف العذابُ إلى القبرِ من باب إضافة الشيء إلى مكانه وسببه، وغالب حاله، وليس المعنى أنّ مَن لم يُقبَر فإنّه لا يعذّب ولا يُنعَّم؛ بل الأمرُ عامٌ لمن قُبِر أو لم يقبَر.

و "**عَذَاب**" بمعنى العقاب، والنَّكال، وما شقَّ على النَّفس، والألَم الجسديّ.

و "**القبر**" المكان الّذي يدفَنُ فيه الميت، والجمعُ (**قبورٌ**)؛ فأضيفَ العذاب إلى (**القبر**) لأنه زمانه، وهو في عالم البرزخ، والإنسان يمر بمراحل في وجوده؛ كما يمرُّ بمراحل في خلقه، وهذه المراحل هي:

المرحلة الأولى: مرحلة العدم، وهي الّتي قال الله تعالى فيها: ﴿هَلۡ أَتَىٰ عَلَى ٱلۡإِنسَٰنِ حِينٞ مِّنَ ٱلدَّهۡرِ لَمۡ يَكُن شَيۡـٔٗا مَّذۡكُورًا﴾ [سورة الإنسان، من الآية:١]، وهذه المرحلة هي مرحلة عدمية، لا يمكن تذكرها، ولا رؤيتها، وإنما يمكن العلم بها، والتيقن منها

عِلْمًا.

المرحلة الثّانية: مرحلة الوجود في بطن الأمة؛ قال الله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ شَيۡـًٔا وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمۡعَ وَٱلۡأَبۡصَٰرَ وَٱلۡأَفۡـِٔدَةَ لَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ﴾ [سورة النحل، من الآية:٧٨]، وكان وهو في بطن أمّه يرى المكان الضيق هو كلّ شيء، وإذا ما انتقل إلى المرحلة الّتي بعدها بكى على تلك، وهكذا الإنسان ينتقل من مرحلة صغرى ثم متوسط ثم أكبر ثم كبرى، وفي هذه المرحلة يُعطى الإنسان بعض أحكام الدّنيا، وبعض أحكام العدم، وفي هذه المرحلة تتم نفخ الروحِ في البدن؛ فيأخذ البدن شيئًا من أحكام الأحياء، وتكون الغلبة للبدن، ووجوده في هذه المرحلة يمر بأطوارٍ، قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمۡ فِي رَيۡبٖ مِّنَ ٱلۡبَعۡثِ فَإِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن تُرَابٖ ثُمَّ مِن نُّطۡفَةٖ ثُمَّ مِنۡ عَلَقَةٖ ثُمَّ مِن مُّضۡغَةٖ مُّخَلَّقَةٖ وَغَيۡرِ مُخَلَّقَةٖ لِّنُبَيِّنَ لَكُمۡۚ وَنُقِرُّ فِي ٱلۡأَرۡحَامِ مَا نَشَآءُ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗى ثُمَّ نُخۡرِجُكُمۡ طِفۡلٗا﴾ [سورة الحج، من الآية:٥].

المرحلة الثّالثة: مرحلة الخروج إلى الدّنيا، وهي مرحلة متوسطة بين بطن الأمِّ وبين الدّنيا من جهة، وبين الدّنيا وبين القبر والبرزخ من جهة أخرى، وفيها يعطى الإنسان جميع أحكام الدّنيا، ويتطلع إلى شيء من أحكام الآخرة إن كان مؤمنا؛ كالوَلايَة، والصَّلاح، والكمالات، وفي هذه المرحلة يتم التنازع بين البدن

والروح، ولمن تكون الغلبة، بقدر ذلك تكون الرِّفعة أو الضَّعَة، الشرَفُ أو الخِسَّة، وهذه المرحلة فيها أطوارٌ؛ قال الله تعالى: ﴿ثُمَّ نُخۡرِجُكُمۡ طِفۡلٗا ثُمَّ لِتَبۡلُغُوٓاْ أَشُدَّكُمۡۖ وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرۡذَلِ ٱلۡعُمُرِ لِكَيۡلَا يَعۡلَمَ مِنۢ بَعۡدِ عِلۡمٖ شَيۡـٔٗا﴾ [سورة الحج، من الآية:٥]، ويقول تعالى: ﴿ثُمَّ يُخۡرِجُكُمۡ طِفۡلٗا ثُمَّ لِتَبۡلُغُوٓاْ أَشُدَّكُمۡ ثُمَّ لِتَكُونُواْ شُيُوخٗاۚ وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ مِن قَبۡلُۖ وَلِتَبۡلُغُوٓاْ أَجَلٗا مُّسَمّٗى وَلَعَلَّكُمۡ تَعۡقِلُونَ﴾ [سورة غافر، من الآية:٦٧].

المرحلة الرّابعة: مرحلة الموت، والوجود في القبر؛ وهي مرحلة البرزخ، قال الله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَهُمُ ٱلۡمَوۡتُ قَالَ رَبِّ ٱرۡجِعُونِ ٩٩ لَعَلِّيٓ أَعۡمَلُ صَٰلِحٗا فِيمَا تَرَكۡتُۚ كَلَّآۚ إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَآئِلُهَاۖ وَمِن وَرَآئِهِم بَرۡزَخٌ إِلَىٰ يَوۡمِ يُبۡعَثُونَ﴾ [سورة المؤمنون، من الآية:٩٩-١٠٠]، والبرزخ الحاجز بين شيئين، وقد يكون حسيا أو معنويا، وهو زمن يكون بين الدّنيا والقيامة؛ فهذه المرحلة متوسطة بين الدّنيا وبين الآخرة، وهي مرحلة أكبر من مرحلة الدّنيا بالنسبة إلى الروح حيث كان في البدن محصورًا، قال الله تعالى: ﴿كُلُّ نَفۡسٖ ذَآئِقَةُ ٱلۡمَوۡتِ﴾ [سورة آل عمران، من الآية:١٨٥]، وقال: ﴿حَتَّىٰ زُرۡتُمُ ٱلۡمَقَابِرَ﴾ [سورة التكاثر، من الآية:٢]، وفي هذه المرحلة الغلبة فيها للرُّوح، نعيمًا أو عذابًا، يُسرًا أو عُسرًا، وفيها: خروج الروح من البدنِ، ثم عوده للسؤالِ، ثم تعلقه بالبدن بكيفيّة غيبية لا يعلمها إلا الله تعالى، والغلبة فيها للروح، وأرواح المؤمنين في الجنّة معلقة بأشجارها، وأرواح

الشهداء في حواصل طيرٍ خضرٍ تغدو وتروح في الجنّة، وأرواح الكافرين تعرض على النّار غدوا وعشيا.

المرحلة الخامسة: مرحلة الرَّجعة، وهي مرحلة النَّشْرِ والبعثِ، والجنّة والنّار، وفي هذه المرحلة يكون البدن والرُّوح متساويان، لذّة وتَلَذُّذًا، سعادة ويسارًا، أو شدة وعسرًا، عذابًا وجحيمًا، وهي الّتي قال الله تعالى عنها في نهاية مراحل الإنسان: ﴿وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ فَمَن زُحْزِحَ عَنِ ٱلنَّارِ وَأُدْخِلَ ٱلْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَـٰعُ ٱلْغُرُورِ﴾ [سورة آل عمران، من الآية:١٨٥]، وقال سبحانه: ﴿ٱللَّهُ يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [سورة الروم، من الآية:١١].

وقد جمع الله هذه المراحل في قوله تعالى: ﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِٱللَّهِ وَكُنتُمْ أَمْوَٰتًا فَأَحْيَـٰكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [سورة البقرة، من الآية:٢٨]، وقال سبحانه: ﴿قُلِ ٱللَّهُ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يَجْمَعُكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [سورة الجاثية، من الآية:٢٦].

وقول المصنّف رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **"وبعذاب القبر لمن كان له أهلًا"** فيه دلالة على أن عذاب القبرِ إنما يستحقه من يكون قد عمل السيئات، ومات على المنكرات، وقارف الشرك والكفريات، وأما من كان موحدًا ومؤمنًا تقيًّا وبارًا فلا يكون أهلًا للعذاب؛ فيكون مستحقًا للنعيم.

والعذاب والنعيم في عالم البرزخ دون يوم القيامة؛ كما أن النعيم أو العذاب الّذي قد يقع على الإنسان في الدّنيا هو دون ما يقع عليه في القبر؛ كما أن مسرته ومضرته وهو في بطن أمه كان دون ما كان عليه في الدّنيا؛ فمن تأمل هذه المراحل، علم هذه الأحوال، وأدرك التفاوت في الحالِ، وهو تفاوت ثابت.

وفي قوله "**لمن كان له أهلًا**" أي مُسْتَحِقًّا، مؤَهَّلًا، وكلّ كافرٍ ومشركٍ ومنافقٍ النفاق الأكبر، وكلّ صاحب بدعةٍ، أو صاحب كبيرةٍ؛ فهو مستحق للعذاب في القبرِ؛ وكنهم يتفاوتون كتفاوتهم في الذنوب والمعاصي، وكما سيتفاوتون في تفاوتهم في العقاب والجزاء في الآخرة، ومما يدل على هذا من القرآن قول الله تعالى عن الظالمين: ﴿ٱلَّذِينَ تَتَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ ۖ فَأَلْقَوُا۟ ٱلسَّلَمَ مَا كُنَّا نَعْمَلُ مِن سُوٓءٍۭ ۚ بَلَىٰٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٨﴾ فَٱدْخُلُوٓا۟ أَبْوَٰبَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۖ فَلَبِئْسَ مَثْوَى ٱلْمُتَكَبِّرِينَ﴾ [سورة النحل، من الآية:٢٨-٢٩]، وقول الله تعالى في حق المتقين: ﴿ٱلَّذِينَ تَتَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ طَيِّبِينَ ۙ يَقُولُونَ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمُ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [سورة النحل، من الآية:٣٢].

وهذا إنما يكون بعد سؤال منكرٍ ونكيرٍ، ولهذا قال المصنّف رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "**وسؤالُ مُنْكَرٍ ونكير في قبره عن ربه ودينه ونبيه**"، أي ونقرُّ ونؤمن مما نؤمن به من مسائل اليوم الآخر، والمتعلق بعالم البرزخ، ثبوت "**سؤال منكرٍ ونكيرٍ في قبره**"، و "**سؤال**" طلب الاستخبارِ، والتوضيحُ عن أمرٍ، وهو طرحُ سؤالٍ

لمعرفة الجواب، وهم يطرحون ثلاثة أسئلة كما جاءت في السنة النبوية المبينة.

و "**مُنْكَرٌ**" بفتح الكافِ على وزن اسم المفعولِ، وجاء في الأحاديث بالتعريف (**المُنْكَر**، والنَّكير)، وبالتنكير (مُنْكَرٌ، ونكيرٌ)، وهو وصفٌ للملَك الّذي يسأل السؤال، وبمعنى الّذي يأتي بالأمر الشديد؛ فهو غيرُ معرَّفٍ عند المسؤولِ، ومما يدل على جواز وصف الملائكة بهذا الوصفِ باعتبار المسؤول قول إبراهيم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ: ﴿هَلۡ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ضَيۡفِ إِبۡرَٰهِيمَ ٱلۡمُكۡرَمِينَ ٢٤ إِذۡ دَخَلُواْ عَلَيۡهِ فَقَالُواْ سَلَٰمٗاۖ قَالَ سَلَٰمٞ قَوۡمٞ مُّنكَرُونَ﴾ [سورة الذاريات، من الآية:٢٤-٢٥]، وقول لوطٍ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ: ﴿فَلَمَّا جَآءَ ءَالَ لُوطٍ ٱلۡمُرۡسَلُونَ ٦١ قَالَ إِنَّكُمۡ قَوۡمٞ مُّنكَرُونَ﴾ [سورة الحجر، من الآية:٦١-٦٢]، وقيل: إن ذلك اسمٌ له.

و "**نَكِيرٌ**" فعيلٌ بمعنى فاعلٍ، ويصح أن يكون بمعنى مفعولٍ، وصفٌ للملَك الّذي يسأل السؤال؛ فهو (**نَكِيرٌ**) لا يُعرَفُ، وهو بمعنى المعاقِب الرَّادِع، والصَّعب المنيع، وقيل: إن ذلك اسمٌ له.

وقوله "**عن ربِّه، ودينِه، ونبيِّه**" أي أنّ مُنْكَرًا ونكِيرًا يسألان الميت هذه الأسئلة الثلاثة:

السؤال الأوّل: من ربك؟ أي من ربك الّذي كنت تَعْبُدُه، وتَتَأَلَّهُهُ، وليس المقصود من خالقك؟ وذلك لأن المشركين يعرفون الخالق، وإنما كان شركهم في العبادة، واسم (**الرب**) واسم (**الله**) يأتيان معًا، ويكون عند الاجتماع ملحوظًا في الأول معنى (الخالق، المالك، المدبر)، وفي الثاني معنى (المألوه المحبوب)،

وقد ينفردان؛ فيأتي كلّ متضمنا لمعنى الآخر؛ كما هنا، وهو بمعنى ما جاء في القرآن من سؤال إبراهيم لقومه: ﴿مَا تَعۡبُدُونَ﴾، ﴿مَاذَا تَعۡبُدُونَ﴾، ومعنى قوله تعالى: ﴿أَيۡنَ مَا كُنتُمۡ تَعۡبُدُونَ ۝٩٢ مِن دُونِ ٱللَّهِ هَلۡ يَنصُرُونَكُمۡ أَوۡ يَنتَصِرُونَ﴾ [سورة الشعراء، من الآية:٩٢-٩٣]، وقوله تعالى: ﴿أَيۡنَ مَا كُنتُمۡ تَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ [سورة الأعراف، من الآية:٣٧]، وهذه الأسئلة في القرآن وإن كانت واردة في الأسئلة الّتي تكون في اليوم الآخر؛ لكن المقصود أن السؤال في القبر هو امتحان أولي للامتحان يوم الحشر، هذا من وجه، ووجه آخر، وهو أن هذه الأسئلة وردت في اليوم الآخر، وبعضُ أحكام الآخرة متعلقة بالقبر؛ بل خروج الروح أول منازل الآخرة، وآخرها الصعود إلى الجنّة، جعلني الله وإياكم من أهلها، أو النزول إلى النّار، أعاذني الله وإياكم منها.

السّؤال الثّاني: ما دينك؟ أي الّذي كنت تتدين به، وتتقرب به إلى الله تعالى، هل كنت موحِّدًا مسلمًا، أم مشركًا، هل كنت مؤمنا أم يهوديا أم نصرانيا، هل كنت مُتَعبِّدًا أو لاهيا، فالسؤال عن الدين متضمن السؤال عن التبعد والتقرب، كما قال الله تعالى: ﴿لَكُمۡ دِينُكُمۡ وَلِيَ دِينِ﴾ [سورة الكافرون، من الآية:٦]، وقال عن إبراهيم عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ: ﴿وَقَالُواْ كُونُواْ هُودًا أَوۡ نَصَٰرَىٰ تَهۡتَدُواْۗ قُلۡ بَلۡ مِلَّةَ إِبۡرَٰهِـۧمَ حَنِيفٗاۖ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ﴾ [سورة البقرة، من الآية:١٣٥]، وقال سبحانه: ﴿مَا كَانَ إِبۡرَٰهِيمُ يَهُودِيّٗا وَلَا نَصۡرَانِيّٗا وَلَٰكِن كَانَ حَنِيفٗا مُّسۡلِمٗا وَمَا كَانَ مِنَ

ٱلۡمُشۡرِكِينَ﴾ [سورة آل عمران، من الآية:٦٧].

السّؤال الثّالث: من نبيك؟ أي الّذي كنت بشرعه تتعبد الله تعالى، وتتبعه، وهذا السؤال أيضًا يكون يوم القيامة، كما في قوله تعالى: ﴿وَيَوۡمَ يُنَادِيهِمۡ فَيَقُولُ مَاذَآ أَجَبۡتُمُ ٱلۡمُرۡسَلِينَ﴾ [سورة القصص، من الآية:٦٥].

وقد صحَّ سؤالُ مُنكرٍ ونكيرٍ مِن عدة أوجُهٍ عن النّبيّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وأنَّهم يسألون مَن ربُّك؟ ما دينك؟ من نبيك؟ وممن رواه أبو هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ولفظ حديثه قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **"إِذَا قُبِرَ المَيِّتُ -أَوْ قَالَ: أَحَدُكُمْ- أَتَاهُ مَلَكَانِ أَسْوَدَانِ أَزْرَقَانِ، يُقَالُ لِأَحَدِهِمَا: الْمُنْكَرُ، وَلِلْآخَرِ: النَّكِيرُ، فَيَقُولَانِ: مَا كُنْتَ تَقُولُ فِي هَذَا الرَّجُلِ؟ فَيَقُولُ: مَا كَانَ يَقُولُ: هُوَ عَبْدُ اللهِ وَرَسُولُهُ، أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، وَأَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، فَيَقُولَانِ: قَدْ كُنَّا نَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُولُ هَذَا، ثُمَّ يُفْسَحُ لَهُ فِي قَبْرِهِ سَبْعُونَ ذِرَاعًا فِي سَبْعِينَ، ثُمَّ يُنَوَّرُ لَهُ فِيهِ، ثُمَّ يُقَالُ لَهُ، نَمْ، فَيَقُولُ: أَرْجِعُ إِلَى أَهْلِي فَأُخْبِرُهُمْ، فَيَقُولَانِ: نَمْ كَنَوْمَةِ العَرُوسِ الَّذِي لَا يُوقِظُهُ إِلَّا أَحَبُّ أَهْلِهِ إِلَيْهِ، حتّى يَبْعَثَهُ اللهُ مِنْ مَضْجَعِهِ ذَلِكَ.**

وَإِنْ كَانَ مُنَافِقًا قَالَ: سَمِعْتُ النّاس يَقُولُونَ، فَقُلْتُ مِثْلَهُ، لَا أَدْرِي، فَيَقُولَانِ: قَدْ كُنَّا نَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُولُ ذَلِكَ، فَيُقَالُ لِلأَرْضِ: التَئِمِي عَلَيْهِ، فَتَلْتَئِمُ عَلَيْهِ، فَتَخْتَلِفُ فِيهَا أَضْلَاعُهُ، فَلَا يَزَالُ فِيهَا مُعَذَّبًا حتّى يَبْعَثَهُ اللهُ مِنْ مَضْجَعِهِ ذَلِكَ" [رواه الترمذي، وقال: حسنٌ غريب].

وقد رَوَى هذه الأَحاديثَ مِن الصحابة ن عددٌ؛ كما قال الإمام الترمذي

رَحِمَهُ ٱللَّهُ بعد روايته للحديث السابق: (وَفِي البَاب عَنْ عَلِيٍّ، وَزَيْدِ بْنِ ثَابِتٍ، وَابْنِ عَبَّاسٍ، وَالبَرَاءِ بْنِ عَازِبٍ، وَأَبِي أَيُّوبَ، وَأَنَسٍ، وَجَابِرٍ، وَعَائِشَةَ، وَأَبِي سَعِيدٍ ن، كُلُّهُمْ رَوَوْا عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي عَذَابِ القَبْرِ).

وجاء في حديث البراء بن عازب رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ قال: خرجنا مع رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في جنازةِ رجُلٍ من الأنصار، فانتهينا إلى القبرِ، ولَمَّا يُلحَدْ، فجلسَ رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وجلسْنَا حَولَه؛ كأنما على رؤوسنا الطَّير، وفي يَده عُودٌ يَنْكُتُ به في الأرض، فرفعَ رأسَه، فقال: "**استعيذُوا بالله من عذابِ القبر**" مرَّتين، أو ثلاثًا.

وقال: "**وإنّه لَيسمَعُ خَفْقَ نِعالِهِم إذا وَلَّوا مُدبرينَ، حينَ يقالُ له: يا هذا، مَن ربك؟ وما دينُك؟ ومَنْ نبيُّك؟**".

قال: "**ويأتيه ملكانِ فيُجلسانه فيقولان له: مَن ربك؟ فيقول: ربِّي الله، فيقولان له: ما دينُك؟ فيقول: ديني الإسلامُ، فيقولان له: ما هذا الرجلُ الذي بُعِثَ فيكم؟ فيقول: هو رسول الله** صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، **فيقولان: وما يُدريكَ؟ فيقول: قرأتُ كتابَ الله، فآمنتُ به، وصدقتُ**"؛ فذلك قول الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾

[سورة إبراهيم، من الآية:٢٧].

ثم قال: "**فينادي منادٍ من السّماء: أنْ قد صَدَقَ عبدي، فأفرشُوه من الجنّة، وافتَحُوا له بابًا إلى الجنّة، وألبسُوه من الجنّة؛ فيأتيه من رَوحِها وطيبها، ويُفْتَحَ له فيها مدَّ بصرِه**".

قال: **"وإنّ الكافِرَ تُعادُ رُوحُه في جَسَدِهِ، ويأتيه مَلَكانِ، فيُجلسانه، فيقولان له: من ربك؟ فيقول: هاه، هاه، لا أدري، فيقولان له: ما دينُك؟ فيقول: هاه، هاه، لا أدري، فيقولان له: ما هذا الرجلُ الذي بُعث فيكم؟ فيقول: هاه، هاه، لا أدري، فينادي منادٍ من السّماء: أن كَذَبَ، فافرشوه من النار، وألبسُوه من النار، وافتحُوا له بابًا إلى النار.**

قال: **"فيأتِيه من حَرِّها وسَمُومِها، ويُضيّقُ عليه قَبرُهُ حتّى تختلفَ فيه أضلاعُه، ثمّ يقيَّضُ له أعمى أبكَمُ معه مِرْزَبَّة مِن حديدٍ، لو ضُرِبَ بها جَبَلٌ لصار ترابًا؛ فيضرِبُه بها ضربةً يسمعُها ما بين المشرق والمغرب إلا الثقلين، فيصيرُ ترابًا، ثم تُعادُ فيه الرُّوح"** [رواه الإمام أحمدُ، وأبو داود، وهذا لفظه، قال البيهقي: حديث صحيح الإسناد].

فإن قال مُنْكِرٌ: فإنَّا نرى القبر ولا نرى سؤال منكرٍ ونكيرٍ، ولا مجيء الملائكة، ولا العذاب أو النعيم؟

فالجواب: أنك أيضًا لا ترى نفخ الملَك للروح في الجنين وهو في بطن أمه؛ فهل تنكر نفخ الروح!؟ وإن كنت تقر بذلك فهذا مثله؛ بل إن حال الإنسان وهو في بطن أمه أقربُ إلى أحكام الدّنيا، ومع ذلك فإنا لا نرى كيف يُنفخ فيه الروحُ، ولا في أيِّ لحظة، ولا نرى ملَكًا، ولكنا ندرك بعد تحرك الجنين أنه قد حصل له الحياة ونفخ فيه الروحُ، وكذلك تألمه، وفرحه، وهو في بطن أمِّه، لا نحس به، ولا ندركه؛ فأحوال البرزخ الّذي هو ألصق بأحكام الآخرة من باب أولى أنْ لا

ندركها، وأنْ لا نراها.

ثمّ إنَّ النّائم يرى في منامه ما قد يجعله في لذة، أو ما قد يجعله في تعبٍ ومشقّة، حتّى بعد أن يستيقظ، وبجواره زوجته، أو أولاده، وهم لا يحسون بذلك، مع أنه معهم في الدّنيا؛ فكيف صارت روحه في مثل هذه الأحوال الّتي جعلته في نعيمٍ، أو صيرته في تعبٍ ومشقة؛ فإذا كان الأمر كذلك مع النائم الّذي هو معنا في دنيانا؛ فلأن لا نحسّ بحال الميت، ولا نعلم أحواله بعقولنا من باب أولى.

فمسألة عذاب القبر ونعيمه من محارات العقول، وليست من محالات العقول، والشَّريعةُ فيها محارات العقول، وليس فيها شيء من محالات العقول.

ثمّ إنّ عدم رؤية عذاب القبر ونعيمه لأمرين؛

الأمر الأوّل: حتّى يتمّ الابتلاء به والامتحان، ومَن يؤمن بذلك ومَن ينكر؟ فلو كان مشاهدًا لَمَا تمّ به الابتلاء.

الأمر الثّاني: أنّ ذلك لو ظهر لربّما كان سببًا في امتناع النّاس عَنْ دفن أمواتهم؛ كما جاء في حديث أَنَسٍ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ أَنَّ النّبيّ صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ قَالَ: **"لَوْلَا أَنْ لَا تَدَافَنُوا لَدَعَوْتُ اللهَ أَنْ يُسْمِعَكُمْ مِنْ عَذَابِ الْقَبْرِ"** [رواه مسلم].

ثمّ اعلَم أنَّ أهل العلم مِن أهل السنة قد اتفقوا على عذاب القبر ونعيمه، وعلى هذا الامتحان، وفتنة القبر، وهي السؤال، واختلفوا هل السؤال خاص لأمة الإسلام، أو عام للبشرية؟

والصواب: أنّ السؤال عام لكل مقبورٍ، ومما يدل على ذلك أمور؛

الأمر الأوّل: أنّ الامتحان صورته واحدةٌ؛ من ربك، وما دينك، ومن نبيك؟ وهذا ظاهر في كلّ أمة بعث الله رسولًا.

الأمر الثّاني: وردت أحاديث أنَّ اليهود كانوا يستعيذون بالله من عذاب القبر؛ كما في حديث عائشة وأبي هريرة وغيرهما ن.

الأمر الثّالث: أنَّ هذا أمرٌ عقديٌّ؛ فلا يختلف مِن أمَّة إلى أمَّة، وإنما الاختلاف في الأحكام الفقهية، ونحوها.

ولا بد من الاعتقاد أن أرواح المؤمنين وأبدانهم أينما كانوا في روضة من رياض الجنّة، وأن أرواح الكافرين وأبدانهم في حفرة من حفر النيران، كما مرّ معنا حديث البراء رَضِيَٱللَّهُعَنۡهُ، وهو يدل أيضًا على أن أرواح المؤمنين وأبدانهم في نعيم.

ومما يدل على ذلك أيضًا؛ بل وأخصّ حديث مَسْرُوقٍ، قَالَ: سَأَلْنَا عَبْدَ اللهِ عَنْ هَذِهِ الْآيَةِ: ﴿وَلَا تَحۡسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمۡوَٰتَۢاۚ بَلۡ أَحۡيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمۡ يُرۡزَقُونَ﴾ [سورة آل عمران، من الآية:١٦٩]، قَالَ: أَمَا إِنَّا قَدْ سَأَلْنَا عَنْ ذَلِكَ، فَقَالَ: **"أَرْوَاحُهُمْ فِي جَوْفِ طَيْرٍ خُضْرٍ، لَهَا قَنَادِيلُ مُعَلَّقَةٌ بِالْعَرْشِ، تَسْرَحُ مِنَ الجنّة حَيْثُ شَاءَتْ، ثُمَّ تَأْوِي إِلَى تِلْكَ الْقَنَادِيلِ، فَاطَّلَعَ إِلَيْهِمْ رَبُّهُمُ اطِّلَاعَة"**، فَقَالَ: **"هَلْ تَشْتَهُونَ شَيْئًا؟ قَالُوا: أَيَّ شَيْءٍ نَشْتَهِي وَنَحْنُ نَسْرَحُ مِنَ الجنّة حَيْثُ شِئْنَا، فَفَعَلَ ذَلِكَ بِهِمْ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ، فَلَمَّا رَأَوْا أَنَّهُمْ لَنْ يُتْرَكُوا مِنْ أَنْ يُسْأَلُوا، قَالُوا: يَا رَبِّ، نُرِيدُ أَنْ تَرُدَّ أَرْوَاحَنَا فِي أَجْسَادِنَا حتّى نُقْتَلَ فِي سَبِيلِكَ مَرَّةً أُخْرَى، فَلَمَّا**

رَأَى أَنْ لَيْسَ لَهُمْ حَاجَةٌ تُرِكُوا" [رواه مسلم].

وكذلك حديث أمِّ مُبَشِّرٍ رَضِيَٱللَّهُعَنْهَا وحديث كعب بن مالك رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ مرفوعًا، وفيه: **"أرواحُ الشُّهَداءِ فِي طَيْرٍ خُضْرٍ تَعَلَّقُ حَيْثُ شاءَتْ"**، وَ**"أَرْواحُ المُؤمِنِينَ فِي أجْوافِ طَيْرٍ خضرٍ تُعَلَقُ فِي أَشْجارِ الجنّة حتّى يَرُدَّها الله إِلَى أجْسادِها يَوْمَ القِيامَةِ"** [رواه الطبراني، وصححه الألباني في المشكاة].

وجاء أيضًا في حديث أبي هريرة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ مرفوعًا، وفيه في حقّ المؤمن: **"فَنَامَ نَوْمَةَ الْعَرُوسِ لَا يُوقِظُهُ إِلَّا أَحَبُّ أَهْلِهِ إِلَيْه"** [قال البوصيري في إتحاف الخيرة: رواه أحمد بن منيع، ورجاله ثقات، وابن حِبَّانَ فِي صَحِيحِهِ بِنَحْوِهِ].

ولهذا فإنَّ أهل القبور إذا بُعِثُوا يقولون: ﴿مَنۢ بَعَثَنَا مِن مَّرۡقَدِنَاۜ﴾ [سورة يس، من الآية:٥٢]؛ فوَصفوا حالهم في القبر بالمرقَدِ؛ فدلّ أنّهم كانوا أشبه بالنَّائمين، سواء كانوا نائمين نومة العروس؛ كما هو حالُ المنعَّمين في قبورهم، أو كانوا مُعَرَّضين على النّار في قبورهم؛ كما هو حالُ المعذَّبين في قبورهم.

وكل أمور القبر هو من الحقِّ الّذي قال الله تعالى فيه: ﴿وَجَآءَتۡ سَكۡرَةُ ٱلۡمَوۡتِ بِٱلۡحَقِّۖ ذَٰلِكَ مَا كُنتَ مِنۡهُ تَحِيدُ﴾ [سورة ق، من الآية:١٩]؛ فمن الحق الّذي جاء به الموتُ ما يشاهده الإنسان عيانًا بيانًا من أول منازل الآخرة عند النَّزعِ وما بعده حتّى يوم القيامة، وأشد ذلك ما يكون يوم ينفخ في الصور، ويوم البعث من القبور، وهذه الأمور كلها لا يمكن للعقول إدراكها؛ فضلًا عن الحديث في منعها، أو

استحالتها؛ فضلًا عن الاستدلال بها في هذا الباب، ولهذا قال المصنّف رَحِمَهُ ٱللَّهُ مبيِّنًا الطريقة الّتي ينبغي أن نؤمن بها في هذا الباب، وأنها طريقة مُتوَقِّفة على الخبر، ومُتَوَقِّفة على الأثرِ؛ فنقرّ في هذا الباب وغيره: **"على ما جاءت به الأخبار عن رسول الله** صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، **وعن الصحابة** رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ"؛ فكيف ما ورد فيه الخبر نؤمن به، وكيف ما ثبت نُقِرُّ به، وكيف ما قال الصادق المصدوق صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ نصدقه، ولا نقيس خبره بعقولنا؛ فنقول: هذا الخبر قبله عقولنا فنقبلها، وهذا الخبر رده عقولنا فنرده!؟ بل هذا شأن أهل البدعِ، الذين جعلوا من أنفسهم حكَّامًا على الشريعة بعقولهم، ونصبوا العقول حكَّامًا على أخبار النّبيّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ فما قبله عقولهم قبلوه، وما رده عقولهم ردوه، وجعلوا عقولهم هي الّتي يجب أن تتبع؛ فألغوا عقول العلماء العاملين، من الصحابة والتابعين، ومن بعدهم من الأئمة المرضيين، الذين عقولهم أحسن وأسدّ منهم مآت المرات في الدّنيا والدين، وإلا فكيف جعلوا عقولهم هي الحاكمة على النص، وألغوا عقول مَن قبلوا هذه النُّصوص، ومتى كانت عقولهم أولى من عقول غيرهم؟ وما الدّليل على أنّ عقولهم أولى من عقول غيرهم؟

ثمّ عقل مَن نُحكِّم في هذا الباب، أعقل الفلسفيّ، أم المنطقيّ، أم الباطنيّ، أم الصّوفيّ، عقلُ من؟ وكلّ يدعي أن عنده عقلًا، وبهذا ندرك ونستيقن بأن العقل ليس مَرْجِعًا مستقلًّا؛ بل هو مستنيرٌ به، وليس هو في نفسه دليل مستقل في الغيبيات، إذ لو كان كذلك لما كان ثمّ داعٍ لإرسال الرسل، وإنزال الكتب؛ فهذا

أيضًا يدل أن العقول لا تقوم بها الحجة وحدها، نعم العقولُ شرطٌ في التكليف؛ كالبلوغِ، وليس شرطًا في صحة الدعوى والأمور الغيبية نفسها؛ فإنّ أكثر النّاس عقله مشوَّش بالمُجْرَيات، ومُدَنَّسٌ بما حوله من المُعرَّفاتِ، ومُتأثِّرٌ بالمُكتسباتِ؛ فلا يمكن للعقل الاستقلال في معرفة كلّ المعلومات الدنيوية؛ فكيف بالأخروية الغيبية، ولهذا قال الله تعالى: ﴿وَأَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾ [سورة المائدة، من الآية:١٠٣]، وقال سبحانه: ﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾ [سورة العنكبوت، من الآية:٦٣]، وقال جَلَّ وَعَلَا: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَٰكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾ [سورة الحج، من الآية:٤٦].

وقد سبق وأن ذكرنا الأدلة من القرآن على وقوع عذاب القبر ونعيمه، وكذلك من السنة، وبقي أن نذكر شيئًا مما جاء عن الصحابة ن؛ لأن المصنّف قال: **"على ما جاءت به الأخبار...عن الصحابة** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ"، ومن هذه الأخبار عنهم:

الخبر الأوّل: عَنْ عَامِرٍ قَالَ: لَمَّا طُعِنَ عُمَرُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ دَخَلَ عَلَيْهِ ابْنُ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وَالنّاس عِنْدَهُ، فَسَلَّمَ ثُمَّ قَالَ: (يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ، أَبْشِرْ بِبُشْرَى اللهِ، كَانَ لَكَ الْقِدَمُ فِي الْإِسْلَامِ، وَصُحْبَةُ رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَتُوُفِّيَ وَهُوَ عَنْكَ رَاضٍ، وَوُلِّيتَ فَعَدَلْتَ، ثُمَّ قُتِلْتَ شَهِيدًا، قَالَ: وَيْحَكَ أَعِدْ عَلَيَّ مَا قُلْتَ، فَأَعَادَ فَتَنَفَّسَ عُمَرُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ تَنَفُّسًا كَادَتْ نَفْسُهُ تَخْرُجُ مَعَهُ، ثُمَّ قَالَ: وَاللهِ إِنَّ الْمَغْرُورَ

لَمَنْ غَرَرْتُمُوهُ، وَلَوْ أَنَّ لِي مَا عَلَى الْأَرْضِ مِنْ صَفْرَاءَ وَبَيْضَاءَ لَافْتَدَيْتُ بِهَا مِنْ هَوْلِ الْمَطْلَعِ) [رواه ابن أبي شبة في تاريخ المدينة، والبيهقي في إثبات عذاب القبر].

الخبر الثّاني: عَنْ هَانِئٍ مَوْلَى عُثْمَانَ قَالَ: كَانَ عُثْمَانُ بْنُ عَفَّانَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ إِذَا وَقَفَ عَلَى قَبْرٍ بكى حتّى يَبُلَّ لِحْيَتَهُ، فَقِيلَ لَهُ: تَذْكُرُ الجنّة وَالنّار وَلَا تَبْكِي، وَتَبْكِي مِنْ هَذَا؟! قَالَ: إِنَّ رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: **"إِنَّ الْقَبْرَ أَوَّلُ مَنَازِلِ الْآخِرَةِ، فَإِنْ نَجَا مِنْهُ فَمَا بَعْدَهُ أَيْسَرُ مِنْهُ، وَإِنْ لَمْ يَنْجُ مِنْهُ فَمَا بَعْدَهُ أَشَدُّ مِنْهُ"**. قَالَ: وَقَالَ رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **"مَا رَأَيْتُ مَنْظَرًا قَطُّ إِلَّا وَالْقَبْرُ أَفْظَعُ مِنْهُ"** [رواه ابن ماجه بإسناد حسن].

الخبر الثّالث: عَنْ أَبِي مُوسَى الأشعري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: "تَخْرُجُ نَفْسُ الْمُؤْمِنِ وَهِيَ أَطْيَبُ رِيحًا مِنَ الْمِسْكِ؛ فَتَصْعَدُ بِهَا الْمَلَائِكَةُ الَّذِينَ يَتَوَفَّوْنَهَا؛ فَتَلْقَاهُمْ مَلَائِكَةٌ دُونَ السّماء، فَيَقُولُونَ: مَنْ هَذَا مَعَكُمْ؟، فَيَقُولُونَ: فُلَانُ بْنُ فُلَانٍ وَيَذْكُرُونَهُ بِأَحْسَنِ عَمَلِهِ، فيَقُولُونَ: حَيَّاكُمُ اللهُ، وَحَيَّا مَنْ مَعَكُمْ؛ فَتُفْتَحُ لَهُ أَبْوَابُ السّماء؛ فَيُشْرِقُ وَجْهُهُ؛ فَيَأْتِي الرَّبَّ، وَلِوَجْهِهِ بُرْهَانٌ مِثْلُ الشَّمْسِ.

وَأَمَّا الْآخَرُ فَتَخْرُجُ نَفْسُهُ، وَهِيَ أَنْتَنُ مِنَ الْجِيفَةِ فَيَصْعَدُ بِهَا الَّذِينَ يَتَوَفَّوْنَهَا؛ فَتَلْقَاهُمُ الْمَلَائِكَةُ دُونَ السّماء، فَيَقُولُونَ: مَنْ هَذَا مَعَكُمْ؟ فَيَقُولُونَ: هَذَا فُلَانٌ، وَيَذْكُرُونَهُ بِأَسْوَءِ عَمَلِهِ؛ فَيَقُولُونَ: رُدُّوهُ فَمَا أَظْلَمَهُمُ اللهُ شَيْئًا. وَقَرَأَ أَبُو مُوسَى ﴿وَلَا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّىٰ يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ﴾ [سورة الأعراف، من الآية:٤٠] [رواه

ابن أبي شيبة في مصنفه وغيره].

والآثار في هذا الباب عن الصحابة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمْ كثيرة، وقد ذكر طرفًا كبيرًا منها الحافظ البيهقي رَحِمَهُٱللَّهُ في كتابه إثبات عذاب القبر، تحت باب خاصٍّ بعنوان: [بَابُ مَا حَضَرَنِي مِنْ أَقَاوِيلِ السَّلَفِ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمْ فِي إِثْبَاتِ عَذَابِ الْقَبْرِ وَمَا كَانُوا يَخَافُونَهُ مِنْ هَوْلِ الْمُطَّلَعِ]، ولا يُعلم أن أحدًا من السلف أنكر عذاب القبر ونعيمه، وإنما عُرف هذا في أواخر المعتزلة البغداديين، وهو المشهور من قول ضرار بن عمرو البغدادي، والمعتزلة المتأخرين، والله تعالى أعلم.

والنصوص القرآنية، والأحاديث النبوية، والآثار السلفية كلها تدل على ما ذكره المصنّف رَحِمَهُٱللَّهُ مِن أنّ: **"القبرَ روضةٌ مِن رياضِ الجنّة، أو حفرةٌ مِن حُفَرِ النّيران"**، أي نؤمنُ ونقرّ بأن القبرَ -وهو اسمٌ يطلق على عالَم البرزخ، وهو الحاجز بين الدّنيا والقيامة- يكون على الإنسان نعيمًا أو جحيمًا، بحسب حاله الإيماني، والنعيم والجحيم بحسب حاله كمالًا ونقصًا؛ فالقبر **"روضةٌ مِن رياضِ الجنّة..."**، وهذا المعنى مأخوذ من الأحاديث السابقة الدالة على أن الإنسان في قبره منعَّم أو معذَّبٌ، وهو مرويٌّ بلفظه عن عليٍّ تقال: (أَلَا وَإِنَّ الْقَبَرَ حُفْرَةٌ مِنْ حُفَرِ النَّارِ، أَوْ رَوْضَةٌ مِنْ رِيَاضِ الجنّة) [رواه الشَّجري في الأمالي].

والمعنى متفقٌ عليه بين السّلِف، وأما رفعه عن النّبيّ صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ فلم يثبت فيه حديثٌ، وأقربُ شيء فيه ما رواه الترمذي رَحِمَهُٱللَّهُ في سننه لكنه من طريقٍ ضعيفٍ أيضًا، وجاء موقوفًا على علي بن أبي طالبٍ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ أنه خطب فكان

مما قال في خطبته: (عبادَ الله، الموتُ ليس مِنْهُ فوتٌ، إنْ أَقَمْتُم له أَخَذَكُمْ، وإنْ فَرَرْتُم مِنه أَدْرَكَكُم، الموتُ مَعقودٌ بنواصيكم؛ فالنَّجا النّجا، وَالْوَحَا الوَحَا؛ فإنّ وراءكم طالبٌ حثيثٌ، القبرُ، احذرُوا ضَنكَه، وظُلمَتَه، وضِيقَه، ألا إنّ القبرَ حُفْرَةٌ مِن حُفَرِ جهنّم، أَوْ روضةٌ مِن رياضِ الجنّة، ألا وإنه يتكلم في كلّ يوم ثلاث مرات فيقول: أنا بيت الظلمة، أنا بيت الوحشة، أنا بيت الدود، ألا وإنَّ وراء ذلك اليومِ أشدُّ مِن ذلك اليوم، النّار حرُّها شديدٌ، وقعرها عميقٌ، وحبلها حديدٌ، ليس لله فيه رحمة. فبكى المسلمون حوله بكاء شديدًا؛ فقال: إنّ مِن وراء ذلك جنّةً عرضُها السماوات والأرض أعدّت للمتقين، أجارنا الله وإياكم من العذاب الأليم) [الترغيب والترهيب لقوام السنة].

ومن المرفوعِ الدالّ على ذلك، ما جاء عن أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ أُمَّ الرُّبَيِّعِ بِنْتَ البَرَاءِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا وَهِيَ أُمُّ حَارِثَةَ بْنِ سُرَاقَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَتَتِ النّبيّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ فَقَالَتْ: يَا نَبِيَّ اللهِ، أَلَا تُحَدِّثُنِي عَنْ حَارِثَةَ -وَكَانَ قُتِلَ يَوْمَ بَدْرٍ أَصَابَهُ سَهْمٌ غَرْبٌ-؛ فَإِنْ كَانَ فِي الجنّة صَبَرْتُ، وَإِنْ كَانَ غَيْرَ ذَلِكَ، اجْتَهَدْتُ عَلَيْهِ فِي البُكَاءِ، قَالَ: **"يَا أُمَّ حَارِثَةَ إِنَّهَا جِنَانٌ فِي الجنّة، وَإِنَّ ابْنَكِ أَصَابَ الفِرْدَوْسَ الأَعْلَى"** [رواه البخاري]؛ فهذا نصٌّ صريح في أنه في الجنّة؛ فدل على أن القبر روضةٌ من رياضِ الجنّة، وإذا ثبت هذا فإن ضِدّه قد ثبت في الصحيح أيضًا؛ كما في حديث أبي سعيد الخدري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَنْ زَيْدِ بْنِ ثَابِتٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: بَيْنَمَا النّبيّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي حَائِطٍ لِبَنِي النَّجَّارِ، عَلَى بَغْلَةٍ لَهُ وَنَحْنُ مَعَهُ، إِذْ حَادَتْ بِهِ

فَكَادَتْ تُلْقِيهِ، وَإِذَا أَقْبُرٌ سِتَّةٌ، أَوْ خَمْسَةٌ، أَوْ أَرْبَعَةٌ؛ فَقَالَ: **"مَنْ يَعْرِفُ أَصْحَابَ هَذِهِ الْأَقْبُرِ؟"** فَقَالَ رَجُلٌ: أَنَا، قَالَ: **"فَمَتَى مَاتَ هَؤُلَاءِ؟"** قَالَ: مَاتُوا فِي الْإِشْرَاكِ؛ فَقَالَ: **"إِنَّ هَذِهِ الْأُمَّةَ تُبْتَلَى فِي قُبُورِهَا، فَلَوْلَا أَنْ لَا تَدَافَنُوا، لَدَعَوْتُ اللهَ أَنْ يُسْمِعَكُمْ مِنْ عَذَابِ الْقَبْرِ الَّذِي أَسْمَعُ مِنْهُ"**، ثُمَّ أَقْبَلَ عَلَيْنَا بِوَجْهِهِ، فَقَالَ: **"تَعَوَّذُوا بِاللهِ مِنْ عَذَابِ النَّارِ"** قَالُوا: نَعُوذُ بِاللهِ مِنْ عَذَابِ النَّارِ، فَقَالَ: **"تَعَوَّذُوا بِاللهِ مِنْ عَذَابِ الْقَبْرِ"** قَالُوا: نَعُوذُ بِاللهِ مِنْ عَذَابِ الْقَبْرِ. [رواه مسلم]، وهذا الحديث دليل ظاهر أن النّبيّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ رأى أصحاب هذه القبور وهم في قبورهم يُعذبون، وهذا هو معنى حفرة من حفرِ النّار.

وقول المصنّف رَحِمَهُ اللَّهُ: **"القبرَ روضةٌ مِن رياضِ الجنّة"** أي بالنسبة للمؤمنين، و **"رَوْضَةٌ..."** أي شبيهة برياض الجنّة، أو جزءٌ منها، و(**الروضةُ**) في الأصل: الأرض ذات الْخُضْرَة، والبستان الحسن، والحديقة الغنَّاءَة، والشيءُ الممتِع والماتِعُ، وقد جاء من حديث عَبْدِ اللهِ بْنِ زَيْدٍ المَازِنِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أَنَّ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: **"مَا بَيْنَ بَيْتِي وَمِنْبَرِي رَوْضَةٌ مِنْ رِيَاضِ الجنّة"** [رواه البخاري]، فعندما يقول العلماء بمجموع معاني الأدلة: إن قبر المؤمن روضة من رياض الجنّة؛ فهو على معنى حديث النّبيّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عما بين بيته ومنبره مِن أرض مسجده أنه **"روضة من رياض الجنّة"**، إما على سبيل التشبيه؛ كروضةٍ من رياض الجنّة، أو على ظاهره:

فعلى **الأول**: يكون ذلك على وجه مِن أوجه التشبيه المتعددة، والمقصود هنا

في نعيم القبرِ التّمتّع، والسّعة، والنّضارة.

وعلى **الثاني**: أنه على ظاهرِه، ولكنّ ذلك في مسألة نعيم القبرِ غيبٌ لا يمكن الاطلاع عليه، وإبقاءُ الأمر على ظاهره أقرب إلى النصوص؛ كما مر في الأحاديث، وفي حديث أبي سعيدي الخدري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مرفوعًا، وفيه: **"فَيُفْتَحُ لَهُ بَابٌ إِلَى الجنّة، فَيُرِيدُ أَنْ يَنْهَضَ إِلَيْهِ، فَيَقُولُ لَهُ: اسْكُنْ، وَيُفْسَحُ لَهُ فِي قَبْرِهِ"** [رواه البزار، وحسنه الحافظ ابن حجر].

وقوله: **"رياض الجنّة"** دليل على أن في الجنّة رياضًا متعددة، وذلك إما مِن حيث المكان، وإما من حيث الْمُنْشَآت فيها، أو من حيث الأنواع، أو من حيث الدّرجات، أو من هذه الحيثيات كلها، أو بعضها.

وقول المصنّف رَحِمَهُ اللَّهُ: **"أَوْ حفرةٌ مِن حُفَرِ النّيران"**؛ فـ "أَوْ" هنا للتنويع، وذلك لأنّ النّاس في قبورهم متنوّعون؛ سواءٌ كانوا في نِعمةٍ، أو في نِقْمَةٍ.

وكون القبرة حفرة على المعنيين الذين ذكرتهما في كون القبر روضة، إما على سبيل التشبيه، والمعنى ضِيقٌ، ونكدٌ، ونغصٌ، أو على الظاهر، وكيفيته مغيبة، وهذا الأقرب؛ لما مرَّ مِن الأحاديث، وفيها: **"فَيُنَادِي مُنَادٍ مِنَ السّماء، أَفْرِشُوهُ مِنَ النَّارِ، وَأَلْبِسُوهُ مِنَ النَّارِ، وَافْتَحُوا لَهُ بَابًا إِلَى النَّارِ؛ فَيَأْتِيهِ مِنْ حَرِّهَا وَسَمُومِهَا"** [رواه أحمد، وصححه الحافظ ابن حجر].

و **"النِّيرَان"** جمعٌ للنارِ، ويجمع على أنيارٍ، والنّار: هي الحرارة الْمُحْرِقة، ونارُ الله تعالى هي الموقدة الّتي تطلع على الأفئدة، وهي النّار الكبرى، ونيران

الآخرة متعددة؛ فنارٌ يكون للكافرين، والمشركين، والمخلدين، ونارٌ يكون لعصاة الموحدين، ومن أسماء هذه النيران؛ الجحيم، جنهم، لظى، السعير، الحطمة، الهاوية، أعاذنا الله وإياكم منها.

خلاصة كلام المصنّف رَحِمَهُ ٱللَّهُ: الإقرارُ بما يتعلق بأوّل منازل الآخرة، وهو القبر، وأنّه إمّا نعيمٌ، وإمّا عذابٌ وجحيمٌ، ونؤمن بسؤال منكرٍ ونكيرٍ، وهي فتنة القبر حيثُ يُسْأل العبدُ عن ربه تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ، وعن دينه، وعن نبيه صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، كما جاء ذلك في الأحاديث عن المختار صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وعن الصحابة الأخيار رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ، وأن القبرَ إما نعيمٌ كنعيم الجنّة، أو عذاب كعذاب النّار، نسأل الله لنا ولكم الجنّة دار القرار.

❁❁❁

[الإيمان بالبعث]

وَنُؤْمِنُ بِالْبَعْثِ، قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ يَبۡعَثُ مَن فِي ٱلۡقُبُورِ﴾ [سورة الحج، من الآية:٧]، **وَجَزَاءِ الْأَعْمَالِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَالْعَرْضِ، وَالْحِسَابِ، وَقِرَاءَةِ الْكِتَابِ، وَالثَّوَابِ، وَالْعِقَابِ، وَالصِّرَاطِ، وَالْمِيزَانِ، حَقٌّ لِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَٱلۡوَزۡنُ يَوۡمَئِذٍ ٱلۡحَقُّ﴾** [سورة الأعراف، من الآية:٩].

الشرح

هذا التقرير من المصنّف رَحِمَهُ ٱللَّهُ داخل تحت الركن الخامس من أركان الإيمان؛ وهو الإيمان باليوم الآخر، من البعث وما سيكون بعده.

قوله: **"ونؤمن بالبعث"** أي ونقرّ، ونعمل وَفقه، ونعترف **"بالبعثِ"**، وهو: النَّشْرُ يوم القيامة، وأصله الإرسال، ومنه: بعث رسولًا، أي أرسل رسولًا، وبمعنى الإيقاظِ، وعلى هذا يُحمل قوله تعالى: ﴿مَنۢ بَعَثَنَا مِن مَّرۡقَدِنَاۜ﴾ [سورة يس، من الآية:٥٢]، وبمعنى الهَيَجانِ، بعث الشيء هيَّجه، والمراد بالبعث هنا هو هذه المعاني كلها، **وصورته**: بعث الأرواح والأجساد معًا، هذا هو معتقد أهل السنة والجماعة، وخالف في هذا البعث طوائف:

الطائفة الأولى: الدَّهرية، أو الطبائعيون، الذين أنكروا البعث مطلقًا؛ فزعموا ما أخبر الله تعالى عن قولهم: ﴿وَقَالُواْ مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنۡيَا نَمُوتُ وَنَحۡيَا وَمَا يُهۡلِكُنَآ إِلَّا ٱلدَّهۡرُۚ وَمَا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنۡ عِلۡمٍۖ إِنۡ هُمۡ إِلَّا يَظُنُّونَ﴾ [سورة الجاثية، من الآية:٢٤]؛ فقولهم مركَّبٌ

على وهمٍ نتج عنه الضلالة؛ فظنوا أنه لا معنى لخلقهم إلا كونهم يموتون ويحيون، جيلًا بعد جيلٍ، وأن سبب هلاكهم الأسباب الظاهرة، ومرور الزمان؛ فأخطئوا في الأول، ونتج عنه الضلالة الثانية، وكلّ ذلك لعدم العلِم؛ وإن تيقنوا أنهم خُلِقوا للعبادة، وهذا امتحانهم، عَلِمُوا أنهم لم يخلقوا لمجرد الموت والحياة، وحينئذٍ فليس موتهم سببه الدهر، ومرور الزمان؛ بل وجود الأجل وهو الوقت المحتوم لكل فردٍ في وقت الامتحان، ثم الجزاء يكون في دار غير الدار الدنية، وهي الدار العلية، الّتي تكون بعد الامتحان.

الطائفة الثانية: طوائفُ من المشركين، وقد أخبر الله عنهم أنهم يعرفون الله، وأقسموا به، ومع ذلك أنكروا البعث، فقال الله تعالى عنهم: ﴿وَأَقْسَمُوا۟ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ لَا يَبْعَثُ ٱللَّهُ مَن يَمُوتُ ۚ بَلَىٰ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٨﴾ لِيُبَيِّنَ لَهُمُ ٱلَّذِى يَخْتَلِفُونَ فِيهِ وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَنَّهُمْ كَانُوا۟ كَٰذِبِينَ ﴿٣٩﴾ إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَىْءٍ إِذَآ أَرَدْنَٰهُ أَن نَّقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [سورة النحل، من الآية:٣٨-٤٠]، وقال قوم نوحٍ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ عنه: ﴿أَيَعِدُكُمْ أَنَّكُمْ إِذَا مِتُّمْ وَكُنتُمْ تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَنَّكُم مُّخْرَجُونَ ﴿٣٥﴾ ۞ هَيْهَاتَ هَيْهَاتَ لِمَا تُوعَدُونَ ﴿٣٦﴾ إِنْ هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ﴾ [سورة المؤمنون، من الآية:٣٥-٣٧]، وهؤلاء المشركون أقسامٌ؛ فمنهم من أنكر البعث كلًّا، ومنهم من أنكر البعث الجسماني،

ومنهم من أنكر أشياء متعلقة بالبعث؛ كالحساب، والجزاء، والشفاعة، ونحو ذلك.

الطائفة الثالثة: الفلاسفة الزاعمين بأن البعث لا يكون إلا بالأرواح، وهو معتقد بعضِ المشركين؛ فإنهم استبعدوا البعث للأبدان، قال الله تعالى عن بعضهم: ﴿قَالُواْ يَٰوَيۡلَنَا مَنۢ بَعَثَنَا مِن مَّرۡقَدِنَاۜۗ هَٰذَا مَا وَعَدَ ٱلرَّحۡمَٰنُ وَصَدَقَ ٱلۡمُرۡسَلُونَ ۝٥٢ إِن كَانَتۡ إِلَّا صَيۡحَةٗ وَٰحِدَةٗ فَإِذَا هُمۡ جَمِيعٞ لَّدَيۡنَا مُحۡضَرُونَ﴾ [سورة يس، من الآية:٥٢-٥٣]، والبعث إنما يكون بعد النفخة الثانية؛ حيث يحشر النّاس من قبورهم كما قال تعالى: ﴿ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخۡرَىٰ فَإِذَا هُمۡ قِيَامٞ يَنظُرُونَ﴾ [سورة الزمر، من الآية:٦٨].

وأدلة البعث للروح والبدن كثيرةٌ نقلًا وعقلًا، ومن هذه الدلائل:

الدّليل الأوّل: أن الّذي قدر على بَدْءِ الخلقِ قادرٌ على إعادته، وهذه مسألة بدهية عقلية ضرورية؛ فإنَّ مَن صنع شيئًا فهو قادرٌ على إعادته على حالته الأولى لو تلف، ومثال ذلك الورق الّذي عليه هذا الكلام لو تلف وتمزق فإن مَن صنع الورق يقدر على إعادته كما كانت، ولو تبعثرت هذه الكلمات فإن من قال هذه الكلمات يقدرُ على صياغتها مرة أخرى، وهكذا في كلّ مصنوعٍ مع صانعه؛ ولهذا ذكر الله تعالى هذا الدليل العقلي في القرآن مراتٍ وكراتٍ؛ فقال تعالى: ﴿وَلَقَدۡ جِئۡتُمُونَا فُرَٰدَىٰ كَمَا خَلَقۡنَٰكُمۡ أَوَّلَ مَرَّةٖ﴾ [سورة الأنعام، من الآية:٩٤]، وقال سبحانه:

﴿فَسَيَقُولُونَ مَن يُعِيدُنَا قُلِ ٱلَّذِى فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَسَيُنْغِضُونَ إِلَيْكَ رُءُوسَهُمْ﴾ [سورة الإسراء، من الآية:٥١]، وقال جلّ في علاه: ﴿كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُۥ وَعْدًا عَلَيْنَا إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ﴾ [سورة الأنبياء، من الآية:١٠٤]، وقال لمن أنكر البعث الجسماني: ﴿قَالَ مَن يُحْىِ ٱلْعِظَامَ وَهِىَ رَمِيمٌ ۝٧٨ قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِىٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ﴾ [سورة يس، من الآية:٧٨-٧٩]، وقال سبحانه: ﴿وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [سورة فصلت، من الآية:٢١]، وقال تعالى: ﴿أَفَعَيِينَا بِٱلْخَلْقِ ٱلْأَوَّلِ بَلْ هُمْ فِى لَبْسٍ مِّنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ [سورة ق، من الآية:١٥]، وقال جَلَّ وَعَلَا: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ﴾ [سورة الروم، من الآية:٢٧].

الدّليل الثّاني: أنَّ من قدر على الأمر الأكبر فإنه قادرٌ على الأمر الأصغر؛ فمن قدرَ أن يصنع سجلًّا فإنه قادرٌ على أن يصنع ورقة، ومن قدر على أن يكتب كتابًا فهو قادرٌ على أن يكتب حرفًا، ومن قدر على أن يصنع مدينة فإنه قادرٌ على أن يصنع دارًا، وقادرٌ على أن يصنع غرفة، وهذا أمرٌ عقلي بدهي، وقد ذكره الله تعالى ضمن أدلة البعث؛ فقال الله تعالى: ﴿لَخَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [سورة غافر، من الآية:٥٧]، وقال سبحانه: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَٰنِكُمْ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّلْعَٰلِمِينَ﴾ [سورة الروم، من الآية:٢٢]، وقال

جَلَّ وَعَلَا: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ ۚ وَلَهُ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [سورة الروم، من الآية:٢٧]، وقال عَزَّوَجَلَّ: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَلَمْ يَعْىَ بِخَلْقِهِنَّ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحْـِۧىَ ٱلْمَوْتَىٰ ۚ بَلَىٰٓ إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ [سورة الأحقاف، من الآية:٣٣].

الدّليل الثّالث: أن من صنع شيئًا من المصنوعات من جنسٍ ما ثم صار المصنوع إلى نفسِ الجنسِ فإنه يكون قادرًا على صنعته تلك مرة أخرى، وهذا كمن صنع شيئا من الطين، ثم صار الشيءُ مرة أخرى طينًا؛ فإنه قادرٌ على إعادته، وهذا حال صُنع الله تعالى مع الإنسانِ فإنه سبحانه خلقه من ترابٍ ثم إذا مات وصار ترابٌ فإنه يقدر على أن يعيده من التراب كما خلقه، قال الله تعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ إِذَآ أَنتُم بَشَرٌ تَنتَشِرُونَ﴾ [سورة الروم، من الآية:٢٩]، وقال سبحانه: ﴿أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا ۖ ذَٰلِكَ رَجْعٌۢ بَعِيدٌ ۝٣ قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنقُصُ ٱلْأَرْضُ مِنْهُمْ ۖ وَعِندَنَا كِتَٰبٌ حَفِيظٌۢ﴾ [سورة ق، من الآية:٣-٤].

الدّليل الرّابع: أنّ من قَدِرَ على مصنوعٍ من المَوَات فصيَّره حيًّا؛ فإنه قادرٌ بلا ريب على إعادة صنعة الحي بعد أن يصير ميتًا، قال الله تعالى: ﴿يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ وَيُحْىِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ۚ وَكَذَٰلِكَ تُخْرَجُونَ﴾ [سورة الروم، من الآية:١٩].

الدّليل الخامس: أنّ من كان حكيمًا في صنعته؛ حميدًا في فعاله، منزهًا عن العبث في فعله؛ فإنه يستحيل عقلًا أن يكون قد صنع عبثًا، وهذا متقررٌ عند العقلاء، قال الله تعالى بعد أن ذكر البعث: ﴿فَسُبۡحَٰنَ ٱللَّهِ حِينَ تُمۡسُونَ وَحِينَ تُصۡبِحُونَ ١٧ وَلَهُ ٱلۡحَمۡدُ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَعَشِيّٗا وَحِينَ تُظۡهِرُونَ﴾ [سورة الروم، من الآية:١٧-١٨]؛ فالله تعالى منزه عن كلّ نقصٍ وعيبٍ، وموصوف بكل حمدٍ بلا ريبٍ.

الدّليل السّادس: أنّا إذا رأينا المُمْتَحنين في مكانٍ ثم لم نَرَ مجازاة الممتازين، ولا معاقبة المسيئين؛ فإنا نتهم الممتحِنين بالقصور، أو بقلة التدبير، أو بعدم الحكمة...إلخ؛ فنحن إذا رأينا في الحياة الدّنيا أن المجرمين يموتون ولم نر العقاب عليهم، وأن الممتازين المتقين يموتون ولم نر الثواب لهم؛ فذلك يجعلنا نستيقن بالبعث لأجل الجزاء والعقاب، قال الله تعالى: ﴿ٱللَّهُ يَبۡدَؤُاْ ٱلۡخَلۡقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ ثُمَّ إِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ ١١ وَيَوۡمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يُبۡلِسُ ٱلۡمُجۡرِمُونَ ١٢ وَلَمۡ يَكُن لَّهُم مِّن شُرَكَآئِهِمۡ شُفَعَٰٓؤُاْ وَكَانُواْ بِشُرَكَآئِهِمۡ كَٰفِرِينَ ١٣ وَيَوۡمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يَوۡمَئِذٖ يَتَفَرَّقُونَ ١٤ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَهُمۡ فِي رَوۡضَةٖ يُحۡبَرُونَ ١٥ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَلِقَآيِٕ ٱلۡأٓخِرَةِ فَأُوْلَٰٓئِكَ فِي ٱلۡعَذَابِ مُحۡضَرُونَ﴾ [سورة الروم، من الآية:١١-١٦].

الدّليل السّابع: إهلاك المصنوعِ قبل انتهاء وقته بمرأى ومسمعٍ من النّاس دليل على قدرة الصّانِع، ألا ترى أن صناع الحديد يتلفون ما صنعوا ثم يعيدون تشكيله مرة أخرى، وإهلاك الله تعالى المكذبين للبعث على مرأى ومسمعٍ من المؤمنين، دليل على قدرة الله تعالى على البعث والجزاء، قال سبحانه: ﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَانُوٓا۟ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُوا۟ ٱلْأَرْضَ وَعَمَرُوهَآ أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا وَجَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ ۖ فَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٩﴾ ثُمَّ كَانَ عَٰقِبَةَ ٱلَّذِينَ أَسَٰٓـُٔوا۟ ٱلسُّوٓأَىٰٓ أَن كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَكَانُوا۟ بِهَا يَسْتَهْزِءُونَ ﴿١٠﴾ ٱللَّهُ يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [سورة الروم، من الآية:٩-١١].

الدّليل الثّامن: أنَّ مَن صنعَ شيئًا فإنّه يصنعه لمقصدٍ ولا بد، وإلا كان صنعه عبثا؛ فيخرج عن أفعال العقلاء إلى أعمال المجانين والبلهاء؛ وإذا كان الأمر كذلك؛ فلا بد وأن ندرك أن الله تعالى ما خلق السماوات والأرض إلا لأجل مقصدٍ عظيم، وهذا المقصد هو الابتلاء والامتحان، وهذا لا يتم إلا بإظهار نتيجة هذا الامتحان في يوم المعاد، قال الله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِم ۗ مَّا خَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى ۗ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ بِلِقَآئِ رَبِّهِمْ لَكَٰفِرُونَ﴾ [سورة الروم، من الآية:٨]، وقال سبحانه: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ ۖ وَيَوْمَ يَقُولُ كُن فَيَكُونُ ۚ قَوْلُهُ ٱلْحَقُّ ۚ وَلَهُ

ﭐلۡمُلۡكُ يَوۡمَ يُنفَخُ فِي ٱلصُّورِۚ عَٰلِمُ ٱلۡغَيۡبِ وَٱلشَّهَٰدَةِۚ وَهُوَ ٱلۡحَكِيمُ ٱلۡخَبِيرُ﴾ [سورة الأنعام، من الآية:٧٣]، وقال جَلَّ وَعَلَا: ﴿أَلَمۡ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ بِٱلۡحَقِّۚ إِن يَشَأۡ يُذۡهِبۡكُمۡ وَيَأۡتِ بِخَلۡقٖ جَدِيدٖ ١٩ وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ بِعَزِيزٖ ٢٠ وَبَرَزُواْ لِلَّهِ جَمِيعٗا﴾ [سورة إبراهيم، من الآية:١٩-٢١].

الدّليل التّاسع: أنّ من كان قادرًا عالِمًا خبيرًا، وعُرف أنه لا يمكن أن يَكْذِب، أو أن يخلف في وعده؛ فإنه إذا قال صدق، وإذا عمل أتقن، وإذا وَعَد أنجز، وقد وعد الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى بإعادة الأجسام وهو سبحانه القادر القدير العليم الخبير، الّذي لا يخلف وعده، قال سبحانه: ﴿إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡوَهَّابُ ٨ رَبَّنَآ إِنَّكَ جَامِعُ ٱلنَّاسِ لِيَوۡمٖ لَّا رَيۡبَ فِيهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُخۡلِفُ ٱلۡمِيعَادَ﴾ [سورة آل عمران، من الآية:٨-٩]، وقال جَلَّ وَعَلَا: ﴿وَلَا يَزَالُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ تُصِيبُهُم بِمَا صَنَعُواْ قَارِعَةٌ أَوۡ تَحُلُّ قَرِيبٗا مِّن دَارِهِمۡ حَتَّىٰ يَأۡتِيَ وَعۡدُ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُخۡلِفُ ٱلۡمِيعَادَ﴾ [سورة الرعد، من الآية:٣١].

الدّليل العاشر: أنّ كلّ مصنوع له وقتٌ محدد، وتأريخٌ وأجل ينتهي عنده، ولهذا فإن الصُّنَّاع يضعون لكل مصنوعاتهم عمرًا تحديديًا أو تقريبيًا، وهذا معلوم من كلّ صانعٍ مع صنعته، ثم إذا انتهى أجله ووقته؛ فهو يعيده مرة أخرى، قال الله تعالى: ﴿أَوَلَمۡ يَتَفَكَّرُواْ فِيٓ أَنفُسِهِمۗ مَّا خَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ وَمَا بَيۡنَهُمَآ إِلَّا بِٱلۡحَقِّ وَأَجَلٖ مُّسَمّٗىۗ وَإِنَّ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلنَّاسِ بِلِقَآيِٕ رَبِّهِمۡ لَكَٰفِرُونَ﴾ [سورة الروم، من الآية:٨]، وقال سبحانه: ﴿هُوَ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن طِينٖ ثُمَّ

قَضَىٰٓ أَجَلًاۖ وَأَجَلٌ مُّسَمًّى عِندَهُۥۖ ثُمَّ أَنتُمْ تَمْتَرُونَ﴾ [سورة الأنعام، من الآية:٢]، وقال جلَّ وعلا: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَتَوَفَّىٰكُم بِٱلَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِٱلنَّهَارِ ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ لِيُقْضَىٰٓ أَجَلٌ مُّسَمًّىۖ ثُمَّ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ ثُمَّ يُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [سورة الأنعام، من الآية:٦٠].

الدّليل الحادي عشر: أنّ الّذي خلق من عظْمِ الشيء وبنيته خلقًا مثله؛ فهو قادرٌ على أن يعيده إذا صار ترابًا، ولهذا فإن مَن قدر على أن يصنع من الورقة ورقة أخرى فإنه أقدر على أن يصنع الورقة الأولى إذا تلفت، وفي هذا الدليل قال تعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓا۟ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةًۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [سورة الروم، من الآية:٢١].

الدّليل الثّاني عشر: أنّا نرى النائمَ ولا حراكَ له، ثم إذا عاد إليه الروح استيقظ، وهو في زمن نومه لم يحس بشيء مما حوله، ويمر عليه الوقت الطويل ويظنه قصيرا، أو العكس؛ فالذي قدر على إعادة الروح لهذا الجسد هو قادر على أن يعيد الروح للبدن سواء كان البدن تالفًا، أو كان البدن سالمًا، قال الله تعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦ مَنَامُكُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱبْتِغَآؤُكُم مِّن فَضْلِهِۦٓۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ﴾ [سورة الروم، من الآية:٢٣].

الدّليل الثّالث عشر: أنّا نرى عظيم قدرة الله تعالى في الإنبات؛ فإنا نرى الأرضَ ليس فيها أي أثرٍ للحياة، ثم يُنزِل الله تعالى المطرَ؛ فيكون ذلك سببًا للإنبات؛ فتخرج النباتات خضرة؛ كأنها لم تكن ميتة قبل هذا الزمن، خرجت مثلما كانت، قال الله تعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ يُرِيكُمُ ٱلْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنَزِّلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَيُحْىِۦ بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ [سورة الروم، من الآية:٢٤]، وقال تعالى: ﴿وَنَزَّلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً مُّبَٰرَكًا فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ جَنَّٰتٍ وَحَبَّ ٱلْحَصِيدِ ۝٩ وَٱلنَّخْلَ بَاسِقَٰتٍ لَّهَا طَلْعٌ نَّضِيدٌ ۝١٠ رِّزْقًا لِّلْعِبَادِ ۖ وَأَحْيَيْنَا بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا ۚ كَذَٰلِكَ ٱلْخُرُوجُ﴾ [سورة ق، من الآية:٩-١١].

الدّليل الرّابع عشر: أنّ الْمَوْتَ وصفٌ يعتري الموجودات من الأحياء؛ فما دام أن هذا الوصف هو فعلٌ لله تعالى؛ فإن الإحياء أيضًا هو وصفٌ يعتري الموجودات، وكلّ ذلك فعلٌ لله تعالى، فمَن قدر على إثبات أحد الوصفين في الموجود فهو قادر على إعدام أحد الوصفين، وتبديل ذلك، وهذا من أظهر الأدلة على عظيم قدرة الله تعالى على البعث؛ فإن الإنسان موجودٌ من ترابٍ، ثم يعود ترابا، ثم يحييه، قال الله تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نُحْىِۦ وَنُمِيتُ وَإِلَيْنَا ٱلْمَصِيرُ ۝٤٣ يَوْمَ تَشَقَّقُ ٱلْأَرْضُ عَنْهُمْ سِرَاعًا ۚ ذَٰلِكَ حَشْرٌ عَلَيْنَا يَسِيرٌ﴾ [سورة ق، من الآية:٤٣-٤٤]، وقال تعالى: ﴿أَلَآ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ۝٥٥ هُوَ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [سورة يونس، من الآية:٥٥-٥٦].

الدّليل الخامس عشر: أنّ استمرارية وبقاء السماوات والأرضِ وما بينهما بأمرِ الله تعالى أكبر دليل على أنه متى ما دعا الأموات للبعث انبعثوا؛ كما أن هذه الأكوان قائمة بأمر الله، مجيبة لأمر الله؛ فكذلك الجمادات والتراب والأموات، قال الله تعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَن تَقُومَ ٱلسَّمَآءُ وَٱلْأَرْضُ بِأَمْرِهِۦ ۚ ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ إِذَآ أَنتُمْ تَخْرُجُونَ ﴿٢٥﴾ وَلَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ كُلٌّ لَّهُۥ قَٰنِتُونَ﴾ [سورة الروم، من الآية:٢٥-٢٦].

الدّليل السّادس عشر: أنّ الله تعالى قدرته باهرة؛ فلا يقف أمام قدرته شيءٌ، وإذا أردنا أن نعرف قدرته وعظمتها؛ فلننظر إلى دقة مصنوعاته من جهة، وإلى عظيم مصنوعاته من جهة أخرى؛ فمن قدر على هذا وهذا فإنه يقدر على البعثِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿فَٱعْفُوا۟ وَٱصْفَحُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ [سورة البقرة، من الآية:١٠٩]، وقال: ﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ۚ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ [سورة المائدة، من الآية:١٧]، ويدخل في عموم ﴿مَا يَشَآءُ﴾ كيفًا، وكمًّا، زمانًا، ومكانًا، وقال الله تعالى: ﴿إِلَى ٱللَّهِ مَرْجِعُكُمْ ۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ [سورة هود، من الآية:٤].

الدّليل السّابع عشر: أنّ من صنع شيئا ثم تلف المصنوعُ وعلم أجزاءه فإنه يعيدها إما بالتلحيم، أو بالتدوير، أو بأي طريقة من طرق إعادة المصنوع؛ فإذا كان هذا حالُ الصُّنَّاعِ؛ فالله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ لا يغيب عن عمله شيءٌ من المصنوعاتِ،

ولو صارت أجزاؤهم ذرّاتٍ، أو هباءً في الجهاتِ، أو مأكولًا في بطون السباع، أو رمادًا بالاحتراقِ، قال الله تعالى: ﴿أَيْنَ مَا تَكُونُوا۟ يَأْتِ بِكُمُ ٱللَّهُ جَمِيعًا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ [سورة البقرة، من الآية:١٤٨]، وقال تعالى: ﴿وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ [سورة آل عمران، من الآية:٢٩].

الدّليل الثّامن عشر: أنّ من قدر على إيجادِ مخلوقٍ من منيٍّ مُهانٍ، قادرٌ على أن يخلق نفس الإنسانِ من ترابٍ؛ بل ومن ذرة من ترابٍ، قال الله تعالى: ﴿أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِّن مَّنِىٍّ يُمْنَىٰ ﴿٣٧﴾ ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّىٰ ﴿٣٨﴾ فَجَعَلَ مِنْهُ ٱلزَّوْجَيْنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰٓ ﴿٣٩﴾ أَلَيْسَ ذَٰلِكَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحْـِۧىَ ٱلْمَوْتَىٰ﴾ [سورة القيامة، من الآية:٣٧-٤٠].

الدّليل التّاسع عشر: أنّ مَن قدر على أن يجعل للإنسان سمعًا وبصرًا بعد أن كان معدومًا فإنه يقدرُ على أن يجعله مبعوثًا، قال الله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ﴾ [سورة النحل، من الآية:٧٨].

الدّليل العشرون: أنّ الله تعالى أرانا صورًا من إحياء الموتى؛ فنرى الجنين الميت يَحْيَى بأمر الله تعالى؛ بل وأرانا صورًا من البعثِ؛ كما اشتهر ذلك عند الأمم.

فإن قيل: فما هي الأمثلة التي وقعت تدلّ على البعث؟

فالجواب: أنّه قد ورد في القرآن الكريم الأمثلةُ الآتية:

المثال الأوّل: قصة المختارين الذين أخذتهم الصاعقة فماتوا أمام موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ، ثم دعا الله تعالى فأحياهم، قال الله تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَٰمُوسَىٰ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى ٱللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ ۝٥٥ ثُمَّ بَعَثْنَٰكُم مِّنۢ بَعْدِ مَوْتِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [سورة البقرة، من الآية:٥٥-٥٦].

المثال الثّاني: قصة إحياء الرجل من بني إسرائيل إذْ قُتِل ولم يعلم قاتله؛ فأحياه الله تعالى وقام متكلمًا مخبرًا عن قاتله، قال الله تعالى: ﴿وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا فَٱدَّٰرَٰٔتُمْ فِيهَا ۖ وَٱللَّهُ مُخْرِجٌ مَّا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ ۝٧٢ فَقُلْنَا ٱضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا ۚ كَذَٰلِكَ يُحْىِ ٱللَّهُ ٱلْمَوْتَىٰ وَيُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [سورة البقرة، من الآية:٧٢-٧٣].

المثال الثّالث: خروج ألوفٌ من القبائلِ حذرَ الموت فأماتهم الله تعالى ثم بعثهم، قال تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ۝٢٤٢ ۞ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ خَرَجُوا۟ مِن دِيَٰرِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ ٱلْمَوْتِ فَقَالَ لَهُمُ ٱللَّهُ مُوتُوا۟ ثُمَّ أَحْيَٰهُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ﴾ [سورة البقرة، من الآية:٢٤٢-٢٤٣].

المثال الرّابع: قصة الّذي مرَّ على قريةٍ وتعجب من كيفيّة إحياء الله تعالى الموتى، وقيل هو عزير، قال الله تعالى: ﴿أَوْ كَٱلَّذِى مَرَّ عَلَىٰ قَرْيَةٍ وَهِىَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّىٰ يُحْىِۦ هَٰذِهِ ٱللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا ۖ فَأَمَاتَهُ ٱللَّهُ مِا۟ئَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُۥ

﴿قَالَ كَمْ لَبِثْتَ قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالَ بَل لَّبِثْتَ مِائَةَ عَامٍ فَانظُرْ إِلَىٰ طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ وَانظُرْ إِلَىٰ حِمَارِكَ وَلِنَجْعَلَكَ آيَةً لِّلنَّاسِ وَانظُرْ إِلَى الْعِظَامِ كَيْفَ نُنشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًا فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [سورة البقرة، من الآية:٢٥٩].

المثال الخامس: رؤيا المشاهدةِ الّتي حصلت لإبراهيم الخليل عَلَيْهِ السَّلَامُ في كيفيّة إحياء الموتى حتّى صار ذلك عين اليقين بالنسبة له؛ كما قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَىٰ قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ الطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ اجْعَلْ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ادْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا وَاعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [سورة البقرة، من الآية:٢٦٠].

المثال السّادس: إحياءُ عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ المَوَات والموتَى بإذن الله تعالى؛ فقد جعل الله ذلك آية له؛ فكان النّاس يرون هذا، وهذا جلي في القرآن الكريم في قوله تعالى: ﴿وَأُحْيِي الْمَوْتَىٰ بِإِذْنِ اللَّهِ وَأُنَبِّئُكُم بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [سورة آل عمران، من الآية:٤٩]، وقد جاء في الإنجيل في مواضع كثيرة قصة إحياء عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ الموتى بإذن الله تعالى.

المثال السّابع: قصة أصحاب الكهف؛ كما وردت في سورة الكهف.

فهذه بعضُ الأدلة العقلية والنقلية الدالة على قدرة رب البرية على إحياء الموتى، وبعثهم من القبور إلى الحشر، كيف شاء رب العالمين، ومتى شاء سبحانه.

وقول المصنّف رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **"وجزاء الأعمال يوم القيامة"**، أي ونقرُّ ونؤمن بما يكون في يوم القيامة، ومن ذلك: جزاء الأعمالِ، إنْ خيرًا وإنْ شرًّا.

و **"جزاء"** كلمة عامة بمعنى المقاضاةِ، ويستعمل فِعْلُ (جازَى) للخير والشَّرّ معًا، والإثابة والعقوبة، فتأتي بمعنى المكافأة، وبمعنى المعاقبة، وقد جاء في القرآن الكريم على المعنيين، قال الله تعالى في حق أعدائه: ﴿فَلَنُذِيقَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ عَذَابًا شَدِيدًا وَلَنَجۡزِيَنَّهُمۡ أَسۡوَأَ ٱلَّذِي كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ٢٧ ذَٰلِكَ جَزَآءُ أَعۡدَآءِ ٱللَّهِ ٱلنَّارُۖ لَهُمۡ فِيهَا دَارُ ٱلۡخُلۡدِ جَزَآءَۢ بِمَا كَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يَجۡحَدُونَ﴾ [سورة فصلت، من الآية:٢٧-٢٨]، وقال الله تعالى في حق أوليائه: ﴿فَأَثَٰبَهُمُ ٱللَّهُ بِمَا قَالُواْ جَنَّٰتٍ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ وَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾ [سورة المائدة، من الآية:٨٥]، وقال في حق عموم المؤمنين: ﴿وَمَن يَأۡتِهِۦ مُؤۡمِنٗا قَدۡ عَمِلَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلدَّرَجَٰتُ ٱلۡعُلَىٰ ٧٥ جَنَّٰتُ عَدۡنٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ وَذَٰلِكَ جَزَآءُ مَن تَزَكَّىٰ﴾ [سورة طه، من الآية:٧٥-٧٦].

و **"الأعمال"** جمعُ عملٍ، ويطلق على مطلق الفِعْلِ، سواء كان خيرًا أو شرًّا، قليلًا أو كثيرًا، قولًا أو فعلًا، كسبًا أو تركًا، قلبًا أو ظاهرًا، فالإثابة أو المعاقبة تتم

على كلّ تلكم الأعمال، وقد جاء ذكر المجازاة على الأعمال والعمل في القرآن الكريم كثيرًا، قال الله تعالى: ﴿ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَىٰ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [سورة الجمعة، من الآية:٨]، ويقال للمؤمنين: ﴿سَلَٰمٌ عَلَيْكُمُ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [سورة النحل، من الآية:٣٢]، ويقال للكافرين: ﴿وَذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْخُلْدِ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [سورة السجدة، من الآية:١٤]؛ فمن أهم ما يكون يوم القيامة بعد البعث جزاءُ الأعمالِ.

فإن قيل: فما أصناف الناس في جزاء الأعمال يوم القيامة؟

فالجواب: أنّ النّاس في جزاء الأعمال يوم القيامة ثلاثة أصنافٍ:

الصّنف الأوّل: محسنون سابقون؛ فهم إلى الجنان سائرون، وهم الذين يدخلون الجنّة بغير حساب ولا عذاب، قال الله تعالى: ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلسَّٰبِقُونَ ﴿١٠﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلْمُقَرَّبُونَ ﴿١١﴾ فِى جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴿١٢﴾ ثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٣﴾ وَقَلِيلٌ مِّنَ ٱلْءَاخِرِينَ﴾ [سورة الواقعة، من الآية:١٠-١٤]، وهذا الصنف من المجمع عليه أنهم من أهل الجنّة؛ لكن عند أهل السنة والجماعة بفضلٍ من الله تعالى، وعند المعتزلة أن ذلك استحقاقٌ واجبٌ، وقد سبق تقرير هذه المسألة.

ومما يدل على هذا الصّنف حديث السبعين ألفًا المشهور، من ذلك رِواية عبدِ الله ابْنُ عَبَّاسٍ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ قَالَ: قالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: **"عُرِضَتْ عَلَيَّ الأُمَمُ، فَجَعَلَ النّبيّ وَالنّبيّانِ يَمُرُّونَ مَعَهُمُ الرَّهْطُ، وَالنّبيّ لَيْسَ مَعَهُ أَحَدٌ، حتّى**

رُفِعَ لِي سَوَادٌ عَظِيمٌ، قُلْتُ: مَا هَذَا؟ أُمَّتِي هَذِهِ؟ قِيلَ: بَلْ هَذَا مُوسَى وَقَوْمُهُ، قِيلَ: انْظُرْ إِلَى الأُفُقِ، فَإِذَا سَوَادٌ يَمْلأُ الأُفُقَ، ثُمَّ قِيلَ لِي: انْظُرْ هَا هُنَا وَهَا هُنَا فِي آفَاقِ السّماء، فَإِذَا سَوَادٌ قَدْ مَلأَ الأُفُقَ، قِيلَ: هَذِهِ أُمَّتُكَ، وَيَدْخُلُ الجنّة مِنْ هَؤُلاَءِ سَبْعُونَ أَلْفًا بِغَيْرِ حِسَابٍ" ثُمَّ دَخَلَ وَلَمْ يُبَيِّنْ لَهُمْ، فَأَفَاضَ القَوْمُ، وَقَالُوا: نَحْنُ الَّذِينَ آمَنَّا بِاللهِ وَاتَّبَعْنَا رَسُولَهُ، فَنَحْنُ هُمْ، أَوْ أَوْلاَدُنَا الَّذِينَ وُلِدُوا فِي الإِسْلاَمِ، فَإِنَّا وُلِدْنَا فِي الجَاهِلِيَّةِ، فَبَلَغَ النّبيّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَخَرَجَ، فَقَالَ: "هُمُ الَّذِينَ لاَ يَسْتَرْقُونَ، وَلاَ يَتَطَيَّرُونَ، وَلاَ يَكْتَوُونَ، وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ" فَقَالَ عُكَاشَةُ بْنُ مِحْصَنٍ: أَمِنْهُمْ أَنَا يَا رَسُولَ اللهِ؟ قَالَ: "نَعَمْ"؛ فَقَامَ آخَرُ فَقَالَ: أَمِنْهُمْ أَنَا؟ قَالَ: "سَبَقَكَ بِهَا عُكَّاشَةُ" [رواه البخاري ومسلم].

الصّنف الثّاني: هم بِضِدّ الصّنف الأوّل مِن كلّ وجهٍ، وهم الكفار والمشركون؛ فهم إلى النيران مَسْحُوبُون، وهم الذين قال الله تعالى عنهم: ﴿كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿١٤﴾ كَلَّا إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ ﴿١٥﴾ ثُمَّ إِنَّهُمْ لَصَالُوا الْجَحِيمِ ﴿١٦﴾ ثُمَّ يُقَالُ هَٰذَا الَّذِي كُنتُم بِهِ تُكَذِّبُونَ﴾ [سورة المطففين، من الآية:١٤-١٧]، وهذا الصنف من المجمع عليه أنهم مِن أهل النّار، وأنهم مخلدون فيها، ولم يخالف في خلود هؤلاء إلا طائفة ممن لا يرى خلود النّار من الفلاسفة ونحوهم.

وهذان **الصنفان** هما المشار إليهم في أكثر الآيات، مثل قول الله تعالى: ﴿وَتُنذِرَ يَوْمَ الْجَمْعِ لَا رَيْبَ فِيهِ ۚ فَرِيقٌ فِي الْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِي السَّعِيرِ﴾ [سورة الشورى، من الآية:٧]،

وهذا باعتبار النهايات، وفي مثل قوله: ﴿وَسِيقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًا﴾ [سورة الزمر، من الآية:٧١]، ثم قال بعدها بآية: ﴿وَسِيقَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ رَبَّهُمۡ إِلَى ٱلۡجَنَّةِ زُمَرًا﴾ [سورة الزمر، من الآية:٧٣]، وهذا باعتبار الصنف الأدنى في مقابل الصنف الأعلى، وبينهما أصنافٌ في ابتداء السَّوْقِ، وابتداء التَّصنيف، قال الله تعالى: ﴿ٱحۡشُرُواْ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ وَأَزۡوَٰجَهُمۡ﴾ [سورة الصافات، من الآية:٢٢]، أي وأصنافهم.

الصّنف الثّالث: مَن خلط عملًا صالحًا مع سيِّءٍ، وهم من الموحدين فهم تحت مشيئة رب العالمين، وهم منهم من يعرض عرضًا، وهم من أصحاب اليمين؛ لكن منهم مَن أوقف للعرض، ومنهم من أوقف للحساب، ومنهم من يغفر ال تعالى له عنه، ويتجاوز عنه، ومنهم من يؤاخذ، ويدخل النّار، ثم يغفر الله تعالى عنه، ويدخل الجنّة.

وهؤلاء الأصناف الثلاثة هم الذين جاء ذكرهم في أول سورة الواقعة، وفي آخرها، وفي سورة الرحمن، وغيرها.

وهذا الصّنف الثالث هم المعنيون بقول الله تعالى: ﴿فَأَمَّا مَنۡ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ ۝٧ فَسَوۡفَ يُحَاسَبُ حِسَابٗا يَسِيرٗا ۝٨ وَيَنقَلِبُ إِلَىٰٓ أَهۡلِهِۦ مَسۡرُورٗا﴾ [سورة الانشقاق، من الآية:٧-٩]، وكانت الصدِّيقةُ عائشة رَضِيَٱللَّهُعَنۡهَا، زَوْجُ النّبيّ صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ: كَانَتْ لاَ تَسْمَعُ شَيْئًا لاَ تَعْرِفُهُ، إِلَّا رَاجَعَتْ فِيهِ حتّى تَعْرِفَهُ، وَأَنَّ النّبيّ صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ قَالَ: **"مَنْ حُوسِبَ عُذِّبَ"** قَالَتْ عَائِشَةُ: فَقُلْتُ أَوَلَيْسَ يَقُولُ اللهُ تَعَالَى: ﴿فَسَوۡفَ

﴿يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا﴾ [سورة الانشقاق، من الآية:٦٦٦]، قَالَتْ: فَقَالَ: **"إِنَّمَا ذَلِكِ العَرْضُ، وَلَكِنْ: مَنْ نُوقِشَ الحِسَابَ يَهْلِكْ"** [رواه البخاري]؛ فهذا الصنف منهم من يُستَر عليه، ويُعفَى عنه، ومنهم من يقرّر بذنبه أمام الملأ؛ فيكون توبيخه أعلى، وحاله أشدّ، وقوله صَلَّىٰ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **"مَنْ نُوقِشَ الحِسَابَ يَهْلِكْ"**، وفي رواية: **"مَنْ نُوقِشَ الحِسَابَ عُذِّبَ"**، بيان لصنف آخر من هذا الصنف، وهم الموحدون الذين يُعذَّبون في النّار، ثم يخرجون منها، وهذا هو المراد من قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱفْتَرَىٰٓ إِثْمًا عَظِيمًا﴾ [سورة النساء، من الآية:٤٨].

وهم الذين لم تُحِطْ بهم خطيئاتهم لوجود التوحيد عندهم، قال الله تعالى: ﴿بَلَىٰ مَن كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَٰطَتْ بِهِۦ خَطِيٓـَٔتُهُۥ فَأُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ [سورة البقرة، من الآية:٨١]، فدلت هذه الآية أن سيئة الشرك مع الذنوب الأخرى صاحبها يستحق الخلود، ومن لم يكن معه سيئة الشرك؛ فإنه لا يحيط به خطيئته، كما قال الله تعالى: ﴿وَءَاخَرُونَ ٱعْتَرَفُوا۟ بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُوا۟ عَمَلًا صَٰلِحًا وَءَاخَرَ سَيِّئًا عَسَى ٱللَّهُ أَن يَتُوبَ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [سورة التوبة، من الآية:١٠٢]؛ فهذا الصنف هم الذين تحت المشيئة عند أهل السنة والجماعة، وأنهم وإن عذبوا فمآلهم إلى الجنّة برحمة الله تعالى.

و **"يوم القيامة"** اسمٌ من أسماء اليوم الآخر، وسُمي بهذا الاسم لقيام النّاس فيه

من قبورهم، وحشرهم إلى جزائهم وثوابهم وعقابهم.

و "**يوم**" هنا مفردٌ مضافٌ فيعم الزمان الّذي يكون بعد القيام من القبور مطلقًا، وهو اليوم الّذي ليس بعده يومٌ؛ فأهل الجنّة في الجنّة يكونون مُخَلَّدِين، وأهلُ النّار في النّار يكونون مسَرْمَدِين.

وبقاءُ الزَّمن بعد يوم القيامة أبد الآباد، وحُقُبًا بعد حُقُبٍ على الدوام والخِلادِ، إنما هو بإبقاءِ الله تعالى للجنة وأهلها، وللنار وأهلها، وليس بقاء الجنّة والنّار وما فيهما بنفسيهما، وعلى هذا يُحْمَل الاستثناء في قوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَأْتِ لَا تَكَلَّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ فَمِنْهُمْ شَقِىٌّ وَسَعِيدٌ ﴿١٠٥﴾ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ شَقُوا۟ فَفِى ٱلنَّارِ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ ﴿١٠٦﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ ۚ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ ﴿١٠٧﴾ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ سُعِدُوا۟ فَفِى ٱلْجَنَّةِ خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ ۖ عَطَآءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ﴾ [سورة هود، من الآية:١٠٥-١٠٨]؛ فمما قيل في الآية أنه سبحانه لو شاء لقطع عليهم التأبيد؛ ولكنه سبحانه لا يشاء ذلك؛ بل يعذب الكافرين لأنه فعالٌ لما يريد بالظالمين، ولا يقطع عطاءه عن المؤمنين أبدًا، بدلالة ديمومة سماوات وأرض الآخرة، وبدلالة ما أخبر عن نفسه في الآيات المتعددة من تخليد المؤمنين والكافرين، وهذا على قولٍ في تفسير الاستثناء، وقيل فيه غير ذلك.

وقول المصنّف رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "**والعرض والحساب**"، أي ونُقرُّ ونؤمن بـ"**العرض والحساب**"، و "**العرض**" المقصود به عَرْضُ حالِ كلّ على الله تعالى، وعرض

النّاس عَلَى ربهم، دفعًا لظلمٍ، أو حاجةٍ لغُرْمٍ، أو طلبًا لغُنْمٍ، ويعرِضُ النّاس يوم القيامة على الله تعالى.

و **"الحساب"** في اللغة العدُّ، ومعناه هنا: الوَفَاءُ بالجزاء، وبالثوابِ، وبالعقاب، ويوم الحساب اسمٌ من أسماء يوم القيامة، ويوم **(العرضِ)**، فكلٌّ يؤخذ بجريرة ذنبه، وبما قدم من عمله، وبما أخر من فِعاله، ويوم العرض والحساب إنما يكون على العزيز الوهاب، الّذي قدر على رَزْقِهم وهم عددٌ لا يحصون؛ فكذلك يحاسبهم وهم خلقٌ لا يُحصَون، ويعلمهم الله تعالى وحده، فعرضهم بعد بعثهم، ومحاسبة الله لهم، وقراءتهم لكتبهم، وعرض أعمالهم عليهم، كلّ ذلك يكون يوم الحساب، قال الله تعالى: ﴿يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لَا تَخْفَىٰ مِنكُمْ خَافِيَةٌ ﴿١٨﴾ فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَيَقُولُ هَاؤُمُ اقْرَءُوا كِتَابِيَهْ﴾ [سورة الحاقة، من الآية:١٨-١٩]، وما بعدها من الآيات الّتي تصور العرض والحساب، وهذا واقعٌ في عدة سورٍ، مثل المرسلات، والنبأ، وآخر النازعات، والتكوير، والانفطار، والانشقاق، والمطففين، ونحو ذلك من السُّوَر.

وقول المصنّف رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **"وقراءة الكتاب والثواب والعقاب"**، أي ونؤمن ونقر بأنه سيكون في يوم القيامة بعد العرضِ والحسابِ **"قراءة الكتاب والثواب والعقاب"**، كما قال الله تعالى: ﴿وَكُلَّ إِنسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَائِرَهُ فِي عُنُقِهِ ۖ وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كِتَابًا يَلْقَاهُ مَنشُورًا ﴿١٣﴾ اقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا﴾ [سورة الإسراء، من الآية:١٣-١٤].

و "**قراءَةُ الكتاب**" مصدرٌ يحتمل عدّة معانيَ كلها صحيحة، وهي:

المعنى الأوّل: بمعنى فِعْلِ المصدرِ، وهو أنّ العبد يقرأُ كتابَ نفسِه، وهذا نوعٌ من التّقرير؛ كما جاء في الآية السّابقة.

المعنى الثّاني: بمعنى اسم المفعول، وهو المقروء، أي هذا المقروء المكتوبُ تُجْزى به، وعليه يُحمل ما جاء في حديث عَبْدِ اللهِ بْنِ عَمْرٍو رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا يَقُولُ: قَالَ رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **"يُصَاحُ بِرَجُلٍ مِنْ أُمَّتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَى رُؤوسِ الْخَلَائِقِ، فَيُنْشَرُ عليه تِسْعَةٌ وَتِسْعُونَ سِجِلًّا، كلّ سِجِلٍّ مَدَّ الْبَصَرِ، ثُمَّ يَقُولُ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: هَلْ تُنْكِرُ مِنْ هَذَا شَيْئًا؟ فَيَقُولُ: لَا يَا رَبِّ. فَيَقُولُ: أَظَلَمَتْكَ كَتَبَتِي الْحَافِظُونَ؟ فيقول: لا، يا رب. ثُمَّ يَقُولُ: أَلَكَ عذر، أَلِكَ حَسَنَةٌ؟ فَيَهَابُ الرَّجُلُ، فَيَقُولُ: لَا. فَيَقُولُ: بَلَى، إِنَّ لَكَ عِنْدَنَا حَسَنَاتٍ، وَإِنَّهُ لَا ظُلْمَ عَلَيْكَ الْيَوْمَ، فَتُخْرَجُ لَهُ بِطَاقَةٌ، فِيهَا: أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، قَالَ: فَيَقُولُ: يَا رَبِّ، مَا هَذِهِ الْبِطَاقَةُ مَعَ هَذِهِ السِّجِلَّاتِ. فَيَقُولُ: إِنَّكَ لَا تُظْلَمُ. فَتُوضَعُ السِّجِلَّاتُ فِي كِفَّةٍ وَالْبِطَاقَةُ فِي كِفَّةٍ، فَطَاشَتْ السِّجِلَّاتُ، وَثَقُلَتْ الْبِطَاقَةُ"** [رواه الترمذي، وقال: حسن غريب، ورواه ابن ماجه، وهذا لفظه].

المعنى الثّالث: بمعنى اسم الفاعل، وهو القارئ الكاتب، وهم الملائكة الكتبة، الذين يقرؤون كتاب العبد، وهم كتبوه، وهو بمعنى قول الله تعالى: ﴿وَتَرَىٰ كُلَّ أُمَّةٍ جَاثِيَةً ۚ كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعَىٰ إِلَىٰ كِتَابِهَا الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٨﴾ هَٰذَا كِتَابُنَا يَنطِقُ عَلَيْكُم بِالْحَقِّ ۚ إِنَّا كُنَّا نَسْتَنسِخُ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [سورة الجاثية، من الآية:٢٨-٢٩].

وهذه القراءة على المعاني الثلاثة تكون بعد تطاير الصُّحُف، وإعطاء كلّ صحيفته، وأخذِ كلّ بطاقته، وهو معنى قول الله تعالى: ﴿وَإِذَا ٱلصُّحُفُ نُشِرَتۡ﴾ [سورة التكوير، من الآية:١٠]؛ فمنهم آخذٌ كتابه بيمينه، ومنهم آخذٌ كتابه بشماله من وراء ظهره، والكتابُ هو الإمامُ الّذي يُقَادُ به النّاس يوم القيامة، والكتاب القرآن هو الّذي يُقوَّمُ عليه عمل النّاس؛ كما قال تعالى: ﴿يَوۡمَ نَدۡعُواْ كُلَّ أُنَاسِۭ بِإِمَٰمِهِمۡۖ فَمَنۡ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ يَقۡرَءُونَ كِتَٰبَهُمۡ وَلَا يُظۡلَمُونَ فَتِيلٗا ٧١ وَمَن كَانَ فِي هَٰذِهِۦٓ أَعۡمَىٰ فَهُوَ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ أَعۡمَىٰ وَأَضَلُّ سَبِيلٗا﴾ [سورة الإسراء، من الآية:٧١-٧٢].

و "**الثواب**": العطاءُ؛ كما قال الله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسۡنُ ٱلثَّوَابِ﴾ [سورة آل عمران، من الآية:١٩٥]، وفلانٌ نال (**الثَّوَاب**) أي جزاء عمله الخيِّر الّذي قام به، كما قال تعالى: ﴿فَأَثَٰبَهُمُ ٱللَّهُ بِمَا قَالُواْ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ وَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾ [سورة المائدة، من الآية:٨٥]، وقال تعالى: ﴿فَـَٔاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ ثَوَابَ ٱلدُّنۡيَا وَحُسۡنَ ثَوَابِ ٱلۡأٓخِرَةِۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾ [سورة آل عمران، من الآية:١٤٨]؛ فكل عبدٍ يثاب على فعل الخيرِ، ولا يَضيع عند الله مثقال ذرة، وثواب المؤمنين تامٌّ.

وكلّ عملٍ شركيٍّ أو بدعيٍّ فلا ثواب فيه؛ لأنه وإن كان فاعله يظنه خيرًا وعبادةً وتقاة؛ لكنه شرٌّ لأن الله تعالى لا يتقرب إليه بالشرك، ولا بالبدع، وعلى هذا

يُحْمَل بطلان عمل الكفار؛ أي أعمالهم الشركية والبدعية، قال الله تعالى: ﴿وَقَدِمْنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُوا۟ مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَٰهُ هَبَآءً مَّنثُورًا ﴾ [سورة الفرقان، من الآية:٢٣]، وقوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَعْمَٰلُهُمْ كَسَرَابٍۭ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ ٱلظَّمْـَٔانُ مَآءً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَهُۥ لَمْ يَجِدْهُ شَيْـًٔا وَوَجَدَ ٱللَّهَ عِندَهُۥ فَوَفَّىٰهُ حِسَابَهُۥ ۗ وَٱللَّهُ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴾ [سورة النور، من الآية:٣٩].

و"**العقاب**" مصدر عاقَبْتُه بذنبه مُعاقبةً، وعِقابًا، إذا أَخَذْتَه بِهِ، والاسم: (**العقوبة**) وهو: الجزاءُ على الأعمال السيئة، وفلانٌ نال العقابَ أي جزاء عمله السَّيِّئ الّذي قام به؛ كما قال الله تعالى: ﴿وَمَن يُشَاقِقِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَإِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴾ [سورة الأنفال، من الآية:١٣]، وقال سبحانه: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِّلنَّاسِ عَلَىٰ ظُلْمِهِمْ ۖ وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴾ [سورة الرعد، من الآية:٦]، وقال جَلَّ وَعَلَا: ﴿ٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ وَأَنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ [سورة المائدة، من الآية:٩٨].

وقول المصنّف رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "**والصراط والميزان**" أي ونؤمن ونقر بأن الصراط والميزان حقٌّ، وأنه كائنٌ، والواو في قول المصنّف لا يفيد ترتيبًا؛ لأن الميزان قبل الصراط على الصحيح من أقوال أهل العلم؛ فإن نشر الكتب وقراءتها، والموازين قبل الصراط.

و "**الصراط**" الطريقُ؛ كما قال الله تعالى: ﴿وَلَا تَقْعُدُواْ بِكُلِّ صِرَٰطٍ تُوعِدُونَ وَتَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ [سورة الأعراف، من الآية:٨٦]، وقال سبحانه: ﴿فَٱهْدُوهُمْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْجَحِيمِ﴾ [سورة الصافات، من الآية:٢٣]، أي طريق الجحيم.

والصراطُ المستقيم الطريق الّذي لا اعوجاج فيه، قال الله تعالى: ﴿فَٱتَّبِعْنِىٓ أَهْدِكَ صِرَٰطًا سَوِيًّا﴾ [سورة مريم، من الآية:٤٣].

فإن قيل: فما أوصاف الصراط المستقيم؟

فالجواب: أنّه قد جاء وصف الصراط المستقيم في القرآن بعدةِ أوصافٍ منها؛ صراطُ الهداية والاستقامة، صراطُ المنعَم عليهم، صراطُ العِلم، والعَمَل ، صراط الرحمة، والفضل، صراط الوسطية، والعدل؛ فلا جفاء فيه ولا غلوّ، لا شطط ولا وكس، صراط المغفرة، والنعمة، صراط الدّلالة، صراط الحقّ، صراطُ وحدة الكلمة، والاجتماع، والألفة، صراط العبادة، صراط الرّبوبيّة، صراط الاعتصام، صراط التقوى، صراط الإسلام، صراط الرضوان، صراطُ سُبُلِ السلام، صراط السداد، صراط الوَعْيِ، صراط قول الحقّ، صراط الطيب من القول، صراط الأنبياء، صراط دار السلام، صراط الوَلاية، صراط الدِّين القيِّم، صراط ملة إبراهيم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، صراط الحنيفية، صراط الحسنى، صراط أصحاب الجنّة، صراط الجنّة، صراط اللهِ تعالى، صراط الرِّسالات، صراط الاجتباء، صراط الحسنات، صراط الصالحين، صراط الحميد، صراط

المخبتين، صراط النّبيّ محمد صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، صراط الآيات، صراط المبيِّنات، صراط أولي العلم، صراط العزيز الحميد، صراط القرآن الحكيم، صراط المرسلين، صراط التنزيل، صراط العزيز الرحيم، صراط العبادة، صراط الوحي، صراط الرُّوح، صراط الكتاب، صراط الإيمان، صراط النور، صراط العِبَاد، صراط الذِّكر، صراط الساعة، صراط الإخلاص، صراط السّويّ، صراط الوصايا العشرة، صراط الاتباع، صراط التّعقّل، صراط التّذكّر، صراط التّقوى، وغير ذلك من الأوصاف العظيمة الجليلة، وهذه الأوصاف بعضها معنوية، وبعضها حسية، ومن هنا كان الصراط المستقيمُ بهذا الاعتبار نوعين:

النّوع الأوّل: هو الصراط المعنوي، وهو بمعنى التوحيدِ، والسُّنَةِ، والطاعةِ، والعبادةِ، والإخلاصِ، والإسلام...إلخ؛ كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُۚ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ﴾ [سورة آل عمران، من الآية:٦٦]، وقال تعالى: ﴿وَهُدُوٓاْ إِلَى ٱلطَّيِّبِ مِنَ ٱلْقَوْلِ وَهُدُوٓاْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْحَمِيدِ﴾ [سورة الحج، من الآية:٢٤]، وقال تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَتَدْعُوهُمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [سورة المؤمنون، من الآية:٧٣]، وقال تعالى: ﴿وَأَنِ ٱعْبُدُونِيۚ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ﴾ [سورة يس، من الآية:٦١].

النّوع الثّاني: الصراط الحسِّيُّ، وهو الطريق المضروب على جهنّم بين أرض المحشر وقنطرة أهل الجنّة، وهو المعني على الصحيح من أقوال المفسرين بقول الله تعالى: ﴿وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَاۚ كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا ٧١ ثُمَّ نُنَجِّي

﴿ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْ وَّنَذَرُ ٱلظَّٰلِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا﴾ [سورة مريم، من الآية:٧١-٧٢]، وجاء هذا مؤكدا في حديث أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ، عَنِ النَّبِيّ صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ قَالَ: "**لاَ يَمُوتُ لِمُسْلِمٍ ثَلاَثَةٌ مِنَ الوَلَدِ، فَيَلِجَ النّار، إِلَّا تَحِلَّةَ القَسَمِ**" [رواه البخاري ومسلم] قَالَ الزهري رَحِمَهُٱللَّهُ: كأنه يريد هذه الآية: ﴿وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا﴾ [سورة مريم، من الآية:٧١]، وكذا قاله الإمام البخاري رَحِمَهُٱللَّهُ.

وقد جاء للصراط المضروب على جهنّم عدة أوصاف؛ ومن ذلك أنه أحدُّ من السيف، وأدقُّ من الشعر، وعليه كلاليب يمر النّاس عليه بحسب أعمالهم؛ فمنهم كالبرق، ومنهم كالريح المرسلة إلى أن يكون منهم من يسقط في النّار، وهذا جاء تفصيله في عدة أحاديث، ومنها حديث أَبِي هُرَيْرَةَ وحُذَيْفَةَ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا قَالَا: قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: "**يَجْمَعُ اللهُ تَبَارَكَوَتَعَالَىٰ النَّاس، فَيَقُومُ الْمُؤْمِنُونَ حتّى تُزْلَفَ لَهُمُ الجنّة...؛ فَيَأْتُونَ مُحَمَّدًا صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ، فَيَقُومُ فَيُؤْذَنُ لَهُ، وَتُرْسَلُ الْأَمَانَةُ وَالرَّحِمُ، فَتَقُومَانِ جَنَبَتَيِ الصِّرَاطِ يَمِينًا وَشِمَالًا، فَيَمُرُّ أَوَّلُكُمْ كَالْبَرْقِ**" قَالَ: قُلْتُ: بِأَبِي أَنْتَ وَأُمِّي أَيُّ شَيْءٍ كَمَرِّ الْبَرْقِ؟ قَالَ: "**أَلَمْ تَرَوْا إِلَى الْبَرْقِ كَيْفَ يَمُرُّ وَيَرْجِعُ فِي طَرْفَةِ عَيْنٍ؟ ثُمَّ كَمَرِّ الرِّيحِ، ثُمَّ كَمَرِّ الطَّيْرِ، وَشَدِّ الرِّجَالِ، تَجْرِي بِهِمْ أَعْمَالُهُمْ وَنَبِيُّكُمْ قَائِمٌ عَلَى الصِّرَاطِ يَقُولُ: رَبِّ سَلِّمْ سَلِّمْ، حتّى تَعْجِزَ أَعْمَالُ الْعِبَادِ، حتّى يَجِيءَ الرَّجُلُ فَلَا يَسْتَطِيعُ السَّيْرَ إِلَّا زَحْفًا**"، قَالَ: "**وَفِي حَافَتَيِ الصِّرَاطِ كَلَالِيبُ مُعَلَّقَةٌ مَأْمُورَةٌ بِأَخْذِ مَنِ اُمِرَتْ بِهِ، فَمَخْدُوشٌ نَاجٍ، وَمَكْدُوسٌ فِي النَّارِ**" [رواه مسلم].

و "**الميزان**" أي ونؤمن ونقرُّ بالميزان، وهو الآلة الّتي توزَن بها الأشياء؛ وقد تطلق كلمة الميزان على العدل والعدالة، والمراد هنا الميزان الحقيقيِّ، الّذي يضعه الله تعالى لعباده لبيان عدله فيهم، ولا نعلم كيفيّة هذه الموازين؛ فنؤمن بها على ما جاء في النَّصّ المرفوع، وأن له كفتان؛ وقد جاء في النصوص أن الّذي يوزن ثلاثة أشياء:

الوزنُ الأوّل: وزن صحائف الأعمال، وهذا يدل على أن صحائف الأعمال قسمان، قسمٌ للحسنات، وقسم للسيئات، وأيهما رجحت كانت لها الكفة، وعليه يحمل قوله تعالى: ﴿وَٱلۡوَزۡنُ يَوۡمَئِذٍ ٱلۡحَقُّۚ فَمَن ثَقُلَتۡ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ٨ وَمَنۡ خَفَّتۡ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُم بِمَا كَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يَظۡلِمُونَ﴾ [سورة الأعراف، من الآية:٨-٩]، وقوله تعالى: ﴿فَمَن ثَقُلَتۡ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ١٠٢ وَمَنۡ خَفَّتۡ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ فِي جَهَنَّمَ خَٰلِدُونَ﴾ [سورة المؤمنون، من الآية:١٠٢-١٠٣]، وقوله تعالى: ﴿فَأَمَّا مَن ثَقُلَتۡ مَوَٰزِينُهُۥ ٦ فَهُوَ فِي عِيشَةٖ رَّاضِيَةٖ ٧ وَأَمَّا مَنۡ خَفَّتۡ مَوَٰزِينُهُۥ ٨ فَأُمُّهُۥ هَاوِيَةٞ ٩ وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا هِيَهۡ ١٠ نَارٌ حَامِيَةُۢ﴾ [سورة القارعة، من الآية:٦-١١]، وهذه كتبٌ توزن، وهي كتابة الملائكة، ويدل له حديث البطاقة، وقد رُوي من عدة طرقٍ، منها حديث عَبْدِ اللهِ بْنِ عَمْرٍو رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا يَقُولُ: قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "**إِنَّ اللهَ سَيُخَلِّصُ رَجُلًا مِنْ أُمَّتِي عَلَى رُءُوسِ الخَلَائِقِ يَوْمَ القِيَامَةِ؛ فَيَنْشُرُ عَلَيْهِ تِسْعَةً**

وَتِسْعِينَ سِجِلًّا، كلّ سِجِلٍّ مِثْلُ مَدِّ البَصَرِ، ثُمَّ يَقُولُ: أَتُنْكِرُ مِنْ هَذَا شَيْئًا؟ أَظَلَمَكَ كَتَبَتِي الحَافِظُونَ؟ فَيَقُولُ: لاَ يَا رَبِّ، فَيَقُولُ: أَفَلَكَ عُذْرٌ؟ فَيَقُولُ: لاَ يَا رَبِّ، فَيَقُولُ: بَلَى إِنَّ لَكَ عِنْدَنَا حَسَنَةً، فَإِنَّهُ لاَ ظُلْمَ عَلَيْكَ اليَوْمَ، فَتَخْرُجُ بِطَاقَةٌ فِيهَا: أَشْهَدُ أَنْ لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللهُ وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، فَيَقُولُ: احْضُرْ وَزْنَكَ، فَيَقُولُ: يَا رَبِّ مَا هَذِهِ البِطَاقَةُ مَعَ هَذِهِ السِّجِلاَّتِ، فَقَالَ: إِنَّكَ لاَ تُظْلَمُ، قَالَ: فَتُوضَعُ السِّجِلاَّتُ فِي كَفَّةٍ وَالبِطَاقَةُ فِي كَفَّةٍ، فَطَاشَتِ السِّجِلاَّتُ وَثَقُلَتِ البِطَاقَةُ، فَلاَ يَثْقُلُ مَعَ اسْمِ اللهِ شَيْءٌ" [رواه الترمذي، وقال: حسن غريب].

الوزنُ الثّاني: وزن العمل نفسِه، وهذا كوزن الصلاةِ، والزكاة، والصوم، وذلك لأن هذه الأعمال تُعْمَل، ولها ثقل وخفة؛ فهذا قد أدَّى الصلاة والزكاة والصوم؛ فتكتب أنه أدّى؛ لكن ما قيمة هذه الصلاة والزكاة والصوم وزنًا وقدرًا؟ فهذا لا يعلم حقيقته إلا الله تعالى، ولذلك يريد سبحانه أن يُري عبادَه عدلَه؛ فيُمَثِّل لهم الأعمال صورًا توزن؛ فيكون بعضها أثقل من بعضٍ، وبعضها أخف من بعضٍ، وعليه يُحمل قوله تعالى: ﴿وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا ۖ وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا ۗ وَكَفَىٰ بِنَا حَٰسِبِينَ﴾ [سورة الأنبياء، من الآية:٤٧]، ويدل لهذا من السنة أحاديث عدة، ومنها حديث أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "**كَلِمَتَانِ خَفِيفَتَانِ عَلَى اللِّسَانِ، ثَقِيلَتَانِ فِي الْمِيزَانِ، حَبِيبَتَانِ إِلَى الرَّحْمَنِ: سُبْحَانَ اللهِ وَبِحَمْدِهِ، سُبْحَانَ اللهِ الْعَظِيمِ**" [رواه البخاري ومسلم]، وحديث أبي الدرداء رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ عن النّبيّ

صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: "ما مِنْ شيءٍ أثقلُ في الميزانِ مِن حُسنِ الخُلُقِ" [رواه أحمدُ، والترمذي، وقال: حديث غريبٌ من هذا الوجه].

الوزنُ الثّالث: وزنُ العاملين، وذلك لأن العامل يكون في قلبه من الأعمال ما يحتاج فيه إلى وزن؛ فلا تكتب كلّ الأعمال القلبية كمًّا وكيفًا وقدرًا، ولا تُصَوَّر، ولهذا كان الأنسب وزن العاملين، وهذا إنما يكون خاصًّا للمؤمنين؛ أما الكفار فليس لهم أعمال قلبية حتّى يوزنوا؛ لأنها بالشرك باطلة، وبالكفر مضمحلّة، قال الله تعالى: ﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِٱلْأَخْسَرِينَ أَعْمَٰلًا ۝١٠٣ ٱلَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا ۝١٠٤ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ وَلِقَآئِهِۦ فَحَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَزْنًا﴾ [سورة الكهف، من الآية:١٠٣-١٠٥]، وقد جاء في حديث ابن مسعود رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ أنه كان يجتني سواكًا من الأراك، وكان دقيق السّاقين، فجعلت الرِّيح تكفَؤُه، فضحك القوم منه، فقال رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "مم تضحكون؟" قالوا: يا نبي الله، مِن دقّة ساقيه، فقال: "والذي نفسي بيده، لهما أثقل في الميزان من أحد" [رواه أحمدُ، وغيره، وقال محققه: صحيح لغيره]، وحديث عبدِ الله بن عمرو رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا عَنِ النّبيّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قَالَ: "يُحْشَرُ الْمُتَكَبِّرُونَ يَوْمَ القِيَامَةِ أَمْثَالَ الذَّرِّ فِي صُوَرِ الرِّجَالِ يَغْشَاهُمُ الذُّلُّ مِنْ كلّ مَكَانٍ، فَيُسَاقُونَ إِلَى سِجْنٍ فِي جَهَنَّمَ يُسَمَّى بُولَسَ تَعْلُوهُمْ نَارُ الأَنْيَارِ يُسْقَوْنَ مِنْ عُصَارَةِ أَهْلِ النَّارِ طِينَةَ الخَبَالِ" [رواه أحمد، والترمذي، وقال: حديث حسن]، وحديث أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ عَنْ رَسُولِ اللهِ

صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: **"إِنَّهُ لَيَأْتِي الرَّجُلُ الْعَظِيمُ السَّمِينُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، لَا يَزِنُ عِنْدَ اللهِ جَنَاحَ بَعُوضَةٍ، اقْرَءُوا فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزْنًا"** [رواه مسلم].

هذا بالنسبة للموزون، وأما الموازين؛ فهل هي واحدةٌ أم هي متعددة؟ وهي من المسائل الفرعية المتعلقة بأصل مسألة عقدية؛ فالمهم الإيمان بالميزان الّذي يقيمه الرحمن تَبَارَكَ وَتَعَالَى للعباد، وأما هل هي متعددة أم واحدة؛ فالذي جاء في النصوص على سياقين:

السّياق الأوّل: سياق الإفراد، وبه قال جمعٌ من أهل العلم؛ كما في الحديث السابق ذكر الميزان بالإفراد: **"كَلِمَتَانِ خَفِيفَتَانِ عَلَى اللِّسَانِ، ثَقِيلَتَانِ فِي الْمِيزَانِ..."**، وحديث أَبِي مَالِكٍ الْأَشْعَرِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **"الطُّهُورُ شَطْرُ الْإِيمَانِ وَالْحَمْدُ لِلَّهِ تَمْلَأُ الْمِيزَانَ..."** [رواه مسلم]، وقالوا: إن ما جاء جمعًا فهو باعتبار تعدد الموزون، والميزان واحدٌ.

السّياق الثّاني: سياق الجمع، وبه قال بعضُ العلماء؛ كقوله تعالى: ﴿وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ [سورة الأنبياء، من الآية:٤٧]، وقوله تعالى: ﴿فَأَمَّا مَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ﴾ [سورة القارعة، من الآية:٦]، وقوله تعالى: ﴿وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ﴾ [سورة القارعة، من الآية:٨]، ونحو ذلك من الآيات الّتي فيها جمع الميزان، وبعض الروايات الحديثية؛ كما في حديث البطاقة عن عبدِ الله بن عمرو رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال: قال رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **"توضع الموازين يوم القيامة؛ فيؤتى بالرَّجُلِ، فيُوضَع في كفة، فيوضع ما أُحْصِيَ عليه، فتمايل به الميزان..."** [رواه أحمد،

وقال محققه: إسناده حسن]، وقالوا: الأصل الإبقاء على ظاهِر اللفظِ؛ فيقال بالجمعِ.

وهذا أصوب استدلالًا، وأقرب لألفاظ القرآن، والأول مرجوحٌ لأمرين:

الأمر الأوّل: أنّ تعدد الموازين باعتبار الموزون، هو نوعُ تأويل، والأصل إبقاء اللفظ على ظاهره، وأيضًا فإنه إذا تعدَّدَتِ الموازينُ باعتبار الموزون فلا مانع مِن تعدد الموازين؛ فهذا كهذا.

الأمرُ الثَّاني: أنّ لفظ المفرد يأتي كثيرًا مرادًا به الجنس؛ كقولنا (الرَّجل)؛ فليس فيه تعرُّضٌ للعدد، ومفهوم العدد منه ضعيفٌ؛ فالأَوْلَى الإبقاء على ظاهر اللفظ الّذي جاء في القرآن والسنة، وهو تعدد الموازين، والمفرد محمول على اسم الجنس، وهو لا يفيد الفرد ولا ينافي التَّعدّد، بخلاف الجمع فإنه صريح في العدد الجمعيّ.

ولا يترتب على هذه المسألة كثير فائدة، وذلك لأن المقصود هو إظهار عدل الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى، وأنه سبحانه يبين لعباده صنعه فيهم، ودقة كتبته عليهم، وعظمة حسابه لهم.

وقد أنكرت المعتزلة ومن وافقهم كثيرًا من أمور الآخرة بناء على إنكارهم العقلي المبني على عقولهم؛ فقالوا: إن عقولنا لا تتصور الداعي للصراط!؟ وهذا تحكُّمٌ في مقابل النصوص القرآنية الكثيرة والسنة المتواترة.

و "**الميزان**" يوم القيامة من المواضع المهيبة الّتي يهاب فيها الإنسان حتّى عن أقرب النّاس إليه، وينبغي للمؤمن أن يقدم الأعمال الصالحة، وأن ينوعها، وأن يكثر منها وَفق الشّرع؛ فإنه لا يدري أي عملٍ يكون سببًا في رجحان حسناته على سيئاته، وأن يطهر قلبه، وأن ينقي فؤاده؛ وأن يكون منشرح الصدر بالإيمان، حتّى يكون ثقيلًا في الميزان، وأن يحسن الأعمال ويجودها حتّى تكون لها المقادير الكبيرة عند الله تعالى.

وخلاصة كلام المصنّف رَحِمَهُ ٱللَّهُ: وجوب الإقرار بالبعث، وبجزاء الأعمال يوم القيامة، والعرض والحساب، وما يكون مِن قراءة كتاب الأعمال، والمسمى بالفارسية (عَمَل نامَه)، وبالثواب والعقاب، والمرور على الصراط، ووضع الميزان.

[الإيمان بوجود الجنة والنار]

وَالْـجَنَّةُ وَالنَّارُ مَـخْلُوقَتَانِ، وَلَا تَفْنَيَانِ أَبَدًا، وَلَا تَبِيدَانِ، وَلَا تَبْلَيَانِ، وَأَنَّ اللهَ تَعَالَى خَلَقَ الْـجَنَّةَ وَالنَّارَ قَبْلَ خَلْقِ الْـخَلْقِ، وَخَلَقَ لَـهُمَا أَهْلًا؛ فَمَنْ شَاءَ مِنْهُمْ أَدْخَلَهُ الْـجَنَّةَ فَضْلًا مِنْهُ، وَمَنْ شَاءَ مِنْهُمْ أَدْخَلَهُ النَّارَ عَدْلًا مِنْهُ تَعَالَى.

الشرح

هذا تقرير من المصنف رَحِمَهُ ٱللَّهُ لمسألة وجود الجنة والنار، وأبديتهما، وأن دخول الجنة فضل من الله تعالى، ودخول النار عدلٌ من الله تعالى.

وقوله: **"والجنّة والنار مخلوقتان"** أي نؤمن ونقر بأن الله تعالى خلقَ الجنّة، وخلق النّار، وأنهما موجودتان خلافًا للمعتزلة؛ فإنهم زعموا أنها لم تخلق بعد!؟

فإن قيل: ما الدليل على وجود الجنة والنار؟

فالجواب: مما يدل على وجود الجنة النار الأدلة الكثيرة المتوافرة، ومنها؛

الدّليل الأوّل: أن الله تعالى لمَّا خلق آدم أسكنه الجنّة، وهي على الصحيح الجنّة الّتي يعود إليها هو وذريته التائبون المتبعون له، وللأنبياء عَلَيْهِمُ ٱلسَّلَامُ، قال الله تعالى: ﴿وَقُلْنَا يَٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ﴾ [سورة البقرة، من الآية:٣٥]، وقال سبحانه: ﴿لَا يَفْتِنَنَّكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ كَمَآ أَخْرَجَ أَبَوَيْكُم مِّنَ ٱلْجَنَّةِ﴾ [سورة الأعراف، من الآية:٢٧]، وقال جَلَّ وَعَلَا: ﴿إِنَّ هَٰذَا عَدُوٌّ لَّكَ وَلِزَوْجِكَ فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ ٱلْجَنَّةِ فَتَشْقَىٰٓ﴾ [سورة طه، من الآية:١١٧].

الدّليل الثّاني: حديث أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ عَنْ رَسُولِ اللهِ صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ قَالَ: "**لَمَّا خَلَقَ اللهُ الجنّة وَالنَّارَ أَرْسَلَ جِبْرِيلَ إِلَى الجنّة فَقَالَ: انْظُرْ إِلَيْهَا وَإِلَى مَا أَعْدَدْتُ لأَهْلِهَا فِيهَا، قَالَ: فَجَاءَهَا وَنَظَرَ إِلَيْهَا وَإِلَى مَا أَعَدَّ اللهُ لأَهْلِهَا فِيهَا، قَالَ: فَرَجَعَ إِلَيْهِ، قَالَ: فَوَعِزَّتِكَ لاَ يَسْمَعُ بِهَا أَحَدٌ إِلاَّ دَخَلَهَا، فَأَمَرَ بِهَا فَحُفَّتْ بِالمَكَارِهِ، فَقَالَ: ارْجِعْ إِلَيْهَا فَانْظُرْ إِلَى مَا أَعْدَدْتُ لأَهْلِهَا فِيهَا، قَالَ: فَرَجَعَ إِلَيْهَا فَإِذَا هِيَ قَدْ حُفَّتْ بِالمَكَارِهِ، فَرَجَعَ إِلَيْهِ فَقَالَ: وَعِزَّتِكَ لَقَدْ خِفْتُ أَنْ لاَ يَدْخُلَهَا أَحَدٌ، قَالَ: اذْهَبْ إِلَى النَّارِ فَانْظُرْ إِلَيْهَا وَإِلَى مَا أَعْدَدْتُ لأَهْلِهَا فِيهَا، فَإِذَا هِيَ يَرْكَبُ بَعْضُهَا بَعْضًا، فَرَجَعَ إِلَيْهِ فَقَالَ: وَعِزَّتِكَ لاَ يَسْمَعُ بِهَا أَحَدٌ فَيَدْخُلَهَا، فَأَمَرَ بِهَا فَحُفَّتْ بِالشَّهَوَاتِ، فَقَالَ: ارْجِعْ إِلَيْهَا، فَرَجَعَ إِلَيْهَا فَقَالَ: وَعِزَّتِكَ لَقَدْ خَشِيتُ أَنْ لاَ يَنْجُوَ مِنْهَا أَحَدٌ إِلاَّ دَخَلَهَا**" [رواه الترمذي، وقال: حسن صحيح].

الدّليل الثّالث: حديث أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ يقُولُ: قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: "**اشْتَكَتِ النَّارُ إِلَى رَبِّهَا، فَقَالَتْ: يَا رَبِّ أَكَلَ بَعْضِي بَعْضًا، فَأَذِنَ لَهَا بِنَفَسَيْنِ، نَفَسٍ فِي الشِّتَاءِ، وَنَفَسٍ فِي الصَّيْفِ، فَهْوَ أَشَدُّ مَا تَجِدُونَ مِنَ الْحَرِّ، وَأَشَدُّ مَا تَجِدُونَ مِنَ الزَّمْهَرِيرِ**" [رواه مسلم].

الدّليل الرّابع: قول الله تعالى: ﴿وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغۡفِرَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ وَجَنَّةٍ عَرۡضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلۡأَرۡضُ أُعِدَّتۡ لِلۡمُتَّقِينَ﴾ [سورة آل عمران، من الآية:١٣٣]، وقوله سبحانه عن النّار: ﴿فَإِن لَّمۡ تَفۡعَلُواْ وَلَن تَفۡعَلُواْ فَٱتَّقُواْ ٱلنَّارَ ٱلَّتِي وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ

﴿وَٱلۡحِجَارَةُۖ أُعِدَّتۡ لِلۡكَٰفِرِينَ﴾ [سورة البقرة، من الآية:٢٤]، وهذا فعل ماضٍ يدل على الثبوت والتقرّر.

الدّليل الخامس: أن الله تعالى أخبر عن مكانها، وأنها في السماوات العلى، وهل يمكن أن يخبر عن شيءٍ معدومٍ لمَّا يوجدُ بعدُ؟ قال الله تعالى: ﴿أَفَتُمَٰرُونَهُۥ عَلَىٰ مَا يَرَىٰ ۝١٢ وَلَقَدۡ رَءَاهُ نَزۡلَةً أُخۡرَىٰ ۝١٣ عِندَ سِدۡرَةِ ٱلۡمُنتَهَىٰ ۝١٤ عِندَهَا جَنَّةُ ٱلۡمَأۡوَىٰٓ ۝١٥ إِذۡ يَغۡشَى ٱلسِّدۡرَةَ مَا يَغۡشَىٰ ۝١٦ مَا زَاغَ ٱلۡبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ ۝١٧ لَقَدۡ رَأَىٰ مِنۡ ءَايَٰتِ رَبِّهِ ٱلۡكُبۡرَىٰٓ﴾ [سورة النجم، من الآية:١٢-١٨].

الدّليل السّادس: إخبار الله تعالى عن قومِ نوحٍ أنهم بعد الإغراق دخلوا النّار، وهذا فيه دلالة على أن عالم البرزخ له علاقة قوية بالآخرة، وأن النّار موجودة، وإلا فأي نارٍ أُدخلوا؟ قال الله تعالى: ﴿مِّمَّا خَطِيٓـَٰٔتِهِمۡ أُغۡرِقُواْ فَأُدۡخِلُواْ نَارٗا فَلَمۡ يَجِدُواْ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ أَنصَارٗا﴾ [سورة نوح، من الآية:٢٥].

الدّليل السّابع: أن مقام العبد يعرض عليه وهو في قبره، وهذا دليل على وجوده؛ كما في حديث ابْنِ عُمَرَ رَضِيَٱللَّهُعَنۡهُمَا أَنَّ رَسُولَ اللهِ صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ، قَالَ: **"إِنَّ أَحَدَكُمْ إِذَا مَاتَ عُرِضَ عَلَيْهِ مَقْعَدُهُ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ، إِنْ كَانَ مِنْ أَهْلِ الجنّة فَمِنْ أَهْلِ الجنّة، وَإِنْ كَانَ مِنْ أَهْلِ النَّارِ فَمِنْ أَهْلِ النَّارِ، يُقَالُ: هَذَا مَقْعَدُكَ، حتّى يَبْعَثَكَ اللهُ إِلَيْهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ"** [رواه البخاري، ومسلم، وهذا لفظه]، قال الحافظ ابن عبد البر رَحِمَهُٱللَّهُ: (وفي هذا الحديث دليل على أن الجنّة والنّار مخلوقتان

كما يقول جماعة أهل السنة وهم الجماعة الذين هم الحجة أهل الرأي والآثار) [كتاب الاستذكار]، ويدل لهذا قول الله تعالى في القرآن في آل فرعون: ﴿ٱلنَّارُ يُعۡرَضُونَ عَلَيۡهَا غُدُوّٗا وَعَشِيّٗا﴾ [سورة غافر، من الآية:٤٦].

الدّليل الثّامن: كلّ ما جاء في القرآن والسنة من أسماء الجنّة والنّار، وأوصافهما، وبيان حالهما دليل على وجودهما؛ لأن وصف العدم عدمٌ.

الدّليل التّاسع: الأحاديث الّتي فيها أن النّبيّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَسَلَّمَ اطلع على أهل الجنّة فرأى كذا، واطلع على أهل النّار فرأى كذا، كلها تدل على أنها موجودة، وإلا كان خيالًا، لا حقيقة لها، وهل النّبيّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَسَلَّمَ يخبر عن الحقيقة أو عن الخيال؟

الدّليل العاشر: أنّ الكتاب والسُّنَّة فيهما النّصوص الكثيرة الّتي فيها البشارة بالجنّة، والنّذارة من النّار؛ وهذا يدل على أنهم يبشرون بشيء موجودٍ، وينذرون من شيء موجودٍ، وليس من شيء سيكون.

وغير ذلك من الأدلة الكثيرة المتواترة في السنة الدالة على وجود الجنّة والنّار، وأنها مخلوقة خلقهما الله تعالى للبقاء لا للفناء، ولهذا قال المصنّف رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **"لا تفنيان أبدًا ولا تبيدان"**، أي ونؤمن ونقر بأن الجنّة والنّار خلقهما الله تعالى للبقاء الأبدي؛ فلا يلحقهما فناء، ولا يدركهما إبادةٌ، وذلك بإبقاء الله تعالى لهما، وعلى هذا يحمل الاستثناء في قوله تعالى: ﴿قَالَ ٱلنَّارُ مَثۡوَىٰكُمۡ خَٰلِدِينَ

فِيهَآ إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ﴾ [سورة الأنعام، من الآية:١٢٨]، وقوله تعالى: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ شَقُواْ فَفِى ٱلنَّارِ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ ﴿١٠٦﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ﴾ [سورة هود، من الآية:١٠٦-١٠٧]، وهذه الآية والتي قبلها فيها دلالة على خروج الموحدين من النّار على قولِ من يرى أنها فيهم.

وعلى قولٍ آخر فيها دلالة على بقاء النّار لكن بمشيئة الله تعالى، وليس البقاء مكتسبا من ذاتها، فهي لا تبقى بنفسها؛ بل هي أبدية بمشيئة الله تعالى.

وقد جاء في منطوق الكتاب والسنة ذكرُ الخلود في الجنّة والنّار، وذكرُ التأبيد، وذكرُ الدوام، وذكرُ الأبدية، وذكرُ الأحقابِ، وهي الأزمنة المتعاقبة بعضها إثر بعضٍ بلا نهاية، وكلّ ذلك يدل على نفي الفناء والإبادة.

ومعنى "**لا تفنيان**" أي لا يلحقهما الفناءُ، وأصلُ الفناء من فَنِيَ الشيءُ إذا بادَ وانتهى وجوده، ومنه قوله تعالى: ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ﴾ [سورة الرحمن، من الآية:٢٦]، فهو معنى نفادُ الشيء وذهابه شيئا بعد شيءٍ.

وقوله: "**ولا تبيدان**" من باب التأكيد، فهو مِن بادَ إذا هلك، وانقرض، واختفى.

وقد خالف في ديمومة الجنّة النّار طائفةٌ من الفلاسفة بمجرد استنتاج عقلي، وهو أن ما كان مخلوقًا محدَثًا فلا بد وأن يَفْنَى!؟ وغاب عن عقولهم أن الّذي خلقها هو قادر على أن يجعلها دائمة، أبدية، سرمدية.

وقال طائفة من النّاس، ورُوي عن بعض السلف القولُ بفناء النّار بعد آبادٍ من الزمن، ولكنه قولٌ مرجوح؛ بل هو قولٌ مهجورٌ، والمحكي عن عامة السلف، والمتبعين لهم من الخلف الخلود الأبدي، والدوام السرمدي، وذلك للجنة والنّار؛ وتم حكاية النقل عن غيرِ واحدٍ بأن الجنّة أبدية، وأن النّار تفنى، وهذا غلطٌ؛ فإنَّ ذكر الخلود والأبدية وردت فيهما معًا، قال الله تعالى: ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَا لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ ٱلْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ﴾ [سورة البقرة، من الآية:١٦٢]، وقال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَظَلَمُوا۟ لَمْ يَكُنِ ٱللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ طَرِيقًا ﴿١٦٨﴾ إِلَّا طَرِيقَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا﴾ [سورة النساء، من الآية:١٦٨-١٦٩]، وقال: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلْكُفَّارَ نَارَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ هِىَ حَسْبُهُمْ ۚ وَلَعَنَهُمُ ٱللَّهُ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ﴾ [سورة التوبة، من الآية:٦٨]، ومقيم مفيدٌ للديمومة أيضًا، وكذلك قول: ﴿أَحْقَابًا﴾ [سورة النبأ، من الآية:٢٣]، ﴿أَبَدًا﴾ [سورة البقرة، من الآية:٩٥].

ومَن نسب القول بفناءِ النّار إلى شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ؛ فإنه إما غالطٌ عليه، وإما لم يفهم كلامه، فإن شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ يَحْكِي قول مَن قال بفناء النّار؛ كما في عدة مواضع من كتبه، وينسبها إلى الفلاسفة، ويحكي إجماع المسلمين على أبدية الجنّة والنّار، كما في مواضع من رسائله، وأمّا فناءُ النّار الّتي فيها الْمُوَحِّدُون؛ فهذا له وجهٌ، وذلك لأنهم يخرجون منها، وهذه هي

المسألة الّتي اشتهر عن العلامة ابن القيِّم رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

فالجنّة والنّار لا تفنيان، ولا تبيدان؛ لأن الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ لم يخلقهما للفناء، وإنما خلقهما للبقاء، فبقاؤهما بإبقاء الله لهما، وإدامتهما بإدامةِ الله تعالى لهما، وما كان خارجًا عن إطار الدّنيا الفانية فإنها ليست مخلوقة للفناء، ومِن ذلك عرشُ الله تعالى، وحملته، والجنان الّتي تحت العرش، والنّار في أسفل الجنّة وجودًا.

ومن هنا ندرك أن الوجود بهذا الاعتبار ثلاثة أقسام:

الوجود الأوّل: وجودٌ أزلي وأبدي، وهذا مختص بالخالق تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ؛ فهو الأول والآخر، وهذا النوع من الوجود مِن خصائص الرّبوبيّة لله جَلَّ وَعَلَا، لا يشركه معه شيءٌ فيه.

الوجود الثّاني: وجودٌ أبديٌّ، وهذا الوجود خاص بالأشياء الّتي خلقها الله تعالى للبقاء؛ كما سلف مثل العرشُ والجنّة والنّار...إلخ.

الوجود الثّالث: وجودٌ وقتيٌّ، وهذا الوجود خاص بالأشياء الّتي خلقها الله تعالى لِتكون ثم تفنى من الموجوداتِ، سواءٌ بعضُ المادَّة، أو تركيباتها، وهذه أنواعٌ كثيرة، مثل الحيوانات، والحشرات، والنباتات، ونحوها، مما يكون خارجا عن إطار الجنّة والنّار.

فإن قال قائلٌ؛ لكن الله تعالى: ﴿كُلُّ مَنۡ عَلَيۡهَا فَانٖ﴾ [سورة الرحمن، من الآية:٢٦]، وقال: ﴿وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلۡأَرۡضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُۖ ثُمَّ نُفِخَ

فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ﴾ [سورة الزمر، من الآية:٦٨]، وقول الله تعالى: ﴿وَيَوْمَ يُنفَخُ فِي الصُّورِ فَفَزِعَ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَمَن فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَن شَاءَ اللَّهُ﴾ [سورة النمل، من الآية:٨٧]؛ فهذا يدل على أن كلّ شيء فانٍ، وأن كلّ حيٍّ فهو ميِّتٌ مصعوقٌ، ومفزوع فزع الفناء؟

فالجواب: أن الآية الأولى الفناء فيها مخصوص بـ ﴿مَنْ عَلَيْهَا﴾ أي على الدّنيا، ولا يدخل في ذلك أمور ما فوق السّماء السابعة، قال إمام المفسرين الطبري رَحِمَهُ اللَّهُ: (كلّ من على ظهر الأرض من جنّ وإنس فإنَّه هالك) ولم يذكر فيها خلافا؛ فدل أن ذلك من المجمع عليه، وهذه الآية مثلها قوله تعالى: ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ﴾ [سورة القصص، من الآية:٨٨]، على أحد التفسيرين، ويحتمل أن المعنى كلّ شيءٍ موجودٍ فانٍ إلا وجه الله تعالى، ودلت النصوص الأخرى على أن هناك استثناء آخر، وذلك لأن تعدد الاستثناءات من الكليات جائزٌ؛ فأنت تقول: كلّ الرجال حضروا إلا زيد، إلا عمرو، إلا بكرٌ؛ فإن قيل: كلّ شيءٍ هالك إلا وجه الله تعالى، إلا العرش، إلا الجنّة...إلخ؛ فهذا سائغٌ؛ لكن بشرط أن يكون هذا الاستثناء قد جاء إما في النص المتصل، أو في النص المنفصل، وذلك لأن القرآن في مجموعه كالشيء الواحد؛ بل والنصوص الشّرعية كلها تفسر بعضها بعضًا.

والآية الثانية والثالثة: السياق فيها عن المخلوقات السفلية في الأرض والسماوات، لا ما فوق السماوات، فالجنان وإن كانت بعضها فوق بعض؛ فإن

جميعها فوق السماوات ودون العرش، وهي بانفرادها عالم مخلوق للبقاء، فلا شك أنها بمعزل عما خلق الله جَلَّ وَعَلَا للفناء، ثم الاستثناء مشعرٌ بعدم فناءِ أنواعٍ من الأحياء؛ فإن لم يكونوا هم حملة العرش، وما في الجنّة والنّار؛ فماذا عساه أن يكون؟

وجواب تَنَزُّلِيٌّ: وهو لو سَلَّمْنَا جدلًا أن الفناء الوقتي، والصَّعْقَ، والفزعَ يشمل كلّ مَن في الجنّة والنّار من الأحياء حتّى الملائكة المختصون بذلك، والغلمان، والحور؛ فهو وقتٌ معيَّنٌ، ولا ينفي البقاء بعد هذا الصعق وهذا الفزع، والله تعالى أعلم، وعلى هذا يحمل ما جاء أن الملائكة المقربين يموتون؛ كإسرافيل، وميكائيل، وملك الموت، وجبريل عَلَيْهِمُ السَّلَامُ، لو صح في ذلك الآثار.

وهل الجنّة والنار مخلوقتان قبل الخَلْقِ أو بعدهم؟

لبيان هذه المسألة الّتي هي تابعة لمسألة وجود الجنّة والنّار، قال المصنّف رَحِمَهُ اللَّهُ: "**وإن الله تعالى خلق الجنّة والنار قبل الخلق**"، أي ونُقِرُّ تبعًا لإقرارنا بوجود الجنّة والنّار، أنَّ الله تعالى خلق الجنّة والنّار قبل أن يخلق أهلها، وذلك لأدلة منها:

الدّليل الأوّل: لأنه سبحانه خلق الدّنيا قبل خَلْقِ أهلها، وكذلك الصَّانِعُ من النّاس يصنع الزيادة في الدور قبل وجود مَن يسكنها، تهيئة لِمَنْ يَسْكُنُها، فالله تعالى خلق الدّنيا قبل وجود أهلها، وخلق الآخرة قبل وجود أهلها.

وأهل الدّنيا والآخرة المقصود بهم هنا الإنس والجن، فقبل وجود العاملين، والمكلَّفين، أوجد الله تعالى الجنّة والنّار، وقد سبق ذِكرُ شيء من الأدلة النصية الدالة على ذلك.

الدّليل الثّاني: أن الله تعالى لما خلق آدم أدخله الجنّة، وأنه أخرج منها، وهذا يدل دلالة بينة على أنها موجودة قبل خلق آدم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، وقبل وجود ذريته، والجنّ مخلوقون قبل آدم؛ والجنّة قبل خلق الجنّ، ولكن الملائكة مخلوقون قبل الجنّة والنّار، بدليل الحديث الّذي سبق حيث أمر الله تعالى جبريل عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ أن يذهب وينظر إلى الجنّة والنّار لما خلقهما؛ فدل على وجوده قبل ذلك، والملائكة تبعٌ له في الحكمِ الوجودي.

الدّليل الثّالث: أن الله تعالى لما خلق الجنّة والنّار أخبر أنه سيملؤهما؛ كما في حديث أبي هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ أنّ النّبيّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: "**احتجت الجنّة والنّار، فقالت الجنّة: يا رب، ما لي لا يدخلني إلا فقراء النّاس وسقطهم؟ وقالت النار: يا رب ما لي لا يدخلني إلا الجبارون والمتكبرون؟ فقال للنار: أنت عذابي أصيب بك من أشاء، وقال للجنة: أنت رحمتي أصيب بك من أشاء، ولكل واحدة منكما ملؤها، فأمّا الجنّة، فإنّ الله ينشئ لها ما يشاء، وأمّا النار، فيُلْقَوْنَ فيها، وتقول: هل مِن مزيد؟ حتّى يضع قدمه فيها، فهنالك تمتلئ، ويزوى بعضها إلى بعض، وتقول: قط، قط، قط**" [رواه الإمام أحمدُ، وهذا لفظه، ورواه مسلم في صحيحه بنحوه]؛ فقوله: "**عَلَيَّ مِلْؤُهَا**" دليل على إنشاءِ خلقٍ لهما؛ كما هو

مشاهد في خلق المسلمين، الذين سيدخلون الجنّة جيلًا بعد جيلٍ، وذلك بعد وجود الجنّة والنّار قطعًا، وأيضًا فيبقى فضلة في الجنّة فيخلق لها خلقًا آخر فيدخلون؛ وهذا كله بعد الوجود.

ومما يدل على أن الله تعالى خلق الجنّة والنّار قبل الإنس والجن، قول المصنّف رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **"وَخَلَقَ لَهُمَا أَهْلًا"**؛ فهذا يدلّ على سبق وجود الجنّة والنّار من جهة، وعلى عظيم علمِ الله تعالى بمن سيدخل الجنّة، ومن سيدخل النّار.

وفي قوله: **"وَخَلَقَ لَهُمَا أَهْلًا"** تأكيد وبيان لعظيم علم الله تعالى، وأنه سبحانه عَلِمَ مَن هم أهل الجنّة، وأن الله أعانهم تفضيلًا منه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، وعَلِمَ مَن هم أهلُ النّار وتركهم وأعمالهم عدلًا منه سبحانه؛ فما من إنسان إلا وهو يعمل لأمرٍ قد علم الله ما هو إليه صائرٌ، والله عَزَّوَجَلَّ علمه محيط بكل شيء.

"وَخَلَقَ لَهُمَا أَهْلًا" هو موافقٌ للنصوص الّتي سبق ذكرها، من أن الله تعالى سيدخل في الجنّة من يشاء برحمته، وسيدخل النّار من يشاء بعدله، وهو سبحانه لو شاء لقهرهم وجبرهم جميعًا لكانوا مؤمنين؛ لكنه سبحانه لحكمة بالغة تركهم وما أرادوا، ولم يُحِل بينهم وبين مراداتهم المخالفة للشرع، ولو شاء لألزمهم الإيمان، ولكن النصوص جلية في أن الله تعالى لا يقهر عباده على الإيمان، قال الله تعالى: ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ﴾ [سورة الأنعام، من الآية:١١٢]، وقال: ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَن فِى ٱلْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا أَفَأَنتَ تُكْرِهُ ٱلنَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ﴾ [سورة يونس، من الآية:٩٩]، وقال: ﴿لَعَلَّكَ بَٰخِعٌ

نَفۡسَكَ أَلَّا يَكُونُواْ مُؤۡمِنِينَ ۝٣ إِن نَّشَأۡ نُنَزِّلۡ عَلَيۡهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ءَايَةٗ فَظَلَّتۡ أَعۡنَٰقُهُمۡ لَهَا خَٰضِعِينَ﴾ [سورة الشعراء، من الآية:٣-٤]، وغير ذلك من الأدلة الّتي تدل دلالة واضحة على أن الله تعالى قادرٌ على أن يقهر العباد، ولكنه لم يفعل لحكمة بالغة، ومنها؛ أنه سبحانه خلق للجنة أهلًا، وللنار أهلًا، وعلم ما الكل صائرون إليه، قال عَبْدَةُ بْنُ أبي لبابة: (علم الله تعالى ما هو خالق وما الخلق عاملون، ثم كتبه، ثم قال لنبيه صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ﴿أَلَمۡ تَعۡلَمۡ أَنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُ مَا فِي ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِۚ إِنَّ ذَٰلِكَ فِي كِتَٰبٍۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٞ﴾ [سورة الحج، من الآية:٧٠]، [سورة الحج، الآية: ٧٠]) [الشريعة للآجري].

ويؤكد هذا المعنى ما جاء في القرآن من قوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعۡلَمُ مَن يَضِلُّ عَن سَبِيلِهِۦۖ وَهُوَ أَعۡلَمُ بِٱلۡمُهۡتَدِينَ﴾ [سورة الأنعام، من الآية:١١٧]، وقوله تعالى: ﴿إِنَّكَ لَا تَهۡدِي مَنۡ أَحۡبَبۡتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهۡدِي مَن يَشَآءُۚ وَهُوَ أَعۡلَمُ بِٱلۡمُهۡتَدِينَ﴾ [سورة القصص، من الآية:٥٦]، وقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ حَقَّتۡ عَلَيۡهِمۡ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤۡمِنُونَ ۝٩٦ وَلَوۡ جَآءَتۡهُمۡ كُلُّ ءَايَةٍ حَتَّىٰ يَرَوُاْ ٱلۡعَذَابَ ٱلۡأَلِيمَ﴾ [سورة يونس، من الآية:٩٦-٩٧].

وما جاء في حديث عَلِيٍّ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ قَالَ: كَانَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ذَاتَ يَوْمٍ جَالِسًا وَفِي يَدِهِ عُودٌ يَنْكُتُ بِهِ، فَرَفَعَ رَأْسَهُ فَقَالَ: **"مَا مِنْكُمْ مِنْ نَفْسٍ إِلَّا وَقَدْ عُلِمَ مَنْزِلُهَا مِنَ الجنّة وَالنَّارِ"** قَالُوا: يَا رَسُولَ اللهِ فَلِمَ نَعْمَلُ؟ أَفَلَا نَتَّكِلُ؟ قَالَ: **"لَا،**

اعْمَلُوا، فَكُلٌّ مُيَسَّرٌ لِمَا خُلِقَ لَهُ" ثُمَّ قَرَأَ: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَاتَّقَىٰ ۝ وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَىٰ﴾ [سورة الليل، من الآية:٥-٦]، إِلَى قَوْلِهِ: ﴿فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَىٰ﴾ [سورة الليل، من الآية:٧]، [رواه مسلم].

وكذلك ما جاء في حديث أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وَرَفَعَ الْحَدِيثَ، أَنَّهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: "إِنَّ اللهَ عَزَّوَجَلَّ قَدْ وَكَّلَ بِالرَّحِمِ مَلَكًا، فَيَقُولُ: أَيْ رَبِّ نُطْفَةٌ، أَيْ رَبِّ عَلَقَةٌ، أَيْ رَبِّ مُضْغَةٌ، فَإِذَا أَرَادَ اللهُ أَنْ يَقْضِيَ خَلْقًا قَالَ: قَالَ الْمَلَكُ: أَيْ رَبِّ ذَكَرٌ أَوْ أُنْثَى؟ شَقِيٌّ أَوْ سَعِيدٌ؟ فَمَا الرِّزْقُ؟ فَمَا الْأَجَلُ؟ فَيُكْتَبُ كَذَلِكَ فِي بَطْنِ أُمِّهِ" [رواه مسلم]؛ فالله تعالى خلق الأشقياء للنار، وخلق السعداء للجنة، ولولا السعداء لما خلق الخلق أصلًا؛ فلولا الأمة المرحومة لما أوجد الأمة المختلفة المشاقة.

وكذلك جاء في حديث حُذَيْفَةَ بْنِ أَسِيدٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يَبْلُغُ بِهِ النّبيّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قَالَ: "يَدْخُلُ الْمَلَكُ عَلَى النُّطْفَةِ بَعْدَ مَا تَسْتَقِرُّ فِي الرَّحِمِ بِأَرْبَعِينَ، أَوْ خَمْسَةٍ وَأَرْبَعِينَ لَيْلَةً، فَيَقُولُ: يَا رَبِّ أَشَقِيٌّ أَوْ سَعِيدٌ؟ فَيُكْتَبَانِ، فَيَقُولُ: أَيْ رَبِّ أَذَكَرٌ أَوْ أُنْثَى؟ فَيُكْتَبَانِ، وَيُكْتَبُ عَمَلُهُ وَأَثَرُهُ وَأَجَلُهُ وَرِزْقُهُ، ثُمَّ تُطْوَى الصُّحُفُ، فَلَا يُزَادُ فِيهَا وَلَا يُنْقَصُ" [رواه مسلم].

ولكن هذه الشقاوة وهذه السعادة ليست اعتباطًا، حاشا الحكيم العليم سبحانه ذلك، وإنما كتب ذلك لما علِم منهم سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، ومع علمه سبحانه بذلك؛ فهو يعاملُ من يختار الخيرَ، ويسعى له = بفضله، ويعاملُ من يختار الشَّرَّ،

ويسعى له = بعدله، ولهذا قال المصنّف رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "**فمَنْ شاء مِنهم إلى الجنّة فضلًا مِنه، ومَنْ شاء مِنهم إلى النَّار عدلًا مِنه**"، وهذا يُبَيِّنُ عظيم حِكْمَة الله تعالى في كونه سبحانه يَمُدّ مَن سعى للخير بفضلٍ منه، وله منه تعالى مزيد عنايةٍ، وجميل وَلاية، وهذا كله مبنيٌّ مع فضل الله تعالى على أمورٍ وأسبابٍ؛ كما قال تعالى في صرفه عن يوسف عَزَّوَجَلَّ: ﴿كَذَٰلِكَ لِنَصۡرِفَ عَنۡهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلۡفَحۡشَآءَۚ إِنَّهُۥ مِنۡ عِبَادِنَا ٱلۡمُخۡلَصِينَ﴾ [سورة يوسف، من الآية:٢٤]؛ فبين سبحانه أن إخلاصه كان سببًا في مزيد عناية الله تعالى به، وصرفه السوء والفحشاء عنه؛ فهو سبحانه يثبت من شاء لما علِم منه، ولحِكَمٍ باهرة تخفى كثيرها علينا، ويتجلَّى بعضها لنا، قال الله تعالى: ﴿وَلَوۡلَآ أَن ثَبَّتۡنَٰكَ لَقَدۡ كِدتَّ تَرۡكَنُ إِلَيۡهِمۡ شَيۡـٔٗا قَلِيلًا﴾ [سورة الإسراء، من الآية:٧٤]، فالله تعالى يوالي أولياءه، ويعينهم، ولا يعين أعداءه، ويكلهم وعملهم، وما سعوا له.

ومعنى "**فضلًا منه**" أي تكرُّمًا، وإحسانًا، وزيادة من الكريم سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ، على الحاجة أو المطلوب.

و(**الفضلُ**) في الاصطلاح: الإحسانُ ابتداءً بلا علّة، ولا سببٍ.

وفضلُ الله تعالى ينقسمُ إلى قسمين:

القسم الأوّل: فضلُ الله بمعنى خلقهم وإيجادهم، وإعطائهم النعم، وما زاد عن المعتاد، والأمر الزائد من حاجات الدّنيا، وما يكون فيها من متاعٍ مباحٍ، وهذا عام للعالمين، وللناس أجمعين، وليس مختصًا بالمؤمنين، قال الله تعال:

﴿وَجَعَلْنَآ ءَايَةَ ٱلنَّهَارِ مُبْصِرَةً لِّتَبْتَغُواْ فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ﴾ [سورة الإسراء، من الآية:١٢]، وقال تعالى: ﴿فَإِذَا قُضِيَتِ ٱلصَّلَوٰةُ فَٱنتَشِرُواْ فِي ٱلْأَرْضِ وَٱبْتَغُواْ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ وَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [سورة الجمعة، من الآية:١٠]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ﴾ [سورة البقرة، من الآية:٢٤٣]، وقال تعالى: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [سورة البقرة، من الآية:٢٥١].

وهذا الفضلُ وما بعده يتفاوت النّاس فيه تفاوتًا عظيمًا؛ لحكمة بالغة، قال الله تعالى: ﴿وَلَا تَتَمَنَّوْاْ مَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بِهِۦ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا ٱكْتَسَبُواْ وَلِلنِّسَآءِ نَصِيبٌ مِّمَّا ٱكْتَسَبْنَ وَسْـَٔلُواْ ٱللَّهَ مِن فَضْلِهِۦٓ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا﴾ [سورة النساء، من الآية:٣٢]، وقال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ فَضَّلَ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ فِي ٱلرِّزْقِ﴾ [سورة النحل، من الآية:٧١].

القسم الثّاني: فضلُ الله بمعنى إكرامُه، وثوابه، والأمر الّذي يؤدي إلى الرفعة عنده، وإلى رضاه، وإلى الجنّة، وهذا فضلٌ خاصٌّ للمؤمنين؛ كما في قوله تعالى: ﴿وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ بِأَنَّ لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ فَضْلًا كَبِيرًا﴾ [سورة الأحزاب، من الآية:٤٧]، وقال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [سورة البقرة، من الآية:١٥٢]، وقال تعالى: ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ تَرَىٰهُمْ رُكَّعًا

﴿سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا﴾ [سورة الفتح، من الآية:٢٩]، وقال تعالى: ﴿سَابِقُوٓاْ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ﴾ [سورة الحديد، من الآية:٢١]، وهذا الفضلُ يُطلب بعدة أمورٍ:

الأمر الأوّل: يُطْلَبُ فضلُ الله تعالى بالعبادات الّتي شرعها؛ فهي كلها فضلٌ، وتُؤَدِّي إلى فضلٍ؛ وشرعه كله فضلٌ من الله تعالى ورحمةٌ، ولهذا قال تعالى: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ ٱلْإِيمَٰنَ وَزَيَّنَهُۥ فِى قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ ٱلْكُفْرَ وَٱلْفُسُوقَ وَٱلْعِصْيَانَ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلرَّٰشِدُونَ ﴿٧﴾ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَنِعْمَةً وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ [سورة الحجرات، من الآية:٧-٨]، وقال تعالى: ﴿فَضَّلَ ٱللَّهُ ٱلْمُجَٰهِدِينَ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ عَلَى ٱلْقَٰعِدِينَ دَرَجَةً وَكُلًّا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْحُسْنَىٰ وَفَضَّلَ ٱللَّهُ ٱلْمُجَٰهِدِينَ عَلَى ٱلْقَٰعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٩٥﴾ دَرَجَٰتٍ مِّنْهُ وَمَغْفِرَةً وَرَحْمَةً وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ [سورة النساء، من الآية:٩٥-٩٦].

الأمر الثّاني: يُطْلَبُ فضلُ الله تعالى في الأماكن الفاضلة الّتي شرع الله تعالى فيها العبادات، كمكة، وعرفات، والمشعر الحرام، قال الله تعالى: ﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَبْتَغُواْ فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ فَإِذَآ أَفَضْتُم مِّنْ عَرَفَٰتٍ فَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ عِندَ ٱلْمَشْعَرِ ٱلْحَرَامِ وَٱذْكُرُوهُ كَمَا هَدَىٰكُمْ وَإِن كُنتُم مِّن قَبْلِهِۦ لَمِنَ ٱلضَّآلِّينَ﴾ [سورة البقرة، من الآية:١٩٨]،

وقوله تعالى: ﴿وَلَآ ءَآمِّينَ ٱلْبَيْتَ ٱلْحَرَامَ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّن رَّبِّهِمْ وَرِضْوَانًا﴾ [سورة المائدة، من الآية:٢].

الأمر الثّالث: يُطلَب فضلُ الله تعالى بالوقاية من عقابه، وعذابه، وناره، قال الله تعالى: ﴿وَوَقَىٰهُمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ ۝٥٦ فَضْلًا مِّن رَّبِّكَ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾ [سورة الدخان، من الآية:٥٦-٥٧].

الأمرُ الرّابع: يُطْلَبُ فضل الله تعالى بالدعاءِ؛ فليس من قال لأكرم الأكرمين: أسألك من فضلِك؛ كمن أهمل، قال الله تعالى: ﴿وَسْـَٔلُوا۟ ٱللَّهَ مِن فَضْلِهِۦٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا﴾ [سورة النساء، من الآية:٣٢].

والتفضيلُ من الله تعالى بيِّنٌ جليٌّ، سواءٌ من حيث الأمر الكوني، أو من حيث الأمر الشّرعيّ، وسواءٌ من حيث الأجناس، أو من حيث الأوصاف؛ فقد فضَّل جنسَ ابن آدم على غيرهم؛ كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِىٓ ءَادَمَ وَحَمَلْنَٰهُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا﴾ [سورة الإسراء، من الآية:٧٠]، وفضَّل المؤمنين مِن نوعهم، وفضَّل مِن نَوْعِهم الأنبياءَ بأشخاصهم وأعيانهم، هذا من حيث الأجناس والأنواع والأعيان.

وأما من حيث الأوصافِ؛ فالله سبحانه فضَّل أصحاب الخُلُقِ على غيرهم، وفضَّل بعض الأخلاق على بعضٍ.

ومن حيث المكان فقد فضل بعض الأماكن على بعضٍ؛ ففضل مكة على غيرها، وجعل للمدينة فضيلة، وللقدس قدسية، وللمساجد منزلة، ولمواضع السجود شرفًا.

ومن حيث الزمان فقد فضَّل بعض الأزمان على بعضٍ؛ ففضَّل الجمعة من الأيام زمانا، وفضَّل عرفات، وفضَّل ليلة القدرِ على سائر الليالي، وفضَّل العيدين، وفضَّل قرآن الفجر، وهكذا.

فمن أثابه الله تعالى فبفضله تعالى، ولفضله عليه، وإن أدخل عبدًا الجنّة فبفضله تعالى، ولفضله تعالى، ﴿وَسۡـَٔلُواْ ٱللَّهَ مِن فَضۡلِهِۦٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٗا﴾ [سورة النساء، من الآية:٣٢]؛ فنسأل الله الكريم أن يمنَّ علينا بفضله بعافيته، ورضوانه، ودخول جنانه، إنه ولي ذلك والقادر عليه.

وجاء في حديث أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَنِ النّبيّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قَالَ: **"مَنْ آمَنَ بِاللهِ وَرَسُولِهِ، وَأَقَامَ الصَّلاَةَ، وَصَامَ رَمَضَانَ، كَانَ حَقًّا عَلَى اللهِ أَنْ يُدْخِلَهُ الجنّة، هَاجَرَ فِي سَبِيلِ اللهِ، أَوْ جَلَسَ فِي أَرْضِهِ الّتي وُلِدَ فِيهَا"**.

قَالُوا: يَا رَسُولَ اللهِ، أَفَلاَ نُنَبِّئُ النّاس بِذَلِكَ؟

قَالَ: **"إِنَّ فِي الجنّة مِائَةَ دَرَجَةٍ، أَعَدَّهَا اللهُ لِلْمُجَاهِدِينَ فِي سَبِيلِهِ، كلّ دَرَجَتَيْنِ مَا بَيْنَهُمَا كَمَا بَيْنَ السّماء وَالأَرْضِ، فَإِذَا سَأَلْتُمُ اللهَ فَسَلُوهُ الفِرْدَوْسَ، فَإِنَّهُ أَوْسَطُ الجنّة، وَأَعْلَى الجنّة، وَفَوْقَهُ عَرْشُ الرَّحْمَنِ، وَمِنْهُ تَفَجَّرُ أَنْهَارُ الجنّة"** [رواه

البخاري]؛ فنسأل اللهُ الفردوسَ الأعلى، لنا، ولوالدينا، ولمشايخنا، ولتلامذتنا، ولمحبينا، ولمن له حقٌّ علينا.

وَمَعْنَى قول المصنّف رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "**عَدْلًا منه**": أَيْ إنصافًا من الله تعالى، فهو يعطيهم ما لهم ويأخذُ ما عليهم، ومن عدلِه تعالى إعطاؤه الجزاء الْمُسْتَحَقّ لِمَنْ يَسْتَحِقّ؛ فلا يُدخِل أحدًا النّار إلا إذا كان يستحق ذلك، وهذا من تمام العدل، فإقامة العقوبة عدلٌ في حقِّ الظالمين، وإهمال مؤاخذة الظالمين هضمٌ بالنسبة للمظلومين، والله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ لا يُمْكِن أن يترك حقَّ آدميٍّ؛ كما أنه سبحانه لا يغفر الشرك مِن حقوقه الخاصة، وبينهما أمورٌ هي تحت مشيئة الله تعالى.

و(**العَدْلُ**) يأتي في القرآن بمعنى (الفِدَاء)؛ كما في قوله تعالى: ﴿وَٱتَّقُواْ يَوْمًا لَّا تَجْزِى نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْـًٔا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا عَدْلٌ﴾ [سورة البقرة، من الآية:١٢٣]، ويأتي بمعنى (المِثْل) قال تعالى: ﴿أَوْ عَدْلُ ذَٰلِكَ صِيَامًا﴾ [سورة المائدة، من الآية:٩٥].

فعندما يعاقب الله تعالى الكافرين فذلك من تمام عدله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ، وهو متضمن لعزته سبحانه من جهة قدرته وعظمته، ومتضمن لرحمته بالمؤمنين من جهة أخرى؛ فلم يجعل أعداءه كأوليائه، ولا عابديه كعبيده، ولا مطيعه كعاصيه؛ ولهذا نجد أن الله تعالى يختم بعد قصة إهلاك الكافرين وإنجاء المؤمنين بقوله تعالى: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [سورة الشعراء، من الآية:٩].

والعدلُ الّذي يعامل الله تعالى به الخلق من تمام كماله سبحانه، ولهذا يُنفى عنه الظلم بجميع أنواعه؛ كما سيأتي.

وبهذا يتبين أن الله تعالى عَدْلٌ لا يجورُ؛ فلا يعاقِبُ عبدًا بغير استحقاق منه العقوبةَ، ولكنه يجازي كلّ نفسٍ بما كسبت، ويُوَفّي كلّ عامل جزاء ما عمل، وهذا من عدله تَبَارَكَ وَتَعَالَى؛ فلم يكن الله تعالى بمعاقبٍ ظلمًا، وذلك لأنه تعالى ليس ظالِمًا، ولا واضعًا عقوبته في غير أهلها؛ وكذلك هو جل ثناؤه، غيرُ ظَلَّامٍ أحدًا مِن خلقه، ولكنه العادل بينهم، والمتفضل على جميعهم بما أحبّ من فَوَاضله ونِعمه.

وفضلُ الله تعالى عظيمٌ، وعظمة فضلِ الله تعالى من جميع جهاته، قال الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿وَٱللَّهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ﴾ [سورة البقرة، من الآية:١٠٥].

وفضلُ الله تعالى كبيرٌ، وكُبْرُ عظمة فضلِ الله تعالى من جميع جهاته، قال الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَاۖ فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌۢ بِٱلْخَيْرَٰتِ بِإِذْنِ ٱللَّهِۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْكَبِيرُ ٣٢ جَنَّٰتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًاۖ وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ﴾ [سورة فاطر، من الآية:٣٢-٣٣].

والفضلُ كله على الحقيقة بيد الله تعالى؛ كما قال سبحانه: ﴿قُلۡ إِنَّ ٱلۡفَضۡلَ بِيَدِ ٱللَّهِ يُؤۡتِيهِ مَن يَشَآءُۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٞ ٧٣ يَخۡتَصُّ بِرَحۡمَتِهِۦ مَن يَشَآءُۗ وَٱللَّهُ ذُو ٱلۡفَضۡلِ ٱلۡعَظِيمِ﴾ [سورة آل عمران، من الآية:٧٣-٧٤].

ومِنْ صورِ فضله وعدله:

الصّورة الأولى: إيجاده الإنسان تامَّ الخلقة فضلٌ، وإيجاده الإنسانَ ناقصَ الخلقة عدلٌ.

الصّورة الثّانية: إعانةُ اللهِ تعالى المؤمنين فضلٌ، وتركُ اللهِ تعالى الكافرين وما أرادوا عدلٌ.

الصّورة الثّالثة: مَنْعُ الله تعالى، وإحالته بين المؤمن والمعصية فضلٌ، وإهانةُ اللهِ تعالى العاصي بعصيانه، وعقابه، وكشف سَتْرِه عدلٌ.

الصّورة الرّابعة: توبةُ الله تعالى على التائبين فضلٌ، وعدم هدايته المضلين عدلٌ.

الصّورة الخامسة: مغفرةُ الله تعالى للعصاة ابتداءً، وإدخالهم الجنّة فضلٌ، ومؤاخذة الله تعالى للعصاة، وإدخالهم النّار عدلٌ.

الصّورة السّادسة: إكرامُ الله تعالى المؤمنين بدخول الجنان فضلٌ، وتعذيب الكافرين بالنّار عدلٌ.

وكل ما في الكون من الأمور التكوينية، ومن الأمور الشّرعية؛ فهي دائرة بين الفضل والعدلِ؛ فما من مخلوقٍ إلا وهو يدور بين فضل الله تعالى وعدله، ولا خروج لأحدٍ عن هذا، لا من جهة الرب العزيز الحكيم سبحانه، ولا من جهة العبد العاجز الفقير إلى الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

وخلاصة كلام المصنّف رَحِمَهُ ٱللَّهُ: أن الجنّة والنّار موجودتان، ومخلوقتان الآن، وأنهما خلقتا للتأبيد لا للفناءِ، وأنهما موجودتان قبل خلق المكلَّفين، وأنّ الله تعالى عِلِمَ أهلَ الجنّة وأهلَ النّار، وأنَّ من يدخل الجنّة فذلك بفضلِ الله تعالى، وأنَّ من يدخل النّار فذلك بعدلِ الله تعالى.

[أفعال العباد مخلوقة لله تعالى وهي من كسبهم]

وَكُلٌّ يَعْمَلُ عَلَى مَا فُرِغ مِنْهُ، وَصَائِرٌ إِلَى مَا خُلِقَ لَهُ، وَالْـخَيْرُ وَالشَّرُّ مُقَدَّرَانِ عَلَى الْعِبَادِ، وَالْاِسْتِطَاعَةُ ضَرْبَانِ؛ أَحَدُهُـمَا: اَلْاِسْتِطَاعَةُ الَّتِي يُوجَدُ بِـهَا الْفِعْلُ، مِنْ نَـحْوِ التَّوْفِيقِ -الَّذِي لَا يَـجُوزُ أَنْ يُوصَفَ الْمَخْلُوقُ بِهِ- فَهِيَ مَعَ الْفِعْلِ تَكُونُ. وَأَمَّا الْاِسْتِطَاعَةُ مِنْ جِهَةِ الصِّحَّةِ، وَالْوُسْعِ، وَالتَّمَكُّنِ، وَصِحَّةِ الْآلَاتِ؛ فَهِيَ قَبْلَ الْفِعْلِ، وَبِـهَا يَتَعَلَّقُ الْـخِطَابُ، وَهُوَ كَمَا قَالَ عَزَّ مِنْ قَائِلٍ: ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ [سورة البقرة، من الآية:٢٨٦]، وَأَفْعَالُ الْعِبَادِ خَلْقُ اللهِ تَعَالَى، وَكَسْبٌ مِنَ الْعِبَادِ.

﴿ الشرح ﴾

هذا تقرير من المصنف رَحِمَهُ ٱللَّهُ مرة أرى لمسائل الإيمان بالقدر، وأن من توابع ذلك اليقين بأنّ الله تعالى علِم ما الخلق عاملون، وإلى أي شيءٍ يسيرون، وأن الخير والشرّ كل ذلك مقدرٌ، وأن الله تعالى جعل للعبد قدرة بها يقدر على الفعلِ، وعلى ذلك المؤاخذة والإثابة.

قوله: "**وكل يعمل لما قد فرغ له...**" هذه المسألة هي تابعة لمسائل الركن السادس من أركان الإيمان، ركن الإيمان بالقدرِ، وقد سبقت الإشارة إلى ذلك عند قول المصنّف رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "**وكلٌّ ميسَّرٌ لما خلق له**".

والمعنى: أنَّا نقرّ ونؤمن بأنَّ الله تعالى قد علِم أهل الجنّة بأسمائهم وأوصافهم، وأن الخلق إنما يعملون في أمرٍ قد عُلِم، وفي شأنٍ قد تم الفراغُ منه.

و "**فُرِغَ له**" أي انتهى منه؛ فيكون اللام في (له) بمعنى (منه)، ويحتمل أن يكون معنى قوله: "**فُرِغَ له**" أي هُيِّءَ له ثوابه وعقابه، فهو فارغٌ له أي منصرِفٌ إليه ليحاسبه؛ وعلى هذا التوجيه يكون معنى كلام المصنّف كقوله تعالى: ﴿سَنَفْرُغُ لَكُمْ أَيُّهَ ٱلثَّقَلَانِ﴾ [سورة الرحمن، من الآية:٣١]؛ أي سنفرغُ لكم مِن وعْدنا الّذي وعدناكم من الثواب والعقاب.

فكلٌّ "**صائرٌ إلى ما خُلِقَ له**"؛ فليس أحدٌ إلّا وقد علم مقعده من الجنّة أو النّار، وذلك كله لعظيم علمه سُبْحَانَهُۥوَتَعَالَىٰ، ولشمول علمه، ولكمال علمه.

و "**صائرٌ**" ذاهبٌ الأمورُ إلى مصائرها، و(**الصّيرورة**): تحوُّلُ الشيء إلى شيءٍ، وهو تحوُّلُ النّاس من طوَرٍ إلى طورٍ في الأمر الكوني، ومن طورٍ إلى طورٍ في أفعالهم، وصفاتهم، فهم يصيرون وَفق خلقِ الله تعالى لهم، وإقدارهم عليه.

ومعنى "**مَا خُلِقَ لَهُ**" أي الّذي خُلِق له، وذلك في وظيفته؛ فالعبيد مخلوقون للعبودية، وكلّ ميسرٌ لما يُطلب منه، وكلّ يصير إلى ما علم الله تعالى منه؛ فصيرورة العبيد من جهة الخلق، وَفقَ العلم الحقِّ الّذي علمه الخالق تعالى منهم.

وهذا هو معنى قول الله تعالى: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَٱتَّقَىٰ ۝٥ وَصَدَّقَ بِٱلْحُسْنَىٰ ۝٦ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْيُسْرَىٰ ۝٧ وَأَمَّا مَنۢ بَخِلَ وَٱسْتَغْنَىٰ ۝٨ وَكَذَّبَ بِٱلْحُسْنَىٰ ۝٩ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْعُسْرَىٰ﴾ [سورة الليل، من الآية:٥-١٠]؛ فلما أراد منهم العبادة هيَّأهم لذلك، وخلقهم كذلك، ويسر لهم ذلك، مع علمه بمن يخالف، ومَن يؤالِف.

وهذا المعنى جاء في الحديث الّذي سبق ذكره، وفيه: "**اعْمَلُوا، فَكُلٌّ مُيَسَّرٌ لِمَا خُلِقَ لَهُ**".

فكل شيءٍ يصير على العباد، ويصير العباد إليه؛ فهو مما علمه الله تعالى، وقدر ذلك سبحانه، ولم يجبرهم على الإيمان، ولم يلزمهم إلزام غصبٍ وقهرٍ، وإلا فهو سبحانه قادر على ذلك؛ كما قال تعالى: ﴿لَعَلَّكَ بَٰخِعٞ نَّفۡسَكَ أَلَّا يَكُونُواْ مُؤۡمِنِينَ ۝٣ إِن نَّشَأۡ نُنَزِّلۡ عَلَيۡهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ءَايَةٗ فَظَلَّتۡ أَعۡنَٰقُهُمۡ لَهَا خَٰضِعِينَ﴾ [سورة الشعراء، من الآية:٣-٤].

فكل شيءٍ في الوجود فإنما هو بإيجاده سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ له، وبعلمه تعالى، وبتقديره، ومشيئته جَلَّ وَعَلَا.

"**والخير والشر مقدران على العباد**"، أي ونؤمن ونقرُّ بأن كلّ شيءٍ يجري على العباد فهو مُقَدَّرٌ على العباد.

و "**الخير**" الحسَنُ لذاته، وما يؤدي إلى نفعٍ بلا ضررٍ، ويوصلُ إلى سعادةٍ بلا ظُلمٍ ولا غرر، ومِن مرادفاته؛ الحُسْنُ، والْحَسَنُ، والصَّلَاحُ والصَّالِحُ، ويقابل الشَّرَّ والقبيح والسَّيِّء.

والخيرُ ينقسم إلى أقسامٍ:

القسم الأول: الخيرُ المحضُ، ككلام الله تعالى، وأفعاله، وتشريعه لدينِه، وهكذا رُسُله وأنبياؤه، وأولياؤه وملائكته، وهكذا ثوابه، ورضوانه، والجنّة، قال الله تعالى: ﴿وَلَلدَّارُ ٱلۡأٓخِرَةُ خَيۡرٞ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ﴾ [سورة الأنعام، من الآية:٣٢].

القسم الثاني: الخيرُ الغالبُ، وهذا يوجدُ في شرعِ الله تعالى، وفي عباده تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ، وأمثلته كثيرة، ومنها: فِعْلُ العبدِ للصلاة فإنها خيرٌ غالبٌ، وما يترتب عليه من شَرٍّ فهو يسير لا يكاد يُذكَر؛ كوضوئه في البرد والحر، وذهابه إلى الصلاة في هذين الوصفين المُضِرَّين، ونحوُ ذلك في الصيام، والزكاة، والحج، قال الله تعالى: ﴿وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ ۚ وَمَا تُقَدِّمُوا۟ لِأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ ٱللَّهِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ [سورة البقرة، من الآية:١١٠]، وقال سبحانه: ﴿فَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُۥ ۚ وَأَن تَصُومُوا۟ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [سورة البقرة، من الآية:١٨٤].

ومن أمثلة هذا النوع في عبادِ الله تعالى خيرية هذه الأمة؛ فإنها غالبة على شرها وسُوؤِها، قال الله تعالى: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ﴾ [سورة آل عمران، من الآية:١١٠].

ومن هذا النوعِ خيرية مادة التّراب على مادة النّار، وهذه الّتي غالط فيها إبليسُ، وزعم أنه خيرٌ من آدم عَزَّوَجَلَّ، قال الله تعالى: ﴿قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ ۖ قَالَ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِى مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ﴾ [سورة الأعراف، من الآية:١٢].

ومثل هذا الزعم وقريبٌ منه ما ادعاه فرعونَ لنفسه على موسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، قال الله تعالى: ﴿وَنَادَىٰ فِرْعَوْنُ فِى قَوْمِهِۦ قَالَ يَٰقَوْمِ أَلَيْسَ لِى مُلْكُ مِصْرَ وَهَٰذِهِ ٱلْأَنْهَٰرُ تَجْرِى مِن تَحْتِىٓ ۖ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٥١﴾ أَمْ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْ هَٰذَا ٱلَّذِى هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ

يُبِينُ ﴾ [سورة الزخرف، من الآية:٥١-٥٢].

القسم الثالث: الخيرُ مِن وَجْهٍ دون وجهٍ، وهذا القسم لا يَشْرَعه الله تعالى إلا ما كان على وجه الخير، ولا يشرع منه ما يكون منه على وجه الشرِّ، ومثاله؛ الجهادُ؛ فهو خيرٌ من وجه كونه نصرًا للحقِّ، ودحضًا للباطل، فشُرِع لهذا الغرضِ، ولهذا المقصد فحسب، قال الله تعالى: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ ۖ وَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [سورة البقرة، من الآية:٢١٦].

هكذا العبدُ المؤمن أو الأمة المؤمنة خيرٌ من الحرِّ المشرك أو الحرة المشركة، ولو كان الثاني أعجبُ إلينا من جهة الجمال أو المال، أو الحال؛ لكن الأول خيرٌ من جهة الإيمان، ومن جهة المكانة عند الرحمن، ومن جهة حسن المآل، ولهذا قال تعالى: ﴿وَلَا تَنكِحُوا۟ ٱلْمُشْرِكَٰتِ حَتَّىٰ يُؤْمِنَّ ۚ وَلَأَمَةٌ مُّؤْمِنَةٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكَةٍ وَلَوْ أَعْجَبَتْكُمْ ۗ وَلَا تُنكِحُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ حَتَّىٰ يُؤْمِنُوا۟ ۚ وَلَعَبْدٌ مُّؤْمِنٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكٍ وَلَوْ أَعْجَبَكُمْ ۗ أُو۟لَٰٓئِكَ يَدْعُونَ إِلَى ٱلنَّارِ ۖ وَٱللَّهُ يَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱلْجَنَّةِ وَٱلْمَغْفِرَةِ بِإِذْنِهِۦ ۖ وَيُبَيِّنُ ءَايَٰتِهِۦ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ [سورة البقرة، من الآية:٢٢١].

ومتى ما استقر أن هناك خيرٌ فلا بد وأن ندرك أن الخير يتفاوت؛ فهناك خيرٌ وهناك أخير، أو هناك خيرٌ من وجهٍ، وهناك خيرٌ غالبٌ، وهناك خيرٌ محضٍ، قال الله تعالى: ﴿إِن تُبْدُوا۟ ٱلصَّدَقَٰتِ فَنِعِمَّا هِىَ ۖ وَإِن تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا

ٱلْفُقَرَآءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْۚ وَيُكَفِّرُ عَنكُم مِّن سَيِّـَٔاتِكُمْۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ [سورة البقرة، من الآية:٢٧١]، وقال تعالى: ﴿وَلَئِن قُتِلْتُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَوْ مُتُّمْ لَمَغْفِرَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَحْمَةٌ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾ [سورة آل عمران، من الآية:١٥٧].

"والشَّرُّ" السِّيِّئُ في ذاته، وما يؤدي إلى السوء والفساد، وإيقاع الضررِ بالعباد أو البلادِ، ويوصل إلى تعاسةٍ وظلمٍ، وإلى منكرٍ وخديعة وغمٍّ، وهو ما يقابل الخيرَ والحُسْن والحَسَن.

ويُجْمَعُ (**الشَّرُّ**) على شرورٍ في الأوصافِ؛ فتقول: فلان اجتمع فيه (**الشرور**)، ويُجمع على (أشرارٍ، وشِرَارٍ) في الأعيانِ؛ فتقول: فلانٌ مِن أشرار النّاس وشِرارِهم، قال الله تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ مَا لَنَا لَا نَرَىٰ رِجَالًا كُنَّا نَعُدُّهُم مِّنَ ٱلْأَشْرَارِ﴾ [سورة ص، من الآية:٦٢].

والشّرُّ ينقسم من الناحية العقلية إلى أقسامٍ:

القسم الأوّل: الشَّرُّ المحضُ، وهذا لا وجود له في أفعال الرب تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ، ولا في كلامه، ولا في شرعه، وإنما يوجد هذا في مفعولات عبيده؛ كالشرك، والكفر، والقتل، ونحو ذلك.

القسم الثّاني: الشَّرُّ الغالبُ، وهذا يوجد في مفعولات العبيدِ؛ مثلُ الرِّبَا، وشرب الخمرِ، والزنا، ونحو ذلك.

وهذا القسم أيضًا مُتَصَوَّرٌ في كلّ بدعةٍ؛ فإنَّ البدع شرها غالبٌ؛ ولهذا لم

يشرعها الله تعالى، وإنما شرعها المبتدعة، قال الله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلنَّسِيٓءُ زِيَادَةٞ فِي ٱلۡكُفۡرِۖ يُضَلُّ بِهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُحِلُّونَهُۥ عَامٗا وَيُحَرِّمُونَهُۥ عَامٗا لِّيُوَاطِـُٔواْ عِدَّةَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ فَيُحِلُّواْ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُۚ زُيِّنَ لَهُمۡ سُوٓءُ أَعۡمَٰلِهِمۡۗ وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾ [سورة التوبة، من الآية:٣٧]، وقال تعالى: ﴿أَفَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ فَرَءَاهُ حَسَنٗاۖ فَإِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهۡدِي مَن يَشَآءُ﴾ [سورة فاطر، من الآية:٨].

وأما أمثلة ذلك في العبيد فكثيرة جدا، قال الله تعالى عن قوم لوط: ﴿إِنَّهُمۡ كَانُواْ قَوۡمَ سَوۡءٖ فَٰسِقِينَ﴾ [سورة الأنبياء، من الآية:٧٤]، وقال تعالى عن قوم نوحٍ: ﴿إِنَّهُمۡ كَانُواْ قَوۡمَ سَوۡءٖ فَأَغۡرَقۡنَٰهُمۡ أَجۡمَعِينَ﴾ [سورة الأنبياء، من الآية:٧٧]، ولما كان شرُّهم غالبًا استحقوا دار السَّوء، قال الله تعالى عن الظالمين: ﴿وَيَوۡمَ يَقُومُ ٱلۡأَشۡهَٰدُ ٥١ يَوۡمَ لَا يَنفَعُ ٱلظَّٰلِمِينَ مَعۡذِرَتُهُمۡۖ وَلَهُمُ ٱللَّعۡنَةُ وَلَهُمۡ سُوٓءُ ٱلدَّارِ﴾ [سورة غافر، من الآية:٥١-٥٢].

القسم الثّالث: الشَّرُّ مِن وجهٍ دونَ وجهٍ، وهذا يوجد في أفعال الرَّبِّ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ، ويوجد في مفعولاته تعالى، وفي مفعولات عبيده.

ومن أمثلة ذلك في أفعالِه خَلْقُ الله تعالى لإبليس فهو شرٌّ مِن وجهِ إغوائه وإضلاله، وليس بشرٍّ مِن وجهِ أنه به يتم الابتلاء، ويتميز الصادقين من الأدعياء.

وهكذا عقابُ الله تعالى الكافرين بالنّار؛ فهو شرٌّ من وجه تعذيبهم، وما يقع عليهم من العقاب، وهو ليس بشر من جهة استحقاقهم، ومن جهة إكرام المؤمنين بتعذيب أعدائهم، قال الله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهۡدَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعۡدِ مِيثَٰقِهِۦ وَيَقۡطَعُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيُفۡسِدُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱللَّعۡنَةُ وَلَهُمۡ سُوٓءُ ٱلدَّارِ﴾ [سورة الرعد، من الآية:٢٥].

وكذلك أمثلة هذا النوع في مفعولات العبيد كثيرة جدًّا، ولا يكاد يخلو منه عبدٌ من العبيد في أفعاله، وأوصافه، ومثال ذلك: التوريةُ؛ فهو شرٌّ من جهة مشابهته اللفظية الخبرية للكذب، وليس بشرٍّ من جهة ما يترتب عليه من ترك الكذب الصريح.

وهنا لا بد من التنبيه أن الشيء قد يكون شرًّا في نفسه، وشرًّا من جهة، وخيرًا من جهة، ومثال ذلك الإفْكُ والقذفُ فهو شَرٌّ محضٌ من جهة نَفْسِه، وشَرٌّ من جهة ما وقع من الضرر على المقذوفِ، وخيرٌ من جهة ما يترتب عليه من الثواب، ورفع الدرجات عند الوهابِ، قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ جَآءُو بِٱلۡإِفۡكِ عُصۡبَةٞ مِّنكُمۡۚ لَا تَحۡسَبُوهُ شَرّٗا لَّكُمۖ بَلۡ هُوَ خَيۡرٞ لَّكُمۡۚ﴾ [سورة النور، من الآية:١١].

والمقصود أن الخير كله والشر كله إنما يجري بخلقِ الله تعالى، سواء كان هذا الخلقُ بالمباشرة، أو بالسببية، وسواء كان الخلقُ للعبيد أو لأفعالهم، فكل خيرٍ وشرٍّ يكون بأمر اللهِ تعالى الكوني، فكلُّ شيء مخلوقٌ لله تعالى، العبيدُ وأفعالهم،

قال الله تعالى: ﴿قُلِ ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَيۡءٖ وَهُوَ ٱلۡوَٰحِدُ ٱلۡقَهَّٰرُ﴾ [سورة الرعد، من الآية:١٦]؛ فليس شيءٌ في الوجود إلا والله تعالى خالقه، ولا يجري في ملك الله تعالى إلا ما يكون بتقديره، وبقضائه.

وكلٌّ من الخير والشّرّ: **"مُقَدَّرَانِ على العباد"**؛ فلا يكونُ في ملكوت الله تعالى إلا ما هو مُقَدَّرٌ بتقديره تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ، سواء ما تعلق بالعبيد أنفسهم، أو ما تعلق بأحوالهم، أو ما تعلق بمجريات أعمالهم، أو ما تعلق بمجريات ما حولهم؛ فكل شيءٍ في السّماء أو الأرضِ، أو في الشَّكْل، بتقدير الله تعالى، قال سبحانه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَخۡفَىٰ عَلَيۡهِ شَيۡءٞ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِ ٥ هُوَ ٱلَّذِي يُصَوِّرُكُمۡ فِي ٱلۡأَرۡحَامِ كَيۡفَ يَشَآءُۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ﴾ [سورة آل عمران، من الآية:٥-٦].

و **"العِبَادُ"** جمعٌ، ومفرده (عبدٌ)، ويجمع على (العبيد)، و(الأعبُد)، والمقصود بهم هنا المخلوقون؛ فكل شيء يجري في الكون فإنما هو بإذن الله تعالى، وتقديره، الّذي قدّره على عباده، ولا يجري في ملكه ما لا يشاؤه، قال الله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا بَيۡنَهُمَاۚ يَخۡلُقُ مَا يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ﴾ [سورة المائدة، من الآية:١٧]، وقال سبحانه مبينا أن كلّ ما جرى ليوسف عَزَّوَجَلَّ فهو بأمره؛ كما أخبر الكريم ابن الكريم؛ فقال: ﴿وَقَدۡ أَحۡسَنَ بِيٓ إِذۡ أَخۡرَجَنِي مِنَ ٱلسِّجۡنِ وَجَآءَ بِكُم مِّنَ ٱلۡبَدۡوِ مِنۢ بَعۡدِ أَن نَّزَغَ ٱلشَّيۡطَٰنُ بَيۡنِي وَبَيۡنَ إِخۡوَتِيٓۚ إِنَّ رَبِّي لَطِيفٞ لِّمَا يَشَآءُۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡعَلِيمُ ٱلۡحَكِيمُ ١٠٠ ۞ رَبِّ قَدۡ

﴿ءَاتَيْتَنِى مِنَ ٱلْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِى مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَنتَ وَلِىِّۦ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ تَوَفَّنِى مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِى بِٱلصَّٰلِحِينَ﴾ [سورة يوسف، من الآية:١٠٠-١٠١].

ومما يؤكد أنه لا يجري في ملك الله تعالى إلا ما شاءه ويشاؤه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ أنه سبحانه المالِكُ والْمَلِك، والقادرُ والقدير، والعليم والخبيرُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

ومن الإيمان بالقدر: اليقين بأن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ جعل للعبيد قدرة على الفعل، ومقدرة على الترك؛ فجعل للعباد **"الاستطاعة التي يجب بها الفعل"**؛ وهذا هو النوع الأول من أنواع الاستطاعة؛ فما من عبدٍ قُدِّر عليه شيءٌ إيجادًا أو تركًا إلا وعنده **"الاستطاعة"** وهي إطاقته وقدرته على الفِعْل أو الترك، فله القدرة على القيام بذلك أو عدم القيام بذلك.

وحتى يقوم العبد بما قُدِّرَ عليه مما هو داخل تحت أفعاله، ومما يجب به وجود الفعل أو عدمه؛ فالله تعالى أَقْدَرَ العباد على عِدَّة أمورٍ حتّى يتم لهم الفعل والترك؛ وبذلك يتمّ الابتلاء، ولولا ذلك لما تَمَّتِ المؤاخذة، وهذه الأمور هي:

الأمر الأوّل: الإرادة؛ فخلق للعباد إرادة بها يميزون؛ فلكل عبدٍ إرادة في الفعل والترك، ولهذا لم يؤاخذ المجنون لعدم الإرادة عنده، وعدم المقدرة على التمييز بين الفعل والترك، والخير والشر؛ فمنهم من يريد الخير؛ كما قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَرَادَ ٱلْءَاخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُو۟لَٰٓئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا﴾ [سورة الإسراء، من الآية:١٩]، ومنهم من يريد الشر؛ كما قال تعالى:

﴿يُرِيدُونَ أَن يُطْفِـُٔواْ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ وَيَأْبَى ٱللَّهُ إِلَّآ أَن يُتِمَّ نُورَهُۥ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَـٰفِرُونَ﴾ [سورة التوبة، من الآية:٣٢].

الأمر الثّاني: القدرة؛ فخلق للعباد قدرة بها يفعلون، ولم يؤاخذ الجمادات لعدم القدرة، ولا يؤاخذ العباد على ما لا يقدرون عليه؛ فأوجد لهم القدرة الذاتية، والقدرة الكسبية، والقدرة الآلية، قال الله تعالى: ﴿وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَءَاخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ ٱللَّهُ يَعْلَمُهُمْ وَمَا تُنفِقُواْ مِن شَيْءٍ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ﴾ [سورة الأنفال، من الآية:٦٠].

الأمر الثّالث: تهيئة ما حولهم؛ فخلق للعباد مجريات الأحوال الّتي بها يقدرون على الفعل والترك؛ فيسر لهم الأرزاق، ويسر لهم الكسب، ويسر لهم الليل والنهار، والبرد والصيف، كلّ ذلك من الاستطاعة الّتي بها يقدرون على الفعل والترك، قال الله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا﴾ [سورة البقرة، من الآية:٢٩]، وقال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَوْاْ أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُۥ ظَٰهِرَةً وَبَاطِنَةً﴾ [سورة لقمان، من الآية:٢٠].

الأمر الرّابع: الخلوُّ من الموانع؛ فأخلى ما حولهم من الموانع، حتّى يقدر العباد على الفعل أو الترك؛ وإذا ما وجد مانعٌ فإنهم لا يؤاخذون، قال الله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ

يَسۡتَغۡفِرُونَ﴾ [سورة الأنفال، من الآية:٣٣].

وهذه الأمور كلها تدل على أن الله تعالى أقدر العباد على الفعل والترك، وأنه إنما أوجب عليه ذلك؛ لأنه أقدر عليه؛ ولا يمكن أن يوجب عليه شيئًا لا يقدر على فعله، ولا يصح عقلًا ولا شرعًا أن يوجب عليه ترك شيء وهو لا يقدر على تركه، قال الله تعالى: ﴿وَلَوۡ أَنَّهُمۡ فَعَلُواْ مَا يُوعَظُونَ بِهِۦ لَكَانَ خَيۡرٗا لَّهُمۡ وَأَشَدَّ تَثۡبِيتٗا﴾ [سورة النساء، من الآية:٦٦].

فالإرادةُ، والقدرةُ، وتهيئة المجريات، وخلو الموانع، كلّ ذلك من الاستطاعة الّتي جعلها الله تعالى للعباد، وهي مِن فِعْلِ الله تعالى، وخلقه، وبذلك وجب على العباد الفعلُ والترك، وكلّ ما سبق فهو محضُ فضلٍ من الله تعالى على العباد.

وأما كون العبدِ يُوَفَّقُ لِلْفِعْلِ أو للترك؛ فهذا **"مِن نحو التوفيق"** أي من جِنْسِ ومثلِ التوفيق الّذي هو محضُ فعلِ الرب تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ، وهذا ليس فعلا للعبد.

و**"التوفيق"** سَدُّ طريق الشر، وتسهيل طريق الخير، وهو بمعنى هداية التوفيق، وهذا محضُ فِعْلِ الرَّبِّ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ، **"الذي لا يجوز أن يوصف المخلوق به"**، وذلك مِن خصائص الرب تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ؛ فقد يوجد عبدٌ عنده الأمور الّتي بها الاستطاعة، ولكن لا يُوفَّقُ لأي سببٍ من الأسباب، أو يعامل بالعدلِ لأي سبب من الأسباب، الراجعة إلى الحكيم الوهاب، قال الله تعالى: ﴿إِنَّكَ لَا تَهۡدِي

﴿مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ ۚ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ﴾ [سورة القصص، من الآية:٥٦]، وقال تعالى: ﴿إِن يُرِيدَآ إِصْلَٰحًا يُوَفِّقِ ٱللَّهُ بَيْنَهُمَآ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا خَبِيرًا﴾ [سورة النساء، من الآية:٣٥].

و(التّوفيق) يدخل فيه الإعانة، والتسديدُ، وإزالة الموانع، والترغيب في الخير، وهذا كلُّه لا حول للعبد إليه إلا بمعونةٍ من الله تعالى له، وبحولٍ وقوةٍ من الله تعالى له.

وهذا التوفيق والهداية وخَلْقُ الربِّ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ **"فهي مع الفعل"**، أي أنها تكون مصاحبة للفعل، ولا يكون موجودًا عند العبد قبل الفعل، وذلك لأنه ليس داخلا تحت إرادته وقوته؛ بل هو فعلٌ للرَّبّ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ، ولهذا يكون مع فِعل العبد؛ فإذا سعى العبدُ للخير وافقَه تيسيرُ الرب وإبعاده عن الشر، وإذا سعى العبدُ للشر وَجَد الخذلان والترك.

وهذا يدل على أن الفعلَ لا يكون إلا بسعيٍ من العبدِ، وتوفيقٍ من الرَّبّ، فالعبدُ يباشر الأسباب والخالق يخلق فعلَ العبدِ، ويجعل لمباشرته الأسباب نتائج وتأثيراتٍ وآثارٍ، وهذا كله إنما يكون مع الفعل.

وعلى هذا يتبين لنا أنَّ هناك أشياء موجودة قبل الفعلِ، وهي الإرادة، والقوة الكامنة، والقدرة، وآلة الفعل، والمباشرة.

وهناك أسبابٌ تكون موجودة وقت الفعل، وهي خلوّ الموانع، وخلقِ الله لفعل

العبد، وترتيب الأثر على الأسباب الّتي باشرها العبد.

إذن هناك: قوةٌ على الفعل + الفِعْل + خلوُّ الموانع = المفعول، والتأثير، والآثار.

فالفعلُ، وخلو الموانع، وإيجاد المفعول = هذه لا تكون قبل المباشرة، ولا توجد، وإنما تكون مع الفعل، وعنده.

"وأما الاستطاعة من جهة الصحة"، وهو النوع الثاني من أنواع الاستطاعة، **والمعنى**: وأما الإقدار على الفعل من ناحية **"الصحة"** في البدنِ، وهي: حالة طبيعية تجري أفعاله معها على المجرى الطبيعي، فهذه صفة موجودة قبل الفعل.

وكذلك **"الوسع"** وهو وَصْفٌ موجودٌ في العبد بمعنى الطّاقة، والقوّة، والْمَكَنَةُ.

"والتَّمْكِين" مَصْدرٌ مِن (مَكّنَ)، أي جعله (مُمَكَّنًا)، ومُقْتَدِرًا، ويشمل العلم، والقوة، والآلة، والسبب؛ كما قال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي ٱلْأَرْضِ﴾ [سورة يوسف، من الآية:٢١]، وقال تعالى: ﴿إِنَّا مَكَّنَّا لَهُۥ فِي ٱلْأَرْضِ وَءَاتَيْنَٰهُ مِن كُلِّ شَيْءٍ سَبَبًا﴾ [سورة الكهف، من الآية:٨٤].

فالعبدُ يسمَّى فاعلًا باعتبار صحته وقدرته ومكنته على الفعلِ، وباعتبار **"سلامة الآلات"**، وهي جمعُ (آلةٍ)، والمقصود بها: الأدوات الّتي يُنجَزُ بها

العملُ، وتساعد على ذلك، مثلُ العقلِ آلة التعقل، واليد آلة المباشرةِ، والرِّجْلُ آلة المشيء، ونحو ذلك.

"**وسلامة الآلات**"؛ كونها سليمة قوية قادرة على الفعل بها؛ فلا يكفي مجرد وجود اليد للمباشرة، ولا مجرد الرِّجْلِ للمشي؛ بل لا يمكن الاستفادة من الآلات إلا مع سلامتها مِن العيوبِ، ومن الموانع، مع قوة دافعة أو قوة قابلة على الفعل بها؛ "**فهي قبل الفعل**" أي أنها كامنة وموجودة في العباد قبل الفعلِ، ألا ترى أنَّ الله تعالى خلق الإنسان وجعل له الآلات ثم أمره ونهاه، قال الله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [سورة النحل، من الآية:٧٨].

فإذا وُجِدت الصحة، والوسعُ، والتمكين، وسلامةُ الآلات؛ فيقال فلانٌ فاعلٌ باعتبار وجود آلات الفعل، وإمكان مباشرته لها، وهذه التي "**بها يتعلق الخطاب**"، أي بناء على وجودها؛ فإنّ الله تعالى يخاطب العبد ويكلفه، ويأمره وينهاه، ومتى ما عُدِمَت الصحة؛ فإنه لا يخاطَب كمخاطبة الأصحاء، ومتى ما عُدِمَت القدرة فإنه لا يخاطب مخاطبة القادرين، ومتى ما عُدِمَت الآلات فإنّه لا يخاطب مخاطبة المُمَكَّنِين، وذلك لأن الخطاب الشّرعي إنما هو مع البالغين القادرين السَّالِمين، "**وهو كما قال تعالى**: ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾

[سورة البقرة، من الآية:٢٨٦]"؛ فدلت الآية على أن الله تعالى لا يكلِّف إلا مَن في وسعه الفعلُ إيجادًا أو تركًا؛ فلا تحمل نفسٌ شيئًا مِن الأمور إلا ما لا يَضِيقُ عليها، ولا يَتعذَّرُ عليها وُجودُه إذا أرادت.

ودلت الآية أن الخطاب التكليفي إنما يتوجه إلى مَن لديه القدرة والوسع على الفعل أو الترك، ومن هنا لم يتم تكليف الجمادات شرعًا، ولا تكليف المجانين، ولا تكليف من ليس بالغًا.

والله تعالى قدر العباد وجعلهم يستطيعون الفعل والترك وهذه الاستطاعة أثبتها أهل السنة، وأنها ثابتة للفاعلين.

ونفت المرجئةُ الجبريةُ هذه الاستطاعةَ، وزعموا أنه ليس للعبد قدرة ولا استطاعة على الفعل!؟

وهم محجوجون بالأدلة الكثيرة المتوافرة الدالة على أن للعبد إرادةً وقدرةً ومكنةً، سواءٌ على الفعل أو الترك.

وزعمت المعتزلة أن الاستطاعة عند العبد مُستقِلٌّ عن مشيئة الله تعالى، وأن ليس للرب تعالى فِعلٌ ولا إيجادٌ ولا خلقٌ في فعل العبد؟!

وهم محجوجون بالأدلة الكثيرة الدالة على أن مشيئات العباد لا تخرج عن مشيئة رب العباد، قال الله تعالى: ﴿وَلَا تَقُولَنَّ لِشَاْىْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا ﴿٢٣﴾ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾ [سورة الكهف، من الآية:٢٣-٢٤]، وقال: ﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُۚ إِنَّ

﴿ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ [سورة الإنسان، من الآية:٣٠]، وقال تعالى: ﴿لِمَن شَآءَ مِنكُمۡ أَن يَسۡتَقِيمَ ۝٢٨ وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ [سورة التكوير، من الآية:٢٨-٢٩].

فالحق الّذي دلت عليه النصوص أن للعباد استطاعة ومشيئة في أفعالهم إيجادًا وتركًا، وأما من لم يكن مستطيعًا على الفعل، ولا مريدًا كالمجنون والمعتوه فإنه غير مكلف، قال الله تعالى: ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفۡسًا إِلَّا وُسۡعَهَاۚ لَهَا مَا كَسَبَتۡ وَعَلَيۡهَا مَا ٱكۡتَسَبَتۡ﴾ [سورة البقرة، من الآية:٢٨٦]، وقد جاء في الحديث القدسي، قال الله تعالى: **"قَدْ فَعَلْتُ"** [رواه مسلم].

ومما يدل على أن للعباد استطاعة في الأفعال، أن خطاب الشارع في التكليف قد تعلّق بالقدرة والاستطاعة؛ قال الله تعالى: ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفۡسًا إِلَّا مَآ ءَاتَىٰهَا﴾ [سورة الطلاق، من الآية:٧].

وكَوْنُ العبادِ فَعَلُوا هذه الأفعال وكَسَبُوها فهذا لا يعني أنها ليست مخلوقه لله تعالى، وذلك لأن قدرة العبدِ، ووسعه، وآلاته، وخلوَّ الموانع، كلّ ذلك من خَلْقِ الله تعالى، وإيجاد الأفعال خَلْقُ لله تعالى، كما قال سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَكُمۡ وَمَا تَعۡمَلُونَ﴾ [سورة الصافات، من الآية:٩٦].

"وأفعالُ العبادِ خَلْقُ الله تعالى": أي كلّ ما يفعله العبدُ فإنَّه مخلوقٌ لله تعالى، وذلك لأن العبدَ، وقوته، وإرادته، ومباشرته، ومَكَنَتَه، مخلوقٌ لله تعالى، وما

ينتج عن ذلك من الآثار فهو مخلوقٌ لله تعالى، ومما يدل على ذلك النصوص الكثيرة، ومنها قول الله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ﴾ [سورة الصافات، من الآية:٩٦]، وقال الله تعالى: ﴿فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ قَتَلَهُمْ ۚ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ﴾ [سورة الأنفال، من الآية:١٧]، فشملت الآية أثر فعل العبدِ من القتل، وفِعَلْه من الرَّمْي، وقال الله تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ۖ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَفْعَلُ مِن ذَٰلِكُم مِّن شَىْءٍ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [سورة الروم، من الآية:٤٠]، وهذا يشمل على سبيل العموم خلقه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى للعبد وفعلَه.

وإنما تضاف هذه الأفعالُ إلى العبدِ لكونه المباشر لذلك، والمريد لها، والقاصد لها، ولذلك كانت الأفعال الّتي يباشرها العبادُ **"كَسْبٌ مِن العباد"**، أي هو مباشَرٌ من العبادِ؛ فهم الذين سعوا لها، وأرادوها، وباشروا أسباب إيجادها، وطلبوها بالإرادة العقلية، والمباشرة الفعلية، وتحملوها بآلاتهم المتاحة.

قال الله تعالى: ﴿تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ ۖ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ ۖ وَلَا تُسْـَٔلُونَ عَمَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [سورة البقرة، من الآية:١٣٤]، وقال سبحانه: ﴿لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا ٱكْتَسَبَتْ﴾ [سورة البقرة، من الآية:٢٨٦]، وقال جَلَّ وَعَلَا: ﴿ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى ٱلنَّاسِ﴾ [سورة الروم، من الآية:٤١]، والآيات في هذا المعنى كثيرة.

ولذلك فإن أهل السنة يقولون: إن العبد هو الفاعل حقيقة، ولذلك يقال له: المصلي، والصائم، والمزكي، والحاج، والصادق، والبار، والرشيد، ونحو ذلك، والله تعالى هو الخالق حقيقة لأنه لا خالق لذاتٍ ولا لوصفٍ إلا الله سبحانه، قال تعالى: ﴿ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَيۡءٖۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ وَكِيلٞ﴾ [سورة الزمر، من الآية:٦٢]؛ فبالنسبة لإيجاد الفعل وخلقه ففعل العبد هو خلقُ الله تعالى وإيجاده، وبالنسبة للمباشرة والفعل فهو فعل العبد وكسبه.

وهذا هو معنى الكسب المعقول، ومَن فسر الكسب بغير هذا فقد أتى بما لا يُفهم من المعقول، وبما لا دليل عليه من المنقول؛ ولهذا قيل: ومما يقال ولا حقيقة له تدنو إلى الأفهام؛ الكسب عند الأشعري، والحال عند الهاشمي، وطفرة النظام، وذلك لأنهم فسروه بما لا يدل عليه نصٌّ، ولا مفهوم عقليٌّ من النصّ.

وخلاصة كلام المصنّف رَحِمَهُ ٱللَّهُ: أن الله تعالى قد علم أعمالهم؛ وهو سبحانه لا يجازيهم على علمه، وإنما على ما وقع منهم، وكلّ الخلق صائرون إلى ما علم الله منهم، وقدره عليهم، وذلك وَفق علمه السابق، وحكمته العظيمة.

وأن الله تعالى أقدر العباد على الفعل، وجعل لهم استطاعة، وبها وعليها يؤاخذون، وهذه الاستطاعة مع الفعل، وهو من توفيق الهداية، وأما الاستطاعة الّتي هي بمعنى القدرة، والوسع، والمَكنة، وسلامة آلات الفعل؛ فهي موجودة قبل حدوث الفعل منهم، وبناء على وجوده هذه خوطبوا، وشملهم التكليف،

وأن التكليف بما ليس في الوسع منفي.

وأن أفعال العباد مخلوقة لله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ، وإن كان العباد هم الذين أرادوها، وباشروها، وسعوا إليها؛ فالخلق خلقُ الله، والفعل فعلُ العبد، والعبدُ وفعله مخلوقٌ لله تعالى.

[التكليف واقع بما هو داخل تحت القدرة]

وَلَمْ يُكَلِّفْهُمُ اللهُ تَعَالَى إِلَّا مَا يُطِيقُونَ، وَلَا يُطِيقُونَ إِلَّا مَا كَلَّفَهُمْ اللهُ تَعَالَى بِهِ، وَهُوَ تَفْسِيرُ: لَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللهِ الْعَلِيِّ الْعَظِيمِ.

﴿ الشرح ﴾

هذا تقرير من المصنف رَحِمَهُ ٱللَّهُ في بيان التكليف الشرعي، وأنه إنما وقع فيما هو داخل تحت قدَر العباد.

قوله: **"ولَمْ يُكَلِّفْهُمُ الله تعالى إلا ما يطيقون"** أي ونقر ونؤمن بأن الله تعالى لم يأمر وينهى عن عباده عن شيءٍ إلا وهو داخل في وسعهم وطاقتهم، وأن الله تعالى الحكيم إنما يأمر وينهى بما هو داخل في قُدَرِهم، ومندرجهم تحت إمكان فعلهم.

ومعنى **"لَمْ يُكَلِّف"** أي لم يأمرهم بما يَصْعُبُ ويَشُقُّ عليهم، ولم يلزمهم بما هو عُسْرٌ وعسيرٌ في حقهم، وبما يعذرُ فعله عليهم، أو يستحيل امتثاله عليهم؛ وذلك لأن كلّ ما أمرهم الله تعالى به في أمره الكوني، أو أمره الشّرعي هو داخل تحت قدرهم؛ فهو سبحانه لم يكلفهم **"إلّا ما يطيقون"** أي إلا ما يقدرون على فعله، إيجادًا أو تركًا، وأطاقَ الشيء يُطيقه أي قدر عليه ويقدر عليه، فتحمَّله، وأتى به.

وفي كلام المصنّف رَحِمَهُ ٱللَّهُ إشارة إلى مسألة التكليف، وهل يكلف اللهُ تعالى العبادَ بما هو داخل تحت قدرتهم، أو يكلفهم بما هو خارج عن قدرتهم

ووسعهم؟ وهذه مسألة مشهورة، وفيها ثلاثة أقوال مزبورة، وهي:

القول الأوّل: أن الله تعالى يكلف بما يشاء، وإن لم يكن تحت طاعة العبد، ولا تحت وسعه، ولا عنده آلة الفعل، وهذا قول الأشاعرة ومَن وافقهم؛ فزعموا أن الله تعالى يمكن أن يُكَلِّفَ العبدَ بِحَمْلِ جبَلٍ، وترتب على هذا القول قولهم بنفي حكمة الله في التكليف، وقولهم بأنه ليس شيءٌ في نفسه حسنٌ ولا قبيح، وإنما الحسن والقبحُ من جهة أمرِ الشارع ونهيه.

القول الثّاني: أن الله لا يكلفنا إلا ما نطيق، وهذا واجب على الله، وهذا قول المعتزلة ومَن وافقهم، وترتب على هذا القول عندهم التحسين والتقبيح العقلي؛ فيوجبون على الله تعالى ما يجب بالعقل، ويوجبون على الله تعالى ما لا يجب بالعقل!؟

القول الثّالث: أن الله لا يكلفنا إلا بما يطاق؛ لأنه سبحانه حَكَمٌ عدلٌ حكيمٌ، لا لأن ذلك واجب عليه؛ فليس لأحدٍ أن يوجب على الله تعالى شيء، وإنما لم يكلفنا الله تعالى إلا بما نطيق بدلالة النقلِ والعقل.

فإن قيل: فما الدليل على أن الله تعالى لم يكلف العباد إلا ما يطيقون؟

فالجواب: أنّ الأدلة الدالة على أن الله تعالى لم يكلف العباد إلا ما يطيقون كثيرة في ورودها، ومتنوعة في دلالتها، ومنها:

الدّليل الأوّل: أنَّ الله سبحانه نفى في آيات متعددة التكليف بما ليس في الوسع؛ كقوله تعالى: ﴿لَا تُكَلَّفُ نَفْسٌ إِلَّا وُسْعَهَا﴾ [سورة البقرة، من الآية:٢٣٣]، وقال سبحانه:

﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ [سورة البقرة، من الآية:٢٨٦]، وقال تعالى: ﴿لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ [سورة الأنعام، من الآية:١٥٢].

الدّليل الثّاني: أنَّ التّكليف بما لا يطاقُ عبثٌ، والله تعالى مُنَزَّهٌ عن العبثِ، قال الله تعالى: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ﴿١١٥﴾ فَتَعَالَى ٱللَّهُ ٱلْمَلِكُ ٱلْحَقُّ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْكَرِيمِ﴾ [سورة المؤمنون، من الآية:١١٥-١١٦].

الدّليل الثّالث: أن التكليف بما لا يُطاقُ ظلمٌ، والله تعالى منزَّهٌ عن الظلم، قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ﴾ [سورة النساء، من الآية:٤٠].

الدّليل الرّابع: أن الله تعالى نفى عن عباده الحرج، وهذا يدل على أن التكليف بما لا يُطاق منفي، قال الله تعالى: ﴿مَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُم مِّنْ حَرَجٍ﴾ [سورة المائدة، من الآية:٦]، وقال تعالى: ﴿وَجَٰهِدُوا۟ فِى ٱللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِۦ ۚ هُوَ ٱجْتَبَىٰكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِى ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ ۚ مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَٰهِيمَ ۚ هُوَ سَمَّىٰكُمُ ٱلْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ وَفِى هَٰذَا لِيَكُونَ ٱلرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ ۚ فَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱعْتَصِمُوا۟ بِٱللَّهِ هُوَ مَوْلَىٰكُمْ ۖ فَنِعْمَ ٱلْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ ٱلنَّصِيرُ﴾ [سورة الحج، من الآية:٧٨].

الدّليل الخامس: الواقع الشّرعي؛ فإن جميع ما شرعه الله تعالى داخل تحت وسع العباد وطاقتهم، من الصلاة والصوم والزكاة والحج والجهاد، ونحو ذلك.

الدّليل السّادس: وهو مؤكد للدليل الّذي قبله أنَّ الشّرع جاء فيه التخفيف في حق كلّ من كان مظنة عدم الإطاقة؛ فخفف على المريضِ، وعلى المسافر، وعلى العاجز...إلخ.

الدّليل السّابع: أن الله تعالى خلقهم للعبادة، وهيئهم لذلك؛ فأوجدهم على صورة بها يقدرون على الركوع، والسجود، وعلى الدعاء، والتضرع، ونحو ذلك.

الدّليل الثّامن: الواقع الكوني؛ فإنا نرى أن الله تعالى لا يوقع على العباد تكليفًا شرعيًا، بمخالفة واقعٍ كونيٍّ، وذلك لأنه خارجٌ عن قدرهم؛ فلم يأمرهم بإيقاف الشمسِ، ولا بإنزال المطرِ، ولا بتغيير مجرى البحار، ونحو ذلك.

الدّليل التّاسع: أن الواقع قد جاء بما يدل على أن العبد إذا أصيب قدرا بأمرٍ كوني خارجٍ عنه أنه يخفف عنه شرعًا، قال الله تعالى: ﴿لَّيْسَ عَلَى ٱلْأَعْمَىٰ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْمَرِيضِ حَرَجٌ وَلَا عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ أَن تَأْكُلُوا۟ مِنۢ بُيُوتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ ءَابَآئِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أُمَّهَٰتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ إِخْوَٰنِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخَوَٰتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَعْمَٰمِكُمْ أَوْ بُيُوتِ عَمَّٰتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخْوَٰلِكُمْ أَوْ بُيُوتِ خَٰلَٰتِكُمْ أَوْ مَا مَلَكْتُم مَّفَاتِحَهُۥٓ أَوْ صَدِيقِكُمْ ۚ لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَأْكُلُوا۟ جَمِيعًا أَوْ أَشْتَاتًا﴾ [سورة النور، من الآية:٦١].

الدّليل العاشر: أن الله تعالى لم يؤاخذ النّاسي والجاهل والمخطئ، وهذا يدل

على أن التكليف بما لا يُطاق غير واقع، وذلك لأنه أعظم من مؤاخذة النّاسي والجاهل والمخطئ، ويكون التكليف بما لا يُطاق نوعًا من الآصار والأغلال، وهي أيضًا منفية، قال الله تعالى: ﴿رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَآ إِن نَّسِينَآ أَوْ أَخْطَأْنَا رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَآ إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِنَا رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِۦ﴾ [سورة البقرة، من الآية:٢٨٦]، وقد جاء في الحديث القدسي، قال الله تعالى: "**قَدْ فَعَلْتُ**" [رواه مسلم].

ولا يرد على هذا إشكالٌ يذكره بعض المتكلمين، وهو أن الله كلف الكافرين مع علمه بأنهم لا يؤمنون!؟ وظنوا أن هذا تكليف بما لا يطاق!؟

ومعلوم أن الله تعالى إنما كلفهم مع إقدارهم على الفعل والترك، وعلى إعطائهم الوسع والمكنة وآلات الفعل، وهم باشروا ضد الإيمان، وليس في عدم إيمانهم لزوم عدم مقدرتهم، بدلالة أن الله تعالى لو جبرهم لسلب عنهم الإرادة وألزمهم الطاعة قهرًا وقسرًا؛ كما قال تعالى: ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَن فِي ٱلْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا أَفَأَنتَ تُكْرِهُ ٱلنَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ ﴿٩٩﴾ وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تُؤْمِنَ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ وَيَجْعَلُ ٱلرِّجْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ﴾ [سورة يونس، من الآية:٩٩-١٠٠].

وهذا يدل على أنَّ التّكليفَ شيءٌ، وأن التوفيق شيءٌ آخر، وأن هداية التوفيق فضلٌ من الله تعالى، ويدل لذلك الحوقلة، وهي قول المسلمين: "**لا حول ولا**

قوة إلا بالله".

فلا شيء يجري في ملكوت الله إلا بعلمه وتقديره، ومشيئة الله هي النافذة، ومشيئة العباد تابعة، والله تعالى إذا ترك العبد ومشيئته وخذله فذلك عدلٌ منه تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ.

ومتى ما شاء العبد شيئًا وشاء الرب شيئًا؛ فإن مشيئة الله تعالى هي النافذة، لا مشيئة العبد القاصرة.

قول المصنّف رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **"ولا يطيقون إلّا ما كلَّفهم"** أي أن في وسعهم وطاقتهم، وما يدخل تحت قدرَتهم ما جاء في الشّرع الأمرُ به، والنهي عنه؛ فكل ما كلَّفَ الله تعالى العبادَ به؛ فهو داخل تحت وسعهم وقدرتهم، وداخل تحت إرادتهم أن يفعلوه أو يذروه.

ومعنى **"كلَّفهم"** أي أوجب عليهم، وفرضه عليهم، وقد جاء التكليف في القرآن والسنة منفيًا، والمراد: ما كان خارجًا عن قدرهم وطاقتهم.

وأما قول الفقهاء: كلَّف الله العبادَ بكذا، فهو من باب التشريع، أي شرع عليهم على سبيل الوجوب أو الندب، وهذا هو مرادهم بالتكليف، وأما نفس التكليف الّذي فيه المشقة، وما يخرج عن طاقة العباد فهذا منفي في النصوص الشّرعية.

وإذا قال الفقهاء: فلانٌ مكلَّفٌ أي بمعنى كونه أهلًا للخطاب الشّرعي؛ فهو بالغٌ عاقلٌ، وقد يَضُمُّون إلى التكليف معنى كونه مُسْلِمًا، وهذا باعتبار أن الّذي يستسلم لأمر الشّرع هو المسلم، هذا من جهة الأحكام العملية؛ كالصلاة

والزكاة والصوم والحج، ونحو ذلك، ومن جهة أخرى فإن المخاطب بالأحكام الشّرعية هو المسلم، وهذا بالإجماع، وهل الكفار مخاطبون بالأحكام الشّرعية أو لا؛ فهذا فيه خلافٌ بين الفقهاء، بعد إجماعهم أنهم مخاطبون بالتوحيد، والصحيح أنهم مخاطبون بالتوحيد وبالشّرع كله؛ لأنهم خلقوا لذلك أولًا، ولأن الله أثبت مؤاخذته لهم على ترك هذه الأحكام، قال الله تعالى: ﴿كُلُّ نَفْسِۭ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ ۝٣٨ إِلَّآ أَصْحَٰبَ ٱلْيَمِينِ ۝٣٩ فِى جَنَّٰتٍ يَتَسَآءَلُونَ ۝٤٠ عَنِ ٱلْمُجْرِمِينَ ۝٤١ مَا سَلَكَكُمْ فِى سَقَرَ ۝٤٢ قَالُوا۟ لَمْ نَكُ مِنَ ٱلْمُصَلِّينَ ۝٤٣ وَلَمْ نَكُ نُطْعِمُ ٱلْمِسْكِينَ ۝٤٤ وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ ٱلْخَآئِضِينَ ۝٤٥ وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوْمِ ٱلدِّينِ ۝٤٦ حَتَّىٰٓ أَتَىٰنَا ٱلْيَقِينُ﴾ [سورة المدثر، من الآية:٣٨-٤٧].

فكل ما شرعه الله تعالى فإن العباد مخاطبون به، وهم بحاجةٍ إلى مددٍ من الله تعالى في امتثال المأمورات، وفي اجتناب المنهيات، وذلك لأن العبد بصفاته محتاج إلى ربه في كلّ لحظة، **"وهو تفسير: لا حول ولا قوة إلا بالله"**، أي هذا هو المراد من قول المسلمين: **"لا حول ولا قوة إلا بالله"**؛ فالتفسير هنا بمعنى التوضيح والتبيان، وبمعنى الشرح والبيان، وكشف ما يحتاج إلى كشفٍ من معاني الكلمات المتضمنة في مباني العبارات.

فلا تحول مِن حال إلى حالٍ إلا بقوة العزيز المتعال، ولا تَحَوُّلَ لأحدٍ مِن حالٍ إلى حالٍ إلا بتوفيق الله تعالى، ولا ثبات على الطاعة إلا بمعونة الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ.

وقد جاء في القرآن والسنة هذه الكلمة، وذلك لأنها عظيمة، وهي تدل على أن

العبد عليه أن يتبرأ من حوله وقوته، وذلك لأنّه وحولَه وقوَّته مخلوقٌ لله تعالى؛ فكيف يمكنه أن يعتمد على مخلوقٍ وينسى الخالق سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

قال الله تعالى: ﴿وَلَوْلَآ إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَآءَ ٱللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِٱللَّهِ﴾ [سورة الكهف، من الآية:٣٩]، وجاء في حديث أبي موسى الأشعري تأن النّبيّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ **قَالَ لَهُ: "يَا أَبَا مُوسَى، أَوْ يَا عَبْدَ اللهِ بْنَ قَيْسٍ، أَلَا أَدُلُّكَ عَلَى كَلِمَةٍ مِنْ كَنْزِ الجنّة؟ قُلْتُ: مَا هِيَ؟ يَا رَسُولَ اللهِ، قَالَ: "لَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللهِ"** [رواه البخاري ومسلم]، وتفسير هذه الكلمة ما قاله المصنّف رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **"نقول: لا حيلة لأحد، ولا حركة لأحد، ولا تحول لأحد عن معصية الله إلا بمعونة الله، ولا قوة لأحد على إقامة طاعة الله والثبات عليها إلا بتوفيق الله"**؛ فهذا تفسير لمعنى الحوقلة، وهو يدل على أن العبيد بحاجة إلى حولِ الله تعالى وقوته، وإمداده لهم، وتوفيقه لهم، وأنهم لا يقدرون على أي إرادةٍ، ولا فعلٍ، ولا حركةٍ، إلا بمعونة الله تعالى، فالعبد على الدوام بحاجة إلى مولاه، وبحاجة إلى توفيق خالقه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

وخلاصة كلام المصنّف رَحِمَهُ ٱللَّهُ: أن الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى لم يكلف العباد إلا بما هو داخل تحت طاقتهم، ووسعهم، وبذلك كلفهم، ولا حول للعباد في التكليف وغيره إلا بحولٍ من الله تعالى وقوته.

[تفسير الحوقلة]

نَقُولُ: لَا حِيلَةَ لِأَحَدٍ، وَلَا حَوْلَ لِأَحَدٍ وَلَا حَرَكَةَ لِأَحَدٍ، وَلَا تَحْوِيلَ لِأَحَدٍ، عَنْ مَعَاصِي اللهِ تَعَالَى إِلَّا بِمَعُونَةِ اللهِ تَعَالَى، وَلَا قُوَّةَ لِأَحَدٍ عَلَى إِقَامَةِ طَاعَةِ اللهِ تَعَالَى، وَالثَّبَاتِ عَلَيْهِا، إِلَّا بِتَوْفِيقِ اللهِ تَعَالَى.

الشرح

هذا تقرير من المصنف رَحِمَهُ ٱللَّهُ في تفسير الحوقلة، وهو تأكيد لمسألة القدر، والتقدير، والتوفيق فيه.

قوله: "**لا حيلة**" أي لا تحوُّل، ولا حَذَق، ولا دقَّة على التصرف في الأمور، والحيلة: وسيلة بارعةٌ تُحيل الشيءَ عن ظاهره ابتغاء الوصول إلى المقصود.

و "**لا حَرَكَة**" أي لا قدرة ولا مقدرة على التحرك من حالٍ إلى حالٍ، ولا من مكانٍ إلى مكانٍ، ولا من زمانٍ إلى زمانٍ، والحركةُ عكس السُكُون.

و "**لا تحوُّل**" أي لا تغيُّر، ولا قوَّة على الانتقال من مكانٍ إلى مكانٍ، ومن حالٍ إلى حالٍ، ولا انقلابَ من حال إلى حالٍ، والتحوُّل ضد التَّقَرُّر.

و "**مَعصيةِ الله**" مخالفة أمر الله تعالى، ومعاندته، والخروج عن طاعة الله تعالى، وهو متصوَّرٌ في ترك الواجبات، أو ارتكاب المحرمات؛ فمن ترك واجبًا بلا عذرٍ، أو ارتكب محرمًا مختارًا فهو في معصية الله تعالى، وقد ارتكب معصيةً، وهو بذلك يكون عاصيًا.

ومعنى "**بمعونةِ الله**" أي بعونٍ من الله تعالى، ومَدَدٍ منه سبحانه، والمعونة

الإعانةُ.

فكل هذه التحولات لا يمكن إلا بعونٍ من الله تعالى، وكذلك العكسُ، وهو الإقامة على الطاعة؛ **"ولا قوة لأحد على إقامة طاعة الله، والثبات عليها، إلا بتوفيق الله"**؛ فالعبد في جميع أحواله مفتقرٌ إلى خالقه سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ، وذلك لأن العبد مهما عَظُم فإنه مفتقرٌ، وأنه مهما كَبُرَ فهو محتاجٌ، وأنه مهما ارتفع فهو بحاجة إلى عونٍ، فلا يمكنه ترك الكفر والشرك والنفاق والمنكرات والبدع والمعاصي إلا بحولٍ من الله تعالى.

وكذلك لا يمكنه الإقامة على الطاعة، وعلى الثبات عليها إلا بحولٍ من الله تعالى؛ فالعبد في جميع أحواله مفتقرٌ إلى الغني الحميد سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ؛ فلا غِنَى للمخلوق المفتقر عن خالقه طرفة عينٍ ولا أقل من ذلك، وذلك لأن افتقار العبد لازمٌ له؛ كما أن غنى الرب تَبَارَكَوَتَعَالَىٰ لا زمٌ له.

و **"لا قوَّة"** أي لا يجد طاقة، ولا مقدرة، ولا مؤثِّرًا على الفعل، لا نشاطًا، سواءٌ كانت القوى كامنة أو باعثة إلا بالله تعالى؛ فمن رام القيام بالطاعة، والدوام عليها؛ فعليه أن يطلب حول الله وقوته، وأن يتذلل له حتّى يمده بفضله وكرمه؛ فيمكنه الفعل، ويمكنه الثبات على ذلك.

ومعنى **"إقامة"** أي إيجاد الفعلِ، وإدامته، واستيفاؤه حقه، وإظهاره وإعماله.

و **"الثبات"** استقرارُ الشيءِ، واستدامته، واستمراريته، والبقاء عليه، وأصل الثَّبَات: ما يُشد به الشيء لِيَثْبُت.

وليس لأحدٍ من العبيد حولٌ ولا قوة سواءٌ في ترك المعاصي، أو في فعل الواجبات، إلا بحولٍ من الله تعالى، وقوة منه سبحانه؛ فعلى العبد أن يكون دائم اللجأ إلى الله تعالى، وأن يكثر من الحوقلة، وأن يستذكر معناها، فالعبد محتاج إلى الله تعالى في تدينه، وذلك جليٌّ في عدَّة أمورٍ:

الأمر الأول: العبد محتاجٌ إلى الله تعالى في العلمِ بما يقرِّبه إليه سبحانه.

الأمر الثاني: العبدُ محتاج إلى الله تعالى في إرادة ما يقربه إلى الله تعالى.

الأمر الثالث: العبد محتاج إلى الله تعالى في حال قيامه بما يقربه إليه.

الأمر الرابع: العبد محتاج إلى الله تعالى بعد قيامه بما يقربه ليديم الفعل.

الأمر الخامس: العبد محتاج إلى الله تعالى بعد الأداء بما يقربه ليقبله الله تعالى.

وهذه الأمورُ الخمسةُ كلّها مُتَضَمِّنة لمعنى طلب الهداية، وطلب الحول والقوة، وطلب العون والمدد، وهي الموجودة في قوله تعالى: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝ ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ﴾ [سورة الفاتحة، من الآية:٥-٦]، ولذلك فإن العبد يدعو بهذا الدعاء، ويخبر بهذا الخبر في كلّ ركعة من ركعات صلاته؛ لما لذلك من أهمية في تعبده، وفي بيان افتقاره، وحاجته.

وخلاصة كلام المصنّف رَحِمَهُ ٱللَّهُ: أن لا حول للعباد في التكليف وغيره إلا بحولٍ من الله تعالى وقوته؛ ولا يمكن تغيير حالِ عبدٍ من طاعة إلى معصية، ومن شر إلى خيرٍ، ومن سكون إلى حركة إلا بقوة من الله تعالى وعونه؛ كما لا ثبات

على الخير والطاعة إلا بتوفيق الهداية من الله تعالى.

[تسيير الكون بمشيئة الله تعالى وعلمه وقدرته]

وَكُلُّ شَيْءٍ يَجْرِي بِمَشِيئَةِ اللهِ تَعَالَى، وَعِلْمِهِ، وَقَضَائِهِ، وَقَدَرِهِ، غَلَبَتْ مَشِيئَتُهُ تَعَالَى الْمَشِيئَاتِ كُلَّهَا، وَغَلَبَ قَضَاؤُهُ الْحِيَلَ كُلَّهَا، يَفْعَلُ اللهُ مَا يَشَاءُ، وَهُوَ غَيْرُ ظَالِمٍ أَبَدًا، ﴿لَا يُسْـَٔلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْـَٔلُونَ﴾ [سورة الأنبياء، من الآية:٢٣]، تَقَدَّسَ عَنْ كُلِّ عَيْبٍ وَشَيْنٍ، وَتَنَزَّهَ عَنْ كُلِّ سُوءٍ وَحَيْنٍ.

الشرح

هذا تقرير من المصنف رَحِمَهُ ٱللَّهُ متعلق بإثبات مشيئة الرب تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ الشاملة، وأنّه لا يخرج عن مشيئته شيءٌ؛ كما لا يخرج عن علمه شيء، وأنّ كل أمرٍ فهو بقضائه وقدره.

قوله: **"وكل شيء يجري بمشيئة الله تعالى وعلمه وقضائه وقدره"** أي نؤمن ونقر بأنه لا يكون شيءٌ في الكونِ، إلا وهو جارٍ بمشيئة الله تعالى، وهي إرادته الكونية، وَفقَ علمِ الله سبحانه الأزلي السابق على الخلق، فكلُّ شيء بـ **"قضائه وقدره"** أي بقضاء الله تعالى، وتقديره الّذي تم، وقضي، قال الله تعالى: ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَآئِنُهُۥ وَمَا نُنَزِّلُهُۥٓ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ﴾ [سورة الحجر، من الآية:٢١]، وقال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن طِينٍ ثُمَّ قَضَىٰٓ أَجَلًا وَأَجَلٌ مُّسَمًّى عِندَهُۥ ثُمَّ أَنتُمْ تَمْتَرُونَ﴾ [سورة الأنعام، من الآية:٢]، وقال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُ فَإِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [سورة غافر، من الآية:٦٨]، والآيات في هذا

المعنى كثيرة؛ وذلك أنه سبحانه كما قدَّر الخلق قدّر أفعالهم، وكما قدر أجل الدّنيا قدّر آجال بني آدم، وكما قدر أرزاقهم قدَّر أعمالهم.

ومعنى **"قضائه"** أي قضاءِ الله تعالى، وهو بمعنى **"قدره"** إذا تفرقا في الورد، فيقال للقضاء قدرٌ، وللقدر قضاءٌ، وعند الاجتماع في الورود فإن القضاء يكون بمعنى ما تم وأُبرِم، وهو الحُكْمُ، وما قد أدِّي وكان، وانتُهِيَ منه، ويأتي بمعنى الإحكام والإتقان، وبلوغ الأمر ونفاذه.

ويكون القَدْرُ -بسكون الدال- وهو المقدارُ، و(القدَرُ) -بفتح الدال- اسمٌ للتقدير، بمعنى ما سيكون وقُدِّر، وجاء الشيء على قدْرِ الشيء أي وَفقه ومثاله ومساويا له، من غير زيادة ولا نقصان.

وهذا معنى قولُ المسلمين: (قضاءُ الله وقدَره)، أي هذا بتقديره، وحكمته، وعلمه وخبرته، وجاء في حديث أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: **"الْمُؤْمِنُ الْقَوِيُّ، خَيْرٌ وَأَحَبُّ إِلَى اللهِ مِنَ الْمُؤْمِنِ الضَّعِيفِ، وَفِي كلّ خَيْرٌ احْرِصْ عَلَى مَا يَنْفَعُكَ، وَاسْتَعِنْ بِاللهِ وَلَا تَعْجَزْ، وَإِنْ أَصَابَكَ شَيْءٌ، فَلَا تَقُلْ لَوْ أَنِّي فَعَلْتُ كَانَ كَذَا وَكَذَا، وَلَكِنْ قُلْ قَدَرُ اللهِ وَمَا شَاءَ فَعَلَ، فَإِنَّ لَوْ تَفْتَحُ عَمَلَ الشَّيْطَانِ"** [رواه مسلم].

فلا يقع شيءٌ في ملكوت الله تعالى إلا ما يريد، وذلك لأنه إن وقع ما لا يريد الإرادة الكونية لا يكون مالِكًا وملِكًا، والله تعالى هو المالِك حقيقة، والملِك حقيقة، فمشيئته هي النافذة، **"غلبت مشيئته المشيئات كلها"**؛ فكل صاحب

مشيئة لا يقدر على شيءٍ ما لم يكن الله قد شاء ذلك، وذلك لأنه تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ لا يجري في ملكه إلا ما يشاء.

و **"غلبت"** بمعنى قهرت، وأعجزَت، فمشيئة الله تعالى غالبة، وكلّ المشيئات مغلوبة؛ كما أنه سبحانه الخالق وكلّ من سواه مخلوق؛ كما أنه سبحانه القوي وكلّ من سواه من الأقوياء ضعفاءَ ومفتقر لقدرته وقوته.

ومما يدل على قوة وغلبت مشيئة الله تعالى قول الله تعالى: ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَٰرِهِمْۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [سورة البقرة، من الآية:٢٠]، وقال سبحانه: ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا ٱقْتَتَلَ ٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ وَلَٰكِنِ ٱخْتَلَفُواْ فَمِنْهُم مَّنْ ءَامَنَ وَمِنْهُم مَّن كَفَرَۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا ٱقْتَتَلُواْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ﴾ [سورة البقرة، من الآية:٢٥٣]، وقال جَلَّ وَعَلَا: ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكُواْۗ وَمَا جَعَلْنَٰكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًاۖ وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ﴾ [سورة الأنعام، من الآية:١٠٧]، وقال عَزَّ وَجَلَّ: ﴿لِمَن شَآءَ مِنكُمْ أَن يَسْتَقِيمَ ٢٨ وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [سورة التكوير، من الآية:٢٨-٢٩].

والمشيئة لا تأتي في كتاب الله تعالى إلا بمعنى الإرادة الكونية؛ فما شاء الله كان، وما لم يشأ لم يكن، **"غلب قضاؤه الحِيَلَ كلَّها"**، فقضاءُ الله تعالى هو الغالب، وقضاءُ النّاس تبعٌ، ومهما كان حيل النّاس فإنها لا تخرج عن قضاء الله تعالى، كما قال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يَحْكُمُ لَا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِۦۚ وَهُوَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ﴾

[سورة الرعد، من الآية:٢١]، وقال سبحانه: ﴿وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ ۖ وَإِن يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَآدَّ لِفَضْلِهِۦ ۚ يُصِيبُ بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [سورة يونس، من الآية:١٠٧]، وقال جَلَّ وَعَلَا: ﴿مَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَلِيٍّ وَلَا يُشْرِكُ فِى حُكْمِهِۦٓ أَحَدًا﴾ [سورة الكهف، من الآية:٢٦].

و "**الحِيَل**" جمع (حِيلَة)، وهي الحذَقُ والمهارة، وما يقصدُ لبلوغ الأَرَبِ والهدَفِ، بجودة النظر، ودقة التصرف؛ فمهما كانت حيَلُ النّاس فإنها لا شيء أمام قضاء الله تعالى وحُكْمِه وقدرته، قال الله تعالى: ﴿وَقَدْ مَكَرُوا۟ مَكْرَهُمْ وَعِندَ ٱللَّهِ مَكْرُهُمْ وَإِن كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ ٱلْجِبَالُ﴾ [سورة إبراهيم، من الآية:٤٦]، وقال سبحانه: ﴿وَمَكَرُوا۟ مَكْرًا وَمَكَرْنَا مَكْرًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ۝٥٠ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ مَكْرِهِمْ أَنَّا دَمَّرْنَٰهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [سورة النمل، من الآية:٥٠-٥١]، وقال جَلَّ وَعَلَا: ﴿فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُم بِذَنۢبِهِمْ فَسَوَّىٰهَا ۝١٤ وَلَا يَخَافُ عُقْبَٰهَا﴾ [سورة الشمس، من الآية:١٤-١٥].

فمشيئةُ الله تعالى هي النافذة، وقضاؤه المبرَم، وحكمه الواقع، وكلّ مشيئة، وقضاءٍ، وحكمٍ؛ فإنه لا يخرج عن مشيئة الله تعالى أبدًا، وذلك مطردٌ في مفعولاتِ الرب تَبَارَكَ وَتَعَالَى، وفي مخلوقاته، وفي مفعولات مخلوقاته.

وذلك لأن المِلْك مِلكه، والْمُلْك مُلكه، فهو المالك والملِك، وإذا كان الأمر كذلك فإنه سبحانه "**يفعل ما يشاءُ**"، فما دام أنه المالك وحده، وأنه الملِك

وحده، ومِلك غيره إضافي نسبي، ومُلكُ غيره وقتي نسبيٌّ؛ فله سبحانه أن يفعل ما يشاء في مِلْكِه ومُلكِه، قال الله تعالى: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَفۡعَلُ مَا يُرِيدُ﴾ [سورة البقرة، من الآية:٢٥٣]، وقال سبحانه: ﴿قَالَ كَذَٰلِكَ ٱللَّهُ يَفۡعَلُ مَا يَشَآءُ﴾ [سورة آل عمران، من الآية:٤٠]، وقال جَلَّ وَعَلَا: ﴿لَا يُسۡـَٔلُ عَمَّا يَفۡعَلُ وَهُمۡ يُسۡـَٔلُونَ﴾ [سورة الأنبياء، من الآية:٢٣].

وإذا كان الله له المِلْكِية حقيقة؛ لأنه المالِك حقيقة؛ فكل شيء في الوجود في مِلكيته، وهو إنما يتصرف في مِلكِه؛ وكلّ تَصَرُّفٍ منه وفعلٍ منه سبحانه فإنه واقعٌ في مِلكيَّته؛ فلا يُتَصَوَّرُ أنه سبحانه يظلم من هذه الحيثية.

وإذا كان الله له الْمُلْكُ حقيقة، وهو المَلِك حقيقة؛ فكل شيء في الوجود تحت حُكْمِهِ وقَهْرِه وسُلْطَانِه، وهو يتصرَّف في حكمه بمقتضى حكمته؛ فيضع الأشياء في مواضعها، وهو الحكيم العليم؛ فكل حكمٍ منه فهو وضعٌ للشيء في موضعه، فلا يُتَصَوَّرُ وقوع الظلم منه من هذه الحيثية أيضًا.

ومما يدل على معنى المالك والْمُلْك قول الله تعالى: ﴿قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلۡمُلۡكِ﴾ [سورة آل عمران، من الآية:٢٦]، وقال سبحانه: ﴿قَوۡلُهُ ٱلۡحَقُّۚ وَلَهُ ٱلۡمُلۡكُ﴾ [سورة الأنعام، من الآية:٧٣]، أي الحكم والسلطان، وقال جَلَّ وَعَلَا: ﴿وَلَمۡ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٞ فِي ٱلۡمُلۡكِ﴾ [سورة الإسراء، من الآية:١١١].

فالله تعالى يفعل ما يشاء في مُلْكِه، ويتصرف كيف يشاء، فمهما كان تَصَرُّف المالك في مِلكه، وتصرف المَلِك في مُلكه؛ فإنه لا يكون إلا حقًّا، لا سميًا إذا

كان المالك والمَلِك حكيمًا عليمًا سميعًا بصيرًا، فلا يكون تصرفه، وفعله إلا حقا، ولا يكون له تصرف في مِلْك الغير، أو في مُلكِ الغير، حتّى يتصور الجورُ، أو الحَيْفُ، ولهذا قال المصنّف رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **"وهو غير ظالم أبدًا"**، أي فمهما فعل الرَّبّ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ فإنه لا يكون ظالمًا أبدًا، وذلك لأنه يفعل ويتصرف في مِلكيته، ويفعل ويتصرف في حكمه المبني على حكمته.

و **"الظالم"** هو الجائرُ الّذي يتصرف في مِلكِ الغيرِ، وبلا حكمة، وهو الْمُسْتَبِدُّ الّذي ليس له الحكم فيحكم، وبلا حكمةٍ.

وإذا كان الله تعالى إنما يتصرف في مِلكه، ولحكمةٍ، ويحكم في مُلكِه، وبحكمة؛ فلا يُتصوَّرُ منه أنْ يظلم أبدًا، فالظُّلْمُ لا يقع من الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، لا في شرعه وتشريعه، ولا في قوله وحُكمِه، ولا في فعله وقدره، وذلك لوجهين:

الوجه الأوّل: أنّ الظلم هو: وضعُ الشيء في غير موضعه، وهذا في الْحُكْمِ، وهو غير مُتَصَوَّرٍ في حُكْمِ العليم الحكيم سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

أو أنَّ الظُّلْمَ هو: التَّصرّف في مُلْكِ الغير، وهذا غير متصوَّرٍ؛ لأنَّ كلّ ما في الوجود فهو مُلْكُه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

وعلى كلا التعريفين فالظلم غير متصور في حق الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

الوجه الثّاني: أنَّ الظلم عيبٌ ونقصٌ، والله جل في علاه مُنَزَّهٌ عن كلّ عيبٍ ونقصٍ؛ ولهذا قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظۡلِمُ مِثۡقَالَ ذَرَّةٖ﴾ [سورة النساء، من الآية:٤٠]، وقال سبحانه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظۡلِمُ ٱلنَّاسَ شَيۡـٔٗا وَلَٰكِنَّ ٱلنَّاسَ أَنفُسَهُمۡ

يَظْلِمُونَ﴾ [سورة يونس، من الآية:٤٤]، وقال جَلَّ وَعَلَا: ﴿وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾ [سورة الكهف، من الآية:٤٩]، ونفي الظلم هنا جاء مع النكرة في سياق النفي فدلَّ على العموم؛ فلا يقع الظلمُ من الله تعالى، سواءٌ كان يسيرًا أو كان كبيرًا.

فلمَّا كان عدله عظيما، كان الظُّلْم منه سبحانه مَنْفِيًّا، سواءً كان الظلمُ يسيرًا كما مرَّ في الآيات، أو كان الظلم كثيرًا كما في قول الله تعالى: ﴿وَنَقُولُ ذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ ﴿١٨١﴾ ذَلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ﴾ [سورة آل عمران، من الآية:١٨١-١٨٢]، وقال سبحانه: ﴿وَنُذِيقُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَذَابَ الْحَرِيقِ ﴿٩﴾ ذَلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ يَدَاكَ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ﴾ [سورة الحج، من الآية:٩-١٠]، وقال جَلَّ وَعَلَا: ﴿مَّنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ﴾ [سورة فصلت، من الآية:٤٦]، ونفي الظُّلْمِ بصيغة المبالغة لا على أن يسير الظلم يقع منه سبحانه؛ فهذا قد سبق نفيه في آيات أخرى.

وإنما جيء بنفي صيغة المبالغة للدلالة على عظيم قدرة الله تعالى؛ فهو قادر على الظلم اليسير، وهو قادر على الظلم الكثير، لا يعجزه عسيرٌ؛ فنفي كثير الظلم لعظيم قدرته وعزته تعالى، ونفي يسير الظلم لكمال عدله وحكمته تعالى.

وقد جاء الجمع بين العزة والحكمة؛ كما في قول الله تعالى: ﴿إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [سورة البقرة، من الآية:١٢٩]، وفي قوله سبحانه: ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُصَوِّرُكُمْ فِى ٱلْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَآءُ ۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ۝٦ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ﴾ [سورة آل عمران، من الآية:٦-٧]، وفي أول سياق الآية الحديث عن الأمر الكوني، وفي الآية الّتي بعدها الحديث عن الأمر الشّرعي؛ فدل على أن العزة والحكمة من الصّفات العلية المانعة من الظلم اليسير والكثير، وذلك في التقدير الكوني والشّرعي، والله تعالى أعلم.

فإن قيل: فما مذاهب الناس في مسألة الظلم في حقّ الله تعالى؟

فالجواب: أنّ النّاس في مسألة الظلم في حق الله تعالى صاروا على ثلاثة مذاهب:

المذهب الأوّل: قالوا إنّ الظلم هو التَّصَرُّف في مُلْكِ الغير، والله تعالى إنما يتصرف في ملكيته بما يشاء، وليس في تصرفه في مِلْكِيته ظلمٌ مهما كان الفعل، وهذا القول مشهورٌ عن الأشاعرة.

المذهب الثّاني: قالوا إنّ الظلم هو وضع الشيء في غير موضعه، وهو المشهور عن أهل السنة؛ فالله تعالى حكيم في ذاته، وأفعاله، وتقديره، فلا يتصور الظلم منه سبحانه؛ لأن الظلم نقص، والله منزه عن النقص مع قدرته على كونه يفعل ما يشاء، وهذا القول يشمل التصرف في مِلكه وفي مُلْكِه.

المذهب الثّالث: قالوا إنّ الظُّلْمَ وضع الشيء في غير موضعه، وأنّ من ذلك

نفي القَدَرِ، ووجوب فعل الأصلح، وهذا قول المعتزلة.

حيث رأوا بعقولهم القاصرة أن بين نفي الظلم وبين القول بإثبات القدر تعارضًا؛ فنفوا الثاني، ومعلوم أنه لا تناقض، فالله تعالى حكَمٌ عدلٌ حكيمٌ عليم خبيرٌ، والله تعالى قد جمع بين اسمه الحكيم واسمه العليم، وبين اسمه الحكيم واسمه العزيز، وبين اسمه الحكيم والخبير، وبالتقديم والتأخير، وذلك في آيات كثيرة؛ كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡعَلِيمُ ٱلۡحَكِيمُ﴾ [سورة البقرة، من الآية:٣٢]، وقوله تعالى: ﴿إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ﴾ [سورة البقرة، من الآية:١٢٩]، وقوله تعالى: ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ﴾ [سورة آل عمران، من الآية:٦]، وقوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلۡقَاهِرُ فَوۡقَ عِبَادِهِۦۚ وَهُوَ ٱلۡحَكِيمُ ٱلۡخَبِيرُ﴾ [سورة الأنعام، من الآية:١٨].

وتقرر بالآيات السابقة أنه سبحانه عليمٌ حكيمٌ، وعزيزٌ حكيم، وحكيمٌ خبير؛ فلا يتصور أن يقع في فعله، أو في قوله وتشريعه أي ظلمٍ أبدًا، وذلك لأن أفعاله مبنية على العدل، وأحكامه مبنية على العدل، قال تعالى: ﴿وَتَمَّتۡ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدۡقٗا وَعَدۡلٗا﴾ [سورة الأنعام، من الآية:١١٥]، صِدْقًا في الأقوال والأخبار والتشريعات، وعدلًا في التشريعات والأفعال من رب البريات، سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ.

و **"تقدس عن كلّ سُوءٍ وحَيْنٍ"**؛ فالله سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ مُقَدَّسٌ عن كلّ عيبٍ ونقصٍ، وذلك لأنه سبحانه له الكمال المطلق، والغنى المطلق، والحمدُ المطلق، والمجد المطلق.

و **"تقدَّس"** أي تنزَّه مِن (القُدْسِ) وهو: الطُّهْرُ، فهو مُتَقَدِّسٌ أي مُتَنَزِّه، وهو مُتَقَدَّسٌ أي مُتَنَزَّهٌ، ولذلك كان من أسمائه سبحانه القدُّوس، أي الْمُنَزَّهُ مِن كلّ نقص وعيب، ويحتمل **(القدُّوس)**: الْمُقَدَّسُ، أي: يقدسه الملائكة ويسبحونه، ويقدسه المؤمنون ويسبحونه؛ فإذا ثبت أن الله تعالى هو القدوس؛ فمعناه القدس الذاتي، والوصفي، والفعلي، والاسمي؛ فالله في ذاته قدوسٌ، وفي أوصافه وأفعاله وأسمائه قدوسٌ جل في علاه.

"وتَنَزَّه عن كلّ عَيْبٍ وشَيْنٍ" أي أنَّه سبحانه بعيدٌ كلّ البعد، وتَرَفَّعَ كلّ الرِّفعة، وتصوَّن كلّ الصون، عن كلّ **"عَيْبٍ"**، وهي الوَصْمَةُ، ويجمع على **(عيوب)**.

و **"شَيْن"** كلّ ما يَشينُ، وهو الشَّيء النّاقص الدنيءُ، وكلّ نقصٍ يصانُ منه الرب تَبَارَكَوَتَعَالَىٰ ذلك لأن كلّ عيب وشين لا يليق به سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ.

فربنا تَبَارَكَوَتَعَالَىٰ متقدسٌ بصفات الكمال، ومنزَّهٌ عن صفات النقص في الحال وفي المآل؛ فليس في ذاته ما يعيبه، ولا في أفعاله ما يشينه، وذلك لأنه سبحانه المجيد الحميدُ، ذو الجلال والإكرام، وهو سبحانه يتصرف بالكمال الّذي ليس فيه أي عيب وشين، ومهما فعل فهو مبني على الحمدِ والحكمة، والمجد والقدس، وليس لأحدٍ أن يعترض أو أن يسأل: ﴿لَا يُسْـَٔلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْـَٔلُونَ﴾ [سورة الأنبياء، من الآية:٢٣]"، فليس لسائل أن يسأل رب العرش عن الّذي يَفْعَلُ بخلقه مِن تصريفهم فيما شاء مِن حياة وموت وإعزاز وإذلال، وغير ذلك مِن حُكْمِه فيهم؛ لأنهم خَلْقُه وعبيده، وجميعهم في ملكه وسلطانه، والحكم حكمه،

والقضاء قضاؤه، لا شيء فوقه يسأله عما يفعل فيقول له: لِـمَ فعلت؟ ولِـمَ لَـمْ تفعل؟ وفي الآية ردٌّ على القدرية، وقَطْعُ شبهتِهِم بالكلِّيَّة.

"﴿وَهُمۡ يُسۡـَٔلُونَ﴾" أي وجميع مَن في السماوات والأرض مِن عباده مسئولون عن أفعالهم، ومحاسبون على أعمالهم، وهو الّذي يسألهم عن ذلك، ويحاسبهم عليه؛ لأنه فوقهم ومالكهم، وهم في سلطانه.

"**وتنزّه عن كل سوءٍ وحَيْنٍ**"، أي أنّ الله تعالى منزَّهٌ عن أي "**سوء**"، و (**السّوء**): كلّ قبحٍ، سواءٌ كان قولًا أو فعلًا، وهو في الاصطلاح: اسمٌ جامعٌ للآفاتِ؛ فيكنى به عن البرص، وعن العذاب، وعن النقصِ، قال الله تعالى: ﴿وَٱضۡمُمۡ يَدَكَ إِلَىٰ جَنَاحِكَ تَخۡرُجۡ بَيۡضَآءَ مِنۡ غَيۡرِ سُوٓءٍ ءَايَةً أُخۡرَىٰ﴾ [سورة طه، من الآية:٢٢].

و "**حَيْن**" أي أن الله تعالى منزّه عن أي نقصٍ، و (الحَيْن) بفتح الحاء: كل نقصٍ ملحوقٍ، وهلاكٍ محقوقٍ، وفي المثل: إذا حان الحَين حارت العينُ.

وأما (الحِين) بكسر الحاء جمع (أحيان، وأحايين): فوقتٌ من الدهر مبهم، طال أو قصر؛ كما قال تعالى: ﴿فَذَرۡهُمۡ فِي غَمۡرَتِهِمۡ حَتَّىٰ حِينٍ﴾ [سورة المؤمنون، من الآية:٥٤]، وعلى هذا التفسير يكون المعنى أنّ الله تعالى منزّه عن كلّ نقصٍ يلحقه بسبب مرور الزمان؛ فإنه جَلَّ وَعَلَا هو الذي خلق الزمان؛ فلا تجري عليه أحكامه.

وخلاصة كلام المصنّف رَحِمَهُ ٱللَّهُ: أن كل ما يجري في الكون، وعلى العباد فهو وَفق علم الله تعالى، ومشيئته، وبقضاء الله تعالى، وقدره، وأن مشيئة الله تعالى

هي الغالبة، والمشيئات هي التابعة، وكلّ الحيل والقوى أمام حوله وقوته مغلوبة، وهو سبحانه يفعل ما يشاء، ولا يقع منه الظلمُ أبدًا، وذلك لأنه سبحانه من منزه عن كلّ عيبٍ ونقصٍ، والظلم نقصٌ لا يقع في فعل الرب تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ، ولا في شرعه، وكذلك الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ منزه عن كل نقصٍ أو هلاكٍ.

[منفعة الأموات بالدعوات]

وَفِي دُعَاءِ الْأَحْيَاءِ وَصَدَقَاتِهِمْ مَنْفَعَةٌ لِلْأَمْوَاتِ، وَاللهُ تَعَالَى يَسْتَجِيبُ الدَّعَوَاتِ، وَيَقْضِي الْحَاجَاتِ.

﴿ الشرح ﴾

هذا بيان من المصنف رَحِمَهُ ٱللَّهُ في بيان ما يصل إلى الميت من أعمال الأحياء، وهي مسألة عقدية غيبية لا يمكن إدراكها بالعقول، وإنما سبيل ذلك المنقول.

قوله: "**وفي دعاء الأحياء وصدقاتهم منفعة للأموات**" هذا بيانٌ بأن اللهَ تعالى يقبل الدعواتِ للأمواتِ، وكذلك الصدقاتِ عنهم، وهذا محل إجماعٍ بين أهل السنة والجماعة.

و "**دعاء الأحياءِ**" ما يَدعُو به من القولِ؛ كقول الداعي لله تعالى: اللهم اغفر لحينا وميتنا، وما يُطلبُ من الله تعالى، وهذا إنما يقوم به "**الأحياء**" جمعُ حيٍّ، وهو الّذي ينبض بالحياة، ويُعطى أحكام الدّنيا، والمقصود به المسلم، وذلك لأنّ دعاء الكافر ليس بنافعٍ، قال الله تعالى: ﴿وَمَا دُعَآءُ ٱلۡكَٰفِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَٰلٍ﴾ [سورة الرعد، من الآية:١٤].

و "**صدقاتهم**" جمع صدقة، وهي: العطية لوجه الله تعالى، وما يُعطى على وجه القربى لله سبحانه، سواء كان مالًا؛ كالدنانير والدراهم، أو متاعًا كالدلو والملح، أو منفعة كسكنى البيت، ونحو ذلك؛ فهذه الدعوات والصدقات فيها "**مَنْفَعَةٌ للأموات**"، والمنفعة: كلّ ما يُنْتَفَع به.

والْمُرَاد: أنها نافِعَةٌ للأموات، يصل أثر الدعوات إليهم إذا استجاب الله لهم، وينتفع الأموات بثواب الصدقات.

و "**الله تعالى يستجيب الدّعوات**" أي أنّ مما يدل على وصول ثواب الدعاء للأموات ما تقرر شرعا وعقلا أن الله تعالى هو الذي يسمع الدعوات، بمختلف اللغات، وعلى تنوع الحاجات، ولا تختلط عليه المطالبات، ويستجيب لمن شاء من البريات.

و "**يستجيب**" فعلٌ سداسي لازم متعدّ بحرفٍ، من (**استجاب**)، ومعنى استجاب الله دعاءَه أنه سبحانه قضى حاجته، ولبَّى طلبَه، فهو سبحانه "**يقضي الحاجات**" أي يُنِيلُها، ويعطي السائلين ما سألوه، وأدّى لهم ما طلبوا، وأنفذ لهم ما دعوا به من "**الحاجات**" جمعُ حاجةٍ، وهي ما يحتاج إليه الإنسان ويطلبه، ويجمع على (حُوجٍ، وحَوائج).

ومما يدل على كونه سبحانه قادرًا على إيصال الثواب للأموات أنه سبحانه مجيب الدعوات، وقاضي الحاجات، قال الله تعالى: ﴿إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ﴾ [سورة إبراهيم، من الآية:٣٩]، وقال سبحانه: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِيٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ [سورة غافر، من الآية:٦٠]، وقال جَلَّ وَعَلَا: ﴿أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَآءَ ٱلْأَرْضِ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ﴾ [سورة النمل، من الآية:٦٢]، وهذا عام يشمل دعاء الحي لنفسه، ولغيره من الأحياء ومن

الأموات؛ فذلك يدل على أن الله تعالى هو القادر على كلّ شيء، وفي قبوله دعاء الأحياء للأموات هو سبحانه متفضلٌ على الداعين وعلى من دعي له.

وقد دلّ صريح الكتاب والسنة على وصول الدعوات والصدقات للأموات، قال الله تعالى عن نوحٍ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ: ﴿رَّبِّ ٱغْفِرْ لِى وَلِوَٰلِدَىَّ وَلِمَن دَخَلَ بَيْتِىَ مُؤْمِنًا وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ وَلَا تَزِدِ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا تَبَارًۢا﴾ [سورة نوح، من الآية:٢٨]، وقال سبحانه عن دعاء إبراهيم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ: ﴿رَبِّ ٱجْعَلْنِى مُقِيمَ ٱلصَّلَوٰةِ وَمِن ذُرِّيَّتِى رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَآءِ ۝٤٠ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لِى وَلِوَٰلِدَىَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ ٱلْحِسَابُ﴾ [سورة إبراهيم، من الآية:٤٠-٤١]، ولولا أن في دعاءهم للمؤمنين والمؤمنات نفعٌ لما كان لذكرهم من معنى.

وقال الله تعالى في دعاء المتبعين: ﴿وَٱلَّذِينَ جَآءُو مِنۢ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلْإِيمَٰنِ وَلَا تَجْعَلْ فِى قُلُوبِنَا غِلًّا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ رَبَّنَآ إِنَّكَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [سورة الحشر، من الآية:١٠].

ومما يؤكد أن في دعاء الأحياء نفعٌ للأموات ما يقوم به المسلم في صلاة الجنازة من الدعاء للميت، ولولا أن ذلك نافعه؛ لما كان لدعائهم مِن معنى.

وفي حديث أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ أَنَّ رَسُولَ اللهِ صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ قَالَ: "**إِذَا مَاتَ الإِنْسَانُ انْقَطَعَ عَمَلُهُ إِلاَّ مِنْ ثَلاَثٍ: صَدَقَةٌ جَارِيَةٌ، وَعِلْمٌ يُنْتَفَعُ بِهِ، وَوَلَدٌ صَالِحٌ يَدْعُو لَهُ**" [رواه الترمذي، وقال: حسن صحيح]، وهذا الحديث فيه ذكرُ الصدقة

الحسية، والصّدقة المعنوية كالعلم، وذكر الدعاء وهو من باب الصدقات القولية على المسلمين والمسلمات.

وجاء أيضًا في خصوص الصدقة من رواية أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ رَجُلًا قَالَ لِلنَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: إِنَّ أَبِي مَاتَ وَتَرَكَ مَالًا، وَلَمْ يُوصِ، فَهَلْ يُكَفِّرُ عَنْهُ أَنْ أَتَصَدَّقَ عَنْهُ؟ قَالَ: "نَعَمْ" [رواه مسلم].

وجاء مثله في حديث عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا أَنَّ رَجُلًا أَتَى النَّبِيّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ، إِنَّ أُمِّيَ افْتُلِتَتْ نَفْسَهَا وَلَمْ تُوصِ، وَأَظُنُّهَا لَوْ تَكَلَّمَتْ تَصَدَّقَتْ، أَفَلَهَا أَجْرٌ، إِنْ تَصَدَّقْتُ عَنْهَا؟ قَالَ: "نَعَمْ" [رواه البخاري ومسلم].

ثم إنّ وصول الدعاء والصدقات إلى الأموات هو من باب كسبهم، وعملهم، من حيث كسبهم الصّداقة، وبذلهم جهدهم في الدخول في عموم المسلمين، أو من حيث الإشارة، أو من حيث التصريح، كمن قال لأبنائه: تصدقوا عني، وضحوا عني، وادعوا لي، ونحو ذلك؛ فهو متسببٌ في ذلك؛ إما تسببٌ مباشرٌ، أو غير مباشرٍ، وقد جاء أن مما يلحق الإنسان بعد موته كسبه، وما كان له أثرٌ فيه؛ قال الله تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا۟ وَءَاثَـٰرَهُمْ ۚ وَكُلَّ شَىْءٍ أَحْصَيْنَـٰهُ فِىٓ إِمَامٍ مُّبِينٍ﴾ [سورة يس، من الآية:١٢]، ومعنى آثارِهم: خطاهم، وما سنُّوا من السنن باتباعهم الشّرع، أو أَمْرِهم بها، أو ما فعلوا من السنن المحدَثة، أو أَمْرِهم بها.

فإن قيل: فلماذا ذكر المصنف رَحِمَهُ ٱللَّهُ **مسألة وصول ثواب الأعمال للأموات في كتاب العقيدة؟**

فالجواب: أنّ مسألة وصول ثواب أعمال الأحياء للأموات إنما ذكرها المصنّف رَحِمَهُ ٱللَّهُ في باب الاعتقاد لكونها متعلقة بمسألة الإيمان باليوم الآخر، من جهة ما يصل إلى الميت وقد انتقل إلى عالم البرزخ، وما يصل إليه يوم القيامة.

وأما آحاد ما يصل إليه؛ وهل هو كذا أو كذا؛ فهي من مسائل الأحكام، وأصل المسألة هل يصل الثواب إلى الميت أو لا؟

وقد خالف في وصول ثواب الأعمال إلى الأموات طائفتان:

الطّائفة الأولى: المعتزلة: زعموا أنّه لا يصل إلى الميت شيءٌ، واستدلوا بعموم الآية: ﴿وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ﴾ [سورة النجم، من الآية:٣٩].

وتركوا خصوص الأدلة الدالة على انتفاع الأموات بالدعاء والصدقات، ومعلوم أن العام يعمل بعمومه على عمومه إذا لم يخصص؛ فمتى ما خصص عمل بعمومه دون ما خص منه؛ فيقال: ليس للإنسان إلا ما سعى، إلا ما جاء النص بوصوله إليه.

الطّائفة الثّانية: المتصوفة، وبعضُ المتفقهة، حيث زعموا أنَّ كلّ شيء يصل إلى الميت حتّى الصلاة والذِّكرِ وقراءةِ القرآن...إلخ، قالوا قياسًا على الدّعاء والصّدقة!؟

وهذا قياسٌ في مقابل نصٍّ عامٍ؛ فالنصوص العامة إذا خصص الشارع منها شيئًا لا يجوز لنا نحن أن نخصص من باقيه بقياساتنا، وآرائنا.

ثمّ أيضًا نقول: إن ّمسألة وصول الثواب للأموات غيبية؛ فلا يجوز أن نقيس في المسائل الغيبية، وهذا القياس يكون باطلًا، ولم يأت في الأدلة إلا أشياء مخصوصة ينتفع بها الميت من الحي، ولا يجوز القياس عليها.

وقد جاء في بعض النصوص وصول ثواب الحج، ونذر الصوم؛ فيقال بذلك، وأما التّعميم مطلقًا؛ فهذا يفتح بابًا لم يفتحه الشارع، قال الحافظ ابن كثيرٍ رَحِمَهُ ٱللَّهُ في تفسيره قول الله تعالى: ﴿وَأَن لَّيۡسَ لِلۡإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ﴾ [سورة النجم، من الآية:٣٩]: (ومن هذه الآية الكريمة استنبط الشافعي رَحِمَهُ ٱللَّهُ، ومن اتبعه أن القراءة لا يصل إهداء ثوابها إلى الموتى؛ لأنه ليس من عملهم ولا كسبهم؛ ولهذا لم يندب إليه رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَسَلَّمَ أمته، ولا حثهم عليه، ولا أرشدهم إليه بنص ولا إيماء، ولم ينقل ذلك عن أحد من الصحابة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمۡ، ولو كان خيرًا لسبقونا إليه.

وباب القربات يُقتصر فيه على النصوص، ولا يتصرف فيه بأنواع الأقيسة والآراء، فأما الدعاء والصدقة فذاك مجمع على وصولهما، ومنصوص من الشارع عليهما) [تفسير ابن كثير، سورة النجم].

وهذا كله تفضل من الله على عباده؛ فهو سبحانه يجيب الدعوات، ويرحم من شاء من البريات، بما شاء من أعمالهم، أو من أعمالٍ تسببوا فيها، أو بمحضٍ فضلٍ منه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

وخلاصة كلام المصنّف رَحِمَهُ ٱللَّهُ: إثبات وتقرير أن هناك من الأعمال الصالحة ما يمكن أن يصل إلى الميت، مثل الدعاء، والصدقات، وأن في ذلك نفعًا لهم.

❊❊❊

[الله تعالى وحده المالك الغني]

وَيَـمْلِكُ كُلَّ شَيْءٍ، وَلَا يَـمْلِكُهُ شَيْءٌ، وَلَا غِنًى عَنِ اللهِ تَعَالَى طَرْفَةَ عَيْنٍ، وَمَنِ اسْتَغْنَى عَنِ اللهِ تَعَالَى طَرْفَةَ عَيْنٍ فَقَدْ كَفَرَ، وَكَانَ مِنْ أَهْلِ الْـحَيْنِ والْـجَحِيمِ.

﴿ الشرح ﴾

هذا تقرير من المصنف رَحِمَهُ ٱللَّهُ في بيان عظيم ملك الله تعالى من جهة، ومن جهة أخرى بيان لضعف العبد ومدى حاجته إلى ربه تَبَارَكَ وَتَعَالَى.

قوله: "**وَيَمْلِكُ كلّ شَيْءٍ**" أي ونقرُّ ونؤمن بأنّ الله تعالى هو وحده الّذي له الملك، وأنه "**يَمْلِكُ**" مِن مَلَكَ الشيءَ أوجده، وحازَه، وهذا المعنى خاصٌّ بالله تعالى؛ فلا خالق إلا الله تعالى.

و "**يملك**" يأتي بمعنى قَدِرَ على التّصرف به منفردا، وهو مَسْتَوْلٍ على الملك، وعلى "**كلّ شيء**" فلا يخرج عن ملكه شيء، صغُر أو كبر، حقر أو عظم؛ فالله تعالى خالقُ كلّ شيءٍ، ومالك كلّ شيء، ومليكُ كلّ شيء، والملِكُ على كلّ شيء، قال الله تعالى: ﴿قُل لِّمَنِ ٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهَآ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨٤﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٨٥﴾ قُلْ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلسَّبْعِ وَرَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٨٦﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٨٧﴾ قُلْ مَنۢ بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨٨﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ فَأَنَّىٰ تُسْحَرُونَ﴾ [سورة المؤمنون، من الآية:٨٤-٨٩]؛ فملكية الأرضِ والسماوات والعرش، وملكوت كلّ شيء بيدِ الله تعالى، ولله تعالى وحده لا شريك له، وهذا تقرير

لمسألة الرّبوبيّة، ويترتب عليها الإقرار بالألوهية؛ لأنه إذا لم يكن أحدٌ يملك الأرض والسماوات والعرش إلا الله تعالى فيتعين أنه لا معبود إلا الله تعالى، وبهذا نجد أنه متى ما استقرت ربوبية الله تعالى وحده في قلب العبد، استقرّ التوحيد في قلبه، ومتى ما وجد خلل في الألوهية فبسبب خللٍ في الرّبوبيّة، والعكس بالعكس، قال الله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۚ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴿٧٨﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى ذَرَأَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٧٩﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُ وَلَهُ ٱخْتِلَٰفُ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [سورة المؤمنون، من الآية:٧٨-٨٠].

ثم إن من خصائص الرب تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ أنه المالك المليك لكل شيء، **"وَلَا يَمْلِكُهُ شَيْءٌ"**، وذلك لأنه الخالق، ومَن سواه مخلوق؛ فكيف للمملوك أن يملك سيده؟ قال الله تعالى: ﴿ضَرَبَ لَكُم مَّثَلًا مِّنْ أَنفُسِكُمْ ۖ هَل لَّكُم مِّن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُم مِّن شُرَكَآءَ فِى مَا رَزَقْنَٰكُمْ فَأَنتُمْ فِيهِ سَوَآءٌ تَخَافُونَهُمْ كَخِيفَتِكُمْ أَنفُسَكُمْ ۚ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ [سورة الروم، من الآية:٢٨]؛ فإذا كان عبدُ أحدِنا، وأجيرُ أحدنا، وخادمُ أحدنا، لا يملك معه شيئًا؛ فكيف يكون المخلوق يملك شيئًا مع الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ!؟

والله سبحانه وحده الخالق، ووحده المالك، ووحده الرزاق المدبر، ثم إنه وحده الأزليّ، وكلّ ما عداه فمحدَثٌ مخلوق؛ فكيف يملك المحدَثُ المخلوق الأزليَّ!؟

وكذلك الله تعالى وحده الغنيُّ، والمخلوق محتاجٌ فقيرٌ؛ فكيف للمحتاج الفقير أن يملك الغني!؟ بل إن المخلوق لا يمكنه الاستغناء عن خالقه لحظة؛ فهو في كلّ لحظات حياته محتاج إلى خالقه أبدًا، وهذه حاجة لازمة لكل مخلوقٍ؛ **"وَلَا غِنَى عَنِ اللهِ تَعَالَى طَرْفَةَ عَيْنٍ"**، أي ما للمخلوق عن الله تعالى بُدٌّ، ولا يقدرُ العبد على الاكتفاء بذاته؛ فالمخلوق لا يقدر على الاستغناء عن خالقه، لا في إيجاده، ولا في وجوده، ولا في استمراره، لا في حياته ولا في مماته؛ فالافتقار لازمٌ للمخلوقِ أبدًا؛ فلا يمكنه أن يستغني بذاته أبدًا، ولا **"طَرْفَةَ عَيْنٍ"**، أي فلا يقدر المخلوق أن يستغني عن خالقه تَبَارَكَ وَتَعَالَى ولا بمقدار لمحة البصر، وهي إغلاقة الجفن وفتحتها، وهي أقل مقدارٍ زمني يمكن أن يراه الإنسان بعينه؛ فهو قياس زماني مرئيٌّ، فلا غناءَ للمخلوق عن خالقه أبدًا، لا في عملٍ ما يعمل في جسمه، وهو غافلٌ لا يدري عنه، ولا في هوائه وتنفسه، ولا في غذائه، ولا في حاجته وافتقاره إلى ما حوله، سواءٌ من حيث المجريات، أو من حيث الزمان، أو من حيث المكان، قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلۡفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِۖ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلۡغَنِيُّ ٱلۡحَمِيدُ﴾ [سورة فاطر، من الآية:١٥].

وقال سبحانه: ﴿يَٰمَعۡشَرَ ٱلۡجِنِّ وَٱلۡإِنسِ إِنِ ٱسۡتَطَعۡتُمۡ أَن تَنفُذُواْ مِنۡ أَقۡطَارِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ فَٱنفُذُواْۚ لَا تَنفُذُونَ إِلَّا بِسُلۡطَٰنٖ﴾ [سورة الرحمن، من الآية:٣٣]؛ فلا يقدر المخلوق أن يخرج من تصرّف الله فيه أبدًا؛ لأنه في مكانه الّذي خلق له، وزمانه

الّذي يجري عليه، وهو في ذلك مفتقرٌ ذليلٌ، تجري عليه الأقدارُ؛ فلا يمكنه أن يختار مكان ولادته، ولا زمان ولادته، ولا بما به يكمل في جسمه، ولا بما به يكمل فيما حوله، وهلم جرًّا.

ولم يقع من أحدٍ من المخلوقين إمكان استغنائه عن ربه تَبَارَكَ وَتَعَالَى، حتّى المشركون على شركهم يعلمون مدى حاجتهم لربهم، وشدة افتقارهم إلى خالقهم، قال الله تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَفْعَلُ مِن ذَٰلِكُم مِّن شَىْءٍ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [سورة الروم، من الآية:٤٠]، ومع إقرار المشركين بحاجتهم إلى ربهم، إلا أن من المنتسبين إلى الإسلام فرقةٌ ضالة مُلْحِدة، وإن لبست لباس الدين، زعمت أنهم مستغنون عن الله تعالى، وأن لهم حولًا وقوَّةً ذاتية ليسوا فيها مفتقرين إلى حولِ الله تعالى وقوَّته!؟

وهذا قاله طائفة من قدماء المعتزلة، وبهذه المقالة الشنيعة كفرهم علماءُ الأمة، وبينوا أنهم خارجون عن الإسلام باعتقادهم هذا، ولهذا قال المصنّف رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **"وَمَنِ اسْتَغْنَى عَنِ اللهِ طَرْفَةَ عَيْنٍ فَقَدْ كَفَرَ"**، أي من اعتقد أنه يمكنه أن يستغني عن ربِّه تَبَارَكَ وَتَعَالَى لمحَ البصر فإنه بلا ريبٍ واقعٌ في الكفر، ومعتقدٌ له، وقائلٌ به، ويجب على الحاكم المسلم أن يقيم عليه الحجة، وأن يبين له المحجة، فإن رجع إلى الحق فذاك، وإلا وجب عليه أن يجري عليه أحكام الكافرين، وذلك

لأن الزعم بأنه يمكن للمخلوق الاستغناء عن الخالق يعني أنه سيكون خالقًا تعالى الله عما يقول الظالمون علوًا كبيرًا.

وقد صار على هذا بعضُ من يدعي الوَلاية، ويسمي نفسه شيخًا، أو وليًّا، أو قطبًا، أو غوثًا، حتى زعم أنه مشارك لله تعالى في التصرف والملك والتدبير، نعوذ بالله تعالى من الخذلان.

قال الله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ ٱلْغَنِىُّ وَأَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ وَإِن تَتَوَلَّوْا۟ يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوٓا۟ أَمْثَٰلَكُم﴾ [سورة محمد، من الآية:٣٨]؛ فالواجب الإقرار بربوبية الله تعالى على المخلوقين في كلّ لحظة، وفي كلّ لمحة بصرٍ، والاعتقاد بأن المخلوق أبدًا محتاجٌ إلى خالقه، وأنه لا يمكنه الاستغناء عنه أبدًا، وأن من ظن ذلك فإنه لا ريب خرج عن الدين، **"وَصَارَ مِنْ أَهْلِ الْحَيْنِ"**، أي أصبح من أهل الهلاك، والحَيْنُ بفتح الحاء، وسكون التحتانية المثناة، ونون موحدة، معناها: الهلاك بمحنة وابتلاء وشدة؛ فكل من اعتقد أنه يسعه الخروج عن ملكوت الله تعالى بذاته، أو بحوله وقوته، وأنه يمكنه أن يستغني عن خالقه؛ فلا ريب أنه سيبتلى بلاءً شديدًا ويهلك من تلك الجهة، نعوذ بالله من الخذلان.

فالواجب على المؤمن أن يتبرأ من حوله، ومن قوته، وأن يكون دائم اللجأ إلى الله تعالى؛ كما جاء في حديث بريدة بن الحصيب رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ قال: وقال رسولُ الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **"دعواتُ المكروبِ: اللهُمَّ رحمتَك أرجُو، فلا تكلْنِي إلى نَفْسي**

طرْفَةَ عَينٍ، وأصلحْ لي شأني كُلَّهُ، لا إلهَ إلا أنتَ" [رواه أبو داود، وإسناده حسن].

وخلاصة كلام المصنّف رَحِمَهُ ٱللَّهُ: أنه يقرر بيان كمال الله تعالى، وأنه سبحانه المالك لكل شيء، ومَلِكُ كلّ شيء، وهو المستغني عن كلّ شيء، والعبد لا يستغني عن ربه طرفة عين، بل هو مفتقر إلى ربه على الدوام.

[إثبات الصفات الفعلية لله تعالى]

وَاللهُ تَعَالَى يَغْضَبُ، وَيَرْضَى، لَا كَأَحَدٍ مِنَ الْوَرَى.

الشرح

هذا تقرير من المصنف رَحِمَهُ ٱللَّهُ لبيان الصفات الفعلية للرب تَبَارَكَوَتَعَالَىٰ، وأنه سبحانه في ذلك ليس كأحدٍ من المخلوقين.

وإذا تقرر فيما سبق أن العبد المخلوق لا يمكنه الاستغناءُ عن خالقه؛ فليعلم أن خالقه سُبْحَانَهُۥوَتَعَالَىٰ له صفاتٌ، ومن ذلك أنه تَبَارَكَوَتَعَالَىٰ: **"يَغْضَبُ وَيَرْضَى، لَا كَأَحَدٍ مِنَ الْوَرَى"**، وفيه إثبات الصفات الفعلية للرب تَبَارَكَوَتَعَالَىٰ، وهي الّتي يوصف الله تعالى بها وبضدها؛ فهو يُحبُّ المؤمنين، ويسخط الكافرين، ويرحم المرحومين، ويعذب المسخوطين، ويهدي المهتدين، ويضل الضالين، وهكذا في جميع صفات الأفعال.

ومن جملة ذلك أنه سُبْحَانَهُۥوَتَعَالَىٰ: **"يَغْضَبُ وَيَرْضَى"**، وهاتان صفتان متقابلتان؛ فالله تعالى أخبر عن نفسه أنه يغضب وأنه يرضى، وغضبه سبحانه سُخْطُه، ومن آثار غضبه انتقامه، ومن آثار رضاه سبحانه سروره، وفرحه، ومن آثار ذلك إرضاؤه من رضي عنهم بإعطائهم ما في خواطرهم، وقول الحُسْنِ لهم.

قال الله تعالى عن غضبه: ﴿وَلَٰكِن مَّن شَرَحَ بِٱلۡكُفۡرِ صَدۡرٗا فَعَلَيۡهِمۡ غَضَبٞ مِّنَ ٱللَّهِ وَلَهُمۡ عَذَابٌ عَظِيمٞ﴾ [سورة النحل، من الآية:١٠٦]، وقال سبحانه:

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ تَوَلَّوْا قَوْمًا غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِم﴾ [سورة المجادلة، من الآية:١٤]، وقال جَلَّ وَعَلَا: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَوَلَّوْا قَوْمًا غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ﴾ [سورة الممتحنة، من الآية:١٣].

وقال الله تعالى عن رضاه: قال الله تعالى: ﴿رَّضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ذَٰلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ [سورة المائدة، من الآية:١١٩]، وقال سبحانه: ﴿وَالسَّابِقُونَ الْأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُم بِإِحْسَانٍ رَّضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ﴾ [سورة التوبة، من الآية:١٠٠]، وقال جَلَّ وَعَلَا: ﴿لَّقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ﴾ [سورة الفتح، من الآية:١٨].

والآيات والأحاديث الدالة على إثبات صفات الأفعال لله تَبَارَكَ وَتَعَالَى كثيرة، وكذلك الآيات الّتي تدل على إثبات صفتي الغضب والرضا.

والله تعالى يغضب ويرضى، **"لَا كَأَحَدٍ مِنَ الْوَرَى"**، وذلك لأن القول في الصّفات كالقول في الذات، والله تعالى ليس كذاته شيءٌ؛ فليس لصفاته كفؤٌ، كما ليس له سميٌّ، ولا له ندٌّ، ولا له نظيرٌ؛ فجميع الصّفات الّتي تضاف إلى الله تعالى مجراها واحدٌ، وهو أنها بعد الإضافة تكتسب خصائص الرب تَبَارَكَ وَتَعَالَى؛ فحينئذٍ لا يمكن تصور المثلية أو التشبيه؛ فإنا نقول لله تعالى ذاتٌ لا كالذوات، وله اسمٌ لا كالأسماءِ، ووصفٌ لا كأوصافِ الورى، وفِعلٌ لا كأفعال المخلوقين، وعلى هذا ينبغي الإقرار بكل ما جاء مضافًا إلى الله تعالى على وجه الوصفية، وذلك لأن الإضافة تكسب المضاف خصائص المضاف إليه، وتُبعده

عن مشابهة المضاف إلى غيره؛ فلما نقول: إن الله تعالى خلقَ السماواتِ، وبنى السّماء، ومهد الأرض؛ فلا يمكن لعاقلٍ أن يقولَ إنه تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ في خلقه وبنائه ومهده كصنع وبناء ومهد المخلوقِ، وذلك لأن تلك المعاني أضيفت إلى الخالق تعالى فبالإضافة انقطت المثلية والتشبيه.

فالله تعالى له سمعٌ لا كسمع الورى، وله علمٌ لا كعلم المخلوقين، وهو سبحانه استوى على عرشه لا كاستواء المملوكين، وهو سبحانه يرضى ويغضب لَا كَأَحَدٍ مِنَ المخلوقين، وهكذا القول في جميع الصّفات المضافة إلى الله تعالى، كلها تجرى على قاعدة قول الله تعالى: ﴿لَيۡسَ كَمِثۡلِهِۦ شَيۡءٞۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡبَصِيرُ﴾ [سورة الشورى، من الآية:١١]، وقوله: ﴿وَلَمۡ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدُۢ﴾ [سورة الإخلاص، من الآية:٤]، وقوله: ﴿وَلِلَّهِ ٱلۡمَثَلُ ٱلۡأَعۡلَىٰۚ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ﴾ [سورة النحل، من الآية:٦٠]؛ فالوصف الأكمل، والْمُثُلُ الأعلى، وقياس الأولى، والذي لا يشارك الرب فيه أحدٌ هو الّذي نثبته لله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ، وليس في هذا أي تشبيه، ولا تمثيلٍ؛ بل هو جارٍ على مراد الله تعالى، ومراد رسوله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَسَلَّمَ، حيث جاء في الكتاب والسنة إضافة هذه الصّفات إلى الله تعالى.

وقد أنكرت طوائف من أهل البدع صفات الأفعال، وانقسموا في تأويلها إلى طائفتين:

الطّائفة الأولى: أولوها بالمفعولات، كما هو حال المعتزلة؛ فيقولون في مثل الرضا والغضب، أي المرضي عنه والمغضوب عليه!؟

الطّائفة الثّانية: أولوها بالصّفات الذاتية؛ كما هو حال الأشاعرة والماتريدية؛ فيقولون في مثل الرضا والغضب، أي إرادة إكرامهم، وإرادة الانتقام منهم!؟

ومعلوم في بدائه العقول أن الفعل غير المفعول، وأن الإرادة غير الرضا والغضب، ثم هذا التأويل المحدَث من المعتزلة والأشاعرة قولٌ محدَثٌ بعد مضي قرون السلف، وقد مضوا على إجراء النصوص على ظاهرها، ولم يفهموا منها التشبيه؛ فوجب إجراؤها على ظاهرها الّذي فهمه السلف، ولهذا تواتر عنهم قولهم: أمرُّوها كما جاءت بلا كيف، وقولهم: تُجْرَى على ظاهرها بلا تأويل.

ولا يجوز أن يقال بمثل هذه التأويلات المحدَثة الّتي فتحت باب الشر في النصوص فصار كلّ من يريد أن يؤول حكمًا أو خبرًا يقول فيه بالتأويل الّذي يرتضيه، أو الّذي يهواه ويبغيه، أو الّذي ذهب إليه شيخه، حتّى صار منهم طوائف إلى القول بالزندقة والشرك والعناد، والكفر والإلحاد، والحلول والاتحاد؛ ويستدلون بنصوص يؤولونها على أهوائهم مع العناد.

وخلاصة كلام المصنّف رَحِمَهُ ٱللَّهُ: أنه سبحانه يغضب ويرضى، لا كغضب المخلوقين، وعلى هذا يجب إجراء جميع الصّفات الذاتية والفعلية.

❊❊❊

[من الاعتقاد حبّ الصحابة رضي الله تعالى عنهم]

وَنُحِبُّ أَصْحَابَ رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَلَا نُفَرِّطُ فِي حُبِّ أَحَدٍ مِنْهُمْ، وَلَا نَتَبَرَّأُ مِنْ حُبِّ أَحَدٍ مِنْهُمْ، وَنُبْغِضُ مَنْ يُبْغِضُهُمْ، وَبِغَيْرِ الْخَيْرِ يَذْكُرُهُمْ، وَلَا نَذْكُرُهُمْ إِلَّا بِخَيْرٍ، وَحُبُّهُمْ دِينٌ، وَإِيمَانٌ، وَإِحْسَانٌ، وَبُغْضُهُمْ كُفْرٌ، وَنِفَاقٌ، وَطُغْيَانٌ.

﴿ الشرح ﴾

هذا تقرير من المصنف رَحِمَهُ ٱللَّهُ في بيان المعتقد الصحيح في أصحاب رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، و رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ.

قوله: "**ونحب أصحاب رسول الله** صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ" فيه بيان ما يجب على أهل الإسلام تجاه الذين بلّغوا الإسلام، وأوصلوه إلينا، وهم الصحابة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ.

وهذه المسألة تابعة لمسألة الركن الرّابع من أركان الإيمان، وهو ركن الإيمان بالرّسل، وهي تابعة لمسألة الإيمان بالنّبيّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ فالرسول صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ هو الّذي علّمهم، وزكّاهم؛ فلا بد وأن تكون تلامذته مِن خيرِ الْمُتعلِّمِين، ومن خير الْمُزكِّين، وقد كانوا كذلك بشهادة ربّ العالمين تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ، وبشهادة سيد المرسلين صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وبشهادة الخيرة من التابعين رَحِمَهُمُ ٱللَّهُ تعالى، وبشهاد الواقع الذي نشروا فيه الإسلام، وأبادوا فيها طواغيت الكفر.

وهؤلاء الصَّحَابة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ لهم حقوقٌ من ثلاثة أوجهٍ:

الوجه الأوّل: لكونِ الله تعالى قد أثنى عليهم، وهم تلامذة النّبيّ صَلَّاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ.

الوجه الثّاني: لكونهم نصروا الإسلام وحفظوه.

الوجه الثّالث: لكونهم أوصلوا إلينا الإسلام ونشروه.

فهؤلاء الصحابة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمْ لهم علينا عِدّةُ حقوقٍ، وهي:

الحقّ الأوّل: حبهم جميعا رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمْ.

الحقّ الثّاني: الدّعاءُ لهم، والثّناء عليهم، والتّرضي عنهم.

الحقّ الثّالث: نقاوة القلب تجاههم، وعدم الغل عليهم.

الحقّ الرّابع: الاقتداء بهم في فهم الدين، ومسائله.

الحقّ الخامس: الدفاع عنهم.

وقد قال المصنّف رَحِمَهُٱللَّهُ عن الحق الأول: "**ونحب أصحاب رسول الله** صَلَّاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ" أي ونقرُّ بمودّة ومحبّة "**أصحاب رسولِ الله** صَلَّاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ".

و "**أصحاب**" جمعُ (صاحبٍ)، وهو لغة الخليل والملازم والمعارِفُ، و (الصّحابة) مفرده (صحابيّ)، وهو: من لقي النّبيّ صَلَّاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ مؤمنا به، ومات على الإسلام، ولو تخلله ردة، على الصّحيح من أقول أهل العلم.

وعلى هذا فمن لقي النّبيّ صَلَّاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ كافرًا، أو منافقًا، لا يصح إطلاق اسم الصحابي عليه، وإنما (**الصحابيّ**) هو الّذي لقيه وآمن به، ومات على ذلك، سواء كان اللُّقيُّ ساعةً، أو يومًا، أو أسبوعًا، أو شهرًا، أو سنّة، أو أكثر أو أقل.

ولفظ الصحبة جاء في القرآن الكريم في حق الصِّدِّيق رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ، قال الله تعالى: ﴿ثَانِيَ ٱثۡنَيۡنِ إِذۡ هُمَا فِي ٱلۡغَارِ إِذۡ يَقُولُ لِصَٰحِبِهِۦ لَا تَحۡزَنۡ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا﴾ [سورة التوبة، من الآية: ٤٠].

وجاء ذكر الصحابة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمْ بوصفٍ خاصٍّ بهم، ولَقَبٍ لَقَّبَهُمُ الشّرع بذلك، وهو لقب المهاجرين والأنصار، وقد جاء الثناء عليهم في آيات كثيرة، ومنها قول الله تعالى: ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلۡأَوَّلُونَ مِنَ ٱلۡمُهَٰجِرِينَ وَٱلۡأَنصَارِ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحۡسَٰنٖ رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمۡ وَرَضُواْ عَنۡهُ وَأَعَدَّ لَهُمۡ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي تَحۡتَهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدٗاۚ ذَٰلِكَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ﴾ [سورة التوبة، من الآية: ١٠٠].

وقد ذكرهم النّبيّ صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ بهذا الوصف، وبالمدح، وبالصحبة؛ فجاء في حديث أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: **"لَا تَسُبُّوا أَصْحَابِي، لَا تَسُبُّوا أَصْحَابِي، فَوَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَوْ أَنَّ أَحَدَكُمْ أَنْفَقَ مِثْلَ أُحُدٍ ذَهَبًا، مَا أَدْرَكَ مُدَّ أَحَدِهِمْ، وَلَا نَصِيفَهُ"** [رواه البخاري من حديث أبي سعيد الخدري رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ، ومسلم واللفظ له، من حديث أبي هريرة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ].

وجاء في حديث الْبَرَاءَ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ يُحَدِّثُ عَنِ النّبيّ صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ أَنَّهُ قَالَ فِي الْأَنْصَارِ: **"لَا يُحِبُّهُمْ إِلَّا مُؤْمِنٌ، وَلَا يُبْغِضُهُمْ إِلَّا مُنَافِقٌ، مَنْ أَحَبَّهُمْ أَحَبَّهُ اللهُ، وَمَنْ أَبْغَضَهُمْ أَبْغَضَهُ اللهُ»"** [رواه مسلم].

وجاء في حديث أنسٍ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: **"آيَةُ الْمُنَافِقِ بُغْضُ الْأَنْصَارِ، وَآيَةُ الْمُؤْمِنِ حُبُّ الْأَنْصَارِ"** [رواه مسلم].

وجاء في حديث أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وفي حديث أبي سعيد الخدري ت: أَنَّ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: **"لَا يُبْغِضُ الْأَنْصَارَ رَجُلٌ يُؤْمِنُ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ"** [رواه مسلم].

وجاء في خصوص بعض الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ حديث عليٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وفيه: قَالَ: وَالَّذِي فَلَقَ الْحَبَّةَ، وَبَرَأَ النَّسَمَةَ، إِنَّهُ لَعَهْدُ النَّبِيِّ الْأُمِّيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِلَيَّ: **"أَنْ لَا يُحِبَّنِي إِلَّا مُؤْمِنٌ، وَلَا يُبْغِضَنِي إِلَّا مُنَافِقٌ"** [رواه مسلم].

فالصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ يُحبُّون في الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى، ولله تعالى، ولمكانتهم من دين الله تعالى، ولمنزلتهم عند رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ولمحبة دين الله تعالى، ولكونهم وسيلة لإيصال الدِّين إلينا، فحبهم تابع للمحبة في الله تعالى، ولمحبة رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ولمحبة أولياء الله تعالى.

ولا يجوز الغلو في هذا الحبّ، بحيث يوصل حبنا لهم إلى اعتقاد العصمة في أحدهم، أو اعتقاد شيءٍ من خصائص النبوة فيهم، أو اعتقاد شيء من خصائص الرّبوبيّة فيهم؛ فيجب حبهم تديُّنًا لله تعالى.

ولا يجوز الجفاء في حبهم، أو ترك حبهم، **"ولا نفرط في حب أحد منهم"**، وذلك لأنّ التّفريط في حب واحدٍ منهم يكون سببًا في التفريط في حب آخرين منهم.

و **"لا نُفَرِّطُ"** أي لا نُضَيِّع، وأصل **(التّفريط)** التقصير، وتصريف الشيء وتبديده، وضياعه حتّى يفوت، فلا يجوز التفريط في حب أي أحدٍ من الصحابة

رَضِيَٱللَّهُعَنۡهُمۡ؛ فيجب حبهم كلهم؛ كما أثبت الله تعالى رضاه عن جميع المهاجرين والأنصار، وتوبته عليهم، وأثبت الله تعالى الفضلَ لهم، وأثبته رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ؛ فينبغي حبهم جميعًا.

وهذا لا ينافي كون حبنا لهم متفاوت؛ لأن المهم هو حبنا لهم، وأما تفاوت حبنا لهم؛ فهذه بحسب مراتبهم، ومكانتهم، ومنازلهم، وقربهم قربًا دينيًّا مِن رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ، فالتفاوت في حبّهم، وحبّ بعضهم أكثر من بعضٍ، بقدرِ مكانته في دين الله تعالى، وليس لمجرد الشهرة، أو لمجرد القربة، أمرٌ محمودٌ، ولكن من حيث الجملة يجب حبهم جميعًا، وحب بعضهم لمزية فيه أمرٌ مشهور؛ فنحب الصّديق رَضِيَٱللَّهُعَنۡهُ لكونه صاحب النّبيّ صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ الخاص، ونحبّ عمر رَضِيَٱللَّهُعَنۡهُ لكونه وزيرَ النّبيّ صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ، ونحبّ عثمان رَضِيَٱللَّهُعَنۡهُ لكونه ذا النورين، ونحب عليًّا رَضِيَٱللَّهُعَنۡهُ لكونه أبا السبطين، وهكذا نحب كلّ واحدٍ منهم لمزية، والحبّ العام لهم لكونهم صحابة رَضِيَٱللَّهُعَنۡهُمۡ، فهناك حبٌّ خاصّ لسببٍ شرعيٍّ خاصٍّ، وحبٌّ عامٌّ للصحبة؛ فالأوّل فيه التفاوت ظاهرٌ، والثاني يثبت للكل، وإن كان قد يتفاوت الثاني أيضًا بحسب طول وقصر مدة الصّحبة، وذلك لا يؤثر في المحبة العامة.

ومن لوازم هذه المحبة الدينية تولي الصحابة رَضِيَٱللَّهُعَنۡهُمۡ، واعتقاد وَلايتهم الخاصة والعامة، وأنه يجب أن نتولاهم في الله تعالى؛ فالمؤمن مأمور أن يتولى المؤمنين؛ فكيف بصحابة رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ؛ كما قال الله تعالى: ﴿إِنَّ

﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ بِأَمۡوَٰلِهِمۡ وَأَنفُسِهِمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ ءَاوَواْ وَّنَصَرُوٓاْ أُوْلَٰٓئِكَ بَعۡضُهُمۡ أَوۡلِيَآءُ بَعۡضٖ﴾ [سورة الأنفال، من الآية:٧٢]، وقال سبحانه: ﴿وَٱلۡمُؤۡمِنُونَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتُ بَعۡضُهُمۡ أَوۡلِيَآءُ بَعۡضٖ﴾ [سورة التوبة، من الآية:٧١]، وقال جَلَّ وَعَلَا: ﴿وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بَعۡضُهُمۡ أَوۡلِيَآءُ بَعۡضٖۖ وَٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلۡمُتَّقِينَ﴾ [سورة الجاثية، من الآية:١٩]؛ وإذا أثبت الله تعالى وَلايته للمتقين؛ فإن الصحابة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمۡ على رأس المتقين؛ فوَلايةُ الله تعالى ثابتة لهم؛ فلا يجوز حينئذٍ تركُ وَلايتهم؛ بل يجب موالاتهم، لا سيما وقد أخبر الله تعالى وهو علام الغيوب عن رضاه عنهم في عدة آيات منها قوله تعالى: ﴿رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمۡ وَرَضُواْ عَنۡهُۚ ذَٰلِكَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ﴾ [سورة المائدة، من الآية:١١٩]، وقوله سبحانه: ﴿لَّقَدۡ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ إِذۡ يُبَايِعُونَكَ تَحۡتَ ٱلشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمۡ فَأَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ عَلَيۡهِمۡ وَأَثَٰبَهُمۡ فَتۡحٗا قَرِيبٗا﴾ [سورة الفتح، من الآية:١٨]، وقوله جَلَّ وَعَلَا: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ ٱلۡإِيمَٰنَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٖ مِّنۡهُۖ وَيُدۡخِلُهُمۡ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمۡ وَرَضُواْ عَنۡهُۚ أُوْلَٰٓئِكَ حِزۡبُ ٱللَّهِۚ أَلَآ إِنَّ حِزۡبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ﴾ [سورة المجادلة، من الآية:٢٢].

وقول المصنّف رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **"ولا نتبرأ من أحد منهم"** تأكيد لأمر الوَلاية؛ فإن مقتضاها توليهم، ونصرتهم، وتأييدهم، والدفاع عنهم، وهذا القدر من توليهم واجبٌ واعتقادٌ فرضٌ ودينٌ، وما زاد عن ذلك فهو من مسائل الأحكام.

وأما **(التبريء)** منهم، أو مِن واحدٍ منهم؛ فهذا من علامات الزيغِ والبدعة، فالسلف والأئمة المهتدون لا يزالون يتولون الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ، حتّى نشأت طوائف من أهل البدع من المعتزلة، والخوارج، والباطنية، والرّافضة، والشّيعة؛ فصاروا يتبرَّؤون من بعضِ الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ، ومنهم مُقِلٌّ ومستكثِر.

وأما أهل السنة والجماعة فصاروا على طريقة السلف في حبهم للصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ، ووَلايتهم، **"ولا نتبرَّأُ مِن أحدٍ منهم"**، أي: لا نتخلَّى عن أحدٍ منهم، ولا نذرأ، ولا نترك وَلايته ومحبته، ولا نقطع الصِّلَة به؛ بل نرى وَلايتهم دينا، وأنَّ من تبرأ من واحدٍ منهم دينًا فإنّه على بدعةٍ، ومن تبرأ مِن واحدٍ منهم دنيا؛ فهو بحسبه.

وذلك لأن **(التَّبَرُّأَ)** مِن عامة المؤمنين لا يجوز؛ فكيف مِن خاصتهم؛ بل كيف مِن لبهم، وهم الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ، قال الله تعالى: ﴿ٱلۡأَخِلَّآءُ يَوۡمَئِذِۭ بَعۡضُهُمۡ لِبَعۡضٍ عَدُوٌّ إِلَّا ٱلۡمُتَّقِينَ﴾ [سورة الزخرف، من الآية:٦٧]؛ فالتبرأ إنما يكون واجبًا بإطلاق من الكفرة، ومن أهل البدع على حسب بدعتهم، ومن أهل المعاصي الظاهرين بحسب معاصيهم؛ ولكن المسلم لا يخلو من الموالاة العامة، وله الموالاة الخاصة إذا ثبتت وَلايته، ولم تظهر منه إلا اتباع السنة، ومجانبة البدعة، قال الله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱسۡتِغۡفَارُ إِبۡرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَن مَّوۡعِدَةٖ وَعَدَهَآ إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥٓ أَنَّهُۥ عَدُوّٞ لِّلَّهِ تَبَرَّأَ مِنۡهُۚ إِنَّ إِبۡرَٰهِيمَ لَأَوَّٰهٌ حَلِيمٞ﴾ [سورة التوبة،

من الآية:١١٤]، وقال سبحانه: ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَآءُ مِنْكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا حَتَّى تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحْدَهُ﴾ [سورة الممتحنة، من الآية:٤]؛ فالصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ يجب موالاتهم من حيث العموم والخصوص، ولا يجوز التبرأ من واحدٍ منهم لا على سبيل العموم، ولا على سبيل الخصوص، وذلك لأن ما قد يكون صدر منهم مما يُظن، أو يتوهَّم، أنه ذنبٌ؛ فذاك مغفورٌ لهم، بنص إعلام الله تعالى لنا، حيث أخبر أنه تاب عليهم مطلقًا؛ فقال الله تعالى: ﴿لَقَدْ تَابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ الْعُسْرَةِ مِنْ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ إِنَّهُ بِهِمْ رَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾ [سورة التوبة، من الآية:١١٧].

فإن رأينا رجلًا يطعن في أحدِ الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ، او ينقص من قدره، فإنه يجب علينا الدّفاع عنه، ونصرته، وبيان منزلته ودرجته في دين الله تعالى، ونظهر **"بغض من يبغضهم"**، ونعلن ذلك، وذلك لأن من أبغضهم؛ فإنه مبغضٌ لله تعالى، ومبغضٌ لرسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ومبغضٌ لأهل الإسلام حقيقة، وإنِ ادّعى خلاف ذلك، إذ لو كان محبًّا لأهل الإسلام لأظهر حب الذين اختارهم الله تعالى لنصرة دينه، وصحبة نبيه، ولجعلهم في المنزلة العالية في الدين، وهم الذين أوصلوا الإسلام شرقًا وغربًا، فمَن ادعى محبة الله تعالى، أو محبة رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ فعليه بموالاة المتقين، وهم الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ من الأنصار

والمهاجرين، وعليه بترك بغض أحدٍ منهم؛ بل يجب عليه أن يبغض من يبغضهم، **"وبغير الخير يذكرهم"**؛ فمن ذكر صحابيًّا بسوءٍ، أو بنقصٍ، أو بتنقصٍ، أو بعدم الاعتراف بفضله، أو أنكر صحبته بعد ثبوتها، ونحو ذلك مما يدل على أنه يريد النيل من أحدٍ من الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ؛ فإنه يكون على بدعةٍ، وخطرٍ، لا سيما إذا كان يرى بغضه دينًا، وهذا أخطر وأخطر.

ويدخل في هذا أيضًا: مَن يكذب عليهم، أو يزيد في الأخبار الواردة عنهم، أو يُنقص الكلام الوارد ليتغير مدلوله عليهم، أو يغير وجه الخبر فيهم؛ فهذا كله شرٌّ منافٍ للثناءِ عليهم، ووجوب مدحهم، وحبهم، ونصرتهم.

فإن قال قائلٌ: فإنهم بشرٌ ليسوا معصومين، وقد صدرَ عن بعضهم أمورٌ ندموا عليها؟

فالجواب: أن يقال؛ كما قال المصنف رَحِمَهُ اللَّهُ: **"ولا نذكرهم إلا بخير"**، أي إذا جاء الحديث عنهم، أو ذُكِر أحدٌ منهم، أو استحضر وصف أحدٍ منهم؛ فإنا لا نقول إلا خيرًا، ونحفظهم في غيبتهم؛ فإنا مأمورون بترك الغيبة في حق عموم المسلمين؛ فكيف في حق خصوص الصحابة ن.

وأيضًا فإن الله تعالى مدح الذين جاؤوا من بعد الصحابة ن، بطهارة ألسنتهم في حقهم، وحسن اعتقادهم فيهم، وثنائهم عليهم؛ فقال الله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ جَآءُو مِنۢ بَعۡدِهِمۡ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱغۡفِرۡ لَنَا وَلِإِخۡوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلۡإِيمَٰنِ وَلَا تَجۡعَلۡ فِي قُلُوبِنَا غِلّٗا لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ رَبَّنَآ إِنَّكَ رَءُوفٞ رَّحِيمٌ﴾ [سورة الحشر، من الآية:١٠].

وأيضًا: لأن الله تعالى ذكر خير الصحابة ن، وأثنى عليهم بإطلاق، وعلى غيرهم بقيد اتباعهم بإحسان؛ كما في قوله تعالى: ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ مِنَ ٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحْسَٰنٍ رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى تَحْتَهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾ [سورة التوبة، من الآية:١٠٠].

وأخبر الله تعالى أن إيمانهم هو الإيمان الكامل؛ فأي خبرٍ ينافي هذا المعنى؛ فيجب اعتقاد تحريفه، أو تغييره، أو نقصه وزيادته، وعلى فرضِ ثبوته؛ فهو مما عُفِيَ لهم، وذلك لما لهم من الحسنات الماحية، والرفعة الدينية العالية، قال الله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَهَاجَرُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ ءَاوَوا۟ وَّنَصَرُوٓا۟ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّا ۚ لَّهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾ [سورة الأنفال، من الآية:٧٤]، فالآية نص في فضل إيمان المهاجرين والأنصار.

ومما يؤكد ذلك أن الله تعالى أثنى على نياتهم، وأعمالهم، وألسنتهم؛ كما في سورة الحشر؛ فقال تعالى: ﴿لِلْفُقَرَآءِ ٱلْمُهَٰجِرِينَ ٱلَّذِينَ أُخْرِجُوا۟ مِن دِيَٰرِهِمْ وَأَمْوَٰلِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا وَيَنصُرُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ ﴿٨﴾ وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلْإِيمَٰنَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِى صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّآ أُوتُوا۟ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ۚ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ [سورة الحشر، من الآية:٨-٩].

فمن رامَ معرفة قدر الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ، ومعرفة ديانتهم، وإخلاصهم، واتباعهم، وحبهم لرسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ونصرتهم لدين الله تعالى؛ فعليه بكتاب الله تعالى، الّذي فيه من الثناء على الصحابة ما يعجز القلم عن جمعه، وما يعجز الذهن عن حفظه، وما تعجز المجالس عن ذكره؛ كما أن عليه بصحيح السنة، وصحيح السيرة؛ فإنه سيدرك منازلهم، وعلو مراتبهم؛ فيعرف قدرهم، ويعتقد فضلهم، ويجب أنَّ نعتقد أنَّ **"حبهم دين وإيمان وإحسان"**، فنحبهم لاختيار الله تعالى لهم حتّى يكونوا المهاجرين مع نبيه، والأنصار لدينه، ونحبهم ديانة لحبِّ رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لهم، ولكونهم تلامذته وأنصاره وأعوانه، ونحبهم ديانة لكونهم حماة الدين، ودعاة الإسلام، قال الله تعالى في سورة الفتح وصفًا لهم بأنهم الفاتحون: ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْۖ تَرَىٰهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًاۖ سِيمَاهُمْ فِى وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ ٱلسُّجُودِۚ ذَٰلِكَ مَثَلُهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِۚ وَمَثَلُهُمْ فِى ٱلْإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْـَٔهُۥ فَـَٔازَرَهُۥ فَٱسْتَغْلَظَ فَٱسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِۦ يُعْجِبُ ٱلزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ ٱلْكُفَّارَۗ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِنْهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًۢا﴾ [سورة الفتح، من الآية:٢٩].

فمن أحب الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ تديُّنًا زاد إيمانه، وظهر إحسانه، ولهذا قال المصنّف رَحِمَهُ اللَّهُ: **"وحبهم دينٌ"** أي أن حب الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ من الدين، وأن حبهم دليل الإسلامِ، ودليلٌ على الرضا عن نبي الإسلام، وعما قام به من

التعليم الخيِّر الأكمل مع الأمة الذين واجههم، من المهاجرين والأنصار رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ، فيجب حبُّ الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ تدينًا، وتقربًا إلى الله تعالى.

"وإيمانٌ" أي وأن حبهم من الإيمان، فحب المؤمنين عمومًا مِن الإيمان؛ فكيف بحب خُلَّص المؤمنين؟ فمَن أحب الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ ثبت إيمانه، وانتقى إيمانه، وصح إيمانه، قال الله تعالى: ﴿ءَامِنُواْ كَمَآ ءَامَنَ ٱلنَّاسُ﴾ [سورة البقرة، من الآية:١٣]، والنّاس في الآية هم الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ باتفاق المفسرين، وقال سبحانه: ﴿فَإِنْ ءَامَنُواْ بِمِثْلِ مَآ ءَامَنتُم بِهِۦ فَقَدِ ٱهْتَدَواْ ۖ وَّإِن تَوَلَّوْاْ فَإِنَّمَا هُمْ فِى شِقَاقٍ ۖ فَسَيَكْفِيكَهُمُ ٱللَّهُ ۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿١٣٧﴾ صِبْغَةَ ٱللَّهِ ۖ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ صِبْغَةً ۖ وَنَحْنُ لَهُۥ عَٰبِدُونَ﴾ [سورة البقرة، من الآية:١٣٧-١٣٨]، ومعنى ﴿صِبْغَةَ ٱللَّهِ﴾ أي هذا دين الله تعالى، وهو السير على وَفق إيمان الصحابة ن، وعدم مشاقتهم.

وحبّ الصَّحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ **"إحسانٌ"**، أي إتقانٌ، وإتيانٌ بالْحُسْنِ، وإجادةٌ، وضبطٌ للدين والإيمان؛ فبحبهم ينضبط للإنسان إيمانه سواءٌ من حيث الدلالة على طريق الإيمان، أو من حيث كيفيّة الإيمان، أو من حيث المؤمن به، ومن ضبط هذه الجهات الثلاثة في الإيمان فقد أحسن إيمانه، ولا يتم ذلك إلا بحب الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ الدافع على اتباعهم في طريقتهم للإيمان والدين، وأن نؤمن كما آمنوا، وأن نؤمن مثل ما آمنوا، وبذلك يصل العبدُ إلى الإحسان في الإيمانِ نفسه؛ فلا يمكن لأي مسلم أن يصل إلى مرتبة الإحسان في الدين إلا أن يكون

محبًّا لهم، ومتبعًا إياهم.

ومَن لم يُحْسِن في حُبِّه لهم؛ فإنّه يقع في إيمانه خلل، وفي سيره زَلَلٌ، ولا بُدَّ وأن تقع منه الإساءة إليهم، ويخشى عليه من الردَّة؛ كما قال الله تعالى: ﴿وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعۡدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلۡهُدَىٰ وَيَتَّبِعۡ غَيۡرَ سَبِيلِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصۡلِهِۦ جَهَنَّمَۖ وَسَآءَتۡ مَصِيرًا﴾ [سورة النساء، من الآية:١١٥]، وسبيل المؤمنين هو طريق ومنهج الصحابة رَضِيَٱللَّهُعَنۡهُمۡ، وفي الآية دلالة على أن هناك مشاقة للرسول صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ، واتباعٌ لغير سبيل المؤمنين، والأول إنما يكون برد السنة، والثاني يكون بردِّ فهومهم في فهم الدين، وعدم قبولها.

والأشدّ والأنكى من ذلك أن ينظر إلى الصحابة رَضِيَٱللَّهُعَنۡهُمۡ بأنهم ارتدُّوا –عياذًا بالله تعالى–، ويترك كلّ ما جاء في مدحهم في الآيات البينات، والأحاديث الثابتات، ويتمسك بالشبهات؛ كمن يُنَزِّلُ قدرَهم بآيات نزلت في المنافقين فيجعلها في الأنصار والمهاجرين، أو كمن يتمسك بأحاديث وردت في أقوامٍ بعينهم فيجعلها في عمومهم، ومن أظهر هذا الاعتقاد فإنه لا ريب في إيمانه دخنٌ، وفي إسلامه شائبة؛ كمن يقول من المعتزلة بتفسيق عثمان وعلي ومعاوية رَضِيَٱللَّهُعَنۡهُمۡ؛ أو كمن يقول من الخوارج بتكفيرهم، أو كمن يقول من الباطنية، ومن تبعهم من بعض الشيعة بردّة الصحابة رَضِيَٱللَّهُعَنۡهُمۡ إلا عليٍّ ومن معه!؟ وهؤلاء الطوائف كلّ واحدٍ منهم يكفر شخصًا فهو محجوج بدليل الآخر؛ فالخوارج محجوجون بالأدلة الّتي يوردها الشيعة عليهم، والشيعة والباطنية

محجوجون بأدلة الخوارج فيما يوردونه عليهم، وطريقة السلامة الّتي سار عليها السلف أسلم، وأتقن، وأحكم، في جميع الأبواب، وفي هذا الباب؛ فهم يكفُّون عما جرى بين الصحابة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمْ، ولا يذكرون إلا محاسنهم، ونظرةٌ واحدة من مسلمٍ إلى النّبيّ صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ خيرٌ من الدّنيا وما فيها؛ كما في حديث أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ أَنَّ رَسُولَ اللهِ صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ قَالَ: **"مِنْ أَشَدِّ أُمَّتِي لِي حُبًّا، نَاسٌ يَكُونُونَ بَعْدِي، يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ رَآنِي بِأَهْلِهِ وَمَالِهِ"** [رواه مسلم]، وهم قد رأوه، مع محبتهم العظيمة له صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ حتى إنهم هجروا أوطانهم، وتركوا بلدانهم، وبذلوا أنفسهم وأموالهم في نصرته، ونصرة دينه.

ألا ترى أن أهل الدّنيا يفتخرون بلقاءٍ لهم مع ملِك، أو أميرٍ، أو مشهورٍ، وربما كان اللقاء عابرًا، لكن الافتخار به يكون ظاهرًا، والاعتزاز به مُعلنا؛ فإذا كان هذا حال أهل الدّنيا، ألا يحق لنا أن نفتخر بالصحابة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمْ، وهم الذين قرّت أعينهم برؤية سيد البشرية صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ، وهم تلامذته، وسمعوا منه، ورأوه ورأوا أحواله، وأفعاله، أي شرفٍ أعظم من هذا بعد الإيمان!؟ ولهذا جاء في حديث أبي نبيح العنزي عَن أبي سعيد الخدري رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ قال: كنا عنده وهو متكئ، فذكرنا عليًّا ومعاوية رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا؛ فتناول رجل معاوية رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ، فاستوى أبو سعيد الخدري رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ جالسًا؛ فذكر قصته حينما كان في رفقة مع رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ فيه أبو بكرٌ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ ورجلٌ مِن الأعراب- قال أبو سعيد-: ثم رأيت ذلك البدويّ أُتِيَ به عمرُ بنُ الخطاب رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ وقد هجا الأنصارَ؛ فقال

لهم عمر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ: لولا أن له صحبة مِن رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ما أدري ما نال فيها لكفيتكموه. [رواه أحمد بنحوه، وابن الجعد بلفظه، قال الهيمثي: رجاله ثقات]؛ فقد توقف عمرُ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ عن معاتبته، فضلًا عن معاقبته، لكونه علم أنّه لقي النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وفي ذلك أظهرُ دليل على أنهم كانوا يعتقدون أن شأن الصّحبة لا يعدلها شيء.

وأما الذين في قلوبهم زيغٌ فإنهم لا يحبون الصحابة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ جملة، أو لا يحبون بعضهم، وتجد في قلوبهم غِلّا لهم.

ومن مسائل الاعتقاد المجمع عليه بين السلف في حق الصحابة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ أنَّ **"بُغْضُهم كفر ونفاق وطغيان"**، أي أن من اعتقد بغضهم؛ فصار يكرههم، أو يكره أحدهم تديّنًا، ويمقته، فإنه قد فعل بقلبه ما هو **"كفرٌ"**، وهذا الكفر هم فيه على نوعين:

النّوع الأوّل: من وقع منهم في الكفر الأكبر، وذلك إذا كان يبغضهم لكونهم صحابة النّبيّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وتلامذته، ولكونهم أول المسلمين؛ فبذلك شابه الكافرين، الذين كانوا يعادون الصحابة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ؛ لأنهم أصحاب النّبيّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ولأنهم تلامذته صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ كما قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُوا۟ كَانُوا۟ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يَضْحَكُونَ ﴿٢٩﴾ وَإِذَا مَرُّوا۟ بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ ﴿٣٠﴾ وَإِذَا ٱنقَلَبُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَهْلِهِمُ ٱنقَلَبُوا۟ فَكِهِينَ ﴿٣١﴾ وَإِذَا رَأَوْهُمْ قَالُوٓا۟ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَضَآلُّونَ﴾ [سورة المطففين، من الآية:٢٩-٣٢]، وعنى بـ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ الصحابة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ، وعنى بـ﴿يَضْحَكُونَ﴾

أي الكفارُ يضحكون ويستهزؤون بالصحابة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ.

ومَن أبغضهم فقد شابه اليهود الذين طعنوا في أصحاب النّبيّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ومدحوا ما عليه أهل الكفر؛ كما قال الله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُواْ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ يُؤْمِنُونَ بِٱلْجِبْتِ وَٱلطَّٰغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُواْ هَٰٓؤُلَآءِ أَهْدَىٰ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ سَبِيلًا﴾ [سورة النساء، من الآية:٥١]، وعنوا بـ ﴿هَٰٓؤُلَآءِ﴾ مشركي مكة، وعنوا بـ ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ الصحابة الذين آمنوا رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ.

النّوع الثّاني: من وقع منهم في الكفر الأصغر، وذلك إذا اعتقد بغضهم تَدَيُّنًا لشيء سمعه، أو نُقِل عنهم، لا لكونهم صحابة رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ بل لكونهم في نظرِه القاصر، وعقله الكاسد، غيّروا وبدّلوا، وعلى هذا فعامة من يبغضهم من أهل البدع واقعون في الكفر الأصغر، من هذا الوجه، مع ما عندهم من أنواعِ الكفر الأخرى من وجوه بدعهم.

وهذا الكفرِ سواءٌ كان أكبر أو أصغر من جنس كفرِ النفاقِ، ولذلك قال المصنّف رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **"ونفاقٌ"** لبيان نوع الكفرِ، ووجهه أنَّ المنافقين هم الذين صدر منهم ما يدل على التنقيص من الصحابة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ، وما يدل على بغضهم للصحابة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ؛ كما قال الله تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُواْ كَمَآ ءَامَنَ ٱلنَّاسُ قَالُوٓاْ أَنُؤْمِنُ كَمَآ ءَامَنَ ٱلسُّفَهَآءُ ۗ أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلسُّفَهَآءُ وَلَٰكِن لَّا يَعْلَمُونَ﴾ [سورة البقرة، من الآية:١٣]، وعنى بـ ﴿ءَامِنُواْ﴾ المنافقين، وعنى بـ

﴿كَمَآ ءَامَنَ ٱلنَّاسُ﴾ أي المهاجرين والأنصار، وكان جوابُ المنافقين في مقابل الأمر الإلهي لهم بالإيمان كإيمان الصحابة أن قالوا على وجه الاستهزاء والسخرية ﴿أَنُؤۡمِنُ كَمَآ ءَامَنَ ٱلسُّفَهَآءُ﴾!؟ فأخبر الله تعالى: ﴿أَلَآ إِنَّهُمۡ هُمُ ٱلسُّفَهَآءُ﴾ أي أنّ السفه على وجه الكمال محصور في هؤلاء المنافقين الذين يطعنون في إيمان الصحابة رَضِيَٱللَّهُعَنۡهُمۡ؛ فدلت الآية أن من طعن في الصحابة رَضِيَٱللَّهُعَنۡهُمۡ فإنه قد شابه المنافقين، ووقع في كفر النفاق، وهو "**طغيانٌ**" أي فيه مجاوزة للحدِّ الّذي حُدَّ للمسلمين من أن يمسكوا ألسنتهم عن الكلام في الصحابة رَضِيَٱللَّهُعَنۡهُمۡ، وأن يطهروا قلوبهم تجاههم من كلّ غلٍّ.

وأصل (الطغيان): تجاوز الحدِّ، وهو في كلّ شيءٍ بحسبه، وهنا وجه طغيان من يبغض الصحابة رَضِيَٱللَّهُعَنۡهُمۡ أنه أمر بحب المسلمين، وبحب خلصهم من الأنصار والمهاجرين، وهو يبغضهم؛ فبذلك يكون متجاوزا، وطاغيًا.

ومن أوصاف المنافقين أيضًا: أنهم كانوا يُظهِرون الإيمان والودَّ للصحابة رَضِيَٱللَّهُعَنۡهُمۡ في الملأِ، ثم إذا خلوا إلى شياطينهم أظهروا بغضهم، وأظهروا الشرك والكفر، وبذلك كانوا في طغيانٍ، قال الله تعالى عنهم: ﴿وَإِذَا لَقُواْ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوۡاْ إِلَىٰ شَيَٰطِينِهِمۡ قَالُوٓاْ إِنَّا مَعَكُمۡ إِنَّمَا نَحۡنُ مُسۡتَهۡزِءُونَ ١٤ ٱللَّهُ يَسۡتَهۡزِئُ بِهِمۡ وَيَمُدُّهُمۡ فِي طُغۡيَٰنِهِمۡ يَعۡمَهُونَ﴾ [سورة البقرة، من الآية:١٤-١٥].

وبغضُ الصحابة رَضِيَٱللَّهُعَنۡهُمۡ كفرٌ ونفاقٌ وطغيانٌ، وهذا يشمل من أبغضهم

كلهم، أو بعضهم، بأوصافهم، أو بأعيانهم، ومما يدل على هذا المعنى حديث أَبِي هُرَيْرَةَ أَنَّ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: **"لَا يُبْغِضُ الْأَنْصَارَ رَجُلٌ يُؤْمِنُ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ"** [رواه مسلم].

وجاء في حديث عبد الله بن مغفل المزني رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **"اللهَ اللهَ فِي أَصْحَابِي، لاَ تَتَّخِذُوهُمْ غَرَضًا بَعْدِي، فَمَنْ أَحَبَّهُمْ فَبِحُبِّي أَحَبَّهُمْ، وَمَنْ أَبْغَضَهُمْ فَبِبُغْضِي أَبْغَضَهُمْ، وَمَنْ آذَاهُمْ فَقَدْ آذَانِي، وَمَنْ آذَانِي فَقَدْ آذَى اللهَ، وَمَنْ آذَى اللهَ فَيُوشِكُ أَنْ يَأْخُذَهُ"** [رواه الترمذي، وقال: حديثٌ غريبٌ. وضعفه الألباني].

فالواجب الكف عما شجر بين الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ، وحفظُ غيبتهم، ومعرفة مكانتهم، والاعتراف بسابقتهم، وجهادهم ونصرتهم لدين الله تعالى، واعتقاد فضائلهم، والعلم بما لهم من شرف، ورفعةٍ في دين الله تعالى.

ومن ذلك أنه لما مات محمدٌ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وارتد من ارتد من العرب قام المهاجرون والأنصار بالدفاع عن دين الله تعالى، ومقاتلة المرتدين، فكان المهاجرون والأنصار ومسلمة الفتح من الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ هم الذين قاتلوا الكفار والمرتدين؛ فكانوا على الدين ثابتين؛ كما قال الله تعالى: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ ٱنقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَـٰبِكُمْ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ ٱللَّهَ شَيْـًٔا وَسَيَجْزِى ٱللَّهُ ٱلشَّـٰكِرِينَ﴾ [سورة

آل عمران، من الآية:١٤٤]، وعنى بـ ﴿ٱلشَّٰكِرِينَ﴾ الذين ثبتوا على الإسلام بعد موت النّبيّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وهم الصحابة من المهاجرين والأنصار ومسلمة الفتح.

وخلاصة كلام المصنف رَحِمَهُ ٱللَّهُ: وجوب حب الصحابة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ كلهم بلا غلوٍّ ولا جفاءٍ، وأنّ حبهم في الله تعالى، وحبهم لأجل رسولِ الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

[خلافة النبوة]

وَنُثْبِتُ الْخِلَافَةَ بَعْدَ رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَوَّلًا لِأَبِي بَكْرٍ الصِّدِّيقِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ تَفْضِيلًا لَهُ، وَتَقْدِيمًا لَهُ عَلَى جَمِيعِ الْأُمَّةِ رِضْوَانُ اللهُ عَلَيْهِمْ أَجْمَعِينَ، ثُمَّ لِعُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، ثُمَّ لِعُثْمَانَ بْنِ عَفَّانَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، ثُمَّ لِعَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وَهُمُ الْخُلَفَاءُ الرَّاشِدُونَ، وَالْأَئِمَّةُ الْمَهْدِيُّونَ، الَّذِينَ قَضَوا بِالْحَقِّ، وَبِهِ كَانُوا يَعْدِلُونَ.

﴿ الشرح ﴾

هذا تقرير من المصنف رَحِمَهُ اللَّهُ لمسألة إثبات الخلافة، ووجوبها، وترتيبها، وعظيم منزلة هؤلاء الخلفاء الراشدين رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ.

وقوله: "**نُثْبِتُ الخلافة بعد رسول الله** صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ"، أي نقرُّ بأنه حقٌّ وواجبٌ، وأنّه لا بد للمسلمين من خليفةٍ، وهذا خلافًا لطائفة من الخوارج اعتقدوا أنه لا يجب نصب الخليفة، وأنه يمكن ترك النّاس فوضى لا سراة لهم.

ومعلوم أن نصب الخليفة أمرٌ شرعيٌّ؛ فبالخليفة تقوم مصالح المسلمين الدينية والدنيوية، ومن مصالح المسلمين الدينية قيامه بالحدود، ومن مصالح المسلمين الدنيوية إقامته الأمن والعدل، وقد ذكر الله تعالى الخليفة في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ [سورة البقرة، من الآية:٣٠]، أي حاكمًا، وقال سبحانه: ﴿يَٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلْنَٰكَ خَلِيفَةً فِي ٱلْأَرْضِ فَٱحْكُم

﴿بَيۡنَ ٱلنَّاسِ بِٱلۡحَقِّ﴾ [سورة ص، من الآية:٢٦]، وقال جَلَّ وَعَلَا: ﴿وَقَالَ لَهُمۡ نَبِيُّهُمۡ إِنَّ ٱللَّهَ قَدۡ بَعَثَ لَكُمۡ طَالُوتَ مَلِكٗاۚ﴾ [سورة البقرة، من الآية:٢٤٧].

وقد دلت السنة على وجوب نصب الخليفة، ولذلك جاء في أحاديث متواترة وجوب السمع والطاعة بالمعروف للأمراء المسلمين؛ كما سبق ذكر الأحاديث الدالة على هذا الأمر.

ومما يؤكد وجوب نصب الخليفة أن النّبيّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَسَلَّمَ ذكر الخلفاء عمومًا؛ كما في حديث جَابِرِ بْنِ سَمُرَةَ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُ قَالَ: دَخَلْتُ مَعَ أَبِي عَلَى النّبيّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَسَلَّمَ، فَسَمِعْتُهُ يَقُولُ: **"لَا يَزَالُ الْإِسْلَامُ عَزِيزًا إِلَى اثْنَيْ عَشَرَ خَلِيفَة، كُلُّهُمْ مِنْ قُرَيْشٍ"** [رواه مسلم].

وجاء في حديث أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُ يُحَدِّثُ عَنِ النّبيّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَسَلَّمَ، قَالَ: **"كَانَتْ بَنُو إِسْرَائِيلَ تَسُوسُهُمُ الْأَنْبِيَاءُ، كُلَّمَا هَلَكَ نَبِيٌّ خَلَفَهُ نَبِيٌّ، وَإِنَّهُ لَا نَبِيَّ بَعْدِي، وَسَتَكُونُ خُلَفَاءُ فَتَكْثُرُ"**، قَالُوا: فَمَا تَأْمُرُنَا؟ قَالَ: **"فُوا بِبَيْعَةِ الْأَوَّلِ، فَالْأَوَّلِ، وَأَعْطُوهُمْ حَقَّهُمْ، فَإِنَّ اللهَ سَائِلُهُمْ عَمَّا اسْتَرْعَاهُمْ"** [رواه مسلم].

و **"نُثْبِتُ الخلافة"** أي وأهل السنة والجماعة إنما يُثبتون الخلافة للحاكم الظاهر، ولا يثبتون لمن لا يكون ظاهرًا، ولا لمن يكون مُتخفِّيًا، أو غائبًا، أو غير قادرٍ على الظُّهورِ؛ لأنّ من مقاصد الخلافة مباشرة الأعمال الّتي يقوم بها، وهذا لا يتم مع اختفائه، أو غيبته، أو عدم مقدرته على الظهور.

فإن قيل: ما طرق إثبات الخلافة؟

فالجواب: و "نثبت الخلافة" بطُرُقٍ:

الطّريقة الأولى: الشّورى؛ كما قال تعالى: ﴿وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ﴾ [سورة الشورى، من الآية:٣٨]؛ فأمرُ المسلمين شورى، والمقصود ﴿بَيْنَهُمْ﴾ هُم أهل الحل والعقد من العلماء والأمراء والوجهاء، وقد قال عمرُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: "مَنْ بَايَعَ رَجُلًا عَنْ غَيْرِ مَشُورَةٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ؛ فَلاَ يُبَايَعُ هُوَ، وَلاَ الَّذِي بَايَعَهُ، تَغِرَّةً أَنْ يُقْتَلا" [رواه البخاري]، فدلّ كلامه أن البيعة لا تتم لمن لا يبالي بمشورة أهل الحل والعقدِ، وأن من يفعل ذلك سرًّا؛ فإنه يسلك طريقًا يَغِرّ فيه بنفسه ومن معه، وَمَعْنَى "تَغِرَّةً أَنْ يُقْتَلَا" أي أنَّ مَن فعل ذلك فقد غرَّر بنفسه، وبصاحبه، وعرَّضهما للقتل.

وهذا طبَّقه عمرُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، فجعل الأمرَ شورى بين ستة من الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ، فتمت البيعةُ لعثمان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال عمرُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: (إِنِّي لَا أَعْلَمُ أَحَدًا أَحَقَّ بِهَذَا الْأَمْرِ مِنْ هَؤُلَاءِ النَّفَرِ الَّذِينَ تُوُفِّيَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَهُوَ عَنْهُمْ رَاضٍ، فَمَنِ اسْتَخْلَفُوا بَعْدِي فَهُوَ الخَلِيفَةُ فَاسْمَعُوا لَهُ وَأَطِيعُوا، فَسَمَّى عُثْمَانَ، وَعَلِيًّا، وَطَلْحَةَ، وَالزُّبَيْرَ، وَعَبْدَ الرَّحْمَنِ بْنَ عَوْفٍ، وَسَعْدَ بْنَ أَبِي وَقَّاصٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ) [رواه البخاري].

وقال المِسْوَرَ بْنَ مَخْرَمَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: (إِنَّ الرَّهْطَ الَّذِينَ وَلَّاهُمْ عُمَرُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ اجْتَمَعُوا؛ فَتَشَاوَرُوا، فَقَالَ لَهُمْ عَبْدُ الرَّحْمَنِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: لَسْتُ بِالَّذِي أُنَافِسُكُمْ عَلَى هَذَا الأَمْرِ، وَلَكِنَّكُمْ إِنْ شِئْتُمُ اخْتَرْتُ لَكُمْ مِنْكُمْ؛ فَجَعَلُوا ذَلِكَ إِلَى عَبْدِ الرَّحْمَنِ، فَلَمَّا وَلَّوْا عَبْدَ الرَّحْمَنِ أَمْرَهُمْ، فَمَالَ النّاس عَلَى عَبْدِ الرَّحْمَنِ، حتّى مَا

أَرَى أَحَدًا مِنَ النّاس يَتْبَعُ أُولَئِكَ الرَّهْطَ، وَلاَ يَطَأُ عَقِبَهُ، وَمَالَ النّاس عَلَى عَبْدِ الرَّحْمَنِ يُشَاوِرُونَهُ تِلْكَ اللَّيَالِي، حتّى إِذَا كَانَتِ اللَّيْلَةُ الّتي أَصْبَحْنَا مِنْهَا فَبَايَعْنَا عُثْمَانَ رَضِيَٱللَّهُعَنهُ...) [رواه البخاري].

الطّريقة الثّانية: التّنصيصُ والوصية؛ كتنصيص بعثِ الله تعالى طالوتَ ملِكًا؛ قال الله تعالى: ﴿وَقَالَ لَهُمۡ نَبِيُّهُمۡ إِنَّ ٱللَّهَ قَدۡ بَعَثَ لَكُمۡ طَالُوتَ مَلِكٗا﴾ [سورة البقرة، من الآية:٢٤٧]، وكوصية النّبيّ صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ غير الصّريح بخلافة الصّديق رَضِيَٱللَّهُعَنهُ، وبتنصيص الصّدّيق الصّريح على خلافة عمر رَضِيَٱللَّهُعَنهُ، كما جاء في كتب السير أنه قال: (إِنِّي اسْتَخْلَفْتُ عَلَيْكُمْ بَعْدِي عُمَرَ بْنَ الْخَطَّابِ، فَاسْمَعُوا لَهُ وَأَطِيعُوا، وَإِنِّي لَمْ آلُ اللهَ وَرَسُولَهُ وَدِينَهُ وَنَفْسِي وَإِيَّاكُمْ إِلَّا خَيْرًا، فَإِنْ عَدَلَ فَذَلِكَ ظَنِّي بِهِ، وَعِلْمِي فِيهِ، وَإِنْ بَدَّلَ فَلِكُلِّ امْرِئٍ مَا اكْتَسَبَ، وَالْخَيْرَ أَرَدْتُ، وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ، ﴿وَسَيَعۡلَمُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ أَيَّ مُنقَلَبٖ يَنقَلِبُونَ﴾ [سورة الشعراء، من الآية:٢٢٧]، وَالسَّلَامُ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَةُ اللهِ وَبَرَكَاتُهُ) [تاريخ المدينة لابن شبة].

الطّريقة الثّالثة: الجمع بين الشّورى والوصيّة، وذلك بأن يشاور الخليفة الموجودُ النّاس فيمن يخلفه؛ فيرون أحدًا مناسبًا؛ فينص الخليفة بعد ذلك عليه؛ فيكون جمعًا بين الطريقتين؛ الشّورى والوصيّة، وقيل: هذه طبقها الصّدِّيقُ في استخلافه عمرَ رَضِيَٱللَّهُعَنهُ، وحصل مثله في استخلاف الحسن بن علي رَضِيَٱللَّهُعَنهُ.

الطّريقة الرّابعة: الغلبة، والمكنة؛ وهذا الطريق ليس شرعيًّا ابتداءً؛ فيأثم من يستأثر على المسلمين بالحكم، ولا يشاورهم، ويتغلب عليهم بالسّيف، ولا يتشاور معهم، وإنّما وجبت وصحَّت بها أحكام الخلافة اضْطِرارًا، وحفظا لبيضة المسلمين، وصونًا لأعراضهم، وإبقاءً على دمائهم، ومنها السّمع والطّاعة له بالمعروف.

فإنْ تسلَّط على الحكم مُسْلِمٌ مُتَغَلِّبٌ ومعه جماعة فظهروا على النّاس؛ فليس لأحدٍ أنْ يُمَالِئَه حتّى يستتِبّ له الأمر، وإذا استتب له الأمرُ؛ فلا يخرج عليه، ويسمع له ويطاع بالمعروف؛ كما جاء هذا في حديث العِرْبَاضِ بْنِ سَارِيَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: وَعَظَنَا رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَوْمًا بَعْدَ صَلاَةِ الغَدَاةِ مَوْعِظَةً بَلِيغَةً ذَرَفَتْ مِنْهَا العُيُونُ وَوَجِلَتْ مِنْهَا القُلُوبُ، فَقَالَ رَجُلٌ: إِنَّ هَذِهِ مَوْعِظَةُ مُوَدِّعٍ فَمَاذَا تَعْهَدُ إِلَيْنَا يَا رَسُولَ اللهِ؟ قَالَ: **"أُوصِيكُمْ بِتَقْوَى اللهِ، وَالسَّمْعِ وَالطَّاعَةِ، وَإِنْ عَبْدٌ حَبَشِيٌّ؛ فَإِنَّهُ مَنْ يَعِشْ مِنْكُمْ يَرَى اخْتِلاَفًا كَثِيرًا، وَإِيَّاكُمْ وَمُحْدَثَاتِ الأُمُورِ؛ فَإِنَّهَا ضَلاَلَةٌ؛ فَمَنْ أَدْرَكَ ذَلِكَ مِنْكُمْ فَعَلَيْهِ بِسُنَّتِي، وَسُنَّةِ الخُلَفَاءِ الرَّاشِدِينَ الْمَهْدِيِّينَ، عَضُّوا عَلَيْهَا بِالنَّوَاجِذِ"** [رواه أبو داود، والترمذي، وقال: حسن صحيح].

وجاء نحوُه في حديث أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **"اسْمَعُوا وَأَطِيعُوا، وَإِنِ اسْتُعْمِلَ عَلَيْكُمْ عَبْدٌ حَبَشِيٌّ، كَأَنَّ رَأْسَهُ زَبِيبَةٌ"** [رواه البخاري].

ومعلوم أن أهل الحل والعقد لو رجع إليهم الأمرُ فلن يؤمِّروا على العرب عمومًا وعلى قريشٍ خصوصًا عبدًا مملوكًا يباع ويشترى؛ فعُلِم أن هذا عند الاضطرار، والله تعالى أعلم.

ومعنى "**الخلافة**" الإمارة، والحُكْمُ، والوِلاية، وإمامةُ المسلمين في أمور الدّنيا والدّين، وسُمِّيَ (**الخليفة**) خليفةً لأنه يَخْلُف المسلمين في الإنابة في القيام بأحكام الدّنيا والدّين، وقيل: لأنه يخلف مَن سبقه في القيام بمهامه، ومنه سُمِّي أبو بكرٍ الصّدّيق رَضِيَ اللهُ عَنْهُ خليفة رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

و "**بعدَ رسول الله** صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ" أي بعد موتِه، وذلك لأنه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كان في حياته هو القائم بأعباءِ النبوة والخلافة في آنٍ واحدٍ، وإن كان عاش صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عيشة المساكين؛ فذلك من تواضعه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ وليكون قدوة لمن بعده.

ولا يقال لأحدٍ خليفةً حال حياة النّبيّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وإن كان قد تولى إمارة شيءٍ، وحُكْمَ ناحيةٍ؛ فإن الإمارات المتعددة لا تعني الخلافة العامة، وإنما المراد بالخلافة الحكم العام للبلد، وحاكم البلد، وملك الدّولة، ورئيس القُطْرِ، ونحو ذلك من المسمّيات.

والخليفة أو الأمير أو الملك أو رئيس الدولة هو الّذي له السمع والطاعة بالمعروف، وله الأحكام الخاصة بالخليفة.

وأما الإمارات المقيّدة؛ كأمير منطقةٍ، أو أميرُ وزارة؛ فهذه أمارات مقيدة،

والسمعُ والطاعة فيها إنما تكون في خصوص ما تحت أيديهم، وليس لهم سمعٌ وطاعةٌ عامة، ولهم بعضُ أحكام الخلفاء مِن وجهٍ، وليس لهم أحكام الخليفة من وجه آخر.

وإذا تقرر وجوب نصب الخليفة؛ فإن أهل السنة والجماعة يثبتون الخلافة بعد رسولِ الله **"أوّلًا لأبي بكرٍ"** الصِّدِّيقِ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ -وستأتي ترجمته-، وأبو بكرٍ كنيته.

فإن قيل: فما وجه كون أبي بكرٍ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ **أوّل خليفة للمسلمين؟**

فالجواب: إنَّمَا يُثْبِتُ أهلُ السنة والجماعة الخلافةَ لأبي بكرٍ **"أوَّلًا"** دون غيره، لوجوهٍ، منها:

الوجه الأوّل: خلوُّ المنازِع له في آخر الأمر؛ فإن الأنصار ن لما أرادوا أن يؤمروا من أنفسهم، وجاءهم الصديقُ وعمرُ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، تركوا دعواهم؛ فقدَّم الصديقُ عمرَ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ فرَفَض لوجود الصدِّيقِ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ؛ فعُلِم خلوُّ المنازِع له، ومما أكَّد خُلُوُّ المنازع له أنّ عليًّا رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ وهو في خلافته وعزِّ قوته لَمّا سُئِل عن خلافة أبي بكرٍ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ أثنى عليه، ولم يدَّعِ أنّه كان مستحقًّا الخلافة مع الصديق رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، ووجه خلوِّ المنازع يتبين من النّصوص الآتية.

الوجه الثّاني: الإجماعُ على خلافةِ أبي بكرٍ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ؛ فإن الأنصار والمهاجرين أجمعوا على ذلك، واتفقت كلمةُ المسلمين عليه، ولم يقل أحدٌ إن خلافته كانت بغير وجه حقٍّ حتّى ظهرَ بعدَ ذلك من ظهر من الباطنيين، ونحوهم؛

فزعموا أنه كان غاصبًا!؟ وأي ليثٍ من ليوث العِدَى من الصحابة البررة رَضِيَٱللَّهُعَنۡهُمۡ كان ليرضى بالغصبِ، أعمرُ الّذي يفر منه الشيطانُ، أم عثمان المجاهد في سبيل الرحمن، أم عليٌّ قاتل المارقة في حروراء على الدِّين، أم بقية العشرة المبشرين بالجنان، تاللهِ لا يقول هذا إلا صاحب هوى، أو مجنون من المجانين.

الوجه الثّالث: الإشارات النصية الّتي فيها الدلالة على خلافة الصديقِ رَضِيَٱللَّهُعَنۡهُ، ومن ذلك فهمُ عمر وبقية الصحابة رَضِيَٱللَّهُعَنۡهُمۡ ذلك من تقديم النّبيّ صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ له في الصلاة في مرض موته؛ كما في حديث عبد الله بن مسعودٍ رَضِيَٱللَّهُعَنۡهُ أنه قال: "لَمَّا قُبِضَ رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ قالت الأنصار: منا أمير، ومنكم أمير.

فأتاهم عمر، فقال: يا معشر الأنصار، ألستم تعلمون أن رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ قد أمَّر أبا بكر أن يؤمَّ النّاس؟ فأيُّكم تطيب نفسه أن يتقدم أبا بكر؟ فقالت الأنصار: نعوذ بالله أن نتقدم أبا بكر" [رواه الإمام أحمد في مسنده، وحسنه محققه].

ورُوِي مثلُ هذا عن عليٍّ رَضِيَٱللَّهُعَنۡهُ قال: (ولكنَّ رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ لم يُقتَل قَتْلًا، ولا مات فجأةً، مكث في مرضه أيامًا وليالي، يأتيه المؤذن فيُؤْذِنُه بالصلاةِ فيَأْمُر أبا بكر يصلي بالنّاس، وهو يرى مكاني، ثم يأتيه المؤذن فيُؤْذِنُه بالصلاة فيأمر أبا بكر فيصلي بالنّاس، وهو يرى مكاني، ولقد أرادت امرأة من

نسائه أن تصرفه عن أبي بكر فأبى وغضب، وقال: "**أنتنّ صواحب يوسف، مروا أبا بكر يصلي بالنّاس**"؛ فلما قبض الله نبيَّه نَظَرْنَا في أمورنا فاخترنا لِدُنْيَانا مَن رضيه النّبيّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لِدِيننا؛ فكانت الصلاة أصلَ الإسلام، وقوام الدِّين، وهو أمين الدين؛ فبايعنا أبا بكرٍ؛ فكان لذلك أهلًا، لم يختلف عليه مِنّا اثنان، ولم يشهد بعضنا على بعضٍ، ولم نقطع منه البراءة؛ فأدَّيت إلى أبي بكرٍ حقَّه، وعرفتُ له طاعته، وغزوتُ معه في جنوده، وكنتُ آخذ إذا أعطاني، وأغزو إذا أغزاني، وأضرب بين يديه الحدود بسوطي) [تاريخ دمشق لابن عساكر].

والإشارة في سدّ الْخَوْخِ إلا خَوخَتَهَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ؛ كما في حديث أَبِي سَعِيدٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، جَلَسَ عَلَى الْمِنْبَرِ فَقَالَ: "**عَبْدٌ خَيَّرَهُ اللهُ بَيْنَ أَنْ يُؤْتِيَهُ زَهْرَةَ الدّنيا وَبَيْنَ مَا عِنْدَهُ، فَاخْتَارَ مَا عِنْدَهُ**" فَبَكَى أَبُو بَكْرٍ وَبَكَى، فَقَالَ: فَدَيْنَاكَ بِآبَائِنَا وَأُمَّهَاتِنَا، قَالَ فَكَانَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ هُوَ الْمُخَيَّرُ، وَكَانَ أَبُو بَكْرٍ أَعْلَمَنَا بِهِ، وَقَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "**إِنَّ أَمَنَّ النّاس عَلَيَّ فِي مَالِهِ وَصُحْبَتِهِ أَبُو بَكْرٍ، وَلَوْ كُنْتُ مُتَّخِذًا خَلِيلًا لَاتَّخَذْتُ أَبَا بَكْرٍ خَلِيلًا، وَلَكِنْ أُخُوَّةُ الْإِسْلَامِ، لَا تُبْقَيَنَّ فِي الْمَسْجِدِ خَوْخَةٌ إِلَّا خَوْخَةَ أَبِي بَكْرٍ**" [رواه مسلم].

والإشارة في حديث جُبَيْرِ بْنِ مُطْعِمٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أَنَّ امْرَأَةً سَأَلَتْ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ شَيْئًا، فَأَمَرَهَا أَنْ تَرْجِعَ إِلَيْهِ، فَقَالَتْ: يَا رَسُولَ اللهِ أَرَأَيْتَ إِنْ جِئْتُ فَلَمْ أَجِدْكَ؟ -كَأَنَّهَا تَعْنِي الْمَوْتَ- قَالَ: "**فَإِنْ لَمْ تَجِدِينِي؛ فَأْتِي أَبَا بَكْرٍ**" [رواه البخاري، ومسلم].

والإشارة في حديث عائشة رَضِيَٱللَّهُعَنهَا لأنّ النّبيّ صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ قال في مرض موته: "**لَقَدْ هَمَمْتُ -أَوْ أَرَدْتُ- أَنْ أُرْسِلَ إِلَى أَبِي بَكْرٍ وَابْنِهِ فَأَعْهَدَ، أَنْ يَقُولَ: القَائِلُونَ، أَوْ يَتَمَنَّى المُتَمَنُّونَ، ثُمَّ قُلْتُ: يَأْبَى اللهُ، وَيَدْفَعُ المُؤْمِنُونَ، -أَوْ يَدْفَعُ اللهُ، وَيَأْبَى المُؤْمِنُونَ**" [رواه البخاري]؛ فهذا نصّ صريح في أن الله تعالى لا يرضى لنبيه خليفة سواه، ولا يقبل المؤمنون بعد رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ خليفة سوى أبي بكر رَضِيَٱللَّهُعَنۡهُ.

الوجه الرّابع: فضْلُه، ومكانته في دين الله تعالى، فهو أوَّل مَن أسلم من الرجال البالغين، وهو أوّل من دافع عن أهل الإسلام، وأوَّل من صاحب النّبيّ صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ من الرِّجال، وهو الوحيد الّذي هاجر مع النّبيّ صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ، وهو الّذي كان الوزير الأوّل للنبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ، وهو الّذي تَقَدَّمَ الصَّحابةَ؛ المهاجرين والأنصارَ في الصّلاة، وهو الّذي اجتمع عليه الصحابة رَضِيَٱللَّهُعَنۡهُمۡ؛ فهذه فضائل يستحق بها التقديم، ولهذا قال المصنّف رَحِمَهُٱللَّهُ: "**تفضيلًا له**".

و "**تفضيلًا**" وصفُ شيءٍ بزيادةٍ على غيره؛ فهو مُفَضَّلٌ على عموم الصحابة ن؛ بل هو مُفَضَّل على جميع الخلق بعد الأنبياء والمرسلين، وهذه الفضيلة إنما هي في الدّرجة الإيمانيّة، والمنزلة العالية عند رب البرية، والقُرْبِ مِن سيِّد البشريّة صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ؛ فلقد كان أبو بكرٍ رَضِيَٱللَّهُعَنۡهُ مختارًا من الله تعالى ليكون صاحب النّبيّ صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ في الغار، ولقد كان خليفة رسولِ الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ في مرضه الّذي مات فيه وهو يؤمُّ الأبرار، ولقد كان أحب النّاس إلى النّبيّ

صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من الرجال، وهو مِن أعلم الصحابة ن، وكان من أشدهم في القيام بأمر الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ، ألا ترى أنَّ الله ثبّت به أهلَ الإسلامِ إذ ارتد من ارتد من أهل الجزيرة؛ فقام مقامًا عظيمًا إذ ضعف الأقوياء، وخاف الأشدّاءُ، وأحجم الألبّاء؛ فلمَّا رأى الصحابة ن مقامه ذاك تشجَّعوا، والتزموا طاعته وتقدَّموا، وساروا إلى حيث أمر، وانتهوا عما نهاهم عنه بلا ضجر؛ وقاتلوا المرتدين، وحموا حَوْضَةَ الدِّين.

وجاء في حديث أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ قَالَ: (لَمَّا تُوُفِّيَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَاسْتُخْلِفَ أَبُو بَكْرٍ بَعْدَهُ، وَكَفَرَ مَنْ كَفَرَ مِنَ العَرَبِ، قَالَ عُمَرُ لِأَبِي بَكْرٍ: كَيْفَ تُقَاتِلُ النّاس؟ وَقَدْ قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **"أُمِرْتُ أَنْ أُقَاتِلَ النّاس حتّى يَقُولُوا: لاَ إِلَهَ إِلَّا اللهُ، فَمَنْ قَالَ: لاَ إِلَهَ إِلَّا اللهُ عَصَمَ مِنِّي مَالَهُ وَنَفْسَهُ، إِلَّا بِحَقِّهِ وَحِسَابُهُ عَلَى اللهِ"**، فَقَالَ: وَاللهِ لَأُقَاتِلَنَّ مَنْ فَرَّقَ بَيْنَ الصَّلاَةِ وَالزَّكَاةِ، فَإِنَّ الزَّكَاةَ حَقُّ المَالِ، وَاللهِ لَوْ مَنَعُونِي عِقَالًا كَانُوا يُؤَدُّونَهُ إِلَى رَسُولِ اللهِ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَقَاتَلْتُهُمْ عَلَى مَنْعِهِ، فَقَالَ عُمَرُ: فَوَاللهِ مَا هُوَ إِلَّا أَنْ رَأَيْتُ اللهَ قَدْ شَرَحَ صَدْرَ أَبِي بَكْرٍ لِلْقِتَالِ، فَعَرَفْتُ أَنَّهُ الحَقّ) [رواه البخاري].

وثبَت جَأْشُ أَبِي بَكْرٍ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ وَقُوّتُهُ يومَ أنْ مات رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ فَفِي ذَلِكَ الْمَقَامِ كَانَ الصّدّيقُ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ شِديد التّألّهِ وَتَعَلُّقِ الْقَلْبِ بِالله تعالى، (وَلِذَلِكَ قَالَ لَهُمْ مَنْ كَانَ يَعْبُدُ مُحَمّدًا، فَإِنّ مُحَمّدًا قَدْ مَاتَ، وَمَنْ كَانَ يَعْبُدُ اللهَ؛ فَإِنّ اللهَ حَيّ لَا يَمُوتُ.

وَمَنْ قُوّةِ تَأَلّهِهِ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ حِينَ أَجْمَعَ أَصْحَابُ رَسُولِ اللهِ صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ عَلَى رَدّ جَيْشِ أُسَامَةَ حِينَ رَأَوْا الرّدّةَ قَدْ اسْتَعَرَتْ نَارُهَا، وَخَافُوا عَلَى نِسَاءِ الْمَدِينَةِ وَذَرَارِيّهَا، فَقَالَ: وَاَللهِ لَوْ لَعِبَتْ الْكِلَابُ بِخَلَاخِلِ نِسَاءِ الْمَدِينَةِ، مَا رَدَدْت جَيْشًا أَنْفَذَهُ رَسُولُ اللهِ صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ.

وَكَلّمَهُ عُمَرُ وَأَبُو عُبَيْدَةَ وَسَالِمٌ مَوْلَى أَبِي حُذَيْفَةَ ن -وَكَانَ أَشَدّ شَيْءٍ عَلَيْهِ أَنْ يُخَالِفَ رَأْيُهُ رَأْيَ سَالِمٍ-؛ فَكَلّمُوهُ أَنْ يَدَعَ لِلْعَرَبِ زَكَاةَ ذَلِكَ الْعَامِ، تَأَلّفًا لَهُمْ، حتّى يَتَمَكّنَ لَهُ الْأَمْرُ؛ فَقَدْ كَانَ رَسُولُ اللهِ صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ يَتَأَلّفُهُمْ.

وَكَلّمَهُ عُمَرُ تأَنْ يُوَلّيَ مَكَانَ أُسَامَةَ مَنْ هُوَ أَسَنّ مِنْهُ وَأَجْلَدُ؛ فَأَخَذَ بِلِحْيَةِ عُمَرَ، وَقَالَ لَهُ: يَا ابْنَ الْخَطّابِ! أَتَأْمُرُنِي أَنْ أَكُونَ أَوّلَ حَالٍّ عَقْدًا عَقَدَهُ رَسُولُ اللهِ صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ!؟ وَاَللهِ لَأَنْ أَخِرّ مِنْ السّماء إلَى الْأَرْضِ فَتَخْطَفُنِي الطّيْرُ أَحَبّ إلَيّ مِنْ أَنْ أُمَالِئَكُمْ عَلَى هَذَا الرّأْيِ.

وَقَالَ لَهُمْ: وَاَللهِ لَوْ أَفْرَدْت مِنْ جَمِيعِكُمْ لَقَاتَلْتهمْ وَحْدِي، حتّى تَنْفَرِدَ سَالِفَتِي، وَلَوْ مَنَعُونِي عِقَالًا، لَجَاهَدْتهمْ عَلَيْهِ، أَوَفِي شَكّ أَنْتُمْ، إنّ وَعَدَ اللهِ لَحَقّ، وَإِنّ قَوْلَهُ لَصِدْقٌ، وَلَيُظْهِرَنّ اللهُ هَذَا الدّينَ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُون) [الروض الأنف للسهيلي].

وفضائل الصّدّيق رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ كثيرة، ليس هذا مجال تعدادها، ويكفينا في ذلك حديث عبد الله بن عمر رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا قال: خرج علينا رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ في ذات غداةٍ بعد طلوع الشمس، فقال: **"رَأَيْتُ قُبَيْلَ الْفَجْرِ كَأَنّي أُعْطِيتُ الْمَقَالِيدَ**

وَالْمَوَازِينَ، فَأَمَّا الْمَقَالِيدُ: فَهَذِهِ الْمَفَاتِيحُ، وَأَمَّا الْمَوَازِينُ: فَهَذِهِ الَّتِي تَزِنُونَ بِهَا، فَوُضِعْتُ فِي كِفَّةٍ، وَوُضِعَتْ أُمَّتِي فِي كِفَّةٍ، فَوُزِنْتُ بِهِمْ فَرَجَحْتُ، ثُمَّ جِيءَ بِأَبِي بَكْرٍ فَوُزِنَ بِهِمْ فَوَزَنَ، ثُمَّ جِيءَ بِعُمَرَ فَوُزِنَ فَوَزَنَ، ثُمَّ جِيءَ بِعُثْمَانَ فَوُزِنَ بِهِمْ ثُمَّ رُفِعَتْ"[رواه أحمد، وصححه محققه].

ولَـمَّا ثبتت هذه الفضائل للصديق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ استحق **"تقديمًا على جميع الأمة"**.

و **"تقديمًا"** وصفٌ مُفِيدٌ للاستحقاق؛ فهو مستحق أن يكون مقدَّمًا لما ثبت له في الإسلام مِن قدَم السَّبق، وفي الإيمان قدم الصِّدْقِ، وبلوغه مرتبة الصّدّيقيّة، وارتفاعه على جميع الأمّة المحمّديّة بالمراتب العليَّة؛ فهو مُعروفٌ بالتّقدّم، ومعروفٌ بالتّقديم، وقد جعله النّبيّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مقدَّمًا في أوّل حجةٍ في الإسلام إذ جعله أميرَ الحجِّ عام تسعٍ من الهجرة، ومقدَّمًا في الصلاة، ومقدَّمًا في الفتيا بين يدي النّبيّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وفي القضاء بين يدي النّبيّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وفي غير ذلك من الأمور الدالة على فضله واستحقاقه التّقديم على **"على جميع الأمة"**.

و **"الأُمَّة"** في اللغة جماعة مِن النّاس أكثرهم مِن أصلٍ واحدٍ، وتجمعهم صفاتٌ موروثة، ومصالح وأمانيُّ واحدة، أو يجمعهم أمرٌ واحدٌ؛ كاللغة؛ فيقال: أُمَّة العرب، وأمَّة التُّرك، أو المكانِ؛ فيقال: أُمَّةُ مصرَ، وأُمَّةُ العراقِ، أو الجيل والزمانِ؛ فيقال: أمَّةُ العصرِ، و ﴿أُمَّةٍ مَّعْدُودَةٍ﴾ [سورة هود، من الآية:٨]، أي زمانٍ

مُعَيَّنٍ، وقد يطلق على الواحدِ؛ لكونه جامعًا لخصالٍ مجتمعة فيه؛ كقول الله تعالى: ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [سورة النحل، من الآية:١٢٠]، ويطلق على من يجمعهم دينٌ واحدٌ؛ فيقال: الأُمَّةُ الدِّينُ؛ كقوله تعالى: ﴿إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ﴾ [سورة الزخرف، من الآية:٢٢]، أي على دينٍ، وهو المرادُ هنا بـ"**جميع الأمة**" أي على جميع أهلِ الإسلام والإيمانِ؛ فمنزلته فوق كلّ فردٍ من أفرادِ أمَّةِ الإسلام بعد النّبيّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وعليه إجماعُ المهاجرين والأنصار، وإقرارهم في مدة خلافته، وبعدها، حتّى كان ابنُ سبأ اليهودي الّذي أظهر الإسلام، وأراد هدم الدين، وهو أوَّلُ زنديقٍ في الأمة أظهر الخروج على حكام المسلمين وخلفائهم، والخروج على الصحابة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وخيارهم.

ولم يُنكر فضل الصديق رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ فِرقَةٌ من فِرَقِ الأمَّة إلّا الباطنيّة، ومَن وافقهم من الرّافضة، ومن ناوأهم من علمانيِّي هذا الزمان.

"**ثم لعمر بن الخطاب**" أي ثم نثبت ونقرُّ بالخلافة، وهو عندنا إيمانٌ وعقيدةٌ، أنَّ الخلافة بعد أبي بكر الصديق رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ "**لعمر بن الخطاب**" رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ -وستأتي ترجمته-، ووجه كونِ أهل السنة والجماعة يثبتون الخلافة لعمر بن الخطاب رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ عنه ثانيًا؛ فذلك لعدة وجوه، منها:

الوجه الأوّل: أن الإجماع قد انعقد على بيعته، من قبل المهاجرين، والأنصار، وجميع المسلمين، ولم ينازعه أحدٌ.

الوجه الثّاني: أن أبا بكرٍ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ اختاره خليفة بعده، ولم يخالفه أحدٌ من

الصحابة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمْ، ومعلومٌ أن الخلافة تثبت عند أهل السنة والجماعة باختيار الخليفة الموجود لمن سيخلفه.

الوجه الثّالث: أنّ الإشارات النصية تدل على ذلك، ومن هذه الإشارات؛ ما جاء في حديث حُذَيْفَةَ بْنِ الْيَمَانِ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: **"إِنِّي لَا أَدْرِي مَا قَدْرُ بَقَائِي فِيكُمْ، فَاقْتَدُوا بِاللَّذَيْنِ مِنْ بَعْدِي"**، وَأَشَارَ إِلَى أَبِي بَكْرٍ وَعُمَرَ. [رواه الترمذي وقال: حديث حسن]، وما جاء في حديث عبد الله بن عمر رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا عَنْ رُؤْيَا النّبيّ صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ فِي أَبِي بَكْرٍ وَعُمَرَ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا قَالَ: **"رَأَيْتُ النّاس اجْتَمَعُوا؛ فَقَامَ أَبُو بَكْرٍ فَنَزَعَ ذَنُوبًا أَوْ ذَنُوبَيْنِ، وَفِي نَزْعِهِ ضَعْفٌ، وَاللهُ يَغْفِرُ لَهُ، ثُمَّ قَامَ ابْنُ الخَطَّابِ، فَاسْتَحَالَتْ غَرْبًا، فَمَا رَأَيْتُ مِنَ النّاس مَنْ يَفْرِي فَرْيَهُ، حتّى ضَرَبَ النّاس بِعَطَنٍ"** [رواه البخاري]، والمعنى: أن النّاس قد أكلوا وشربوا حتّى ارتووا في خلافة عمر رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ، كما ترتوي الإبل ثم تبرك في مباركها.

الوجه الرّابع: فضله رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ فإنه يأتي بعد الصّدّيق في الفضل فناسب أن يأتي في ترتيب الخلافة بعده أيضًا، وفضائل الفاروق عمر رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ كثيرة، **ومنها**: أنه لما أسلم أعزّ الله به الإسلام، وجهر النّبيّ صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ بالدعوة، وعاش المسلمون بعد إسلامه في عزة ومنعة، وقد كان وزيرًا ثانيًا للنبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ؛ فكان يفتي بين يديه، ويقضي بين يديه، وكان من الملازمين للنبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ، حتّى روى ابن عمّ النّبيّ صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ عبد الله بن عباس

رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا عن ابن عمّ النبيّ صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ الخليفة الراشد علي بن أبي طالبٍ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ أنه قال يوم وفاة عمر رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ: (مَا خَلَّفْتَ أَحَدًا أَحَبَّ إِلَيَّ أَنْ أَلْقَى اللهَ بِمِثْلِ عَمَلِهِ مِنْكَ، وَايْمُ اللهِ إِنْ كُنْتُ لَأَظُنُّ أَنْ يَجْعَلَكَ اللهُ مَعَ صَاحِبَيْكَ، وَحَسِبْتُ إِنِّي كُنْتُ كَثِيرًا أَسْمَعُ النَّبِيّ صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ يَقُولُ: **"ذَهَبْتُ أَنَا وَأَبُو بَكْرٍ وَعُمَرُ، وَدَخَلْتُ أَنَا وَأَبُو بَكْرٍ وَعُمَرُ، وَخَرَجْتُ أَنَا وَأَبُو بَكْرٍ وَعُمَرُ**) [رواه البخاري].

ومن فضائله ما جاء في حديث سعد بن أبي وقاص رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ قال: قَالَ رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: **"إِيهًا يَا ابْنَ الخَطَّابِ، وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ مَا لَقِيَكَ الشَّيْطَانُ سَالِكًا فَجًّا قَطُّ، إِلَّا سَلَكَ فَجًّا غَيْرَ فَجِّكَ"** [رواه البخاري].

ومن فضائله ما جاء في حديث أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ قَالَ: قَالَ رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: **"لَقَدْ كَانَ فِيمَا قَبْلَكُمْ مِنَ الأُمَمِ مُحَدَّثُونَ، فَإِنْ يَكُ فِي أُمَّتِي أَحَدٌ، فَإِنَّهُ عُمَرُ"** [رواه البخاري].

وما جاء في حديث محمد بن علي ابن أبي طالب المعروف بابن الحنفية نسبة إلى أمّه الّتي كانت من سبي بني حنيفة، قال: (قلت لأبي -يعني علي بن أبي طالب رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ-: أيُّ النّاس خيرٌ بعد رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ؟ قال: أبو بكر، قال: قلت: ثم مَنْ؟ قال: ثم عُمَر، قال: ثم خَشيتُ أن أقول: ثم مَنْ؟ فيقول عثمان؛ فقلت: ثم أنتَ يا أبتِ؟ قال: ما أنا إلا رجلٌ مِن المسلمين) [رواه أبو داود، وهو حديث صحيح].

ولم يُنكر فضل الفاروقِ إلا المجوسُ، ولم ينكر فضله فِرقةٌ من فِرَقِ الأمّة إلّا

الباطنية، ومَن وافقهم من الرافضة، ولم ينكر تقديم الشيخين أبي بكر وعمر رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا إلّا الضُّلّالُ.

قال الإمام سفيان بن سعيد الثوري رَحِمَهُٱللَّهُ: (مَنْ زَعَمَ أن عليًّا رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ كان أحقَّ بالولاية منهما فقد خطَّأ أبا بكر وعُمرَ والمهاجرين والأنصار، وما أُراهُ يَرتفعُ له مع هذا عَملٌ إلى السّماء) [رواه أبو داود].

وبعد هذا لا بد أن ندرك أنّ من خالف في تقديم الشيخين فإنّه أضلُّ من حمار أهله، وذلك لأنه يخالف تلك الوجوه الظاهرة، ويخالف ما كان عليه علي بن أبي طالب رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ من حسن السيرة العملية أيام الخلفاء مع الخلفاء؛ من طاعتهم، ومناصحتهم، ومشاورتهم، ومؤازرتهم، ومساندتهم؛ بل وبعدهما من الثناء عليهم، والسير على منوالهم، والاقتداء بهم.

"ثم لعثمان" رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ، أي ثم بعدَ عمرَ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ يثبت أهل السنة والجماعة الخلافة لعثمان رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ -وستأتي ترجمته-، وذلك لوجوه:

الوجه الأوّل: أنّه أحدُ السّتّة الذين اختارهم عمرُ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ؛ فهو من الذين توفي رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ وهو عنه راضٍ، وكان هذا معلومًا مشهورًا بين الأصحاب رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمْ.

فبعد ما طعن أبو لؤلؤة المجوسي، المشهور عند الفرس بـ(بابا شجاع النهاوندي) عمرَ بن الخطاب رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ، قال عمرُ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ وهو على فراش الموت: (مَا أَجِدُ أَحَدًا أَحَقَّ بِهَذَا الأَمْرِ مِنْ هَؤُلَاءِ النَّفَرِ، أَوِ الرَّهْطِ، الَّذِينَ تُوُفِّي

رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَهُوَ عَنْهُمْ رَاضٍ، فَسَمَّى عَلِيًّا، وَعُثْمَانَ، وَالزُّبَيْرَ، وَطَلْحَةَ، وَسَعْدًا، وَعَبْدَ الرَّحْمَن) [رواه البخاري].

الوجه الثّاني: الإجماعُ؛ فقد انعقد الإجماع على بيعته، وأولُ من بايعه عبدُ الرحمن بن عوفٍ، ثم علي بن أبي طالب، ثم بقية الستة، ثم بقية المهاجرين والأنصار رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ، ولم تظهر المخالفة لخلافته إلا بعد ظهور ابن سبأٍ، وتكالب الغوغاءِ بسبب قيله ومقاله بين الملأ.

الوجه الثّالث: الإشارات في النصوص النبوية إلى خلافته من بعد الخليفتين، **ومنها**: ما جاء في حديث أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ: صَعِدَ النّبيّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِلَى أُحُدٍ، وَمَعَهُ أَبُو بَكْرٍ، وَعُمَرُ، وَعُثْمَانُ، فَرَجَفَ بِهِمْ، فَضَرَبَهُ بِرِجْلِهِ، قَالَ: **"اثْبُتْ أُحُدُ، فَمَا عَلَيْكَ إِلَّا نَبِيٌّ، أَوْ صِدِّيقٌ، أَوْ شَهِيدَانِ"** [رواه البخاري].

ومن ذلك ما جاء في حديث عبد اللهِ ابْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا قَالَ: "كُنَّا فِي زَمَنِ النّبيّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لاَ نَعْدِلُ بِأَبِي بَكْرٍ أَحَدًا، ثُمَّ عُمَرَ، ثُمَّ عُثْمَانَ، ثُمَّ نَتْرُكُ أَصْحَابَ النّبيّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لاَ نُفَاضِلُ بَيْنَهُمْ" [رواه البخاري].

الوجه الرّابع: فضله رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، فهو بهذه الفضائل يستحق التقديم، **ومنها**؛ ما جاء في حديث أَبِي مُوسَى رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ: (كُنْتُ مَعَ النّبيّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي حَائِطٍ مِنْ حِيطَانِ المَدِينَةِ فَجَاءَ رَجُلٌ فَاسْتَفْتَحَ، فَقَالَ النّبيّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **"افْتَحْ لَهُ وَبَشِّرْهُ بِالجنّة"**؛ فَفَتَحْتُ لَهُ، فَإِذَا أَبُو بَكْرٍ، فَبَشَّرْتُهُ بِمَا قَالَ النّبيّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَحَمِدَ اللهَ.

ثُمَّ جَاءَ رَجُلٌ فَاسْتَفْتَحَ، فَقَالَ النّبيّ صَلَّىٰاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: **"افْتَحْ لَهُ وَبَشِّرْهُ بِالجنّة"**؛ فَفَتَحْتُ لَهُ فَإِذَا هُوَ عُمَرُ، فَأَخْبَرْتُهُ بِمَا قَالَ النّبيّ صَلَّىٰاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ، فَحَمِدَ اللهَ.

ثُمَّ اسْتَفْتَحَ رَجُلٌ، فَقَالَ لِي: **"افْتَحْ لَهُ وَبَشِّرْهُ بِالجنّة، عَلَى بَلْوَى تُصِيبُهُ"**؛ فَإِذَا عُثْمَانُ، فَأَخْبَرْتُهُ بِمَا قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّىٰاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ فَحَمِدَ اللهَ، ثُمَّ قَالَ: اللهُ المُسْتَعَانُ) [رواه البخاري].

وقد قال الإمام البخاري في صحيحه في باب فضائل عثمان رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ: (وَقَالَ النّبيّ صَلَّىٰاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: **"مَنْ يَحْفِرْ بِئْرَ رُومَةَ فَلَهُ الجنّة"**؛ فَحَفَرَهَا عُثْمَانُ، وَقَالَ: **"مَنْ جَهَّزَ جَيْشَ العُسْرَةِ فَلَهُ الجنّة"** فَجَهَّزَهُ عُثْمَانُ).

وقال عثمانُ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ لما أكثرَ النّاس القيلَ والقالَ فيه بوشاية من ابن سبأ ومن شايعه، حتّى نُسِّبَ الكلامُ إلى بعض الصحابة الأجلّاء، والتّابعين الألبّاء، قال عبدُ الله بن عدي بن الخيار: قَالَ عثمانُ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ: (أَمَّا بَعْدُ، فَإِنَّ اللهَ بَعَثَ مُحَمَّدًا صَلَّىٰاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ بِالحَقِّ، فَكُنْتُ مِمَّنِ اسْتَجَابَ لِلَّهِ وَلِرَسُولِهِ، وَآمَنْتُ بِمَا بُعِثَ بِهِ، وَهَاجَرْتُ الهِجْرَتَيْنِ، كَمَا قُلْتَ، وَصَحِبْتُ رسول الله صَلَّىٰاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ وَبَايَعْتُهُ، فَوَاللهِ مَا عَصَيْتُهُ وَلاَ غَشَشْتُهُ حتّى تَوَفَّاهُ اللهُ عَزَّوَجَلَّ، ثُمَّ أَبُو بَكْرٍ مِثْلُهُ، ثُمَّ عُمَرُ مِثْلُهُ، ثُمَّ اسْتُخْلِفْتُ، أَفَلَيْسَ لِي مِنَ الحَقِّ مِثْلُ الّذي لَهُمْ؟ قُلْتُ: بَلَى، قَالَ: فَمَا هَذِهِ الأَحَادِيثُ الّتي تَبْلُغُنِي عَنْكُمْ؟ أَمَّا مَا ذَكَرْتَ مِنْ شَأْنِ الوَلِيدِ، فَسَنَأْخُذُ فِيهِ بِالحَقِّ إِنْ شَاءَ اللهُ، ثُمَّ دَعَا عَلِيًّا، فَأَمَرَهُ أَنْ يَجْلِدَهُ فَجَلَدَهُ ثَمَانِينَ) [رواه البخاري].

وجاء في حديث جابر بن عبد الله رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا يُحدِّث أن رسول الله صَلَّىٰاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ

قال: "**أُرِيَ اللَّيلةَ رجلٌ صالحٌ أنَّ أبا بكر نِيَط برسول الله** صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، **ونِيطَ عُمرُ بأبي بكرٍ، ونِيطَ عثمانُ بعُمرَ**" قال جابر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ: فلما قُمنا من عند رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قلنا: أمّا الرّجلُ الصَّالِحُ فرسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وأما تَنَوُّطُ بعضهم ببعض فهم وُلاةُ هذا الأمر الّذي بَعَثَ الله به رسوله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) [رواه أبو داود، ورجال إسناده ثقات].

وجاء عن أبي جُحيفة، قال: قال علي رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ: "خيرُ هذه الأمة بعد نبيها أبو بكر، وبعدَ أبي بكر عمرُ، ولو شئت أخبرتكم بالثّالث لفعلت"[رواه الإمام أحمد، وإسناده على شرط مسلم، وقال الذهبي في السير: وهذا متواتر عن علي رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ].

وإنما خالف في خلافته الخوارج والباطنيةُ، والرّافضة، وبعضُ الشيعة، ولا ريب أن هذه المخالفة منهم طعنٌ على المهاجرين والأنصار، الذين اختاروه في الشورى، وعاونوه على الأمرِ تترى، وطعنٌ على أبي الحسن علي بن أبي طالبٍ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ؛ فإنه كان في مقام الوزير عنده، وهكذا الحسن والحسينُ، وكانا من الشباب الذين يستعين بهم عثمان رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ؛ فالطعنُ فيه طعنٌ فيهم، واللهَ نسأل أن يحفظ ألسنتنا من الطعن في أصحاب محمدٍ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ورضي الله تعالى عنهم.

ومسألة تقديم عثمان على علي رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا في الفضلِ مسألة فقهية، ليس فيها تبديع بين علماء أهل السّنّة، وذلك لأن الخلاف وجد بين السلف وفي زمانهم،

وهي متعلقة بالفضائل، مع إثبات الفضل لهما.

وأمّا مسألة تقديم عثمان على علي رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا في الخلافة فمسألة عقدية؛ فمن خالف فيها فقد أزرى المهاجرين والأنصار، وأزرى بعلي، وبالحسن والحسين، رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمْ، وصار يقدم عقله وهواه على عقل ودين وفهم وإدراك أولئك الصحابة الأخيار، والأئمّة الأبرار.

"ثم لعلي بن أبي طالب" أي ثم بعدَ عثمانَ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ يُثْبِتُ أهلُ السنة والجماعة الخلافة لعلي بن أبي طالب رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ -وستأتي ترجمته-، وذلك لوجوه:

الوجه الأوّل: أنّه أحدُ السّتّة الذين اختارهم عمرُ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ؛ فهو من الذين توفي رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ وهو عنه راضٍ، وكان هذا معلومًا مشهورًا بين الأصحاب رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمْ.

الوجه الثّاني: الإجماعُ على بيعته رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ مِن قِبَلِ أهل الحل والعقد، قَبْلَ أن يظهرَ معاويةُ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ استقلالَه بالحكمِ، ومخالفته باجتهاده، وقبل أن تخرج الخوارجُ عليه، وتظهر التكفيرَ له رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ.

الوجه الثّالث: الإشارات في النّصوص النّبويّة إلى خلافته من بعد أبي بكر وعمر وعثمان رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمْ، ومن ذلك ما جاء في حديث سَمُرَة بن جُندُبٍ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ أنَّ رجلًا قال: (يا رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ، رأيتُ كأنّ دَلْوًا دُلِّي مِن السّماء، فجاءَ أبو بكرٍ، فأخَذَ بعَرَاقيها فشَرِبَ شُربًا ضعيفًا، ثم جاءَ عُمرُ فأخَذَ بعَرَاقيها

فشَرِبَ حتّى تَضَلَّعَ، ثم جاء عثمانُ فأخذ بعَرَاقِيها فشَرِبَ حتّى تَضَلَّعَ، ثم جاء عليٌّ فأخذ بعَرَاقِيها، فانْتَشطَتْ، وانتُضِحَ عليه منها شيءٌ) [رواه أبو داود بإسنادٍ حسن].

وما جاء في حديث سعيد بن جهمان عن سفينة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ قال: قال رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ: **"خلافةُ النُّبوّة ثلاثونَ سنةَ، ثم يؤتي الله المُلكَ -أو ملكه- مَن يشاء"**، قال سعيد: قال لي سفينة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ: أمسِكْ عليكَ: أبا بكرٍ سنتين، وعُمرَ عشرًا، وعثمانَ اثنتي عشرة، وعليٌّ كذا، قال سعيدٌ: قلت لسفينة: إنَّ هؤلاء يزعُمون أن عليًّا لم يكن بخليفةٍ، قال: كذبَتْ أستاهُ بني الزَّرقاء، يعني بني مروان. [رواه أبو داود، والترمذي، وقال: حديث حسن].

فخلافة عليٍّ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ تتمة الخلافة الراشدة، وإن لم يستتب له الأمر كما زعمه بعضُ بني أمية؛ فهذا لا يخرج أمره عن الخلافة الراشدة، الّتي هي ضمن خلافة النبوة الّتي هي على منهاج النبوة، ليس فيها استئثارٌ، ولا استبدادٌ، بخلاف الملك العضوض؛ فإنّه يجمع الأمرين معًا؛ فلا يخلو ملكٌ عضوض من الاستئثار، ولا من الاستبداد، بين مُقلٍّ ومستكثرٍ.

وإنما خالف في خلافة علي بن أبي طالب رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ الخوارجُ الذين كفرّوه، والمعتزلة الذين يعتقدون فِسْقَه؛ لما وقع من قتاله لأهل الشام وللخوارج، وهؤلاء وهؤلاء محجوجون بإجماع المهاجرين والأنصار، وبالوجوه الّتي ذكرناها في استحقاقه الخلافة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ.

وكلّ دليل يحتج به الخوارج في الطّعن في علي رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ؛ وفي الجفاء في حقه؛ فهم محجوجون بما تذكره الشيعة من الأدلة الصحيحة على فضله، مع ما قد يظهر منهم مِن الغلوِّ فيه، واعوجاجٍ في استدلالهم.

وكل دليل يحتج به الرّافضة أو بعض الشيعة في الطّعن في أبي بكرٍ وعمرَ وعثمانَ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمْ، وفي الافتراء في حقهم؛ فهم محجوجون بما تذكره الخوارج من الأدلة، مع قصورٍ في استدلالهم، وجفاءٍ في حقهم.

والصّواب في هذا طريقة أهل السنة الذين ابتعدوا عن الغلو والجفاء، فرأوا لهؤلاء الخلفاء الراشدين فضلًا، واستدلوا بالأدلة على وجه الاستقامة حقًّا؛ فكانوا منافحين عن الصحابة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمْ صدقًا، وفازوا بحب الجهتين عدلًا، وترضَّوا عن تلامذة وأصحاب النّبيّ صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ سرًّا وجهرًا.

وبهذا فأهل السنة هم الذين ينطبق عليهم قول عليّ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ: (خَيْرُ النّاس هَذَا النَّمَطُ الْأَوْسَطُ، يَلْحَقُ بِهِمُ التَّالِي، وَيَرْجِعُ إِلَيْهِمُ الْغَالِي) [رواه ابن أبي شيبة في مصنفه].

وهؤلاء الخلفاءُ الأربعةُ؛ أبو بكر، وعمر، وعثمان، وعلي، رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمْ: **"هُمُ الخلفاء الراشدون"**، فهذا هو معتقدُ أهل السنة والجماعة بخلاف معتقد الخوارج والمعتزلة الذين طعنوا في خلافة عثمان وعلي رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا، وبخلاف معتقد الباطنية وبعض الشيعة والروافض الذين طعنوا في خلافة أبي بكر وعمر رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا.

فيجب أن نعتقد أن خلافة هؤلاء الأربعة خلافة نبوة، وهي الخلافة الراشدة، و **"هم الخلفاء الراشدون"**.

و **"الراشدون"** جمعُ (راشدٍ)، وهو: المستقيم على طريق الحقّ مع تصلُّبٍ فيه، و(**الرّشادُ**)؛ السّداد والصّواب في العمل؛ فهم على نهج النّبوّة ساروا في حكمهم بين النّاس، وطبّقوا الإسلام عمليًّا في خلافتهم، ولذلك جعل النّبيّ صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ لهم سنة متبعة، وذلك لأن الخلفاء بعدهم بحاجة إلى سيرتهم؛ لكي يطبقوا الإسلام كما طبقوا، من حفظٍ للدين، وقيامٍ على أمور المسلمين الدّينيّة والدّنيويّة.

والخلفاءُ الأربعةُ كانوا راشدين؛ لأنهم هم **"الأئمة المهتدون"**؛ فمِن أسباب رَشادِهم في عَملِهم كونهم من الأئمة المهتدين، الذين جمعوا العلم المتين، وكانوا للحق مستبصرين، وفهموا النصوص على الوجه المستقيم، وأدركوا المدلول القويم.

و **"الأئمة"** جمع (إمامٍ)، وهو مَن يُقْتَدَي به، سواءٌ في العبادات؛ كالصلاة، أو في الحكم والخلافة، والأمر والطاعة، وسواءٌ كان في الخير أو في الشر، ومنه قول الله تعالى: ﴿وَجَعَلۡنَٰهُمۡ أَئِمَّةٗ يَهۡدُونَ بِأَمۡرِنَا﴾ [سورة الأنبياء، من الآية:٧٣]، وقوله سبحانه: ﴿فَقَٰتِلُوٓاْ أَئِمَّةَ ٱلۡكُفۡرِ﴾ [سورة التوبة، من الآية:١٢]، وهذان في الخير والشر في الأمور الدينية، وقال جَلَّوَعَلَا في إمامة الدّنيا: ﴿وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ

ٱسۡتُضۡعِفُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَنَجۡعَلَهُمۡ أَئِمَّةٗ وَنَجۡعَلَهُمُ ٱلۡوَٰرِثِينَ﴾ [سورة القصص، من الآية:٥]، وقال عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَجَعَلۡنَٰهُمۡ أَئِمَّةٗ يَدۡعُونَ إِلَى ٱلنَّارِ﴾ [سورة القصص، من الآية:٤١].

و "**الأئمة**" ينقسمون قسمين:

القسم الأوّل: أئمةُ الدين الذين يقتدى بهم في الدين، وهم على نوعين؛

النّوع الأوّل: أئمة يهدون إلى الحق، وهم العلماءُ الربانيون، الذين يرشدون النّاس إلى عبادة الله تعالى، واتباع النّبيّ صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ، وهم الذين يهدون بأمرِ الله تعالى، وهم صابرون، وعلى يقين في الدليل والمدلول، كما في قول الله تعالى: ﴿وَجَعَلۡنَا مِنۡهُمۡ أَئِمَّةٗ يَهۡدُونَ بِأَمۡرِنَا لَمَّا صَبَرُواْۖ وَكَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يُوقِنُونَ﴾ [سورة السجدة، من الآية:٢٤]، وهؤلاء درجاتٌ؛ فمنهم من نال الإمامة الدينية المطلقة كالإمام أبي حنيفة ومالك والشافعي وأحمد والبخاري ومسلم، ونحوهم، ومنهم من له الإمامة في علمٍ من العلوم؛ كسيبويه في النحوِ، وحفصٍ في القراءة، وابن جرير في التفسير، والأزهري في اللغة، ونحوهم، ومنهم أئمة المساجد الذين يصلون بالنّاس الجمعة والجماعة؛ كما جاء في حديث أبي هريرة رَضِيَٱللَّهُعَنۡهُ قال: قال رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ: "**الإمامُ ضامِنٌ، والمُؤَذِّنُ مُؤتَمَنٌ، اللَّهُمَّ أَرشِدِ الأئِمّةَ، وَاغْفِرْ للمؤذِّنين**" [رواه أبو داود، وابن حبان في صحيحه].

النّوع الثّاني: أئمّة يهدون إلى البدعة والضّلالة، وإلى الكفر والشرك، والزّندقة،

وهم علماءُ أهل البدع، وأحبار السوء، ورهبان الزور، ممن يتآكلون باسم الدّين، ويفسدون الدّين لأجل دنياهم، وهؤلاء ينطبق عليهم ما جاء في حديث ثوبان رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ، وفيه أنّ النّبيّ صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ قال: **"وإنما أخافُ على أُمّتي الأئمةَ المُضِلِّين"** [رواه مسلم، وأبو داود، وهذا لفظه]، وهؤلاء الذين جاءت النصوص، والإجماعات، على وجوب الحذر منهم، وهجرهم، وعدم متابعتهم.

القسم الثّاني: أئمة الدّنيا الذين يسوسون النّاس في دنياهم، وهم الحكام، والأمراء، والملوك، والخلفاء، وهم أيضا على نوعين:

النّوع الأوّل: حكامٌ تولّوا الحكم بغير مشورةٍ من المسلمين، واستبدُّوا به، واستأثروا بالأموال، ووقع منهم مظالمُ، أو فسوقٌ، أو بِدَعٌ، أو كلّ ذلك؛ فهؤلاء لهم السّمع والطّاعة بالمعروف، ولا يعانون على المنكر، ولا على الظلم، ولا على الفسوق، وهؤلاء ينطبق عليهم حديث أمِّ سَلَمَةَ رَضِيَٱللَّهُعَنْهَا عن النّبيّ صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ قال: **"إِنَّهُ سَيَكُونُ عَلَيْكُمْ أَئِمَّةٌ تَعْرِفُونَ وَتُنْكِرُونَ؛ فَمَنْ أَنْكَرَ فَقَدْ بَرِئَ، وَمَنْ كَرِهَ فَقَدْ سَلِمَ، وَلَكِنْ مَنْ رَضِيَ وَتَابَعَ"**؛ فَقِيلَ: يَا رَسُولَ اللهِ أَفَلاَ نُقَاتِلُهُمْ؟ قَالَ: **"لاَ، مَا صَلَّوْا"** [رواه مسلم].

النّوع الثّاني: حكّامٌ تولّوا الحكم بمشورة من المسلمين، ولم يستبدُّوا، ولم يستأثروا، ولم يرضوا بالظّلم إذا علموا به، ولا بالفسوق إذا وقفوا عليه، ولا بالبدعة إذا دُعِيَ إليها؛ فهؤلاء هم الأئمّة والخلفاء الرّاشدون بالمعنى العام،

وينطبق على كلّ خليفة راشدٍ في عمله، هادٍ في علمه، ويدخل في هذا الصّنف مَن شهدت له الأمّة بذلك؛ كعمر بن عبد العزيز رَحِمَهُ ٱللَّهُ، ومِن هؤلاء نصًّا وواقعًا؛ المهديّ في آخر الزّمانِ، والخلفاء الراشدون المهديون؛ الأربعة الذين ذكرهم المصنّف رَحِمَهُ ٱللَّهُ، والحسن بن علي رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا؛ فإنّ خلافته على منهاج النبوة بلا ريب؛ وقد جاءت الإشارة إلى الخلافة الراشدة في حديث العِرْبَاضِ بْنِ سَارِيَةَ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ قَالَ: وَعَظَنَا رَسُولُ اللهِ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَوْمًا بَعْدَ صَلاَةِ الْغَدَاةِ مَوْعِظَةً بَلِيغَةً ذَرَفَتْ مِنْهَا الْعُيُونُ وَوَجِلَتْ مِنْهَا الْقُلُوبُ، فَقَالَ رَجُلٌ: إِنَّ هَذِهِ مَوْعِظَةُ مُوَدِّعٍ فَمَاذَا تَعْهَدُ إِلَيْنَا يَا رَسُولَ اللهِ؟ قَالَ: **"أُوصِيكُمْ بِتَقْوَى اللهِ وَالسَّمْعِ وَالطَّاعَةِ، وَإِنْ عَبْدٌ حَبَشِيٌّ، فَإِنَّهُ مَنْ يَعِشْ مِنْكُمْ يَرَى اخْتِلاَفًا كَثِيرًا، وَإِيَّاكُمْ وَمُحْدَثَاتِ الأُمُورِ فَإِنَّهَا ضَلاَلَةٌ فَمَنْ أَدْرَكَ ذَلِكَ مِنْكُمْ فَعَلَيْهِ بِسُنَّتِي وَسُنَّةِ الْخُلَفَاءِ الرَّاشِدِينَ الْمَهْدِيِّينَ، عَضُّوا عَلَيْهَا بِالنَّوَاجِذِ"** [رواه أبو داود، والترمذي، وقال: حسن صحيح].

والجمع بين هاتين الصفتين؛ الرشاد، والهُدى؛ لبيان أنّ الخلفاء الراشدين جمعوا بين حسن العمل وإتقانه، وضبط العلم وإدراكه، وهذا يدل أن الخلل على الخلفاء وغيرهم، إنما يأتي بسبب الخلل في أحد هذين، أو هما معًا، ولهذا ينبغي للخلفاء أن يستخدموا من يجمع الأمرين، حسن العلم، وحسن العمل، ولما كانوا راشدين جعل لهم سنة مستقلة.

فإن قيل: أنه من المعلوم أنّ الدّين قد كمل؛ فأي سُنّة لهم تكون مستقلة!؟

فالجواب: أنا لما علمنا كمال الدين، وعلما أنّ النّبيّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ جعل لهم سنّة مستقلّة، تيقنا أنّ المراد سنتهم في كيفيّة تطبيق الدين، وكيفيّة العمل بالدّين، وكيفيّة تنفيذ أحكام الدين، وجريانها على النّاس، لا أنّهم يشرعون؛ فإن التشريع قد كمل، ولهذا ليس لأحدٍ بعد رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أن يحرم شيئًا أو يحلّل.

ولما كانت خلافتهم راشدة، وسنتهم هادية، كان لزامًا على كلّ حاكمٍ أن يسير بسيرهم حتّى يكون على منوالهم، ويلحق بشيء من ركائبهم، ويكون على شيء من سيرتهم، وذلك مع بذل الوسع والطاقة، وعلى قدر الإمكان والمقدرة.

و **"المهتدون"** جمعُ (مهتدي)، وهو مَن هداه الله تعالى إلى الإسلامِ، وفي **الاصطلاح**: هو من أتقن العلم ودلائله، وضبط العمل ووسائله.

وبين **"الراشدون"** و **"المهتدون"** تداخل عند الانفراد؛ فكل راشدٍ مهتدٍ، وكلّ مهتدٍ راشد، وتباينٌ عند الاجتماع؛ **فالراشد**: المسددُ عملًا، **والمهتدي**: المسدد عِلمًا.

وهذا يدلنا أن من أسباب هذا التقديم في الخلافة ما كانوا عليه من الرشاد والاهتداء؛ فلا يمكن أن يحصل منهم تقديم لما حقه التأخير، وتأخير لما حقه التقديم، ومن قال بخلاف ذلك كان قد أزرى المهاجرين والأنصار، وغمز عمل الخليفة الراشد عليٍّ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، وذلك أنه جاء بعد الخلفاء الثلاثة ولم يغير من سيرتهم شيئا؛ فأبقى المصحف على ما كان، وأبقى أمور الأمصار على ما كانت، وأبقى الصلاة والعبادات على ما كانت؛ فهذا كله يدل على أنه راضٍ بما كان

عليه الخلفاء الثلاثة قبله، ولم يغير شيئًا من سيرتهم، ولم يحصل منه ازدراء لحكمهم، ولا تنقيص لإدارتهم، ولا تغيير لنمط جريان الأحكام في المسلمين.

نعم قد خالف عثمانَ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ في أشياء من الجهة الإدارية، وهما فيه مجتهدان، والمصيب منهم له أجران، والمُخطئ منهم له أجرٌ.

وخلاصة كلام المصنف رَحِمَهُٱللَّهُ: وجوب إثبات الخلافة، وأن الخلافة بعد رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ مرتب على الترتيب الواقعي الذي وقع بإرادة الله تعالى، وأن ذلك موافق للإرادة الشرعية، بدلالة النصوص، والإجماع، وأن هؤلاء الخلفاء الراشدين هم أئمة في الدين والدنيا، وهم مهتدون راشدون في علمهم وعملهم، وهم كانوا قضاة بالحق، وبه كانوا يعدلون، وعليه كانوا قائمين.

[محبة العشرة والشهادة لهم بالجنة]

وَنُحِبُّ الْعَشَرَةَ الَّذِينَ سَمَّاهُمْ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَبَشَّرَهُمْ بالجنة، وَنَشْهَدُ لِلْعَشَرَةِ الَّذِينَ سَمَّاهُمْ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِالْجَنَّةِ، عَلَى مَا شَهِدَ لَهُمْ رَسولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَقَوْلُهُ الْحَقُّ، وَهُمْ : أَبُو بَكْرٍ، وَعُمَرُ، وَعُثْمَانُ، وَعَلِيٌّ، وَطَلْحَةُ، وَالزُّبَيْرُ بْنُ الْعَوَّامِ، وَسَعْدٌ، وَسَعِيدٌ، وَعَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ عَوْفٍ، وَأَبُو عُبَيْدَةَ ابْنُ الْجَرَّاحِ، وَهُوَ أَمِينُ هَذِهِ الْأُمَّةِ، رِضْوَانُ اللهُ تَعَالَى عَلَيْهِمْ أَجْمَعِينَ.

الشرح

هذا تقرير من المصنف رَحِمَهُ اللَّهُ لبيان وجوب محبة الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ على وجه العموم، والعشرة المبشرين بالجنة على وجه الخصوص، ونشهد لهم بالجنة.

وهذا مِن أسباب تقديم الخلفاء الأربعة الراشدين المهديين فهم أوَّلُ الأربعة من العشرة المبشرين بالجنّة؛ فلما كانوا في بشارتهم مُقَدَّمِين، وفي دخولهم الجنان مِن هذه الأمة مُتقدِّمين، استحقوا التَّقديم في الخلافة الدُّنيويّة ولا ريب.

قوله: "**ونحبّ العشرة الذين سماهم رسول الله** صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، **وبشرهم بالجنة**" أي من حيث الخصوص، وأن هذا من معتقد أهل السنة والجماعة، ثم سرد أسماء العشرة كما سيأتي.

و "**بشرهم بالجنة**" أي بأعيانهم وأسمائهم، فمِن عقيدة أهل السنة والجماعة

أنهم لا يشهدون لمعيَّنٍ بجنة ولا نارٍ ما لم يأتِ النّص فيه أنه من أهل الجنّة،كما سبق.

وقد جاء النّصّ في بعضِ أعيان الصحابة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ؛ فلا بدّ من الشّهادة لهم، ومِن هؤلاء المبشرين بالجنّة: **"العشر الذين سماهم رسول الله** صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ**"**.

فإن قيل: فلِم خصّ العشرة، والمبشرون بالجنة كُثُرٌ بأعيانهم؟

فالجواب: أنّه خصّ هؤلاء العشر لسببين:

السّبب الأوّل: لأنّ ذِكْرَهم جاء في نصٍّ واحدٍ، وإن كان المبشَّرون بالجنّة من الصحابة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمْ بأعيانهم كُثُرٌ، واشتهروا بالبشارة بالجنّة منهم عددٌ يُحْصَر، كما اشتهروا بالبشارة بالجنّة بأوصافهم؛ كالمهاجرين والأنصار المبشرين بالجنّة، والذين أسلموا قبل الفتح، وبعده، مُبَشَّرُون بالحسنى، وهي الجنّة، قال الله تعالى: ﴿لَا يَسْتَوِى مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ ٱلْفَتْحِ وَقَـٰتَلَ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِّنَ ٱلَّذِينَ أَنفَقُوا۟ مِنۢ بَعْدُ وَقَـٰتَلُوا۟ ۚ وَكُلًّا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْحُسْنَىٰ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ [سورة الحديد، من الآية:١٠].

السّبب الثّاني: لمكانتهم في الإسلام، وسبقهم إليه، ورفعتهم فيه، وعلوّ مكانتهم، ولما قدّموا للإسلام، وللدّعوة إلى الله تعالى، ولخدمة النّبيّ صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ، ولخدمة السنة، ولنصرة الإسلام والمسلمين؛ فرضي الله عنهم أجمعين.

و **"العَشْرُ"** مِن الأعداد الّتي تخالف المعدود؛ فمن (٣-١٠) تخالف جنس

المعدود؛ فتكون مذكَّرة مع المؤنّث، ومؤنّثة مع المذكّر، فتقول: هؤلاء عشرة رجالٍ مبشرون بالجنّة، وهؤلاء عشر نسوة صالحات، هذا إذا لم تضف أو يدخل عليها (ال)؛ فإن أضيفت هذه الكلمة، أو دخل عليها (ال)؛ فهي توافق المعدود؛ فتقول: المبشرون بالجنّة من الرجال أكثر من خمسة عشر رجلًا، والمبشرون من النساء بالجنّة أكثر من ثلاث عشرة نسوةٍ، وتقول: هؤلاء العشرُ المبشرون بالجنّة، وهؤلاء النسوة العشرة المبشرات بالجنّة.

ولفظُ "**العشر**" أول ألفاظ العقود وقاعدتها، وهي: عشرون، وثلاثون، وأربعون...، ومئة، وألفٌ...، ونحو ذلك.

و "**سَمَّاهم رسول الله** صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ" أي ذَكَرَ أسماءَهم، واحدًا تِلْوَ الآخَرِ، وعَيَّنَهُم، وحَدَّدَهم، وخَصَّهُم بالذِّكْرِ دُونَ الآخرين؛ كما جاء في عدة روايات، ومنها حديث عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ عَوْفٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "**أَبُو بَكْرٍ فِي الجنّة، وَعُمَرُ فِي الجنّة، وَعُثْمَانُ فِي الجنّة، وَعَلِيٌّ فِي الجنّة، وَطَلْحَةُ فِي الجنّة، وَالزُّبَيْرُ فِي الجنّة، وَعَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ عَوْفٍ فِي الجنّة، وَسَعْدٌ فِي الجنّة، وَسَعِيدٌ فِي الجنّة، وَأَبُو عُبَيْدَةَ بْنُ الجَرَّاحِ فِي الجنّة**" [رواه الترمذي، وهو حديث صحيح].

ولهذا كانت الشّهادة لهؤلاء أشهر، وأمرهم بين الأمَّة أظهر، والقيام بهذه الشهادة عقيدة؛ فـ"**نشهد لهم بالجنّة**"، ونقرُّ بذلك ونؤمن، وهذه شهادة إنما يقوم بها المسلم تبعًا لشهادة رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فإنّ الشهادة على شهادة

رسول الله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ دينٌ وإيمان.

والشهادة يقوم بها كلّ من جعله الله تعالى أهلًا للشّهادة، وهم الذين اتّبعوا الأنبياء إخلاصًا ومتابعة؛ كما قال الله تعالى: ﴿إِلَّا مَن شَهِدَ بِٱلۡحَقِّ وَهُمۡ يَعۡلَمُونَ﴾ [سورة الزخرف، من الآية:٨٦]، فمن وصله الخبر الصحيح عن رسول الله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ فقد جاءه العلم؛ فيجب ترك التّأويلات، والشهادة بهذا الحق في حق هؤلاء الصحابة السادات رَضِيَٱللَّهُعَنۡهُمۡ.

وقال الله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلۡنَٰكُمۡ أُمَّةٗ وَسَطٗا لِّتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيۡكُمۡ شَهِيدٗا﴾ [سورة البقرة، من الآية:١٤٣]؛ فمن أوصاف الأمة الوسط أنهم تركوا الجفاء وتركوا الغلو في حق الصحابة الأجلاء رَضِيَٱللَّهُعَنۡهُمۡ، وبذلك استحقوا أن يكونوا شهداء لأنهم أهلٌ لذلك؛ بخلاف الجافين، والغالين؛ فليسوا بأهلٍ للشهادة حتّى يشهدوا، ولا تقبل شهادتهم وإن شهدوا؛ فالاعتبار إنما هو بالحق الموصول، والقيام به من الحق العدول، الذين خلصوا من الجفاء والغلول، ومن الغلو والقول المدخول؛ فكانوا متبعين حقا للرسول صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ، قائمين بهذه الشهادة على وجهها، **"على ما شهد لهم رسول الله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ"**؛ فشهادة رسول الله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ مبنيّة على الوحي؛ فإنه صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ لا يتكلم من عند نفسه، وإنما هو رسولٌ يبلِّغ عن ربّه؛ فيجب علينا أن نشهد كما شهد؛ فإنْ شهد على العموم شهدنا على العموم، وإن شهد

على الخصوص شهدنا على الخصوص، وإن شهد للأعيان شهدنا للأعيان، وإن شهد مطلقًا شهدنا مطلقًا، وإن شهد مقيدًا شهدنا مقيدًا، وهذا حال أهل السنة والجماعة، العالمين بالنّصوص النّبوية؛ فهم أعلم الأمّة بأقوال النّبيّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وبأحوال النّبيّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وبعمومات ومخصوصات ومطلقات ومقيدات كَلِمِ النّبيّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ومن ذلك شهادته لهؤلاء العشر المبشرين بالجنّة، وشهادته لغيرهم، مثلُ شهادة النّبيّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لشهداء أحدٍ كلِّهم رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ؛ كما جاء في حديث جابر بن عبد الله رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا قال: (لما كان يوم أحد أشرف النّبيّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ على الشهداء الذين قتلوا يومئذٍ، فقال: **"زَمِّلُوهُم بِدِمَائِهِم، فَإِنِّي قَدْ شَهِدْتُ عَلَيْهِمْ"**؛ فكان يدفن الرجلان والثلاثةُ في القبر الواحد، ويَسْأَلَ: **"أَيُّهُمْ كَانَ أَقْرَأَ لِلْقُرْآنِ"** فيقدمونه) [رواه أحمد، والبخاري بنحوه].

وكما جاء في حديث أبي سلمة بن عبد الرحمن، قال: (أشرف عثمان رَضِيَ اللهُ عَنْهُ مِن القَصْرِ، وهو مَحْصُورٌ؛ فقال: أَنْشُدُ بالله مَنْ شَهِدَ رَسُولَ الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يوم حراء إذ اهتز الجبل فركله بقدمه، ثم قال: **"اسْكُنْ حِرَاءَ، لَيْسَ عَلَيْكَ إِلَّا نَبِيٌّ أَوْ صِدِّيقٌ أَوْ شَهِيدٌ"**، وأنا معه؟ فانتشد له رجال) [رواه الإمام أحمد، ورجاله رجال الشيخين].

فمن قام بالشهادة على ما شهد به رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ فإنه إنما يشهد بالصدق؛ لأن النّبيّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إنما ينطق بالحق، **"وقوله** صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ

الحق"، وذلك لأنه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لا يتكلم من تلقاء نفسه؛ بل بالوحي من علام الغيوب سبحانه؛ فإذا شهد لأحدٍ بالجنّة؛ فذلك لأنّ الله تعالى أوحى إليه بأنه ثابت على الإيمان، ويموت على الإحسان؛ فيستحق البشارة بالجنان؛ فالنّبيّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ في جميع أحواله إنما يتكلم بالوحي؛ فإن تكلّم من عند نفسه؛ فإن الوحي يسدده، ومما يدل على أنه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لا يتكلم إلا بالحقّ قولُ الله تعالى: ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ۝٣ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ﴾ [سورة النجم، من الآية:٣-٤]، وقوله سبحانه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَكُمُ ٱلرَّسُولُ بِٱلْحَقِّ مِن رَّبِّكُمْ﴾ [سورة النساء، من الآية:١٧٠].

فالنّبيّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في جميع أحواله لا يقول إلا الحقّ؛ كما في حديث عبد الله بن عمرو رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال: قلت: يا رسول الله، إني أسمع منك أشياء، أفأكتبها؟ قال: **"نعم"**، قلت: في الغضب والرضا؟ قال: **"نعم؛ فإنّي لا أقول فيهما إلّا حقًّا"** [رواه أحمدُ، وهو حديث صحيح لغيره].

وكما في حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أنه قال: **"إنّي لا أقول إلّا حقًّا"**، قال بعض أصحابه: فإنّك تداعبنا يا رسول الله، فقال: **"إنّي لا أقول إلّا حقًّا"** [رواه أحمد، والترمذي بنحوه، وقال: حديث حسن].

فمن شهد بما شهد به رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وعلى ما شهد عليه رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ فإنه شهد بالحقّ، وقال الحقّ، وأقام الحقَّ، ومن ذلك الشهادة للعشر المبشرين بالجنّة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ.

ثم ذكر المصنّف رَحِمَهُ ٱللَّهُ بترتيبه أوّل العشرة المبشَّرين بالجنّة؛ فقال: **"وَهُمْ: أبو بكر"** وهو المعروف بين الأمّة بالصِّدِّيق، أو الصِّدِّيق الأكبر، وهذا لقبه، وعتيقٌ لقب له أيضًا، ونختصر في ترجمته على:

أولًا: اسمه ونسبه: عبدُ اللهِ بنُ أبي قحافة عثمانَ بنِ عامرٍ بنِ عمرٍو بنِ كعبٍ بن سعدٍ بن تَيْمِ بنِ مُرَّةَ بْنِ كَعْبِ بْنِ لُؤَيِّ القُرَشِيَّ ت، يجتمع نسبه مع النّبيّ صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ في تيْمٍ، وهو أبعدُ الخلفاءِ الأربعة الراشدين نسبًا من رسول الله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ، وهذا من أعظم ما يدل على أنّ الدِّين حقٌّ فقد قام به حقَّ القيام أبعدُ النّاس عنه نسبًا، ولو قام به بعده أقربُ النّاس نسبًا لقال قائلٌ إنما قام بما قام به سلفه، وأما إن كان القائم به من هو بعيد النسب عنه، ويقوم بما قام به؛ فهذا دليل بين على أن الأمر نبوةٌ ودينٌ، وليس ملكًا عضوضًا على رقاب العالمين.

ثانيًا: وَصْفُهُ: كان رَضِيَٱللَّهُعَنۡهُ أبيضَ، نحيفًا، خفيفَ العارضين، معروقَ الوجه، أبيضَ، أصفرَ، غائرَ العينين، ناتئَ الجبهة، لطيفًا جعدًا، يخضب شيبَه بالحناء والكَتَمِ، مُسْتَرَقُ الوَرِكَين، نحيفًا.

ثالثًا: نُبْذَةٌ مِن أخلاقه وفضائله: كان الصِّدِّيقُ رَضِيَٱللَّهُعَنۡهُ من أعلم النّاس بالأنسابِ، ومِن أعلم النّاس بالدين، وأول النّاس إسلامًا، وكان من أشهر النّاس تأويلًا للرؤى، ومن أبلغهم كلامًا وخطبة، وكان ممن ترك الشعر والخمر في الجاهلية قبل الإسلام، ومِن أعظم النّاس إنفاقًا من ماله في سبيل نصرة الدين، وخلاص المستضعفين، وكان من أحب الرجال إلى النّبيّ صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ، حتّى

قال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "**إِنَّ أَمَنَّ النّاس عَلَيَّ فِي مَالِهِ وَصُحْبَتِهِ أَبُو بَكْرٍ، وَلَوْ كُنْتُ مُتَّخِذًا خَلِيلًا لَاتَّخَذْتُ أَبَا بَكْرٍ خَلِيلًا، وَلَكِنْ أُخُوَّةُ الْإِسْلَامِ، لَا تُبْقَيَنَّ فِي الْمَسْجِدِ خَوْخَةٌ إِلَّا خَوْخَةَ أَبِي بَكْرٍ**" [رواه البخاري، ومسلم، من حديث أبي سعيد الخدري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ]، وجاء في رواية: "**وَلَكِنَّهُ أَخِي وَصَاحِبِي**" [رواه مسلم من حديث ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ].

والصِّدِّيقُ هو صاحب النّبيّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في الهجرة، وفي الغار، ووزيره الأوّل في حياته، وخليفته من بعده، وكان سيّدًا في الجاهليّة، وسيّدًا في الإسلام، وهو سيِّدُ كهولِ أهل الجنّة من الأوّلين والآخرين.

وقال عمرُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ في سقيفة بني ساعدة: (بَلْ نُبَايِعُكَ أَنْتَ، فَأَنْتَ سَيِّدُنَا، وَخَيْرُنَا، وَأَحَبُّنَا إِلَى رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) [رواه البخاري].

وهو من حفَّاظِ القرآنِ، وكُتّابه، وأوّلُ مَن جمع القرآن في مصحفٍ، وكان هذا من أعماله في خلافته بعد وقعة اليمامة، حيث قتل القراءُ، حتّى قال عليٌّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ في خلافته في الكوفةِ: (أعظمُ النّاس أجرًا في المصاحف أبو بكر، كان أوّل مَن جمع القرآن بين اللوحين) [فضائل الصحابة للإمام أحمد].

ولما ولي الخلافة جعل مالَه كله في بيت المال، واكتفى بما فُرِضَ له منه، واتخذ عمرَ وزيرًا له، وقاضيًا، وجعلَ أبا عبيدةَ على الفيء وقسم المغانم.

وصار في الأمر على سيرة رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مع أمراء الأجناد، وغيرهم، وقاتل المرتدِّين، وأقام الدّين بين المسلمين؛ فثبّت الله به الأنصار

والمهاجرين؛ فتمّ قتل المدَّعين الكذّابين للنُّبوّة، وعلى رأسهم مسيلمة الكذاب، ونحوه، ثم سيَّر الجيوش لقتال فارسَ والرّوم، وكان ابتداء الفتوحات في خلافته، وسار على الحج بنفسه في إمارته.

وجاءت فاطمةُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا والعباسُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وأرسلت أزواج النّبيّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عثمانَ، إلى أبي بكرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يطلبون الميراثَ، وجاء في حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنها رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا أتت إلى أبي بكر وعنده عمرُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا؛ فقالا: (سَمِعْنَا رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ: **"إِنِّي لَا أُورَثُ"**، قَالَتْ: وَاللهِ لَا أُكَلِّمُكُمَا أَبَدًا، فَمَاتَتْ، وَلَا تُكَلِّمُهُمَا. قَالَ عَلِيُّ بْنُ عِيسَى: مَعْنَى لَا أُكَلِّمُكُمَا، تَعْنِي: فِي هَذَا المِيرَاثِ أَبَدًا أَنْتُمَا صَادِقَانِ) [رواه الترمذي، وقال: روي هذا الحديث من غير وجه عن أبي بكر الصديق عن النّبيّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ. وأصله في الصحيحين].

ومِن أعظم محاسنه رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنه جعل الخلافة إلى عمرَ، وذلك بعد مشورة المهاجرين والأنصار؛ كما جاء في كتب السِّيَر: (أنّ أبا بكر لما ثقل دعا عبد الرحمن بن عوف؛ فقال: أخبرني عن عمر، فقال: ما تسألني عن أمر إلا وأنت أعلم به مني، قال: وإنٍ؛ فقال: هو والله أفضل مِن رأيك فيه.

ثم دعا عثمان فسأله عن عمر، فقال: عِلْمِي فيه أنَّ سريرته خير من علانيته، وأنه ليس فينا مثله؛ فقال: يرحمك الله، والله لو تركته ما عَدَوْتُكَ.

وشاور معهما؛ سعيدَ بن زيد، وأسيد بن الحضير، وغيرهما؛ فقال قائل: ما

تقول لربك إذا سألك عن استخلافك عمرَ وقد ترى غِلْظَتَهُ؟ فقال: أجلسوني، أَبِالله تخوِّفُوني! أقول: استخلفتُ عليهم خيرَ أهلِك.

ثم دعا عثمان، فقال: اكتب: بسم الله الرحمن الرحيم، هذا ما عهد أبو بكر بن أبي قحافة في آخر عهده بالدّنيا خارجًا منها، وعند أول عهده بالآخرة داخلًا فيها، حيث يُؤْمِنُ الكافرُ، ويُوقِنُ الفاجرُ، ويُصَدِّقُ الكاذبُ، إني استخلفتُ عليكم بعدي عمرَ بن الخطاب؛ فاسمعوا له، وأطيعوا، وإني لم آلُ الله ورسولَه ودينَه ونفسي وإياكم خيرًا؛ فإن عدل فذلك ظني به، وعلمي فيه، وإن بدَّل فلكل امرئٍ ما اكتسب، والخيرَ أردتُ، ولا أعلم الغيب، ﴿وَسَيَعْلَمُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ أَيَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ﴾ [سورة الشعراء، من الآية:٢٢٧]، [تاريخ المدينة لابن شبة، سيرة ابن هشام].

رابعًا: مرضه ووفاته رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ: قيل مات مِن أثر السُّمِّ، سَمَّهُ اليهودُ، وقالت عائشة رَضِيَٱللَّهُعَنْهَا: (أوّلُ ما بدئ مرضُ أبي بكر أنّه اغتسل، وكان يومًا باردًا فحُمَّ خمسةَ عشرَ يومًا لا يخرج إلى صلاة، وكان يأمر عمرَ بالصلاة، وكانوا يعودونه، وكان عثمان ألزمهم له في مرضه).

وتُوُفِّيَ مساء ليلة الثلاثاء لثمانٍ بقين من جمادى الآخرة، سنة ثلاث عشرة، وكانت خلافته سنتين ومائة يوم، وعمره ثلاثٌ وستون سنة.

وقال يوم وفاته لعائشة رَضِيَٱللَّهُعَنْهَا: (أمَا إنّا منذُ وُلِّينَا أمرَ المسلمين لم نأكل لهم دينارًا، ولا درهمًا، ولكنّا أكلنا مِن جريش طعامهم في بطوننا، ولبسنا مِن خشن

ثيابهم على ظهورنا، وليس عندنا مِن فَيْءِ المسلمين شيءٌ، إلّا هذا العبدُ الحبشيُّ، وهذا البعير النَّاضحُ، وجَرْدُ هذه القطيفة، فإذا مِتُّ فابعثي بهنّ إلى عمر؛ ففعلت) [طبقات ابن سعد].

فقال عمرُ: (رحم الله أبا بكرٍ؛ لقد أتعب مَن بعده).

وغسَّلَته امرأته أسماءُ بنت عميسٍ، وأوصى أبو بكر رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ أنْ يُدْفَن إلى جنب رسولِ الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ فحُفِرَ له، وجُعِلَ رأسُه عندَ كتفي رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ. [يراجع في سيرته ما كتبه الذهبي في سير أعلام النبلاء، سير الخلفاء الراشدين].

ثم ذكر المصنّف رَحِمَهُٱللَّهُ **بترتيبه ثاني العشرة المبشرين بالجنّة**، وهو الّذي وَلِيَ الخلافة بعد الصديق رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ كما وصَّى، وهو الخليفة الراشدُ **"عمرُ"** رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ، وهو ثاني العشر المبشرين بالجنّة، وهذه نبذة مختصرة عنه:

أولًا: اسمه ونسبه: هو أمير المؤمنين عمر بن الخطاب بن نفيل بن عبد العزى بن رياح بن قرط بن رزاح بن عدي بن كعب بن لؤي، القرشي العدوي، أبو حفصٍ، ولقبه النّبيّ صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ بالفاروق.

ويلتقي نسبه مع النّبيّ صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ في كعب بن لؤي؛ فهو أقربُ نسبًا إلى النّبيّ صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ من أبي بكرٍ وأبعدُ من عثمانَ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ.

وأمُّه حنتمة بنت هشام المخزومية أخت أبي جهلٍ؛ فأبو جهلٍ خالُه، وقد كان عمرُ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ شديدًا على أبي جهلٍ، ولا يجترئ أبو جهلٍ عليه.

أسلم في السّنة السّادسة من الهجرة وعمره سبعٌ وعشرون سنة، وما كان أحدٌ من المسلمين يقدر أن يجابه أبا جهلٍ بما يكره غيرُ عمرَ ت.

ثانيًا: وصفه: كان رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ أبيضَ تعلُوه حُمْرَةٌ، طِوَالًا جسيمًا، أصلع، أشْيَب، أعسر، وفي عارضيه خِفَّة، وسَبْلَتُه كبيرة، وفي أطرافها صَهْبَةٌ، إذا حَزَبَهُ أمرٌ فَتَلَهَا، وكان أَرْوَحَ يُسرِع في مشيته؛ كأنه راكبٌ والنّاس يمشون، وكان يخضب بالحِنّاء، وكان مهيبًا في الجاهلية، شجاعًا، مقدامًا، تعرفه قريشُ خاصة، والعرب عامة.

ثالثًا: نُبْذَةٌ مِن أخلاقه وفضائله: كان عمرُ **رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ** رجلًا مُلْهَمًا، وكان مسددًا، عظيم الفطنة، بعيد النظرة، وكان النّبيّ صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ يحب إسلامه، ويدعو له، حتّى أسلم؛ فَعَنْ ابْنِ عُمَرَ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا أَنَّ رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ قَالَ: **"اللَّهُمَّ أَعِزَّ الإِسْلَامَ بِأَحَبِّ هَذَيْنِ الرَّجُلَيْنِ إِلَيْكَ؛ بِأَبِي جَهْلٍ، أَوْ بِعُمَرَ بْنِ الخَطَّابِ"** قَالَ: وَكَانَ أَحَبَّهُمَا إِلَيْهِ عُمَرُ. [رواه الترمذي، وقال: حسن صحيح، غريبٌ من حديث ابن عمر].

وقال ابن مسعود رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ: (ما زلنا أعزة منذ أسلم عمر) [رواه البخاري].

ولما أسلم كان من خواص النّبيّ صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ، وصارت له المكانة الرضية عنده، حتّى أصبح من خواصّ وزراء النّبيّ صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ؛ كما في حديث أَبِي سَعِيدٍ الخُدْرِيِّ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: **"مَا مِنْ نَبِيٍّ إِلاَّ لَهُ وَزِيرَانِ مِنْ أَهْلِ السّماء وَوَزِيرَانِ مِنْ أَهْلِ الأَرْضِ، فَأَمَّا وَزِيرَايَ مِنْ أَهْلِ السّماء؛ فَجِبْرِيلُ، وَمِيكَائِيلُ، وَأَمَّا وَزِيرَايَ مِنْ أَهْلِ الأَرْضِ؛ فَأَبُو بَكْرٍ، وَعُمَرُ"** [رواه

الترمذي، وقال: حسن غريب، وحسنه الذهبي في السير].

وإنَّ مِن فضائله مع الصّدّيق أنهما سيدا كهولِ أهل الجنّة، كما جاء في حديث عَلِيٍّ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ قَالَ: قَالَ رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: **"أَبُو بَكْرٍ وَعُمَرُ سَيِّدَا كُهُولِ أَهْلِ الجنّة مِنْ الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ، إِلَّا النّبيّينَ وَالْمُرْسَلِينَ، لَا تُخْبِرْهُمَا يَا عَلِيُّ مَا دَامَا حَيَّيْنِ"** [رواه ابن ماجه، والترمذي، وقال: حسنٌ غريب من هذا الوجه. وقال الذهبي في السير: والحديث محفوظٌ عن علي رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ].

وقد مرّ الحديث في أن أبا بكر وعمر رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا هما اللذان يُقتدَى بهما بعد النّبيّ صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ.

وبلغ مِن قوّة إيمانه، ودرجة فضله، أنّ شياطين الجنّ؛ بل والإنس، يفرّون من الطّريق الّذي يسير فيه ابن الخطابِ؛ ولهذا أبغضه المنافقون في زمن النّبيّ صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ، ويبغضونه إلى قيام الساعة، وقد جاء في حديث سعد بن أبي وقاص رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ أنه قال في حديثه فقال النّبيّ صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: **"وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ مَا لَقِيَكَ الشَّيْطَانُ قَطُّ سَالِكًا فَجًّا إِلَّا سَلَكَ فَجًّا غَيْرَ فَجِّكَ"** [رواه مسلم].

وقد نزل القرآن موافقًا لرأي عمر رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ في عدة وقائع، ومنها: في الحجاب، وفي طلاق النّبيّ صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ نساءه، وفي مقام إبراهيم عَلَيْهِٱلسَّلَامُ.

وجاء عن عبد الله بن عمر رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا عَنْ رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ قَالَ: **"بَيْنَا أَنَا نَائِمٌ، إِذْ رَأَيْتُ قَدَحًا أُتِيتُ بِهِ فِيهِ لَبَنٌ، فَشَرِبْتُ مِنْهُ حتّى إِنِّي لَأَرَى الرِّيَّ يَجْرِي فِي أَظْفَارِي، ثُمَّ أَعْطَيْتُ فَضْلِي عُمَرَ بْنَ الْخَطَّابِ"** قَالُوا: فَمَا أَوَّلْتَ ذَلِكَ؟ يَا رَسُولَ

اللهِ قَالَ: "**الْعِلْمَ**" [رواه مسلم].

وكان مِن أحبّ النّاس إلى أبي بكر الصديق رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ، ولهذا كان وزيره الأوّل، وكان يقول وهو يوصي بالخلافة لعمرَ: (وَلَّيتُ عليهم خيرَهم).

وهو أولُ من لُقِّب بأمير المؤمنين، ولقّبه بذلك المغيرة بن شعبة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ، ثم تتابع النّاس على ذلك، وكان يُلقَّب بخليفةِ خليفةِ رسولِ الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ.

ومن المشهورِ عنه أنه قال لما تولَّى الخلافة: (ولو علمتُ أنَّ أحدًا أقوى عليه مِنِّي لكنتُ أنْ أُقَدَّمَ فتُضْرَبَ عُنُقِي أحبُّ إليَّ مِن أنْ أَلِيَهُ).

وقال: (أَنَا أُخْبِرُكُمْ بِمَا أَسْتَحِلُّ مِنْ مَالِ اللهِ: حُلَّةُ الشِّتَاءِ وَالْقَيْظِ، وَمَا أَحُجُّ عَلَيْهِ وَمَا أَعْتَمِرُ مِنَ الظَّهْرِ، وَقُوتُ أَهْلِي كَرَجُلٍ مِنْ قُرَيْشٍ، لَيْسَ بِأَغْنَاهُمْ وَلَا بِأَفْقَرِهِمْ، أَنَا رَجُلٌ مِنَ الْمُسْلِمِينَ يُصِيبُنِي مَا أَصَابَهُمْ) [مصنف ابن أبي شيبة].

وحجَّ بالنّاس بنفسه في خلافته كلّها، وما أقام فُسْطَاطًا ولا خِبَاءً، كان يُلْقِي الكِسَاءَ، وَالنِّطْعَ على الشّجرة، ويستظل تحته.

وقال الزهري رَحِمَهُٱللَّهُ: (فتح اللهُ الشّام كلَّه على عمر رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ، والجزيرة، ومصرَ، والعراق كلَّه، ودوَّن الدَّواوِين قبل أن يموت بعامٍ، وقسَّم على النّاس فَيْئَهم).

ووسّع المسجد النّبويّ من جهة القبلة، الجهة الجنوبية بمقدار أربعة صفوفٍ، وكان هذا أوّل توسعة بعد بناء رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ.

وأصاب النّاسَ سَنَةٌ، وهي عامُ الرَّمادة؛ فما أكل عامَئِذٍ سَمْنًا ولا سَمِينًا، وكان

يلبسُ جُبَّةً مِن صوفٍ مرقوعة بعضها بأدم، وهو خليفة المسلمين، وأمير المؤمنين، ويطوف في الأسواق على عاتقه الدُّرَّة يُؤَدِّبُ النّاس بها.

وكان يجلس مع النّاس، ويباشر أمورهم، وليس له بوابٌ، ولا بابٌ يُغلق؛ بل يجلس لهم في المسجد، وفي السوق، وفي الطريق، وفي بيته، ولا يترفع على النّاس بجلسة، ولا مكانٍ.

وكان يأمرُ أحدًا من القراء يقرأ القرآن وهم يستمعون، وكان ينهى عن الحديث إلا بما ثبت، وكان يقترئ الحديثَ؛ كما في حديث حُذَيْفَةَ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ قَالَ: (كُنَّا عِنْدَ عُمَرَ، فَقَالَ: أَيُّكُمْ يَحْفَظُ حَدِيثَ رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ فِي الْفِتْنَةِ كَمَا قَالَ؟ قَالَ: فَقُلْتُ: أَنَا، قَالَ: إِنَّكَ لَجَرِيءٌ، وَكَيْفَ قَالَ؟ قَالَ: قُلْتُ: سَمِعْتُ رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ يَقُولُ: **"فِتْنَةُ الرَّجُلِ فِي أَهْلِهِ وَمَالِهِ وَنَفْسِهِ وَوَلَدِهِ وَجَارِهِ، يُكَفِّرُهَا الصِّيَامُ، وَالصَّلَاةُ، وَالصَّدَقَةُ، وَالْأَمْرُ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْيُ عَنِ الْمُنْكَرِ"**؛ فَقَالَ عُمَرُ: لَيْسَ هَذَا أُرِيدُ، إِنَّمَا أُرِيدُ الَّتِي تَمُوجُ كَمَوْجِ الْبَحْرِ، قَالَ: فَقُلْتُ: مَا لَكَ وَلَهَا، يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ؟ إِنَّ بَيْنَكَ وَبَيْنَهَا بَابًا مُغْلَقًا، قَالَ: أَفَيُكْسَرُ الْبَابُ أَمْ يُفْتَحُ؟ قَالَ: قُلْتُ: لَا، بَلْ يُكْسَرُ، قَالَ: ذَلِكَ أَحْرَى أَنْ لَا يُغْلَقَ أَبَدًا، قَالَ: فَقُلْنَا لِحُذَيْفَةَ: هَلْ كَانَ عُمَرُ يَعْلَمُ مَنِ الْبَابُ؟ قَالَ: نَعَمْ، كَمَا يَعْلَمُ أَنَّ دُونَ غَدٍ اللَّيْلَةَ، إِنِّي حَدَّثْتُهُ حَدِيثًا لَيْسَ بِالْأَغَالِيطِ، قَالَ: فَهِبْنَا أَنْ نَسْأَلَ حُذَيْفَةَ: مَنِ الْبَابُ؟ فَقُلْنَا لِمَسْرُوقٍ: سَلْهُ فَسَأَلَهُ، فَقَالَ: عُمَرُ) [رواه البخاري، ومسلم، وهذا لفظه].

ولما فتح الله بلاد كسرى أتي بكنوزها فبكى؛ فقيل له: هذا ما يبكيك! هذا يوم

شكرٍ وسرور؟ فقال: إن هذا المال لم يدخل على قومٍ إلا ألقت بينهم العداوة والبغضاء.

قال جعفر بن محمد الصادق رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (أنا بريء ممن ذكر أبا بكر وعمر إلا بخير) [سير أعلام النبلاء].

وكان من أعظم أعماله الفتوحات؛ فتح بلاد فارس، بعد معركة القادسية، حتّى قضى على ملك المجوس، واستأصل أمرهم، ثم توجه نحو الروم حتّى قصرهم عن بلاد الشام، وذلك بعد معركة اليرموك، وفتح بيت المقدس، ومصرَ، وشيئا من بلاد إفريقية.

ومن أعماله الجليلة: أنه مصَّر الأمصارَ؛ فأمر ببناء البصرة، والكوفة، وغيرها من المدن؛ لتكون ردءًا للمسلمين، ودرعًا لبلاد الجزيرة العربية.

رابعًا: استشهاده ووفاته: إن آخر حجة حجها عمرُ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ سنة ثلاثِ وعشرين، أي بعد ما كمل عقد العشر في الخلافة، قيلَ إنه دعا الله تعالى أن يقبضه؛ فكان مما قال: (اللَّهُمَّ كَبِرَتْ سِنِّي، وَضَعُفَتْ قُوَّتي، وَانْتَشَرَتْ رَعِيَّتِي؛ فَاقْبِضْنِي إِلَيْكَ غَيرَ مُضَيِّعٍ وَلاَ مُفَرِّطٍ) [موطأ مالك]، وكان مما قال في دعائه: **"اللَّهُمَّ ارْزُقْنِي شَهَادَةً فِي سَبِيلِكَ، وَاجْعَلْ مَوْتِي فِي بَلَدِ رَسُولِكَ** صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ**"** [رواه البخاري]؛ فاستشهد في أواخر ذي الحجة بعد رجعته من الحجّ بيسير، سنة ثلاث وعشرين من الهجرة.

وكان استشهاد عمر رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ فجر آخر أربعاء من ذي الحجة بعد مقدمه

ووصوله إلى المدينة، وكان بيد أبي لؤلؤة المجوسي، الّذي يسميه المجوس بـ (بابا شجاع النهاوندي)، وكان غلامًا للمغيرة بن شعبة، حيث طعنه بخنجر له رأسان، وطعن معه اثنا عشر رجلا، مات منهم ستة، فألقى عليه رجل مِن أهل العراق ثوبا، فلما اغتم فيه قتل نفسه، وكان ذلك في صلاة الفجر؛ وحُمِل عمرُ إلى أهله، وكادت الشّمس أن تطلع، فصلى ابن عوف بالنّاس بأقصر سورتين، وأتى عمر بنبيذ فشربه فخرج من جرحه فلم يتبين، فسقوه لبنا فخرج من جرحه، فقالوا: لا بأس عليك، فقال: إن يكن بالقتل بأس فقد قُتِلْتُ؛ فجعل النّاس يثنون عليه، ويقولون: كنتَ وكنتَ؛ فقال: أما والله وددت أني خرجت منها كفافًا لا عليّ، ولا لِي، وأنَّ صحبةَ رسولِ الله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ سلمت لي، وجعل الأمر شورى بين النفر الستة؛ وهم؛ عثمانُ، وعلي، وطلحة، والزبير، وعبد الرحمن، وسعد، وأمر صُهَيبًا أن يصلي بالنّاس حتّى يتم اختيار الخليفة.

وقال سالم بن عبد الله، عن أبيه قال: دخل على عمرَ عثمانُ وعلى والزبير وابن عوف وسعد -وكان طلحة غائبًا- فنظر إليهم ثم قال: إني قد نظرت لكم في أمر النّاس فلم أجد عند النّاس شقاقًا إلا أن يكون فيكم، ثم قال: إن قومكم إنما يؤمرون أحدكم أيها الثلاثة، فإن كنت على شيء من أمر النّاس يا عبد الرحمن فلا تحملن بني أبي معيط على رقاب النّاس، وإن كنت على شيء من أمر النّاس يا عثمان فلا تحملن أقاربك على رقاب النّاس، وإن كنت على شيء من أمر النّاس يا علي فلا تحملن بني هاشم على رقاب النّاس، قوموا فتشاوروا وأمروا

أحدكم، فقاموا يتشاورون.

واستأذن في أن يُدفَن في حجرةِ عائشة مع صاحبيه؛ النّبيّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وأبي بكرٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ؛ فأذنت له؛ فلما فاضت روحه رَضِيَ اللهُ عَنْهُ دفن معهما، وَصَلَّى عليه صهيبٌ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، وكان ذلك يوم الأحد مستهل المحرم سنة أربعة وعشرين من الهجرة، وكان قد قارب السّتّين أو ناهزه، رَضِيَ اللهُ عَنْهُ وأرضاه [ينظر في ترجمته سير أعلام النبلاء، سير الخلفاء للسيوطي].

وعن جَعْفَرُ بْنُ مُحَمَّدٍ الباقر، عَنْ أَبِيهِ الصادق: (أَنَّ عُمَرَ بْنَ الْخَطَّابِ لَمَّا أُصِيبَ أَرْسَلَ إِلَى الْمُهَاجِرِينَ فَقَالَ: عَنْ مَلَأٍ مِنْكُمْ كَانَ هَذَا؟ فَقَالَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ: إِنِّي وَاللهِ لَوَدِدْتُ أَنَّ اللهَ نَقَصَ مِنْ آجَالِنَا فِي أَجَلِكَ، ثُمَّ أَتَى سَرِيرَهُ وَقَدْ سُجِّيَ عَلَيْهِ بِثَوْبٍ فَقَالَ: مَا مِنْ أَحَدٍ الْيَوْمَ أَحَبَّ إِلَيَّ أَنْ أَلْقَى اللهَ بِمَا فِي صَحِيفَتِهِ مِنْ هَذَا الْمُسَجَّى عَلَيْهِ) [فضائل الصحابة لأحمد بن حنبل].

ثم ذكر المصنّف رَحِمَهُ اللهُ **بترتيبه** ثالث العشرة المبشرين بالجنّة، وهو ثالث الخلفاء الراشدين، وهو **"عثمان"** رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، وهو ثالث العشر المبشرين بالجنّة، وهذه نبذة مختصرة عنه:

أولًا: اسمه ونسبه: هو أمير المؤمنين أبو عبد الله عثمان بن عفان بن أبي العاص بن أمية بن عبد شمس بن عبد مناف، القرشي الأموي، ويلقب بذي النورين؛ لأن النّبيّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ زوجه ابنتيه؛ وكان قد تزوج من رقية قبل البعثة، وولدت له عبد الله، وبه كان يكنى، ويلتقي نسبه مع النّبيّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ

في عبد مناف؛ فهو أقربُ نسبًا إلى النّبيّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من عمرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وأبعدُ من عليٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

وأمُّه أروى بنت كريز بن حبيب بن عبد شمس، وأمها البيضاء بنت عبد المطلب بن هاشم؛ فهو ابن بنت عمة النّبيّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أيضًا.

وكان من السّابقين الأوّلين في الإسلام، أسلم قديمًا، وكان عفيفًا مشهورًا بذلك في الجاهلية، تاركًا لكثيرٍ من أمورهم القبيحة، لم يشرب الخمرَ قطّ.

ثانيًا: وصفه: كان إلى الطُّولِ أقرب، ولم يكن بالرَّجُلِ الطَّويل، ولا بالقصير، حسن الوجه، كبير اللِّحية، أسمر اللَّون، عظيم الكراديس (المفاصل)، بعيد ما بين المنكبين، يخضب بالصُّفرة، وكان قد شدَّ أسنانه بالذَّهب، وكان شيخًا وقورًا وسيمًا.

ثالثًا: نُبْذَةٌ مِن أخلاقه وفضائله: كان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عظيم الحياء، عظيم الكرم والسّخاء، جليل المقدار، من المتقين الأبرار، وهذا من أسباب تزويج النّبيّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إياه بنتًا بعد بنتٍ، وإنّا لنجزم أن لو كان عنده ثالثة لزوجه بعد الثانية.

هاجر الهجرتين؛ إلى الحبشة، ثم إلى المدينة، وأمره النّبيّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أن يتخلف عن غزوة بدرٍ لمداواة زوجته رقية، وقد توفيت بعد بدرٍ بليالٍ، ومات ابنه عبد الله وعمره ست سنين، سنة أربعٍ من الهجرة.

وكان ممن عرض القرآن على النّبيّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ومن الأسانيد المتصلة

للقرآن ما ينتهي إليه من طريق أبي عبد الرحمن السلمي، والمغيرة بن أبي شهاب، وأبي الأسود، وزِرّ بن حبيش.

وبلغ مِن حيائه أن قال النّبيّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **"أَلَا أَسْتَحِي مِنْ رَجُلٍ تَسْتَحِي مِنْهُ الْمَلَائِكَةُ"** [رواه مسلم].

وكان في خلافته يضع رداءه تحت رأسه وينام في المسجد؛ فيجيء الرَّجُلُ فيجلس إليه، ويجيء الرَّجُلُ فيجلس إليه، كأنه أحدهم.

وكان عظيم العبادة، يديم الصوم، حتّى يظن الظان أنه صائم الدهر، كثيرة التلاوة، حتّى كان يبدأ صلاته بالليل فلا يقدر أن يركع حتّى يختم القرآن، قال الذهبي: (وصح من وجوه أنّ عثمان رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ قرأ القرآن كلّه في ركعة).

وكان مِن حسناته جمعُ الأمة على مصحفٍ واحدٍ، وهو المصحف المشهور بالمصحف العثماني، أو الإمام، وذلك بعد مشورة حذيفة عليه؛ فاستشار من حضر من الصحابة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ؛ كعلي، وعبد الرحمن بن عوف، وطلحة، والزبير، وسعد بن أبي وقاص، وسعيد بن زيدٍ، وآخرين؛ فاجتمع رأيهم على جمع المسلمين على مصحفٍ واحدٍ، وكلّ قراءةٍ، أو وجهٍ، يخالف المصحف الإمام؛ فإنه يطرح، وأمر بكل مصحفٍ مرتب على خلاف العرضة الأخيرة، أو فيه شيءٌ من الكلام، أو النّاسخ والمنسوخ أن يحرق، وكان قد نسخ عدة نسخ من هذا المصحف الإمام، وأرسلها إلى أجناد المسلمين؛ وأمرهم أن يحرقوا كلّ مصحفٍ يخالف هذا المصحف، حتّى لا تختلف كلمة المسلمين.

وكان في خلافته: فتح أذربيجان، وأرمينية، وبقية بلاد فارس، وهراة، وأفريقية، وقبرص، ووسّع المسجد النّبويّ من الجهة الشّماليّة والغربيّة.

ومكث عثمان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ في الخلافة عشر سنين لا ينكرون منه شيئًا، ولا عليه شيئًا، حتّى كان ابن سبأ اليهودي الّذي أظهر الإسلام ليهدمه من الداخل؛ فكان يفسد عقيدة المسلمين بالوصية المزعومة، وبتأليب النّاس على عثمان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، والافتراء عليه، والتلفيق.

وكانت السبئية يكاتبون أشياعهم سرًّا حتّى يتوافوا بالمدينة لينظروا فيما يريدون، وأظهروا أنهم يأمرون بالمعروف، وأنهم يسألون عثمان عن أشياء لتطير في النّاس، ولتحقق عليه.

وكلّ ما قيل فيه؛ فهو إمّا ملّفق عليه، أو مغيّرٌ عن وجهه، أو هو مجتهِدٌ فيه مصيبٌ حقًّا، وهم مخطئون، أو هو مجتهدٌ فيه مخطِئٌ مصيبٌ أجرًا، أو متؤوِّلٌ، وإنّا لنشهد بشهادة رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أنّه من الشّهداء، وأنّه قُتِل مظلومًا.

وقال عثمان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: (اختبأت عند ربي: إنّي لرابعُ أربعةٍ في الإسلام، وما تعتّيت-أي لم أتردد في إسلامي-، ولا تمنيت -أنْ لا أكون من السابقين مع ما أصابهم من الضر-، ولا وضعت يميني على فرجي منذ بايعت بها رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ولا مَرَّتْ بي جُمْعَةٌ منذ أسلمتُ إلا وأنا أعتق فيها رقبة، إلا أنْ لا يكون عندي فأعتقها بعد ذلك، ولا زنيت في جاهلية ولا إسلام قط) [سير أعلام النبلاء].

رابعًا: استشهاده ووفاته: لما كان في آخر سني خلافة عثمان رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ، وقد كبر سنُّه، وزاد حِلمُه، صار الغوغاء يفترون عليه، وينكرون عليه أشياء، وقد ملُّوا من النّعيم الّذي هم فيه، وصاروا يظهرون العصيان وعدم طاعته، ويطعنون في أمرائه، وأحكامه، مع ما كان من التّلفيق من الزّنادقة، والمغرضين؛ فاجتمع الغوغاء، ومعهم أصحاب المقاصد، حتّى أتوا من مصرَ والكوفة والبصرة، وحاصروه في داره في المدينة، وهم يريدون قتله، ونهى عثمان رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ النّاس عن القتال، وعن الدِّفاع عنه، وذلك بوصية من رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ، ونهاهم عن القتل والقتال؛ فما زالوا كذلك حتّى قتلوه غدرًا، ودخلوا داره عنوةً، وتشاركوا في دمه؛ فتفرق دمه بينهم، وتفرقت الأمة بوفاته.

قَالَ عُثْمَانُ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ: (لَئِنْ قَتَلُونِي لَا يُقَاتِلُونَ عَدُوًّا جَمِيعًا أَبَدًا، وَلا يَقْتَسِمُونَ فَيْئًا جَمِيعًا أَبَدًا، وَلا يُصَلُّونَ جَمِيعًا أَبَدًا) [تاريخ الإسلام للذهبي].

ثمّ أرسل إلى عبد الله بْن سلام رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ فقال: ما ترى؟ فقال: الكَفَّ الكَفَّ، فإنّه أبلغ لك في الحُجَّة، فدخلوا عليه، فقتلوه، وهو صائم، رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ وأرضاه.

عَنْ ثُمَامَةَ بْنِ حَزْنٍ القُشَيْرِيِّ، قَالَ: (شَهِدْتُ الدَّارَ حِينَ أَشْرَفَ عَلَيْهِمْ عُثْمَانُ، فَقَالَ: ائْتُونِي بِصَاحِبَيْكُمُ اللَّذَيْنِ أَلَّبَاكُمْ عَلَيَّ. قَالَ: فَجِيءَ بِهِمَا فَكَأَنَّهُمَا جَمَلاَنِ أَوْ كَأَنَّهُمَا حِمَارَانِ، قَالَ: فَأَشْرَفَ عَلَيْهِمْ عُثْمَانُ، فَقَالَ: أَنْشُدُكُمْ بِاللهِ وَالإِسْلاَمِ هَلْ تَعْلَمُونَ أَنَّ رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ قَدِمَ الْمَدِينَةَ وَلَيْسَ بِهَا مَاءٌ يُسْتَعْذَبُ غَيْرَ بِئْرِ رُومَةَ فَقَالَ رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: **"مَنْ يَشْتَرِي بِئْرَ رُومَةَ فَيَجْعَلَ دَلْوَهُ مَعَ**

دِلاَءِ الْمُسْلِمِينَ بِخَيْرٍ لَهُ مِنْهَا فِي الجنّة؟"؛ فَاشْتَرَيْتُهَا مِنْ صُلْبِ مَالِي؛ فَأَنْتُمُ الْيَوْمَ تَمْنَعُونِي أَنْ أَشْرَبَ مِنْهَا حتّى أَشْرَبَ مِنْ مَاءِ الْبَحْرِ. قَالُوا: اللَّهُمَّ نَعَمْ. فَقَالَ: أَنْشُدُكُمْ بِاللهِ وَالْإِسْلاَمِ هَلْ تَعْلَمُونَ أَنَّ الْمَسْجِدَ ضَاقَ بِأَهْلِهِ، فَقَالَ رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "**مَنْ يَشْتَرِي بُقْعَةَ آلِ فُلاَنٍ فَيَزِيدَهَا فِي الْمَسْجِدِ بِخَيْرٍ لَهُ مِنْهَا فِي الجنّة؟**" فَاشْتَرَيْتُهَا مِنْ صُلْبِ مَالِي؛ فَأَنْتُمُ الْيَوْمَ تَمْنَعُونِي أَنْ أُصَلِّيَ فِيهَا رَكْعَتَيْنِ؟ قَالُوا: اللَّهُمَّ، نَعَمْ. قَالَ: أَنْشُدُكُمْ بِاللهِ وَبِالْإِسْلاَمِ، هَلْ تَعْلَمُونَ أَنِّي جَهَّزْتُ جَيْشَ الْعُسْرَةِ مِنْ مَالِي؟ قَالُوا: اللَّهُمَّ نَعَمْ. ثُمَّ قَالَ: أَنْشُدُكُمْ بِاللهِ وَالْإِسْلاَمِ هَلْ تَعْلَمُونَ أَنَّ رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كَانَ عَلَى ثَبِيرِ مَكَّةَ وَمَعَهُ أَبُو بَكْرٍ وَعُمَرُ وَأَنَا فَتَحَرَّكَ الجَبَلُ حتّى تَسَاقَطَتْ حِجَارَتُهُ بِالْحَضِيضِ، قَالَ: فَرَكَضَهُ بِرِجْلِهِ، وَقَالَ: "**اسْكُنْ ثَبِيرُ؛ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ نَبِيٌّ، وَصِدِّيقٌ، وَشَهِيدَانِ؟**" قَالُوا: اللَّهُمَّ، نَعَمْ. قَالَ: اللهُ أَكْبَرُ، شَهِدُوا لِي وَرَبِّ الكَعْبَةِ أَنِّي شَهِيدٌ، ثَلاَثًا) [رواه النسائي، والترمذي، وقال: حديث حسن].

وعن ابن عمر رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا: (أن عثمان رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أشرف على أصحابه وهو محصورٌ؛ فقال: علام تقتلوني؟ فإني سمعت رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقول: "**لا يحل دم امرئ مسلم إلا بإحدى ثلاث: رَجُلٌ زَنَى بعد إحْصَانِه؛ فعليه الرَّجْمُ، أو قَتَلَ عَمْدًا فعليه القَوَدُ، أوِ ارْتَدَّ بعد إسلامه؛ فعليه القَتْلُ**"، فوالله ما زنيت في جاهلية ولا إسلام، ولا قتلت أحدًا فأقيد نفسي منه، ولا ارتددت منذ أسلمت، إني أشهد أن لا إله إلا الله، وأن محمدًا عبده ورسوله) [رواه أحمد، وهو حديث

حسن].

عَنْ قَيْسِ بْنِ أَبِي حَازِمٍ، عَنْ عَائِشَةَ ل قَالَتْ: قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي مَرَضِهِ: "**وَدِدْتُ أَنَّ عِنْدِي بَعْضَ أَصْحَابِي**" قُلْنَا: يَا رَسُولَ اللهِ، أَلَا نَدْعُو لَكَ أَبَا بَكْرٍ؟ فَسَكَتَ، قُلْنَا: أَلَا نَدْعُو لَكَ عُمَرَ؟ فَسَكَتَ قُلْنَا: أَلَا نَدْعُو لَكَ عُثْمَانَ؟ قَالَ: "**نَعَمْ**"، فَجَاءَ، فَخَلَا بِهِ، فَجَعَلَ النَّبِيّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يُكَلِّمُهُ، وَوَجْهُ عُثْمَانَ يَتَغَيَّرُ. قَالَ: قَيْسٌ، فَحَدَّثَنِي أَبُو سَهْلَةَ مَوْلَى عُثْمَانَ، أَنَّ عُثْمَانَ بْنَ عَفَّانَ، قَالَ يَوْمَ الدَّارِ: "إِنَّ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَهِدَ إِلَيَّ عَهْدًا، فَأَنَا صَائِرٌ إِلَيْهِ" وَقَالَ عَلِيٌّ فِي حَدِيثِهِ: "وَأَنَا صَابِرٌ عَلَيْهِ"، قَالَ قَيْسٌ: فَكَانُوا يُرَوْنَهُ ذَلِكَ الْيَوْمَ) [رواه الترمذي، وابن ماجه وهذا لفظه، وابن حبان في صحيحه].

وكان وفاته لثماني عشرة خلت من ذي الحجة، عصرَ يوم الجمعة، سنة خمس وثلاثين من الهجرة، وعمره اثنان وثمانون سنة على الصحيح، ودفن بالبقيع بين العشائين ليلًا بدمائه فهو شهيد الدار، وكان دفنه سرًّا حتّى لا يُلْتَفت إليه الأشرار، ولا ينبش قبره من الخوارج الأغمار.

وعن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا سمع عليًّا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يقول: (والله ما قتلتُ -يعني عثمان- ولا أمرتُ، ولكن غُلِبْتُ). يقول ذلك ثلاثًا. وجاء نحوه عن علي مِن طرق، وجاء عنه أنه لَعَنَ قَتَلَةَ عُثْمَانَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

ثم ذكر المصنّف رَحِمَهُ اللَّهُ **بترتيبه** رابعَ العشرة المبشرين بالجنّة، وهو رابع الخلفاء الراشدين، وهو الّذي تولى الخلافة بعد عثمانَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وهو عديله

وابن عمّه: "**عليٌّ**" رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وهذه نبذة مختصرة عنه:

أوَّلًا: اسمه ونسبه: هو أبو الحسن علي بن أبي طالب بن عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف القرشي الهاشمي، أميرُ المؤمنين، وكنَّاهُ النّبيّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بأبي تراب، وهو زوجُ الزهراء فاطمة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا بنت رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

وأمُّه فاطمة بنت أسد بن هاشم بن عبد مناف الهاشمية، وكانت من المهاجرات رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، توفيت في المدينة حياة النّبيّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

ثانيًا: وصفه: كان رَبْعَةً من الرجالِ، عظيمَ البطن، عظيم اللِّحية، آدَمَ شديد الأدمة، ثقيل العينين، عظيمهما، أصلع في رأسه، كثير الشعر، كأنما اجتاب إهاب شاة، خضب بالصفرة، ثم ترك الخضاب.

ثالثًا: نبذة من أخلاقه وفضائله: كان ممن عرض القرآن على النّبيّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وأقرأه، وإليه المنتهى في أسانيد القرآن، وعرض عليه القرآن جماعة من الصحابة والتابعين.

وكان أوّلُ الصبيان إسلامًا، أسلم وعمره ثمان سنوات، شهد بدرًا وما بعدها، وأمَّره النّبيّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في غزوة تبوك على المدينة؛ فتخلف عنها، وكان صاحب لواء رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في بدرٍ، وفي كلّ مشهدٍ.

وكان رجلًا من أشدّاء العرب شكيمة وقوة وفروسية وقتالًا، وكان من فرسان الإسلام، ومن شجعان الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ، قال سعد بن أبي وقاص رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ

سمعت رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقول يوم خيبر: **"لَأُعْطِيَنَّ الرَّايَةَ رَجُلًا يُحِبُّ اللهَ وَرَسُولَهُ، وَيُحِبُّهُ اللهُ وَرَسُولُهُ"**، قَالَ: فَتَطَاوَلْنَا لَهَا؛ فَقَالَ: **"ادْعُوا لِي عَلِيًّا"**؛ فَأُتِيَ بِهِ أَرْمَدَ، فَبَصَقَ فِي عَيْنِهِ، وَدَفَعَ الرَّايَةَ إِلَيْهِ، فَفَتَحَ اللهُ عَلَيْهِ.

وَلَمَّا نَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ: ﴿فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ﴾ [سورة آل عمران، من الآية:٦١]، دَعَا رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَلِيًّا وَفَاطِمَةَ وَحَسَنًا وَحُسَيْنًا؛ فَقَالَ: **"اللهُمَّ هَؤُلَاءِ أَهْلِي"** [رواه البخاري، ومسلم، وهذا لفظه].

وعَنْ سَعْدِ بْنِ أَبِي وَقَّاصٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: خَلَّفَ رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَلِيَّ بْنَ أَبِي طَالِبٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فِي غَزْوَةِ تَبُوكَ؛ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ تُخَلِّفُنِي فِي النِّسَاءِ وَالصِّبْيَانِ؟ فَقَالَ: **"أَمَا تَرْضَى أَنْ تَكُونَ مِنِّي بِمَنْزِلَةِ هَارُونَ مِنْ مُوسَى؟ غَيْرَ أَنَّهُ لَا نَبِيَّ بَعْدِي"** [رواه البخاري، ومسلم].

وعن زيد بن أرقم رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عن النّبيّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: **"مَنْ كُنْتُ مَوْلَاهُ فَعَلِيٌّ مَوْلَاهُ"** [رواه الترمذي، وقال: حسن غريب]، والمعنى أن من كان يتولّى النّبيّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ويحبه؛ فعليه أن يحب عليًّا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، ويؤكد هذا المعنى ما جاء بلفظ: **"اللهم والِ منَ والاه، وعادِ من عاداه"** [رواه أحمد، وابن ماجه، بإسناد حسن]، وهذا المعنى فهمه الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ؛ فقال عمرُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ له: (هنيئًا لك يا علي، أصبحت وأمسيت مولى كلّ مؤمن ومؤمنة) [مصنف عبد الرزاق]، وهذا التفسير نفسه فهمه علي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ؛ فكان يقول: (وَالَّذِي فَلَقَ الْحَبَّةَ، وَبَرَأَ النَّسَمَةَ، إِنَّهُ لَعَهْدُ النَّبِيِّ الْأُمِّيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِلَيَّ: **"أَنْ لَا يُحِبَّنِي إِلَّا**

مُؤْمِنٌ، وَلَا يُبْغِضَنِي إِلَّا مُنَافِقٌ" [رواه مسلم].

وهذه الفضائل الّتي ثبتت لعلي رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ تدلنا على ضلالة الخوارج الذين يكفرونه أو يضللونه، وعلى ضلالة الغالية من الشيعة الذين يرفعونه فوق منزلته، قال علي رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ: (يهلك فِيَّ رجلان، محبٌّ مُفرِطٌ يقرِّظُني بما ليس فِيَّ، ومبغضٌ يحمله شَنَآني على أن يَبْهَتَنِي) [رواه أحمد، وابن أبي شيبة في مصنفه].

وكان عليٌّ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ أحب الرجال إلى النّبيّ صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ من أهل بيته؛ كما جاء عَنْ جُمَيْعِ بْنِ عُمَيْرٍ التَّيْمِيِّ، قَالَ: (دَخَلْتُ مَعَ عَمَّتِي عَلَى عَائِشَةَ رَضِيَٱللَّهُعَنْهَا فَسُئِلَتْ أَيُّ النّاس كَانَ أَحَبَّ إِلَى رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ؟ قَالَتْ: فَاطِمَةُ رَضِيَٱللَّهُعَنْهَا. فَقِيلَ: مِنَ الرِّجَالِ؟ قَالَتْ: زَوْجُهَا، إِنْ كَانَ مَا عَلِمْتُ صَوَّامًا قَوَّامًا) [رواه الترمذي، وقال: حسن غريب].

وكان رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ من أقضى الصحابة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمْ، و(كان عمر رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ يَتَعَوَّذُ بِاللهِ مِنْ مُعْضِلَةٍ لَيْسَ لَهَا أَبُو حَسَنٍ) [رواه أحمدُ في فضائل الصحابة].

وورد له من الفضائل ما لم يرد لأحدٍ من الصحابة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمْ، وذلك للحاجة إلى نشر فضائله، لا سيما بعد وجود مَن يطعن في إمارته مِن سفهاء بني أمية والنّواصب، ومَن يطعن في ديانته من الخوارج.

وكان وزيرًا وعاملًا للصِّدّيق رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ فترة خلافته، وكان وزيرًا في خلافة عمرَ وعثمانَ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمْ، ثم بويع له بعد مقتل عثمان رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ.

رابعًا: بيعة عليٍّ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ **خليفةً للمسلمين:** لما بلغَ عليًّا وطلحة والزبير خبرُ

مقتل عثمان رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ خرجوا -وقد اندهشوا مما وقع- ودخلوا عليه؛ فرأوه مذبوحًا؛ فقال علي رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ: كيف قتل وأنتم على الباب؟ ولطم ابنه الحسنَ، وضرب صدرَ الحسين، وشتم ابنَ الزبير، وابنَ طلحة، رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمْ جميعًا، وخرج غضبان إلى منزله.

فجاء النّاس يهرعون إليه ليبايعوه، قال: ليس ذاك إليكم، إنما ذاك إلى أهل بدر، فمَن رضوه فهو خليفة.

فلم يَبق أحدٌ من البدريين إلا أتى عليًّا، فكان أول مَن بايعه طلحة بلسانه، وسعدٌ بيده، ثم خرج إلى المسجد فصعد المنبر، فكان أوّل مَن صعد إليه طلحة، فبايعه بيده، ثم بايعه الزبير وسعد والصحابة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمْ جميعًا، ثم نزل فدعا النّاس، وطلب مروان، فهرب منه هو وأقاربه.

فبدأ بأعباء الخلافة، وعزل من عزل، وولى من ولَّى، وخرج من المدينة إلى العراق، ثمّ جرى هناك ما جرى في خلافته، وكان عامَّةُ ما عليه في خلافته السير بالسنة على طريقة هدي النّبيّ صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ وصاحبيه؛ فلم يغير كثيرًا من الولاة الذين كانوا في عهدهما.

وحصل في خلافته وقعة الجمل، وصفين، وقتال الخوارج، قال عَلِيٌّ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ يَوْمَ الْجَمَلِ: (إِنَّ رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ لَمْ يَعْهَدْ إِلَيْنَا عَهْدًا نَأْخُذُ بِهِ فِي الْإِمَارَةِ، وَلَكِنْ شَيْءٌ رَأَيْنَاهُ مِنْ قِبَلِ أَنْفُسِنَا، فَإِنْ يَكُ صَوَابًا فَمِنَ اللهِ، وَإِنْ يَكُ خَطَأً فَمِنْ قِبَلِ أَنْفُسِنَا، ثُمَّ اسْتُخْلِفَ أَبُو بَكْرٍ؛ فَأَقَامَ وَاسْتَقَامَ، ثُمَّ اسْتُخْلِفَ عُمَرُ؛

فَأَقَامَ وَاسْتَقَامَ، حتّى ضَرَبَ الدِّينُ بِجِرَانِهِ، ثُمَّ إِنَّ أَقْوَامًا طَلَبُوا الدّنيا، يَعْفُو اللهُ عَمَّنْ يَشَاءُ، وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ) [رواه أحمد].

وقَالَ: (وَاللهِ مَا عَهِدَ إِلَيَّ رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَهْدًا، إِلا شَيْئًا عَهِدَهُ إِلَى النّاس، وَلَكِنَّ النّاس وَقَعُوا عَلَى عُثْمَانَ؛ فَقَتَلُوهُ؛ فَكَانَ غَيْرِي فِيهِ أَسْوَأَ حَالًا، وَفِعْلًا مِنِّي، ثُمَّ إِنِّي رَأَيْتُ أَنِّي أَحَقُّهُمْ بِهَذَا الْأَمْرِ، فَوَثَبْتُ عَلَيْهِ، فَاللهُ أَعْلَمُ أَصَبْنَا أَمْ أَخْطَأْنَا" [رواه أحمد].

وقال أيضًا: (ولو كان عندي من النّبيّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عهد في ذلك، ما تركت أخا بني تيم بن مُرَّة، وعمرَ بن الخطاب يقومان على مِنْبَرِه، ولقاتلتهما بيدي، ولو لم أجد إلا يَدِي هذه، ولكنْ رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لم يُقْتَلْ قَتْلًا، ولم يَمُتْ فُجَاءَةً، مكث في مرضه أياما وليالي، يأتيه المؤذن فيُؤْذِنُه بالصلاة؛ فيأمر أبا بكر فيُصَلِّي بالنّاس، هو يرى مكاني، ثم يأتيه المؤذن فيؤذنه بالصلاة، فيأمر أبا بكر فيصلي بالنّاس، وهو يرى مكاني، ولقد أرادت امرأة مِن نسائه أنْ تصرِفَه عن أبي بكر فأبى وغضب، وقال: **"أَنْتُنَّ صَوَاحِبُ يُوسُفَ، مُرُوا أَبَا بَكْرٍ يُصَلِّي بِالنّاس"**.

فلما قبض الله نبيه، نظرنا في أمورنا، فاخترنا لدنيانا مَن رضيه نبي الله لديننا، وكانت الصلاة أصل الإسلام، وهي عُظْمُ الأمرِ، وقِوَامُ الدِّين؛ فبايعنا أبا بكر، وكان لذلك أهلًا، لم يختلف عليه منَّا اثنان، ولم يشهد بعضنا على بعض، ولم نقطع منه البراءة؛ فأديت إلى أبي بكر حقَّه، وعرفت له طاعته، وغزوت معه في

جنوده، وكنت آخذُ إذا أعطاني، وأغزوا إذا أغزاني، وأضرب بين يديه بسوطي؛ فلما قُبِضَ، ولَّاها عمُر؛ فأخذ بسنة صاحبه، وما يُعْرَف مِن أمره، فبايعنا عمر، ولم يختلف عليه منَّا اثنان، ولم يشهد بعضنا على بعض، ولم نقطع منه البراءة.

فأدَّيْتُ إلى عمرَ حقّه، وعرفتُ طاعته، وغزوتُ معه في جيوشه، وكنت آخذ إذا أعطاني، وأغزو إذا أغزاني، وأضرب بين يديه الحدود بسوطي؛ فلمَّا قُبِضَ تذكَّرْتُ في نفسي قرابتي، وسابقتي، وسالفتي، وفضلي، وأنا أظن أنْ لا يَعْدِلَ بي؛ ولكنْ خَشِيَ أنْ لا يَعْمَل الخليفةُ بعدَه ذنبًا إلّا لحقه في قبره؛ فأخرج منها نفسه، وولده، ولو كانت محاباةً منه لآثر بها ولده؛ فبرئ منها إلى رهطٍ مِن قريشٍ؛ سِتَّةً، أنا أحدهم؛ فلمّا اجتمع الرّهط؛ تذكرتُ في نفسي قرابتي، وسابقتي، وفضلي، وأنا أظنّ أنْ لا يَعْدِلُوا بي؛ فأخذ عبدُ الرحمن مواثيقنا على أنْ نسمَعَ ونُطيعَ لمن ولَّاه الله أمرَنا، ثمّ أخذ بيد ابن عفان فضرب بيده على يده؛ فنظرت في أمري؛ فإذا طاعتي قد سبقتْ بَيْعَتِي، وإذا ميثاقي قد أُخِذَ لِغَيْرِي؛ فبايعنا عثمانَ؛ فأديتُ له حقَّه، وعرفتُ له طاعته، وغزوتُ معه في جيوشه، وكنت آخذ إذا أعطاني، وأغزاني، وأضرب بين يديه الحدود بسوطي؛ فلمّا أصيب نظرتُ في أمري، فإذا الخليفتان اللذان أخذاها بعهد رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إليهما بالصلاة قد مضيًا، وهذا الّذي قد أخذ له الميثاق، قد أصيب، فبايعني أهلُ الحرمين، وأهلُ هذين المصرين) [الشريعة للآجري، وأمالي ابن بشران].

ومن أوَّلِ ما وقع في خلافته مقتلة الجمل، وكان فيها طلحةُ والزُّبيرُ وأمُّ المؤمنين عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ مجتهدين مخطئين، وهو مصيبٌ، ولم يكونوا قد جاؤوا للقتال، ولكن الغوغاء وأهل الفتنة، والسَّبئيَّة أشعلوا فتيل الحرب بين الطائفتين؛ فوقع القتال، وقتل فيه طلحة والزبير رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، وأرجع علي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أم المؤمنين عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا إلى المدينة مُعزَّزَةً مُكرَّمةً، وكان علي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ إذا ذكر ما وقع في الجمل بكى، ويتذكر إخوانه الذين ماتوا فيه من الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ جميعًا.

ثم حصل القتال بينه وبين معاوية رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا في معركة معروفة في كتب التاريخ، وهي المشهورة بمعركة صفين، وفي كتب التاريخ حول هذه المعركة الكثير من المبالغات، والعديد من المهاترات، حتّى يشوهوا صورة الصحابة من الجهتين، حتّى ادُّعِيَ فيها أن عدد القتلى بعشرات الآلاف، وهي رواياتٌ بغيضة، وأقاويل غير مستفيضة، ثم حصل الصلح بينهما رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا وكان ذلك سببًا لغيض المغرضين، ودافعًا لحسد بقايا اليهود والمجوس والنصارى والمشركين؛ فصاروا ينفخون في رمادٍ لا جمرَ تحته، وفي قضية لا أساس لها؛ فلما وجدوا أن الصلح قد تم، وأن أمرهم سينفضح، وأن شأنهم سيتضح، وأن خططهم ستفشل، وأن مؤامراتهم ستنكشف، لجؤوا إلى إزكاء نار الغلو في قلوب الجهلة، والضرب على وتر التشدد، حتّى صار الغوغاء الذين كانوا قد خرجوا بالأمسِ على عثمان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، ثم أصبحوا بالقهر تحت خلافة عليٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، خرجوا

على عليٍّ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ، وهو يومئذٍ أفضل مَن على وجه الأرض، وكفَّروه، وأظهروا قتاله، فحصلت المعركة المعروفة في حروراء، بلدة في ناحية العراق.

عَنْ أَبِي سَعِيدٍ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ قَالَ: قَالَ رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: **"إِنَّ مِنْكُمْ مَنْ يُقَاتِلُ عَلَى تَأْوِيلِهِ كَمَا قَاتَلْتُ عَلَى تَنْزِيلِهِ"** قَالَ: فَقَامَ أَبُو بَكْرٍ، وَعُمَرُ؛ فَقَالَ: **"لاَ، وَلَكِنَّهُ خَاصِفُ النَّعْلِ"**، قَالَ: وَعَلِيٌّ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ يَخْصِفُ نَعْلَهُ. [رواه أحمد والترمذي بنحوه، وقال: حسن صحيح غريب].

وحصل في آخر خلافته أيضًا فتنة السَّبئيّة الذين ادّعوا فيه الألوهيّة؛ فعن عثمان بن أبي عثمان رَحِمَهُٱللَّهُ قال: (جاء أناس إلى علي رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ؛ فقالوا: أنت هو. قال: مَنْ أنا!؟ قالوا: أنت هو. قال: ويلكم مَنْ أنا!؟ قالوا: أنت ربُّنا، قال: ارجعوا فأبَوْا، فضرب أعناقَهم، ثم خدَّ لهم في الأرض، ثم قال: يا قنبر ائتني بحزم الحطب، فحرَّقهم بالنّار، وقال:

لما رأيت الأمر أمرًا منكرًا ... أوقدت ناري ودعوت قنبرًا) [الشريعة للآجري].

وكان علي رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ من أزهد النّاس في الدّنيا، لما تولى الخلافة كان يكنس بيت المال بنفسه، ويصلي فيه، ولا يترك فيه شيئًا إلا وزعه، وكان لا يأخذ إلا ما يكفيه وأهله قوته، وكان يمشي في الأسواق بنفسه، ويتفقد أحوال الرعية.

ولما طُعِنَ من الخارجي عبد الرحمن ابن مُلْجَم جاءه أناس فقالوا: (استخلف، قال: إنْ يردِ الله بكم خيرًا استعملَ عليكم خيرَكم؛ كما أراد بنا خيرًا

واستعمل علينا أبا بكر.

وعن أبي وائل قال: قيل لعلي: ألا توصي؟ قال: ما أوصى رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فأُوصِي؛ ولكن إنْ يُرِدِ الله بالنّاس خيرًا سيجمعهم على خيرِهم، كما جمعهم بعد نبيهم على خيرهم) [من حديث خيثمة القرشي].

قال أبو جعفر الباقر: (إن هذه الآية نزلت في أبي بكر وعمر وعلي: ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ إِخْوَانًا﴾ [سورة الحجر، من الآية:٤٧] [سير أعلام النبلاء، سيرة الخلفاء ص١٥].

خامسًا: استشهاده ووفاته: بعد وقعة حروراء الّتي كانت مع الخوارج الْمُحَكِّمَةِ في منطقة حروراء، وإليه انتسبوا، هزم الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى الخوارج، وقُتِلُوا جميعًا، إلا نفرٌ يسيرٌ، هرب بعضهم إلى تخوم جبال عمان، وبعضهم إلى إفريقية، وتعاقد بعضهم على كتم دعوتهم سرًّا، وقتل خيار المسلمين يومئذٍ؛ فكان أن تعاهدوا على قتل ثلاثةٍ هم من خيار ساسة المسلمين يومئذٍ؛ الخليفة الراشد علي رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، وهو في العراق، أمير الشام معاوية رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، وأميرُ مصر عمرو بن العاص رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، وتم لهم ذلك؛ فقتل ابن مُلْجَمٍ عليًّا رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، ومات من طعنته، وضرب الآخرُ معاوية رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، ولكنه عولجَ، وأخطأ الثالث فلم يتمكن من قتل عمرو بن العاصِ؛ بل قتل مكانه شخصًا آخر.

ولما كانت الليلة الّتي أصيب فيها علي رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أتاه ابن النباح حين طلع الفجر، يؤذنه بالصلاة، فقام يشمي، فلما بلغ الباب الصغير، شد عليه عبد

الرحمن بن مُلْجَم، فضربه، فخرجت أم كلثوم فجعلت تقول: ما لي ولصلاة الصبح، قتل زوجي عمر صلاة الغداة، وقتل أبي صلاة الغداة [مقتل علي رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ لابن أبي الدّنيا].

ولما مات أمير المؤمنين علي رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ صلَّى الحسنُ ابنه عليه، ودفن بالكوفة، عند قصر الإمارة، وعُمِيَ قبرُه؛ لئلا تنبشه الخوارج. وقيل: نقله الحسن بن علي إلى المدينة.

وعاش الخليفة الراشد عليّ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ ثلاثًا وستين سنة.

وقام الحسنُ بن علي رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا خطيبًا؛ فقال: لقد فارقكم بالأمس رجل ما سبقه إلا الأوّلون بعلمٍ، ولا يُدركِه الآخِرُون، كان رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ يُعطيه الراية، فلا يَنصرف حتّى يُفتح له، ما ترك بيضاء ولا صفراء، إلا سبع مئة درهم فضلت مِن عطائه، كان أرصدها، لا خادم لأهله.

ثمّ ذكر المصنّف رَحِمَهُٱللَّهُ **بترتيبه** خامسَ العشرةِ المبشرين بالجنّة، وهو **"طلحة"** رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ، وهذه نبذة مختصرة عنه:

أوّلًا: اسمه ونسبه: طلحة بن عبيد الله بن عثمان بن عمرو التيمي القرشي، وكنيته أبو محمّدٍ.

ثانيًا: وصفه: كان رجلا آدَمَ يضربُ إلى الحمرةِ، كثيرَ الشعر، ليس بالجعد القطط، ولا بالسّبط، ولا يغير شَعْرَه، وكان حسنَ الوجه، إذا مشى أسرع، مربوعًا، إلى القِصَرِ هو أقربُ، رَحْبَ الصَّدْر، بعيد ما بين المنكبين، ضخم

القدمين، إذا التفت التفت جميعًا.

ثالثًا: نبذة من أخلاقه وفضائله:

كان من السابقين إلى الإسلام، وأوذي في الله، ثم هاجر، واتفق أنه غاب عن بدرٍ في تجارة له بالشام، وتألم لغيبته، فضرب رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بسهمه وأجره [أخرجه الحاكم].

وفي أحدٍ دافع عن النّبيّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، والتزمه، وبقي معه، حتّى أصبحت يده شلاء؛ لأنه كان بها يُغطي على رسولِ الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ولُقب بطلحة الخير، وطلحة الفياض، وطلحة الجود، لما كان له من كرمٍ وعطاء، وله فضائل عديدة، ومناقب كثيرة، ومنها:

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، كَانَ عَلَى حِرَاءٍ هُوَ وَأَبُو بَكْرٍ ، وَعُمَرُ ، وَعُثْمَانُ ، وَعَلِيٌّ ، وَطَلْحَةُ ، وَالزُّبَيْرُ ، فَتَحَرَّكَتِ الصَّخْرَةُ ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : **"اهْدَأْ فَمَا عَلَيْكَ إِلاَّ نَبِيٌّ ، أَوْ صِدِّيقٌ ، أَوْ شَهِيدٌ"** [رواه مسلم].

ورُوِيَ عن جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللهِ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا مرفوعًا: **"مَنْ سَرَّهُ أَنْ يَنْظُرَ إِلَى شَهِيدٍ يَمْشِي عَلَى وَجْهِ الأَرْضِ فَلْيَنْظُرْ إِلَى طَلْحَةَ بْنِ عُبَيْدِ اللهِ"** [رواه ابن ماجه، والترمذي، وقال: حَدِيثٌ غَرِيبٌ، لاَ نَعْرِفُهُ إِلاَّ مِنْ حَدِيثِ الصَّلْتِ. وَقَدْ تَكَلَّمَ بَعْضُ أَهْلِ العِلْمِ فِي الصَّلْتِ بْنِ دِينَارٍ وَضَعَّفَهُ].

وعَنِ الزُّبَيْرِ بْنِ العَوَّامِ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ: كَانَ عَلَى النّبيّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ دِرْعَانِ يَوْمَ

أُحُدٍ، فَنَهَضَ إِلَى الصَّخْرَةِ، فَلَمْ يَسْتَطِعْ، فَأَقْعَدَ طَلْحَةَ تَحْتَهُ، فَصَعِدَ النّبيّ ﷺ عَلَيْهِ حتّى اسْتَوَى عَلَى الصَّخْرَةِ، فَقَالَ: سَمِعْتُ النّبيّ ﷺ يَقُولُ: **"أَوْجَبَ طَلْحَةُ"** [رواه الترمذي، وقال: حسن غريب].

وعن طَلْحَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أَنَّ أَصْحَابَ رَسُولِ اللهِ ﷺ قَالُوا: لأَعْرَابِيٍّ جَاهِلٍ: سَلْهُ عَمَّنْ قَضَى نَحْبَهُ مَنْ هُوَ؟ وَكَانُوا لاَ يَجْتَرِئُونَ عَلَى مَسْأَلَتِهِ يُوَقِّرُونَهُ وَيَهَابُونَهُ، فَسَأَلَهُ الأَعْرَابِيُّ، فَأَعْرَضَ عَنْهُ، ثُمَّ سَأَلَهُ فَأَعْرَضَ عَنْهُ، ثُمَّ سَأَلَهُ فَأَعْرَضَ عَنْهُ، ثُمَّ إِنِّي اطَّلَعْتُ مِنْ بَابِ الْمَسْجِدِ وَعَلَيَّ ثِيَابٌ خُضْرٌ، فَلَمَّا رَآنِي رَسُولُ اللهِ ﷺ قَالَ: أَيْنَ السَّائِلُ عَمَّنْ قَضَى نَحْبَهُ؟ قَالَ الأَعْرَابِيُّ: أَنَا يَا رَسُولَ اللهِ، قَالَ: **"هَذَا مِمَّنْ قَضَى نَحْبَهُ"** [رواه الترمذي، وقال: حسن غريب].

رابعًا: استشهاده ووفاته:

خرج طلحةُ مع الزبيرِ وعائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ إلى العراق ليلحقوا بالخليفة الراشد عليٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ويطالبوا بالقصاص مِن قتلة عثمان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فالتقى القوم يوم الجمل، بمناوشاتٍ من السّفلة، وخيانات من السبئية؛ فبدأ القتال، وقام كعب بن سور معه المصحف، فنشره بين الفريقين، وناشدهم اللهَ والإسلامَ، في دمائهم، فما زال حتّى قتل.

وقام طلحة على دابته، وهو يقول: أيها النّاس أنصتوا، فجعلوا يَرْكَبُونه ولا يُنْصِتُون. فقال: أفٍّ! فراشُ النّار، وذبابُ طَمَعٍ.

فقاموا إليه وقتلوه، وكان من أوّل القتلى، مما أجج نار الحرب بين الطائفتين من المسلمين، وقد رماه مروان بن الحكم بسهمٍ فوقع في ركتبه.

وكان قتله في سنة (٣٦هـ) في جمادى الآخرة، وهو ابن ثنتين وستين سنة، ودفن بظاهر البصرة.

ولما انتهى القتال، رأى الخليفة الراشدُ عليٌّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ طلحةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ في وادٍ مُلقى مقتولًا؛ فنزل، فمسح التراب عن وجهه، وقال: (عزيزٌ عليَّ أبا محمَّدٍ بأنْ أراك مُجْدَلًا في الأودية، تحت نجوم السّماء، إلى الله أشكو عُجَرِي وبُجَرِي) قال الأصمعي معناه: سرائري وأحزاني الّتي تموج في جوفي. [تاريخ دمشق].

وعن أبي حبيبة مولى لطلحة، قال: دخلتُ على عليٍّ مع عمرانَ بنِ طلحة بعد وقعة الجمل، فرحب به وأدناه، ثم قال: إني لأرجو أن يجعلني الله وأباك ممن قال فيهم: ﴿وَنَزَعۡنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنۡ غِلٍّ إِخۡوَٰنًا عَلَىٰ سُرُرٖ مُّتَقَٰبِلِينَ﴾ [سورة الحجر، من الآية:٤٧].

فقال رجلان جالسان، أحدهما الحارث الأعور: اللهُ أعدل مِن ذلك أن يقبلهم ويكونوا إخوانا في الجنّة.

قال: قُومَا أَبْعَدَ أرضٍ وَأَسْحَقَهَا؛ فمَنْ هو إذا لم أكن أنا وطلحة! يا ابن أخي: إذا كانت لك حاجة، فَائْتِنَا. [تفسير الطبري].

فرضيَ الله عنهما وعن الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ، ما أجل أخلاقهم، وما أحسن فعالهم في الحرب والسلم، وفي الصداقة والعداوة، وفي الإصابة والخطأ.

ثم ذكر المصنّف رَحِمَهُ ٱللَّهُ **بترتيبه** سادسَ العشرة المبشرين بالجنّة، وهو **"الزبيرُ"** رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ، وهذه نبذة مختصرة عنه:

أولًا: اسمه ونسبه: هو الزُّبَيْرُ بْنُ العَوَّامِ بنِ خُوَيْلِدٍ بْنِ أَسَدٍ بْنِ عبدِ العُزَّى ابنِ قُصَيٍّ بنِ كلاب بن مرة بن كعب بن لؤي بن غالب القرشي.

وكنيته: أبو عبدِ الله، ووُلد عبدُ اللهِ في المدينة، وكان أول مولودٍ للمهاجرين في المدينة، وبه كان يُكْنَى.

وهو حواريُّ رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ، وابنُ عمته صفية بنت عبد المطلب، وهو أحدُ الستة أهل الشورى، الذين جعل إليهم الخلافةَ عمرُ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ، وأوَّلُ من سل سيفه في سبيل الله، أسلم وهو حَدَثٌ له ستُّ عشرة سنة، أسلم على يد أبي بكر رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ.

ثانيًا: وصفه: كانَ رَجُلًا طَويلًا، أَشْعَرَ، إذا ركب خُطَّتْ رِجْلَاهُ الأرضَ، وكان خفيفَ اللِّحْيَةِ والعارضين.

ثالثًا: نبذة من أخلاقه وفضائله:

وكان عظيم الخِلْقَة، قويَّ الشكيمة، يتيم الأبِ، ولما أسلم كان عمه يُعلِّقُه، ويُدَخِّنُ عليه، وهو يقول: لا أرجع إلى الكفر أبدًا. [الحلية لأبي نعيم].

وكان وفيّ العهد بأصحابه؛ فأوصى إليه سبعة من الصحابة منهم: عثمان، وابنُ مسعودٍ، وعبد الرحمن بنُ عوفٍ؛ فكان ينفق على ورثتهم من ماله، ويحفظ أموالهم.

وكان كثيرَ الإنفاق، يستدين لقضاء حوائج النّاس، مع ما كان من شجاعة لا نظيرَ لها، وبأسٍ لا مثيل له.

وقد هاجر الزُّبيرُ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ وهو ابن ثمانِ عشرة سنة، وكان من المهاجرين إلى الحبشة، ولم يطول الإقامة بها.

وكان قد شهد المشاهد كلها مع النّبيّ صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ، وشهد بدرًا، وكان في موقعة بدرٍ أحدَ الفرسان، الذين يشار إليهم بالبنان، وشهد معركة أحدٍ، ولما صرفَ اللهُ المشركين بعد وقعة أحدٍ، وأصاب النّبيّ صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ وأصحابه ما أصابهم، خافَ النّبيّ صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ أن يرجع الكفار؛ فقال: **"مَنْ يَذْهَبُ فِي إِثْرِهِمْ"**؛ فَانْتَدَبَ مِنْهُمْ سَبْعُونَ رَجُلًا، كَانَ فِيهِمْ أَبُو بَكْرٍ، وَالزُّبَيْرُ، وفيهم أنزل الله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ٱسْتَجَابُواْ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ مِنۢ بَعْدِ مَآ أَصَابَهُمُ ٱلْقَرْحُۚ لِلَّذِينَ أَحْسَنُواْ مِنْهُمْ وَٱتَّقَوْاْ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ [سورة آل عمران، من الآية:١٧٢] [رواه البخاري].

وكان له موقفٌ عظيم يوم الأحزاب، كما جاء عن جَابِرٍ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ قَالَ: قالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ يَوْمَ الأَحْزَابِ: **"مَنْ يَأْتِينَا بِخَبَرِ القَوْمِ"**؛ فَقَالَ الزُّبَيْرُ: أَنَا، ثُمَّ قَالَ: **"مَنْ يَأْتِينَا بِخَبَرِ القَوْمِ"**؛ فَقَالَ الزُّبَيْرُ: أَنَا، ثُمَّ قَالَ: **"مَنْ يَأْتِينَا بِخَبَرِ القَوْمِ"**؛ فَقَالَ الزُّبَيْرُ: أَنَا، ثُمَّ قَالَ: **"إِنَّ لِكُلِّ نَبِيٍّ حَوَارِيَّ، وَإِنَّ حَوَارِيَّ الزُّبَيْرُ"** [رواه البخاري ومسلم]، وعند الإمام أحمد في مسنده بلفظ: **"الزُّبَيْرُ ابنُ عَمَّتِي، وَحَوَارِيَّ مِنْ أُمَّتِي"**، والحواري: الناصر، والخالصُ من كلّ شيءٍ، والخليلُ.

وجمعَ له رسولُ الله أبويه، حيث كان في يوم الخندق، وهو يحمل على

المشركين الغارَةَ ويرميهم؛ فقال صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ له: "**احْمِلْ، فِدَاكَ أَبِي وَأُمِّي**"، وفي رواية: "**ارْمِ فِدَاكَ أَبِي وَأُمِّي**" [شرح مشكل الآثار للطحاوي، ومسند أبي يعلى].

رابعًا: استشهاده ووفاته:

خرج الزُّبيرُ مع طلحة وعائشة رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ إلى العراق ليلحقوا بالخليفة الراشد عليٍّ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ ويطالبوا بالقصاص مِن قتلة عثمان؛ فلما التقى القوم يوم الجمل، سار الثوَّار بين الفئتين حتّى وقعت المقتلة بينهم وهم لا يريدون القتال؛ فوقع ما وقع من قضاء الله تعالى، وتقديره، وكانت هذه الوقعة في سنة (٣٦هـ).

قال أبو حرب بن أبي الأسود الديلي: شهدتُ الزبير خرج يريد عليًّا، فقال له عليٌّ أنشدك الله: هل سمعتَ رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقول: "**تقاتله وأنت له ظالم**" فقال: لم أذكر، ثم مضى الزُّبير منصرفًا. [رواه الحاكم، وقال: حديث صحيح، ووافقه الذهبي].

وضرب وجه دابته، يريد الرجوعَ إلى المدينة، وترك القتال؛ فلقيه ابنه عبد الله، فقال: جُبْنًا جُبْنًا! فقال: قد علم النّاس أني لست بجبان، ولكن ذكَّرَنِي عليٌّ شيئًا سمعته من رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فحلفت ألَّا أقاتله.

فانصرف إلى جهة صفوان –اسم منطقة قريبة من البصرة؛ فلقيه ابن جرموزٍ وكان من الثوَّارِ؛ فقتله.

فلمّا بلغ ذلك عليًّا رَضِيَ اللهُ عَنْهُ بكى عليه هو وأصحابه.

قال زرٌّ: استأذن ابن جرموز على علي وأنا عنده، فقال علي: بشر قاتل ابن صفية بالنّار، سمعت رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقول: **"لكل نبي حواري، وحواري الزبير"** [رواه أحمدُ].

وكان قتله سنة ستٍّ وثلاثين كما قال الإمام البخاري رَحِمَهُ اللَّهُ، وكان عمره يوم أن قتل بضعٌ وخمسون سنة.

وكانت من زوجاته: أسماء بنت أبي بكرٍ، وعاتكة بن زيد، وأم خالد بنت خالد بن سعيد، وأم مصعب الكلبية.

قال عبد الله بن الزبير: (لما وقف الزبير يوم الجمل، دعاني؛ فقمت إلى جنبه، فقال: يا بني! إنه لا يقتل اليوم إلا ظالم أو مظلوم، وإني لا أراني إلا سأقتل اليوم مظلومًا).

قال الشعبي: (أدركتُ خمسَ مائةٍ أو أكثر من الصحابة، يقولون: علي، وعثمان، وطلحة، والزبير في الجنّة).

قال الحافظ الذهبي في السير: (لأنهم مِن العشرة المشهود لهم بالجنّة، ومن البدريين، ومن أهل بيعة الرضوان، ومن السابقين الأولين الذين أخبر تعالى أنه رضي عنهم ورضوا عنه، ولأن الأربعة قُتِلُوا ورُزِقُوا الشهادة، فنحن محبون لهم، باغضون للأربعة الذين قتلوا الأربعة).

ثم ذكر المصنّف رَحِمَهُ اللَّهُ بترتيبه سابعَ العشرة المبشرين بالجنّة، وهو "سعدٌ" رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وهذه نبذة مختصرة عنه:

أولًا: اسمه ونسبه: هو سعد بن أبي وقاص مالك بن أهيب بن عبد مناف الزهري القرشي.

وأمُّه حمنة بنت سفيان بن أمية بن عبد شمس بن عبد مناف.

كنيته أبو إسحاق.

ثانيًا: وصفه: كان آدَمَ، قصيرًا، دحداحًا، أفطسَ، شَثْنَ الأَصَابِع غليظها، ذا هامَةٍ، أشعرَ جعدًا، يخضب بالسواد.

ثالثًا: نبذة من أخلاقه وفضائله:

أحدُ السَّابقين الأولين، وشهد بدرًا وما بعدها من المشاهد، وآخرُ مَن توُفّيَ من العشرة المبشرين بالجنّة، وأول من رمَى سهمًا في سبيل الله تعالى.

أسلم وهو في العقد الثاني ابن سبع عشرة سنة، وكان من أفقه الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ.

عن سَعِيدَ بْنَ المُسَيِّبِ، يَقُولُ: سَمِعْتُ سَعْدَ بْنَ أَبِي وَقَّاصٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يَقُولُ: "مَا أَسْلَمَ أَحَدٌ إِلَّا فِي اليَوْمِ الّذي أَسْلَمْتُ فِيهِ، وَلَقَدْ مَكَثْتُ سَبْعَةَ أَيَّامٍ، وَإِنِّي لَثُلُثُ الإِسْلَامَ" [رواه البخاري].

وَعَنْ عَلِيٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: مَا سَمِعْتُ النّبِيّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ جَمَعَ أَبَوَيْهِ لِأَحَدٍ إِلَّا لِسَعْدِ بْنِ مَالِكٍ، فَإِنِّي سَمِعْتُهُ يَقُولُ يَوْمَ أُحُدٍ: **"يَا سَعْدُ، ارْمِ فِدَاكَ أَبِي وَأُمِّي"** [رواه البخاري، ومسلم].

وكان من أخوال النّبيّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من بني زهرة، فعن جابر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال:

كنّا مع رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إذ أقبل سعد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فقال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "**هَذَا خَالِي فَلْيُرِنِي امْرُؤٌ خَالَه**" [رواه الترمذي، وقال: غريب].

وعَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قَالَتْ: أَرِقَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ذَاتَ لَيْلَةٍ، فَقَالَ: "**لَيْتَ رَجُلًا صَالِحًا مِنْ أَصْحَابِي يَحْرُسُنِي اللَّيْلَةَ**"، قَالَتْ: وَسَمِعْنَا صَوْتَ السِّلَاحِ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "**مَنْ هَذَا؟**" قَالَ سَعْدُ بْنُ أَبِي وَقَّاصٍ: يَا رَسُولَ اللهِ، جِئْتُ أَحْرُسُكَ. قَالَتْ عَائِشَةُ: فَنَامَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حتّى سَمِعْتُ غَطِيطَهُ [رواه البخاري ومسلم].

وكان زاهدًا في الخلافة والْمُلك، فعن عَامِرُ بْنُ سَعْدٍ، قَالَ: كَانَ سَعْدُ بْنُ أَبِي وَقَّاصٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فِي إِبِلِهِ، فَجَاءَهُ ابْنُهُ عُمَرُ، فَلَمَّا رَآهُ سَعْدٌ قَالَ: أَعُوذُ بِاللهِ مِنْ شَرِّ هَذَا الرَّاكِبِ؛ فَنَزَلَ؛ فقَالَ لَهُ: أَنَزَلْتَ فِي إِبِلِك وَغَنَمِك، وَتَرَكْتَ النّاس يَتَنَازَعُونَ الْمُلْكَ بَيْنَهُمْ؟ فَضَرَبَ سَعْدٌ فِي صَدْرِهِ، فَقَالَ: اسْكُتْ، سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، يَقُولُ: "**إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الْعَبْدَ التَّقِيَّ، الْغَنِيَّ، الْخَفِيَّ**" [رواه مسلم].

وعن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قال: كنا جلوسا عند النّبيّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: "**يدخل عليكم من هذا الباب رجل من أهل الجنّة**" فطلع سعدٌ بن أبي وقاص. [رواه الحاكم وصححه، ووافقه الذهبي].

وعن سعدٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم﴾ [سورة الأنعام، من الآية:٥٢]، قال: نزلت في سِتَّةٍ: أنا وابن مسعود منهم [أخرجه مسلم].

وعن سعدٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: إِنَّهُ نَزَلَتْ فِيهِ آيَاتٌ مِنَ الْقُرْآنِ: حَلَفَتْ أُمُّ سَعْدٍ أَنْ لَا

تُكَلِّمَهُ أَبَدًا حتّى يَكْفُرَ بِدِينِهِ، وَلَا تَأْكُلَ وَلَا تَشْرَبَ، قَالَتْ: زَعَمْتَ أَنَّ اللهَ وَصَّاكَ بِوَالِدَيْكَ، وَأَنَا أُمُّكَ، وَأَنَا آمُرُكَ بِهذَا. قَالَ: مَكَثَتْ ثَلَاثًا حتّى غُشِيَ عَلَيْهَا مِنَ الْجَهْدِ، فَقَامَ ابْنٌ لَهَا يُقَالُ لَهُ عُمَارَةُ، فَسَقَاهَا، فَجَعَلَتْ تَدْعُو عَلَى سَعْدٍ، فَأَنْزَلَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ فِي الْقُرْآنِ هَذِهِ الْآيَةَ: ﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حُسْنًاۖ وَإِن جَٰهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِي﴾ [سورة العنكبوت، من الآية:٨]، وَفِيهَا ﴿وَصَاحِبْهُمَا فِي ٱلدُّنْيَا مَعْرُوفًا﴾ [سورة لقمان، من الآية:١٥].

قَالَ: وَأَصَابَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ غَنِيمَةً عَظِيمَةً، فَإِذَا فِيهَا سَيْفٌ فَأَخَذْتُهُ، فَأَتَيْتُ بِهِ الرَّسُولَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَقُلْتُ: نَفِّلْنِي هَذَا السَّيْفَ، فَأَنَا مَنْ قَدْ عَلِمْتَ حَالَهُ، فَقَالَ: "رُدَّهُ مِنْ حَيْثُ أَخَذْتَهُ"؛ فَانْطَلَقْتُ، حتّى إِذَا أَرَدْتُ أَنْ أُلْقِيَهُ فِي الْقَبَضِ لَامَتْنِي نَفْسِي، فَرَجَعْتُ إِلَيْهِ، فَقُلْتُ: أَعْطِنِيهِ، قَالَ فَشَدَّ لِي صَوْتَهُ "رُدَّهُ مِنْ حَيْثُ أَخَذْتَهُ"، قَالَ فَأَنْزَلَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَنفَالِ﴾ [سورة الأنفال، من الآية:١].

قَالَ: وَمَرِضْتُ فَأَرْسَلْتُ إِلَى النّبيّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَأَتَانِي، فَقُلْتُ: دَعْنِي أَقْسِمْ مَالِي حَيْثُ شِئْتُ، قَالَ فَأَبَى، قُلْتُ: فَالنِّصْفَ، قَالَ فَأَبَى، قُلْتُ: فَالثُّلُثَ، قَالَ فَسَكَتَ، فَكَانَ، بَعْدُ الثُّلُثُ جَائِزًا.

قَالَ: وَأَتَيْتُ عَلَى نَفَرٍ مِنَ الْأَنْصَارِ وَالْمُهَاجِرِينَ، فَقَالُوا: تَعَالَ نُطْعِمْكَ وَنَسْقِكَ خَمْرًا، وَذَلِكَ قَبْلَ أَنْ تُحَرَّمَ الْخَمْرُ، قَالَ فَأَتَيْتُهُمْ فِي حَشٍّ -وَالْحَشُّ الْبُسْتَانُ- فَإِذَا رَأْسُ جَزُورٍ مَشْوِيٌّ عِنْدَهُمْ، وَزِقٌّ مِنْ خَمْرٍ. قَالَ فَأَكَلْتُ وَشَرِبْتُ مَعَهُمْ، قَالَ فَذَكَرْتُ الْأَنْصَارَ وَالْمُهَاجِرِينَ عِنْدَهُمْ. فَقُلْتُ: الْمُهَاجِرُونَ خَيْرٌ مِنَ الْأَنْصَارِ. قَالَ

فَأَخَذَ رَجُلٌ أَحَدَ لَحْيَيِ الرَّأْسِ فَضَرَبَنِي، بِهِ فَجَرَحَ بِأَنْفِي فَأَتَيْتُ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَأَخْبَرْتُهُ فَأَنْزَلَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ فِيَّ -يَعْنِي نَفْسَهُ- شَأْنَ الْخَمْرِ: ﴿إِنَّمَا ٱلْخَمْرُ وَٱلْمَيْسِرُ وَٱلْأَنصَابُ وَٱلْأَزْلَٰمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ﴾ [سورة المائدة، من الآية:٩٠]) [رواه مسلم].

ومرض سعدٌ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فجاءه النّبيّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يعوده، ثُمَّ وَضَعَ يَدَهُ عَلَى جَبْهَتِهِ، ثُمَّ مَسَحَ يَدَهُ عَلَى وَجْهِي وَبَطْنِي، ثُمَّ قَالَ: **"اللَّهُمَّ اشْفِ سَعْدًا، وَأَتْمِمْ لَهُ هِجْرَتَهُ"**؛ فَمَا زِلْتُ أَجِدُ بَرْدَهُ عَلَى كَبِدِي -فِيمَا يُخَالُ إِلَيَّ- حَتَّى السَّاعَةِ) [رواه البخاري وهذا لفظه، ومسلم بنحوه].

وكان سعدٌ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ من مستجابي الدعوة لدعاء النّبيّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ له حيث قال: **"اللَّهُمَّ اسْتَجِبْ لِسَعْدٍ إِذَا دَعَاكَ"** [رواه الترمذي].

وعن عَبْدُ المَلِكِ بْنُ عُمَيْرٍ، عَنْ جَابِرِ بْنِ سَمُرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ: شَكَا أَهْلُ الكُوفَةِ سَعْدًا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ إِلَى عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، فَعَزَلَهُ، واسْتَعْمَلَ عَلَيْهِمْ عَمَّارًا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، فَشَكَوْا حتّى ذَكَرُوا أَنَّهُ لاَ يُحْسِنُ يُصَلِّي، فَأَرْسَلَ إِلَيْهِ، فَقَالَ: يَا أَبَا إِسْحَاقَ إِنَّ هَؤُلاَءِ يَزْعُمُونَ أَنَّكَ لاَ تُحْسِنُ تُصَلِّي، قَالَ أَبُو إِسْحَاقَ: أَمَّا أَنَا وَاللهِ، فَإِنِّي كُنْتُ أُصَلِّي بِهِمْ صَلاَةَ رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مَا أَخْرِمُ عَنْهَا، أُصَلِّي صَلاَةَ العِشَاءِ، فَأَرْكُدُ فِي الأُولَيَيْنِ وَأُخِفُّ فِي الأُخْرَيَيْنِ، قَالَ: ذَاكَ الظَّنُّ بِكَ يَا أَبَا إِسْحَاقَ، فَأَرْسَلَ مَعَهُ رَجُلًا أَوْ رِجَالًا إِلَى الكُوفَةِ، فَسَأَلَ عَنْهُ أَهْلَ الكُوفَةِ وَلَمْ يَدَعْ مَسْجِدًا إِلَّا سَأَلَ عَنْهُ، وَيُثْنُونَ مَعْرُوفًا، حتّى دَخَلَ مَسْجِدًا لِبَنِي عَبْسٍ، فَقَامَ رَجُلٌ مِنْهُمْ

يُقَالُ لَهُ أُسَامَةُ بْنُ قَتَادَةَ يُكْنَى أَبَا سَعْدَةَ قَالَ: أَمَّا إِذْ نَشَدْتَنَا فَإِنَّ سَعْدًا كَانَ لاَ يَسِيرُ بِالسَّرِيَّةِ، وَلاَ يَقْسِمُ بِالسَّوِيَّةِ، وَلاَ يَعْدِلُ فِي القَضِيَّةِ، قَالَ سَعْدٌ: أَمَا وَاللهِ لَأَدْعُوَنَّ بِثَلاَثٍ: اللَّهُمَّ إِنْ كَانَ عَبْدُكَ هَذَا كَاذِبًا، قَامَ رِيَاءً وَسُمْعَةً، فَأَطِلْ عُمْرَهُ، وَأَطِلْ فَقْرَهُ، وَعَرِّضْهُ بِالفِتَنِ، وَكَانَ بَعْدُ إِذَا سُئِلَ يَقُولُ: شَيْخٌ كَبِيرٌ مَفْتُونٌ، أَصَابَتْنِي دَعْوَةُ سَعْدٍ، قَالَ عَبْدُ المَلِكِ: فَأَنَا رَأَيْتُهُ بَعْدُ، قَدْ سَقَطَ حَاجِبَاهُ عَلَى عَيْنَيْهِ مِنَ الكِبَرِ، وَإِنَّهُ لَيَتَعَرَّضُ لِلْجَوَارِي فِي الطُّرُقِ يَغْمِزُهُنَّ [رواه البخاري وهذا لفظه، ومسلم بنحوه].

وعن سعيد بن المسيب قال: خرجت جارية لسعد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، عليها قميص جديد، فكشفتها الريح، فشد عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عليها بالدُّرَّة، وجاء سعدٌ ليمنعه، فتناوله بالدرة. فذهب سعدٌ يدعو على عمرَ، فناوَلَهُ الدُّرَّة، وقال: اقتَصَّ. فعفا عن عمر [رواه الطبراني في الكبير].

وعن مصعب بن سعد: أنَّ رجلًا نال من عليّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، فنهاه سعد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، فلم ينته، فدعا عليه؛ فما برح حتّى جاء بعير نادٌّ، فخبطه حتّى مات [رواه ابن أبي الدّنيا في مجابي الدعوة من طرقٍ جمّة].

وعن ابن المسيب: أنَّ رجلًا كان يقع في عليٍّ، وطلحةَ، والزُّبيرِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ، فجعل سعدٌ ينهاه، ويقول: لا تقع في إخواني. فأبى، فقام سعدٌ، وصلَّى ركعتين، ودعا. فجاء بُخْتِيٌّ يَشُقُّ النّاس، فأخذه بالبلاط، فوضعه بين كَرْكَرَتِه والبلاطِ حتّى سَحَقَهُ؛ فأنا رأيت النّاس يتبعون سعدًا، يقولون: هنيئا لك يا أبا إسحاق!

استجيبت دعوتك [رواه الطبراني في الكبير].

قال الحافظ الذهبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ بعد إيراده لهذا الأثر: (في هذا كرامة مشتركة بين الداعي والذين نيل منهم) [سير أعلام النبلاء].

ومن مناقب سعد رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ أنَّ فتح العراق كان على يدي سعد، وهو كان مقدم الجيوش يوم وقعة القادسية، سنة خمس عشرة، ونصر الله دينه، ونزل سعد بالمدائن، ثم كان أمير النّاس يوم جلولاء، سنة تسع عشرة؛ فكان النصر على يده، واستأصل الله الأكاسرة، وفي سنة إحدى وعشرين شكا أهلُ الكوفة سعدًا أميرَهم إلى عمرَ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ فعزله.

ولما أصيب عمرُ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، جعل الأمر شورى في الستة، وقال: (من استخلفوه فهو الخليفة بعدي، وإن أصابت سعدًا، وإلا فلْيَسْتَعِنْ به الخليفةُ بعدي؛ فإنني لم أنزعه -يعني: عن الكوفة- مِن ضعفٍ، ولا خيانةٍ) [رواه الطبراني في الكبير].

ولما استخلف عثمانُ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ عزل عن الكوفة المغيرةَ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ وأمَّر عليها سعدًا رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

ومن مناقبه أنه اعتزل القتال لما وقع بين طائفتين من المسلمين، وقال محمدُ بن سيرين: (نُبِّئْتُ أنَّ سعدًا قال: ما أزعم أني بقميصي هذا أحق منِّي بالخلافة، جاهدتُ وأنا أَعْرَفُ بالجهاد، ولا أَبْخَعُ نفسي إنْ كان رجلًا خيرًا مِنِّي، لا أقاتِل حتّى يأتوني بسيفٍ له عَيْنَانِ ولسانٌ؛ فيقول: هذا مؤمن، وهذا كافر) [رواه الطبراني في الكبير].

ومدح الخليفةُ الراشدُ عليٌّ بن أبي طالبٍ اعتزاله الفتنة كما جاء في الأثر أنه قام على منبر الكوفة؛ فقال حين اختلف الحكمان: (لقد كنت نهيتكم عن هذه الحكومة، فعصيتموني. فقام إليه فتى آدَمُ، فقال: إنك -والله- ما نهيتنا؛ بل أمرتنا، وذَمَّرْتَنَا؛ فلما كان منها ما تكره برأتَ نفسَك، ونَحلْتَنَا ذَنْبَك.

فقال علي رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ: ما أنتَ وهذا الكلام، قبَّحكَ اللهُ! والله لقد كانت الجماعة؛ فكنت فيها خاملًا، فلما ظهرت الفتنةُ نَجَمَتْ فيها نجومُ قَرْنِ الماعِزِ. ثم التفت إلى النّاس، فقال: للهِ مَنْزِلٌ نزلَهُ سعدٌ بنُ مالِكٍ، وعبدُ الله بنُ عمرَ، والله لَئِنْ كان ذنبا إنَّه لصغيرٌ مَغْفُورٌ، ولئن كان حَسَنًا إنَّه لعظيمٌ مَشْكورٌ) [سير أعلام النبلاء].

وعن الحسن بن علي ب قال: (لما كان الهيج في النّاس، جعل رجلٌ يَسْأَلُ عَنْ أفاضِل الصّحابة، فكان لا يَسْأَلُ أَحدًا إلا دَلَّه على سعدٍ بنِ مالك) [سير أعلام النبلاء، وتاريخ الإسلام للذهبي].

ودَخَلَ سعد رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ عَلَى مُعَاوِيَة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ، فلم يُسَلِّم عَلَيْهِ بالإمْرَةِ، فَقَالَ مُعَاوِيَة: لَوْ شِئْتَ أن تقولَ غيرَها لقلتَ، قَالَ: فنحن المؤمنون وَلَمْ نُؤَمِّرْكَ، فَإِنَّكَ مُعجَبٌ بما أنتَ فِيهِ، والله مَا يسُرُّني أَنِّي عَلَى الّذي أنت عَلَيْهِ وَإِنِّي هَرَقْتُ مِحْجَمَةَ دَمٍ) [سير أعلام النبلاء، وتاريخ الإسلام للذهبي].

قال الحافظ الذهبي رَحِمَهُٱللَّهُ بعد إيراده للأثرين السابقين: (اعتزل سعدٌ الفتنةَ، فلا حضر الجملَ، ولا صِفِّينَ، ولا التَّحكيمَ، ولقد كان أهلا للإمامة، كبير الشأن

رَضِيَٱللَّهُعَنۡهُ).

وكان من فضائله أن انتفع به أقوامٌ فاعتزلوا الفتنة والقتال بين المسلمين، وكان هو مقدمُّهم، وانتفع به أناس في العلم والتعلم والعمل، وكان هو قدوتهم، وتحقق فيه قول النّبيّ صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ: **"إِنَّكَ لَنْ تُخَلَّفَ فَتَعْمَلَ عَمَلًا صَالِحًا إِلَّا ازْدَدْتَ بِهِ دَرَجَةً وَرِفْعَةً، ثُمَّ لَعَلَّكَ أَنْ تُخَلَّفَ حتّى يَنْتَفِعَ بِكَ أَقْوَامٌ، وَيُضَرَّ بِكَ آخَرُونَ، اللَّهُمَّ أَمْضِ لِأَصْحَابِي هِجْرَتَهُمْ، وَلاَ تَرُدَّهُمْ عَلَى أَعْقَابِهِمْ"** [رواه البخاري].

رابعًا: وفاته: تأخر وفاته فكان آخر العشرة المبشرين بالجنّة وفاةً، توفي في قصره بالعقيق قرب المدينة، وحمل إليها، ودفن بالبقيع، وذلك سنة ستٍّ وخمسين من الهجرة.

عَنْ مُصْعَبِ بن سعد أنه قال: (كان رأسي أَبِي فِي حِجْرِي، وَهُوَ يَقْضِي. فَبَكَيْتُ، فَرَفَعَ رَأْسَهُ إِلَيَّ، فَقَالَ: أَيْ بُنيِ مَا يُبْكِيكَ؟ قلت: لِمَكَانِكَ وَمَا أَرَى بِكَ. قال: لا تَبْكِ فَإِنَّ الله لا يُعَذِّبُنِي أَبَدًا، وإِنِّي مِن أهل الجنّة [أخرجه ابن سعد في الطبقات]، صدق والله فهنيئًا له الجنّة، وختم الله بالصالحات أعمالنا، وألحقنا بهم على خيرٍ.

وكُفِّن في جُبَّةِ صوفٍ؛ كما وصَّى، وقال: (لقيت المشركين فيها يوم بدرٍ، وإنما خبأتها لهذا اليوم) [رواه الحاكم].

وكان عُمُره يوم وفاته اثنتين وثمانين سنة؛ فرضي الله عنه، وعن الصحابة

أجمعين، وكان حقُّه أن يؤَخَّرَ في الذِّكْرِ؛ لأمرين:

الأمر الأوّل: أنه آخر العشرة المبشرين بالجنّة وفاةً.

الأمر الثّاني: أنَّه ذُكِرَ في حديث العشرة المبشرين بالجنّة تاسعًا.

وإنّما قدمنا ترجمته، وما يتعلق بشيءٍ من سيرته، تبعًا لما ذكره الإمام الطّحاويّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

ثم ذكر ثامِنَ العشرة المبشرين بالجنّة، وهو **"سعيد"** رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ، وهذه نبذة مختصرة عنه:

أولًا: **اسمه ونسبه**: سعيد بن زيد بن عمرو بن نفيل العدوي القرشي، ابن عمِّ عمرَ بن الخطاب، وزوج أخته فاطمة بنت الخطاب.

ثانيًا: **وصفه**: كان رجلًا آدَمَ، طويلًا، أشعر.

ثالثًا: **نبذة من أخلاقه وفضائله**: كان والده زيد بن عمرو بن نفيل العدوي ممن فرَّ من عبادة الأصنام، وكان على ملة إبراهيم، وقد مات قبل البعثة، وربَّى ابنه على كُرْهِ الأصنام، والأوثان، وترك وأد البناتِ، والذبح بتسمية اسم الله تعالى دون الأوثان، وكان لا يأكل مما ذبح على النصب، ولهذا كان من السابقين إلى الإسلام، وضُرِب له سهمٌ في البدريين، ومن الذين رضي الله عنهم ورضوا عنه، وشهد المشاهد مع رسولِ الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ، وشهد حصار دمشق في خلافة أبي بكرٍ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ وفتحها؛ فولّاه عليها أبو عبيدة بن الجراح؛ فهو أول أميرٍ من هذه الأمة على دمشق.

عَنْ قَيْسٍ قَالَ: سَمِعْتُ سَعِيدَ بْنَ زَيْدِ بْنِ عَمْرِو بْنِ نُفَيْلٍ، فِي مَسْجِدِ الكُوفَةِ يَقُولُ: "وَاللهِ لَقَدْ رَأَيْتُنِي، وَإِنَّ عُمَرَ لَمُوثِقِي عَلَى الإِسْلاَمِ، قَبْلَ أَنْ يُسْلِمَ عُمَرُ، وَلَوْ أَنَّ أُحُدًا ارْفَضَّ لِلَّذِي صَنَعْتُمْ بِعُثْمَانَ لَكَانَ" [رواه البخاري]. أي حقيقًا بالارفضاض، وأن يرفض.

وعن رياح بن الحارث قال: إن المغيرة كان في المسجد الأكبر، وعنده أهل الكوفة، فجاء رجل من أهل الكوفة، فاستقبل المغيرة، فسَبَّ وسَبَّ -أي انتقص-.

فقال سعيد بن زيد: مَن يَسُبُّ هذا يا مغيرة؟

قال: يَسُبُّ عليَّ بْنَ أبي طالب.

قال: يا مغيرُ بْنُ شُعَيْبٍ، يا مُغِيرُ بن شعيب! ألا تسمع أصحاب رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يُسَبُّون عندك ولا تُنْكِر ولا تُغَيِّر؟ فأنَا أشهدُ على رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بما سِمَعَتْ أُذُنَاي، ووعاهُ قلبي من رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ فإنِّي لم أكن أروي عنه كذبًا، إنه قال: "**أبو بكرٍ في الجنّة، وعمرُ في الجنّة، وعليٌّ في الجنّة، وعثمانُ في الجنّة، وطلحة في الجنّة، والزُّبيرُ في الجنّة، وعبدُ الرحمن في الجنّة، وسعد بنُ مالك في الجنّة**"، وتاسع المؤمنين في الجنّة، ولو شئتُ أنْ أُسَمِّيهِ لَسَمَّيْتُه.

فضج أهل المسجد يناشدونه: يا صاحب رسول الله! من التاسع؟

قال: ناشدتموني بالله، واللهُ عظيمٌ، أنا هو، والعاشِرُ رسولُ الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، والله لَمَشْهَدُ شَهِدَهُ رجلٌ مَعَ رسولِ الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أفضلُ مِن عملِ أحدِكُم، ولو عُمِّرَ ما عُمِّرَ نوحٌ. [رواه أبو داود، وابن ماجه، والنسائي في الكبرى، وهو في مسند أحمد].

عن عُرْوَةَ بن الزُّبَيرِ: أَنَّ أَرْوَى بِنْتَ أُوَيْسٍ، ادَّعَتْ عَلَى سَعِيدِ بْنِ زَيْدٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أَنَّهُ أَخَذَ شَيْئًا مِنْ أَرْضِهَا، فَخَاصَمَتْهُ إِلَى مَرْوَانَ بْنِ الْحَكَمِ، فَقَالَ سَعِيدٌ: أَنَا كُنْتُ آخُذُ مِنْ أَرْضِهَا شَيْئًا بَعْدَ الّذي سَمِعْتُ مِنْ رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قَالَ: وَمَا سَمِعْتَ مِنْ رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؟ قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، يَقُولُ: "**مَنْ أَخَذَ شِبْرًا مِنَ الْأَرْضِ ظُلْمًا، طُوِّقَهُ إِلَى سَبْعِ أَرَضِين**"؛ فَقَالَ لَهُ مَرْوَانُ: لَا أَسْأَلُك بَيِّنَةً بَعْدَ هَذَا، فَقَالَ: "اللهُمَّ، إِنْ كَانَتْ كَاذِبَةً فَعَمِّ بَصَرَهَا، وَاقْتُلْهَا فِي أَرْضِهَا"، قَالَ: "فَمَا مَاتَتْ حتّى ذَهَبَ بَصَرُهَا، ثُمَّ بَيْنَا هِيَ تَمْشِي فِي أَرْضِهَا، إِذْ وَقَعَتْ فِي حُفْرَةٍ فَمَاتَتْ. [رواه مسلم].

وَكان في رتبة أهلِ الشورى في السابقة والجلالة، وإنما تركه عمر رَضِيَ اللهُ عَنْهُ لئلا يبقى له فيه شائبةُ حَظٍّ؛ لأنه خَتَنُهُ وابنُ عمِّه، ولو ذكره في أهل الشورى لقال مُدّعٍ: حابى ابنَ عمِّه. فلذلك أخرج منها ولده وعصبته؛ فكذلك فليكن العمل لله تعالى.

رابعًا: وفاته: عَنْ نَافِعٍ، أَنَّ ابْنَ عُمَرَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا، ذُكِرَ لَهُ: أَنَّ سَعِيدَ بْنَ زَيْدِ بْنِ عَمْرِو بْنِ نُفَيْلٍ، وَكَانَ بَدْرِيًّا، مَرِضَ فِي يَوْمِ جُمُعَةٍ، فَرَكِبَ إِلَيْهِ بَعْدَ أَنْ تَعَالَى

النَّهَارُ، وَاقْتَرَبَتِ الجُمُعَةُ، وَتَرَكَ الجُمُعَةَ [رواه البخاري].

وكان وفاة سعيد بن زيد بالعقيق، فغَسَّلَهُ سعد بن أبي وقاص، وعبد الله بن عمرَ، وحنّطه بالمسك، وكفنّاه، وخرّجا معه.

وكانت وفاته سنة إحدى وخمسين، وهو ابن بضعٍ وسبعين سنة، وقُبِرَ بالبقيع، ونزل في قبره سعدٌ وابن عمرَ.

ثم ذكر المصنّف رَحِمَهُ ٱللَّهُ **بترتيبه تاسعَ العشرة المبشرين بالجنّة**، وهو **"عبد الرحمن بن عوفٍ"** رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، وهذه نبذة مختصرة عنه:

أولًا: اسمه ونسبه: هو الصحابي الجليل عبدُ الرحمن بنُ عوفٍ بنِ عبدِ عوف الزهري القرشي.

وأمُّه هي: الشِّفاء بنت عوف بن عبد بن الحارث بن زهرة.

وكنيته أبو مُحَمَّدٍ، وكان اسمه في الجاهلية: عبدُ عمروٍ؛ فسماه النّبيّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عبدَالرحمن [رواه الحاكم، واسمه في البخاري عبْدُ عمروٍ؛ فتسمى في الإسلام بعبد الرحمن].

وُلِدَ بعد عام الفيل بعشر سنين.

ثانيًا: وصفه: وكان طويلا، حسن الوجه، مشرب حمرة، أعينَ، أهدب الأشفار، أقنى، طويل النابين الأعليين، أعنق، ضخم الكتفين، رقيق البشرة، لا يغير شيبه.

وكان ساقط الثنيتين، أهتم، أعسر، أعرج، أصيب يوم أحد فهُتِمَ، وجُرِحَ

عشرين جراحة، بعضها في رجله فعُرِجَ.

ثالثًا: نبذة من أخلاقه وفضائله: هو أحدُ السابقين إلى الإسلام، وأحدُ الثمانية الذين بادروا إلى التوحيد، وممن هاجر الهجرتين، وشهد بدرًا وما بعدها.

واختُصَّ بمنقبة عظيمة حيث صلَّى النّبيّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وراءَهُ، وكان قد أمَّ الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ لما خشوا فوات الوقت، وتأخر النّبيّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وجاء رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وأمره أن يكمل الصلاة؛ فكملها [رواه مسلم].

ولما هاجر إلى المدينة كان مُعْدَمًا لا مال له، فآخى رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بينه وبين سعد بن الربيع، أحد النقباء، فعرض عليه أن يشاطره ماله، وأن يطلق له أحسن زوجتيه.

فقال له: بارك الله لك في أهلك ومالك، ولكن دلني على السوق، فذهب، فباع واشترى، وربح، ثم لم ينشب أن صار معه دراهم، فتزوج امرأة على زنة نواة من ذهب.

فقال له النّبيّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وقد رأى عليه أثرًا من صفرة: **"أولم ولو بشاة"** [رواه البخاري، وهذا لفظه، ورواه بنحوه مسلم].

ثم آل أمره في التجارة إلى ما آل إليه حتّى كان من أغنى أغنياء المدينة، وكان عظيم الصدقة، كثيرَ الإنفاق، مُكرِمًا للضيف، معطيًا في النوائب، مطعما المساكين.

وعَنْ أَبِي سَعِيدٍ الخُدْرِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: كَانَ بَيْنَ خَالِدِ بْنِ الْوَلِيدِ، وَبَيْنَ عَبْدِ

الرَّحْمَنِ بْنِ عَوْفٍ شَيْءٌ، فَسَبَّهُ خَالِدٌ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **"لَا تَسُبُّوا أَحَدًا مِنْ أَصْحَابِي، فَإِنَّ أَحَدَكُمْ لَوْ أَنْفَقَ مِثْلَ أُحُدٍ ذَهَبًا، مَا أَدْرَكَ مُدَّ أَحَدِهِمْ، وَلَا نَصِيفَهُ"** [رواه مسلم].

ومِن أفضل أعمال عبد الرحمن بن عوفٍ عَزْلَهُ نَفْسَهُ مِن الأَمْرِ وَقْتَ الشورى، مما يدل على زهده في الدّنيا، وعدم رغبته في الخلافة والإمرة، واختار للأمة مَن أشار به أهلُ الحل والعقد، فنهض في ذلك أتم نهوض على جمع الأمة على عثمان، ولو كان محابيًا فيها لأخذها لنفسه، أو لولّاها ابنَ عَمِّه، وأقرب الجماعة إليه، سعد بن أبي وقاص رَضِيَ اللهُ عَنْهُ.

وكان يُفتِي في زمن النّبيّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ومما يدل على ذلك إمامته بالصحابة في حياة النّبيّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ووجوده.

وكان متواضعًا لا يُعرَف من بين عبيدِه، لا يتمايز عنهم بأكلٍ ولا بلبسٍ، وجعل ألف فرسٍ في سبيل الله تعالى.

رابعًا: وفاته: توفي سنة اثنتين وثلاثين في خلافة عثمان، ودفن بالبقيع، وعاش خمسا وسبعين سنة.

ويوم أن مات قال علي رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: (اذهب يا ابن عوف، فقد أدركت صَفْوَها، وسبقت رَنَقَها) [أخرجه الطبراني في الكبير].

ثم ذكر المصنّف رَحِمَهُ اللهُ **بترتيبه** عاشرَ العشرة المبشرين بالجنّة، وهو **"أبو عبيدة ابن الجراح"** رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، وإنما ذكرناه أيضًا عاشرَ العشرة المبشرين بالجنّة

تبعًا للإمام الطّحاويّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ، وإلّا فإنّ حقّه أن يذكرُ خامسُهم، وذلك لسببين؛

السّبب الأوّل: أنّه قديم الوفاة؛ فقد تُوُفِّيَ في زمن خلافة عمرَ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ، وكان حقه التقديم على بقية العشرة عدا الخلفاء الراشدين ن.

السّبب الثّاني: أنّه رَشَّحه للخلافةِ أبو بكرٍ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ يوم السقيفة، وأخبرَ عمرُ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ أنه لو كان حيًّا لولّاه، بلا تردُّدٍ؛ فعلمنا أحقيته في التقديم.

ولعل عذر الإمام الطّحاويّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ في التأخير هو كونه ذكرَ له وصفًا دون بقية الستة المبشرين بالجنّة، ولهذا أخره، والله تعالى أعلم.

وهذه نبذة مختصرة عن أبي عبيدة بن الجراح رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ:

أولًا: **اسمه ونسبه**: هو عامر بن عبد الله بن الجراح بن هلال بن أهيب بن ضبة بن الحارث بن فهر بن مالك القرشي.

يجتمع نسبه مع النّبيّ صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ في فهرٍ.

كنيته: أبو عبيدة.

ثانيًا: **وصفه**: كان رجلًا نحيفًا، مَعْرُوقَ الوجه، خفيفَ اللحية، طِوالًا، أحنى، أثرم الثنيتين، وكان يخضب بالحناء والكتم، وكان له عقيصتان.

ثالثًا: **نبذة من أخلاقه وفضائله**: أحد السابقين الأولين إلى الإسلام، وهو الّذي عزم الصديق على توليته الخلافة في دار السقيفة فأبى التقدم على أبي بكر، وما كان إشارة الصديق إليه إلا لكمال أهليته، وفضل سبقه، وعلوِّ درجته، ومقاربته إياه، ولو كان حيًّا لولّاهُ عمرُ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ بلا تردُّدٍ؛ فهو من السابقين إلى الإسلام،

ومِمن دخل الإسلام بلا تردُّدٍ، وقد هاجَرَ إلى أرض الحبشة، ثم رجع إلى مكَّة، وكان ممن جمع القرآن العظيم.

وشهد بدرًا، وكان فيه أسدًا مِغوَارًا، حتّى إنّه تصدَّى لأبيه، وقيلَ قَتلَه يوم بدرٍ، وأبلى بلاءً عظيمًا يوم أحدٍ، وقد أرسله النّبيّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في عدة سرايا، وجعله أميرًا، وكان تحته في بعض سراياه أبو بكرٍ وعمر ن.

وكان أبو عبيدة رأس الإسلام في وقعة اليرموك، وكان أميرًا على أجناد الشام، وولاه عمرُ الشام كلها، حتّى وفاته رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

"وهو أمين هذه الأمة"، أي أنّ أبا عبيدة عامرَ بن الجراح رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ خُصّ بهذا الوصف، وهو كونه **"أمين هذه الأمة"**، و(الأمينُ) وصفٌ من (الأَمْنِ)، ويُطلقُ هذا الوصفِ لعدةِ معاني، ومنها: كونه حافظًا لا يُخِلُّ بعمله، وكونه لا يخونُ ما استؤمِنَ عليه، وكونُه لا يغدرُ بعهدٍ، ولا يتأخرُ عن وعدٍ، وهو واثِقٌ في نفسه؛ وكونه محاسبًا نفسه؛ فهذا كلُّه بناءً على أن **"أمين"** فعيلٌ بمعنى فاعِل.

وقد يأتي **"أمينٌ"** بمعنى مفعولٌ مِن الأمنِ، ومعناه حينئذٍ أنه مَوْثُوقٌ يَثِقُ به النّاس على الإطلاقِ، وأيضًا بمعنى مأمونٌ على الشيءِ، ومأمونٌ من العذابِ.

وهذه المعاني كلها حقٌّ في حقِّ أبي عبيدةَ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ؛ فهو أمينٌ على الإطلاقِ، من حيث الدلالة الفاعلية، ومن حيث الدلالة المفعولية، ومما يؤكد هذا المعنى أن النّبيّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أطلق كونه أمينَ هذه الأمة؛ فدلّ إطلاقه صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ على العموم في معنى الأمين.

وكونه "**أمينُ هذه الأمة**"، الإشارة إلى أمة الاستجابَة؛ فهو أمينُ أهل الإسلام، وأمينُ الصحابة المهاجرين والأنصار ن، وهو أمينٌ يكونُ إمامًا لكلِّ أمينٍ في هذه الأمّة، ولهذا جاء في بعض الروايات أنه "**أمينٌ حقٌّ أمينٌ**" أي صدقًا، ثابتًا له الأمانة، وبدا ذلك في قوله، وظهر في عمله، ونقش في قلبه.

والصحابة ن كلُّهُم أمناء، ولكن خُصَّ أبو عبيدة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ بهذا الوصفِ؛ بشهادة رسولِ الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ على وجه الخصوصِ؛ فهو إمامٌ في كونه أمينًا، مُقَدَّمٌ على كلّ أمينٍ، وقدوة لكل أمينٍ، وقد جاء هذا في عدة أحاديث صحيحة، ومنها حديثُ أَنَسٍ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ: أَنَّ أَهْلَ الْيَمَنِ قَدِمُوا عَلَى رَسُولِ اللهِ صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ فَقَالُوا: ابْعَثْ مَعَنَا رَجُلًا يُعَلِّمْنَا السُّنَّةَ وَالإِسْلَامَ. قَالَ: فَأَخَذَ بِيَدِ أَبِي عُبَيْدَةَ فقَالَ: "**هَذَا أَمِينُ هَذِهِ الْأُمَّةِ**" [رواه مسلم].

وفي [رواية البخاري]: "**لِكُلِّ أُمَّةٍ أَمِينٌ، وَأَمِينُ هَذِهِ الأُمَّةِ أَبُو عُبَيْدَةَ بْنُ الجَرَّاحِ**".

وفي حديث حُذَيْفَةَ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ قَالَ: جَاءَ أَهْلُ نَجْرَانَ إِلَى رَسُولِ اللهِ صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ فَقَالُوا: يَا رَسُولَ اللهِ ابْعَثْ إِلَيْنَا رَجُلًا أَمِينًا فَقَالَ: "**لَأَبْعَثَنَّ إِلَيْكُمْ رَجُلًا أَمِينًا، حَقَّ أَمِينٍ، حَقَّ أَمِينٍ**"، قَالَ فَاسْتَشْرَفَ لَهَا النَّاس. قَالَ: فَبَعَثَ أَبَا عُبَيْدَةَ بْنَ الْجَرَّاحِ. [رواه البخاري ومسلم].

ومن مناقبه أنّ النّبيّ صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ شهد له بالجنّة، كما في حديث أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ أَنَّ رَسُولَ اللهِ صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ قَالَ: "**أَرْحَمُ أُمَّتِي بِأُمَّتِي أَبُو بَكْرٍ، وَأَشَدُّهُمْ فِي دِينِ اللهِ عُمَرُ، وَأَصْدَقُهُمْ حَيَاءً عُثْمَانُ، وَأَقْضَاهُمْ عَلِيُّ بْنُ أَبِي**

طَالِبٍ، وَأَقْرَؤُهُمْ لِكِتَابِ اللهِ أُبَيُّ بْنُ كَعْبٍ، وَأَعْلَمُهُمْ بِالْحَلَالِ وَالْحَرَامِ مُعَاذُ بْنُ جَبَلٍ، وَأَفْرَضُهُمْ زَيْدُ بْنُ ثَابِتٍ، أَلَا وَإِنَّ لِكُلِّ أُمَّةٍ أَمِينًا وَأَمِينُ هَذِهِ الْأُمَّةِ أَبُو عُبَيْدَةَ بْنُ الْجَرَّاحِ" [رواه ابن ماجه وهذا لفظه، والترمذي، وقال: حسن صحيح].

وله فضائل عظيمة، وكثيرة، ومنها أنه كان مِن أحب النّاس إلى رسولِ الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ فعَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ شَقِيقٍ، قَالَ: قُلْتُ لِعَائِشَةَ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهَا: أَيُّ أَصْحَابِ رَسُولِ اللهِ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كَانَ أَحَبَّ إِلَى رَسُولِ اللهِ؟ قَالَتْ: أَبُو بَكْرٍ، قُلْتُ: ثُمَّ مَنْ؟ قَالَتْ: عُمَرُ، قُلْتُ: ثُمَّ مَنْ؟ قَالَتْ: ثُمَّ أَبُو عُبَيْدَةَ بْنُ الجَرَّاحِ، قُلْتُ: ثُمَّ مَنْ؟ قَالَ: فَسَكَتَتْ) [رواه الترمذي، وقال: حسن صحيح].

ومناقبه شهيرةٌ وجَمَّةٌ؛ فقد كان موصوفًا بِحُسْنِ الْخُلُقِ، وبالحلم الفائق، والتواضع الجمّ، ولا يكاد يوقفُ له على هنة، حتّى قال عمرُ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ: (لكني أتمنّى بيتًا مملوءًا رِجالًا مثل أبي عبيدة بن الجراح) [رواه الحاكم في مستدركه].

وَوَلِيَ أبو عبيدةَ بيت المالِ لأبي بكرٍ ب، ثم أمَّرَه على سرية نحوَ الشَّام، ولما ولي عمرُ الخلافة استخلفه على الشَّامِ، ونزع الإمرة من يدِ خالد بن الوليد؛ فصالح أهل الشام على أنصاف كنائسهم، ومنازلهم.

ولما قدِمَ عمرُ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ الشام أتى بيت أبي عبيدة وهو أمير الشام؛ فلم يجد في بيته شيئًا؛ فبكى عمرُ على حاله، وقال: غيرتنا الدّنيا كلّنا، غيرك يا أبا عبيدة. [سير أعلام النبلاء].

ومن أقواله العجيبة: ألا رُبَّ مُبِيِّضٍ لثيابه، مُدَنِّسٍ لدينه! ألا رب مكرم لنفسه

وهو لها مهين! بادروا السيئات القديمات بالحسنات الحديثات. [مصنف ابن أبي شيبة].

وقال: يا أيها النّاس! إني امرؤ من قريش، وما منكم من أحمر ولا أسود يفضلني بتقوى، إلا وَدِدْتُ أنّي في مِسْلاَخِه. [طبقات ابن سعد].

رابعًا: استشهاده ووفاته: كان أبو عبيدة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ أميرًا على الشّام، وقد وقع فيها الطّاعون؛ فخافَ عمرُ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ عليه؛ فأراد أن يُقْدِمَه المدينة حتّى يُبْعِدَه عن الوباء؛ فكتب إليه قائلًا: إنّه قد عرضت لي حاجة، ولا غنى بي عنك فيها، فعجِّلْ إليّ.

فلمّا قرأ الكتاب، قال: عرفتُ حاجة أمير المؤمنين، إنّه يريدُ أن يَسْتَبْقِي مَنْ ليسَ بباقٍ.

فكتب: إنّي قد عرفتُ حاجتك، فحلِّلْني مِن عزيمتك، فإنّي في جندٍ مِن أجناد المسلمين، لا أرغب بنفسي عنهم.

فلما قرأ عمرُ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ الكتاب، بكى، فقيل له: مات أبو عبيدة؟ قال: لا، وكأنْ قدْ) [أخرجه الحاكم في مستدركه].

وعن الحارث بن عميرة، قال: أخذ بيدي معاذ بن جبل، فأرسله إلى أبي عبيدة، فسأله: كيف هو! وقد طُعِنَا؟ -أي أصيبا بالطاعون، وظهر أثر الطاعون في بدنهما-؛ فأراه أبو عبيدة طَعْنَةً خرجتْ في كَفِّه، فتكاثرَ شأنُها في نفسِ الحارِثِ،

وفَرِقَ منها حين رآها؛ فأقسم أبو عبيدة بالله: ما يحب أنّ له مكانها حُمْر النّعم. [أخرجه الطبراني في الكبير، والحاكم في مستدركه].

وفي رواية عن عروة: فخرجت بأبي عبيدة، في خنصره بَثْرَةٌ، فجعل ينظر إليها، فقيل له: إنها ليست بشيء.

فقال: أرجو أن يبارك الله فيها، فإنّه إذا بارك في القليل، كان كثيرًا. [سير أعلام النبلاء].

وازداد أثر الطاعون فيه فَتُوُفِّي أبو عبيدة، وأدركه أجله بمنطقة يقال لها (فَحْل) قرب بيسان، وكان وفاته سنة ثمانِ عْشْرَةَ، وله ثمانٌ وخمسون سنة؛ فرضي الله تعالى عنه، وعن إخوانه العشرة المبشرين بالجنّة.

و"**رضي الله عنهم أجمعين**"؛ أي رضي الله تعالى عن الصحابة أجمعين، وهذا تعميمٌ بعد تخصيص؛ فقد ذكر أخص المرضيين عنهم وهم الخلفاء الأربعة الراشدون، ثم خصوص المرضي عنهم وهم بقية العشرة المبشرين بالجنّة، ثم عمَّم في الترضي عن الصحابة رَضِيَٱللَّهُعَنهُ، وهذا من الإمام الطّحاويّ رَحِمَهُٱللَّهُ اتباعٌ للنصوصِ؛ فإنها جاءت ببيان الأخص، ثم الخصوص، ثم العموم.

وهكذا يجب على المسلم في حق الصحابة ن، أن يشهد لهم على سبيل الأخص، والخصوص، والعموم، وأن يترضى عنهم على سبيل الأخص، والخصوص، والعموم.

فكل من جاء في حقه نصٌّ خاصٌّ؛ فتجب له الشهادة على وجه خاص، وأن

يترضى عنه على وجه خاصٍّ، وكلّ من جاء في حقه نصٌّ عام؛ فيجب أن يشهد له بالعمومِ؛ فيقال: أبو بكرٍ في الجنّة، والعشرة مبشرون بالجنّة، والصحابة ن كلهم مبشرون بالجنّة.

والترضِّي عن الصحابة ن كلِّهم مِن سِمات وعلامات أهل السنة والجماعة؛ فمتى ما تيقنا ثبوت الصحبة لأحدٍ ممن عاصرَ النّبيّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فإنا نترضى عنه وعنهم؛ فإنَّ أهلَ السنة والجماعة يرون وجوب اعتقاد التَّرضي عنهم أجمعين، واعتقاد أنهم مرضيون عند الله تعالى أجمعين، وذلك يَرْجِعُ إلى عدة أمورٍ منها:

الأمر الأوّل: أن الله تعالى أخبر عن رضاه عنهم؛ فكان حقًّا علينا أن نخبر عن رضا الله تعالى عنهم، وأن نعتقد أن الله تعالى رضي عنهم؛ كما أخبر في قوله تعالى: ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ مِنَ ٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحْسَٰنٍ رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى تَحْتَهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾ [سورة التوبة، من الآية:١٠٠]، وقوله سبحانه: ﴿لَّقَدْ رَضِىَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِى قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَٰبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا﴾ [سورة الفتح، من الآية:١٨]، وقوله جَلَّ وَعَلَا: ﴿لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَوْ كَانُوٓا۟ ءَابَآءَهُمْ أَوْ أَبْنَآءَهُمْ أَوْ إِخْوَٰنَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ كَتَبَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْإِيمَٰنَ

﴿وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُۖ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُۚ أُو۟لَٰٓئِكَ حِزْبُ ٱللَّهِۚ أَلَآ إِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ [سورة المجادلة، من الآية:٢٢].

الأمر الثّاني: أنَّ الله تعالى أخبر أن أصحاب النّبيّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مثنيٌّ عليهم من الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ في الكتب المتقدمة؛ فقال تعالى: ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْۖ تَرَىٰهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًاۖ سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ ٱلسُّجُودِۚ ذَٰلِكَ مَثَلُهُمْ فِي ٱلتَّوْرَىٰةِۚ وَمَثَلُهُمْ فِي ٱلْإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْـَٔهُۥ فَـَٔازَرَهُۥ فَٱسْتَغْلَظَ فَٱسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِۦ يُعْجِبُ ٱلزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ ٱلْكُفَّارَۗ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِنْهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا﴾ [سورة الفتح، من الآية:٢٩]، وما دام أن الله تعالى قد أثنى عليهم في التوراة، والإنجيل، بهذا الوصف البليغ، وأخبر عن رضاه عنهم في القرآن العظيم؛ فلا بد إذا أن يكونوا مرضيين عند الله تعالى؛ فوجب اعتقاد ذلك، والثناءُ عليهم بذلك.

الأمر الثّالث: أن الله تعالى وعدهم الجنّة في آيات كثيرة، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿فَٱلَّذِينَ هَاجَرُوا۟ وَأُخْرِجُوا۟ مِن دِيَٰرِهِمْ وَأُوذُوا۟ فِي سَبِيلِي وَقَٰتَلُوا۟ وَقُتِلُوا۟ لَأُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ وَلَأُدْخِلَنَّهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ثَوَابًا مِّنْ عِندِ ٱللَّهِۚ وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسْنُ ٱلثَّوَابِ﴾ [سورة آل عمران، من الآية:١٩٥]، وقوله سبحانه: ﴿لَٰكِنِ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ جَٰهَدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ

ٱلْخَيْرَٰتُ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٨٨﴾ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾ [سورة التوبة، من الآية:٨٨-٨٩]، وقوله جَلَّ وَعَلَا: ﴿وَيُدْخِلَكُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ يَوْمَ لَا يُخْزِى ٱللَّهُ ٱلنَّبِىَّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ ۖ نُورُهُمْ يَسْعَىٰ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَٰنِهِمْ﴾ [سورة التحريم، من الآية:٨]، ووَعدُ الله لا خلف فيه؛ فعلمنا أنهم كلهم مرضيون عند الله تعالى، ولذلك وعدهم.

الأمر الرّابع: أن الله تعالى أثنى عليهم من حيث العمومِ والخصوصِ؛ فوجب الترضي عنهم من حيث العموم والخصوص، والآيات السابقة جلية في الدلالة على هذا المعنى، ومن ذلك ثناءُ الله تعالى على المهاجرين والأنصار، كما في آخر سورة الأنفال، وسورة الأحزاب، وسورة الفتح، وسورة الحديد، وسورة الحشر، وغيرها من السور، قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱلَّذِينَ هَاجَرُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أُو۟لَٰٓئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ ٱللَّهِ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [سورة البقرة، من الآية:٢١٨]، وقوله سبحانه: ﴿وَٱلَّذِينَ هَاجَرُوا۟ فِى ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا۟ لَنُبَوِّئَنَّهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً ۖ وَلَأَجْرُ ٱلْءَاخِرَةِ أَكْبَرُ ۚ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴿٤١﴾ ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ [سورة النحل، من الآية:٤١-٤٢]، وقوله جَلَّ وَعَلَا: ﴿وَٱلَّذِينَ هَاجَرُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ثُمَّ قُتِلُوٓا۟ أَوْ مَاتُوا۟ لَيَرْزُقَنَّهُمُ ٱللَّهُ رِزْقًا حَسَنًا ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ﴿٥٨﴾ لَيُدْخِلَنَّهُم مُّدْخَلًا يَرْضَوْنَهُۥ ۗ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَعَلِيمٌ

حَلِيمٌ ﴾ [سورة الحج، من الآية:٥٨-٥٩]، وهذا كله في عموم المهاجرين، ويدخل في ضمنها الأنصار؛ لأنهم هجروا ما نهى الله تعالى عنه، وزادوا النصرة لله تعالى، ولرسوله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وإيوائهم الإسلامَ والنّبيّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ والصحابة ن، قال الله تعالى عنهم على وجه الخصوص في الوصفية، والعموم في الأفراد: ﴿لَّقَد تَّابَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلنَّبِيِّ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ فِى سَاعَةِ ٱلْعُسْرَةِ مِنۢ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِّنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ إِنَّهُۥ بِهِمْ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾ [سورة التوبة، من الآية:١١٧]، وقال سبحانه: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَهَاجَرُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ ءَاوَوا۟ وَّنَصَرُوٓا۟ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَّهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴾ [سورة الأنفال، من الآية:٧٤]، وقال جَلَّ وَعَلَا: ﴿وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلْإِيمَٰنَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِى صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّآ أُوتُوا۟ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴾ [سورة الحشر، من الآية:٩].

الأمر الخامس: أن النّبيّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أخبر بعلوِّ منزلتهم، ورفعة شأنهم، وأنَّ من بعدهم لا يدرك شيئًا من مكانتهم، كما في حديث أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **"يَأْتِي عَلَى النّاس زَمَانٌ، يُبْعَثُ مِنْهُمُ الْبَعْثُ فَيَقُولُونَ: انْظُرُوا هَلْ تَجِدُونَ فِيكُمْ أَحَدًا مِنْ أَصْحَابِ النّبيّ** صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ**؟ فَيُوجَدُ الرَّجُلُ، فَيُفْتَحُ لَهُمْ بِهِ، ثُمَّ يُبْعَثُ الْبَعْثُ الثَّانِي فَيَقُولُونَ:**

هَلْ فِيهِمْ مَنْ رَأَى أَصْحَابَ النّبيّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؟ فَيُفْتَحُ لَهُمْ بِهِ، ثُمَّ يُبْعَثُ الْبَعْثُ الثَّالِثُ فَيُقَالُ: انْظُرُوا هَلْ تَرَوْنَ فِيهِمْ مَنْ رَأَى مَنْ رَأَى أَصْحَابَ النّبيّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؟ ثُمَّ يَكُونُ الْبَعْثُ الرَّابِعُ فَيُقَالُ: انْظُرُوا هَلْ تَرَوْنَ فِيهِمْ أَحَدًا رَأَى مَنْ رَأَى أَحَدًا رَأَى أَصْحَابَ النّبيّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؟ فَيُوجَدُ الرَّجُلُ فَيُفْتَحُ لَهُمْ بِهِ" [رواه مسلم].

وكما في حديث عَبْدِ اللهِ بْنِ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَنِ النّبيّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قَالَ: "خَيْرُ النّاس قَرْنِي، ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ، ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُم" [رواه البخاري ومسلم].

وكما في حديث أبي الدرداء رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "هَلْ أَنْتُمْ تَارِكُونَ لِي صَاحِبِي، هَلْ أَنْتُمْ تَارِكُونَ لِي صَاحِبِي، إِنِّي قُلْتُ: يَا أَيُّهَا النّاس، إِنِّي رَسُولُ اللهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا، فَقُلْتُمْ: كَذَبْتَ، وَقَالَ أَبُو بَكْرٍ: صَدَقْتَ" [رواه البخاري].

ولهذا كلّه ينبغي لنا الترضي عنهم حتّى نكون ممن يدخلون تحت عموم قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ جَآءُو مِنۢ بَعۡدِهِمۡ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱغۡفِرۡ لَنَا وَلِإِخۡوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلۡإِيمَٰنِ وَلَا تَجۡعَلۡ فِي قُلُوبِنَا غِلّٗا لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ رَبَّنَآ إِنَّكَ رَءُوفٞ رَّحِيمٌ﴾ [سورة الحشر، من الآية:١٠]؛ فرضي الله تعالى عن الصحابة أجمعين، سواءٌ كانوا من المهاجرين أو من الأنصار، وسواءٌ كانوا ممن أسلم قبل الفتح أو بعده؛ فإنهم جميعًا موعودون من حيث العموم الوصفي بالجنّة، فنحن نعتقد أنهم جميعًا في الجنّة، كما أخبر الله تعالى: ﴿لَا يَسۡتَوِي مِنكُم مَّنۡ أَنفَقَ مِن قَبۡلِ ٱلۡفَتۡحِ وَقَٰتَلَۚ أُوْلَٰٓئِكَ

﴿أَعْظَمُ دَرَجَةً مِّنَ ٱلَّذِينَ أَنفَقُواْ مِنۢ بَعْدُ وَقَٰتَلُواْۚ وَكُلًّا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْحُسْنَىٰۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ [سورة الحديد، من الآية:١٠]، والحسنى هي الجنّة باتفاق المفسرين.

و"**رضي الله عنهم أجمعين**" خَبَرٌ من المصنّف رَحِمَهُ ٱللَّهُ، وفيه الدلالة على أمرين:

الأمر الأوّل: أن الله تعالى رضي عن الصحابة أجمعين؛ فيجب اعتقاد هذا المعنى.

الأمر الثّاني: الدَّعوة إلى الترضي عن الصحابة ن، وأن ذلك من المندوبات، والطاعات؛ لأنه في قول القائلِ خبرٌ بمعنى الطلبِ؛ فهو يقول: إنك رضيت عنه، أو عنهما، أوعنها، أو عنهم، أو عنهن، وأنا أطلب منك ذلك، وأن تزيد في رضاك عنه، أو عنهما، أو عنها، أو عنهم، أو عنهن.

و "**رَضِيَ**" فعلٌ ماضٍ من الرِّضا، ومن لوازمه المحبة، والاختيار، والاجتباء، والقبول، ومنه قول الله تعالى: ﴿وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا﴾ [سورة المائدة، من الآية:٣]، وهو عكسُ الغضب والسُّخطِ، وإذا أضيفَ هذا الفعلُ إلى الله تعالى فهو من باب الخبر عن صفاته، والله تعالى يرضى ويغضب لا كأحدٍ من الورى؛ كما سبق من كلام الإمام الطّحاويّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ، والرضا والسخط من الصّفات الفعلية لله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ؛ فهو سبحانه إذا أخبر أنه رضيَ عن قومٍ فإنه يجب أن نعتقد أنه راضٍ عنهم، وأن نتبعه تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ في ذلك فنرضى عنهم، ولذلك نترضى عن الصحابة رضي الله عنهم أجمعين.

وقوله "**أجمعين**" مؤكِّدٌ للضمير في قوله "**عنهم**"، وذلك أن رضى الله تعالى كان عن الصحابة أجمعين، المهاجرين منهم والأنصار، السابقين منهم واللاحقين، ولا يُقاسُ بهم أحدٌ؛ فنيلهم رضى الله تعالى إنما هو من جهتين؛ فهم نالوا رضا الله تعالى من حيث العموم في الصّحبة؛ فكل صحابي فهو مرضي عنه، ونالوا رضا الله تعالى من حيث الأعم؛ فكل مؤمن فالله تعالى راضٍ عنه، ونالوا رضا الله تعالى من حيث الخصوص؛ فكل من شهد بيعة الرضوان فهو مرضيٌّ عنه، وكلّ من شهد بدرًا فهو مرضي عنه، ونالوا رضا الله تعالى من حيث الأخصّ؛ فكل واحدٍ من الصحابة ن فيه من الصّفات الخاصة الّتي بها نال رضا الله تعالى.

و "**أجمعين**" اسمٌ مُؤَكِّدٌ يدل على الشمول والعموم الاستغراقي للأفراد؛ ويأتي بمعنى كلّ، وكافّة، ومنه قوله تعالى: ﴿فَسَجَدَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ﴾ [سورة الحجر، من الآية:٣٠]، وكقوله سبحانه: ﴿وَأَنجَيْنَا مُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓ أَجْمَعِينَ﴾ [سورة الشعراء، من الآية:٦٥].

وأهل السنة يترضون عم جميع الصحابة ن، بخلافِ الخوارجِ، والروافضِ؛ فإن كلا من الطائفتين لا تترضى عن بعض الصحابةِ، ولا يترضون عن بعضهم؛ فالخوارج يرون كفر وضلال عثمان وعلي ب، والروافض يرون كفر وضلال الخلفاء الراشدين الثلاثة عدا علي ن.

وأما أهل السنة والجماعة فإنهم امتثلوا خبر الله تعالى، ورضوا عن الصحابة ن

أجمعين، وبذلك بَرؤوا من نوعٍ من أنواعِ النفاق؛ فإن مِن النفاق الطعنُ في أصحاب النّبيّ صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ وتلامذته، والمتعلمين بين يديه.

ولهذا جاء عن رِيَاحِ بْنِ الْجَرَّاحِ الْمَوْصِلِيِّ، قَالَ: سَمِعْتُ رَجُلًا سَأَلَ الْمُعَافَى بْنَ عِمْرَانَ، فَقَالَ: يَا أَبَا مَسْعُودٍ أَيْنَ عُمَرُ بْنُ عَبْدِ الْعَزِيزِ مِنْ مُعَاوِيَةَ بْنِ أَبِي سُفْيَانَ؟ فَغَضِبَ مِنْ ذَلِكَ غَضَبًا شَدِيدًا، وَقَالَ: لَا يُقَاسُ بِأَصْحَابِ رَسُولِ اللهِ صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ أَحَدٌ، مُعَاوِيَةُ صَاحِبُهُ، وَصِهْرُهُ، وَكَاتِبُهُ، وَأَمِينُهُ عَلَى وَحْيِ اللهِ، وَقَالَ صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ: **"دَعُوا لِي أَصْحَابِي وَأَصْهَارِي، فَمَنْ سَبَّهُمْ فَعَلَيْهِ لَعْنَةُ اللهِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالنّاسِ أَجْمَعِينَ"** [الأثر عند اللالكائي في شرح اعتقاد أهل السنة، والحديث المرفوع منه بهذا اللفظ ضعيف].

وجاءَ عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ مَسْعُودٍ رَضِيَٱللَّهُعَنۡهُ قَالَ: "إِنَّ اللهَ نَظَرَ فِي قُلُوبِ الْعِبَادِ، فَوَجَدَ قَلْبَ مُحَمَّدٍ صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ خَيْرَ قُلُوبِ الْعِبَادِ، فَاصْطَفَاهُ لِنَفْسِهِ، فَابْتَعَثَهُ بِرِسَالَتِهِ، ثُمَّ نَظَرَ فِي قُلُوبِ الْعِبَادِ بَعْدَ قَلْبِ مُحَمَّدٍ صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ، فَوَجَدَ قُلُوبَ أَصْحَابِهِ خَيْرَ قُلُوبِ الْعِبَادِ، فَجَعَلَهُمْ وُزَرَاءَ نَبِيِّهِ، يُقَاتِلُونَ عَلَى دِينِهِ، فَمَا رَأَى الْمُسْلِمُونَ حَسَنًا، فَهُوَ عِنْدَ اللهِ حَسَنٌ، وَمَا رَأَوْا سَيِّئًا فَهُوَ عِنْدَ اللهِ سَيِّئٌ" [رواه أحمدُ، وقال الهيثمي: رجاله مُوَثَّقُون].

فالثناء على الصحابة السادات ن، وعلى عموم الصحابة بأنهم بعد الأنبياء والمرسلين خير البريات، هو من عقيدة السلفِ، ومن عقيدة المتبعين لهم من الخلف.

خلاصة كلام المصنف رَحِمَهُ ٱللَّهُ: وجوب محبة الصحابة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ من حيث العموم، ومن حيث كونهم أصل الإسلام، ومعدنه، وعلى يديهم انتشر، ووجوب الشهادة لأعيانهم بالجنة إذا شهد لأعيانهم رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ كشهادته للعشرة المبشرين بالجنة؛ فإن الشهادة لهم واجبة.

[من أسباب البراءة من النفاق]

وَمَنْ أَحْسَنَ الْقَوْلَ فِي أَصْحَابِ رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَأَزْوَاجِهِ الطَّاهِرَاتِ، وَذُرِّيَّاتِهِ الْمُقَدَّسِينَ مِنْ كُلِّ رِجْسٍ؛ فَهُوَ عَلَى السَّبِيلِ فَقَدْ بَرِئَ مِنَ النِّفَاقِ.

وَعُلَمَاءُ السَّلَفِ -مِنَ السَّابِقِينَ، وَالتَّابِعِينَ، وَمَنْ بَعْدَهُمْ، مِنْ أَهْلِ الْخَبَرِ وَالْأَثَرِ، وَأَهْلِ الْفِقْهِ وَالنَّظَرِ- لَا يُذْكَرُونَ إِلَّا بِالْجَمِيلِ، وَمَنْ ذَكَرَهُمْ بِسُوءٍ فَهُوَ عَلَى غَيْرِ السَّبِيلِ.

﴿ الشرح ﴾

هذا تقرير من المصنف رَحِمَهُ اللَّهُ في بيان وجوب إحسان القول في الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ، لا سيما فيما جرى بينهم، ووجوب إحسان القول في زوجاته وآله؛ بل وذكر محسانهم، ومحاسن علماء الإسلام.

قوله: **"ومَن أَحْسَنَ القول في أصحاب رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ"**، أي ومِن علامات البراءة من النفاق، ومن علامات حسن الإسلام، وصحة الاعتقاد، وكمال الإيمان، إحسانُ القول في أصحاب رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

و **"أَحْسَنَ القَوْلَ"** أي أجاده، وجوَّده، وحسَّنه، وقال في أصحاب رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قولًا طيّبًا، ولم يخض فيهم، ولا يخوض فيما جرى بينهم؛ بل يقول عنهم ما قاله الله تعالى عنهم، وما قاله النّبيّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عنهم، وما أجمعت عليه الأمة، ولا يترك الثابت من المديح فيهم في كتاب الله تعالى، وسنة

رسوله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ لأجل رواياتٍ، وظنونٍ، وأهواءَ جرتْ بعدُ.

ومِن إحسان القول في الصحابة رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ: اعتقاد أنهم كلهم في الجنّة، وأنّهم مغفورٌ لهم، وأنّهم كلهم مُشَرَّفُون بالصُّحبة، ومُكَرَّمُون بالرؤية، وأنّهم خيرُ القرون، وأنّ الحسناتِ منهم ليست كالحسنات مِن غيرهم، وأنَّ أسباب المغفرة الـمُهَيَّئَةِ لهم ليست هي كما لغيرهم.

ثم اتباعهم في حُسنِ أعمالهم، وعدم مخالفتهم لما أجمعوا عليه، والسَّير على منهجهم، ونشر أقاويلهم الحكيمة، ومآثرهم الحميدة، وعدمُ التَّعَدّ على أحدٍ منهم بنبزٍ، أو لمزٍ، أو همزٍ؛ بل يعرف لهم مكانتهم العالية، ويقدر لهم سبقهم بالخيرات، ويخص كلّ واحدٍ منهم بما له من السابقة والخير، وأنهم جاهدوا في الله تعالى، وهاجروا، ونصروا.

وأنهم بعد النّبيّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ نشروا الإسلام شرقًا، وغربًا، ولم يجلسوا في بيوتهم، ولا في أوطانهم؛ بل بذلوا الغالي والرخيص لأجل نشر الإسلام والسُّنَّةِ.

وقد أُمِرنا بإحسان القول فيهم، وذلك شرطٌ في الدخول معهم في رضا الله تعالى، ووَعْدِ الله تعالى؛ كما قال سبحانه: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحْسَٰنٍ رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى تَحْتَهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾ [سورة التوبة، من الآية:١٠٠].

وأخبر عن أناسٍ بعد المهاجرين والأنصار أنهم أحسنوا القول فقالوا: ﴿رَبَّنَا

ٱغۡفِرۡ لَنَا وَلِإِخۡوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلۡإِيمَٰنِ وَلَا تَجۡعَلۡ فِي قُلُوبِنَا غِلّٗا لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ رَبَّنَآ إِنَّكَ رَءُوفٞ رَّحِيمٌ﴾ [سورة الحشر، من الآية:١٠].

ومن إحسان القول فيهم أنهم أَمَنَةٌ لهذه الأمة؛ كما جاء في حديث أَبِي مُوسَى الْأَشْعَرِيِّ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ: **"النُّجُومُ أَمَنَةٌ لِلسَّمَاءِ، فَإِذَا ذَهَبَتِ النُّجُومُ أَتَى السّماء مَا تُوعَدُ، وَأَنَا أَمَنَةٌ لِأَصْحَابِي، فَإِذَا ذَهَبْتُ أَتَى أَصْحَابِي مَا يُوعَدُونَ، وَأَصْحَابِي أَمَنَةٌ لِأُمَّتِي، فَإِذَا ذَهَبَ أَصْحَابِي أَتَى أُمَّتِي مَا يُوعَدُونَ"** [رواه مسلم].

ويكفي الصحابة ن فخرًا أنهم صحابة خَيْرِ الخلقِ محمدٍ صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ، الذي أمرَ المسلمين بإحسان القول فيهم؛ كما في حديث جَابِرِ بْنِ سَمُرَةَ ب قَالَ: خَطَبَنَا عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ بِالْجَابِيَةِ فَقَالَ: إِنَ رَسُول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ قَامَ فِي مِثْلِ مَقَامِي هذَا فَقَالَ: **"أَحْسِنُوا إِلَى أَصْحَابِي، ثُمّ الّذِينَ يَلُونَهُم..."** [رواه ابن حبان في صحيحه بهذا اللفظ؛ كما في موارد الظمآن بإسناد جيد، وهو عند ابن ماجه بلفظ]: **"احْفَظُونِي فِي أَصْحَابِي، ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ، ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُم"**.

فواجبٌ من الناحية الاعتقادية إحسان القول في كلّ **"أصحاب رسول الله** صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ**"**.

والأصحاب: جمع صاحبٍ، وصحابيٍّ، مشتقّ من مطلقِ الصّحبة، وليس مشتقّا مِن قَدْرٍ خاصّ منها؛ بل هو جار على كلّ من صحب غيره قليلًا أو كثيرًا، هذا من حيث اللغة؛ كقولك: مُكَلِّمٌ، ومُخَاطِبٌ، مُشتقٌّ مِن المكالمة،

والمخاطبة، وجارٍ على كلّ مّن وقع منه ذلك، قليلًا كان الكلام والخطاب أو كثيرًا، وبحُكْمِ اللّغة فإن اسم الصحبة يجري على كلّ مَن صحب النّبيّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ساعة من نهار.

لكنَّ الأمر يختلف من حيث إطلاق اسم الصحابي اصطلاحًا؛ فإنّ أهل السنة يقولون في تعريف الصحابي هو: (مَن لَقِيَ النّبيّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في حياته مسلما، ومات على إسلامه) [الإصابة لابن حجر].

ويأتي (**الصَّاحب**) بمعنَى (مِنكم، وفيكم، ومن جنسكم)؛ كما في قوله تعالى: ﴿مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ﴾ [سورة النجم، من الآية:٢].

وبمعنى (المجاور)؛ كما في قوله تعالى: ﴿وَٱلصَّاحِبِ بِٱلْجَنۢبِ﴾ [سورة النساء، من الآية:٣٦]، وكما في قوله تعالى: ﴿قَالَ لَهُۥ صَاحِبُهُۥ وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ﴾ [سورة الكهف، من الآية:٣٧].

وبمعنى (الإحسان)، والتعامل بالخير؛ كما في قوله تعالى: ﴿وَصَاحِبْهُمَا فِى ٱلدُّنْيَا مَعْرُوفًا﴾ [سورة لقمان، من الآية:١٥].

ومع هاء التأنيث بمعنى (الزوجة)؛ كما في قوله تعالى: ﴿وَلَمْ تَكُن لَّهُۥ صَٰحِبَةٌ﴾ [سورة الأنعام، من الآية:١٠١]، وقوله تعالى: ﴿وَصَٰحِبَتِهِۦ وَبَنِيهِ﴾ [سورة عبس، من الآية:٣٦].

وبمعنى (المالِك، والملّاك، وأهلها، وقاطنوها)؛ كما في قوله تعالى: ﴿أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ﴾ [سورة البقرة، من الآية:٨٢]، وفي قوله تعالى: ﴿أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ﴾ [سورة البقرة، من الآية:٣٩].

وبمعنى (الأهلِيّة، والاستحقاق)؛ كما في قوله تعالى: ﴿فَأَصۡحَٰبُ ٱلۡمَيۡمَنَةِ مَآ أَصۡحَٰبُ ٱلۡمَيۡمَنَةِ﴾ [سورة الواقعة، من الآية:٨]، وقوله تعالى: ﴿وَأَصۡحَٰبُ ٱلۡمَشۡـَٔمَةِ مَآ أَصۡحَٰبُ ٱلۡمَشۡـَٔمَةِ﴾ [سورة الواقعة، من الآية:٩].

وبمعنى (الصَّدِيق)؛ كما في قوله تعالى: ﴿حَيۡرَانَ لَهُۥٓ أَصۡحَٰبٞ يَدۡعُونَهُۥٓ إِلَى ٱلۡهُدَى ٱئۡتِنَا﴾ [سورة الأنعام، من الآية:٧١].

وبمعنى (الصّحبة المكانيّة)؛ كما في قول الله تعالى: ﴿وَأَصۡحَٰبِ مَدۡيَنَ﴾ [سورة التوبة، من الآية:٧٠]، وقوله سبحانه: ﴿أَصۡحَٰبُ ٱلۡأَيۡكَةِ﴾ [سورة الحجر، من الآية:٧٨]، وقوله جَلَّ وَعَلَا: ﴿أَصۡحَٰبَ ٱلۡكَهۡفِ﴾ [سورة الكهف، من الآية:٩].

وبمعنى (الصّحبة الزّمانيّة)؛ كما في قوله تعالى: ﴿أَصۡحَٰبَ ٱلسَّبۡتِ﴾ [سورة النساء، من الآية:٤٧].

وقد يُطْلَقُ مُطْلَقًا فيبقى على إطلاقه؛ كقوله تعالى: ﴿إِذۡ يَقُولُ لِصَٰحِبِهِۦ لَا تَحۡزَنۡ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا﴾ [سورة التوبة، من الآية:٤٠]، وإذا قيلَ: فلانٌ صحابيٌّ؛ فالمقصود المعنى المطلق، وهو المعنى الشّرعي الّذي جاء في الأحاديث: "**أصحابي**"، "**صاحبي**".

وللصّحابة ن في القرآن أسماءٌ وأوصافٌ معروفة، وفي الآيات منثورة، ولم أُرِدْ ذكرها كلها حتّى لا يطول المقام، وإنما أورد بعضها، ومنها:

الاسم والوصف الأوّل: (المسلمون، المؤمنون)، (الذين آمنوا)؛ فكل خطابٍ في القرآن فيه الوصف بالإيمان؛ فالصحابة ن أولُ من يدخلون فيه؛ لأن الخطاب لا بد وأن يكون المخاطب به موجودًا، وإلا عد خطابًا للمعدوم؛ كقول الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَقُولُواْ رَٰعِنَا﴾ [سورة البقرة، من الآية:١٠٤]، وقوله سبحانه: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّا﴾ [سورة الأنفال، من الآية:٤]، وقوله جَلَّ وَعَلَا: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ [سورة البقرة، من الآية:١٤]، وهم داخلون في كلّ الأسماء التي جاءت في آية الحزاب؛ ولهم منها أكمل الأوصاف، وذلك في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْمُسْلِمِينَ وَٱلْمُسْلِمَٰتِ وَٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ وَٱلْقَٰنِتِينَ وَٱلْقَٰنِتَٰتِ وَٱلصَّٰدِقِينَ وَٱلصَّٰدِقَٰتِ وَٱلصَّٰبِرِينَ وَٱلصَّٰبِرَٰتِ وَٱلْخَٰشِعِينَ وَٱلْخَٰشِعَٰتِ وَٱلْمُتَصَدِّقِينَ وَٱلْمُتَصَدِّقَٰتِ وَٱلصَّٰٓئِمِينَ وَٱلصَّٰٓئِمَٰتِ وَٱلْحَٰفِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَٱلْحَٰفِظَٰتِ وَٱلذَّٰكِرِينَ ٱللَّهَ كَثِيرًا وَٱلذَّٰكِرَٰتِ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا﴾ [سورة الأحزاب، من الآية:٣٥].

الاسم والوصف الثّاني: (الذين مع النّبيّ صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ)؛ كما في قول الله تعالى: ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ ۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ﴾ [سورة الفتح، من الآية:٢٩].

الاسم والوصف الثّالث: (المهاجرون)؛ كما في قول الله تعالى: ﴿وَٱلْمُهَٰجِرِينَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ [سورة النور، من الآية:٢٢]، وقوله سبحانه: ﴿لِلْفُقَرَآءِ ٱلْمُهَٰجِرِينَ ٱلَّذِينَ

أُخۡرِجُواْ مِن دِيَٰرِهِمۡ وَأَمۡوَٰلِهِمۡ يَبۡتَغُونَ فَضۡلٗا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضۡوَٰنٗا وَيَنصُرُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ﴾ [سورة الحشر، من الآية:٨].

الاسم والوصف الرّابع: (الأنصار)؛ كما في قول الله تعالى: ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلۡأَوَّلُونَ مِنَ ٱلۡمُهَٰجِرِينَ وَٱلۡأَنصَارِ﴾ [سورة التوبة، من الآية:١٠٠]، وقوله سبحانه: ﴿لَّقَد تَّابَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلنَّبِيِّ وَٱلۡمُهَٰجِرِينَ﴾ [سورة التوبة، من الآية:١١٧]، وهم الذين سكنوا المدينة قبل المهاجرين، وقال الله جَلَّ وَعَلَا فيهم: ﴿وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلۡإِيمَٰنَ مِن قَبۡلِهِمۡ يُحِبُّونَ مَنۡ هَاجَرَ إِلَيۡهِمۡ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمۡ حَاجَةٗ مِّمَّآ أُوتُواْ وَيُؤۡثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ وَلَوۡ كَانَ بِهِمۡ خَصَاصَةٞۚ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفۡسِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ﴾ [سورة الحشر، من الآية:٩].

الاسم والوصف الخامس: (الذين اتبعوه في ساعة العسرة)، وجاء هذا الوصف الدال على الاسمية بدلًا عن المهاجرين والأنصار في قول الله تعالى: ﴿لَّقَد تَّابَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلنَّبِيِّ وَٱلۡمُهَٰجِرِينَ وَٱلۡأَنصَارِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ ٱلۡعُسۡرَةِ مِنۢ بَعۡدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٖ مِّنۡهُمۡ ثُمَّ تَابَ عَلَيۡهِمۡۚ إِنَّهُۥ بِهِمۡ رَءُوفٞ رَّحِيمٞ﴾

[سورة التوبة، من الآية:١١٧].

الاسم والوصف السّادس: (المجاهدون)؛ فهم الذين فتح الله بهم وبأيديهم البلدان، ودخل الإسلام إلى بلاد الشرق والغرب، قال الله تعالى: ﴿لَّا يَسۡتَوِي ٱلۡقَٰعِدُونَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ غَيۡرُ أُوْلِي ٱلضَّرَرِ وَٱلۡمُجَٰهِدُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمۡوَٰلِهِمۡ وَأَنفُسِهِمۡۚ

﴿فَضَّلَ ٱللَّهُ ٱلْمُجَٰهِدِينَ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ عَلَى ٱلْقَٰعِدِينَ دَرَجَةً ۚ وَكُلًّا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْحُسْنَىٰ ۚ وَفَضَّلَ ٱللَّهُ ٱلْمُجَٰهِدِينَ عَلَى ٱلْقَٰعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٩٥﴾ دَرَجَٰتٍ مِّنْهُ وَمَغْفِرَةً وَرَحْمَةً ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ [سورة النساء، من الآية:٩٥-٩٦].

وهذه الأسماء والأوصاف تدل على رفعة شأنهم، وقوة إيمانهم، حتّى استحقوا هذه الأسماء الشّرعية، الدّالة على الأوصاف العليّة.

ومن أوصافهم في القرآن **أيضًا** باختصار: أشدَّاءُ على الكفار، أعزة على الكافرين، رحماء بينهم، أذلة على المؤمنين، الرُّكَّع، السُّجَّد، العابدون، الحامدون، السائحون، المرضي عنهم؛ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ، وهم رضوا عن الله تعالى في شرعه وقدره وثوابه، التائبون، الصادقون، المفلحون، المبايعون تحت الشجرة، أهل الحسنى، المنفقون قبل الفتح، والمنفقون بعده، المهتدون، المؤمنون حقًّا، المعلَّمون من النّبيّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، والمزكَّون منه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، تلامذة النّبيّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، المحسنون، المخبتون، المتقون، المبتغون الفضل من الله تعالى، الناصرون لله تعالى، والناصرون لرسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، المعجَبُ بهم وبإيمانهم وبأعمالهم.

ثم إنّ القرآن الكريم مليء بذكر الثناء عليهم، وذمِّ الكفارِ المعارضين لهم، والمنافقين المخادعين لهم، حشرنا الله وإياكم معهم ومع النّبيّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ تحت لواء الحمد يوم القيامة.

ومَن زعم من الخوارج والروافض أنهم ارتدوا فزعمٌ باطلٌ؛ إن كان المقصود

بكلامهم المهاجرون والأنصار، وإن كان المقصود بهم المرتدون الذين قاتلهم أبو بكرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ خليفةُ رسولِ الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ومعه الخلفاءُ الثلاثةُ عمرُ وعثمانُ وعليٌّ؛ فهذا حقٌّ، وهؤلاء منهم مَن رأى النّبيّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فإنه يُسمَّى صحابيًّا لغةً، ولكنه لا يُسمَّى صحابيًّا شرعًا، وعن هؤلاءِ الذين رأوا النّبيّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ورآهم النّبيّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وأظهروا له الإسلام؛ كمسيلمة ونحوه، جاء حديثُ ابْنِ عَبَّاسٍ ب قَالَ: قَامَ فِينَا رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ خَطِيبًا بِمَوْعِظَةٍ، فَقَالَ: "**يَا أَيُّهَا النّاس إِنَّكُمْ تُحْشَرُونَ إِلَى اللهِ حُفَاةً عُرَاةً غُرْلًا،** ﴿يَوْمَ نَطْوِي ٱلسَّمَآءَ كَطَيِّ ٱلسِّجِلِّ لِلْكُتُبِۚ كَمَا بَدَأْنَآ أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُۥۚ وَعْدًا عَلَيْنَآۚ إِنَّا كُنَّا فَٰعِلِينَ﴾ [سورة الأنبياء، من الآية:١٠٤]، **أَلَا وَإِنَّ أَوَّلَ الْخَلَائِقِ يُكْسَى يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِبْرَاهِيمُ** عَلَيْهِ السَّلَامُ، **أَلَا وَإِنَّهُ سَيُجَاءُ بِرِجَالٍ مِنْ أُمَّتِي، فَيُؤْخَذُ بِهِمْ ذَاتَ الشِّمَالِ، فَأَقُولُ: يَا رَبِّ أَصْحَابِي، فَيُقَالُ: إِنَّكَ لَا تَدْرِي مَا أَحْدَثُوا بَعْدَكَ، فَأَقُولُ، كَمَا قَالَ الْعَبْدُ الصَّالِحُ:** ﴿وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْۖ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنتَ أَنتَ ٱلرَّقِيبَ عَلَيْهِمْۚ وَأَنتَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴿١١٧﴾ إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَۖ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [سورة المائدة، من الآية:١١٧-١١٨]، **قَالَ: فَيُقَالُ لِي: إِنَّهُمْ لَمْ يَزَالُوا مُرْتَدِّينَ عَلَى أَعْقَابِهِمْ مُنْذُ فَارَقْتَهُمْ** -وَفِي حَدِيثِ وَكِيعٍ وَمُعَاذٍ- فَيُقَالُ: **إِنَّكَ لَا تَدْرِي مَا أَحْدَثُوا بَعْدَكَ**" [رواه مسلم].

وكلُّ من ارتدَّ إلى الشرك والكفرِ، أو أحدث بدعةً، أو غيّر في دينِ النّبيّ

صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فإنّه لا يَرِدُ الحوض؛ لعموم حديثِ أنسٍ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، وفيه قال رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **"الكوثرُ...هُوَ نَهْرٌ أَعْطَانِيهِ رَبِّي عَزَّ وَجَلَّ فِي الجنّة، عَلَيْهِ خَيْرٌ كَثِيرٌ تَرِدُ عَلَيْهِ أُمَّتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ، آنِيَتُهُ عَدَدُ الْكَوَاكِبِ، يُخْتَلَجُ الْعَبْدُ مِنْهُمْ فَأَقُولُ: يَا رَبِّ، إِنَّهُ مِنْ أُمَّتِي فَيُقَالُ لِي: إِنَّكَ لَا تَدْرِي مَا أَحْدَثُوا بَعْدَكَ"** [رواه أحمدُ بهذا اللفظ، ومسلم في صحيح بنحوه].

فينبغي إحسان القول في الصحابة جميعًا ن، ومعرفة حقوقهم–كما سبق ذكرها–.

ومن إحسان القول في الصحابة ن، الإحسانُ إلى خصوص زوجات الرسولِ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ولهذا قال المصنّف رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **"وأزواجه الطاهرات"**، أي ويجب إحسان القول في أزواج النّبيّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

و**"أزواج"** جمعُ (زوجٍ)، و(**الزوجُ**) كلّ واحدٍ معه آخرُ مِن جنسه، و(**الزّوجُ**) الشَّكْلُ يكون له نقيضٌ؛ كالرَّطبِ واليابس، والبرّ والبحر، والذّكر والأنثى، قال الله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَمْرُنَا وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ قُلْنَا ٱحْمِلْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ﴾ [سورة هود، من الآية:٤٠].

والأنبياء لهم أزواجٌ وذرية، كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَٰجًا وَذُرِّيَّةً﴾ [سورة الرعد، من الآية:٣٨]، وجعل الله تعالى للنّبيّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أزواجًا؛ كما قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَٰجِكَ﴾ [سورة الأحزاب،

من الآية:٢٨]، وقال سبحانه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِنَّآ أَحۡلَلۡنَا لَكَ أَزۡوَٰجَكَ﴾ [سورة الأحزاب، من الآية:٥٠]، وقال جلّ وعلا: ﴿تَبۡتَغِي مَرۡضَاتَ أَزۡوَٰجِكَۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾ [سورة التحريم، من الآية:١].

وقد أمر الله تعالى نبيه صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ أن يمسك بأزواجه، وألّا يطلِّقَهنّ؛ كما قال تعالى: ﴿لَّا يَحِلُّ لَكَ ٱلنِّسَآءُ مِنۢ بَعۡدُ وَلَآ أَن تَبَدَّلَ بِهِنَّ مِنۡ أَزۡوَٰجٖ وَلَوۡ أَعۡجَبَكَ حُسۡنُهُنَّ إِلَّا مَا مَلَكَتۡ يَمِينُكَۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ رَّقِيبٗا﴾ [سورة الأحزاب، من الآية:٥٢]، وهذا إكرامٌ من الله تعالى لزوجات نبيّه صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ.

كما حرَّم الزواج من نسائه من بعد وفاته صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ، إكرامًا لنبيه صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ، قال الله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لَكُمۡ أَن تُؤۡذُواْ رَسُولَ ٱللَّهِ وَلَآ أَن تَنكِحُوٓاْ أَزۡوَٰجَهُۥ مِنۢ بَعۡدِهِۦٓ أَبَدًاۚ إِنَّ ذَٰلِكُمۡ كَانَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمًا﴾ [سورة الأحزاب، من الآية:٥٣]، وهذا كلّه يدلّ على حرمتهنّ، وبقائهنّ في عصمته صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ.

وقد أحلّ الله تعالى لنبيه صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ أن يتزوج ما شاء من حيث العدد؛ فتزوج بعددٍ من النساءِ، وتوفِّي وفي ذمّته تسعٌ، وزوجاته كلهنّ "**الطّاهرات**" وصفًا، وإيمانًا، و(**الطّاهرات**) جمع طاهرةٍ، وهي: الّتي لم يُدَنَّس عرضُها، وهي العفيفة، المستقيمة السّلوك، الزّكيّة.

وقد وصفَ الله تعالى أزواج نبيه صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ بأوصافٍ دالّة على عظمة مكانتهنّ، وعلوِّ منزلتهنّ، فمن تلكم الصّفات:

الصّفة الأولى: أنّهنّ اخترن الله ورسوله، لما نزلت آية تخييرهنّ، ولم يخترن الدّنيا وزينتها.

الصّفة الثّانية: أنّهنّ محسناتٌ؛ ولهذا أبقاهنّ النّبيّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في ذمّته بعد نزول آية التّخيير.

الصّفة الثّالثة: أنّهنّ الطّائعات لله تعالى، والطّائعات لرسولِ الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ولو فُرض وقوع الفاحشة من إحداهن فلها العذاب ضعفين؛ وهذا على سبيل تعظيم مكانتهنّ، ولم يقع منهنّ شيءٌ مِن ذلك، ولله الحمدُ والمنةُ -وحاشاهنّ- وهنّ الطّاهراتُ، إذ اختار الله تعالى لرسوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الطّاهرات العفيفات.

الصّفة الرّابعة: أنّهنّ؛ المسلماتُ، المؤمناتُ، القانتاتُ، التائبات، العابدات، السّائحات (الصوّاماتُ)، المتحجّباتُ، المتلفّعات بمُرْطِهن، ذات الحياء والحشمة، والطّهر والعِفّة.

الصّفة الخامسة: لهنّ الأجر مرَّتين؛ مرة لقيامهن بأمر الله تعالى وأمرِ رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ومرّة لقيامهنّ بحقوق النّبيّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الخاصّة عليهنّ، ولهذا لهن أجرٌ عظيم في الآخرة؛ (فإنّهن في منازل رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، في أعلى علّيِّين، فوق منازل جميع الخلائق، في الوسيلة الّتي هي أقرب منازل الجنّة إلى العرش) [تفسير ابن كثير].

الصّفة السّادسة: أنّهنّ لسن كآحاد نساء الأمّة، لا سيّما وقد ظهر تقواهنّ للقاصي والدّاني، قال الله تعالى: ﴿يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِيِّ لَسۡتُنَّ كَأَحَدٖ مِّنَ ٱلنِّسَآءِ إِنِ

ٱتَّقَيۡتُنَّ﴾ [سورة الأحزاب، من الآية:٣٢].

الصّفة السّابعة: أنهنَّ مِن أهلِ البيت، كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذۡهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجۡسَ أَهۡلَ ٱلۡبَيۡتِ وَيُطَهِّرَكُمۡ تَطۡهِيرٗا﴾ [سورة الأحزاب، من الآية:٣٣]، قال ابن عطية رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (وهذه الآية تقضي أن الزّوجات من أَهْلَ الْبَيْتِ؛ لأنّ الآية فيهنّ، والمخاطبة لهنّ، أمّا أنَّ أمَّ سلمة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهَا قالت نزلت هذه الآية في بيتي فدعا رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَسَلَّمَ عليًّا وفاطمة وحسنًا وحسينًا فدخل معهم تحت كساء خيبريّ، وقال **"هؤلاء أهل بيتي"**، وقرأ الآية، وقال: **"اللهم أذهب عنهم الرجس، وطهرهم تطهيرًا"**، قالت أمُّ سلمة؛ فقلت: وأنا يا رسول الله، فقال **"أنت من أزواج النّبيّ** صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَسَلَّمَ، **وأنت إلي خير"** [رواه الطّحاويّ بهذا اللفظ في مشكل الآثار]، قال الثعلبي: قيل هم بنو هاشم؛ فهذا على أنّ الْبَيْتِ يراد به بيت النَّسب، فيكون العباسُ وأعمامُه وبنو أعمامِه منهم، وروي نحوه عن زيد بن أرقم رَضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُ) [المحرر الوجيز].

فزوجاتُ النّبيّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَسَلَّمَ داخلاتٌ في عموم أهل البيتِ بنص الخطاب القرآني، وحديث أمِّ سلمة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهَا إنّـما هو لبيان معنًى زائدٍ عن سياق الآية، وبالحديث علمنا دخول عليٍّ وبنيه في أهل البيت في الآية عن طريق الخصوص؛ فللآية معنى عامٌّ دل عليه السّياق، ومعنى خاصّ دل عليه الحديث، ولا تعارض بين العموم والخصوص؛ فيقال بكلا المعنيين، خصوصًا مع قول النّبيّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَسَلَّمَ لأمّ سلمة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهَا وهي زوجته: **"أنت من أزواج النّبيّ"**، وفي

رواية: "**أنت على خير**"؛ لأنها دخلت في العموم؛ فلا داعي لبيان الخصوص، والله تعالى أعلم.

الصّفة الثّامنة: أنّهنّ الْمُطَهَّرَاتُ؛ كما جاء ذلك في سياق الخطاب معهن، في قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذۡهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجۡسَ أَهۡلَ ٱلۡبَيۡتِ وَيُطَهِّرَكُمۡ تَطۡهِيرٗا﴾ [سورة الأحزاب، من الآية:٣٣]؛ فإن قال قائلٌ لم جعل الضمير للمذكر ﴿عَنكُمُ﴾، ﴿وَيُطَهِّرَكُمۡ﴾ فالجوابُ من وجهين:

الوجه الأوّل: أنّ القاعدة العربية تغليب جانب الذكور على الإناث عند الاجتماع؛ فلمّا كان النّبيّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَسَلَّمَ داخلًا في الخطاب وهنّ تبعٌ ناسب تذكير الضمير، لا سيما وأنّ فاطمة داخلة في الآية بالتّغليب فهنّ مِن باب أولى؛ لأنّ الخطاب قبلها وبعدها معهنّ.

الوجه الثّاني: تقوية لقول من قال إنّ الآية خاصّة بهنّ؛ كما: (قال عكرمة، ومقاتل، وابن عباس ب: هم زوجاته خاصّة، لا رجل معهنّ، وذهبوا إلى أنّ البيتَ أريد به مساكن النّبيّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَسَلَّمَ) [تفسير ابن عطية]؛ فعلى هذا القول يُقال: إنَّ في تذكير الضمير تشريفٌ لهنّ؛ بأنهن ارتفعن إلى درجة الرجال في إذهاب الرّجس، والتّطهير؛ كما قال تعالى عن مريم عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ: ﴿وَمَرۡيَمَ ٱبۡنَتَ عِمۡرَٰنَ ٱلَّتِيٓ أَحۡصَنَتۡ فَرۡجَهَا فَنَفَخۡنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا وَصَدَّقَتۡ بِكَلِمَٰتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِۦ وَكَانَتۡ مِنَ ٱلۡقَٰنِتِينَ﴾ [سورة التحريم، من الآية:١٢]، ولم يقل من القانتات، وقد

بيّن غيرُ واحدٍ من أهل العلم أنّ ذِكْرَ الإناث بجمع المذكَّر تعظيمٌ [فتح الباري].

الصّفة التّاسعة: أنّهنّ الطّيّبات، قال الله تعالى: ﴿وَٱلطَّيِّبَٰتُ لِلطَّيِّبِينَ وَٱلطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَٰتِۚ أُوْلَٰٓئِكَ مُبَرَّءُونَ مِمَّا يَقُولُونَۖ لَهُم مَّغْفِرَةٞ وَرِزْقٞ كَرِيمٞ﴾ [سورة النور، من الآية:٢٦]، قال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (والطّيّبات من النّساء للطّيّبين من الرّجال، والطّيّبون من الرّجال للطّيّبات من النّساء...، أي: ما كان الله ليجعل عائشة زوجةً لرسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إلّا وهي طيّبة؛ لأنّه صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أطيبُ مِن كلّ طيبٍ مِن البشر، ولو كانت خبيثة لما صلحت له، لا شرعًا ولا قدرًا؛ ولهذا قال: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ مُبَرَّءُونَ مِمَّا يَقُولُونَ﴾ أي: هم بُعَدَاءُ عمّا يقوله أهل الإفك والعدوان، ﴿لَهُم مَّغْفِرَةٞ﴾ أي: بسبب ما قيل فيهم من الكذب، ﴿وَرِزْقٞ كَرِيمٞ﴾ أي: عند الله في جنات النعيم. وفيه وعد بأن تكون زوجة النّبيّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في الجنّة) [تفسير ابن كثير].

الصّفة العاشرة: أنهنّ زوجات النّبيّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في الدّنيا والآخرة، كما قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لَكُمْ أَن تُؤْذُواْ رَسُولَ ٱللَّهِ وَلَآ أَن تَنكِحُوٓاْ أَزْوَٰجَهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦٓ أَبَدًاۚ إِنَّ ذَٰلِكُمْ كَانَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمًا﴾ [سورة الأحزاب، من الآية:٥٣]، وسببُ المنعِ من الزواج بهنّ؛ لأنه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ جعلهن قبلُ في أوّل السّورة أمهاتٍ للمؤمنين، ولا يحلّ للرّجل أن يتزوج أمّه، قال الله تعالى: ﴿ٱلنَّبِيُّ أَوْلَىٰ بِٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْۖ وَأَزْوَٰجُهُۥٓ أُمَّهَٰتُهُمْ﴾ [سورة الأحزاب، من الآية:٦]، قال الحافظ ابن كثيرٍ

رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (أَجمع العلماءُ قاطبةً على أنَّ مَن تُوُفِّيَ عنها رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِن أزواجه أنّه يحرم على غيره تزويجها من بعده؛ لأنهنّ أزواجه في الدّنيا والآخرة، وأمهات المؤمنين.

واختلفوا فيمن دخل بها ثم طلقها في حياته، هل يحل لغيره أن يتزوّجها؟ على قولين، مأخذهما: هل دخلت هذه في عموم قوله: ﴿مِنۢ بَعۡدِهِۦٓ﴾ أم لا؟

فأما من تزوّجها ثم طلّقها قبل أن يدخل بها، فما نعلم في حلّها لغيره -والحالة هذه- نزاعًا، والله أعلم) [تفسير ابن كثير].

وليس في الصّورة الأولى خلافٌ لأنّ الآية نزلت وهنّ في عصمتهن حينها؛ فدلتّ بلفظها ومنطوقها أنهنّ المرادات، والله تعالى أعلم.

والمقصود بعبارة المصنّف "**أزواجه الطاهرات**" هنَّ اللائي تزوجهن، ومات عنهن، أو ماتت في ذمته صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وهنَّ إحدى عشر نسوة، مشهوراتٌ بالاسم، معروفاتٌ بالوصف، وأوردهن على ترتيب زواجه صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بهنّ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُنَّ، وهنّ:

١. سيدةُ نساءِ العالمين: **خديجةُ بنتُ خويلد**، تزوجها قبل البعثة ب (١٥) سنة، وتوفيت في (١٠) من البعثة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهَا.

٢. الفاضلةُ الواهبة يومها: **سودةُ بنتُ زمعة**، تزوجها في السنة (١٠) من البعثة، وتوفيت سنة (٢٤هـ) رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهَا، في خلافة عمرّ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

٣. الصِّدِّيقة الطّاهرة: **عائشةُ بنتُ أبي بكر الصّدّيق**، تزوجها سنة (١) من

الهجرة، وتوفيت سنة(٥٨هـ) رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهَا.

٤. الصّوّامةُ القوّامةُ: **حفصةُ بنتُ عمر بن الخطاب**، تزوجها سنة (٣) من الهجرة، وتوفيت سنة (٤١هـ) رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهَا.

٥. أمُّ المساكينِ: **زينبُ بنتُ خزيمة الهلالية**، تزوجها سنة (٣هـ) بعد أحدٍ بأشهرٍ، وتوفّيت بعد الزواج بشهرين أو ثلاثة من نفس السنة، رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهَا.

٦. الشّريفة النّسيبة أيِّمُ العرب: **هند بنت أبي أمية أم سلمة**، تزوجها سنة (٤) من الهجرة، وتوفيت سنة (٦١هـ)، وهي آخر أمهات المؤمنين وفاةً، رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهَا.

٧. المزَوَّجَةُ مِن فوقِ سبعِ سماوات: **زينبُ بنتُ جحش**، تزوجها سنة (٥) من الهجرة، وتوفيت سنة (٢٠) رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهَا.

٨. المبارَكةُ: **جويريَّةُ بنتُ الحارث المصطلقيّة**، تزوجها سنة (٥) من الهجرة، وتوفيت سنة (٥٠هـ) رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهَا.

٩. المهاجِرَةُ: **أمُّ حبيبةَ رملةُ بنتُ أبي سفيان**، تزوجها سنة (٦) من الهجرة، وتوفيت سنة (٤٤هـ) رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهَا.

١٠. سليلةُ الأنبياءِ: **صفيّةُ بنتُ حييّ بن أخطب اليهودي**، تزوجها سنة (٧) من الهجرة، وتوفيت سنة (٥٠هـ) رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهَا.

١١. الفاضلةُ: **ميمونةُ بنتُ الحارث الهلالية**، تزوجها سنة (٧) من الهجرة، وتوفيت سنة (٥١هـ) رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهَا.

١٢. هؤلاء كلهن أزواج النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وأما (مارية القبطية) فهي

سريته رَضِيَٱللَّهُعَنۡهَا، وأمّ ولده إبراهيم.

ومما يدلّ على فضلهنّ إخبارُ النّبيّ صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ بأنهن سيلحقن به صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ، وهذا يدل على أنهن جميعًا سيجتمعن مع النّبيّ صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ في علوٍّ ورفعةٍ، وجاء في هذا أحاديث عامّة في حقهن، وخاصة؛ فمن العام حديثُ عَائِشَةَ أُمِّ الْمُؤْمِنِينَ ل قَالَتْ: (قَالَ النّبيّ عَلَيۡهِٱلسَّلَامُ لِأَزْوَاجِهِ: "**يَتْبَعُنِي أَطْوَلُكُنَّ يَدًا**" قَالَتْ عَائِشَةُ: فَكُنَّا إِذَا اجْتَمَعْنَا فِي بَيْتِ إِحْدَانَا بَعْدَ وَفَاةِ النّبيّ عَلَيۡهِٱلسَّلَامُ نَمُدُّ أَيْدِيَنَا فِي الْجِدَارِ نَتَطَاوَلُ فَلَا نَزَالُ نَفْعَلُ ذَلِكَ حتّى تُوُفِّيَتْ زَيْنَبُ بِنْتُ جَحْشِ بْنِ رِئَابٍ زَوْجُ النّبيّ عَلَيۡهِٱلسَّلَامُ، وَكَانَتِ امْرَأَةً قَصِيرَةً، يَرْحَمُهَا اللهُ، وَلَمْ تَكُنْ أَطْوَلَنَا يَدًا؛ فَعَرَفْنَا حِينَئِذٍ إِنَّمَا أَرَادَ النّبيّ عَلَيۡهِٱلسَّلَامُ الصَّدَقَةَ، قَالَتْ: وَكَانَتْ زَيْنَبُ امْرَأَةً صَنَاعَةَ الْيَدِ تَدْبَغُ وَتَخْرُزُ وَتَصَّدَّقُ بِهِ فِي سَبِيلِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ) [رواه الطّحاويّ في مشكل الآثار، وأصله عند البخاري، ومسلم].

وقد كان لأمّهات المؤمنين الفضل الكبير في نشر تعاليم الدين بين نساء المؤمنين، وتعليمهنّ أحكام الإسلام، بالذات ما كان من عائشة رَضِيَٱللَّهُعَنۡهَا وما كان من حرصها على الاستزادة من العلم وتعليمه، ولم يقتصر دورهنّ على تعليم النساء، بل كان لهنّ دورٌ في تعليم الصحابة أيضًا، ببيان الأحكام المتعلّقة بحياة النّبيّ صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ الشخصيّة بين أزواجه صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ التي لم يكن يطّلع عليها أحدٌ غير أزواجه، فكُنّ رَضِيَٱللَّهُعَنۡهُنَّ المرجع في مثل هذه الأمور.

فأزواج النّبيّ عَلَيۡهِٱلصَّلَاةُوَٱلسَّلَامُ عفيفات طيبات طاهرات "**مِن كلِّ دَنَسٍ**"، وهذا

هو معتقد أهلِ السنة والجماعة، أن الله تعالى إنما اختار لنبيه خير الأزواج؛ كما اختار له خير الأصحاب؛ كما اختار له خير الشرائع.

والمراد بطهارتهن "مِن كلّ دنَسٍ" أي على سبيل الإطلاقِ؛ فلا يتصوَّرُ في حقهن أيُّ نوعٍ من النّجسِ أو الوسخ، أو الرِّجسِ، لا في إيمانهن، ولا في عرضهن، ولا في نسبهن، وفي أفعالهن، وهذا كله لعموم آية التطهير الوارد في حقهن، ولعموم ما جاء في وصفهن بـ(الطِّيِّبات) في مقابل وصف النّبيّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بـ(الطّيِّب).

وأصل (**الدَّنَسِ**) الوسخُ، والقذارةُ، والتلطخ بالقبيح، والجمعُ (أدناسٌ)؛ كنجَسٍ وأنجاسٌ، ويقالُ: فلانٌ دِنِسُ الثوب أي مُتّسخه، وفلانٌ دنسُ الشرفِ أي متلطخٌ، وفلانٌ دنس الخلق، أي ذو عيبٍ في خُلُقِه.

وكما وجب إحسانُ القول في عموم الصحابة ن، وفي خصوصِ أزواج النّبيّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الطاهراتِ من كلّ دنسٍ؛ فكذلك يجب الإحسان إلى أهل بيته، "**وذُرِّيّاتِهِ المُقَدَّسِين مِن كلّ رِجْسٍ**"، فذرية النّبيّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مُنَزَّهٌ من كلّ رجسٍ.

والله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ قد جعل لعموم الأنبياء ذرية، كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَاجًا وَذُرِّيَّةً﴾ [سورة الرعد، من الآية:٣٨].

وجعل لنبينا محمدٍ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ على وجه الخصوص ذرية؛ فكان له بنون

وبناتٍ، قال الله تعالى: ﴿مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ﴾ [سورة الأحزاب، من الآية:٤٠]، وقد نزلت الآية في خصوص نفي بنوّة زيدٍ مولاه، وأنّه ليس ابنًا له، وقد بلغ مبلغ الرجال، وتزوّج؛ ولقد وُلِدَ له أولادٌ ذكورٌ لم يبلغوا مبلغ البلوغ والرجولة، وهم: القاسم، وبه كان يُكنَى، وعبدُ الله، ويلقَّب بالطّيب والمطهَّر، والطّاهر.

وقال سبحانه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَٰجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَآءِ ٱلْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِن جَلَٰبِيبِهِنَّ﴾ [سورة الأحزاب، من الآية:٥٩]، ودلت الآية بمنطوقها أن النّبيّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كان له بناتٍ، وهن بالإجماع: زينب، وكانت زوجًا لأبي العاص، ورقية وكانت زوجًا لعثمان، وأم كلثوم وقد تزوجها عثمان بعد وفاة زوجته رقية، وفاطمة وكانت زوجًا لعلي رضي الله عنهن وعنهم.

فللنبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ذُرِّية، وقد تناسلت ذُرِّيَّته صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِن جهة سيدة نساء العالمين فاطمة ل دون غيرها.

و(**الذُّرِّيَّة**) جمع (ذَراري، وذرِّيَّاتٍ)، أيْ نسلُ الإنسانِ، وهو المراد هنا، وتطلقُ على النّساء والصغار أيضًا.

وذرية النّبيّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ هم على قسمين؛

القسم الأوّل: الذّريّة المباشرة المبارَكة؛ أولادُه، وأولادُ أولادِهِ الذين رأوه؛ فهؤلاء لهم علينا حقوق من جهتين:

الجهة الأولى: كونهم من الصحابة ن.

الجهة الثّانية: كونهم من ذرية النّبيّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

وكما جعل الله تعالى لزوجات النّبيّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ علينا حقوقًا؛ فكذلك جعل لذريته حقوقًا، ولأقاربه حقوقًا، وعلى هذا يحمل حديث الْمُطَّلِبِ بْنُ رَبِيعَةَ بْنِ الْحَارِثِ بْنِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ، أَنَّ الْعَبَّاسَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ دَخَلَ عَلَى رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "**مَنْ أَغْضَبَكَ؟**" قَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ: مَا لَنَا وَلِقُرَيْشٍ إِذَا تَلَاقَوْا بَيْنَهُمْ تَلَاقَوْا بِوُجُوهٍ مُبَشِّرَةٍ، وَإِذَا لَقَوْنَا لَقَوْنَا بِغَيْرِ ذَلِكَ، قَالَ: فَغَضِبَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حَتَّى احْمَرَّ وَجْهُهُ، وَحَتَّى اسْتَدَرَّ عِرْقٌ بَيْنَ عَيْنَيْهِ، وَكَانَ إِذَا غَضِبَ اسْتَدَرَّ، فَلَمَّا سُرِّيَ عَنْهُ، قَالَ: "**وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ لَا يَدْخُلُ قَلْبَ رَجُلٍ الْإِيمَانُ حَتَّى يُحِبَّكُمْ لِلَّهِ وَلِرَسُولِهِ**"، ثُمَّ قَالَ: "**أَيُّهَا النَّاسُ، مَنْ آذَى الْعَبَّاسَ فَقَدْ آذَانِي، إِنَّمَا عَمُّ الرَّجُلِ صِنْوُ أَبِيهِ**" [مصنف ابن أبي شيبة، ورواه الترمذي، وقال: حسن صحيح].

القسم الثّاني: الذّريّة غير المباشرة الذين وُلِدوا بعد موت النّبيّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ فهؤلاء أنواعٌ؛

النّوع الأوّل: من عُرِفَ صلاحه وبِرُّه؛ فهؤلاء لهم علينا حقّان؛ حقّ الصّلاح والبر، والحبّ الديني، وحقّ القرابة والصِّلَة، ويحبون لقربهم من النّبيّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

النّوع الثّاني: مَن لم يُعرَف عنه صلاحٌ، ولا فسادٌ؛ فلهم حق القرابة والصلة ويحبّون لقربهم من النّبيّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

النّوع الثّالث: مَن لا يعرف بصلاحٍ؛ بل يُعرفُ بكفرٍ أو شرْكٍ أو بدعة؛ فهؤلاء ليس لهم شيءٌ من حقوق القرابة؛ بل ذلك مقطوعٌ؛ لعموم ما جاء من قطع الموالاة بين المؤمنين والكافرين من جهة، ولخصوص ما جاء عن النّبيّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كما في حديث رِفَاعَةَ بْنِ رَافِعِ بْنِ مَالِكٍ الزُّرَقِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أَنَّ النّبيّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ لِعُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: **"اجْمَعْ لِي قَومَكَ"**؛ فَجَمَعَهُمْ فَكَانُوا بِالْبَابِ فَقَالَ: **"أَلَا إِنَّ أَوْلِيَائِي مِنْكُمُ الْمُتَّقُونَ، إِيَّاكُمْ أَنْ يَجِيءَ النّاس بِالْأَعْمَالِ، وَتَجِيئُونَ بِالْأَثْقَالِ تَحْمِلُونَهَا عَلَى ظُهُورِكُمْ"** [رواه البزار في مسنده، وابن أبي شيبة في مصنفه، قال البوصيري: إسناد صحيح].

وفي حديث معاذ بن جبل رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ خرج معه بوصيَّةٍ، ثمَّ التفت رسولُ الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إلى المدينة؛ فقال: **"إنّ أهلَ بيتي هؤلاء يرون أنَّهم أولى النّاس بي، وليس كذلك، إنّ أوليائي منكم المتّقون، مَن كانوا، وحيث كانوا، اللّهمّ إنّي لا أحل لهم فساد ما أصلحت، وأَيْمُ الله، لتكفأ أمّتي عن دينها كما يكفأ الإناء في البطحاء"** [قال الهيثمي: رواه الطبراني وإسناده جيد].

وحديث أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: لَمَّا أُنْزِلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ﴾ [سورة الشعراء، من الآية:٢١٤]، دَعَا رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قُرَيْشًا، فَاجْتَمَعُوا فَعَمَّ وَخَصَّ، فَقَالَ: **"يَا بَنِي كَعْبِ بْنِ لُؤَيٍّ، أَنْقِذُوا أَنْفُسَكُمْ مِنَ النّار، يَا بَنِي مُرَّةَ بنِ كَعْبٍ، أَنْقِذُوا أَنْفُسَكُمْ مِنَ النّار، يَا بَنِي عَبْدِ شَمْسٍ، أَنْقِذُوا أَنْفُسَكُمْ**

مِنَ النّار، يَا بَنِي عَبْدِ مَنَافٍ، أَنْقِذُوا أَنْفُسَكُمْ مِنَ النّار، يَا بَنِي هَاشِمٍ، أَنْقِذُوا أَنْفُسَكُمْ مِنَ النّار، يَا بَنِي عَبْدِ الْمُطَّلِبِ، أَنْقِذُوا أَنْفُسَكُمْ مِنَ النّار، يَا فَاطِمَةُ، أَنْقِذِي نَفْسَكِ مِنَ النّار، فَإِنِّي لَا أَمْلِكُ لَكُمْ مِنَ اللهِ شَيْئًا، غَيْرَ أَنَّ لَكُمْ رَحِمًا سَأَبُلُّهَا بِبَلَالِهَا" [رواه البخاري، ومسلم، وهذا لفظه].

فوجب اعتقاد قول المصنّف رَحِمَهُ ٱللَّهُ، من أن ذرية النّبيّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مباركةٌ، وهو داخلٌ تحت معنى قول المصنّف: "**المُقَدَّسِين مِن كلّ رِجْسٍ**".

و(**المقدَّس**) هنا بمعنى المطهَّرُ، والمبرَّأُ، والمقصود أن ذرية النّبيّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مُبَرَّأٌ مما قاله الكفارُ مِن أنه (أبتر)؛ فقد جعل الله تعالى البركة في ذريته؛ فتناسل ذرية النّبيّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من جهة فاطمة وكثروا.

وهم مبرَّؤُون مما قال المنافقون؛ فهم داخلون تحت عموم آية التطهير، لا سيما مَن عمل بباقي الأعمال الشّرعية المنصوص عليها في الكتاب والسنة النبوية.

وهم مبرَّؤُون مما يقوله فيهم أهل البدعِ، وأهل الاحتقار، وأهل الازدراء في أنسابهم، أو في شرفهم؛ فهم مبرؤون من كلّ ما يدنِّسُ نسبهم، أو ينزِّلُ شرفهم، فهم في أرفع الأنساب نسبًا، وفي أعلى الأحساب شرفًا.

وليس المقصود من (**المقدَّسِين**) أنَّهم يُتمسَّحُ بهم، أو يُتَبَارَك بتفلهم، أو بأجسادهم؛ فهذا ليس لأحدٍ بعد الأنبياء والمرسلين.

وهذه العبارة من المصنّف رَحِمَهُ ٱللَّهُ خبرٌ عامٌّ في كلّ من ظهرت عليه علامات

الإيمان من الذّريّة المباركة، وهو بمعنى الدعاءِ لغيرهم.

ومعنى (**الرّجس**): القذرُ، والشيءُ القَذِرُ، ولها عدةُ معاني أخَرُ مثل: الحرام، اللعنة، الكفر، العذاب...إلخ.

قال الإمام الآجري رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (إِنَّ الحسن والحسين رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا خطرهما عظيم، وقدرهما جليل، وفضلهما كبير، أشبه النّاس برسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ خَلْقًا وَخُلُقًا.

الحسنُ والحسينُ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا، هما ذريته الطيبة الطاهرة المباركة، وبضعتان منه، أمُّهمَا فاطمة الزهراء، مُهْجَةُ رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ، وبَضْعَةٌ منه، وأبوهما أميرُ المؤمنين علي بن أبي طالب رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ، أخو رسول رب العالمين صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ، وابنُ عمِّه، وختنه على ابنته، وناصره ومفرج الكرب عنه، ومَن كان الله ورسوله له محبين، فقد جمع الله الكريم للحسن والحسين رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا الشرف العظيم، والحظ الجزيل، من كلّ جهة، ريحانتا رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ، وسيدا شباب أهل الجنّة) [الشريعة للآجري].

والمقصود أنّ ذرية النّبيّ صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ منزَّهونَ عن كلّ قذرٍ، وعن كلّ عملٍ قبيحٍ؛ ولهذا كان الحسنُ والحسينُ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا هما سيِّدَا شبابِ أهل الجنّة من ذريته الطاهرة، كما جاء في حديث أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: "**الْحَسَنُ وَالْحُسَيْنُ سَيِّدَا شَبَابِ أَهْلِ الجنّة**" [رواه الإمام أحمدُ في مسنده، وهذا لفظه، والحاكم، وقال: حديثٌ صح من أوجه كثيرة].

وورد هذا الحديث عن جمعٍ من الصحابة ن، ومنهم: عبد الله بن مسعود، وحذيفة بن اليمان، وقرة بن إياس، والبراء بن عازب، وآخرين، رَضِيَٱللَّهُعَنۡهُمۡ.

فأهل البيت المطهَّرون من كلّ دنسٍ لهم علينا حقوقٌ من ثلاثة أوجهٍ:

الوجه الأوّل: لكونِهم مطهّرون؛ كما في آية التطهير.

الوجه الثّاني: لكونهم من أنصار الإسلام وحفّاظه.

الوجه الثّالث: لكونهم من ذرية النّبيّ صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ.

وكلّ مَن ثبت نسبه إلى النّبيّ صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ فله علينا عِدّةُ حقوقٍ، وهي:

الحقّ الأوّل: حبهم بحبِّ النّبيّ صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ، قال الله تعالى: ﴿قُل لَّآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ أَجۡرًا إِلَّا ٱلۡمَوَدَّةَ فِي ٱلۡقُرۡبَىٰ﴾ [سورة الشورى، من الآية:٢٣]، ومعنى الآية: إلّا أنْ تُوَدُّونِي في قرابتي منكم، وتصلوا رحمي بيني وبينكم، ويصلح أن يكون خطابًا لمن تبعه من المؤمنين: لا أسألكم على ما جئتكم به أجرًا إلا أن تُوَدُّوا قرابتي، وتُحسِنُوا إليهم، وتَبَرُّوهم.

وهذا المعنى فهمه الصحابة ن؛ فجاء عَنِ ابْنِ عُمَرَ رَضِيَٱللَّهُعَنۡهُمَا، قَالَ: قَالَ أَبُو بَكْرٍ رَضِيَٱللَّهُعَنۡهُ: "ارْقُبُوا مُحَمَّدًا صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ فِي أَهْلِ بَيْتِهِ" [رواه البخاري]، ومعنى: (ارقُبُوا) أي احفظوه فيهم؛ فجلُّوهم، ووقروهم، ولا تسبوهم، ولا تؤذوهم، ولا تفتروا عليهم.

الحقّ الثّاني: الثناءُ عليهم بما هم أهله، والترحم عليهم، واعتقاد أنهم داخلون تحت عموم الرحمة لأهل البيت؛ كما قال تعالى: ﴿قُل لَّآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ أَجۡرًا إِلَّا

ﱡﭐﭐﭐﭐﭐﭐﭐﭐﭐ ﴿ٱلۡمَوَدَّةَ فِي ٱلۡقُرۡبَىٰ﴾ [سورة الشورى، من الآية:٢٣].

الحقّ الثّالث: اعتقاد دخولهم في الصلاة والسلام على النّبيّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَسَلَّمَ وآله في التشهد.

الحقّ الرّابع: الاقتداء بهم إن كانوا صالحين، واعتقادُ دخولهم في عموم آية التطهير، وصلتهم بالخيرِ؛ كما جاء عن عائشة ل قالت: قال أبو بكر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُ: (وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، لَقَرَابَةُ رَسُولِ اللهِ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَسَلَّمَ أَحَبُّ إِلَيَّ أَنْ أَصِلَ مِنْ قَرَابَتِي) [رواه البخاري ومسلم].

و(قال بعض السلف: حُبُّ أبي بكر وعمر ب إيمانٌ، وبغضهما نفاقٌ، وحُبُّ بني هاشم ن إيمانٌ، وبغضهم نفاق) [مجموع الفتاوى].

الحقّ الخامس: الدفاع عنهم، ودفعُ ما هم منه براءُ؛ فيجب دفعُ ما قد افتراه الناصبةُ المعادون لآل البيتِ؛ عليٍّ والحسن والحسينِ ن، ودفعُ افتراءات الخوارج عليهم، وكذلك ردُّ بطلان الكذبَة عليهم؛ فإنهم قومٌ هلكَ فيهم طائفتان؛ طائفة غلت فيهم، وطائفة جفت عنهم.

والقيام بالحقوق بلا غلو ولا جفاء، وأداءُ هذه الحقوق عملٌ ثقيلٌ، كما أن القيام بأوامر الشارع الواردة في القرآن ثقيلٌ؛ ولهذا جاء اقترانهما معًا؛ كما في حديث غدير خَمْ عن زيد بن أرقم رَضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُ وفيه قالَ، قال رسولُ الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَسَلَّمَ: **"وَأَنَا تَارِكٌ فِيكُمْ ثَقَلَيْنِ: أَوَّلُهُمَا كِتَابُ اللهِ؛ فِيهِ الْهُدَى، وَالنُّورُ؛ فَخُذُوا بِكِتَابِ اللهِ، وَاسْتَمْسِكُوا بِهِ"**؛ فَحَثَّ عَلَى كِتَابِ اللهِ، وَرَغَّبَ فِيهِ.

ثُمَّ قَالَ: "وَأَهْلُ بَيْتِي؛ أُذَكِّرُكُمُ اللهَ فِي أَهْلِ بَيْتِي، أُذَكِّرُكُمُ اللهَ فِي أَهْلِ بَيْتِي، أُذَكِّرُكُمُ اللهَ فِي أَهْلِ بَيْتِي" [رواه مسلم].

و(الثَّقَلُ): كلّ شيءٍ نفيسٍ مَصُونٍ، وعزيزٍ محفوظٍ؛ فالقرآن محفوظٌ من التّغيير والتّبديل، ونسب النّبيّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مصونٌ من الانقطاع؛ بل هو ممدود إلى يوم القيامة، حتّى يكون من ذريته مسيح الهداية (محمد بنُ عبد الله) الّذي يقاتلُ معه المسلمون الرومَ، ويقاتلون معه مسيحَ الضلالةِ الدَّجَّالَ.

قال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ: (ولا تُنْكَرُ الوُصَاةُ بأهلِ البيت، والأمرُ بالإحسان إليهم، واحترامُهم وإكرامهم، فإنّهم مِن ذرّيّة طاهرة، مِن أشرف بيت وجد على وجه الأرض، فخرًا وحسبًا ونسبًا، ولا سيّما إذا كانوا مُتَّبِعين للسُّنَّة النَّبويّة الصّحيحة الواضحة الجليّة، كما كان عليه سلفهم، كالعبّاس وبنيه، وعليٍّ وأهل بيته وذريته، رضي الله عنهم أجمعين) [تفسير ابن كثير].

وقال الإمام الآجري رَحِمَهُ اللَّهُ: (واجبٌ على المسلمين محبتهم، وإكرامهم، واحتمالهم، وحُسْنُ مداراتهم، والصبر عليهم، والدعاء لهم؛ فمَن أحسن مِن أولادهم وذراريهم؛ فقد تخلق بأخلاق سلفه الكرام الأخيار الأبرار، ومن تخلق منهم بما لا يَحْسُنُ مِن الأخلاق، دُعِيَ له بالصلاح والصيانة والسلامة، وعاشَرَهُ أهلُ العقل والأدب بأحسن المعاشرة، وقيل له: نحن نجلّك عن أن تتخلق بأخلاقٍ لا تشبه سلفك الكرام الأبرار، ونغار لمثلك أن يتخلق بما تعلم أن سلفك الكرام الأبرار لا يرضون بذلك؛ فمن محبتنا لك أن نحب لك أن تتخلق

بما هو أشبه بك، وهي الأخلاق الشريفة الكريمة) [الشريعة للآجري].

فمِن إحسان القولِ في ذرية النّبيّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أداءُ هذه الحقوق إليهم، والقيام بحقهم؛ فمَن فعل ذلك، مع ما قد سبق من عموم حقوق الصحابة ن، وأحسن القول فيهم، وفي أمهات المؤمنين، أزواج النّبيّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الطاهرات؛ **"فقد برئ من النفاق"**، وإنما كان بريئًا من النفاقِ؛ لأن النفاقَ ينبو عن أمرينِ؛ الغلوُّ، أو الجفاءُ؛ فمن لم يكن غاليًا ولا جافيًا مع أحدٍ من الصحابة ن، ولا مع أحدٍ من آل البيت؛ فإن ذلك من أظهر علامات براءته من النفاق.

ومعنى **"برئ من النفاق"** أي صار بريئًا منه، وأصل (البَرْءِ): الشِّفاءُ والعافيةُ من المرض، وبرئ من العيب أي خلا منه، وتخلص وتخلى عنه.

والمقصود هنا بالنفاق النفاق الاعتقادي -وقد سبق بيان نوعي النفاق-، وذلك أنَّ بُغضَ الصحابة ن، أو بغض أزواجه الطاهرات رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُنَّ، أو بغضَ آل البيت ن، كلّ ذلك من النافق الاعتقادي.

ومما يدل على أن من أحسن القول في سلف هذه الأمة، من الصحابة وآل البيت فإنه مبرأ من النفاق أنَّ حبهم دينٌ وإيمان، وهو الّذي ينشأ عنه إحسان القول، وأن بغضهم نفاقٌ، وهو الّذي ينشأ عنه التسخط عليهم، وعدم إحسان القول فيهم.

ومن النصوص الدالة على هذا المعنى قول الله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ رَسُولَ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [سورة التوبة، من الآية:٦١]، وإيذاء تلامذته من الصحابة ن،

وإيذاء أزواجه الطاهرات، وذريته المباركة من إيذائه صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ؛ وإيذاؤه معلوم أنه نفاق؛ فمن ترك إيذاء هؤلاء جميعًا؛ فقد حصل على نوعٍ من البراءة من النفاق.

وقال الله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ بِغَيْرِ مَا ٱكْتَسَبُوا۟ فَقَدِ ٱحْتَمَلُوا۟ بُهْتَٰنًا وَإِثْمًا مُّبِينًا﴾ [سورة الأحزاب، من الآية:٥٨]؛ ففيها دلالة على أن أذية عموم المؤمنين بهتانٌ وإثمٌ مبينٌ؛ فكيف بأذية خصوصهم؟

وقد جاءت الأحاديث عمومًا وخصوصًا في بيان أنّ من أساء القول في الصحابة ن، أو آذاهم؛ فإنه قد نافق -وقد مرَّ شيء من هذه الأحاديث-، ومنها: حديث الْبَرَاءِ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ يُحَدِّثُ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ أَنَّهُ قَالَ فِي الْأَنْصَارِ: **"لَا يُحِبُّهُمْ إِلَّا مُؤْمِنٌ، وَلَا يُبْغِضُهُمْ إِلَّا مُنَافِقٌ، مَنْ أَحَبَّهُمْ أَحَبَّهُ اللهُ، وَمَنْ أَبْغَضَهُمْ أَبْغَضَهُ اللهُ"** [رواه مسلم].

وجاء عَنْ عَلِيٍّ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ قَالَ: وَالَّذِي فَلَقَ الْحَبَّةَ، وَبَرَأَ النَّسَمَةَ، إِنَّهُ عَهِدَ إِلَيَّ النّبِيّ صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ الْأُمِّيُّ: **"إِنَّهُ لَا يُحِبُّنِي إِلَّا مُؤْمِنٌ، وَلَا يُبْغِضُنِي إِلَّا مُنَافِقٌ"** [رواه ابنُ أبي عاصم في السنة، وهذا لفظه، وأصله في صحيح مسلم].

ولما ذكر المصنّف رَحِمَهُٱللَّهُ أنَّ من علامات البراءة من النافق إحسان القول في الصحابة ن، وفي زوجات النّبيّ صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ الطاهرات، وفي ذريته المباركة، ناسب أن أذكر بعض الأمور الّتي تدل على النفاق، وعكسها وتركها دليل على البراءة من النفاق الاعتقادي، ومن ذلك:

الأمر الأوّل: الاستهزاء، أو اللعب، أو الاستهزاء؛ بالله تعالى، أو بالنّبيّ صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ، أو بالقرآن، أو بالدين، أو بحملة الدين، ومن جملتهم الصحابة ن.

الأمر الثّاني: شَكُّهم في وعدِ الله تعالى، وقولُهم: ﴿مَّا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ إِلَّا غُرُورًا﴾ [سورة الأحزاب، من الآية:١٢]، ومن ذلك ظنهم السيء بالله تعالى، وظنهم بالله تعالى أنه لا ينصر دينه، وأن الإسلام سيتلاشى، والمؤمن مستيقن بوعد الله تعالى، محسن الظن بربه تَبَارَكَوَتَعَالَىٰ.

الأمر الثّالث: إيذاؤهم المؤمنين والمؤمنات؛ وذلك لكونهم مؤمنين متدينين.

الأمر الرّابع: صَدُّ النّاس عن التوحيد، وعن عبادةِ الله تعالى، وتزيين الباطل لهم.

الأمر الخامس: صدُّ النّاس عن اتباع القرآن، وإشغالهم بالكتب المؤلفة من النّاس، أو المزورة والباطلة، قال الله تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمۡ تَعَالَوۡاْ إِلَىٰ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَإِلَى ٱلرَّسُولِ رَأَيۡتَ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ يَصُدُّونَ عَنكَ صُدُودًا﴾ [سورة النساء، من الآية:٦١].

الأمر السّادس: صدُّ النّاس عن السُّنَّة، وحثهم على البدعة، وهذا نوعُ نفاقٍ اعتقادي جلي بين.

الأمر السّابع: التَّحاكم إلى الطواغيت، وترك التحاكم إلى شرع الله تعالى، وعدم التحاكم إلى سنة النّبيّ صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ.

الأمر الثّامن: حبُّهم الكفرَ، وما عليه أهلُ الكفرِ من الطرق والأهواء والبدع، واتخاذهم الكفارَ أحبّاء من دون المؤمنين، قال الله تعالى: ﴿بَشِّرِ ٱلْمُنَٰفِقِينَ بِأَنَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٣٨﴾ ٱلَّذِينَ يَتَّخِذُونَ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۚ أَيَبْتَغُونَ عِندَهُمُ ٱلْعِزَّةَ فَإِنَّ ٱلْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا﴾ [سورة النساء، من الآية:١٣٨-١٣٩].

الأمر التّاسع: يأمرون بالمنكر، وينهون عن المعروف، قال الله تعالى: ﴿ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتُ بَعْضُهُم مِّنۢ بَعْضٍ ۚ يَأْمُرُونَ بِٱلْمُنكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمَعْرُوفِ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ ۚ نَسُوا۟ ٱللَّهَ فَنَسِيَهُمْ ۗ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ﴾ [سورة التوبة، من الآية:٦٧].

الأمر العاشر: كراهة الجماعة، والاجتماع، وصلاة الجماعة، ويودُّ أن ذلك لم يكن، ولا يأتي الجماعة إلا رياءَ وسُمعة، قال عبد الله بن مسعودٍ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ: "وَلَقَدْ رَأَيْتُنَا وَمَا يَتَخَلَّفُ عَنْهَا إِلَّا مُنَافِقٌ مَعْلُومُ النِّفَاقِ، وَلَقَدْ كَانَ الرَّجُلُ يُؤْتَى بِهِ يُهَادَى بَيْنَ الرَّجُلَيْنِ حتّى يُقَامَ فِي الصَّفّ" [رواه مسلم].

أعاذنا الله تعالى من النفاق العملي والاعتقادي، ورزقنا التوحيد الخالص، والإيمان الكامل.

ويدخل في إحسان القول، والبراءة من النفاق، الثناء على علماءِ الأمة، ولهذا قال المصنّف رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **"وعلماء السلف من السابقين، ومن بعدهم من التابعين -أهل الخبر والأثر، وأهل الفقه والنظر- لا يذكرون إلا بالجميل"**، وفي هذا القول بيانُ المنهج الصحيح في التعامل مع العلماء لا سيما الذين سبقونا، وكان

لهم أثر في نشر الخير أثرًا وفقهًا، وعلمًا ودعوة، وأنه ينبغي لنا أن نتعامل معهم بالجميل، وذلك بتوقيرهم، والترحم عليهم، وعدم ذكرهم بسوء، وهذا لا يعني أنهم معصومون، ولكن لا نتبعهم في أخطائهم، ولا ننزل من قدرهم إذا أخطئوا فهم بشر.

قوله: **"وعلماء السلف..."** (العلماءُ) جمع (عالِم)، وهو: العالِمُ بنصوص الكتاب والسنة، وبالنّاسخِ والمنسوخ، المفرِّقُ بين العموم والخصوص، والمدرِك للدلالات اللغوية، العارفُ بمسائل الإجماع، المدرِكُ لِلِسَانِ العرب من حيث الجملةِ، الحاصلُ على آلات العلْمِ من أصول الفقه، وعلوم الحديث.

وبعبارة أخرى: العالِمُ هو المرْشِدُ إلى الله تعالى، وإلى دينه، وإلى سنة نبيه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، بقوله، أو بفعله، أو بهما معًا، وهو الّذي إذا رُئِيَ ذُكِرَ اللهُ تعالى.

والنّاس مع العلم منقسمون إلى أربعة أقسامٍ:

القسم الأوّل: عالِمٌ، وعالِمٌ بأنه عالِمٌ؛ فهذا يُلتزَم، ويُطلَب منه العلم.

القسم الثّاني: عالِمٌ، ويستصغِرُ نفسه في العلم، ولا يجلس للناسِ؛ فهذا يُذَكَّرُ حتّى يَجلِس ويؤخذُ عنه العلم.

القسم الثّالث: جاهلٌ، ويدري أنه جاهلٌ؛ فهذا يُعلَّم.

القسم الرَّابع: جاهلٌ ولا يدري أنه جاهلٌ؛ بل يتعالَم؛ فهذا يُهربُ منه، وهذا حال أكثر المثقفين، ومن قرأ وكتب ظن نفسه عالِمًا، وصار يُفتي، ويعترض، ويتصدر، ولا حول ولا قوة إلا الله تعالى.

والعلماءُ في أنفسهم ينقسمون إلى قسمين:

القسم الأول: علماءُ عاملون، وهؤلاء مِن أظهر علاماتهم الزهد، والورع، وكونهم أهلُ ذِكرِ الله تعالى حفظًا، وتلاوة، وعِلمًا، وعملًا، وذِكرًا وتذُكَّرًا، وهؤلاء هم الذين جاء في فضلهم عمومًا، وفي الثناء عليهم آياتٌ وأحاديث، نذكر منها قولَ الله تعالى: ﴿وَٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا ۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [سورة آل عمران، من الآية:٧]، وقوله سبحانه: ﴿شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُو۟لُوا۟ ٱلْعِلْمِ قَآئِمًۢا بِٱلْقِسْطِ﴾ [سورة آل عمران، من الآية:١٨]، وقوله جلّ وعلا: ﴿يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ دَرَجَٰتٍ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ [سورة المجادلة، من الآية:١١].

وحديث مُعَاوِيَةَ بْنِ أَبِي سُفْيَانَ ب وَهُوَ يَخْطُبُ يَقُولُ: إِنِّي سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ: **"مَنْ يُرِدِ اللهُ بِهِ خَيْرًا يُفَقِّهْهُ فِي الدِّينِ"** [رواه البخاري، ومسلم].

وحديث أَبِي أُمَامَةَ البَاهِلِيِّ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ: ذُكِرَ لِرَسُولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ رَجُلاَنِ أَحَدُهُمَا عَابِدٌ وَالآخَرُ عَالِمٌ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **"فَضْلُ العَالِمِ عَلَى العَابِدِ كَفَضْلِي عَلَى أَدْنَاكُمْ"**. ثُمَّ قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **"إِنَّ اللهَ وَمَلاَئِكَتَهُ وَأَهْلَ السَّمَوَاتِ وَالأَرَضِينَ حتّى النَّمْلَةَ فِي جُحْرِهَا وحتّى الحُوتَ لَيُصَلُّونَ عَلَى مُعَلِّمِ النّاسِ الخَيْرَ"** [رواه الترمذي، وقال: حسن صحيح غريب].

وحديث أبي الدرداء رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ وفيه أن رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: **"وإن فضلَ العالمِ على العابِدِ كفضل القَمَرِ ليلةَ البدرِ على سائر الكواكِبِ، وإنَّ العلماءَ ورثةُ الأنبياء، وإن الأنبياءَ لم يُورِّثُوا دينارًا ولا دِرْهمًا، ورَّثُوا العِلْمَ، فمن أخَذَه أخَذَ بحظٍّ وافِر"** [رواه أبو داود، وابن حبان في صحيحه].

وقال الفُضَيْلَ بْنَ عِيَاضٍ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (عَالِمٌ عَامِلٌ مُعَلِّمٌ يُدْعَى كَبِيرًا فِي مَلَكُوتِ السَّمَوَاتِ) [سنن الترمذي].

القسم الثّاني: علماءُ غيرُ عاملين، وهؤلاء مِن أظهر علاماتهم جعلهم الدين وسيلة للوصول إلى المناصب، وحصولهم الرياسة على النّاس، وحبهم لفسح المجالس، وخدمتهم، وطمعهم، وجشعهم.

ومراد المصنّف رَحِمَهُ ٱللَّهُ العلماءُ من القسم الأولِ؛ بل وصِنْفٌ معيَّنٌ منهم، ولهذا أضافهم؛ فقال: **"وعلماء السلف..."**؛ فأضاف العلماء إلى **"السَّلَفِ"**.

وكلمةُ **(السَّلَفِ)** وصفٌ يطلقُ على فترةٍ زمنية، وعلى صِفَةٍ مُقَيَّدَةٍ؛ فيقال: فلانٌ من السلفِ، أي مِن وقتهم، وزمانهم، وفلان من السلفِ، أي على طريقتهم، ومراد المصنّف بالإضافة الأمْرَان معًا؛ أي العلماء الذين كانوا من السلف زمانًا، وعلى طريقهم اتباعًا.

و**"السَّلَفُ"** لغة جمعُ سالفٍ، وهو كلّ مَن تقدمك من آبائك وذوي قرابتك في السِّنِّ أو الفضلِ، ومنه سالِفُ الأزمان، أي مُتَقَدِّمُها، ومن هذا المعنى ما جاء في حديث ابن عمرَ ب أنه سمع رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقول: **"إِنَّمَا بَقَاؤُكُمْ فِيمَا**

سَلَفَ قَبْلَكُمْ مِنَ الْأُمَمِ كَمَا بَيْنَ صَلاَةِ الْعَصْرِ إِلَى غُرُوبِ الشَّمْسِ" [رواه البخاري]، ومن هذا قول الله تعالى: ﴿وَأَن تَجۡمَعُواْ بَيۡنَ ٱلۡأُخۡتَيۡنِ إِلَّا مَا قَدۡ سَلَفَ﴾ [سورة النساء، من الآية:٢٣].

و(السَّلف) في الاصطلاح يطلق على فترةٍ زمنية، وهي: زمن خير القرونِ، قرنِ الصحابة ن، وقرنِ التابعين الذين رأوا الصحابة ن، وقرنِ تبعِ التابعين، وهؤلاء القرون الثلاثة الذين جاءت فيهم الأحاديث المفضِّلَة لهم على من بعدهم-وقد مرَّ شيءٌ من ذلك-، ومن ذلك ما جاء في حديث عَبْدِ اللهِ بن مسعودٍ رَضِيَٱللَّهُعَنۡهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ: "خَيْرُ أُمَّتِي الْقَرْنُ الَّذِينَ يَلُونِي، ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ، ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ، ثُمَّ يَجِيءُ قَوْمٌ تَسْبِقُ شَهَادَةُ أَحَدِهِمْ يَمِينَهُ، وَيَمِينُهُ شَهَادَتَهُ" [رواه مسلم].

وحديث أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ رَضِيَٱللَّهُعَنۡهُ عَنِ النّبيّ صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ، قَالَ: "يَأْتِي عَلَى النّاس زَمَانٌ، يَغْزُو فِئَامٌ مِنَ النّاس، فَيُقَالُ لَهُمْ: فِيكُمْ مَنْ رَأَى رَسُولَ اللهِ صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ؟ فَيَقُولُونَ: نَعَمْ، فَيُفْتَحُ لَهُمْ، ثُمَّ يَغْزُو فِئَامٌ مِنَ النّاس، فَيُقَالُ لَهُمْ: فِيكُمْ مَنْ رَأَى مَنْ صَحِبَ رَسُولَ اللهِ صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ؟ فَيَقُولُونَ: نَعَمْ، فَيُفْتَحُ لَهُمْ، ثُمَّ يَغْزُو فِئَامٌ مِنَ النّاس، فَيُقَالُ لَهُمْ: هَلْ فِيكُمْ مَنْ رَأَى مَنْ صَحِبَ مَنْ صَحِبَ رَسُولَ اللهِ صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ؟ فَيَقُولُونَ: نَعَمْ فَيُفْتَحُ لَهُمْ" [رواه البخاري، ومسلم].

وحديث عَائِشَةَ ل قَالَتْ: سَأَلَ رَجُلٌ النّبيّ صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ: أَيُّ النّاس خَيْرٌ؟ قَالَ: "الْقَرْنُ الّذي أَنَا فِيهِ، ثُمَّ الثَّانِي، ثُمَّ الثَّالِثُ" [رواه مسلم].

والسلف في الاصطلاح قد يطلق على وصفٍ؛ فيقال: هذا سلفيٌّ، أي على منهج السلف، وهذا خلفيٌّ، أي على طريقة الخَلَف.

قال الإمام الأوزاعي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (فاصبر نفسك على السنة، وقف حيث وقف القوم، وقل فيما قالوا، وكف عما كفوا عنه، واسلك سبيل سلفك الصالح، فإنه يسعك ما وسعهم) [الشريعة للآجري، الإبانة لابن بطة].

فإذا قيل: **"علماءُ السلفِ"** فالمقصود به أمران:

الأمر الأوّل: الذين تقدمونا، ممن ساروا على طريقة السَّلف، فَمِن حيث الزمان هم: كلّ عالِمٍ من القرون الثلاثة المفضَّلة ممَّن اتبع الصحابة ن بإحسان.

الأمر الثّاني: الذين تقدمونا وإن لم يكونوا من القرون الثلاثة المفضلة، وهذا من حيث الوصف: كلّ عالِمٍ بعد القرون الثلاثة ممن سار على نهجهم، ولم يتلطَّخ بالبدع والأهواء الظاهرة؛ بل اتبع الصحابة ن بإحسان.

قال الإمام الدارمي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (فَإِذَا أَعْيَاهُ أَنْ يَعْقِلَهَا مِنَ الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ فَرَأْيُ مَنْ قَبْلَهَ مِنْ عُلَمَاءِ السَّلَفِ خَيْرٌ لَهُ مِنْ رَأْيِ نَفْسِهِ) [نقض الدارمي على بشر].

وقال الغزنوي الحنفي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (الصَّحَابَةُ على حسب مَرَاتِبِهِمْ وأقدارهم، ثمَّ التابعون، ثمَّ تبعُ التَّابِعين، ثمَّ عُلَمَاء السّلف، وَمن بعدهمْ من أَئِمَّة الدّين رَضِي الله عَنْهُم أَجْمَعِينَ) [أصول الدين له].

وأما (علماء السّلف) بأسمائهم؛ فيصعب حصرهم، وعلى رأسهم الصحابة ن، وعلى رأسهم الخلفاء الراشدون، وبقية العشرة المبشرين بالجنّة، وعبد الله

بن مسعود، ومعاذ بن جبل، وزيد بن ثابت، وأبي موسى الأشعري، وأبي الدرداء، والعبادلة؛ ابن عمر، وابن عباس، وابن عمرو، وابن الزبير، وأبي هريرة، وعمران بن حصين، وسلمان الفارسي، وسمرة بن جندب، ونحوهم ن.

"ومن بعدهم من التابعين" أي وبعد علماء السلف من الصحابة ن جاء علماءُ **"التابعين"**.

و**(التابِعُ)** في اللغة: التّالي الّذي يأتي بعدَ الأوَّل، ووَصفٌ يُطلقُ على المؤيِّدِ، والْمُشايِعِ، وهو اسمُ فاعلٍ مِن تَبِعَ فهو تابِعٌ: أي يتبع غيره، والجمعُ: تُبَّعٌ، وتَبَعَةٌ، وتَبَعٌ.

وأمّا (التّابعيّ) في الاصطلاح؛ فهو: من لقي أحدَ الصحابة أو أكثرَ مؤمنًا، ومات على الإسلام.

وأما (علماءُ التّابعين) مِن حيثُ الوصفِ؛ فهم كلّ من لقووا الصحابة ن، وأخذوا عنهم العلمَ، وصاروا على طريقتهم بإحسان.

وأما (علماء التابعين) من حيث العدِّ؛ فهم خلقٌ لا يحصون، ولقد كان العلم الشّرعي سائدًا في زمن الصحابة ن جدًّا، وكانت المعارف الشّرعية شائعًا حدًّا، وهكذا فيمن بعدهم من التابعين، ثم لم يزل في قلٍّ إلى يومنا هذا.

وأما (علماء التابعين) من حيث الاسم؛ فأذكر منهم: مجاهد بن جبر، وعطاء، وعكرمة، وسعيد بن المسيب، وسعيد بن جبير، والفقهاء السبعة المشهورين، وعلقمة، ومسروق، وإبراهيم النخعي، والحسن البصري، وابن سيرين، وقتادة،

والزهري، وزين العابدين علي بن الحسين، وعمر بن عبد العزيز، وأمثالهم، وأترابهم.

ثم يأتي في علماء السلف بعدَ هؤلاءِ علماءُ أجلة معروفون في الأمصار، مشهورون بالفقه ونشر الآثار؛ كابن جريج، وابن أبي ليلى، وأبي حنيفة، ومالك، والشافعي، وأحمدُ، والبخاري، ومسلم، وأبي داود، والترمذي، والنسائي، وابن ماجه، ونحوهم.

وعلماء السلف من الصحابة والتابعين معروفون بالصلاح، ومشهورون بالزهد، وهم مِن **"أهلِ الخير والأثر"**، أي أنّ من صفات علماء السابقين والتابعين أنهم مِن **"أهل الخيرِ..."**، أي أنهم مشهورون بالخيرِ، ومعروفون به، فهم أصحاب الخيرِ في أنفسهم، ومع الخلقِ.

و **"الخير"** اسمُ تفضيلٍ على غير قياسٍ بمعنَى الحسَنِ لذاته، ولما يحققه من نفعٍ، أو سعادةٍ، أو لذةٍ، وهو ضد الشّرِّ، هذا من حيث اللغة.

وجاء في النصوص إطلاق لفظ (الخير) على الكرمِ، والمالِ؛ كما قال تعالى:

﴿إِن تَرَكَ خَيۡرًا ٱلۡوَصِيَّةُ لِلۡوَٰلِدَيۡنِ وَٱلۡأَقۡرَبِينَ﴾ [سورة البقرة، من الآية:١٨٠].

وعلى الحكمةِ؛ كما قال تعالى: ﴿وَمَن يُؤۡتَ ٱلۡحِكۡمَةَ فَقَدۡ أُوتِيَ خَيۡرًا كَثِيرًا﴾ [سورة البقرة، من الآية:٢٦٩].

وعلى التّطوّع في الأعمال الصالحة؛ كما قال تعالى: ﴿وَمَن تَطَوَّعَ خَيۡرًا فَإِنَّ

ﵟٱللَّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌﵞ [سورة البقرة، من الآية:١٥٨].

وعلى الإنفاق؛ كما قال تعالى: ﵟفِدۡيَةٞ طَعَامُ مِسۡكِينٖۖ فَمَن تَطَوَّعَ خَيۡرٗا فَهُوَ خَيۡرٞ لَّهُۥﵞ [سورة البقرة، من الآية:١٨٤].

وعلى حُسْنِ المآل؛ كما قال تعالى: ﵟلَأَجِدَنَّ خَيۡرٗا مِّنۡهَا مُنقَلَبٗاﵞ [سورة الكهف، من الآية:٣٦].

وعلى القرآن؛ كما قال تعالى: ﵟوَقِيلَ لِلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ مَاذَآ أَنزَلَ رَبُّكُمۡۚ قَالُواْ خَيۡرٗاﵞ [سورة النحل، من الآية:٣٠].

فللخير إطلاقات كثيرة، **والأصل الجامع له**: كلّ ما كان حَسَنًا في الشّرع، أو معروفًا حُسْنُه في العقول السليمة.

ويطلق على الذّواتِ؛ كالملائكة، والأنبياء، ويطلق على الصّفات؛ كالصدق، وحسن القول.

وهو مطلقٌ ونسبيٌّ؛ فالمطلق كالجنّة، والنِّسبيّ؛ كالجهادِ، والآيات النّاسخة؛ كما في قوله تعالى: ﵟمَا نَنسَخۡ مِنۡ ءَايَةٍ أَوۡ نُنسِهَا نَأۡتِ بِخَيۡرٖ مِّنۡهَآﵞ [سورة البقرة، من الآية:١٠٦].

وفي أكثر النّسخ وهو الأقرب **"أهل الخبر والأثر"** ويكون المقصود بالخبر هنا عموم الحديث والتحديث عن النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَسَلَّمَ، وهم المحدثون، الرواة منهم وعلماء الحديث، ويقال لهم أصحاب الأخبار، وأهل الأثر،

و "**الأَثَرِ**" أي أنّ من صفات علماء السابقين والتابعين أنهم مِن "**أهل الخبَرِ والأثر**"، فهم مشهورون بهذين الوصفين؛ الخبرِ، "**والأثرِ**".

و "**أهل...الأثر**" أي أنهم أصحابُ الحديثِ، حملة الآثار، المهتمون بالمنقولِ، المفتون به، والحاملون له، المختصون به، وإضافة "أهل" إلى "الخبر" وإلى "الأثر" أفاد الاختصاص والعناية والاشتهار.

وذلك أن من علامات علماء السلف وصفًا اتباعهم لأقوال الصحابة ن في فتاويهم، وكذلك اتباعهم للتابعين وتبعهم، فإن لم يجدوا شيئًا انتقلوا إلى الاجتهاد، ولا يخرجون عن رأي من سبقهم، ولا يخالفون طريقتهم، ولا يشذون عنهم.

و "**الأثرُ**" في اللغةِ: تقديمُ الشيء، وذِكْرُه، ورسمُه، وبقيّةُ ما يُرى من كلّ شيء، وجمعه (آثارٌ)، وهو اسمُ جِنْسٍ يعمّ كلّ مأثورٍ، ومنه قوله تعالى: ﴿أَوۡ أَثَٰرَةٖ مِّنۡ عِلۡمٍ﴾ [سورة الأحقاف، من الآية:٤].

و "الأثر" يطلق في اصطلاح المحدثين بمعنى عامٍّ، وهو: ما أُثِرَ عن النّبيّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَسَلَّمَ، أو عن الصحابة ن، أو عن التابعين رَحِمَهُمُ ٱللَّهُ. وبمعنى خاصٍّ، وهو ما أُثر عن التابعين ومن بعدهم، ويسمَّى المأثور.

وعلماء السلف المشهورون بالخبر والأثر هم أقوى النّاس بالأدلة وبالمدلولات، وهم مع ذلك منقسمون إلى قسمين:

القسم الأوّل: أهل الرّواية، الذين عناهم المصنّف بقوله: "**أهل الخبر والأثر**".

القسم الثّاني: أهل الدِّراية، الذين عناهم المصنّف بقوله: **"أهلِ الفقه والنظر"**؛ فعلماء السلف من الصحابة والتابعين معروفون بالخبر والأَثَرِ، وبالفقه والنظر.

و **"أهل الفقه"** أي أنهم أصحابُ فقه في الآثارِ، مُدركون معانيها، مهتمون بالمعقول منها، مفتون بفقهها، وحاملون لها، مختصُّون بها.

وذلك أنّ مِن علامات علماء السلف وصفًا اتباعهم لفقه الصحابة ن في فتاويهم، وكذلك اتِّبَاعُهم للتّابعين وتبعهم، فإن لم يجدوا شيئًا مِن فقههم، انتقلوا إلى الاجتهاد.

و**"الفقه"** لغة الفهمُ، وإدراك غرض المتكلم من كلامه، وأما **(الفقه)** في الاصطلاح فهو: العلمُ بالأحكام الشّرعية العملية المكتَسَبِ مِن أدلتها التفصيلية.

وفلانٌ من أهل الفقه: إذا صار قادرًا على الاستنباط من الأدلة، ومن هذا المعنى حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وفيه أن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: **"النّاس مَعَادِنُ، خِيَارُهُمْ فِي الجَاهِلِيَّةِ خِيَارُهُمْ فِي الإِسْلاَمِ، إِذَا فَقُهُوا"** [رواه البخاري ومسلم]، بضم القافِ إذا صاروا فقهاء في دين الله تعالى، وأصبحوا علماءَ، وبكسرِ القافِ إذا طلبوا الفقه والتَّفَقُّهَ، وصاروا طلاب علمٍ.

فعلماء السلفِ هم أهلُ الفِقْهِ، و**"النظر"**، ومعنى **"النظر"** في اللغة تَأَمُّلُ الشيء ومعاينته، ثم استعير واتُّسع في استعماله حتّى صار مستخدَمًا بمعنى القياسِ، وإعمال الفكرِ في الشيء.

و **"النظر"** في الاصطلاح: القياس في النسبة بين الشيئين إظهارًا للصواب، أو هو: اجتهادٌ يؤدي إلى علْمٍ، أو اعتقادٍ، أو ظنٍّ.

وهو نظير القياس المعروف عند الأصوليين بأنه: إلحاقُ فرعٍ بأصلٍ في حكمٍ لعلّةٍ جامعةٍ بينهما.

وعلماءُ السلف إنما يلجؤون إلى النظر والقياس إذا لم يجدوا الأثر، ولهذا كان الإمام أبو حنيفة النعمان رَحِمَهُ ٱللَّهُ وغيره من أئمة الإسلام يقولون إن الأدلة عندنا: الكتاب، والسنة، والإجماع، ثم القياس الصّحيح.

ولا يقدمون رأيًا ولا قياسًا على نصٍّ من كتاب الله تعالى، أو من سنة رسولِ الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ولا على إجماعٍ صحيحٍ؛ بل ولا على قولِ صحابيٍّ.

قال الإمام أبو حنيفة النعمان رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (ما جاء عن الله تعالى فعلى الرأس والعينين، وما جاء عن رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فسمعا وطاعة، وما جاء عن الصحابة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ تخيرنا مِن أقوالهم، ولم نخرج عنهم، وما جاء عن التابعين فهم رجال ونحن رجال).

(فلم ينكر عن نفسه مخالفة التابعين، وإنما لم ير الخروج عن أقوال الصحابة توقيرًا لهم) [الإحكام لابن حزم، وتفسير الثعلبي، التحصيل من المحصول للأرموي، والمسودة في أصول الفقه].

ومراد المصنّف رَحِمَهُ ٱللَّهُ: أن علماء السلف قد كانوا أهل خيرٍ وأَثرٍ، وأهلَ فقهٍ ونظرٍ، فهم حصَّلوا المراتب العالية في العلمِ، وكلّ من جاء بعدهم؛ فعلمه دون

علمهم، لا سيما فيما يتعلق بالعلوم الشّرعية، والأحكام الإسلامية.

وما داموا على خيرٍ وصلاحٍ وأثرٍ وفقهٍ ونظرٍ فهم **"لا يُذْكَرُون إلا بالجميل"**، وذلك لأن لهم المكانة العالية في دين الله تعالى؛ فهم علماء الإسلام، وحملة القرآن، وناشروا السنة، ومُبَيِّنُوا الفقه؛ فينبغي أن يُثنَى عليهم، ولا يجوز ذكرهم بغيبة أو نميمة أو نقيصة؛ فضلًا عن افتراء أو فضيحةٍ، وأن نحسن فيهم الظّنّ، وألّا نقول فيهم بالضِّنِّ، فـ**"لا يُذْكَرُون إلا بالجميل"**، ومعنى **"يُذْكَرُون"** أي إذا جاء الحديث عنهم، أو جاء ذِكرُ اسم أحدهم.

وأصلُ **"يذكرون"** من الذِّكرِ، وذكرتُ الشيءَ خلافُ نسيتُه، ثم حُمِل عليه الذِّكرُ باللسان، ويقال: اجعلْهُ منكَ على ذُكْرٍ أي لا تنسَهُ، و(**الذِّكْرُ**): العَلاءُ والشَّرف، هذا من حيث اللغة.

ومراد المصنّف رَحِمَهُ ٱللَّهُ: أنّه لا ينبغي لنا أن نورد ذكر علماء السلف إلا بخيرٍ، وأن نذكرهم بالرفعة والعلو والشّرَفِ الّذي وصلوا إليه من العلم، ومن ذِكرِهم بالجميلِ الترحم عليهم، والاستغفار لهم، وذلك داخل تحت عموم قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ جَآءُو مِنۢ بَعۡدِهِمۡ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱغۡفِرۡ لَنَا وَلِإِخۡوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلۡإِيمَٰنِ وَلَا تَجۡعَلۡ فِي قُلُوبِنَا غِلّٗا لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ رَبَّنَآ إِنَّكَ رَءُوفٞ رَّحِيمٌ﴾ [سورة الحشر، من الآية:١٠].

وأكد هذا المعنى بقوله **"لا يُذْكَرون إلا بالجميل"**، أي بأحسن المحامِل، وبأحسن الأقوال، وبأحسن الأحوالِ.

و "**الجميل**" الحُسْنُ والجمال سواء كان في الخِلْقَةِ، أو في القوْلِ، وهو ضد القبيح.

فلا ينبغي ذكر علماء السلف إلا بالثناء الحسنِ، ويُسكت عما بدر منهم من هفواتٍ، أو هناتٍ، أو زلّاتٍ؛ بل ينبغي التماس العذرِ لهم، وإحسان الظن بهم، وأخذ أقوالهم على أحسن المحامل، واعتبار زلاتهم بأحسن المخارج؛ كما قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (فيجب على المسلمين -بعد موالاة الله تعالى، ورسوله صَلَّىٰ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- موالاةُ المؤمنين؛ كما نطق به القرآن، خصوصًا العلماءُ، الّذين هم ورثة الأنبياء، الّذين جعلهم الله بمنزلة النّجوم، يُهْتَدَى بهم في ظلمات البرّ والبحر، وقد أجمع المسلمون على هدايتهم ودرايتهم...؛ فإنَّ علماءَهم خيارُهم؛ فإنّهم خلفاءُ الرّسول صَلَّىٰ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في أمته، وَالْمُحْيُون لما مات مِن سُنّته، بهم قام الكتاب، وبه قاموا، وبهم نطق الكتاب، وبه نطقوا.

وَلِيُعْلَمَ أنّه ليس أحدٌ مِن الأئمّة -المقبولين عند الأمّة قبولًا عامًّا-يتعمّد مخالفة رسول الله صَلَّىٰ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في شيء مِن سُنّته؛ دقيقٍ ولا جليلٍ؛ فإنّهم مُتَّفِقُون اتفاقًا يقينيًّا على وجوب اتِّبَاعِ الرّسول صَلَّىٰ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وعلى أنَّ كلّ أحدٍ مِن النّاس يُؤْخَذُ مِن قوله ويُتْرَك إلّا رسول الله صَلَّىٰ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

ولكنْ إذا وُجِد لواحدٍ مِنهم قولٌ قد جاء حديثٌ صحيحٌ بخلافه، فلا بُدّ له مِن عُذْرٍ في تركه، وجميعُ الأعذار ثلاثةُ أصناف:

أحدها: عدم اعتقاده أنّ النّبيّ صَلَّىٰ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قاله.

والثّاني: عدم اعتقاده إرادة تلك المسألة بذلك القول.

والثّالث: اعتقاده أنّ ذلك الحكم منسوخ) [رفع الملام عن الأئمة الأعلام].

قوله: **"ومَن ذكرهم بسوء فهو على غير السّبيل"**، أي ومَن ذكر علماء السَّلفِ بغير الجميل، وصار يستطيل في عِرضِهم، ويُخطِّئُهم بظنّه، ويتكلّم عليهم بنقصٍ، وبجراءةٍ؛ فإنّه ليس على سبيل السّلف الصّالحين، الّذين كانوا يجلُّون العلماء، ويُوَقِّرُون الكُبرَاء، ويعرفون لأهل العلم حقّهم، ولأهل الفضل منزلتهم؛ فمن ذكرهم بقُبْحٍ، أو انتقاصٍ، أو استطال أو افترى عليهم؛ **"فهو على غير السّبيل"** أي ليس على طريقة المتبعين للسَّلف الصالح؛ بل يكون قد اعوجَّ عليه الطريق، وانحرف به المنهج.

و **"السّبيل"** لغة الطريق والمنهج والشارعُ، حسيًّا كان أو معنويًّا، وقد جاء إطلاقه في القرآن على معانٍ عدة.

والمراد بالسبيل هنا: الطريقة الّتي كان عليها الصحابة ن والتابعون، وتابِعُهم بإحسانٍ، وهي المذكورة في قوله تعالى: ﴿وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعۡدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلۡهُدَىٰ وَيَتَّبِعۡ غَيۡرَ سَبِيلِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصۡلِهِۦ جَهَنَّمَۖ وَسَآءَتۡ مَصِيرًا﴾ [سورة النساء، من الآية:١١٥]، وفي الآية دليل موميءٌ بأن من خالف سبيل المؤمنين فإنه لا بد وأن يكون متبعًا سبيلًا غير سبيلهم، وهي السُّبُل المعنيةُ في قوله تعالى: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسۡتَقِيمٗا فَٱتَّبِعُوهُۖ وَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلسُّبُلَ

فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾ [سورة الأنعام، من الآية:١٥٣].

وقد خالف في هذا طائفتان:

الطّائفة الأولى: المعتزلة الذين لا يقيمون لعلماء السلف وزنا، ويقولون: هم رجال ونحن رجال؛ وكذلك الخوارجُ الذين لا يَعْتَبرون بفقههم ونظرهم؛ بل وربما يردون الآثار المروية من طريقهم.

الطّائفة الثّانية: غلاةُ المتصوفة والمتفقِّهة الذين يرون تقليد العلماء تقليدًا مُطلقًا، وهذا حالُ عمومِ أهلِ البدع مع علمائهم.

فأهل البدع والزيغ إما أن يردوا ما كان عليه علماء السلف، وإما أن لا يقتنعوا بما كانوا عليه، وإما أن يقدموا علماءهم على علماء السلف، وكان هذا سببًا من أسباب انحرافهم وزيغهم؛ فتركوا الراسخين في العلمِ؛ فوقعوا في الزيغ والفتنة.

وخلاصة كلام المصنف رَحِمَهُ ٱللَّهُ: أهمية معرفة قدر السالفين من العلماء الربانيين، والاقتداء بهم في الدين، والسير على منوالهم في الاستنباط والاتباع.

[تفضيل الأنبياء على الأولياء]

وَلَا نُفَضِّلُ أَحَدًا مِنَ الْأَوْلِيَاءِ عَلَى أَحَدٍ مِنَ الْأَنْبِيَاءِ صَلَوَاتُ اللهِ عَلَيْهِمْ أَجْمَعِينَ، وَنَقُولُ: نَبِيٌّ وَاحِدٌ أَفْضَلُ مِنْ جَمِيعِ الْأَوْلِيَاءِ.

﴿ الشرح ﴾

هذا تقريرٌ من المصنف رَحِمَهُ ٱللَّهُ بأن مكانة الأنبياء في عُلْوٍ ورفعة لا يدركها أحدٌ من الأولياء، وذكره بعد ما مضى من كيفية التعامل مع العلماء إشارة إلى أنّ هؤلاء العلماء هم أولياء الله تعالى، وهم القدوة.

وأنّ مِن عقيدة أهل السنة والجماعة إنزالُ النّاس منازلهم، وأن خيرَ النّاس هم الرّسل والأنبياء عَلَيۡهِمُ ٱلسَّلَامُ، ثم الصحابة ن، ثم علماءُ السلف؛ الذين هم أولياءُ الله تعالى، وخاصّته، ومهما كانت درجة الوليّ فإنّ العقيدة الموروثة عن السلف هي: **"ولا نُفَضّل أحدًا من الأولياء على أحد من الأنبياء"**، وذلك لأنّ النبوَّة درجة اصطفائية لا يبلغها أحدٌ بكدٍّ، ولا ينالها أحدٌ بجُهدٍ، بخلاف الوَلاية؛ فإنها تُنَالُ بالعملِ والتّقوى.

ومما يدل على أنّ النّبوّةَ اصطفاءٌ، والوَلايةَ تَخَلُّقٌ، قول الله تعالى: ﴿ٱللَّهُ يَصۡطَفِي مِنَ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلٗا وَمِنَ ٱلنَّاسِۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعُۢ بَصِيرٞ﴾ [سورة الحج، من الآية:٧٥]، وقوله سبحانه: ﴿وَقَالُواْ لَوۡلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانُ عَلَىٰ رَجُلٖ مِّنَ ٱلۡقَرۡيَتَيۡنِ عَظِيمٍ ٣١ أَهُمۡ يَقۡسِمُونَ رَحۡمَتَ رَبِّكَۚ نَحۡنُ قَسَمۡنَا بَيۡنَهُم مَّعِيشَتَهُمۡ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۚ

﴿وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا ۗ وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾ [سورة الزخرف، من الآية:٣١-٣٢]، وقوله جَلَّ وَعَلَا: ﴿وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَٰهِـۧمَ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفْسَهُۥ ۚ وَلَقَدِ ٱصْطَفَيْنَٰهُ فِى ٱلدُّنْيَا ۖ وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ [سورة البقرة، من الآية:١٣٠].

وحديثُ عَبْدِ اللهِ بْنِ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وفيه أنّه قَالَ: "إِنَّ اللهَ نَظَرَ فِي قُلُوبِ الْعِبَادِ، فَوَجَدَ قَلْبَ مُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ خَيْرَ قُلُوبِ الْعِبَادِ، فَاصْطَفَاهُ لِنَفْسِهِ، فَابْتَعَثَهُ بِرِسَالَتِهِ..." [رواه أحمدُ، وقال الهيثمي: رجاله مُوَثَّقُون].

وحديثُ أوس بن أوس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وفيه قالَ: قالَ رسولُ الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **"إِنَّ اللهَ قد حَرَّمَ عَلَى الْأَرْضِ أَنْ تَأْكُلَ أَجْسَادَ الْأَنْبِيَاءِ"** [رواه أبو داود، والنسائي، وابن ماجه، وابن حبان في صحيحه].

وحديثُ سَعْدِ بْنِ أَبِي وَقَّاصٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ، أَيُّ النّاس أَشَدُّ بَلَاءً؟ قَالَ: **"الْأَنْبِيَاءُ، ثُمَّ الْأَمْثَلُ فَالْأَمْثَلُ، يُبْتَلَى الْعَبْدُ عَلَى حَسَبِ دِينِهِ..."** [رواه الترمذي، وقال: حسنٌ صحيحٌ].

فلا يجوز بحالٍ أنْ نعتقد تفضيلَ أحدٍ مهما كانت مرتبته، أو تسميته، أو تقواه، على أحدٍ من الأنبياءِ، قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ: (أما الغلوُّ في وليٍّ غير النّبيّ حتّى يُفَضَّل على النّبيّ سواء سُمِّيَ وليًّا، أو إمامًا، أو فيلسوفًا...، فبطلانه ظاهرٌ بما عُلِمَ مِن نصوص الكتاب والسّنّة، وما عليه إجماع الأمّة؛ فإنّ

الله جعل الّذين أنعم عليهم أربعة: النّبيّين، والصِّدّيقين، والشّهداء، والصّالحين؛ فغاية مَن بعدَ النّبيّ أنْ يكون صِدِّيقًا؛ كما كان خيرُ هذه الأمّة بعد نبيِّها صِدِّيقًا؛ ولهذا كانت غاية مريم ذلك في قوله: ﴿مَّا ٱلۡمَسِيحُ ٱبۡنُ مَرۡيَمَ إِلَّا رَسُولٞ قَدۡ خَلَتۡ مِن قَبۡلِهِ ٱلرُّسُلُ وَأُمُّهُۥ صِدِّيقَةٞۖ﴾ [سورة المائدة، من الآية:٧٥] [مجموع الفتاوى].

ومما يدل على أنّ الأنبياء عمومًا وخصوصًا أفضلُ من الأولياء عمومًا وخصوصًا أن الوليّ لا يدرك درجة الوَلاية إلا باتباعه الأنبياء، والنّبيّ الخاص به؛ فكيف يكون أعلى منه، وهو الّذي باتباعه نال ما نال.

وقوله: **"ولا نُفَضِّل أحدًا من الأولياء على أحد من الأنبياء** عَلَيۡهِمُ ٱلسَّلَامُ"، فهذا لأنّ مسألة التّفضيل متوقِّفة على النصوصِ، لا سيّما في مسائل الغيب، فإنّا حينما نتكلم عن التفضيل عند الله تعالى؛ فهذا كلام في درجة غيبيّة؛ فلا يمكن الاطّلاع عليه بقياسٍ أو ذوقٍ، وإنّما يمكن إدراكه بنصٍّ، وإذا لم يمكن النَّصُّ وجب التوقّف، وعلى هذا يحمل ما جاء من النَّهي عن التَّفضيلِ؛ كما في حديث أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَسَلَّمَ: **"لَا تُخَيِّرُوا بَيْنَ الْأَنْبِيَاءِ"** [رواه البخاري ومسلم]؛ وهذا النهي إذا كان التخيير بغيرِ نصٍّ ولا بينة من الكتاب والسنة، وكان مبنيا على اجتهادٍ، أو ظنٍّ، أو هوًى، أو عصبيةٍ، أو يؤدي إلى كفرٍ، أو ازدراء لبعض الأنبياءِ عَلَيۡهِمُ ٱلسَّلَامُ.

فيجب على المسلم أن يقولَ في مسائل التّفضيلَ بما قيلَ، ولا يقولُ في التفضيل بالاجتهاد والرأي.

قال الطّيبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (أي لا تَقْدَمُوا على ذلك بأهوائكم، وآرائكم؛ بل بما أتاكم مِن الله مِن البيان، وعلى هذا النّحو قول النّبيّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "**لَا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ أَنْ يَقُولَ: أَنَا خَيْرٌ مِنْ يُونُسَ بْنِ مَتّى**" [أخرجه البخاري ومسلم] أي: لا أقول مِن تلقاء نفسي، ولا أُفَضِّلُ أحدًا عليه مِن حيثُ النّبوّة والرّسالة فإنّ شأنهما لا يختلف باختلاف الأشخاص؛ بل يقول: كلّ مَن أُكْرِمَ بالنُّبوّة فإنّهم سواءٌ فيما جاءوا به عن الله تعالى، وإن اختلفت مراتبهم، وكذلك مَن أُكْرِمَ بالرّسالة، وإليه وقعت الإشارة بقوله سبحانه: ﴿لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِۦ﴾ [سورة البقرة، من الآية:٢٨٥].

وإنّما خصّ يونس عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ بالذِّكْرِ مِن بين الرُّسل لِمَا قصّ اللهُ عليه في كتابه مِن أمر يونس عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، وتولِّيه عن قومه، وضَجَرِه عند تثبّطِهم في الإجابة، وقلّة الاحتمال عنهم والاحتفال بهم، حين أرادوا التّنَصُّل، فقال عز من قائل: ﴿وَلَا تَكُن كَصَاحِبِ ٱلْحُوتِ﴾ [سورة القلم، من الآية:٤٨]، وقال: ﴿وَهُوَ مُلِيمٌ﴾ [سورة الصافات، من الآية:١٤٢]؛ فَلَمْ يأمَن صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أنْ يُخَامِرَ بَوَاطِنُ الضُّعفاء مِن أمَّته ما يعود إلى نقيصةٍ في حقِّهم؛ فنبَّأهم أنَّ ذلك ليس بقادحٍ فيما آتاه الله مِن فضله، وأنّه مع ما كان من شأنه كسائر إخوانه من الأنبياء والمرسلين) [شرح الطيبي على المشكاة].

وهذه قاعدة مطّردة أنّ مسائل التّفضيل لا ينبغي الخوض فيها إلا بنصٍّ من

كتاب الله تعالى، أو بنصٍّ من سنة رسولِ الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، لا بمجرد الظن والتخمين والرأي.

قوله "**ولا نُفَضِّلُ أَحَدًا...**" (**أحدًا**) نكرة في سياق النفي فتعمُّ؛ أي لا نعتقد فضلَ أحدٍ من الأولياءِ مهما كانت مرتبته في الوَلاية، أو منزلته في الدِّراية، على أحدٍ من الأنبياءِ.

وَ "**الأولياءُ**": جمعُ (وَليٍّ)، وهو مِن (وَلِي، يَلِي، وَلاية، ووِلاية) بمعنى المحبّة، والطّاعة، والنّصرة، وقيل: هو بفتح الواو من (المحبة) وزنًا ومعنًى، وبكسر الواو مِن (الإمارة) وزنًا ومعنًى، ويأتي لمعنيين:

المعنى الأوّل: بمعنى اسم الفاعل وهو المحسِنُ، والنَّاصِرُ، والمطيعُ، والوارث، ومَن يتولَّى الأمرَ، و (**الولي**) بهذا المعنى اسمٌ من أسماء الله تعالى؛ كما في قوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلْوَلِيُّ ٱلْحَمِيدُ﴾ [سورة الشورى، من الآية:٢٨].

المعنى الثّاني: بمعنى اسم المفعول، وهو المحسَنُ إليه، المنصورُ، المعبَّدُ، ومتولَّى أمرُه، وبهذا المعنى جاء إطلاقه على العبدِ؛ كما في حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وفيه قال: قال رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "**لَا يَقُلْ أَحَدُكُمُ اسْقِ رَبَّكَ، أَطْعِمْ رَبَّكَ، وَضِّئْ رَبَّكَ، وَلَا يَقُلْ أَحَدُكُمْ رَبِّي، وَلْيَقُلْ سَيِّدِي مَوْلَايَ، وَلَا يَقُلْ أَحَدُكُمْ عَبْدِي أَمَتِي، وَلْيَقُلْ فَتَايَ فَتَاتِي غُلَامِي**" [رواه مسلم].

وقد يُطلَقُ اللفظُ ويراد به المعنيان باعتبارٍ؛ كما في قوله تعالى: ﴿لَّا يَتَّخِذِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [سورة آل عمران، من الآية:٢٨]، فلا

يجوزُ للمؤمن أن يتخذ الكافرَ ناصِرًا على الصحيح من أقوال أهل العلم، ولا أن ينصرَه على المسلمين إجماعًا.

وجاء إطلاق لفظ الأولياءِ مرادًا به المعنيين في آيات متعددة، وذلك باعتبار اسم الفاعل من وجه، واعتبار اسم المفعول من وجهٍ.

وبهذين الاعتبارين يقال: (فلانٌ وليُّ اللهِ تعالى) بمعنى النَّاصِرُ لدين الله تعالى، العامل به، المطيعُ أمر الله تعالى، وباعتبار آخرَ؛ فهو وليُّ الله بمعنى المنصورُ من الله تعالى، وبمعنى المحسَنِ إليه.

و **"الأولياء"** هم الذين قال الله تعالى عنهم: ﴿أَلَآ إِنَّ أَوۡلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ ٦٢ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ ٦٣ لَهُمُ ٱلۡبُشۡرَىٰ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَفِي ٱلۡأٓخِرَةِ﴾ [سورة يونس، من الآية:٦٢-٦٤]، ففي الآية الأولى بيان أثر الوَلاية عليهم، وبيان حالهم، وفي الثانية التعريف بهم، وفي الثالثة بيانُ ما لهم، وحسن مآلهم.

ومنطوق الآية أن الوليّ شرعًا هُو: المؤمنُ التقي، وله شرطان حتّى يصل إلى مرتبة الوَلاية:

الشّرط الأوّل: الإيمان؛ فلا يمكن لكافرٍ أو مشرِكٍ أو منافقٍ أن يصل إلى الوَلاية، وكذلك من لا يمكنه إدراك معنى الإيمان كالجماداتِ، والحيواناتِ، والمجانين، والمجاذيبِ، والصغارِ، ونحوهم.

الشّرط الثّاني: التّقوى؛ فلا يمكنُ لفاجرٍ؛ فضلًا عن مبتدِعٍ، أن يدرِك مرتبة الوَلاية، وذلك لأن التّقوى لا تتأتى إلا بالطّاعة والاتباع.

والأولياء ينقسمون في أنفسهم إلى مرتبتين، وكلّ مرتبة فيها درجات، والنّاس فيها على منازل:

المرتبة الأولى: مَن حصَّل مُطْلَقَ الوَلاية، وذلك بدخوله في الإسلام، وتركه الشرك والكفران؛ فهذا له نوعُ وَلايةٍ، وهي الّتي تجانبُ البُغضَ وحالَ الكافرين، وهذا يختلف فيه باختلاف النّاس في دخولهم في الإسلام، وتركهم البدع وتحقيقهم البعدَ عن الشرك والكفران، وتحصيلهم البعدَ عن الآثام، وتحصيلهم لأخلاق الكرام.

المرتبة الثّانية: مَنْ حصَّل الوَلاية المطلقة، وذلك بوصوله إلى مرتبة التقوى، وتحقيقه البِرّ والإيمان، وأهلُ هذه المرتبة على درجتين:

الدّرجة الأولى: مَن حقَّق كمال الإيمان الواجب، وعلامة تحقيق وَلايتهم كونهم يفعلون الواجبات، ويتركون المحرمات.

الدّرجة الثّانية: مَن حقَّق كمال الإيمان الواجب، وتخطَّاه بحيث وصل إلى كمال الإيمان المستحبِّ، وعلامة تحقيق ولايتهم كونهم يتركون المكروهات، ويتحرون في المباحات.

والمقصود مِن قول المصنّف هنا هؤلاءِ الْكُمَّل؛ فمهما كانت وَلايتهم فإنهم لا يصلون عندَ الله تعالى إلى مرتبة النبوة، ولا ينبغي لمؤمن أن يفضِّل وليًّا على نبيٍّ

أبدًا، وهذه عقيدة فنصَرِّح بها: **"ونقول: نبي واحد أفضل من جميع الأولياء"**؛ وهذا التفضيل من حيث العمومِ؛ فكل نَبِيٍّ أفضل مِن أيّ وليٍّ، ومن حيث الخصوص فأي نبيٍّ يُتَصَوَّرُ تقديرُه فهو أفضلُ مِن أيّ وَلِيٍّ يُمْكِنُ تخييله.

وأهلُ السنة مُطْبِقُون على تفضيل الأنبياءِ على الأولياءِ، ولا يُعلم خلافٌ في هذه المسألة إلا متأخِّرًا، وذلك لما نشأت الفرقُ البدعية؛ فكانت مسألةُ تفضيل وليٍّ على نبيٍّ من البدع الّتي ظهرت بعدُ، وهي من ضلالات الفلاسفة أصلًا في تفضيل الفلاسفة على الأنبياء، ثُمَّ سَرَتْ إِلَى غُلاةِ الْمُتَصَوِّفة، وظهرتْ عندَ غُلاةِ الرَّافضة؛ فهم يُفَضِّلُون الأولياء أو الأئمة على آحاد الأنبياء، ويزعمون أن درجة الولي فوق النّبيّ، وهذا منهم جفاء مع الأنبياء عَلَيۡهِمُ ٱلسَّلَامُ، وقد سبق أنْ ذَكَرْتُ الأدلّة الدّالّة على فضلِ الأنبياءِ، وعلوِّ منزلتهم عند الله تعالى، وأزيدُ هنا من هذه الأدلة قول الله تعالى: ﴿تِلۡكَ ٱلرُّسُلُ فَضَّلۡنَا بَعۡضَهُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖۘ مِّنۡهُم مَّن كَلَّمَ ٱللَّهُۖ وَرَفَعَ بَعۡضَهُمۡ دَرَجَٰتٖۚ وَءَاتَيۡنَا عِيسَى ٱبۡنَ مَرۡيَمَ ٱلۡبَيِّنَٰتِ وَأَيَّدۡنَٰهُ بِرُوحِ ٱلۡقُدُسِۗ﴾ [سورة البقرة، من الآية:٢٥٣]، وقال بعد ما ذكر عددًا من الرسل والأنبياء: ﴿وَكُلّٗا فَضَّلۡنَا عَلَى ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ [سورة الأنعام، من الآية:٨٦]، قال أبو حيان الأندلسي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (فيه دلالة على أنّ الأنبياء أفضل مِن الأولياء، خلافًا لبعض مَن ينتمي إلى التَّصوّف في زعمهم أنّ الولي أفضل مِن النّبيّ؛ كمحمد بن العربي الحاتميّ صاحبِ كتابِ الفتوح المكية، وعنقاءِ مَغرِب، وغيرهما، مِن كتب الضلال.

وفيه دلالة على أنّ الأنبياء أفضل من الملائكة؛ لعموم ﴿ٱلْعَالَمِينَ﴾ وهم الموجودون سوى الله تعالى؛ فيندرج في العموم الملائكة) [تفسير البحر المحيط].

ولما ذكر عددا من الأنبياء قال الله تعالى: ﴿وَإِنَّهُمْ عِندَنَا لَمِنَ ٱلْمُصْطَفَيْنَ ٱلْأَخْيَارِ﴾ [سورة ص، من الآية:٤٧]، ودلت الآية على أن الأنبياء مُصطفُون مختارُون من الله تعالى؛ فكيف يدرك شأنهم مَن سعى بنفسه إلى الاصطفاء بالصفاء، وعمل بالمختار للاختيار؛ إذ لا يمكن أن يكون اصطفاءُ المخلوق كاصطفاء الخالق، ولا اختيار المخلوق كاختيار الخالق جل في علاه.

ووجه آخر يدل على أن الأنبياء أفضل من الأولياء، وذلك أن الولي قد بلغ بسبب الإيمان والتقوى مبلغ الوَلاية، وهذا المعنى بعينه موجود عند النّبيّ وازداد برتبة النبوة؛ فكيف يكون الولي مثله أو أفضل منه.

وهنا وجهٌ آخرُ وهو أن ما يكون للأنبياء من معجزات أعظمُ ما للأولياءِ من كراماتٍ؛ بل إن كرامات الأولياء شيءٌ من معجزات الأنبياء؛ فكيف يكون الولي أفضل من النّبيّ؟!

وأهل السنة والجماعة يُنزلون النّاس منازلهم، ولا يُنكرون ما جاء مِن فضائلهم، ومِن ذلك ما جاء من فضائل الأولياء عند الله تعالى، وهي كثيرةٌ وإن كانت دون الأنبياء، ومنها:

الفضل الأوّل: أنهم أولياءُ الله تعالى، ولذلك يرفع الله تعالى شأنهم في الدّنيا

والآخرة، قال الله تعالى: ﴿لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِي ٱلْآخِرَةِ﴾ [سورة يونس، من الآية:٦٤].

الفضل الثّاني: أنهم في أمنٍ عن الخوفِ، وفي ودعَةٍ عن الحزن، كما في آية الولاية: ﴿أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [سورة يونس، من الآية:٦٢].

الفضل الثّالث: أنهم أحبّاءُ اللهِ، ومُحبُّوه، كما في قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ [سورة الجاثية، من الآية:١٩]، وهم المعنيون في حديث: أَبِي هُرَيْرَةَ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **"إِنَّ اللهَ قَالَ: مَنْ عَادَى لِي وَلِيًّا فَقَدْ آذَنْتُهُ بِالحَرْبِ، وَمَا تَقَرَّبَ إِلَيَّ عَبْدِي بِشَيْءٍ أَحَبَّ إِلَيَّ مِمَّا افْتَرَضْتُ عَلَيْهِ، وَمَا يَزَالُ عَبْدِي يَتَقَرَّبُ إِلَيَّ بِالنَّوَافِلِ حتّى أُحِبَّهُ، فَإِذَا أَحْبَبْتُهُ: كُنْتُ سَمْعَهُ الَّذِي يَسْمَعُ بِهِ، وَبَصَرَهُ الَّذِي يُبْصِرُ بِهِ، وَيَدَهُ الَّتِي يَبْطِشُ بِهَا، وَرِجْلَهُ الَّتِي يَمْشِي بِهَا، وَإِنْ سَأَلَنِي لَأُعْطِيَنَّهُ، وَلَئِنِ اسْتَعَاذَنِي لَأُعِيذَنَّهُ، وَمَا تَرَدَّدْتُ عَنْ شَيْءٍ أَنَا فَاعِلُهُ تَرَدُّدِي عَنْ نَفْسِ المُؤْمِنِ، يَكْرَهُ المَوْتَ وَأَنَا أَكْرَهُ مَسَاءَتَهُ"** [رواه البخاري].

الفضل الرّابع: أَنَّهم منصورون مِنَ الله تعالى؛ فهو سبحانه ينصرهم، ويؤيدهم، ويدفع عنهم، ودليله ما في الحديث السابق.

الفضل الخامس: أنهم أهلُ رحمةِ الله تعالى، كما قال سبحانه: ﴿وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ

وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤۡتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَيُطِيعُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓۚ أُوْلَٰٓئِكَ سَيَرۡحَمُهُمُ ٱللَّهُۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٞ﴾ [سورة التوبة، من الآية:٧١].

وفضائل الأولياء كثيرة، وإنما ذكرتُ بعضها، وفيما سبق إشارة إلى كونهم مِن أهل كرامة الله تعالى، إذ أكرمهم سبحانه بالطاعة والقرب والمنزلة والمحبة، والجزاء الأعلى الحسن، وهذه من أفضل كراماتهم.

وخلاصة كلام المصنف رَحِمَهُ ٱللَّهُ: أنه يجب اعتقاد علوّ درجة الأنبياء على كل البشرِ من حيث العموم؛ بل وعلى الأولياء من حيث الخصوص؛ فإن الأولياء وإن كانت لهم الدرجات العلا عند الله تعالى إلا أنهم دون الأنبياء في الملأ الأعلى.

[الإيمان بكرامات الأولياء]

وَنُؤْمِنُ بِـمَا جَاءَ مِنْ كَرَامَاتِـهِمْ، وَمَا صَحَّ عَنِ الثِّقَاتِ مِنْ رِوَايَاتِـهِمْ.

الشرح

هذا بيان من المصنف رَحِمَهُ ٱللَّهُ أنّ الأولياء لهم كراماتٍ، وأن هذه الكرامات لا يجوز إنكارها إذا ثبتت، وأن الإقرار بها بعد الثبوت هو منهج وطريقة أهل السنة.

وقوله: **"ونؤمن بما جاء من كراماتهم"** أي ونقرُّ ونثبت ما جاء من كرامات الأولياء، فهذه عقيدةُ أهل السنة أنهم لا ينكرون ما ثبت للأولياء من كرامات الله تعالى لهم؛ كما ثبت ذلك في الكتاب والسنة، واستفاض عن خيار الأمة.

و(**الكرامات**) جمعُ (كرامة)، وهي في اللغة: اسمٌ مصدرٍ للإكرامِ وللتَّكرُّم، وهو إيصال الشيء الكريم إلى المكرَم، وإكرامه وتعظيمه، ومن معاني (الكرامة) أيضًا؛ الرَّفاهية، والإحسانُ، والعطاءُ، والحبورُ، والاحتفاءُ به، وضدُّ الكرامةِ الإهانةُ والهوانُ، وهم قومٌ كرَامٌ أي مكرِمون، ومُكْرَمون.

ودار الكرامةِ اسمٌ من أسماء الجنّة، والكرامةُ المنزلةُ العاليةُ الرفيعة في الجنّة؛ كما في حديث أَنَسِ بْنَ مَالِكٍ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ يُحَدِّثُ عَنِ النَّبِيّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: **"مَا مِنْ أَحَدٍ يَدْخُلُ الجنّة يُحِبُّ أَنْ يَرْجِعَ إِلَى الدّنيا، وَأَنَّ لَهُ مَا عَلَى الْأَرْضِ مِنْ شَيْءٍ، غَيْرُ الشَّهِيدِ، فَإِنَّهُ يَتَمَنَّى أَنْ يَرْجِعَ، فَيُقْتَلَ عَشْرَ مَرَّاتٍ، لِمَا يَرَى مِنَ الْكَرَامَةِ"** [رواه البخاري ومسلم].

وأما (**الكرامة**) في الاصطلاح فهي: ظهورُ أمرٍ خارقٍ للعادة لشخصٍ ملازمٍ للإيمان والعمل الصالح.

ومثالُ الكرامات ما جاء في القرآنِ من إكرامِ الله تعالى مريم بفاكهة الصيف وقت الشتاء، وبفاكهة الشتاء وقت الصيف؛ كما قال تعالى: ﴿كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا ٱلْمِحْرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزْقًا ۖ قَالَ يَٰمَرْيَمُ أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَا ۖ قَالَتْ هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [سورة آل عمران، من الآية:٣٧].

و(**الكرامات**) من جنسِ معجزات الأنبياءِ، فما يظهر من خوارق العادات بادِّعاءِ وبرهانٍ مع الصلاحِ فمن المعجزاتِ، وهي جمعُ مُعْجِزَة، وهي الآياتُ والدلائلُ والبراهين على صدقِ النبوة والنّبيّ.

والمعجزات في الاصطلاح: الأمرُ الخارق للعادة يظهر على يدِ نبيٍّ؛ كإنجاءِ الله نوحًا عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ ومَن معه من الغرق، وإنجاء إبراهيم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ من النّار، وفلق البحر لموسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ وإغراق فرعون وقومه، وإبراءِ عيسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ من العاهات، ونحو ذلك.

ومعجزات الأنبياء أعظم مِن كرامات الأولياء من وجهين:

الوجه الأوّل: أنها أعظم، وأكبر، وأن كرامات الأولياء دونها، ومثالُ ذلك فلقُ البحرِ معجزةُ موسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، وقد يكون لآحاد الأولياء أن يتيسر له المشيء على الماء فلا يغرق. ومثال آخرُ: أن الله تعالى جعل معجزة عيسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ الإبراء مطلقًا مِن البرص والجذام والكَمَهِ وغيرها من العاهات، والإحياء بعد

الإماتة، وقد يكون لآحاد الأولياء أن يتيسر له برقية أو دعاءٍ إبراءُ بعض الأمراضِ.

الوجه الثّاني: أنها تظهرُ متى ما أراد النّبيّ إظهارها، وأما الكرامةُ فهي عطية من الله تعالى لا يقدرُ الولي على إظهارها متى ما أراد؛ بل هي مرتبطة بتضرعه، ودعائه، وقتها وحينها.

وما قد يظهر من خوارق العادات على يدِ شخصٍ غير مؤمنٍ ولا صالحٍ؛ فهو استدراجٌ؛ كما قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا سَنَسۡتَدۡرِجُهُم مِّنۡ حَيۡثُ لَا يَعۡلَمُونَ﴾ [سورة الأعراف، من الآية:١٨٢]، ومن صورِ هذا الاستدراج ما ذكره الله تعالى في قوله تعالى: ﴿أَيَحۡسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِۦ مِن مَّالٖ وَبَنِينَ ۝٥٥ نُسَارِعُ لَهُمۡ فِي ٱلۡخَيۡرَٰتِۚ بَل لَّا يَشۡعُرُونَ﴾ [سورة المؤمنون، من الآية:٥٥-٥٦].

ومن جنس هذا الاستدراج ما جاء في السنة الصحيحة مما يكون على يد الدّجّال، وما يظهرُ معه من الأمور الخارقة للعادةِ الكونية المطردة، كما سبقت الإشارة إلى شيء من ذلك في الأحاديث.

فالكراماتُ حقٌّ، ولا ينكرها أهلُ السنة والجماعة؛ ولكنهم إنما يثبتون ما ثبت منها، مما جاء في كتاب الله تعالى من كرامةِ ابنِ آدم حيث تُقُبِّل قربانه، وصبرَ على أخيهِ، ولَمْ يَـمُدّ يده عليه؛ ليُكرَم عندَ الله تعالى، ومن ذلك ما أكرمَ الله تعالى به المؤمنين مع نوحٍ عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ من النجاة، وما أكرم الله تعالى به قوم موسى من

الغرق، وما أكرم الله تعالى به أصحاب الكهفِ، ونحو ذلك، ما جاء في الأحاديث الصحيحة؛ كما في قصة أصحاب الغارِ الثلاثة المشهورة، وكما في قصة صاحب الخشبة المعروفة، وكما في قصة صاحب البستان في حديث أَبِي هُرَيْرَةَ، عَنِ النّبيّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: **"بَيْنَا رَجُلٌ بِفَلَاةٍ مِنَ الْأَرْضِ، فَسَمِعَ صَوْتًا فِي سَحَابَةٍ: اسْقِ حَدِيقَةَ فُلَانٍ، فَتَنَحَّى ذَلِكَ السَّحَابُ، فَأَفْرَغَ مَاءَهُ فِي حَرَّةٍ، فَإِذَا شَرْجَةٌ مِنْ تِلْكَ الشِّرَاجِ قَدِ اسْتَوْعَبَتْ ذَلِكَ الْمَاءَ كُلَّهُ، فَتَتَبَّعَ الْمَاءَ، فَإِذَا رَجُلٌ قَائِمٌ فِي حَدِيقَتِهِ يُحَوِّلُ الْمَاءَ بِمِسْحَاتِهِ، فَقَالَ لَهُ: يَا عَبْدَ اللهِ مَا اسْمُكَ؟ قَالَ: فُلَانٌ - لِلِاسْمِ الَّذِي سَمِعَ فِي السَّحَابَةِ- فَقَالَ لَهُ: يَا عَبْدَ اللهِ لِمَ تَسْأَلُنِي عَنِ اسْمِي؟ فَقَالَ: إِنِّي سَمِعْتُ صَوْتًا فِي السَّحَابِ الَّذِي هَذَا مَاؤُهُ يَقُولُ: اسْقِ حَدِيقَةَ فُلَانٍ، لِاسْمِكَ، فَمَا تَصْنَعُ فِيهَا؟ قَالَ: أَمَّا إِذْ قُلْتَ هَذَا، فَإِنِّي أَنْظُرُ إِلَى مَا يَخْرُجُ مِنْهَا، فَأَتَصَدَّقُ بِثُلُثِهِ، وَآكُلُ أَنَا وَعِيَالِي ثُلُثًا، وَأَرُدُّ فِيهَا ثُلُثَهُ"** [رواه مسلم].

وكل ما ثبت في الأحاديث من كرامات الأولياء نثبتها، ونقر بها، وكذلك ما جاء **"وصحّ عن الثّقات مِن رُوَاتهم"**، وإنَّما نقبل من الكرامات ما ثبت من روايات الثقات دون غيرهم، وذلك لأنّ ما قيل في الكرامات كثيرٌ منه غير ثابتٍ، وما ثبت فهو إما أن يكون منقولًا عن وجهه، أو على غير وجهه؛ فلا يقبلُ أهل السنة في هذا الباب من الكرامات إلا ما رواه **"الثّقات"**، جمع (ثِقة)، وهو في اللغةِ: مَن يُعتمدُ عليه، ويؤمنُ جانبه، والذي يوثق به، وهو مصدرٌ من وثِقتُ به، فهو موثوقٌ، و(**الثّقة**): وَصْفٌ يَسْتَوي فيه المذكر والمؤنث والمفرد والمثنى

والجمع، وقد يجمع في الذكور والإناث على "**الثقات**".

و(**الثقة**) في الاصطلاح: هو الضابطُ لما يروي، العدل الّذي خُبِرَ بملازمة التقوى والمروءة.

فلا نقبلُ من كرامات الأولياء غير المذكور في القرآن والسنة الصحيحة إلا ما ثبت من طريق الثقات من رواتهم.

و"**رواتهم**" جمعُ (راوٍ)، وهو مضافٌ إلى ضمير الجمع "هم"، وهو راجعٌ إلى الأولياءِ؛ فإنما نقبل من كرامات الأولياءِ مَن نقله عنهم مَن هم مِثلهم أو قريبٌ منهم في الرتبة، بحيث لا يلتبس عليه كرامات الأولياء باستدراجات الشياطين، وأحوالات السحرة والمشعوذين، ولا نقبل في هذا الباب ما تنقله العامة، وما يرويه من لا يشهد جمعة ولا جماعة، من الطُّرقيّة ونحوهم.

و(**الراوي**) لغةً هو: الْمُخْبِرُ، وَالْقَاصُّ، وَالْمُتَحَدِّثُ، والذَّاكِرُ لحديث غيره، والآثرِ للكلام عن غيره.

و"**الرواة**" في الاصطلاح: سلسلة رجال الإسناد الموصلين للكلام.

فمتى ما كان الراوي غير ثقة، أو كان في الاسناد انقطاعًا فإن الخبر لا يقبل، ويكون ما ينقله مجرد حكايةٍ، ولا يجوز البناءُ عليها، ولا نشرها.

فنثبت هذه الكرامات ما دام قد وصل إلينا بطريقٍ صحيحٍ، ومن أمثلة ذلك ما نقله الثقات من كراماتٍ بأسانيد لا يمكن الطعن فيها، ومنها:

حديث عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ أَبِي بَكْرٍ ب: (أَنَّ أَصْحَابَ الصُّفَّةِ، كَانُوا نَاسًا فُقَرَاءَ،

وَإِنَّ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ مَرَّةً: **"مَنْ كَانَ عِنْدَهُ طَعَامُ اثْنَيْنِ فَلْيَذْهَبْ بِثَلَاثَةٍ، وَمَنْ كَانَ عِنْدَهُ طَعَامُ أَرْبَعَةٍ فَلْيَذْهَبْ بِخَامِسٍ، بِسَادِسٍ"**، وَانْطَلَقَ نَبِيُّ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِعَشَرَةٍ، وَأَبُو بَكْرٍ بِثَلَاثَةٍ، قَالَ: وَإِنَّ أَبَا بَكْرٍ تَعَشَّى عِنْدَ النّبيّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ثُمَّ لَبِثَ حتّى صُلِّيَتِ الْعِشَاءُ، ثُمَّ رجَعَ، فَلَبِثَ حتّى نَعَسَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَجَاءَ بَعْدَمَا مَضَى مِنَ اللَّيْلِ مَا شَاءَ اللهُ، قَالَتْ لَهُ امْرَأَتُهُ: مَا حَبَسَكَ عَنْ أَضْيَافِكَ؟ قَالَ: أَوَ مَا عَشَّيْتِهِمْ؟ قَالَتْ: أَبَوْا حتّى تَجِيءَ، قَدْ عَرَضُوا عَلَيْهِمْ فَغَلَبُوهُمْ...، وَقَالَ: وَاللهِ لَا أَطْعَمُهُ أَبَدًا، قَالَ: فَأَيْمُ اللهِ، مَا كُنَّا نَأْخُذُ مِنْ لُقْمَةٍ إِلَّا رَبَا مِنْ أَسْفَلِهَا أَكْثَرَ مِنْهَا، قَالَ: حتّى شَبِعْنَا وَصَارَتْ أَكْثَرَ مِمَّا كَانَتْ قَبْلَ ذَلِكَ، فَنَظَرَ إِلَيْهَا أَبُو بَكْرٍ فَإِذَا هِيَ كَمَا هِيَ أَوْ أَكْثَرُ، قَالَ لِامْرَأَتِهِ: يَا أُخْتَ بَنِي فِرَاسٍ مَا هَذَا؟ قَالَتْ: لَا وَقُرَّةِ عَيْنِي، لَهِيَ الْآنَ أَكْثَرُ مِنْهَا قَبْلَ ذَلِكَ بِثَلَاثِ مِرَارٍ، قَالَ: فَأَكَلَ مِنْهَا أَبُو بَكْرٍ، وَقَالَ: إِنَّمَا كَانَ ذَلِكَ مِنَ الشَّيْطَانِ يَعْنِي يَمِينَهُ، ثُمَّ أَكَلَ مِنْهَا لُقْمَةً، ثُمَّ حَمَلَهَا إِلَى رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَأَصْبَحَتْ عِنْدَهُ، قَالَ: وَكَانَ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمٍ عَقْدٌ، فَمَضَى الْأَجَلُ فَعَرَّفْنَا اثْنَا عَشَرَ رَجُلًا مَعَ كلّ رَجُلٍ مِنْهُمْ أُنَاسٌ اللهُ أَعْلَمُ كَمْ مَعَ كلّ رَجُلٍ، إِلَّا أَنَّهُ بَعَثَ مَعَهُمْ فَأَكَلُوا مِنْهَا أَجْمَعُونَ) [رواه البخاري ومسلم].

وحديثُ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيَّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ حَدَّثَهُ أَنَّ أُسَيْدَ بْنَ حُضَيْرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بَيْنَمَا هُوَ لَيْلَةً يَقْرَأُ فِي مِرْبَدِهِ، إِذْ جَالَتْ فَرَسُهُ، فَقَرَأَ، ثُمَّ جَالَتْ أُخْرَى، فَقَرَأَ، ثُمَّ جَالَتْ أَيْضًا، قَالَ أُسَيْدٌ: فَخَشِيتُ أَنْ تَطَأَ يَحْيَى، فَقُمْتُ إِلَيْهَا، فَإِذَا مِثْلُ الظُّلَّةِ فَوْقَ رَأْسِي

فِيهَا أَمْثَالُ السُّرُجِ، عَرَجَتْ فِي الْجَوِّ حتّى مَا أَرَاهَا، قَالَ: فَغَدَوْتُ عَلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ، فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ بَيْنَمَا أَنَا الْبَارِحَةَ مِنْ جَوْفِ اللَّيْلِ أَقْرَأُ فِي مِرْبَدِي، إِذْ جَالَتْ فَرَسِي، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: **"اقْرَأ ابْنَ حُضَيْرٍ"** قَالَ: فَقَرَأْتُ، ثُمَّ جَالَتْ أَيْضًا، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: **"اقْرَأ ابْنَ حُضَيْرٍ"** قَالَ: فَقَرَأْتُ، ثُمَّ جَالَتْ أَيْضًا، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: **"اقْرَأ ابْنَ حُضَيْرٍ"** قَالَ: فَانْصَرَفْتُ، وَكَانَ يَحْيَى قَرِيبًا مِنْهَا، خَشِيتُ أَنْ تَطَأَهُ، فَرَأَيْتُ مِثْلَ الظُّلَّةِ فِيهَا أَمْثَالُ السُّرُجِ، عَرَجَتْ فِي الْجَوِّ حتّى مَا أَرَاهَا، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: **"تِلْكَ الْمَلَائِكَةُ كَانَتْ تَسْتَمِعُ لَكَ، وَلَوْ قَرَأْتَ لَأَصْبَحَتْ يَرَاهَا النّاس مَا تَسْتَتِرُ مِنْهُمْ"** [رواه البخاري ومسلم].

وحديث أبي هريرة رضي الله عنه في قصة أسرِ خبيبٍ رضي الله عنه قال: (...فَلَبِثَ خُبَيْبٌ عِنْدَهُمْ أَسِيرًا، فَأَخْبَرَنِي عُبَيْدُ اللهِ بْنُ عِيَاضٍ، أَنَّ بِنْتَ الحَارِثِ أَخْبَرَتْهُ: وَاللهِ مَا رَأَيْتُ أَسِيرًا قَطُّ خَيْرًا مِنْ خُبَيْبٍ، وَاللهِ لَقَدْ وَجَدْتُهُ يَوْمًا يَأْكُلُ مِنْ قِطْفِ عِنَبٍ فِي يَدِهِ، وَإِنَّهُ لَمُوثَقٌ فِي الحَدِيدِ، وَمَا بِمَكَّةَ مِنْ ثَمَرٍ، وَكَانَتْ تَقُولُ: إِنَّهُ لَرِزْقٌ مِنَ اللهِ رَزَقَهُ خُبَيْبًا...) [رواه البخاري].

فهذه عقيدة أهل السنة والجماعة في كرامات الأولياء، وما يقبلونها من الكرامات مما يرويه الثقات، مما جرى على أيديهم بأمر الله تعالى من الفضائل والمآثر، ولا ينكرون الكرامات كحال المعتزلة، ولا يتوسعون فيها كحال غلاة المتصوفة الذين جعلوا أولياء الشيطان أولياء للرحمن.

[الإيمان بأشراط الساعة الكبرى]

وَنُؤْمِنُ بِأَشْرَاطِ السَّاعَةِ، وَبِخُرُوجِ الدَّجَّالِ اللَّعِينِ، وَنُزُولِ عِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ مِنَ السَّمَاءِ، وَبِخُرُوجِ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ، وَنُؤْمِنُ بِطُلُوعِ الشَّمْسِ مِنْ مَغْرِبِهَا، وَخُرُوجِ دَابَّةِ الْأَرْضِ مِنْ مَوْضِعِهَا، وَسَائِرِ عَلَامَاتِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ عَلَى مَا وَرَدَتِ بِهِ الْأَخْبَارُ الصَّحِيحَةُ.

﴿ الشرح ﴾

هذا تقرير من المصنف رَحِمَهُ ٱللَّهُ فيما يتعلق بمسائل الإيمان باليوم الآخر، وعلى وجه الخصوص فيما يتعلق بأشراط الساعة، وأنه لا بد من اعتقادها، وإثباتها؛ كما جاء في الأخبار.

قوله: **"ونؤمن بأشراط الساعة"** أي أنّ من عقيدة أهل السنة والجماعة الإقرارُ بأشراط الساعة، وهي من الإيمان باليوم الآخر، الّذي هو الركن الخامس من أركان الإيمان.

و**"أشراط الساعة"** أي علاماتها، وأماراتها، والمقدمات الّتي تكون بين يديها، و**"أشراط"** جمع (شَرَطٍ)، وهي العلامة، قال الله تعالى: ﴿فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا ٱلسَّاعَةَ أَن تَأْتِيَهُم بَغْتَةً فَقَدْ جَآءَ أَشْرَاطُهَا﴾ [سورة محمد، من الآية:١٨].

و**"الساعة"** اسمٌ من أسماءِ يوم القيامة، وسميت القيامة به؛ لأنّ لها وقتًا محدَّدًا، وقد حددّ الله تعالى وقتها، وعيَّن ميعادها، ولكن لا أحدَ يعلم هذا الوقت إلا ربّ العالمين؛ كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا

﴿لِتُجۡزَىٰ كُلُّ نَفۡسِۭ بِمَا تَسۡعَىٰ﴾ [سورة طه، من الآية:١٥]، وقال سبحانه: ﴿يَسۡـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرۡسَىٰهَاۖ قُلۡ إِنَّمَا عِلۡمُهَا عِندَ رَبِّيۖ لَا يُجَلِّيهَا لِوَقۡتِهَآ إِلَّا هُوَۚ﴾ [سورة الأعراف، من الآية:١٨٧]، وقال جَلَّ وَعَلَا: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلۡمُ ٱلسَّاعَةِ﴾ [سورة لقمان، من الآية:٣٤].

وأشراط الساعة مُنْقِسَمَةٌ إلى قسمين:

القسم الأول: أشراطٌ صغرى، وهي الّتي تكون سابقة على الساعة بمدة ليست باليسيرة، وهي منقسمة إلى ثلاثة أنواع:

النّوع الأوّل: أشراطٌ ظهرتْ وانقضَت، نحوُ: بعثةُ النّبيّ صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ، وانشقاق القمر، وموْتُ النّبيّ صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ، وخروج الكذابين المدعين للنبوة، وولادة الأمةِ ربتها، وخروجُ نارٍ من أرض الحجازِ أضاءت له أعناق الإبل ببُصْرَى، وتطاول النّاس في البنيان ببناء ناطحات السحاب.

النّوع الثّاني: أشراطٌ ظهرت، وهي مستمرة، وربما كان بعضها حتّى بعد ظهور أشراط الساعة الكبرى، نحوُ: ضياع الأمانة، وفشوُّ المعاصي، واختلاف الأمة، والفتن، وقبضُ العلم، وظهور الجهل، وقطع الأرحام، وسوء الجوار، وظهور الفساد.

النّوع الثّالث: أشراطٌ لم تظهر، وستظهرُ، نحوُ تكليم السّباعِ والجمادِ للإنس، وكثرة الزلازل، وظهور الخسفِ، والقذفِ، والمسخِ في هذه الأمَّة.

وقد جاءت عدة أحاديث تدلّ على هذه الأنواع مِن أشراط الساعة الصغرى، ومنها:

حديث عَوْفِ بْنِ مَالِكٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: أَتَيْتُ النَّبِيّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي غَزْوَةِ تَبُوكَ وَهُوَ فِي قُبَّةٍ مِنْ أَدَمٍ، فَقَالَ: **"اعْدُدْ سِتًّا بَيْنَ يَدَيِ السَّاعَةِ: مَوْتِي، ثُمَّ فَتْحُ بَيْتِ المَقْدِسِ، ثُمَّ مُوْتَانٌ يَأْخُذُ فِيكُمْ كَقُعَاصِ الغَنَمِ، ثُمَّ اسْتِفَاضَةُ المَالِ حتّى يُعْطَى الرَّجُلُ مِائَةَ دِينَارٍ فَيَظَلُّ سَاخِطًا، ثُمَّ فِتْنَةٌ لاَ يَبْقَى بَيْتٌ مِنَ العَرَبِ إِلَّا دَخَلَتْهُ، ثُمَّ هُدْنَةٌ تَكُونُ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ بَنِي الأَصْفَرِ، فَيَغْدِرُونَ فَيَأْتُونَكُمْ تَحْتَ ثَمَانِينَ غَايَةً، تَحْتَ كلّ غَايَةٍ اثْنَا عَشَرَ أَلْفًا"** [رواه البخاري].

وحديث أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أَنَّ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: **"لَا تَقُومُ السَّاعَةُ حتّى يَكْثُرَ الْمَالُ وَيَفِيضَ، حتّى يَخْرُجَ الرَّجُلُ بِزَكَاةِ مَالِهِ فَلَا يَجِدُ أَحَدًا يَقْبَلُهَا مِنْهُ، وحتّى تَعُودَ أَرْضُ الْعَرَبِ مُرُوجًا وَأَنْهَارًا"** [رواه البخاري ومسلم وهذا لفظه].

وحديث أَنَسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: لَأُحَدِّثَنَّكُمْ حَدِيثًا لاَ يُحَدِّثُكُمُوهُ أَحَدٌ بَعْدِي، سَمِعْتُهُ مِنَ النّبيّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، سَمِعْتُ النَّبِيّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ: **"مِنْ أَشْرَاطِ السَّاعَةِ؛ أَنْ يُرْفَعَ العِلْمُ، وَيَظْهَرَ الجَهْلُ، وَيُشْرَبَ الخَمْرُ، وَيَظْهَرَ الزِّنَا، وَيَقِلَّ الرِّجَالُ، وَيَكْثُرَ النِّسَاءُ حتّى يَكُونَ لِلْخَمْسِينَ امْرَأَةً القَيِّمُ الوَاحِدُ"** [رواه البخاري، ومسلم].

القسم الثاني: أشراطٌ كبرى، وهي الّتي تكون قبل القيامة بمدة يسيرة، وهذه الأشراط هي الّتي ذكر المصنّف رَحِمَهُ اللَّهُ بعضها، وقد جاءت في عدة أحاديث بلغت مبلغ المتواتر، ونذكر منها:

حديث أَبِي سَرِيحَةَ حُذَيْفَةَ بْنِ أَسِيدٍ الغفاري رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ قَالَ: كَانَ النّبيّ صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ فِي غُرْفَةٍ وَنَحْنُ أَسْفَلَ مِنْهُ، فاطَّلَعَ إِلَيْنا، فقَالَ: مَا تَذْكُرُونَ؟ " قُلْنَا: السَّاعَةَ، قَالَ: **"إِنَّ السَّاعَةَ لَا تَكُونُ حتّى تكُونَ عَشْرُ آيَاتٍ: خَسْفٌ بِالْمَشْرِقِ، وَخَسْفٌ بِالْمَغْرِبِ، وَخَسْفٌ فِي جَزِيرَةِ الْعَرَبِ، وَالدُّخَانُ، وَالدَّجَّالُ، وَدَابَّةُ الْأَرْضِ، وَيَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ، وَطُلُوعُ الشَّمْسِ مِنْ مَغْرِبِهَا، وَنَارٌ تَخْرُجُ مِنْ قُعْرَةِ عَدَنٍ تَرْحَلُ النّاس"** الْعَاشِرَةَ: **"نُزُولُ عِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ** صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ**"**.

وفي رواية: **"وَرِيحٌ تُلْقِي النّاس فِي الْبَحْرِ"** [رواه مسلم].

حديث عَائِشَةَ ل قَالَتْ: قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: **"يَكُونُ فِي آخِرِ هَذِهِ الْأُمَّةِ؛ خَسْفٌ، وَمَسْخٌ، وَقَذْفٌ"**، قَالَتْ: قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ، أَنَهْلِكُ وَفِينَا الصَّالِحُونَ؟ قَالَ: **"نَعَمْ إِذَا ظَهَرَ الْخُبْثُ"** [رواه الترمذي، وقال: غريب، وصححه الألباني].

وحديث أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ أَنَّ رَسُولَ اللهِ صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ، قَالَ: **"بَادِرُوا بِالْأَعْمَالِ سِتًّا: طُلُوعَ الشَّمْسِ مِنْ مَغْرِبِهَا، أَوِ الدُّخَانَ، أَوِ الدَّجَّالَ، أَوِ الدَّابَّةَ، أَوْ خَاصَّةَ أَحَدِكُمْ، أَوْ أَمْرَ الْعَامَّةِ"** [رواه مسلم].

وأشراط الساعةِ الكبرى متداخلةٌ في بعضٍ كسلسلة متداخلة؛ بحيث يظهرُ الدّجال ولا يهلك حتّى ينزل عيسى ابنُ مريم عَلَيْهِٱلسَّلَامُ، ولا يموت عيسى ابن مريم عَلَيْهِٱلسَّلَامُ حتّى يظهر يأجوج ومأجوج، ثم تكون طلوع الشّمس من مغربها، وهكذا تتوالى الآيات كأنها خَرَزَاتٍ مَنْظُومَاتٍ في سِلْكٍ، فإنْ يُقْطَعِ السِّلْك يتبع

بعضها بعضًا.

وإذا ظهرت أشراط الساعة الكبرى فحينئذٍ قد يصبح الإيمان اضطراريًا، ولذلك لا يقبل الله تعالى الإيمان مِن أحدٍ إذا طلعت الشمسُ مِن مغربها؛ كما في القرآن الكريم، وكما في السنة النبوية في حديث أَبي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أَنَّ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: "**لَا تَقُومُ السَّاعَةُ حتّى تَطْلُعَ الشَّمْسُ مِنْ مَغْرِبِهَا، فَإِذَا طَلَعَتْ مِنْ مَغْرِبِهَا آمَنَ النّاس كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ فَيَوْمَئِذٍ** ﴿لَا يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَـٰنُهَا لَمْ تَكُنْ ءَامَنَتْ مِن قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِىٓ إِيمَـٰنِهَا خَيْرًا﴾ [سورة الأنعام، من الآية:١٥٨]" [رواه مسلم].

والساعةُ نفسها لا تقوم إلا بعد أن تأتي ريحٌ طيبة تأخذُ أرواح المؤمنين؛ فلا يبقى إلا شرار الخلقِ؛ فعليهم تقوم الساعة؛ كما في حديثِ عَبْدِ اللهِ بْنِ عَمْرِو بْنِ الْعَاصِ ب قالَ: "**لَا تَقُومُ السَّاعَةُ إِلَّا عَلَى شِرَارِ الْخَلْقِ، هُمْ شَرٌّ مِنْ أَهْلِ الْجَاهِلِيَّةِ، لَا يَدْعُونَ اللهَ بِشَيْءٍ إِلَّا رَدَّهُ عَلَيْهِم**"، فَبَيْنَمَا هُمْ عَلَى ذَلِكَ أَقْبَلَ عُقْبَةُ بْنُ عَامِرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فَقَالَ لَهُ مَسْلَمَةُ: يَا عُقْبَةُ، اسْمَعْ مَا يَقُولُ عَبْدُ اللهِ، فَقَالَ عُقْبَةُ: هُوَ أَعْلَمُ، وَأَمَّا أَنَا فَسَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، يَقُولُ: "**لَا تَزَالُ عِصَابَةٌ مِنْ أُمَّتِي يُقَاتِلُونَ عَلَى أَمْرِ اللهِ، قَاهِرِينَ لِعَدُوِّهِمْ، لَا يَضُرُّهُمْ مَنْ خَالَفَهُمْ، حتّى تَأْتِيَهُمُ السَّاعَةُ وَهُمْ عَلَى ذَلِكَ**"، فَقَالَ عَبْدُ اللهِ: أَجَلْ، "**ثُمَّ يَبْعَثُ اللهُ رِيحًا كَرِيحِ الْمِسْكِ مَسُّهَا مَسُّ الْحَرِيرِ، فَلَا تَتْرُكُ نَفْسًا فِي قَلْبِهِ مِثْقَالُ حَبَّةٍ مِنَ الْإِيمَانِ إِلَّا قَبَضَتْهُ، ثُمَّ يَبْقَى شِرَارُ النّاس عَلَيْهِمْ تَقُومُ السَّاعَةُ**" [رواه مسلم].

وبعدَ هذه الآيات والعلامات يكون ما ذكره الله تعالى في كتابه، كما في سورة

النبأ، والتكوير، والانفطار، والانشقاق، ونحوها، وتدمُّر الأرضِ الّتي نحن عليها وتبدَّل؛ كما قال جل في علاه: ﴿يَوۡمَ تُبَدَّلُ ٱلۡأَرۡضُ غَيۡرَ ٱلۡأَرۡضِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُۖ وَبَرَزُواْ لِلَّهِ ٱلۡوَٰحِدِ ٱلۡقَهَّارِ﴾ [سورة إبراهيم، من الآية:٤٨].

وقيام القيامة لا تكون إلا بعد ألّا يوجد في الأرض من يعبدُ اللهَ تعالى، وذلك لأن الله تعالى إنما خلق الأرض والسّماء وما بينهما لأجل الإنسان الّذي يعبد الله تعالى؛ فإذا خلي الأرضُ مِن واحدٍ منهم لم يكن ثَمَّ داعٍ إلى وجودِ الأرض والسّماء وما بينهما؛ فتقوم القيامة؛ كما جاء في حديث أَنَسٍ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُ: أَنَّ رَسُولَ اللهِ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَسَلَّمَ قَالَ: **"لَا تَقُومُ السَّاعَةُ حتّى لَا يُقَالَ فِي الْأَرْضِ: اللهُ، اللهُ"**، وفي رواية: **"لَا تَقُومُ السَّاعَةُ عَلَى أَحَدٍ يَقُولُ: اللهُ، اللهُ"** [رواه مسلم].

وقد أنكر عامةُ المعتزلة أشراط الساعة بحُجَّةِ أنها غيرُ ثابتة في القرآن، أو أنها غير معقولة في معقولاتهم؛ فأنكروا نزول عيسى ابن مريم، وخروج الدجال، ونحو ذلك من أمور الغيب الّتي جاءت في أحاديث متواترةٍ ومشهورة، مع إشارات لها في القرآن إما ظاهرة وإما صريحة، كقوله تعالى: ﴿وَإِذَا وَقَعَ ٱلۡقَوۡلُ عَلَيۡهِمۡ أَخۡرَجۡنَا لَهُمۡ دَآبَّةٗ مِّنَ ٱلۡأَرۡضِ تُكَلِّمُهُمۡ أَنَّ ٱلنَّاسَ كَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا لَا يُوقِنُونَ﴾ [سورة النمل، من الآية:٨٢]، وقوله تعالى: ﴿هَلۡ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن تَأۡتِيَهُمُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ أَوۡ يَأۡتِيَ رَبُّكَ أَوۡ يَأۡتِيَ بَعۡضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَۗ يَوۡمَ يَأۡتِي بَعۡضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ لَا يَنفَعُ نَفۡسًا إِيمَٰنُهَا لَمۡ تَكُنۡ ءَامَنَتۡ مِن قَبۡلُ أَوۡ كَسَبَتۡ فِيٓ إِيمَٰنِهَا خَيۡرٗاۗ قُلِ ٱنتَظِرُوٓاْ إِنَّا مُنتَظِرُونَ﴾ [سورة الأنعام، من الآية:١٥٨].

وقد اختلف العلماء في أوّليّة أشراط السّاعة الكبرى، مع إجماعهم على هذه الأشراط، كما اختلفوا في ترتيبها، والذي عليه الأكثر هو الترتيب الآتي:

الأوّل: ظُهُورُ المهدي، ومبايعته، وقتال الروم معه.

الثّاني: خروج الدجال.

الثّالث: نزول عيسى ابن مريم.

الرّابع: خروجُ يأجوج ومأجوج.

الخامس: طلوع الشمس من مغربها.

السّادس: خروج دابة من الأرض.

السّابع: خروج ريح طيبة تقبض أرواح المؤمنين.

الثّامن: الدُّخان الّذي يكون في آخر الزمان.

التّاسع: الخَسَفَات الثلاثة؛ خسفٌ بالمشرقِ، والمغربِ، وجزيرة العرب.

العاشرُ: نار تحشر النّاس من قعر عدن إلى أرض الشام، ثم عليها تقوم الساعة.

قال الحافظ ابن حجر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (الذي يترجح مِن مجموع الأخبار أنَّ خروج الدجال أَوَّلُ الآيات العظام، المؤذِنَةِ بتغيّر الأحوال العامة في معظم الأرض، وينتهي ذلك بموت عيسى بن مريم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، وأنَّ طلوعَ الشمس من المغرب هو أول الآيات العظام المؤذنة بتغيُّرِ أحوالِ العالم العلوي، وينتهي ذلك بقيام الساعة، ولعل خروج الدابة يقع في ذلك اليوم الّذي تطلع فيه الشمس من المغرب) [فتح الباري].

والمصنّف رَحِمَهُ ٱللَّهُ لَـمْ يذكر إلا بعض أشراط الساعة الكبرَى، ثم في نسخة "وسائر علامات يوم القيامة على ما وردت به الأخبار الصحيحة"؛ فبذكر بعضها إشارة، ثم إجمال بهذا القول.

وقد ذكرتُ أشراط الساعة العشرة الكبرى مجملة، ومَن أراد التفصيل فليرجع إلى الكتب المصنّفة الخاصة بأشراط الساعة؛ فإن فيها التفصيل، وإنما أبيِّنُ منها ما ذكرها المصنّف رَحِمَهُ ٱللَّهُ بقدر ما تدعو إليه الحاجة.

ولنعلم أن خروج المهدي مِن علامات الساعة الكبرى وأماراتها، ويجيءُ في آخر الزّمان، يلي أمرَ الأمَّةِ، ويجدد دينها، يملأ الأرض عدلًا بعد أن ملئت جورًا وظلمًا، وهذه نبذة مختصرة عنه، عسى أن يكون فيها تذكرة لمن أدرك زمانه أن يُسارع إليه، ويكون مِن أعوانه، وألَّا تزلَّ قدمُه فيكون مِن أعدائه.

فالمهديُّ: لقبٌ له من الهداية؛ فهو ممن هداه الله تعالى إلى الحق، وجعله من القائمين به، وهو الّذي بشّر به رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أنه يجيءُ في آخر الزمان، ويتبعه المسلمون ويكون من سلالة النّبيّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، من أبناء فاطمة ل، ومن ذرية الحسن بن علي ب على وجه الخصوص، ويخرجُ في آخر زمانه الدّجال، وينزل في آخر زمانه عيسى ابن مريم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ.

وأحاديث المهديِّ وإن لم تكن متواترة اللفظِ؛ لكنها أحاديث متعددة دائرة بين الصّحّة، والحُسْن، والضّعف، ووضعت فيه أحاديث موضوعة كثيرة، وأساطير لا تثبت فلا يلتفت إليها وهي كثيرة، ويكفي ما جاء في حقه في السنة الثابتة؛ ففيها

الغنية والكفاية؛ لمن أراد الاهتداء والعناية.

واسم المهديّ: (محمدُ بنُ عبدِ الله العلوي الفاطمي الحسني) [النهاية في الفتن والملاحم لابن كثير]، وجاء في حديث عَبْدِ اللهِ بْنِ مسعودٍرَضِيَٱللَّهُعَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: **"لاَ تَذْهَبُ الدّنيا حتّى يَمْلِكَ العَرَبَ رَجُلٌ مِنْ أَهْلِ بَيْتِي يُوَاطِئُ اسْمُهُ اسْمِي"** [رواه الترمذي، وقال: حسن صحيح].

وصفات المهدي الواردة في الأحاديث: أنَّه من عترة النّبيّ صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ، وأجلى الجبهة، أقنى الأنفِ.

وليس في مكان خروجه حديثٌ يثبت، ولكن ثَمَّ دلالة مِنْ مفهوم بعض الروايات مِن كونه بالشامِ حين ينزل عيسى ابن مريم؛ كما في حديث جَابِرَ بْنَ عَبْدِ اللهِ ب يَقُولُ: سَمِعْتُ النّبيّ صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ يَقُولُ: **"لَا تَزَالُ طَائِفَةٌ مِنْ أُمَّتِي يُقَاتِلُونَ عَلَى الْحَقِّ ظَاهِرِينَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ"**، قَالَ: **"فَيَنْزِلُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ** صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ، **فَيَقُولُ أَمِيرُهُمْ: تَعَالَ صَلِّ لَنَا، فَيَقُولُ: لَا، إِنَّ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ أُمَرَاءُ تَكْرِمَةَ اللهِ هَذِهِ الْأُمَّةَ"** [رواه مسلم].

وفي حديث أبي هريرةرَضِيَٱللَّهُعَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: **"كَيْفَ أَنْتُمْ إِذَا نَزَلَ ابْنُ مَرْيَمَ فِيكُمْ، وَإِمَامُكُمْ مِنْكُمْ"** [رواه البخاري]، على تفسير أن المقصود بالإمام هو نفسه المقصود في حديث جابر رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ.

ويلتجيءُ إلى الحرمِ بمكة هاربًا ممن يعادونه، ويقاتلونه، وذلك في بادئ أمره؛ كما في حديثِ حَفْصَةَ أُمِّ الْمُؤْمِنِينَ ل أَنَّ رَسُولَ اللهِ صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ، قَالَ: **"سَيَعُوذُ**

بِهَذَا الْبَيْتِ -يَعْنِي الْكَعْبَةَ- قَوْمٌ لَيْسَتْ لَهُمْ مَنَعَةٌ، وَلَا عَدَدٌ وَلَا عُدَّةٌ، يُبْعَثُ إِلَيْهِمْ جَيْشٌ، حتّى إِذَا كَانُوا بِبَيْدَاءَ مِنَ الْأَرْضِ خُسِفَ بِهِمْ" [رواه مسلم، وهو عند البخاري من حديث عائشة ل].

قال العلامة محمد البرزنجي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (إنّ أحاديث المهدي، وخروجَه آخرُ الزّمان، وأنّه مِن عترة رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، مِن ولدِ فاطمة ل بلغت حدّ التَّواتر المعنوي؛ فلا معنى لإنكارها) [الإشاعة في أشراط الساعة].

وقال الشوكاني رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (إنَّ الأحاديثَ الواردة في المهدي... متواترة، والأحاديثَ الواردةُ في الدَّجَّال مُتواترةٌ، والأحاديثَ الواردة في نزول عيسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ متواترةٌ) [لتوضيح في تواتر ما جاء في الأحاديث في المهدي والدجال والمسيح].

وقد خالف في المهديّ طائفتان:

الطّائفة الأولى: قومٌ أنكروا خروج المهدي، قديمًا وحديثًا، وهو المشهور من مذاهب المعتزلة، ومن وافقهم من معتزلة العصرِ، ومن تأثر بهم، وقد كتب شيخنا عبد المحسن العباد البدر نفع الله به رسالة وافية فيها الرد على من أنكر المهدي جملة وتفصيلًا، وهي بعنوان: الرد على من كذب بالأحاديث الصحيحة الواردة في المهدي، وكذلك فعل الشيخ العلامة التويجري رَحِمَهُ ٱللَّهُ في رسالته: الاحتجاج بالأثر على من أنكر المهدي المنتظر.

الطّائفة الثّانية: الغالون في شأن المهدي من الطوائف الّتي خرجت عن السنة،

وضلَّت، ومنهم من خرجت عن الملة، حتّى ادَّعت كلّ طائفة منهم أن زعيمهم هو المهدي المنتظر، كما فعلت القاديانية، والبابية، والبهائية، ونحوهم.

وزعمت **الشيعة** الإمامية الاثنية عشرية أن المهدي هو المنتظر مِن قبلهم المسمى بالإمام الثاني عشر محمد بن الحسن العسكري، الّذي يزعمون أنه ولد لإمامهم الحادي عشر الحسن العسكري في نهاية القرن الثالث الهجري، ويزعمون أنه حي في سردابٍ في سامراء وهم ينتظرون خروجه من هناك.

وقد وضع هؤلاء الغالون حول المهدي أساطيرَ، وقصص، وأحاديثَ لا تثبت، ولا يجوز لأجل وضع الوضاعين إنكار ما ثبت في السنة الصحيحة، أو ردها.

وعند ما يبايع للمهدي فإنه يقاتِلُ المسلمون معه الكفارَ بعد الهدنة الّتي جاءت في حديث عوفٍ بن مالكٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وفيه: **"ثُمَّ هُدْنَةٌ تَكُونُ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ بَنِي الأَصْفَرِ، فَيَغْدِرُونَ فَيَأْتُونَكُمْ تَحْتَ ثَمَانِينَ غَايَةً، تَحْتَ كلِّ غَايَةٍ اثْنَا عَشَرَ أَلْفًا"** [رواه البخاري]، ثم بعد ذلك يقع القتال كما في حديث أَبِي هُرَيْرَةَ، أَنَّ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قَالَ: **"لَا تَقُومُ السَّاعَةُ حتّى يَنْزِلَ الرُّومُ بِالْأَعْمَاقِ أَوْ بِدَابِقٍ، فَيَخْرُجُ إِلَيْهِمْ جَيْشٌ مِنَ الْمَدِينَةِ، مِنْ خِيَارِ أَهْلِ الْأَرْضِ يَوْمَئِذٍ، فَإِذَا تَصَافُّوا، قَالَتِ الرُّومُ: خَلُّوا بَيْنَنَا وَبَيْنَ الَّذِينَ سَبَوْا مِنَّا نُقَاتِلْهُمْ، فَيَقُولُ الْمُسْلِمُونَ: لَا، وَاللهِ لَا نُخَلِّي بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ إِخْوَانِنَا، فَيُقَاتِلُونَهُمْ، فَيَنْهَزِمُ ثُلُثٌ لَا يَتُوبُ اللهُ عَلَيْهِمْ أَبَدًا، وَيُقْتَلُ ثُلُثُهُمْ، أَفْضَلُ الشُّهَدَاءِ عِنْدَ اللهِ، وَيَفْتَتِحُ الثُّلُثُ، لَا يُفْتَنُونَ أَبَدًا فَيَفْتَتِحُونَ قُسْطَنْطِينِيَّةَ، فَبَيْنَمَا هُمْ يَقْتَسِمُونَ الْغَنَائِمَ، قَدْ عَلَّقُوا سُيُوفَهُمْ بِالزَّيْتُونِ، إِذْ صَاحَ**

فِيهِمِ الشَّيْطَانُ: إِنَّ الْمَسِيحَ قَدْ خَلَفَكُمْ فِي أَهْلِيكُمْ، فَيَخْرُجُونَ، وَذَلِكَ بَاطِلٌ، فَإِذَا جَاءُوا الشَّأْمَ خَرَجَ، فَبَيْنَمَا هُمْ يُعِدُّونَ لِلْقِتَالِ، يُسَوُّونَ الصُّفُوفَ، إِذْ أُقِيمَتِ الصَّلَاةُ، فَيَنْزِلُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَأَمَّهُمْ، فَإِذَا رَآهُ عَدُوُّ اللهِ، ذَابَ كَمَا يَذُوبُ الْمِلْحُ فِي الْمَاءِ، فَلَوْ تَرَكَهُ لَانْذَابَ حتّى يَهْلِكَ، وَلَكِنْ يَقْتُلُهُ اللهُ بِيَدِهِ، فَيُرِيهِمْ دَمَهُ فِي حَرْبَتِهِ" [رواه مسلم].

وقول المصنّف رَحِمَهُ اللَّهُ: **"ونؤمن بأشراط الساعة مِن خروج الدجال"**، أي من عقيدة أهل السنة والجماعةِ الإقرار بخروج الدجال، كما جاء ذكره في الأحاديث المتواترة، وأن خروجه من أشراط الساعة الكبرى.

"والدَّجّال" مِن (دَجَل، يدْجِلُ، دَجْلًا) فهو (دَاجِلٌ)، والوصفُ منه (دجَّالٌ)، وهو كثير الكذب، والتّلبيس، والتّمويه، والخلطِ، ويجمعُ كلمة (دَجَّال) جمع مذكرٍ سالم (دجّالون، دجّالين)، وجمع تكسيرٍ (دجاجلة).

وهم كثُرٌ بعد النّبيّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، لكن المذكور في كلام المصنّف رَحِمَهُ اللَّهُ إنما هو الدجال الأكبر الّذي يكون في آخر أيام المهدي، وأول زمن نزول عيسى ابن مريم عَلَيْهِ السَّلَامُ.

و**(الدَّجَّال)** وَصْفٌ يطلق على المسيح الدَّجَّال، وهو وصفٌ مناسب لحاله حيث إنه كثيرُ الكذبِ، والتلبيس، والتمويه؛ فهو ليس اسمًا له؛ بل ولا يُعلَمُ اسمُه؛ فمِن دَجَلِه خفاءُ اسمه، فهو يُخْفِي اسمَه.

وخروجه من الأشراط العظيمة، وفتنته كبيرة جسيمة عامة شاملة لأهل

الأرضِ، ويُسمَّى (**مسيحًا**)؛ لأنه ممسوح إحدى العينين فليس لعينه وجودٌ، والأخرى معيبة ظاهرةٌ ناتئة، وقيل: لأنه يمسح الأرضَ في أربعين يومًا؛ فيملؤه قتلًا وتشريدًا، وجَرْدًا مُمحَّلا؛ فيدخل كلّ مدينة وبلدة؛ فهو (**مسيح الضلالة**).

وعيسى ابن مريم عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ أيضًا يلَقّب بـ(**المسيحِ**)؛ لكونه يمسح ذا العاهات فيدعو لهم فيبرؤون، أو لأنه يمسح الأرض كلّه عدلًا وإيمانًا، وهو (**مسيح الهداية**).

ويسمى المسيح الدجال بـ(**الأعورِ**)، وذلك لأنه أعور العين، ممسوح إحدى العينين، ومعيبة الأخرى الموجودة، حيث إنها ناتئة بارزة.

وقد أُمِرْنَا شرْعًا أن نستعيذ بالله من المسيح الدجال كما في حديث: أَبِي هُرَيْرَةَ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَسَلَّمَ: **"إِذَا تَشَهَّدَ أَحَدُكُمْ فَلْيَسْتَعِذْ بِاللهِ مِنْ أَرْبَعٍ يَقُولُ: اللهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنْ عَذَابِ جَهَنَّمَ، وَمِنْ عَذَابِ الْقَبْرِ، وَمِنْ فِتْنَةِ الْمَحْيَا وَالْمَمَاتِ، وَمِنْ شَرِّ فِتْنَةِ الْمَسِيحِ الدَّجَّالِ"** [رواه البخاري ومسلم].

وإنما كان الأمر بالاستعاذة من فتنته لكونها عظيمة؛ ولذلك أنذرَ كلّ نبيٍّ قومَه من فتنته، -كما سيأتي-، ومَا أُمِرْنا شرعًا بالاستعاذة من فتنته على وجه الخصوصِ، إلّا لما معه من الدّجل والتلبيس الّذي يموه به على العامة والخاصة، إلا من ثبته الله تعالى، وذلك لما معه من خوارق ما يجري على يديه استدراجًا وفتنة لأهل الأرضِ؛ كإنزال المطرِ، وإحياء النباتِ، وما معه من عجائب وخوارق العادات، المخالفة للمشاهدات.

وتواترت الأحاديث الواردة في المسيح الدجال، حتّى جاء ذكرُه في أحاديث كثيرةٍ، فيها ذكرُ أوصافه وصفًا دقيقًا لا يخفى على ذي بصيرة، ومن هذه الأحاديث:

حديثُ حُذَيْفَةَ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: "**لَأَنَا أَعْلَمُ بِمَا مَعَ الدَّجَّالِ مِنْهُ، مَعَهُ نَهْرَانِ يَجْرِيَانِ، أَحَدُهُمَا رَأْيَ الْعَيْنِ، مَاءٌ أَبْيَضُ، وَالْآخَرُ رَأْيَ الْعَيْنِ، نَارٌ تَأَجَّجُ، فَإِمَّا أَدْرَكَنَّ أَحَدٌ، فَلْيَأْتِ النَّهْرَ الَّذِي يَرَاهُ نَارًا وَلْيُغَمِّضْ، ثُمَّ لْيُطَأْطِئْ رَأْسَهُ فَيَشْرَبَ مِنْهُ، فَإِنَّهُ مَاءٌ بَارِدٌ، وَإِنَّ الدَّجَّالَ مَمْسُوحُ الْعَيْنِ، عَلَيْهَا ظَفَرَةٌ غَلِيظَةٌ، مَكْتُوبٌ بَيْنَ عَيْنَيْهِ كَافِرٌ، يَقْرَؤُهُ كلّ مُؤْمِنٍ، كَاتِبٍ وَغَيْرِ كَاتِبٍ**" [رواه مسلم].

وحديث النَّوَّاسِ بْنِ سَمْعَانَ ت قَالَ: ذَكَرَ رَسُولُ اللهِ صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ الدَّجَّالَ ذَاتَ غَدَاةٍ، فَخَفَّضَ فِيهِ وَرَفَّعَ، حتّى ظَنَنَّاهُ فِي طَائِفَةِ النَّخْلِ، فَلَمَّا رُحْنَا إِلَيْهِ عَرَفَ ذَلِكَ فِينَا، فَقَالَ: "**مَا شَأْنُكُمْ؟**" قُلْنَا: يَا رَسُولَ اللهِ ذَكَرْتَ الدَّجَّالَ غَدَاةً، فَخَفَّضْتَ فِيهِ وَرَفَّعْتَ، حتّى ظَنَنَّاهُ فِي طَائِفَةِ النَّخْلِ!

فَقَالَ: "**غَيْرُ الدَّجَّالِ أَخْوَفُنِي عَلَيْكُمْ، إِنْ يَخْرُجْ وَأَنَا فِيكُمْ، فَأَنَا حَجِيجُهُ دُونَكُمْ، وَإِنْ يَخْرُجْ وَلَسْتُ فِيكُمْ، فَامْرُؤٌ حَجِيجُ نَفْسِهِ، وَاللهُ خَلِيفَتِي عَلَى كلّ مُسْلِمٍ، إِنَّهُ شَابٌّ قَطَطٌ، عَيْنُهُ طَافِئَةٌ، كَأَنِّي أُشَبِّهُهُ بِعَبْدِ الْعُزَّى بْنِ قَطَنٍ، فَمَنْ أَدْرَكَهُ مِنْكُمْ، فَلْيَقْرَأْ عَلَيْهِ فَوَاتِحَ سُورَةِ الْكَهْفِ، إِنَّهُ خَارِجٌ خَلَّةً بَيْنَ الشَّأْمِ وَالْعِرَاقِ، فَعَاثَ يَمِينًا وَعَاثَ شِمَالًا، يَا عِبَادَ اللهِ فَاثْبُتُوا**".

قُلْنَا: يَا رَسُولَ اللهِ وَمَا لَبْثُهُ فِي الْأَرْضِ؟ قَالَ: "أَرْبَعُونَ يَوْمًا، يَوْمٌ كَسَنَةٍ، وَيَوْمٌ كَشَهْرٍ، وَيَوْمٌ كَجُمُعَةٍ، وَسَائِرُ أَيَّامِهِ كَأَيَّامِكُمْ"

قُلْنَا: يَا رَسُولَ اللهِ فَذَلِكَ الْيَوْمُ الَّذِي كَسَنَةٍ، أَتَكْفِينَا فِيهِ صَلَاةُ يَوْمٍ؟

قَالَ: "لَا، اقْدُرُوا لَهُ قَدْرَهُ".

قُلْنَا: يَا رَسُولَ اللهِ، وَمَا إِسْرَاعُهُ فِي الْأَرْضِ؟

قَالَ: "كَالْغَيْثِ اسْتَدْبَرَتْهُ الرِّيحُ، فَيَأْتِي عَلَى الْقَوْمِ فَيَدْعُوهُمْ، فَيُؤْمِنُونَ بِهِ وَيَسْتَجِيبُونَ لَهُ، فَيَأْمُرُ السّماء فَتُمْطِرُ، وَالْأَرْض فَتُنْبِتُ، فَتَرُوحُ عَلَيْهِمْ سَارِحَتُهُمْ، أَطْوَلَ مَا كَانَتْ ذُرًا، وَأَسْبَغَهُ ضُرُوعًا، وَأَمَدَّهُ خَوَاصِرَ، ثُمَّ يَأْتِي الْقَوْمَ، فَيَدْعُوهُمْ فَيَرُدُّونَ عَلَيْهِ قَوْلَهُ، فَيَنْصَرِفُ عَنْهُمْ، فَيُصْبِحُونَ مُمْحِلِينَ لَيْسَ بِأَيْدِيهِمْ شَيْءٌ مِنْ أَمْوَالِهِمْ، وَيَمُرُّ بِالْخَرِبَةِ، فَيَقُولُ لَهَا: أَخْرِجِي كُنُوزَكِ، فَتَتْبَعُهُ كُنُوزُهَا كَيَعَاسِيبِ النَّحْلِ، ثُمَّ يَدْعُو رَجُلًا مُمْتَلِئًا شَبَابًا، فَيَضْرِبُهُ بِالسَّيْفِ فَيَقْطَعُهُ جَزْلَتَيْنِ رَمْيَةَ الْغَرَضِ، ثُمَّ يَدْعُوهُ فَيُقْبِلُ وَيَتَهَلَّلُ وَجْهُهُ، يَضْحَكُ، فَبَيْنَمَا هُوَ كَذَلِكَ إِذْ بَعَثَ اللهُ الْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ، فَيَنْزِلُ عِنْدَ الْمَنَارَةِ الْبَيْضَاءِ شَرْقِيَّ دِمَشْقَ، بَيْنَ مَهْرُودَتَيْنِ، وَاضِعًا كَفَّيْهِ عَلَى أَجْنِحَةِ مَلَكَيْنِ، إِذَا طَأْطَأَ رَأْسَهُ قَطَرَ، وَإِذَا رَفَعَهُ تَحَدَّرَ مِنْهُ جُمَانٌ كَاللُّؤْلُؤِ، فَلَا يَحِلُّ لِكَافِرٍ يَجِدُ رِيحَ نَفَسِهِ إِلَّا مَاتَ، وَنَفَسُهُ يَنْتَهِي حَيْثُ يَنْتَهِي طَرْفُهُ، فَيَطْلُبُهُ حتّى يُدْرِكَهُ بِبَابِ لُدٍّ، فَيَقْتُلُهُ، ثُمَّ يَأْتِي عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ قَوْمٌ قَدْ عَصَمَهُمُ اللهُ مِنْهُ، فَيَمْسَحُ عَنْ وُجُوهِهِمْ وَيُحَدِّثُهُمْ بِدَرَجَاتِهِمْ فِي الجنّة، فَبَيْنَمَا هُوَ كَذَلِكَ إِذْ أَوْحَى اللهُ إِلَى عِيسَى: إِنِّي قَدْ أَخْرَجْتُ عِبَادًا لِي، لَا يَدَانِ لِأَحَدٍ بِقِتَالِهِمْ،

فَحَرِّزْ عِبَادِي إِلَى الطُّورِ وَيَبْعَثُ اللهُ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ..." [رواه مسلم].

وحديث عَبْدَ اللهِ بْنَ عَمْرٍو ب وَجَاءَهُ رَجُلٌ، فَقَالَ: مَا هَذَا الْحَدِيثُ الّذي تُحَدِّثُ بِهِ؟ تَقُولُ: إِنَّ السَّاعَةَ تَقُومُ إِلَى كَذَا وَكَذَا، فَقَالَ: سُبْحَانَ اللهِ أَوْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ -أَوْ كَلِمَةً نَحْوَهُمَا- لَقَدْ هَمَمْتُ أَنْ لَا أُحَدِّثَ أَحَدًا شَيْئًا أَبَدًا، إِنَّمَا قُلْتُ: إِنَّكُمْ سَتَرَوْنَ بَعْدَ قَلِيلٍ أَمْرًا عَظِيمًا، يُحَرَّقُ الْبَيْتُ، وَيَكُونُ وَيَكُونُ، ثُمَّ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "يَخْرُجُ الدَّجَّالُ فِي أُمَّتِي فَيَمْكُثُ أَرْبَعِينَ- لَا أَدْرِي: أَرْبَعِينَ يَوْمًا، أَوْ أَرْبَعِينَ شَهْرًا، أَوْ أَرْبَعِينَ عَامًا؛ فَيَبْعَثُ اللهُ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ كَأَنَّهُ عُرْوَةُ بْنُ مَسْعُودٍ، فَيَطْلُبُهُ فَيُهْلِكُهُ، ثُمَّ يَمْكُثُ النّاس سَبْعَ سِنِينَ، لَيْسَ بَيْنَ اثْنَيْنِ عَدَاوَةٌ، ثُمَّ يُرْسِلُ اللهُ رِيحًا بَارِدَةً مِنْ قِبَلِ الشَّأْمِ، فَلَا يَبْقَى عَلَى وَجْهِ الْأَرْضِ أَحَدٌ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ مِنْ خَيْرٍ أَوْ إِيمَانٍ إِلَّا قَبَضَتْهُ، حتّى لَوْ أَنَّ أَحَدَكُمْ دَخَلَ فِي كَبِدِ جَبَلٍ لَدَخَلَتْهُ عَلَيْهِ، حتّى تَقْبِضَهُ".

قَالَ: سَمِعْتُهَا مِنْ رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قَالَ: "فَيَبْقَى شِرَارُ النّاس فِي خِفَّةِ الطَّيْرِ وَأَحْلَامِ السِّبَاعِ، لَا يَعْرِفُونَ مَعْرُوفًا وَلَا يُنْكِرُونَ مُنْكَرًا، فَيَتَمَثَّلُ لَهُمُ الشَّيْطَانُ، فَيَقُولُ: أَلَا تَسْتَجِيبُونَ؟ فَيَقُولُونَ: فَمَا تَأْمُرُنَا؟ فَيَأْمُرُهُمْ بِعِبَادَةِ الْأَوْثَانِ، وَهُمْ فِي ذَلِكَ دَارٌّ رِزْقُهُمْ، حَسَنٌ عَيْشُهُمْ، ثُمَّ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ، فَلَا يَسْمَعُهُ أَحَدٌ إِلَّا أَصْغَى لِيتًا وَرَفَعَ لِيتًا، قَالَ: وَأَوَّلُ مَنْ يَسْمَعُهُ رَجُلٌ يَلُوطُ حَوْضَ إِبِلِهِ، قَالَ: فَيَصْعَقُ، وَيَصْعَقُ النّاس، ثُمَّ يُرْسِلُ اللهُ -أَوْ قَالَ يُنْزِلُ اللهُ- مَطَرًا كَأَنَّهُ الطَّلُّ أَوِ الظِّلُّ -نُعْمَانُ الشَّاكُّ- فَتَنْبُتُ مِنْهُ أَجْسَادُ النّاس، ثُمَّ يُنْفَخُ فِيهِ أُخْرَى، فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ

يَنْظُرُون" [رواه مسلم].

وحديث أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: **"أَلَا أُخْبِرُكُمْ عَنِ الدَّجَّالِ حَدِيثًا مَا حَدَّثَهُ نَبِيٌّ قَوْمَهُ إِنَّهُ أَعْوَرُ، وَإِنَّهُ يَجِيءُ مَعَهُ مِثْلُ الجنّة وَالنَّارِ، فَالَّتِي يَقُولُ إِنَّهَا الجنّة هِيَ النَّارُ، وَإِنِّي أَنْذَرْتُكُمْ بِهِ كَمَا أَنْذَرَ بِهِ نُوحٌ قَوْمَهُ"** [رواه مسلم].

ومكان خروج الدجال: قيل يخرج الدجال في أولِ ظهوره مِن قبل المشرق في (خراسانَ) ويدَّعي الإصلاحَ، ويظهر في (أصبهان) مدَّعيًا النّبوة، ويظهر بعدُ مدَّعيًا الرّبوبيّة.

ومما يزيد من فتنة النّاس به -لا سيما مع بعدهِم عن دينهم- أنه يأتي بخوارق وتمويهات خارجة عن إطار إدراك العقولِ؛ فلا معصوم حينئذٍ إلا من اعتصم بالمنقولِ، ويدخل جميع البلدان إلا مكة والمدينة، ويدعي أنه يحيي الموتى، كما في حديث أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيّ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ قَالَ: حَدَّثَنَا رَسُولُ اللهِ صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ يَوْمًا حَدِيثًا طَوِيلًا عَنِ الدَّجَّالِ، فَكَانَ فِيمَا حَدَّثَنَا، قَالَ: **"يَأْتِي، وَهُوَ مُحَرَّمٌ عَلَيْهِ أَنْ يَدْخُلَ نِقَابَ الْمَدِينَةِ، فَيَنْتَهِي إِلَى بَعْضِ السِّبَاخِ الَّتِي تَلِي الْمَدِينَةَ، فَيَخْرُجُ إِلَيْهِ يَوْمَئِذٍ رَجُلٌ هُوَ خَيْرُ النّاس -أَوْ مِنْ خِيَارِ النّاس-؛ فَيَقُولُ لَهُ: أَشْهَدُ أَنَّكَ الدَّجَّالُ الَّذِي حَدَّثَنَا رَسُولُ اللهِ** صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ **حَدِيثَهُ، فَيَقُولُ الدَّجَّالُ: أَرَأَيْتُمْ إِنْ قَتَلْتُ هَذَا، ثُمَّ أَحْيَيْتُهُ، أَتَشُكُّونَ فِي الْأَمْرِ؟ فَيَقُولُونَ: لَا، قَالَ فَيَقْتُلُهُ ثُمَّ يُحْيِيهِ، فَيَقُولُ حِينَ يُحْيِيهِ: وَاللهِ مَا كُنْتُ فِيكَ قَطُّ أَشَدَّ بَصِيرَةً مِنِّي الْآنَ؛ فَيُرِيدُ الدَّجَّالُ أَنْ يَقْتُلَهُ**

فَلَا يُسَلَّطُ عَلَيْهِ" [رواه البخاري ومسلم].

مُلْكُ الدّجّال: يهلَكُ الدجال بعد ظهوره على الأرض كلِّها إلا مكة والمدينة، ثم يقصد بيت المقدس، فينزل عيسى عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ فيقتله، كما مر من حديث النواس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُ وغيره.

قال الخطابي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (هذه الأحاديث الّتي ذكرها مسلم وغيره في قصة الدجال حجة لمذهب أهل الحق في صحة وجوده، وأنه شخص بعينه ابتلى اللهُ به عباده، وأقدره على أشياء من مقدورات الله تعالى، مِن إحياء الميت الّذي يقتله، ومن ظهور زهرة الدّنيا، والخصب معه، وجنته وناره ونهريه، واتباع كنوز الأرض له، وأمره السّماء أن تمطر فتمطر، والأرض أن تنبت فتنبت، فيقع كلّ ذلك بقدرة الله تعالى ومشيئته، ثم يعجزه الله تعالى بعد ذلك فلا يقدر على قتل ذلك الرجل ولا غيره، ويبطل أمره ويقتله عيسى صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَسَلَّمَ ويثبت الله الذين آمنوا. هذا مذهب أهل السنة وجميع المحدثين والفقهاء والنظار...، وإنما يدعي الإلهية، وهو في نفس دعواه مُكَذِّبٌ لها بصورة حاله، ووجود دلائل الحدوث فيه، ونقصِ صُورَته، وعجزه عن إزالة العور الّذي في عينيه، وعن إزالة الشاهد بكفره المكتوب بين عينيه، ولهذه الدلائل وغيرها لا يغتر به إلا رعاعٌ مِن النّاس؛ لسد الحاجة والفاقة، رغبة في سد الرمق، أو تقية، وخوفًا مِن أذاه؛ لأن فتنته عظيمة جدًا تدهش العقول، وتحير الألباب، مع سرعة مروره في الأرض؛ فلا يمكث بحيث يتأمل الضعفاء حاله، ولهذا حذرت الأنبياء -

صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين- مِن فتنته، ونبهوا على نقصه، ودلائل إبطاله.

وأما أهل التوفيق فلا يغترون ولا يخدعون بما معه لما ذكرناه من الدلائل المكذوبة له مع ما سبق لهم من العلم بحاله، ولهذا يقول الّذي يقتله ثم يحييه: ما ازددت فيك إلا بصيرة) [شرح صحيح مسلم للنووي].

وأما ما ورد من الأحاديث في شأن دجَلِ ابن صيادٍ؛ فإنها صحيحةٌ، ولكنها محمولة على أنه دجّالٌ من الدّجاجلة، (ليس هو الدّجّال، لكنّه مِن جنس الكهان) [الفرقان بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان].

قال الحافظ ابن كثيرٍ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (الصحيح أن الدجال غير ابن صياد، وأنَّ ابن صياد كان دجالا من الدجاجلة، ثم تاب بعد ذلك؛ فأظهر الإسلام، والله أعلم بضميره وسيرته) [النهاية في الفتن والملاحم].

فما أظهر ابن صيادٍ من الدّجل كان قبل إظهار إسلامه، وأما بعد إظهاره الإسلام؛ فلم ينقل عنه شيء، وليس له ذكرٌ، والله تعالى أعلم بالسّرائر.

وجود الدّجّال: الدّجال موجودٌ منذ زمنٍ، حتّى في زمن النبوّة؛ كما صدّق النّبيّ صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ تميمًا الداري رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ في خبره عن الدجال، ولفظ الحديث جاء مِن حديث فاطمة بنت قيسٍ ل قالتْ: (...سَمِعْتُ نِدَاءَ الْمُنَادِي، مُنَادِي رَسُولِ اللهِ صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ، يُنَادِي: الصَّلَاةَ جَامِعَةً، فَخَرَجْتُ إِلَى الْمَسْجِدِ، فَصَلَّيْتُ مَعَ رَسُولِ اللهِ صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ، فَكُنْتُ فِي صَفِّ النِّسَاءِ الَّتِي تَلِي ظُهُورَ الْقَوْمِ فَلَمَّا

قَضَى رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ صَلَاتَهُ جَلَسَ عَلَى الْمِنْبَرِ، وَهُوَ يَضْحَكُ، فَقَالَ: "لِيَلْزَمْ كلّ إِنْسَانٍ مُصَلَّاهُ"، ثُمَّ قَالَ: "أَتَدْرُونَ لِمَ جَمَعْتُكُمْ؟" قَالُوا: اللهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ، قَالَ: "إِنِّي وَاللهِ مَا جَمَعْتُكُمْ لِرَغْبَةٍ وَلَا لِرَهْبَةٍ، وَلَكِنْ جَمَعْتُكُمْ، لِأَنَّ تَمِيمًا الدَّارِيَّ كَانَ رَجُلًا نَصْرَانِيًّا، فَجَاءَ فَبَايَعَ وَأَسْلَمَ، وَحَدَّثَنِي حَدِيثًا وَافَقَ الَّذِي كُنْتُ أُحَدِّثُكُمْ عَنْ مَسِيحِ الدَّجَّالِ، حَدَّثَنِي أَنَّهُ رَكِبَ فِي سَفِينَةٍ بَحْرِيَّةٍ، مَعَ ثَلَاثِينَ رَجُلًا مِنْ لَخْمٍ وَجُذَامَ، فَلَعِبَ بِهِمِ الْمَوْجُ شَهْرًا فِي الْبَحْرِ، ثُمَّ أَرْفَئُوا إِلَى جَزِيرَةٍ فِي الْبَحْرِ حتّى مَغْرِبِ الشَّمْسِ، فَجَلَسُوا فِي أَقْرُبِ السَّفِينَةِ فَدَخَلُوا الْجَزِيرَةَ فَلَقِيَتْهُمْ دَابَّةٌ أَهْلَبُ كَثِيرُ الشَّعَرِ، لَا يَدْرُونَ مَا قُبُلُهُ مِنْ دُبُرِه، مِنْ كَثْرَةِ الشَّعَرِ، فَقَالُوا: وَيْلَكِ مَا أَنْتِ؟ فَقَالَتْ: أَنَا الْجَسَّاسَةُ، قَالُوا: وَمَا الْجَسَّاسَةُ؟ قَالَتْ: أَيُّهَا الْقَوْمُ انْطَلِقُوا إِلَى هَذَا الرَّجُلِ فِي الدَّيْرِ، فَإِنَّهُ إِلَى خَبَرِكُمْ بِالْأَشْوَاقِ، قَالَ: لَمَّا سَمَّتْ لَنَا رَجُلًا فَرِقْنَا مِنْهَا أَنْ تَكُونَ شَيْطَانَةً، قَالَ: فَانْطَلَقْنَا سِرَاعًا، حتّى دَخَلْنَا الدَّيْرَ، فَإِذَا فِيهِ أَعْظَمُ إِنْسَانٍ رَأَيْنَاهُ قَطُّ خَلْقًا، وَأَشَدُّهُ وِثَاقًا، مَجْمُوعَةٌ يَدَاهُ إِلَى عُنُقِهِ، مَا بَيْنَ رُكْبَتَيْهِ إِلَى كَعْبَيْهِ بِالْحَدِيدِ، قُلْنَا: وَيْلَكَ مَا أَنْتَ؟ قَالَ: قَدْ قَدَرْتُمْ عَلَى خَبَرِي، فَأَخْبِرُونِي مَا أَنْتُمْ؟ قَالُوا: نَحْنُ أُنَاسٌ مِنَ الْعَرَبِ رَكِبْنَا فِي سَفِينَةٍ بَحْرِيَّةٍ، فَصَادَفْنَا الْبَحْرَ حِينَ اغْتَلَمَ فَلَعِبَ بِنَا الْمَوْجُ شَهْرًا، ثُمَّ أَرْفَأْنَا إِلَى جَزِيرَتِكَ هَذِهِ، فَجَلَسْنَا فِي أَقْرُبِهَا، فَدَخَلْنَا الْجَزِيرَةَ، فَلَقِيَتْنَا دَابَّةٌ أَهْلَبُ كَثِيرُ الشَّعَرِ، لَا يُدْرَى مَا قُبُلُهُ مِنْ دُبُرِهِ مِنْ كَثْرَةِ الشَّعَرِ، فَقُلْنَا: وَيْلَكِ مَا أَنْتِ؟ فَقَالَتْ: أَنَا الْجَسَّاسَةُ، قُلْنَا: وَمَا الْجَسَّاسَةُ؟ قَالَتْ: اعْمِدُوا إِلَى هَذَا الرَّجُلِ فِي الدَّيْرِ، فَإِنَّهُ إِلَى خَبَرِكُمْ بِالْأَشْوَاقِ، فَأَقْبَلْنَا إِلَيْكَ

سِرَاعًا، وَفَزِعْنَا مِنْهَا، وَلَمْ نَأْمَنْ أَنْ تَكُونَ شَيْطَانَةً، فَقَالَ: أَخْبِرُونِي عَنْ نَخْلِ بَيْسَانَ، قُلْنَا: عَنْ أَيِّ شَأْنِهَا تَسْتَخْبِرُ؟ قَالَ: أَسْأَلُكُمْ عَنْ نَخْلِهَا، هَلْ يُثْمِرُ؟ قُلْنَا لَهُ: نَعَمْ، قَالَ: أَمَا إِنَّهُ يُوشِكُ أَنْ لَا تُثْمِرَ، قَالَ: أَخْبِرُونِي عَنْ بُحَيْرَةِ الطَّبَرِيَّةِ، قُلْنَا: عَنْ أَيِّ شَأْنِهَا تَسْتَخْبِرُ؟ قَالَ: هَلْ فِيهَا مَاءٌ؟ قَالُوا: هِيَ كَثِيرَةُ الْمَاءِ، قَالَ: أَمَا إِنَّ مَاءَهَا يُوشِكُ أَنْ يَذْهَبَ، قَالَ: أَخْبِرُونِي عَنْ عَيْنِ زُغَرَ، قَالُوا: عَنْ أَيِّ شَأْنِهَا تَسْتَخْبِرُ؟ قَالَ: هَلْ فِي الْعَيْنِ مَاءٌ؟ وَهَلْ يَزْرَعُ أَهْلُهَا بِمَاءِ الْعَيْنِ؟ قُلْنَا لَهُ: نَعَمْ، هِيَ كَثِيرَةُ الْمَاءِ، وَأَهْلُهَا يَزْرَعُونَ مِنْ مَائِهَا، قَالَ: أَخْبِرُونِي عَنْ نَبِيِّ الْأُمِّيِّينَ مَا فَعَلَ؟ قَالُوا: قَدْ خَرَجَ مِنْ مَكَّةَ وَنَزَلَ يَثْرِبَ، قَالَ: أَقَاتَلَهُ الْعَرَبُ؟ قُلْنَا: نَعَمْ، قَالَ: كَيْفَ صَنَعَ بِهِمْ؟ فَأَخْبَرْنَاهُ أَنَّهُ قَدْ ظَهَرَ عَلَى مَنْ يَلِيهِ مِنَ الْعَرَبِ وَأَطَاعُوهُ، قَالَ لَهُمْ: قَدْ كَانَ ذَلِكَ؟ قُلْنَا: نَعَمْ، قَالَ: أَمَا إِنَّ ذَاكَ خَيْرٌ لَهُمْ أَنْ يُطِيعُوهُ، وَإِنِّي مُخْبِرُكُمْ عَنِّي، إِنِّي أَنَا الْمَسِيحُ، وَإِنِّي أُوشِكُ أَنْ يُؤْذَنَ لِي فِي الْخُرُوجِ، فَأَخْرُجَ فَأَسِيرَ فِي الْأَرْضِ فَلَا أَدَعَ قَرْيَةً إِلَّا هَبَطْتُهَا فِي أَرْبَعِينَ لَيْلَةً غَيْرَ مَكَّةَ وَطَيْبَةَ، فَهُمَا مُحَرَّمَتَانِ عَلَيَّ كِلْتَاهُمَا، كُلَّمَا أَرَدْتُ أَنْ أَدْخُلَ وَاحِدَةً -أَوْ وَاحِدًا- مِنْهُمَا اسْتَقْبَلَنِي مَلَكٌ بِيَدِهِ السَّيْفُ صَلْتًا، يَصُدُّنِي عَنْهَا، وَإِنَّ عَلَى كُلِّ نَقْبٍ مِنْهَا مَلَائِكَةً يَحْرُسُونَهَا" قَالَتْ: قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَطَعَنَ بِمِخْصَرَتِهِ فِي الْمِنْبَرِ: "هَذِهِ طَيْبَةُ، هَذِهِ طَيْبَةُ، هَذِهِ طَيْبَةُ" -يَعْنِي الْمَدِينَةَ- "أَلَا، هَلْ كُنْتُ حَدَّثْتُكُمْ ذَلِكَ؟" فَقَالَ النَّاسُ: نَعَمْ، "فَإِنَّهُ أَعْجَبَنِي حَدِيثُ تَمِيمٍ، أَنَّهُ وَافَقَ الَّذِي كُنْتُ أُحَدِّثُكُمْ عَنْهُ، وَعَنِ الْمَدِينَةِ، وَمَكَّةَ، أَلَا إِنَّهُ فِي بَحْرِ الشَّأْمِ، أَوْ بَحْرِ الْيَمَنِ، لَا، بَلْ مِنْ قِبَلِ الْمَشْرِقِ مَا هُوَ، مِنْ

قِبَلِ الْمَشْرِقِ مَا هُوَ، مِنْ قِبَلِ الْمَشْرِقِ مَا هُوَ" وَأَوْمَأَ بِيَدِهِ إِلَى الْمَشْرِقِ، قَالَتْ: فَحَفِظْتُ هَذَا مِنْ رَسُولِ اللهِ صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ) [رواه مسلم].

وبهذا يتبين أنَّه رجلٌ من بني آدمَ، وأنه موجودٌ وحيٌّ، وأنه محبوسٌ كحبسِ يأجوج ومأجوج عن أبناء آدم، حتّى يأتي وقت خروجه فيخرجُ إلى النّاس كما يخرج يأجوج ومأجوج.

وأنه آخر الفتن في الأرضِ، وهو أكبر الدجالين، وآخر دجالٍ، قال حذيفة رَضِيَٱللَّهُعَنۡهُ: (أوّلُ الفتن قتل عثمان بن عفان رحمة الله عليه، وآخرُ الفتن خروج الدجّال، والذي نفسي بيده لا يموت رجلٌ وفي قلبه مثقال حبّة مِن حُبِّ قتلِ عثمان إلا تَبِعَ الدّجَّال إن أدركه، وإن لم يدركه آمن به في قبره) [المجالسة لابن حزم].

فإن قيلَ: إن يأجوج ومأجوج لهم ذكرٌ في القرآن، ولا ذكر للدجال فيه!؟

فالجواب: ما قاله الحافظ ابن حجر رَحِمَهُٱللَّهُ: (اِشْتُهِر السؤالُ عن الحكمة في عدم التصريح بذكر الدجال في القرآن مع ما ذكر عنه مِن الشر، وعظم الفتنة به، وتحذير الأنبياء منه، والأمر بالاستعاذة منه حتّى في الصلاة)، ثم ذكر عدَّةَ أجوبةٍ لبيان هذه الحكمة ملخصّها:

الأوّل: أنه المشار إليه بقوله تعالى: ﴿يَوۡمَ يَأۡتِي بَعۡضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ لَا يَنفَعُ نَفۡسًا إِيمَٰنُهَا﴾ [سورة الأنعام، من الآية:١٥٨].

الثّاني: قد وقعت الإشارة في القرآن إلى نزول عيسى ابن مريم في قوله تعالى:

﴿وَإِن مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِۦ قَبْلَ مَوْتِهِۦ﴾ [سورة النساء، من الآية:١٥٩]، وصحّ أنه الّذي يقتل الدجال؛ فاكتُفِي بذكر أحد الضدين عن الآخر.

الثّالث: أنه ترك احتقارًا، وأن المفسدين الذين لم يوجدوا فلا ذكر لهم في القرآن فردًا فردًا.

الرّابع: أنه المذكور في قوله تعالى: ﴿لَخَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ ٱلنَّاسِ﴾ [سورة غافر، من الآية:٥٧]، وأن المراد بالنّاس هنا الدجال، من إطلاق الكل على البعض، وهذا إن ثبت أحسن الأجوبة فيكون من جملة ما تكفل النّبيّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ببيانه، والعلم عند الله تعالى.

والذي يظهر لي –والله تعالى أعلم- أنّ أحسن الأجوبةِ هو أنّ ما ثبت في السنة كما ثبت في القرآن، إذْ مَصْدَرُ الشّرع الوحي، والسنة من الوحي الخفيّ، فليس كلّ مذكورٍ في السنة لا بد وأن يكون مذكورًا في القرآن.

وأيضًا لم يُذْكَر لِيَعْظُمَ به البلاء، وتشتد الفتنة به، ألا ترى أنّ أناسًا قد ضلوا ولم يؤمنوا بكينونيته، مع تواتر الأحاديث فيه؛ فقد وقعوا في فتنةٍ بسببه، ولَمّا يشاهدوه بعدُ، أعاذنا الله منه.

ثم لو ذُكِرَ؛ فهل ذِكرُه يكون مانعًا من اتباع العامّة له، أليست العامة تقرأ أن الله تعالى لا يُرَى في الدّنيا، حيث قال لكليمه موسى: ﴿لَن تَرَىٰنِي﴾ [سورة الأعراف، من الآية:١٤٣]، أي في الدّنيا، ومع ذلك يُتَبّع الدّجّالُ من العامة في ادعائه الرّبوبيّة!؟

وقد خالَف في شأن الدجال طائفتان:

الطّائفة الأولى: المعتزلةُ، ومَن وافقهم في تقديم العقل على النقل، وطائفة من الخوارج، وزعموا أنه ليس له حقيقةٌ، ولا وجودٌ. وهذا القول مردود بالمتواتر من الأحاديث، وهو قولٌ مخالف لعقيدة أهل السنة والجماعة.

الطّائفة الثّانية: قومٌ أثبتوا فتنة الدجال، وكونه سيخرجُ في آخر الزمان، وزعموا أنّ ما معه من الاستدراجات الخارقة للعادة كلها تمويهات وخيالات، لا حقيقة لها، وهذا القول نص عليه الإمام الطّحاويّ نفسه حيث قال: (إنَّ هذه الأشياء إنّما تكون منه على جهة السّحر، الّذي يخيّل إلى مَن لحقه ذلك السحر أنها حقائق، وليست بحقائق...، وأنَّ ذلك كله على السِّحْرِ لا على الحقيقة، ونعوذ بالله من ذلك) [شرح مشكل الآثار].

وهو مشهور عن ابن حزم؛ فإنه قال: (إن ظهر مِن أحدٍ منهم ذلك -أي خوارق العادات- فهي نِيرَنْجَاتٌ وحِيَلٌ، وُجُوهها معروفة؛ لمن بحث عنها، ومِن أهلِ هذه الصِّفَةِ كان مُسيلمةُ، والحلاج، ومِن أهلها الدّجّال، لا حقيقة لكلّ ما ظهر مِن هؤلاء، وأشباههم، وإنّما هي حِيَلٌ) [الإحكام في أصول الأحكام].

قال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ في الرد على الطائفتين: (وقد تمسك...طائفة من العلماء؛ كابن حزم، والطّحاويّ، وغيرهما، في أنّ الدّجّال مُمَخْرِقٌ مُمَوِّهٌ، لا حقيقة لما يُبْدِي للنّاس مِن الأمور الّتي تشاهَد في زمانه؛ بل كلها خيالات عند هؤلاء.

وقال...أبو علي الجبائي شيخ المعتزلة: لا يجوز أن يكون كذلك حقيقة؛ لئلا يَشتَبِهَ خارقُ السّاحر بخارق النّبيّ.

وقد أجابه القاضي عياض وغيره: بأنّ الدّجّال إنّما يدّعي الإلهية، وذلك منافٍ للبشرية؛ فلا يمتنع إجراء الخارق على يديه، والحالة هذه.

وقد أنكرت طوائفُ كثيرةٍ مِن الخوارج والجهمية وبعضُ المعتزلة خروجَ الدّجّال بالكلية، ورَدُّوا الأحاديث الواردة فيه؛ فلم يصنعوا شيئًا، وخرجوا بذلك عن حَيِّزِ العلماءِ لردِّهم ما تواترت به الأخبار الصحيحة مِن غير وجه عن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كما تقدم، وإنّما أوردنا بعضَ ما ورد في هذا الباب، لأنّ فيه كفايةً ومَقْنَعًا، وبالله المستعان.

والذي يظهر من الأحاديث المتقدِّمة أنّ الدّجّال يمتحن الله به عباده بما يخلقه معه مِن الخوارق المشاهدة في زمانه...، أنَّ مِن استجاب له يأمر السّماء لتمطرهم، والأرض فتنبت لهم زرعًا تأكل منه أنعامهم وأنفسهم، وترجع إليهم سمانًا، ومَن لا يستجيب له ويردّ عليه أمره تصيبهم السَّنَةُ والجدْبُ والقحط، والعلّة، وموت الأنعام، ونقص الأموال والأنفس والثمرات، وأنّه تتبعه كنوزُ الأرض كيعاسيب النّحل، ويقتل ذلك الشّابّ ثمّ يحييه، وهذا كلُّه ليس بَمَخْرَقَةٍ بل له حقيقة، امتحن الله به عباده في ذلك الزمان؛ فيضلّ به كثيرًا، ويهدي به كثيرًا، يكفر المرتابون، ويزداد الذين آمنوا إيمانًا) [النهاية في الفتن والملاحم].

قوله رَحِمَهُ اللَّهُ: **"ونزول عيسى ابن مريم** عَلَيْهِ السَّلَامُ **من السّماء"** أي نؤمن ونقر

بأن من أشراط الساعة الكبرى نزول عيسى عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ من السّماء.

و (**النّزول**) مصدر نَزَل ينزِل نزلًا ونزولًا، وهو الانحدار والهبوط من علوٍ إلى سفلٍ، ونزل من مكان كذا إلى كذا إذا حلَّ فيه، وصار إليه.

والمراد بنزول عيسى عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ هو هبوطه بين مَلَكَين من السّماء الثانية إلى الأرضِ لحكمٍ عظيمةٍ.

و"**عيسى ابن مريم** عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ" هو النّبيّ المعروفُ الّذي جاء ذكره في القرآن كثيرًا، وهو أحد أولي العزم من الرسل، ورسولٌ قد بعثه الله تعالى إلى بني إسرائيل؛ فآمن به طائفة، وكفرت طائفة؛ فهمَّتْ بقتله؛ فرفعه الله تعالى إليه؛ كما قال سبحانه في ردّه على اليهود الزاعمين قتله: ﴿وَبِكُفۡرِهِمۡ وَقَوۡلِهِمۡ عَلَىٰ مَرۡيَمَ بُهۡتَٰنًا عَظِيمٗا ١٥٦ وَقَوۡلِهِمۡ إِنَّا قَتَلۡنَا ٱلۡمَسِيحَ عِيسَى ٱبۡنَ مَرۡيَمَ رَسُولَ ٱللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَٰكِن شُبِّهَ لَهُمۡۚ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ ٱخۡتَلَفُواْ فِيهِ لَفِي شَكّٖ مِّنۡهُۚ مَا لَهُم بِهِۦ مِنۡ عِلۡمٍ إِلَّا ٱتِّبَاعَ ٱلظَّنِّۚ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينَۢا ١٥٧ بَل رَّفَعَهُ ٱللَّهُ إِلَيۡهِۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمٗا ١٥٨ وَإِن مِّنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ إِلَّا لَيُؤۡمِنَنَّ بِهِۦ قَبۡلَ مَوۡتِهِۦۖ وَيَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ يَكُونُ عَلَيۡهِمۡ شَهِيدٗا﴾ [سورة النساء، من الآية:١٥٦-١٥٩].

وفي الآية الأخيرة دليل ظاهرٌ على نزوله قبل يوم القيامة، وحينها يؤمن به أهلُ الكتابِ، ولا يقبل منهم الجزية، قال إمام المفسرين ابن جرير رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (ذلك عند نزول عيسى ابن مريم عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ، لا يبقى أحد من أهل الكتاب إلا ليؤمننّ به) [تفسير الطبري].

وقال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (ولا شك أن هذا هو الصحيح؛ لأنه المقصود مِن سياق الآي في تقرير بطلان ما ادعته اليهود من قتل عيسى وصلبه، وتسليم من سلم لهم من النصارى الجهلة ذلك، فأخبر الله أنه لم يكن الأمر كذلك، وإنما شبه لهم، فقتلوا الشبه وهم لا يتبينون ذلك، فأخبر الله أنه رفعه إليه، وأنه باق حي، وأنه سينزل قبل يوم القيامة، كما دلت عليه الأحاديث المتواترة الّتي سنوردها إن شاء الله قريبًا، فيقتل مسيح الضلالة، ويكسر الصليب ويقتل الخنزير، ويضع الجزية، يعني: لا يقبلها مِن أحد من أهل الأديان، بل لا يقبل إلا الإسلام أو السيف، فأخبرت هذه الآية الكريمة أنه يؤمن به جميع أهل الكتاب حينئذ ولا يتخلف عن التصديق به واحد منهم) [تفسير القرآن العظيم].

ومما يدل على نزوله من القرآن قوله تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ لَعِلْمٌ لِّلسَّاعَةِ فَلَا تَمْتَرُنَّ بِهَا وَٱتَّبِعُونِ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ﴾ [سورة الزخرف، من الآية:٦١]، أي أن نزول عيسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ علامَةٌ يقينية على القيامة، ويؤكد هذا المعنى القراءةُ بفتح العين واللام ﴿لَعَلَمٌ لِّلسَّاعَةِ﴾، فخروجه علمٌ من أعلام القيامة، وشرطٌ من شروطها، وأمارة على قربها.

وأما الأحاديث الدالة على نزوله فهي متواترة، ومنها:

حديثُ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ عَنْ رَسُولِ اللهِ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: **لَا تَقُومُ السَّاعَةُ حتّى يَنْزِلَ فِيكُمْ ابْنُ مَرْيَمَ حَكَمًا مُقْسِطًا، فَيَكْسِرَ الصَّلِيبَ، وَيَقْتُلَ الخِنْزِيرَ، وَيَضَعَ الجِزْيَةَ، وَيَفِيضَ المَالُ، حتّى لَا يَقْبَلَهُ أَحَدٌ**» [رواه البخاري، وبنحوه مسلم]، وفي

هذا الحديث بعضُ علامات مسيح الهداية عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ وأعماله، وأنه حاكمٌ عدلٌ لا يجورُ، ومما جعل النّبيّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ له من العلامات أنه يكسر الصليب، ويقتل الخنزير ولا يأكله، ولا يقبل الجزية، ويفيض المال في زمانه جدًّا.

وحديثُ عَبْدِ اللهِ بْنِ عُمَرَ بقال: ذَكَرَ النّبيّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَوْمًا بَيْنَ ظَهْرَيِ النّاس المَسِيحَ الدَّجَّالَ، فَقَالَ: "**إِنَّ اللهَ لَيْسَ بِأَعْوَرَ، أَلاَ إِنَّ المَسِيحَ الدَّجَّالَ أَعْوَرُ العَيْنِ اليُمْنَى، كَأَنَّ عَيْنَهُ عِنَبَةٌ طَافِيَةٌ، وَأَرَانِي اللَّيْلَةَ عِنْدَ الكَعْبَةِ فِي المَنَامِ، فَإِذَا رَجُلٌ آدَمُ، كَأَحْسَنِ مَا يُرَى مِنْ أُدْمِ الرِّجَالِ تَضْرِبُ لِمَّتُهُ بَيْنَ مَنْكِبَيْهِ، رَجِلُ الشَّعَرِ، يَقْطُرُ رَأْسُهُ مَاءً، وَاضِعًا يَدَيْهِ عَلَى مَنْكِبَيْ رَجُلَيْنِ وَهُوَ يَطُوفُ بِالْبَيْتِ، فَقُلْتُ: مَنْ هَذَا؟ فَقَالُوا: هَذَا المَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ، ثُمَّ رَأَيْتُ رَجُلًا وَرَاءَهُ جَعْدًا قَطِطًا أَعْوَرَ العَيْنِ اليُمْنَى، كَأَشْبَهِ مَنْ رَأَيْتُ بِابْنِ قَطَنٍ، وَاضِعًا يَدَيْهِ عَلَى مَنْكِبَيْ رَجُلٍ يَطُوفُ بِالْبَيْتِ، فَقُلْتُ: مَنْ هَذَا؟ قَالُوا: المَسِيحُ الدَّجَّالُ**" [رواه البخاري، ومسلم]، وفي هذا الحديث بيان أوصاف مسيح الهداية، وكذلك بيان صفات مسيح الضلالة.

وحديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنّ النّبيّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: "**ليس بيني وبينه نبيٌّ -يعني عيسى ابن مريم- وإنه نازلٌ، فإذا رأيتموه فاعرِفوه: رجل مربوعٌ إلى الحُمرةِ والبياضِ، بين مُمصَّرتين، كأن رأسَه يقطرُ، وإنْ لم يُصِبه بلَلٌ، فيُقاتِلُ النّاس على الإِسلامِ، فيدُقُ الصَّلِيبَ، ويقتُلُ الخِنزيرَ، ويضَعُ الجزيةَ، ويُهلِكُ اللهُ في زمانه المِلل كلَّها إلا الإِسلامَ، ويُهلِكُ المسيحَ الدَّجَّالَ، فيمكثُ في الأرضِ**

أربعينَ سنةَ، ثم يُتوفَّى فيُصلي عليه المُسلمون" [رواه أبو داود، وصحح إسناده الحافظ ابن كثير وابن حجر].

قال السّفّاريني رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (أجمعت الأمّة على نزوله، ولم يخالف فيه أحدٌ مِن أهل الشّريعة، وإنما أنكر ذلك الفلاسفة والملاحدة، ممن لا يُعتدّ بخلافه، وقد انعقد إجماع الأمّة على أنّه يَنزِل ويحكم بهذه الشريعة المحمدية، وليس ينزل بشريعة مستقلة عند نزوله من السّماء، وإن كانت قائمة به وهو متصف بها) [لوامع الأنوار البهية].

ونخلصُ مما سبق: أن نزول عيسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ من أشراط الساعة، وحتّى لا ننخدع بكل إنسان قد يدعي أنه عيسى، وأنه نزل من السّماء؛ فإن النّبيّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قد ذكر لعيسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ أوصافًا حتّى نعرفه إذا ما نزل، ولا ننخدع بأي مدّعٍ، ومن هذه الأوصاف:

الوصف الأوّل: "فإذا رأيتموه فاعرِفوه: رجل مربوعٌ إلى الحُمرةِ والبياضِ، بين مُمصَّرَتَيْنِ" [أبو داود وهو حديث صحيح]، **"فَأَمَّا عِيسَى فَأَحْمَرُ جَعْدٌ عَرِيضُ الصَّدْرِ"** [رواه البخاري].

الوصف الثّاني: "فَيَنْزِلُ عِنْدَ الْمَنَارَةِ الْبَيْضَاءِ شَرْقِيَّ دِمَشْقَ، بَيْنَ مَهْرُودَتَيْنِ، وَاضِعًا كَفَّيْهِ عَلَى أَجْنِحَةِ مَلَكَيْنِ، إِذَا طَأْطَأَ رَأْسَهُ قَطَرَ، وَإِذَا رَفَعَهُ تَحَدَّرَ مِنْهُ جُمَانٌ كَاللُّؤْلُؤِ" [رواه مسلم من حديث النواس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ]، وذلك في وقت صلاة الفجر حين اصطف المسلمون للصلاة، وذلك بعدَ رجوعِ أجناد المسلمين مِن

أرضِ الرُّوم إلى الشّامِ، وقد سبقهم الدّجال إلى بيت المقدس.

الوصف الثّالث: أنه لا يجدُ كافرٌ ريحَ نفَسِه إلا مات؛ كما في حديث النواس رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ، وفيه: **"فَلَا يَحِلُّ لِكَافِرٍ يَجِدُ رِيحَ نَفَسِهِ إِلَّا مَاتَ، وَنَفَسُهُ يَنْتَهِي حَيْثُ يَنْتَهِي طَرْفُهُ"** [رواه مسلم].

الوصف الرّابع: أنه لا يقبل من النّاس إلا الإسلام؛ فيكسر الصليب، ويقتل الخنزير، ولا يقبل الجزية، ولا يهابُ النّاس، ولا يبالي بهم، إنما يقيم شريعة الله تعالى، وهو منصور بنصرِ الله تعالى له.

الوصف الخامس: أنه يقتل الدجال، وهذا من أوضح صفاته، وأجلاها، وفي زمانه تنتهي فتنة المسيح الدجال، ويخرج يأجوج ومأجوج، وبدعائه يُهلِكُهم الله تعالى.

فإن قيل ما الحكمة مِن نزول عيسى عَلَيْهِٱلسَّلَامُ دون غيره؟

فالجواب: أن يقال: في ذلك حِكَمٌ كثيرة قد ذكرها أهل العلم مستنبطين من النصوص ومدلولاتها، ومنها:

الحكمة الأولى: أنه النّبيّ الوحيد الّذي لم يمُت كما في النص؛ بل رفعه الله تَبَارَكَوَتَعَالَىٰ، وقد كتب على كلّ نفسٍ الموتَ؛ فينزل ويموت كما يموت أبناء آدم.

الحكمة الثّانية: إبطال دعوى اليهود في زعمهم أنهم قتلوه؛ فيُنزِله الله تعالى ليقتلهم حيث إن كلّ اليهود مع الدجال.

الحكمة الثّالثة: أنه يبطل دعوى النصارى في ألوهيته، وفي تعظيمهم للصليب،

وتحليلهم الخنزير؛ فيأتي لإبطال أكاذيبهم ودعاويهم.

الحكمة الرّابعة: أن عيسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ وجد فضل أمة محمدٍ صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ فدعا الله تعالى أن يكون منهم؛ فاستجاب الله تعالى دعاءه، وجعله مجددًا لما اندرس من معالم الإسلام؛ فكسب الصحبة برؤيته النّبيّ صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ ليلة الإسراء والمعراج، وكسب التبعية، والتجديد، وبهذا يتأكد أنه أولى النّاس بالنّبيّ صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ من جهة كونه ليس بينه وبينه نبي، ومن جهة كونه جاء في آخر أمته مجددًا لدينه عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ.

الحكمة الخامسة: أن في نزوله دليلٌ من دلائل نبوة محمدٍ صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ حيث بنزوله يتحقق ما أخبر به النّبيّ صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ.

هذا إضافة إلى كونه يقتل مسيحَ الضّلالة الدجّالَ، وحاجة المسلمين إلى ذلك، لا سيما مع وجود الفتن.

و"**بخروج يأجوج ومأجوج**"، والأصح أنهما اسمان أعجميان لهما مدلولهما الأعجمي، واشتقَاقُ مثلهما من كلام العَرَبِ يخرّج مِن (أَجَّجْتُ النّار)، ومن النّار (الأُجَاجِ) وهو الأشَدّ، وهو الشديد الملوحة، المحرّق من مُلُوحَتِهِ.

وهم المذكورون في سورة الكهف، في قصة ذي القرنين حيث أغلق عليهم السدّ؛ كما أخبر الله تعالى: ﴿ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا ﴿٨٩﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ مَطْلِعَ ٱلشَّمْسِ وَجَدَهَا تَطْلُعُ عَلَىٰ قَوْمٍ لَّمْ نَجْعَل لَّهُم مِّن دُونِهَا سِتْرًا ﴿٩٠﴾ كَذَٰلِكَ وَقَدْ أَحَطْنَا بِمَا لَدَيْهِ خُبْرًا ﴿٩١﴾ ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا ﴿٩٢﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ بَيْنَ ٱلسَّدَّيْنِ وَجَدَ مِن دُونِهِمَا قَوْمًا لَّا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ

قَوْلًا ﴿٩٣﴾ قَالُواْ يَٰذَا ٱلْقَرْنَيْنِ إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِي ٱلْأَرْضِ فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا عَلَىٰٓ أَن تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا﴾ [سورة الكهف، من الآية:٨٩-٩٤].

ومما يدل على أنّ خروجَ يأجوج ومأجوج من علامات الساعة قولُ الله تعالى:

﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فُتِحَتْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ وَهُم مِّن كُلِّ حَدَبٍ يَنسِلُونَ ﴿٩٦﴾ وَٱقْتَرَبَ ٱلْوَعْدُ ٱلْحَقُّ فَإِذَا هِيَ شَٰخِصَةٌ أَبْصَٰرُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يَٰوَيْلَنَا قَدْ كُنَّا فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَٰذَا بَلْ كُنَّا ظَٰلِمِينَ﴾ [سورة الأنبياء، من الآية:٩٦-٩٧]، ومعنى ﴿حَدَبٍ﴾ جهةٍ وصوبٍ ومرتفعٍ، وفي قراءة ابن مسعود "جَدَثٍ" وهذه القراءة تدل أنهم يخرجون من باطن الأرض، وأن السّدّ أغلق عليهم الخروج إلى ظاهر الأرض.

وَقَالَ: ﴿قَالَ هَٰذَا رَحْمَةٌ مِّن رَّبِّي فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ رَبِّي جَعَلَهُۥ دَكَّآءَ وَكَانَ وَعْدُ رَبِّي حَقًّا﴾ [سورة الكهف، من الآية:٩٨].

وجاء في وصف هدمهم للسدّ ما رواه أبو هريرة ت موقوفًا، ومثله قال كعب الأحبار: (إِذَا كَانَ عِنْدَ خُرُوجِ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ حَفَرُوا حتّى يَسْمَعَ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ قَرْعَ فُئُوسِهِمْ، فَإِذَا كَانَ اللَّيْلُ قَالُوا: نَحْنُ غَدًا نَفْتَحُ وَنَخْرُجُ، فَيُعِيدُهُ اللهُ كَمَا كَانَ، فَيَحْفِرُونَ حتّى يَسْمَعَ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ قَرْعَ فُئُوسِهِمْ، فَإِذَا كَانَ اللَّيْلُ قَالُوا: نَحْنُ غَدًا نَفْتَحُ وَنَخْرُجُ، فَيُعِيدُهُ اللهُ كَمَا كَانَ، فَيَحْفِرُونَ حتّى يَسْمَعَ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ قَرْعَ فُئُوسِهِمْ، فَإِذَا كَانَ اللَّيْلُ أَلْقَى اللهُ عَلَى لِسَانِ رَجُلٍ مِنْهُمْ فِي الثَّالِثَةِ فَيَقُولُ: نَحْنُ

غَدًا نَخْرُجُ إِنْ شَاءَ اللهُ، فَيَحْفِرُونَ مِنَ الْغَدِ فَيَجِدُونَهُ كَمَا تَرَكُوهُ، فَيَحْفِرُونَ، ثُمَّ يَخْرُجُون) [الفتن لنعيم بن حماد].

ومعلوم أنّ السّدّ الّذي بناه ذو القرنين قد حال بين بني يأجوج ومأجوج وبين عامة البشر، وإلا فإن يأجوج ومأجوج من ذرية نوحٍ؛ فهم من البشر، على القول الراجح.

ولا يزالون يحاولون هدم السد والخروج إلى النّاس، حتّى يأتي يوم القيامة؛ فإذا جاء وعدُ الله تعالى انهدم السد، وصار دكّاءَ؛ كما أخبر الله تعالى في سورة الكهف، وجاء في حديث زَيْنَبَ بِنْتِ جَحْشٍ ل أَنَّ النّبيّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ دَخَلَ عَلَيْهَا فَزِعًا يَقُولُ: "**لاَ إِلَهَ إِلَّا اللهُ، وَيْلٌ لِلْعَرَبِ مِنْ شَرٍّ قَدِ اقْتَرَبَ، فُتِحَ الْيَوْمَ مِنْ رَدْمِ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مِثْلُ هَذِهِ**"، وَحَلَّقَ بِإِصْبَعِهِ الإِبْهَامِ وَالَّتِي تَلِيهَا، قَالَتْ زَيْنَبُ بِنْتُ جَحْشٍ فَقُلْتُ يَا رَسُولَ اللهِ: أَنَهْلِكُ وَفِينَا الصَّالِحُونَ؟ قَالَ: "**نَعَمْ إِذَا كَثُرَ الخَبَثُ**" [رواه البخاري، ومسلم].

ومما يدل على أنهم مِن ذُرِّيّة آدم حديث أَبِي سَعِيدٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وفيه قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "**يَقُولُ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ يَوْمَ القِيَامَةِ: يَا آدَمُ، يَقُولُ: لَبَّيْكَ رَبَّنَا وَسَعْدَيْكَ، فَيُنَادَى بِصَوْتٍ: إِنَّ اللهَ يَأْمُرُكَ أَنْ تُخْرِجَ مِنْ ذُرِّيَّتِكَ بَعْثًا إِلَى النَّارِ، قَالَ: يَا رَبِّ وَمَا بَعْثُ النَّارِ؟ قَالَ: مِنْ كلّ أَلْفٍ** -أُرَاهُ قَالَ- **تِسْعَ مِائَةٍ وَتِسْعَةً وَتِسْعِينَ، فَحِينَئِذٍ تَضَعُ الحَامِلُ حَمْلَهَا، وَيَشِيبُ الوَلِيدُ، وَتَرَى النّاس سُكَارَى وَمَا هُمْ بِسُكَارَى، وَلَكِنَّ عَذَابَ اللهِ شَدِيدٌ**"؛ فَشَقَّ ذَلِكَ عَلَى النّاس حتّى تَغَيَّرَتْ

وُجُوهُهُمْ، فَقَالَ النّبيّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "مِنْ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ تِسْعَ مِائَةٍ وَتِسْعَةً وَتِسْعِينَ، وَمِنْكُمْ وَاحِدٌ، ثُمَّ أَنْتُمْ فِي النّاس كَالشَّعْرَةِ السَّوْدَاءِ فِي جَنْبِ الثَّوْرِ الأَبْيَضِ - أَوْ كَالشَّعْرَةِ البَيْضَاءِ فِي جَنْبِ الثَّوْرِ الأَسْوَدِ" [رواه البخاري بهذا اللفظ، ورواه مسلم نحوه].

وفي حديث النواس بن سمعان رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: "فَبَيْنَمَا هُوَ كَذَلِكَ إِذْ أَوْحَى اللهُ إِلَى عِيسَى: إِنِّي قَدْ أَخْرَجْتُ عِبَادًا لِي، لَا يَدَانِ لِأَحَدٍ بِقِتَالِهِمْ، فَحَرِّزْ عِبَادِي إِلَى الطُّورِ، وَيَبْعَثُ اللهُ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ، وَهُمْ مِنْ كلّ حَدَبٍ يَنْسِلُونَ، فَيَمُرُّ أَوَائِلُهُمْ عَلَى بُحَيْرَةِ طَبَرِيَّةَ فَيَشْرَبُونَ مَا فِيهَا، وَيَمُرُّ آخِرُهُمْ فَيَقُولُونَ: لَقَدْ كَانَ بِهَذِهِ مَرَّةً مَاءٌ، وَيُحْصَرُ نَبِيُّ اللهِ عِيسَى وَأَصْحَابُهُ، حتّى يَكُونَ رَأْسُ الثَّوْرِ لِأَحَدِهِمْ خَيْرًا مِنْ مِائَةِ دِينَارٍ لِأَحَدِكُمُ الْيَوْمَ، فَيَرْغَبُ نَبِيُّ اللهِ عِيسَى وَأَصْحَابُهُ، فَيُرْسِلُ اللهُ عَلَيْهِمُ النَّغَفَ فِي رِقَابِهِمْ، فَيُصْبِحُونَ فَرْسَى كَمَوْتِ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ، ثُمَّ يَهْبِطُ نَبِيُّ اللهِ عِيسَى وَأَصْحَابُهُ إِلَى الْأَرْضِ، فَلَا يَجِدُونَ فِي الْأَرْضِ مَوْضِعَ شِبْرٍ إِلَّا مَلَأَهُ زَهَمُهُمْ وَنَتْنُهُمْ، فَيَرْغَبُ نَبِيُّ اللهِ عِيسَى وَأَصْحَابُهُ إِلَى اللهِ، فَيُرْسِلُ اللهُ طَيْرًا كَأَعْنَاقِ الْبُخْتِ فَتَحْمِلُهُمْ فَتَطْرَحُهُمْ حَيْثُ شَاءَ اللهُ، ثُمَّ يُرْسِلُ اللهُ مَطَرًا لَا يَكُنُّ مِنْهُ بَيْتُ مَدَرٍ وَلَا وَبَرٍ، فَيَغْسِلُ الْأَرْضَ حتّى يَتْرُكَهَا كَالزَّلَفَةِ، ثُمَّ يُقَالُ لِلْأَرْضِ: أَنْبِتِي ثَمَرَتَكِ، وَرُدِّي بَرَكَتَكِ، فَيَوْمَئِذٍ تَأْكُلُ الْعِصَابَةُ مِنَ الرُّمَّانَةِ، وَيَسْتَظِلُّونَ بِقِحْفِهَا، وَيُبَارَكُ فِي الرِّسْلِ، حتّى أَنَّ اللِّقْحَةَ مِنَ الْإِبِلِ لَتَكْفِي الْفِئَامَ مِنَ النّاس، وَاللِّقْحَةَ مِنَ الْبَقَرِ لَتَكْفِي الْقَبِيلَةَ مِنَ النّاس وَاللِّقْحَةَ مِنَ الْغَنَمِ لَتَكْفِي الْفَخِذَ مِنَ النّاس، فَبَيْنَمَا هُمْ

كَذَلِكَ إِذْ بَعَثَ اللهُ رِيحًا طَيِّبَةً، فَتَأْخُذُهُمْ تَحتَ آبَاطِهِمْ، فَتَقْبِضُ رُوحَ كلّ مُؤْمِنٍ وَكُلِّ مُسْلِمٍ، وَيَبْقَى شِرَارُ النّاس، يَتَهَارَجُونَ فِيهَا تَهَارُجَ الْحُمُرِ، فَعَلَيْهِمْ تَقُومُ السَّاعَةُ" [رواه مسلم].

وفي حديث أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ تقَالَ: سَمِعْتُ رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقُولُ: "يَفْتَحُ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ، وَيَخْرُجُونَ عَلَى النّاس؛ كمَا قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَهُم مِّن كُلِّ حَدَبٍ يَنسِلُونَ﴾ [سورة الأنبياء، من الآية:٩٦]، وَيَنْحَازُ الْمُسْلِمُونَ عَنْهُمْ إِلَى مَدَائِنِهِمْ وَحُصُونِهِمْ، ويضُمُّونَ إليهم موَاشِيَهُمْ، وَيَشْرَبُونَ مِيَاهَ الأَرْضِ حتّى إِنَّ بَعْضَهُمْ لَيَمُرُّ بِذلِكَ النَّهَرِ فَيَقُولُونَ: قَدْ كَانَ هَاهُنَا مَاءٌ مرَّةً، حتّى إِذَا لَمْ يَبْقَ مِنَ النّاس أحد إلا في حصْن أو مَدِينَةٍ، قَالَ قَائِلُهُم: هؤُلاءِ أَهْلُ الأَرْضِ قَدْ فَرَغْنَا مِنْهُمْ، بَقِيَ أَهْلُ السّماء".

قال: "ثمَّ يَهُزُّ أَحَدُهُمْ حَرْبَتَهُ، ثُمَّ يَرْمِي بِهِ إِلَى السّماء فَتَرْجِعُ إِلَيْهِ مُخْتَضِبَةً دَمًا لِلْبَلاءِ وَالْفِتْنَةِ، فَبَيْنَمَا هُمْ عَلَى ذلِكَ يَبْعَثُ الله عَزَّوَجَلَّ دُودًا فِي أعْنَاقِهِمْ كنَغَفِ الْجَرَادِ الَّذِي يَخْرُجُ فِي أعْنَاقِهَا، فَيُصْبِحُونَ مَوْتَى لا يُسْمَعُ لَهُمْ حِسٌّ، فَيَقُولُ الْمُسْلِمُونَ: ألا رَجُلٌ يَشْرِي لَنَا نَفْسَهُ فَيَنْظُرُ مَا فَعَلَ هؤُلاَءِ الْعَدُوُّ؟ فَيَتَجَرَدُ رَجُلٌ مِنْهُمْ لِذلِكَ مُحْتَسِبًا لِنَفْسِهِ عَلَى أَنَّه مَقْتُولٌ، فَيَجِدُهُمْ مَوْتَى بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ، فَيُنَادِي: يَا مَعْشَرَ الْمُسْلِمِينَ، ألا أَبْشِرُوا، فَإِنَّ الله قَدْ كفَاكُمْ عَدُوَّكُمْ؛ فَيَخْرُجُونَ مِنْ مَدَائِنِهِمْ وَحُصُونِهِمْ، فَيَسْرَحُونَ مَوَاشِيَهُمْ" [رواه ابن حبان في صحيحه].

قال القاضي عياض رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (الأحاديثُ الواردة في يأجوج ومأجوج: هذه

الأخبار على حقيقتها يجب الإيمان بها؛ لأن خروج يأجوج ومأجوج من علامات الساعة، وقد ورد في خبرهم أنه لا قدرة لأحد على قتالهم من كثرتهم، وأنهم يحصرون نبي الله عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ ومن معه من المؤمنين الذين نجوا من الدجال، فيدعو عليهم؛ فيهلكهم الله عَزَّوَجَلَّ أجمعين بالنغف -وهو دودٌ في رقابهم-؛ فيؤذون الأرضَ والمؤمنين بنتنهم، فيدعو عيسى وأصحابه ربهم فيرسل الله طيرا فتحملهم حيث شاء الله) [إكمال المعلم].

ولم ينكر خروج يأجوج ومأجوج طائفة من طوائف المسلمين، إلا أنه رأيٌ لبعض المتأثرين بالاعتزال والرقي الغربي، حيث زعموا أنها مكروبات!؟ وأشد من هؤلاء من أنكر من الطبائعيين وجود يأجوج ومأجوج بحجة أن العالَم كله قد اكتُشِف، وأن الغرب قد نظروا كل ما في الأرض؛ فهذه دعاوى ظاهرة البطلان؛ فمن ذا الّذي يحيط بالأرض علمًا غير الّذي خلقه جل في علاه!؟

فيجب على المسلم الإيمانُ بما جاء في الكتاب والسنة عن السد ويأجوج ومأجوج، وأن يحذر من تكذيب صريح ما جاء في كتاب الله عَزَّوَجَلَّ، وما أخبر به رسولنا صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الّذي لا ينطق عن الهوى، ونسأل الله تعالى أن يعصمنا والمسلمين من الفتن.

ثمّ إنّ بعد يأجوج ومأجوج يبقى المؤمنون؛ بل ويحجُّون؛ كما في حديث أَبِي سَعِيدٍ الخُدْرِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، عَنِ النَّبيّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: **"لَيُحَجَّنَّ البَيْتُ وَلَيُعْتَمَرَنَّ بَعْدَ خُرُوجِ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ"** [رواه البخاري].

وبعد هذه الأحداث يكون ما ذكره المصنّف في قوله: **"ونؤمن بطلوع الشمس من مغربها"**، أي ومن الإقرار الإيماني عند أهل السنة والجماعة مما هو داخل في الركن الخامس من أركان الإيمان وهو الإيمان باليوم الآخر، ما جاء من إثبات أشراط الساعة الكبرى، ومنها: **"طلوع الشمس من مغربها"**.

و **"طلوع"** تعني لغة الصعودُ المكاني، والخروجُ الأواني، وعلى البلوغ الزماني، والظّهور الذاتي، والبدوُّ الجسماني.

وتطلق على العِلْمِ القلبي، ومنه: اطّلع على الأمرِ إذا علمه، والمراد بالـ **"طلوع"** هنا: خروجُ الشمسِ وظهورها من جهةِ المغرب عيانًا بيانًا.

و**"الشمس"** كوكبٌ نجميٌّ، وجرمٌ مضيءٌ، مُشاهَدٌ في السّماء، بضوئها يتبين للناس النهارُ من الليلِ، وهي مؤنثة اللفظِ غير حقيقي.

وأصل كلمة **"الشمس"** مشتقّةٌ؛ مِن (شامَسَ) الشيءُ إذا عادَ وعانَدَ، أو مِن (شامَسَ) إذا اشتدّ حره، وصَعُب مِراسه، أو مِن (شَمَس) الشيءُ إذا امتنع، واستَعْصَى، وظهرَ قوته، وبانَ ولم يستطع إخفاءه.

وكل هذه المعاني اللغوية موجودة معانيها في **"الشمس"**، وهي المقصودة في القرآن والسنة عند الإطلاق؛ كما قال إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ يَأْتِي بِٱلشَّمْسِ مِنَ ٱلْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ ٱلْمَغْرِبِ فَبُهِتَ ٱلَّذِي كَفَرَ﴾ [سورة البقرة، من الآية:٢٥٨].

وفي كونِ اللهِ تعالى القادرُ وحده على تحريك الشمس، ووضعها في نظامٍ دقيق؛

كما قال تعالى: ﴿لَا ٱلشَّمۡسُ يَنۢبَغِي لَهَآ أَن تُدۡرِكَ ٱلۡقَمَرَ وَلَا ٱلَّيۡلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِۚ وَكُلّٞ فِي فَلَكٖ يَسۡبَحُونَ﴾ [سورة يس، من الآية:٤٠]، دليلٌ عظيم على ربوبيته سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ، ويتجلى هذا عندما يقلب هذا النظام البديعَ؛ فيجعل الشمسَ تشرق من جهة المغرب؛ إيذانًا ببدءِ القيامةِ؛ كما قال تعالى: ﴿هَلۡ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن تَأۡتِيَهُمُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ أَوۡ يَأۡتِيَ رَبُّكَ أَوۡ يَأۡتِيَ بَعۡضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَۗ يَوۡمَ يَأۡتِي بَعۡضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ لَا يَنفَعُ نَفۡسًا إِيمَٰنُهَا لَمۡ تَكُنۡ ءَامَنَتۡ مِن قَبۡلُ أَوۡ كَسَبَتۡ فِيٓ إِيمَٰنِهَا خَيۡرٗاۗ قُلِ ٱنتَظِرُوٓاْ إِنَّا مُنتَظِرُونَ﴾ [سورة الأنعام، من الآية:١٥٨]، والمرادُ ببعض آيات ربكَ هو طلوع الشمس من مغربها، ويؤكدُ هذا المعنى ما جاء في حديث أَبِي ذَرٍّ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُ قَالَ: قَالَ النَّبِيّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَسَلَّمَ: لِأَبِي ذَرٍّ حِينَ غَرَبَتِ الشَّمْسُ: **"أَتَدْرِي أَيْنَ تَذْهَبُ"**، قُلْتُ: اللهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ، قَالَ: **"فَإِنَّهَا تَذْهَبُ حتّى تَسْجُدَ تَحتَ العَرْشِ، فَتَسْتَأْذِنَ فَيُؤْذَنُ لَهَا وَيُوشِكُ أَنْ تَسْجُدَ، فَلاَ يُقْبَلَ مِنْهَا، وَتَسْتَأْذِنَ فَلاَ يُؤْذَنَ لَهَا يُقَالُ لَهَا: ارْجِعِي مِنْ حَيْثُ جِئْتِ، فَتَطْلُعُ مِنْ مَغْرِبِهَا، فَذَلِكَ قَوْلُهُ تَعَالَى:** ﴿وَٱلشَّمۡسُ تَجۡرِي لِمُسۡتَقَرّٖ لَّهَاۚ ذَٰلِكَ تَقۡدِيرُ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡعَلِيمِ﴾ [سورة يس، من الآية:٣٨]**"** [رواه البخاري]، (قال أبو سليمان الخطابي رَحِمَهُ ٱللَّهُ في قول رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَسَلَّمَ: "تحت العرش" قال: "لا ننكر أن يكون لها استقرار تحت العرش من حيث لا ندركه ولا نشاهده، وإنما أُخْبِرْنَا عن غَيْبٍ فلا نُكَذِّب به، ولا نُكَيِّفُه؛ لأنّ علمنا لا يحيط به)، ثم قال عن سجودها تحت العرش: (وفي هذا إخبار عن سجود الشمس

تحت العرش فلا ينكر أن يكون ذلك عند محاذاتها العرش في مسيرها والتصرف لما سخرت له، وأما قوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ مَغۡرِبَ ٱلشَّمۡسِ وَجَدَهَا تَغۡرُبُ فِي عَيۡنٍ حَمِئَةٖ﴾ [سورة الكهف، من الآية:٨٦]؛ فهو نهاية مَدْرَكِ البصر إيّاها حالة الغروب، ومصيرها تحت العرش للسجود إنما هو بعد الغروب) [شرح السنة للبغوي].

وما جاء في حديث أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ اللهِ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: **"لَا تَقُومُ السَّاعَةُ حتّى تَطْلُعَ الشَّمْسُ مِنْ مَغرِبِهَا، فَإِذَا طَلَعَتْ مِنْ مَغْرِبِهَا آمَنَ النّاس كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ فَيَوْمَئِذٍ {لَا يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَانُهَا لَمْ تَكُنْ آمَنَتْ مِنْ قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيمَانِهَا خَيْرًا}"** [رواه البخاري ومسلم].

وإذا كانت هذه الأمارة الآفاقية السماوية من أمارات وعلامات القيامة؛ فحينئذٍ لا ينفعُ نفسًا إيمانها ولا يقبل اللهُ تعالى توبة أحدٍ من أهل الأرضِ، كما في حديث أَبِي مُوسَى رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ عَنِ النَّبِيّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: **"إِنَّ اللهَ** عَزَّوَجَلَّ **يَبْسُطُ يَدَهُ بِاللَّيْلِ لِيَتُوبَ مُسِيءُ النَّهَارِ، وَيَبْسُطُ يَدَهُ بِالنَّهَارِ لِيَتُوبَ مُسِيءُ اللَّيْلِ، حتّى تَطْلُعَ الشَّمْسُ مِنْ مَغْرِبِهَا"** [رواه مسلم].

وفي لفظ حديثِ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **"لَا تَقُومُ السَّاعَةُ حتّى تَطْلُعَ الشَّمْسُ مِنْ مَغرِبِهَا، فَإِذَا رَآهَا النّاس آمَنَ مَنْ عَلَيْهَا، فَذَاكَ حِينَ:** ﴿لَا يَنفَعُ نَفۡسًا إِيمَٰنُهَا لَمۡ تَكُنۡ ءَامَنَتۡ مِن قَبۡلُ﴾ [سورة الأنعام، من الآية:١٥٨]**"** [رواه البخاري].

قال القرطبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (قال العلماء: وإنما لا ينفع نفسا إيمانها عند طلوع الشمس من مغربها؛ لأنّه خَلُصَ إلى قلوبهم مِن الفزع ما تخمُدُ معه كلّ شهوةٍ مِن شهوات النّفس، وتفتر كلّ قوّةٍ مِن قُوَى الْبَدَنِ، فيصير النّاس كلّهم لإيقانهم بدنوّ القيامة في حال مَن حضره الموت في انقطاع الدواعي إلى أنواع المعاصي عنهم، وبطلانها من أبدانهم، فمن تاب في مثل هذه الحالة لم تقبل توبته كما لا تقبل توبة من حضره الموت) [التذكرة في أحوال الموتى والدار الآخرة].

والمقصود بـ "**مغربها**" أي مغربُ الشمسِ، وهو المكان الّذي تغربُ فيه كلّ يومٍ بالنسبة لكل منطقةٍ، ثم تعود عكسها تمامًا بالنسبة لكل منطقةٍ؛ فتكون طالعة عليهم من مغربها المعتاد لكلٍّ.

وأصل كلمة "**مغرب**" اسمُ مكانٍ وزمانٍ، وجهةُ مكانِ اختفاءِ الشمسِ، وأصلُ كلمة "**مغرب**" معناها لغة: كلّ ما واراك وسترك، وبَعُدَ عنكَ.

و(**الشّمسُ**) لها مشرقانِ، ومغربانِ، من حيث العموم، وهما مشرق الصيف والشتاء، ومغرب الصيف والشتاء.

و(**الشّمسُ**) لها مشارقُ ومغاربُ، وذلك على عدد أيام السنة وهي ثلاث مئة وستون مشرقًا ومغربًا.

وبعد ما تطلع الشمس من مغربها، تكون العلامة الأخرى بعدها، وهي الّتي ذكرها المصنّف رَحِمَهُ ٱللَّهُ بقوله: "**وخروج دابة الأرض من موضعها**"، أي ومِن أشراط الساعة الكبرى الّتي بعدها القيامة "**خروج دابة الأرض...**"، والمقصود

بداية الأرض ما ذكره الله تعالى في قوله: ﴿وَإِذَا وَقَعَ ٱلْقَوْلُ عَلَيْهِمْ أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَآبَّةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ تُكَلِّمُهُمْ أَنَّ ٱلنَّاسَ كَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا لَا يُوقِنُونَ﴾ [سورة النمل، من الآية:٨٢]،

ومعنى ﴿تُكَلِّمُهُمْ﴾ أي تخاطبهم وتَجْرَحُهُمْ، وهذا التكليم يشمل الأمرين؛ المخاطبة، وَالْوَسْم، كما في حديث أَبِي أُمَامَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يَرْفَعُهُ إِلَى النّبيّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: **"تَخْرُجُ الدَّابَّةُ فَتَسِمُ النّاس عَلَى خَرَاطِيمِهِمْ، ثُمَّ يَغْمُرُونَ فِيكُمْ حتّى يَشْتَرِيَ الرَّجُلُ الْبَعِيرَ فَيَقُولُ: مِمَّنْ اشْتَرَيْتَهُ؟ فَيَقُولُ: اشْتَرَيْتُهُ مِنْ أَحَدِ الْمُخَطَّمِينَ"** [رواه الإمام أحمد بإسنادٍ صحيحٍ].

وجاء في حديث عَبْدِ اللهِ بْنِ عَمْرٍو ب قَالَ: حَفِظْتُ مِنْ رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حَدِيثًا لَمْ أَنْسَهُ بَعْدُ، سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ: **"إِنَّ أَوَّلَ الْآيَاتِ خُرُوجًا، طُلُوعُ الشَّمْسِ مِنْ مَغْرِبِهَا، وَخُرُوجُ الدَّابَّةِ عَلَى النّاس ضُحًى، وَأَيُّهُمَا مَا كَانَتْ قَبْلَ صَاحِبَتِهَا، فَالْأُخْرَى عَلَى إِثْرِهَا قَرِيبًا"**.

و **"الدابّة"** في لغة العرب كلّ ما (يَدِبُّ) على الأرضِ، وقد غلبَ على ما يُركَبُ من الحيوان، وجمعه (دوابّ)، وتصغيره دويبة، وعلى هذا عموم قوله تعالى: ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا ۚ كُلٌّ فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ﴾ [سورة هود، من الآية:٦].

و**"الأرض"** الفَلَك والكوكب الّذي نعيش عليه، وهي مركز السُّفْلِ، كما أن السّماء والعرشَ مَرْكَزُ العُلْوِ، وأرضُ الشيء أسفله، ويجمع على أرَضُون،

وأرْضُون، وأرَاضٍ، وإذا أطلقت (الأرضُ) فالمراد بها ما نعيش عليها، والذي قال الله تعالى عنها: ﴿مِنۡهَا خَلَقۡنَٰكُمۡ وَفِيهَا نُعِيدُكُمۡ وَمِنۡهَا نُخۡرِجُكُمۡ تَارَةً أُخۡرَىٰ﴾ [سورة طه، من الآية:٥٥].

و"**دابَّةُ الأرض**" مضافٌ ومضافٌ إليهِ، وهذه الإضافة تدل على أنها من الأرض، وأنها مخلوقة منها، وستكون عليها، وما جاء في النصوص من كون الدابة من علامات الساعة الكبرى؛ فذلك يدل أنها دابة تخرج على خلاف دوابِّ الأرضِ، ويكون منها أعمالٌ على خلاف دواب الأرض.

والمهم في هذه المسألة الإيمان والإقرار بخروج هذه الدابة، وأنها من علامات الساعة الكبرى، حيث تخرجُ وتمشي بين النّاس وتخاطبُ المؤمنين، وتَسِمُ الكافرين.

وأما ماهية هذه الدابة فقد اختلف فيها العلماء، وأشهر الأقوال؛ أنها فصيل ناقة صالح؛ كما ذكره القرطبي وصححه.

وقيل: هي دابة جمعت خَلْقَ كلّ حيوانٍ؛ فلا يدرى ماهيته!؟

وقيل: هي الجسّاسة الواردة في حديث تميم الداري ت!؟

وزعم بعض من صار على طريقة المعتزلة في تقديم عقولهم أنّ الدّابّة إنسانٌ مُتكَلِّمٌ!؟

وقيل: بل حشراتٌ تكثر!؟

قال الشيخ أحمد شاكر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (والآية صريحة بالقول العربي أنها دابّة،

ومعنى الدابة في لغة العرب معروف واضح، لا يحتاج إلى تأويل، وقد بين الحديث بعض فعلها، ووردت أحاديث كثيرة في الصحاح وغيرها بخروج هذه الدابة الآية، وأنها تخرج آخر الزمان، ووردت آثار أُخر في صفتها لم تنسب إلى رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، المبلِّغ عن ربه، والمبيِّن آياتِ كتابِه، فلا علينا أنْ نَدعها.

ولكن بعضُ أهل عصرنا من المتنسبين إلى الإسلام، الذين فشا فيهم المنكر من القول، والباطل من الرأي، الذين لا يريدون أن يؤمنوا بالغيب، ولا يريدون إلا أن يقفوا عند حدود المادة الّتي رسمها لهم مُعَلِّمُوهم، وقدوتُهم مِن مُلْحِدِي أوربا الوثنيين الإباحيين، المتحلِّلين مِن كلّ خُلُقٍ ودينٍ؛ فهؤلاء لا يستطيعون أن يؤمنوا بما نؤمن به، ولا يستطيعون أن ينكروا إنكارًا صريحًا، فيُجَمْجِمُون ويحاوِرُون ويُدَاوِرُون، ثم يتأوَّلُون؛ فيُخْرِجُون الكلام عن معناهُ الوَضْعِيِّ الصَّحيحِ للألفاظ في لغة العرب، يجعلونه أشبه بالرموز، لِمَا وَقَرَ في أنفسهم مِن الإنكار الّذي يبطنون!

بل إنّ بعضهم لينقل التّأويل عن رجلٍ هِنديٍّ معروفٌ أنّه مِن طائفةٍ تنتسب للإسلام، وهي له عدوٌّ مبين، وعبيدٌ لأعدائه المستعمرين!! فانظر إليهم أنّى يترددون ويصرفون؟ وأيّ نار يقتحمون؟ ذلك بأنهم بآيات الله لا يوقنون) [حاشيته ضمن تحقيقه للمسند].

وقد وردت أحاديثُ كثيرة حول هذه الدابة؛ بعضها من الموضوعات، وبعضها

أحاديث ضعيفة؛ فلا ينبغي الاعتماد عليها؛ بل الاعتماد يكون فقط على ما ثبت.

وقوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "**مِن موضعها**" أي نقرُّ ونؤمن أن دابة الأرضِ ستخرج من مكانها.

و (**الموضع**) اسم مكانٍ، ويجمع على مواضع، والمراد به هنا: المحل والمكان المحدد الّذي جعله الله تعالى لها حيث تخرج منها، وتظهر للناس فيها.

وقد وقع الخلاف بين أهل العلم في مكان خروج الدابة، وذلك لعدم نصٍّ صريحٍ في المسألةِ، والظاهر من دلالة الاقتران، ودلالة كونها آية من الآيات الكبرى، أنها ستخرجُ وسيعلم بها أهلُ الأرض؛ وذلك لأن العلامات الكبرى عامة على أهل الأرضِ، ليس خاصة بجهة أو ناحية.

ومع هذا فقد قيل: أنها تخرج من جبل الصفا في مكة، وقيل: بل من مكة، من أعظم المساجد على وجه الأرض، واختارها صديق حسن خان، وقال: وهو المشهور.

والقول الثاني: أن لها خرَجاتٍ، الأولى: من أقصى البادية، ثم تختفي، ثم تخرج من بعض أودية تهامة مِن وراء مكة، وفي المرة الأخيرة تخرج من مكة، وهذا القول يجمع الأقوال والروايات، واختاره السخاوي.

ولم يذكر المصنّف رَحِمَهُ ٱللَّهُ الآيات الأخرى، والعلامات الكبرى غير هذه الأربعة، وذلك ليس لنفي ما سواها؛ بل إشارة منه إلى أكبرها، وأعظمها، وتركٌ

للباقي؛ لأن في ذكر البعض تذكير بالكل، وتوجيه إلى الجميع، ويكفي من القلادة ما أحاط بالعنق.

وأيضًا لأن هذا الكتاب متن مختصرٌ؛ فلم يسعه الاستطراد في ذكر كلّ أشراط الساعة الكبرى، ولهذا أجمل القول فقال: "وسائر علامات يوم القيامة على ما وردت به الأخبار الصحيحة"، وهذا إشارة منه لطيفة بأن الباب بابٌ خبري؛ فما ثبت وجب إثباته، وما لم يثبت لا يجوز إثباته.

وقد سبق وأن أشرنا إليها كلها، والله نسأل أن يعصمنا، وأن يجنبنا الفتن ما ظهر منها وما بطن.

وخلاصة كلام المصنف رَحِمَهُ ٱللَّهُ: وجوب الإيمان بأشراط الساعة الكبرى، وأن هذه الأشراط والعلامات كائنة على ما جاءت في الآيات والأحاديث الثابتة، والخوض والبحث فيما وراء ذلك هو من التكلف الخارج عن مسألة الإيمان بها؛ بل ربما أدى ذلك إلى الجحود والنكران، أو كان سببًا موصِلًا إلى الكفران.

[وجوب تكذيب الكهنة والدجالين]

وَلَا نُصَدِّقُ كَاهِنًا، وَلَا عَرَّافًا، وَلَا مَنْ يَدَّعِي شَيْئًا يُخَالِفُ الْكِتَابَ وَالسُّنَّةَ وَإِجْمَاعَ الْأُمَّةِ.

﴿ الشرح ﴾

هذا تقرير من المصنف رَحِمَهُ ٱللَّهُ في بيان خطورة الكهانة والعرافة، وأن ذلك مما يخالف العقيدة الصحية، وهذا من باب ترك الأمور المناقضة أو الناقصة للتوحيد.

قوله: **"ولا نصدق كاهنًا"** أي ومن الإيمان بالله تعالى الإيمان بأنه سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ يعلم الغيب وحده، وأن ذلك من خصائصه تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ، وأن أحدًا لا يعلم شيئًا من الغيب إلا مَن أطلعه الله تعالى على بعضها، أو تفصيلِ شيء منها؛ كما سبق من ذكر أشراط الساعة وهي من الأمور الغيبية وقوعًا وزمنًا وخبرًا؛ فعلم الله تعالى نبيه بوقوقها، وخبرها، وغيب زمانها.

ومن زعَمَ بأنه يعلم شيئًا من الغيب فقد ادَّعى صفة من صفات الرّبوبيّة، وهو نوعُ شركٍ في الرّبوبيّة، قال الله تعالى: ﴿قُل لَّا يَعۡلَمُ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ ٱلۡغَيۡبَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ [سورة النمل، من الآية:٦٥]، وقال سبحانه: ﴿وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلۡغَيۡبِ لَا يَعۡلَمُهَآ إِلَّا هُوَۚ وَيَعۡلَمُ مَا فِي ٱلۡبَرِّ وَٱلۡبَحۡرِۚ وَمَا تَسۡقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعۡلَمُهَا وَلَا حَبَّةٖ فِي ظُلُمَٰتِ ٱلۡأَرۡضِ وَلَا رَطۡبٖ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَٰبٖ مُّبِينٖ﴾ [سورة الأنعام،

من الآية:٥٩].

وفي حديث عائشة لقالت عن رسولِ الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ: **"وَمَنْ حَدَّثَكَ أَنَّهُ يَعْلَمُ الغَيْبَ، فَقَدْ كَذَبَ، وَهُوَ يَقُولُ: {لاَ يَعْلَمُ الغَيْبَ إِلَّا اللهُ}"** [رواه البخاري].

وبناءً على هذه الأدلة يتيقّن المؤمن بأنّ الغيب لا يعلمه إلا الله تعالى، ومن ادَّعى شيئًا من ذلك؛ كعلمه بوقت القيامة، أو تحديد وقت شرط من أشراط الساعة، أو أي غيبيٍّ آخر؛ فهو دجَّال من الدّجاجلة، إمّا كاهنٌ، أو عرَّافٌ، ولهذا قال المصنّف رَحِمَهُٱللَّهُ: **"ولا نُصَدِّقُ كاهنًا"** أي ولا يقعُ من المؤمِنِ التصديقُ للكُهَّانِ، فأهل السُّنَّة والجماعة لا يُصدِّقون، ولا يُقرُّون، ولا يعترفون بما يقوله الكهَّان.

و **"كاهنًا"** نكرةٌ في سياق النّفي تعمّ جميع أنواع الكهان، و **(الكاهن)** جمعُ (كَهَنَةٍ، وكُهَّان)، وهو: من يدعي الاطلاع على الغيبِ، ومعرفة أسراره، وقد يُطلَقُ على من يأتي بكلامٍ مسجوعٍ ليفتن العوام، ولهذا قال تعالى عن القرآن: ﴿وَمَا هُوَ بِقَوۡلِ شَاعِرٖۚ قَلِيلٗا مَّا تُؤۡمِنُونَ ۝٤١ وَلَا بِقَوۡلِ كَاهِنٖۚ قَلِيلٗا مَّا تَذَكَّرُونَ ۝٤٢ تَنزِيلٞ مِّن رَّبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ [سورة الحاقة، من الآية:٤١-٤٣].

وجاء في حديث معاوية بن الحكم السُّلَمي ت قال قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ أُمُورًا كُنَّا نَصْنَعُهَا فِي الْجَاهِلِيَّةِ، كُنَّا نَأْتِي الْكُهَّانَ؟ قَالَ: **"فَلَا تَأْتُوا الْكُهَّانَ"**. قَالَ قُلْتُ: كُنَّا نَتَطَيَّرُ؟ قَالَ: **"ذَاكَ شَيْءٌ يَجِدُهُ أَحَدُكُمْ فِي نَفْسِهِ، فَلَا يَصُدَّنَّكُمْ"** [رواه مسلم].

وفي حديث عَائِشَةَ ل قَالَتْ قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ إِنَّ الْكُهَّانَ كَانُوا يُحَدِّثُونَنَا

بِالشَّيْءِ فَنَجِدُهُ حَقًّا؟! قَالَ: "**تِلْكَ الْكَلِمَةُ الْحَقُّ، يَخْطَفُهَا الْجِنِّيُّ فَيَقْذِفُهَا فِي أُذُنِ وَلِيِّهِ، وَيَزِيدُ فِيهَا مِائَةَ كَذْبَةٍ**" [رواه البخاري، ومسلم وهذا لفظه].

ويدخل في الكهانة ما قد يفعله بعضهم من ربط الأحداث بأفول النجوم، أو بظهورها، ويربط بعض الأحداث الأرضية بالأمور الآفاقية ويجعلها سببًا، مثل قول بعضهم السّبب في السّيل ظهور نجم سهيل، وهذا ضلالٌ مبين؛ فإن الله تعالى هو الْمُنَزِّل للمطر، وما نجمة سهيل أو غيرها إلا علامة على ظهور أزمنة المطر، وليست أسبابًا للمطر، فضلا عن أن تكون هي المنزلة لها.

ومن (**الكهانة**) نوعٌ خاصٌّ، وهو العرّافة، ولهذا قال المصنّف رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "**ولا عرّافًا**"، أي ولا يقعُ من المؤمِنِ التَّصديقُ للعرَّافينِ، فأهل السّنّة والجماعة لا يصدّقون، ولا يقرّون، ولا يعترفون بما يقوله العرّافون.

و "**عرافًا**" نكرةٌ في سياق النّفي تعمّ جميع أنواع العرافة، و (**العرَّاف**) صيغة مبالغة على وزن (فعَّال) مشتق من (عرف، يعرف؛ فهو عارفٌ، وعرَّافٌ) وتطلق لغة على الكاهن، وعلى المنجم، وعلى من يدعي علم الغيب بمقدماتٍ، أو أماراتٍ، ويدخل في العرافة، ما يعرف اليوم بالأبراج، وبمن ينظر في كوب (فنجان) القهوة، ومن يخبرك بما سيحصل لك بالنظر إلى كفك، ومن يتعاطى معرفة مكان المسروق، ومكان الضالة.

وقد جاء في حديث بَعْضِ أَزْوَاجِ النّبيّ صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ عَنِ النّبيّ صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ قَالَ: "**مَنْ أَتَى عَرَّافًا فَسَأَلَهُ عَنْ شَيْءٍ، لَمْ تُقْبَلْ لَهُ صَلَاةٌ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً**" [رواه

مسلم]، وهذا الوعيد فقط لمن يذهب إليهم، ويسألهم؛ فكيف بمن يصدقهم!؟ لا ريب أن المصدق للكهان أو العرافين قد أتى ناقضًا من نواقض الإسلام، ولهذا جاء في حديث أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَنِ النَّبيّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: **"مَنْ أَتَى كَاهِنًا، أَوْ عَرَّافًا، فَصَدَّقَهُ بِمَا يَقُولُ، فَقَدْ كَفَرَ بِمَا أُنْزِلَ عَلَى مُحَمَّدٍ"** [رواه أحمدُ، والحاكمُ، وقال: صحيح].

ويدخل في العرافةِ ما يزعمه بعض الطبائعيين من حدوث كذا بناء على رؤيتهم لكذا؛ كقولهم: إذا كان ثم غبارٌ شديدٌ فيقولون بعده عامُ يبوسة، ونحو ذلك.

ولا يجوز للمؤمن أن يصدق الكهان والعرافين؛ لأن ذلك مخالف لما يجب لله تعالى من حقه في الرّبوبيّة، ومن جهة أخرى فإن ذلك حماية للمسلم من الانجراف وراء الخرافات، والتعلق بالخزعبلات.

والقاعدة العامة في باب التَّصديق أن أهل السنة والجماعة لا يقبلون شيئًا مخالفًا للنص أو الإجماع، ولهذا قال المصنّف رَحِمَهُ اللَّهُ: **"ولا مَن يدَّعي شيئًا يُخالِفُ الكتاب والسنة وإجماع الأمة"**، مثلَ من يقولُ بنبوة نبيٍّ بعد نبيّنا محمدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كالقاديانيّة، أو بنسخ الجهاد كما تقوله البهائيّة، أو يزعم أن الشَّمس لا تدور، ونحو ذلك من القطعيات المذكورة في الكتاب والسنة، أو إجماع الأمة، وذلك لأنّ الكتاب والسُّنَّة وحيٌ من الله، وكلام الله ووحيه لا يمكن أن يخالف قدر الله وخلقه، والإجماع كذلك لا يكون مخالفًا، ولا تجوز مخالفته بل الواجب إتباع النص والإجماع خلافًا لأهل البدع الذين

تركوا نصوص الوحي وخالفوا الإجماع ببدعهم وشبهاتهم.

و "**مَن يدَّعي**" أي الّذي يزعم، ويقول، ويفتري، وأصل "**يدّعي**" مضارع من (ادّعى)، ومصدره (ادّعاء)، ومعناه لغة: الزَّعْمُ بأنّه كذا ويكون زعمه باطلًا، ويدخل فيه الادّعاءُ الكاذب في الحقوق، أو في الانتساب في النسبِ، أو في النِّسبة إلى الدّين؛ أو في المحاكمة أو الخصومة، والمراد هنا: ادعاؤه شيئًا مخالفًا للكتاب والسنة، وإجماع الأمة.

و "**إجماعُ الأمة**" معتبرٌ شرعًا، وقَبِلَه أهل السُّنَّة واقعًا وعملًا، والمقصود بالإجماع ما ثبت وتقرر؛ كما قال عبد الله بن مسعودٍ ت: "مَا رَآهُ الْمُسْلِمُونَ حَسَنًا فَهُوَ عِنْدَ اللهِ حَسَن" [رواه الإمام أحمدُ في مسنده بإسنادٍ حسنٍ موقوفًا].

قال الإمام محمد بن الحسن الشيباني رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (العلم أربعة أوجه:

ما كان في كتاب الله الناطق، وما أشبهه.

وما كان في سنة رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ المأثورة، وما أشبهها.

وما كان فيما أجمع عليه الصحابة ن، وما أشبهه، وكذلك ما اختلفوا فيه لا يخرج عن جميعه، فإذا وقع الاختيار فيه على قول فهو عِلْمٌ يقاس عليه ما أشبهه.

وما استحسنه عامَّةُ فقهاء المسلمين، وما أشبهه، وكان نظيرا له.

قال: (ولا يخرج العلم عن هذه الوجوه الأربعة) [جامع بيان العلم لابن عبد البر].

وقال الإمام الشافعي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (ليس لأحد أن يقول في شيء حلال ولا حرام إلا من جهة العلم، وجهة العلم ما نصّ في الكتاب، أو في السنة، أو في الإجماع؛ فإن لم يوجد في ذلك؛ فالقياس على هذه الأصول ما كان في معناها) [جامع بيان العلم لابن عبد البر].

وليس لأحدٍ أن يعتقد، أو يقول، أو يفعل، شيئًا مخالفًا للكتاب والسنة وإجماع الأمة، ولهذا قال المصنّف رَحِمَهُ ٱللَّهُ إن أهل السنة كما لا يصدقون الكهان والعرافين؛ فإنهم لا يصدقون مَن يأتي بما يخالف الكتاب والسنة وإجماع الأمة، سواء كانوا أطبَّاءَ؛ كمن يزعم الطِّبَّ في الخمرِ، أو كانوا منجمِّين؛ كمن يزعم أن وجود السَّيل بسبب النَّجم الفلاني، أو كانوا مشعوذين، أو سحرة.

وذلك لأن الأصل المتبع في القبول لكل اعتقادٍ، أو قولٍ، أو عملٍ، هو الكتاب والسنة والإجماع.

وقد دلت الأدلة على أن أي شيءٍ يخالف الكتاب والسنة فإنا لا نقبله، ونرده، قال الله تعالى: ﴿إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَمَا تَهۡوَى ٱلۡأَنفُسُۖ وَلَقَدۡ جَآءَهُم مِّن رَّبِّهِمُ ٱلۡهُدَىٰٓ﴾ [سورة النجم، من الآية:٢٣]، وقال سبحانه: ﴿وَمَا لَهُم بِهِۦ مِنۡ عِلۡمٍۖ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّۖ وَإِنَّ ٱلظَّنَّ لَا يُغۡنِي مِنَ ٱلۡحَقِّ شَيۡـٔٗا﴾ [سورة النجم، من الآية:٢٨]، وقال جل في علاه: ﴿إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنۡ هُمۡ إِلَّا يَخۡرُصُونَ﴾ [سورة الأنعام، من الآية:١١٦].

ودلت الأدلة على وجوب اتباع ما جاءنا عن الله تعالى؛ كما قال سبحانه:

﴿ٱتَّبِعُواْ مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكُم مِّن رَّبِّكُمۡ وَلَا تَتَّبِعُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوۡلِيَآءَۗ قَلِيلٗا مَّا تَذَكَّرُونَ﴾ [سورة الأعراف، من الآية:٣]، وقال جلّ وعزّ: ﴿وَأَنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّبَعُواْ ٱلۡحَقَّ مِن رَّبِّهِمۡ﴾ [سورة محمد، من الآية:٣]، وقال عَزَّوَجَلَّ: ﴿ٱتَّبِعُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ﴾ [سورة البقرة، من الآية: ١٧٠].

وكذلك دلت الأدلة على وجوب اتباع السنة منها قول الله تعالى: ﴿وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَٱحۡذَرُواْۚ فَإِن تَوَلَّيۡتُمۡ فَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّمَا عَلَىٰ رَسُولِنَا ٱلۡبَلَٰغُ ٱلۡمُبِينُ﴾ [سورة المائدة، من الآية:٩٢]، وقوله سبحانه: ﴿قُلۡ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَۖ فَإِن تَوَلَّوۡاْ فَإِنَّمَا عَلَيۡهِ مَا حُمِّلَ وَعَلَيۡكُم مَّا حُمِّلۡتُمۡۖ وَإِن تُطِيعُوهُ تَهۡتَدُواْۚ وَمَا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلۡبَلَٰغُ ٱلۡمُبِينُ﴾ [سورة النور، من الآية:٥٤]، وقوله جل في علاه: ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمۡ عَنۡهُ فَٱنتَهُواْۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۖ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ﴾ [سورة الحشر، من الآية:٧].

وكذلك دلت الأدلة على وجوب اتباع الإجماع، وعدم مخالفته، وعدم القول بما يخالفه، ومن ذلك قول الله تعالى: ﴿وَيَتَّبِعۡ غَيۡرَ سَبِيلِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصۡلِهِۦ جَهَنَّمَۖ وَسَآءَتۡ مَصِيرًا﴾ [سورة النساء، من الآية:١١٥].

وقوله سبحانه: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلۡنَٰكُمۡ أُمَّةٗ وَسَطٗا لِّتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ﴾ [سورة البقرة، من الآية:١٤٣]، ففي الآية: دليلٌ على أنّ الإجماعَ حُجَّةٌ على مَن خالفهم.

ولحديث أَبِي بَصْرَةَ الْغِفَارِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عن رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وفيه: "سَأَلْتُ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ أَنْ لَا يَجْمَعَ أُمَّتِي عَلَى ضَلَالَةٍ فَأَعْطَانِيهَا" [رواه أحمدُ، وهو صحيحٌ لغيره]، ويشهدُ له ما رُويَ عن ابن عمر ب مرفوعًا: "**إِنَّ اللهَ لَا يَجْمَعُ أُمَّتِي عَلَى ضَلَالَةٍ أَبَدًا، وَيَدُ اللهِ عَلَى الْجَمَاعَةِ**"، رواه الحاكم في مستدركه، وقال: (إجماع أهل السنة على هذه القاعدة من قواعد الإسلام)؛ فإجماع الصحابة ن إذا اجتمعوا حجة على من خالفهم.

وخلاصة كلام المصنف رَحِمَهُ اللَّهُ: الحذر من الكهان والعرافين وكل من يدعي علم الغيب، أو يتخرص فيه، ووجوب الحذر من مخالفة الكتاب والسنة وإجماع الأمة.

[لزوم الجماعة والحذر من الفرقة]

وَنَرَى الْـجَمَاعَةَ حَقًّا وَصَوابًا، وَالْفُرْقَةَ زَيْغًا وَعَذَابًا.

الشرح

هذا بيان من المصنف رَحِمَهُ ٱللَّهُ بوجوب لزوم الجماعة، والبعد عن الشقاق والفرقة، وأن آثار الجماعة عظيمة وكبيرة، وعواقب الفرقة جسيمة وذليلة.

قوله: **"ونرى الجماعةَ حقًّا وصوابًا"** أي أنّ مِن عقيدة أهل السنة لزوم الجماعةِ، والسمعِ والطاعةِ للحاكم، وطاعةِ أمْرِه، وَاتِّبَاعِ الحقّ، وعدم مخالفة ما كان عليه جماعةُ الإسلام قبل وجود الفراق.

فأهل السنة يرون ويعتقدون وجوب لزوم الجماعةِ، وتتجلَّى في ثلاثة أمور، وهي:

الأمر الأوّل: لزوم ما كان عليه النّبيّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وأصحابه ن في الدين.

الأمر الثّاني: لزوم علماءِ الأمة في المسائل المدلهمّة.

الأمر الثّالث: السمع والطاعة لولاة الأمرِ في الأمور الدّنيويّة.

والحق والصواب هو هذا: لزوم منهج الصحابة ن اعتقادًا، والتزام علماء الأمة السائرين على منهجهم، وطاعة حكام المسلمين؛ فكل من خالف في أي من هذه الثلاث فإنه لا بد وأن يقع في مخالفة الحق والصواب شاء أم أبى.

و "**صوابًا**" اسمٌ مِن (أصابَ، يُصيبُ، إصابةً، وصوابًا)، ومعناه: السّداد، وإصابة الحقِّ في عملٍ، أو رأيٍ، أو قولٍ، ومنه قوله تعالى: ﴿لَّا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ وَقَالَ صَوَابًا﴾ [سورة النبأ، من الآية:٣٨].

"**والفُرْقة زيغًا وعذابًا**" أي أنّ مِن منهج أهل السنة والجماعة البعدَ عن التّفرّق والتّحزّب؛ فإن الافتراق مِن البدع والضلالات، الموصلة إلى ذهابِ ريح الأمة، والقضاء على هيبتها.

و "**الفُرْقَة**" بضم الفاءِ اسمٌ مِن افترَقَ القومُ إذا اختلفوا، وتباعدوا، وتنافروا، والمصدرُ منه: (الافتراقُ)، وهو المقصود لغة هنا؛ أي فلا ينبغي أن نتسبب ولا أن نوجد ما يؤدي إلى الفُرْقَةِ والاختلاف.

و "**الفِرْقة**" بكسر الفاءِ: الطائفة من النّاس على عقيدةٍ، أو صنعةٍ، أو هيئة، أو مكانٍ، أو زمانٍ، أو نسبٍ، أو سببٍ؛ أو جهةٍ، أو الجزء من الشيءِ؛ كما في قوله تعالى: ﴿فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَٱلطَّوْدِ ٱلْعَظِيمِ﴾ [سورة الشعراء، من الآية:٦٣].

وقد أطلق اسم (**الفِرقة**) على الطوائف الّتي خالفت الجماعة، وفارقت السنة، واتبعت غير طريقة السلف؛ فصاروا فِرَقًا، وفُرَقَاءَ، وكلّ من خالف السَّلَف في شيءٍ من أصول الاعتقاد فإنه يكون من الفُرَقاءِ، ومن الفِرَقِ المخالفة؛ كما في حديث أبي هريرة ت قال: قال رسولُ الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "**افترقَتِ اليهودُ على إحدى أو اثنتين وسبعين فرقةً، وتفرَّقت النَّصارى على إحدى أو اثنتين وسبعين**

فرقةً، وتَفترِقُ أمَّتي على ثلاث وسبعين فرقةً" [رواه أبو داود، والترمذي، وقال: حسنٌ صحيح].

وجاء مثله من حديث معاوية بن أبي سفيان ب أنه قامَ خطيبًا؛ فقال: ألا إن رسولَ الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قامَ فينا، فقال: **"ألا إنَّ مَنْ قبلَكم مِن أهلِ الكتابِ افترقُوا على ثِنتَين وسبعينَ مِلَّةً، وإن هذه الملةَ ستفترقُ على ثلاثٍ وسَبعينَ: ثنتانِ وسبعونَ في النّار، وواحدةٌ في الجنّة، وهي الجماعة، وإنّه سيخرج في أمتي أقوام تَجَارَى بهم تلك الأهواءُ كما يَتَجَارَى الكَلَبُ لِصاحبه، لا يبقى منه عِرْقٌ ولا مَفصِلٌ إلا دخلَه"** [رواه أبو داود، وحسن إسناده الحافظ في تخريج أحاديث الكشاف].

ولهذا كانت الفُرْقَةُ **"زيغًا"**، وهو التعدّي، والتجاوز، وأصل **(الزيغ)**: الميل عن الحقّ، وتركه مع معرفته، ومجانبته مع العلم به.

ومن معاني **(الزيغ)**: الشّكّ؛ فكل زائغٍ شاكٌّ، وشكّاكٌ، وكلّ شكّاكٍ يخشى عليه من الزيغ.

وقد أخبر الله تعالى عن الزائغين بقوله: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمۡ زَيۡغٞ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنۡهُ ٱبۡتِغَآءَ ٱلۡفِتۡنَةِ وَٱبۡتِغَآءَ تَأۡوِيلِهِۦۖ وَمَا يَعۡلَمُ تَأۡوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُۗ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِي ٱلۡعِلۡمِ﴾ [سورة آل عمران، من الآية:٧].

وفي حديث عائشة ل قَالَتْ: قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّاَللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: **"فَإِذَا رَأَيْتِ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ فَأُولَئِكِ الَّذِينَ سَمَّى اللهُ فَاحْذَرُوهُمْ"** [رواه البخاري ومسلم].

فالحق والصواب كلّه في الجماعة، والزيغُ والعذاب والهلكة في الفُرقة؛ ومما يدل على ذلك قول الله تعالى: ﴿وَٱعْتَصِمُواْ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُواْ﴾ [سورة آل عمران، من الآية:١٠٣].

وقوله سبحانه: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ وَأَصْلَحُواْ وَٱعْتَصَمُواْ بِٱللَّهِ وَأَخْلَصُواْ دِينَهُمْ لِلَّهِ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلْمُؤْمِنِينَۖ وَسَوْفَ يُؤْتِ ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ [سورة النساء، من الآية:١٤٦].

وقوله جل في علاه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلْأَمْرِ مِنكُمْۖ فَإِن تَنَٰزَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْأٓخِرِۚ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا﴾ [سورة النساء، من الآية:٥٩].

وفي هذه الجملةِ بيانُ غايةٍ عظيمةٍ مِن غايات بعثة الرسل، وإنزال الكتب عمومًا، وبعثة نبينا محمدٍ صَلَّاَللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ، وإنزال القرآن الكريم خصوصًا، وهي اجتماع الكلمة وألفة القلوب بين المسلمين؛ فهي الغاية الثالثة من الغايات العظيمة والنّبيّلة.

الغاية الأولى: تحقيق التوحيد، ونبذ الشرك.

الغاية الثانية: الوصول إلى تحقيق التقوى، ومراقبة الله تعالى.

الغاية الثالثة: اجتماع الكلمة، ونبذ الفرقة، وهذا الغايات دل عليها آيتان في كتاب الله تعالى، كما قال سبحانه: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٠٢﴾ وَٱعْتَصِمُوا۟ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا۟ ۚ وَٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَآءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِۦٓ إِخْوَٰنًا وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا ۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَـٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ [سورة آل عمران، من الآية:١٠٢-١٠٣].

وما كان هذا مقصدا من مقاصد الشريعة إلا لما يترتب على اجتماع الكلمة من الثمرات العظيمة، ولما يترتب من المصائب الوخيمة على الفرقة، ومنها:

الأولى: يتحقق التوحيد في الأمة على وجه الكمال، ونبذ الشرك على وجه الإزالة والاضمحلال، قال الله تعالى: ﴿إِنَّ هَـٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ فَٱعْبُدُونِ ﴿٩٢﴾ وَتَقَطَّعُوٓا۟ أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ ۖ كُلٌّ إِلَيْنَا رَٰجِعُونَ﴾ [سورة الأنبياء، من الآية:٩٢-٩٣].

الثّانية: تحقيق الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، قال الله تعالى: ﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى ٱلْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۚ وَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ [سورة آل عمران، من الآية:١٠٤].

الثّالثة: في اجتماع الكلمةِ إظهارٌ لعظمة الدين، وكماله، وفي الفرقة ظهورٌ لشماتة الأعداء والملامةِ، قال الله تعالى: ﴿وَمَن يَعْتَصِم بِٱللَّهِ فَقَدْ هُدِىَ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [سورة آل عمران، من الآية:١٠١].

الرّابعة: في اجتماع الكلمة قيامٌ للناس، وقيامٌ لشعائر الإسلامِ، من الجمعة، والجمعة، والألفة والمحبة، والصيام، والحج، وصيانة للأنفس والأعراض والأموال، وفي الفرقة نقصٌ لهذه الأشياء بحسبها، قال الله تعالى: ﴿وَلَا تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَٰحِهَا ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٨٥﴾ وَلَا تَقْعُدُوا۟ بِكُلِّ صِرَٰطٍ تُوعِدُونَ وَتَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِهِۦ وَتَبْغُونَهَا عِوَجًا ۚ وَٱذْكُرُوٓا۟ إِذْ كُنتُمْ قَلِيلًا فَكَثَّرَكُمْ ۖ وَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ [سورة الأعراف، من الآية:٨٥-٨٦].

الخامسة: الأمنُ من عذاب الله تعالى، وفي الفرقة وعيدٌ عظيم من الله تعالى، قال سبحانه: ﴿وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ تَفَرَّقُوا۟ وَٱخْتَلَفُوا۟ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [سورة آل عمران، من الآية:١٠٦].

وجاءَ في حديث أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ قال قال رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: "**إِنَّ اللهَ يَرْضَى لَكُمْ ثَلَاثًا، وَيَكْرَهُ لَكُمْ ثَلَاثًا، فَيَرْضَى لَكُمْ: أَنْ تَعْبُدُوهُ، وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ**

شَيْئًا، وَأَنْ تَعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا، وَيَكْرَهُ لَكُمْ: قِيلَ وَقَالَ، وَكَثْرَةَ السُّؤَالِ، وَإِضَاعَةِ الْمَالِ" [رواه مسلم].

وخلاصة كلام المصنف رَحِمَهُ ٱللَّهُ: الحث على لزوم الجماعة، وذكر شيءٍ من ثمراتها، والتحذير من التفرق، وذكر شيءٍ من عواقبها الوخيمة.

[دين الله تعالى هو الإسلام]

وَدِينُ اللهِ تَعَالَى فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَاحِدٌ، وَهُوَ دِينُ الْإِسْلَامُ، قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي ٱلْآخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ [سورة آل عمران، من الآية:٨٥]، **وَقَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ﴾** [سورة آل عمران، من الآية:١٩]، **وَقَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا﴾** [سورة المائدة، من الآية:٣]، **وَهُوَ بَيْنَ الْغُلُوِّ وَالتَّقْصِيرِ، وَبَيْنَ التَّشْبِيهِ وَالتَّعْطِيلِ، وَبَيْنَ الْجَبْرِ وَالْقَدَرِ، وَبَيْنَ الْأَمْنِ وَالْإِيَاسِ.**

﴿ الشرح ﴾

هذا تقريرٌ من المصنف رَحِمَهُ ٱللَّهُ في بيان أن دين الله تعالى واحدٌ وهو الإسلام، ولا فرق في مسائل الاعتقاد والتوحيد من زمان إلى زمان؛ كما لا فرق فيه من مكان إلى مكان، وهو قائم على العدل والوسطية بعيدًا عن كلا طرفي قصد الأمور.

قوله: **"ودينُ الله تعالى في السّماء والأرضِ واحد"** أراد رَحِمَهُ ٱللَّهُ أن يؤكد على أنّ الدّين الّذي ارتضاه الله تعالى، وأمرَ العبادَ كلهم علويهم وسفليهم أن يتعبدوه به، **"هو دين الإسلام"**؛ فليس دينٌ لله تعالى لا في الأرض ولا في السّماء إلا الإسلام، وهو الدين المرضي عنده؛ فالإسلام هو الدين الّذي أمر الله تعالى به الجن والإنس في الأرض، وهو الدين الّذي أمر الله تعالى به الملائكة، ومَن هم في الملإِ الأعلى.

و **"الإسلام"** لغة: مطلق السِّلم والاستسلام، **وفي الاصطلاح**: الاستسلام لله بالتوحيد، والانقياد له بالطاعة، والبراءة من الشرك وأهله

وهذا هو الدين الإسلامي العام، وهو الّذي كان عليه آدمُ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، ومَن بعده مِن الأنبياء والمرسلين، وحتّى خاتمهم نبينا محمد صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فكل مَا خالف هذا المعنى إما كُفْرٌ مزوقٌ، أو شرك مزخرفٌ، وهو عن دين الأنبياء في منأى، إذ كان الأنبياء والمرسلون كلهم على التوحيد، وكلهم على الإسلام قال الله تعالى عن إبراهيم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ: ﴿مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَٰكِن كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ [سورة آل عمران، من الآية:٦٧]، وقال إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام: ﴿رَبَّنَا وَٱجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَآ أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [سورة البقرة، من الآية:١٢٨]، وقال تعالى عن يوسف عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ أنه دعا فقال: ﴿رَبِّ قَدْ ءَاتَيْتَنِى مِنَ ٱلْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِى مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَنتَ وَلِىِّۦ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْآخِرَةِ تَوَفَّنِى مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِى بِٱلصَّٰلِحِينَ﴾ [سورة يوسف، من الآية:١٠١]، وقال عن موسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ: ﴿يَٰقَوْمِ إِن كُنتُمْ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّسْلِمِينَ﴾ [سورة يونس، من الآية:٨٤]، وقال عيسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ وحواريّوه: ﴿نَحْنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَٱشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾ [سورة آل عمران، من الآية:٥٢]،

وقال عن سحرة فرعون: ﴿رَبَّنَآ أَفۡرِغۡ عَلَيۡنَا صَبۡرٗا وَتَوَفَّنَا مُسۡلِمِينَ﴾ [سورة الأعراف، من الآية:١٢٦]، وقال عن سليمان عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ أنه قال في دعوته: ﴿أَلَّا تَعۡلُواْ عَلَيَّ وَأۡتُونِي مُسۡلِمِينَ﴾ [سورة النمل، من الآية:٣١].

ولذلك كان الشرط العام لكل من يدخل الجنّة أن يكون مسلمًا، قال الله تعالى: ﴿يَٰعِبَادِ لَا خَوۡفٌ عَلَيۡكُمُ ٱلۡيَوۡمَ وَلَآ أَنتُمۡ تَحۡزَنُونَ ﴿٦٨﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُواْ مُسۡلِمِينَ ﴿٦٩﴾ ٱدۡخُلُواْ ٱلۡجَنَّةَ أَنتُمۡ وَأَزۡوَٰجُكُمۡ تُحۡبَرُونَ﴾ [سورة الزخرف، من الآية:٦٨-٧٠].

وبين الله تعالى أن النّار مكان الكفار والمشركين؛ فقال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَٱسۡتَكۡبَرُواْ عَنۡهَا لَا تُفَتَّحُ لَهُمۡ أَبۡوَٰبُ ٱلسَّمَآءِ وَلَا يَدۡخُلُونَ ٱلۡجَنَّةَ حَتَّىٰ يَلِجَ ٱلۡجَمَلُ فِي سَمِّ ٱلۡخِيَاطِۚ وَكَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُجۡرِمِينَ ﴿٤٠﴾ لَهُم مِّن جَهَنَّمَ مِهَادٞ وَمِن فَوۡقِهِمۡ غَوَاشٖۚ وَكَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [سورة الأعراف، من الآية:٤٠-٤١].

ومِن هنا ندرك أن عقائد الأنبياء والمرسلين واحدة؛ فجميعهم يؤمنون بأركان الإيمان الستة؛ الإيمان بالله تعالى، وبالملائكة، وبالكتب، وبالرسل، واليوم الآخر، وبالقدر خيره وشره.

وبأركان الإسلام الخمسة من حيث الجملة، حتّى الحج؛ كما في حديث داود عن أبي العالية عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ ب قَالَ: سِرْنَا مَعَ رَسُولِ اللهِ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَسَلَّمَ يْنَ مَكَّةَ وَالْمَدِينَةِ، فَمَرَرْنَا بِوَادٍ، فَقَالَ: "أَيُّ وَادٍ هَذَا؟" فَقَالُوا: وَادِي الْأَزْرَقِ، فَقَالَ:

"كَأَنِّي أَنْظُرُ إِلَى مُوسَى صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ -فَذَكَرَ مِنْ لَوْنِهِ وَشَعَرِهِ شَيْئًا لَمْ يَحْفَظْهُ دَاوُدُ- وَاضِعًا إِصْبَعَيْهِ فِي أُذُنَيْهِ، لَهُ جُؤَارٌ إِلَى اللهِ بِالتَّلْبِيَةِ، مَارًّا بِهَذَا الْوَادِي". قَالَ: ثُمَّ سِرْنَا حتّى أَتَيْنَا عَلَى ثَنِيَّةٍ، فَقَالَ: "أَيُّ ثَنِيَّةٍ هَذِهِ؟" قَالُوا: هَرْشَى -أَوْ لِفْتٌ- فَقَالَ: "كَأَنِّي أَنْظُرُ إِلَى يُونُسَ عَلَى نَاقَةٍ حَمْرَاءَ، عَلَيْهِ جُبَّةُ صُوفٍ، خِطَامُ نَاقَتِهِ لِيفٌ خُلْبَةٌ، مَارًّا بِهَذَا الْوَادِي مُلَبِّيًا" [رواه مسلم].

وقد جاء في حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ الطويل في قصة مجيء جبريل عَلَيْهِ السَّلَامُ إلى النّبيّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وفيه أنه قال: "يَا رَسُولَ اللهِ، مَا الْإِسْلَامُ؟ قَالَ: لَا تُشْرِكُ بِاللهِ شَيْئًا، وَتُقِيمُ الصَّلَاةَ، وَتُؤْتِي الزَّكَاةَ، وَتَصُومُ رَمَضَانَ"، قَالَ: "صَدَقْتَ"، قَالَ: "يَا رَسُولَ اللهِ، مَا الْإِيمَانُ؟" قَالَ: "أَنْ تُؤْمِنَ بِاللهِ، وَمَلَائِكَتِهِ، وَكِتَابِهِ، وَلِقَائِهِ، وَرُسُلِهِ، وَتُؤْمِنَ بِالْبَعْثِ، وَتُؤْمِنَ بِالْقَدَرِ كُلِّهِ"، قَالَ: "صَدَقْتَ" [رواه البخاري ومسلم].

وأما الإسلام بالمعنى الخاص؛ فهو دين النّبيّ محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الّذي بعثه الله تعالى به، وهو يشمل إضافة إلى العقائد ما يتعلق بالأخلاق والمعاملات، وهو الدين النّاسخ للشرائع كلها، وهو الدين القيم؛ كما قال تعالى: ﴿لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ مُنفَكِّينَ حَتَّىٰ تَأْتِيَهُمُ الْبَيِّنَةُ ۝١ رَسُولٌ مِّنَ اللَّهِ يَتْلُو صُحُفًا مُّطَهَّرَةً ۝٢ فِيهَا كُتُبٌ قَيِّمَةٌ ۝٣ وَمَا تَفَرَّقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِن بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَةُ ۝٤ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ ۚ وَذَٰلِكَ دِينُ الْقَيِّمَةِ﴾ [سورة البينة، من الآية:١-٥].

وقد ذكر المصنّف رَحِمَهُ ٱللَّهُ الأدلة على كون دينِ الله تعالى في الأرض وفي السّماء؛ بل وفي الأولين والآخرين هو الإسلام؛ فقال: "**قال الله تعالى**: ﴿وَمَن يَبۡتَغِ غَيۡرَ ٱلۡإِسۡلَٰمِ دِينٗا فَلَن يُقۡبَلَ مِنۡهُ وَهُوَ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ مِنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ﴾ [سورة آل عمران، من الآية:٨٥]"، وهذه الآية ناطقة صريحة في كونِ الدِّينِ المقصودِ والمعنيِّ والمطلوبِ والمرضيِّ هو الإسلام؛ فليس لأحدٍ أن يتدين بدين غيره، وليس لأحدٍ أن يتقرب إلى الله تعالى بشيءٍ غير شرعة الإسلام.

"**وَقَالَ اللهُ تَعَالَى**: ﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلۡإِسۡلَٰمُ﴾ [سورة آل عمران، من الآية:١٩]"

"**وَقَالَ اللهُ تَعَالَى**: ﴿وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلۡإِسۡلَٰمَ دِينٗا﴾ [سورة المائدة، من الآية:٣]"

قال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ في تفسير الآية الأولى: (إخبارٌ مِن الله تعالى بأنَّه لا دينَ عنده يقبله مِن أحدٍ سِوى الإسلام، وهو اتِّباع الرُّسل فيما بعثهم الله به في كلّ حينٍ، حتّى خُتِمُوا بمحمدٍ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَسَلَّمَ، الّذي سدّ جميع الطُّرق إليه إلا مِن جهةِ محمّدٍ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَسَلَّمَ، فمَن لقي الله بعدَ بِعْثَتِه محمّدًا صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَسَلَّمَ بدين على غير شريعته، فليس بمتقبَّلٍ) [تفسير القرآن العظيم].

وهذه الأدلة الّتي ذكرها المصنّف رَحِمَهُ ٱللَّهُ صريحة في أنَّ الله تعالى لا يقبل دينًا غير الإسلام؛ وأنّ الله تعالى رضي لنا -معاشر المكلَّفين- الإسلامَ عمومًا وخصوصًا دينًا نتديَّن به، ونتعبَّده بذلك، ونتقرّب إليه به.

وآية الرّضا وكمال الدين مِن أواخر ما نزلت؛ كما في حديث طَارِقِ بْنِ شِهَابٍ ت قَالَ: قَالَتِ الْيَهُودُ لِعُمَرَ ت: لَوْ عَلَيْنَا مَعْشَرَ يَهُودَ، نَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةَ: ﴿ٱلۡيَوۡمَ أَكۡمَلۡتُ لَكُمۡ دِينَكُمۡ وَأَتۡمَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ نِعۡمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلۡإِسۡلَٰمَ دِينٗا﴾ [سورة المائدة، من الآية:٣]، نَعْلَمُ الْيَوْمَ الّذي أُنْزِلَتْ فِيهِ، لَاتَّخَذْنَا ذَلِكَ الْيَوْمَ عِيدًا، قَالَ: فَقَالَ عُمَرُ ت: "فَقَدْ عَلِمْتُ الْيَوْمَ الّذي أُنْزِلَتْ فِيهِ، وَالسَّاعَةَ، وَأَيْنَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حِينَ نَزَلَتْ، نَزَلَتْ لَيْلَةَ جَمْعٍ، وَنَحْنُ مَعَ رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِعَرَفَاتٍ" [رواه البخاري ومسلم].

ومما يدل على رضا الله تعالى أنه شرعَه، وبعث به رسُلَه، وأنزل به كتبه؛ فكل ما يخالف الإسلام؛ فهو إما من وضع البشر، أو هو مُحَرَّفٌ عما أنزله الله تعالى.

قال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ في تفسير آية المائدة: (هذه أكبرُ نِعَمِ الله عَزَّوَجَلَّ على هذه الأمّة حيثُ أكمل تعالى لهم دينهم، فلا يحتاجون إلى دينٍ غيرُه، ولا إلى نبيٍّ غيرِ نبيِّهم -صلوات الله وسلامه عليه-؛ ولهذا جعله الله خاتم الأنبياء، وبعثه إلى الإنس والجن، فلا حلالٌ إلّا ما أحلّه، ولا حرامَ إلا ما حرّمه، ولا دينَ إلا ما شرَعَه، وكلّ شيء أخبر به فهو حقّ وصِدقٌ لا كَذِب فيه ولا خُلْفَ، كما قال تعالى: ﴿وَتَمَّتۡ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدۡقٗا وَعَدۡلٗاۚ﴾ [سورة الأنعام، من الآية:١١٥]، أي: صدقًا في الأخبار، وعدلًا في الأوامر والنواهي.

فلمّا أكمل الدّين لهم تمّت النِّعمة عليهم؛ ولهذا قال تعالى: ﴿ٱلۡيَوۡمَ أَكۡمَلۡتُ لَكُمۡ دِينَكُمۡ وَأَتۡمَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ نِعۡمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلۡإِسۡلَٰمَ دِينٗاۚ﴾ [سورة المائدة، من الآية:٣]، أي: فارضوه أنتم لأنفسكم؛ فإنَّه الدِّين الّذي رضيه الله، وأحبَّه، وبعث به أفضل رسله الكرام، وأنزل به أشرف كتبه) [تفسير القرآن العظيم].

فإن قيل: فلماذا اختار الله تعالى الإسلام دينًا؟

فالجواب: أنه تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ إنما اختارَ الإسلامَ لما له من مزايا، ومن أهمها:

المزيّة الأولى: دينٌ موافقٌ للفطرة السليمة؛ كما قال تعالى: ﴿فَأَقِمۡ وَجۡهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفٗاۚ فِطۡرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيۡهَاۚ لَا تَبۡدِيلَ لِخَلۡقِ ٱللَّهِۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلۡقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ ٣٠ ۞ مُنِيبِينَ إِلَيۡهِ وَٱتَّقُوهُ وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَلَا تَكُونُواْ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ٣١ مِنَ ٱلَّذِينَ فَرَّقُواْ دِينَهُمۡ وَكَانُواْ شِيَعٗاۖ كُلُّ حِزۡبِۢ بِمَا لَدَيۡهِمۡ فَرِحُونَ﴾ [سورة الروم، من الآية:٣٠-٣٢].

المزيّة الثّانية: أنه من عندِ الله تعالى الّذي خلق البشر، وهو أعلم بحالهم، وبما يصلحهم، وبما يحسُن به مآلهم؛ كما قال تعالى: ﴿وَمَنۡ أَحۡسَنُ دِينٗا مِّمَّنۡ أَسۡلَمَ وَجۡهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحۡسِنٞ وَٱتَّبَعَ مِلَّةَ إِبۡرَٰهِيمَ حَنِيفٗاۗ وَٱتَّخَذَ ٱللَّهُ إِبۡرَٰهِيمَ خَلِيلٗا ١٢٥ وَلِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَيۡءٖ مُّحِيطٗا﴾ [سورة النساء، من الآية:١٢٥-١٢٦].

المزيّة الثّالثة: بناؤه على اليسر والسهولة، والوسع والطاقة؛ كما قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱرۡكَعُواْ وَٱسۡجُدُواْ وَٱعۡبُدُواْ رَبَّكُمۡ وَٱفۡعَلُواْ ٱلۡخَيۡرَ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ۩ ﴿٧٧﴾ وَجَٰهِدُواْ فِي ٱللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِۦۚ هُوَ ٱجۡتَبَىٰكُمۡ وَمَا جَعَلَ عَلَيۡكُمۡ فِي ٱلدِّينِ مِنۡ حَرَجٖۚ مِّلَّةَ أَبِيكُمۡ إِبۡرَٰهِيمَۚ هُوَ سَمَّىٰكُمُ ٱلۡمُسۡلِمِينَ مِن قَبۡلُ وَفِي هَٰذَا لِيَكُونَ ٱلرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيۡكُمۡ وَتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِۚ فَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱعۡتَصِمُواْ بِٱللَّهِ هُوَ مَوۡلَىٰكُمۡۖ فَنِعۡمَ ٱلۡمَوۡلَىٰ وَنِعۡمَ ٱلنَّصِيرُ﴾ [سورة الحج، من الآية:٧٧-٧٨].

المزيّة الرّابعة: أن فيه تخليصًا للعباد من عبودية العباد إلى عبودية رب العباد، وأن فيه تخليصًا لهم من الشعارات الزائفة الّتي لا تجمع إلا وقتيًا، إلى شعار التوحيد الّذي فيه جمعٌ كلمتهم، وبيان غايتهم، وتوحيد صفوفهم؛ كما قال تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمۡ أُمَّةٗ وَٰحِدَةٗ وَأَنَا۠ رَبُّكُمۡ فَٱعۡبُدُونِ ﴿٩٢﴾ وَتَقَطَّعُوٓاْ أَمۡرَهُم بَيۡنَهُمۡۖ كُلٌّ إِلَيۡنَا رَٰجِعُونَ ﴿٩٣﴾ فَمَن يَعۡمَلۡ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَهُوَ مُؤۡمِنٞ فَلَا كُفۡرَانَ لِسَعۡيِهِۦ وَإِنَّا لَهُۥ كَٰتِبُونَ﴾ [سورة الأنبياء، من الآية:٩٢-٩٤].

المزيّة الخامسة: شموله وكماله واعتداله ووسطيته في عقائده وعباداته وأخلاقه، جامعًا بين حقوق الروح والجسد، ومصالح الدّنيا والآخرة؛ كما قال تعالى: ﴿صِبۡغَةَ ٱللَّهِ وَمَنۡ أَحۡسَنُ مِنَ ٱللَّهِ صِبۡغَةٗۖ وَنَحۡنُ لَهُۥ عَٰبِدُونَ﴾ [سورة

البقرة، من الآية:١٣٨]، ومما يدلنا على وسطيته واعتداله، ما نصّ عليه المصنف رَحِمَهُ ٱللَّهُ، وجعل ذلك من ميزاته؛ فقال: **"وهو بين الغلو والتقصير"** أي أنَّ مِن ميزات الإسلام كونه دينًا وسطًا، قائمًا على الوسطية، وهذا من علامات الإسلام الحقّ؛ كما قال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ﴾ [سورة البقرة، من الآية:١٤٣].

قال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (والوسط هاهنا: الخيار والأجود، كما يقال: قريش أوسط العرب نسبًا ودارًا، أي: خيرها.

وكان رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وسطًا في قومه، أي: أشرفهم نسبًا، ومنه الصَّلاة الوسطى، الّتي هي أفضل الصلوات، وهي العصر...، ولما جعل الله هذه الأمة وسطًا خصّها بأكمل الشرائع، وأقوم المناهج، وأوضح المذاهب) [تفسير القرآن العظيم].

وقال الله سبحانه آمرًا بالعدل والوسطية: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُونُوا۟ قَوَّٰمِينَ بِٱلْقِسْطِ شُهَدَآءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ أَوِ ٱلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ ۚ إِن يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَٱللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا ۖ فَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلْهَوَىٰٓ أَن تَعْدِلُوا۟ ۚ وَإِن تَلْوُۥٓا۟ أَوْ تُعْرِضُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾ [سورة النساء، من الآية:١٣٥]؛ فمِن حسن الإسلام بناؤه على العدلِ وعلى التوسُّط، وليس المقصود بالتوسط هو كونه وسطًا في كلّ شيئين؛

بل هو وسطٌ بين كلّ خصلتين متناقضتين، ومثاله ما ذكره المصنّف من كونه وسطًا بين الغلو والتقصير، وبين التشبيه والتعطيل، ونحو ذلك من المسائل.

فمن علامات وسطية الإسلامِ ما ذكره المصنّف رَحِمَهُ ٱللَّهُ من كون الإسلام بعيدًا عن الشَّطط، مُنَزَّهًا عن اللَّغط، قائمًا على أحسن الخُطَطِ، ومن ذلك كونه **"بين الغلو والتقصير"**، وهما طرفان متناقضان، والنّاتج بينهما وسطٌ؛ فالغلوّ تشدّدٌ وتعسّرٌ، والتّقصير تفلّتٌ وتفتّتٌ.

وأصل **"الغلو"** الإفراطُ، والزيادةُ في الشيءِ، ومجاوزة الحدِّ الموضوع له، وتعظيمه على وجهٍ غير معتادٍ، وغلا بمعنى تصلب وتشدد، وارتفع عن أمثاله ومثيلاته.

و**(الغلوّ)ُ في الاصطلاح**: المجاوزة في الحقِّ، والإفراطُ فيه؛ كقولِ النصارى في نبي الله عيسى إنه ابنُ الله، تعالى الله عن ذلك علوًّا كبيرًا، وكغلو البعضِ في وليٍّ أنه نبيٌّ أو فوقه، وكلغو الباطنية في أئمتهم أنهم لهم شيءٌ من الرّبوبيّة، ونحو ذلك، وصور الغلو غير متناهية؛ لأنه متصور في كلّ شيءٍ، وذلك برفع الشيء عن حده الموضوع له.

وقد جاء النهي عن الغلو مطلقًا؛ فقال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لَا تَغۡلُواْ فِي دِينِكُمۡ غَيۡرَ ٱلۡحَقِّ وَلَا تَتَّبِعُوٓاْ أَهۡوَآءَ قَوۡمٖ قَدۡ ضَلُّواْ مِن قَبۡلُ وَأَضَلُّواْ كَثِيرٗا وَضَلُّواْ عَن سَوَآءِ ٱلسَّبِيلِ﴾ [سورة المائدة، من الآية:٧٧].

وقال سبحانه: ﴿يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لَا تَغۡلُواْ فِي دِينِكُمۡ وَلَا تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡحَقَّۚ﴾ [سورة النساء، من الآية: ١٧١].

قال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (ينهى تعالى أهل الكتاب عن الغلو والإطراء، وهذا كثير في النصارى، فإنهم تجاوزوا حدَّ التّصديق بعيسى، حتّى رفعوه فوق المنزلة الّتي أعطاه الله إياها، فنقلوه من حيّز النّبوّة إلى أنِ اتّخذوه إلاهًا مِن دون الله، يعبدونه كما يعبدونه، بل قد غلوا في أتباعه وأشياعه، ممن زعم أنّه على دينه، فادّعوا فيهم العصمة واتبعوهم في كلّ ما قالوه، سواء كان حقًّا أو باطلًا، أو ضلالًا أو رَشادًا، أو صحيحًا أو كذِبًا) [تفسير القرآن العظيم].

وجاء في حديث عبد الله بن عباس ب في رمي الجمرات أنه صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: **"أَيُّهَا النّاس، إِيَّاكُمْ وَالْغُلُوَّ فِي الدِّينِ، فَإِنّما أَهْلَكَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ الْغُلُوُّ فِي الدِّينِ"** [رواه ابن ماجه، وابن حبان في صحيحه].

وكذلك جاء في حديث عَبْدِ اللهِ بْنِ مسعودٍ ت قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **"هَلَكَ الْمُتَنَطِّعُونَ"** قَالَهَا ثَلَاثًا. [رواه مسلم].

وجاء في حديث أبي موسى الأشعري ت أَنَّ النّبيّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بَعَثَهُ وَمُعَاذًا إِلَى الْيَمَنِ، فَقَالَ: **"يَسِّرَا وَلَا تُعَسِّرَا، وَبَشِّرَا وَلَا تُنَفِّرَا، وَتَطَاوَعَا وَلَا تَخْتَلِفَا"** [رواه مسلم].

وقريبٌ منه ما في حديث أَبِي هُرَيْرَةَ ت عَنِ النّبيّ صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ قَالَ: "**إِنَّ الدِّينَ يُسْرٌ، وَلَنْ يُشَادَّ الدِّينَ أَحَدٌ إِلَّا غَلَبَهُ، فَسَدِّدُوا وَقَارِبُوا، وَأَبْشِرُوا، وَاسْتَعِينُوا بِالْغَدْوَةِ وَالرَّوْحَةِ وَشَيْءٍ مِنَ الدُّلْجَةِ**" [رواه البخاري].

فالغلو يؤدي إلى تغيير معالمِ الدين، وطمس هويته السمحة، وذهاب رونق الإسلامِ، ولهذا جاء النهي عنه، ولأن في الغلوِّ تعسيرًا على النّاس، والدين مبناه على التيسيرِ وعلى السماحة، وعلى الوسعِ والطاقة، قال الله تعالى: ﴿لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ۖ وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ ۖ وَبِعَهْدِ اللَّهِ أَوْفُوا ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ [سورة الأنعام، من الآية:١٤٩].

ومن مظاهرِ الغلوِّ ما قد تراه في طوائف أهل البدعِ؛ فما من طائفة مبتدعةٍ إلا وتجد عندها شيئًا من الغلو في جوانب من الدين، وشيئًا من التقصير في جوانب من الدين، ومن مظاهر الغلو:

المظهر الأوّل: رفعُ البشرِ، ولو كانوا أنبياء، أو أولياء إلى درجةٍ إعطائهم أوصاف الربِّ تَبَارَكَوَتَعَالَىٰ؛ كقولِ النصارى في عيسى ابن مريم عَلَيۡهِٱلسَّلَامُ، وكقول بعض اليهود في عزيرٍ، وكقول الباطنية في أئمتهم.

المظهر الثّاني: القولُ على الله تعالى، والافتراء على الدين، سواء بالكذب على الأنبياءِ، أو نسبة شيءٍ إلى الدين لم يثبت أنّه مِن الدين، كقولِ الخوارِج والمعتزلة في وجوب الخروج على الحاكم الجائر.

المظهر الثّالث: تحميل النفسِ ما لا تطيق، والتعسير على الآخرين، بما هو خارجٌ عن وسعهم وطاقتهم، وهذه سمة بارزةٌ للخوارج قديمًا وحديثًا.

المظهر الرّابع: التَّقدّم على العلماءِ العاملين، وعدم المبالاة بهم، والطعنُ فيهم، والغرور بما حصلوا هم مِن علمٍ أوليٍّ، أو ابتدائيٍّ.

المظهر الخامس: سوءُ الظنّ، سواء بالنّاس، أو بالأمراء والحكام، أو بالمجتمع؛ فالغالون لا يرون من سواهم شيئًا، ويرون أنفسهم نُقاية المجتمع، ويكادون يجزمون لأنفسهم بالجنّة؛ بل ويشهدون!

والغلوُّ يناقضه **"التّقصير"**؛ فالغلوُّ في جانب الإفراط، والتقصيرُ في جانب التفريط، فهما متضادَّان، والخيرُ بينهما، والإسلامُ شعاره الخيرية، والقيام على العدل والوسطية، لا إفراط ولا تفريط.

و**"التقصير"** التفريطُ في الشيءِ، والتهاونُ في القيام به، والتساهل فيه، بحيث يذهب حده، وينقص عن حقه، وهو بمعنى التركِ، سواءُ كان كليًّا أو جزئيًا.

و(التقصير) في الاصطلاح: التهاونُ في الحقِّ، والتفريطُ فيه، وعدم القيام به كما يجب.

وقد نهينا عن التهاون في الحق، وعن التفريط في الدين، وجاء الأمر بوجوب القيام به كما يجب، قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱدْخُلُوا۟ فِى ٱلسِّلْمِ كَآفَّةً وَلَا تَتَّبِعُوا۟ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ ۚ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾ [سورة البقرة، من الآية:٢٠٨]، قال إمام المفسرين ابن جرير الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (إنّ تأويل ذلك: دعاءٌ

للمؤمنين إلى رَفضِ جميع المعاني الّتي ليست مِن حُكمِ الإسلام، والعمل بجميع شرائع الإسلام، والنهي عن تضييع شيء من حدوده) [تفسير الطبري].

فالمسلم مأمورٌ أن يأخذ بجميع عُرَى الإسلام وشرائعه، وأن يعمل بجميع أوامره وَفقَ وسعه وطاقته، وأن يترك جميع زواجره.

وقال سبحانه في خطابه لأهل الكتاب: ﴿خُذُواْ مَآ ءَاتَيۡنَٰكُم بِقُوَّةٖ وَٱذۡكُرُواْ مَا فِيهِ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ﴾ [سورة البقرة، من الآية:٦٣]، والآية بسياقها العمومي يدل على وجوب أخذ الدين بقوَّةٍ بلا تسيبٍ، وذُكْرٍ بلا تركٍ، وتصدِيقٍ بلا تكذيبٍ، وحقٍّ بلا تضييعٍ، فتدبَّروا ما أعطاكم الله، واحفظوا أوامره، وخافوا وعيده، ولا تنسوه وتضيعوه.

وقال جل في علاه: ﴿وَأَلَّوِ ٱسۡتَقَٰمُواْ عَلَى ٱلطَّرِيقَةِ لَأَسۡقَيۡنَٰهُم مَّآءً غَدَقٗا﴾ [سورة الجن، من الآية:١٦]، والآية على أحد التفسيرين فيها الخبر بأن الاستقامة -وهي طريقة مجانبة للغلو والتقصير؛ فإن المستقيم لا يكون مقصِّرًا بالواجبات، ولا مرتكبًا للمحرماتِ؛ فهو سائر على الطريقة المرضية عند رب البرياتِ- سببٌ للخيرات والبركات، وهو مستحق للوعد مِن كريم الأعطياتِ سُبۡحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ، وهذه الآية كقوله تعالى: ﴿وَلَوۡ أَنَّ أَهۡلَ ٱلۡقُرَىٰٓ ءَامَنُواْ وَٱتَّقَوۡاْ لَفَتَحۡنَا عَلَيۡهِم بَرَكَٰتٖ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ [سورة الأعراف، من الآية:٩٦].

وجاء في حديث عَبْدِ اللهِ بْنِ عَمْرٍو ب قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **"إنّ لِكُلِّ عَمَلٍ شِرَّةً، وَإِنَّ لِكُلِّ شِرَّةٍ فَتْرَةً، فَمَنْ كَانَتْ فَتْرَتُهُ إِلَى سُنَّتِي، فَقَدْ أَفْلَحَ، وَمَنْ كَانَتْ فَتْرَتُهُ إِلَى غَيْرِ ذلِكَ، فَقَدْ هَلَكَ"** [رواه الإمام أحمد، وابن حبان في صحيحه].

ومظاهرُ التقصير كثيرة، ومنها ما قد تراه في طوائف أهل البدعِ؛ فما من طائفة مبتدعةٍ إلا وتجد عندها شيئًا من التقصير في جوانب مِن الدين، ومن أشهر مظاهر التقصير:

المظهر الأوّل: عدمُ تنزيه الربِّ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ عن سِماتِ المخلوقين، ووصفه بصفات النقص؛ كقول اليهود -عليهم من الله ما يستحقون-: إن الله فقير، وكقولهم: إنه استراح يوم السبت، ونحو ذلك من الأقوال الّتي تدل على التفريط في حق الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ.

المظهر الثّاني: عدمُ العمل بالنصوص المنزلة تحت تأويلات متنوعة، وتغيير معانيها إلى ما يوافق الأهواء؛ كقول المرجئة في الإيمانِ بأنه مجرد التصديق، أو مجرد المعرفة، وأن الأعمال ليس من الإيمان، ولا تؤثر عليه!؟

المظهر الثّالث: تضييع الفرائض والواجبات؛ كالتقصير في الصلوات والزكوات والصوم والحج، وغير ذلك من فرائض الإسلام، قال الله تعالى: ﴿فَخَلَفَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡ خَلۡفٌ أَضَاعُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَٱتَّبَعُواْ ٱلشَّهَوَٰتِۖ فَسَوۡفَ يَلۡقَوۡنَ غَيًّا ٥٩﴾

﴿إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحٗا فَأُوْلَٰٓئِكَ يَدۡخُلُونَ ٱلۡجَنَّةَ وَلَا يُظۡلَمُونَ شَيۡـٔٗا﴾ [سورة مريم، من الآية:٥٩-٦٠].

المظهر الرّابع: تركُ الدعوة إلى الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ، وترك الأمر بالتوحيد، وترك الحث على السنة، وعدمُ الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وجاء في حديث حُذَيْفَةَ بْنِ اليَمَانِ ب عَنِ النّبيّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَسَلَّمَ قَالَ: "وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَتَأْمُرُنَّ بِالمَعْرُوفِ، وَلَتَنْهَوُنَّ عَنِ الْمُنْكَرِ، أَوْ لَيُوشِكَنَّ اللهُ أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عِقَابًا مِنْهُ، ثُمَّ تَدْعُونَهُ فَلاَ يُسْتَجَابُ لَكُمْ" [رواه الترمذي، وقال: حديث حسن].

المظهر الخامس: الوقوع في المعاصي والمنكرات، والتقصير في حقوق الآخرين، وتغليب جانب النفس والهوى، وظهور المادية على الإنسان، قال الله تعالى: ﴿وَءَاتِ ذَا ٱلۡقُرۡبَىٰ حَقَّهُۥ وَٱلۡمِسۡكِينَ وَٱبۡنَ ٱلسَّبِيلِ وَلَا تُبَذِّرۡ تَبۡذِيرًا﴾ [سورة الإسراء، من الآية:٢٦].

ومِن علامات وسطية الإسلامِ، ومِن ميزاته، ومِن أسسه ودعائمه: أنَّه فيما يتعلق بصفات الرب تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ مبنيٌّ على العدل والوسطية، **"وهو بين التشبيه والتعطيل"**، فالإسلام المنزَّل فيه إثباتُ الصّفات للرب تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ من غير تشبيهٍ، ولا تمثيلٍ، ولا تكييفٍ؛ بل هو إثبات وجودٍ لا إثباتَ تكييفٍ وتمثيلٍ، ومن لم يثبت هذا النوع من الإثبات في الصّفات وقع إما في التمثيلِ وهو قولٌ واعتقادُ ضلالٍ في صفات رب العالمين، وإما أنه يقع في التعطيل.

وإثبات الوجودِ معناه: فَهْمُ المعنى دون إدراك الكيفيّة؛ ومثالُ ذلك؛ أنّا نعلم ونفهم وندرك معنى (صنَعَ)، ولا نعرفُ كيف (صنع) حتّى نعرفَ الفاعل؛ فإذا عرفنا الفاعل وعَلِمْنَاه؛ فإما أن نعرف كيف صنع لعلمنا بأحوال الصانع، أو لا نعلم كيف صنع لجهلنا بأحوال الصانع؛ فتختلف كيفيات (صنعَ) بحسب الفاعلين؛ فإذا قلنا: صنع الجنُّ قارورة، وصنعت النملة بيتًا؛ وصنع الطائرُ عشًّا، وصنع الإنسان دارًا؛ فهذه صنعة معلومة المعنى، معروفة الكيفيّة، وإن كان البعض قد يجهل كيف صنع الجنّ القارورة لعدم علمنا يقينًا بأحوالهم، وذواتهم، وكيفيات أفعالهم.

فإذا قلنا: ﴿صُنۡعَ ٱللَّهِ ٱلَّذِيٓ أَتۡقَنَ كُلَّ شَيۡءٍۚ إِنَّهُۥ خَبِيرُۢ بِمَا تَفۡعَلُونَ﴾ [سورة النمل، من الآية:٨٨]، فإنا نفهم معنى ﴿صُنۡعَ﴾ هنا، وإن كنا لا نعلم كيف صنع، وذلك لعدم علمنا وإحاطتنا بذاته تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ، فنثبت صفة (الصّنعِ لله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ، دون كيفٍ، وهكذا فجميع الصّفات نثبتها على فهم المعنى، وإدراك المقصود بها، ولا نشبّه وصفَه ولا فعله بوصف وبفعل المخلوقاتِ؛ لأنه تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ ليس له مثيلٌ، ولا كفءَ له، ولا سميَّ له.

وإثبات الصّفات على وجه التنزيه عن التمثيل واجبٌ من الجهتين؛ جهة الإثبات، وجهة التنزيه عن التمثيل، قال الله تعالى: ﴿لَيۡسَ كَمِثۡلِهِۦ شَيۡءٞۖ وَهُوَ

﴿ٱلسَّمِيعُ ٱلۡبَصِيرُ﴾ [سورة الشورى، من الآية:١١]؛ ففي قوله: ﴿لَيۡسَ كَمِثۡلِهِۦ شَيۡءٞ﴾ تنزيه عن التمثيل، وفي قوله: ﴿وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡبَصِيرُ﴾ إثبات بلا تعطيل.

وهذه الآيةُ ومثيلاتها الّتي فيها ذكرُ الصّفات، وورودها، يجب إثباتها، مع تنزيه الله تعالى عن مشابهة المخلوقين، وكلها تدل على خطورة التشبيه، وخطورة التعطيل.

والتّشبيه له صورٌ:

الصّورة الأولى: تشبيه صفات الله تعالى بصفات الخلقِ؛ فهذا منافٍ للتنزيه المأمور به شرعًا، والذي دل عليه حقيقة الإسلام في رب الأنام تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ.

الصّورة الثّانية: تكييفُ صفاتِ الله تعالى، وإن لم يقل بالتشبيه، وكلّ مُشَبِّه فهو مكيِّفٌ، وليس كلّ مكيِّفٍ يكونُ مشبِّهًا، ولا يجوز في حق صفات الله تعالى التشبيه، ولا التكييفُ.

وهذا كمن يقول من الفرق الضالة إن اللهَ تعالى في ذاته كذا وكذا، وفي صفاته كذا وكذا، من غير أن يشبهه بشيءٍ معين من المخلوقين؛ ولكنه كيَّفه في ذهنه.

تنبيه: يجب على المسلم أن يعتقد أن الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ له ذاتٌ حقيقة، وله صفات حقيقة، وأن لها كيفيات لا يعلمها إلا الله تعالى، ولا يخيَّل بخيالٍ، ولا يدرك بحالٍ، ولا يحاطُ به علمًا وإن رُؤِيَ يوم القيامة.

الصّورة الثّالثة: تشبيه المخلوقين بالخالق تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ، وإعطاؤهم شيئًا من صفات الرّبوبيّة أو الألوهية؛ فهذا نوعُ تشبيه من جهة أنه لم ير ولم يعتقد أن الله تعالى متفرد بهذه الصّفات.

ومعنى "**التشبيه**" مصدرٌ مِن (شبَّه) الشيءَ (يشبِّهـ)ـه (تشبيهًا)، وهو التمثيلُ، والتسويةُ، سواءً كان التشبيه كلية كمشابهة البنصر للبنصر، أو جزئية في شيءٍ معيَّنٍ؛ كقولنا: خالدٌ كالأسد، أي في الشجاعة.

و (**التشبيه**) في الاصطلاح: إلحاقُ أمرٍ بآخرَ لصفة مشتركةٍ بينهما؛ كقولنا الملائكة كالبشر في الوجود، أي كونها لا تقدر على الاستغناءِ؛ فهي بحاجة إلى خالقها كحاجة البشر إلى الخالق تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ.

ولا يلزم في التشبيه أن يكون كليًّا فالتشبيه كله في صفات الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ محرمٌ، ولا يجوزُ، ولا يتصور؛ فلا يمكن أن يكون شيءٌ من الخلق في شيءٍ كالرب تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ، ولا يمكن أن يكون شيءٌ في الخالقِ كشيء في المخلوقِ ولو من وجهٍ.

وأما التشابه اللفظي؛ فهذا ليس تشبيهًا؛ لأن ذلك إنما هو لفهم الخطاب، وإدراك المراد في الجواب؛ فنقول: وجه الأرضِ، ووجه الكتاب، ووجه الإنسان، ووجه البيت، ووجه الملَكِ، ووجه القمرِ، ولا يعني ذلك المشابهة في الوجه، وإنما وقع الاشتراك في اللفظ واكتسب اللفظ خصائص المضاف إليه عند الإضافة فانتفى التشبيه كلية، ومن باب أولى إذا قيل: وجه الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ؛

فنفهم معنى الوجه وندرك خصيصته لإضافته للباري تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ، وأنه ليس كالوجوه قطعًا، ولما له من الكمالات والجلالات والجمالات، قال الله تعالى:

﴿وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ﴾ [سورة الرحمن، من الآية:٢٧].

ومن هنا جاء في القرآن نفي التمثيل لأنه أدقّ، وأبين، وأجلى، بخلاف التشبيه فإنه أعم قد يدخل فيه التشابه اللفظيّ الّذي ذكرناه، ولا ريب أن امتثال ألفاظ القرآن والسنة أبعدُ من الرِّيَب، وأنزع عن النِّزَاع، ولكن ما أطلقه العلماء من الفظ التّشبيه هو بمعنى التّمثيل، والله الهادي إلى سواء السبيل.

و **"التّعطيل"** مصدرٌ من (عطَّل) الشيءَ (يُعطِّلـ)ـه تعطيلًا، وهو التأخيرُ، وتركُ الشيءِ بلا معنًى، وإخلاءُ الشيء وإفراغه عن مدلوله ومحتواه، ومن معانيه الخِلْوُ، ومنه قوله تعالى: ﴿وَبِئْرٍ مُّعَطَّلَةٍ وَقَصْرٍ مَّشِيدٍ﴾ [سورة الحج، من الآية:٤٥]، ومن هذا المعنى: عطَّل الشّرع إذا أهمله ولم يعمل به، وعطل الثغرَ: ترك حراسته.

و **"التّعطيل"** في الاصطلاح: إنكار شيءٍ من الصّفات أو معانيها، أو الأسماء، ومدلولاتها، أو الشريعة وأحكامها.

وبناء على هذا التعريف ندرك أنّ التعطيل نوعان:

النّوع الأوّل: التعطيل الكلِّي، وهو الّذي عليه الملاحدة من إنكار اللهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ، وإنكار الشريعة، وأنّ هذه الكمالات الموجودة كلها وجدَت بلا موجد!؟ فهؤلاء معطلة ملاحدة ملحدون، يدخلون تحت عموم قوله تعالى:

﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنَّكَ تَرَى ٱلْأَرْضَ خَٰشِعَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْۚ إِنَّ ٱلَّذِىٓ أَحْيَاهَا لَمُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰٓۚ إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٣٩﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِىٓ ءَايَٰتِنَا لَا يَخْفَوْنَ عَلَيْنَآۗ أَفَمَن يُلْقَىٰ فِى ٱلنَّارِ خَيْرٌ أَم مَّن يَأْتِىٓ ءَامِنًا يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِۚ ٱعْمَلُوا۟ مَا شِئْتُمْۖ إِنَّهُۥ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٤٠﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِٱلذِّكْرِ لَمَّا جَآءَهُمْۖ وَإِنَّهُۥ لَكِتَٰبٌ عَزِيزٌ ﴿٤١﴾ لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦۖ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾ [سورة فصلت، من الآية:٣٩-٤٢].

النّوع الثّاني: التعطيل الجزئي، وهو الإيمان بالإسلام، وبالشريعة من حيث الجملة، وإنكار بعضِ ما جاء فيه؛ كإنكار الصلوات الخمسِ، أو إنكارِ أسماءِ الله تعالى وصفاته، وهذا التعطيل أنواعه كثيرة، وليس هذا مجال ذكرها، وإنما المقصود بيان أصناف المعطلة في الصّفات، وهم:

الصّنف الأوّل: المعطلون لأسماء الله تعالى وصفاته؛ وهم الذين يعتقدون أن أسماءَ الله تعالى مخلوقة، وأنها مِن وضع البشر، وأنها لا تدل على صفاتٍ لله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ، ويؤولون الصّفات، وهذا حال الجهمية، ومن وافقهم من المعتزلة، ويقولون عن الأسماء والصّفات بأنّها مضافات إلى الله تعالى على وجه التشريف والتكريم، وهي مخلوقاتٌ له، وإما على وجه أنها بمعنى الذاتِ، وهؤلاء عمومًا يدخلون تحت عموم قول الله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَاۖ وَذَرُوا۟ ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِىٓ أَسْمَٰٓئِهِۦۚ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [سورة الأعراف، من الآية:١٨٠].

الصّنف الثّاني: المعطلون لصفاتِ الله تعالى سواء كان التعطيل منهم لجميع الصّفات كالمعتزلة، ومن وافقهم، أو لبعض الصّفات؛ كالماتريدية، والأشعرية، ونحوهم.

الصّنف الثّالث: المعطلون لما دلت عليه الصّفات من الكمالات، ومن ذلك ما دلت عليه من نفي التشبيه؛ فبناءً على هذا فكل ممثلٍ للصفات يكون معطِّلًا؛ لأنه عطل صفة الله تعالى بتشبيهه عن كمالها اللائق بها.

ومِن علامات وسطية الإسلامِ، ومِن ميزاته، ومِن أسسه ودعائمه: أنَّه فيما يتعلق بالقدر مبنيٌّ على العدل والوسطية، فهو **"بين الجبر والقدر"**.

و **"الجبر"** وصفٌ من جبَرَ الشيءَ يجبره جبرًا، إذا ألزمه به، وقهره عليه، والمرادُ هنا المذهب القائل بالجبر، وهو: أن العبادَ مجبورون على أفعالهم، وأنه لا اختيار لهم فيها!؟

فيرون أن أفعال العبد الاختيارية مِن أكلٍ وشربٍ وقيامٍ، وقعودٍ؛ كأفعالهم الاضطرارية، مثل: رجفة يد المريضِ، أو الحمَّى من المحموم، أو النوم ممن لم ينم، ونحو ذلك؛ فيسوون بين ما يعلم قطعًا اختيار العبدِ فيه بما يعلم قطعًا أن العبد غير مختارٍ فيه.

وهذا مذهبٌ باطلٌ سببه الغلوُّ في إثبات القدرِ، والجفاءُ والتقصير في معرفة كينونة المخلوق الآدمي، وعدم التفريق بين الأفعال الاختيارية والاضطرارية.

وقد ذكرَ الله تعالى أنه لم يُجْبِرِ العبادَ على الإيمان، ولو أراد ذلك لكان قادرًا؛ قال الله تعالى: ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَن فِى ٱلْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا ۚ أَفَأَنتَ تُكْرِهُ ٱلنَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ﴾ [سورة يونس، من الآية:٩٩].

وقال سبحانه: ﴿لَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ ۝٣ إِن نَّشَأْ نُنَزِّلْ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ءَايَةً فَظَلَّتْ أَعْنَٰقُهُمْ لَهَا خَٰضِعِينَ﴾ [سورة الشعراء، من الآية:٣-٤].

وقال جل في علاه: ﴿وَإِذْ نَتَقْنَا ٱلْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُۥ ظُلَّةٌ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُۥ وَاقِعٌۢ بِهِمْ خُذُوا۟ مَآ ءَاتَيْنَٰكُم بِقُوَّةٍ وَٱذْكُرُوا۟ مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [سورة الأعراف، من الآية:١٧١].

فهذه الآيات ومثيلاتها تدل دلالة بينة أن الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ لا يجبر العباد على الإيمان، وأنه لو شاء ذلك فهو القادر على كلّ شيء.

وقد دلت الآيات البينات على أن للعبد إرادة، ولذلك ينسب إليه الأمرُ، ويحاسب على فعله، ولا يحاسب المكرَه، والمجنون، والصغيرُ؛ لعدم الإرادة التامة، وكون العبد له اختيارٌ وإرادة فهذا لا يعني أنه يخرج عن إرادة الله تعالى العامة والشاملة، ولا يعني دخوله تحت الإرادة القدرية العامة والشاملة خروجه من دائرة الاختيار إلى دائرة الاضطرار.

وبهذا نعلم أن الجبرية قد ضلت في هذا الباب وخرجت عن وسطية الإسلام الّذي جاء في الآيات والأحاديث المتواترة من كون العبد له اختيارٌ وإرادةٌ.

وكذلك قد ضل في هذا الباب القدريَّة؛ فوسطية الإسلام المنزَّل ظاهرٌ في هذا الباب بأنه "**بين الجبر والقدر**".

و "**القَدَرُ**" وصفٌ من قدِرَ الشَّيْءَ يقدِرُ قَدْرًا، إذا صارَ متمكنًا منه، وقادرًا عليه، والمرادُ هنا المذهب القائل بالقَدَرِ، وهو: أن اللهَ تعالى لم يخلق أفعالَ العبادِ، وأنَّ أفعالهم وأعمالهم خارجةٌ عن تقديرِ الله تعالى.

فيرون أن أفعال العبد الاختيارية مِن أكلٍ وشربٍ وقيامٍ، وقعودٍ وذهابٍ وإيابٍ، وقيامٍ وتركٍ، كلها خارجة عن تقدير الله تعالى، وأن العباد هم بأنفسهم قاموا بها، بدون إقدارٍ من الله لهم؛ فيرون أنه يوجد في ملكوت الله تعالى ما لم يقدِّره، وأنه يكون في ملكِ الله تعالى ما لم يعلمه، ويكون العباد هم أنفسهم خالقون لأفعالهم؛ فعليه يلزم أن يكون ثم خالقًا غيرُ الله تعالى الله عن ذلك علوًّا كبيرا.

وقد سبق بيانُ ضلال مذهب الجبرية والقدرية، وإنما المقصود هنا بيان وسطية الإسلام، وهو بعينه وسطية أهل السنة والجماعة، من حيث العموم، ومن حيث الاعتقادِ، وهو أنّ الإسلام قائمٌ في هذا الباب على إثبات قدرة الله تعالى الشاملة وأنه الخالق وحده، وعلم الله تعالى الشامل، وأن كلّ شيءٍ بقضاء وقدرٍ، وإثبات أن للعبد فعلًا، وقدرة، واختيارًا ومشيئة، فللرب مشيئة، وللعبد مشيئة، وللرب اختيار وللعبد اختيارٌ، ولا تناقض في إثبات أن لله اختيارًا وللعبد اختيارًا، وذلك لأن الثاني داخل تحت الأول بلا جبرٍ.

وهذا مثالٌ تقريبيٌّ -ولله تعالى المثل الأعلى-: أنا نرى ملوك الأرض يضعون قرارات وقوانين ونظمًا، وليس لعامة الرعية الخروج عنها، وهذا كله لا يعني أنهم ليس لهم إرادة وأنهم مَسْلُوبُون الاختيار، مع علمنا بأن بعض الرعية ربما يتحايل على النظام والقانون وقد يخرج عنه إمّا قهرًا عن رأي الملِك أو خِيفةً، وذلك لضعف المِلك أو عجزه؛ فإنه مثلهم، ولا يمكنه أن يكون فوق رعيته مطلقًا، وهذا بخلاف رب العالمين؛ فإنّ أحدًا لا يمكنه الخروج عن إرادته العامة الشاملة، لا قهرًا؛ لأنه لا غالب إلا الله تعالى، ولا خيفة؛ لأنه لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السّماء.

وإذا كان يتصور وقوع إرادتين أحدهما داخلٌ تحت الآخر؛ فهذا لا يعني الجبرَ، مع يقيننا بأن الله تعالى لو أراد أن يجبر العباد على شيء لفعل؛ لكنه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ جعل الدّنيا دار اختبار وابتلاءٍ، وذلك كله مرتب على الإرادة والعلم والفعل، والله تعالى وحده المعين والهادي إلى سواء السبيل.

ومذهبُ القَدَرِ باطلٌ سببه الغلوُّ في إثبات مشيئة العبدِ، والجفاءُ والتقصير في إثبات مشيئة الله تعالى وعظيم علمه، وعدم التفريق بين إرادة الرب وإرادة العبد.

وقد ذكرَ الله تعالى أنه تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ له المشيئة العامة والشاملة في آيات كثيرة، ومنها قول الله تعالى: ﴿قُلْ مَن ذَا ٱلَّذِى يَعْصِمُكُم مِّنَ ٱللَّهِ إِنْ أَرَادَ بِكُمْ سُوٓءًا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ رَحْمَةً ۚ وَلَا يَجِدُونَ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا﴾ [سورة الأحزاب، من الآية:١٧].

وقوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿قُلْ فَمَن يَمْلِكُ لَكُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا إِنْ أَرَادَ بِكُمْ ضَرًّا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ نَفْعًۢا ۚ بَلْ كَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًۢا﴾ [سورة الفتح، من الآية:١١].

وقوله جل في علاه: ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا ٱقْتَتَلَ ٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ وَلَٰكِنِ ٱخْتَلَفُوا۟ فَمِنْهُم مَّنْ ءَامَنَ وَمِنْهُم مَّن كَفَرَ ۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا ٱقْتَتَلُوا۟ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ﴾ [سورة البقرة، من الآية:٢٥٣].

والآيات في هذا المعنى كثيرٌ، وإنما على طريقتنا نذكر في كلّ مسألة ثلاثة أدلة، وفيها الغنية والكفاية؛ لمن أراد المقنع والهداية، والله نسأل أن يرزقنا خير ما قدر، وأن يجنبنا سوء القضاء، وشماتة الأعداء.

ومِن علامات وسطية الإسلامِ، ومِن ميزاته، ومِن أسسه ودعائمه: أنَّه فيما يتعلق بتعامل المخلوق مع خالقه تَبَارَكَ وَتَعَالَى قائمٌ أيضًا على العدل والوسطية، فهو **"بين الأمن والإياس"**.

و **"الأمنُ"** مصدرٌ مِن (أَمِنَ، يَأْمَنً، أمْنًا)، وهو لغةً بمعنى: الطمأنينة، والسَّكَنِ، والسَّلامَةِ من السوء والشَرّ، وعدمِ الخوفِ، والوثوق بالشيء.

والمرادُ بـ(الأمن) هنا: الوُثوقُ بالعمل والسكون إليه، وعدم الخوفِ من عقابِ الله تعالى.

وقد نَهى الله تعالى عن الأمنِ من مكرِه، والأمنِ من عقابه، وذلك لأن فيه نوعُ استغناءٍ عن العبودية له سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وفيه نوعُ تألُّهٍ عليه جلّ في علاه، قال الله

تعالى: ﴿أَفَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَىٰ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا بَيَاتًا وَهُمْ نَائِمُونَ ﴿٩٧﴾ أَوَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَىٰ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا ضُحًى وَهُمْ يَلْعَبُونَ ﴿٩٨﴾ أَفَأَمِنُوا مَكْرَ اللَّهِ ۚ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ﴾ [سورة الأعراف، من الآية:٩٧-٩٩].

وقال سبحانه: ﴿أَفَأَمِنُوا أَن تَأْتِيَهُمْ غَاشِيَةٌ مِّنْ عَذَابِ اللَّهِ أَوْ تَأْتِيَهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ [سورة يوسف، من الآية:١٠٧].

وقال جل في علاه: ﴿لَّقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ ۚ قُلْ فَمَن يَمْلِكُ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا إِنْ أَرَادَ أَن يُهْلِكَ الْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ وَمَن فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ۗ وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ۚ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ ۚ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [سورة المائدة، من الآية:١٧].

والآيات في هذا المعنى كثيرة، وهي كلها تؤكد على أهمية ألَّا يكون المؤمن في أمنٍ من عذاب الله تعالى؛ بل عليه أن يخاف عقابه، وأن يرجو ثوابه، وأن يعيش بين الخوف والرجاء؛ كما قال الله تعالى عن أهل الجنّة في بيان وصفٍ مهم لهم: ﴿قَالُوا إِنَّا كُنَّا قَبْلُ فِي أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ﴾ [سورة الطور، من الآية:٢٦].

وقال تعالى عن خلَّص رسله وأنبيائه: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا ۖ وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ﴾ [سورة الأنبياء، من الآية:٩٠].

ومما يدل على أهمية ألّا يكون الإنسان في مأمنٍ من عذاب الله تعالى وعقابه ما جاء في حديث أَبِي هُرَيْرَةَ ت عَنْ رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ قَالَ: **"لَنْ يُدْخِلَ أَحَدًا عَمَلُهُ الجنّة" قَالُوا: وَلاَ أَنْتَ يَا رَسُولَ اللهِ؟ قَالَ: "لاَ، وَلاَ أَنَا، إِلَّا أَنْ يَتَغَمَّدَنِي اللهُ بِفَضْلٍ وَرَحْمَةٍ، فَسَدِّدُوا وَقَارِبُوا"** [رواه البخاري ومسلم].

وما جاء في حديث عَائِشَةَ أُمِّ الْمُؤْمِنِينَ ل قَالَتْ: دُعِيَ رَسُولُ الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِلَى جَنَازَةِ صَبِيٍّ مِنَ الْأَنْصَارِ، فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ طُوبَى لِهَذَا، عُصْفُورٌ مِنْ عَصَافِيرِ الجنّة لَمْ يَعْمَلِ السُّوءَ وَلَمْ يُدْرِكْهُ، قَالَ: **"أَوَ غَيْرَ ذَلِكَ، يَا عَائِشَةُ إِنَّ اللهَ خَلَقَ لِلْجَنَّةِ أَهْلًا، خَلَقَهُمْ لَهَا وَهُمْ فِي أَصْلَابِ آبَائِهِمْ، وَخَلَقَ لِلنَّارِ أَهْلًا، خَلَقَهُمْ لَهَا وَهُمْ فِي أَصْلَابِ آبَائِهِمْ"** [رواه مسلم].

فأهل الإسلام بحقٍّ يعيشون في هذه الحياة لا في استعلاء، ولا في شهادة لأنفسهم من حيث الخصوصِ بالجنّة؛ بل يقولون من حيث العموم –ما سبق– أنّ أهل الإسلام في الجنّة، وأن أهل الكفران في النيران، ويخاف أحدهم على نفسه، ويرجو لها الجنّة، ويخشى من النّار، ويرجو منها النجاة.

وهذا بخلاف أهل البدعِ الذين يشهدون للمعينين من أنفسهم بالجنّة، ويشهدُ بعضهم لبعضٍ بالجنّة، ويأمنون من مكر الله تعالى؛ كما هو حال الخوارجِ حيث يشهدون لأنفسهم بالجنّة، ولمخالفيهم بأعيانهم بأنهم في النّار.

وعلى هذا المنوال سار من سار من غلاة المتصوفة الذين يقول أحدهم إني قد وضعت قدمي في الجنّة، والآخرُ يشهدُ لمريده بالجنّة!؟

وأشدُّ من هذا من يقول من الباطنية إن إمامه يدخل من شاءَ الجنّة، ويخرج من شاء من النّار، فهذا كله في جهة الغلو في الشهادة للنفس، وللنحلة، والطائفة، وفيه تفريطٌ في حقِّ الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ الّذي بيده الأمن، وبيده الجنّة والنّار، وحده لا شريك له.

فعلى المؤمن الحق، الّذي يريد أن يكون على الإسلام المنزَّل، أن يعيش **"بين الأمنِ والإياس"**.

و **"الإياسُ"** مصدرٌ مِن (أَيس، يَئِسَ، أَيسًا، وإِيَاسًا)، بمعنى يئسَ، وانقطع رجاؤه، وقنط، وفقد الوثوق بالشيء.

والمرادُ بـ (الإياس) هنا: انقطاع الرجاء من رحمةِ الله تعالى، ومن قبوله توبة العبدِ، وإدخاله العبد الجنّة.

وقد نَهى الله تعالى عن الإياس من رحمته، ومن فضله، ومن قبوله التوبة، ومن كرمه وجوده، وذلك لأنّ فيه نوعُ استصغارٍ لرحمةِ الله تعالى، وفيه نوعُ تألُّهٍ عليه جلّ في علاه، قال الله تعالى: ﴿وَلَا تَاْيْـَٔسُواْ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِۖ إِنَّهُۥ لَا يَاْيْـَٔسُ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ [سورة يوسف، من الآية:٨٧].

وقال سبحانه: ﴿قُلْ يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُواْ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًاۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ۝٥٣ وَأَنِيبُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُواْ لَهُۥ﴾ [سورة الزمر، من الآية:٥٣-٥٤].

وقال جل في علاه: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ وَيَعْفُواْ عَنِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ وَيَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ﴾ [سورة الشورى، من الآية:٢٥].

وجاء في حديث أَبِي هُرَيْرَةَ ت عَنِ النَّبِيّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: "أَسْرَفَ رَجُلٌ عَلَى نَفْسِهِ، فَلَمَّا حَضَرَهُ الْمَوْتُ أَوْصَى بَنِيهِ فَقَالَ: إِذَا أَنَا مُتُّ فَأَحْرِقُونِي، ثُمَّ اسْحَقُونِي، ثُمَّ اذْرُونِي فِي الرِّيحِ فِي الْبَحْرِ، فَوَاللهِ لَئِنْ قَدَرَ عَلَيَّ رَبِّي لَيُعَذِّبُنِي عَذَابًا مَا عَذَّبَهُ بِهِ أَحَدًا، قَالَ فَفَعَلُوا ذَلِكَ بِهِ، فَقَالَ لِلْأَرْضِ: أَدِّي مَا أَخَذْتِ، فَإِذَا هُوَ قَائِمٌ، فَقَالَ لَهُ: مَا حَمَلَكَ عَلَى مَا صَنَعْتَ؟ فَقَالَ: خَشْيَتُكَ، يَا رَبِّ -أَوْ قَالَ مَخَافَتُكَ- فَغَفَرَ لَهُ بِذَلِكَ" [رواه مسلم].

والأدلة كثيرة في وجوب أن يعيش المسلم في هذه الدّنيا بين الأمنِ والإياس، وهو حقيقة الرجاء والخوف؛ فهو يخاف إذا أذنب، ويرجو رحمةَ الله تعالى إذا أطاع، ويرجو التوبة، ولا يقنط من قبولها، ولهذا جاء في حديث أَبِي هُرَيْرَةَ ت قَالَ: سَمِعْتُ النّبِيّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: "إِنَّ عَبْدًا أَصَابَ ذَنْبًا -وَرُبَّمَا قَالَ أَذْنَبَ ذَنْبًا- فَقَالَ: رَبِّ أَذْنَبْتُ -وَرُبَّمَا قَالَ: أَصَبْتُ- فَاغْفِرْ لِي، فَقَالَ رَبُّهُ: أَعَلِمَ عَبْدِي أَنَّ لَهُ رَبًّا يَغْفِرُ الذَّنْبَ وَيَأْخُذُ بِهِ؟ غَفَرْتُ لِعَبْدِي، ثُمَّ مَكَثَ مَا شَاءَ اللهُ ثُمَّ أَصَابَ ذَنْبًا، أَوْ أَذْنَبَ ذَنْبًا، فَقَالَ: رَبِّ أَذْنَبْتُ -أَوْ أَصَبْتُ- آخَرَ، فَاغْفِرْهُ؟ فَقَالَ: أَعَلِمَ عَبْدِي أَنَّ لَهُ رَبًّا يَغْفِرُ الذَّنْبَ وَيَأْخُذُ بِهِ؟ غَفَرْتُ لِعَبْدِي، ثُمَّ مَكَثَ مَا شَاءَ اللهُ، ثُمَّ أَذْنَبَ ذَنْبًا، وَرُبَّمَا قَالَ: أَصَابَ ذَنْبًا، قَالَ: قَالَ: رَبِّ أَصَبْتُ -أَوْ قَالَ أَذْنَبْتُ- آخَرَ،

فَاغْفِرْهُ لِي، فَقَالَ: أَعَلِمَ عَبْدِي أَنَّ لَهُ رَبًّا يَغْفِرُ الذَّنْبَ وَيَأْخُذُ بِهِ؟ غَفَرْتُ لِعَبْدِي ثَلاثًا، فَلْيَعْمَلْ مَا شَاءَ" [رواه البخاري ومسلم].

والمعنى: أن العبد ما دام يستغفر ويتوب فإن التواب الكريم يقبل منه، ولا يرده، وذلك لأنه على كلّ شيءٍ قادر، ورحمته عظيمة.

وقد جاء ما يدل على أهمية عيش الإنسان بين الأمن والرجاء والخوف والإياس؛ فلا يكون آمنًا مطلقًا، ولا آيسًا مطلقًا، هذا هو حياة الإسلام الّذي ينبغي أن يعيشه المسلم؛ فما دام الرّوح بين جنبيه فعليه أن يخاف من استدراجٍ، ومن سوءِ عمله، مع إحسانه الظن بربه، وأن يخاف من تقلبات القلوب مع رجائه لربه، وأن يخاف من سوء القضاءِ مع يقينه بربه.

هذا هو حقيقة الإسلام عمليًا، وفضائل الإسلام المنزَّل كثيرة، فإن قيل: فلم خص المصنّف رَحِمَهُ ٱللَّهُ هذه البينيَّات الأربع بالذِّكرِ؟

فالجواب: إنما ذكر المصنّف رَحِمَهُ ٱللَّهُ هذه البَيْنِيّات الأربع؛ لأنها أصولٌ وإليها مرجع الكلِّ؛ ففي **البينيّة الأولى**: **"بين الغلو والتقصير"** بيان أصل التعامل مطلقًا، مع النصوص، أو في فهم النصوص، أو مع الأنبياء، أو مع الأولياء، أو مع عموم الخلق، أو في العبادات، أو في المعاملات...إلخ.

وفي **البينيّة الثّانية**: **"بين التشبيه والتعطيل"** بيان ما يتعلق بصفاتِ الله تعالى، وهو تخصيص بعد تعميم.

وفي **البينيّة الثّالثة: "بين الجبر والقدر"** بيان ما يتعلق بالقدرِ، وهو بَيْنَ بَيْنِ، حيث إن له تعلقًا بالله تعالى من جهة ربوبيته المتعلقة بقضائه وقدره، وأن له تعلقًا بالمخلوق من حيث تعامله مع القدر.

وفي **البينيّة الرّابعة: "بين الأمن والإياس"** بيان ما يتعلق بخصوص تعامل العبد مع ربه تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ، ونظره إلى نفسه، وعمله؛ فما أحسن هذا الترتيب حيث بدأ بالعموم، ثم الخصوص، ثم ما بينهما، ثم الأخص.

فالإسلام من حيث العموم هو عظيمٌ، ومن حيث الخصوص هو عظيمٌ، ومن حيث ما يتعلق بالخالق وبالمخلوق هو عظيم، ومن حيث ما يتعلق بالمخلوق هو عظيم.

وخلاصة كلام المصنّف رَحِمَهُ ٱللَّهُ: أن الإسلام هو الدين الّذي ارتضاه رب العالمين للبشرية؛ بل وللعالَم أجمع، وهو الدين الّذي يقبله من النّاس، وهو الدين القويم، القائم على العدلِ الّذي لا جورَ فيه، وعلى الإنصاف الّذي لا إجحاف فيه، وعلى الحقِّ الّذي لا باطلَ فيه، وعلى الميزان الّذي لا نقص فيه، وعلى هذا يصدق حديث العرباض بن سارية ت وفيه أن رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: **"قَدْ تَرَكْتُكُمْ عَلَى الْبَيْضَاءِ لَيْلُهَا كَنَهَارِهَا، لَا يَزِيغُ عَنْهَا بَعْدِي إِلَّا هَالِكٌ"** [رواه الإمام أحمدُ، وابن ماجه، بهذا اللفظ، وهو حديث صحيح].

❀❀❀

[الوصية بهذا الاعتقاد]

فَهَذَا دِينُنَا، وَاعْتِقَادُنَا، ظَاهِرًا وَبَاطِنًا، وَنَحْنُ بُرَاءُ إِلَى اللهِ تَعَالَى مِنْ كُلِّ مَنْ خَالَفَ الَّذِي ذَكَرْنَاهُ وَبَيَّنَّاهُ.

الشرح

هذا ختمٌ من المصنف رَحِمَهُ ٱللَّهُ لهذه العقيدة المباركة بأنها عقيدته، وعقيدة الأئمة الذين أدركهم ممن سار على منهج السلف في باب الاعتقاد، وأن هذا الاعتقاد قائمٌ على التزامه، والبراءة مما خالفه، أو يخالفه.

وقوله: **"فهذا ديننا"** أي ما مضى ذِكره، وما زبر به قلمه، مما سبق سطره؛ فهو الدِّين الّذي يتديّن به لرب العالمين تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ، ويظهره للعالَمين، ويجعله بينه وبين الله تعالى للقربى والزُّلفى، وهذا من حيث عمومِ الديانة.

ومن حيث خصوص الاعتقاد قال: **"واعتقادنا"** أي ما سبق من مسائل الاعتقاد، مما خطه المداد، ووجدتَه على السّداد، هو الاعتقاد الّذي يعتقدونه، ويرونه عقيدة يربطون بها وعليها قلوبهم، وظاهر أعمالهم، ولهذا قال: **"ظاهرًا وباطنًا"** أي إن دينهم وعقيدتهم **"ظاهرًا وباطنًا"** شيءٌ واحدٌ، وهذا فيه بيان البعدِ من عقيدة التّقية، ومِن عقيدة الباطنيّة، ومن عقيدة الخوارج القعديّة، وأنه والأئمة الذين ذكرهم عقيدتهم واحدة، وهي الّتي ربطوا عليها قلوبهم، وأظهروها بألسنتهم، وعملوا وَفْقَها.

و **(الظاهر)** الأمرُ الواضحُ، والشأن البارزُ، والشيءُ البيّنُ، وكونه بدا وعلا،

ومنه قوله تعالى: ﴿فَلَا تُمَارِ فِيهِمْ إِلَّا مِرَآءً ظَٰهِرًا﴾ [سورة الكهف، من الآية:٢٢]، وقوله تعالى: ﴿يَعْلَمُونَ ظَٰهِرًا مِّنَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ ٱلْـَٔاخِرَةِ هُمْ غَٰفِلُونَ﴾ [سورة الروم، من الآية:٧].

والمقصود بالظاهر هنا: ما أعلنه، وما أخبرَ به، وما سطره في هذه العقيدة الطيبة.

و (**الباطن**) من كلّ شيءٍ داخله، والأمرُ الخفيُّ، والشأن المكتوم، والشيءُ المستور، ومنه قوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا۟ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ﴾ [سورة الأنعام، من الآية:١٥١]، وقوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّىَ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ﴾ [سورة الأعراف، من الآية:٣٣].

والمقصود بالباطن هنا: ما قد يخفيه، ولا يخبر به، ولا يكتبه في العقيدة الّتي أبداها للناس، وأظهرها لهم.

وبالجمع بين "**ظاهرًا وباطنًا**" دلالة أن عقيدة المصنّف رَحِمَهُ ٱللَّهُ ومن حكى عنهم من الأئمة هي عقيدة قلبية وقولية وعملية جلية لا خفاء فيها، ولا لبس، ولا غموض.

و(الظاهرُ، والباطنُ) من أسماءِ الله تعالى؛ كما في قوله سبحانه: ﴿هُوَ ٱلْأَوَّلُ وَٱلْـَٔاخِرُ وَٱلظَّٰهِرُ وَٱلْبَاطِنُ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾ [سورة الحديد، من الآية:٣].

ومعنى (الظاهر): العالي فوق كلّ شيءٍ، وهو ظاهرٌ جلي لا يخفى وجوده

على خلقه؛ لكثرة دلائله الفعلية، وآثاره الوجودية.

ومعنى (الباطن): الّذي ليس دونه شيءٌ، وهو العالم بالسرائر والخفيات، والمحتجِب عن أبصار الخلائق وأوهامهم.

وجاء تفسير الظاهر والباطن من أسماء الله تعالى في حديث أبي هريرة ت عن النّبيّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وفيه: **"اللهُمَّ أَنْتَ الْأَوَّلُ فَلَيْسَ قَبْلَكَ شَيْءٌ، وَأَنْتَ الْآخِرُ فَلَيْسَ بَعْدَكَ شَيْءٌ، وَأَنْتَ الظَّاهِرُ فَلَيْسَ فَوْقَكَ شَيْءٌ، وَأَنْتَ الْبَاطِنُ فَلَيْسَ دُونَكَ شَيْءٌ"** [رواه مسلم].

والواجب على المسلم أن تكون عقيدته ظاهرا وباطنا شيئا واحدًا، وذلك لأن عقيدة التوحيد جلية لا يحتاج إلى إخفاءٍ، وعقيدة الإسلام بينة لا لبس فيها؛ فعلام يخفيها العبدُ.

وهاهنا مسألةٌ، وهي: هل يجوز للإنسان أن يخفي عقيدته خوفًا أو لا يجوز؟

فالجواب: أنّه لا يجوز للمسلم أن يخفي عقيدته الّتي يدين الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى بها، وهذا هو الأصل المطرد؛ كما قال تعالى: ﴿قُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيۡنَا وَمَآ أُنزِلَ إِلَىٰٓ إِبۡرَٰهِـۧمَ وَإِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ وَٱلۡأَسۡبَاطِ وَمَآ أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَآ أُوتِيَ ٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمۡ لَا نُفَرِّقُ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّنۡهُمۡ وَنَحۡنُ لَهُۥ مُسۡلِمُونَ﴾ [سورة البقرة، من الآية:١٣٦]، وقوله تعالى: ﴿قُلۡ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡكَٰفِرُونَ ١ لَآ أَعۡبُدُ مَا تَعۡبُدُونَ﴾ [سورة الكافرون، من الآية:١-٢]، وقوله تعالى: ﴿فَلَا تَخَافُوهُمۡ وَخَافُونِ إِن كُنتُم

مُّؤۡمِنِينَ ﴿١٧٥﴾﴾ [سورة آل عمران، من الآية:١٧٥].

وأما عند وقوع الضررِ أو الخوفِ أو الإكراه الملجئ، لا مجرد توقعه؛ فهنا يجوز إبطان الإيمان، وعدم إظهاره، حتّى يزول سببه، أو يأمنَ صاحبه؛ كما قال تعالى: ﴿إِلَّا مَنۡ أُكۡرِهَ وَقَلۡبُهُۥ مُطۡمَئِنُّۢ بِٱلۡإِيمَٰنِ﴾ [سورة النحل، من الآية:١٠٦].

وفي غير هذا الظرف فالمؤمن يعتز بعقيدته، ويُظهرها، ويعلن البراءة من كلّ ما يخالف عقيدة الإسلام؛ ولهذا قال المصنّف رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **"ونحن بَرَاء إلى الله مِن كلّ مَن خالف الذي ذكرناه وبيناه"**، أي أننا نتبرأ ونظهر البراءة من أيِّ شخصٍ وإن انتسب إلينا إذا خالف الّذي بينا ووضحناه في هذه العقيدة المختصرة.

ومعنى "**نحن**" أي أئمة الحنفية؛ كالإمام أبي حنيفة، وأبي يوسف، ومحمد بن الحسن الشيباني، وزُفرَ، وأمثالهم.

و"**براء**" مصدرٌ مِن (بَرِأَ، يبْرَأ، برْءًا، وبَرَاءً) ويوصف به؛ فيقال: هو بَرَاءٌ من كذا، بمعنى أنه بعيدٌ عنه، منزَّه منه، وأنه لا يقبل أن ينتسب إليه، ولا أن يظهر هذا الشيء باسمه، أو بالإضافة إليه، أو بوجود الصلة، ومنه قوله تعالى: ﴿وَإِذۡ قَالَ إِبۡرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوۡمِهِۦٓ إِنَّنِي بَرَآءٞ مِّمَّا تَعۡبُدُونَ﴾ [سورة الزخرف، من الآية:٢٦]، وقوله سبحانه: ﴿قَدۡ كَانَتۡ لَكُمۡ أُسۡوَةٌ حَسَنَةٞ فِيٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ إِذۡ قَالُواْ لِقَوۡمِهِمۡ إِنَّا بُرَءَٰٓؤُاْ مِنكُمۡ وَمِمَّا تَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ كَفَرۡنَا بِكُمۡ وَبَدَا بَيۡنَنَا وَبَيۡنَكُمُ ٱلۡعَدَٰوَةُ وَٱلۡبَغۡضَآءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤۡمِنُواْ بِٱللَّهِ وَحۡدَهُۥٓ﴾ [سورة الممتحنة، من الآية:٤].

والمسلم يجب عليه أن يظهر الولاء والبراء؛ فيوالي المؤمنين، ويعادي الكافرين، ومعنى هذه الموالاة المحبة الإيمانية، والبغض الإيماني؛ والمعاونة الدينية، والمظاهرة الدنيوية؛ فعلى المؤمن أن يظهر البراءة من الكفار، ومن مذاهبهم، ومن أعمالهم الكفرية، ومن بدعهم القولية والفعلية، وأن يبين أن كلّ من يخالف عقيدة الإسلام فإنه يعتبر مخالفًا للصدق، مجانبًا للحق.

فمن **"خالف الذي ذكرناه وبينّاه"**؛ فإنّا منه بَرَاءُ، ومن عمله، ومن انتسابه، فليس كلّ مَن زعم أنّه حنفيُّ المذهب فهو كذلك حتّى يكون على عقيدة هؤلاء الأئمة الثلاث الذين ذكرهم الإمام الطّحاويّ رَحِمَهُمُ ٱللَّهُ، وبين عقيدتهم، فمن **"خالف"** بعد ذلك فيكون انتسابه كاذبًا، وادعاؤه عاريًا عن الواقع.

ومعنى **"خالف"** فِعْلٌ ماضٍ من المخالفة، وهي عدم الموافقة، وبمعنى التأخير، والمضادة، والمعارضة، وقد يكون الخلاف بمعارضة، أو بلا معارضة؛

فالأوّل: من خالف بمعارضة؛ كبعض المعتزلة الذين انتسبوا إلى الإمام أبي حنيفة رَحِمَهُ ٱللَّهُ زورًا، وخالفوه في الاعتقاد، وصاروا يردون عليه بعض كلامه، ويضادُّونه.

والثّاني: مَن خالَفَ بلا معارضةٍ؛ كالماتريدية، الذين يظنون أنهم على مذهب الإمام أبي حنيفة رَحِمَهُ ٱللَّهُ وليسوا كذلك واقعًا؛ فهم مخالفون له، وإن لم يزعموا المعارضة له، ولا نقض كلامه؛ بل يؤوِّلون كلامه، ويزعمون أنّه موافقٌ لهم.

وهؤلاء جميعًا هم ممن خالفوا بعض هذه العقيدة، وجانبوا أصولًا فيها،

ووضعوا لأنفسهم أصولًا، وكانت تلك المخالفات سببًا لخروجهم عن السنة، ومخالفتهم الأئمة.

وخلاصة كلام المصنف رَحِمَهُ ٱللَّهُ: وجوب تصحيح الاعتقاد وَفق هذه العقيدة، وأن يكون هذا اعتقاد المسلم في الظاهر والباطن، وأن يبرأ إلى الله تعالى مما يخالفه.

[الثبات على الإيمان والسنة والحذر من المذاهب المبتدعة]

وَنَـحْنُ نَسْأَلُ اللهَ تَعَالَى الْعَظِيمَ أَنْ يُثَبِّتَنَا عَلَي الْإِيـمَانِ، وَيَـخْتِمَ لَنَا بِهِ، وَيَعْصِمَنَا مِنَ الْأَهْوَاءِ الْمُخْتَلِفَةِ، وَالْآرَاءِ الْمُتَفَرِّقَةِ، وَالْمَذَاهِبِ الرَّدِيَّةِ، مِثْلِ: الْمُشَبِّهَةِ، وَالْمُعْتَزِلَةِ، وَالْـجَهْمِيَّةِ، وَالْـجَبْرِيَّةِ، وَالْقَدَرِيَّةِ، وَالرَّافِضَةِ، وَغَيْرِهِمْ، مِنَ الَّذِينَ خَالَفُوا السُّنَّةَ وَالْـجَمَاعَةَ، وَحَالَفُوا أَهْلَ الضَّلَالَةِ، وَنَـحْنُ مِنْهُمْ بُرَاءُ، وَهُمْ عِنْدَنَا ضُلَّالٌ وَأَرْدِيَاءُ.

﴿ الشرح ﴾

هذا ختمٌ من المصنف رَحِمَهُ ٱللَّهُ في ختام هذه العقيدة المباركة بالدعاءِ، والتضرع إلى الله تعالى، بالصون والحفظ على العقيدة الصحيحة، والنجاة من العقائد المضلة المردية.

وقوله: "**ونحنُ نسألُ الله تعالى**" أي بلسان الحال والمقال، ندعوا الله تعالى أن يثبتنا على هذه العقيدة المباركة، وهذا دعاءٌ يحتاج إليه كلّ مسلمٍ.

و"**أن يثبتنا**" فِعْلٌ مضارع من (الثّباتِ)، وهو شدُّ الشيءِ ليستقرّ، ويبقى ويداوم على ما هو عليه.

و(**الثّباتُ**) من الله تعالى؛ كما قال سبحانه: ﴿يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ﴾ [سورة إبراهيم، من الآية:٢٧]؛ ولهذا ينبغي للمسلم دومًا أن يسأل ربه الثبات، وقد كان النّبيّ صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ كذلك، ولنا فيه أسوة وقدوة؛ كما جاء في حديث عَبْدَ اللهِ بْنَ عَمْرٍو ب أَنَّهُ سَمِعَ رَسُولَ اللهِ

صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقُولُ: **"إِنَّ قُلُوبَ بَنِي آدَمَ كُلَّهَا بَيْنَ إِصْبَعَيْنِ مِنْ أَصَابِعِ الرَّحْمَنِ، كَقَلْبٍ وَاحِدٍ، يُصَرِّفُهُ حَيْثُ يَشَاءُ"** ثُمَّ قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **"اللهُمَّ مُصَرِّفَ الْقُلُوبِ صَرِّفْ قُلُوبَنَا عَلَى طَاعَتِكَ"** [رواه مسلم].

وكذلك على المسلم دومًا أن يسأل الله تعالى بعد الثبات حسنَ الختام، ولهذا قال المصنّف رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **"ويختم لنا به"**، أي ونسأل الله تعالى أن يحسن ختامنا، وأن يجعل ختامنا بالإيمان.

و **"يختم"** فِعْلٌ مضارعٌ من **(الختمِ)**، وهو هنا بمعنى حسن العاقبةِ، فيكون آخر عملٍ لنا هو الإيمان، وأن نموت على أعمال أهل الإيمان؛ فيكون الطابع الّذي على صحيفة أعمالنا ختمٌ صالحٌ، ومختوم مُبَارَك، وهذا يحتاجه الإنسان في آخر لحظة من لحظات حياته.

وأما في لحظات دنياه فهو يحتاج لصحة إيمانه مجانبة الفتن والأهواء، ولهذا قال المصنّف رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **"ويعصمنا مِن الأهواء المختلفة"**، أي ونسأل الله تعالى أن يحفظنا وأن يجنبنا مِن كلّ هوى وبدعة، وهي متنوعةٌ وكثيرةٌ.

و **"المختلِفة"** اسم فاعلٍ مِن (اختلفَ) فهو (مختلِفٌ)، والتاءُ فيه للتأنيث.

و **"الأهواءُ المختلفة"** هي البدعُ، وهي مختلفة بمعنى متجادلة، متنازعة، متشاكسة؛ كما قال تعالى: ﴿وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ۝١١٨ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ﴾ [سورة هود، من الآية:١١٨-١١٩]، وقال سبحانه: ﴿فَمَا ٱخْتَلَفُوٓاْ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ﴾ [سورة الجاثية، من الآية:١٧]، وقال جل في علاه: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ فَرَّقُواْ دِينَهُمْ وَكَانُواْ شِيَعًا

﴿لَّسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ﴾ [سورة الأنعام، من الآية:١٥٩].

فالأهواء ملازمة للفرقة، ومصاحبة للتنازع، ومجانبة للحقّ، مبنية على الجدال، أصولها هشّة، فروعها شائكة، ثمارها مرّة، أشواكها مضرّة.

والمصنّف رَحِمَهُ ٱللَّهُ فرق بين **"الأهواء المختلفة"**، **"والآراء المتفرِّقة"**، **"والمذاهب الرّديّة"**، فهذا من باب العطف وبينها ترادف؛ فكل هوىً رأيٌ ومذهبٌ، وكلّ مختلفٌ ومتفرقٌ ورديءٌ.

أو مِن باب التنويع وبينها تلازم؛ وعلى هذا فيكون المقصود بـ **"الأهواء المختلفة"**، هي الشعارات الجاهلية المتنوعة؛ كالوطنية، والقومية، والشعوبية، ونحوها.

والمقصود بـ **"الآراء المتفرقة"** الأقوال المتنوعة البعيدة عن الحق؛ كأقوال بعض الفقهاء الشاذة، والمجانبة للحق والصواب، وما قد صار سببًا للنزاع والشقاق.

والمقصود بـ **"المذاهب الرَّديّة"** الفِرَق الضَّالّة؛ كما ذكرها المصنّف بعدُ، ولا ريب أن بين هذه الأهواء والآراء والمذاهب تلازم وجودي، وتلازم واقعي؛ فما من مذهب ردي إلا كان سببه الهوى والرأي، وما من هوَى إلا وهو يوصل إلى المذاهب الردية.

و **"الآراء"** جمعُ رأيٍ، وهو يطلق على الاعتقادِ، والغالب أن المراد به الاعتقاد المبني على الرأي، وليس الاعتقاد المبني على الأثر، ويطلق الرأي على الظنّ،

وعلى الهوى والشك، وهذا حالُ أهل الآراء؛ فإنهم في شك وريب؛ كما قال تعالى: ﴿وَإِنَّهُمْ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ﴾ [سورة هود، من الآية: ١١٠].

وكل رأي خالف نصًّا فهو يؤدي إلى النزاع والاختلاف والتفرق، ولهذا كان أكثر اختلاف النّاس في آرائهم؛ بل ربما ترى أحدهم يحكي إجماع النّاس على شيءٍ، والآخر على عكسه، ثم لا يزال بعضهم ينقض رأي بعضٍ، وهذا بخلاف النصوص الشّرعية؛ فإنها ناطقة بالحق، دالة على الصدق، ولهذا لا ترى الاختلاف حولها إلا نزرًا يسيرًا، لا سيما بين من عرف قدر النصوص، وعظمها حق التعظيم.

و **"المذاهب"** جمعُ (مذهبٍ)، وهو الطريق والطريقة، وقد يطلق على المعتقدِ، وهي آراءٌ ونظريات، وقد تكون اعتقادية أو فقهية، والمراد هنا الأول؛ لأن المصنّف رَحِمَهُ ٱللَّهُ وصفها بـ **"الردية"**؛ ولأنه ذكرها بعدها مباشرة بالاسم.

"والرديَّة" وصفٌ من (رَديَ) الشيءُ إذا هلك، وسقط في الهاوية، و**"الرديّة"** وصفٌ، والتاء للتأنيث، فهذه مذاهب ردية أي ساقطة، وتقول: هذا مذهبٌ ردي، ورديءٌ، وهذه مذاهب ردية، ورديئةٌ، أي ساقطة لا قيمة لها في الشّرع، ولا وزن لها عند أهل العلم، وهي بمعنى: المنكَرَة والمكروهةُ، ويطلق على الفاسد، وعلى الخسيس والحقير.

فإن قال قائلٌ: ما هي أوصاف المذاهب الردية؟

فالجواب: أنّ المذاهب الرديَّة متنوِّعةٌ في الوصفِ، متفرقة في الحال، ويجمعها

أنها تخالف العقيدة الصحيحة، وهذه العقيدة المنصوص عليها من الإمام الطّحاويّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ إما كُلَّا أو بعضًا، ومِن أهمّ أوصاف الفرق الضالّة، المخالفة للسُّنَّة، المجانبة للحقّ:

الوصف الأوّل: أنها لا تهتم بالتوحيد، ولذلك تراهم في عمًى عن توحيد الأنبياء والمرسلين، وإن تكلمت عن التوحيد كالمعتزلة؛ فتوحيدهم مناقضٌ للتوحيد المنزَّل؛ بل يعنون به شيئًا غير مرادٍ لله تعالى ولرسوله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

الوصف الثّاني: أنها لا تهتم بالسُّنَّة، ولذلك قلما تجد منهم من يبني عقيدته على قال الله تعالى، قال رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ وإنما بناء عقائدهم إما على المنطق، أو الفلسفة، أو الوجد، أو الذوق، أو أقوال الإمام، وأراء النّاس؛ ولهذا تجد كتبهم العقدية خالية من النص المؤيد، وقد تجد فيها نصًّ ليؤولوه!؟

الوصف الثّالث: أنهم لا يهتمون بالتفسير بالمأثور، ولا بالآثارِ؛ فتراهم أبعد النّاس عن تفاسير السلف، وآرائهم المنقولة إلينا بالأسانيد.

الوصف الرّابع: أنّ عقائد الفرق منسوبة إلى أوصافٍ ليست مذكورة في كتاب الله تعالى؛ كالاعتزال، أو التّصوف، أو إلى أشخاصٍ؛ كالعقيدة الأشعرية، أو الماتريدية، أو الإمامية.

الوصف الخامس: أنها كلها منابذة لعقيدة السلف، ولهذا لا يبالون بفهم السلف؛ فكل طائفة تقدم فهمها، وترى رأيها، وهذا حال الخوارج، والماتريدية، والأشعرية، ونحوهم.

وأما المذاهب الردية اسمًا؛ فهي كثيرة، وقد ذكر المصنّف رَحِمَهُ ٱللَّهُ أشهرها، وأكثرها شيوعًا في زمانه، وأظهرها مذهبًا، وأرداها قولًا، فقال: **"مثل: المشبهة، والمعتزلة، والجهمية، والجبرية، والقدرية، وغيرهم، مِن الذين خالفوا السنة والجماعة"**، وفي كلام المصنّف رَحِمَهُ ٱللَّهُ دلالة على وصفٍ آخر للمذاهب الردية وهي مخالفتها للسنة والجماعة؛ فهي ترى شق عصا الطاعة أينما كانوا، ولا تقيم للجماعة وزنًا، وللسّنّة قيمة.

وهذا تعريفٌ موجزٌ بكلّ فرقة، لم يسبق لها تعريفٌ، وأهم ما تميّزت بها:

"المشبهة": اسمُ فاعل من (شبَّه، يشبِّه)؛ فهو (مُشبِّهٌ) والتّاء فيه للتأنيث؛ لكونها فرقة، و(**الشَّبَه**): المِثْلُ، والنظيرُ، والأمرُ المختلط، وأصلُ الشَّبَهِ النحاسُ الأصفرُ لكونه شبيها بالذهب وليس هو إياه.

و(**المشبهةُ**) في الاصطلاح: فرقة أثبتت للخالق صفاتِ المخلوق.

والمشبهة فرقٌ متعددة، ومن أشهرهم فرقتان:

الفرقة الأولى: الهشامية من الرافضة، وهي أول فرقة شبَّهت، وتنتسب إلى هشام بن الحكم الرافضي.

الفرقة الثّانية: الكرامية، وهم أتباع محمد بن كرام السجستاني، وقد نسبوا إلى التشبيه.

تنبيه: قد تَنسِبُ المعتزلةُ أهلَ السنة بل والأشعرية والماتريدية إلى التشبيهِ بناء على قاعدتهم أن إثبات الصّفات ولو على سبيل الوجود والإضافة المقتضية

للتخصيص تشبيه، وهذه مغالطة عقلية، ونقلية، وإلا لزم أن يكون وجه المعتزلي كوجه الحمار مثلًا لمجرد إثبات الوجود مع وجود الإضافة المقتضية للتخصيص.

وهكذا الأشعرية ومن وافقهم قد يُسمُّون أهلَ الحديث مشبِّهةً، بناء على موافقتهم للمعتزلة في قاعدتهم الفاسدة السابقة، مع مخالفتهم لهم في أنّ ما أثبته الأشعرية من الصّفات لا يقتضي ذلك!؟ وهذا تناقض بينٌ؛ فإما أن يقولوا بها مطلقًا، أو يردوها مطلقًا.

"والمعتزلة" اسمُ فاعلٍ مِن (اعتزَل، يعتزل؛ اعتزالًا؛ فهو مُعْتَزِلٌ) والتاءُ فيه للتأنيث؛ لكونها فرقة، فاعتزَل الشيءَ بَعُدَ عنه، وتنحَّى عنه في جانبٍ، كما في قوله تعالى: ﴿وَإِن لَّمْ تُؤْمِنُوا۟ لِى فَٱعْتَزِلُونِ﴾ [سورة الدخان، من الآية:٢١].

ومناسبة هذه التسمية من جهة أن واصل بن عطاء كان من تلامذة الحسن البصري في الكوفة؛ فسُئِل عن الفاسق الملِّي هل هو في الجنّة أو في النّار، وذلك بعد مجانبة الخوارج لعقيدة المسلمين، وقولهم بأنه كافرٌ في الدّنيا ومخلدٌ في النّار في الآخرة؟

فقال: واصلٌ أراه في منزلة بين المنزلتين؛ أي لا هو مسلمٌ ولا هو كافرٌ!؟ فقال له الإمام الحسن البصري رَحِمَهُ ٱللَّهُ: اعتزل مجلسنا. فاعتزل وصار له أتباعٌ، ومنهم عمرو بن عبيدٍ، ونحوه.

و(**المعتزلة**) في الاصطلاح: هم الذين اجتمعت فيهم أصول الاعتزال الخمسة

المشهورة.

وقد تطلق كلمة المعتزلي على كلّ من يقدم العقل على النقلِ، وبهذا الاعتبار فإن العلمانيين وأشباههم ممن يزعمون التدين في المسجد ثم لا يرون للدين مكانة في أمورهم الحياتية هم معتزلة أيضًا، أو من أفراخهم.

وصار للاعتزال دعاةٌ، وأصولٌ، والذي يجمع المعتزلة خمسة أصولٍ، وهي:

الأصل الأوّل: التوحيد، وعنوا بذلك وجوب نفي الصّفات عن الله تعالى، بحجة أنها أعراض، والأعراض ملازمة للجسمية والحدوث، فبنوا أصلًا في مخيلتهم جامعًا يجمع بين المخلوق والخالقِ وبناء على هذا نفوا عن الله تعالى الصّفات، ولو أنهم عقلوا لعلموا أنه لا يجوز بحال في حق الخالق تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ القياس الكلي، ولا القياس الشمولي، وأن صفاته تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ تُثبت على سبيل الوجود، مع التمايز البين لأنها مضافة إلى الخالق تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ، ألا ترى أن لك علمًا وللنملة علمًا؛ فهل هذان العلمان سواءٍ؛ لمجرد كون العلم عرضًا عندك وعندها!؟ وهذا مع أن الإنسان والنملة مخلوقتان؛ فيجمعها أصلٌ وهو الحدوث، ولم يتساويا في الوصف؛ فكيف بالخالق جل في علاه.

الأصل الثّاني: العَدْلُ، وعنوا به أنّ الله تعالى ليس له مشيئة في أفعال العباد الاختيارية، وأن العبد يخلق فعل نفسه، وأن الله لا يخلق أفعال المكلفين!؟ ومن هذا الأصل نشأ بين المعتزلة القدر، وعرفوا بعد ذلك بالقدرية أيضًا.

الأصل الثّالث: المنزلة بين المنزلتين، وعنوا بذلك أن المسلم الفاسق لا

يستحق اسم الإيمان، ولا يعطى اسم الكافر في الدّنيا، وأما في الآخرة فهو كالكافر مخلَّدٌ في النّار.

الأصل الرّابع: وجوب إنفاذ الوعدِ والوعيد، ويرون أنه يجب على الله إثابة الطائعين، وأن ذلك ليس تفضلًا، ولا منة منه تَبَارَكَوَتَعَالَىٰ، ويرون أنه يجب تعذيب الفاسقين، وعلى هذا الأساس قالوا بنفي الشفاعة، وبنفي خروج عصاة الموحدين من النّار.

الأصل الخامس: الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وعنوا بذلك وجوب إلزام النّاس بمذهبهم، ووجوب الخروج على الحاكم الفاسق، وقتال الحكام.

و"**المعتزلة**" قد صاروا فرقًا كثيرة، ومن أشهرها:

الفرقة الأولى: الواصلية: أتباع واصل بن عطاء البصري.

الفرقة الثّانية: الهذلية: أبتاع أبي الهذيل العلاف.

الفرقة الثالثة: الجبائية: أتباع القاضي عبد الجبار الجبائي.

"**والجهمية**" اسمُ نسبة إلى رجلٍ يقال له: الجهم بن صفوان الترمذي، وأصلُ كلمة (جهم) بمعنى استقبله بوجه كريه، وفلانٌ جهمُ الوجه: عابسه وكريهه، وجهَّم القولَ بمعنى قال ما يُكرَه.

و"**الجهمية**" في الاصطلاح: هم فرقة تنفي عن الله تعالى الأسماء والصّفات، وهم أتباع الجعد بن درهم، والجهم بن صفوان الترمذي، وإليه نسب المذهب لأنه نافح عنه، ونشره.

وعن الجهمية أخذ المعتزلة إنكار الصّفات؛ فهم في الحقيقة أفراخ للجهمية، وقد تطلق كلمة الجهمي على كلّ من أنكر الصّفات، أو بعضها، تجوزًا.

ومن هنا يمكن أن نقول: إن الجهمية أسُّ الفرق الكلامية من الناحية العلمية، وعنها تفرعت المعتزلة، وعنها وبسببها الكلابية، ومنها الأشعرية والماتريدية.

كما نقول: إن الخوارجَ أسُّ الفرق الكلامية من الناحية العملية؛ فكل طائفة خرجت فهي متأثرة بفكر ورأي الخوارج، سواءٌ كانوا على مذهبهم أم لم يكونوا.

والجهمية هم مرجئةٌ أيضًا، والجهم هو من نشر الإرجاء، وهم جبرية أيضًا، والجهم هو من نشر الجبر، وكان يرى رأي الخوارج في وجوب الخروج على الحاكم الفاسق، ولهذا فإن الجهمية جمعوا جيمات الضلالات؛ فهم جهميّة وجبريّة ومرجئة وخوارجُ.

وقد سبق تعريف **"الجبرية، والقدرية"**، وإنما أوردهم هنا مرة أخرى للتقرير أنها من المذاهب الردية.

"وغيرهم" أي وغير هذه الفرق المذكورة، ومنها: المرجئة، والخوارج، والشيعة، والزيدية، والمتصوفة، ونحوهم.

"وحالفوا الضلالة" أي أنها لازمت مجانبة الحق، و **"حالفوا"** فعلٌ ماضٍ اتصل به واو الجماعة، ومعنى **(حالَف)** أي صار حليفًا له، وعاهَدَه على الملازمة والنصرة والتأييد، وتأتي **(حَالَف)** بمعنى المؤاخاة، ومنه حديث أَنَسٍ

ت قال: "**قَدْ حَالَفَ رَسُولُ اللهِ** صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ **بَيْنَ قُرَيْشٍ، وَالْأَنْصَارِ فِي دَارِهِ**" [رواه مسلم].

و(**الأحلاف**) إما أن تكون على حق وبحقٍّ كحلف المهاجرين والأنصار، أو حِلْفِ نُصرَة الحقِّ، أو تكون على باطلٍ، وتحالفت على نصرة الباطل، وهي الّتي جاء النهي عنها، ويحمل عليها حديث جُبَيْرِ بْنِ مُطْعِمٍ ت قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ: "**لَا حِلْفَ فِي الْإِسْلَامِ، وَأَيُّمَا حِلْفٍ كَانَ فِي الْجَاهِلِيَّةِ لَمْ يَزِدْهُ الْإِسْلَامُ إِلَّا شِدَّةً**" [رواه مسلم].

والمصنّف رَحِمَهُٱللَّهُ قال عن أهل الأهواء والبدع أنهم "**حالفوا الضلالة**" بمعنى صاروا مناصرين للضلالة، ومؤيدين لها، حتّى إنهم نسبوا إلى ذلك، ومن هنا قيل لأهل البدع: أهلُ "**الضلالة**"، لأنهم ضلوا الطريق الصحيح في الاعتقاد، وصاروا مجانبين للسنة، معاندين لصحيح الاعتقاد.

ووجب بيان ضلالهم، وتوضيح مجانبتهم للحق، وإعلان البراءة منهم، ولهذا قال المصنّف رَحِمَهُٱللَّهُ: "**ونحن منهم بَرَاء**"، أي نبرأ إلى الله تعالى من كلّ فِرقة وضلالة، ومن كلّ قولٍ واعتقادٍ باطلٍ، وإعلان البراءة واجبٌ على كلّ مؤمنٍ من كلّ كفرٍ وكافرٍ، وكذلك من كلّ ضلالة وضالٍّ، ولا تجوز موالاتهم، ولا مودتهم؛ بل نكون كما قال الله تعالى عن المؤمنين: ﴿لَّا تَجِدُ قَوۡمٗا يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ يُوَآدُّونَ مَنۡ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَوۡ كَانُوٓاْ ءَابَآءَهُمۡ أَوۡ أَبۡنَآءَهُمۡ أَوۡ إِخۡوَٰنَهُمۡ أَوۡ عَشِيرَتَهُمۡۚ أُوْلَٰٓئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ ٱلۡإِيمَٰنَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٖ مِّنۡهُۖ وَيُدۡخِلُهُمۡ

جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمۡ وَرَضُواْ عَنۡهُۚ أُوْلَٰٓئِكَ حِزۡبُ ٱللَّهِۚ أَلَآ إِنَّ حِزۡبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ﴾ [سورة المجادلة، من الآية:٢٢].

ومن تمام إعلان البراءة من أهل البدع، اعتقاد أنهم على سوء وشرٍّ في اعتقادهم وأعمالهم التعبدية المجانبة للسنة، ولهذا قال المصنّف رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **"وهم عندنا ضُلَّالٌ، وأَرْدِيَاء"**، أي ونعتقد أنهم على ضلالة وغيٍّ، وهم في أنفسهم ما داموا معلنين لهذه الأهواء فهم ضلَّالٌ.

وهم **"أردياءُ"**، أي ونعتقد أنهم على فسادٍ، وعلى أمرٍ مكروهٍ، و**"أرديّاء"** جمعُ **(رديء)** وهو الفاسد من الشيءِ، والخسيس، والحقيرُ، والمكروه منه، وهو وصفُ تأنيث لبيان أن الفرق كلها على رداءةٍ، وفسادٍ، وخسَّة رأيٍ، وحقارة مذهبٍ، وكراهة قولٍ وفعلٍ في أحوالهم البدعية، وأعمالهم الشركية، أو الكفرية.

ويجب على الإنسان أن يتعلم العقيدة الصحيحة، وأن يعمل بها، وأن يسأل الله تعالى أن يثبت عليها، وأن يتوفاه الله تعالى على ذلك.

ولا عصمة من الضلالة، ولا توفيق إلى الحق والسنة، إلا بالله تعالى، ولهذا قال المصنّف رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **"وبالله العصمة والتوفيق"**، أي أن الله سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ هو يعصم من يشاءُ؛ فيحفظه، ويسدده، ويقومه، ويثبته، وكذلك التوفيق إلى الحقِّ، والثبات عليه، والقول به، والعمل به، كلّ ذلك بيد الله تعالى، ولهذا فإن المسلم في كلّ ركعة من ركعات صلاته يدعو بما جاء في سورة الفاتحة: ﴿ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ ٦ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمۡتَ عَلَيۡهِمۡ غَيۡرِ ٱلۡمَغۡضُوبِ عَلَيۡهِمۡ وَلَا

ﭐلضَّآلِّينَ﴾ [سورة يونس، من الآية:٦-٧].

وذلك لأنه يعلم أن العصمة بيد الله تعالى، وأن الثبات على الحق لا بد فيه من توفيق الله سبحانه، وذلك فضلُ الله يؤتيه من يشاء، ﴿وَٱللَّهُ يَخۡتَصُّ بِرَحۡمَتِهِۦ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلۡفَضۡلِ ٱلۡعَظِيمِ﴾ [سورة البقرة، من الآية:١٠٥]، وقال سبحانه: ﴿إِنَّ ٱلۡفَضۡلَ بِيَدِ ٱللَّهِ يُؤۡتِيهِ مَن يَشَآءُۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٞ ٧٣ يَخۡتَصُّ بِرَحۡمَتِهِۦ مَن يَشَآءُۗ وَٱللَّهُ ذُو ٱلۡفَضۡلِ ٱلۡعَظِيمِ﴾ [سورة يونس، من الآية:٧٣-٧٤].

وخلاصة كلام المصنّف رَحِمَهُ ٱللَّهُ: أنه يبرأ من كلّ ما يخالف المزبور المذكور، وقد بينّا أنه في الجملة وفق عقيدة السلف رَحِمَهُمُ ٱللَّهُ، ونسأل الله أن يثبتنا على الإيمان، ويختم لنا به، ويعصمنا ويحفظنا ويصوننا من كلّ ضلالة، ومن كلّ ما يؤدي إلى غضبه، وأليم عقابه.

[الخاتمة]

وَالْحَمْدُ لِلَّهِ وَحْدَهُ، وَصَلَّى اللهُ عَلَى سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ، وَآلِهِ، وَصَحْبِهِ، وَسَلَّمَ تَسْلِيمًا كَثِيرًا.

الشرح

ختم المصنّف رَحِمَهُ ٱللَّهُ الرسالة بالحمدِ لله رب العالمين، والصلاة والسلام على سيد المرسلين؛ كما بدأها بذلك.

وهذا أمرٌ حسنٌ أن يختم العبد كلامه بما بدأ به الكلام، فإن الخواتيم معتبرة، وإذا ختم العبد بالدعاء، رجي له العلاء، وكان الحسن البصري رَحِمَهُ ٱللَّهُ يقول: (اللَّهُمَّ اجْعَلْ آخِرَ أَعْمَالِنَا خَوَاتِمَهَا، وَاجْعَلْ ثَوَابَهَا الْجَنَّةَ)، وجاء مرسلًا: "**اللَّهُمَّ اجْعَلْ خَيْرَ أَعْمَالِنَا مَا يَلِي آجَالَنَا، وَاجْعَلْ خَيْرَ أَيَّامِنَا يَوْمَ لِقَاكَ**" [رواه الحارث في مسنده]، وكان الصدّيق أبو بكرٍ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ إذا دعا يقول: " اللهم اجعل خير عملي آخره، اللهم اجعل خواتيم عملي على رضوانك، اللهم اجعل خير أيامي يوم ألقاك" [الترغيب والترهيب لقوام السنة].

فالعمل الصالح العبرة فيه بما يختم، وإذا ختم الكلام بالحمد والصلاة والسلام كان أرجى للقبول، ولهذا قال العلامة النّووي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (أجمع العلماء على استحباب ابتداء الدعاء بالحمد لله تعالى، والثناء عليه، ثم الصلاة على رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وكذلك تختم الدعاء بهما، والآثار في هذا الباب كثيرة مرفوعة) [الأذكار له].

وبعد هذه العبارة في النسخ الأخرى عبارات وكلمات، وقد أعرضت عنها في الشرح؛ لأنها ليست من عبارات المصنف رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

ونحن أيضًا نختم هذا الشرح بدعاء كفارة المجلس؛ لما في ذلك من الصون والحفظ للعمل؛ فإن من عمل عملًا، أو قال قولًا، أو جلس مجلسًا؛ فختمه بدعاء ختم المجلس كان حسنًا؛ كما ورد في حديث عَائِشَةَ رَضِيَٱللَّهُعَنۡهَا قَالَتْ: مَا جَلَسَ رَسُولُ اللهِ صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ مَجْلِسًا قَطُّ، وَلَا تَلَا قُرْآنًا، وَلَا صَلَّى صَلَاةً إِلَّا خَتَمَ ذَلِكَ بِكَلِمَاتٍ قَالَتْ: فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ، أَرَاكَ مَا تَجْلِسُ مَجْلِسًا، وَلَا تَتْلُو قُرْآنًا، وَلَا تُصَلِّي صَلَاةً إِلَّا خَتَمْتَ بِهَؤُلَاءِ الْكَلِمَاتِ؟ قَالَ: **"نَعَمْ، مَنْ قَالَ خَيْرًا خُتِمَ لَهُ طَابَعٌ عَلَى ذَلِكَ الْخَيْرِ، وَمَنْ قَالَ شَرًّا كُنَّ لَهُ كَفَّارَةً: سُبْحَانَكَ وَبِحَمْدِكَ، لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ، أَسْتَغْفِرُكَ وَأَتُوبُ إِلَيْكَ"**

ونسأل الله تعالى الهداية والتوفيق والثبات على الدين والسنة حتّى الممات.

وصلى اللهم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، سُبْحَانَكَ وَبِحَمْدِكَ، لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ، أَسْتَغْفِرُكَ وَأَتُوبُ إِلَيْكَ.

تم بحمد الله

وكان الفراغ من مسودته الأولى مساء الثلاثاء بعد صلاة المغرب في مسجد عائشة المحري رحمها الله تعالى، وذلك في تاريخ ٣/ ١٢/ ١٤٤٢ من الهجرة، الموافق ١٣/ ٧/ ٢٠٢١م، في دولة الكويت حرسها الله تعالى، والله تعالى أسأل القبول، وأن يجعل ما قلته حجة لي لا علي، وأن يكون ذلك سببًا ووسيلة

للقربى والزلفى عنده، وسببًا لنشر التوحيد والسنة.

ثم أعدتُ النّظر فيه، وكان الانتهاء منه في مساء الأحد ٤/ ٠٣/ ١٤٤٣هـ الموافق ١٠/ ١٠/ ٢٠٢١م، في مسجد عائشة المحري، رحمنا الله تعالى وإياها، وإياكم، والحمدُ لله رب العالمين.